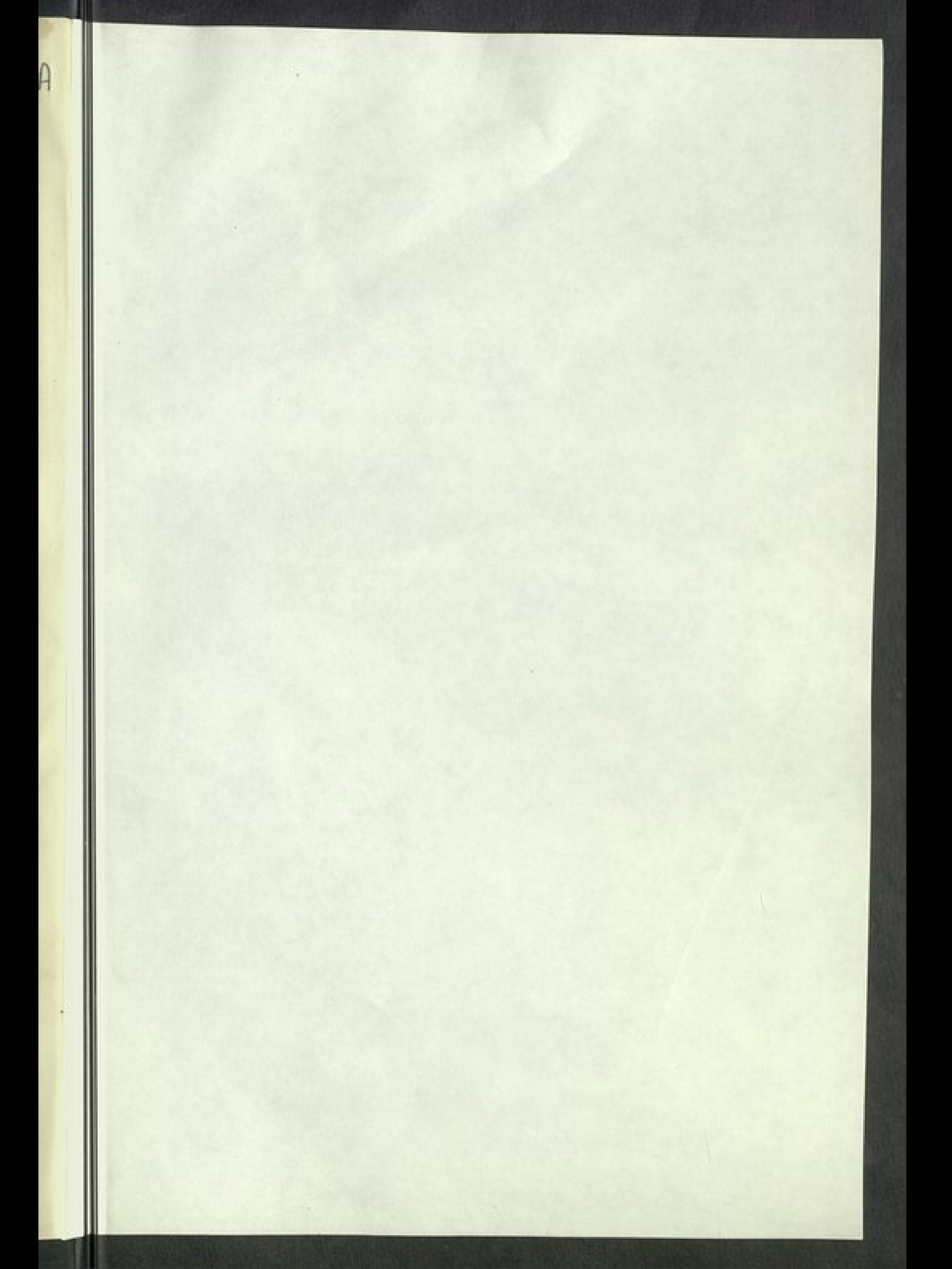






تأليف

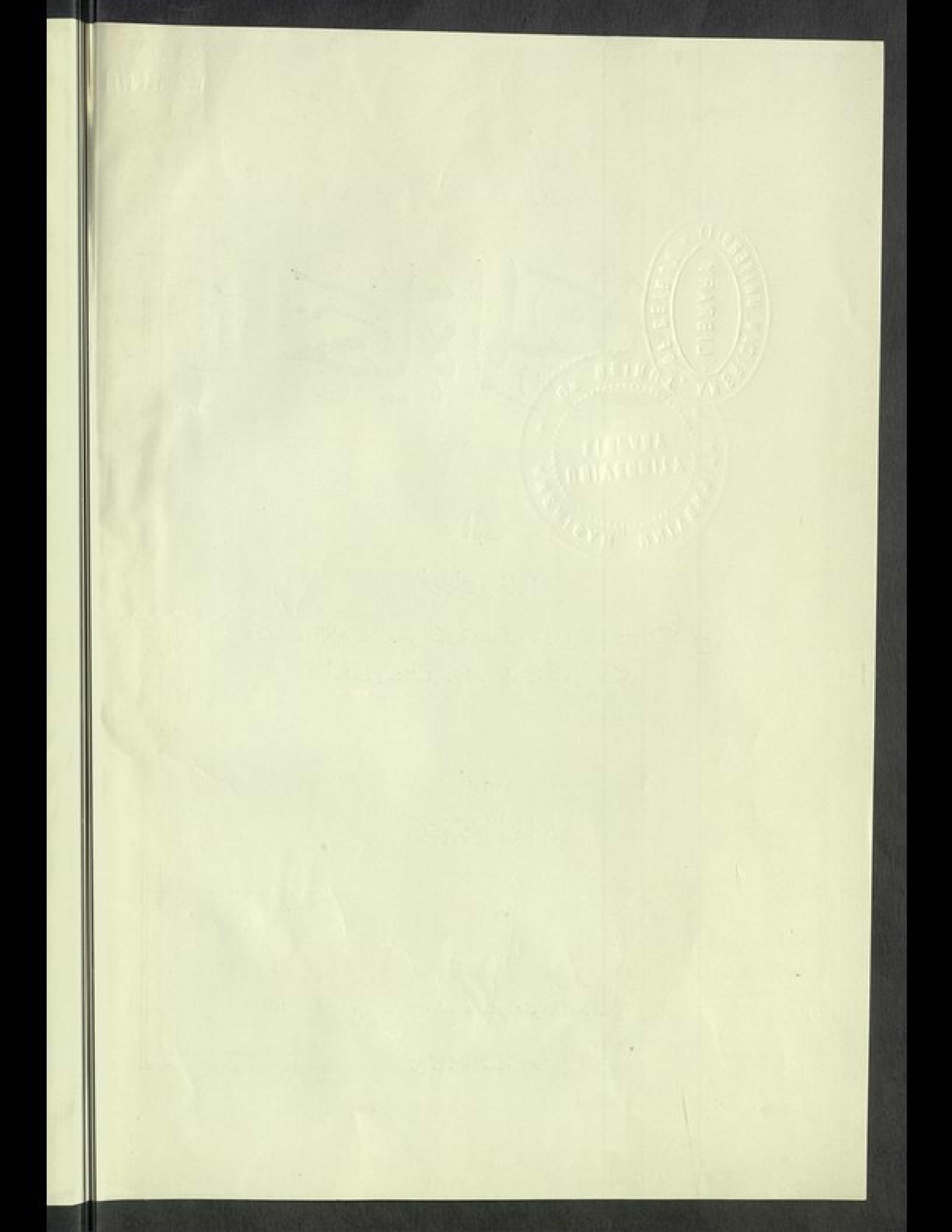
فردريك و. فارار

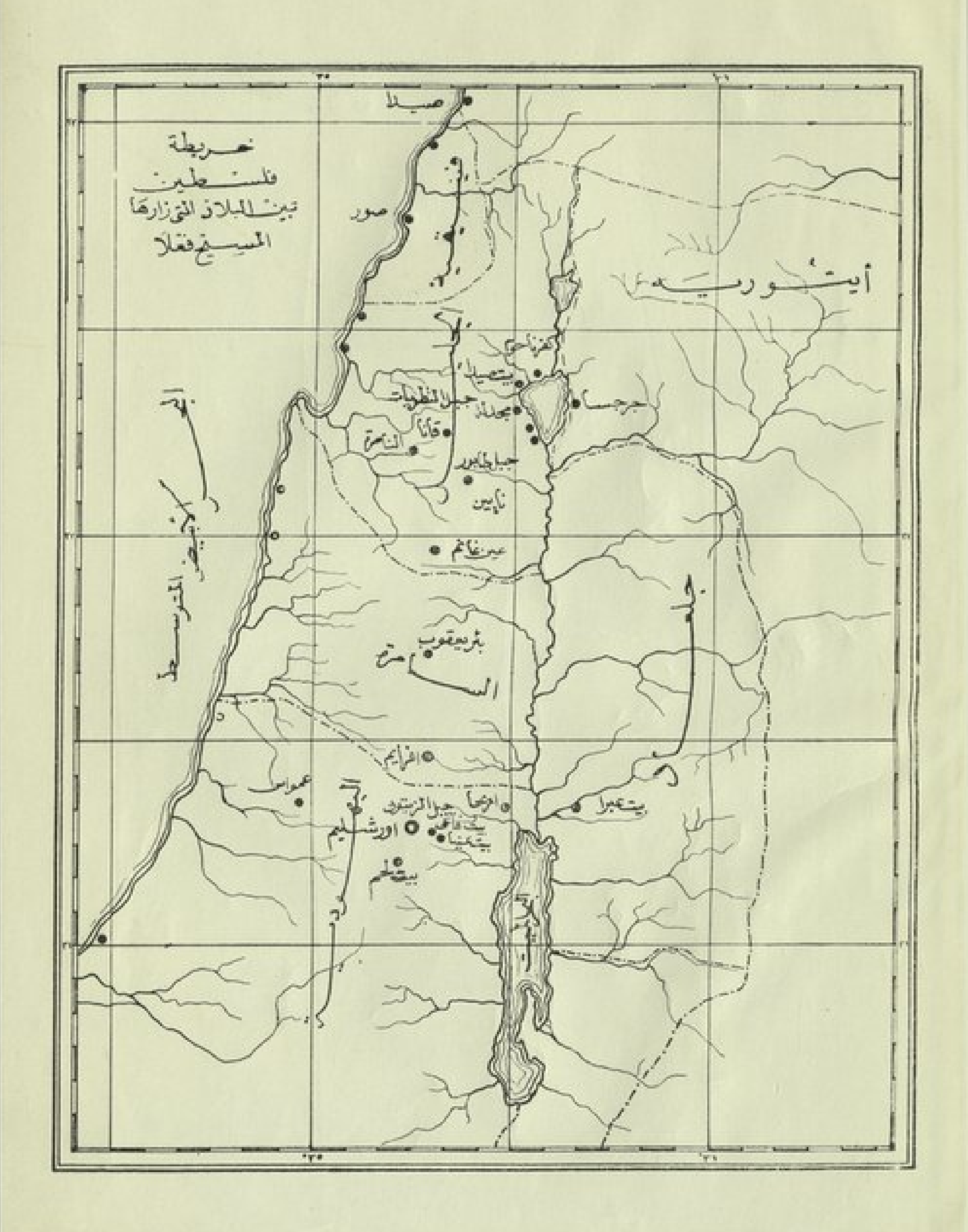
دكتور فى اللاهوت . عضو الكلية الملكية . زميل كلية الثالوث بكمبردج
أسقف وستمنستر . رئيس كنيسة القصر الملكى

تعريب

الدكتور جورجى يوسف عبداوى

طبع بمطبعة النيل بالمنصورة





خريطة
فلسطين
تبين البلاد التي زارها
المسيح فعلا
صيدا
صور
أيتورية
كفرناحوم
بيت صيدا
جبل التطويبات
مجدلا
قانا
الناصرة
جرجسا
جبل طابور
نايين
عين غانم
بئر يعقوب
افرايم
عمواس
اريحا
جبل الزيتون
اورشليم
بيت عنيا
بيت لحم
بيت عبرا
البحر المتوسط

باسم الآب والابن والروح القدس الاله الواحد آمين

تمهيد المعرب

« تذكارا للمحبة الأخوية العميقة » هذه هي الكلمات الرقيقة التي كتبها صديق الفاضل القمص ابراهيم لوقا على غلاف نسخة من كتاب حياة المسيح هذا ، تكرم باهدائها لى سنة ١٩١٦ . فراعتني حلاوة أسلوبه ، ودقة بحوثه ، والعناية الفائقة فى توخى الصدق فى كافة الأمور ، والاقرار بالعجز عن الوصول إلى كنه بعض الحقائق .

وفى سنة ١٩٢٩ أهدانى أحد جيرانى المستر ف. ربتون نسخة أخرى من ذات الكتاب واضحة الحروف ، ضافية الحواشى ، عكفت على مطالعتها بامعان ، فازدادت قيمة الكتاب فى نظرى من الوجهة العلمية اللاهوتية ، ومن الوجهة التقوية الروحية . وكان له تأثير فعال فى نفسى ، فصرت أطالع منه أجزاء متفرقة ، مرارا متعددة ، الحين بعد الآخر .

وفى سنة ١٩٣٢ حصلت بعد جهد على نسخة ثالثة ، شائقة ، مصورة - نفذت طبعتها - أوحت إلى فكرة تعريب الكتاب ، لافتقارنا إلى تاريخ مطول محقق عن المسيح ، يفصل حياته صحيحة ، جلية ، قريبة إلى الأذهان ، محببة إلى القلوب . ولكن كان يحول دون ذلك أمران . الأول شعورى بأنى لست أهلا للقيام بهذا العمل الخطير ، إذ أن موضوع هذا الكتاب أجل المواضيع وأسماها ، لأن الترجمة لا تؤدى المعنى الأصلى تماما فى قوته وجماله . الثانى ضيق الوقت .

وأشكر إلهى الذى ذلل العقبتين ، فأعطى [المعيي قوة ،ولعديم القدرة] كثر شدة ، وبارك فى الأويقات القصيرة التي استطعت أن أغتنمها بين فترات عملى ، وإن كان

عدم التفرغ قد أطال وقت التعريب إلى بضع سنوات ، كانت برهات الترجمة أسعدها بل كانت كل السنين موفقة ، مباركة بسببها . وقد فـــزت خلال ذلك بزيارة قصيرة للأراضى المقدسة لن يمحى أثرها .

وألفت النظر أن هذا الكتاب قد ألفه كاتبه أيام حكم الملكة فيكتوريا . ونشره فى انجلترا ، أى فى دولة مسيحية إبان مجـــد المسيحية . وقد فصل دوافعه ، وأغراضه ، ومراجعه فى المقدمة القيمة التالية ، فلا يفوت القارىء استيعابها تجلو له كثيرا من الغوامض .

وكان من توفيق الله أن راجع الكتاب معى قبل طبعه صديقى العزيز الأستاذ عياد عياد . فله ولجميع الذين شجعونى وعاونونى على انجازه ونشره فائق الشكر .

ويسرنى أن أنوه أن الآيات التى أوردتها فى الترجمة قد نقلتها عن النسخة القبطية . وعلى ما أعلم ، فهذا أول كتاب اتبـــع فيه هذا .

أسأل القدير أن يكون نفع هذا السفر الجليل عميما . وألا أكون قد تعبت فى تعريبه باطلا . بل يصير خيرا وبركة لكل من يطالعه ، وواسطة لتمجيد اسمه القدوس من أعماق النفـــوس ؟

المنصورة في ٧ مايو سنة ١٩٤٩

مقدمة للمؤلف

للقيام بواجب صعب وخطير كتأليف كتاب «حياة المسيح» أشعر أنه لا بد لى من ذكر الأسباب التى حدت بى للاضطلاع به، والمبادىء التى استرشدت بها حتى أتممته .

أولا : مقصد الناشرين لهذا الكتاب منذ زمن طويل اذاعة مزايا العلم إلى أقصى حد . ورغبة فى اتمام غرضهم أرادوا أن يضعوا بين أيدى قرائهم وصفا لحياة المسيح يساعد على تفهمها بأكثر وضوح، ويشرح حوادث الأنجيل وتتابع أخباره بتفصيل وتدقيق ولذلك لجأوا أولا إلى لاهوتى بارز قبل اقتراحهم، ولكن ترقيته إلى رتبة الأسقفية حالت دون اتمام مطلبهم .

ولهذه الظروف عرض على الأمر . فأحجمت أولا إذ شعرت أنني لو أوقفت كل أوقات فراغى طيلة حياتى لكان هذا الزمن غير كاف، وأن اقتدارا أعظم بكثير مما لى غير واف . ولكن حفزتني اعتبارات كان أقواها بلا شك ميلى العميق منذ البداية إلى هذا المشروع . فوافقت على القيام بهذا المجهود، عالما أنني أقدر على الأقل أن أعد بذل أقصى ما في وسعى، مؤمنا أن من يعمل أحسن ما فى مقدوره مع طلب بركة الله لمجهوده، يستحيل أن يبوء بالفشل .

وإنى لأشكر الله لقبولى مبدئيا أن آخذ على عاتقي هذا الواجب . لأنني - بالرغم من كل العقبات التى اعترضتنى - قد ثابرت حتى أتممته . فان كانت الصفحات التالية تؤدى على أى وجه الأغراض التى من أجلها يدون مثل هذا الكتاب، فيجب أن تملأ عقول الذين يطالعونها أفكارا مقدسة سامية، وتضيف ضوء الشمس إلى نور النهار، فتزيد السعيد غبطة، وتقوى المكدود، وتعزى المحزون، وتهدى الضعيف إلى نبع القوة الوحيد والحقيق .

ولكن سواء أدى هذا الكتاب إلى هذه الغايات المباركات ، أو قوبل بخشونة وعدم اكتراث ، فلن يقدر شيء أن يسلبني المسرة العميقة المستمرة التي شعرت بها في كل ساعة من الساعات التي قضيتها في تدوينه . بل أحيانا كثيرة - عندما كانت تمضي شهور دون أن أجد متسعا لكتابة سطر واحد ، إذ كانت واجبات هامة تتطلب جميع وقتي - في وسط هذه الاهتمامات المتصلة ، لم يمنعني شيء من أن أفكر في العمل الذي وضعت قلبي عليه ، وأن أجد فيه سلاما وفرحا يختلفان عن كل ما يمكن أن تمنحهما أو تمنعهما جميع الأمور الأخرى .

ثانيا : بعد أن أعددت نفسي قليلا لهذا العمل العظيم ، انتهزت أول فرصة وسافرت سنة ١٨٧٠ إلى فلسطين لزيارتها ولا سيما الأماكن التي ستظل تذكر أبد الدهر ما ذكرت أعمال يسوع على الأرض . وعندما وقفت في الأماكن التي اجتازها ، وفي الحقول المقدسة التي وطأتها قدماه الطاهرتان اللتان سمرتا منذ مئات السنين على الصليب المر لأجلنا ، ووقفت على العادات الثابتة التي تذكرنا - في كل كبيرة وصغيرة - بكيفية معيشته في أورشليم وجبل الزيتون وبيت لحم وبئر يعقوب وشاطىء بحر الجليل البهيج وساحل صور وصيدا - ساورتني أفكار جديدة ، ووضحت أمامي للمرة الأولى أشياء كثيرة وكأنها قد بعثت إلى الحياة بجلاء كامل لم أعهده من قبل . فرجعت عاقدا النية بعزم ثابت على أن أقص - بمساعدة ما وصلت إليه معرفتي بالمعلومات المتكدسة من قرون - حكاية الأنجيل على نمط يضمن على الأقل للجهلاء والبسطاء تفهم حياة ابن الله والظروف البشرية التي أحاطت به على الأرض .

ثالثا : بينما أقول هذا لأعفي الكتاب من الحكم عليه بمقياس خاطىء أو على ضوء أغراض غير التي أردتها منه ، فانه ادعاء أن أنكر أنه يحتوى على كثير من الأمور القيمة حتى عند العلماء . ومع أن صفحاته ليست مليئة بما هو عريق في اللوذعية ، فانها حافلة بالكثير مما حققه أو افتكره رجال لهم في العلم القدح المعلى . والكتب التي استعنت بها

تشمل مباحث رجال أتقياء كانت ميزتهم الخاصة أنهم كرسوا أحسن سني حياتهم - باجتهاد وبدون انقطاع - لدرس هذا الموضوع أو حتى جزء بسيط منه. فلا يمكن للحاصد - مهما كان ضعيفا - إلا أن يجني من هذه الحقول العامرة ولو قليلا مما يقدره المتخصص في اللاهوت، كما يستفيد منه غير المتبحر في الدرس. وإذ آمل من كل قلبي أن هذا الكتاب سيحوز قبول اخواني القسوس، أدخلت على الهوامش بعض الاقتباسات والشواهد النافعة التي قد تظهر للقارىء قليلة الأهمية. غير أنني احتطت كثيرا لكي لا أكون كسابح في لجة لا يعرف مداها. فظللت محتفظا بغرضي الأصلي وهو مساعدة الآلاف ليستمرئوا قراءة الكتاب الأوحد الذي إذا قيست به أعظم المؤلفات وأعمقها، ظهرت كأنها مقطوعات سخيفة أو شروح ناقصة مبهمة.

رابعا: من المهم أن يعرف القارىء تماما أن هذا الكتاب تأليف من يعترف جهارا أنه رجل مؤمن حقا. فالذي يبحث فيه ليجد نظريات جديدة عن لاهوت المسيح، أو عن معتقدات ركيكة مدهونة لاختلاطها بخرافات براقة كسحب قاتمة يتخللها شفق خيالي - فانما يبحث دون جدوى. فلم يكتب هذا الكتاب خصيصا للرد على ترهات الملحدين أو لصد هجمات القادحين، ولكنه يعنى فقط وبطريق غير مباشر بالشكوك الخطرة التي يقع فيها بعض الناس ضد ارادتهم ظانين أنهم يساقون - رغم أنوفهم - إلى انتقاد برىء.

إلى أمثال هؤلاء أجرؤ أن أصرح بيقين أنهم لو تتبعوا مطالعة هذا الكتاب بروح طيبة، سيجدون فيه - هنا وهناك - بحوثا قيمة نفيسة تحل لهم معضلاتهم، وترد على اعتراضاتهم الوهمية. ولو أنه قصد من هذا الكتاب الرد على المخالفين، لكتب على نمط جدلي وبغير الطريقة التي كتب بها. ومع ذلك فاني متأكد انه لو طالعه الغارق في الشكوك بروح الصدق وعدم الازدراء، فانه لا بد مستفيد. إني عالم أن مئات النقاد الهجاة قد شكوا في صحة الأناجيل لتوهمهم وجود متناقضات فيها. وإني -

بلا ريب - ملء بأمثال هذه الاعتراضات المحشوة بها مؤلفات مختلفة مثل كتب ستروس وريتان والسير هانسون وتوماس سكوت. غير أني لم أحاول - عن قصد - تفنيد أية مشكلة ظاهرة أو مبهمة ، بل اجتهدت دائماً أن أوضح الردود بهدوء ، واكتفيت بذكر أحاديث الأناجيل. فظهر أن هذه الاعتراضات ليس مما يصعب تذليله ، وأن كثيرا منها إنما تمليه روح مشاكسة قاسية أو تعصب أعمى .

خامسا : إن كانت ثمة مشكلات أعوص وأعمق من الانتقادات البريئة لم أعن ببحثها ، فلم يكن ذلك استخفافا بالحجج التي تسندها ، أو كرها لذكر الأسباب التي تجعلني أقول مع عشرات الألوف ممن هم أقدر مني وأجدر ، عن كل حقيقة من حقائق الايمان المسيحي ، أن الايمان لا يتبدل. وإذ أكتب كمؤمن لمؤمنين ، وكمسيحي لمسيحيين ، اعتقد انه يسمح لى - بعد مضى تسعة عشر جيلا - أن أقرر حادثة ما حصلت في حياة المسيح مستشهدا ببشارة يوحنا ، دون أن أضطر لتحرير مجلد عن أصلية وثبوت الأنجيل الرابع . وأعتقد انه يسمح لي أيضا أن اورد من الأنجيل إحدى العجائب دون ان ألتجىء لدحض كل الاحتجاجات التي قدمت ضد إمكانية حدوث ما هو خارق للطبيعة . لأنه بعد الجهود العظيمة ، والبراهين القوية ، والاستشهادات التاريخية ، التي تخصص لها كثير من العلماء الجدليين - أرى انه من غير الضرورى بل من المستحيل أن أعيد - فى كل مناسبة - الأصول الايمانية الأولى البدهية . أما عن انجيل يوحنا فلقد اكتفيت بذكر أبسط ملخص يثبت أن يوحنا هو الكاتب للسفر الذى يحمل اسمه . وسيجد القارىء فى ثنايا هذا الكتاب ما يثبت هذا الاعتقاد . وإني أصادق على ما يقوله إيوالد « ان كل البراهين المختلفة وكل المدونات فى كل زمان ومكان تجعل الشك فى هذا الموضوع جد مستحيل » .

كذلك لم أهمل بتاتا البراهين على امكانية حدوث العجائب وصدق أخبار الأنجيل ولو انني فى غنى عن ذكر شيء بخصوص هذه الأمور بعد أن أوضحت كل ما استطيع

من بيان الأصول التى يرتكز عليها ايمانى . هذه الملاحظة تنطبق على الاعتقاد الأعظم خطورة وهو ألوهية المسيح ، الأمر الذى أوفيته حقه فى المحاضرات التى ألقيتها سنة ١٨٧٠ فى جامعة كامـــبردج ونأيت فيها عن كل المسائل العويصة والمصطلحات المدرسية العميقة ، بل ضمنتها الحقائق الكتابية على بساطتها ، واجتهدت أن أوضح فيها ما أعتقد شخصيا بأنه أهم شهادات الغير عن إيماننا وهى « شهادة التاريخ عن المسيح »

إن الذين يرفضون اعتقاد الكنيسة بألوهية المسيح ، ينظرون إليه من وجهة تختلف تماما عن وجهة نظرنا . إنهم يطالعون الاصحاحات الأولى من انجيلى متى ولوقا ، ويدهشون من الذين يؤمنون بما جاء فيها . أو يسمعون عن احدى عجائب المسيح الفائقة القدرة ـ مثل المشى على بحر الجليل أو تحويل الماء إلى خمر ـ ولا يخفون ارتيابهم في صدق من يقبلون صحة هذه الأخبار . وربما إذا فحصنا نحن أيضا هذه الأمور بنفس الروح ونفس الطرق ، لاشتركنا معهم فيما يذهبون إليه . أما لماذا لا نقرب هذه الأمور مثلهم ، وما هى الأسباب التى تجعلنا لا نقربها على شاكلتهم ، فهذا أحد الأغراض الثانوية على الأقل لهذا الكتاب .

إن الناقد ـ وأرجو ألا أستعمل كلمة حنق أو حقد ضد أى نقد أعلم أنه أحيانا كثيرة ـ مقدم عن اخلاص ونبل ـ يقرب هذه المواضيع عن طريق مضاد تماما للطريق التي يقربها المؤمن . إنه ينظر لهذا الكون العظيم وقوانينه التى تبدو ثابتة لا تتغير ، ويخال أن هذه الخليقة نتيجة توليد ذاتى آلى من عناصر لا تتحول . ولدينا أن هذه النظرية لا تعقل أبدا . فالقوانين الطبيعية لا تدل عندنا إلا على وجود مبدع لهذه القوانين. «والطبيعة» ذلك التعبير الخيالى غير العلمى الذى نستعمله ونطلقه على مجمل مظاهر الوجود ، لا يدل عندنا إلا على الأعراض المرئية التى تشف عن القوة الالهية . ونحن نؤمن أن الله ـ خالق « الطبيعة » ـ قد أظهر لنا ذاته ، ان لم يكن بما أودعه فينا فطريا من الوجدان ، فبالاعلان المباشر لقلوبنا وضمائرنا . ولذلك فمثل تلك المعتقدات والعجائب التى ذكرتها ،

لا تظهر لنا عارية بمفردها دون ما يدعمها ، أو محيرة مدهشة في صعوبة فهمها ، بل تظهر لنا كأجزاء بسيطة من الايمان الكامن في أعماق نفوسنا . وكبعض صغير من ذلك الكل الكبير ، الالهى العجيب الفائق الذى يدخل تحت التعبيرين العظيمين « المعتقد المسيحى والعالم المسيحى » . وعليه ، فان كنا لا نعتبر عجائب المسيح وحدها أنها البرهان الدامغ على صحة ديانته ، فنحن لا نراها كذلك أحجار عثرة في سبيل الايمان به.

اننا ندرس كل الكتب التى تعتبرها ديانات العالم المعروفة انها كتب مقدسة ، ونحقق تأثير هذه الديانات على عقول أتباعها ، فبالرغم من المبادىء القويمة التى تشتمل عليها حتى الأردأ من الديانات ، نجدها تقصر جميعها عن أن تمنح البركات التى لا تحصر ، والتى ننعم بها من الصغر ونعتز بها كحياتنا ذاتها ، والتى هى نتيجة استقرار وانتشار الايمان المسيحى الذى نتمسك به . واننا نقرأ أيضا مؤلفات وأسفار الحكمة والفلسفة القديمة ورغما عما تزخر به من المبادىء النبيلة ، نراها تعجز تماما عن أن تعزى ، أو تقوي ، أو تخلص ، أو تجدد العالم . ولكن عندما بزغ وميض المسيحية كضياء الفجر يوم الربيع اللطيف ، بدد ظلام المسكونة الدامس الشامل . وبالرغم من أنه في بدئها قد ولدت في مهاد الضعف واعتنقها بسطاء العالم ، ولم يسندها مال ولا علم ولا دهاء ولا سلاح ولا شيء مما يجذب النفوس أو يخلبها - ديانة المنبوذين والمنفيين ، ديانة المشردين والمسجونين - ولم ينضم إليها عند نشأتها لا كثير من النبلاء ، ولا عديد من الفهماء ، ولا نفر من الأقوياء - بل دخل فيها أمثال سجان فيلبي وآبق كولوسي - وليس لها عون إلا ما جاء من الأعالى ، ولا نور إلا ما أضاء من السماء - بالرغم من كل هذا . هرب أمامها الملوك ، وخضعت لها الجيوش ، ونفثت فى العالم حياة جديدة ، ورجاء جديدا ، وقداسة جديدة غير مألوفة في دنيا أثيمة متدهورة . نرى هذا ، ونرى تأثيرها ينمو ويزداد ، ويقوى وينتشر برقة النسيم ، وبلطف مداعبة البحر للشاطىء ، وحينئذ نذكر النظرية الثاقبة التى فاه بها منذ نحو ألفي سنة ذلك الربى الطويل الأناة [... ان كان

هذا الرأى أو هذا العمل من الناس فسوف ينتقض ، وان كان من الله فلا تقدرون أن تنقضوه لئلا توجدوا محاربين لله أيضا] اع ٥ ، ٣٨ و ٣٩

وإذ أسفر بنا البحث عن أن الديانة المسيحية هى الوحيدة فى العالم التى أسست المثل الأعلى للطهارة الكاملة ، وجعلت فى متناول الجميع الوصول إلى هذا المثل ، ونالت القسط الأوفر من تعضيد الله ، فنحن نفحص حقائقها باحترام عميق . والسجل الذى فيه هذه الحقائق ، السجل الذى فيه التعاليم التى أذاعت تلك الحقائق فى العالم قاطبة ، هو أسفار البشائر التي تعلمنا أشياء أخرى كثيرة . إذ فضلا عن انها بينت لنا السر فى وجود وانتصار الايمان الذى به ندين ، فانها تبني داخلنا مبادىء تؤثر في قلوبنا وعقولنا بقوة ليست أقل من قوة السماء المزدهرة بالنجوم فوقنا ، أو الضمير الذى فينا ، وتعلمنا اننا أولاد الله ، وأننا اخوة لكافة البشر عامة . اننا أيضا نجد فى هذه البشائر اعلانا لله فى ابنه يساعدنا على معرفته أكثر ، والثقة به أتم ، وخدمته بأمانة أعظم ـ اعلانا لله أوضح مما في باقي الكتب المقدسة ، أو التاريخ ، أو تجارب الحياة ، أو رسائله غير المرئية المطبوعة على صفحات كل قلب . ولما نتحقق أن هذه الاعلانات قد كتبها رجال أمناء ، وانها مهما كانت مختصرة ، فقد طابقت تماما ما جاء في التاريخ فضلا عن انها موسومة بخاتم الصدق الكامل والبساطة الناصعة . ولما كنا مستعدين في الوقت نفسه أن نقبل بفرح اعلان محبة الله لخلاص البشر بما نتبينه من البراهين الدنيوية الخارجية ، واختبارات قلوبنا الداخلية ، فاننا لا نجد صعوبة إذا طالعنا في ذلك السجل أن الذى نؤمن به هو ابن الله الذى كانت حياته على الأرض أعجوبة خالدة لأنها الحياة الوحيدة الخالية من العيب المنزهة عن الدنس ، كما لا نجد صعوبة في أنه قد مشى على البحر أو حول الماء إلى خمر .

وإذا آمنا بصحة العجائب ، فانها تصبح لدينا دروسا أخلاقية عظيمة القيمة . إننا ننظر إليها بعين غير التى كان ينظر بها المؤمنون الأولون . كانت العجائب في نظرهم قوة عظيمة تدعم تعاليم السيد . كانت كختم الله على اعلان ملكوته الجديد . ولكننا نحن الذين

قد مضى علينا تسعة عشر جيلا ونحن أبناء المسيحية ـ في غنى عن شهادة وبرهان العجائب . كانت العجائب للرسل كوثيقة اعتماد ارسالية المسيح، أما لنا فهي دلائل جديدة على ارادته . العجائب عندنا أعمال أكثر منها علامات، وإعلانات أكثر منها انذارات. وقيمتها التاريخية عندنا أنه لولاها لما تأصلت ولا امتدت المسيحية . ونحن نركن إليها ليس للبرهنة على صحة المسيحية ، ولكن لتفهم الوسيلة التى ساعدت على انتشارها . ومع أن المسيحية قائمة على رضى من الله أكثر مما هى قائمة على اظهار القوات الفائقة للطبيعة، ومع أن القدرة التى حافظت على المسيحية مدة ألفي سنة أعجوبة أقوى في دلالتها من اقامة الميت وتفتيح عيني الأعمى ، فان الأيمان بهذه العجائب يساعدنا على حل بعض المسائل التى لولاها لبقيت دون حل ، ويساعدنا على تتبع تعاليم أخلاقية عظيمة لولا العجائب ما وجدت صورا توضحها . أما الذين يرفضون تصديق العجائب ، والذين يتوهمون أن الديانة التى أسست أخلاقا عالية وتقوى سماوية لم ير العالم مثلها قط انما ترتكز على أكاذيب أو أخطاء ـ فسيظل تاريخ العالم لهم لغزا لا يحل وأكذوبة غاشة ثائرة .

سادسا : إنى أعترف بعدم إمكانية التوفيق الكامل بين البشائر الأربعة من وجهة تاريخ الحوادث . فأى توفيق زمنى بينها يجوز أن تقدم ضده اعتراضات هامة . ولم يتفق كاتبان تماما على ترتيب واحد ، لأن التوقيت لم يذكر بالتفصيل فى البشائر إلى حد يمكن معه الوصول إلى ترتيب فاصل . لذلك كتبت أحيانا باسهاب وأحيانا بايجاز في تحديد بعض الأزمنة . فتحديد مدة كرازة المسيح مثلا ذكرته الماما . أما عند احتياج الأمر لايضاح الأسباب القوية التى تدعو لاختيار رأى دون آخر في نقطة عظم فيها الاختلاف ـ مثل العيد الذى ألمح إليه يوحنا في ص ٥ : ١ ـ فقد عالجت المسألة باسهاب يتناسب مع حجم الكتاب ، واجتهدت أن أضع بين يدى القارىء الحجج البينة والأسباب التى بنى عليها القرار . ولكني وجدت من العبث واللغو أن أحشو صفحات عديدة بذكر الاختلافات القائمة على مبحث كمالى . فهذا ـ فضلا عن أنه عقيم وغير مجد ـ فانه لا يؤدى

إلى نتيجة حاسمة . لذلك عندما نقرر ترتيب بعض حوادث حياة المسيح ، يمكن أن نقول فقط إن هذا الأمر « مرجح » ، وليس في مقدورنا أن نقول بأى حال انه « محقق » . وفي كل مسألة من هذه المسائل قد بحثت كل المعلومات بنفسى فى دراسة مطولة ، ثم لخصتها فى سطور قليلة ، وأحيانا فى اشارة عرضية . وجاء ترتيبي للحوادث مطابقا إلى حد ما لترتيب « ستير » و « لانج » . وإنى مدين للعمل العظيم الذى أتمه لانج فى هذا ، وفى وصف بعض مشاهد أومأت إليها فى مواضعها ـ أكثر من كل العلماء الذين درسوا هذا الموضوع . وإذ كان من المستحيل على مؤلف ـ يكتب من بنات أفكاره مما حصله من الدراسات المختلفة التى قام بها أثناء بحثه ـ تخصيص الشكر ، فقد أرجعت الفضل لذويه كلما تمكنت من الاشارة إلى المراجع التى اقتبست منها ولا سيما من كتب : إيوالد . ونيندر . وشينكل . وستروس . وهيس . وسب . وستير . وايرارد . ووزل . وهوفان . وكيم . وكسبارى . وأولمان . وديلتزتش . ودي برزنس . ووالون . وديبانلوب . وكايسبلبارو . واليكوت . ويونج . وأندرو . ووردسورث . والفورد . وغيرهم ، وأيضا من الكتاب القدماء مثل بونافيتيورا وجرمى تايلور . كذلك قد اقتبست بعض الاستنارات من مختلف كتب علم طبقات الأرض وكتب تقويم البلدان وأخبار الأسفار من أول الكتب القديمة مثل التى لأنتيبيارس وريلاند إلى أحدث الكتب مثل التى لتومسون وديكسون .

سابعا : انني فى غنى عن أن أذكر أن جميع هذا الكتاب تقريبا هو نتيجة درسى الشخصى للبشائر الأربعة جنبا إلى جنب . وعندما استشهدت بآيات منها كنت ، دائما ، وعن قصد ، أنأى عن الترجمة وأنقلها من اللغة الأصلية . (١) لأن غرضى الأكبر أن أوضح الحوادث وأصفها مثل الذين عاينوها . فالتفصيلات المتقنة للحوادث ودقة إعادة

---

(١) المعرب : قد نهجت نفس الطريق ونقلت كل الآيات التى من البشائر من الطبعة القبطية العربية المطبوعة سنة ١٩٣٥ .

تصويرها بالتالى ، تتوقف لدرجة ليست بالقليلة على استكشاف النص الأصلى والمراعاة الدقيقة للاستعمال الحقيقى للكلمات والمقاطع والحروف . لكن لا يجب أن يخطر على البال ، لحظة ، اننى استشهد بالنص الأصلى لأنه أضبط أو أفضل من الترجمة ، ولكن لأننى واضع نصب عينى دائما أن أصور الحوادث بالوضوح والقوة كما فى الأصل اليونانى. كذلك يرى القارىء اننى قد تخيرت لزيادة الايضاح كل ما هو قيم وموثوق بصحته من تاريخ يوسيفوس والأبوكريفا والتفصيلات التقليدية الواردة فى كتابات الآباء .

ثامنا : قد يعجب المطالع لكثرة اقتباسى من المصادر اليهودية . وبدون أن يركب المرء بحر التلمود كما يقول الربيون أنفسهم ـ وقد يستغرق هذا طول العمر ـ سيجد المطالع مادة غزيرة وربما كل المادة اللازمة لايضاح تواريخ الانجيل ، ليس فى كتابات المسيحيين فقط ، بل أيضا فى كتابات الربيين العلماء الصادقين، وليس فقط فى المؤلفات المعروفةمثل كتب ليتفوت ، وستونجين،وسيرنهوسيوس، وواجنسيل، وبكستورف، واتوهو ، وريلاند ، وبورياس ، وجروفر ، وهزفيلد ، وماكول ، واتريدج ، ولكن أيضا في مؤلفات اليهود دينا أو مولدا أو كليهما أمثال جيجر ، وجوست ، وجراتس ، وديرنبورج ، ومونك ، وفرانكل ، وديومسن ، ورافال ، وشواب ، وكوهين ، إذ يجد فيها المطالع منتخبات كثيرة من الكتب الأصلية جمعت،إما بدافع العداء للمسيحية ، أو بدافع الاحترام والاعجاب بها . والمطالع ـ الذي له وقت وصبر ـ لكتاب المشنة بالترجمة اللاتينية لسيرنهوسيوس ، يمكنه بعد ذلك الحكم على بعض المؤلفات الكبرى مثل الغمارة كما جاءت فى الترجمة الفرنسية مثل ترجمة البراشوات لمويزشواب . أما عن نفسى فقد اطلعت على كل المؤلفات السابق ذكرها وخرجت منها بمعلومات كثيرة ظهرت لى جمة النفع . بل ان فحصى لها قد أضاء بعض نواحى البشائر ، وأدى بى إلى نتائج جديدة على ما أعلم . ولقد بينت في الجزء الثانى من خاتمة الكتاب انه لا يوجد شىء مطلقا ذا أهمية ، ولو بسيطة ، يستفاد من التلمود بالنسبة للمسيح نفسه . ولكن فائدة

مطالعة كتب الربيين ، فائدة غير مباشرة وأهميتها لتواريخها وليست لمباحثها . وأعظم ما فيها هو النور الذى تبعثه شهادة على أمانة البشيرين . وهذه الشهادة لها فضلها وقيمتها لأنها من مصدر عدائى تستبعد منه الشهادة .

تاسعا : إن ظهر في أى جزء من هذا الكتاب انني خالفت الوصية الالهية الآمرة بالتسامح ، فأنى أسأله تعالى الصفح والغفران . وحسبي انه ، ان كان في بعض صفحاته أثر للخشونة أو الغلظة ، فانني ما وجهتها ضد الأشخاص ولكن ضد المبادىء والمعتقدات ، أو أحيانا ضد بعض الرجال أو نوع منهم كانوا هم المسئولين فى العصور الأولى عن هذه المعتقدات. وقد يقع هذا الكتاب في يد مطالع يهودى فله خصيصا أسوق هذه الملاحظة : انى اعتقد أن اليهودى قد ابتدأ منذ زمن طويل أن ينظر بعين المحبة والاحترام لذاك الذى رفضه آباؤهم . بل أعتقد أكثر من هذا ، أن عددا منهم بعد أن أقنعهم منطق التاريخ الذى لا يدحض ، قد اعترفوا جهارا أنه كان حقا المسيا المنتظر ، ولو أنهم لا يقبلون الاعتقاد بألوهيته . وإنى لأجد فى كتابات كثيرين من اليهود المتأخرين ، انهم قد ترفعوا عن نعته بصفات الكراهية الموجودة فى التلمود ، واعترفوا صراحة أن يسوع كان - على أى حال - أعظم معلم دينى ، وأعلى وأنبل نبي أنجبته أمتهم . ولذلك هم آخر من يدافع عن أعظم جناية ارتكبت فى التاريخ وهى صلب ابن الله . وإذ لا يحل لأي مسيحى أن يضع على اليهود الحاليين عقاب وزر آبائهم ، كذلك يجب على اليهود أن يكفوا عن اتهام مسيحي هذه الأيام بكراهيتهم . إن المسيحيين لا ينظرون بكره إلا إلى التعذيبات الطويلة ، الشنيعة ، المريعة التى أملتها الجهالة والقساوة القديمة التى ملكت أمتهم العظيمة النبيلة . ونحن نؤمن باتضاع أن اليوم قريب عندما يهدم ذاك الذي صلبه اليهود الحائط الحاجز الفاصل ، ويجعل الاثنين واحدا فى الدين والقلب والحياة ، ويصالح الآري مع السامى ، واليهودي مع الأممى ، ويتصافح الجميع لتمجيد الله وتطهير العالم .

عاشرا : بقى واجب واحد محبب إلى نفسي وهو شكر اخوانى الذين أولونى

مساعداتهم القيمة وعطفهم ، والذين احتفلوا بإتمام كتابى بتذكارات مفرحة أو هدايا . فأقدم أولا خالص الشكر القلبى إلى صديقى مستر مورنو عضو كلية اللاهوت بكامبردج ومستر جارنت الموظف بالمتحف البريطانى ، فقد منحانى من وقتهما ورعايتهما ما جعلنى مدينا لكرمهما الفائق العديم الأثرة . وجعلنى أتمادى طمعا فى لطفهما للدرجة التى يستحيل على أن أكافئهما بمثلها . كذلك أشكر تلميذى القديم مستر بويد خريج كلية بارسينوز باكسفورد إذ تكرم بعمل جدول المحتويات . وأشكر أيضا البروفسور بلمتور والمستر جروف ليس فقط للاهتمام الشديد الذى أظهراه نحو كتابى ، ولكن أيضا لمقترحاتهما الثمينة التى قدماها لى . كذلك أشكر آخرين كثيرين لم أذكر أسماءهم ، وأعتقد أنهم يشعرون بدون تأكيد منى أن ذلك ليس نكرانا لجميل المساعدات الجمة التى أدوها لى . وأخيرا أقدم أحسن واجبات الشكر للقس شور الذى لولا تشجيعه الفائق ما كنت أقدمت على تأليف هذا الكتاب . وشكرى أيضا لكل الذين تعبوا فى انجاز طبعه .

والآن أقدم هذا الكتاب غير عالم ما يكون نصيبه ، رافعا صلوات حارة أن يكون وسيلة للبركة وانتشار الحق والبر . وأسأل ذاك الذى كتب على اسمه أن يرحمنى ، ويغفر لى من فضله إن كنت قد أخطأت فى شىء منه ، وأن يمنحنى من حكمته حكمة ؟

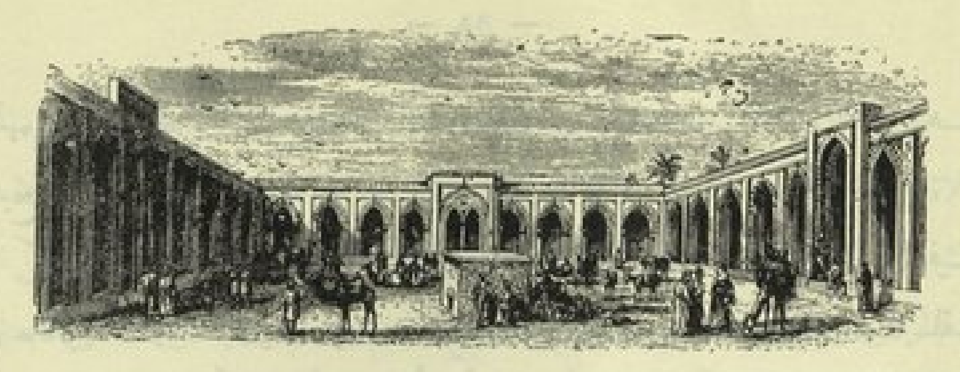
كلية مارلبورة . الاثنين السابق لعيد الصعود سنة ١٨٧٤

الفصل الأول

[illegible]

[illegible]

[illegible]



خان شرق

الفصل الأول

الميلاد

"تجسد حتى يجعلنا شركاء الطبيعة الالهية"

أثناسيوس

على مسافة ميل من بيت لحم يوجد منبسط صغير فيه - تحت حقل من شجر الزيتون - كنيسة بسيطة مهملة تعرف باسم "كنيسة الملاك والرعاة" (١) بنيت فى نفس المكان المظنون أنه هو الذى عناه لوقا البشير بلغته العذبة التى تقع على أذن المسيحى أشجى من أى لحن [كان فى تلك الناحية رعاة يرعون فى الحقل ويسهرون على رعيتهم فى حراسات الليل وإذا بملاك الرب قد وقف بهم ومجد الرب أضاء عليهم] (٢) وسمعت

١ - بالقرب من هذا المكان قام فى القديم برج اسمه (مجدل عدر) أو (برج القطيع) تك٣٥:٢١ والكنيسة البسيطة الموجودة الآن ربما كانت جزءا من الكنيسة العظيمة التى بنتها الملكة هيلانة وقد ذكر (برج القطيع) و (بيت لحم) ميخا النبي فى معرض الرجاء عن مجيء المسيا مى٤:٨و٥:٢ ويقول ايرينيموس - الذى كانت آراؤه شائعة فى أيامه - عن هذه النبوة : ان اسمها ذاته تنبؤ قديم عن وجود الرعاة عند ميلاد ربنا .

٢ - (مجد الرب) لو٢:٩ غالبا يعنى الشكيناه ، أو سحابة النور التى ترمز إلى حضرة الله ، أو (السكينة)

آذانهم السعيدة بشرى الفرح العظيم أنه ولد لهم اليوم [في مدينة داود مخلص هو المسيح الرب]

كل ما أحاط بميلاد المسيح ربنا كان وضيعا . بل ان ذات المكان الذى ولد فيه كان حافلا بتذكارات الفقر والحرمان . حقيقة إن السماء قد انفتحت في هذه الليلة ، وأرسلت جوقة الملائكة المرنمين ، وكأنها أيضا قد رسمت لنا - مع النجوم التى تلمع ، والماشية التى ترعى ، والنور والصوت في الظلام والسكون ، ومسرة القلوب الأمينة - صورة علوية ذات ألوان سماوية . ولكن الآيات القصيرة التى كتبها البشير ، والتى تهز العاطفة ، تخبرنا أن هذه الأغانى الملائكية لم يسمعها أحد سوى رعاة قرية صغيرة ساهرين - تحت الندى فى ليل شتاء قارس - يحرسون غنمهم من الذئاب واللصوص وسط الحقول التى وطأتها فى القديم راعوث جدة مخلصهم وهى كسيرة القلب تجمع فلول الحنطة ، والتى فيها رعى داود - الابن الأصغر والمحتقر فى عائلة كبارة - غنمه الصغار مع الكبار [مز ٧٨ : ٧١]

وأضاف البشير الوحيد الذى سجل حوادث تلك الليلة الخالدة التى ولد فيها المسيح ، والتى مرت دون اكتراث العالم الغافل عن مخلصه : [وبغتة كان مع الملاك جمهور من جند السماء يسبحون الله قائلين المجد لله في الأعالى وعلى الأرض السلام للناس الذين بهم المسرة] (١) لو ٢ : ١٤

---

١ - الترجمة الشائعة هى (المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة) غير أن القراءة الواردة فى أقدم النسخ مثل 8 ، ا ، ب ، د ، وكذلك فى نسخ ايتالا وفلجات ، ونسخ اليسوعيين ، هى :

المجد لله *** فى الأعالى

والسلام للناس الذين بهم المسرة *** على الأرض . وهى أقرب القراءات إلى توقيع الألحان . وقد ورد أيضا الجزء الأخير من هذه الآية فى بعض الترجمات هكذا : (الناس الذين سر الله بهم)

وإذ أننى أستشهد كثيرا بالنص اليونانى ، فيجدر بالمطالع أن يلاحظ أننى سأرمز للنسخ المستشهد بها بالعلامات الآتية :ـ

8 : النسخة السينية الموجودة ببطرسبورج والتى اكتشفها تشندروف سنة ١٨٤٤

ولقد كان المنتظر من المسيحيين الأتقياء أن يخلدوا هذه البقعة بإقامة تذكارات فخمة محلاة بنقوش الفسيفساء والرخام كما في بعض الكنائس العظيمة ، ولكن - بدلا من ذلك - فكنيسة الملاك والرعاة عبارة عن قبو أجرد مهمل . وعندما ينزل الزائر من غابة أشجار الزيتون إلى هذا القبو المظلم على الدرج المتهدم،يصعب أن يحمل نفسه على الاعتقاد بأنه في مكان مقدس.ولكن يظهر أن اتفاقا غير مقصود أدى إلى هذا الاهمال، فجعل فقر هذه الكنيسة يتناسب مع فقر أولئك الذين بنيت تذكارا لرؤياهم السموية المضيئة (١)

[ولما انصرفت عنهم الملائكة إلى السماء قال الرعاة بعضهم لبعض لنمض إلى بيت لحم (٢) وننظر هذا الخبر الواقع الذي أعلننا به الرب] وعندما انتهت أناشيد الملائكة التي كانت ترن في الفضاء المتلألىء بالنجوم اللامعة ، قام الرعاة ، وكان لا بد لهم أن يجتازوا التل المتصعد ، ثم بساتين بيت لحم - على ضوء القمر - حتى يصلوا إلى قمة

(تابع) وترجع أقدميتها للجيل الرابع .

المعرب : نقلت النسخة السينية إلى المتحف البريطاني حوالى سنة ١٩٣٥ .

ا : النسخة الاسكندرية الموجودة بالمتحف البريطاني وترجع أقدميتها إلى منتصف الجيل الخامس
ب: النسخة الفاتيكانية المحفوظة بالفاتيكان وترجع أقدميتها إلى منتصف الجيل الرابع .
ج: النسخة الافرائمية الموجودة بالمكتبة الأميرية بباريس وترجع أقدميتها إلى الجيل الخامس.
د : النسخة البيزية الموجودة بمكتبة جامعة كمبردج وترجع أقدميتها إلى الجيل السابع .
هـ : النسخة الباسيلية وترجع أقدميتها إلى حوالى الجيل الثامن .
و : النسخة البوريلية بأوترخت .
ز : النسخة التي لرجيوس بارسينوس وترجع أقدميتها إلى الجيل الثامن.

ولن أستشهد بنسخ بعد هذا التاريخ .

١ - المعرب : بنيت على هذه البقعة كنائس غاية في الفخامة والاسراف مزينة بالتحف الذهبية وهدايا الملوك . ولقد أسفت إذ تغيرت المشاهد الأصلية البسيطة إلى مظاهر صناعية مبهرجة . وشعرت أنه لو كانت تلك البقعة القديمة قد تركت على بساطتها ، أو لم يغالوا في بهرجتها لكانت رهبتها في القلوب أعمق وتأثيرها في النفوس أشد .

٢ - أي بيت الخبز .. أكرر أنني أستشهد بالأصل اليوناني.(المعرب: وأكرر أنني أنقل عن القبطية)

الأخدود الرمادى الذى بنيت فوقه تلك البلدة الصغيرة .

وعلى هذه القمة بنى خان القرية الذي لم يكن يختلف كثيرا فى تلك الأيام عما يشاهد للآن فى فلسطين ، لا فى منظره ولا فيما به من وسائل الراحة (١) أى عبارة عن بناء وطيء من الحجارة الخامة يتألف من طابق واحد به فناء مربع متسع ، تربط فيه الماشية لضمان سلامتها ليلا . ويحتوي أيضا على سقيفة يستريح تحتها المسافرون (٢) . وأرض تلك السقيفة مرصوفة بالحجارة ، ومرتفعة قدما أو قدمين عن مستوى الفناء وتسمى الليوان . أما إذا كان الخان كبيرا ـ مثل خان منية الذى لا زالت بقاياه الخربة ترى على ساحل بحر الجليل ـ فانه يحتوى على كثير من هذه السقيفات ، أى ما يشابه غرفا عديدة صغيرة بغير حائط أمامى . ولذا فان كل شيء في الخان منظور ومكشوف . وكل ما يجرى فيه يراه جميع المقيمين به . وهو ـ عادة ـ خال من الأثاث حتى الضرورى . وقد يحضر المسافر معه سجادته الخاصة ، يتربع عليها وقت الغذاء أو يفترشها أثناء النوم . وهو الذى يتولى أمر طعامه ، ويعتنى بماشيته ، ويستقى بنفسه من العين المجاورة ، ولا ينتظر أن يجد فى الخان خدما إذ هو فى غنى عنهم . وهو يدفع أجرا يسيرا مقابل السقف الذى يأويه ، والمكان الذى يحتويه ، والأمان الذى يتمتع به . وإذا اتفق أن حضر المسافر متأخرا ـ بعد أن يكون قد احتل الايوانات مسافرون تقدموه ـ فعليه أن يرضخ ويكتفي بركن من الفناء القذر تشاركه فيه الخيل والجمال والبغال ، ويجتهد في تنظيفه جهد طاقته . وعلى المسافر أن يحتمل ضيق المكان ، ورائحة الحيوانات المزاحمة ، والقش الذى

---

١ ـ المعرب : هذا ما شاهده المؤلف سنة ١٨٧٠ . أما الآن فتوجد فى فلسطين فنادق فخمة .

٢ ـ يقول طومسون : فى بعض الأحيان تقسم السقيفة إلى قسمين ـ أحدهما يشغله الرجل وماشيته ـ وثانيهما وهو غالبا مرتفع قليلا ، يخصص لأسرته . والليوان تحريف كلمة الايوان على ما أعتقد . ويطلق على أى مكان مرتفع للجلوس (المعرب : لا زالت كلمة الليوان شائعة فى بعض جهات مصر) . يفرق بعض المفسرين بين " المنزل " (لو ٢:٧) وبين "الفندق" (لو ١٠:٣٤) ولكن كلاهما واحد غير أن المنزل غالبا ما يكون مجانا لا يتقاضى صاحبه أجراً .

يوضع تحتها ، وتطفل الكلاب البرية ، ومجاورة أحط الطبقات ممن يصحبون القوافل ، وغير ذلك من الأشياء التي لا يدركها إلا من تجول في هذه الأماكن وقاسى مثل هذه المتاعب .

وليس من النادر في فلسطين أن يكون الخان جميعه ـ أو على الأقل الجزء الذي تبيت فيه الحيوانات ـ احدى المغارات التي يكثر وجودها في التلال الجيرية . والظاهر أن هذا ما كان في بيت لحم ـ الصغري في أفرانه اليهودية . ويقرر جوستان مارتير (١) ـ الذى ولد في شكيم فشب خبيرا بفلسطين ، والذى عاش في الجيل الأول بعد الميلاد ـ أن مولد المسيح قد تم في إحدى هذه المغارات أو الكهوف . وهذا هو التقليد القديم في جميع الكنائس الشرقية والغربية . وهو أيضا إحدي الحقائق القليلة التي ، وإن لم تكن مسجلة في الانجيل ، إلا أنها مرجحة . وفوق هذه المغارة شيدت كنيسة الميلاد (٢) والدير الذى عرف باسمها . وفي مغارة ملاصقة مكث أحد آباء الكنيسة وهو القديس الطاهر العظيم جيروم (إيرينيموس) العالم القدير والخطيب المفوه والذى نحن مدينون له بالترجمة اللاتينية للانجيل ـ مكث الثلاثين سنة الأخيرة من حياته في الدرس والصوم والصلاة (٣) .

ونزل يوسف ـ نجار القرية ـ مع خطيبته العذراء مريم من موطنهما الناصرة في جبال زبولون وشقا طريقهما في الطرق الموحلة . ومع فقرهما ، كان كلاهما من بيت ونسل

١ ـ ولد جوستان مارتير في فلافيا نيابوليس سنة ١٠٣ ميلادية ومات سنة ١٦٦ وكتب أولى رسائله حوالى سنة ١٣٨ .

٢ ـ من المستحيل أن يقف الانسان في كنيسة الميلاد دون أن تهتز مشاعره وهو يتطلع إلى النجمة الفضية المطعمة في الرخام الأبيض وحواليها ستة عشر قنديلا تضيء ليلا ونهارا ، ومحاطة بكتابة لاتينية ترجمتها " هنا ولد يسوع المسيح من العذراء مريم " .

٣ ـ سكن إيرينيموس بيت لحم سنة ٣٨٦ م حتى مات سنة ٤٢٠ . وكتاباته عن قداسة هذه البقعة الطاهرة مؤثرة جدا . وقد قصرت الترقيات الدينية والعلاوات المالية عن أن تجتذبه إلى أى مكان آخر .

داود ـ فسارا رحلة (١) تقرب من الثمانين ميلا ليصلا إلى القرية التى كانت مقر جدهما العظيم عندما كان غلاما أشعث يرعى الغنم ويسوقها فوق التلال الموحشة . وكان الغرض من هذه الرحلة المتعبة ـ التى تتنافر وعادات الحياة الهادئة فى الشرق ـ أن يسجلا اسميهما فى بيت لحم لكونهما من بيت داود وعشيرته . وقد أصدر أمر هذا الاكتتاب (٢) أوغسطس قيصر . وفى الحالة السياسية التى كانت عليها الامبراطورية الرومانية ـ وكانت اليهودية جزءا منها حينذاك ـ كان مجرد الهمس من الامبراطور كافيا لجعل أوامره نافذة فى كل أقطار المسكونة . وقد ابتدأ هذا الاكتتاب فى أيام بوبليوس سوبليسبوس (٣)

١ ـ لا يمكن الفصل فيما إذا كانت رحلة العذراء مع يوسف اضطرارية أم اختيارية . ولكن الأمر الأول هو الأرجح لأن النساء كن خاضعات لفرض الضرائب عليهن . ولكن حتى لو لم يكن سفرها اضطراريا ، فمن السهل أن نتصور أن مريم ماكانت تود البقاء وحدها . فالريبة القاسية التى وجهت إليها والتى وصلت إلى درجة كاد فيها خطيبها أن يتخلى عنها مت ١ : ١٩ ـ تجعلها تتمسك برعايته وتأبى مفارقته .

٢ ـ يظن البعض أنه من المستحيل اجراء اكتتاب فى مملكة مستقلة يحكمها أمير مستقل ، ولكن اكتتاب كيلانى يماثل هذا تماما . واتبع هيرودس فى الاكتتاب شريعة اليهود أى حسب منشأ كل عائلة وليس حسب اقامة كل فرد كما هو المتبع فى الاكتتابات الرومانية . وهذه الطريقة وإن كانت تتعب أكثر ، ولكنها كانت تسيء إلى اليهود أقل . والمعروف أن أوغسطس قيصر أمر بهذه المأمورية الشاقة لأنه أراد أن ينشيء سجلا للمملكة ومستعمراتها . ولكن غير معروف إن كان هذا الاكتتاب قد أدى إلى هياج وثورة كما حدث بعد عشر سنوات . وانما المؤكد أن اليهود كانوا يتأثرون للغاية من العار الذى يتحملونه من جراء الاكتتابات الوثنية . وليس أدل على هذا من التعليق الذى كتبه الحاخام يوناثان عما ورد فى حبقوق (ينقطع الغنم من الحظيرة ولا بقر فى المذاود حب ١٣ : ١٧) إذ يقول : وينقطع الرومان ولا نجبى ضرائب من أوروشليم .

٣ ـ كان كيرينوس من أصل وضيع . رفعه طمعه وجشعه واخلاصه لاوغسطس قيصر إلى منصب الولاية . ولقد أشار كتاب الانكيرانيوم إلى ثلاثة اكتتابات . وذكر استرابو أن الاكتتابات الرومانية متعددة . وأثبت راميت دقة الصحة التاريخية التى ذكرها لوقا البشير عن هذا الاكتتاب الأول بعد بحث مطول برهن فيه على أن كيرينوس هذا عين واليا على سورية مرتين من سنة ٧٥٠ رومانية إلى سنة ٧٥٣ ومن سنة ٧٦٠ إلى سنة ٧٦٥ . فكان فى الولاية من سنة ٤ ق . م إلى سنة ١ ق . م (ترتليان ، وجوستان ، وثير ، وموسيس ، وستروس ، وويزلر) .



بيت لحم ـ منظر كنيسة الملاك والدير

كيرينوس الذى كان واليا على سوريه ، وانتهى فى عهد ولايته الثانية عليها . وأجراه كيرينوس حسب تقاليد اليهود التى إن كان قد انحرف عنها مثقال ذرة ، لرفعوا راية العصيان والثورة الجامحة . فجرى هذا الاكتتاب ليس حسب العرف الرومانى ـ أى أن كل امرىء فى مكان سكناه ـ بل حسب العادة اليهودية أى فى المكان الذى نبتت فيه عائلته . وكان اليهود ولا يزالون يتمسكون بالأنساب والانتماء إلى الأسباط وإن كانت قد انقرضت منذ زمن طويل .

ومع أن الرحلة كانت متعبة ومكروهة ، إلا أنها كانت مريحة لذهن يوسف إذ سيعترف بنسبه الملوكى رسميا ، وربما أيضا لأنها ضاعفت فى داخله نور الرجاء بمجىء المسيا إذ كان هو الشخص الوحيد المطلع على الظروف المحيطة بالعذراء (١) .

---

١ ـ يظهر أن يوسف كان يعلم وحده هذه الأمور كما يتضح من مت١:١٩ (لم يرد أن يشهرها) والعدد ٢٠ يدل على أن هذه النية استمرت عنده حتى أعلن له الملاك تفسير الأمر . ليس هناك غرابة أن يكون فقيرا من هو من نسل ملوكى . فمثلا الربى هلليل ـ وهو أيضا من نسل داود ـ عاش الجزء الأعظم من حياته فى فقر مدقع كصانع بسيط . وحفيد معطى الناموس (يهوناثان ابن جرشوم) قض ١٨ : ٣٠ كان لاويا مجهولا يكاد يكون من عباد الوثن ، رضى أن يخدم نظير حلتين من الثياب وعشرة شواقل (حوالى ١٥٠ قرش) فى السنة قض ١٧ : ١٠ . ومن الدلائل الكاملة على أن المسيح من نسل داود حقا :

(١) ما رواه دومتيان ودسبوزينى . (٢) ما رواه الحاخام أولام الذى عاش فى الجيل الثالث: " إن المسيح عومل معاملة خاصة لأنه كان من نسل ملوكى " . ومن المؤكد أن الأنساب المذكورة فى البشائر هى أنساب يوسف ومريم . وجاء فى بعض التقاليد أن مريم ويوسف كانا ذوي قربى. ويستدل على أن مريم كانت من النسل الداودى من اع ٢ : ٣ و اع ٨ : ٢٣ و رو ١ : ٣ و لو ١ : ٣٢ والخ ... ويذكر متى النسب الرسمى ليوسف أى عن طريق الابن الأكبر لاثبات إنه وارث عرش داود . أما لوقا فيذكر النسب الطبعى . وكان من عادة اليهود عند ذكر الأنساب حذف الآباء غير البارزين مع مراعاة الترتيب . وتوجد كتب كثيرة قيمة تثبت أنه لا توجد صعوبة فى حل ما يظهر من الاختلافات بين البشارتين . وعلى ذلك فنى هذا الأمر كما فى أمور عديدة نجد أن الاختلافات التى نتوهمها ونظن أنها مستحيلة التوفيق إذا فحصناها بامعان وصبر ـ تصبح كبراهين جديدة على أن البشائر صادقة حتما تمام الصدق .

السفر فى الشرق بطىء ويتم على مهل، لا سيما إذا كانت هناك اضطرابات سياسية. والغالب أن بئر راعوت ـ التى تبعد حوالى خمسة عشر ميلا عن أوروشليم، أو عن بيت لحم (١) التى تقع جنوب أوروشليم بنحو ستة أميال ـ كانت محط الرحال الأخيرة لهذه الرحلة. ولا شك أن التعب الشديد ـ وربما أيضا بدء آلام المخاض ـ حتم تأخر الأم العذراء ويوسف عن المزاملين لهما فى الطريق والمسافرين لنفس الغرض. وبعد مشقة كبيرة فى اجتياز التل والجرف المتصعد إلى جانب بئر داود، وصلا إلى الخان. وهو فى الغالب ذات الخان الذى عرف لأجيال عديدة باسم خان (٢) كيمهام الذى أقيم فى نفس البقعة التى قام عليها منذ ألف سنة مضت بيت بوعز الذى ورثه يسى وبيت داود. وكان كل ليوان قد شغل. فان الاكتتاب جعل كثيرين يفدون إلى هذه البلدة الصغيرة حتى إنه [لم يكن لهما موضع فى المنزل] فولد يسوع فى المغارة الخشنة، التى من الصخر الجيري، الملحقة بالمنزل كحظيرة للحيوانات. ولد محاطا بالقش الذى تفترشه وتأكل منه البهائم. ولد وأبواه متعبان من سفر النهار، بعيدان عن موطنهما وسط الغرباء في ليل الشتاء القارص، (٣)

---

١ ـ يسميها متى بيت لحم اليهودية مت ٢: ١ وهى نفسها بيت لحم افراتة المذكورة فى تك ٤٨: ٧ وميخا ٥ : ٢ ليفرق بينها وبين بيت لحم زبولون يش ١٩ : ١٥ و ١٦.

٢ ـ " منزل " ار ٤١ : ١٧، ٢ صم ١٩ : ٣٧ و ٣٨. يقول أحد التقاليد أن هذا المنزل بنى على خرائب حصن كان قد أقامه داود. وأول من قال إن خان بيت لحم هو منزل كيمهام هو المستر هيبورث ديكسون فى كتابه عن الأرض المقدسة وهو يصف الخان الشرقى وصفا بديعا.

٣ ـ نحن متأكدون بما يقرب من اليقين أن الميلاد كان فى صميم الشتاء: إما فى نهاية السنة الخامسة أو بداية الرابعة ق.م. ولكن لا يمكن تعيين الشهر ولا اليوم. أما أن الموضع كان مغارة فهو تقليد قديم جدا. وحتى فى سنة ١٥٠ م ـ أيام جوستنان مارتير ـ كانت تزار هذه المغارة على أنها مكان الميلاد. والمرجح أنها نفس المغارة التى بنيت عليها كنيسة الميلاد. ويقال أن هادريان قد نجسها باقامة عبادة الاله أدونيس فيها. ولا بد من ذكر أن هذا التقليد ربما نشأ عن اش ٣٣ : ١٦ (هو فى الأعالى يسكن. حصون الصخور ملجأه) كما يقال أن الآية (يعطى خبزا) التى تلى ذلك إنما تشير إلى بيت لحم " بيت الخبز ". وقد شيدت الملكة هيلانه كنيسة فوق هذا المكان سنة ٣٣٠ م.

فى ظروف بعيدة عن كل راحة أو مجد عالمي ، حتى أنه يستحيل علينا أن نتصور ميلاداً أوضع من هذا .

وعلى بعد أميال قليلة فوق قمة التل المنفرد الوعر المسمى الآن جبل الفريديس ـ أى الفردوس الصغير ـ شمخت عاليا سراى هيرودس الملك ، وارتفع حصنه . وعلى قاعدة التل تراصت بيوت أصدقائه وحاشيته . فاذا ما مر عابر سبيل سمع أصوات الراقصات المأجورات وهن يغنين إحياء للولائم ، ودوى فى أذنه شغب الجنود المرتزقة الذين يخضعون الناس إلى طاعة ذلك الطاغية بقوة أسلحتهم . ولكن الملك الحقيقي لليهود وصاحب السيادة على كل العالم لم يكن في سراى أو حصن . إن الذين يلبسون الثياب الناعمة هم فى قصور الملوك . أما مذود البقر فى ذلك الغار الوضيع ، فهو المكان المناسب لميلاد ذاك الذى جاء ليثبت أن نفس أعظم ملك ليست أفضل في نظر الله من نفس أصغر عبيده ، ولذاك الذى لم يكن له أين يسند رأسه والذى كان سيحكم العالم من فوق صليبه .

وهدى الرعاة إلى خان بيت لحم السراج المعلق فى الحبل المشدود على مدخله ، فوجدوا مريم ويوسف والطفل مضجعا فى المذود . ولقد طار الشعراء والرسامون على أجنحة الخيال ، فصوروا لنا أمجادا ألبسوها لهذا المشهد ، فجعلوا « الملائكة المتسربلين بالبهاء » يرفرفون حائمين فى داخل المغارة . وجعلوا النجوم تتأخر عن ميعاد غيبتها لتحي بعذب تألقها تلك الطفولة الباسمة ، ورسموا اشعاع النور ينبعث من مهده قويا فينير المكان بلمعان يضطر الواقفين أن يظللوا عيونهم من بهاء تلك العظمة السموية (١) . ولكن كل هذا بعيد جدا عن الحقيقة . ان الرعاة البسطاء لم يشاهدوا شيئا من هذه الأمجاد إلا بعين الايمان . ولكن بصرهم لم يقع فى المغارة إلا على فلاح جليلى جاوز

١ ـ كما جاء فى لوحة لكورجيو الشهيرة وكما ورد فى بعض الكتب العربية "وبغتة امتلأت المغارة بأنوار أنصع من المصابيح والشموع وألمع من نور الشمس" . "وظهر فى المغارة نور لا تحمله الأبصار" . "كانت المغارة حالكة الظلام لم يدخلها نور أبدا فلما دخلتها الطاهرة مريم صارت نورا وضياء" .

متوسط العمر ، وأما صغيرة السن لم يعرفوا إنها العروس البكر والأم العذراء [١] ، ومعها طفل وليد لم يكن لأمه من يساعدها ، فقمطته بيديها وحدها . إن النور الذى أضاء الظلمة لم يكن حسيا ولكن كان ضياء معنويا .ونور العالم الذى جاء من السماء وشرف الجنس البشرى لم يضىء حينذاك إلا قلوبا قليلة مؤمنة متواضعة [٢] .

والبشائر التى تظهر فى كل صفحة من صفحاتها تلك البساطة الكاملة التى هى ختم الأخبار الصادقة الأمينة ، تذكر هذا الحادث بدون أي تعليق . ولا يوجد فيها أى شىء من الخيال الخصيب أو الأسرار أو الأعاجيب التى تفيض بها على حد سواء تخيلات اليهود عن المسيا المنتظر ، أو أخبار الأبوكريفا عن الطفل يسوع . ولا يوجد دليل أمتن على كامل صدق البشائر ، كتاريخ بسيط حق ، مثل التباين الكبير الذى بينها وبين الكتب المفتعلة التى شاعت فى القرون الأولى ، وكل الأساطير الخرافية التى تكدست وتراكمت حوالها . ولو كانت بشائرنا غير موثوق بصحتها ، لكانت - بكل تأكيد - قد اشتركت في الظاهرة العامة التى شاعت في كل الكتب الخيالية التى ألفت عن تاريخ مخلصنا . فالفكر البشري غير المستنير يرى أنه من غير المعقول ألا يصحب أعظم حادث فى تاريخ العالم ، عجائب أو كوارث . فمثلا نرى فى أحد الكتب المصنعة شيئا عجبا يصف كيف أنه فى اللحظة الرهيبة التى تم فيها الميلاد ، وقف محور الأرض عن الحركة ، وتوقفت الطيور المحلقة عن الطيران ، وكيف أنه كان رجال صناع

---

١ - المعرب : راجع الكتب القيمة التى تثبت دوام بتولية العذراء . واكتفى بذكر الآية : (فقال لى الرب هذا الباب يكون مغلقا لا يفتح ولا يدخل منه انسان لأن الرب إله اسرائيل دخل منه) حز ٤٤ : ٢ .

٢ - تقول الكتب المغرمة دائما بانتحال المناسبات واختلاق الأسماء بسهولة أن الرعاة كانوا أربعة وأسماؤهم : ميسائيل وأشائيل وقرياقص واسطفانس ! وان منبتهم القرية الصغيرة بيت صاحور (لاحظ ميل الكتب المصنعة للسجع المفتعل)

جالسين على الأرض وأيديهم في قصعة : فالذين أمسكوا اللقمة ، وقفت أيديهم عن تناولها ، والذين تناولوها وقفت أيديهم عن رفعها ، والذين رفعوها وقفت أيديهم عن تقريبها إلى أفواههم ، والذين قربوها وقفوا عن أكلها . وشخصت كل الوجوه إلى العلاء . ويضيف أيضا أن نعما كانت تسير فوقفت فجأة . وامتدت يد الراعى لتضربها فوقفت يده فى الهواء . والغنم التى امتدت أفواهها إلى مياه النهر توقفت عن الشرب . وكل ما كان سائرا أو متحركا فى الوجود قد وقف وبطلت حركته . هذا السكون الفجائى ، والصمت الشامل لكل الطبيعة التى ملكتها رهبة محيرة ، والشموس والأنوار الغريبة التى أضاءت فى أماكن متعددة فى المعمورة ، والولادة بلا ألم (١) ، وسجود الثور والحمار (٢) له يعبدانه وهو فى المذود ، والصوت الذى نادى أمه عقب ولادته مباشرة انه ابن الله ، وعجائب أخرى كثيرة أمثال هذه قد حشرت فى الكتب الخيالية بينما لا أثر لها فى العهد الجديد . فاختراعات البشر بعيدة جدا عن أعمال الله . وفى نظمه تعالى ، لا عجلة ولا بطء ، ولا متعبة ولا استراحة ، بل كل أعماله بحكمة صنعت ، وبهدوء علوى تم كل شىء فى وقته المناسب وحينه الحسن . وقد قيل « إن مشورة الله قد ظهرت وينابيع العمق قد تفجرت ، وشمس شفاء الأمم قد بزغت ، ولم يظهر على وجه الأرض سوي رفرفة بسيطة على سطح المياه . أما الأشياء العالمية فظلت سائرة كالمعتاد بينما كان كل امرىء مهتما بأعماله » .

ولا نعرف بالضبط مقدار الوقت الذى قضته الأم العذراء وابنها القدوس فى هذا الكهف أو مغارة الماشية ، ولكن يظهر انه لم يكن وقتا طويلا . ثم أن الكلمة الواردة

---

١ ـ ربما استنادا على (مز ٢٢ : ٧ لأنك أنت جذبتنى من البطن) ولكن هذا يتعارض تماما مع ما جاء فى (لو ٢ : ٧ إذ معنى كلمة ولدت هنا باللغة الأصلية تألمت) .

٢ ـ ربما استنتاجا من (اش ١ : ٣ الثور يعرف قانيه والحمار معلف صاحبه) .

في لو ٢ : ٧ والمترجمة إلى كلمة « المذود » (١) لا يمكن تحديد معناها تماما لأنها تطلق على كل مكان يطعم فيه الحيوان (٢) . والمرجح أن ازدحام الخان كان وقتيا . ولا شك أن اللياقة أوجبت نقل الأم وطفلها سريعا إلى مكان أكثر راحة . ونحن نعلم من بشارة متى أن المجوس زاروا مريم في [البيت] مت ٢ : ١١ . ولكن لا يمكن الفصل في هذه النقطة البسيطة القليلة الأهمية . ولم يكتب البشيرون بتفصيل عن هذه الأمور وإن كان لوقا قد كتب بتوسع أزيد عن باقيهم . وتدل أخباره ، الفريدة في مدونتها المتلئة نعمة كما تدل صيغتها الهادئة الحلوة ذات التحفظ النبيل على انه استقاها من شفتي العذراء نفسها . والحقيقة انه يصعب أن نفطن إلى مورد آخر أخذها عنه ، لأن الأمهات هن المؤرخ الطبعي لسني الطفولة . ومن المهم أن نلاحظ أن صيغة الكتاب فيها « ألوان ذاكرة المرأة وآراء المرأة » مما يدعم هذا الاستنتاج الطريف والصحيح . ويظن من يترك لخياله العنان أن كل حادث بسيط كان يستحق التدوين والوصف . ولكن هذه الحوادث كانت تظهر لمريم قليلة الأهمية وذكرها غير ملائم . وقد تتملك الدهشة آخرين ، ولكن مريم بطلت دهشتها بعد ذلك الاعلان الالهي وبعد تلك المعرفة التي ملكت مشاعرها . فما كان يسهل عليها الكلام عن هذه الأشياء وما كانت تتحدث عنها بخفة [وأما مريم فكانت تحفظ جميع هذا الكلام متفكرة به في قلبها] لو ٢ : ١٩ وهذا العمق وهذه القداسة في التحفظ هما التفسير الطبعي لانفراد لوقا وحده بالكتابة عن طفولة المسيح بشيء من التوسع .

---

١ ـ معنى الكلمة اليونانية : أنا آكل وقد وردت بمعنى معلف (أم ١٤ : ٤) و (اش ١ : ٣ و اي ٣٩ : ٩) وبمعنى " أواري " (٢ أيا ٣٢ : ٢٨ وأواري لكل أنواع البهائم وللقطعان أواري) وبمعنى " حظيرة " (حب ٣ : ١٧) وبمعنى " مذود " (لو ١٣ : ١٥) فالكلمة الأصلية تشمل المكان الذي تأكل فيه الحيوانات والمكان الذي تأكل منه الحيوانات أي تعني كلا " الحظيرة والمذود " .

٢ ـ المعرب : الكشف الأخير في بيت لحم أثبت بوضوح أن الميلاد كان في كهف حظيرة .



نجم المشرق

الفصل الثانى

التقديم إلى الهيكل

"من أعلنت الملائكة بابتهاج مجيئه إلى العالم،
سرعان ما جعلته خطايانا يتألم" ملتون

لم تسجل البشائر سوى أربعة حوادث عن طفولة المسيح وهى الختان، والتقديم إلى الهيكل، وزيارة المجوس، والهرب إلى مصر. وقد ورد الحادثان الأولان فى بشارة لوقا فقط، والأخيران في بشارة متى فقط. وليس من العقل أن يسمى هذا اختلافا، إذ قد تحققت لدينا البراهين الكافية على أن البشائر كتبها شهود لا ارتياب فى أمانتهم. فلنا كل الحق فى اعتبار أن بعضها يتمم البعض الآخر مهما كانت الأسباب التى دعت إلى ما يراه بعض النقاد اختلافا فى تدوين بعض الحوادث. كذلك ليس من العدل أن يصر النقاد على وجود مفارقات لا يمكن التوفيق بينها، بينما تقدم الأدلة القوية التى تحل مشكلات الكتاب.

إن تدوين تاريخ السنوات الأولى من الحياة ـ بترتيب زمني مضبوط ووصف مفصل دقيق ـ أمر لم يعرفه اليهود مطلقا ، بل هو غريب عن أسلوبهم وطباعهم . فوقائع الطفولة ، وحوادث الصبا ، ودلائل عظمة المستقبل التي تظهرها نوادر السنين النضيرة ، أمور قليلة الوجود جدا فى الأدب القديم . والسبب في ذلك أن الطفولة لم تحظ بتدوين حوادثها إلا بعد نمو المسيحية .

ولا يمكن البت في ترتيب الحوادث التي وقعت قبل الرجوع إلى الناصرة ، غير أنه من المحقق أن الختان كان فى اليوم الثامن لو ١ . ٥٩ و ٢ : ٢١ ، وأن التطهير كان بعد ذلك بثلاثة وثلاثين يوما [١] لا ١٢ : ٤ ، وزيارة المجوس كانت [ولما ولد يسوع في بيت لحم] مت ٢ : ١ ، والهرب إلى مصر كان بعد ارتحال المجوس مباشرة . فالظن أن التقديم إلى الهيكل كان بعد العودة من مصر ـ ولو أنه غير مستحيل ـ فانه بعيد الاحتمال جدا . وحتى إذا تغاضينا مؤقتا عن أن أقل تأخير للتطهير ـ مهما كانت أسبابه ـ هو كسر للناموس ، فان الذهاب إلى مصر والعودة منها يستلزمان وقتا يؤخر التطهير مدة طويلة . وهذا يتنافى مع ما ذكره لوقا مرتين لو ٢ : ٢٢ و ٣٩ . وحتى إذا فرضنا أن الأربعين يوما كانت كافية لزيارة المجوس والهرب إلى مصر [٢] ، فانه كان لا بد من رجوع العائلة المقدسة لتقديم الطفل يسوع إلى هيكل أورشليم التي لا تبعد سوي ستة أميال عن بيت لحم التي لم يمض على مذبحة الأطفال فيها سوى أيام قليلة وهذا بعد الاحتمال جدا .

ومع أن أى ترتيب للحوادث لا يخلو من اعتراضات ـ لجهلنا بكل الظروف المحيطة ـ فمن المحقق أن الهرب إلى مصر والأسباب التي دعت إليه ، حدث بعد التطهير . وبذلك يتسنى للعائلة المقدسة أن تقطن الناصرة ـ فى سلام وعزلة ـ في بقعة تحيطها مناظر بهيجة وتقدسها تذكارات عائلية عديدة .

---

١ ـ ليس بعد الوضع كما يقول كسباري .

٢ ـ لا يجب أن تفارق المرأة بيتها قبل أربعين يوما حسب الناموس لا ١٢ : ١ ـ ٨ .

ولم تذكر الكتب الرائفة التي تعرضت لطفولة المسيح شيئا عن الختان إلا وصفا تعافه النفس جاء في أحدها . فالختان (١) لم يكن من الحوادث التي تروق لخيال أولئك الذين يحلو لهم تسطير الادعاءات المهرجة ، ولكنه عند المسيحى ذو معنى كبير . انه يعلن أن المسيح لم يأت لينقض الناموس بل ليكمل الناموس ، إذ لاق به أن يكمل كل بر مت ٣ : ١٥ وانه قد تألم منذ البداءة ليعلمنا ختان الروح وختان القلب وقطع الشهوات الجسدية. (٢) وكما يحمر الأفق الشرقي بتأثير انحدار الشمس عند الغروب ، فقد تخضب مهد الطفل بشفق قان من صليب المخلص (٣) . وهكذا كانت بيت لحم كديباجة للجلجثة .

وفي اليوم الثامن أيضا تسمى الطفل (٤) علانية باسم يسوع كأمر الملاك جبرائيل. وهو اسم شائع جدا بين اليهود فى ذلك الوقت . وهو مشتق من كلمتين « يشوع » ومعناها الخلاص ، و « يوشيا » ومعناها الذى خلاصه يهوه . وكان هذا الاسم عزيزا لديهم لأنه اسم القائد الكبير الذي قادهم إلى النصر لامتلاك أرض الميعاد . ولأنه اسم رئيس الكهنة الذى تزعم جمهرة المنفيين العائدين من بابل (٥) . وقد صار لهذا الاسم

---

١ ـ يجدر بى أن أذكر أن يوسف غالبا هو الذى قام بعملية الختان بحضور شهود وتلاوة صلوات خاصة بهذه المناسبة . وكانت العادة أن يترك مقعد خال لايليا النبي الذى يتقدم مجيء المسيا . ثم تختم الحفلة باقامة وليمة . وقد لاحظ لانج الفرق بين ما كتب عن ختان المسيح الذى تم بهدوء وبين الحفل الذى أقيم عند ختان يوحنا .

٢ ـ انظر ملاحظة بونافنتيورا الجميلة ولو انها خيالية " نحن المسيحيين فرض علينا الختان الخالى من الألم (أي العماد) ولكن فرض معه ختان القلب . (٣) كتاب ولمجز . (٤) كانت تطلق الأسماء على الأطفال عند الرومان فى اليوم الثامن أو التاسع ، أما اليهود ففى اليوم الثامن اتباعا لما ورد فى تك ١٧ : ٥ ـ ١٥ . (٥) عز ٢ : ٢ و ٣ : ٢ ، زك ٣ : ١ . وحمل هذا الاسم آخرون أتى ذكرهم فى ١ أى ٢٤ : ١١ و اصم ٤ : ١٤ و ٢ مل ٢٨ : ٨ ولو ٣ : ٢٩ . ويقال أن ابنا لشاول تسمى به أيضا . وفى العهد الجديد نجد : " يسوع " المسمى يسطس. كولوسى ٤ : ١١ و " باريشوع " اع ٨ : ٦ . وذكر يوسيفوس اثنى عشر شخصا لهم ذات الاسم .

منذ ذلك الحين ـ ليس بين اليهود فقط بل فى كل العالم ـ أهمية عظمى مقدسة ، إذ صار علما على ابن الله المتأنس . أما كلمة « مسيا » العبرانية و « المسيح » اليونانية فتدلان على وظيفته كالنبي الممسوح والكاهن والملك . أما «يسوع» فهو الاسم الشخصى الذى تخيره ذاك الذى أخلى ذاته من المجد وصار انسانا بلا خطية ليخلص الخطاه .

وبعد أربعين يوما أخذته أمه ـ وما كانت تستطيع مغادرة مكانها قبل ذلك ـ إلى أوروشليم لتقدم نفسها وطفلها للرب . وكما يقول بونافنتيورا « لقد أحضروا رب الهيكل إلى هيكل الرب » وكانت التقدمة الواجبة فى مثل هذا الظرف كبشا حوليا لتقدمة المحرقة ، وحمامة صغيرة أو يمامة لذبيحة الخطية (١) . وكانت شريعة موسى تسمح ـ رأفة منها بمن لا تملك أيديهم تقدمة غالية كهذه ـ أن يأتوا بدلا منها بزوج يمام أو فرخى حمام لا ١٢ : ٦ ـ ٨ . وبهذه التقدمه الفقيرة جاءت مريم إلى الكاهن . وفي الوقت



تقدمة فرخى حمام

---

١ ـ لو ٢ : ٢٢ ؛ لا ١٢ : ١ ـ ٨ و عدد ١٨ : ١٦

ذاته إذ كان يسوع بكرا فاتح رحم ، قدموه إلى الرب ، ثم أعفوه ـ حسب الناموس ـ من خدمة الهيكل بدفع الفدية المعتادة أي خمسة شواقل من فضة القدس عدد١٨: ١٥و١٦ وتقدر قيمتها بنحو ٧٥ قرشا .

ولم يكتب لنا تفصيل عن التقديم أو التطهير غير ما سلف . ولكن هذه الزيارة خلدها حادث مزدوج وهو تعرف سمعان وحنه على « المخلص الطفل » .

ولم يذكر لنا عن سمعان سوى انه كان شيخا اسرائيليا تقيا ينتظر عزاء اسرائيل(١) وأوحى إليه أنه لن يرى الموت حتى يرى المسيح . فاقتاده الروح إلى الهيكل حيث تعرف على الطفل القدوس ، وطفر يغنى تلك التسبيحة المجيدة (صلاة سمعان) التى ظلت طوال الأجيال محببة إلى قلوب المسيحيين . ولقد تعجب يوسف ومريم من غرابة ما حدث ومن النبوة التى قالها الشيخ عن الطفل من أنه سيكون [نور اعلان للأمم] ولم يخبيء عنها الشيخ أحزان المستقبل ، بل أنبأ (٢) أمه العذراء بأمرين : المقاومة المميتة التى سيصادفها طفلها الالهى ، والمخاطر والاضطرابات التي كانت ستتمخض عنها الأيام الآتية.

ولقد نشطت الكتب الخيالية حول اسم سمعان ، فذكرت أنه عرف يسوع لأنه رآه يتلألأ بين ذراعى أمه كعمود نور . ولكن الكتب التاريخية ورد بها أن نيسفورس ذكر أن سمعان بينما كان يطالع (٣) في الكتب المقدسة أعثرته الآية [هوذا العذراء تحبل وتلد] اش ٧ : ١٤ ، فأوحى إليه أنه لن يموت حتى يرى اتمامها .

وقد ذهبت عبثا كل الجهود لتحقيق شخصية سمعان هذا . فلو أنه كان رئيس الكهنة أو رئيس مجمع السنهدرين ، لما ذكره لوقا البشير بالقول العرضي [رجل فى أوروشليم اسمه سمعان] . كما أن ما جاء في كتاب « ميلاد العذراء » من أن عمره

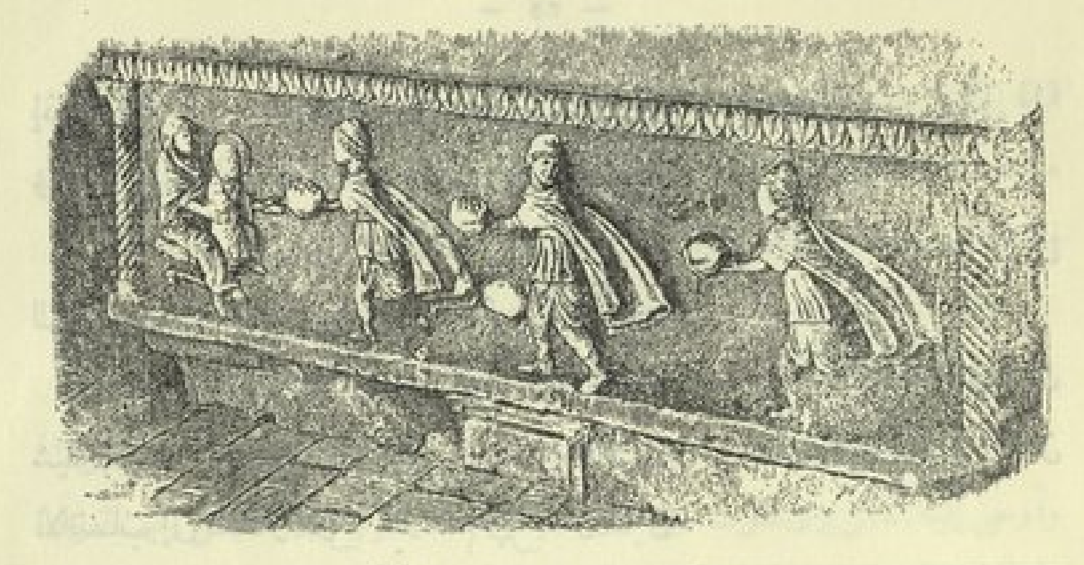
١ ـ كلمة ينتظر عزاء اسرائل تشابه ما قاله مرقص البشير عن يوسف الذى من الرامة (كان هو أيضا منتظرا ملكوت الله) مر ١٥ : ٤٣ . ٢ ـ النبوة (سيجوز فى نفسك سيف) استعمل فيها ذات اللفظة الواردة فى زك ١٣ : ٧ (استيقظ يا سيف) . ٣ ـ المعرب : جاء فى أخبار الكنيسة القبطية أنه أعثر وهو يترجم الأسفار المقدسة ضمن سبعين شيخا .

إذ ذاك ١١٣ سنه ، غير محقق ولا يمكن أن يكون هو نفسه الربى سمعان بن هليل (١) والد غمالائيل ، لأن سمعان هذا لم يكن شيخا حينذاك .

ولا يمكن أن يكون سمعان العادل الذى كان آخر من عاش من أعضاء مجلس السنهدرين (٢) العظيم ، والذى يعزى إليه أنه تنبأ عن خراب أوروشليم .

ومن الغريب أننا لم نخبر بشيء عن سمعان الشيخ ، بينما قد ذكرت لنا تفصيلات شيقة عن حنه النبية من بينها أنها كانت من سبط أشير . وهذا برهان قاطع على أن الانتساب إلى العشائر كان له حيز هام في أذهان الناس .

١ ـ من المصادفات الغريبة أن يذكر اليهود أن يسوع ولد فى زمان سمعان بن هليل .
٢ ـ كلمة « سنهدرين » بالنون لأن هذا هو أصلها اليونانى .



المجوس يقدمون هـــدايام (١)

الفصل الثالث

زيارة المجوس

تطلعى يا أوروشليم إلى المشرق وانظرى الفرح
العظيم الذى أعـده الله لك . باروخ ٤ : ٣٦

ان خبر زيارة المجوس الذى جاء فى انجيل متى الاصحاح الثانى له مكانة عميقة فى تاريخ المسيحية ، لأنه كان قبل كل شىء بمثابة اعـلان المسيـح للأمم ، ولأنه يربط حوادث الانجيل مع المعتقدات اليهودية ، والنبوات القديمـة ، والتـواريخ الفلكية ، والعلوم الحديثة . وبذلك يعطينا دليلا جديدا لتثبيت ايماننا - دليلا عرضيا عن طريق لا ريب فيه ، ومن مصادر مسلم بها ما كان متوقعا منها تقديم هذا الدليل .

١ - نقلا عن حفرية موجودة بكنيسة رافنا يرجع تاريخها إلى سنة ٦٠٠ ميلادية .

كان هيرودس الكبير (١) ـ بعد حياة مليئة بالنجاح الاجرامى والازدهار البائس ـ يقيم فى قصره الجديد فى صهيون . وقد أعمته الغيرة العجائزية فى سنه الهـــرم العامر بالوحشية وهو في شبه جنون من جراء الجرائم التى اقترفها فى سابق حياته ، وإذا به تتملكه من جديد نوبة قاسية من الحذر والخوف أثارتها زيارة مجـوس من المشـرق ، يتحدثون بخبر غريب ، ويقولون انهم رأوا في المشرق نجما لملك لليهود حديث الولادة ، وقد أتوا ليسجدوا له . وامتلأ هيرودس ذلك الآدمى المغتصب المشتبه جدا فى أنه ملحد ، ذلك الطاغية المكروه والحاكم الظالم لأمة غير راضية عنه ، ذلك الذى دنس الأقـداس بسلبه قبر داود ، ذلك الذى من نسل اسماعيل الطريد وعيسو المحتقر ـ امتلأ من الخوف والحنق لدرجة لم يستطع معها كتمان ما ألم به عندما سمع هذا النبأ المبهج . كان هيرودس حفيد رجل خادم فى هيكل اشقلون ، وملكته عصابة من الآدوميين فى شبابه . فـكان يعلم حق العلم بأية أسباب واهية يمت إلى هذا العرش التاريخى الذى ارتقـاه عـدوانا .

---

١ ـ يقول يوسيفوس انه اغتصب الملك بمساعدة الرومان سيما أنطونيوس وصارحه اليهود على لسان السنهدرين انهم اطاعة لما جاء فى (تث ١٧ : ١٠) لا يمكنهم قبول رجل غريب ملكا عليهم (وكانت أم هيرودس عربية أطلقوا عليها اسم سيبروس وأبوه ـ آدومى ـ وجده انتيباتر) ولكن هذه الأمانة والصراحة كلفتهم أرواحا عديدة . وكان موقف هيرودس السياسى والشخصى يساعد على انتشار دين جديد إذ كان حكام اليهود بعد السبى فارسيين من ٥٣٦ إلى ٣٣٢ ق . م ويونانيين مصريين أو سوريين يونانيين من سنة ٣٣٢ إلى ١٤٢ ق . م . وأزمونيين أو مستقلين من سنة ١٤٣ إلى ٦٣ ق . م . وتحت حكم الرومان من فتح أورشليم بقيادة بومباى ٦٣ سنة وتحت حكم هيرودس من سنة ٣٧ إلى ميلاد المسيح ويصح أن يقال عن حكومته انها دولية وقد ربط الشرق بالغرب ، لأن أباه آدومى وأمه اسماعيليه ثم هو يمثل قسما ثالثا ساميا إذ اعتنق الديانة اليهودية ظاهريا . ولـكن مبادئه كانت مستقاة من القبيلتين العظيمتين الآريتين القديمتين وأخذ قوانين حكمه وسياسته من الرومان وطريقة معيشته ومسراته من اليونان . وفضلا عن هذا كان محوطا بحاشية من جنود البربر المرتزقة . فلم يكن وقت سابق أو لاحق أنسب للكرازة بدين جديد عالمى من وقت هذا الوسط الخليط الذى أوجده ظلمه الغريب ؛ والذى علمته فراسته أن ضمان ملكه الوحيد هو أن يكون دائم الامتثال والخضوع للرومان الأقوياء .

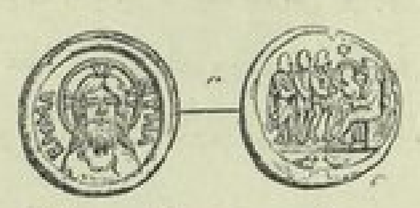
لذلك كان مكره مساويا لقسوته . فلما علم أن أوروشليم كلها تشاركه التساؤل والاضطراب ، دعا إلى قصره رؤساء الكهنة واللاهوتيين اليهود وربما أيضا أعضاء السنهدرين الذي جعله منذ زمن طويل خيالا سقيما-دعاهم ليسألهم أين يولد «المسيا» (١) فأجابوه سريعا وبأيقان أن بيت لحم هى المدينة التى ألحت النبوة أن يكون لها هذا الشرف كما جاء فى ميخا (٢) فأخفي غرضه الجهنمى وأمر المجوس أن يذهبوا إلى بيت لحم ومتى وجدوا الطفل يخبروه لكى يأتى هو أيضا ويسجد له .

لنقف هنيهة عن متابعة ذكر هذا الحادث لنسأل من هم هؤلاء المتجولون الشرقيون ؟ وما يمكن أن نستكشفه من رحلتهم الغريبة ؟

كلمة « مجوس » التى دعاهم بها متى البشير يونانية ومعناها مبهم وغامض . وأطلقت أولا على شيعة من طلاب العلم المديانيين والفارسيين . ثم استعملت بعد ذلك كما في [اع ١٣ : ٦ و ٧] على الفلكيين الكاذبين أو قراء البخت الشرقيين (٣) . وأمثال هؤلاء كانوا معروفين فى القديم باسم الكلدانيين ، وكانوا أحيانا يرحلون حتى إلى البلاد الغربية . ويروى لنا ديوجنوس لارتيوس عن أرسطاطاليس أنه قال ان مجوسيا سوريا تنبأ له أن سقراط سيموت ميتة عنف . ويخبرنا سنيكا أن مجوسيا زار مقبرة بلاتو وقدم عليها بخورا كما لشخص إلهى . ولا توجد فى التقليد سوى كمية مشوشة متناقضة لا تلق ضياء على مركزهم ومملكتهم وعددهم وأسمائهم . والتقليد الذي يعلمنا أنهم ملوك ربما يكون استنتاجا من نبوة اشعياء القائلة [فتسير الأمم فى نورك والملوك فى ضياء إشراقك] اش ٦ : ٣ . والظن أنهم عرب قد بنى على أن المر واللبان هما من حاصلات بلاد العرب مضافا إلى ما جاء فى مز ٧٢ : ١٠ [ملوك ترشيش والجزائر يرسلون

١ - " المسيح " معناها الممسوح بالدهن وهى تستعمل غالبا كصفة لا كاسم علم ما عدا فى مستثنيات أربعة . يو ١٧ : ٣ . ٢ - مى ٥ : ٢ قارن يو ٧ : ٢ . ويتبين من الآية الأخيرة أن هذه النبوة كانت شائعة بين الناس ورؤساء اليهود الذين ذكروا الآية اقتبسوها بتغيير فى ألفاظها ولكن بذات معناها . ٣ - (وجدا رجلا ساحرا نبيا كذابا) اع ١٣ : ٦ .

تقدمة ملوك شبا وسبا يقدمون هدية] (١) .



ايقونة قديمة عن المجـوس (٢)

ويوجد تقليدان عن عددهم ، فيذكر أوغسطينوس وفم الذهب أنهم كانوا اثنى عشر. ويذكر التقليد الأكثر شيوعا والمرتكز فى الغالب على عدد الهدايا أنهم كانوا ثلاثة (٣) ولكن « بيد » يذكر أيضا أسماءهم وممالكهم وملامحهم ، فيقول ان ملشوار كان عجوزا طويل اللحية أبيض الشعر ، وكاسبار شابا أشعث طرير اللحية ، وبلتاصار متوسط العمر أسمر اللون (٤) . ويضيف التقليد أن ملشوار من نسل حام وكاسبـار من نسل سـام

١ ـ يقول البعض ان أصلهم من البادية أو بلاد العرب . ويقول البعض الآخر انهم من العجم . ويقول تيودورت انهم كلدان ، وهيلارى انهم اثيوبيون ، وهوفان انهم هنود .

٢ ـ هذه الأيقونة ـ لأنها تحوى رسما وكتابة عن ملك غير أرضى ـ يظهر على وجهها النصف الأعلى من السيد بملامح مهيبة رهيبة كما يحب أن يتخيلها ويرسمها ليوناردو دى فينيسى . وعلى الدائرة المحيطة بالرأس ثلاثة أذرع الصليب اليونانى على النسق البيزنطى الحقيقى الذى للقرن التاسع أو العاشر والتى غالبا صكت فيه . أما الكتابة فهى " عمانوئيل " بحـروف بعضها يونانى وبعضها لاتينى . أما الرسم الذى على الوجه الآخر ـ وهو أقل فنا وإن لم يقل معنى ـ فيمثل ثلاثة مجوس يلبسون على رؤوسهم غطاء فريجيا وثيابهم قصيرة ، وكأنهم فى عجلة واحترام يقدمون هداياهم إلى الطفل القدوس . وقد رسم وعلى رأسه هالة من المجد جالسا على ركبتى أمه ومنحنيـا إلى الأمام ليتقبل العطايا . وفى أعلى رسم النجم الهادى ، ورسم فى أسفل فرخا يمام يرمزان برقة إلى التطهير . وهذه الأيقونة نادرة الوجود جدا ، وقد كانت يوما فى حيازة اللورد بمبروك .

٣ ـ راجع ما كتبه هوفان بخبرة فائقة ودقة بالغة عن هذه التقليدات وأصولها .

٤ ـ راجع كتاب بيـد .

وبلثاصار من نسل يافث . فيجعلونهم كأنما يمثلون أدوار الحياة الثلاثة وأقسام الأرض الثلاثة . ومع أن هذه الروايات الخيالية لا قيمة لها من الوجهة التاريخية لكنها صارت ذات أهمية لما كان لها من عظيم الأثر فى الصور الدينية القيمة (١) . ولا زالت تعرض ضمن ذخائر كنيسة كولونية ثلاث جماجم تعزى لهؤلاء الملوك الثلاثة وعلى كل منها تاجها الذهبي المرصع (٢) .

غير انه أقرب لمقصدنا أن نتحرى الأسباب التى أوحت اليهم برحلتهم الخالدة .

يخبرنا تاسيتوس وسوثونيوس ويوسيفوس انه في ذلك الزمان قد شاع في كل الشرق اعتقاد جارف قائم على النبوات القديمة أن ملكا قويا سيظهر فى اليهودية ويملك على أقطار الأرض . وهناك من يظنون أن مؤرخى الرومان قد رجعوا صدى اعتقاد يوسيفوس الذى كان في الحقيقه مرجعهم الوحيد . غير أن من لا يقبلون هذا الرأى يجدون الدلائل الكافية فى كتابات اليهود والأمم على السواء التى تظهر أن العالم الخاطىء التعوب كان ينتظر مجىء مخلصه . فنجد الربى سمعان بن غمالائيل يقول « لقد احتجب نزول ندى النعمة عنا ولم تعد لفوا كهنا نكهة » وكأنما هذا التعبير لسان حال عصر وصفه نيبهور بأنه « ثمل من سكره بالجرائم » . ونجد فى الجزء الرابع من فرجيل ما يبرهن لنا على شدة تأصل هذا الاعتقاد وما رأى فيه البعض انه « إحدى التكهنات الوثنية غير المقصودة » .

وعليه ، فلا يوجد شىء غير عادي فى أن سدد هؤلاء المجوس الشرقيون خطواتهم نحو أورشليم سيما ان كانت قد جدت ظروف تحيي الشعور بأن هذا الرجاء المرتقب على وشك الاشراق . ولو أنهم من تلاميذ زورواستر لتوقعوا أن هذا الطفل الملك هو

---

١ - الذين يدرسون الفنون فى الحال يذكرون الصور البديعة التى لأمثال بول فيرنوس وجيوفانى بللينى الخ الخ .

٢ - يقال ان الأسقف رينالد هو الذى اكتشفها فى الجيل الثانى عشر .

المقدر له أن يخضع أهريمان ويتسيطر على العالم كله . إلا أن بعضهم كتب عن رحلة المجوس باستخفاف وانها رواية لا تخرج عن خيال شعرى . لا ننكر ان أن تحقيق حدوثها لا يرتكز إلا على شهادة البشير وحده ، غير انه توجد أدلة عديدة ترينا أن هذه الرحلة فى حد ذاتها لا تتطلب أمورا مستحيلة ولا حتى أمورا غير محتملة الوقوع .

يخبرنا متى البشير أن سبب تحفز رجائهم هو انهم رأوا نجم المسيا في المشرق وأن الدافع لرحلتهم انهم أرادوا أن يتعرفوا إليه .

كان الاعتقاد الجازم في تلك العصور أن أية ظاهرة فلكية غريبة تدل على مجيء ملك . وربما يكون مثل هذا الاعتقاد قد نبت من نبوة بلعام [1] العراف الأممى فان لها من الجمال والقوة والتناسق وحلاوة التمثيل ما يضمن انتشارها فى الأقطار الشرقية . بعد ذلك بجيل ظهر مسيح كذاب فى حكم الملك هدريان أسماه الحاخام عقيبة « ابن النجمة » وأمر أن ترسم نجمة على النقود التى سكت باسمه . ويقال إن أحد مدعى النبوة أشار إلى نجم كالدليل القاطع على ادعائه . وحتى اليونان والرومان (٢) كانوا يعتقدون أن ميلاد أو وفاة الرجال العظام يصحبه دائما ظهور أو أفول أحد الأجرام السماوية . واستمر اعتقادهم هذا إلى وقت قريب وعندما شاهد تيخوبراهي في ١١ نوفمبر سنة ١٥٧٢ نجما بزغ ثم أسرع زواله ، اعتقد أن محاربا سيظهر من الشمال ويبهر العالم بأعماله ولكن إلى حين . ولقد عد بعد ذلك أن هذا النجم انما أنبأ بحظ جوستاف ادولفس .

---

١ ـ محقق أن اليهود وحاخامييهم قد استعاروا كثيرا من تعاليمهم الفلكية عن الكلدان وأنهم جعلوا كثيرا منها يرتبط ومجيء المسيا . راجع مقتبسات السنهدرين. والحاخام ابراهام وأبرنابل وما جاء فى مونتر وسيب . وما ذكره يوسيفوس عن بروسيوس إنه قال ان " ابراهيم كان مقتدرا فى علوم الفلك " .

٢ ـ راجع ليو وسوتيوس وسنيكا وفرجيل الخ الخ . وربما يذكرنا هذا بما جاء فى رواية هنرى الرابع لشيكسبير " السموات ذاتها تلمع نجومها عندما تموت الملوك " وأيضا ما جاء فى هنري السادس " أيتها المذنبات الدالة على تغيير الأزمان والحكام ـ أضربي بجدائلك ولوحي بها فى السماء والعنى النجوم الرديئة الثائرة التى أنبأت بوفاة الملك هنرى " .

ولقد حدث انه حوالى السنة التى ولد فيها المسيح والتى لم تحددها البشائر بالضبط ، أن بدرت ظاهرة سمائية بينة يستحيل أن يغفل ملاحظتها الرجال الفلكيون . حقيقة لم يعد أحد يقرنها بالخبر الوارد فى الانجيل بل أهمل هذا الرأى بتاتا . إلا أن أهميتها ـ مهما تعددت النظريات بخصوصها ـ هى أنها احدى الحقائق الأولى التى أدت إلى اكتشاف أن المسيح قد ولد لثلاث أو أربع سنين قبل تاريخ الميلاد الذى نؤرخ به (١) . ولهذا سأشرح بالتفصيل بيان هذه الظاهرة والظروف التى لابستها هذه الظاهرة التى تشغل حيزا غريبا فى كتب التفاسير الدينية . ولكنا نكرر تحذير المطالع أن اقتباس هذه الظاهرة لتفسير ما ورد فى انجيل متى إن هو إلا مجرد ظن يجب أن يقابل بمزيد الاحتراس ، أو يقابل بعدم الاكتراث اطلاقا .

فى ١٧ ديسمبر سنة ١٦٠٧ اقترن السياران العظيمان فى الفلك الأعلى ، وهما زحل والمشترى فى منطقة البروج ، فى علامة السمك ، فى مثلث الماء (٢) . وفى الربيع التالى التقيا مع المريخ فى مثلث النار . وفى سبتمبر سنة ١٦٠٤ ظهر ، عند قدم سيار الثعبان وبين زحل والمريخ ، نجم جديد كبير الحجم واستمر يتألق سنة كاملة وابتدأ فى الانحدار من مارس سنة ١٦٠٦ إلى أن اختفى نهائيا (٣) . وقد وصفه برانوسكى تلميذ كيبلر ـ وهو أول من رآه ـ انه كان يتلألأ بألوان مختلفة مثل تألق الماس ولم تكن

---

١ ـ هذا هو التاريخ الذى اعتمده ايدلر وسنكلامنت وويزلر .. لقد مات هيرودس الكبير فى الأسبوع الأول من نيسان سنة ٧٥٠ رومانية ويمكن الاستدلال على صحة هذا من خسوف القمر الذى حدث قبيل وفاته بوقت قصير . وحقق ايدلر ووازم أن الخسوف الوحيد الذى ظهر فى أوروشليم سنة ٧٥٠ رومانية وسنة ٤ ق. م. حدث فى ليل ١٢ أو ليل ١٣ مارس . أما تاريخنا فقد رسمه ديونيسيوس اكسيميوس كاهن رومانى مات سنة ٥٦٥ . (راجع خاتمة هذا الكتاب تذييل فى سنة ميلاد المسيح) .

٢ ـ يقسم الفلكيون منطقة البروج إلى أربعة مثلثات النار والتراب والهواء والماء .

٣ ـ النجم الذى شاهده تيكو ظهر من نوفبر سنة ١٥٧٢ ـ ابريل سنة ١٥٧٤ . ويقال أن أمثال هذه النجوم المؤقتة ناجمة عن احتراق بليغ فى غاز الهيدروجين (راجع جو غليز وهميلوت الخ).

فيه عتامات مطلقا ولا يماثل أي المذنبات (١) بحال . وهذه الظاهرة الهامة جعلت كيبلر العظيم يوليه اهتماما خاصا ومن دراسته لعلم الفلك استشف أي تأثير يمكن أن يكون لمثل هذه الظاهرة في عين المجوس ، واجتهد أن يستكشف هل حدث شيء مثلها حوالى زمان ميلاد المسيح ؟ نعلم إن زحل والمشتري يلتقيان في مثلث واحد كل عشرين سنة وينتقلان إلى مثلث آخر كل مائتي سنة ولا يعودان إلى المثلث ذاته إلا بعد مضى ٧٩٤ سنة وأربعة شهور واثنى عشر يوما . وقد حسب كيبلر تراجعيا على هذه القاعدة فوصل إلى أن زحل والمشتري قد تلاقيا في مثلث السمك سنة ٧٤٧ رومانية واقترنا بالمريخ في ربيع سنة ٧٤٨ (٢) . وقد أكد هذه الحقيقة عدد كبير من الفلكيين مستقلين ، ولا سبيل إلى انكارها . ومهما قلبناها نجد أنها ذات أهمية . لأن أي ظاهرة من هذا القبيل لا بد أن فسرها الفلكيون الكلدانيون بأنها دليل على قرب حدوث أمر جلل . وحيث أن هذا الاقتران قد حدث في مثلث السمك الذي يعتقد الفلكيون أنه ينبيء بحظ الأمة اليهودية (٣) ، فلا شك أن أفكارهم اتجهت نحو هذه البلاد . ولا شك أيضا أن أفكارهم قد تأثرت أولا بآراء الفلكيين اليهود ـ الذين كانوا يعتقدون أن هذه الظاهرة تنبيء عن مجيء المسيا ـ وتأثرت أيضا بالرأي السائد في عصرهم ان العالم ينتظر إتيان مخلصه .

---

١ ـ إذن فلا مبالغة في قول اغناطيوس " ان النجم قد تألق بلمعان يفوق كافة النجوم " .

٢ ـ يظن كيبلر أن هذا الاقتران قد حدث بمناسبة سبعة حوادث عظام وهي آدم . وأخنوخ . والطوفان . وموسى . وأشعياء . والمسيح . وشارلمان أو عهد الاصلاح .

٣ ـ أول من خاض هذا الموضوع هو كيبلر سنة ١٦٠٦ ثم تبعه ايدلر وهاندبوك ثم فاف وبامب ومونتر سنة ١٨٢٧ وشوماكر وشوبار وبنج وجولد سمث الخ . وقد راجع البروفسور ريتشارد حسابات كيبلر وهو يؤكد حدوث الظاهرة وان اختلف قليلا في زمان حدوثها وكل الباحثين المتأخرين ينفي بتاتا أية علاقه بينها وبين روايه البشير . وظاهر جدا أنه لا يمكن تفسير ما جاء بالانجيل متى بما لدينا من المعلومات الفلكية . ولكن لا يمكن الجزم بنفي أي تأثير لها على الظروف التي رواها البشير .

إن ظهور النجوم واختفائها ليس بالأمر النادر حتى يتسرب الشك إلى الأذهان (١) انما المدهش حقا أن يكتب متى البشير عن ظهور نجم لسنتين أو ثلاثة على الأكثر من وقت نعلم انه قد حدث فيه هذا الاقتران الشهير . وأن هذا بالذات ما حصل بعد ذلك بحوالى ١٦٠٠ سنة أى ظهور نجم فى الوقت الذى حدث فيه اقتران مماثل . وفضلا عن ذلك يوجد برهان غريب لما جاء ببشارة متى إذا أخذنا بصحة الجداول الفلكية الصينية، إذ أثبتت ظهور نجم فى نفس التاريخ الذي قرره البشير (٢) . ولكنه واضح أنه يجب ألا نبنى قصورا على أساس تاريخ لا يمكن التحقق من صحته كما أنه محوط بالشك .

ويستخلص مما سبق أن قيمة الأبحاث الفلكية التى برهنت على حقيقة حدوث هذه الظاهرة قيمتها فى أنها قد تدل - على وجه الاحتمال - على أن المجوس قد أعدت أذهانهم لحصول حادث عظيم فى وقت قريب . وهذا الترقب والانتظار (٣) هو الذى وجههم شطر فلسطين عندما ظهر النجم المؤقت الذي توجد لبزوغه أمثلة متعددة فى التاريخ ، ولكن ليس له شهادة صريحة في هذا الحادث بالذات إلا شهادة البشير .

ولا يجب بأى حال أن يرغم المرء ذاته على الرضى والاقتناع بتفاسير هذه الاقترانات الفلكية . إلا أنه بغض النظر عن مباحث علم الفلك ، فان كثيرين من

١ - يقول " سب " وهو مغرم بذكر مناسبات خيالية لا ترتكز على أساس، إن حادث الاقتران هذا فى مثلث السمك هو الذى جعل السمكة شعار الكنيسة ورمز المسيحيين !

٢ - ذكر هذا ويلر . والكلمة التى استعملها قد تدل على " نجم " أو " برج نجوم " . لكن لا يجب أن يغيب عن الأذهان أن هذه الظاهرة الغريبة حتى لو كان قد صحبها نجم مؤقت ، لاتطابق تماما ما جاء فى بشارة متى وإن ساعدتنا على تفسير اللغة التى كتب بها .

٣ - الغريب أن آبرنابل العظيم يقول فى تفسيره لسفر دانيال " إن اتحاد زحل والمشترى ينبىء دائما بحادث هام " وذكر خمسة أسباب يبرهن بها على أن منزلة السمك هى برج النجوم المتصل بحظ الاسرائيليين . ويقول أنه حصل اقتران مثل هذا قبل ولادة موسى بثلاث سنين . فلما حدث اقتران سنة ١٤٦٣ فى أيامه جعله يترقب ولادة المسيا وشيكا . ومما يجعل لهذا القول أهمية أن آبرنابل - على ما هو واضح - كان يجهل تماما الاقتران الذى حدث سنة ٧٤٧ رومانية .

الباحثين الفهماء والأمناء ـ ومن بينهم العظيم نيهور المشهود له أنه آخر من يساق ويرضخ للسذاجة أو الخرافة ـ يقولون انها لحقيقة واقعة ـ مهما اخترنا تفسيرها كيف شئنا ـ أن الكوارث الطبيعية والظاهرات غير العادية تحدث دائما وبغرابة فى زمن الحوادث الكبيرة فى تاريخ البشر . فلم يكن عن جهالة فاضحة أن اعتقد المجوس أن الظاهرة النجمية أمر له أهمية عظيمة . وحتى لو فرضنا جدلا أن علم الفلك نافل سخيف ، فليس من السخافة أن نقدر أن المجوس قد اهتدوا إلى الحق ولو عن هذا الطريق ما دامت رُوح الاخلاص والصدق كانت رائدهم . فتاريخ العلوم يعطينا أمثلة لا حصر لها ، ليس فقط للاكتشافات العظيمة التى وصلنا إليها ـ ولكن أيضا للنتائج الباهرة التى حصلنا عليها عن طريق أخطاء بريئة . كان شاول يبحث عن الحمير فوجد مملكة . وإن هذا إلا مثل لباحثين عديدين في عصور عديدة .

جاء المجوس إلى بيت لحم وقدموا للطفل فى مقره(1) الحقير العارى احتراما لم نسمع

---

١ ـ (مت ٢ : ١١) يظهر أن المذود أو الحظيرة كان مكانا مؤقتا للمسيح .



شاقل باركوشاب

هو شاقل سمعان باركوشاب أو باركوشيبا أى ابن النجمة . والنجمة التى فوق المذبح تظهر كيف أن اليهود ـ حتى بعد ثورتهم الثانية والأخيرة ضد الرومان ـ كانوا يتعلقون جدا برجاء اتمام النبوات قبل السبى عدد ٢٤ : ١٧ ـ ٢٤ . وحول المذبح نقش اسم سمعان أو سمعون الذى استدعى جولياس سيفيروس من بريطانيا سنة ١٣٤ ق.م لقمع ثورته . وعلى الوجه الآخر كتب " خلاص أوروشليم " تحيط بها أغصان الليمون وسعف النخيل رمز عيد المظال . ولقد اختارها سمعان المكابى كشارة وطنية على شاقله الذى سكه . واللغة التى نقشت على الوجهين هى اللغة السامرية . وأصل هذا الشاقل محفوظ بالمتحف البريطانى .

انهم قدموا مثله إلى ذلك المغتصب العاتى فى سرايه الفخمة [ثم فتحوا كنوزهم وقدموا هدايا ذهبا ولبانا ومرا] . وقد ارتأى المسيحيون الأولون أن لكل هدية منها مغزى خاصا . فبعضهم يقول إن المر دلالة على كونه انسانا ، والذهب على كونه ملكا ، واللبان على كونه إلها . ويقول غيرهم إن الذهب دلالة على قبيلة سام ، والمر على قبيلة حام ، واللبان على قبيلة يافث . ويقول غيرهم أيضا إن الذهب رمز ملوكيته ، واللبان رمز كهنوته ، والمر رمز آلامه .

وكل هذه الاستنتاجات نذكرها فقط لأنها ذات أهمية تقليدية لذيذة ، وأيضا لأثرها البادى في الأشعار والفنون المسيحية (١) .

١ ـ هوفمان وغيره ، وبعض الترانيم اللاتينية .



نخيل وسهل أريحا

الفصل الرابع

الهرب إلى مصر ومذبحة الأبرياء

من هؤلاء الذين يرفرفون بأجنحة الذهب
حول المولود ملك الملوك ؟ كيبل

كان طبيعيا أن يعود المجوس إلى هيرودس بعد أن قدموا هداياهم . ولكن إذ حذرهم الله فى حلم رجعوا إلى كورتهم عن طريق آخر . ولم يذكر الكتاب ولا التواريخ الموثوق بها حتى ولا التقاليد الأبوكريفية القديمة أى أثر آخر عنهم ، ولكن زيارتهم قد نجم عنها حوادث هامة جدا .

فالحلم الذى حذرهم من الخطر قد أذكى ما داخلهم من الشكوك من جهة الطاغية القاسي المرائى الذى أعلن بمكر رغبته فى تقديم الخضوع للملك الطفل . وان كانوا - كما نخال - قد ألمحوا ليوسف عن مخاوفهم وريبتهم ، فقد أعدوا بذلك فكره لحلم التحذير الذى أمر فيه أن يهرب إلى مصر ليحمى الوليد من غيرة هيرودس .

لقد كانت مصر فى كل الأجيال الحمى الطبيعى الذى يلجأ إليه من يضطره

البؤس أو الطمع أو الأضطهاد لترك فلسطين وكان يتمكن اللاجىء من أن يصل فى ثلاثة أيام إلى المنخفض (١) الذى وصفه ملتون بدقته الشيقة المعهودة « انه النهر الذى يفصل أراضي مصر عن أراضى سوريا » فاذا عبر اللاجىء إلى حده المقابل فقد أصبح آمنا بعيدا عن تحكم الطغاة .

ولا يذكر لنا الانجيل تفاصيل أخرى عن الهرب أو مدته وكل ما دونه أن الأسرة المقدسة قد هربت ليلا من بيت لحم وعادت بعد أن أوحي ثانية ليوسف في حلم أنه قد صار أمانا أن يرجع بالمخلص إلى أرض ميلاده . غير أن التقليد الأبوكريفي الذى ساعد على تخليده جمال الفن الايطالى يخبرنا أنه أثناء الطريق أتت التنانين وسجدت له . وجاءت الأسود والفهود وخضعت له . وأزهرت ورود أريحا في كل مكان وطأته قدماه . وانحنى النخيل بأمره ليجتنوا بلحه . وأرهبت اللصوص خشيته الملوكية . بل ان وقت الرحلة ذاته قد قصر بأعجوبة . ويقال أيضا انه حالما دخل أرض مصر وقعت الأصنام عن قواعدها بضجيج دفعة واحدة وتكسرت متناثرة ساقطة على وجوهها وأن البرص قد شفوا ، والذين تملكهم الشيطان برئوا بكلمة منه (٢) . وهذه وغيرها

١ ـ منخفض " الرينوكلورا " هو وادي العريش الآن، وهو عبارة عن واد منخفض مستعرض يكاد لا يكون له جانبان . ولكن أحيانا ككل أودية الصحراء يطغى عليه السيل بعد مطر الشتاء ويحوله إلى ما يقرب من النهر ولذا أطلق عليه نهر مصر فى (عدد ٣٤ : ٥) .

٢ ـ كثير من هذه التخيلات ربما كان ارتكانا على ما جاء فى (مز ١٤٨ : ٧ ـ سبحى الرب من الأرض أيتها التنانين وكل اللجج) و (اش ١١ : ٦ ـ ٩ ويلعب الرضيع على سرب الصل ويمد الفطيم يده على جحر الأفعوان) و (اش ٦٥ : ٢٠ الذئب والحمل يرعيان معا والأسد يأكل التبن كالبقر) و (اش ١٩ : ١ وحى من جهة مصر . هوذا الرب راكب على سحابة سريعة وقادم إلى مصر فترتجف أوثان مصر من وجهه ويذوب قلب مصر داخلها) . وقد أثرت كثيرا هذه التخيلات فى بعض المعتقدات عن يسوع . وقد اتهم بعض الحاخاميين يسوع بتعلمه السحر أثناء وجوده فى مصر ! فيقول الحاخام متاتيا إن الأعاجيب التى صنعها يسوع ـ وهو لا ينكر صحتها ـ إنما فعلها بما تعلمه من شعوذة المصريين .

من معجز العجائب الزائدة عن الحد ـ والتى لا غرض منها ولا ثمرة أو معنى لها ، والتي ارتآها الناس أولا لتعطشهم لكل ما هو فوق الطبيعة وثانيا لتطبيقهم الخيالى لبعض نبوات العهد القديم ـ انما تظهر لنا جليا البساطة الصادقة لأخبار الانجيل إذا ما قورنت بها. ولم يذكر لنا متى البشير أين أقامت العائلة المقدسة ولا مقدار الزمن الذى قضته فى هذا النفى ، ولكن التقليد القديم يقول انها قضت بعيدا عن فلسطين مدة سنتين (١) فى جهة المطرية (٢) التى تقع على بعد بضع أميال شمال شرق القاهرة حيث توجد عين ماء يقال ان يسوع قد حول ماءها الأجاج عذبا ، وشجرة جميز عتيقة يقال أن العائلة المقدسة استراحت تحتها. وانما ذكر البشير فقط أسباب هروبهم وعودتهم ورأى فى رجوعهم إتماما جديدا عميقا لكلمات هوشع النبي [من مصر دعوت ابنى] هوشع ١١ : ١ .

وقد أدى الهرب إلى مصر إلى حادثة مروعة . فاذ لم يرجع المجوس إلى هيرودس ازدادت أوهامه ومخاوفه وغيرته ظلاما وخبثا . ولم يكن لديه علامات يستدل بها على الطفل الملكي الذي من ذرية داود ، وما كان ليخطر على باله أن يفتش عنه فى حظيرة الغنم فى خان القرية . ولكنه كان متحققا أن الطفل ـ الذى أخبره المجوس بأنه سيكون مناهضا له أو ليته ـ كان رضيعا . ولما كانت الأمهات فى الشرق يرضعن أولادهن حولين غالبا ، فقد أصدر أمره الجائر أن يقتل كل أطفال بيت لحم [من ابن سنتين فما دون] . أما عن كيفية تنفيذ هذا الأمر فلا نعلم شيئا . ربما يكون الأطفال قد أعدموا سرا وتدريجيا بمختلف طرق القتل وربما ـ كما هو المشهور ـ فى ساعة واحدة بمجزرة (٣)

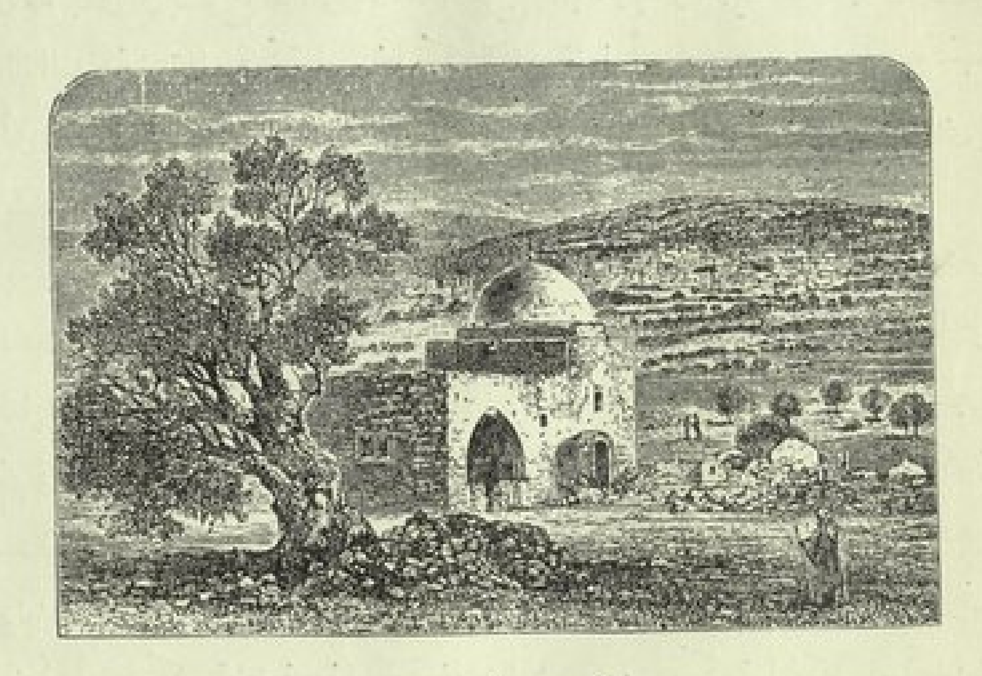
---

١ ـ يقول بوناڤنتيورا سبع سنين .

٢ ـ يظن البعض أن المطرية مدينة أون حيث عاشت أسنات امرأة يوسف والتى أقام فيها موسى . وإلى هذا المكان لجأ أونياس هاربا من غضب اينوخوس وأسس مستعمرة لليهود وبنى هناك مذبحا .

٣ ـ تذكر بعض الكتب أن هيرودس " أرسل قتلة إلى بيت لحم " .

مريعة . ومع أن أوامر الطغاة أمثال هيرودس تبرم دائما في الخفاء المكين، وترغم الناس على استكانة وسكوت لا يرتفع معه الصوت عن الهمس - فان عويل الألم ارتفع من امهات حرمن بقسوة بالغة من أولادهن الرضع ، ولم يستطع أحد أن يخفته . والذين سمعوا تذكروا راحيل جدتهن العظيمة - وقبرها جانب الطريق على بعد ميل واحد من بيت لحم - وكأنها شاركت مرة أخرى فى الصورة الأليمة التى رسمها النبي الحزين وعلا صراخها مع النواح والعويل الذى لأمهات بكين بلا عزاء أولادهن الصغار المقتولين (١) .



قبر راحيل

قد يتسرب الشك لأذهان البعض فى تصديق ارتكاب هذه الجريمة الشنيعة الفظيعة ، لأن الأفكار قد هذبتها المسيحية تسعة عشر جيلا . ولكن أعمالا شبيهة بهذه في شناعتها كثيرا ما حدثت في سير الطغاة من الحكام الكافرين وفى

١ - (ارميا ٣١ : ١٥) قيلت هذه النبوة أصلا عن السبي ، ثم تمت فى حادثة قتل الأطفال .

تاريخ العالم القديم . فقتل الأطفال وبصورة أفظع مما فعل هيرودس كان أمرا شائعا فى زمن الامبراطورية الرومانية . ويمكن إيراد مثيلات لمذبحة الأبرياء وللأسباب التى أوجبتها . فقد ذكر سوتينوس فى كتاب تاريخ حياة أوغسطس نقلا عن كتاب حياة الامبراطور تأليف معتوقه جوليوس ماراثوس [انه قبل ميلاد أوغسطس ذاعت شائعة في روما أن ملكا سيولد وشيكا ويحكم الشعب الرومانى . فلكى يدرأ هذا الخطر عن الجمهورية ، قرر السناتو ان كل الذكور الذين يولدون فى هذه السنة يجب أن يهملوا ويشردوا حتى يموتوا . ولكن أعضاء السناتو الذين كانت زوجاتهم حاملات عارضوا فى تنفيذ هذا الأمر إذ طمع كل منهم أن تكون هذه الشائعة خاصة بابنه الذى سيولد» (١) ويروى يوسابيوس (٢) عن هيجيسبوس اليهودى المولد أن دومتيان إذ خاف من اسم المسيح وقوة انتشاره أصدر أمره بأبادة جميع الباقين من نسل داود . وكان على قيد الحياة حفيدان ليهوذا أخى الرب يدعيان ابنا ديسبوسينى (٣) ، فوشى بهما وثنيان - جوكاتس ورجل ناصرى - فجاءوا بهما أمام الامبراطور ، وعندما رأى دوميتان انهما فلاحان بسيطان قد تخشنت أيديهما من أثر كدهما ، صرفهما من حضرته وشيعهما محتقرا لشأنهما راثيا لحالهما .

لقد حامت الشكوك حول مذبحة الأبرياء مع أنها تتفق تماما وما نعلمه عن أخلاق هيرودس . والخلتان البارزتان فى صفات ذلك الملك الخبيث هما طمع أشعبي لا حد له ، وغيرة قاتلة (٤) لا نهاية لها . ولذا اصطبغت أيام حكمه كلها باللون القانى من دماء القتلى .

لقد ذبح كهنة ونبلاء ، وأفنى السنهدرين . وتسبب فى اغراق عظيم الكهنة وصهره

---

١ - تاريخ سوتينوس عن أوغسطس . هذه القصه ليس لها قيمة تاريخية ، ولكنها تظهر بوضوح أنه كان جائزا قتل الأطفال شرعا ، كما يعتبر للآن فى الصين أن قتل الأطفال مما لا يشين .

٢ - التاريخ الكنسى . ٣ - ذكر هذه الحادثة جوليوس من مواليد عمواس فى أوائل الجيل الثالث ، وقال انه كان يعرف الحفيدين شخصيا . ٤ - تاريخ يوسيفوس .

والنبيل أرسطوبولس أثناء ألعاب مفتعلة أمام عينيه . وأمر بخنق زوجه الأزمونية المحبوبة الأميرة الجميلة مريمنى ، مع انها على ما يظهر كانت المخلوق البشرى الوحيد الذى أحبه كثيرا (١) . ولقد وقع فريسة لمحبته لسفك الدماء ولأراجيفه ومخاوفه جمع غفير جدا منهم أولاده اسكندر وأرسطوبولس وأنتيباتر ، وخاله يوسف ، وخال زوجه انتيجونس ، وأبوها اسكندر ، وحماته اسكندرة ، وقريبه كورتوبانوس ، وصديقاه دوسيثيوس وجادياس . وقد نجا بأعجوبة أخوه فيروراس وكذلك ابنه أرخيلاوس من الموت الذى دبره لهما . ولم يشفع شباب الأمير أرسطوبولس ولا مشيب النبيل هيركانوس ، فلم ينجوا من بطشه الغضوب الخداع .

وامتاز عهد هذا الطاغية بالافناء بالخنق ، والحرق ، وتمزيق الجسم إلى نصفين ، والقتل الخفي ، وانتزاع الاعترافات بتعذيبات لا توصف ، ورذائل شهوة فاسقة وغير طبيعية ، حتى اشتكى عليه سفراء اليهود لدى الملك أوغسطس قائلين « إن الذين بقوا أحياء أثناء حكمه كانوا أتعس من الذين أصابهم بطشه » (٢) . ومثل هنرى الثامن كان كل خلق وحشي وكل خلة سوداء تزدادا بأسا وقوة كلما قاربت حياته نهايتها . كانت تعذبه أشباح زوجه القتيلة وأولاده المذبوحين ، وتزعجه العوامل المتضاربة للقتل والندم . فاعترت ذلك « البهيم القاسى » - كما أسماه يوسيفوس - وحشية مرة افترست كل من احتك به (٣) .

---

١ - إن شعور هيرودس نحو مريمنى التى كانت أميرة مكابية ولها أحقية فى العرش أكثر منه يماثل يشابه شعور هنري السابع نحو اليصابات ، وعلى نوع ما شعور وليم الثالث نحو الملكة مارى . وكان هيرودس يعلم تماما أن ملكه متوقف فقط على " الرومان الجبابرة " ، فقتل ارسطوبولس وعمره ١٨ سنة وهركانوس وعمره ٨٠ سنة وقد كرههما على حد سواء لأنهما كانا مكابيين ومحبوبين من الشعب . ولا شك أن أرواحا شريرة قد حامت حول فراش موت ذلك المجرم الكبير أكثر من الأشباح التى جعلها خيال شكسبير تتجمع حول سرير ريتشارد الثالث .

٢ - يوسيفوس . ٣ - يقول ولجز " انها لعائلة تعسة غريقة فى لجة الدماء أكثر من غيرها إلى جيلها الثالث . فأحدها اصطبغ بدماء الأطفال الأبرياء ، والثانى بدم يوحنا المعمدان ، والثالث بدم يعقوب الرسول بذبحه بحد السيف . واشتهروا جميعهم بمناهضة يسوع " .

فليس غريبا أن يرتكب رجل وحشي بربري له ستار رقيق من المـــدنية السطحية الفاسدة ما سجله متى البشير .

على أنه يمكن تحقيق هذا الحادث بدلائل أخرى مستقاة من مراجع مختلفة . فقد ذكر ماكروبيوس أنه عندما وصل إلى علم أوغسطس أن بين الأطفال من ابن سنتين فما دون الذين أمر هيرودس بذبحهم كان ابنه ذاته ، قال « خير للمرء أن يكون خنزيرا لهيرودس من أن يكون ابنا له »(١) . ومع أن ماكروبيوس أخطأ في زعمه أن أنتيباتر قتل في مذبحة الأبرياء - والحقيقة أنه قتل في وقت قريب منها - إلا انه واضح من ذكره « كلمة أوغسطس اللاذعة » انها اشارة بينة عن تلك المذبحة المروعة .

تساءل البعض عن السبب الذي جعل يوسيفوس لا يشير في تاريخـــه إلى هذا الحادث الشنيع الذريع ، والجواب انه ربما يكون قد ارتكب في السر والخفاء فلم يصل إلى علمه وربما أيضا لأنه في تلك الأيام المظلمة لم يكن قتل الأطفال - نتيجة لريبة عارضة - شيئا مذكورا في جانب جدول مذابح هيرودس (٢) . أو ربما يكون قد عمل مثل نيقولاوس الدمشقي الذي سكت عن ذكر هذه الحادثة وكتب بروح ندماء الملوك ، وحاول أن يجعل من ذلك الغاصب الملطخ بالدماء سياسيا فاضلا . فأكبر وأفاض في

---

١ - تأتي كلمة " خنزيرا وابنا " في اليونانية على روي واحد . وعنى أوغسطس انه لما كان هيرودس يهوديا فلا يأكل الخنزير ولا يذبحه فيكون الخنزير أكثر اطمئنانا على حياته من ابنه وكان لا بد لهيرودس أن يستأذن أوغسطس قبلما يأمر بقتل أحد أولاده . وانتيباتر الثالث من أولاده الذين لاقوا حتفهم ، فقتل قبل موت هيرودس بخمسة أيام . عاش المؤرخ ماكروبيوس سنة ٤٠٠ ميلادية ولكنه استعان بمصادر قديمة أصلية . وجملة " الخنزير والابن " ذهبت من بعده مثلا .

٢ - قد بولغ في عدد الأطفال كثيرا حتى ان أحد التقاليد الحبشية يقول انهم كانوا ١٤٠٠٠ طفل ولكن بيت لحم لا يتجاوز سكانها جميعهم ٢٠٠٠ نفس فيكون من حيز الصدق ان يعتقد أن الذين ذبحوا كانوا حوالى ٢٠ .

المعرب : لا يمكن تحديد العـــدد بالضبط .

صفات ولى نعمته وخبأ أو تلطف فى ذكر كل جرائمه (١). وربما على الأرجح لأن يوسيفوس مع إنا مدينون له بكنوز أدبية عظيمة فلا يمكننا إلا اعتباره متعصبا متحيزا لم يشأ أن يدون من الحوادث ما له ارتباط ـ حتى وإن كان بعيدا ـ بحياة المسيح. والفقرة الوحيدة التى وردت فى تاريخه عن المسيح كانت حشوا إن لم تكن تزويرا، ولا يستطيع أحد أن ينكر أن سكونه عن موضوع المسيحية كان عن تعمد وإصرار وعدم أمانة.

ومع أن يوسيفوس لم يذكر صراحة أى شيء عن هذا الحادث بالذات، فان كل ما دونه عن هذه الفترة من حياة هيرودس يثبت احتمال وقوعها. فقد دون أن المعلمين اليهوديين المفوهين يوداس ومتياس أمرا تلاميذهما أن ينزلوا النسر الذهبي الذى علقه هيرودس على باب الهيكل الكبير. ويقول يوسيفوس أنه قد شجعهما على هذا السعى الجرىء شائعة سابقة لأوانها أن هيرودس قد مات. ولكن لاردنر يظن ـ وليس ظنه ببعيد ـ أنه قد شجعهما ترقب مجىء المسيا الذى قوي الرجاء بقربه زيارة المجوس. وقد

---

١ ـ كان نيقولاوس صنيعة لهيرودس كما كان ماريكولوس لطيباريوس. ورأى يوسيفوس نفسه فى أمثال هؤلاء الرجال ندماء هيرودس ومقبليانه (الجزء الرابع من تاريخه). أما عن يوسيفوس فتاريخه هو أشد من حكموا عليه. لأن تاريخه يشهد عليه انه كان ذا خلق ردىء، ماكرا، فريسيا. وربما يكون قد حذف كل ما له علاقة بالمسيح لأنه كان فى شك من جهته. إلا أن المؤكد أنه كان ضدا للمسيحية (أوريجانوس). وليس شيء أعم عند كل المؤرخين وكتاب السير مثل خلتهم فى الاخفاء عمدا؛ والسكوت عن الحوادث التى لا توافقهم. ولقد أهمل مؤرخ معاصر لهم اسمه يسطس طيباريوس ذكر هذه الحادثة. ولكن هل يشك أحد فى مقتل كريسبوس لمجرد أن المؤرخ يوسابيوس لم يذكر ذلك فى مؤلفه عن حياة قسطنطين؟ ومع كل ذلك فقد وردت اشارة فى تاريخ يوسيفوس ـ ولو أنها بعيدة غامضة ـ تشير إلى هذه الحادثة وأسبابها؛ وتذكر كيف أن هيرودس ذبح عددا من الفريسيين وآخرين لأنهم تنبأوا " أن الله حكم بانقضاء مملكته وحرمانه من النجاح ". واشارة أخرى ـ ولو أن هذا ليس موضع اقتباسها ـ أن احتجاجات قد رفعت ضد هيرودس من أمهات الذين قتلهم.

خاب هذا السعى ، وهزم يوداس ومتياس ، وحرق أربعون من تلاميذهما أحياء . فلا غرو إذا كان يوسيفوس - مع هذه الجرائم التى تلطخ كل صحيفة من تاريخ هيرودس - قد أهمل ذكر القتل الخفى لعدد من الأطفال الرضع فى قرية صغيرة . فدمهم لم يكن سوى قطرة من نهر الدماء القانى الذى غرق فيه هيرودس حتى أذنيه .

وقد مات هيرودس بعد حادثة قتل الأبرياء بقليل . وقبل موته بخمسة أيام حاول محاولة جنونية أن ينتحر ، وأمر بقتل أكبر أولاده ، أنتيباتر . وقد كان فراش موته الذى يذكرنا مرة أخرى بهنرى الثامن ، محوطا بأهوال مريعة . ومات بمرض قذر (١) نادر لا يحدث إلا للرجال الذين يتصفون بالغيرة الشنيعة القاتلة (٢) .

وحينما دنت منيته ، نام مسجى على سرير من الذعر المخيف فى سرايه الفخمة الأنيقة التى شيدها لنفسه تحت نخيل أريحا . نام ... ! منتفخ الجسم من المرض ، يابسا من العطش ،مصابا بقروح فى ظاهر البدن ، بينما تحرق باطنه نيران هادئة بطيئة ،محوطا بأبناء متآمرين دساسين ، وعبيد ناهبين سالبين ، كارها للجميع ومكروها من الجميع ، مشتاقا إلى الموت ليضع حدا لآلامه، هالعا منه لأنه مبتدأ ويلات أشنع وعذابات أشد. يلسعه تأنيب ضميره ولكن لم تنطفىء فيه محبة القتل . رعب لكل الذين حوله ولكن فى قرارة طويته رعب أعظم لنفسه . ابتلعه الفساد العاجل قبل دخوله إلى القبر الفاتح فاه ، وأكلته الديدان حيا كأنما ضرب عيانا بأصبع غضب الله بعد سبعين عاما قضاها ناجحا فى الشر ،ضاربا بسهم وافر فى السفالة . ذلك العجوز البائس الذى أسماه الناس

---

١ - هو مرض التقمل أي ابتلاء الجسم سيما العانة بالقمل والقروح الناجمة عنه . "ها قد مات هيرودس اشنع ميتة جزاء وفاقا لدم الأطفال المهرق " .

٢ - أمثال فراتيا ، أنترخوس ، سيلا ، مكسيميان ، ديكلوتيان ، هيرودس الكبير ، هيرودس أغريبا ، دوق ألفا ، هنرى الثامن الخ . (هذا الرأى كان دارجا طبيا فى القديم) .

« الكبير » (١) نام مسجى يفترسه الخبل منتظرا ساعته الأخيرة .

وإذ كان موقنا أنه لن تسكب عليه دمعة واحدة ، فقد أصر على أن يجعل العديدين يذرفون الدمع الغزير على أنفسهم . فأصدر أمرا - يجازى كل يخالفه بالموت - بدعوة رؤوس العائلات الكبيرة الذين فى المملكة وزعماء القبائل إلى أريحا . فجاءوا ، وعندئذ أغلق عليهم ملعب الخيل ، وأسر إلى أخته سالومى أن يذبحوا ساعة موته . وكأن روحه التى كانت تخنقها الدماء صارت تتحايل حتى ساعة حشرجتها على ارتكاب المجازر . وأخيرا نفقت روح هيرودس ليلا .

ووضعوا الجثة فى ثياب قرمزية على نعش فخم مع تاجه وسيفه وأحجاره الكريمة . وشيعوه بمظاهرة عسكرية بالغة ، وأحرقوا البخور أمامه . ووارده التراب في مدافن الهيرودين التي لا تبعد كثيرا عن المكان الذى ولد فيه المسيح . وتبخر سحر الحكم الهيرودي ، وتحقق الناس بطلان فتنته البراقة . واعتبر يوم وفاة هيرودس عيدا عاما . ولقد كان قبل موته يتوقع مثل هذه الشماتة . ولم تحترم وصيته ، ومزقت مملكته ، وخولف أمره الأخير . ومات أغلب أولاده الباقين في النفى أو المذلة . وحلت لعنة الله على بيته . ومع أنه كان له عشر زوجات ، وعديد من السرارى ، ورزق تسعة أولاد وأربع بنات ، فبعد مضى قرن واحد بادت عائلته عن بكرة أبيها . أفناها المرض والسيف ، ولم يتبق حفيد واحد ليخلد اسمه وذكره .

إن كان اعلان يوسف بموت هيرودس قد حدث بعد وفاته مباشرة ، فان الاقامة بأرض مصر كانت أقصر من أن يكون لها تأثير على النمو الجسدى لربنا يسوع . وربما كان هذا هو السبب في أن لوقا البشير لم يذكر أى شىء عنها .

ويظهر أن يوسف عقد النية على استيطان بيت لحم مدينة أجداده التى تقدسها

---

١ - لقب بالكبير فى السنة الثانية والثلاثين من حكمه إما لطول عمره ، واما للدلالة على أنه ملك على فلسطين وليس رئيس ربع أو وال (ايوالد) وأغريبا ملك عملته هكذا (أغريبا الكبير)



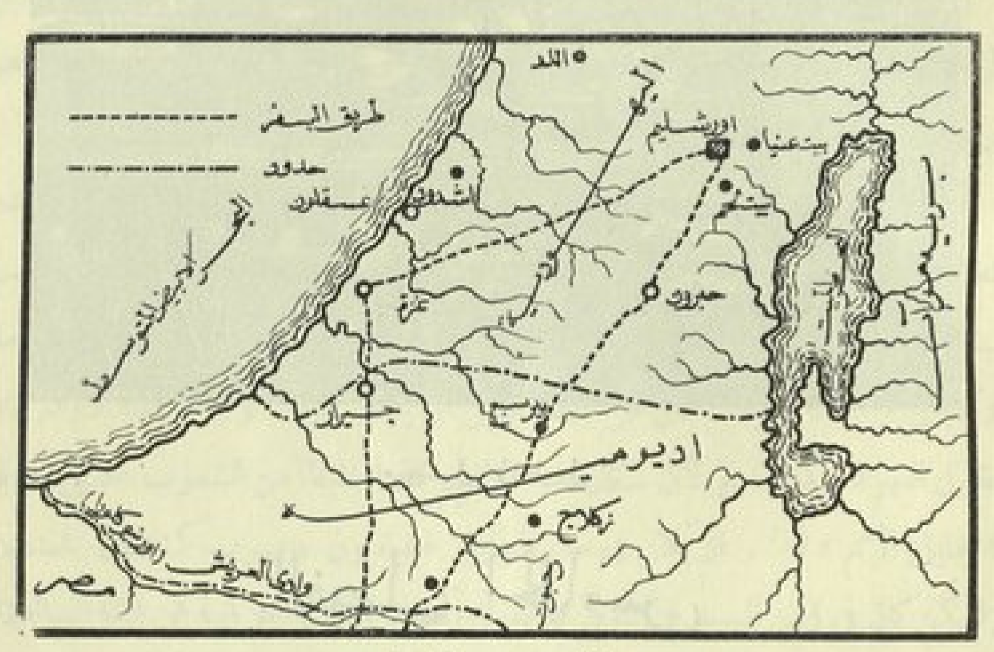
الباب الذهبي في أورشليم

ذكريات عديدة ، جميلة ومجيدة . وكان من السهل عليه كسب قوته هناك ، فان صناعته تكفي ـ في أي مكان ـ لسد الحاجات البسيطة لعائلة قروية . حقيقة انه من الصعب أن يترك الشرقي بلده ، ولكن إذا اضطرته الظروف لذلك فمن السهل عليه استيطان أي مكان آخر . ولهذا اعتزم الرجوع إلى بيت لحم لقرب هذه البلدة الصغيرة من أوروشليم ولأنه وجد فيها جاذبية كبيرة سيما بعد الحوادث الأخيرة . ولكنه علم وهو في الطريق أن أرخيلاوس يملك (١) عوضا عن أبيه هيرودس . وقد كان يسر الناس لو أنهم تخلصوا نهائيا من حكم الآدوميين أو على أسوأ تقدير كانوا يرغبون في حكم انتيباس بدلا من أرخيلاوس . ولكن أوغسطس ـ على خلاف ما ينتظر ـ قد حابى أرخيلاوس الذى اختاره أبوه وريثا له في وصيته مع انه أصغر من انتيباس أخيه . وكأن أرخيلاوس أراد أن يبرهن انه ابن أبيه فقبل أن تصادق السلطات الرومانية على وراثته ، أراد ـ كما يقول يوسيفوس ساخرا ـ « أن يقدم مثلا من فضائله المستقبلة ! » فأمر بذبح ٣٠٠ من مواطنيه في الهيكل . فواضح انه لن يكون رجاء ولا أمان في ظل حكومته . واطاعة لاعلان آخر عن ارادة الله ، رجع يوسف ومريم مرة ثانية إلى وطنهما الأصلي و [انصرف إلى نواحي الجليل] حيث مكث في مكان هادىء في حمى الفقر والعزلة

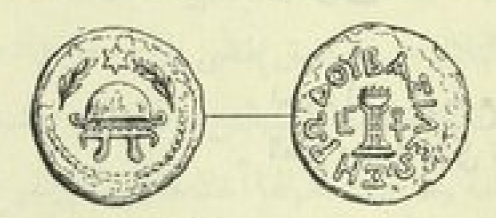
---

١ ـ (مت ٢ : ٢٠ (لأنه قد مات جميع الذين كانوا يطلبون نفس الصبي) بالجمع ربما إطلاقا وربما استشهادا بما جاء في (خر ٤ : ١٩ وقال الرب لموسى .... ارجع إلى مصر لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك) . أيد الجيش أرخيلاوس وملكه ولكنه أرغم على التنازل عن اللقب . الكلمة اليونانية الدالة على العودة من مصر يفهم منها الرجوع عقب الوصول . والوقت الذي بين وفاة هيرودس وبين الوقت الذى اتخذ فيه أرخيلاوس لقب " ملك " قصير إذ أنه لما سافر لروميه للتصديق عليه أبى أوغسطس الا تسميته " رئيس ربع " . وكان في هذه الفترة اتخذ لنفسه عنوان الملوكية وجلس على عرشها الذهبي كما جاء في التهمة التى رفعها ضده أنتيباتر . وفي هذه الفترة القصيرة يطلق عليه يوسيفوس " ملكا " . فمن المدهش انه في الوقت الذى يفكر فيه البعض بأن يتهم البشيرين بعدم الدقة ؛ لو تأنوا وبحثوا لوجدوا أن أولئك البشيرين هم الأكثر دقة .

لتعيش العائلة المقدسة فى أمان تحت حكم ابن آخر لهيرودس هو أنتيباس الذى وإن كان مثل أخيه ضعيف المبادىء والصفات إلا انه كان متراخيا عديم الاكتراث .



خريطة جنوب فلسطين



عملة هيرودس الكبير

عملة هيرودس الأول الملقب بالكبير على وجهها خوذة لها سيور للصدغين وإلى جانبيها سعفتا نخيل تتوسطهما نجمة . تشير فى الغالب إلى فتحه أوروشليم إذ هى علائم النصر . أما زمن انتصاره فيشار إليها بالمبخرة المستقلة ذات الأرجل الثلاثة وحواليها حرف "الملك هيرودس" والعلامة التى على الجانب هى رمز الحياة عند المصريين والأشوريين وتاريخها سنة ٣٨ م وهذه العملة مصنوعة من النحاس وهى أصغر عملة .



سهل يزرعيل

الفصل الخامس

حداثة يسوع

اجتهد أن ترجع وتصير ولدا صغيرا مع
الصبي يسوع لكي تنمو معه . بونافنتيورا

ربما تكون جغرافية فلسطين أوضح تقويم جغرافي في العالم . إذ يمتد موازيا لشاطىء البحر الأبيض المتوسط سهل شبهالا وسهل البحر ولا يبرز فيهما إلا جبل الكرمل . وتمتد محاذية لذلك سلسلة طويلة من التلال غريبة الشكل مفرطحة القمم ، تنحدر من الجهة الشرقية إلى فج عميق هو الغور أو وادي الأردن . وبعد وادي الأردن ترتفع شامخة جبال موآب وجلعاد وهي سلسلة الجبال

القرمزية المتقاربة . وعلى ذلك فطبيعة البلاد من الشمال إلى الجنوب عبارة عن أربعة مناطق متوازية : شاطىء البحر ، ومنطقة التلال ، ووادى الأردن ، وسلسلة الجبال .

وتنقسم منطقة التلال وهى الواقعة بين سهل البحر الفسيح ووادى الأردن العميق إلى قسمين يفصلهما سهل يزرعيل . فالقسم الجنوبى المكون من التلال الكلسية هو أرض اليهودية ، والقسم الشمالى هو أرض الجليل .

كلمة « جليل » عبرانية ومعناها « الدائرة » . وأطلق هذا الاسم أولا على المدن العشرين التى فى دائرة قادش ونفتالى التى منحها سليمان لحيرام لاسعافه في نقل الخشب لبناء الهيكل . فلما خرج حيرام ليراها ، لم تحسن فى عينيه وأسماها فى اشمئزاز كامل « كابول » [١] . وهكذا كان من حظ الجليل أن يحتقر دائما . وتزايد هذا الازدراء فى عقول اليهود منذ القديم لأن سكان هذا الاقليم كانوا خليطا من الشعوب حتى عرف « بجليل الأمم » [٢] . فلم يكن فى مدن الجليل فينيقيون وعرب كثيرون فحسب ، ولكن كان في زمن السيد يونانيون عديدون أيضا . وكانت اليونانية هى اللغة السائدة .

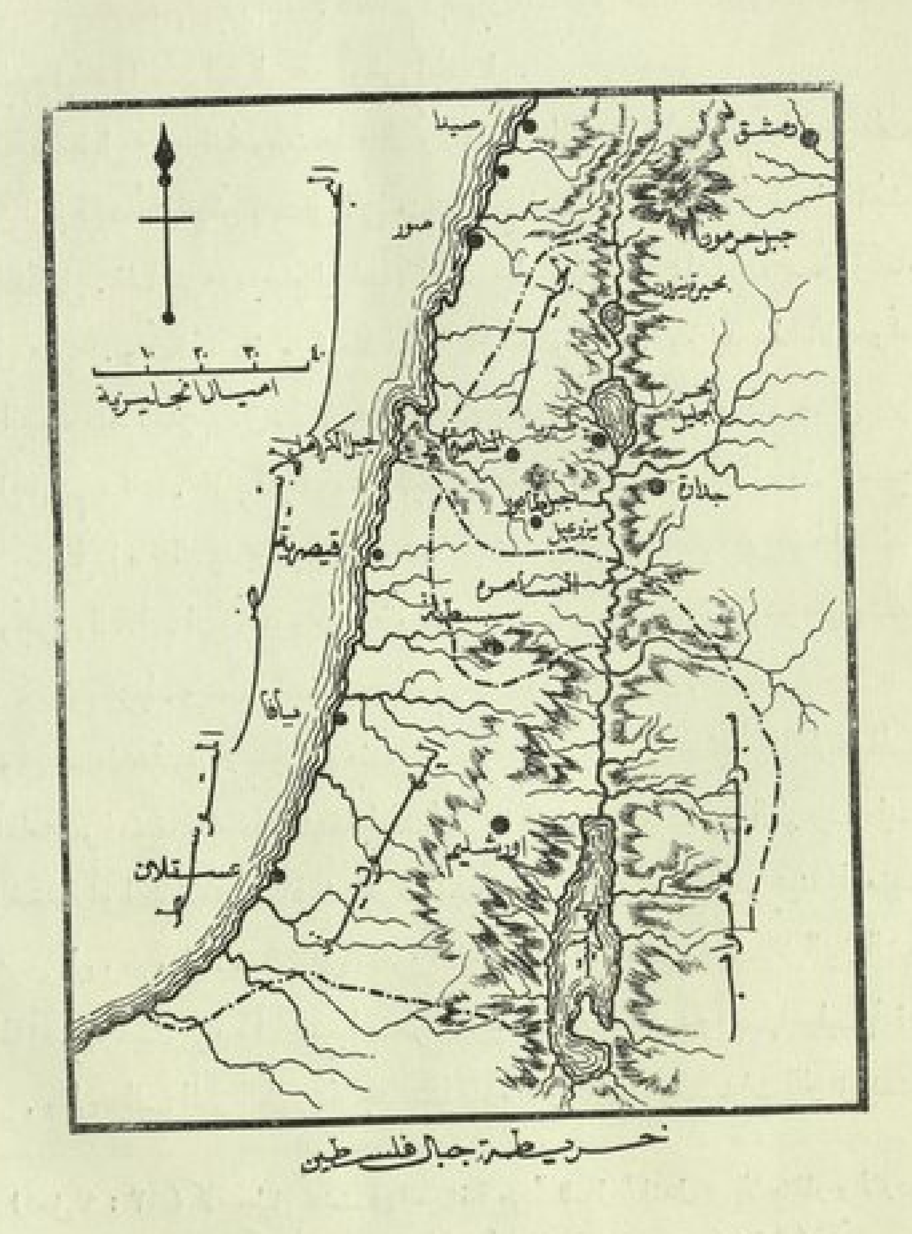
وتجرى التلال - التى تحد وادى يزرعيل شمالا - من وادى الأردن شرقا إلى شاطىء البحر الأبيض غربا . وينحدر سفحها الجنوبى إلى أرض زبولون .

وفى وسط هذه التلال جرف ضيق يفضى إلى مدخل واد صغير إذا طرقه المسافر رأى أمامه ممرا ضيقا ، عميقا ، منمقا بالحشائش والأزهار ، ومناظره الطبيعية ليست بالغة الفخامة أو الضخامة ومع ذلك فجمالها أخاذ خلاب. ثم ينفرج الممر يمينا إلى منبسط عرضه حوالى ربع ميل ، مقسم إلى حقول صغيرة وحدائق مسورة بفسائل التين الشوكى التي إذا أصابها غيث الربيع أكسبها منظرا لا يوصف هدوءه ، وألبسها جلبابا نضرا أخضر . وإلى جانب الممر الضيق توجد عينا ماء متقاربتان ، والسيدات اللواتى يستقين

---

١ - (١مل ٩ : ١٣) كلمة جليل نحتت فى العبرانية من " كابول " لتدل على الاحتقار والازدراء .
٢ - (قض ٤ : ٢ وهو ساكن فى حروشة الأمم) (اش ٩ : ١ مت ٤ : ١٥) .

منهما أكثر جمالا ممن يصادفهن المسافر في أى مكان آخر . وكذلك يري المسافر أولاد الرعاة الذين يلعبون جوار النبعين حمر الوجوه وعيونهم صافية ، بملابسهم الشرقية البهيجة الألوان - يراهم أجرأ ، وأذكى ، وأسعد من غيرهم .



خريطة جبال فلسطين

ثم ينفرج المنبسط رويدا رويدا وينتهي إلى مدرج طبعى من التـــلال - يظنه بعضهم فوهة بركان مندثر - يعلوه تل يرتفع نحو خمسمائة قدم تنتثر على قمته - كما تنتثر حفنة من لؤلؤ على كرة من زبرجد - الشوارع الضيقة والسطوح المنبسطة لقرية شرقية صغيرة بها كنيسة ضيقة ودير شامخ البناء . وقد بنيت بيوتها من الحجر الأبيض، تتخللها حدائق غناء عامرة بأشجار الزيتون والتين، وزهر البرتقال الأبيض ونوار الرمان الأحمر . وبها نافورة صافية كثيرة المياه . ويظهر المكان سيما فى الربيع مبهجا لطيفا . ويرجع اليمام على الشجر ، ويرفرف الهدهد فى نشاط ، ويمرح الأخيل الأزرق - أحب الطيور فى فلسطين وأعمها - مثل الفيروز المنثور فوق الحقول المنمقة بشتى الزهور . تلك البلدة الصغيرة هى الناصرة (١) حيث قضى ابن الله مخلص البشر زهاء الثلاثين عاما من حياته إذ كانت موطنه ومكان سكناه كل أيامه على الأرض ما خلا ثلاث أو أربع سنين . وهى القرية التى أعارته اسمها المحتقر في ذلك الوقت ليكتب استهزاء فى عنوان الصليب ، والتى لم يأنف هو أن ينسب ذاته إليها عندما تحدث فى الرؤيا مع شاول (٢) . ولا شك أن قدميه الطاهرتين كثيرا ما سلكتا هذا الدرب الضيق الذى وصفناه لأنه الطريق الوحيد الذى لا بد أن يمر فيه إذا ما عاد من أوروشليم إلى منزل طفولته وصبوته ورجولته .

يتبادل إلى ذهن كل مسيحى أن يتساءل باحترام عميق وشغف وتعطش كيف أمضى السيد هذه السنوات الثلاثين ؟ أما كلمات البشائر التى تحجبه فقليلة جدا وهادئة جدا .

---

١ - لم يرد ذكر للناصرة فى العهد القديم . إلا إذا كانت هى "ساريد" التى تعتبر الحد الفاصل لميراث سبط زبولون (هو ١٩ : ١٠ - ١٢) لأن الموضع ينطبق عليها تماما . ولكن من الصعب أن نوافق أن "ناصرة" هى تحريف "عين ساريد" كما يقول البعض . وكثيرون يقرنونها إلى كلمة "نصتر" أى الفرع وإلى ذلك أشار ابيفانيوس إذ مثلها بوردة تتفتح وأسماها "وردة الجليل" . ولم يذكرها يوسيفوس .

٢ - يو ١٩ : ١٩ و لو ٢ : ٥١ و اع ١٢ : ٨ .

يمر اثنان من الأربعة البشيرين بسكوت تام على هذه السنين ، وهما يوحنا الرسول الحبيب ، ومرقس صديق بطرس وابنه (١) . أما متى البشير فيخصص أصحاحا لزيارة المجوس والهرب إلى مصر ، ثم ينتقل إلى كرازة يوحنا المعمدان . ولكن لوقا وحده بعد أن ذكر لنا حوادث التقديم إلى الهيكل ، دون لنا واقعة واحدة مهمة عن صبوة مخلصنا وآية واحدة غالية تصف نموه إلى أن بلغ الثانية عشرة . وهذه الآية لا تروى من تعطشنا ولا تشبع من غريزة حب الاستطلاع فينا ، ولا تعطينا أية تفصيلات عن حياته ولا عن حوادثه أو اختباراته ، ولكنها تخبرنا فقط كيف انه فى طفولته الحلوة المقدسة [... كان ينمو ويتقوى ممتلئا من الحكمة ونعمة الله كانت عليه] لو ٢ : ٤٠ . ولهذه الفترة من حياته يمكننا أن نضيف أيضا الآية التالية [وكان يسوع ينمو فى القامة والحكمة والنعمة عند الله والناس] (٢) . كان نموه نموا عاديا . ولم يظهر قوة خارقة ، ولكنه جرب ضعفات واختبارات الطفولة البشرية . ونما كما ينمو غيره من الأطفال ، إلا أن طفولته كانت بلا دنس ولا خطية ، ولها جمال زنبقة الربيع بين الورود ، والسوسنة على مجاري المياه .

ويوجد ما يقرب من الاجماع بين البشيرين الأربعة على الصمت وعدم ذكر شيء عن هذه الفترة ولكن أية بلاغة فى هذا الصمت ! ألا نجد فى سكوتهم حكمة ودروسا أقوى وأكثر مما لو كانوا قد ملأوا مجلدات مطولة بتفصيلات دقيقة .

فنحن نتخذ من سكوتهم دليلا واضحا وبرهانا ساطعا على أمانتهم ، وعلى انهم رغبوا فى قول الحق الصريح ولم يؤلفوا مجرد أخبار غريبة تستدعى الاعجاب . ونتعلم أيضا أن يسوع قد قضى ثلاثين عاما من سنى حياته القصيرة فى عزلة تامة فى قرية ريفية . وانه نشأ ليس فقط في مملكة مغلوبة على أمرها ، ولكن في أحقر ولاياتها ،

---

١ - (١ بط ٥ : ١٣ ... ومرقس ابنى) .
٢ - (لو ٢ : ٥٢ قارن عب ٥ : ٨) .

وفى أقل ودياناها أهمية (١). وانه طوال هذه السنين سكنت ألوهيته التى لا يخبو ضياؤها فى خيمة مثلنا ومن نوع التى لنا دون أن تلحظ أو تعرف . وخلال هذه السنين لم تحصل حادثة مدهشة ولم تحدث أعجوبة خارقة ولم تظهر سبعة طغمات الملائكة مهللين موقعين على قيثاراتهم ليعلنوا ويمجدوا الملك الآتى - وهذا ما لم نكن نتوقعه وما لا يمكن لأى انسان أن يخترعه أو يتخيله .

ونحن ما كنا ننتظر هذا ولكنه كان كذلك ، وقد تركه البشيرون كما هو . وإذا كانت هذه الحقيقة تخالف كل ما كنا ننتظره ، فهذا برهان أيضا على صحة ما كتبوه ، برهان قوى لأن الرسل - كما نعلم يقينا - كانوا مثلنا في عواطفهم وميولهم ، فلو أن حادثة واحدة مجدت طفولة المسيح ، لما تأخروا كشهود أمناء عن ذكرها بل لو كانوا غير أمناء فحتى بدون أن يحدث شيء من الأمجاد ، لما تأخروا مطلقا عن اختراعها وذكرها. ولكن طرق الله تختلف عن طرق الناس . ولهذا كان الصدق الذى سجلوه بصمتهم هو إفصاح عن طرق الله ، مع انه يخالف كل ما يمكن أن يتصوره الانسان ، ويخيب ما كنا نشتهى أن يكون لو لم نكن قد استترنا . وهذا الصمت - من جهة أخرى - يتمم ما جاء عنه فى النبوة القديمة [نبت قدامه كفرخ وكعرق من أرض يابسة] اش ٥٣: ٢ وما ذكر عنه فى قول لاحق [لكنه أخلى نفسه آخذا صورة عبد] فى ٢ : ٧

ولكن إذا طالعنا الكتب المفتعلة نرى الفرق الكبير بين صدق الحقائق الالهية وكذب المشتهيات البشرية.ونرى كيف أن رواة القصص المسيحية سواء كانوا مسيحيين أو هراطقة قد طاوعوا منحى فكرهم البشرى غير الروحانى فأحاطوا صبوة المسيح بهالة من العجائب وأظهروها هائلة مخيفة غير طبيعية بل ومنفرة ، ولو أن يد الكذب أو الختل أو حتى يد الخيال قد امتدت ومست تلك الصورة الالهية الكاملة ، فلا بد أن

---

١ - ما ورد فى (اشعيا ٩ : ١ و ٢) يدل على حطة شأن الجليل .

تشوهها وتحط من قيمتها . وهذا دليل ثابت وقوى على أن البشيرين قد هداهم روح الله وهم يدونون كيف عاش ذاك الذي أعلن فيه الله للناس . ولا نعلم هل قصد كتاب الأساطير أن تؤخذ حكاياتهم كوقائع تاريخية أم كروايات خيالية ، غير انا نعلم حقا انهم قصدوا في غالب الأحيان أن ينسجوا حول جبهته تاجا من الشرف خلابا . ولكن أقاصيصهم لو لم تكن كاذبة لأصغرته وحقرته وأساءت فهمه . وما أبعد الفرق بين تلك البساطة النبيلة التى لصمت البشيرين وبين تلك الألاعيب التمثيلية والقصص الصبيانية العديمة القيمة المحشوة بها هذه الكتب والتى يحاولون بها أن يظهروا قوته غير المحدودة. لقد قصدوا أن يكرموا المسيح ولكن أى اختراع يمكن أن يكرمه ! من يفعل ذلك انما يقلل من شأنه لأنه يخلط بين أفكار الانسان الضعيفة غير الكاملة الخاطئة وبين مقاصد الله الرهيبة الجليلة التى لا يدنى منها . فالطفل يسوع الذى ترسمه لنا البشائر طفلا بسيطا حلوا مطيعا متواضعا خاضعا لأبويه ، متمما لواجبات المنزل وواجبات الطفل الذى فى سنه ، أحب جميع الناس ، والناس كلهم أحبوا الطفل الطاهر اللطيف النبيل الذى حلت نعمة الله عليه برفق كأشعة الفجر أو كندى السحر ، وطوقت جبين الصبي الذى بلا خطية بهالة غير منظورة ، ولازمته كحمامة غير مرئية . أجنحتها كما من فضة وريشها كما من ذهب ، وكانت على الصبي المقدس منذ طفولته .

أما الطفل الذى ترسمه لنا الكتب المزيفة فهو طفل ردىء ، شكس ، جرىء ، منتقم ، إذ تنسب إليه عجائب ، بعضها سخيف طائش كأن يصب الماء ويحمله فى عبه ، أو يطيل لوح الخشب القصير إلى الطول الذى يرغبه ، أو يلق الثياب فى خابية الصباغ ثم يخرجها ثوبا ثوبا وقد تلون كل منها بمختلف الألوان حسبما يريد . وبعضها متهور مكروه كأن يغضب فينتهر الذين يريدون أن يعلموه ، أو يوبخ يوسف ، أو يمسخ أترابه فى اللعب إلى جداء ! وبعضها قاس مجدف كأن يلعن الأولاد الذين يغضبونه أو يبغضونه ويميتهم فى الحال فتثور ضده زوبعة استياء عام حتى لتضطره مريم خوفا عليه ألا يفارق

الدار ! وبعد بحث مطول فى كل هذه الخزعبلات الرذيلة النابية عن الذوق والتى ينجم عن غالبها الضرر ، لم أجد سوى قصة واحدة فيها لمسة من الشعور الحق وربما بعض الصدق ولا بأس من ذكرها لأنها على أى حال خالية من الضرر ، ويظهر أنها ترتكز ولو على بعض الأساس من التقليد الصحيح وسأقتبسها من أحد الكتب الخاصة بالطفولة وهى كما يلى :—

« وفى شهر آزار جمع يسوع الصبيان حواليه كما لو كان ملكا عليهم ، ففرشوا ثيابهم على الأرض وأجلسوه وتوجوه باكليل ضفروه من الأزهار ، ووقفوا أمامه بنظام كخدام الملك عن يمينه وعن يساره . وكل من مر فى ذلك الطريق أمسكه الصبية وقالوا له تعال اسجد للملك وبعد ذلك سر فى سبيلك » .

ولكنى أشعر أنه حتى هذه القصة البريئة ربما تكون قد خدشت بقسوة جلال صمت البشيرين . إذ فى السكون الشامل ، وفى الصلاة ، وفى الأعمال اليومية العادية ـ كموسى فى البرية ، وداود بين قطعان الغنم ، وأليشع فى خيام البدو ، وارميا فى بيته الهادىء في عناثوث ، وعاموس فى حقول الجميز فى تيكوه ـ قد أعد يسوع ذاته في قداسة كاملة وعزلة تامة للعمل العظيم الذى أتمه على الأرض . وكانت حياته الظاهرة كحياة كل الأطفال الذين في سنه ومركزه وموطنه . عاش كما عاش وكما يعيش الآن إلى حد كبير أولاد الفلاحين في القرية الهادئة . ومن شاهد أولاد الناصرة فى قفاطينهم الحمراء ، وثيابهم الحريرية أو الكتانية اللامعة وقد شدوا وسطهم بحزام متعدد الألوان وتدثروا أحيانا بعباءة فضفاضة بيضاء أو زرقاء ، وراقب ألعابهم المفرحة العالية الضوضاء وسمع رنين ضحكاتهم وهم يتنقلون بين التلال المحيطة بواديهم الصغير أو يتجمعون زرافات على منحدر التل جانب نبع الماء العذب الغزير ـ تكونت لديه فكرة عن منظر المسيح عندما كان صبيا . وإذا تبع المسافر أحد أولئك الصبية إلى منزله العادى ، ورأى الأثاث القليل والطعام البسيط الشهى الصحى ، والحياة الهادئة التى عاش مثلها الآباء الأولون ،

لارتسمت له صورة جلية عن كيفية معيشة يسوع . ولا يوجد أبسط من هذه المنازل التي يتمتع اليمام بالدفء على سطوحها ، وتتعانق أغصان كروم العنب حواليها ، والتي لنظافتها تخلع الأحذية والصنادل عند عتبات الغرف المفروشة بالسجاد أو الحصر ، والتي حليتها الوحيدة سراج مدلى من وسط السقف . وقد توضع فى طاقات بعض الحوائط صناديق خشبية مدهونة بألوان لامعة تحوى الكتب وبعض ما تملكه العائلة . وعلى بعض المصاطب السهلة الارتقاء الملاصقة للجدران تلف الحشيات البهية الألوان ، وترتب بعناية فائقة لتبسط عند المساء سرائر للنوم . وتوضع على بعضها الآخر الأوانى الفخارية التى تستعمل فى اللوازم اليومية . وبالقرب من الباب تصفف أوانى المياه العادية المصنوعة من الخزف الأحمر لتبريد الماء ، وتغطى حلوقها بالأعشاب الخضراء وأوراق الأشجار العطرية . وعندما تحين أوقات الطعام يوضع كرسى خشبى مدهون وسط الحجرة وفوقه صينية كبيرة عليها طبق واسع مملوء أرزا أو لحما أو لبنا أو فواكه ناضجة ليأكل منه الجميع سويا . وقبل الطعام وبعده يصب خادم - أو أصغر الأولاد - الماء على الأيدي لتنظيفها . وعلى مثل هذه الصورة البسيطة الوديعة الهادئة عاشت الأسرة المقدسة فى الناصرة .

ولكن الاحترام التعبدى والخيال الخصب أوحيا لمصورى العصور الوسطى صورا تخالف هذه تماما . فقد رسم جيوتو وفرا انجليكو بريشتيهما البارعتين العذراء مريم وابنها جالسين على عرش مجيد ملوكى مقام على بلاط من الفسيفسياء الثمينة ، وفوقه مظلة من المخمل الأزرق المنسوج بخيوط الذهب . وألبساهما ثيابا ناعمة زاهية كألوان الصيف بهيجة كزهر الربيع، مزركشة أطرافها بوشي الذهب الخالص ومحلاة بالأحجار الكريمة . وما أبعد هذا عن الحقيقة ! فان يوسف لما عاد إلى الناصرة كان متأكدا أنه سيعيش فى عزلة وهدوء ، وأن حياة العذراء والطفل المقدس لن تلمع فى ضياء الشهرة أو الغنى ، بل ستكون حياة الاعتزال والفقر وكد العيش [يو ٧ : ٣ - ٥] .

غير انه لم يكن فى فقر العائلة المقدسة ذلة أو تسول بل كانت فاقة بسيطة قانعة بل مسرة مفرحة . فكانت مريم كسائر النساء اللواتى فى مكانتها تغزل وتطهى الطعام وتشترى الفاكهة وتذهب كل مساء إلى النبع المسمى للآن باسمها « بئر مريم » حاملة جرتها الخزفية على كتفها أو رأسها . وكان يسوع يعمل ويساعد والديه في أعمالهما العادية (١) . ويذهب إلى المجمع السبوت .

حكى أن أسقفا تقيا صالحا صلى إلى الله بحرارة لكى يعلن له ما كان يعمله يسوع فى صبوته . فرأى في حلم نجارا يكد فى صناعته ، وإلى جانبه غلام يجمع الشظايا ، ثم دخلت عليهما بتول فى ثياب خضراء ودعتهما للغذاء ، ووضعت أمامهما قصعة عصيدة . رأي الأسقف كل هذا فى حلمه ، وأنه واقف خلف الباب خلسة لكى لا يراه أحد . ثم سمع الصبي يسأل : لماذا يقف هذا الرجل هكذا ؟ ولماذا لا يأتى ويأكل معنا ، وأزعج هذا السؤال الأسقف فاستيقظ مذعورا . ثم أضاف الراوى : فلتكن هذه القصة واقعة حقيقية أو خيالا مجازيا ، فانى موقن أن يسوع فى طفولته وصبوته كان مثل باقي الأطفال شكلا وعملا [صائرا فى شبه الناس] ولكن بلا خطية .

ويذكر متى البشير أن سكنهم كان في الناصرة لكى يتم ما قيل بالأنبياء [إنه سيدعى ناصريا] . ومن المعلوم أنه لم ترد آية هذا نصها الحرفي فى العهد القديم . غير أنه لما كانت كلمة الناصرة تحمل معنى الكراهية والاحتقار كما يستدل على ذلك صريحا من سؤال نثنائيل الجارى مجرى الأمثال [هل يخرج من الناصرة شىء صالح] (٢) ، فلا شك أن متى البشير قد لخص معنويا فى هذا التعبير مختلف النبوات التى لم تكن تفهمها أمته ، والتى أشارت إلى أن المسيا سوف يكون رجل الأحزان . وإلى يومنا هذا نجد كلمة

---

١ ـ يقول بونافنتيورا : أخال أن يسوع كان يشارك والديه فى أعمال منزلهم الصغير ، ويساعدهما فى احضار طعامهما البسيط ، وترتيب حجرات النوم ، وحتى فى أعمال أخرى أقل من هذه .

٢ ـ ربما كان فى هذا السؤال ما جعل فى كلمة (النصارى) شيئا من الاحتقار .

« نصرانى » تعبير محتقر . ويسمى التلموديون المسيح « هانصري » استهزاء . ويقال إن جوليان أصدر أمراً بوجوب دعوة المسيحيين باللقب الأقل اعتبارا « جليليين » . وإلى الآن يعرف مسيحيو فلسطين بالنصارى (١) . لكن الرأى القائل إن كلمة نصرانى مشتقة من « نصتر » أى « الفرع » وهو الاسم التنبؤى عن يسوع رأى محتمل جدا . وقد يجوز أن القرية ما سميت ناصرة إلا لكثرة الفروع الخضراء فيها . والعهد القديم مليء بالبراهين على أن العبرانيين ـ المهرة فى علم الاشتقاق والمقابلات ـ يعلقون أهمية كبرى على مجرد تشابه وقع نطق الكلمات على الآذان . ولنذكر مثلا الاصحاح الأول من ميخا الذى يكاد أن يكون مجموعة مماثلات صوتية . فمتى البشير إذ هو عبرانى من العبرانيين قد رأى مشابهة تنبؤية فى سكنى المسيح في مدينة من الجليل يعيد اسمها إلى الأذهان النبوة التى قيلت عنه فى اشعياء (٢) .

تساءل الرجال الحائرون قائلين : [هل يأتى المسيح من الجليل] وقال الفريسيون نيقوديموس [ابحث وانظر انه لا يقوم نبي من الجليل] يو ٧ : ٤١ و ٥٢ . ولا يحتاج هذا الكلام إلى بحث أو نظر لاظهار انه قيل عن جهل أو كذب . لأنه ان تركنا جانبا باراق وعيلون القاضى وحنة النبية ، فثلاثة أو أربعة من الأنبياء الكبار إما ولدوا واما

---

١ ـ مفرده نصرانى . راجع أمر جوليان فى تاريخ جيبون .

٢ ـ (اش ١١ : ١ ويخرج قضيب من جذع يسى وينبت غصن من أصوله ويحل عليه روح الرب روح الحكمة والفهم روح المشورة والقوة روح المعرفة ومخافة الرب) و(أر ٢٣ : ٥ ... أقيم لداود غصن بر ...) و (زك ٣ : ٨ لأنى هانذا آتى بعبدي الغصن) . ولكنى أريد أن أذكر شيئا أيضا عن أصل كلمة ناصرة . انها ربما تكون مشتقة من " نصطر " أى الحافظ قال الأسقف اسكندر ان الذى يدعو يسوع " بالناصرى " استهزاء فهو ـ بدون أن يشعر ـ يكرمه إذ يجعله " ناصرى " أى حافظى ! ولزيادة الايضاح فى التفاسير راجع كتاب مقتطفات اللغات .

أدوا أغلب رسالتهم فى نواحي الجليل وهم (١) يونان وايليا وهوشع وناحوم .

ومع الاحتقار الكامل الذى كان يكال لهذه المدينة الصغيرة فان الناصرة فضلا عن موقعها الصحى فى الوادى المنزوى كانت قريبة من تخوم أمم عظمى وسط سكان مختلفى الجنس ولذا وافقت تماما أن تكون موطن مخلصنا في صبوته والمكان الذى فيه تقدم [فى القامة والحكمة والنعمة عند الله والناس] (٢) .

---

١ ـ كان يونان من جث حافر (٢ مل ١٤ : ٢٥) وهى بلد فى زبولون (يش ١٩ : ١٠ و ١٣) وهوشع النبي كان من يساكر التى فى الشمال . والكوش من بلد ناحوم على الأرجح من مدن الجليل وأغلب ارسالية ايليا كانت فى الجليل ؛ واليشع من عبل مهولاه فى وادي الأردن . ولكن بعضهم كى يلتمس مخرجا لسؤال الفريسيين يقول انهم انما قصدوا فقط الجزء الشمالى من الجليل ... أما العظماء الذين لهم اتصال بالجليل فيذكر منهم كيم : الفيلسوف ارسطوبولس من بانياس والكاتب نيناى من أرابيلا واسكندر بانيوس ويهوذا الغلاطى ويوحنا الذى من جسكالا . ويوجد قول ذكره ايرينموس ان عائلة بولس الرسول أصلها من جسكالا الجليل .

٢ ـ لو ٢ : ٥٢ قارن ام ٣ : ٤ و مز ١١١ : ١٠ و ١ صم ٢ : ٢٦ .



سهول الجليل

الفصل السادس

يسوع في الهيكل

جاء ليخلص الجميع : الأطفال والأولاد والصبيان والشبان والرجال ، ولذلك فقد مر على كل أدوار العمر. إريناوس

كما أن للقمر نصفا لم تقع عليه بجملته عين بشر وإن كانت بعض وجوه القمر تخول لنا أن نفكر فى شكله العام وفى حقيقة منظره ، كذلك في تاريخ السيد شطر كبير ليس لدينا السجل الوافى عنه ولكنا نلمح بعض أجزائه ، ومنها نتمكن أن نفهم طبيعة الكل .

وكما أن القمر لما يكون هلالا نرى فى الجزء غير المضىء منه بواسطة المنظار المقرب بعض القمم المضيئة التى هى رؤوس جبال عالية جدا لدرجة انها تختطف من بهاء

الشمس بعض الضوء ، كذلك توجد فى الجزء غير المعروف من حياة السيد حادثة فريدة شماء ، سناء مجدها وقوتها كفيل بأن ينير لنا هذا الجزء من حياته . وهذه الحادثة قد تشبه فى العصر الحاضر « إعلان التثبيت » .

إن بلوغ الثانية عشرة سن مهمة فى تاريخ الصبي اليهودي . إنها السن التى فيها - حسب التقليد اليهودى - ترك موسى منزل ابنه فرعون ، والتى فيها سمع صموئيل الصوت الذى دعاه لخدمة النبوة ، والتي فيها فصل سليمان في القضية التي أظهرت حكمته ، والتى فيها حلم يوشيا لأول مرة باصلاحه العظيم ، والتى فيها أثبت دانيال براءة سوسنة . وفى هذه السن تحتم أوامر الحاخاميين وعادات الأمة أن يتعلم أى ولد مهما كان مركزه صناعة يعول بها نفسه . وفى هذه السن يحرر الطفل من سلطة أبويه فلا يقدران أن يبيعاه كعبد ، وفيها يصبح « ابن هاتوراه » أي ابن الناموس . قبل هذه السن كان يدعى « كاتون » أى الصغير ، وأما بعدها فيدعى « جادول » أى البالغ ، ومن ثم يعامل كرجل ويلبس « التفلين » أى الأحراز فى يوم سبت يسمى لهذه المناسبة « سبت التفلين » . ويعتبر أحد كتب الحاخاميين أن الصبي حتى هذه السن لا يتركب إلا من نفس حيوانية « نفش » ، أما بعد هذه السن فيمتاز بالروح « رواش » التى إن كانت صالحة تنمو حتى يصير في العشرين الروح العاقلة (١) .

وهذه السن أى اكمال الثانية عشرة من العمر هى الحد الفاصل فى تعليم الصبي اليهودى . فيذكر لنا الحاخام يهوذا ابن طيما أنه كان على الولد اليهودى أن يبدأ عند الخامسة فى درس التوراة ، وفى العاشرة درس المشنة ، وفى الثامنة عشرة يتزوج ، وفى العشرين يقتنى الممتلكات ، وفى الثلاثين القوة ، وفي الأربعين الفطنة ، وهكذا إلى نهاية

---

١ - هذه الحادثة التى حفظها لنا لوقا البشير لها أهمية كبيرة لأنها تدحض الهرطقة الأبولونية التى ذاعت وقتا ما والتى تنفى أن للمسيح نفسا آدمية ؛ فالانجيل يعلن لنا أنه كان انسانا مثلنا وفى الوقت ذاته إلها حقا . وكلمة ينمو المستعملة فى لو ٢ : ٤٠ تدل باليونانية على التزايد المستمر .

العمر . ولا يفوتنا أن نذكر بصدد هذه الحادثة أن العبرانيين والشرقيين ينمون بسرعة غير معروفة لدى الغربيين ، حتى أن الأولاد فى سن الثانية عشرة - كما يذكر يوسيفوس - كانوا يخوضون المعارك الحربية . وتعتبر هذه السن إلى يومنا هذا عند يهود فلسطين وآسيا الصغرى - لسوء مغبتهم - سنا يجوز فيها الزواج .

كانت عادة أبوي السيد زيارة أوروشليم كل سنة فى عيد الفصح . وكان الناموس يحتم فقط على كل ذكر أن يحضر إلى أوروشليم فى الثلاثة أعياد العظيمة : عيد الفصح ، وعيد العنصرة ، وعيد المظال . ولكن مريم فى تقوى الخضوع لأوامر هلليل كانت تصحب خطيبها كل سنة . وفى هذه المرة أخذا معهما الصبي يسوع إذ شارف السن التى تفرض فيها أوامر الناموس . ومن السهل علينا أن نتخيل الأثر الكبير لهذه الرحلة التى أوقفت حياة العزلة الهادئة إلى حين ، فشاهد يسوع الدنيا الخارجية الوسيعة . وقام برحلة خلال أرض يفيض كل تل وكل بلد فيها بالذكريات المقدسة ، وتمت فيها الزيارة الأولى إلى هيكل أبيه الملىء بذكريات كثيرة وعظيمة من قصص الملوك والأنبياء السابقين .

وتبعد الناصرة عن أوروشليم حوالى ثمانين ميلا . ومع العداوة القاتلة والغيرة المرة التى كانت بين اليهود والسامريين ، فالغالب أن قافلة الحجاج الجليليين الذاهبين إلى العيد كانت تختار الطريق الأكثر استقامة والأقل مخاطر الذى يخترق قسمى الأرض التى أعطيت منذ القديم لسبطى منسي وافرايم (١) . فكانوا يتركون اكليل الجبال الذى يحيط بالمدينة « إحاطة أوراق الوردة المتفتحة » كما يقول ايرنيموس ، وبعد ذلك ينزلون إلى الطريق الجيرى الضيق المزدان جانباه بالأزاهير ، إلى سهل يزرعيل الوسيع . ولما كان عيد الفصح يقع في أواخر مارس أو أوائل ابريل ، فتكون الأرض إذ ذاك

---

١ - كان أمام الحجاج طريقان آخران الأول حذاء الشاطىء ويمر بالكرمل وقيصرية إلى يافا وعرض السهل إلى أوروشليم . والثانى إلى طبرية ومنها إلى شاطىء الأردن الشرقى ثم إلى مخاوض بيت عبرا . وهذان الطريقان طويلان غير مطروقين ، وعرضة لسطو العصابات .

فى أبهى وأنفر حلة ، وأجمل وأحلى منظر . وتكون جسور حقول الحنطة التى على جانبى الطريق فى كل السهل مزركشة كثياب رئيس الكهنة بالأزرق والأرجوانى والأحمر من مختلف الورود .

ثم يسير الحجاج على ضفة النهر القديم نهر قيشون ، ويمرون بشونم ـ التى تعيد إلى الذاكرة اليشع النبى ـ الجاثمة على المنحدر الجنوبى لجبل حرمون الصغير ، ويمرون بيزرعيل العاصمة التى لم تتبق بها سوى التوابيت الحجرية شاهدة على عظمتها الدارسة . ثم بجبل جلبوع العارى الذى لا ينزل فوقه الطل ، ويمرون برمال تاناش التى تذكر بسيسرا وباراق . ثم يمرون بمجدو أول البلاد التى تظهر فيها الخـوذات والسيوف المستعرضة وشارات النسور التى للقوات الرومانية . وينتهى الطريق إلى عين غانم وهناك جانب العين ووسط ظلال الجنات الجميلة التى لا زالت للآن علما على المكان . ويحط الحجاج رحالهم ، يلتمسون الراحة فى ليلتهم الأولى . وفى الصباح التالى يبدأون بصعود جبال منسى ثم يعبرون ما تسمى الآن « مزرعة الغرق » (١) ويدورون حول حدائق التين الغناء وغابات الزيتون التى تملأ وادى ذلك الاقليم تاركين عن يمينهم التلال المجيدة الجميلة التى يتكون منها « تاج الفخر » الذى تباهى به السامرة والتى تنبأ عنها النبى أنها ستصير « كزهرة ذابلة » . وغالبا ما يكون مبيتهم الثانى قرب بئر يعقوب فى الوادى الخصب النضير الواقع بين عيبال وجرزيم غير بعيد عن شكيم القديمة . وفى اليوم الثالث يمرون بشيلوه وجبعة شاول وبيت إيل ومنها إلى بئر راعوث الجميلة ، وعندها يستريحون . وبعدئذ لا تبقى أمامهم سوى مرحلة قصيرة سهلة لتقع أبصارهم على أبراج أوروشليم . ورغم ان أجنحة النسر الرومانية كانت مبسوطة بألوانها الباهتة على المدينة المقدسة ، إلا أن الهيكل العظيم كان يشمخ فوق أسوارها بلمعانه الفائق

١ ـ " الجيب " وهى ليست جبعون وانما قرية صغيرة على الطريق غير مذكورة فى الكتاب المقدس .

وقبابه المذهبة وعمده الرخامية فكانت ما تزال أوروشليم التى تغنى بها الملك داود ، والتى من أجلها تحركت عواطف المنفيين بشعور عميق وهم على أنهار بابل عندما أخذوا أعوادهم من فوق أشجار الصفصاف ، ورنموا مرثيتهم المحزنة ، مبكتين أنفسهم ، معتزمين عدم نسيان أوروشليم أو تنسى أيديهم اليمنى . فمن يقدر أن يصف الشعور الفياض الذى تملك الصبي يسوع عندما وقعت عيناه على هذا المنظر الخالد الذى لا يمكن نسيانه . ؟

وكانت الجموع التى احتشدت للفصح من جميع جهات الشرق تعد بعشرات الألوف (١) . كانوا أكثر من أن تسعهم المدينة ، فكان كثيرون يقيمون لأنفسهم « سكوثا » أى أكواخا صغيرة من حصر البوص مجدولة بأوراق الشجر . وهذه الأكواخ كانت تأويهم وتكفى حاجاتهم . وكان العيد يظل أسبوعا يقضونه فى مسرة فائقة ، وشعور دينى عميق ، وبعد انتهاء العيد تحل هذه المساكن المؤقتة ، ويرحل الركبان ببغالهم وخيولهم وحميرهم وجمالهم قافلين إلى مواطنهم ، وكان الطريق يذخر بالمرح والموسيقى ، وكثيرا ما كانوا يخففون وعثاء السفر بالطبل والزمر ، ويقفون ليجددوا قواهم بتناول بعض التمر ، والبطيخ والخيار ، أو يستقون ويملأون قربهم وقللهم من أى بئر نابع أو نهر جار . وكانوا يركبون النساء المحجبات والشيوخ الأجلاء بينما يقود أبناؤهم وأخوتهم دواب الحمل متوكئين على عصى طويلة . أما الصغار فكانوا أحيانا يمشون لاعبين جوار والديهم ، وأحيانا عندما يأخذ منهم التعب يحملون على الخيل أو

---

١ ـ ذكر يوسيفوس أن جمهم لا يحصى ولا يستقصى ويذكر الحادثة المشهورة أن سيستوس لما أراد أن يبرهن لنيرون على عظمة المدينة سأل رؤساء الكهنة عن عدد الحملان التى ستقدم فى الفصح فوجدت أنها لا تقل عن ٢٥٦٥٠٠ رأسا ! فاذا قررنا حملا لكل عشرة أشخاص على المتوسط (مع انه أحيانا يكون لعشرين) فيكون عدد المعيدين لا أقل من ٢٠٠ر٧٠٠ر٢ عدا الغرباء وغير الطاهرين حسب الناموس . ويذكر الحاخاميون أن اغريبا قد تبين له من عدد الحملان التى قدمت أن العابدين كانوا ٠٠٠ر٠٠٠ر١٢ وهذه احدى مبالغاتهم الكثيرة .

البغال . ولم أجد أساسا للظن أو اليقين القائل أن النساء والأولاد والرجال كانوا يقسمون إلى ثلاث فرق مختلفة أثناء سير القافلة (١) . وليس هذا هو المتبع حتى فى وقتنا الحاضر. وعلى أى حال ما أسهل أن يفقد غلام صغير فى هذا البحر الخضم من الآدميين .

جاء فى الأساطير أنه أثناء عودتهم ترك الصبي يسوع القافلة ورجع إلى المدينة المقدسة (٢) . ولكن لوقا البشير يذكر بأكثر بساطة وأكمل صدق انه ـ ربما وهو مشغوف بالمؤثرات الجديدة القوية ـ [تخلف الصبي يسوع فى أوروشليم عند عودتهما] لو ٢ : ٤٣ . ومضى اليوم قبل أن ينتبه أبواه لأنهما لن يكتشفا ذلك إلا عند استراحة المساء (٣) . أما طول النهار فما اعتراهما خوف عليه إذ ظناه بين الرفاق والأقارب فى القافلة الكبيرة ، ولكن عندما حل المساء وسألا عنه بتدقيق ولم يجداه ، علما الحقيقة المرة انه كان مفقودا ولم يكن بين الحجاج العائدين . فى اليوم التالى رجعا ثانية إلى أوروشليم بجزع وخوف وربما أيضا ببعض اللوم لذاتهما إذ لم يكونا أكثر رعاية لأمانتهما المقدسة . وكانت المملكة مضطربة ثائرة لأن الامبراطور قد خلع أرخيلاوس رئيس الربع بعد حكم شائن ظالم دام نحو عشر سنوات ، ونفاه إلى فيين ببلاد الغال وضم الرومان الاقليم كان يحكمه إلى ممتلكاتهم وفرض كوبونيوس أول عمال الرومان الضرائب فاشتعلت الثورة وأذكاها يهوذا الذي من جامالا (٤)

---

١ ـ أول من قال بهذا الرأي على ما أعلم هو العلامة بيد .

٢ ـ يمعن لانج فى الخيال إلى درجة بعيدة ازاء هذه الحادثة فيظن أنه كان وسط جماعة الأولاد فتخلف عنهم بكيفية مجهولة ورجع مقودا بالروح مفكرا مشتاقا محمولا بأفكاره الأبدية إلى أن جاء إلى الهيكل وجلس وسط الربيين .

٣ ـ القراءة الأصلية فى (لو ٢ : ٤٣) هى " أبواه " كما فى النسخة القبطية . ويظن أن الاستراحة الأولى كانت عند بئر راعوث التى تبعد حوالى ٦ أميال من أوروشليم .

٤ ـ رفع يهوذا راية العصيان سنة ٦ ق.م أى قبل هذه الحادثة بسنتين وهذا يرجح عندي أن الميلاد حدث سنة ٧٥٠ رومانية أى سنة ٤ ق.م. راجع الخاتمة .

وصادوق الفريسى فاذا بها تكتسح البلاد كلها فى عاصفة من النار والسيف . هذه الحالة السياسية غير المستقرة تجعل السفر شاقا بعد خروجهما من كنف القافلة وحمايتها . وزاد من لوعتهما أنهما خشيا أن يصيب ولدهما مكروه وسط عوامل الحرب الوحشية التى اجتمعت قواتها إذ ذاك عند أسوار أوروشليم . ولا شك أنه في هذا اليوم المليء بالخوف والبؤس قد جاز سيف في نفس الأم العذراء !

ولم يجداه لا فى هذا النهار ولا فى مسائه ولا في الجزء الأكبر من اليوم الثالث . وأخيرا وجداه فى مكان لغرابته على أذهانهما كان آخر مكان يظنان أن يفتشا عنه فيه [وجداه فى الهيكل جالسا فى وسط المعلمين يسمعهم ويسألهم وكان كل من يسمعه بهت من علمه وأجوبته] .

ومن الآية الأخيرة بل ومن كل الأصحاح وما نعرفه من صفات يسوع وملابسات الظروف ، نعلم أن الصبي كان في الهيكل يسأل ويجـــاوب لا كما فى بعض الكتب الخيالية أنه جلس يمتحن المعلمين كل واحد بدوره ليفحمهم فى عدد الكواكب والاجرام السماوية وطبيعتها ونظمها ، ويظهر عجزهم فى تفسير الطبيعيات وما وراءها وما فوقها وما تحتها ! إن هذه إلا خرافات أبولينارية من أولئك الذين فضلوا خيالاتهم على بساطة الصدق الذى فى الأناجيل . كان فى الهيكل كما يعلمنا لوقا البشير في كل خضوع واحترام لائق بالكبار سنا ومقاما ، كتلميذ نابه راغب ، استحوذ حماسه على اعجابهم ، واكتسب اتضاعه احترامهم ومحبتهم . كل ما يمت إلى العناد والغلظة كان منافيا لأخلاقه التى كانت منذ طفولته الحلوة كلها وداعة واتضاع قلب . لقد كان بين الحاضرين من اشتعلت رءوسهم شيبا وقد قاربوا المائة سنا مثل هلليل العظيم الذى يحترمه اليهود بعد موسى وابنه الحاخام سيميون الذى كان يمجد الصمت والسكوت وحفيده المهذب الحر الضمير غمالائيل ونده الكبير شماى وهو معلم له مريدون عديدون وحنان بن سيث الذى كان قاضيه فيما بعد وبوثيوس حمو هيرودس وبيها بن بوتاح الذى فقأ هيرودس

عينيه ونيخابنا بن هيسكانا الشهير بصلواته المستجابة ويوحنا بن زكاى الذى توقع خراب الهيكل والغنى يوسف الذى من الرامة ونيقوديموس الغيور المتردد والشاب يوناثان بن عزيل الذى كتب فيما بعد رسالة خالدة والذى كان يكن له معاصروه غاية الاحترام (١).

ومع انه لم يخطر على بال واحد منهم من عساه يكون القائم بينهم ـ وقليل منهم قد عاشوا ليؤمنوا به أو يضادوه فى السنين القادمة ـ فمن منهم لم يدهش ويعجب بذلك الصبى النبيل الكبير القلب الذى وإن لم يتعلم فى مدارس الحاخاميين فقد أظهر حكمة عجيبة ومعرفة عميقة فى الأمور الالهية (٢).

وفى الهيكل ربما فى حجرة المربعات (٣) « ليسكاث هاجازيث » أو فى حجرة الشراء « شانوجوث » أو فى احدى الحجر المتسعة المجاورة لرواق الأمم والمخصصة للتعليم ـ وجد يوسف ومريم الطفل المقدس جالسا على الأرض المنمقة بالفسيفساء الملونة وسط المعلمين ـ فلما أبصراه جالسا هادئا وسعيدا فى هذه الحضرة المهيبة تعجبا (٤) سيما وان روح الاحترام التى تقرب من العبادة لرؤساء الكهنة وكبار المعلمين كانت فى تلك الأيام تملأ قلوب أولئك الجليليين الأتقياء البسطاء. كانا يعلمان أنه أكثر حكمة من معلميه ومن نسل أعظم ، ولكنهما حتى تلك الساعة ما خبرا عنه إلا أنه ذلك الصبى

---

١ ـ هذا الترتيب فى ذكر الأسماء مأخوذ عن سيب ولا أضمن صحته ومن يريد المزيد فليراجع المحاضرات العبرانية لأرتيريدج .

٢ ـ حوادث من هذا القبيل ليست عديمة المثيل فلقد ذكر هذا عن الفريسى اليعازر بن عزاريا وهو الحفيد العاشر لعزرا وعن الربانى آسى أول جامع للتلمود البابيلونى . ويقول يوسيفوس بأنانيته المعهودة وتفخيمه لذاته الذى كان من مميزات خلقه انه لما كان ابن أربعة عشر عاما كثيرا ما زاره رؤساء الكهنة وفريسيو أورشليم ليسمعوا منه ويتعلموا الحكمة فى أعوص المسائل الخافية فى الناموس . ٣ ـ حجرة المربعات هذه كانت عبارة عن كنيس من الحجارة المربعة أقامها سمعان ابن شيتاه سنة ١١٠ ق م وكانت متصلة برواق الكهنة ورواق الأمم وظل يجتمع فيها رؤساء الكهنة والسنهدرين إلى أن أبدلوها بحجرة الشراء . ٤ ـ الكلمة الأصليه تفيد منتهى التعجب.

المفكر الهادىء المطيع وربما أيضا قد قلل الاحتكاك المستمر في العمل اليومى من شعورهما تجاه مولده العجيب . ومريم ـ وليس يوسف ـ هى التى تجرأت أن تخاطبه بروح العتاب الحبي الرقيق وقالت له : [يا ابنى ما هذا الذى صنعت بنا هكذا . هوذا أبوك وأنا كنا نطلبك معذبين] . فأجاب بذلك الجواب المؤثر فى طهارة بساطته ، غير المحدود في عمق معناه ، والمتناهى في الاعزاز عندنا لأنه أول كلمات يسوع المكتوبة :

[لماذا تطلبانني . ألا تعلمان أنه ينبغى لى أن أكون فيما لأبى] (١) .

هذا الجواب السموى بطبيعته ، العلوى في نبله ، يحمل طابعا خاصا يدل على صدقه . فما فيه من مختلف الأفكار ، ومن الدهشة الممتزجة ببعض اللوم لعدم فهمهما له ، ومن الاعتداد الكامل بالنفس مع الاتضاع الشامل ـ يجعله حتما بعيدا جدا عن أفكار البشر وأقوالهم . وفضلا عن ذلك فهو يتفق تماما مع أقواله وأعماله فى كل كرازته . ويتفق مع ما قاله للمجرب [ليس بالخبز وحده يحيا الانسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله] . ويتفق أيضا مع الجواب الهادىء الذى خاطب به تلاميذه عند بئر السامرة [طعامى أنا أن أعمل مشيئة الذي أرسلنى وأتمم عمله] .

قالت له مريم [هوذا أبوك] ، ولكنه فى اجابته لا يقر هذا لأنه من ذلك الوقت لن يعرف له أبا سوى أبيه السموى . وفى قوله [ألا تعلمان] يذكرهما بلطف بالأمور التى علماها والتى تطرق النسيان إليها فى ذاكرتيهما . وفى قوله [ينبغى] وضع الناموس المقدس لتضحية النفس والذى كان سيسير بمقتضاه حتى إلى موت الصليب .

[فلم يفهما الكلام الذى قاله لهما] ذلك الشيخ الذى حماه فى طفولته ، وحتى أمه التى تعلم سر مولده الرهيب لم يفهما المعنى العميق لهذه الكلمات الهادئة . وهذه ملاحظة غريبة ومحزنة على الكلمات الأولى المكتوبة التى فاه بها مخلصنا فى مقتبل شبابه

---

١ ـ (لو ٢ : ٤٩) قد تعنى " فى بيت أبى " ولكن " فيما لأبى " أعم وأصوب . قارن (١ تى ٤ : ١٥ و تك ٤١ : ١٥) .

ولأقرب الناس وأعزهم إليه على الأرض ! ملاحظة غريبة ولكنها كانت كنبوة محزنة لكل حياته [في العالم كان والعالم به كون والعالم لم يعرفه . إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله] لو ١ : ١٠ و ١١ .

ومع انه قد تبينت الآن جليا نبوته الالهية ومع انه قد ومض شعاع من مجد عظمته المخبوءة ، ولكنه ببساطة واجبة وطاعة مقدسة [... نزل معهما وجاء إلى الناصره وكان خاضعــــا لهما] .


النـاصـرة

الفصل السابع

بيت الناصرة

ألم يكن سيدنا غلاما شب رويدا رويدا وتحت
اشراف أبويه نما يوما فيوما . كيبل

هذه الزهيرة الفريدة النابتة فى الحديقة العجيبة المسيجة بثلاثين عاما من الزمن لم تخرج من أكمامها إلا فى الوقت المناسب لتتفتح إلى زهرة يانعة .

إن كانت الاثنتا عشرة سنة الأولى من حياة السيد على الأرض لم يسجل عنها إلا حادثة واحدة ، فلم يدون عن الثمانية عشرة سنة التالية أى شىء سوى ما تحمله آية واحدة

وردت فى بشارة مرقس [أليس هذا هو النجار] مر ٦ : ٣ (١) .

ولا شك أننا مدينون لهذه الآية لأنها مليئة بالمعانى ، ولأنها قد أحدثت تأثيرات نبيلة ومباركة فى حياة بنى البشر . فقد ساعدت على مواساة وتقديس حالة الفقر ، وشرفت واجب العمل ، وسمت بأفكار الناس إلى الرجولة التى ـ بغض النظر عن كل الظروف العرضية ـ لها عظمتها الذاتية وشرفها عند الله .

أولا : تظهر لنا هذه الآية أن سيدنا كان فقيرا ليس فقط فى سنى كرازته الثلاث بل طول حياته . كان النجارون فى المدن صناعا بارعين يونانيين . وأما نجار القرية الريفية ـ إن صح ما يذكره التقليد أن يوسف لم يكن حاذقا ـ فكان مركزه وضيعا جدا وأجره ضئيلا للغاية .

توجد فى كل العصور رغبة جامحة مسرفة للاكثار من الثروة ، واعجاب زائد بمن يحوزها ، واعتقاد مبالغ فيه عن تأثيرها فى ايجاد أو ازدياد سعادة الحياة . ونتيجة لهذه الأخطاء طغى فيضان من الاهتمامات والغيرة والسفه أفسد حياة الانسان . لذلك فضل يسوع مختارا حالة الفقراء الوضيعة ، ولكن ـ بكل تأكيد ـ ليست حياة الفقر المذل المضنى الطاحن ، بل ذلك الفقر الأمين الذى هو نصيب الأكثرين والذى إن حتم نكران الذات فانه يمنح

---

١ ـ فسرت هذه الكلمة مراعاة للمعتقدات إلى " ابن النجار " إذ عز على بعضهم أن رب الكل يشتغل فى دكان صانع فقير . ولكن ألا يتفق هذا الأمر الذى يظهر جارحا للاحساس مع روح المسيحية الحقة ؟ إن أوريجانس نفسه يقول انه لا يوجد فى الانجيل أن المسيح دعى نجارا . ربما كان قوله هذا مجرد خيانة ذاكرة ، وربما يكون دليلا على أن المسيحيين الأولين كانوا يخجلون من تنازل سيدهم الالهى ، وأنهم كانوا فى احتياج كبير للتعليم الذى ينطوى تحت هذا التنازل . بل إن كلمة " ابن النجار " عيرهم بها الأمم . فقد حكى أنه أثناء غزوة جوليان للفرس أن ليبيانوس سأل مسيحيا قائلا له : وماذا يعمل الآن ابن النجار ؟ فأجابه المسيحى قائلا : انه يصنع نعشا . وسرعان ما وصل نبأ موت جوليان . وعدم ذكر اسم يوسف فى الآية مر ٦ : ٣ أخذ دليلا على موت يوسف ، ولكن ربما أيضا كان قصد قائليها من اليهود زيادة تحقير المسيح بذكر نسبه إلى أمه .

بسهولة وعلى الدوام كل احتياجات الحياة البسيطة .

كانت عائلة الأدوميين الذين اغتصبوا عرش داود تمرح فى الآثام والمعاصي ومفاسد الغنى وتمعن فى شهوات المدنية المنحطة ، لكن ذاك الذى جاء ليكون صديقا ومخلصا للجميع فضلا عن كونه ملكا على الجميع ، فقد سار على الطرق البسيطة الطاهرة التى لأمته واختار النصيب الذى عاش وسيعيش فيه أغلب الجنس البشري .

***

ثانيا : كانت الفكرة الثابتة المستقرة فى العقول غير المستنيرة أن حب الكسل والبطالة علامة مميزة للطبقة العليا الأرستوقراطية . وكان العمل مقصورا على الطبقات الدنيا ، والجد موسوما بخاتم الصغار والاحتقار (١) . ولكن سيدنا أراد أن يعلمنا أن العمل طاهر ونبيل ، وأنه ملح الحياة ، ومنطقة الرجولة ، ومنجاة الجسم من الترهل والنفس من الأفكار الدنسة . فاشتغل ربنا عاملا بيديه صانعا محاريث وأنيارا لمن يريدونها . وإن ذات ازدراء « سلسوس » من أن الذى أتى ليخلص العالم كان نجارا ، انما يدلنا إلى أى حد قد اكتسب العالم من اتخاذ المسيح صناعة لنفسه ، وأن هذا المثل فى الاتضاع موافق ومستحسن من ذاك الذى كان عمله أن يجدد الحياة العامة للبشر

---

١ ـ كانت كل الحرف والصناعات عند اليونان والرومان وضيعة محتقرة ، وكانت لذلك مقصورة على العبيد . ولكن اليهود بحكمة أفضل وأنبل فرضوا أن يتعلم كل ذكر أية صناعة . يقول الربى يهوذا الحكيم : " ان العمل يشرف العامل " . كان بولس خياما ، والربى يوحنان ابن زكاى تاجرا إلى سن الأربعين حيث اختير رئيسا للسنهدرين ، والربيان يهوذا ومناحم خبازين ، والربى أليعازر الناظر الأعظم لمدارس الاسكندرية حدادا ، والربى اسماعيل صانع ابر ، والربى يسى بن قلفطة دباغا ، بل كان الربيون يتخذون من صناعاتهم ألقابا لهم يسرون بها مثل يوحنان الاسكافى وسمعان النساج . وكان العمل والتعليم فى نظر الربيين ترياقين ناجعين ضد الأفكار الدنسة ، ولكنهم ما كانوا يحترمون الصناعة من غير التعليم بل كانوا يهزأون من الصناع الجهلة حتى لو كانوا فعلة لتفليح الأرض .

ويخطو بها إلى الكمال .

***

ثالثا : نتعلم من هذا الصمت الطويل والعزلة الكاملة والعيش الرتيب فى حياة خالية من الحوادث الجسيمة أن وجودنا الحقيقى فى عين الله هو فى حياتنا الداخلية وليس فى الصورة الظاهرية. فالعالم لا يقدر سوى حياة الأبطال والأفذاذ أو أرباب العقول الجبارة ، أو الفاتحين العظام . ولكن هؤلاء دائما كانوا وسيظلون أقلية صغيرة . أما أغلب الناس فمثلهم مثل قطرة من المطر وسط السيل الجارف فوق الجبال أو الفيافي أو الصحراء الجرداء ، أو مثل قطعة من الثلج بين ملايين القطع الثلجية التى تذوب فى محيطات لا يدرك قياسها . هؤلاء الناس يموتون ، وبعد قليل جدا من موتهم ينسون . وبعد سنين قليلة تأكل النباتات الزاحفة حروف أسمائهم المحفورة على شواهد قبورهم . وحتى إن ظلت تلك الحروف المتداعية مقروءة فإنها لا تثير ذكرى فى قلوب الذين يقفون على قبورهم . وكثيرا ما يعزو بعض الناس أهمية كبرى لذواتهم ، ولكن حتى أعظم رجال العالم - بعد حقبة قليلة من الدهر - لن يمتاز بعد تلك الشهرة التى كانت تملأ السهل والجبل إلا باحتمال أن تظل مقبرته خضراء !

***

رابعا : أهمية نسبية وضئيلة هى النصيب المحتوم للغالبية العظمى . ولذلك قد يخال الكثيرون أنهم ماداموا لا يشغلون إلا حيزا صغيرا ، ومادام نفعهم وأهميتهم للعالم كالبرقة التى تطن ساعة واحدة فى ظهيرة واحدة ، فلا خير إلا أن يأكلوا ويشربوا ثم يموتون . ولكن المسيح أتى ليعلمنا أن هذه الأهمية النسبية والضئيلة قد تكون أهمية مطلقة وعظيمة . جاء ليعلمنا أن الاهتمامات المتواصلة ، والأعمال الجسيمة ، والخدمات الممتازة ، والنجاح الباهر ، ليست عناصر ضرورية للحياة الحقة النبيلة ، وأن ملايين من المكرمين عند الله هم من المجهولين وغير الظاهرين . ويعلمنا أن « من يريد أن يكون قديسا

فليتواضع مثل السيد » (١) هو الدرس المعزى ، المقوى ، الباعث على النبل، الذى تصيح به تلك الأعوام الثلاثون الطويلة الصامتة . وكثيرا ما تكون السعادة نصيب غير المعروفين. ويمكننا أن نقول مطمئنين أن هذه السنين فى دكان النجارة وبيت الناصرة كانت سنين سعيدة . وحتى فى الأيام الأخيرة لحياة السيد كانت كلماته أحيانا كلمات من هو متهلل بالروح ، كلمات فائضة من نهر مترع بالسعادة الكاملة ، فكم بالحرى كانت سعادته فى هذه السنين الثلاثين قبل أن تحزن نفسه عواصف الغيظ المقدس ويلهب قلبه الغضب المتقد ضد خطايا الناس وريائهم ؟ قال كونفوشيوس «انما السماء مبادىء» فان كانت الطهارة في كل العصور هى نبع السعادة الوحيد ، فما أعظم سعادة تلك الطفولة غير الدنسة ! وقال واعظ شاعر « شباب العمر دائما نشيط وطروب ، ويلمع كعنق الحمامة المطوقة وكقوس قزح العديم المثال فى جمال ألوانه الزاهية » وإذا كان هذا الوصف يصدق على الشباب - حتى على الشباب المهمل - فكم بالحرى ينطبق بقوة أعمق على الشباب الأكمل الطاهر الذى بلا خطية ، شباب المسيح ؟ وكثيرا ما نجد في حياة العديدين من الناس وحتى من قديسى العلى أن عهد الرجولة العاصف المحزن يسبقه شباب هادىء مزدهر .

* * *

خامسا : ومع أن سيدنا قضى هذه السنين فى العمل اليدوى فربما أشركه أبواه مع أولاد الناصرة الذين كانوا يتلقون قليلا من الدين ومبادىء العلوم الأولية على «السوفريم» أو أى خادم آخر للمجمع (٢) . وكان أيضا يسمع أثناء الصلوات اليومية التى تقام فى

---

١ - يقول ترتليانوس : " أيها الرجل سيعظم اسمك إذا عرفت التواضع " ويقول وردسورث " نحن أعظم مما نعلم "

٢ - يدل التلمود على وجود " السوفريم " و " الحزانيم " أى قرائين يقومون بواجبات المدرسين الخصوصيين . ويقولون إن الذى وضع أساس المدارس المنظمة للاطفال هو يسوع بن غمالائيل الأول أما فى أيام سيدنا فكان " الحزان " يشغل مكانة أقل والنظم السالفة ترجع إلى تاريخ أقرب.

المجمع كل ما يمكن أن يعلمه الشيوخ عن الناموس والأنبياء . أما عدم ذهابه لأورشليم أو دخوله أحد مدارس الربيين فظاهر مؤكد من أسئلة الخنق التى وجهها إليه أعداؤه الحاسدون [من أين لهذا هذه ؟] مر ٦ : ٢ و [كيف هذا يعرف الكتاب ولم يتعلم ؟] يو ٧ : ١٥. وفى هذه الأسئلة تتجلى روح ازدراء واحتقار الفريسيين «نحو الآم ها آرتز» (١) أو الفلاح غير المتعلم . فكان هذا الذكاء المشوب لأمة تعودت على هذا الشكل من ديانة ميتة كفنها الناموس الشفوى - قاصرا عن إدراك الحكمة الأصلية المستقاة من الله وحده . ولو أن يسوع كان قد تثقف بصبغة علومهم لكان سلاحه أقل مضاء فى التنديد بتشامخهم واقتصارهم على اطلاع محدود .

•••

سادسا : شهادة الأعداء هذه تعطينا برهانا قاطعا وموفقا على أن تعاليمه لم تكن - كما أراد بعضهم أن يتقول - كناية عن طريقة مختارة استعارها من مختلف شيع معلمى زمانه . ومن المؤكد أنه لم يلتحق بإحدى مدارس الكتبة (٢) الذين كان كل همهم تدريس تقاليد الآباء . ومن المؤكد أيضا أنه مع تأسيس المدارس على يد سمعون بن شاطاش لثمانين سنة خلت ، فلم يكن فى الناصرة لا « بيت مدارس » ولا « بيت ربان » ولا « كرمة » ولا « معرض » (٣) . فمن يمكن أن يكون قد استعار طريقته ؟ هل من

---

١ - كلمة آم ها آرتز معناها " رجل الأرض " وتطلق حسب الربى أليعازر على الرجل الذى لا يتلو الشمة (اسمع يا اسرائيل الخ) صباحا ومساء ، وحسب الربى يوشيا على الرجل الذى لا يلبس التفلين (الأهداب) ، وحسب ابن عساس على الذى لا يلبس الازار ، وحسب ناثان على من لا يعلق على بابه (المزوزه) أى الدرج الذى يكتب عليه اسم الله ، وحسب ناثان بن يوسف على من لا يعلم أولاده الشريعة ، ولكن حسب الربى هونا فالتعريف الصحيح لرجل الأرض هو من لم يلتحق بمدارس الربيين حتى ولو كان يقرأ الكتب والمشنة .

٢ - يقول يوسيفوس أنه أحيانا كان يقوم العبد المتعلم مكان المعلم الخاص :

٣ - كان اليهود يطلقون مثل هذه الأسماء على مدارسهم مثل " الكرمة " الخ .

الصوفيين الشرقيين أم من الفلاسفة اليونانيين ؟ لم يجرؤ أحد أن يقدم هذا الرأى الغريب فى تلك الأيام . هل استعار من الفريسيين ؟ إن أساس تعليمهم وفكرتهم عن الدين يتنافى تماما مع أظهره وأوضحه . هل استعار من الصدوقيين ؟ إن استخفافهم بالشهوات ، وسياستهم النفعية ، ومذهب العقلية الضحضاح الذى دانوا به ، ورخاوتهم المطلية - كل هذا كان كريها جدا وبعيدا للغاية عن المسيحية الحقة فضلا عن اليهودية القويمة . هل استعار من السنيين ؟ لقد كانوا جماعة معتزلة ، متنسكة ، متوحدة ، ولا تتناسب تعاليمهم مع الانجيل ، فهم يمنعون الزواج ويحرمون العمل . ولم يشر إليهم المسيح إلا مرة واحدة عندما وبخ من لا يدهنون الرأس حين يصومون ومن يضعون السراج تحت المكيال . هل استعار من فيلو ويهود الاسكندرية ؟ حقيقة إن فيلو كان رجلا صالحا ومعاصرا للمسيح . ولكن حتى لو أن اسمه سمع في اقليم بعيد كالجليل ، وهذا ما يشك فيه جدا ، فمن المستحيل أن يختار المسيح من بين فلسفات العالم فلسفة أبعد ما تكون عن تعاليمه ليقتبس منها ، إذ كانت ملآى بالرموز الصوفية ، والكنايات المتطرفة والكتابات التى تذخر ببحار من التخيلات (١) . هل استعار من هلليل وشماى ؟ لا نعرف عنهما إلا القليل. حقيقة يوجد فى الأناجيل تنويه فى فقرة أو اثنتين عن الاختلافات التى اضطربت بها مدرستاهما أو مثل أو اثنين من أصدق الحكم المأثورة التى نشأت فيهما، إلا أن هذا لم يكن سوى اعتراف من الحق المطلق المشاع الذى أوحاه روح الله للناس فى كل زمان . أما تعاليم هلليل وشماي فلم تكن سوى تقاليد شفوية ونظم طقسية

١ - ولد فيلو غالبا سنة ٢٠ ق.م وعاش إلى حوالى سنة ٥٠ م. وقد زار أوروشليم مرة واحدة فمن المحتمل ليس إلا أن يكون قد شاهد المسيح . وكان عنصر تعاليمه " أن يسمو بالمعرفة عن العمل . فكان مكانها فى صومعة الناسك وليس فى الحقل أو السوق. وكان أتباعها حكماء خياليين وليسوا رسلا مبشرين بالأنجيل لكل العالم . وكانت هذه الديانة المثل الأعلى للديانة الجاهلية المناهضة للمسيحية إذ كانت تحرم الحياة الاجتماعية التى ترفع من شأنها المسيحية ، وتحصن القلاع المظلمة التى تدكها المسيحية ، وتهرب من الميدان الذي انتصرت فيه المسيحية " وستكوت .

مائتة ، متعجرفة ، عقيمة ، مستهترة ، غير أصيلة قد وبخها المسيح وندد بها (١) ولم تكن المدارس التى تعلم فيها المسيح مدارس الكتبة ، ولكن مدرسة الطاعة المقدسة ، والقناعة العذبة ، والبساطة غير الزائفة ، والطهارة التى بلا عيب ، والكد المفرح . ولم تكن الحكمة التى درسها حكمة الربيين التى كان يضطر المرء أن يخوض فى خيالات صبيانية وخرافات تعصبية ليستخلص فكرة نبيلة واحدة . ولكن حكمته هو واضحة فى كتب الله الظاهرة أى الكتب المقدسة ، والطبيعة ، والحياة ، وفي كتب الله الباطنة المحفورة على ألواح القلب اللحمية .

كان تعليم الولد اليهودى الفقير قاصرا على تلقينه(٢) الكتب المقدسة وأدب السلوك وكان والداه فى الغالب هما المعلمين الوحيدين . وربما ردد يسوع على مسامع يوسف ومريم الشمة [تث ٦ : ٤ الخ] والتهليل [مز ١١٤ - ١١٨] وأجزاء بسيطة من الكتب المقدسة أفاض على صفحاتها في مستقبل أيامه أنوارا ساطعة .

ولكن من الواضح انه أظهر تعليما أكثر مما تقدم

١ - معرفة الكتابة ليست شائعة فى الشرق حتى فى أيامنا هذه . ولكن من اشاراته المتعددة عن أشكال الحروف العبرانية [مت ٥ : ١٨] ومن انحنائه على الأرض

---

١ - سنرى فى كل المسائل التى تختص بالطلاق إن تعاليم يسوع تخالف آراء هلليل وشماى . هل نعتقد أنه لم يكن لهلليل من التأثير فى عصره مثلما له من الذكر فى التاريخ ؟ ولم يذكر يوسيفوس اسم هلليل مع انه لا يوجد داع من الخوف ولا داع من الكفر يجعله يهمل اسمه كما أهمل اسم يسوع . راجع الخاتمة

٢ - خر ١٢ : ٢٦ و تث و اع ٢٢ : ٣ و ٢ تى ٣ : ١٥ و ابن سيراخ : ٢٨ - ٢٤ الخ حيث يفرق بين التعليم الذى يتاح للفقير والفرص التى تمنح للغنى (الكاتب يكتسب الحكمة فى أوان الفراغ ... كيف يحصل على الحكمة من يمسك المحراث ... ويسوق البقر ... وحديثه فى أولاد الثيران . كذلك كل نجار وصانع ممن يقضى الليل كالنهار ... هؤلاء كلهم يتوكلون على أيديهم ... لا يدخلون الجماعة ولا يجلسون على منبر القاضى ... ولا يضربون الأمثال ... لكنهم يصلحون ... لأجل عمل صناعتهم) .

ليكتب [يو ٨ : ٦] يبرهن على أن السيد كان ملما بالكتابة .

٢ ـ كانت معرفته للكتب المقدسة واسعة عميقة حتى كان يبدو للناس كأنه يحفظها عن ظهر القلب وقد استنتجوا هذا من تنويهاته المختلفة ومقتبساته العديدة من الناموس والأحكام ، وكذلك من أشعياء ، وإرميا ، ودانيال ، ويوئيل ، وهوشع ، وميخا ، وزكريا ، وملاخي ، وبالأكثر من المزامير (١) . وكذلك الكتب اليهودية غير القانونية (٢) . وهذه المعرفة العميقة الحاضرة في الذهن جعلت أهمية بالغة لسؤاله المتكرر الذي يسعر بالغيظ [أما قرأتم ؟]

ЄΞΗΛΘΕΝΔΕΒΑϹΙΛΕΥϹϹΟΔΟΜΩΝΕΙϹΥΝΑΝ
ΤΗϹΙΝΑΥΤΩΜΕΤΑΤΟΥΠΟϹΤΡΕΨΑΙΑΥΤΟΝ
ΑΠΟΤΗϹΚΟΠΗϹΤΟΥΧΟΔΟΛΛΟΓΟΜΟΡΚΑΙ
ΤΩΝΒΑϹΙΛΕΩΝΤΩΝΜΕΤΑΥΤΟΥΕΙϹΤΗΝ
ΚΟΙΛΑΔΑΤΗΝϹΑΥΗ·ΤΟΥΤΟΗΝΤΟΠΕΔΙΟΝ
ΒΑϹΙΛΕΩΝ· ΚΑΙΜΕΛΧΙϹΕΔΕΚΒΑϹΙΛΕΥϹ
ϹΑΛΗΜΕΞΗΝΕΓΚΕΝΑΡΤΟΥϹΚΑΙΟΙΝΟΝΗΝ
ΔΕΙΕΡΕΥϹΤΟΥΘΥΤΟΥΥΨΙϹΤΟΥ·ΚΑΙΕΥΛΟΓΗ
ϹΕΝΤΟΝΑΒΡΑΜΚΑΙΕΙΠΕΝ· ΕΥΛΟΓΗΜΕΝΟϹ

كتابة يونانية قديمة جدا يقال انها لأوريجانوس ومحفوظة
فى مكتبة قطونية وهى من سفر التكوين اصحاح ١٤

٣ ـ كانت اللغة الآرامية هى التى يتحدث بها السيد عادة . ومع أن اللغة العبرانية

---

١ ـ كلها وارد فى انجيل متى . ٢ ـ قارن مت ١١ : ٢٨ مع سيراخ ٥١ : ٢٦ و لو ١٤ : ٢٨ مع ٢ مكا ٢ : ٢٩ و ٣٠ و كانت كل عائلة يهودية تحتفظ بأجزاء من الكتب المقدسة . ولاحظ بلامنر أن يعقوب أخا الرب كان يقتبس أيضا منها قارن يع ١ : ٦ و ٨ و ٢٥ مع ابن سيراخ ٧ : ١٠ و ١ : ٢٨ و ١٤ : ٢٣ .

فى أيامه كانت لغة قديمة لا يعرفها سوى المتعلمين ، ولا تحفظ إلا بجهد ، غير أن يسوع كان يتحدث بها وهذا ظاهر من الاقتباسات التى أخذها رأسا من العبرانية (١) . وكذلك كان يتكلم باليونانية إذ كانت اللغة السائدة فى المدن المتاخمة لمسقط رأسه مثل صفور وقيصرية وطبرية (٢) . وبها تفاهم يسوع مع قائد المائة الذى أبرأ غلامه ، أو مع بيلاطس ، أو مع اليونانيين الذين رغبوا أن يتحدثوا إليه فى الأسبوع الأخير من حياته (٣) . وان بعض المقتبسات الواردة فى البشائر عن الكتب المقدسة جاءت باليونانية (٤) . ويحتمل أيضا أنه تحدث باللاتينية لأن الرومان كانوا كثيرين في اليهودية وكانت العملة الشائعة باللاتينية (مت ١٢ : ١٩) . ولكن مهما تكن قيمة هذه الكتب فانه واضح أن أثرها كان طفيفا أو معدوما فى تعاليمه . ولا يوجد فى كل تعاليمه اقتباس واحد من الأدب أو الفلسفة أو التاريخ اليونانى أو الرومانى (٥) . بل ان يسوع كان غالبا يتحدث على طريقة لغته الوطنية وهذا واضح من استعماله الجناس فى بعض الكلمات التى كانت تكسب بعض جمله أهمية أكثر وجمالا أوقع عندما قيلت بلغته الأصلية ولا يظهر ذلك إلا فى الترجمة اليونانية (٦) أو فى غيرها .

---

١ ـ مر ١٢ : ٢٩ و ٣٠ و لو ٢٢ : ٣٧ و مت ٢٧ : ٤٦ . ٢ ـ عملة هيرودس الكبير باليونانية وكان بعض الربيين يشجعون على تعلم اليونانية . ولكن تعلم اللغات على العموم لم يكن له أية قيمة بل كان تعلم اليونانية محرما إبان الحرب الرومانية ولم يسمح أحد من الربيين لتلاميذه بدرس الأدب اليونانى إلا غما لأنفه . ويقول الربى اسماعيل انه لا يجب درس اليونانية إلا فى ساعة لا هى بالليل ولا بالنهار ! لأن تعلم الشريعة يجب أن يكون نهارا وليلا ! ! ٣ ـ مت ٨ : ٦ ـ ٩ و ٢٧ ـ ١١ و يو ١٢ : ٢١ . ٤ ـ فى البعض فقط . نعتقد أن البشيرين أوحى إليهم أن يعلنوا لنا كل ما هو ضروري للخلاص من حياة السيد ولكن اختلافاتهم تدل على أنهم لم يدققوا تدقيقا حرفيا لا فائدة منه . ٥ ـ قد حاول البعض أن يجد فى مر ١٦ : ١٨ الماحا إلى موت سقراط ولكن هذا تعمل بعيد جدا . ٦ ـ راجع وبتر . مثلا (زمرنا لكم فلم ترقصوا "راكدتون" نحنا لكم فلم تبكوا "آركدتون") ومثلا طالبثا قومى وآبا وقيفاس كلها آرامية أو كما يسمونها سورية كلدانية . كذلك صرخته على الصليب (الوى الوى لما صبختنى)

سابعا : كل ما سمعه أو رآه يسوع في طفولته وصبوته في منزل أمه أو مدرسة المجمع لم يكن له تأثير على حكمته لأنه كان الحكمة ذاتها . كانت حياته عبارة عن أفود نقشت عليه كلمة واحدة وهى « الله » . ولقد كان يرى اسم أبيه هذا مكتوبا على نفسه الداخلية ، وعلى كل اختباراته ، وعلى أشعة الشمس وضياء النجوم ، وفى كل مكان .



نبع فى فلسطين

وكان يعتزل فى الوادى الأمين ذي الحقول الخضراء والمناظر الفتانة مما يوحى إلى النفس شبعا روحيا . ولذا نراه قد استعار كثيرا من أمثاله التهذيبية وأفكاره الروحية من كل شىء فى الناصرة - من البيع والشراء فى سوقها الصغير ، ومن تفجر نبعها الدائم طول

السنة ، ومن جمال السوسن السريع الذبول الذى ينبت فى تلالها، ومن نواح فراخ الغربان العارية من الريش وصراخها المزعج وهى في أوكارها التى تهزها الرياح ، وحتى من ألعاب أطفالها الأطهار .

ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أنه فى هذه السنين الساكنة التي لم يدون شىء عنها قد تم جزء كبير من عمله . فانه لم يتقلد سيفه على فخذه فقط ، بل أحسن استعماله فى تلك الحرب التى لا يسفك فيها دم مز ٤٥ : ٣ و جا ٨ : ٨ . وتلك الموقعة الصامتة التى وإن لم تسمع فيها قعقعة السلاح ولم تر فيها الأعداء الذين هم رغم ذلك مخيفون ، قد استمرت طول سنى طاعته التى افتدتنا . وفى هذه السنين « ابتدأ يعمل » قبل أن « ابتدأ يعلم » بزمن طويل . اع ١ : ١

كانت طفولته طاهرة ، وصبوته طاهرة ، وشبوبيته طاهرة ، ورجولته طاهرة . ولقد قضاها جميعا فى الخضوع ، والكد ، والعزلة ، والطاعة ، والقناعة ، والصلاة ، صائرا بذلك مثالا أبديا لجنس البشر . نحن لا يمكن أن نتمثل به فى خدمات الكرازة التى بشر بها ، ولا نستطيع أن نختبر فى حياتنا ولو على وجه ضعيف الظروف التى اكتنفت الأعوام الثلاثة الأخيرة من حياته . ولكن الله قد حكم أن يعيش أغلب الناس وسط تلك الواجبات العادية التى تمر على وتيرة واحدة دون حوادث هامة ، والتي تشابه كل الشبه السنوات الثلاثين التى قضاها يسوع فى الناصرة . وكانت حياته مدار هذه السنين المثل الأكمل فى كيف ينبغى أن نعيش . قال القديس بونافنتيورا « لنلاحظ أن عدم عمله شيئا عجيبا كان فى حد ذاته أمرا عجيبا . كانت حياته كلها سرا . وكما كانت القدرة تتجلى فى أعماله ، كذلك كانت القدرة تظهر فى سكونه . وذلك الملك السيد الذى كان مزمعا أن ينادى بالفضائل جميعها ويرشد إلى سبل الحياة القويمة ، ابتدأ منذ شبابه بتقديس ممارسة فضائل الحياة التى أتى ليبشر بها بكيفية عجيبة لا يدرك عمقها ، وحتى ذلك الوقت لم يسمع بمثلها » .

ولا شك أن مجرد وجوده فى المنزل الذي قضى فيه طفولته قد جعل ذلك البيت سعيدا . لأن ساعة الجهاد ، ساعة قيام وسقوط كثيرين في اسرائيل بسببه ، ساعة اعلان أفكار قلوب كثيرة ، ساعة ظهور ملكوت السموات وأخذ الغاصبون له بالقوة ، لم تكن قد أتت بعد . إن تأثير نفس واحدة محبة فى أية عائلة كاف لايجاد السلام الذى لا يوصف ، وتكون له القوة التى تبعث الهدوء مثل شعاع الشمس أو ندى السماء أو ترجيع اليمام عند المساء ، ولا يستطيع أى شيء مبتذل أو ضجور أن يقاوم طويلا سحرها الفياض ، ولا تستطيع أيضا مشاجرات أو خصومات أن تعكر صفوها .

ولم تكن عائلة يسوع عائلة عادية ، فيوسف كان يعول البيت ويرشده ، ومريم تقدسه وتملأه عذوبة وحلاوة ، ويسوع ينيره بضياء السماء ذاته . ولذلك نعتقد بحق أنه كان بيت تقوى صادقة وطهارة وسلام . كان بيتا كاملا لا يشوبه إلا عدم إيمان أقرباء يسوع به . كان بيتا من أجله صارت الأرض كلها أكثر اعزازا ورهبة فى نظر الملائكة والقديسين . وإذا سمحنا لخيالنا أن يسبح لقلنا أن الملائكة أحبت من أجله أن تسكت حتى حفيف أجنحتها . وتخبرنا التقاليد المسيحية الأولى أن سحابة من النور كانت تفيء حوله نهارا وليلا إذا قام وإذا نام . وإنه لكذلك ، غير أن هذا النور لم يكن مجدا منظورا ولكنه كان جمال الطهارة وكان سلام الله .

•••

ثامنا : جاء في الفصل الحادى عشر من التاريخ الأبوكريفى أن يوسف النجار كان له أربعة أولاد وبنات عديدات من زوج سابقة وأن ولديه يوسى وسمعان وابنتيه استر وثامار تزوجوا في الوقت المناسب وسكنوا فى منازل خاصة . وجاء في هذا الكتاب أيضا على لسان يسوع « أما يهوذا ويعقوب الصغير ومريم العذراء أمى فقد بقوا فى منزل يوسف ، وعشت بينهم كما لو كنت واحدا منهم كفـــرد من أولاد يوسف . وأمضيت وقتى كله فى بر كامل . وكنت أدعو مريم أمى ويوسف أبى . وكنت مطيعا

لكل ما يقولان ، ولم أخالفهما قط بل كنت خاضعا لهما . ولم أثر غضبهما يوما ما ، ولم أغلظ لهما الجواب ، بل على العكس حبوتهما حبا عظيما كحدقة العين » .

هذه الفقرة الأبوكريفية التي اقتبستها فقط لأنها تظهر مقدار الوفق والاتحاد الذين سادا منزل الناصرة تقودنا إلى السؤال العويص : هل كان للمسيح أخوة وأخوات حقيقيون ؟ وإن كان الجواب بالنفي فمن هم أولئك الذين دعتهم البشائر مرارا «أخوة الرب»؟ لقد كتبت مجلدات ضخمة كثيرة في هذا الموضوع ، فلن أدخل في تفصيل وسيع ، أولا لأني لا أرغب أن تكون صفحات هذا الكتاب مسرحا للجدل ، وثانيا لأنني وفيت هذا الموضوع حقه في مكان آخر (١) . وتكاد أدلة وبراهين الفريقين (٢) تتساوى ومشكلات الرأيين ظاهرة حتى اني إذا تصلبت وقررت حلا قاطعا لهذه المسألة أكون متحيزا غير أمين . فرأى يعتمد بالأكثر على حرفية ما جاء في البشائر يقبل الافتراض الطبيعي وهو انه بعد الحمل العجائبي بمخلصنا ، عاش يوسف ومريم كزوجين وولدا يعقوب ويوسي ويهوذا وسمعان ، وأخوات لم تسجل أسماؤهن . وعلى هذا الرأى يكون يسوع هو الابن الأكبر . فلما مات يوسف ـ ويقول التقليد أن هذا حدث وكان ليسوع تسعة عشر عاما ـ أصبح يسوع هو الرئيس والعائل لتلك الأسرة اليتيمة .

---

١ ـ راجع قاموس الانجيل لسميث تحت كلمة " أخوة " .

٢ ـ لقد كتب كثير جدا عن هذا الموضوع . وتوجد كتب متعددة في متناول يد الجميع بحثت هذه المسألة التي لم تسفر مع كثرة الجدل عن حل بات . فلا مسوغ للدخول في تفصيلات تامة سيما وان الدكتور لايتفوت في خاتمة تفسيره لرسالة غلاطية قد عالج هذا الموضوع بدقته واستيعابه المشهورين . وإذا نحن حذفنا كل الآراء الضعيفة أو المكررة نجد ثلاثة آراء كبرى : (١) الرأي الهلفيدي وهو أن أخوة الرب كانوا أولاد يوسف ومريم فعلا (٢) الرأي الأيرونيمي وهو انهم كانوا أولاد خالته مريم من حلفى (٣) الرأي الأبيفاني وهو أنهم كانوا أولاد يوسف من زوجه الأولى . والرأي الثاني وعمدته ايرنيموس هو الرأي الأعم وان يكن الأقل براهين ولا يرتكز على أي تقليد قديم قبل وقت ايرنيموس . وكما بين لايتفوت أن هذا الرأي لا يرتكن على تقليد أقدم من الجيل الحادي عشر . ويظهر أن ايرنيموس نفسه بعد أن عاش في فلسطين

والرأى الثانى وعمدته ابرنيموس يقول أن أخوة الرب كانوا أولاد خؤولته إذ من المحقق أنه كان للعذراء مريم أخت (أو ربما أخت زوج) اسمها مريم أيضـا (١) كانت زوجـة

تنازل عن هذا الرأى . ويكفى أن نلاحظ أن هذا الرأي يفترض أن ثلاثة من هؤلاء الأخـوة كانوا رسلا للمسيح وهو ما يخالف مخالفة صريحة ما جاء (بيوحنـا ٧ : ٥ لأن أخوته أيضـا لم يؤمنوا به) . هذا فضلا عن انه يرتكن على فروض أخرى مشكوك فيها . أما الرأى الأبيفـانى فهو الرأى السائد فى فلسطين والشائع فى الأبوكريفا . أما الرأي الأول الهلفيدى فله من البراهين ما يجعله أثبت أساسا ولـكن يقوم ضده اعتراضان مهمان : الأول : أن الرب يسوع قد عهـد بأمه إلى يوحنا وليس لأحد آخر . قد يفسر هذا بعدم محبة أخوته له حتى ذاك الوقت . ومـع أن ظهور الرب القائم من الأموات ليعقوب (١ كو ١٥ : ٧) قد غيرهم تماما ، ولـكن أيضا قد توجد أسباب عديدة تجعل مريم تستمر فى معيشتهـا عند التلميـذ الذى سلمهـا له يســوع . والاعتراض الثانى : هو أن أسماء أبناء حلفى مطابقة تماما لأسماء أخوة الرب . ولـكن هذا لا يؤخذ ضد الرأي الهلفيدى لأن هذه الأسماء كانت شائعة بين اليهود مثل حنا وبطـرس بيننـا . (المعرب : من المستبعد بل من المستحيل اشتراك أختين فى تسميـة أولادهما الأربعـة بنفس الأسماء) . وحتى إذا استثنينا مؤقتا (لو ٢ : ٧ فولدت ابنها البكر و مت ١ : ٢٥ ولم يعـرفها حتى ولدت ابنها البكر و مت ١ : ١٨ قبل أن يتعارفا) نجد أنهم : (١) سمـوا دائما أخـوة لا أنسباء . (٢) كانوا دائما يصحبون العـذراء مريم دون أي تنـويه بأنها ليست أمهم الحقيقيـة (يو ٢ : ١٢ وبعد هذا نزل إلى كفر ناحوم هو وأمـه وأخـوته و مت ١٢ : ٤٦ إذا أمـه وأخـوته قد وقفوا) .

وأضيف حجة قوية ضد الرأى الأبيفانى أنه لو كان ليسوع أخـوة أكبر منه لما أعتـبر أنه الوارث الشرعى لكرسى داود (راجـع مت ١ : ١٦ و لو ١ : ٢٧ و رو ١ : ٣ و ٢ تى ٢ : ٨ و رؤ ١٢ : ١٦) .

١ ـ من المحتمل وجود أختين باسم واحد فقد كانت هذه هى العادة فى عائلة هيرودس ، ولا يبعد أن تنتشر هذه العـادة بين فلاحى الناصرة . وفى أثناء زيارتى لفلسطين رأيت أختين باسم واحد ، ولا شك أنه توجد أمثلة أخرى لذلك .

المعرب : يرى المطالع المنصف والمطلع غير المتحيز أنه :—

أولا : لا يمكن أن يكون ليوسف أولاد من زوج سابقة :

١ ـ لم يذكر فى أى موضع فى الكتاب ما يشتم منه أن يوسف النجار كان له أولاد من مريم أو

لحلفى (كلوبا) وأن هؤلاء الأربعة مع البنات غير المذكورة أسماؤهن كانوا أولادها . وعندما يزن الانسان أدلة الطرفين يمكنـــه أن يكون لنفسه رأيا . ولكن الدلائل الصريحة نادرة لا تسمح برأي بات يحوز رضى الجميع وموافقتهم .

وواضح على أى حال أن السيد نشأ فى وسط أقارب أو أخوة عديدين أكبر منه قليلا أو أصغر منه ، كلهم رجال لهم شخصية ممتازة ، وغيرة نارية ، وبساطة تقرب من

من غيرها . بل على العكس من ذلك كان يذكر يوسف ومريم ويسوع فقط فى كل المناسبات مثل اكتتاب بيت لحم؛وزيارة الرعاة ، وسجود المجوس؛والهرب إلى مصر؛والصعود إلى أورشليم.

ب - لو كان ليوسف أولاد من زوج سابقة لما اعتبر يسوع وريثا لعرش داود إذ يكون الأصغر.

ثانيا : لا يمكن أن يكون ليوسف أولاد من العذراء بعد ميلاد يسوع :

ا - وإلا لما تسلمها يوحنا بل يكون واحد منهم قد أخذها إلى خاصته . أما كلمة (ابنها البكر) فلا تدل على شيء سوى أنه الابن الأول . وهذه التسمية تطلق دائما على الولد الفاتح رحم ولو لم تخلف أمه غيره .

ب - ان كان له أولاد آخرون من مريم لما اعتبر يسوع وارثا لكرسى داود لأن ابن العصب أحق بالوراثة من ابن التبنى .

ثالثا : لا يمكن أن يكون يعقوب ويوسى ويهوذا وسمعان أولادا للعذراء وأخوة ليسوع . لأنه ظاهر من مراجعة مت ٢٧ : ٥٦ و مر ١٥ : ٤٠ و لو ٢٣ : ٥٥ و يو ١٩ : ٢٥ أن للعذراء أختا اسمها مريم هى زوجة كلوبا (حلفى) (الأول باليونانى والثانى بالآرامى) (وكانت واقفات عند صليب يسوع أمه وأخت أمه مريم زوجة كلوبا) وأن أولادها هم يعقوب ويوسى ويهوذا وسمعان . وبعضهم لم يؤمنوا به فى الوقت الذي يشير إليه يوحنا فى ٧ : ٥ . وظهر يسوع بعد قيامته لواحد منهم ١ كو ١٥ : ٧ ، وصار الباقون أعمدة فى الكنيسة فيما بعد .

رابعا : المعتاد فى الشرق تسمية العم أو الخال بالأب وأولادهما بالأخوة والأخوات وهذا لا يزال شائعا ذائعا إلى وقتنا الحاضر فى فلسطين ومصر على السواء .

خامسا : نبوات العهد القديم تثبت بتولية العذراء أنظر حزقيال ٤٤ : ٢

(أخيرا) يحيل المعرب كل من يرغب زيادة البحث فى هذا الموضوع على المؤلفات العديدة القيمة سيما كتاب مشكاة الطلاب فى حل مشكلات الكتاب للأسقف ايسيذوروس وكتاب مريم العذراء الصادر عن جمعية المحبة القبطية الأرثوذكسية .

التقشف السنى ، وكراهة فائقة لأى نوع من الفساد أو الفوضى أو النجاسة ، ورجاء قوى فى مجىء المسيا ، وتمسك صارم فى حفظ تقاليدهم القومية . ونعلم أيضا أنهم - وإن كانوا فيما بعد أعمدة فى الكنيسة المسيحية الفتية - فلم يعتقدوا فى البداءة في ألوهيته ، أو على الأقل لم يوافقوا على الطريقة الالهية التى أعلن بها ذاته (١) ، ولذلك لم يكن بينهم من اتخذهم يسوع فى حياته أتباعا أمناء أو رفاقا أحباء . إذ يظهر أنه كان فيهم شىء من صلابة الرأى الرجعى ، والعناد اليهودى ، ونقص فى العطف ومشاعر الرقة والاحترام . أما بطرس ، المحب حتى فى أتعس أويقات ضعفه ، الكريم حتى فى أشد حالات اندفاعه ، ويعقوب بن زبدى الهادىء الساهر الكتوم الصادق ، وقبل الجميع يوحنا الذى كانت غيرته وحميته مكتنفة بروح من الرقة العالية السموية كأنها وميض البرق بين بريق الندى - أما هؤلاء فكانوا أعز لديه من اخوته أو أقربائه حسب الجسد . ان الخلق القويم الشديد الصارم أقل جمالا من المحبة الفياضة (٢) .

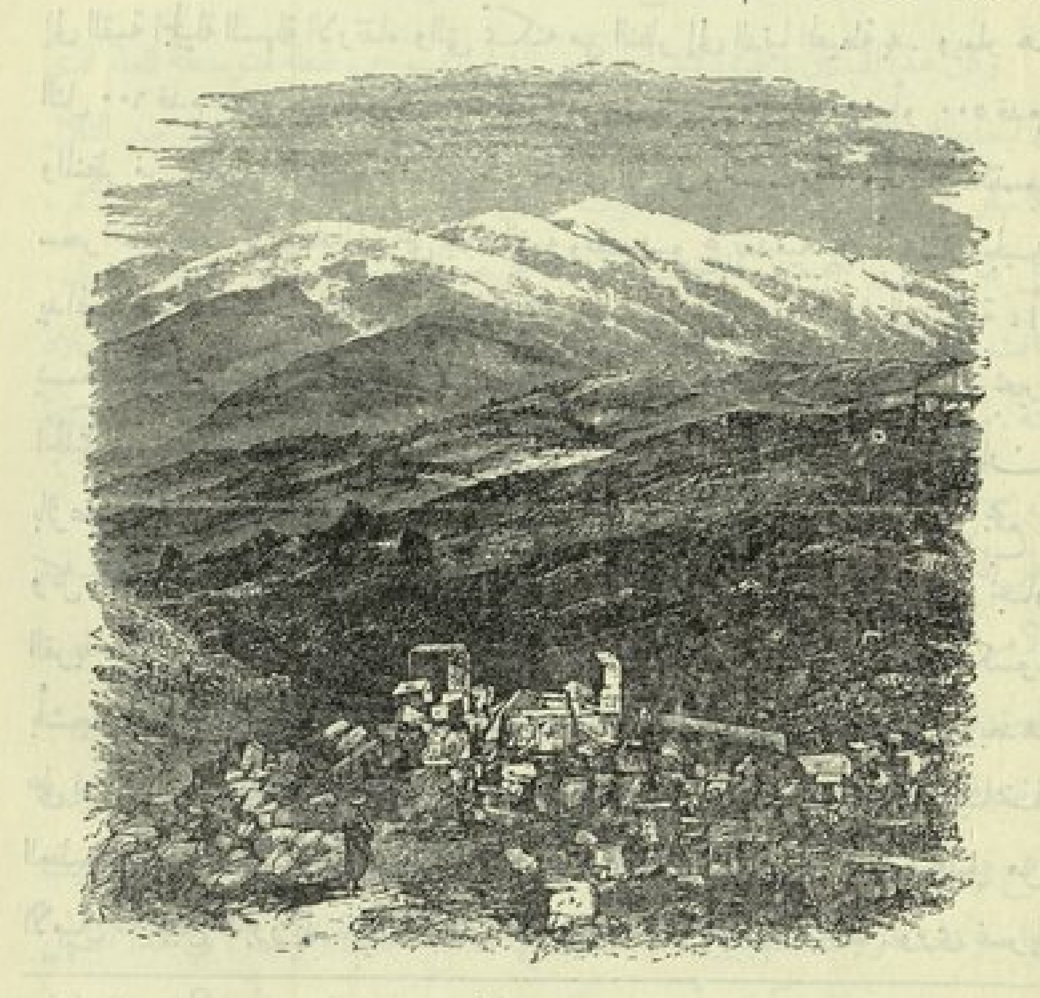
* * *

نادما - ولا ندري إن كانت هذه السحب مزسوء الفهم النسبي قد اقتمت سماء فتوة يسوع الناصرة وهو فى مدينة الجليل الصغيرة أم لا . وربما عاش معه هؤلاء الأخوة من نفس الصناعة المتواضعة ، وسكنوا معه تحت نفس سقف البيت المتواضع . ولكنا

١ - (يو ٧ : ٣ و ٤ فقال له أخوته انتقل من هنا ... و مر ٣ : ٢١ ولما سمع أقرباؤه خرجوا ليمسكوه لأنهم قالوا انه مختل) . (المعرب : أليس فى هذا دليل على أن أخوته هم أقرباؤه ؟) . لاحظ بساطة وصدق الأناجيل فى ذكر ما يعتبره المخالفون أنها رموز مخزية بينما لا تذكر الأبوكريفا إلا ضد هذا .

٢ - يقول وايزر باحتمال صحة التقليد الذي يذكر أن سالومى كانت أخت مريم ، الذى أشار إليه وإن لم يذكره يوحنا فى ١٩ : ٢٥ فيكون يوحنا ويعقوب ابنا زبدى أولاد خؤولته ولا يستغرب ان كانا أولا تلميذين ليوحنا المعمدان لأنه كان سابقا للمسيح . ويعتقد ايوالد أن العذراء من سبط لاوى؛ لذا لبس المسيح القميص المنسوج الذى يلبسه الكهنة اللاويون يو١٩ :٢٣ وإن يوحنا البشير لبس أيضا فى شيخوخته مثل هذا القميص . فعندئذ يعتقد بقرابة يوحنا ليسوع .

متأكدون انه كان كثيرا ما ينفرد وحده ، إذ كانت الوحدة له أكثر من بنى البشر طرا « خيمة التكلم مع الله » وكان بلا شك يطيب له العزلة جوانب التلال وتحت أشجار التين وكروم الزيتون ووسط الحقول فى قيظ الظهيرة وتحت نجوم الليل . لا يمكن لنفس أن تحفظ نضارتها ورقة وجودها دون الاعتزال والتأمل الانفرادى أو الصلاة الانفرادية . وأهمية ضرورة هذه العادة تتناسب مع أهمية النفس . ومرارا عديدة أثناء كرازة يسوع وفي البرارى كان ينفرد عن تلاميذه حتى أشدهم إخلاصا وأعمقهم حبا كى يكون فى عزلة أتم .



حرمـــون

١٠ ـ قد قيل أن مكانين فى فلسطين قد خطت فوقهما بكل تأكيد قدما السيد ، وهما جانب بئر شكيم ومنحنى الطريق من بيت عنيا على جبل الزيتون الذى تظهر منه أوروشليم أول وهلة للناظرين . ولكنى أضيف عليهما على الأقل مكانا ثالثا هو قمة التل الذى بنيت عليه الناصرة . وهذه القمة لايخلد ذكرها الآن تذكار مسيحى ، وانما زاوية خربة متداعية لأحد الأولياء . وبالتأكيد لا يوجد الآن فى الناصرة طفل بلغ العاشرة مهما كان غبيا أو قليل العاطفة إلا اعتلى تلك القمة . وبالتأكيد ما كان في الناصرة قديما طفل إلا أطاع غريزته الانسانية العادية وتسلق منحدرات ذلك التل إلى القمة الجميلة السهلة الارتقاء والتى تمكنه من النظر إلى الدنيا المحيطة به . ويعلو هذا التل ٦٠٠ قدم عن سطح البحر بينما ينخفض الوادى البهيج حوالى ٤٠٠ أو ٥٠٠ قدم . والمنظر من تلك البقعة فى أية مملكة يعتبر غاية في الجمال والفخامة . ولكنه يكتسب سحرا لا يوصف لاعتقادنا أن على هذه القمة وقف يسوع بقدميه بين أزهار الجبل يداعب شعره النسيم العليل وهو يشاهد النسور تسبح فى زرقة السماء الصافية ، أو يسمع حفيف أجنحة البجع فيرفع بصره ليراقبه راحلا جماعات من نهر قيشون إلى بحيرة الجليل . وأى منظر كان أمامه وهو جالس فى الربيع على الحشيش الأخضر المزدان بالزعتر . وكان معروفا لديه كل حقل ، وكل شجرة تين ، وكل بستان نخيل ، وكل مجمع ، وكل منزل ، ولكن بين كل المنازل المنبسطة الأسطح كان يثبت نظره على منزل نجار القرية . وكان يرى شمالا سهل أسوخيس الخصب (١) الذى تعلوه تلال نفتالى المكسوة بأشجار الأخشاب وعلى احداها تظهر مدينة صافد « المدينة المبنية على التلال » وبعدها على امتداد البصر إلى أقصى الأفق يقرب جبل حرمون فى زرقة السماء بقمته الشامخة العظيمة بيضاء ناصعة إذ يكسوها الثلج على مدار السنة . ويرى شرقا على بعد قليل من الأميال قمة جبل طابور المستديرة الخضراء العامرة بأشجار البطم والبلوط . ويرى غربا

---

(١) ـ يسمى الآن سهل البطوف .

حافة جبل الكرمل القرمزية الذى وجد ايليا فى غاباته مسكنا له ثم حيفا ، وعكا ، والرمال البيضاء التى تحد أمواج البحر الأبيض المتوسط التى ترتفع فيه هنا وهناك القلوع البيضاء التي « لقوارب شتيم » . ويرى جنوبا سهل كبير لا يعتور انبساطه إلا جبال حرمون الصغير وجلبوع ذلك هو سهل ازدراليون الشهير فى تاريخ فلسطين بل فى تاريخ العالم كله إذ فى وسطه يوجد الطريق المؤدى للمدينة التى كانت دائما « قاتلة الأنبياء » والتى ربما رأى فيها يسوع حتى في ذلك الوقت خلال ظلال النبوات ـ الأعياء فى البستان والاستهزاء والجلد وتاج الشوك والصليب .

وكان هذا المكان ، الذى يمتد أمام عينى الشاب يسوع ، نقطة متوسطة للعالم الذى أتى ليخلصه . كانت قلب أرض اسرائيل ولكن لا يفصلها إلا حد بسيط من التلال والأنهار عن فينقية والشام وبلاد العرب وبابل ومصر القريبة جدا . أما جزر الأمم ، وكل بقاع أوروبا المجيدة ، فلا تبعد كثيرا على ضفاف المياه المتألقة للبحر الغربى . وكانت أعلام الرومان تخفق على الوادى أمامه ، ولغة اليونان تتحدث بها البلاد تحته . ومهما ظهر إذ ذاك السلام مخيما على تلك البقعة الخضراء كبساط الزمرد ، المبهجة من ضياء أشعة الشمس ، المظللة بسماء صافية ، لا يتخللها سوى سحب قليلة سابحة اثر المطر المتأخر ، فقد كانت طوال الأجيال موقعة حروب الأمم . فالفراعنة ، والبطالسة ، والأمراء ، والملوك ، والقضاة ، والقناصل ، استماتوا لامتلاك هذا الاقليم البسام . ولمعت في جوها مزاريق العمالقة واهتزت أرضها تحت عجلات عربات سيزوستريس ، ورنت فيها القسي المشدودة التى لسنحاريب . وسارت عليها كتائب المقدونيين ، وسمع فيها صليل السيوف المستعرضة الرومانية ، وكتب عليها بعد ذلك أن تتجاوب فيها صرخات هروب الصليبيين ، وتقصف فيها مدافع انجلترا وفرنسا . في هذا السهل سهل يزرعيل ، تقابلت آسيا وأوروبا ، واليهودية والوثنية ، والبربرية والمدنية ، والعهد

القديم والعهد الجديد ، وتاريخ الماضى وآمال الحاضر . فلا شك أنه لم يكن ثمة منظر آخر أكثر أهمية قد استرعى نظر المخلص الشاب .



سهل يزرعيل



الأردن

الفصل الثامن

معمودية يوحنا

كان يوحنا الأعظم بين مواليد النساء مثل قمة جبل
أضرمها الخالق نارا من ضياء الفجر . مابر

على هذا النحو من الخضوع الوديع والسكون المقدس مرت حداثة يسوع وشبابه والأعوام الأولى من رجولته حتى أصبح فى الثلاثين من العمر . وذلك الدرس العميق الذى علمه لكافة طبقات البشر فى كل زمان بكده المتواصل وعزلته في هذه السنين الثلاثين ، علمه بقوة أعظم من قوة أى كلام . وها قد أتت الساعة لكرازته وعمل الخلاص العظيم ، وأزمع أن يكون الفادي ليس بمثاله فقط ، بل بالاعلانات الالهية ، بل بالموت .

وها قد بدأ يرن في البرية ذلك الصوت الصارخ فيحرك قلب تلك الأمة قائلا : [توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات] .

كان ذلك الزمان فترة انتقال وريبة وشك . وكان يظهر لكثير من اليهود الأتقياء - وسط ازدياد الفساد العام وهدم المبادىء المقدسة وتلبد الأفق السياسي بسحب تزداد تجهما وقتاما - كأن ينابيع الغمر العظيمة تكاد تعود وتنفجر مرة ثانية . فقد فارقت عصى الملك الأمة اليهودية ، وعبث برئاسة الكهنوت واحتقرها رؤساء الربع الأدوميون والولاة الرومانيون . وأصبحت الكلمة العليا فى مجلس السنهدرين المتداعى إما للهيرودسيين المرائين أو للصدوقيين المخادعين . ولم يبق لليهودى ما يتعزى به إلا ازدياد تمسكه بالتعاليم الموسوية وتعمق إيمانه فى رجاء مجىء المسيا . فى فترة مثل هذه يسودها الاضطراب وعدم الاستقرار ، فى فترة يندثر فيها القديم ويدفن سريعا بينما لا يزال الجديد فى طى الخفاء ، يكاد يغتفر للفريسى إذا انتهز الفرصة ليثور ، ويغتفر بالأولى للسنى إذا فضل حياة العزوبة وانزوى بعيدا عن عشرة الناس . وكان هناك ترقب عام لحلول « الغضب الآتى » الذى كان كمخاض الوالدة يشير إلى اقتراب الملكوت الآتى ويسبقه كما يزداد قتام الحلك قبل بزوغ الفجر [ملا ٣ : ١ و ٤ : ٢] . وظهر كأن الدنيا قد شاخت ، وخرف عبادة الأوثان قد وصل إلى درجة مخيفة . فاقترن الالحاد كما هو الحال دائما فى كل أمة بفساد الأخلاق ، ووصل الجور والعسف إلى أقصى النهاية . وطلقت الفلسفة أعمالها الحسنة ، وقصرت فضائلها على قليلين من المختارين . وعمت الجرائم وعز علاج الخوف والدمار الذين سببتهما لآلاف القلوب . وظهر كأن التوبة نفسها قد اضمحلت وتبلد احساس الناس (١) . وقست القلوب ، ومات الشعور بالفضيلة ،

---

١ - لقد وصفت هذا العصر باختصار ، ولكن وصفا مريعا قد رسمه رينان وديلنجر وغيرهما . وأفضل ألا يعلم المرء إلا القليل عنه فان كثيرا مما كتب عن هوة الفساد العميقة التى وصل إليها البعيدون عن الله يشبه نور فنار فرعون الذي كان كثيرا ما يؤدى إلى تحطيم سفن كان المفروض هدايتها .

والذين كانت لهم بقية منه كانوا أقلية ضئيلة ينذرهم الأشرار بالسوء [اف ٤ : ١٧ ـ ١٩] كل هذا جعل حتى العالم الوثني يتوقع مجيء ملء الزمان .

في مثل هذه الفترات يكون حب العزلة والتقشف قويا جدا ، والانفراد مع الله وسط المناظر الطبيعية القفراء أحب من ضجيج الأفكار المتضاربة بين جماعة يائسة . ويكون الاعتماد على النفس والمعيشة على أبسط الموارد التي تكفي لأقل حاجات الحياة أشهى من المخاوف المضطربة والبؤس المضني الذي للفقر الكسيح المحطم . وتكون البرية وما فيها من طبيعة ساكنة ، صماء ، جامدة ، ملجأ مريحا من غوغاء ودناءة وخبث الانسان . والفريسي بانوس مثل من أولئك الذين حفزتهم هذه الأفكار فقبع في البرية وعاش على نمط رهبان مصر في العصور التالية . وقد وصف يوسيفوس ـ الذي مكث مع ذلك المتوحد ثلاث سنين في مغاور الجبال ـ الحياة الصارمة التي عاشها وكيف كان يعذب نفسه ويلبس أوراق الشجر ويقتصر في طعامه على عشب الأرض ويغتسل صباحا ومساء بالماء البارد ليصير جسمه نظيفا وقلبه نقيا .

ولكن النسك قد ينبت من أسباب تخالف هذه تماما . فقد ينشأ عن عجرفة الذي يرغب أن يتميز عن كافة الناس ، أو ينشأ عن زهد من شبع واكتظ من التنعم والشهوات ولا يجد مهربا منها أو حتى من نفسه ، أو عن خوف الأناني الذي يدأب على خلاص نفسه وحده . ولكن ما أبعد هذا كله عن دوافع المعمدان ، وما أنبل تلك البساطة الصارمة ، وانكار الذات الشريف الذين تحلى بهما . فلم يكن خيالا نافلا ذاك الذي حدا بالمصورين في العصور الوسطى أن يرسموه ناحلا من شدة التقشف (١) . ولقد ظهرت محبته للعزلة منذ الصغر ، ونجمت عن شعور برسالته العظمى ، ونتجت

---

١ ـ مثل الصورة الجميلة التي رسمها بوتيسلي والموجودة بقصر البورجيز بروما . قارن حياة القديس بنديكت . (المعرب : من أعظم النساك المثاليين العظيم الأنبا أنطونيوس والأنبا بولا والأنبا باخوميوس وكثيرون من المتوحدين) .

من رغبته فى اتمام واجب يضطرم بآمال كبار . فكان يوحنا المعمدان يسكن البرارى ليصير نبي العلى . وكان النور الذى فى داخله يتطلب الاذكاء ولو أدى اشعاله إلى لهب يحرقه - لكن ليس لمجده الذاتى وانما لينير طريق الملك الآتى .

كانت طبيعة يوحنا مملوءة غيرة نارية . والصراع الطويل الذى منحه الغلبة على نفسه ، وجعله راضيا أن يمجد ذاته وينكرها أمام سيده ، وصيره بلا خوف أمام المخاطر ، وملأه بالاتضاع وسط تهليل الاستحسان، قد ترك أثرا كبيرا فى خلقه الصارم وفى وجهة نظره وفي تعليمه . وإن كان قد نال السلام من طول صلاته وانسحاق حياته فى البرية ، فلم يكن سلام الاستكانة الذى للنفس الخاملة الذليلة ، لأن النصر الذى حازه كان عليه آثار الموقعة ، والهدوء الذى غمره كان فيه صدى عجيج الزوبعة ، بل ان تعاليمه ذاتها كان عليها مسحة من خشونة البرية كالصخر ، والأفعى ، والشجرة القاحلة . ولقد قال عن المسيح انه كان فى ظهوره وارساليته مثل السراج الموقد المنير [يو ٥ : ٣٥] ، وحياته العامة مثل الزلزلة الشديدة ، بل كان الرجل كله موعظة . وحقا سمى بالصوت الصارخ في البرية إذ كان صوتا يردد صرخة واحدة [أعدوا طريق الرب] .

لازم يوحنا التفكير طويلا ، ولم يتحدث بلسانه إلا أخيرا . ومنذ الصغر صار ناسكا طواعية . وتعلم في وحدته وانفراده أشياء لا ينطق بها . وصارت له الدنيا غير المنظورة حقيقة راهنة . واشتعل فى روحه قبس من النور ، وبصيص من الخيال ، يناجيان قلبه الكبير المتوحد ، يناجيانه بنفس الأفكار التى جاشت فى قلوب سلسلة الأنبياء الطويلة الذين أرسلوا لأولئك القوم المتمردين ، ويناجيانه بالاعلانات التي تهمس بها أصوات الجبال والبحار ، فتعلم من كل ذلك حكمة أعمق مما لو كان قد تفقه تحت قدمى هلليل أو شماى . وقد رأى فى وادى الأردن المنخفض حيث يظهر الجو وقت الظهيرة كأنه يتموج بلهيب غريب ، وفي استماعه لعواء الحيوانات المفترسة أثناء الليل الطويل تحت تألق النجوم التى تشبه كورا من النار معلقة فى سماء بنفسجية ، وفى

تجواله على شاطىء تلك البحيرة الميتة ذات المياه القاتمة الزرقة حتى يزوغ البصر فى الأبخرة المتصاعدة منها ، والمنثور عليها أنقاض الموت - رأى كأن أرواح الخطاة قد انتفضت من تحت الحمأة التى غرقوا فيها . وفى كل هذا قد تعلم لغة ورأى اعلانات لم تمنح للرجال العاديين ، ولا يحصل عليها الانسان فى مدرسة الربيين وإنما فى مدرسة الخلوة ، فى مدرسة الله .

أمثال هؤلاء المعلمين هم الصالحون لمثل هذه الأوقات . كان هناك معلمون عديدون أكثر مما تقتضيه الحاجة ، من الطراز العادى المكرم الذين يتكلمون بالناعمات ويتنبأون بالكذب والغش . فالكاتب أو الفريسى الأملس من جراء عيشه الرغيد ، المتعالى بسبب الاحترام العام ، قد يقف فى المجمع مرتديا طيلسانه الثمين وأحجبته العريضة ويشرح بطريقة نوامة سخافاته الركيكة وحذلقاته المبتذلة . ولكن مجرد منظر يوحنا المعمدان كان يدل على أنه معلم من طراز آخر . وقبل أن يرن مقطع واحد من صوته الذي ارتفع بالسخرية والسخط ، كان وجهه الملفوح ، وشعره المسترسل ، ومنطقته التي من الجلد ، ولباسه الذى من وبر الابل (١) - تدل بوضوح على أنه قد قام أخيرا رجل حق يستطيع بعظمته الذاتية وقوته الجريئة كمثيله النبي البدوى الخشن إيليا أن يقف دون وجل أمام تعدى من هو شبيه آخاب وفجور من هى مثيلة إيزابل .

كانت حياته الطاهرة ظاهرة لدى الجميع . فكان معروفا أن شرابه ماء قراح وطعامه جراد (٢) وعسل برى . وشعر الناس أن له قوة الغلبة التى تمنح دائما للذين ينكرون ذواتهم تماما . فمن هو أعلى من المطامع العادية للناس ، هو دائما أعلى من نقائصهم العادية .

---

١ - قارن ٢ مل ١ : ٨ و زك ١٨ : ٤ و عب ١١ : ٣٧ .

٢ - لا ١١ : ٢٢ والفكرة بأنه كان يأكل من شجر الجراد أى الخروب فكرة خاطئة إذ لا زال الجراد يباع فى بعض المدن الشرقية فى حوانيت خاصة مسلوقا فى الماء والملح أو مقددا ، ويؤدم بالزبدة ، ولكن لا يأكله إلا الفقراء . ويقول البعض أن البدو يأكلونه متضجرين . أما عن العسل البري فقارن ١ صم ١٤ : ٢٥ ومز ٨١ : ١٦ .

وإذ كان رجاؤه في عطف البشر قليلا ، كان خوفه من كرههم له أقل . وإذ كان لا يريد أن يكسب شيئا من وراء التملق للناس ،فلن يخسر شيئامن التصريح بالتوبيخ الحق . لقد كان محلقا فوق الآخرين ، يشرف عليهم من علو الطهارة والسلام ، ولا تشوب ناظريه العتامات الطفيفة التي تعتور أبصارهم ، ولا تزعجه المؤثرات التافهة التي تشوش حياتهم .

فلا عجب إن كان مثل هذا الرجل قد لف الناس حوله وأشعرهم أنه قوة فى وسطهم. ولا غرو أيضا إن ذاع الخبر أنه قد ظهر فى برية اليهودية شخص تستحق كلماته اللاذعة أن يصغى إليها ، شخص يذكر باشعياء فى تعبيراته (١) وبايليا فى سيرته .

كان طيباريوس يسيء بأعماله الشائنة إلى عرش الأمبراطورية . وكان بيلاطس البنطي يدفع إلى الجنون شعبا متعصبا بوقاحته وصرامته وتعسفه ومذابحه . وكان هيرودس أنتيباس يتبجح علنا بتيسيره للناس التمثل به فى الارتداد عن الايمان والامعان فى الشهوة الطائشة . وكان قيافا وحنان يقتسمان رئاسة الكهنوت التى أهاناها . أما كلمات النبي الجديد فلم تكن عن أمثال هذه الأمور من الظروف السياسية ، بل كانت الدروس التى علمها أعمق وأعم فى دلالتها الأخلاقية والاجتماعية . ومهما كان مركز الذين هرعوا إلى عزلته القاسية ليسمعوه ، فقد كانت تعاليمه عملية ، ومبكتة للقلوب بمرارة ، وصريحة بلا أدنى خوف . وقد تزاحم الفريسيون (٢) والصدوقيون والكتبة والجند ليصغوا إلى كلماته . وكان مكان كرازته ووعظه البرية الشاسعة ، القاحلة ، غير المأهولة ، التى تمتد جنوبا من أريحا ومخاوض الأردن إلى البحر الميت.

---

١ ـ قارن اش ٥٩ : ٥ مع مت ٣ : ٧ . و اش ٤ : ٤ و ٤٤ : ٣ مع مت ٣ : ١١ . و اش ٤٠ : ٣ مع لو ٣ : ٤ . و اش ٥٢ : ١٠ مع لو ٣ : ٦ .

٢ ـ أما الفريسيون ... (لم يعتمدوا منه لو ٧ : ٣٠) بل ان المعمدان أظهر بوضوح احتقاره ودهشته لحضورهم مت ٣ : ٧ . وتنازلهم لسماعه قليلا جعلهم يحكمون عليه سريعا (ان به شيطانا مت ١١ : ١٨) ولم يكن هذا هو الموضع الوحيد الذي كانت تستخدم فيه هذه الكلمات بحقد وخداع نفس عمني : لا يمكن أن نقبل كلماته .

وكانت الصخور التي تشرف على الممر الضيق الذي يصل أوروشليم بأريحا مكمنا للصوص الخطرين. ولم تكن إذ ذاك قد اندثرت الحيوانات المفترسة والتماسيح من غابات البوص التي تتكاثف عند فيضان الأردن، ومع ذلك فمن كل مكان من حبرون مهد الكهنوت، ومن أوروشليم المدينة المقدسة، ومن الجليل البسام - هرع الناس أفواجا يلتمسون سماع ذلك الصوت الغريب مت ٣ : ٥. وكانت كلمات ذلك الصوت كمطرقة حطمت أقسى القلوب الصخرية فنثرتها، وكشعلة اخترقت واستشفت أعمق الأفكار فأعلنتها. ودون أن يستعمل أية حاشية رقيقة، أو نبرة خاضعة، أو اختلاجة تردد، قد وبخ العشارين لارتشائهم، والجند لشدتهم وظلمهم وجشعهم (١)، ووبخ الصدوقيين الأغنياء والفريسيين العظماء لحذلقتهم وكذبهم وملسهم الذي جعلهم حيات أولاد أفاعي (٢). وحذر جميع الناس مؤكدا أن الامتيازات التي يتكلون عليها لتقيهم من الغضب الآتي هي أقل من العدم إن لم تكن مقترنة بالتوبة. وإذ كانوا يفخرون بنسبهم العريق ذكرهم أن الله الذي خلق آدم من طين قادر أن يقيم من الحجارة التي على ضفاف الأردن أولادا لأبراهيم (٣). وقد سمعوه بضمائر مبكتة، وقلوب كسيرة. وإذ كان قد اختار العماد علامة لتوبتهم وتطهيرهم فقد [كانوا يعتمدون منه في نهر الأردن معترفين بخطاياهم]. وحتى الذين لم يخضعوا لمعموديته قد فرحوا بنوره زمانا.

على انه كانت ليوحنا رسالة أخرى أعجب وأكثر رجاء. ما اغتصب لنفسه سلطانا سوى أنه السابق لغيره. ولم ينسب لمعموديته أهمية سوى أنها السبيل للمملكة التي كانت على الأبواب (٤). وعندما سأله رسل السنهدرين عمن يكون - وكان كل الناس

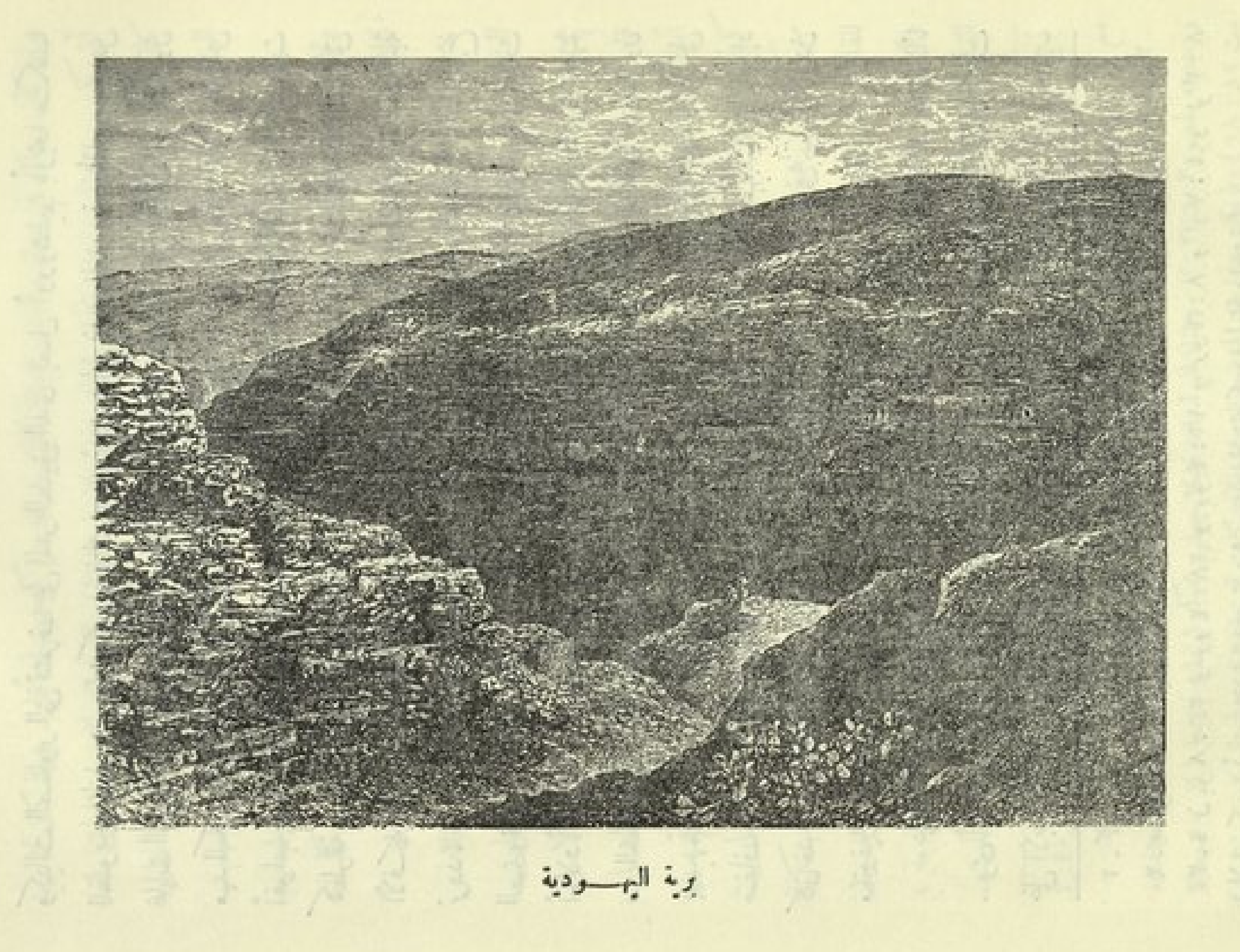
---

١ - كلمة " جند " في لو ٣ : ١٤ معناها " العسكر الرحالة ". ولا نعلم شيئا عن ظروفهم.

٢ - مت ٣ : ٧. " حيات أولاد حيات " قارن مز ٥٨ : ٥ و اش ١٤ : ٢٩.

٣ - قارن يو ٨ : ٣٣ و رو ٢ : ٢٨ و رو ٤ : ١٦ و رو ٦ : ٨ و ار ٧ : ٤ و لو ٣ : ٨ (لا تفكروا أن تقولوا مت ٣ : ٩ معناها لا تفكروا لحظة واحدة).

٤ - يقول أوزهوش " معمودية للتوبة وليست غسلا للتجديد " (تيطس ٣ : ٥).



برية اليهودية

يفكرون فى قلوبهم ألعله المسيح - لم يتردد هو لحظة أن يعلن أنه ليس المسيح ولا إيليا ولا النبي (١) . بل هو [صوت صارخ فى البرية] ، ولا شيء سوى ذلك . ولكن بعده - وهذا الاعلان قد هز قلوب السامعين بقوة - سيأتى من هو أعظم منه لأنه كان قبله (٢) . من سيعمد ولكن ليس بالماء بل بالروح القدس ونار (٣) ، من رفشه في يده وسينقى بيدره ويجمع الغلال إلى مخازنه أما القش فيحرقه بنار لا تطفأ . لقد جاءت الساعة لظهور مسيا الموعود به والمنتظر منذ زمن طويل . وانه لقريب منهم بل موجود بينهم ولكنهم لم يعرفوه ، أما هو فيعرفه ويرى نفسه غير مستحق أن ينحنى ويحل سيور حذائه (٤) .

كانت التوبة واقتراب ملكوت السموات هما النقطتين الأساسيتين في وعظه . ومع انه لم يدعم ارساليته بعمل ولو بأعجوبة واحدة (٥) ، إلا أنه أنذر بعقاب المرائين وهلاك القساة ، وبشر بالعفو للتائبين ودخول الطاهرين والأنقياء إلى ملكوت السموات . ولقد قيل : « إن الاعلانين العظيمين اللذين أتى بهما من الصحراء كانا الوعيد للخطية والوعد بالمغفرة ، النار التى تحرق والنور الذى يضىء ، وهما الدعامتان الموضوعتان فى أساس استعداد الانجيل » .

---

١ - أي أحد الأنبياء الكبار مثل ارميا (قارن ٢ مكا ٢ : ٧) الذي كان اليهود ينتظرون مجيئه ثانية ليتقدم المسيح كما يظهر ذلك جليا (تث ١٨ : ١٥ و ١٨ . و اع ٣ : ٢٢ و ٧ : ٣٧).

٢ - الكلمة الأصلية فى يو ١ : ٣٠ لا تعنى فقط الذى كان " قبلى " بل تعنى " قبلى بكثير " .

٣ - المعنى القريب والواضح لهذه الكلمات هو ما ورد فى اع ٢ : ٣ ولكن قد يكون فيها ما يشير إلى التجارب النارية لو ١٢ : ٤٩ و ١ بط ١ : ٧ ، أو الدينونة النارية ١ كو ٣ : ١٣ .

٤ - أو كما جاء فى (مت ٣ : ١١ أن أحمل حذاءه) وكلا العملين من أعمال الخدم .

٥ - نلاحظ أن هذا دليل قوي على صحة الانجيل . فلو كان الأمر كما يقول بعض العقليين الحديثين من أن المعجزات أقاصيص خيالية فلم لم تنسب واحدة للمعمدان ؟ ليس الداعى نقصا فى عظمته أو نقصا فى الميل لتصديق المعجزات ، ولكن لأن يوحنا لم يعمل معجزة ولأن البشيرين تكلموا كلمات الصدق والصحو .

ولهذا الوعظ ولهذه المعمودية جاء يسوع من الجليل وهو في الثلاثين من العمر (١) . كان يوحنا نسيبا له (٢) ولكن ظروف حياتهما فرقت بينهما . فيوحنا في صغره عاش في منزل أبيه الكاهن الذى بلا لوم فى أرض يوطاه (٣) فى الجزء الجنوبى لقسم يهوذا غير بعيد من حبرون . وعاش يسوع فى اعتزال تام فى دكان النجار فى وادى الجليل . وعندما جاء هذا السابق العظيم أولا إلى ضفاف الأردن لم يكن يعرفه كما أكد ذلك مرتين بشهادتين متكررتين . ومع أن يسوع لم يكن أعلن بعد كالمسيح لنبيه وسابقه العظيم ، فقد كان هناك شيء فى نظرته ، شيء في سلوكه النبيل وطرقه الجميلة التى بلا إثم ، شيء فى عظمة هيئته الوقورة امتلك وأرهب يوحنا لساعته . كان للآخرين النبى الذى لا يلين ، الذي واجه الملوك بتوبيخه ، وكشف قناع رياء الفريسيين بوجزه ، ولكن أمام ذاك انخفض كل ارتفاعه . وكما يوقف النسر عن طيرانه خوف غير معلوم فيجعله يقبع خافت الصوت خافض الجناح ، فهكذا يوحنا أمام ذلك السلطان القاهر ، أمام تلك الطهارة التى لحياة بلا عيب . صار نبى الصحراء الخشن مثل طفل وديع خاضع (٤) . ذاك الذى لم تغلبه قوات الحرب العنيفة ، تلك الشخصية العالية التى أرعدت الرؤساء ، واصفرت أمامها وجوه الأمراء ، نراه يبدى التسليم والخشوع ، ويتعبد لقوة معنوية ضعيفة فى مظاهرها الخارجية ، ومسلحة بدرع غير منظور . وسجد يوحنا للرجولة البسيطة التى بلا دنس قبل أن يوحى إليه ليعرف أنه الاله المتأنس . واجتهد

---

١ ـ قال ايرانيوس إن يسوع كان إذ ذاك فى الخمسين من العمر متكلا على بعض التقاليد وبعض الأسانيد الخيالية وربما على تفسير خاطىء ليوحنا ٨ : ٥٧ (ليس لك خمسون سنة بعد) .

٢ ـ نسب مريم وأليصابات لا يبرهن على أن مريم من سبط لاوى فقد كان التزاوج بين الأسباط مباحا .

٣ ـ عن يوطاه راجع لو ١ : ٣٩ و يشوع ١٥ : ٥٥ وهى احدى مدن الكهنة بأرض يهوذا .

٤ ـ أوضح ستير ذلك بجمال فى قوله " انه عمد كثيرين ورأى أناسا من كافة الأجناس وعلى وجه ما رأى ما فيهم ، ولكن ولا واحد مثل المسيح جاء أمامه . وجميع الذين أتوا إليه انحنوا أمامه ، ولكنه انحنى مدفوعا بعاطفة لا تكتم من داخل النفس . أمام يسوع انحنى النبي العظيم.

بكل اخلاص أن يرفض طلب يسوع مت٣: ١٤. وذاك الذى قبل اعترافات جميع الآخرين ابتدأ أن يعترف هو نفسه باحترام وخضوع قائلا [أنا المحتاج أن أعتمد منك . وأنت تأتى إلى ؟] . وأجابه يسوع بثانى كلماته المدونة وأول كلمات خدمته الجهارية : [دع الآن . لأنه يليق بنا أن نكمل كل بر] (١) .

كان يوحنا يقدم رسالته للخطاة الذين صحت توبتهم وكانت فى صميمها [وأرش عليكم ماء طاهرا فتطهرون] حز ٣٤ : ٢٥ .

فان كان الأمر كذلك فلماذا قبل السيد العماد من يد خادمه ؟ كلماته نفسها تجيبنا أنه أراد أن يتمم كل مشيئة الله [مز ٤٠ : ٧ : ٨] وهو لم يتقبل العماد بعد الاعتراف إذ أنه بلا أثم ، ولذلك قرر المعمدان حتى قبل أن يعرف أنه المسيح أنه يقوم له بهذه الخدمة استثنائيا . إنما تقبل يسوع العماد ليدعم ارسالية سابقه العظيم آخر وأعظم مواليد الناموس القديم ، وأول مبشر بالعهد الجديد . وتقبل العماد بعلامة جميلة التطهير ، وكحفلة متواضعة لتدشين بدء شريعته التى ما جاء بها لينقض الناموس بل ليكمله . وكلماته ذاتها لا تدع مجالا لسوء الفهم ، فلم يقل « يجب » ولكن [لأنه يليق بنا] . لم يقل « إنى محتاج أن أعتمد » بل يوحنا هو الذي قال [أنا المحتاج أن أعتمد منك] . [دع الآن] وكأنه يقول « أنا أعلم حقا أنها معمودية التوبة ، ولكنها قد تصلح أيضا أن تكون رمزا لغسل التجديد » (٢) .

على هذا الرسم نزل يسوع إلى مياه الأردن ، وحينئذ أعطيت العلامة الجليلة أن

---

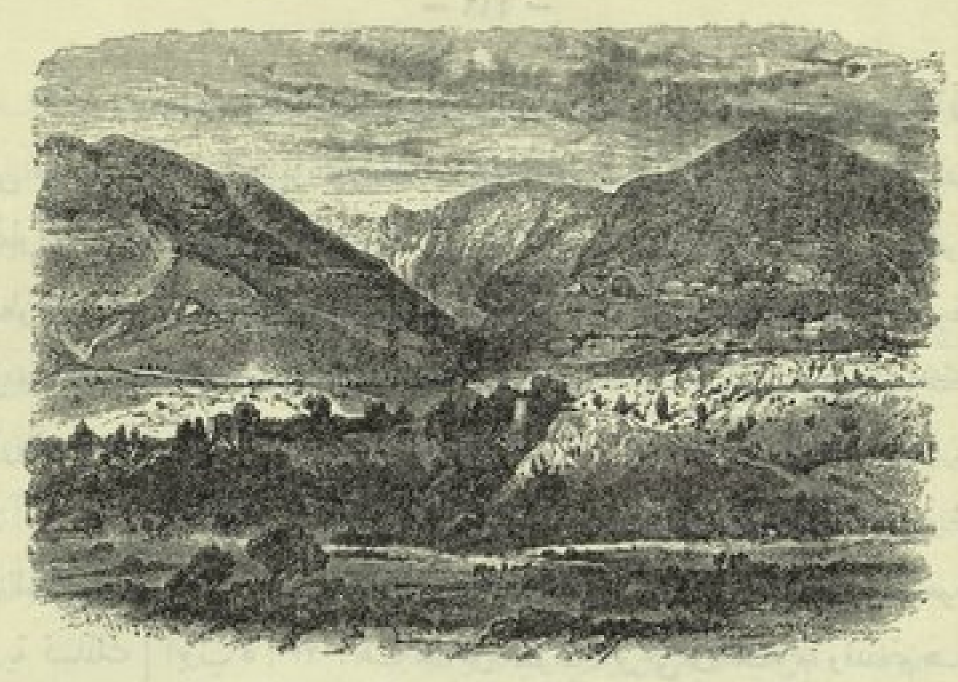
١ ـ مت ٣ : ١٤ و ١٥ قيل أنها تعنى كل (طقس) .

٢ ـ تى ٣ : ٥ و مت ٣ : ١٥ قارن مت ٦ : ١ . ويقول شنيكل وغيره من اللاهوتيين أن المسيح تقبل العماد لأنه كان حسب الناموس كأنه ينوب عن الشعب غير الطاهر . ويقول القديس بونافنتيورا ـ وقد يكون شعور أحد القديسين أرجح وأصح من تدقيق اللاهوتيين ـ يقول هذا القديس (إن عماد المسيح يدل على منتهى التواضع جاعلا كل بر فى تكميل الاتضاع) .

هذا هو [الآتى] . وإذا السموات انفتحت ونزل روح الله مثل حمامة (١) واستقر عليه كلهب مرفرف ، وصوت من السماء (باث كول) (٢) وقع على الآذان الصماء كرعد غير مفهوم ولكنه تكلم فى أذنى يوحنا قائلا [هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت] .

١ - وردت (مثل حمامة) فى البشائر الثلاث ووردت (فى هيئة جسمية مثل حمامة) فى لوقا قارن ١ مكا ١ : ٢ . وجاء فى الشجيجه تفسير لما ورد فى تك ١ : ٢ " ان روح الله كان يرف على المياه مثل حمامة " . وأضافت الأساطير " ان نيرانا اشتعلت فى وسط الأردن " كما قيل أيضا ان ما حدث كان شبيها بالظاهرة النورانية التى كانت تضىء بين الكروبين فى قدس الأقداس . والتى هى الشكيناه أى السكينة أو روح الله .

٢ - قال جروفر أن لفظ " الباث كول " استعمل للدلالة على الأصوات التى تسمع من السماء مباشرة . أو الأصوات التى يرددها الصدى عن السماء . أو الأصوات العرضية التى تسيطر عليها مشيئة الله .



جبـل التجربة

الفصل التاسع

التجربة

لأجل هذا جرب المسيح ... لكى لا يهزم
المسيحى أمام المجـرب . أغسطينوس

بعد أن اعتمد يسوع من يوحنا أراد الاعتزال لكى يكون منفردا ويفكر فى عمله العظيم . فلما رجع من الأردن اقتاده الروح أو كما ذكر مرقس البشير بتعبير قوى واضح [أخرجه الروح إلى البرية] (١) .

---

١ - قارن رو ٨ : ١٤ و حز ٣ : ١٤ و مر ١ : ١٢ . لم يذكر يوحنا البشير شيئا عن تجربة

ويحدد تقليد ليس أقدم من عصر الصليبيين موضع التجربة على جبل جنوبي أريحا سمى لهذه المناسبة بجبل القارانتانيا (١) . وهذا الجبل قاحل ماحل مثل جبل اللعنات ، ويعلو فى منبسط صحراء جرداء ، ويشرف على بحر سدوم (البحر الميت) البطىء الجريان القطرانى المياه ، وهذا ما يجعله مختلفا تماما عن جبل التطويبات اللطيف البسام الذى يطل على مياه بحيرة جنيسارات الصافية العذبة . ولذا رأى التقليد أنه مكان صالح لسكنى الأرواح الشريرة (٢) ، مكان في لغة الأنبياء ينعب فيه البوم وترقص فيه الكواسر .

كان هناك يسوع كما قال البشير الثانى فى لغته الوصفية المؤثرة [وكان مع الوحوش] ولم تلحق به أذى [على الأسد والصل تطأ . الشبل والثعبان تدوس] مز ٩١ :١٣ [ووحوش البرية تسالمك] أيوب ٥ : ٢٣ . هكذا قال صوت الوحى فى القديم وقد تم هذا الوعد ليسوع ولكثير من المؤمنين به . أما الذين يتأرجح إيمانهم عند ذكر أية معجزة فلهم أقول انه طبيعى فى غريزة الحيوان المفترس ألا يهاجم بشراسة أو يفر بخوف من سيده الانسان . ولقد تغنى الشاعر تنسون عن جزيرة في خط الاستواء قائلا : «لم تكن الشفقة هى الداعية للحيوانات أن تترفع عن ازهاق الأرواح ولكنها كانت مفترسة جدا حتى انقلبت أليفة » . إن ضراوة وخوف الحيوان غريزتان وراثيتان سببتهما خطية الانسان ومباداته لها بالقسوة والشر الطائش . غير أنه توجد حوادث تاريخية ليست

يسوع التى حدثت بالتأكيد عقب العماد مباشرة لأسباب نجهلها وربما كان من ضمنها أنه لم يشأ أن يدون شيئا لم يكن قد شاهده عيانا وحتى انه ليس من العدل أن يتقول بعض من تهمهم بالاصرار على عدم الأمانة على أنه قد أخفى هذه الحادثة عمدا ولم يذكرها قصدا .

وواضح أن الأكثر احتمالا أن رسل الكهنة واللاويين جاءوا إلى يوحنا المعمدان فى آخر أيام التجربة ، وفى اليوم التالى لحضورهم رجع يسوع من البرية وقابله المعمدان كحمل الله .

١ ـ المعرب : يسمى جبل التجربة الآن بجبل (القورندون) .

٢ ـ اش ١٣ : ٢١ و ٢٢ و ٣٤ : ١٤ . ويقول الربيون ان لجهنم ثلاثة أفواه : فى الصحراء (عدد ١٦ : ٣٣) و فى البحر (يونان ٢ : ٣) وفى أوروشليم (اش ٣١ : ٩) ويظنون أن أن عزازيل هو شيطان الصحارى (لا ١٦ : ١٠ قارن مت ١٢ : ٤٣) .

بالقليلة تغلب فيها الانسان على هاتين الغريزتين فى الحيـوان بهيبته وعظمتـه ولطفـه . وليس هناك ما يدعو إلى رفض الاعتقاد الدائم منذ الأجيال الأولى بأن حيوانات الصحارى المفترسة كانت تتمشى بحرية وبلا أدنى خوف بين الرهبان الأطهار ، وأن أفظع الضوارى وأشدها فتكا كانت أليفة لطيفة فى حضرة الآباء المقدسين (١) . ومن منا لا يعرف أشخاصا لم تزعج مرآهم الطير ، ويمكنهم الاقتراب من أشرس الكلاب دون خطر ؟ فيجوز الاعتقاد بأن مجرد شخصية يسوع القوية ، الحية ، النقية ، كانت كفيلة بحفظه من خطر الوحـوش . وفى مغاور المسيحيين برومية وفي بعض آثار المسيحيين الأولين قد رسم يسوع وكأن كل ما هو نبيل وجميل حتي في الخيـال والفن القديمين قد أكمل فيه كأنه كان رمزا لحياته وعمله .

وكان فى البرية أربعين يوما . وهذا العـدد قد تكرر وروده مرارا فى الأسفار المقدسة مقترنا دائما بحوادث التجربة أو الانسحاق . وظاهر أنه عدد مطلق ومقدس ، فقد قضى موسى أربعين يوما في سيناء وايليا أربعين يوما فى البرية . ولا شك أنه فى أويقات الحماس الشديد أو الأفكار الشاغلة تتغير حاجات الجسم العادية أو قد يستغنى عنها إلى حين . ويجب أن نفهم كلمات لوقا البشير [ولم يأكل شيئا] على حرفيتها . غير أن بعضهم يظن خطأ أن يسوع قد وجد كفايته الضرورية للعيش على النـذر اليسير النابت فى الصحراء (٢) .

[وجاع أخيرا] . وكانت هذه فرصة المجرب . كانت مدة الأربعين يوما جهادا

---

١ ـ أمثال القديس فرنسيس الأسيسى (المعرب : والقديس أنطونيوس وكثيرين من المتوحدين والرهبان حتى يومنا هذا . ولا شك أن الله الذى له السلطان على كل الخليقـة هو الذى يحفظهم ويأمر الحيوانات فلا تضرهم . دا ٦ : ٢٢ و مر ١٦ : ١٨) .

٢ ـ يرتكنون على أن الكلمة الأصلية لا ينحصر معناها فى الانقطاع التام ، وأن المتعبد اليهودي بانوس عاش سنين طويلة على ما ينمو من العشب فى نفس هذه الصحراء .
المعرب : هذا الرأى واضح البطلان .

متواصلا [أربعين يوما يجربه ابليس] لو ٤ : ٢ . وفي مثل هذه الأوقات من الحماس الفكرى يحتمل الرجال دون إعياء مجهودات تكاد لا تصدق . فيقاتل الجنود فى معركة طويلة قد تستغرق يوما بأكمله دون أن يشعروا حتى بجروحهم ، ولكن عندما ينتهى التحمس وتهدأ الغيرة وتخبو النيران ، أى عندما تتطلب الطبيعة المنهوكة التعوبة بعض حقوقها ، أو عند حدوث رد الفعل الشديد ، يصير الانسان معيى ، مضنى ، لا يحتمل الألم ، بلا حول ولا صول . وهذه الساعة تكون أخطر الساعات إذ فيها يقع الانسان في كثير من الأحيان فريسة لخدعة مخاتلة أو لهجمة جريئة . وفى مثل هذه الساعة دارت رحى الموقعة العظيمة بين السيد وابليس فحارب وغلب .

واضح أن هذا الصراع لم يكن رمزا أو تمثيلا . وواضح أيضا أنه من العبث وعدم الاحترام أن نتكلم بتفصيل عن حقيقة المظاهر الخارجية للتجربة . من العبث لأنه سؤال لا يمكن الفصل فيه بيقين ، ومن عدم الاحترام لأن البشيرين لم يسمعوها إلا من شفتى يسوع أو شفاه الذين أخبرهم هو عنها . ولا شك أن السيد قد ذكرها على الكيفية التى تحمل أصدق الأثر وأعمق الدروس . وكل واحد من مختلفى الشراح له تفسير خاص لهذه الحادثة . والكيفية التى بها تمت ، وحقيقتها الظاهرة والباطنة . ومن أيام أوريجانوس إلى وقت شيلوماشر اعتبر بعض الشراح التجربة مثلا أو رمزا أى الوصف الرمزى لصراع روحانى بحت ، ولكن أغلبية الشراح لا يقرون هذا التفسير . ومن المهم جدا أن يتأكد المرء أن هذا الصراع كان قويا وشخصيا وحقيقيا وأن يسوع من أجلنا قد صادم وغلب أعظم قوة للمجرب .

هل كان يسوع أو لم يكن قابلا للزلل ؟ هذا السؤال الذى نبت من المدرسيين واللاهوتيين لا يجب أن يخطر على عقل سليم مليء بالاحترام . نحن نؤمن ونعلم أن السيد المبارك كان بلا خطية وحمل الله كان بلا عيب ولا دنس ، فأية فائدة أو منفعة للبنيان فى السؤال عما إذا كان هذا ناشئا عن قابلية أو عدم قابلية للزلل . ولقد دخل

يسوع التجربة فعلا وحارب عدوا حقيقيا لأنه أي فضل وشجاعة للمحارب إن كان يعلم أنه سيجابه شبه معركة وضد عدو تمثيلي . لقد حارب وتألم لأنه [مع كونه ابنا تعلم الطاعة مما تألم به] عب ٥ : ٨ . إننا نؤمن أن لنا رئيس كهنة يرثى لضعفاتنا لأنه [مجرب في كل شيء مثلنا بلا خطية] عب ٤ : ١٥ . إن الذين يقولون بأنها معركة رمزية إنما يحرموننا من مسيحنا الحي ، الاله المتأنس ، ويقدمون لنا بدلا منه إلها غير مجرب وغير قادر أن يضرم فينا شعور التعبد ويثير احساس المحبة .

فلنحذر أن نخالف التعاليم الواضحة التي في الانجيل .وفي صدد هذه الحادثة فلنحذر مخالفة التعاليم الصريحة التي ليسوع نفسه بافتكارنا أنه لم يكن عرضة للتجربة . على العكس من ذلك ، لقد كان تعرضه للتجربة مصحوبا بألم أشد لأنها كانت تبارح لهذه الطبيعة المتناهية في القوة والمتناهية أيضا في القداسة . ومن المحقق أنه على مقدار اجتهاد أي انسان أن يتمثل طول حياته بأنموذجنا العظيم في القداسة والصلاح والبعد عن الايذاء والدنس وطرق الأشرار ، فعلى نسبة تمثله به يستشعر قوة المصارعة وألم البغضة الذي يوجه ضد طبيعته النبيلة عندما تأتيه أفكار من الداخل أو الخارج قد تجره إلى شبه اقتراب من ظلال الخطية .

في كتاب « سياحة المسيحي » لا نجد جزءا أقوى وأدل على المعرفة العميقة لأسرار القلب البشري من ذلك الذي يجد فيه « المسيحي » وهو في وادي ظل الموت أن عقله قد مليء بأشباح ثائرة وكلمات مجدفة وسوسها في أذنيه روح شرير من غير أن تكون له القوة ليحول دون ذلك ولكن في حيرته المرعبة لم يميزها أو يفرق بينها وبين أفكاره هو التي تخضع لارادته (١) .

---

١ ـ يوجد شبه لهذا في الوصف الذي كتبه ملتون عن كيفية اغراء الشرير لأمنا حواء وغزوه لأفكارها عندما كانت لا تزال بريئة : "كان الشرير هناك مثل ضفدعة جاثمة بالقرب من أذن حواء مجتهدا بخبثه الشيطاني أن يهاجم أفكارها ويقيم فيها حسب ارادته أشباحا وأحلاما أو على الأقل أفكارا غير قانعة غير مهذبة ، وآمالا تافهة ، وأغراضا عابثة ، ومطامع مشوشة .

ولكننا متأكدون أنه يستحيل أن يكون شيء من هذه الأمور قد تدخل في تجربة يسوع ، ليس لكونه الها متأنسا ولكن لانه عاش دون أن يخضع ولا مرة واحدة للاثم ، بينما تأتي هذه التصورات للبشر على الاطلاق نتيجة الوقوع سابقا في الاثم . نتيجة خيالات مرفرفة لمعاصي منسية أو غير منسية ـ نتيجة الضباب الذي يتبخر من أماكن آسنة في داخل أعماق كهوف القلب الذي لم يتطور بعد إلى التمام . وحاشا أن



البحر الميت

يكون هذا فى يسوع • وحاشا ألف مرة أن تكون له جهالتنا المروعة التى تحرمنا من التيقن والتفريق بينما يأتى من داخلنا وترتاح إليه ارادتنا الضعيفة ، وبين ما يفرض علينا من الخارج ويثور ضده كل عصب فى كياننا الروحي •

انها عقلية معكوسة وناقصة تلك التى تخال « أن الانسان إنما يعرف التجربة بنسبة انغماسه فيها » أو التى ترى أنه من المستحيل أن يميز المرء بين قوة التجربة الشديدة وبين سواد الفكر الملطخ ما لم يكن قد وقع فى الشر • وقد يظهر هذا القول كأنه حقيقة ولكنها نظرية مغلوطة نحتاجها فقط لتحذيرنا وتعزيتنا • وما أصدق ما قاله ذلك الشاعر الذى امتاز بقوة اجتياز منحنيات قلب الانسان الكثيرة التلافيف حيث قال بايقان :

إنه شىء أن نجـــرب وشىء آخر أن تقع فى التجربة (١)

وقد جرب يسوع [لأنه لاق ... أن يكمل رئيس خلاصهم بالآلام] عب ٢ : ١٠ [لأنه فيما هو قد تألم مجربا يقدر أن يعين المجربين] عب ٢ : ١٨ . ولقد شاهدت برية أريحا كما رأى بستان جسثيمانى صراعيه الأشدين ، وفي كليهما قد غلب أفظع وأنكر هجمات عدو النفوس . ولكن لم يمر عليه وقت وهو فى الجسد بدون تجربة وإلا لما كانت حياته حياة بشر حقيقة،ولما أمكنه أن يترك لنا مثالا نتبع خطواته. قال بونافنتيورا « كثيرة هى الظروف التى احتمل فيها يسوع التجربة » . وقال برنار « أولئك الذين يظنون أن تجارب يسوع ثلاث فقط يظهرون جهلهم بالكتب » . وهو فى ذلك يستند على ما جاء فى يو ٧ : ١ و عب ٤ : ١٥ ، وربما بوضوح أتم على الكلمات الصريحة الواردة

١ ـ شكسبير فى رواية " مكيال بمكيال " . قال القديس أغسطينوس "إن عمل الشيطان أن يغري وعملنا ألا نخضع " . وقال غريغوريوس " تتم الخطية أولا بالاغراء لها وثانيا بالسرور منها وثالثا بالوقوع فيها " . وكان أحد العلماء يفرق بين أن نجرب للخطية وبين ارتكاب الخطيـة ويقول لا تكون تجربة ما لم نشعر بأثرها ، ولا خطية ما لم نرض عنها وندعن لها . والحد فى التجربة الذى تبدأ عنده الخطية أو تتحول عنده التجربة إلى خطية : هو عندما تبدأ التجربة المقدمة لنا أن تترك أثرا فعالا فى القلب .

بانجيل لوقا عندما انتهت التجربة فى البرية وفارقه الشيطان ولكن [إلى حين] لو٤: ١٣ أى إلى أن تسنح فرصة أخرى . ولكنا نعتقد أنه بعد أن قام منتصرا من ظلمات مكائد البرية كانت كل التجارب اللاحقة عدا الأخيرة قد سبحت بخفة فوق روحه الطاهرة كسحابة صيف تسبح فوق القبة الزرقاء الصافية ثم تنقشع دون أن تغير من صفائها .

قال له المجرب أولا [إن كنت ابن الله فقل أن تصير هذه الحجارة خبزا] . وربما كانت [هذه الحجارة] تكاثفات رملية جيرية معروفة أحيانا بالكلسيات تتخذ أشكالا تشابه تماما أرغفة صغيرة ، والتي يظن التقليد أنها البقايا المتحجرة لفواكه مدائن السهول.



كلسيات شبيهة بالأرغفة (١)

إن آلام الجوع تهتاج وتزداد حدتها عند تخيل أشكال الأطعمة. وإذا كان هذا الظن صحيحا فان شكل ومنظر هذه الحجارة وأصلها المزعوم لا بد أن زاد فى شدة التجربة .

لا يوجد برهان أقوى على صحة هذه الأحاديث وعلى أنها إلهية مثل المكر العميق والأفق المتسع لكل تجربة على حدتها ، ومخالفتها المخالفة التامة للتجارب الخشنة والشباك السهلة التى كانت للقديسين فى كل العصور ، ولامتيازها بالرقة والنعومة وأولوية في الفكرة تعلو وتسمو عن أقوى اختراع .

---

١ ـ هذه الصورة مأخوذة من أحجار كلسية يمتلكها القس مسجراف وقد ظهرت أثناء الحفر لمد سكة حديدية فى ضيعته ببدفوردشير . ويشبه بعضها تماما أرغفة من الخبز أو قطعا من الفطير حتى لتغش أمهر الناظرين . وقد أثبت الأخصائيون أنها كلسيات تجمعت على امتداد آلاف السنين حول بقايا حيوانات مجهرية .

١ ـ لقد أثر انهاك الصوم الطويل على بنية يسوع بشدة لأنه لم يكن معتادا على ذلك ، إذ أنه لم يعش كمتصوف معتزل فى قسوة وآلام يفرضها على نفسه ولكن لغرض نبيل عاش كرجل وفى وسط الرجال . ولم يمتثل لصوم كأنه واجب محتم عليه وإن كان قد سمح به وحبذه تماما كمساعدة قيمة « ورد ذلك فى مكانين مت ٦:١٦ـ١٨و٩:١٥» (١) ولكننا نعلم من كلماته ذاتها أنه جاء [يأكل ويشرب] أنه لم يتوخ الامتناع عن شيء ، ولكن الاعتدال فى كل شيء . وكان يشترك فى الأعياد العامة واجتماعات أصدقائه البريئة حتى أن أعدائه تجرأوا أن يتقولوا عليه [انظروا هوذا انسان أكول وشريب خمر] كما قالوا عن يوحنا [به شيطان] . لذلك كان جوعه شديدا بعد أربعين يوما ، وحينئذ أتاه المجرب . ولا ندرى إن كان قد أتى على شكل روح من الظلمة ، أو ملاك من النور ، أو مختفيا فى شبه انسان ، أو متلبسا فى هيئة مغريات غير ملموسة . لا نعلم ولا ندعى أن نقول شيئا قانعين فقط أن نتتبع ببساطة ما جاء فى الانجيل متخذين نفس تعبيراته وطالبين أن نتعلم تلك الدروس العميقة التى تعنينا والتي لا يشك أحد فى تفسيرها .

كانت تجربة للحواس ، واستفزازا للشهية ، وتحديا لتلك الغريزة الدنيا التى يشارك فيها الانسان كل الخليقة الحيوانية . لم تأت على صورة فاضحة أو رغبة خشنة ، ولكنها جاءت مخفاة وراء الف حجاب ماكر . إن كان اسرائيل لما تذلل وأنهكه الجوع في القفر قد أطعمه الله المن الذى هو طعام الملائكة والذى هو الخبز النازل من السماء ليسد حاجته القصوى هذه فلماذا لا يعد ابن الله لنفسه مائدة فى البرية ؟ هو يقدر أن يفعل ذلك لو أحب فلماذا يتأخر ؟ وإن كان ملاك قد أظهر لهاجر وهى تشكو الأعياء من العطش بئر لحى رؤى ، وإن كان ملاك قد لمس إيليا وهو مضنى من الجوع وأراه الطعام

---

١ ـ فى مت ١٧ : ٢١ (... لا يخرج إلا بالصوم والصلاة) يفهم منها أن يسوع نفسه كان صائما وكذلك مر ٩ : ٢٨ .
(المعرب : عن ضرورة الصوم راجع كتاب اللآلىء النفيسة) .

فلماذا ينتظر هو خدمة الملائكة ، وانه لفي غنى عنها ، وإن كانت الملائكة تسـر لو سمح لها أن تخدمه ؟

ويا لعمق حكمة الجواب! وقد ألمح فيه إلى نفس الدرس الذى كان نزول المن معنيا بتعليمه واقتبس إحدى البينات النبيلة من وحى العهد القديم قائلا [مكتوب (١) ليس بالخبز وحده يحيا الانسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله] (٢) . وأى درس يحويه هذا الجواب لنا ، درس قد تثبت بمثال ما أعظمه ، درس يوجب علينا ألا ننقاد لطبائعنا السفلى ، وألا نسىء استعمالها فى كسب عيشنا أو ملذاتنا ، وأن نتأكد أننا لسنا ملك أنفسنا فلسنا أحرارا لنصنع ما نريد بما نظن أنه ملك لنا ، وأنه ليس كل الأشياء التى تحل لنا موافقة ، وأن للانسان دعائم للحياة أعلى من الخبز كما أن وجوده يعلو عن هيكله المادى (٣) . وكل من اعتقد أنه يحيا بالخبز وحده فانه يجعل حصوله على الخبز مبتغاه الأهم فى حياته ، ويوطد العزم للحصول عليه بأى ثمن . فاذا قل عنه الخبز ، أو حرم منه ولو إلى حين يصبح تعسا ثائرا . ولأنه لا يطلب غذاء أقدس يموت أخيرا من الجوع وهو فى وسط الخبز . ولكن من يعتقد أنه لا يحيا بالخبز وحده فأنه لن يفقد فى سبيل العيش الأشياء التى تجعل الحياة عزيزة ، أو يفرط فيها . ويثق أنه ما دام يعمل واجبه فان الله سيمنحه كل احتياجات الجسد الذى خلقه، فيسعى بجهد واخلاص في طلب الخبز الذى من السماء والماء الحى الذى كل من يشرب منه لا يعطش أبدا .

وهذه التجربة الأولى تماثل في شكلها التعيير الأخير الذى وجه إليه وهو على الصليب [إن كنت ابن الله فانزل من على الصليب] . [إن]...الايمان والثقة هما أساس كل قداسة الانسان ولذلك يحوز المجرب قوة أعظم عندما يثير الشكوك ويحوز قوة

١ ـ مت ٤ : ٤ . والكلمة " مكتوب " فى الأصل تعنى لصيغتها النحوية حقا مستمرا أبديا .
٢ ـ تث ٨ : ٣ . ولقد لاحظ الفورد أن يسوع واجه ودحر الشيطان وتجربته كابن الانسان.
٣ ـ يقول وردسورث : نحن نحيا بالتسامى والأمل والمحبة .

أيضا عندما يستفز ارادة الانسان وحريته الذاتية : « انك حر أن تعمل هـذا ، وأنـت تقدر أن تعمله ، فلماذا لا تعمله ؟ » لم يجاوب رب المجـد وهـو على الصليب ، أما هنا فجاوب ليثبت تعليما وقانونا أبديا . غير أنه لم يجاوب ابليس بقـوله « أنا ابن الله » إذ في عمق تواضعه وعدم أنانيتـه لم يستعمل قوة لاهوته ، وتغلب على الشيطـان ليس بكونه الها حقـا بل تغلب بصفته انسان حق .

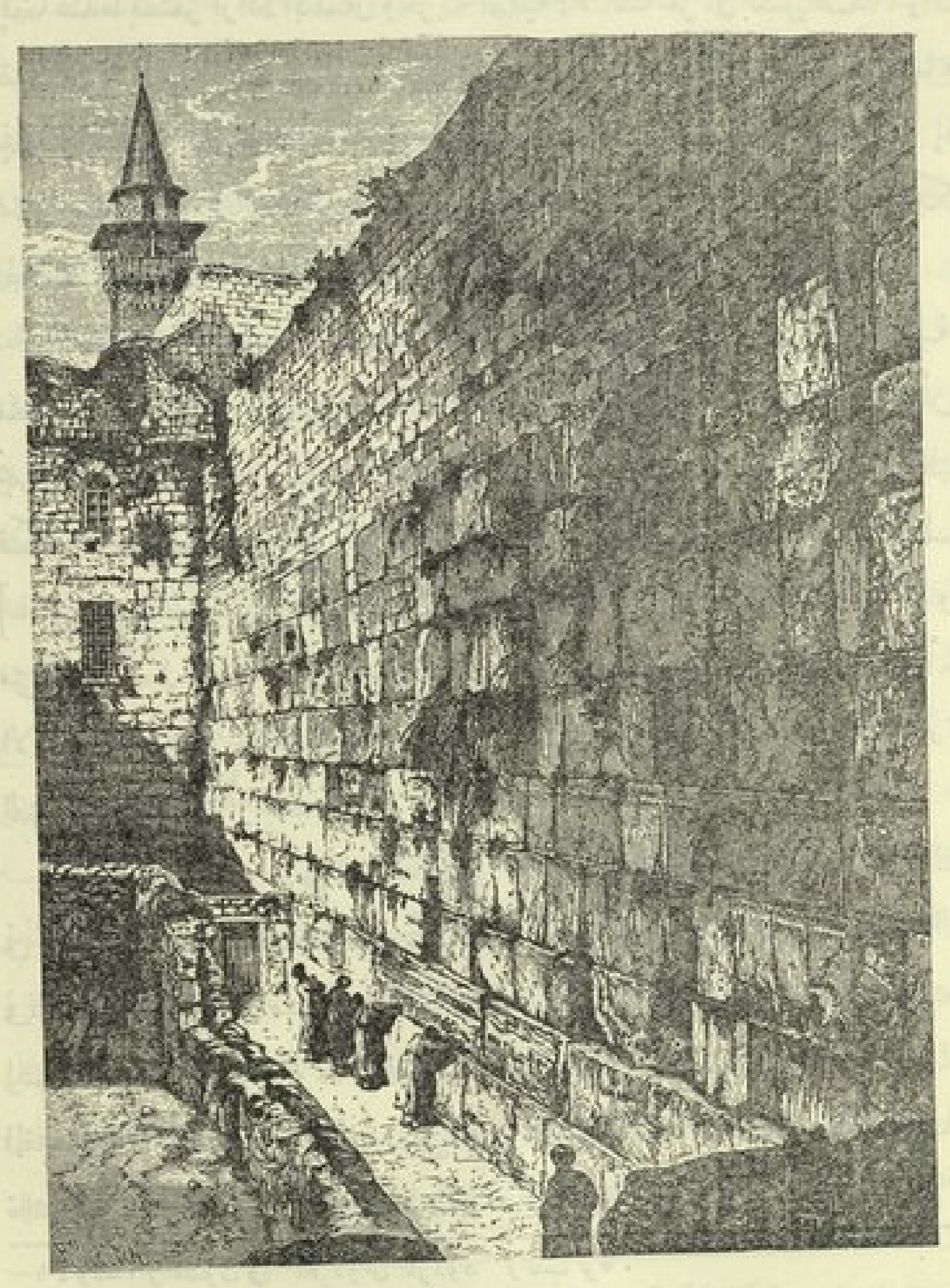
٢ ـ ترتيب التجارب مختلف فى البشارتين . ففى متى نجـد أن التجربة الثـانيـة هى منظر جناح الهيكل ، وفي لوقا رؤية ممالك العالم . ربما تأثر لوقا فى ترتيبه بفكرة أن تجربة الكبرياء الروحية والاقتدار الذاتى لقوة صنع المعجزات أشد مكرا وأقل ظهورا فتكون أعظم نـكاية من تجربة السقوط وتحـدى قوة الشرير . ولكن الـكلمات [اذهب خلفى يا شيطان] التى دونها البشـيران كلاهما [لو ٤ : ٨ و مت ٤ : ١٠] ولأن متى البشير يعطى ترتيبا صريحا [بعدئذ ... و ثم ...] ، ولأنه ربما أيضـا لـكونه أحـد الاثنى عشر رسولا ويكون قد سمع الحديث مباشرة من شفتى يسوع . يجعل الترتيب الذى كتبه أكثر أرجحية (١) .

ولقد انتصر يسوع في التجربة الأولى مجاوبا بآية تمكن البشر من الثقـة التـامة فى الله . وإذ اكتشف الشيطان بمكره اللانهائى اتجاه روح المخلص التجـأ على الفور فى التجربة التالية وهاجم مباشرة تلك الثقة التامة طالبا برهانا عليها او مظهراً لها . وهذه التجربة ليست لسد حاجة ملحة ولـكن لدرء خطر جارف . [حينئذ أخـذه ابليس إلى المدينة المقدسة (٢) وأوقفه على جناح هيـكل عال] (٣) ولا شك أنه يقصد جناحا معينـا بين تلك الأجنحة المشهورة ربما كان سطح جناح « ستوا باسيليكا » أى الباب الملـكى الذى

١ ـ وقد آثر ملتون فى " الفردوس المردود " ترتيب لوقا .

٢ ـ لا زال اسمها حتى عند العرب القدس الشريف أى المقدس النبيل .

٣ ـ مت ٤ : ٥ . قال ملتون شعرا " وإذ قال ذاك أمسكه وبدون جنـاح طار به فى الهـواء عرض البرية وفرق السهول وصارت أوروشليم الجميلة المدينة المقدسة تحتهما تشمخ بطوابيها العالية



جزء من حائط الهيكل أو مبكى اليهود

يشرف رأسا على وادى قدرون على ارتفاع هائل ووصفه يوسيفوس بقوله « انه لو تجرأ أحد ونظر منه إلى أسفل فانه يصاب بالدوار ويغمى عليه من العمق الذى لا يحد ». وربما أيضا كان سطح جناح « ستوا اناتوليكا » أى باب سليمان الذى وصفه يوسيفوس أيضا والذى حسب التقليد قد طرح منه يعقوب أخو الرب .

[إن] مرة ثانية يستعمل الشيطان هذه الكلمة ليثير ذلك الشك وكأنه يوقظ روح الكبرياء التى كان يجربه باظهارها فى قوة صنعه المعجزات [إن كنت أنت ابن الله فاطرح نفسك من هنا إلى أسفل] . إنك فى خطر لم تسع بنفسك إليه ، تخلص نفسك منه . إنك تقدر وتريد ، وبذلك تظهر قوتك الالهية . أليس مكتوبا أن ملائكته تحملك ؟ ثم ألا يكون هذا برهانا ساطعا على ثقتك فى الله ؟ كانت هذه التجربة عميقة ماكرة وإذ أن يسوع قد اقتبس من الكتب ، فهكذا الشيطان قد اقتبس من الكتب أيضا حسب أهوائه . ولم يكن في هذه التجربة شيء قط ، أو أنانى ، أو جسدانى ، ولم يجتهد أن يحفز بها المشتهيات الطبيعية ولكن الحواس النفسية . ألا يعلمنا تاريخ الجماعات والشيع والكنائس والرجال المشهود لهم بالتدين الفائق أنهم قد أوقعوا ذواتهم بعناد فى أخطار لا موجب لها ورموا بها إلى خراب مطبق من فوق جناح كبرياء الروح ؟ وأى جلال كان في الجواب البسيط المملوء من التحذير [مكتوب أيضا لا تجرب الرب إلهك] والكلمة الأصلية (مت ٤ : ٧ و ٦ : ١٦) قوية شديدة في دلالتها

ولا سيما الهيكل الفخم الذى علت أجنحته مثل جبال من المرمر وظهرت قممه مثل منارات الذهب وعلى أعلى جناح أوقف ابن الله " . وهذه الرحلات فى الهواء (التى سكت الانجيل فلم يذكر لنا شيئا عنها لكى يصون أذهاننا عن الاشياء العرضية ويوقفها على المعنى العميق الداخلى لهذه الحادثة) تتناسب والمعتقدات اليهودية العادية (١ مل ٨ : ١٢ و ٢ مل ٢ : ١٦ و اع ٨ : ٣٩ و خر ٣ : ١٤) وجاء فى أحد الاساطير : (الروح القدس أمى أمسكنى بشعرة من رأسى وحملنى إلى جبل طابور) . وظاهر أن الروح مؤنث فى العبرانية ويطلق عليه " الام " ويطلق على النفس " الفتاة " . وقد استعمل التعبير " أمى الروح القدس " أوريجانوس وإيرينيموس .

ومعناها « لا تجرب إلى التمام » الرب إلهك . وكأنها تنهى عن الاسترسال فى التواكل على كل ما يقدر أن يصنعه الله لك . فلا تنتظر أو تمسك بتدخله المعجزى العجيب لينجيك من جهالاتك وجسارتك . ولا تطالب قوته بالبرهان ولكن فى طريق تأدية واجباتك ثق به إلى التمام بإيمان كامل ولا تستمع للهمس المتعجرف المغرى [وتكونان كالله] ولا يكن شيء من الارادة الذاتية أو الشك الذى يشعر بعدم الاحترام في طلبك معونة الله . وحينئذ [يوصى ملائكته بك لكى يحفظوك في كل طرقك] (١) وهى الكلمات التى أهمل الشيطان بمكر ذكرها . ولنلاحظ أن يسوع لم يذكر ما كان فيه من الخطر لأن الخطر الذى لا يزج المرء بنفسه فيه هو أمان . وكلمات المجرب ذاتها اعتراف منه بعجزه : [فاطرح نفسك من هنا إلى أسفل] فحتى فى ذلك العلو الشاهق الذى يورث الدوار لم تكن للشيطان القوة أن يطرح ذاك الذى يمنح الأمان . ولقد كان الاقتباس الذى استشهد به الشيطان من الكتاب حقا ، ولكنه قد قلبه وحرفه . ولنتحقق أن التجربة مهما عظم مقدارها لا تحتم الخطية ، بل مع كل تجربة قد أعد الله المنفذ .

[مكتوب أيضا لا تجرب الرب إلهك] هكذا قال يسوع فثبت وانتصر . أما الشيطان فضربته الدهشة واندحر .

٣ ـ وإذ اندحر أصابه الخذلان فى تجربة استفزاز الجوع الطبيعى وتجربة حفز الكبرياء الروحى جاء المجرب ليثير « آخر ضعف في العقول النبيلة » ، ويرمى أشد سهم فى جعبته ، ولافتقار هذه التجربة إلى مكر واخفاء المظهر فقد أفاض فى جلال المخبر ولذلك أصعد يسوع على جبل عال وأراه جميع ممالك العالم ومجدها وقال « رئيس هذا

---

١ ـ مز ٩١ : ١٢ وإذ أن هذا المزمور يعنى من يسكن فى ستر العلى " فكل طرقك " تعنى فقط طرق القداسة والطهارة ، طرق حفظ الله . فالمعنى الأصيل لهذه الآية ينفى التجربة الوقحة التى قدمها المجرب الذى تعمد عدم ذكر عدد ١٣ الذي يتنبأ عن خذلانه .

العالم » لذاك الذى عاش كنجار قرية « أعطيك هذه بأسرها إزاء سجدة واحدة ، أى إزاء عمل واحد تعترف به لسلطانى » (١) .

ممالك العالم ومجدها ! قال الأسقف أندروز « ان بعضنا يجاهر انه لم يجرب بالممالك قط . ربما كان هذا حقا . إذ لا يلزم أن يكون هذا ، بينما أقل منه يكفى . يسوع وحده هو الذى جرب هكذا ، لأن عقله الجبار لا يجرب بأقل من عظائم الأمور . ولكن معنا لا يحتاج الأمر لهذا كله لأننا لا نعرف قدر نفوسنا ونعرضها سلعة بسعر بخس فهو يشترينا بأخسأ الأثمان وكثيرا ما لا يحتاج الشيطان أن يعلو بنا إلى الجبل ، فالتل علوه كاف جدا ، بل ربما أحط برج في المدينة يكفى بالغرض ، بل دعه يحملنا حتي على سلم أو منور في منازلنا ، أو حتى على نافذة أو باب ويظهر لنا أنه مزمع أن يعطينا ما يمكن أن نراه من مثل هذا المكان ، فانه يجربنا وينجح ونحن نرضخ ونشكره أيضا ... ! ! ربما تكون مسألة نصف جنيه أو عشرة قروش أو حذاء أو ما أشبه ذلك من تافه الأمور تجعلنا نحنى ركبنا للشيطان .

ولكن المسيح علمنا أنه [ماذا يستفيد الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه] .

كان يعيش فى ذلك الوقت رجل يجوز أن يقال عنه فى معرض التشبيه ان كل الأرض كانت له وهو الأمبراطور طيباريوس الرومانى الذى كان فى ذلك الوقت أقوى انسان حى بلا مراء ، والحاكم المطلق - الذى لا ينازع ولا يقهر - على جميع أغنى وأجمل أصقاع المسكونة والذى لم يكن حد لعظمة قوته ، ولا نهاية لغناه ، ولا ضابط لملذاته . ولكى يمتع نفسه ويرضى نزواته أكثر فى معيشة مسرفة ، مترفهة ، شهوانية ، لا كبح فيها ، اختار لنفسه بيتا فى أجمل بقعة على سطح البسيطة ، تحت ظلال بركان هاجع على جزيرة ساحرة تمتاز بأطيب وألذ وألطف جو فى العالم . ولكن ماذا كانت نهاية كل هذا ؟ لقد كان كما ذكر عنه بلينى : « أتعس مخلوق بلا شك » . ومن ذلك

---

١ - يو ١٢ : ٣١ و ١٦ : ٢ - ٣٢ و اف ٢ . ٢ و ٢ كو ٤ : ٤ .

المنزل الذى شاهد نقائصه المستترة ، ومن تلك الجزيرة التى أراد أن يجرب فيها الحصول على السعادة التى يمكن أن يصل إليها بامتلاك أكبر سلطة مطلقة فى العالم ، والانغماس في أحط الشهوات لخدمة حياته الأنانية - كتب إلى السناتو المستعبد والفاسد يقول : « ماذا أكتب لكم أيها الأعضاء المحترمون ... ؟ أو كيف أكتب لكم ... ؟ أو ماذا لا أكتب لكم ... ؟ هل تستطيع كل الآلهة والآلهات أن تزيد في تعاسة وعذاب الهلاك الذى أعانيه كل يوم ... ؟ لا أدرى ... » وقلما ظفر العالم بوثيقة أمتن من هذه للبرهنة على أن أغنى هبات الأرض إن هى إلا ذهب مسحور سرعان ما يتحول إلى غبار وتراب ، وعلى أن القصور الضخمة من المجد الانسانى والعظمة الذاتية لا تثبت حاجزا دون غزو البؤس المرير بأكثر مما تقف أكوام الرمال التى يكدسها الطفل أمام المحيط العظيم .

على هذه الصورة من الحيرة والفزع تنتهى الحيازة الآثمة للغنى والسلطة ، وهذه هى الآخرة المحتومة للشهوات الجامحة . ولا يحتاج الأمر للبرهنة على هذا أن نلجأ إلى ايرينس الخرافى بجدائله المضفورة وشمعته المرتعشة اللهب . ولنتأكد أن ضمير الآثم هو أكفأ منتقم جبار . وأنه لو كانت الدنيا وما فيها زبرجدة خضراء ، أو درة يتيمة فريدة فلا تستطيع أن تواسينا ولو ساعة واحدة من العذاب الداخلى ، أو توازى لحظة واحدة وعلى أى وجه آلامها التى تمزق النفس .

ولكن من هو وارث لملكوت السموات فهو المالك لعوالم أكثر اتساعا وأمعن حقيقة ، ثم هو أعظم سعادة بما لا يحد لأنه أطهر بما لا يقاس . وعلى هذا الملكوت لا سلطان للشيطان لأنه ملكوت الله . وإذ أن الشيطان لا يمنح أقل عطية من هباته المخربة إلا بعد أن يستعبد النفس لتسجد له فليس من جواب على كل تجاربه إلا جواب (١)

---

١ - تث ٤ : ١٣ وهذه الاقتباسات تتفق وطريقة متى الخاصة فى الأخذ من العبرانية . ومن المهم أن نلاحظ أن أجوبة السيد الثلاث كلها من سفر التثنية ٦ و ٨ .

المسيح [اذهب يا شيطان لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد] .

ولقد انتصر يسوع فى فترة العزلة التى فى مثلها فقط يكتسب النصر . وهذه اللحظات التى للجهاد الأمين الذى يتكلل بالظفر هى أحلى الساعات التى يمكن أن تمنحها حياة الناس إذ تكون ملآى بالسمو والفرح اللذين لا يمكن وصفهما إلا بلغة تستعار من تشبيهات السماء .

[ثم تركه إبليس] ويضيف لوقا البشير قوله [إلى حين] وإذا ملائكة قد جاءت فصارت تخدمه . (١)

---

١ ـ قد يسر القارىء الاطلاع على بعض ملاحظات أولمان فى هذا الموضوع الذى درسه أعمق وكتب عنه أجمل من كل اللاهوتيين . قال " ان تجارب يسوع المحققة لم تكن قاصرة على تلك الفترة المخصصة . لأنه بعد ذلك كثيرا ما وضعت عليه تجارب الآلام . وظهر ذلك بجلاء فى موقفين الأول صراع جسثيمانى والثانى على الصليب عندما صرخ (الهى الهى لم تركتنى) " . وأشار أولمان أيضا " ان الانسان معرض للتجربة عن طريقين : الأول أن يجر إلى الخطأ الفعلى بالاغراء ، والثانى أن يبعد عن الخير تحت ضغط الآلام فعلا أو تهديدا . فتكون التجربة عن الطريق الأول ايجابية ، وعن الطريق الثانى سلبية . وقد جرب يسوع فى كل شىء أى على الوجهين السالفين . فلو أن هذه المغريات انتصرت ـ فرضا ـ لأدت إلى الوقوع فى التجارب الايجابية ، ولو أن الآلام التى انتابته تغلبت لنحته عن اتمام الواجب الالهى . وهذه التجارب قد أحاطته فى ظروف مختلفة كبيرة وصغيرة طوال حياته على الأرض ، ولكن فى وسطها كلها بقيت قوته الروحية ومحبته لله أبيه طاهرة كاملة " .

ولقد قسم إيوالد التجارب الثلاث من وجهة العمل الروحى إلى أقسام تتفق ونزوات النفس (١) عدم التوفيق . (٢) الاتكال على النفس . (٣) الطمع الشخصى غير المقدس .



بحـر الجليل

الفصل العاشر

الرسل الأوائل

لو لم يكن فى وجهه وفى عينيه شىء علوى لما تبعه الرسل حالا ولما وقع على الأرض من جاءوا للقبض عليه . جرمى

ترك المخلص البرية منتصرا على تلك التجربة الثقيلة ظافرا فى ذلك الاختبار النارى ، وعاد إلى ضفاف الأردن (١) .

١ ـ من المعروف أن " بيت عنيا " هى القراءة الصحيحة ليوحنا ١ : ٢٨ فى النسخ 8 ، أ ، ب ، ج (المعرب : وفى النسخة القبطية أيضا) وليس " بيت عبرا " . وقد ظن أوريجانوس أنها

والبشائر الثلاث التى ذكرت بتدقيق حوادث التبشير فى الجليل ، والتى بدأت تسجل التاريخ بتفصيل بعد سجن يوحنا ، لا تذكر شيئا مطلقا عن الحوادث السابقة لذلك وتذكر فقط رجوع السيد إلى الناصرة (٢) . ونحن مدينون للبشير الرابع فى معرفة الحوادث الطريفة للأيام التى أعقبت التجربة مباشرة ، ذلك البشير الذى يضع ارسالية المسيح فى اليهودية فى المكان الأول (٣) ، والذى يظهر أنه وضع نصب عينيه

" بيت عبرا " (مع أنه يعترف أن بيت عنيا هى القراءة الأصلية فى جميع النسخ القديمة) لسبب غير قوي الأساس وهو أنه لم يكن معروفا لديه بلد باسم " بيت عنيا " على الأردن بينما يقال أنها توجد " بيت عبرا " حيث كان يوحنا يعمد هناك . والاسمان " بيت التعدية " و " بيت مراكب التعدية " لهما تقريبا نفس المعنى (انظر ٢ صم : ١٥ و ٢٣) ويظن المستر جروف أن " بيت عبرا " هى " بيت بارة " أي الضفاف التى امتلكها الافرايميون (قض ٧ : ٢٤) أو " بيت نمرا " (عدد ٣٢ : ٣٦) والأخيرة قد تفى بالغرض لأنها قريبة من البقعة المحيطة بالأردن ومن سبخار العهد القديم ومن واحة أريحا . وهذه أيضا مكتوبة بالنص " بيت عبرا " فى بعض النسخ (واجع قاموس الأناجيل) .

ويظن المستر مونرو المشهود له بالذكاء أن أوريجانوس (والذين نقلوا عنه) انما أخطأ بين " بيت عبرا " وبين " بيت عربة " (يش ١٨ : ١٨) التى فى وادى الأردن . وبعد التمحيص لا أجد ما يدعو لموافقة كباري وأتباعه فى القول أن بيت عنيا هذه واقعة على « تل النهيجة » على الأردن شمالا وشمال شرق بحر جنيسارات . لأن الأسباب التى تجعل مكان العماد قرب أريحا وغير بعيد عن أورشليم إلا قليلا وهو ما جاء أيضا فى التقليد مقنعة أكثر . (أما بيت عنيا التى على جبل الزيتون فأصلها يختلف وتشتق من كلمة معناها « بيت البلح الرامخ ») ولكن بعد الخطاب القيم الذى ألقاه الدكتور ديوتش ـ وارد فى كتاب « الأرض المقدسة صحيفة ٢٧ » لديكسون ـ يتضح أن هذه الفكرة الأخيرة التى للمستر لينفوت يداخلها الشك على الأقل .

٢ ـ مت ٤ : ١٢ و مر ١ : ١٤ و لو ٤ : ١٤ .

٣ ـ يرى القارىء انى اتخذ صدق انجيل يوحنا بدون تردد قضية مسلمة . ومن المستحيل على فى هذا الكتاب (لأنه ليس غرضى) أن أدخل فى تفاصيل المشادة القائمة بخصوصه . ولا سيما أنه من السهل جدا الرجوع إلى الكتب المتداولة العديدة التى تبرهن على صحة انجيل يوحنا (أمثال مقدمة الأناجيل للاستاذ وستكوت وتاريخ قانونية أسفار العهد الجديد وكتاب

ألا يذكر شيئا ما لم يكن هو شاهد عيان له . كذلك نخال أنه كان مرتبطـــا بمدينة أوروشليم لظروف خاصة ، وربما لأنه كان صيادا ومن المحتمل أن سمك بحيرة الجليل كان يرسل بكميات عظيمة إلى أوروشليم ، فكان عليه أن يمكث هناك أوقاتا معينـة حسبما تقتضيه ظروف عمل أبيه وأخيه اللذين كانا يملكان قوارب صيد ، وعبيـدا مأجورين .

قانونية الانجيل الرابـع لمستر سنداي) . وكل ما أقوله هنا للبرهنة على قانونية البشارة الرابعـة هو أولا تلميح اغناطيوس وبوليكاربوس له ثم اقتباس جـوستان مارتير وثاثيان وثاوفيلوس منه في الجيل الثاني . ولكن عدم ذكر بابياس له صعب التفسير ولو أن يوسابيوس في كتابه تاريخ الكنيسة ذكر أنه استعمل اقتباسات من رسالة يوحنا الأولى . فاعتبـار البشارة الرابعـة منذ العصر الأول في الشرق والغرب والاعتراف بقانونيتها حتى من الهراطقة لدليل آخر على صحتها ويلاحظ لايتفوت أنه قد حدث اختلاف في قراءة بعض كلماتها مثل (يو ١ : ١٨) مما يبرهـن أنه كان لهذه البشارة أقدمية وليست مستحدثة . فان كانت هذه البراهين الخارجية ليست مقنعة تماما أو ليست كافية فان البراهين المستمدة ذاتيا ليس فقط من جملة المكتوب ولـكن أيضا من دقة عديد من تفصيلات الحوادث فبراهين دامغة . حتى انه ليس بعزيز علينا أن نقول انه يمكننا أن نتلمس في هذه البشارة روح يوحنا حتى لو كانت قد وصلتنا بدون اسمه أو تحت اسم آخر . فاللون العبري لأسلوب الكتابة والدلائل الواضحة لمنحى الفكر والتعليم اليهودي (١ : ٤٥ و ٤ : ٢٢) والأمانة الفطرية في ذكر حقائق قد تظهر أنها ضد اعتقاد الكاتب . (٧ : ٥) ودقـة الوصف الطوبوغرافي والذكريات الشخصية (٦ : ١٠و١٩و٢٣ . و ١٠ : ٢٢و٢٣ . و ١١ : ١ و٤٤و٥٤ . و ٢١ : ٢) والاستنتاج أن الكاتب كان تلميذا ليوحنا المعمدان الذي يحذف دائما لقبه (١ : ١٥ و ٣ : ٢٣ و ٢٥) والأسلوب الحي النشط من أول البشارة لآخرها (مثلا عند ايراد حادثة الأعمى أو وصف العشاء الأخير) واضـح أنه كتب إخباريا وبلا ترتيـب وليس بتفكير وتعقيب (اصحاح ٩ واصحاح ١٣) ثم تدوينه الحقيقة الهامة أن يسوع حوكم أولا أمام حنان (١٨ : ١٣ و ١٩ ـ ٢٤) وتدقيقه عن وقت الفصح (١٣ : ١ و ١٨ : ٢١) هذه براهين قليلة من كثيرة تثبت بقوة صحة هذه البشارة العظيمة لم تترك أثرا للشك في عقول كثير من العلماء الأكفاء المتعمقين ولا يمكن أحد أن يستهين بحقائق قد أرضت عالما مدققا مثل إيوالد وأخمت ناقدا مرا مثل رينان . وان اعتقادي المخلص أن الاعتراضات والصعوبات على هـذه البشارة أغلبها سطحي عديم الأهمية . ولقد فصل المستر سنداي هذه المسألة بدون تحيز في كتابه وإن كثيرا من النقط التي مسسناها في هذه الملاحظة قد كتبها بأكثر تبحر واتقان .

وكان لهم جميعا مركز معروف فى الهيئة الاجتماعية . وليكن هذا كيفما كان (١) ، إنما المهم أن البشير يوحنا وحده هو الذى سجل لنا الدعوة المبدئية للرسل الأولين ، وذكرها بتدقيق فى التفصيلات وصدق في التصوير كشخص قد تركت كل حادثة فى قلبه أثرا لا يمحى .

ويظهر ان المندوبين الذين بعثهم السنهدرين ليوحنا المعمدان (٢) جاءوه فى اليوم السابق لرجوع السيد من البرية . فلما كان الصباح التالى (٣) ورأى المعمدان يسوع مقبلا شهد له علانية وبتأكيد أمام الجموع أنه حقا المسيا وقد استدل عليه بالعلامة المعلنة التى ظهرت فقال لهم [هوذا حمل الله الذي يحمل خطية العالم] . ولا ندرى هل قصد حمل الفصح أو حمل الذبيحة اليومية الصباحية والمسائية ، أو ان كلمة « العالم » أى « الدنيا » هى الكلمة الأصلية التى استعملها أم هى الترجمة اليونانية للكلمة العبرانية الدالة على « الناس » ، أو إن كان قد فهم عمق ورهبة ما جرى به لسانه أم قد حملته روح النبوة . ولكنا ندرى ونعلم يقينا أنه قد استعار التشبيه ووصف عمله من النبى الانجيلى أى الصورة التى للصبر الالهى والآلام الشفاعية التى ذكرها أشعياء (اش٥٣ : ٧ قارن أيضا ١١ : ١٩) . ولا يمكن أن تحمل كلماته معنى أقل من أن الرجل الوديع اللطيف الذى بلا خطية الذى أشار إليه سيكون رجل الأحزان ، وأن هذه الأحزان ستكون لخلاص شعبه . ومهما تكن قد حملت هذه الكلمات إلى أذهان سامعيها فما لا شك فيه أنهم ما استعادوها إلا ذكروا يسوع ، وذكروا خلوه من الاثم ،

---

١ ـ (يو ١٩ : ٢٧ و ١٨ : ١٦) قد يفسر هذا أن يعقوب لم يكن كأخيه تلميذا ليوحنا . وعندما وجد أندراوس يسوع فتش فى الحال عن أخيه سمعان ولم يعمل يوحنا كذلك لأن أخاه كان فى الجليل ولم يدع إلا بعد زمن .

٢ ـ (يو ١ : ١٩ ـ ٣٤) .

٣ ـ يو ١ : ٣٥ ـ ٤٣ والكلمة " لم أكن أعرفه " تدل فى الأصل على أنه لم يكن " يعرفه انه المسيا " حتى رأي وشهد أى نظر ولاحظ العلامة السماوية .

وذكروا الآلام وعمل الخلاص .

ومع قيمة هذه الشهادة فيظهر أنها لم تؤت ثمارا فى اليوم الأول . ولكن فى اليوم الثانى بينما كان المعمدان واقفا مع اثنين من تلاميذه مر يسوع بهم فثبت يوحنا عليه نظرة (١) مخلصة قوية وقال ثانية باعجاب ورهبة « هوذا حمل الله ! » .

وكانت الكلمات أعظم من أن تهمل ثانية فتبع الشابان الجليليان اللذان سمعاها شخص يسوع المتباعد ، ولما سمع وقع أقدامهما الخائفة التفت إليهما وهما يقتربان وسألهما بلطف [ماذا تطلبان] ؟

كان يسوع لا زال فى أول خدمته الجهارية ، وما كانا يعرفان عن حقيقته كل شيء (٢) ، وما كانا قد سمعا بعد كلمات النعمة الفائضة من بين شفتيه . فيجوز أن يكون قد دفعهما إلى الأتيان لرؤياه دوافع ليست قوية ، أو مجرد حب الاستطلاع ، والأوجب أن يأتيا إليه عن اقتناع ذاتى ويعلنا غرضهما بمحض إرادتهما .

أى عمق وامتلاء يحويه هذا السؤال ! وأى تحتيم يليق بالذين يأتون إلى السيد أن يجاوبوه ! كان من عادة القديس برنارد ـ وهو من أطهر قديسى الكنيسة ـ أن يمتحن نفسه ويمحصها بهذا السؤال الصعب « برنارد لماذا أنت هنا ؟ » ولا يمكن أن يتخذ فحص النفس شكلا أشد من هذا . ولكن كل ما فيه من معان قد تركز فى السؤال الهادىء البسيط [ماذا تطلبان] ؟

كان هذا السؤال أصعب من أن يجاوب عليه الشابان الجليليان مباشرة ، ربما كان أعظم مما يعرفان أو يفهمان ولكن جوابهما أظهر أنهما كانا جادين إذا قالا :

---

١ ـ المعنى الأصلى للكلمة يفيد تثبيت النظر . قارن مت ١٩ : ٢٦ و لو ٢٠ : ١٧ ومر ١٠ : ٢١

٢ ـ حتى ولو كان يوحنا البشير ابن خالته كما يقول بعض الذين يرتكنون فى هذا على مقارنة ما جاء فى مر ١٥ : ٤٠ مع يو ١٩ : ٢٥ حيث يذكر أربع نسوة ولكن لرقة وتحفظ يوحنا لا يذكر أمه باسمها وانما قد يستدل على أن سالومى زوجة زبدى هى أخت للعذراء مريم .

[رابى (١) الذى تفسيره يا معلم أين تسكن] ، واستعمل هذا اللقب الدال على منتهى الشرف والاعتبار والذى يظهر أن مجرد شخصيته قد أثرت فيهما للدرجة القصوى .

ونحن لا نعلم أين كان يسكن . ربما كان سكنه فى احدى المظال أو العشش التى من البوص المغطى سقفها بعباءة مخططة ـ وهو دثار شائع الاستعمال فى الشرق ـ وتدعم جوانبها أغصان من شجر البطم أو سعف النخل ، والتى كانت المأوى الوحيد المتيسر لمئات من الناس الذين احتشدوا لمعمودية يوحنا . قال يسوع لهما [تعاليا وانظرا] . وكانت كلماته هذه أيضا غاية في البساطة ولو أنها وردت فى مواضع ذات أهمية كبيرة (٢) ولكنها لم تحدث قط مثل النتائج التى انتهت إليها الآن . أتيا ونظرا أين كان يسوع يمكث ، وإذ كانت حينذاك الساعة الرابعة (٣) بعد الظهر فقد صرفا ذلك النهار والأغلب أن يكونا قد باتا أيضا تلك الليلة هناك . ولكن قبل أن يرقدا ليناما كانا قد عرفا وتأكدا من أعماق قلبيهما أن ملكوت السموات قد اقتربت ، وأن آمال الأجيال الطويلة قد تحققت ، وأنهما فى حضرة ذاك الذي هو مشتهى الشعوب : الكاهن الأعظم

---

١ ـ هذا اللقب الجليل كان عند اليهود بمثابة درجة علمية . وإحدى الادعاءات العاطلة بين التهجمات الباطلة للنيل من بساطة حديث الأناجيل ان يسوع قد أخذ هذه الدرجة من الأسينيين . وواضح جلى أولا أنه ما سعى إليها قط وثانيا أنه قد لقبه بها حتى رؤساء الفريسيين لمجرد هيبته البادية .

٢ ـ يو ١١ : ٣٤ و رؤ ٦ : ١و٣و٥و٧ . و مز ٦٦ : ٥ .

٣ ـ كان التوقيت فى ذلك الزمن يبدأ فى الصباح (أى أن الساعة الثانية عشرة ـ وهى بدء التوقيت ـ تقابل عندنا السادسة صباحا) . وعليه فالساعة العاشرة التى ذكرها يوحنا فى يو ١ : ٣٩ تقابل الرابعة بعد الظهر حسب التوقيت الحديث . وليس أى دليل يمكن أن يدعم رأى ويزلر أن يوحنا حسب الساعات من انتصاف الليل بدلا من القاعدة عند اليهود (يو ٤ : ٦ و ٥٢ و يو ١١ : ٩ ويو ١٩ : ١٤) . وحتى الرومانيين ما كانوا يؤقتون من نصف الليل كما ظن ويزلر . وقد هدانى المستر مورو إلى اقتباس فى كتاب « المهضومات » يقارن فيه أحد المحامين بين توقيت النهار وتوقيت الليل .

من هارون ، والنبي الأعظم من موسى ، والملك الأعظم من داود ، نجم يعقوب الحقيـقي ومخلص اسرائيل .

كان اندراوس (١) أحد هذين الشابين اللذين تبعا يسوع أولا ، أما الثانى فقد كتم اسمه إذ كا هو المتحدث التلميذ الحبيب يوحنا البشـير (٢) . فلا عجب إن كانت أصغـر التفصيلات حتى إلى ذكر ساعة النهار نفسها حاضـرة فى ذهنه ولم ينسهـا قط حتى فى شيخوخته البـالغـة .

كان اهتمام أندراوس الأول أن يبحث عن أخيه سمعان (٣) ويزف إليه تلك البشرى العظيمة . أتى به إلى يسوع فنظر إليه يسوع بعينه الفاحصة المسيطرة التى تقرأ أعماق الأفكار ، ورأى فى ذلك الصياد البسيط الضعف الكامل وأيضا العظمة الفائقة ، وقال له معطيا إياه اسما جديدا قد تثبت بقوة فيما بعد [أنت سمعان ابن يونا .أنت تدعى كيفا] أى أنت سمعان « ابن اليمامة » ومن الآن ستكون الصخرة حيث تعيش اليمامة (٤) كان هذا ترادفا في الألفاظ ولكنه من النوع القيم المتركز على معانى الكلمات ، ولا يرى فى هذا الجناس ما يحط من قدر السيد إلا كل جهول قليل المعرفة . إذ لا يخفى أن الاعتقاد السائد بين اليهود فى كل العصور أنه توجد صلة بين الأسماء ومعانيها وحظوظ أصحابها ، وأن لغتهم - وهى فى نظرهم ليست أقل قدسية من الأحجار الكريمة على صدر

---

١ - ولذا أسماه الآباء « أول المدعوين » .

٢ - هذا التحفظ فى عدم ذكر اسم يوحنا دليل قوي على صحة نسبة بشارته إليه . والظاهر أنه كان يجتهد فى ذكر الحقائق التى يدونها لا أن يذكر الناس باسمه .

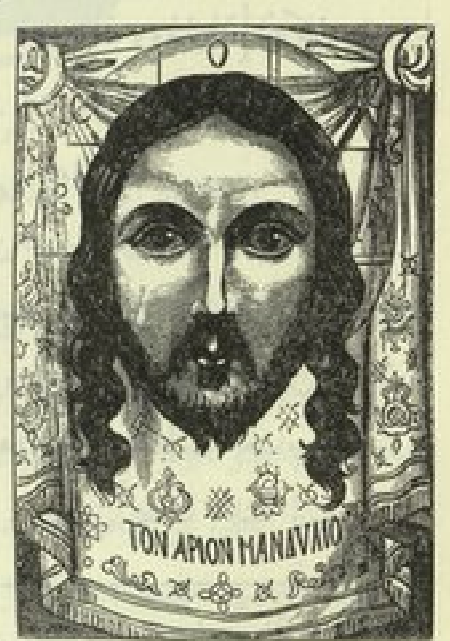
٣ - يدل بحث اندراوس عن سمعان (يو ١ : ٤١) على محبة أخوية حقيقية ، ولـكن المدهش أنه لم يفكر أحد على ما أعلم فى السبب الذى جعل يوحنا يحبس مثل هذه البشرى عن أخيـه فى ذلك الوقت . وأظن أن السبب هو أن يعقوب كان فى ذلك الوقت يعمل فى صيـد السمك فى بحر الجليل .

٤ - هناك تفسير آخر : " أنت ابن الضعف من الآن ستكون الصخرة " .

هارون - تقود اللسان في مخارج ألفاظها قوة علوية قديرة على تكييف المدير (١).

كيف أن هذين الشابين الجليليين - يوحنا المتوقد ولكن المفكر، وأندراوس المندفع فى محبته ولكن المتردد فى عزماته - قد ارتميا حالا كما بنظرة واحدة أو كلمة واحدة على قدمى المخلص ؟ كيف أنهما بلمحة واحدة من البصيرة أو الالهام قد تحققا أن نجار الناصرة هو مسيا النبوات، هو ابن الله، هو مخلص العالم... ؟

لا شك أن هذا حدث تحت تأثير ما سمعاه من كلماته وما شهد به المعمدان عنه. ولا شك أنه حدث أيضا تحت تأثير مجرد منظره. وفي هذا الموضوع قد اختلف التقليد اختلافا كبيرا، ولكن إذ هو موضوع فيه كثير من اللذة والأهمية فلنقف قليلا لبحثه.



صورة لوجه السيد
قيل إنه أرسلها لأبيقاربوس ملك عدسة (الرها). وأخذت باذن من مستر جيمسون عن كتابه "تاريخ السيد"

كل من درس صور يسوع فى رسوم العصور الوسطى يلاحظ أن بعضها سيما المرسومة فى كتب القداسات مبتذلة، مقبضة، شنيعة، بينما يدل بعضها على أحلى وألطف الجمال البشري. فمن أين أتى هذا الاختلاف الغريب؟ جاء من الأقوال النبوية التى خالوها ترمز إلى منظر المسيا كما ترمز إلى حياته.

وإذ كانت الكنيسة الأولى عارفة بالأشكال الفائقة الجمال لجسوم تماثيل الآلهة الوثنية وأصنام الملاعب الأولمبية وما خلعه عليها خيال الشاليين الوثنيين وحكمة الصناع، وعارفة بفساد ما تنساق إليه المخيلة الشهوانية، ارتاحت إلى كسر هذه

١ - مهما ظهر لنا أن هذا لا يرتكن على أساس، فقد شاطر هذا الرأي كثير من أعمق المفكرين فى كل العصور، ونجد له مثيلا فى التقليد القديم وفى تاريخ هيرودوتس.

القيود في تمجيد المواهب الشخصية واتخذت كمثل أعلى لشكل المسيح الجسماني الصورة التي وردت في أشعياء ، صورة محزون مضروب نحيل ، أو ما جاء في داود ووصفه المؤثر عن منبوذ مهان هزيل . قال اكليمنضس الاسكندرى « إن جماله كان في روحه وفي أعماله أما منظره فكان حقيرا » ووصفه جوستان مارتير قائلا « إنه كان بلا جمال ولا مجد ولا مهابة » وقال أوريجانوس « كان جسمه ضئيلا خاليا من الجمال » وقال ترتليان « أما شكله فكان عديم الحسن الجسماني وبالحري بعيدا من أي مجد جسدي » وذكر أوريجانوس أن سلسوس الوثني رفض الاعتقاد بأصله الالهي بانيا رفضه على حقارة منظره المستقى من التقاليد . بل ذهب هذا الاستنتاج الأعوج إلى مدى بعيد في تفسير ما ورد في اش ٥٣ : ٤ [ونحن حسبناه « مضروبا » من الله ومذلولا] انه كان مضروبا بالبرص (١) . وهذا التفسير الشائن الذي يرمي ذاك الذي شفى برصا كثيرين بأنه كان هو ذاته أبرص قد أنتج شائعة ذاعت وكان لها آثار متعددة (٢) .

ولقد أثارت هذه التخيلات الجامحة كثيرين فتمسكوا بالاعتقاد أن يسوع في تقاطيعه كان وارثا لبهاء وجمال داود جده الكبير . وفضل القديسان أريثيموس وأوغسطينوس أن يعزوا إليه ما جاء في مز ٤٥ : ٢ و ٣ [أنت أبرع جمالا من بني البشر] وكان من الطبيعي لعدم وجود أدلة قاطعة أن ينال هذا الرأي العطف العام العميق ، ويوحي بالوصف الرائع الذائع عن جلال يسوع ، ويوحي أيضا بتلك المثل العليا

---

١ ـ اش ٥٢ : ١٤ و ٥٣ : ٤ و لا ١٣ : ١٣ (ونحن حسبناه مضروبا من الله ومذلولا) مز ٢٢ : ٦ و ٧ (أما أنا فدودة لا انسان ...) (كل الذين يرونني يستهزأون بي ...) مز ٢٢ : ١٥ ـ ١٧ (يبست مثل شقفة قوتي . أحصى كل عظامي وهم ينظرون ويتفرسون في) .

٢ ـ في تلمود السنهدرين ينعتون المسيح بالأبرص . ولعل هذا هو السر في اكرام بعض القديسين مثل أدموند الكانتربري ولويس ويعقوب الشنتالي لهذه الفئة المنكودة وفي الاعتقاد أن البرص عطية من الله (هنري كوبلس سنة ١٥٤٥) وخاطب اكليمنضس الثالث سنة ١١٨٩ بعضهم قائلا " أولادي البرص الأعزاء " .



صورة قديمة للسيد

(نقلا عن ايقونة أهداها السلطان بايزيد للبابا انوسنت الثامن)

المليئة بالعظمة واللطف اللذين يشعان من « ذلك الوجه الجميل الذى إن كان قد أثر فيه الحزن فقد جعله هذا أجمل من الجمال ذاته » ، والتى نراها فى الصور الثمينة التى لفرا أنجليكو ، وميشيل أنجيلو ، وليوناردو دافنشى ، ورفائيل ، وتيتيان .

وبغض النظر عن كافة التقاليد فاننا نعتقد بتأكيد واحترام أنه يستحيل أن كان فى شكله أى شىء مشين ، بل كما قال ايرينيموس لا بد أن « شيئا متألقا » كان فى الجسم الذى حمل الألوهية الأبدية والقداسة اللانهائية . وما الجمال الحقيقى إلا انعكاس الصلاح والبر . فلا غرو إن كان ضمير ابن الانسان الذى بلا عيب ، وروحه المتناسقة ، وحياته الطاهرة النبيلة ، قد عكست على وجهه بهاء وجمالا . حقيقة لا نجد في التاريخ تلميحا عن جمال منظره كما نجد فى وصف رئيس الكهنة الشاب ارسطوبولس الذى قتله هيرودس ، ولكننا لا نجد أيضا فى كلام أعدائه حرفا واحدا أو تلميحا يدل على

دمامة منظره . بل إن ذاك الذى شهد له يوحنا انه المسيا ، ذاك الذى أراد الشعب أن يمسكوه بفرح ويجعلوه ملكا عليهم ، ذاك الذى حيته المدينة بهتاف النصر كابن داود، ذاك الذى خدمته النسوة بتعبد واخلاص والرجال بتضحية وبذل ، ذاك الذى مجرد منظره حتى فى حلم مضطرب ملأ قلب السيدة الرومانية بالحماس والرهبة (١) ، ذاك الذى كان فى حضرته يتحرك الذين بهم الشياطين مضطربين في خوف أو هادئين في سكون ، ذاك الذى كلمة واحدة منه جعلت فيلبس ومتي وكثيرين آخرين أن يتركوا كل شيء ويتبعوه ، ذاك الذى نظرة واحدة منه كسرت قلب بطرس وملأته حزنا وندامة ، ذاك الذى عند سؤاله حتى فى ساعته العصيبة - ساعة خيانة يهوذا له والقبض عليه - انتفض أعداؤه المتوحشون وسقطوا على وجوههم حتى وهم فى قمة غضبهم (٢) - لا بد أن يكون لمثله وجاهة شخصية مثل التى لنبي أو كاهن . وكل حوادث حياته تخبر بيقين عن قوته ، واحتماله ، وروعته ، وتأثيره . وهذه أمور لا تتاح لانسان ما لم يكن حائزا على كثير من المواهب البشرية أقلها جمال الجسد والروح . قال القديس ايرينيموس « حقا كان ينبعث من عينيه لهب نارى وضياء متألق ، وتلمع فى وجهه العظمة الالهيــة » .

أما اليوم الثالث لرجوعه من البرية فيظهر أن يسوع قد صرفه في التحدث مع تلاميذه الجدد . وفى اليوم الرابع أراد يسوع أن يبدأ (٣) العودة إلى الجليل . وفى أثناء الرحلة صادف شابا صيادا آخر اسمه فيلبس من بيت صيدا وفيلبس هو الوحيد بين جميع الرسل الذى له اسم يونانى . وربما سمى تيمنا باسم رئيس الربع فيلبس إذأن

---

١ - امرأة بيلاطس .

٢ - يو ١٨ : ٦ و لو ٣٠٤ .

٣ - فى استعمال هذا التوقيت لا شك أن يوحنا البشير كان يفكر فى حادث بسيط ظروفه مجهولة لنا بتاتا .

عادة تسمية الأطفال بأسماء الأمراء الحاكمين عادة دائمة الذيوع (١) . فان كان ذلك حقا فلا بد أن عمره كان أقل من الثلاثين سنة . وربما يدل اسمه اليوناني على انه كان مختلطا مع بعض الجماهير الذين يتكلمون اليونانية والذين عاشوا معاشرين للجليليين على شواطىء جنيسارات . وهذا يفسر لنا أنه التلميذ الوحيد دون باقي الرسل الذى لجأ إليه اليونانيون الذين أرادوا أن يروا يسوع في الأسبوع الأخير من حياته . وكلمة واحدة كانت الدعوة المثمرة . [اتبعنى] كانت كافية لتجعل ذلك الرسول اللطيف البسيط يرتبط بيسوع إلى الأبد . والمظنون أن يسوع كان يعرفه من قبل .

وفى اليوم التالى ضم عضوا خامسا جديدا لتلك الجماعة المقدسة السعيدة . وإذ كان فيلبس متحمسا أن يذيع الاكتشاف الثمين الذى خبره ، بحث عن صديقه نثنائيل متمما بذلك أسمى ميزات الصداقة التى تحتم علينا إيصال ما خبرناه بأنفسنا إن كان ساميا ومقدسا إلى الآخرين . ونثنائيل فى جدول الرسل على الرأى الأرجح بل على الرأى الذى لا شك فيه هو عين الرسول برثولماوس فان برثولماوس كنية لا اسم ومعناه « ابن ثولومى » وقد ذكر نثنائيل مرة واحدة أخرى بهذا الاسم (يو ٢١ : ٢) ، بينما برثولماوس (وما لم يكن هو نثنائيل فحينذاك لا نعرف شيئا مطلقا عنه) يذكر دائما فى جدول الرسل ملحقا بفيلبس . وإذ أنه من قانا الجليل فمن السهل أن يكون ابن ثولومى صديقا للصياد الشاب الذى من جنيسارات . كانت العزلة التى انتحاها يسوع حتى ذلك الوقت تامة حتى أن نثنائيل كان يعرف فيلبس ولم يعرف يسوع . ويظهر أن بساطة تفكير فيلبس جعلته يلذ له أن يقارن بين عظمة عمل يسوع ووضاعة مولده إذ قال لنثنائيل [إن الذى كتب عنه موسى فى الناموس والأنبياء قد وجدناه] ولكن

---

١ - اسم اندراوس مشتق من اليونانية وكان كما يقول ليتفوت شائعا بين اليهود (لو ٥ : ١٠) وتوما كان يدعى أحيانا بالاسم اليونانى ديداموس أى التوأم لكن ليس بين التلاميذ من له اسم يونانى أصيل سوى فيلبس .

من تظن ؟ هل تظن حاكما هيروديا ؟ أو كاهنا شابا أزمونيا ؟ أو نجما متألقا من مدرسة شماي أو هليل ؟ أو أميرا متحمسا من أتباع يهوذا أو غمالائيل ؟ كلا بل [هو يسوع ابن يوسف الذى من الناصرة] .

ويظهر أن نثنائيل قد أدرك ما رمى إليه فيلبس من مقارنة واسترعى انتباهه ذلك الاسم المنسوب للناصرة . وربما كان - كما يقول التقليد - من طبقة أرقى من باقي الرسل (١) . ولكن المجمع عليه أن جوابه كان أحد الأمثال ، غير أنه قد يجوز أن يكون تلميحا عرضيا لكلمة « ناصورة » أى « المحتقرة » أو ربما كان جوابه بسيطا ارتكن على كلمة الناصرة تلك المدينة غير المعروفة أو المشهورة فى واديها الصغير الذى قليلا ما يطرق ، فهل يمكن أن يخرج منها شيء صالح . أما جواب فيلبس فقد كان نفس الكلمات التى خاطب يسوع بها يوحنا واندراوس . لقد كان تلميذا مقتدرا فردد هو أيضا [تعال وانظر] .

ولليوم يتردد هذا السؤال [أيمكن أن يخرج صالح من الناصرة] . والجواب الوحيد الكافي بل الجواب الوحيد الممكن الآن كما كان فى الماضى هو [تعال وانظر] . وكان معناه فى ذلك الزمان تعال وانظر شخصا يتكلم بما لم يتكلم به إنسان . تعال وانظر شخصا مع كونه نجارا من الناصرة فانه يرهب أرواح كل الذين يدنون منه ، لأن مجرد وجوده يعلن خفايا كل القلوب ولكنه يقرب منه ويجتذب إليه أشقى الخطاة بمحبة فائقة . تعال وانظر شخصا يشع منه جمال لا يقاوم للطهارة التى بلا اثم ، جمال فائق لحياة إلهية . قال فيلبس [تعال وانظر] وهو متيقن فى قلبه البسيط المخلص أن رؤية يسوع معناها أن تعرفه ، وأن معرفة يسوع معناها أن تحبه ، وأن محبة يسوع معناها أن تعبده . ونحن حقيقة لا يمكننا على هذا الوجه أن نقول الآن [تعال وانظر]

---

١ - قال ايرينيموس أن برثولوماوس معناها النبيل . وهو يرسم دائما فى الفن القديم مرتديا حلة أرجوانية مزركشة بالحجارة الكريمة ، ولكن ما جاء فى يو ٢١ : ٢ كان لدحض هذا التقليد .

لأنه من حين أن أغلقت القبة الزرقاء على الرؤيتين اللتين أعلنتا للقديس استفانوس وللرسول بولس لم ير شكله الجسدى أحد قط . ولكن يوجد وجه آخر لا يقل قوة فى الاقناع ولا زال يكفى جوابا على كل الشكوك ، وهو ذلك القول المأثور [تعال وانظر] . تعال وانظر دنيا مائتة ردت إليها حياتها ، دنيا قديمة قد تجددت ، دنيا عجوز قد أعيد إليها شبابها . تعال وانظر الظلمة قد أنيرت ، واليأس قد انتفى . تعال وانظر الشفقة قد تسربت إلى زنزانة المجرم السجين ، والحرية منحت للعبد المقيد . تعال وانظر الفقراء والجهلاء - وهم الأغلبية - قد رفع عنهم وإلى الأبد نير وعبودية الأغنياء والمتعلمين . تعال وانظر المستشفيات وملاجىء الأيتام قد أقيمت ذاخرة بالرحمة الدائمة على أنقاض وخرائب المدرجات العظيمة التى كانت تخضب بدماء الانسان . تعال وانظر المعالم القبيحة للفساد العام قد محيت بشمم من أماكن العبادة المطهرة . تعال وانظر مغاور الظلم والشهوة قد تحولت إلى بيوت حلوة وسعيدة ، والملحدين المتعصبين إلى مسيحيين مؤمنين ، والثائرين إلى وادعين ، والوثنيين إلى قديسين . نعم تعال وانظر الفصول العلوية لرواية عظيمة استمرت تسعة عشر قرنا مسيحيا . وعندما تشاهدها وترى انها كلها منسقة وتسير إلى هدف واحد عين منذ الأزل بارادة الله ومشيئته ، وعندما تتحقق بخضوع خشوعى أن ما يظهر لك بأنه « الصدفة » ، ما هى فى الحقيقة سوى « وليدة سابق العلم » ، وانها أيضا كما يعتقد الذين خبروا حقيقتها « شقيقة التنظيم والتنسيق » ، وعندما تسمع صوت مخلصك فاحصا قلبك وكليتك بنبرات مملوءة محبة لا تنضب وعطفا لا يني ، فيحتمل أنك أنت أيضا تطرح بؤس الشك وتصرخ بأيمان هادىء فرح [أنت ابن الله أنت ملك اسرائيل] .

وحالا انتفى احجام نثنائيل المتحفظ فعندما رآه يسوع مقبلا أعلن أن ختم الله على جبهته وقال عنه [ها هو ذا فى الحقيقة اسرائيلى لا غش فيه] . ولما سأله نثنائيل ومن أين تعرفنى أتاه ذلك الجواب الفاحص القلب [قبل أن يدعوك فيلبس

وأنت تحت التينـة رأيتـك] .

كانت عادة اليهود الأتقياء، وهي عادة أقرها التلمـود أن يقـرأوا « الكريشما » أو خدمة الصلاة اليومية تحت شجرة تين (١) . وقد ظن بعضهم أن شيئا له دلالته في استدعاء الرسول وهو تحت ظلال شجرة ترمز إلى الطقوس اليهودية والتقاليد اليهودية التي كانت مبتدئة أن تنهار إلى الأرض (٢) . ومع أنه يمكن دائما أن يستخلص الانسان شيئا ملذا ونافعا للتعليم من التدقيق الشاعري للخيـال الخصب الطـاهر الذي يـلاحظ الكنايات والتمثيلات الدقيقة التي قد تستخلص من أبسط الحـوادث ، فليس هنـاك شعاع وامض من المعرفة يمكن أن يفسر لنا جواب نثنـائيل المضطرب القـوي . ولا شك أن كل إنسان قد اندهش عند النظرة السطحية من الفـرق المتبـاين البعيـد بين السبب والنتيجة . كيف يظهر لنا أن تلك الاشارة الهادئة إلى الفـترة التي قضاها نثنائيل وحيدا في تأملات صامتة تحت شجرة التين غير كافية لتنتج اتباعا فجائيا وصلة لا تنفصم من تلك الدقيقة بين ذلك التلميذ الملتهب وبين ابن الله ملك اسرائيل ! يجب أن نفحص الأمر بنظرة عميقة حتى نصل للتفسير الحقيقي لذلك الايمان السريع وحينئذ إن لم أكن مخطئا فانا سنرى في هذه الحادثة برهانا من تلـك الاسـتنتاجات التي اتخذها عديد من ذوي العقول الراجحة كأنها دلالات ذاتية لا تقـاوم عن الصحـة التاريخيـة للبشـارة الرابعـة .

هناك لحظات تهز فيها نعمة الله القلوب البشرية ويظهر أن الروح فيها تعتلي أجنحة نسور الرجاء والصـــلاة إلى سماء السموات وكأنها اختطفت إلى حضرة العلي ذاتها فترى وتسمع أشياء لا ينطق بها . وفي هذه اللحظات نحيا كما لو عشنا الحياة كلها لأن

---

١ ـ يقول سيب يظهر أنه ذهب خصيصا إلى هناك للصلاة والتأمل وقد يستدل المرء على معرفة أي وقت من العام حصلت هذه الحادثة من هذه المناسبة .

٢ ـ راجع ١ مل ٤ : ٢٥ و ميخا ٤ : ٤ و زك ٣ : ١٠ و مت ٢١ : ٢٠ و لو ٨ : ٧ .

المشاعر التى تمتلكنا تمحو كل اعتبار للوقت « وتحشد الأبدية فى لحظة وتطيل اللحظة إلى أبدية » فى مثل هذه اللحظات نكون أقرب إلى الله ويظهر أننا نعرفه وأننا معروفون منه . ولو أمكن لأى انسان أن يرى ما فى أرواحنا حينذاك لاستكشف ما هو عظيم وخالد في كياننا . ولكن رؤيانا في تلك اللحظات مستحيلة على البشر ، متيسرة فقط لذلك الذى تقودنا ذراعه وتهدينا يمينه حتي لو اتخذنا أجنحة الصبح وطرنا إلى أقصى أرجاء البحار . ولا شك أن ذلك الاسرائيلى الذى لا غش فيه قد خبر ثورة عواطف مثل هذه وهو جالس يصلى ويتأمل فى سكون تحت شجرة التين . ولرؤياه في تلك اللحظة التى لا تتيسر إلا لمن أعطى له أن يقرأ أسرار القلوب قد لمح يسوع. ولندع من اختبر مثل هذا الظرف أن يقول لنا كيف يعتبره إنسانا ذاك الذى يفصح له انه قد رآه واختبر عمق إحساسات قلبه . إن التأملات المنفردة ، والدخول ونحن فى هذه الحياة إلى « ما بعد الحجاب » ، والتمتع بأمجاد السماء الثالثة التي فيها تجتهد الروح أن تعلو على حدود الوقت والمكان بينما تخاطب وجها لوجه الأبدى غير المرئى . ان الأنوار الفجائية للبروق السماوية التى تصهر كل ما هو وضيع ودنىء فينا في الحال وإلى الأبد . ان هذه اللحظات العلوية هى من اختبارات الحياة المسيحية التى ترتكز على براهين لا تدخض من الشهادة والحقيقة . فان كان أحد قراء هذه الصحائف قد اختبر تلك الفترة التى يحصل فيها هذا التغيير الالهى الذى يمحو القديم وفى الوقت نفسه يخلق روحا جديدة ، فمثل هذا على الأقل سيفهم الهزة العاطفية التى استولت على نثنائيل وطرف السهم للايمان الكامل الذى أصاب فى تلك اللحظة قلبه وجعله كأنه ينحنى على ركبتيه وهو يصرخ قائلا [يا معلم أنت ابن الله أنت ملك اسرائيل !] .

بعد ذلك قلما نسمع ثانية عن نثنائيل إذ يلوح لنا أنه كان من أرباب الروح الهادئة المفكرة والتى وإن كانت دائرة حياتها هنا ولكنها كانت تعيش « بعيدا عن كل الأصوات الضوضاء حيث يكون السلام » . كانت حياة لم ير العالم منها شيئا لأنها كانت مستترة

مع المسيح فى الله . ولكنا نتأكد أنه حتى زمان استشهاده بل حتى وهو فى آلام استشهاده لم ينس تلك الكلمات الهادئة التى دلت على أن إلهه « قد فحصه وعرفه واختبر أسرار أفكاره » ، وانه لم يرتب أو يشك ولا مرة واحدة ، ولكن لأيام عديدة مستقبلة قد تم له الوعد ولرفقائه بأنهم بعين الايمان (١) سيرون [السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الانسان] (٢) .

---

١ ـ هذا الوعد روحانى كما أكد الآباء . (انكم سترون) يو ١ : ٥١ أي من هذه الساعة فصاعدا راجع مت ٢٦ : ٢٤ أو قولنا فى التضرعات " اجعلنا مستحقين يا سيدنا ... الخ " لا تدل على المستقبل بل تعنى من ذلك اليوم وما بعده . (الحق الحق) وردت ٢٥ مرة فى بشارة يوحنا ودائما مزدوجة راجع اش ٦٥ : ١٦ و ٢ كو ١ : ٢٠ و رؤ ٣ : ١١ .

٢ ـ (ابن الانسان) هو اللقب الذي يدل على أن المسيح هو الممثل الوحيد لكل ابن من الأسرة الآدمية التى خلقها الله . أنظر دا ٧ : ١٣ و ١٤ و رؤ ١ : ١٣ الخ . (ابن الانسان) = ابن آدم . ممكن أن تعمم على كل رجل (أيوب ٢٥ : ٦ و مز ١٤٤ : ٣) ولكنها خصصت فى العهد القديم لحزقيال وفى العهد الجديد ليسوع . ومن الحقائق الملاحظة أنه مع استعمالها علما على حزقيال ما يقرب من التسعين مرة ففيها كلها لم يستعملها هو نفسه ـ ومع استعمالها علما على يسوع ما يقرب من الثمانين مرة فانه فى كل مرة كان يستعملها هو نفسه ما عدا فى الفقرات التى وصفت فيها أمجاده السماوية . (اع ٧ : ٥٦ و رؤ ١ : ١٣ ـ ٢٠ و رؤ ١٤ : ١٤) ومن الملاحظ أيضا أنها استعملت لحزقيال فى وسط الاعلانات التى رآها لتدل على أنه لا شىء كالعدم أما فى العهد الجديد فواضح أن هذا اللقب متخذ من دانيال ٧ : ١٣ ويدل على الانسانية فى منتهى تواضعها . وهى اعلان أن أمجاد يسوع كملك وكديان هى نتيجة انكار ذاته فى اتخاذه صورة الانسان (فى ٢ : ٥ ـ ١١) .



أوانى المياه فى الشرق

الفصل الحادي عشر

المعجزة الأولى

رأت المياه المتواضعة ربها فاحمرت حياء
كراشاو

قال البشير يوحنا [وفى اليوم الثالث كان عرس فى قانا الجليل] وإذ كتب بذاكرة حية ومعرفة تامة عن كل حادثة وقعت فى تلك الأيام الخالدة الالهية ، فقد كتب دلالة الأزمنة كما لو كان الجميع مثله يعرفونها جيدا . لذلك فهمت [في اليوم الثالث] على وجوه عدة أبسطها أنه اليوم الثالث لسفر يسوع ميمما الجليل . ولو تخيلنا أنه سلك الطريق المعتاد وأنه مسافر قصدا فربما يكون قد قضى الليلة

الأولى في شيلوه أو شكيم ، والليلة الثانية فى عين غانم ، والثالثة عبر وادى يزرعيل فيصل بسهولة إلى الناصرة (١) . وإذ لا يجد أمه وأخوته هناك ففى ساعة ونصف الساعة يصل إلى قانا فى الوقت المناسب لمهرجان العرس الشرقى (٢) .

ومن المعروف أن هذه الحفلات تبدأ عند الغروب لأن العادة فى فلسطين كما كانت عند اليونان « ان تحمل العروس من منزلها عند الغروب » - أو بعد ذلك من ابتداء الليل - في خمارها الفضفاض المترامى مكللة بالزهور مرتدية أبهى الثياب . ويزفونها على أنوار الشموع ، وأصوات الغناء ، والرقص ، ونفخ المزمار ، ودق الطبل إلى منزل عريسها . وكانت تصحب العروس فتيات القرية . وكان العريس يأتى لمقابلتها فى جمع من أصدقائه الشباب . ويقول التقليد أن نثنائيل كان « اشبين » هذه الحفلة الذى من واجبه أن يرافق العروس ويظن أن سبب مجىء العذراء مريم من الناصرة لحضور الزفاف ربما كان أن أحد العروسين من ذوى قربى العائلة المقدسة . وقد دعى يسوع

---

١ - لم يكن هناك داع يعوق يسوع فى الناصرة إذ ذاك سيما ان كان سفره خصيصا لحضور حفل الزواج . وخبر اقتراب حدوث زواج ينتشر سريعا فى قرى الشرق . وربما دعى يسوع عن طريق أحد تلاميذه أو عن طريق أحد من الجليليين المسافرين .

٢ - واضح من المتن أننى أعتبر أن "كفرقانا" هى المقصودة "بقانا الجليل" . يوجد رأى ضعيف لا يقول به سوى الدكتور روبنصون أن قانا الجليل كانت هى القرية المهجورة التى يطلق عليها الآن "خربة قانا" وإنى أعارض هذا الرأى وكذلك الدكتور صولصى ويقول ازبورن أن "قانا الجليل" تطلق إلى يومنا هذا على "كفرقانا" وليس على "خربة قانا" وإذ أنى أقر التفسير السالف "لليوم الثالث" فهو برهان جديد أن كفرقانا هى المقصودة وبهذا تنتفى أيضا الصعوبة الجغرافية والصعوبة الزمنية . والتقليد يدعم هذا الرأى فضلا عن أن موضعها أقرب للناصره وكفر ناحوم وهى الطريق العام ثم بها آثار بينة . كل هذا يدل على أن "كفرقانا" هى المقصودة فى أخبار البشائر وليست "خربة قانا" . وطومسون فى مؤلفه "أرض الكتاب" يناصر هذا الرأى ، وله من مدة إقامته فى فلسطين ومعرفته الجيدة للعربية والعرب ما يجعل لرأيه قيمة .

وتلاميذه أيضا . ويدل استعمال المفرد فى اللغة الأصلية على أنهم دعوا من أجله ، وليس مراعاة لهم . ولذلك ليس من المعقول أن يكون لنثنائيل الذى سمع اسم يسوع منذ يومين فقط أى شأن فى هذا العرس . حقيقة من العبث ابداء رأى جازم . ولكن من المحقق أن العذراء قد اتخذت مركزا رئيسيا فى المنزل ، وأمرت الخدم بصيغة السيادة . وهذا يجعل من الجائز أن يكون العرس لاحدى ابنتى أختها زوجة حلفى « أخوة الرب » (١) اللتين أعطاهما التقليد اسمى استير وثامار (٢) .

ولا يمكننا أن نقول ان كان العرس قد استمر سبعة (٣) أيام كما كان المتبع عند من يستطيعون ذلك ، أو يوما أو اثنين كما كانت العادة عند الطبقات الفقيرة . ولكن ما نعلمه أنه فى وقت ما من العرس نفد الخمر على غير انتظار (يو ٢ : ٣) . وليس غير من اختبر يعرف أن كرم الضيافة مقدس فى الشرق ، وانه من الواجب المحبوب قلبيا أن يكون هذا الكرم بالغا حد الكمال ـ يستطيع أن يعلم مقدار الغم الذى يخيم على الحفل ، ولا مدار الألم والبؤس الذى يحيط بالعروسين . ولا شك أنهما كانا يشعران كما لا يزال للآن في الشرق ان هذا عار لا يمحى .

وربما كان لحضور عدد غير منتظر من الضيوف لم يعمل حسابهم دخل فى نقصان الخمر أو عدم كفاية هذه الحاجة المنزلية البسيطة .

تحت هذه الظروف ولوجود هذا السبب قالت أم يسوع له [ليس عندهم خمر] وواضح أن هذه الملاحظة كانت مقصودة ولا يمكن اغفال ما تنطوي عليه . وما كان يعلم أحد مثل مريم من كان ابنها ، ولكنها لثلاثين عاما طوالا انتظرت بصبر

---

١ ـ مت ١٨ : ٥٦ (المعرب راجع ما سلف عن هذا الموضوع)

٢ ـ فكرة أن العريس كان سمعان القانوي خطأ طبيعي نجم عن اسمه . وتقليد غير محتمل اتبعه ابيفنيوس وبونا فنتيورا وورد عند العرب أن العريس كان يوحنا البشير ذاته . وهذا خطأ أيضا . ومن هذا أيضا يتضح أن اخوات الرب كن بنات خالته .

٣ ـ قضاه ١٤ : ١٢ و طوبيا ١١ : ١٩

اعلان قوته ولم تر إلا أنه ينمو كما ينمو غيره ويعيش حقا فى خضوع ونعمة وحكمة بلا خطية كغرس جميل أمام الله، ولكن فيما عدا ذلك فقد عاش كما يعيش باقي الشبان ممتازا فقط بأنه كان خاليا تماما من كل اثم. ولكن الآن له ثلاثين سنة، وصوت النبى المعمدان الذى طبقت شهرته كل الآفاق وسمعت صوته كل الأمة قد شهد أنه المسيح المنتظر. وقد تبعه عيانا تلاميذ اعترفوا أنه المعلم والرب. وها أمامه الآن مأزق مزمع أن يحل بالعرس، وعمل من الرأفة الحقيقية يجب أن يتم، وعار يجب أن يبعد عن أصدقاء يحبهم، ألم تأت ساعته بعد؟ من يقدر أن يتكهن ما يمكنه أن يعمل لو أخبر عن الاضطراب الذى أزمع أن يحل بالعرس؟ ألا يجوز أن تتلق أوامره طغمة من الملائكة النورانيين المرنمين مثل الذين ظهروا وقت ميلاده فيتحـــول ذلك العرس المتواضع إلى حفل نغم سماوى؟ ألا يجوز أن يدعوهم الآن إلى وليمته ويكون علمه فوقهم محبـــة؟

كان ايمانها قويا ودوافعها نقية إلا ذلك الجزء الطفيف من الضعف (لا نجد كلمة غير هذه) الأنثوى ورقة الأمومة التى يجوز أن تكون قد حفزت فيها الرغبة أن ترى ابنها يمجد فى حضورها (١) وساعة ابنها قد أتت تقريبا. ولكن قد صار من الضرورى الآن وإلى الأبد أن يظهر لها أنه من الآن فصاعدا لم يعد يسوع بن مريم ولكنه المسيح بن الله، وانه إزاء عمله العظيم وإرساليته وإزاء كيانه الأزلى قد انتفت أهمية تلك الصلة الجميلة وأن أفكاره غير أفكارها وطرقه غير طرقها (٢) وما كان ممكنا أن يفهمها ذلك على وجه أكثر صراحة وفى الوقت ذاته أشد لطفا إذ قال لها يسوع:

١ - الفكرة مأخوذة عن يوحنا فم الذهب.

٢ - شبيه بهذا ما ورد فى لو ٢ : ٤٩ حيث أبدلت سيطرة يوسف بسلطة أحق وأعلى وهذا يظهر جليا من ثنايا مت ١٢ : ٤٨ - ٥٠ و لو ١١ : ٢٧و٢٨. ويحكى لنا القديس برنارد قصة تبين لنا كيف أن الرب يريد أن يعلمنا أنه لا ينبغى أن تضطرب الحياة الروحية بالعلاقات الجسدية، قصة مدهشة عن راهب أراد أخوه ان يأخذ رأيه فى مسألة ما فأحاله على أخ ثالث قد مات فقال

[مالك ولى يا امرأة] هذه الكلمات تظهر لنا للوهلة الأولى انها ثقيلة على السمع بل تكاد تكون صادة في خشونتها وإيجازها . ولكن هذا الخطأ مصدره الترجمة من جهة والظرف المحيط من جهة أخرى . وفى ظرف كهذا ما كان ليدعوهـا « أمى » بل خاطبها بقوله « يا امرأة » وهو لقب كان محـترما للغاية فكانت تخاطب به الملكات ، (١) وكان رقيقا جدا فكانت تخاطب به فى أشد أوقات الحنان أعز الأحباء (٢) ، و « مالك ولى » هى الترجمة الحرفية لجملة أرامية ذائعة « ماه لى فلاك » وهى وإن كانت تصد رغبة وتبعد أى مناقشة أخرى بخصوصها ، فانها مطابقة تماما لما جرى عليه الذوق والاحترام والوقار (٣) .

ولا نشك مطلقا في أن الصد البسيط الذى انطوت عليه تلك الكلمات الهادئة قد خف كثيرا بالنظرة التى صحبتها واللهجة التى نطقت بها . وكثيرا ما منعت النظرة واللهجة كلمات أشد غلظة من هذه من أن تكون مثيرة للألم . ولذا نجد مريم بإيمان لم ينتقص وشعور خال من أى جرح تأمر الخدم الذين كان لها سلطان ظاهر عليهم قائلة : [ما يقوله لكم افعلوه] (٤) .

الأخ " ولكنه قد مات " فأجابه الراهب " وأنا أيضا " . ولعل عدم تمكن أقربائه من فهم هذه الحقيقة هو الذى جعل بينه وبينهم شيئا من سوء التفاهم عن الخطة التى أظهر يسوع بها عمله وجعله يقول (لا يهان نبى فى مكان ما إلا فى وطنه وبيته) مت ١٣ : ٥٧ .

١ ـ خاطب به أوغسطس كليوبطرة . وورد فى قرار أنشودة الملكة كليتمنسترا فى مخاطبة الأميرات فى الأدب اليونانى .

٢ ـ مثلا عندما خاطب يسوع مريم المجدلية فى البستان (يا امرأة لماذا تبكين) يو ٢٠ : ١٥ وخطاب الملائكين لها يو ٢٠ : ١٣ وعندما خاطب يسوع أمه وهو على الصليب (يا امرأة هوذا ابنك) يو ١٩ : ٢٦ .

٣ ـ أنظر ٢ صم ١٦ : ١٠ و ١٩ : ٢٢ و امل ١٧ : ١٨ و قض ١١ : ١٢ و ٢ مل ٣ : ١٣ و يشوع ٢٢ : ٢٤ .

٤ ـ قارن (يو ٢ : ٥ لم تأت ساعتى بعد) بالحادثة عندما أراد أن يصد رغبات أقاربه غير

من أول الواجبات فى الشرق غسل الأرجل عقب السفر وغسل الأيدى قبل الأكل . ولتسهيل القيام بهذا كان يوجد عند مدخل الباب ست أوان خزفية كبيرة حلوقها مغطاة بورق الشجر النضير لتبقى على برودة الماء ، وكل منها تسع مطرين (١) أو ثلاثة. فأمر يسوع أن تملأ هذه الأجران ماء إلى فوق يو ٢ : ٧ ، ففعلوا كما أمر. ثم قال أن يستقوا منها فى أوان صغيرة (٢) ، ويقدموا منها إلى رئيس المتكأ الذى كان ينتخب حسب عادة ذلك الزمان ويعتبر رئيسا للعرس (٣) . وإذ لم يكن قد علم شيئا مما حدث ، فقد لاحظ منشرحا أن العريس قد خالف العرف المتبع في الولائم . هذه بداية [يو ٢ : ١١] الآيات التى صنعها يسوع لقصد معين حسى ، ولقصد رمزى قدسى ، وبها أظهر مجده فآمن به تلاميذه .

كانت هذه هى الآية الأولى . ولشد ما تختلف عما كنا ننتظر أن تكون ! وبأى بساطة وهدوء ربانى ! والكيفية التى تمت بها الآية - التى تمتاز بغرابتها عن كل أعاجيب شفاء المرضى - تعلو كثيرا عن قوة أفهامنا . ولكنها لم تعمل بضجة أثيرت حولها أو

الموافقة لكى يسرع فى الذهاب إلى أوروشليم إذ استعمل ذات التعبير (يو ٧ : ٦ ان وقتى لم يحن بعد) ويقارن هذا المستر ساندای بحى ١٥ : ٢١ - ٢٨ .

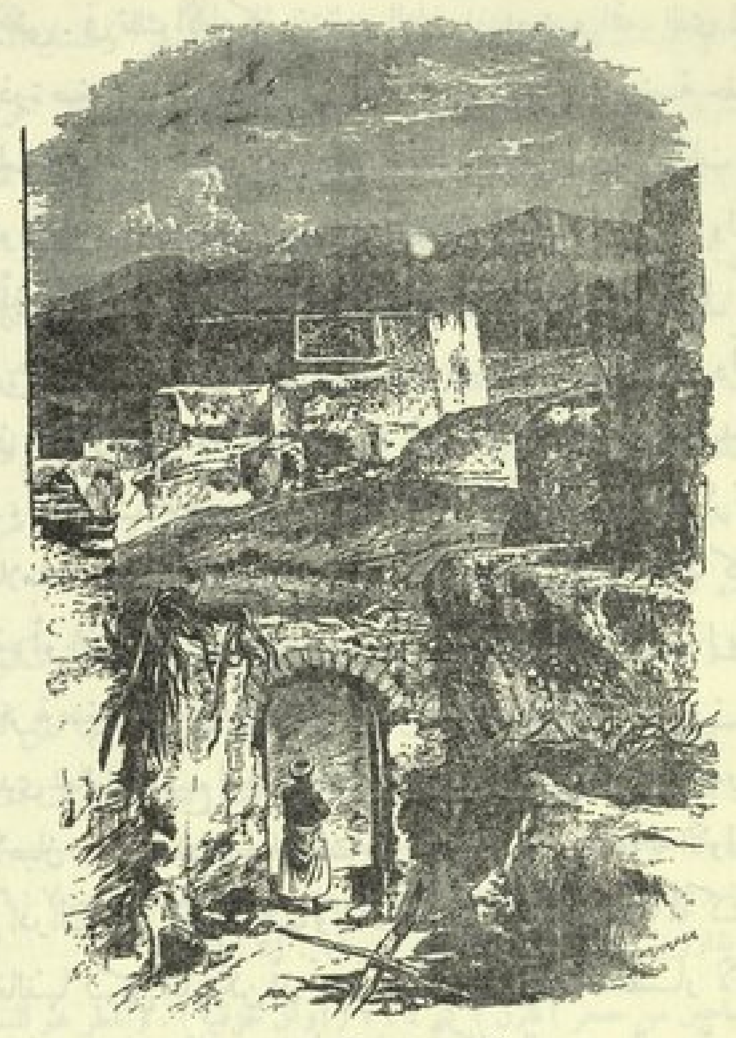
١ - (ست أجاجين من حجر) قارن ٢ كو ٤ : ٧ (أوان خزفية) . والمطر هو البث ومقداره نحو سبعة جالونات ونصف . ولكن يستبعد أن كلا من هذه الأجران كان يسع من ١٥ - ٢٢ جالونا ، ولذلك رأى لانج أنه ربما يكون المطر " الأمفورا " اليونانى لا العبرانى هو المقصود وهذا مقداره خمسة جالونات . (المعرب : لا زالت هذه الأجران موجودة فى الشرق وبعضها يسع أكثر من ٢٢ جالونا) .

٢ - راجع يو ٢ : ٧ ويحقق وستكوت أن الكلمات الأصلية تنفى الفكرة القائلة بأن كل الماء الذى فى الستة أجران لم يتحول خمرا .

٣ - هذه العادة قد أخذت فى الغالب عن اليونان ولكنها ذاعت عند اليهود وها قد عمل رئيس العرس كما أمر ابن سيراخ ٣٢ : ٢ - ٣ (اهتم بهم ثم اجلس وبعد قضائك ما عليك اتكىء لكى تفرح بهم وتأخذ الاكليل زينة وتكرم بهداياهم) .

بنفخة مجد عرضى . فى تلك الأيام كان ينتظر الناس أن يصنع الله - الذى لديه البحار والجبال مثل ذرة صغيرة والذى أمام عينيه السماء ونجومها مثل ومضة حقيرة - آياته أمام حفل العلماء الفهماء . والمعقول أن يكون هذا هكذا لو كانت الآيات قد قصد بها أن تكون البينة الوحيدة أو حتى المهمة للدلالة على قوة يسوع . ولكن ايمان المسيحية هو أن ابن الله هو ابن الله حتى لو كان مثل يوحنا المعمدان لم يعمل آية واحدة . إن آيات يسوع قد صنعت ليس لكى ترضى محبة استطلاع باردة جامدة ولكنها كانت استجابة لايمان محب وديع . وما احتاج فيها لا لمهارة الدجال ولا للتأكيدات الذاتية التى للمشعوذ ، انما كانت أعاجيب يسوع علامات - أو كما سبق وذكرنا تكاد أن تقرب من علامات عرضية لأرساليته الالهية لأن الغرض الأول منها كان تخفيف آلام البشرية ، أو التمثيل عن الحقائق المقدسة ، أو كما فى هذه الحادثة لزيادة المسرات البريئة . ففى قرية صغيرة فى عرس معتاد فى منزل حقير شاهد قليل من الأضياف الفلاحين احدى عجائب المسيح العظمى الفائقة القدرة ، وليس فى مدرج نخم أمام نظارة من الأعيان . ولهذه الاعتبارات تشابه كثيرا ظروف الأعجوبة الأولى الملابسات الفائقة عن ادراك البشر التى أحاطت ولادة المسيح . ولمخالفتها تماما لما كنا ننتظر أو نتخيل ، ولمخالفتها لكل ما يمكن أن تخترع الأساطير ، وبالاختصار لأنها قد تعثر غير المؤمنين - نري فيها برهانا جديدا على اننا نقرأ كلمات الصحو والصدق .

ان المعجزة شىء معجز . ولا نرى فائدة من اجتهادنا أن نفهم الطريقة التى بها صنعت . وفى قبولنا صحتها - ولكل امرىء ملء الحرية فى عقله فيصدق أو ينكر حسب هواه وإن كان فى ذلك هلاكه - فنحن نقبل صراحة صحة أمور تعلو عن القوانين الطبيعية وإن كانت بأى حال لا تخالف سننها الجارية . وماذا نستفيد ، وكيف تتبسط أو تسهل للفهم هذه الأعجوبة ، ان ظننا مع « ألشوزن » ان الأمر اقتضى هنا الاسراع فى عملية طبيعية ، أو مع نيندر ان ذرات المياه قد تكاثفت إلى ذرات الخمر ، أو مع



آثار خرائب كفر قانا

لانج أن الأضياف صاروا فى حالة من الغبطة غير العادية ؟ (١) فلندع أولئك الذين يرونه جائزا عقليا أو نافعا روحيا أن يشبعوا أنفسهم ان أرادوا من هذه النظريات التى لا

١ ـ راجع كتاب ملاحظات عن الأناجيل لأولشوزن وكتاب حياة يسوع المسيح لنيندر . ومما يؤسف له أن نظرية " الاسراع " فى عمل الطبيعة اعتقد بها كثيرون من اللاهوتيين الانجليز وقد لاحظ صديق أن الطبيعة وحدها لا يمكنها تحويل ثلاثين جالونا ماء إلى نبيذ مهما طال الزمن إلا بمساعدة عشرة أرطال من الكربون . (المعرب : ولا بهذا أيضا) .

أعدها « وقحة » أو « سفسطائية » ولا « خطرة » وانما فقط « مربكة مشوشة لا لزوم لها » . أما اعتبارها مشجوبة أو اذعانا غير شريف لروح الكفر فانما يوافق روح اللاهوت الفريسى الضيق العنيف ، ولا يتناسب مع التسامح الهادىء الذى يجب أن يكون أينع ثمار الايمان المسيحى . وفى مسائل الايمان يجب « أن يكون من اليسير جدا عند كل واحد أن يحكم عليه من الناس » ويجب أن نؤمن بما نعتقد في قلوبنا وأفئدتنا أنه ارادة الله . وأن حكم الله ـ وحكمه وحده ـ لنا أو علينا هو المعول عليه فى قيامنا أو سقوطنا . ونحن لا نغتصب الحق في معاداة غير المؤمن بالأعاجيب ورميه بالشتائم أو الحرم والأناثيما ، كما لا نعطيه الحق فى الاستهزاء بنا ورمينا بالغفلة أو الرياء . وإذ أن يسوع قد علم كل الناس الذين قبلوه والذين رفضوه على السواء دروس التسامح واللطف ، فما فى وسع المؤمن أو غير المؤمن على السواء هو أن يقرر بهدوء ووداعة وحق واخلاص كامل مقدس ـ مع العلم إلى أى عمق قد تجرح العواطف بسبب الفرق الشاسع بين أفكار الطرفين ـ أن يقرر الأسباب التى دعته للاعتقاد الذى به يدين . ولما كان الأمر هكذا فانى أقول أنه لو تحققنا أن كلمة « الطبيعة » قليلة المعنى أو لا معنى لها ما لم تشمل « مبدعها » ، ولو اعتنقنا الحقيقة التى تعلمنا إياها كافة العلوم وهى أن أتفه وأبسط عمليات قوانين الطبيعة أعلى بما لا يقاس عن أفهام أعظم الناس نباهة وادراكا ، ولو تيقنا أن قوة الله العلوية ليست خيالا بعيدا ولكنها عناية حية محبة تسهر على راحة وحياة الناس ، وأخيرا لو آمنا أن المسيح هو ابن الله الوحيد وكلمته الذى أتى ليعلن ويظهر الآب للناس ، فحينئذ لن نجد فى الأناجيل أية أعجوبة تزعزع ايماننا ، وحينئذ نعتبر أن معجزات المسيح صادرة من حقيقة كيانه وجوهر ارساليته كما تصدر أشعة الضياء عن الشمس . لم تكن الأعاجيب فقط « قوات » وهى التسمية المحبوبة للبشير يوحنا ، أو « علامات » ، ولكنها كانت أيضا « أعمالا » عادية وطبيعية يأتيها عندما يشاء ذاك الذى كان وجوده نفسه أكبر الأعاجيب كلها . وإن اعتقادنا

المبين أنه كان بلا خطية . ولقد قال شاعر ألمانى « قد يظن المرء أن أعجوبة الأعاجيب هى خلق الدنيا كما هى ، ولكن أعجوبة أعظم جدا أن عاش فيها ذاك كامل الطهارة بلا خطية » وقال واحد من كبار الفلاسفة « أمران اثنان طغيا على روحى وملآنى رهبة وعجبا وهما السماء ذات النجوم فوقنا ، والقانون الأدبى داخلنا » ولكن إلى هذين الأمرين أضيف أمرا ثالثا لا يقل روعة أو سموا وهو اتمام الناموس الأدبى الخارجى فى شخص يسوع المسيح . وهذا الاتمام يجعلنا نؤمن أنه كان الها حقا . وإن كان يسوع كذلك فلا غرابة مطلقا إذا علمنا أنه وهو على الأرض عمل ما لا يمكن أن تعمله إلا قوة الله .

توجد خاصتان لهذه المعجزة الأولى تسترعيان الالتفات :

الأولى : أنها معجزة إلهية فى الايثار . ستكون ديانته ديانة الفرح والسلام ، فأقر لا التقشف المميت بل المسرات الطاهرة ، وصادق ليس فقط على البتولية القاهرة بل أيضا على الاتحاد المقدس . وذاك الذى لم يشأ أن يحول حجارة البرية إلى أرغفة عمد بعد ستة أو سبعة أيام فقط ، لأجل الآخرين ، إلى قوته القادرة على تحويل العناصر ، لتزيل الحيرة والألم من وليمة العرس المتواضعة ويحول الماء خمرا . كانت أعجوبة موسى الأولى عقابا صارما إذ حول نهر أمة مذنبة إلى دم ، وكانت أعجوبة يسوع الأولى أن يملأ أجران الماء لعائلة بريئة بالخمر .

والثانية : مغزاها الرمزى . فهذه المعجزة ككل معجزات السيد تقرن عمل الرحمة بمثل أو نبوة . يقدم العالم أطيب ما عنده أولا وبعد ذلك الدون والحثالة ، ولكن يسوع أتى ليحول الأدنى إلى الأعلى والأفضل ، ويكمل ناموس موسى إلى ناموس الحرية الكامل ، وعماد يوحنا إلى عماد الروح القدس ونار ، وانكار الذات الذى للوحدة المؤلمة إلى انكار الذات الذي للعائلة المفرحة ، والحزن والتنهد إلى الأمل والبركة ، والماء إلى الخمر . وفوق ذلك فان الحالة القدسية التى مجدها المسيح ، وأكمل جمالها

بحضوره إلى قانا الجليل وصنع أول معجزاته (١) فيها ، ترمز إلى الاتحاد السرى بين المسيح وكنيسته . والعنصر العادي الذى تحول بقوته القادرة صار رمزا لحياتنا على الأرض التى تحولت وتغيرت وصارت نبيلة فى انتظار أفراح السماء مثل الخمر الذى يشرب به جديدا معنا فى ملكوت الله في عشاء عرس الخروف .

---

١ - عدد من البحاثين الانجليز يعمدون للمعجزات كأنها برهان ارسالية المسيح وللبشائر كأنها براهين المعجزات . هذا ليس رأى المؤلف الذي يشارك كثيرين من النقاد المتأخرين الذين يعتبرون أن " الحياة الروحية فى الديانة المسيحية " هى البرهان القوى لصحة الحقائق التاريخية التى تقرها البشائر . والبشائر هى التى تفسر لنا الأسباب الأصلية التى أدت إلى انتشارها وإلا كانت مثل لغز لا حل له . وهذا هو الرأى الذى اجتهدت أن أظهره جليا فى محاضراتى " شهادة التاريخ ليسوع " سنة ١٨٧٠ أقول أقوى البراهين الخارجية لأنه يوجد من يتقولون على من يعتقد فى التأنس انه إما له خلق مرائى أو ادراك ناقص . لكن لا يجب أن ينسى المعاندون تلك القوة الكبيرة التى تعد المسيحى للايمان ويستمدها من تجارب حياته والتى يعتقد أنها صوت الله يتكلم للقلب ويؤكد له كل ما يتعلمه عن الله بطريق المسيح والمسيح وحده . قوة هذه المعرفة لا قيمة لها كبرهان عند غير المؤمن ، ولكن من وجهة أخرى يجب أن يلاحظ أن الانكار لهذه القوة لا ينقص من قوتها فى عقول أولئك الذين وجدت لأجلهم .



البحر الميت

الفصل الثانى عشر

سكان الحرازة

اعط القلوب النقية أرضا وسماء وزهورا ومناظر جميلة وبيئة بسيطة ، تفيض منها بسخاء أفكار متواضعة . كيبل

كانت أعجوبة المسيح الأولى فى قانا علامة على أنه جاء لا ليدعو تلاميذه خارج العالم فيطلقونه وكل واجباته العادية ، ولكن ليجعل الناس أكثر سرورا ونبلا وصلاحا فى العالم . وأرادهم أن يكونوا أزواجا وآباء ومواطنين صالحين ، وأظهر ارتياحه لفرح الاجتماعات الطاهرة وبهجة المجتمعات البريئة لا أقل من انشغاف المتعبد فى البرية وأحلام المتصوف فى صومعته المنفردة .

ومما يدل على هذا الاستنتاج انه عنى بالمكان الذى اختاره لكرازته ، فيوحنا المعمدان بشر فى الخرائب الموحشة جوار البحر الميت حيث كانت تردد صدى صوته الجروف القاتمة القائمة على ذلك الغور الرطب الحار ، وكانت المدينة الأقرب لمكان تعليمه بنيت على اللعنة (١) ، والطريق الموصل إليها « طريق الدم » وكل ما حواليه قاحل ملىء بالجريمة والخراب . هناك تجد موجات البحر الميت ممزوجة بالقار ، والفاكهة تتساقط هباء كريها إذا لمستها يد ، وحتى التراب الذي تطأه القدم أبيض وحار يخفى تحته آثار شعب مكروه . هناك إلى جانب تلك المياه الرصاصية ، وتحت تلك السماء النحاسية ، ووسط تلك البرية المحرقة والأودية الحجرية نادى يوحنا بمعمودية التوبة . أما يسوع فاختار أول مكان لكرازته مدينة آهلة نضرة تنعكس صورة أبنيتها المرمرية على بحر صاف .

تلك المدينة الصغيرة هى كفر ناحوم التى قامت تحت أحادير لطيفة من التلال التى تحيط جنة أرضية (٢) . ولا توجد أشجار ولا توجد كروم فى أى بقعة من فلسطين مثل التى فى دائرة جنيسارات ، واسمها ذاته معناه « جنة مثمرة » . وزهور لا عدد لها تتفتح على السهل الصغير الذى يشابه الزمردة . فما لا شك فيه أنه كان بتدبير إلهى أن يبدأ يسوع كرازته وسط مناظر هذا عظم جمالها ، ولاق أن تعلن التعاليم الثمينة التى أظهرت للجنس البشرى أسمى آماله وأطور مسراته أولا فى مكان فائق الجمال . إن مناظره ليست ضخمة ولا فخمة ، فليس هنا شىء من رهبة الجبال ولا عظمتها ، وليس بها شىء من ذلك الجمال المخيف الذى يرد الطرف وهو كليل ، فلا براكين استوائية ولا جبال ثلج قطبية . ولو أن انسانا كانت حياته على الأرض ملآى بالحوادث المريعة والمصائب الجسام لشابهت أماكن تكثر فيها الانفجارات والفيضانات ، ولكن تلك

---

١ - أرميا يش ٦ : ٢٦ .

٢ - يو ٢ : ١٢ (انحدر) تبين منتهى الدقة لأن الطريق عبارة عن منحدر طويل .

المراعى الخضراء ومجاري المياه ، تلك الطيور المغردة والزهور اليانعة ، وسطح البحيرة المنبسط الصافى الذي يكتسب حلاوة مضاعفة ويبعث انتعاشا لوجوده فى أرض لاغة ، كل هذا يرمز إلى حياة بريئة لطيفة تزينها مباهج عادية مثل نزول المطر وشروق الشمس التى تسبغ سواسية على جميع الناس .

وأول ما يراه المسافر ، وقد خرج من « وادى الحمام » وانفتحت عيناه لأول وهلة على جنيسارات ، بحرا داخليا له شكل القيثارة (١) طوله ثلاثة عشر ميلا وعرضه ستة أميال ، وعلى ضفته الشرقية يجرى شريط أخضر عرضه حوالى ربع ميل يرتفع منتهاه حوالى تسعمائة قدم عن سطح البحر إلى سلسلة تلال قفراء تقطعها وديان غبراء لا شجر فيها ولا زرع ولا مساكن ، حيث اعتاد يسوع الاختلاء بعد أعماله المضنية عندما كان يتطلب الراحة العميقة فى الوحدة الكاملة . أما البحيرة بمائها البلورى اللامع وحوافيها المزدانة بالختل المزهر التى تظهر بين أوراقه الخضراء الأجنحة الزرقاء لعصافير الأخيل وجماعات ملك الطير تتحين الفرص لنقر الأسماك التى تظهر تحتها . فتقع فى منخفض من الأرض يبلغ خمسمائة قدم تحت سطح البحر الأبيض المتوسط (٢) وهذا هو سبب حرارة ذلك الوادي المثيرة للأعصاب ، وإن كانت هذه الحرارة سبب ما به من مختلف النباتات اليانعة وخصوبة التربة ووفرة الأزهار ، وغنى المحصولات التي تنضج قبل مثيلاتها بشهر ، والنهيرات الكثيرة الجارية على جوانب التلال التى تنحدر وتصب فى البحيرة . أما الآن فشواطىء جنيسارت مهجورة عدا بلدة صغيرة متداعية هى طبرية « والمدينة المخيفة » مجدل ـ مجدلة القديمة ـ التى يظهر انحطاط أهلها وفقرهم من أن الأولاد يلعبون عراة الأجسام فى الشوارع . ولا توجد بقعة مأهولة غير هاتين على

---

١ ـ يقال أن هذا هو أصل اسمها القديم " كنارة " وهو مرادف قيثارة . أما وادى الحمام أو وادى الحمام فهو فجوة جميلة بين التلال يهبط منها المسافرين حاتين إلى مجدل .

٢ ـ ولذلك يسميه العرب " الغوير " ليفرقوا بينه وبين " الغور " أي وادى الأردن .

شواطئها التي كانت يوما ما تعج بالزحام (١) . كما لا يوجد سوى قارب عتيق متداع - وأحيانا لا يوجد حتى هذا - بدل أسطول السفن العظيم الجميل . وإذ أن الأسماك لا زالت كثيرة فهذا وحده دليل واضح على ما آلت إليه حال السكان الحاليين من الفقر المدقع المحزن وفقدان النخوة فيهم على نحو مثير للأعصاب . ولكن المعالم الطبيعية باقية كما كانت . فالبحيرة ذاتها لازالت دون تغيير حانية على صدر التلال تعكس كل غيمة فى السحاب وكأنها حجر عين الهر تطعم بالزمرد ، ومياهها لا زالت جميلة فى صفائها كما كانت وقت تأرجحت على تموجاتها الخفيفة سفينة بطرس ، وكما كانت حين تفرس يسوع فى أعماقها البلورية . و « الغوير » لا يزال يفيض بأشعة الشمس . ولا زال الهواء معطرا بالروائح الطبيعية ، وللآن يكثر وجود اليمام في الأودية والبجع في البحيرة ، كما يوجد نخيل وحقول خضراء ونهيرات وتلال من الخرائب . وما فقده المكان من السكان والنشاط قد اكتسبه من الرهبة والأهمية عند المسيحيين . ولو أنه محى من حواليه وجه كل انسان ، وعوى الذئب ، ونعب ابن آوى فى آثار المجامع التى علم فيها يسوع وقتا ما ، فلأنه المكان الذى اختاره لبدء كرازته(٢) ، سيبقى له روح من القداسة وسيظل يستدر الألم حتى يفنى الزمان .

لكن لا شك أنه كان يختلف جدا فى منظره أيام المسيح ، وأنه كان ذا بهاء وجمال فائق بقدر ما كانت مزارعه غناء . ويوسيفوس في مقتطفة من كتاباته الملآى بالاعجاب المتحمس بعد أن وصف مياهه العذبة وجوه اللطيف المعتدل ونخيله وكرومه وأشجار البرتقال والتين واللوز والرمان والينابيع الحارة قال « يظهر أن فصول السنة كانت

---

١ - لا زال يوجد بعض من البدو عند بيت صيدا أي عين طابيحاه . ويعتقد رينان أن مكانا حارا مثل الغوير يستحيل أن يكون مكانا لهذا النشاط المدهش لولا وجود الأشجار الباسقة إذ ذاك والتى ذوت بعد دخول الأتراك وقطعت فتغير الجد لذلك .

٢ - اع ١٠ : ٣٧ (مبتدئا من الجليل) ولو ٢٣:٥ (وهو يعلم فى كل اليهودية من الجليل إلى ههنا)

تتسابق فى شرف تجميله وكأن الطبيعة كانت في رهان افتخار حتى حشدت كل عناصر قوتها لتحسينه . ويرى التلموديون أنه فى امتلاك سبط نفتالى لهذا السهل « مطمع الطبيعة » اتمام للبركات الموسوية [يا نفتالى اشبع رضى وامتلىء بركة من] تث ٣٣ : ٢٣. وكان عندهم مثل مأثور - أعمق فى حقيقتـه مما يظنون - يقول « ان الله خلـق في أرض كنعان سبعة بحار - ولـكنه اختار بحرا واحدا - بحر الجليل - لنفسه » .

ولـكنه اختاره ليس لجماله فقط بل أيضا لتوسط مركزه ونشاط سكانه المزدحمين فـكان المكان المناسب للكرازة التى أتمت نبوة أشعياء القديمة أن [أرض زبولون وأرض نفتالى عبر الأردن جليل الأمم] تبصر نورا عظيما و [الجالسون في الظلمة وظلال الموت] يشرق عليهم نور عظيم ، فان المسيح حتى فى حياته على الأرض كان [نورا لـكل الأمم ومجدا لشعبه اسرائيل] . ولقد توطن ذلك المكان أناس كثيرون مختلفو الجنسية لأنه [طريق البحر] . ويقول يوسيفوس : « إن المدن فى هذا الأقليم متـكاثفة والقرى المتعددة مكتظة بالسكان لخصب أرضها حتى أن أصغر قرية لا يقطنها أقل من خمسمايه وألف نسمة ، ويضيف أن أناسها نشطون مجتهدون مطبوعون على الحروب من الطفولة ولا يهملون زراعة كل فدان من أرضهم الجميلة . وكانت أربعـة طـرق تتصل بشواطىء البحيرة : الأول يؤدى غربا إلى وادى الأردن ، والثانى يعبر قنطرة جنـوب البحيرة ويخترق البرية إلى مخاوض الأردن قرب أريحـا ، والثالث يجتاز سيفـوريس المدينة النامية المفرحة عاصمة الجليل وينتهى إلى عـكا الميناء الشهيرة على البحر الأبيض المتوسط ، والرابع يمر بجبال زبولون والناصرة ووادى إزدارئليـون إلى السـامرة فأوروشليم . وتعبر القوافل العظيمة هذا الاقليم في طريقها من مصر إلى دمشق . ولا شك أن الوثنيين الذين يكثرون فى بيت صيدا جوليا س وقيصرية فيلبس كانوا يرون فى شوارع كفر ناحوم ، فـكان هذا الاقليـم لوفـرة سكانه ومختـلف صنـاعاته « الاقليم الصناعى » لفلسطين . وكانت تمخر عباب البحيرة أربعـة آلاف سفينـة من

كل صنف : من سفينة الحرب الرومانية ، إلى المركب الخشنة التى لصيادى السمك الذين من بيت صيدا ، إلى القوارب المذهبة التى من سراى هيرودس . وكان الوصول سهلا جدا إلى اتورية والسامرة وسوريا وفينيقية بعبور البحيرة أو النهر أو التلال . وكانت مدينة طبرية التى أسسها هيرودس انتيباس لتكون عاصمة الجليل وأسماها على اسم الامبراطور تنمو بسرعة مدهشة حتى انه فى الوقت الذى كتب فيه يوحنا بشارته كانت قد منحت اسمها لبحر الجليل فصار يدعى بحر طبرية . وحتى ولو أن يسوع لم يدخل مدرجها الوثنى ولا شوارعها النجسة بالمقابر (١) فلا شك أنه رأى من بعيد أسوارها المحصنة ، وأبراجها العالية ، والسراى العظيمة ، ودار أنتيباس المذهبة وهى ترمى خيالها على البحيرة عاكسة سباعها الرخامية وتماثيلها الفنية . وقد شاركت أوروبا افريقية فى سكناها وتقابل رجال من كل قبيلة على الأرض فى أسواقها ، كما اختلط على الشاطىء الغربى لبحيرة جنيسارات اليهود والأمم اختلاطا غريبا . فكنت ترى العربى النفور ربيب البيداء إلى جانب الفينيق المجازف والسورى اللين والرومانى المتعجرف واليونانى البدين الفاسد الماكر .

قد انقضت أيام العزلة المحببة فى وادى الناصرة البهيج ، وستبدأ الآن حياة كلها كد لا ينقطع ، واهتمام عميق ، واضطراب ، وتجوال ، ومناهضة ، ووعظ ، وشفاء ، وصنع خير . في بدء كرازة يسوع العامة لم تكن اقامته في كفر ناحوم لأيام عدة ولكنها كانت مثالا لباقي أيام حياته . كان يعظ فى مجمع يهودى بناه قائد مائة رومانى . وكانت

---

١ - إذ كانت مقامة على بقايا مدفن قديم لا يمكن ليهودى حقيقى أن يدخلها بدون أن تصيبه النجاسة ويقول يوسيفوس انه لكثرة عدد المقابر التى أزيلت لوضع أساس المدينة يعتبر أي يهودى يسكنها أنه نجس (عدد ١٩ : ١١) لذلك كان يرغم هيرودس انتيباس الناس على سكناها إرغاما أو يرشوهم بامتيازات حيوية . والمرجح أن يسوع لم تطأ قدماه داخل أسوارها وإن كان بلا شك بعض أهليها من بين سامعيه (يو ٦ : ٢٣) .

أعمال محبته (١) تنتشر بين رجال مختلف الأمم . وكان ظاهرا للجميع أن النبي الجديد يختلف تماما عن سابقه العظيم ، فالرداء الوبري ، والوحدة النسكية ، وخصل الشعر المرسلة كانت غير مألوفة ولا مكان لها بين سكان تلك الشواطيء المكتظة المجدة . فما جاء المسيح ليثور ولكن ليعلي ويقدس . وجاء ليظهر أن « الأبدي » ليس هو « المستقبل » ولكن « غير المرئي » ، وأن الأبدية ليست محيطا يصب فيه الناس من نهر الوقت ، بل هي موجودة حولهم الآن ، وأن حياتهم هي الحياة الحقة ما داموا يشعرون بوجودها . جاء ليعلم أن الله لم يكن خيالا مظلما مجهولا مفصولا عنهم بزرقة السماء وبعدها الشاسع اللانهائي ، بل هو الآب الذي به يوجدون ويتحركون ومنه حياتهم وبه يعيشون ، وأن الديانة التي يفضلها ليست هي الضحايا ولا الوسوسة المدققة الناقدة ، ولكن هي الرحمة والعدل والتواضع والمحبة . ما أتى ليخفت الموسيقى الطبيعية التي في حياة الناس أو ليملأها بالاضطراب والعواصف ، ولكن ليعيد النغم لكل سلك فقد من تلك « القيثارة ذات الألف وتر » ويجعلها ترجع صدى أناشيد السماء .

ومع أهمية ما صرفه المسيح من حياته في هذه البقعة الجميلة فمن المستغرب أن الموقع الأصلي لكفر ناحوم [مدينته مت ٩ : ١] ، والتي رأت كثيرا من أعظم عجائبه وسمعت كثيرا من أعظم اعلاناته ، يظل إلى يومنا هذا غير محقق . بلا شك كان واحدا من اثنين ، اما مكان « خان منية » أو مكان « تل حوم » ، هذا مؤكد على وجه التحقيق ، ولكن أيهما ؟ فكلاهما قريب جدا من بيت صيدا و كورزين ، و كلاهما قرب أمواج الجليل ، وكلاهما طريق البحر . ولكل رأي براهين قوية تدعمه ، والرأي البات الذي يقرر أحدهما دون الآخر يحتاج إلى حل صعوبات لا تزال قيد البحث . ولكن بعد زيارتي لهذه الأمكنة ودراستي للمكانين المختلف عليهما ، ودراسة كتب

١ - إن أعمالا عظيمة صنعها في هذه الزيارة القصيرة ظاهرة من لو ٤ : ٢٣ . ولكنها لم تصل إلى درجة العجائب وذلك واضح أيضا من يو ٤ : ٥٤ .



موضع كفر ناحوم

عديدة للمستكشفين أرجح الرأى الثانى أى « تل حوم » . فهناك على الأرض المرتفعة الجرداء تعلو أسوار خربة لما قد يجوز أنه كان مجمعا مقاما على طراز خليط أنيق هو طابع الزمن الهيرودى ، وفى وسط العشب المهمل والأشواك العالية لا تزال آثار بقايا أعمدة وزخارف معمارية تبرهن على أنه فى هذه البقعة قد قامت زمنا ما مدينة جميلة نامية (١) أما فى خان منية فلا يوجد شىء من هذا بل آثار خربة لمحطة قوافل وأكوام

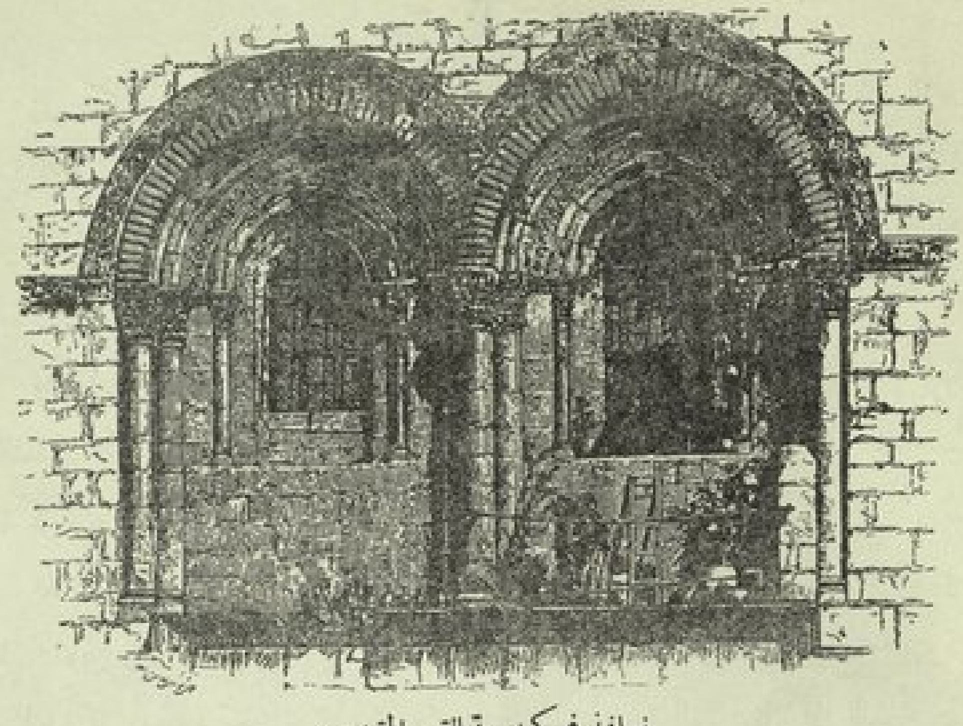
١ ـ يقول الماجور ولسون عضو بعثة استكشاف فلسطين " إن البناء الذى كان على تل حوم كان مخططا على أربعة خطوط كل منها سبعة أعمدة ومحاطا بسور محلى من الخارج بعمد صغيرة عليها (كورنيش) بديع يظهر أنه أجد عهدا.. . ولكن ما يحيرنى أن المدخل كان الجهة الجنوبية وهو غير المتبع فى بناء الجامع . وكان يحيط بالمجمع بناء آخر أحدث زمنا وهذا أيضا جميل البناء رقيق الزخرف ".

من الربى الرمادية قد تكون أو لا تكون رماد الخرائب . وسواء كان هذا الموقع أو ذاك هو المكان الذى كان فيه بيت بطرس حيث كان يقيم المسيح أيضا (مت ٨ : ١٤) ، فكلاهما الآن دمار موحش حتى أن البدوى السارى يظهر الكراهية لهذه الأطلال القديمة التى تعوى فيها الذئاب وبنات آوى ليلا . فالويل المحزن الرهيب الذى نطق به يسوع على هذه المدينة التى كانت حينئذ عامرة مزدهرة قد تم [وأنت أيضا يا كفر ناحوم أترتفعين إلى السماء لسوف تهبطين إلى الجحيم] يو ١٠ : ١٥ [لأنه لو حدث فى سدوم هذه القوات التى حدثت فيك لبقيت إلى اليوم] (١) .

---

١ ـ مت ١١ : ٢٣ . الابحاث القائمة حول كفر ناحوم تتسع لمجلدات عدة يجد القارىء أهمها فى كتب روبنسون وولسون وريتر الخ والابحاث الأخيرة لروب دى روى وبعثة فلسطين تحت رئاسة ولسون تظهر مناصرة لرأى تل حوم .

وتل حوم معناها تل خرائب حوم كما أن كفر ناحوم معناها قرية حوم فواضح أن " تل حوم " هو التحريف الطبيعى لكفر ناحوم . وإذ أن هذا الفصل خاص بمكان كرازة المسيح فانى أنوه أن النص الأصلى للنبوة الشهيرة الوارده فى اش ٩ : ١ هو (كما أهان فى الزمان الأول أرض زبولون وأرض نفتالى فانه يكرم فى الزمان الأخير طريق البحر عبر الأردن جليل الأمم) .



نوافذ فى كنيسة القبر المقدس

الفصل الثالث عشر

يسوع فى عيد الفصح

ويأتى بغتة إلا هيكله السيد الذي تطلبونه
ملاخى ٣ : ١

كانت زيارة يسوع السالفة لكفر ناحوم قصيرة جدا (١) وليس بعيدا أنه أقام فيها ريثما تبدأ رحلة القوافل العظيمة للحجاج الذين كانوا مزمعين أن يتخذوا طريقهم لحضور العيد العظيم فى أوروشليم .

---

١ - (وأقام هناك أياما ليست بكثيرة) يو ٢ : ١٢ .

قد سكت البشيرون عن ذكر أية زيارة للمسيح لأوروشليم لحضور عيد الفصح ما بين الثانية عشرة من عمره إلى قرب موته (١) عدا يوحنا الذى اتبع مقصد ومميزات بشارته فذكر زيارة يسوع للفصح عند بدء كرازته وأعطانا تفصيلات ما حدث فى أثنائها (٢) .

وأهم شىء امتازت به هذه الزيارة هو تطهير الهيكل ، وهو عمل لم ينتفع به اليهود فى التغلب على رذيلتهم المتأصلة حتى انه اضطر لاعادته بكلمات أشد قسوة عند ختام مدة كرازته أى لأربعة أيام قبل موته (٣) .

قد أسلفنا أن جموعا كثيرة كانت تهرع إلى المدينة المقدسة أثناء العيد السنوى العظيم . وفى ذلك الزمان وإلى يومنا هذا كان هذا الحشد الزاخر من الحجاج والمتهودين حديثا من كل أمة ومكان يحضرون معهم مختلف الحاجيات العديدة . ان السائح الذى يزور أوروشليم الآن في عيد القيامة يصل إلى أبواب كنيسة القبر المقدس وهو يشق

---

١ - كما أن يوحنا يذكر بجلاء (يو ٧ : ٣ و٤) كرازة اليهودية فكذلك البشيرون يذكرون بوضوح كرازة الجليل . فيهوذا كان يهوديا ، ويوسف الرامى يهوديا ، وكان يسوع معروفا تماما للقوم المجاورين لأوروشليم (مت ٤ : ٢٥ و٢٣ : ٢٧ و مر ٣ : ٧ و ٨ و ٢٢ و ١١ : ٢ و ٣ و ١٤ : ١٤ و ١٥ : ٤٣ - ٤٦) وفى بعض النسخ المعتبرة . (المعرب : ومنها القبطية) . (وكان يبشر فى مجامع اليهودية) لو ٤ : ٤٤ . قال سنداى " ان أقوال البشيرين المختصرة والتى لم تراع فيها الأزمنة حملت يوحنا على ذكر ما تركوه من كرازة اليهودية بتوضيح عظيم " . راجع شهادة بطرس القوية فى اع ١٠ : ٣٧ - ٣٩ .

٢ - أعياد فصح أخر مذكورة فى يو ٦ : ٤ و يو ١١ : ٥٥ . ولو أن العيد المذكور فى يو ٥:١ قصد به عيد الفصح أيضا فاعتبر أن عدد الأعياد المدونة أربعة . وفيما يلى سنجد أن رأى يوسابيوس وتيودورت صحيحا وهو أن كرازة المسيح استمرت ثلاث سنوات وبضعة شهور . وكلمة " فصح اليهود " الواردة فى يوحنا تدل على أنه كتب بشارته بعد أن أوقف الفصح .

٣ - مت ٢١ : ١٢ و مر ١١ : ١٥ - ١٧ و لو ١٩ : ٤٥ يظهر منها أنه يستحيل أن تنصب على حادث واحد . فنتائج الحادثين وجوابه لرؤساء الكهنة الذين سألوه بأى سلطان يفعل هذا مختلفة تماما وأشياء أخر كثيرة تثبت هذا ولا يتسع المجال لذكرها .

طريقه وسط زحام من باعة الذخائر والتحف والتذكارات بل وكل أنواع المبيعات، والذين يفترشون الأرض ويملأون الفضاء الواقع أمام الكنيسة ويزحمون الشوارع المجاورة. ولا شك أن البائعين أو المشترين الذين سدوا الطريق المؤدية للهيكل في عيد الفصح (١) الذى صعد فيه يسوع كانوا أكثر عددا وأعظم ضجيجا لأنهم ما كانوا يبيعون الحلى التى تباع لحجاج اليوم بل كانوا يبيعون الثيران والكباش والحمام. فمن جانبي الباب الشرقي - باب شوزان - إلى باب سليمان قامت دكاكين التجار ومكاتب الصيارفة، وكانت الأخيرة ضرورة لازمة لأنه لعشرين يوما قبل الفصح كان الكهنة يبدأون فى جمع الفريضة المقدسة القديمة أى نصف الشاقل سنويا عن كل اسرائيلى غنيا كان أم فقيرا، فدية عن نفسه. وكانت تخصص هذه الضريبة لخدمة الهيكل [خر ٣٠ : ١١ - ١٦]. فلم يكن قانونيا أن يؤتى بهذه الفدية من أى عملة كيفما كانت بل كانت محرمة خصوصا إن كانت العملة من النحاس الأصفر أو الأحمر المزدراة والمدنسة بصور وثنية أو كتابات كفرية. وكان مسموحا بارسال هذه الفدية إلى الكهنة إلا أن كل يهودى حاضر فى العيد كان يفضل أن يدفعها بنفسه، ولهذا كان مضطرا أن يبدل نقوده إلى العملة المرغوبة أى الشاقل الفضى. وكانت الصيارفة تتقاضى خمسة في المائة عمولة رسمية متفقا عليها.

ولو أن هذه المتاجر أقيمت فى الشوارع المجاورة لكانت هناك بعض المعذرة، وإن لم تكن كل اللياقة. مثل هذه المناظر دونها المؤرخون الوثنيون إذ كانت ترى حول معبد الزهرة على جبل أراكس، وحول معبد الآلهة السورية في هيرابوليس، بل للأسف كانت ترى فى وطننا حول كنيسة القديس بولس (٢). ولكن ليت الأذى

---

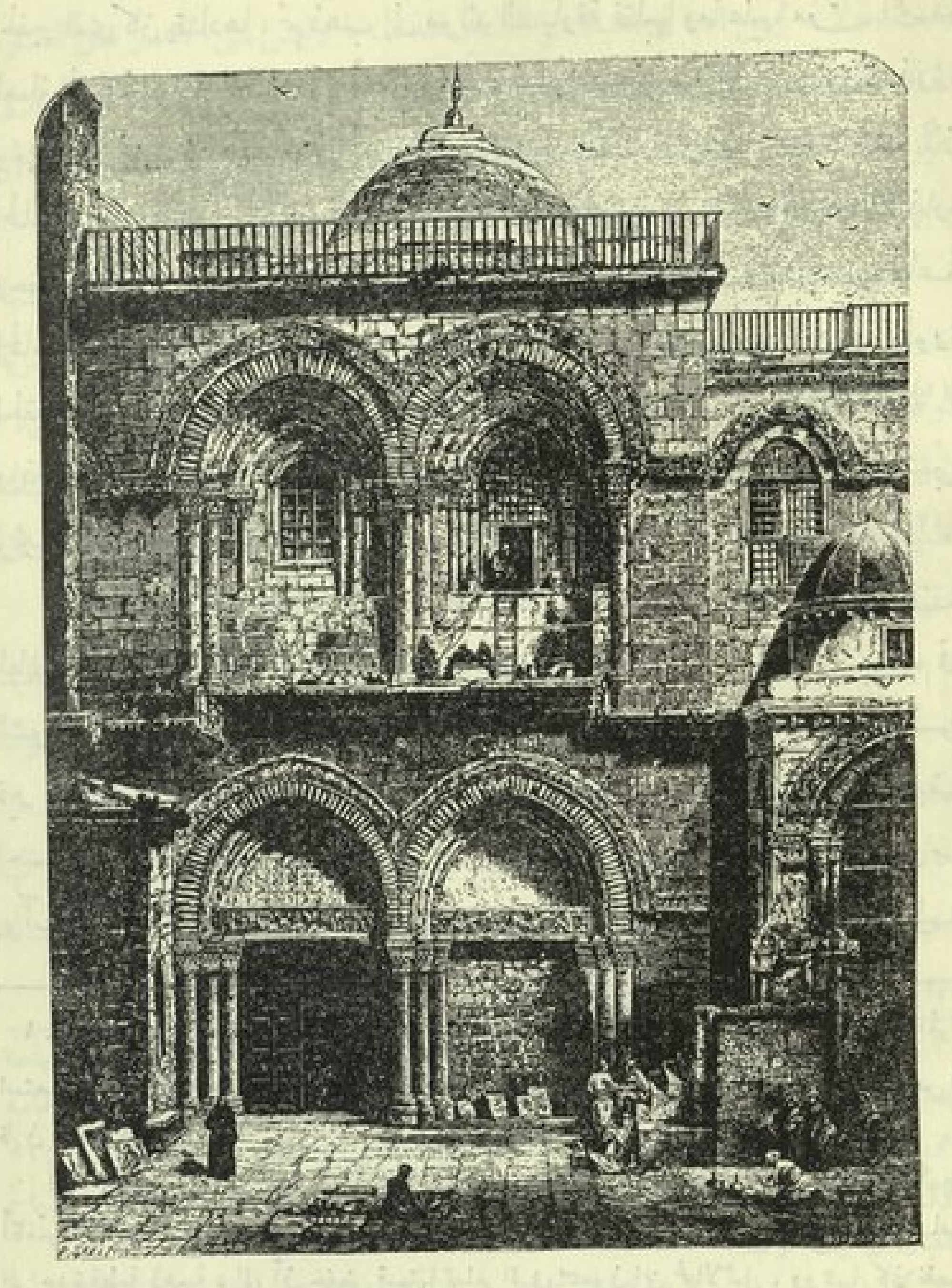
١ - ربما كان هذا الفصح فى أبريل سنة ٢٨ ق.م.

٢ - راجع لوسيان وديكسون (المعرب : لازالت هذه المناظر تذخر حول بعض الكنائس فى المواسم مضاف إليها شتى القبائح والمحظورات) . . .

وقف عند هذا الحد فان رواق الأمم بردهاته العريضة وأقبيته الطويلة كان تجربة كبيرة للجشع اليهودى . فيذكر التلمود أن الربى بابها بن بوطا كان أول من أدخل ثلاثة آلاف رأسا من أغنام قيدار إلى « جبل البيت » ، أى إلى رواق الأمم ، أى داخل الحرم المقدس . وهذا المثل المنكود اتبع بحماس ، وبالتدريج احتلت أخصاص البائعين وموائد الصيارفة ذلك المكان الكريم وأصبح رواق الأمم مبعثا للحرارة القاسية في أيام أبريل ، مفسدا لهواء الهيكل بالروائح الكريهة وأقذار القطعان الكبيرة من الغنم والبقر (١) بينما كان يتحدث أصحابها مع الحجاج ويتساومون عليها . وازدحم الرواق أيضا بباعة الحمام وأقفاصهم الوسيعة المصنوعة من الجريد . وجلس الصيارفه تحت الأقبية المقامة على رباعيات من الأعمدة القورنثية وأمامهم موائدهم عليها أعمدة صغيرة من العملة الفضية ، يحسبون ويعدون ويشتغلون بأقل الأعمال أمانة ، وترقص عيونهم مملوءة من شهوة الطمع . وهذا كان مدخل هيكل الله تعالى ! والرواق الذى كان يجب أن يكون عنوانا بأن البيت يجب أن يكون بيت الصلاة لجميع الأمم قد امتهن حتى صار لقذارته أقرب لمربط البهائم ، وصار لما فيه من التجارة الصاخبة أقرب إلى سوق مزدحم . وكانت أصوات خوار البقر ، وثغاء الأغنام، «وبابل الألسنة» وضوضاء البائعين المتنقلين ، وغوغاء المتخاصمين ، ورنين النقود ، وطنين الصنوج - التي كانت غالبا غير مضبوطة - كانت هذه الأصوات تسمع فى الأروقة المجاورة وتطغى على تراتيل اللاويين وصلوات الكهنة !

فعندما دخل يسوع الهيكل امتلأ بغضب حق ضد كل هذا الامتهان الوضيع ، واشتعل بغيرة نبيلة لا تقاوم ، فصنع سوطا من الحبال الملقاة على الأرض ، ولكى يطهر الرواق المقدس من هذه النجاسات الزرية ، طرد أولا وبالجملة الخراف والثيران والجمع

١ - يقول يوسيفوس أن هيرودس وحده ضحى يوم تكريس الهيكل الجديد ٣٠٠ رأسا من الجاموس وتبعه الجميع كل حسب مقدرته ، ولذلك يستحيل تحقيق عدد الذبائح .



كنيسة القبر المقدس

الخفير الذى كان يقتادها ، ثم ذهب إلى موائد الصيارفة فقلبها وما عليها من أعمدة العملة المختلفة المرتبة باعتناء تاركا أصحابها يتلمسونها ويجمعونها من على الأرض القذرة . وحتى للذين يبيعون الحمام أصدر أمره إليهم بالرحيل ولكنه عمل ذلك بشدة أخف لأن الحمام كان تقدمة الفقير ، وكان فى وجود تلك الرموز المحبوبة للبساطة والطهارة قذارة وحطة أقل . ولم يقلب موائد باعة الحمام لئلا تصاب في أقفاصها . ولكن حتى لباعة الحمام قال بكل سلطان [ارفعوا هذه من ههنا] . ولم يبرر أعماله أمام الجموع المذعورة الحقيرة المتذمرة التى أصابها الضرر إلا بهذا التوبيخ [لا تجعلوا بيت أبى بيت تجارة](١). وإذ رأى تلاميذه هذه القوة من الغضب النبيل القاهر تذكروا ما كتبه داود النبي لرئيس الضاربين على الشوشنيم المخصصين لخدمة ذات الهيكل [غيرة بيتك أكلتنى](٢).

لماذا لم تقاوم هذه الجموع من الحجاج الجهلاء ؟ ولماذا قنع أولئك المساومون الطماعون بنظرات عابسة وسباب مكتوم بينما احتملوا أن تشرد خرافهم وثيرانهم فى الشوارع ، وهم أنفسهم يطردون وتدحرج نقودهم على الأرض من شخص صغير السن غير معروف يرتدى ثياب الجليليين المحتقرين ؟ على هذا النحو علينا أن نسأل كيف احتمل شاول أن يوبخه صموئيل فى وجود جيشه ؟ ولماذا أطاع داود بمذلة كل أوامر يوآب ؟ ولماذا لم يقدر آخاب أن يلقى القبض على إيليا عند حقل نابوت ؟ لأن الخطية

---

١ ـ يو ٢ : ١٥ ان السوط كان للرجال كما للسائمة واضح من كلمة (الجميع) وفى هذه المرة استعمل يسوع كلمة (بيت تجارة) أما فى المرة التالية فقد استعمل تعبيرا أشد (مغارة لصوص) قارن أرميا ٧ : ١٠ و ١١ .

لو ٢ : ٤٩ . نعلم من التلمود أن الحمام غالبا كان يباع أولا على جبل الزيتون فى دكاكين أقامتها عائلة حنان التى ضاعفت المناسبات التى يجب فيها تقديم الحمام حتى أصبح ثمن الحمامة الواحدة قطعة ذهبية ، إلى أن خفض قيمتها تعليم الربى سمعون ابن غمالائيل . وربما كان نقص المكسب الحادث من هذا هو ما جعل هذه التجارة تتسرب إلى أروقة الهيكل .

٢ ـ مز ٦٩ : ٩ . الكلمة الأصلية تعنى " ستأكلنى " .

ضعف ، ولأنه ليس أدنأ فى الحياة من الضمير المذنب ، وليس شىء قاهر مثل القوة الكاسحة للغضب الالهي ضد الانحطاط والاثم . وكيف كان يمكن لباعة ومشترى الحيوانات المتعدين ، والشاعرين بخطأ فعلهم ، أن يقاوموا هذا التوبيخ الصارم أو أن يجابهوا النور المنبعث من هاتين العينين المشتعلتين بالغضب المقدس .

عندما غار فينحاس الكاهن غيرة رب الجنود ، وبضربة واحدة من حربته الغاضبة اخترق جثتى الأمير سمعون والمرأة المديانية . فلم لم ينتقم اسرائيل الخاطىء لتلك الضربة الموفقة ؟ ولماذا لم يصبح كل رجل من قبيلة سمعون منتقما من هذا القاتل البرىء ؟ لأن الرذيلة لا تستطيع الوقوف لحظة أمام ذراع الفضيلة الممدودة . ومع أن أولئك الصيارفة اليهود أدنياء ، التهمت أرواحهم المطامع والغش ، إلا أنهم شعروا من أعماق البقية الباقية من ضمائرهم أن ابن الانسان كان محقا .

ومع أن الكهنة والفريسيين والكتبة واللاويين كانوا كما لو أن الكبرياء والتقاليد قد طمست بصيرتهم ، إلا أنهم لم ينتقدوا عملا نبيلا كهذا كان يعمل مثله نحميا أو يهوذا المكابي ، ويتفق مع ما هو طاهر وحسن فى تاريخهم (١) . ولكن عندما علموا بهذا الحادث أو شاهدوه ثم استفاقوا مما تملكهم من مزيج الاعجاب والكره والاستغراب الذي داهمهم أتوا إلى يسوع ولم يستطيعوا أن يوبخوا ما عمل وانما بشمم جزئى سأله اليهود (٢) أن يريهم آية تدعم سلطانه فيما فعل .

---

١ ـ نجد فى كتاب الربيين مثلا عن اليعازر بن صادوق وكيف وجه إليه التوبيخ بقوة لسماحه بالتجارة فى مجمع ابتناه بنفسه فى الاسكندرية (راجع سبب) ولقد أشار جروفر إلى الحقيقة الهامة وهى أن يوناثان فى ترجمته قد غير كلمة (كنعانى) إلى (تاجر) فى العدد الأخير من زك١٤ : ٢١ (وفى ذلك اليوم لا يكون كنعانى فى بيت رب الجنود) وذلك لشدة كره الأنقياء للسماح بالتجارة فى بيت الرب .

٢ ـ كلمة (اليهود) فى يو ٢ : ١٨ تعنى كما يقصد بها دائما فى بشارة يوحنا " المضادين من اليهود " وهذا التعبير لا يوجد فى باقى البشائر إلا عند ذكر عنوان الصليب " ملك اليهود " وذلك لأن يوحنا البشير بقى حتى بدء حقبة العهد المسيحى فاستعمل كلمة اليهود بما يعنى " الأعداء الألداء للمسيحية " .

كان جواب يسوع بكامل معانيه أبعد ما يكون عن أفهامهم ، وما ظهر لهم منه ملائم من الذهول غضبا ودهشة إذ أجاب يسوع وقال لهم [انقضوا هذا الهيكل (١) وأنا فى ثلاثة أيام أقيمه] .

انقضوا هذا الهيكل ! الهيكل الذى أنفق عليه بإسراف عظيم ملك شهير بغناه ومجده حتى ارتضى اليهود بظلمه وجوره الذي لا يحتمل ، الهيكل الذى احتاج فى بنائه لألف عربة وعشرة آلاف عامل متطوع وألف كاهن فى ثيابهم المزركشة ليضعوا حجارته بعد أن صقلها النحاتون ، الهيكل الذى كان أعجوبة الزمان لأساساته الرخامية الفخمة ، وفسيفسائه الثمينة ، وأخشابه العطرة الرائحة ، وسقوفه اللامعة ، وكرمته الذهبية بعناقيدها المعلقة المحفورة على مدخل الباب ، وسجفه المزركشة المنقوشة بالورود الأرجوانية ، وبهائه الأخاذ المحلى بالفضة والذهب والحجارة الكريمة (٢) . لقد بدأوا العمل فى بنيانه من ست وأربعين سنة ولا زال أبعد ما يكون عن الانتهاء ،

---

١ - يو ٢ : ١٩ (الهيكل) هى الكلمة التى استعملت ومعناها " القدس " وليس " الهيكل " كما فى عدد ١٤ . فلذلك اجابة اليهود للمسيح غير صحيحة فالقدس مع أروقته بنى فى حوالى ثمان أو تسع سنوات . وقد ذكر التلمود أنه حدثت أعجوبة عند بنائه إذ جف فى الحال المطر الذى نزل إذ ذاك فتم البناء .

٢ - راجع الوصف الدقيق المدهش الذى ذكره يوسيفوس . والذي يظهر أن القدس ذاته قد بناه الكهنة فى سنة وستة أشهر . ولكن جواب اليهود تناول الهيكل كله بأعمدته العظيمة وقلعته الملوكية الخ . ويقول يوسيفوس أن هيرودس بدأ الهيكل فى السنة الثامنة عشرة من حكمه أي بين نيسان الأول سنة ٧٣٤ و سنة ٧٣٥ رومانية وهذا يوضح تاريخ أول فصح صعد إليه المسيح وهو سنة ٢٨ أو سنة ٢٩ بعد الميلاد أي سنة ٧٨١ - سنة ٨٧٢ رومانية . وإذ أن الهيكل بدىء ببنائه فى كيسلو فالتاريخ المحقق هو على الأغلب سنة ٢٨ ق . م . وهذا يتفق مع ما جاء فى لو ٣ : ١ إن قلنا أنه يؤرخ من السنة الأولى لحكم طيباريوس كما يحقق لنا من الدلائل القاطعة على العملة وسكها الخ الخ . وكلمة (بنى) هنا تدل على أن العمل كان قد " أوقف " راجع عزرا ٥ : ١٦ ولم " يكمل " إلا فى أيام هيرودس أغريبا الثانى .

وهذا الشاب الجليلى غير المعروف يأمرهم بنقضه وهو يقيمه فى ثلاثة أيام ! هـذا هـو المعنى الظاهرى والحرفى ، والخطأ الذى اختاروا أن يفهموه من كلامه مع انه مدون فى كتب أنبيائهم العظماء أمثلة (١) تشعرهم بوجود معنى آخر مخفى فى الآية التى قالها لهم .

ومما يثبت أن هذه الكلمات تركت عندهم أثرا لا يمحى أنه بعد ثلاث سنوات قد تمسك بها شهود الزور أكثر من كل أحاديثه ، واجتهدوا أن يحرفوها ويقدموها اتهاما له ، بل أكثر من هذا فانها ذات الكلمات التى عـيره بها اللص البائس وهو على الصليب ، ولكنهم اضطروا أن يحرفوها تماما إلى [إنى أقدر أن أنقض هيكل الله وفى ثلاثة أيام أبنيه] مت ٢٦ : ٦١ أو إلى [انى أنقض هذا الهيكل المصنوع بالأيدي وفى ثلاثة أيام أبنى آخر غير مصنوع بأيد] مر ١٤ : ٥٨ ، مع أنه لم يقل هذا بتاتا ولم يستعمل هذه التعابير حتى ان شهادة الزور هذه لم تتفق فسقطت من نفسها . ولكنهم كانوا على علم تام انهم بادخالهم هذا المعنى السياسى الثائر سيجـن الوالى الذى كان يحاكم أمامه . وحقيقة كان حسبانهم هذا موفقا حتى أن مجرد صداه البعيد كان هو السبب الأكبر في استشهاد استفانوس أول الشهداء (اع ٤ : ١٤) اذ اتهموه بأنه نجس الهيكل .

قال يوحنا البشير [أما هو فكان يقول عن هيكل جسده] . وأضاف أن تلاميذه لم يفهموا معنى كلامه تماما إلا بعد قيامته (٢) . وليس هذا غريبا لأنها كلمات عميقة المعنى جدا . وحتى ذلك الوقت لم يكن سوى هيكل واحد للاله الحقيقى ، الهيكل الذى كان واقفا فيه حينذاك ، الهيكل الذى كان يرمز أو الذى كان يؤمن اليهود على الأقل أنه قد أظل « الشكيناه » أو سحابة المجد التى كانت الشاهد المادى الحي على وجود الله في هذا العالم . ولكن روح الله صار يسكن فى هيكل غير مصنوع بالأيدى ، هيكل الجسد المقدس الذى لابن الله المتأنس . وبعد ثلاث سنوات فى يوم البند كوستى العظيم ومن

---

١ ـ قارن اش ٧ : ١١ و ١٤ .

٢ ـ مر ١٦ : ١٠ و هو ٦ : ٢ و اكو ١٥ : ٤ .

بعده إلى الأبد يفضل روح الله القلب المستقيم النقى عن كل الهياكل، وكل رجل مسيحى يصير وهو فى جسده المائت هيكلا للروح القدس . هذا هو المحور الحق والمنحة العظمى للتعليم الجديد، وكان هذا هو الغرض من فراق يسوع لتلاميذه عندما انطلق، وكان خيرا لهم أن ينطلق .

وليس شيء أدهش للعقل الجسدى الذى يسير بالعيان لا بالايمان، وليس شيء أبغض للعقل الفريسى الذى يتعلق بالماديات مثل هذه الحقيقة العظمى أن الهيكل المقدس فى أوروشليم لن يكون له أى امتياز فيما بعد كالمكان الذى يعبد فيه الله، وأنه لن يكون فى الحقيقة الهيكل الأحق . ولو أنهم أرادوا لفهموا بعض الفهم ما قصده المسيح . كان يجب أن يفهموا هذا من صوت المعمدان الذى أعلن أنه المسيا، ويتحققوه مما قاله لهم فيما بعد [هوذا أعظم من سليمان ههنا] أى - أعظم من بانى الهيكل -، وأن يتأكدوه من كلام أحد الربيين فى تفسير نبوة دانيال ٩ : ٢٤ والذى يجب على الأقل أن يعلموه « ان قدس الأقداس الحقيقى هو المسيا نفسه » .

ولكن يوجد دليل آخر - ولو أنه عرضى إلا أنه عميق الأهمية - نرى منه أنهم علموا من المعنى الحقيقى الذى قصده يسوع أكثر مما اختاروا أن يظهروه . فعندما مات يسوع ودفن فى القبر الصخرى ذهبوا إلى بيلاطس يعيدون نفس هذه الكلمات - الكلمات الرسمية الأولى التى خاطبهم بها يسوع - وقالوا له قولهم المشهورة [يا سيدنا إنا تذكرنا أن ذلك المضل قال وهو حى انى بعد ثلاثة أيام أقوم] ونحن نعلم أن يسوع لم يصرح لهم أبدا بمثل هذا الكلام . فان لم يكونوا سمعوا هذا القول من يهوذا أو تناقلتها الشائعة عن التلاميذ، أى انه لو لم تكن [إنا تذكرنا] كذبة صريحة، فانهم ما تذكروا سوى هذه الحادثة . أما سماعهم لها من أحد التلاميذ فغير مرجح بالمرة لأن كلمات السيد هذه مرت على قلوب التلاميذ البطيئة الفهم مثل ريح عابرة، فرغما عن كل ما قاله لهم فما ظهر لهم شيء أبعد احتمالا للحدوث من موته إلا قيامته . فكيف علم

هؤلاء الفريسيون والكهنة ما قصده يسوع أكثر من تلاميذه أنفسهم ؟ ذلك لأنهم لم يكونوا محبين مثل التلاميذ ولا ذوى قلوب بسيطة بعيدة عن الغش ، ولأنهم رغما عن كل معرفتهم وفطنتهم كانت قلوبهم حتى هذه الساعة ملآى بالكره والرفض اللذين أديا إلى صلب المسيح واللذين جلبا لعنة دمه على رءوسهم ورءوس أولادهم .

ولكن كان هناك معنى آخر تحتمله هذه الكلمات ليس أقل منه كراهة فى مذاقه ولكنه مملوء بالتحذير وأقرب لدائرة أفهامهم . كان الهيكل يمثل قلب الشريعة الموسوية وحصن كل المظهر اللاوى ، فنى امتهان هذا الهيكل وسماحهم بامتهـــانه ثم بتركهم من اعتبروه كمعلم جليلى مسكين أن يطهره ، الأمر الذى لم يجرأ أن يتمه أو يعمله قيافا أو حنان أو هليل أو شماى أو غمالائيل أو هيرودس ، إما تغافلا أو جبنا أو حرصا على المنفعة الشخصية . ألم يكن فى هذا معنى نقضهم لهذا الهيكل وإلغاء ذلك الترتيب شاهدين بذات أعمالهم أن معنى الهيكل الحقيق قد انتهى من ناحيتهم ؟ كان يسوع إذن كمن يقول لهم بطريق النبوة والأمر [انقضوا هذا الهيكل] (١) لا تؤخروا عملكم المخرب هذا وأنا فى ثلاثة أيام كالمخلص القائم من الأموات أقيم ما هو أفضل وأعظم ، هيكلا غير مادى ، أقيم كنيسة حية . وهذا هو المعنى الذى يظهر أن استفانوس قد فهمه من هذه الكلمات . وهذا هو المعنى الذى توسع فيه فى جملة مواضع بولس الرسول الذى لا يجارى فى قوة مداركه وشدة غيرته . ولكن حتى عن هذا المعنى وعن كل معنى ، كانوا صما ، عميان ، بلداء . وقد خرجوا صامتين ولكن غير راضين ، مشاكسين ، عندهم بعض المعرفة لكن غير مهتمين بالمعنى الحقيقى ، جهلاء ولكن غضبهم وكبرياؤهم يحولان دون الاستفهام .

ولا ندرى ما هى الأعمال العظيمة التي صنعها يسوع فى هذه الفرصة ، ولكننا نعلم

---

١ - يو ٢ : ١٩ المعنى الأصلى لكلمة (انقضوا) هو " انقضوا حالا " وبالأمر المؤكد . قارن مت ١٢ : ٢٣ .

أنها جعلت بعضا يؤمنون به . أما يسوع نفسه حتى ذلك الوقت فلم يكن يأتمنهم ، ولم يكن محتاجا لشهاداتهم العقلية عن أعماله ، وكان يعلم ببصيرته الالهية ان قلوبهم ما زالت باردة ، قاحلة ، خائنة ، كاذبة (١) .

---

١ ـ يوحنا ٢ : ٢٣ ـ ٢٥ .



الشـــاقل

هذا الرسم يعتبره أعظم العلماء في انجلترا وأوروبا لشاقل يرجع عهده لزمن عزرا الكاتب . على وجه منه قدر المن على شكل كأس فوقه حرف فينيقي هو الألف السامرية للدلالة على السنة الأولى لحكمه (٤٥٧ ق. م.) وحواليه مكتوب بالسامرية "شاقل اسرائيل" محاطة بهالة منمقة . وعلى الوجه الثاني مثال لعصا هارون التي أفرخت زهر اللوز وحواليها مكتوب " أوروشليم المقدسة " . والمقارنة مدهشة بين هذه العملة اليهودية البسيطة وبين نقد البلدان المجاورة مثل اليونان ومصر والقيروان التي تمتاز بجمال المنظر والرسم حتى اننا ندهش كيف سكت هذه القطعة في زمن بلغت فيه الفنون اليونانية شأوها في أيام بركليس . وهذا الشاقل قد وجد وكثير مثله قرب أريحا سنة ١٨٧٤ .



حوض الأردن

الفصل الرابع عشر

نيقوديموس

معلم اسرائيل
يو ٣ : ١٠

تتكون الشيع أو الطوائف غالبا من قوم غلاة فى التعصب ، ومن أتباع غيورين . ولكن يكون غريبا حقا لو خلت أية شيعة ممن يشذ عن هؤلاء . غريبا لو أن الأمانة والاخلاص والتعقل يكون ميتا عندهم كلهم . لذلك قد وجد يسوع حتى بين الحكام والكتبة والفريسيين وأغنياء أعضاء مجلس

السنهدرين ، مؤمنين وأتباعا ، وأولهم وأشهرهم نيقوديموس الذى كان غنيا ورئيسا وفريسيا وعضوا في السنهدرين (١) .

ويتضح لنا من مجمل ما تذكره البشائر أن جبنا طبيعيا كان متأصلا عند نيقوديموس ، جبنا لم يتغلب عليه تماما حتي وقت رغبته الأمينة فى ابداء صداقته واحترامه لمن تحقق أنه نبى ، ولو لم يتضح له أولا أنه المسيا الموعود . لذلك نرى أن الكلمات القليلة التى قالها وقت الحكم على يسوع والتى أودعها ثنيات حديثه ليدفع بها الظلم العجول الذي تورط فيه زملاؤه ، كانت ترتكز على المبادىء العامة ولا تكشف عن ايمان شخصى بذلك الجليلى الذى تحتقره شيعته . وحتى عندما تجلت محبة يسوع على الصليب وصيرت أخوف أتباعه شجعانا لم يتقدم نيقوديموس بهداياه الثمينة الدالة على إخلاصه إلا بعد أن رأى أن غيره من درجة غناه ورتبته ومكانته في الهيئة الاجتماعية - وهو يوسف الرامى - قد سبقه .

فهذا هو الربى الذى كان مزيج الاخلاص ليسوع والخوف من الناس هو الخلق البارز في كل ما نعلمه عنه ، والذى أتى خفية باحتراس إلى يسوع ليلا ، مشتاقا أن يعلم أكثر عن هذا الجليلى ، حريصا جدا فى كلامه حتى انه لم يقبل أن يقر صراحة أن المسيح أتى من الله ، معتقدا أنه رئيس فى شيعته (٢) ويخشى على سمعته وربما على سلامته لو زاره نهارا جهارا .

---

١ - مت ٩ : ١٨ و مر ١٢ : ٢٨ يدعى ستروس أن هذه الحادثة بين نيقوديموس والمسيح اخترعت لتدل على أن أتباع يسوع لم يكن كلهم من الفقراء غير المعروفين ! ولكن آباء الكنيسة المسيحية الأولين كانوا يعتقدون أن فخرهم وليس خزيهم أن الانجيل قد تشرب به الفقراء . (١ كو ١ : ٢٦ - ٢٩) وكتب ايرينيموس بابتهاج " لم تتخرج جماعة المؤمنين من الأكاديميين ولا الجامعيين ولكن من الشعب الجاهل العادي " .

٢ - يو ٧ : ٥٠ و ١٩ : ٣٩ . استعرت بعض الكلمات من رسالة لى عن نيقوديموس فى قاموس سمث . وهذا الاسم فى التلمود " نافيديمون " أى " نقى الدم " أى شريف الحسب ، ويقول التقليد

ولو أنه قد أشير بكلمات قليلة فقط أثناء ذكر التعاليم السامية التى أفضى بها إليه يسوع إلا أن الأثر الذى تركته لنا شخصيته واضح ثابت ، وخارج بالتأكيد كلية عن دائرة الاختراع . فملاحظته الأولى ذاتها تظهر لنا حقيقة عقليته غير الصريحة ، وطريقته فى ايحاء ما يريده دون التصريح به ، ورغبته المتأججة للسؤال وفى الوقت ذاته تلكؤه الرجعى فى صوغ سؤاله ، والتسليم بأن يسوع قد أتى [من الله] ، ثم فى الوقت ذاته ادخال الملاحظة المترددة انه أتى [معلماً] فقط ، ثم السؤال المضمر ماذا ينبغى أن أعمل ؟

رأى السيد عمق قلبه فترك كل ما اصطلح عليه العرف وأهمل مناقشة أوليات الأحاديث وفاجأه دفعة واحدة بخطاب حازم وقرر [الحق الحق أقول لك ان لم يولد الانسان من فوق فلا يقدر أن يعاين ملكوت الله] . يجب على تلميذى أن يكون لى قلبا ونفسا وإلا فلا يكون لى تلميذا قط . فالسؤال ليس أن « يعمل » أو « لا يعمل » بل أن « يكون » .

وهذه الاجابة أثارت فى نيقوديموس حماسا شديدا ولكنه كاليهود فى الفصل السالف (يو ٢ : ٢٠) لم يقدر أو لم يشأ أن يفهم معناها الكامل . وفضل أن يتلاعب بطريق مشاغب مدهش حول المعنى الحرفي للكلمات التى اختار أن يحور معناها إلى أمر مادى للغاية بعيدا عن العقل . ولم يقف يسوع ليفند هذه المزاعم بل أوضح

أنه بعد القيامة — وهى الحافز الذى أولاه الشجاعة وثبت إيمانه — أصبح تلميذا للمسيح علانية واعتمد من بطرس ويوحنا ، فحرمه اليهود من وظيفته وجلدوه وأخرجوه من أورشليم ، وان أحد أقرباءه غمالائيل قبله وآواه فى منزله الريفى حتى وفاته حيث دفن باكرام بالقرب من جثمان القديس اسطفانوس وان كان هو ناقيديمون بن جوريون الوارد فى التلمود فيكون قد عاش إلى ما بعد سقوط أورشليم ، وتكون عائلته قد ذاقت بعد الغنى وان ابنته التى دفع لها عند زواجها بائنة قدرها ١٢٠٠٠ دينار قد رؤيت بعد ذلك تجهد فى أود حياتها بالتقاط الحبوب من روث البهائم فى الصحارى .

تحذيره المتقدم المتكرر بوميض جديد ، فلم يتكلم عن الميلاد اللحمى ولكن عن التجديد الروحي الذى لا يمكن أن يعلم إنسان عن كيفيته أو طريقه ، كما لا يمكن حصر طريق نسيم الليل الذى يعلو ويهبط ويهمس بلطف خارج الجناح الذى جلسا فيه (١) . كلمه يسوع عن التجديد الروحى الذى يجب أن يكون ولادة من الماء والروح وغسلا أو تطهيرا ، أى علامة خارجية ونعمة داخلية ، موتا عن الخطية ، وولادة جديدة في الحــــق .

أما نيقوديموس فلم يستطع أن يجاوب سوى بتعجب وارتياب إذ ظن أنه قد يجوز أن يحتاج الأممى إلى ولادة جديدة عند اعتناقه اليهودية ، ولكن وهو ابن ابراهيم الربى الحريص على حفظ الناموس هل يحتاج لهذه الولادة ؟ كيف يمكن أن تكون هــذه الأمــــور ؟

أجاب يسوع [أنت معلم اسرائيل ولا تعلم هذا] أنت العضو الثالث فى السنهدرين ! أنت الحاخام أى الرجل الحكيم ولا تعلم أول وأبسط درس للدخول فى ملكوت السموات ؟ إن كانت معرفتك جسدية ومحدودة ، وإن كنت تعثر على العتبة ، فكيف يمكن أن تفهم الحقائق العويصة التى لا يمكن أن يعلمها إلا من أتى من السماء ؟ وقد انطوت كلمات السيد على الحزن والتوبيخ . ولكنه استمر يظهر لمعلم اسرائيل هــذا أمورا أعظم وأغرب ، إذ أظهر له أن خلاص الانسان يتم بآلام ورفع ابن الانسان (٢) وأن محبة الله قد أعلنت فى إرسال ابنه الوحيد لا ليدين العالم بل ليخلص العالم ، وأن

---

١ - جوهر التمثيل واضح من استعمال اللفظة اليونانية الدالة على " النسيم " لا " الريح " أما الكلمة العبرانية فتدل على كلمة " الريح " و " الروح " وهذه هى المرة الوحيدة التى استعملت الكلمة اليونانية بمعنى النسيم فى العهد الجديد (قارن تك ٨ : ١ و حكمة ٥ : ٢٣ و عب ١ : ٧) والأخذ بالآية (الروح يهب حيث يشاء) يضعف المعــنى وعليه فالأصح هو (الريح تهــب حيث تشـاء ...) .

٢ - يو ٣ : ١٤ يرفع تدل على المعنى الحرفى والرمزى ، يرفع على الصليب ويعلى فى الملكوت . قارن تك ١١ : ١٣ و يو ١٢ : ٣٢ ؛ وقارن أيضا لو ٥ : ٣٥ .

الخلاص هو بالايمان به ، والهلاك للذين يرفضون بعناد الحقائق التي أتى ليعلنها .

كانت هذه أسرار ملكوت الله وهى حقائق لم يحلم بها ولكنها أعلنت للناس ، وإن كانت قد تعدت كل تقليد وأبعدت كل رجاء وقتى لذلك المستفسر المسن ، حقائق لكى يتعلمها يجب أن ينسى طريقة تفكيره وما اعتاده من تجاريب ، حقائق نعلم من مجرى الحوادث التالية انه رغم عدم فهمه لها تماما قد نقشت عميقا على روحه الداخلية . ولا شك ان ظلام الليل ازداد قتاما ويسوع ومعلم اسرائيل (١) يناقشان أسرار ملكوت الله . وفى الكلمات الخالدة عن النور والظلام التى اختتمت بها المحادثة وبخ يسوع بلطف الخوف من الناس الذي دعى ذلك الربى العظيم أن يحتمي بانتصاف الليل فى أداء عمل ليس من أعمال الظلمة فيحتاج إلى الخفاء ، ولكنه كان في الحقيقة مجيئا إلى النور الحقيق والوحيد .

لم نعط تفصيلات عن أى دروس أخرى فاه بها يسوع أو آيات صنعها فى المدة الباقية من فترة هذا الفصح الأول . وإذ وجد السيد معارضة غليظة خرقاء ترك أوروشليم وجاء هو وتلاميذه [إلى أرض اليهودية] ، ربما إلى ضفاف الأردن لأن يوحنا البشير يخبرنا أن تلاميذه بدأوا يعمدون (٢) . كان ذلك الوقت زمان استعداد ، وإلى ذلك الزمان كان تدشين ارساليته ـ لو سمح لنا بهذا التعبير ـ أمرا خاصا اختباريا . ولقد فتش اللاهوتيون فى مختلف وشتى وعميق التفاسير لمعمودية التلاميذ هذه ولكن لا شيء من كل ما تخيلوه يلقى ضياء على هذا الموضوع ، ولكننا نعتقد فقط أن يسوع

---

١ ـ " معلم اسرائيل " فى الغالب تدل على التخصيص فان رئيس السنهدرين كان يدعى " الناصح " ونائب الرئيس كان يدعى " أبا بيت القضاء " والعضو الثالث وكان يجلس عن يسار الرئيس كان يدعى " الحكيم " أى الحاخام أى " معلم اسرائيل " . وقد يجوز أن تدل على التصميم فيكون معناها " أحد معلمى اسرائيل " قارن غلا ٤ : ٢ .

٢ ـ لم يكن يسوع يعمد بنفسه وقد تكون أسباب ذلك مشابهة للتى منعت بولس الرسول من أن يعمد وإن لم تكن أكثر عمقا وأشد حزما .

سمح بهذا التقليد الجميل (١) إلى وقت ما كعلامة للتلمذة وكرمز ظاهر للرغبة فى نقاوة القلب ، الأمر الضرورى لكل الذين يطلبون دخول ملكوت السموات .

كان يوحنا المعمدان إلى ذلك الحين مستمرا فى معموديته التى للتوبة ، وهنا أيضا صادف اللاهوتيون صعوبة كبيرة خافية ، ودخلوا فى مباحث فنية منظمة عن العلاقة التى بين معمودية التلاميذ ومعمودية يوحنا . ولكن لا يمكن استخلاص شيئا من هذه المناقشات . وإذ أن تبشير المسيح فى كامل قوته لم يكن قد بدأه بعد فقد كانت معمودية يوحنا وكذلك معمودية التلاميذ علامة للتوبة والطهارة . ولن يستغرب أحد ممن يعتقدون أن التوبة هى الشقيق الأصغر للطهارة ، وانها روح الحياة للخطاة . إن بدء كرازة يسوع كانت مثل يوحنا [توبوا لأنه قد اقترب منكم ملكوت السموات] (٢) . حقيقة إن زمان الاستعداد لم يكن قد انتهى بعد ولكنه كان يقترب من النهاية ، فكانت معمودية التلاميذ ايذانا بفترة الظهور وافتتاح الكرازة . ويدل انقطاع يوحنا عن الوعظ في البرية أو التعميد فى بيت عنيا وشعوره أنه من المناسب أن ينقص وإن ذاك يزيد ثم تركه الأردن مجال مجده ونجاحه القصير ، هذا يدل على ابتداء أفول « نجم فجر الانجيل » ، أى يوحنا المعمدان المتواضع الذى يتبين المرء فى ثنايا حديثه رنة من الحزن ، وانه قد خضع بكل رضى كامل لأرادة الله في انهاء ارساليته القصيرة المتقطعة .

وانتقل يوحنا إلى عين نون قرب ساليم وهو مكان غير محقق بالمرة ولا يمكن الجزم بموقعه تماما (٣) . وأتى بعضهم أيضا لهذه المعمودية وإن كان غالبا بعدد أقل لأن

---

١ - يعتقد ايوالد أن معمودية التلاميذ تختلف عن معمودية يوحنا فى أمرين (١) أنها كانت موجهة للمسيح الذى شهد له يوحنا (٢) وكانت للدخول لا إلى التوبة المؤلمة ولكن إلى حياة من الحب والفرح الالهى . (المعرب : يتكلم المؤلف عن معمودية التلاميذ قبل الصلب أما سر المعمودية فقد رتبه الرسل فيما بعد .

٢ - مت ١٨ : ٣ و مر ١ : ١٥ .

٣ - يحدد ايرنيموس وأغلب الباحثين مكانه قرب بيت شيان أوسيكوبوليس فى وادى الأردن حيث توجد خرائب تدعى ساماياس وعين ماء . ولكن يباعد هذا الرأى أن هذا المكان

أكثر الجمع جرى وراء معمودية تلاميذ المسيح . ولكن الغيرة غير النبيلة التى لم تظلم روح المعمدان النيرة وجدت مكانا رحبا فى قلوب تلاميذه ، ولا ندرى كم من الزمن اتقدت تحت الرمضاء ولكنها ظهرت علانية وقت المناظرة الناجحة من أن هذين المعلمين العظيمين والذى شهد أحدهما للآخر أنه المسيا الموعود به كانا يعمدان جماعات عظيمة ، مع أن السنهدرين وكل السلطات المسئولة فى الأمة قد أعلنت الرأى ضد ما يدعيان . وحدث أن بعض اليهود أغاظوا تلاميذ يوحنا فى مناظرة بشأن التطهير فأتوا بعواطفهم الحائرة الكسيرة إلى معلمهم العظيم قائلين [يا معلم الذى كان معك فى عبر الأردن الذى أنت شهدت له هاهو يعمد والجميع يقبلون إليه] . وحذف الاسم عمدا له معناه ، ولهجة الحنق ضد ما عدوه افتئاتا ، والاشمئزاز المكبوت من أن شخصا آخر يكون مناظرا ناجحا لذلك الذى هزت كلماته وقتا ما قلوب الرجال ، كل هذا ظاهر فى هذا السؤال المخاصم . وتجلت عظمة يوحنا الكامنة فى إجابته النبيلة . لم يدخل في منافسات تكون خيانة ضد اعتقاده العميق وتكون تكذيبا لكلماته الجليلة ، بل أظهر لهم أن الله هو النبع الوحيد لكل المواهب ، وأن أمام عينى الله لا تعد العظمة البشرية شيئا . وذكرهم بتأكيداته أنه ليس يسوع ولكنه مرسله . ليس هو العريس بل صديق العريس ، وأن قلبه قد فرح الآن فرحا عظيما عندما سمع صوت العريس ، وانه قانع منذ الآن أن ينقص ، بل وراض أن يتلاشى ضوءه الضئيل فى نور الصبح الذى لا يحد إذ لم يكن سوى رسول أرضى . ولكنه ختم إيمانه بكل ايقان أكيد أن الله صادق ، وأنه قد أعطى كل شىء للابن ، وانه بالابن فقط نربح الحياة الأبدية .

يقع فى حدود السامرة . ووجد روبنصون بلدا اسمه سالم شرق نابلس ووجد آخرون مكانا قرب حبرون (قارن يشوع ١٥ : ٣٢) وآخرون وجدوا " وادى سالم " خمسة أميال شمال شرق أوروشليم . وطبعا عدم تحديد المكان لا يهم كثيرا فى ايراد الخبر . وتسمى أيضا " عين نون " .



جبل جرزيم

الفصل الخامس عشر

المرأة السامرية

أتشتهى الصلاة فى هيكل ؟ صل فى ذاتك
ولكن كن أولا هيكلا لله . أوغسطينوس

ربما كان اليهودى الذى أثار المناقشات التى أثرت عميقا فى تلاميذ يوحنا فريسيا عظيما . وقد تيقن السيد أن الفريسيين كانوا يراقبون أعماله بعين عدائية ، وكرههم ليوحنا كان بالحرى كرها أعظم له ، لأن تعاليمه صادفت نجاحا أكثر . ولهذا السبب ، أى الاصرار على رفض ما ابتدأ أن يعلم به ، وربما أيضا

مراعاة لمشاعر أتباع يوحنا الجريحة ، ولكن بالأكثر لأنه فى ذلك الوقت وصلته أخبار أن هيرودس انتيباس قد ألقى القبض على يوحنا وأودعه السجن ، ترك يسوع اليهودية ويمم شطر الجليل (١) . وإذ كان في شمال اليهودية فقد اختار الطريق الذى يجتاز السامرة . ولم يقم وزنا للتعصب والكره اليهودى ، ولا لخوف الفريسية من النجاسة ، ذلك الخوف الذى كان يحدو بمواطنيه أن يتنكبوا هذا الطريق إذا سافروا فرادى ، فهذه أمور لا يشجعها يسوع ولا يقرها .

وابتدأ فى الصباح الباكر لتتوفر له فى السفر ساعات أكثر من وقت الصباح العليل الهواء . وأخيرا وقف للراحة واسترداد القوى بالقرب من سيخار (٢) ، ليس بعيدا عن البئر التى فى الأقليم الخصب الذى منحه أبو الآباء يعقوب محاباة لابنه المحبوب. وكانت البئر ككل الآبار المستعملة في الشرق مظللة بخميلة صغيرة تحتها مقاعد حجرية .

كانت ساعة الظهيرة (٣) وإذ كان تعبا من طول المسير وربما أيضا من اشتداد الحر[جلس كذلك على البئر]. والتعبير الأصلى يصور الأمر جليا، ويتضح منه أن المسيح بعد هذا السير الطويل كان على أشد التعب ، وإذ كان منهوكا ألقى رجليه على المقعد تائقا للراحة الكاملة . وقد تركه تلاميذه والغالب أنهم كانوا أوائل من اختارهم وهم بطرس وأخوه أندراوس ويوحنا وأخوه يعقوب ، والصديقان فيلبس وبرثولوماوس ،

---

١ ـ السببان الأولان يذكرهما يوحنا (٤ : ٢و٣) والأخير ذكره مت (٤ : ١٢) ومر ١ : ١٤ وهما يجعلان سجن يوحنا بدء الكرازة فى الجليل بينما يوحنا يذكر الأسباب الأخرى .

٢ ـ سيخار مدينة أقرب للبئر من شكيم فى مكان القرية المسماة "العسكر" والتى يظن طومسون أنها تحريف "لسيخار" واشتقاق الكلمة قد يكون معناه "التعقل" أو "كذبة" دلالة على العبادة غير الحقيقية فى جرزيم أو سيخور أى "مخمور" .

٣ ـ يجب أن أكرر هنا أننى لا أرى سببا وجيها للظن بأن يوحنا البشير يستعمل توقيتا غير التوقيت العادى . ولو كان يقصد الساعة السادسة مساء لذكر ذلك صراحه ولكانت نسوة كثيرات عند البئر والواقع أن البشير عد الساعات من بعد طلوع الشمس كما كان يفعل البشر إلى الجيل الخامس.

ذهب هؤلاء جميعا إلى المدينة المجاورة ليشتروا ما كانوا فى احتياج إليه ، بينما مكث ذلك الذى حمل كل أوجاعنا عطشانا وجوعانا ، ينتظرهم تعبا ، وإذا السكون قد قطعه مجىء امرأة .

إن حر الظهيرة في فلسطين فى شهر مايو شديد لا يحتمل (١) ، ولكن ليس للدرجة التى يمتنع فيها السير . وقد جاءت هذه المرأة لتستق ماء فى هذا الوقت إما مصادفة ، وإما لأن سيرتها لم تكن نقية تنكبت الساعة (٢) التى يزدحم فيها البئر بكل نساء القرية وقد أتت إلى هذه البئر بالذات بدلا من أى نبع أقرب ، ربما بدافع الحماس الوطنى والاحترام ليعقوب رئيس أمتها العظيم ، أو ربما لزيادة عذوبة ماء هذه البئر وبرودته ، والماء فى الشرق ليس فقط حاجة ملحة ولكن أيضا ترفيه ملذ ، ومواطنو فلسطين خبيرون بأنواعه .

وحيا يسوع مقدمها . حقيقة كان منظر ذلك الوادى الأخضر ، وحقول الحنطة التي تمتد وسيعة بعيدة ، وظلال الأشجار الوارفة ، والكتلتين المستديرتين لجرزيم وعيبال تعلوان على الجانبين ، كل ذلك كان يوحى بتأملات الوحدة الممتعة . ثم ما يحيط بتاريخ هذه البقعة المقدسة كقصة يعقوب وقرب قبر يوسف وذكريات يوشيا وجدعون وسلسلة الملوك الاسرائيليين الطويلة ، يوفر مادة عظيمة للتأملات ، ولكن

---

١ - لا يمكن تحديد وقت هذه الحادثة بالضبط فالذين يرتكنون على يو ٤ : ٣٥ حرفيا يظنون أنها كانت فى ديسمبر والذين يرتكنون على عدد ٣٦ حرفيا يظنون أنها وقعت فى مايو ولا شك أن أحد التوقيتين كان مجازيا . فأى منها هو كذلك ؟ وكل ظن محوط بالصعوبات ولكن إذ أن زمن التعميد كان قصيرا جدا ، وأن عيد الفصح كان فى تلك السنة فى ابريل فهناك ظل من الترجيح أنها حدثت فى مايو . فان كان هذا فيكون (ألستم تقولون أنه بعد أربعة أشهر يأتى الحصاد) تعبيرا مثليا يعنى به متوسط الوقت الذى يمكثه البذار فى الأرض من الزرع إلى الحصاد . ولهذا التعبير أمثلة عديدة فى الأدب العبرانى .

٢ - تك ٢٤ : ١١ .

السيد كان تعبا وعطشانا ولا وسيلة عنده للوصول إلى الماء البارد المتألق عميقا عن فتحة البئر ، ولذلك بادر المرأة قائلا [اعطيني لأشرب] .

كل من سافر في الشرق يعلم المسرة والسرعة فى اجابة هذا الملتمس ، فالفلاح المسكين وحتى البدوى الغليظ يجدان سرورا أكيدا فى اشراك المسافر العطشان فى هذا العنصر المجانى ، ولكن الكراهية والمنافسة كانتا مميتتين بين اليهود والسامريين (١) حتى انتفى الحديث العادى بينهم تماما . لذلك أبدت المرأة السامرية دهشتها من تقديم هذا الطلب .

أجابها السيد بلطف وبدون توبيخ انها لو علمت عطية (٢) الله ومن هو الذى طلب منها أن تعطيه ليشرب لكانت هى التى تسأله فيعطيها ماء حيا . فأشارت المرأة إلى البئر (٣) وعمقها حوالى مائة قدما ، وقالت لا دلو لك فمن أين لك الماء الحى . وربما

---

١ - يو ٤ : ٩ . واجع عزرا ٤ : ١ وقد تكلم السيد عن السامرى بأنه "غريب الجنس" لو ١٧ : ١٨ . وكان اليهود يسمونهم "كوثيين" ويقرنون "السامرى" مع "الشيطان" ويتهمونهم بعبادة الآلهة الغريبة والأقراط التى طمرها يعقوب تحت البطمة (تك ٣٤ : ٤) ويلعنونهم فى مجامعهم ولا يسمحون لهم أن يتهودوا ويشبهون من يأكل خبزهم بمن يأكل لحم الخنزير . وينكرون عليهم القيامة ، ويتهمونهم بسلب اليهود وقطع الطريق عليهم وتضليلهم بعلامات نارية كاذبة ، وأنهم قد نجسوا الهيكل إذ ذروا عظاما فيه . وقد سأل سلامه كوهين رئيس أحبار السامريين الدكتور فرانكل قائلا "أنت يهودى ؟ وتأتى إلينا نحن السامريين المبغضين من اليهود ؟ وقال فرانكل انهم يتمنون أن يعيشوا فى صداقة مع اليهود ولكن اليهود يترفعون حتى عن مكالمتهم" . ولما ذهب إلى نابلس سأل واحدا من اليهود ان كان قد خاطب سامريا ؛ فسألته هو احدى النسوة ان كان قد تكلم هو مع سامرى ؛ فلما أجاب بالايجاب تراجعت النسوة بخوف واشمئزاز وقالت له احداهن "أكنت بين عابدى الحمام . اذن تطهر بالاستحمام" . وقد كان للمؤلف الحظ أن يحضر العيد مع السامريين على جبل جرزيم ولم يجد لا فى عوائدهم ولا فى أخلاقهم الظاهرة ما يدعو للخوف أو الكراهية .

٢ - عطية الله تعنى قبل كل شىء عطية الله العامة المجانية أى الماء .

٣ - بئر يعقوب وهى أحد الأماكن القليلة فى فلسطين التى يمكن القول بشكل ترجيح وبتقليد

بابتسامة ارتياب ونخر وطنى ـ سألته إن كان أعظم من أبيهم يعقوب الذى حفر هذه البئر وشرب منها (١) . ولكن بالتأكيد كان شيء فى كلامه جعلها تدهش وتخاف لأنها الآن



بئر يعقــوب

متفق عليه بالاجماع أن المخلص قد أتى إليه . وبالقرب منها يوجد نبع ماء جار عذب ومجاورة هذا النبع للبئر التى تعب يعقوب فى حفرها إلى عمق كبير يظهر جليـا مقدار تشككه وارتيـابه فى معاملته لجيرانه الكنعانيين . والبئر الآن جافة ولا يرى منها سوى حفرة عمقهـا حوالى ٢٠ قدما أما البئر ذاتها فطمورة ببقايا المواد الحجرية التى بنيت منها المظلة . وقد نزل الكابتن أندرسون إلى عمق ٧٥ قدما وربما كان العمق الأصلى ضعف ذلك .

١ ـ يقول يوسيفوس أن السامرى كان يفخر أنه من نسل يعقوب فى زمان نجاح اليهود ثم هو ينكر هذه العلاقة اطلاقا إذا ما حلت باليهود محنة . وقد دعاهم ابن سيراخ "الشعب الأحمق" ويظن

تخاطبه بلقب الاحترام [ياسيد] الذى خلا منه حديثها الأول .

ولم تكن حرفية إجابتها القاسية لتحول دون اتمام حديث السيد معها بل قابل غباوتها القليلة التصور بما قابل به نيقوديموس المعلم ، بأن رفع أفكارها إلى أعلى وإلى منزلة أسمي . كانت تفكر فى الماء العادى الذى كل من يشرب منه يعطش أيضا ، وهو يتكلم عن الماء الذى يعطيه ومن يشرب منه يكون فيه ينبوع ماء يطفىء الظمأ إلى الأبد ويفيض حياة أبدية (١)

أصبحت الآن هى السائلة . طلب منها معروفا بسيطا فتلكأت أو رفضت نصف رفض . وهو الآن يعرض عليها عطية أبدية فتيقنت أنها فى حضرة عالية وتضرعت من أجل هذا الماء الحى ، ولكن أيضا بنفس ضيق التصور غير الروحانى . فهى تطلب لكى لا تعطش ثانية ولا تعود تستق أبدا .

ولكن كفى الآن ما قيل لايقاظ وتعليم تلك الغريبة البائسة ، فأنهى يسوع فجأة ذلك الجزء من الحديث وأمرها أن تدعو زوجها وتعود . ولا يمكن الافصاح عن كل ما جال بخاطره عندما ألقى عليها هذا الأمر . ربما يكون هذا مراعاة للعادات الخالدة فى الشرق أو يعتبر غير لائق - إن لم يكن خطأ محضا - أن يحادث رجل - سيما إن كان هذا الرجل معلما - امرأة غريبة ، وربما أيضا لكى يكسر قلبا حجريا ويوقظ ضميرا نائما ، إذ أنها اضطرت أن تعترف بألا زوج لها ، والسيد وهو يؤكد برهبة إقرارها المحزن كشف لها سر حياتها الفاجرة الخليعة [لأنك تزوجت خمسة أزواج والذى معك الآن ليس هو زوجك] (٢) .

وتبين أن هذا تلاعب جناس من كلمة "مورة" (أمتان مقتتهما نفسى والثالثة ليست بأمه الساكنون فى جبل السامرة والفلسطينيون و « الشعب الأحمق » الساكن فى شكيم - ابن سيراخ ٥٠ و٢٦ و٢٧).

١ - قارن اش ١٢ : ٣ . ٢ - كيم وغيره يظنون أنه لا جدال أن هذا التعبير مجازي يقصد به الاشارة إلى الديانات الخمس التى أتى به الأسيويون إلى السامرة ثم إلى اليهودية الخليطة التى نجمت

رأت أن الذى أمامها نبى. ولكن بدلا من أن تناقش معه حقائق تاريخ حياتها - وطبعى ما كانت تحب أن تتوسع فيها - طار عقلها المتنبه إلى ذلك السؤال العظيم القائم بحماس قتال بين أمتها وبين أمة ذلك الذي تحادثه ، السؤال الذى هو أساس العداوة المميتة التى يتبادلونها . وها قد رأت أن الصدفة قد أوقعتها فى صحبة معلم عظيم. أليست هذه فرصة مناسبة لكي تصغى إلى الأبد تلك المنافسة الكبيرة القائمة بين اليهود والسامريين ؟ هل أوروشليم أم جرزيم حيث نطق يشوع بالبركة وحيث أراد ابراهيم أن يقدم ابنه ذبيحة ؟ (١) ثم أشارت إلى قمة الجبل المرتفع نحو ثمانمائة قدم وإلى بقايا هيكل منسى الذى خربه هيركانوس وسألت سؤالها المشكل [آباؤنا سجدوا على هذا الجبل وأنتم تقولون أن مكان السجود فى أوروشليم حيث يحل السجود] .

وحل يسوع مشكلتها الراهنة باختصار وبطريق المقارنة. فاليهود دون السامريين كانوا بلا نزاع محقين ، لأن أوروشليم هى المكان الذى اختاره الله ، واليهودية ديانة حقة وطاهرة (٢) سيما إذا قيست بالعبادة الخليط الناقصة التى للسامريين . ولكن بعد أن

عن تدخل هذه الديانات . ويستحيل أن يكون المقصود من هذه الآية ذلك المعنى الغريب الذى يتوهمونه . فلو أن الأناجيل لا تفهم سوى من أولئك القادرين على حل هذه المعضلات لخير لو أهمل درسها بالمرة !

١ - تث ٢٧ : ٤ قارن تك ٧ : ٧ و ٣٣ : ١٨ و تث ١٢ : ٥ و ١١ : ٢٩ . وراجع ستانلى ويوسيفوس . بعضهم يرى فى سؤال المرأة الرغبة فى تغيير مجرى الحديث لابعاد الأمور الشخصية التى قد يجر إليها ومع أنه لا توجد دلائل على أن ضميرها قد تحرك لدرجة أن تعمل هذا ، فأننا نجد لمسة من المسرة الفائقة والخضوع الكامل .

٢ - يو ٤ : ٢٢ (أما نحن فنسجد لما نعلم لأن الخلاص هو من اليهود) لاحظ البعض أن هذه الجملة تدحض الادعاء بأن المهتدى الأسيوى هو كاتب الانجيل الرابع كما يزعم أتباع « بور » . ونلاحظ أن كلمة " نحن " بهذه الصيغة هى المرة الوحيدة التى تكلم بها السيد هكذا . وأقرب تعبير يشابهه هو ما ورد فى مت ١٥ : ٢٤ و ٢٦ وقد حفظ لنا يوسيفوس الحقيقة المستغربة أنه حتى زمن الاسكندر لم يكن لهيكل جرزيم اسم ، وأن السامريين عرضوا على انتيوخوس ابيفانس أن يكون على اسم جوبيتر هللينوس .

فض هذا الاشكال الأرضى الزمنى نطق بنبوته العظيمة الخالدة بأن الساعة آتية بل هى الآن حيث لا على هذا الجبل ولا فى أوروشليم يسجد الساجدون الحقيقيون للآب بل في كل مكان بالروح والحق ينبغى أن يسجدوا .

وحقا قد تأثرت المرأة تأثرا عميقا ، ولكن أنى لها أن تقدر لمجرد كلام عرضى مع غريب غير معلوم على ترك إيمانها المتأصل الذى فيه ولدت ونشأت هى وآباؤها؟ فتنهدت مؤجلة البت النهائى فى هذا الأمر ، وفى كافة الاشكالات الأخرى إلى مجىء المسيا(١) .

وعند ذلك قال لها يسوع تلك الكلمات البسيطة الرهيبة [أنا هو الذى أكلمك] .

أول اعلان عن ميلاده كان ليلا ، ولقليل من الرعاة الجهلة المجهولين . وأول اعلان كامل واضح صرح به بنفسه انه المسيح كان فى الظهيرة القائظة جوار بئر ، ولامرأة سامرية مجهولة . ولهذه الغريبة الخاطئة المسكينة الجاهلة قد نطق بكلمات قيمتها لانهائية إذ أنصتت لها كل الأجيال التالية بخشوع ، جاثية حابسة الأنفاس .

من يقدر أن يخترع أو حتى يتخيل أمورا مثل هذه أبعد ما تكون عن أفكار النـــاس ؟

وهنا قوطع الحديث لأن التلاميذ - وضمنهم كاتب الخبر - رجعوا إلى سيدهم . كانت بئر يعقوب محفورة على قطعة عالية من نتوء فى جبل جرزيم القائم فى سهل خال لاتظلله ولاتعترضه أشجار أو مبان ، فمن بعيد رأى وسمع التلاميذ سيدهم يتحدث طويلا وجديا مع شخص على انفراد ، رأوه وهو اليهودى الربى يتكلم مع امرأة (٢) ، وهذه

---

١ - لم تكن الآمال فى المسيا مؤسسة على الأنبياء التى يرفضها السامريون ولكن على مثل ما جاء فى تك ٤٩ : ١٠ و عد ١٦ : ٧ و ١٧ و تث ١٨ : ١٥ .

٢ - يو ٤ : ٢٧ كان يتكلم (مع امرأة) وليس مع المرأة . والتكلم مع امرأة علانية كان احدي الأمور الستة التى لا يجب أن يعملها الربى « حتى ولو كانت زوجته » كما يقول الربى هيسدا . وهنا تشابه غريب بين الفريسية والبوذية التى تحرم ليس النظر أو الكلام فقط ولكن حتى مد اليد للأم التى تغرق .



سيخار

المرأة سامرية ، وهذه السامرية خاطئة ! لكنهم لم يقـــدروا أن يقولوا شيئا له ، ولم يقدروا أن يسألوه ، فشعورهم بعظمته وبالهيبه والثقة اللتين ينفثهما مجرد وجوده ، أزال كل الشكوك الصغيرة ونظرات الاستغراب .

وفى الوقت ذاته أسرعت المرأة وقد نسيت جرتها - فى دهشتها الشديدة - وجرت إلى المدينة بقصتها العجيبة تخبر أن هناك من أعلن لها كل أسرار حياتها ، وتسأل ألعل هذا هو المسيح ؟ وخرج السامريون سراعا - وهم من كل ما هو مدون في الانجيل عنهم أبسط وأقرب إلى الاقتناع من اليهود - عندما سمعوا كلامها وأتوا جماعات. وعندما شوهدوا آتين حث التلاميذ السيد ليأكل لأن ساعة الظهيرة قد فاتت وهو تعب من السفر ، ولكنه قد أشبع جوعه من سرور كرازته فأجابهم [إن لى طعاما آخر لستم تعرفونه] . ألم يفهموا بعد أنه منذ طفوليته لا يحيا بالخبز وحده ؟ ولكن نعود فنرى الفهم الحرفى البليد القلبى الجامد . ومع أن كتبهم المقدسة بل وأمثالهم الجارية مليئة بالاستعارات والتشبيهات ، فلم يميلوا إلى تعليل لما عناه سوى أنه ربما قد جاءه أحد بشىء يأكله (١) . ولا شك أنه كان مؤلما جدا للسيد أن يجد فى كل حين حتى تلاميذه المختارين يظهرون عدم مقدرة غريبة تعجزهم عن معرفة أن الأشياء المنظورة ليست سوى أمور تشير إلى أفكار روحانية عميقة . ولكن ذلك الوديع المتواضع القلب لم ينفد صبره فأجابهم [طعامى أنا أن أعمل مشيئة الذى أرسلنى وأتمم عمله] . ونظر إلى سكان شكيم المتدفقين على السهل الآتين نحوه واستمر فى حديثه قائلا [ألستم تقولون أنه بعد أربعة أشهر يأتى الحصاد . ها أنا أقول لكم ارفعوا أعينكم وانظروا إلى الكور انها قد ابيضت للحصاد . الذى يحصد يأخذ أجرته ويجمع ثمرا

---

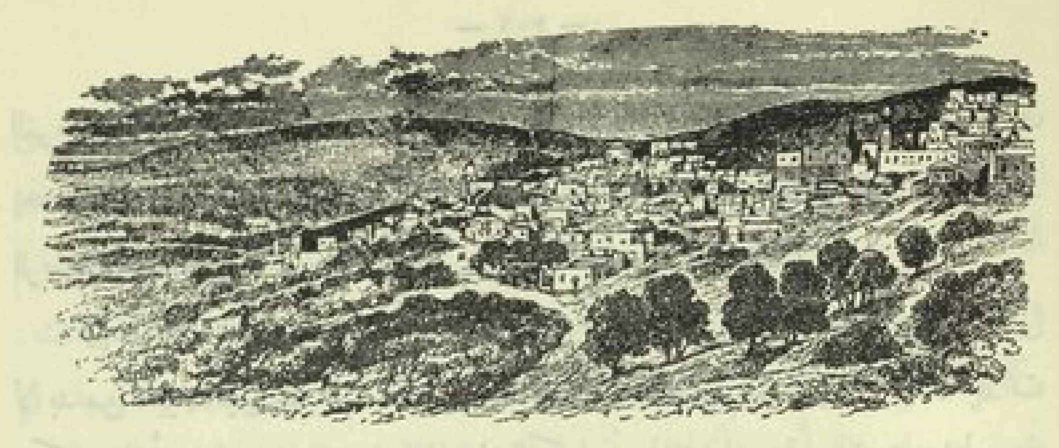
١ - لمثل هذا الفهم الحرفى انظر يو ٢ : ٢٠ و ٣ : ٤ و ٤ : ١١ و ٦ : ٤٢ - ٥٢ و مت ١٦ : ٦ و مر ٨ : ١٥ . وكان عندهم مثل فى كتب الربيين يقول « العادل يأكل من مجد نور الله » وفيها أيضا أن موسى فى حوريب أكل من موسيق الملائكة » .

للحياة الأبدية لكى يفرح الزارع والحاصد معا] أنتم ستكونون الحاصدين السعداء للحصاد الذى أزرعه فى كد وألم ، ولكنى أنا الزارع أسر لمجرد التفكير في هذا الفرح العتيد (١) .

ولقد أقنعت أحاديث يسوع أولئك السامريين أكثر جدا من كلام المرأة التى أعلن ذاته لها أولا . ولقد استجاب بجلال دعوتهم ليمكث بينهم فنزل هو وتلاميذه عندهم يومين . ولا شك أن التعاليم التى غرسها أثناءها كان لها النصيب الأوفى في الحصاد الوفير الذى جمع بعد سنين قليلة اع ٨ : ٥ .

---

١ ـ هوشع ٢٤ : ١٣ ولا يستدل من هذا على توقيت صحيح لأنه خال من « قبل » أو « بعد » وقد يجوز أن يكون قد تكلم عن الحصاد والحنطة لا زالت نابتة .



التلال حول النـاصرة

الفصل السادس عشر

مرفوض من أهل الناصرة

وخاصته لم تقبله
يو ١ : ١١

حتى الآن قد تتبعنا حوادث هذا التاريخ المقدس مسترشدين فى الترتيب الزمنى بما جاء فى بشارة يوحنا . والآن نصادف لأول مرة مشكلة صعبة في إيراد الترتيب الحقيقي لحوادث كرازة السيد .

هل من الجائز ، أو من المتعذر ، عمل توفيق تام بين البشائر يبعـد كل الصعـوبات الناجمة عن اختلاف ترتيب البشيرين لنفس الحوادث ، مع علمنا أن ذكرهم للحوادث كان مقتضبا ، وإيرادهم لملاحظات التوقيت كان غامضا ، بل أحيانا خاليا تماما من هذه الملاحظـــات ؟

وربما كان جوابا كافيا إذا ذكرنا أنه لم يتفق عالمان فى ترتيب نظمه كل منهما لهذا

الغرض . ولقد خصص باحثون كثيرون فى كل الأمم المسيحية سنين عديدة بل كرس بعضهم كل حياتهم للبت فى هذا الأمر ، ولكنهم أخفقوا فى الحصول على ترتيب حاز الرضــــاء العام .

وإذا محصنا كل براهين وحجج الطرفين ، وفحصنا كل النقط المختلف عليها والتى لا بد من تذليلها قبل حل المشكلة القائمة ، فذلك معناه القيام بعمل يملأ عدة مجلدات ويكون بالتأكيد خارجا عن نطاق هذا الكتاب . فما عملناه هنا هو بحث « الحجج » الهامة بتدقيق دون الدخول في الاعتراضات المضادة ، ودون ادعاء بابعاد كل الصعوبات الجائزة ، ثم ايراد الحوادث على ذلك الترتيب الذى بدا لنا بعد درسنا المتكرر أنه الأكثر احتمالا ، مع ذكر كل التواريخ « المحققة » التى تحويها البشائر . لأنه يظهر لى أن توافقا مقنعا لا يأتيه الجدل والنزاع فى ترتيب تواريخ الحوادث أمر ليس بالهين ، ثم هو بالضرورة أمر غير عظيم الأهمية . ولو أن العلم الدقيق الأكمل بالأوقات والأزمنة التى صرف فيها المخلص سنى حياته الجهارية كان أمرا أساسيا لتفهمنا حياته واستيعابها ، فان المسيحى على الأقل يعتقد أن معرفة من هذا القبيل ما كانت تحجب عنا .

إن الوحى الذى هدى البشيرين فى تدوين حياة المسيح ساعدهم على ذكر كل ما هو ضروري لسلام وكمال نفوسنا ، دون أن يسترسلوا في كل ما نتوق إلى معرفته لنطفىء غريزة حب الاستطلاع أو حتى ما يرضي اللذة التاريخية . وليس من الصعب أن نرى فى هذا دلالة جديدة على أنه يجب أن نرتكز أفكارنا على الأشياء الروحية أكثر من المادية ، على يسوع الحي إلى الأبد والذى هو معنا دائما وإلى انقضاء الدهر ، أكثر من أن نرتكز على الحوادث العرضية لحياته على الأرض والتى كانت الطريق المعين في حكمته الأزلية لافتداء الناس . ولن نتمكن من معرفة كل ما كنا نتوق إلى معرفته عن السنين الطاهرة التى عاشها تحت القبة الزرقاء ، ولكن يمكننا أن نصير أولاد الله وتلاميذ المسيح إن حفظنا كلامه وعملنا وصاياه .

يقول يوحنا البشير إنه بعد اليومين اللذين قضاهما يسوع بين السامريين المتسعى المدارك ، ذهب إلى الجليل [لأن يسوع نفسه شهد انه ليس نبي مكرما فى وطنه]، وفى الآية التالية [فلما جاء إلى الجليل قبله الجليليون الذين عاينوا كل ما عمل بأوروشليم فى العيد] ويضيف بعد ذلك [ثم جاء أيضا إلى قانا الجليل] حيث شفي ابن خادم الملك . وكلمة [لأن] المحيرة تدل على أحد تلك الأفكار التي يكتم تسلسلها كما هو متعدد في انجيل يوحنا . واني أفهمها أنها تعنى أنه رغما عن البارقة الوقتية فى قبوله ، ففي الناصرة - نفس وطنه - قد انتظره الرفض ، وان كان ينتظر مثل هذا الرفض [لأن] يسوع قال في أحد أحاديثه الصريحة [ليس نبي مكرما فى وطنه](١) .

لم يكن غرض البشير يوحنا الاسهاب فى ذكر كرازة الجليل التي تناولها بالتطويل باقي البشيرين . وعلى ذلك فانا نستق أكمل تفصيلات العمل الأول الجهارى للسيد فى مدينة موطنه من انجيل لوقا .

ويظهر أن يسوع لم يذهب من سيخار مباشرة إلى الناصرة (مالم نعتبر أن لو ٤ : ١٥ ملاحظة عامة لا تسلسل تاريخى) بل كان فى طريقه يعلم باستمرار فى مجامع الجليل (٢) بين القبول والاعجاب العام . وعلى هذا النحو وصل إلى الناصرة . وإذ كان منذ الصبا أحد المترددين الصامتين في هذا المكان المتواضع ، سبتا بعد سبت ، دخل المجمع يوم السبت كعادته .

ولم يكن فى تلك البلدة الصغيرة سوى مجمع واحد [لو ٤ : ١٦] والغالب أنه كان

---

١ - يو ٤ : ٤٣ - ٤٥ .انى متأكد أن يسوع لم يعظ مرتين فى الناصرة تحت الظروف المماثلة وهذا ما يجعلني أقول أن ما جاء فى مت ١٣ : ٥٣ - ٥٨ و مر ٤ : ١ - ٦ هو ذكر للحادثة نفسها .

٢ - لو ٤ : ١٥ (يعلم) استعمل لها فى الأصل الفعل الدال على استمرار الحال . الاسم القديم للمجمع كان " بيت تفيلاة " أى " بيت الصلاة " أما الآن فيسمى " بيت حق كنيست " أو بيت الاجتماع . وكانت الأوقات هى الساعة الثالثة والسادسة والتاسعة أي التاسعة والثانية عشر والثالثة حسب التوقيت الحالى .

يشابه من كل وجه المجامع التي تشاهد آثارها فى تل حوم أو إربيد ، غير أنه كان أحقر منظرا وأدوات . وكان عبارة عن بناء بسيط متسع مستطيل رفع سقفه على عمد من الطراز اليونانى ، وفي نهايته مكان القدس ، واتجاهه غالبا إلى أوروشليم . لأنه منذ زمان سليمان كان هذا هو القبلة أو الاتجاه المقدس لعبادة اليهود أما فى الأماكن الغنية كان يقام المجمع من الرخام الأبيض المنقوش على البارز بحليات تمثل أوراق العنب وعناقيده أو العصا المفرخة وقدر المن (١) فاذا دخلت وجدت مقاعد الرجال فى جهة ومقاعد السيدات وراء حاجز فى الجهة الأخرى ،وهن ملثمات بحجب طويلة . وفى جانب كانت « الطيبه » أو التابوت من الخشب الملون الذى يحتوى على الأسفار المقدسة ، وفى الجانب الآخر « البيمة » أو المقعد العالى للقارىء أو الواعظ . ولم يكن هناك « كهنة » بالمعنى المعروف ، ولكن كان يجلس على الكراسى العشرة الأولى أو أكثر الرجال « البطلانيم » أى رجال الفراغ أو متقدمى الشيوخ (٢) ، وفى مقدمتهم « روش هاك كنيسيث » أو رئيس المجمع (٣) ، ويلى هؤلاء فى المكانة « الخزان » (٤) أو الكاتب الذى كان واجبه حفظ الكتب المقدسة ، ثم « الشيلاك » وهو ما يماثل حامل الصولجان ، و « البرنسيم » أى الرعاة وكانت وظيفتهم تشبه من بعض الوجوه وظيفة الشمامسة .

أما خدمة المجامع فكانت غير بعيدة الشبه من الخدمة عندنا . فبعد الصلاة كان يقرأ دائما فصلان واحد من الناموس ويدعى « براشاه » ، وفصل من الأنبياء ويدعى

---

١ ـ وجدت هذه الرموز منقوشة على لوحة مكسورة كانت يوما ما تزين باب مجمع كفر ناحوم " تل حوم " وليس فيها أى جمال فنى . لمسألة القبلة راجع امل ٨ : ٢٩ و دا ٦ : ١٠ وهذا الترتيب لم يعد التمسك به شديدا فقد أخبرنى المستر مونرو أن منصة القارىء فى مجامع الجزائر تتجه أى اتجاه شرقا أم شمالا أم جنوبا ولكن لا تتجه أبدا للغرب .

٢ ـ يسمون أيضا " زكنيم " لو ٧ : ٣ وكانت مجالسهم الأولى (مر ١٢ : ٣٩) توضع أمام التابوت ويواجهون المجتمعين . وكان لهم فى مجمع الاسكندرية ٢١ كرسيا مذهبا ذا مساند .

٣ ـ مر ٥ : ٢٢ . ٤ ـ لو ٤ : ٢٠ .

« هافتراه » . وإذ لم يكن هناك كهنة مخصصون لقيادة الخدمة - (عمل اللاويين والكهنة فى أوروشليم يختلف عن هذا جد الاختلاف) - فكان أى شخص كفء يأخذ الاذن من « روش هاك كنيست » ويتقدم للقراءة . وكان في حل أيضا أن يضيف من عندياته أى « مدرش » أو ملاحظات .

ويظهر أن مطالعة البراشاه أو الفصل من الخمسة أسفار قد انتهت عندما صعد يسوع درج المقعد . وإذ سلموا بحقه في القيام بالعمل الشريف الذى « للمافيتر » أى القارىء ، فقد أزاح الخزان الستر الحريرى عن التابوت المدهون الذى يحوى الأسفار المقدسة وناوله « المجلة » أو رق سفر النبي أشعياء الذي يحتوى على « الهافتراة » التى لذات اليوم (١) . وفك السيد السفر وقرأ من النبوة الشهيرة فى الاصحاح الحادى والستين من أشعياء ، ووقف كل المجمع ينصت له . وكان فصل النبوات يتراوح ما بين ثلاث آيات وإحدى وعشرين آية . ولكن السيد قرأ فقط الآية الأولى وجزءا من الثانية (٢) ووقف برأفة قبل القول الغاضب [ويوم انتقام لإلهنا] لتكون آخر الكلمات التى تقع على آذانهم هى الكلمات الرقيقة [بسنة الرب المقبولة] (٣) ولتكون موضوع

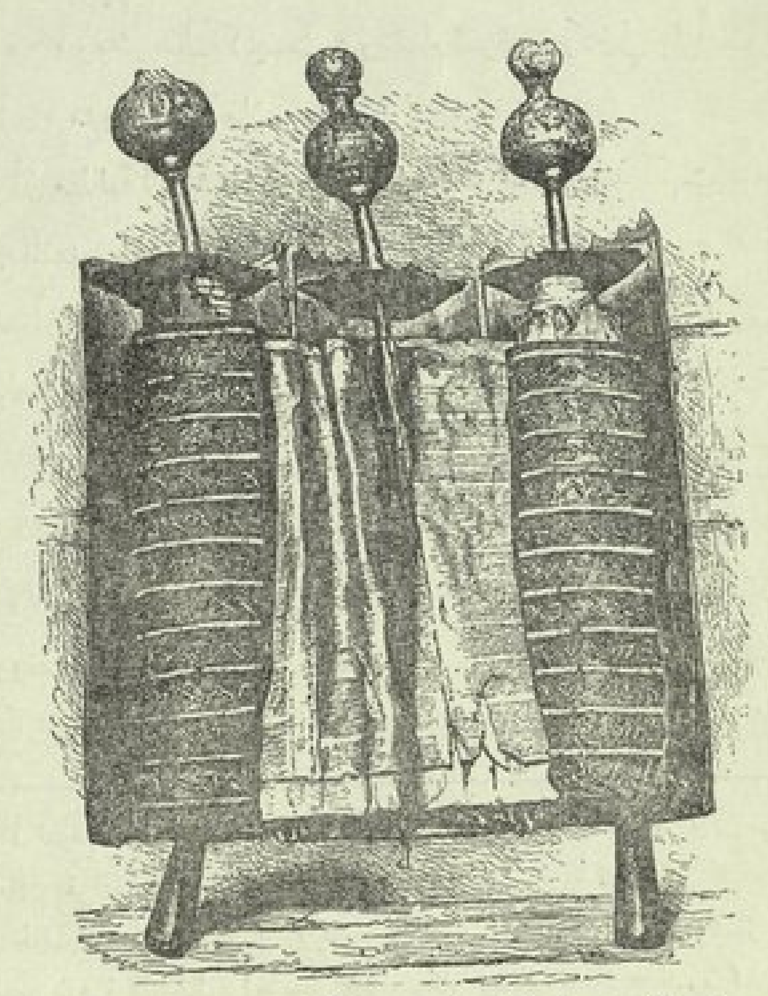
---

١ - يظهر أن نبوة أشعياء كانت مكتوبة فى " مجلة " بكسر الميم والجيم . وكان من الضرورى البحث عن مكان القراءة . وكان للأنبياء ملف واحد أما الناموس فلفان وكان كل درس أسبوعى يفك من على الملف الأيمن ويطوى على الأيسر حتى إذا ما فتح السفر فى السبت التالى تكون القراءة المخصصة ظاهرة فى الحال . (جنيسبرج وانسيكلو بيديا - معلمة - كيوث) .

٢ - الغالب أن تكون القراءة بالعبرية ولكن تترجم بواسطة " المترجم " إما للآرامية التى كانت لغة التخاطب ، أو إلى اليونانية وكانت مفهومة فى كل فلسطين . والاقتباس فى لوقا أخذ عن اليونانية ببعض التصرف كما هو المعتاد أحيانا فى العهد الجديد . وقد يظهر الفرق شاسعا بين المقتبس والأصل العبرانى لأول وهلة ولكن المعنى هو ذاته بنفسه .

٣ - هذه الكلمة أدت إلى أن بعض الآباء فهم خطأ أن كرازة المسيح كانت سنة واحدة . وبعضهم يقول أنها تشير إلى « سنة كرازة الجليل » ولكن الغالب أنه تعبير عام . ويعضد هذا الرأي بشده المستر براون . أما الرأى الأصح فهو أن مدة الكرازة كانت ثلاث سنين ، وهو

حديثه . ثم طوى السفر ودفعه للخادم ، وكما كان معتادا عند اليهود [جاس] ليلقى عظته (١) .



سفر الأسفار الخمسة فى شكيم يقال انه كتبها اليعازر بن هرون

واضح من ذكر أعياد الفصح الثلاثة المدونة فى يوحنا ٢ : ١٣ و ٦ : ٤ و ١١ : ٥٥ وهذا الرأى أى السنوات الثلاث تعضده الغالبية ومنهم ايريناوس وميلينو الخ الخ . .

١ ـ كان هذا هو الوضع المعتاد للسيد وهو يعظ (مت ٥ : ١ و مر ١٣ : ٣) ولكن كان القارىء والسامعون يقفون عند تلاوة الناموس (نح ٨ : ٥) كانت العظة تسمى « دراش » قارن اع ١٣ : ١٥ .

وفصل النبوة الذى طالعه سواء كان جزءا من الدرس المختار العادى لذلك اليوم أو قد انتخبه هو بنفسه (١) ، كان عظيما حقا وبالتأكيد قد اكتسب عظمة أزيد وجلالا أشد من شفتى ذاك الذى تمت فيه هذه النبوة ، وكانت أبصار كل من فى المجمع شاخصة إليه بانتباه (٢) . ويمكننا أن نتخيل هزة الرجاء والحماس الرهيبة التى سرت بين قلوب سامعيه أثناء العظة البحثية التى لم يذكر البشير سوى موضوعها فقط ، والتى ارتقى بهم فيها ناصبا نفسه المسيا الذى تغنى عنه النبى منذ سبعمائة سنة (٣) . وكانت كلماته مملوءة نعمة وسلطانا وقوة ، ولم يقاوموها فى البداية بل استولت على دهشة الجميع رغما عنهم ، ولكنه عندما استمر شعر بتغييرهم فان سمو حكمته وحلاوة كلامه (٤) قد تلاشيا عندما ابتدأ أولئك الجليليون الغلاظ يفهمون تماما المعنى الكامل الذى يرمى اليه والمكانة الالهية التى يعزوها لنفسه .

وكان من المعتاد عند اليهود أثناء العبادة فى مجامعهم أن يعبروا بصراحة تامة عن عواطفهم فلم يمض وقت طويل حتى سمع يسوع دمدمتهم الثائرة المهتاجة ورأى أن تلك العيون البراقة النشيطة التى شخصت إليه أولا بزيد الانتباه قد ابتدأت تلمع بشرر خبيث من الحسد والكراهية . ودار التهامس بين السامعين وهم يوسوسون بثقل : « أليس هذا هو النجار ؟ أليس أخوته يعقوب وسمعان ويوسى ويهوذا صناعا مثله أيضا ، وتعيش أخواته بيننا ؟ أليس أقرباؤه لا يؤمنون به ؟ (٥) ثم انه ليس ربيا متعلما متخرجا من مدرسة غمالائيل أو شماى ولكنه يتكلم بسلطان ليس حتى لعظماء الكتبة ، وحتى هليل ذاته عندما كانت لا تفلح تعاليمه فى اقناع سامعيه كان يستوحى التأثير

---

١ ـ كان مسموحا تغيير فصل النبوات ولكن ليس فصل الناموس . ولا يوجد فى ترتيب نبوات السبوت اش ٦١ : ١ وانما كان يتلى اش ٦١ : ١٠ و ٦٣ : ٩ فى السبت الواحد والخمسين من السنة .

٢ ـ لو ٤ : ٢٠ . ٣ ـ لو ٤ : ١٨ . ٤ ـ مز ٤٥ : ٢ .

٥ ـ مت ١٣ : ٥٧ (وبيته) قارن يو ٧ : ٥ و مر ٣ : ٢١ و مت ١٣ : ٥٦ .

باركون إلى سلطان سالفيه كشمعى أو أبتاليون . ولكن هذا المعلم (١) الشاب لا يستوحى أحدا ، هذا المعلم الذى لم يكن سوى نجار قريتهم ! وأى شأن له فى التعليم ؟ [كيف هذا يعرف الكتاب ولم يتعلم] ؟ (٢)

ويسوع لم يترك تغيير الشعور الذى طرأ على سامعيه (٣) بدون ملاحظة ، بل ابتدرهم باعلان أنه هو المسيا ، وأن عمله كنجار لا ينتقص من عظمته ، وأن غلظتهم وعدم إيمانهم به قد أحزنا روحه حتى قبل دخوله المجمع . ولم يجد داعيا أن يحاول اصلاح خطأ استهزائهم (الريفى فى ذاته الغليظ فى ماهيته) بمهنته وبالحياة التى سلف وعاشها ، إذ أن أبسط ناصرى له أية مسكة من الأمانة كان يجب أن يذكر من تلقاء نفسه الأصل الأكثر ضعة الذى للراعي الكبير عاموس . كذلك لم يعر اهتماما الحقد الدفين الذى يكنه دائما الرجال الأردياء للذين يوبخونهم بالسمو الصامت الذي لحياتهم النبيلة . لكنه إذ لحظ عاطفة أخرى تسيطر على عقولهم وتطلب آية علوية يدعم بها كلامه ، عاطفة الغيرة لأنه عمل عجائب في قانا وأظهر قوته فى كفر ناحوم (٤) ناهيك بما عمله وعلمه فى أوروشليم ثم هو لا يقدم علامة خاصة تؤيده بينهم ، وإذ علم أن المثل [أيها الطبيب اشف نفسك] (٥) تتحدث به قلوبهم بدون أن تنبس به شفاههم ، خاطبهم بوضوح كامل

---

١ - هذا اللقب مع لقب "ربى" كان ينادى بهما يسوع كثيرا حتى من أعدائه راجع مت ٨ : ١٩ و ١٢ : ٣٨ و ٢٢ : ١٦ و ٢٣ : ٧ . ٢ - قارن يو ٧ : ١٥ .

٣ - قال سبتر " ان كبرياء الناصريين الريفى الحقير لم يستطع أبدا أن يفهم وداعة العالى الكبير " وهذه الملاحظة تتمشى مع ازدراء شماى الفقراء ؛ ويعارضه هلل الذي يحتم ألا يدخل مدرسة إلا من كان غنيا عظيم الأصل .

٤ - هذه الملاحظة لم ترد فى البشائر . ولكن أعاجيب ، شهودة كافية لتأسيس اعتقاد ذوي سيما إذا أضفنا لها أعجوبة قانا ربما تكون قد حدثت فى البرهة القصيرة المذكورة فى يو ٢ : ١٢ وحتى فى الناصرة قد تمت حوادث شفاء بسيطة لا ترق إلى مرتبة العجائب (مر ٦ : ٥ و مت ١٣ : ٥٨) وأكثر من هذا لم يشأ أن يصنع وسط شعب معاند غير مؤمن .

٥ - هذا المثل له نظير فى كل أمة وقد خوطب به يسوع علانية بعد ذلك على الصليب .

معلنا أنه أعظم منهم ، وانه لم يكن فقط كأى ناصرى عاش ثلاثين عاما بينهم ، وأنه ليس لهم وحدهم بل هو للعالم كله (١) . وذكرهم أن الأعجوبة ليس لها حدود إقليمية ، فايليا لم يرسل إلا إلى أرملة فينيقية من صرفة صيدا ، واليشع لم يشف سوى الأبرص السرياني. فماذا اذن ؟ أكانوا فى نظر هذا النجار أقل من الأمميين والبرص ؟ كان هذا أكثر مما يحتمل من مواطن لهم أرادوا أن يحسبوه كواحد منهم . فعند هذه الكلمات اندلع غضبهم المكبوت إلى لهيب ، ولم يعد يقاطع المتكلم بهمسات حانقة ولكن بزوبعة صاخبة . وفي هياج دموى يمتاز به ذلك الشعب الغريب القوي العاطفى ، الشعب الذى قد تكتسح عقله عواطف مفاجئة مثل تلك التى قد تثور فى أية دقيقة فتحول مياه بحيرتهم الهادئة الصافيـة كالمرآة إلى أمواج غاضبة ، استشاط جميعهم غضبا (٢) وقاموا فأخرجوه خارج المدينة ، ومضوا به إلى أعلى الجبل الذى كانت مدينتهم الناصرة الصغيرة مبنية على نجوانه القبلية . ويظهر أن جانب التل كان أعمق انحدارا منذ ألفى سنة عما هو الآن ، ولا زالت تبدو فيه نتوءات من الصخور بارزة ، ولأحدى هذه المهاوى الصخرية جروه ليرموه على أم رأسه (٣) من عل .

ولكن ساعته لم تكن قد أتت بعد ، تخلصوا من جريمة لو أتموها لدمغتهم إلى الأبد بعار لا يمحى [أما هو فجاز فى وسطهم ومضى] . وليس ثمة ما يدعو أن نقرر في هذا حدوث معجزة ولا الركون إلى مهرب سري فجأة فى طرقات القرية الضيقة المتعرجة

---

١ - قال بعضهم ان المقابلة الحسنة التى لاقاها فى سيخار زادت فى معارضة الناصريين له .

٢ - لو ٤ : ٢٠ الكلمة الأصلية تعنى امتلأوا فجأة جميعهم بالغضب قارن اع ٢٢:٢٢ و ٢٨:٢٥ .

٣ - الكلمة الأصلية معناها " ليحدروه على أم رأسه " ولا تذكر هذه الكلمة سوى فى موضع واحد آخر فى العهد الجديد (٢ كو ٢٥ : ١٣) . وهذا الاحدار كان نوعا من الرجم وهو العقاب الرسمى للتجديف . ولم يكن موضع هذا الحادث على التحقيق " جبل الحدرة " لأن هذا كان يبعد عن المدينة بسفر سبت أى نحو ميلين وربما كان موضعه الصخرة المبنية عليها كنيسة المارونيت الآن وهو على ارتفاع أربعين قدما .

فربما قد أخافهم صمته ، أو نبل وسكون خلقه ، أو طهارة نظرته التى بلا دنس . إذ حتى لو أغفلنا كل شيء غير عادى ، فقد كان فى مجرد وجود يسوع قوة خفية من العظمة والسيطرة اعترف بها أشد أعدائه وأقسام ، وأحنوا رؤوسهم رغما عنهم أمامها . وهذا هو سبب نجاته عندما تناول اليهود الساخطون حجارة ليرجموه فى الهيكل . وهذا هو السبب الذى جعل جند السنهدرين المتعصبين المتهورين غير قادرين أن يلقوا عليه الأيدى وهو يعلم علانية فى عيد المظال فى أوروشليم . وكان هذا هو السبب الذى أوقع عصبة أعدائه المسلحين على الأرض من مجرد نظرة منه فى بستان جثسيمانى . وعلى ذلك ، فبسكون وفى الحال اكتسب حريته ، وأبعد ملاحقيه جانبا ، وأوقع في قلوبهم الخوف بمجرد نظرته ، ومر من وسطهم بدون أن يلحقه ضرر . ولقد وقعت ولا زالت تقع حوادث مشابهة لهذه فى التاريخ ، إذ يوجد شيء من الجلال والمهابة فى النبل الأعزل الطاهر يستطيع أن يسكن حتى شغب الغوغاء . «وقفوا ، وتوقفوا ، وتساءلوا ، واستخذوا ، وهربوا ، وتفرقوا »(١) .

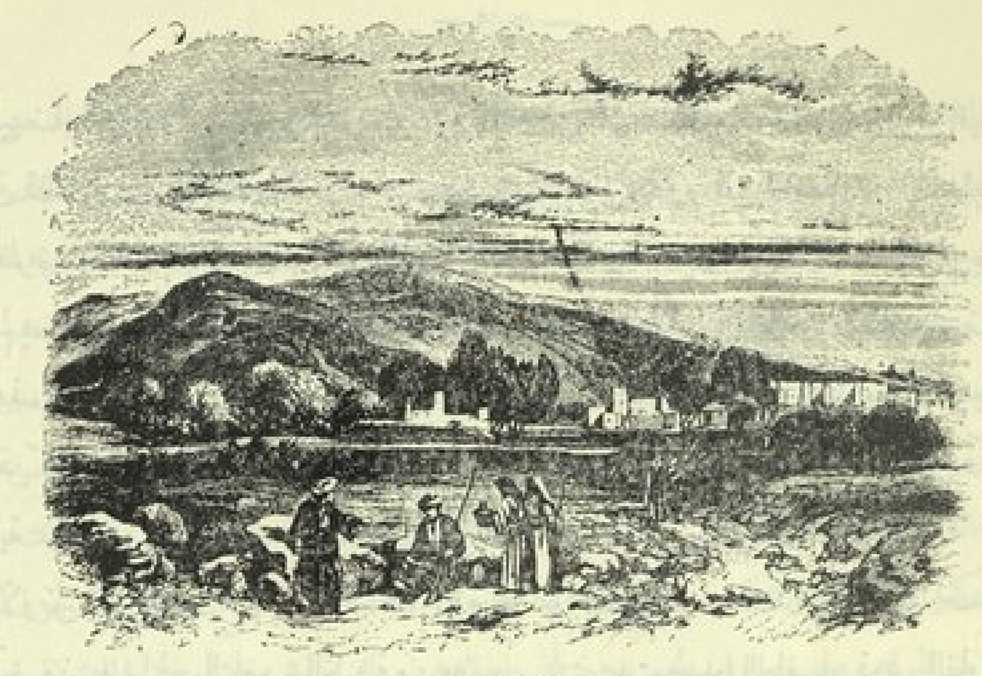
وعلى هذا النحو تركهم وبدون أن يعود ثانية إلى مدينتهم أو يعاود الوعظ فى مجمعهم الصغير (هذا إذا كان ترتيب الحوادث الذى أوردناه صحيحا) . هل أثقلت نفسه عواطف من مجرد الأسف الانسانى فقط وهو يلوى خطواته المتعبة فى انحدارات التل العميقة متجها نحو قانا الجليل ؟ (٢) هل جالت فى عينيه دمعة وهو واقف ربما لآخر مرة لينظر من هناك وادى إزدراليون الغنى ومرتفعات الكرمل الأرجوانية والرمال

---

١ - عن فننجر . قارن يوحنا ٧ : ٣٠و٤٦ و ٨ : ٥٩ و ١٠ : ٣٩ و ١٨ : ٦ ولا زال بعض القراء يذكرون حادث كادث كاهن ما زال على قيد الحياة حينما سار بدون أن يمس بأذى فى وسط غوغاء قائلة غاضبة فى لندن اجتمعت خصيصا لتهزأ وتفتك به ولقد لاحظ أكثر من واحد من المشاهدين انه لو كان اهتزت له جانحة ولو ثانية واحدة أو أظهر أى اختلاجة خوف أو ضعف ارادة لكانوا فى الغالب قد أوقعوا به ولما نجا بحياته .

٢ - لو ٤ : ٣٠ الكلمة الأصلية معناها " وارتحل " .

البيضاء التى تحد مياه البحر المتوسط الزرقاء ؟ هل كان هناك من حزن لأجل فراقهم فى ذلك الوادى الأخضر المنعزل حيث قضى صبوة بهيجة ورجولة مكدة ؟ هل ثبت نظرة طويلة تواقة على ذلك المنزل الوضيع الذى تعب فيه سنين طويلة كنجار القرية ؟ ألم يصحبه صديق لطفولته البريئة ، أو صاحب لشبابه الطاهر فى خوف وحنان وأسف ؟ هذه الأسئلة ليست بالضرورة خارجة عن العرف المعتاد ، وليست بالضرورة خارجة عن كامل الاجلال والاحترام ولكن لا تنتظر لها جوابا ، فان البشائر صامتة عن ذكر أية عواطف إنسانية بحته جاشت فى قلبه إلا ما كان لها مساس مباشر بكرازته على الأرض (قارن عب ٢ : ١٨ و ٤ : ١٥) . وانما نعلم فقط أنه بعد هذا رحب به أصدقاء آخرون بعيدا عن الناصرة الغليظة من بين صيادى بيت صيدا اللطفاء ذوي القلوب النبيلة ، وأنه بعد هذا قد صار بيته - لو أن له بيتا - في كفر ناحوم المدينة الصغيرة قرب بحيرة الجليل الصافية المياه .



قانا الجليـــل

الفصل السابع عشر

بدر كرازة الجليل

والمساكين يبشرون
مت ١١: ٥

حينما رفضت الناصرة السيد كان طبيعيا أن يمضي إلى القـرية المجـاورة ، قانا الجليل ، حيث صنع أول معجزاته ليسر أصدقاءه بطلب أمــــه العذراء ، ولم يبق هناك طويلا حتى جاءه أحد قواد بلاط هيرودس أنتيباس المجـاور إذ علم بحضور يسوع . أتى القائد وتضرع إليه بالحاح أن ينزل إلى كفر ناحوم ليشفي ابنه المحتضر . ومع أن السيد لم تطأ قدمه طبرية ، ولكن صوت يوحنا قد سمع أكثر

من مرة بخوف واحترام فى بلاط ذلك الملك الخليع (١) . ونحن نعلم أن منابن ، أخا هيرودس فى الرضاعة ، صار بعد ذلك مسيحيا ، ونعلم أيضا أن من النساء اللواتي كن يخدمن يسوع يونا امرأة خوزي وكيل هيرودس (٢) . وإذ أن خادم الملك قد آمن هو وكل بيته من جراء المعجزة التى صنعها يسوع حينذاك ، فربما كان من المحتمل أن خادم الملك هذا لم يكن سوي خوزى نفسه .

وطلب الاسعاف من صاحب سطوة ، الطلب الذى ظهر أنه لم يكن له أصل كبير فى الاعتقاد الروحى أولا ، احتاج إلى كبح وقتى . كان لزاما أن يفهم قائد الملك أن يسوع ليس مجرد « حكيم » وليس مجرد طبيب محسن مستعد فى كل وقت أن يصف علاجات محلية ، أو يضع قوته الخارقة تحت أمر وطلب أى متألم يحضر إليه كآخر ملجأ للمعونة . فوبخ للحال الروح التى تتطلب آيات وعجائب (٣) كالطريق الوحيد الأساسى للايمان ، ثم استجاب ضراعة الوالد القلبية ، وصرفه مؤكدا له أن ابنه حي . وحدث هذا نحو الساعة السابعة ، أى الأولى بعد الظهر . وحتى فى النهار القصير لشهر نوفمبر كان لا زال ممكنا أن يعود الوالد فى ذات اليوم إلى كفر ناحوم ، لأن المسافة بين قانا الجليل - إن كان موقعها كما نعتقد هو كفر قنا - وبين كفر ناحوم لا تزيد عن خمس ساعات . ولكن نفس الوالد كانت قد هدأت وارتاحت إذ آمن بوعد يسوع ، فنام تلك الليلة فى إحدى القرى التى على الطريق (٤) . وفي اليوم التالى قابله عبيده وأخبروه

---

١ - فى وسط غموض ترتيب الحوادث يظهر جليا كما قلنا قبلا أنه فى ذلك الوقت كان يوحنا قد وضع فى السجن (مت ٤ : ١٢و١٣ و مر ١ : ١٥ و لو ٣ : ٢٠) وإذا قارنا ما جاء بيوحنا ٣:٢٤ و ٤ : ٤٥ بما جاء فى باقى البشائر واتبعنا الترتيب الذى ورد فى المتن فمن الجائز أن نعتبر - وإن كان ليس محتما - أن الجليل هنا معناه الجليل الحقيقى أى الجليل الشمالى .

٢ - اع ١٣ : ١ وقارن لو ٨ : ٣ .

٣ - الكلمة الأصلية لم تستعمل فى البشائر إلا نادرا وقد اشتقت أصلا لتدل على الاستخفاف بالمعجزات وتشعر بالدهشة التى تتسبب عنها .

٤ - ربما لوبية أو حاتين .

أن ابنه قد شفي ، وتأكد منهم أن ذلك كان فى نفس الساعة التى تكلم فيها يسوع. وكانت هذه هى المرة الثانية التي أعلن فيها يسوع عند وصوله إلى الجليل بعمل معجزة ظاهرة . ولا شك أن مركز موظف البلاط جعلها تذاع كثيرا ، وانه كان لها أثر فى الاستقبال المفرح الحلبى الذى صاحب السيد فى هذه الفترة الأولى المضيئة من كرازته والتى أطلق عليها بجمال « ربيع الكرازة » .

بعد ذلك الحادث نصادف ثانية صعوبة فى ترتيب الحوادث ليست عويصة فقط بل يظهر أنه لا يوجد دليل لحلها المؤكد . فان سايرنا التوقيت الذى نص عليه أحد البشيرين لظهر أننا نخالف بعض الدلائل الزمنية المتفرقة الموجودة فى غيره ، ولكن هذا الأمر لن يكون عقبة عند العقل العادل المخلص . فالبشيرون لا يعترفون أنهم تقيدوا بترتيب المواقيت تماما ، وإنما الصور التى رسموها للحوادث الهامة فى حياة يسوع بسيطة متناسقة وان كانت قدمت على نسق غير متتالى أو ما يسمى فى عرف أدب الكتابة على نسق غير فنى . فان هذا لا يتناسب ومقام الكاتبين فقط ، وإنما هو أيضا برهان قوى آخر على اعتقادنا بأننا نطالع تاريخ حياة تعلو فى عظمتها وجمالها عن مراقي الاختراع والخيال عند أولئك البسطاء الأمناء الذين حللوها ودونوها بأمانة .

وكما لاحظنا ، لم يكن من أغراض يوحنا البشير أن يوضح بالتفصيل كرازة الجليل التى أشار إليها جليا (يو ٧ : ٣ ـ ٤) ، والتى سبق وكتب عنها باقي البشيرين بالتطويل ، إذ أتاحت له الظروف معرفة دقيقة عميقة عن كرازة اليهودية لم يدونها(١) سواه من البشيرين مع علمهم بحدوثها . فعند هذا الحد يقف يوحنا عن متابعة الحوادث ليستأنف وصلها بعد رجوع يسوع من « عيد اليهود » أو « عيد لليهود » (يو ٥ :١). وإن كان هذا هو عيد البوريم كما سنرى ، فلا شك أن يوحنا قد تخطى تاريخ عدة شهور.

---

١ ـ واضح مثلا فى مت ٤ : ٢٥ و ٢٣ : ٣٧ " كم مرة " و ١٩ : ١ و لو ١٠ : ٢٨ ناهيك بالقراءة الثمينة فى لو ٤ : ٤٤ " مجامع اليهودية". المعرب: هذه هى القراءة الواردة فى النسخة القبطية .

لذلك نرجع لحوادث كرازة شواطىء جنيسارت لباقى البشيرين وإنى أختار اتباع ترتيب الحوادث الوارد فى لوقا أولا لأن توقيته يبدو محتملا تماما ، ولأن لوقا ـ خلافا لمتى ومرقس اللذين سبقاه ـ قد كتب مسترشدا بما لديه من المعلومات متوخيا ترتيبها الزمنى [لو ١:١-٣].

يظهر إذن أنه بعد أن ترك السيد قانا ذهب توا إلى كفر ناحوم ومعه غالبا أمه وأخوته ، وجعل تلك البلدة مدينته (١) . والغالب أن أخواته كن قد تزوجن فلم يتركن موطنهن في الناصرة . ولكن الاهانة القاتلة التى حاقت بيسوع كانت وحدها كافية لتحفز عائلته لترك المكان ولو لم يقع عليها مباشرة الاضطهاد والتطاول اللذين سببتهما كلماته ، وربما ازدياد الفرقة بينه وبين أقربائه كان جزئيا بسبب هذا الظرف. ولقد شعروا، بل نعلم أنهم بالتأكيد قد شعروا بغيظ عميق ، ومع أنهم أظهروا الرفض الكامل لكرازته ، وعدم موافقتهم كلية على طريقة إعلانه لها ، فقد أخذوا مباشرة فى تيار الغضب والايذاء اللذين سببتهما أعماله . لذلك فمن المؤكد أنه ، ولو انهم سكنوا كفر ناحوم ، فبيتهم لم يكن بيته . ولم يكن له بيت ، ولكن البيت الذى كان يأوى به عادة كان بيت تلميذه بطرس . كان سمعان وأندراوس من بيت صيدا ، ولكن من الميسور أن يستأجرا منزلا فى كفر ناحوم تملكه حماة سمعان ، أو حيث أن بيت صيدا لم تكن سوى ضاحية أو جزء من كفر ناحوم ، فربما يكون التلميذان قد انتقلا لاراحة المعلم إلى كفر ناحوم .

---

١ ـ مدينته (مت ٩ : ١) قارن مت ١٧ : ٢٥ . ويرى متى البشير (٤ : ١٥ و ١٦) أن مكان كرازته هذا يتمم بإتقان نبوة اشعياء (اش ٩ : ١) . وكلمات الاقتباس كما أوردها متى لا تطابق حرفيا كلمات النسخة السبعينية أو النسخة العبرانية . ولكن هذا الاختلاف اللفظى ليس كبيرا كما يبدو لأول وهلة ، خصوصا إذا علمنا أن الكلمة الواردة فى الترجمة الانجليزية والتى معناها فى الظاهر "يثقل" تعنى حقيقة "يكرم" . والمعنى الظاهر يتناقض مع قصد البشير متى من اقتباسه. ودعيت عبر البحر لأن طريق القوافل الأعظم يسير محاذيا لشاطئها الغربى . ولوقا البشير وحده يسمى بحر الجليل بحيرة لأنه يكتب للأمم . وعبر الأردن تشير غالبا لاقليم البرية .

ولقد أبقى لنا البشيرون الثلاثة الأول وصفا مدققا عن أول سبت صرفه السيد فى كفر ناحوم . وهذا له عندنا مكانة خاصة إذ يعطينا مثالا قيما عن الكيفية التى كان يمضى بها أيام كرازته الأولى النشيطة . وهذا الوصف خير صورة للشعار الذى اتخذه فى حياته والذى بقى لنا في أبهى حلة أولية (١) وهو [كان يجول يصنع خيرا] . وهو الشعار الذى وجد أخص وأنبل أتباعه أنه من أصعب الصعوبات أن يماثلوه فيه ، الشعار الذى سمت به حياته بما لا يقاس عن كل ما وصل إليه أو امتاز به أعظم العظماء ممن سلفوه . فان اعتكاف الناسك ، وتعذيب المتقشف لنفسه ، وذهول الصوفى ، أمور سهلة وعادية إذا قيست بالكد المضنى لخير الآخرين الذى للحب المنزه عن طلب الشهرة.

بدأ النهار فى المجمع ربما ذات المجمع الذى تلطف فبناه فى كفر ناحوم قائد المائة الحديث الايمان ، والذى لا زالت بقاياه المرمرية البيضاء ترى فوق هضبة على البحيرة ، وحيث يعوق السير في ذلك المكان الموحش الخرب بقايا آثار من النحت المتقن . ولم يكن المجمع متسعا . ولا شك انه اكتظ ازدحاما ، إذ كان يعلم جمعا متعطشا غيورا ، ويعلم كما اعتاد ليس بجمل محفوظة بليدة نائمة ، بل بأفكار حية وكلمات لاذعة - كمن تهزهم عواطف الموقف والظرف المحيط - فيتكلم القلب للقلب . ولذا احتاج أكيدا لجهد نفسانى ، كما أضناه بلا شك المجهود الجسمانى . لكن لم يقتصر الأمر على ذلك . فبينما كان يتكلم وبينما كان الرجال البسطاء القلوب ، المخلصون ، النابهون ، الشجعان ، ينصتون له بدهشة صامتة ويتلقفون ما تنفرج عنه شفتاه باعجاب بالغ مفعم بالاحترام ، قطع ذلك السكون العميق صراخ وحشى وأصوات شنيعة من أحد أولئك التعساء المساكين الذين كانوا تحت سيطرة أرواح نجسة ، والذى لعدم وجود أى ملجأ لمثل هؤلاء المصابين قد انسل غير ملحوظ إلى وسط الجمع . وحتى ذلك المجنون المسكين قد شعر فى أعماق نفسه المنحطة المرتبكة بطهارة حضرة السيد ، وقداسة ذلك الصوت ،

---

١ - لم يسبقه أحد فيه .

وقوة تلك الرسالة الالهية المنيرة . ولكن إذ أن كيانه الأدبى كان مشوها مقلوبا فقد ثار وهتف بأصوات الشياطين التى تملكته محييا [يسوع الناصرى] ، وأعلن أنه قدوس الله ، ثم بآلام الخوف والكراهية طلب إليه أن يتركه وشأنه ولا يهلكه (١) .

وتبع ذلك منظر مثير حماسى ، فقد استدار يسوع لذلك المعذب المجنون الهائج ملاحظا ازدواج عقليته ومخاطبا الشيطان الذى كان يضطره للنطق بهذه الألفاظ المليئة بالخوف وقال له [اخرس (٢) واخرج منه] . ولم يقبل يسوع ولم يحتمل هذه الشهادة عن أصله أو عمله من الروح النجس الذى لم يستطع أن يقاوم هدوء وعذوبة وقوة ذلك الأمر الالهى ، فوقع المجنون على الأرض فى نوبة مريعة يتصايح ويتشنج ، ولكن سرعان

---

١ ـ لو ٥ : ٣٣ . (روح شيطان نجس) (فصاح بصوت عظيم) قارن مر ١ : ٢٣ والكلمة التى صرخ بها ليس معناها " مالك ولنا " بالمعنى المعتاد ولكنها كلمة استغاثة وخوف . وكان اليهود مثل كل الأمم القديمة يعتقدون أن كل شر إنما ينجم مباشرة من عمل الشياطين حتى سكر نوح . وكانوا يعتقدون انه ان لم تضع المرأة غطاء على رأسها جاس الشيطان على شعرها ، وإن لم يغسل المرء يديه قبل الأكل امتلكه الشيطان " شيئا " . وجاء فى التلمود انه إن ثار فى الحقل ثور فان الشيطان هو الذى يقفز بين قرنيه . فكل لوثة عقل ، وكل مرض مفاجىء ، وكل ميل للكآبة ، وكل عائق مباغت ، كان ولا زال يعتبر فى الشرق أنه من أثر الشيطان مباشرة . وكانوا يعتقدون أن الشياطين هى أرواح الأردياء ، ومن المحقق أنهم كانوا يقولون عمن به مرض الصرع أو الجنون أن به شيطان . وأمثال هذه المعتقدات اليهودية التى يمكن ايراد المزيد منها شاركهم فيها أغلب الأمم (راجع كتاب مستر تيلور) وقد ذكر يوسيفوس الكثير عنها .

والمشادة القائمة فى هذا الموضوع تدور عما إذا كان الأمر لا يزيد عن مجرد الاصابة بالأمراض أو السماح للشيطان بضرب الانسان بها أو اذكان امتلاك الشيطان الفعلى شيئا عاديا فى أيام يسوع وسأورد هذا البحث فيما بعد . راجع كتاب جان أورليان .

٢ ـ الكلمة الأصلية (لو ٤ : ٣٥) قوية ومعناها الحرفى " كن مكمما " (قارن اع ١٦ : ١٨) والذين يرفضون حقيقة امتلاك الأرواح النجسة (وهم مخطئون) يعتبرون الأمر كأنه موافقة خيالية لترهات المجنون . وقبل الرفض النهائى لحقيقة امتلاك الأرواح الشريرة يجب النظر باعتبار فى بعض الحوادث والأقوال . راجع مقالة " شياطين مورزين " فى مجلة كورنهيل .

ما انتهى هذا، وقام الرجل معافى، وتبدلت نفس نظرته، ودلت أعماله على أنه قد تخلص من السلطان القاهر الذى كان يتملكه وأصبح فى كامل عقله. وهذه المعجزة الدقيقة القوية لم يكن لها مثيل من قبل فتفرق العابدون وهم فى منتهى الدهشة والتعجب (١).

ونزل يسوع من مكانه فوق مقعد «المافير» أى القارىء وخرج من المجمع وذهب إلى منزل سمعان. وهنا أيضا صادفه التماس لدرء المرض والألم. فسمعان الذى سبق فكرس نفسه عند شاطىء الأردن منذ الدعوة الأولى ليكون رسولا فى المستقبل كان متزوجا (٢). وكانت حماته طريحة الفراش بحمى شديدة (٣)، وطلب واحد من العائلة المصابة كان كافيا. لم يكن هناك داع كما في حالة النبيل الملكي لتضرع لجوج (٤). فوقف فوقها وتناول يدها وأقامها، وزجر الحمى فوز صوته كل كيانها، وسيطر على مخارج المرض، وأعادها فى الحال إلى الصحة الكاملة. فقامت وأخذت على عاتقها القيام

---

١ ـ من المستحسن هنا أن نذكر إلى جانب هذه المعجزة حوادث التعاويذ التى كان يمارسها اليهود فى ذلك الزمان لنرى الفارق البعيد بينهما. (راجع مت ١٢:٢٧ و مر٩:٣٨ و اع١٩ :١٣) يقول يوسيفوس انه رأى الحادثة الآتية بنفسه إذ شاهد يهوديا اسمه اليعازر يخرج الشياطين فى حضرة فاسبسيان وتيطس والضباط والجيش. وكانت طريقته أنه جر المجنون بحلقة لها جذع فوقع الرجل على الأرض وبتعاويذ عديدة ورق مختلفة باسم سليمان أمر الشيطان ألا يعود. ولكى يبرهن على أن علاجه كان ناجعا وضع اناء به ماء بعيدا عن الرجل وأمر الشيطان أن يقلبه عند خروجه! وكان يوسيفوس رجلا حر الاختبار فطن العقل خبيرا بآداب العبادات الكفرية ونديما مستمرا فى بلاط الملوك. ولو أن شخصا غيره أورد شعوذة مثل هذه لناله الهزء ورمى بالمين. ٢ ـ قارن ١كو ٩ : ٥. ٣ ـ لو ٤ : ٣٨.

٤ ـ (فسألوه) الكلمة تدل على طلب واحد. لو ٤ : ٣٨ وليس مثل الواردة فى يو ٤ : ٤٧ أى لجاجة السؤال. ومقارنة دقيقة لهذا الحادث أو مثله فى البشائر الثلاث (مت ٨ : ١٤ و مر ١ : ٢٩ ـ ٣١ و لو ٤ : ٣٨ ـ ٣٩) يرى الباحث بجلاء التماثل والتخالف فى رواية الحادثة الواحدة ووجوب بحث البشائر كلها لنصل إلى صورة واضحة.

بواجباتها المنزليـــــة .

وربما أتاحت المراعاة الشديدة لحفظ يوم السبت فرصة وجيزة للراحة . ولكن كان الجمع المتحفز لا ينتظر حتى ختام ساعات السبت ، فبمجرد أن بدأت الشمس في الغروب سرعان ما بدأوا يطلبون منه العون فقامت المدينة كلها وازدحمت محتشدة حول أبواب المنزل المتواضع آتين معهم بالمرضى والمجانين . أى منظر غريب ! فهناك البحيرة المتألقة الهادئة تعكس بلون وردى آخر حمرة الخجل للشمس الغاربة المتوارية وراء التلال الغربية وسط سلام الطبيعة ، وهنا مظهر جد مختلف ، منظر مرض وبؤس الانسان، وأصوات المجانين الصاخبة تشهد بوجود ابن الله [لو ٤ : ٤٠].

كان البيت وما حوله مثل (ليعازرية) أى مستشفى يموج بعديد المرضى من كل نوع ، من التشنج المريع والألم الشنيع ، وعذاب أمراض القلب ، ومختلف الحميات ، وصرع الشيطان ، وفقدان العقل ، وجنون ضربة الظهيرة . وبينهم كان يتمشى اليأس ويتنقل من سرير إلى سرير ، وعلى الكل بسط الموت شوكته . ولكن عند تكاثف الغسق ، شخص وحيد هادئ وديع خالٍ من الخوف والاضطراب أسكت بسكونه أصوات الجنون وصرخات الصرع [مت ٤ : ٢٤] وأبدل المرض بالصحة واضعاً يده الرقيقة النقية على كل معذب (١) بائس ، وتحرك بينهم بمحبة ورأفة ذلك النبي الشاب الذى من الناصرة ، المسيح مخلص العالم ، غير هياب ولا منزعج ، ولكن ليس بلا حزن أو تألم . فما الشفقة سوى الشعور الأخوى مع الآخرين، والمشاركة المتعلقة فى أفراحهم وأتراحهم . ويسوع قد تأثر شعوره بعللهم . وتلك الصرخات نفذت إلى صميم قلبه ، وأنين وتنهد ذلك البؤس الشامل ملأ روحه شفقة ،فأدمى قلبه لأجلهم ،وتألم معهم ، وصار عذابهم عذابه ، حتى أن متى البشير ذكر في هذا الموضع كلمات أشعياء

---

١ ـ راجع كتاب إيبرشد .

[هو أخذ أمراضنا وحمل أسقامنا] (١) .

وقد ذاع ذكر هذا اليوم العجيب فى كل الجليل والبرية وأقصاء سورية [مت ٤ : ٢٤]. وكنا نعتقد أن المخلص التعوب سيجنح إلى راحة طويلة ، ولكن كانت أفضل وأعز راحة له هى العزلة والسكوت حينما يكون وحده فى هدوء تام . فعندما كان لا زال يكتنف وادى جنيسارت الصغير الظلام الكثيف الذى يستبق الفجر (٢) ، قام يسوع من غير أن يلاحظه أحد وذهب إلى مكان قفر وهناك أنعش روحه بصلاة هادئة . ومع أن عمله الذى جاء ليتممه ألزمه أن يقضى أيامه غالبا وسط الجموع المحتشدة المائجة ، فما كان يحب الصخب بل كان يتجنب حتى إعجاب وعرفان الجميل من أولئك الذين كانوا يجدون فى حضرته نبع الحياة . ولكن لم تسمح له الجموع ولو بفترة قصيرة بالراحة والانفراد إذ فتشت عليه بالحاح وحتى سمعان والذين معه كانوا كأنهم فى رغبتهم الحماسية يتصيدونه فسارعوا ليروه ويسمعوه . بل إنهم رغبوا فى ابقائه بينهم بالقوة الرقيقة (٣) . ولكنه قاوم بلطف لجاجتهم ، فما كان غرضه أن يكون موضع اعجاب الجماعات أو أن يصرف كل وقته فى عمل المعجزات التى وإن كانت أعمال رحمة ، ولكن كان الغرض الأول منها فتح القلوب لتعاليمه الالهية . ما كانت بركاته لتحصر فى كفر ناحوم ، فدلمانوثة ، ومجدلة ، وبيت صيدا ، وكورزين ، كانت قريبة جدا ، فقال لهم [لنذهب إلى مكان آخر من المدن القريبة منا لأكرز هناك أيضا لأنى لهذا العمل خرجت] (٤) .

ولكن من المحتمل أن يسوع لم ينفذ عزمه في الحال بل يظهر أنه انثنى تحت

---

١ - (مت ٨ : ١٧) ذكرها متى باختلاف حرف بسيط ولكن بذات المعنى الأصلى . وفى بعض النسخ قرئت " آثامنا " بدل (أمراضنا) وبذلك نجعل الألم معنويا أكثر .

٢ - مر ١ : ٣٥ . احدى الدقائق التصويرية التى استقاها مرقس من بطرس الرسول وأمثالها كثير فى انجيله .

٣ - لو ٤ : ٤٢ و مر ١ : ٣٦ .

٤ - مر ١ : ٣٨ . " مكان آخر " فى اللغة الأصلية تعنى مدينة أخري . قارن لو ٤ : ٤٣ .

ضغط الحاح وقلق الجماهير ليلقى عليهم عظة أخرى قبل أن يذهب ليبشر فى تلك الكورة المحيطة المكتظة ، ويمم شطر الشاطىء ربما إلى المكان الذى ألقت فيه مرساها مراكب الصيد الصغيرة التى لتلاميذه الأوائل ، وهو مكان صلب أبيض الرمال عند بيت صيدا . وتبعه على بعد قليل جمع مختلف من كل الجيرة المحيطة . وبينما كان يسوع واقفا ليتحدث إلى الجموع كان ثنائى الأخوان الصيادين ، سمعان وأندراوس ثم يعقوب ويوحنا ، يمارسون عملهم المضنى الذى منه يأكلون خبزهم اليومى .

وبينما انفرد يسوع ليستريح بضع ساعات قصيرة من الليل كان سمعان وزملاؤه - لاضطرارهم لكسب نصيب ضئيل من العيش احتملوه بسرور متعقل نبيل - يكدون فى الصيد ، وإذ أنهم فشلوا تماما هذه المرة فقد جلس اثنان منهم فى ذلك الجو الهادىء على مسمع من صوت يسوع يغسلان الشباك بينما جلس الاثنان الآخران فى مركبهما مع الخدم المأجورين وابيهما زبدى يصلحان الشباك ، وعندما تكلم يسوع إلى الجموع فالبعض رغبة منهم فى سماع ولو لفظ من شفتي ذاك الذى تكلم بما لم يتكلم به انسان قط ، وبعضهم رغبة فى لمسه ليبرأوا من مختلف الأوجاع ، تزاحموا عليه أكثر فأكثر لدرجة عاقت حركاته وضغطت عليه إلى ما لا يستحب بل إلى ما هو خطر (١)

ولهذا أومأ لسمعان أن يأتى بسفينته ليدخل فيها ويبتعد قليلا عن الشاطىء ويعلم الناس من هناك . وإذ جلس على هذا المنبر المريح آمنا من ضغط الجموع غير المستحب علمهم من تلك السفينة الصغيرة التي تؤرجحها الموجات الزرقاء اللامعة فى وضح

١ - اجتهدت عند ايراد الحوادث أن أجمع بين ما جاء فى البشائر كلها مع ما فيها من اختلافات طفيفة فى الترتيب (مت ٤ : ١٨ - ٢٢ و مر ١ : ١٦ - ٢٠ و لو ٥ : ١ - ١١) وبهذه المناسبة أسوق ملاحظتين . الأولى : من يتزعزع ايمانه لما يسمى مشكلات أو اختلافات فى هذه الحادثة وأمثالها إما (١) أن يكون اعتقاده جامدا غير مرن عن الوحى (٢) أو أن يكون جاهلا تماما بأن الشهادات الحقة الصادقة عن حادثة ما كثيرا ما تختلف من بعض الوجوه . والثانية : أن نفس هذه الاختلافات مع المحافظة التامة على جوهر وحدتها شهادة قيمة على استقلال مدونى البشائر .

شمس الصباح . ولما انتهى من عظته لم يفكر فى تعبه ، ولكن فى تلاميذه المساكين القانطين . كان يعلم أنهم تعبوا باطلا ، ولاحظ أنهم أثناء عظته كانوا يعدون أنفسهم لصيد آخر فيما بعد يكون أكثر انتاجا ونجاحا . فبشفقته التى لم تترك عملا من أعمال الرحمة أمر بطرس أن يدفع السفينة إلى العمق ، وأمرهم كلهم أن يطرحوا الشباك مرة ثانية (١) فى الحال . وكان بطرس في حالة نفسية خائرة العزم ، ولكن كلمة ذاك الذى كان يحترمه احتراما عميقا ، والذى سبق وشاهد قوته ، كانت كافية . ولقد كوفىء إيمانه إذ للوقت امتلأت الشباك بصيد كثير من الأسماك .



بحر الجليل

أعقب ذلك فترة كد ونشاط فقد تنبهت حاسة العمل حتى طلب سمعان وأندراوس

١ - لو ٥ : ٤ (تقدم .... واطرحوا) .

إلى زبدى وولديه وخدامه أن يأتوا بمركبهم ويساعدوا فى انتشال طريحة الصيد العجيب والشباك التى تكاد تتخرق . وملئت السفينتان إلى الحافتين . وفى اللحظة التالية لانتهاء العمل تراءت لبطرس قوة هذه المعجزة العظيمة ، فبحماس اندفاعه المعتاد خر عند قدمى السيد ، هل ليشكره ؟ أو هل ليتعهد أن يوليه طيلة حياته إخلاصا كاملا ؟ كلا ولكن (وهنا مثل من الصدق لا يعبر عنه ، الصدق البعيد جدا أن يخترعه أى خيال خصب) ليقول له [اخرج من سفينتى يارب لأنى رجل خاطئ](١) كأنما قبس سماوى من النور قد أضاء له وأظهر عظم عدم استحقاقه وأعلن له من الذى معه في السفينة . كانت صرخة اتهام للنفس التى رأت شيئا أنبل . كان الاحساس الأول الذي تملكه إحساس الخوف والدهشة قبلما يكون هناك الوقت الكافى لينمو إحساس الحب والعبادة . ولم يقصد بطرس الرسول المعنى الحرفى لقوله [امض عنى] ، ولكنه قصد ، وقد عرف فاحص القلوب أنه قصد أن يقول « لست مستحقا بالمرة أن أكون قريبا منك ولكن دعنى أبق إلى جانبك » . فأى فرق بين هذه الصرخة الخائفة المتواضعة المحبة وبين تلك الصرخات الحيوانية الجنونية التى للأرواح الشريرة التى طلبت من السيد أن يدعها وحدها ، أو بينها وبين تلك الخسة القاسية التى للجدريين الأردياء الذين فضلوا رعاية الخنازير عن وجود السيد فى كورتهم ! !

وأى لطف تبدى فى جواب السيد [لا تخف فانك من الآن تكون صيادا يصيد الناس] . وهكذا السيد كما في كل تعاليمه انتهز فرصة الظروف المحيطة واستعملها بحذق . فبالقرب منهم في السفينة كان مكدسا فى أكوام لامعة ما غنموه من سمك البحيرة ٢) ، ولكنه لمعان يتضاءل إلى الموت . أما هذا الرجل الخاطىء الذى غسل

---

١ - (رجل خاطىء) لو ٥ : ٨ اعتراف بالخطية الفردية . وليس بالخليقة الخاطئة راجع خر ٢٠ : ١٨ - ١٩ و قض ١٣ : ٢٢ و امل ١٧ : ١٨ و دا ١٠ : ١٧ و اش ٧ : ٥ .

٢ - وقد يكون هذا سبب شيوع استعمال السمكة كرمز للمسيحية فى فنون وآداب الأجيال الأولى.

وتنق وافتدى وتقدس فمنذ ذلك الوقت كان يصطاد بشبكة الانجيل وباجتهاد نبيل صيدا لا يموت بل تبقى له الحياة (١) ، وأخوه وشركاؤه سيصيرون أيضا صيادى الناس. وهذه الدعوة الأخيرة كانت كافية نهائية . سبق أن دعاهم يسوع وهم على شاطىء الأردن ، وسبق أن سمعوا شهادة المعمدان ، ولكنهم حتى ذاك الوقت لم يطلب إليهم أن يتركوا كل شيء ويتبعوه . لم يكونوا قد اعتادوا معرفة قوة معجزاته التى تثبت إيمانهم ، ولم يكونوا قد تأكدوا أن من يتبعه لن يكون فقط آمنا فى حفظه القدوس ، بل يأخذ ألف ضعف من الأشياء التى هى قوام السعادة الحقة النبيلة في هذا العالم ، ويمنح الحياة الأبدية فى العالم الآتى .

سبق فرأينا أن يسوع فى مبدأ كرازته دعا ستة من تلاميذه لخدمته ، وفى هذه الفرصة الحالية أمر أربعة منهم أن يعتبروه معلمهم وأن يتركوا كل شيء ويتبعوه . غير أن تلميذا آخر غير هؤلاء جاءته دعوة فردية وهو معلمنا متى قد دونها البشيرون في ترتيب مختلف ولكن الأرجح أنها حدثت فى نحو ذلك الزمان (٢) . كان فى كفر ناحوم أو بالقرب منها ديوان لتحصيل المكوس ، لأنها كانت واقعة في بقعة مركزية لمفترق طرق تؤدى إلى صور وإلى دمشق وإلى أوروشليم وإلى صفوريس . فكانت وسطا تجاريا هاما ، وبالتالى مكانا طبيعيا لتحصيل الضرائب والمكوس . وكان اليهود يكرهون هذه المراكز جدا ، بل إن مجرد فكرة الاضطرار للدفع لها كانت تجرح أرق مشاعرهم . لأنها لم تكن فقط رمز العبودية ، أو الشهادة اليومية المريعة على أن الله قد رفض شعبه وأن كل الآمال الموسوية السامية والوعود التى فى تاريخهم القديم قد تضاءلت وغابت فى غسق احتلال أجنبي فرض عليهم بغلظة واحتقار ، بل كان مجرد

---

١ ـ لو ٥ : ١٠ الكلمة الأصلية معناها " تصطاد الناس أحياء " .

٢ ـ البشيرون كلهم مجمعون على أن دعوته كانت قبل الوليمة التى أقامها ليسوع . ولكن هذا لا يحتم أن تكون الوليمة عقب الدعوة مباشرة .

دفع هذه الضرائب يحمل لعقل اليهودى (١) الحقيق الدقيق المتحسب معنى الكفر ، إذ يظهر له كأنها كسر لأول الوصايا ووجوب التعبد لحكم الله وحده ، فلا يجب الرضوخ لها إلا تحت ضغط القوة الجبرية . فلا عجب إن كانت توجه للمنوط بهم جمع هذه الجبايات أعمق الكراهية . ولم يكن يحتك بالشعب فى الريف العشارون أى الرومان الأشراف الموكلون بفرض الضرائب ، ولكن مساعديهم الأصاغر كانوا عادة من حثالة القوم حتى اشتهروا كطبقة بخسيس الأعمال ، وخيف بأسهم ، واعتبروا كطبقة الزناة . ومن المشاهد انه إذا كرهت طبقة مثل هذه واحتقرت فان أعضاءها ينحطون إلى المستوي الذي وضعهم الرأى العام فيه . وإذا كان اليهودى بالكاد يقنع نفسه بضرورة دفع الجباية ، فأى جرم وبشاعة أن يصير هو الآلة المشكوك فى أمانتها لجمع الجباية ؟ وإن كان العشار مكروها ، فأى كراهية شديدة مضاعفة توجه إليه لو كان يهوديا (٢) .

لكن ذاك الذى أتى ليفتش عن الضال ويخلصه ، ذاك الذى فى مقدوره أن يخرج القداسة المسيحية من وسط النجاسة الوثنية ، أمكنه أن يحول عشارا يهوديا إلى تلميذ وبشير لمعتقدجديد حى . كان اختياره لرسله بروح بعيدة كل البعد عن سياسة الحسبان والفطنة التقليدية ، فقد رفض الكاتب ذا المقام العظيم (مت ٨ : ١٩) ،واختار العشار المكروه المحتقر . إنما كان اختياره لرسله بنظر ثاقب فائق فى سموه ، إلهي غير

---

١ ـ تث ١٧ : ١٥ ويوسيفوس . كانت الأمانة بين العشارين نادرة جدا حتى ان مدنا كثيرة أقامت تمثالا لسابينوس الذى كان أمينا رغما عن كونه عشارا .

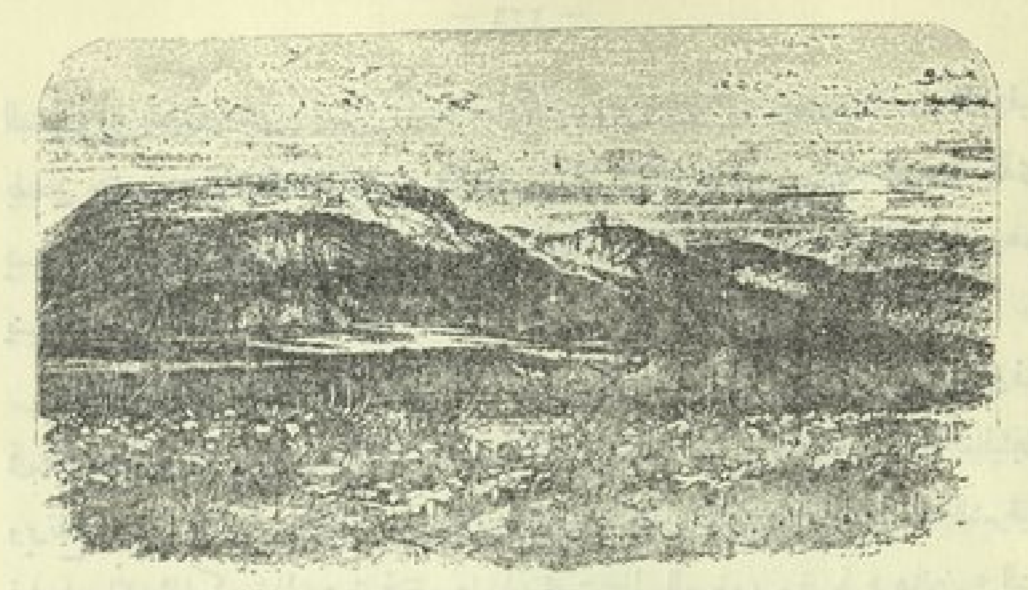
٢ ـ كلمة عشار صارت مرادفة لكل ما هو مكروه بغيض حتى ان السيد قد استعملها بهذا المعنى (فليكن عندك كوثنى وعشار) وكان عند اليهود مثل يقول " لا تتخذ زوجة من بيت فيه عشار لأن أهل البيت كلهم عشارون " . وحتى الأممين لم ينظروا إليهم بعين أفضل من هذه . سئل ثيوكرات ما هى أشد الحيوانات الكاسرة افتراسا فأجاب " أفتكها فى الجبل الدب والأسد وفى المدينة العشار والمحامى الدجال " .

دنيوى وبرحمة كاملة . ولقد قابل متى العشار هذا التعطف بما برهن على استحقاقه له ، إذ حول معرفته للكتابة لعمل مقدس، وأصبح أول كاتب لتاريخ حياة سيد، ومخلصه.

لا شك أن متى قد سمع بعض أحاديث المسيح ، ورأى بعض عجائبه ، وتأثر قلبه فصار ذلك العشار - حتى وهو جالس [فى مكان الجباية] (١) فى عينى ذاك الذى لم يحتقر أحدا ولم ييأس من أحد - مستحقا للدعوة . وكانت [اتبعنى] كلمة واحدة كافية أن تجعل متى يتحقق أن السيد يحبه ، وأنه مستعد أن يصيره آلة مختارة لنشر البشرى المفرحة بملكوت الله ، كانت كافية لكبح تجارب شهوة الجشع ولاطلاقه من نير أعماله اليومية المعتادة . ففى الحال [ترك كل شىء وقام وتبعه] وقد أسره الحب الغافر المفتدي فتأثر وتغير أسمى تغير .

---

١ - المعروف أن متى هو لاوي . فتكون دعوته التي في مت ٩ : ٩ تعني تغيير الاسم . وربما غير يسوع اسمه ليبعد الذكر المؤلم لصناعته المحتقرة . أما اسم متى فان اعتبرناه مع جسنيوس مرادفا لماتيتجاه فمعناه مثل معنى نثنائيل وتيودور " عطية الله " . وكان طبيعيا أن يفضل البشير هذا الاسم بينما مرقس ولوقا يدعوانه بالاسم الذي كان له عندما دعاه يسوع . ويجب أن نلاحظ التواضع المؤثر الذي انفرد به عن باقي البشيرين ، إذ كان هو الوحيد الذي وضع اسمه في جدول الرسل مقرونا باللقب المزدرى " متى العشار " . (مت ١٠ : ٣) .



قرن هاتين أي جبل التطويبات

الفصل الثامن عشر

الرسل الاثناعشر وعظة الجبل

قبل المسيح كان الناموس يأمر ، أما
بعده فيأمر ويساعد . أوغسطينوس

بعد يوم قضاه يسوع في كد محب متواصل ، وجد كعادته الراحة والسلام في الصلاة ، فصعد إلى جبل ، أو على الأصح فصعد إلى الجبل ليصلي [وكان ساهرا في صلاة لله](١) . يوجد شيء مؤثر لا يعبر عنه في تصور ساعات وحدته هذه عندما نتأمل السكون والسكوت الشاملين اللذين لا يقطعها صخب حياة

---

١ - لوقا ٦ : ١٢ (الجبل) بالتعريف .

البشر ، بل يتخللها تغريد البلبل أو عواء ابن آوى بينما تتـألق نجـوم السماء الشرقية بلمعان عظيم من الأعماق اللانهائية . وشخص رجل الأحزان راكـع على العشب الذى يستمد قوة لمجابهة الأتعاب من الهواء النقى والنسيم الطلق والهـــدوء العميـق وهو يناجي أباه .

والغالب أن مكان هذا السهاد المتوحد ومكان عظة الجبل هو المرتفع المعروف فى يومنا هذا « بقرن هاتين » (١) ، وهو جبل يشبه تماما السرج الشرقي بقمتيه العاليتين ويرتفع من جانبه الغربى ارتفاعا متدرجا من سهل عريض متماوج ، أما من الجهة الشرقية فينحدر انحدارا كبيرا إلى هضبة تقع عليها ، تحت عالى الصخور ، قرية « هاتين » التى يهبط منها المسافر طريقا ضيقا حارا غير ذى زرع ينتهى إلى بحيرة الجليل ، وهو التل الوحيد المرتفع فى الجهة الغربية للبحيرة ويناسب تماما فى شكله أن يكون مكان خلوات قصيرة ومدرجا لاجتماعات الجماهير . ومنذ ذلك الوقت يغلب جدا أن السيد كثيرا ما تمشى ليلا بين نتوءاته المدببة التى يختبىء بينهـا اللصوص ، والتى تحد جانب وادى الحمام ، ثم يرتاح الفينة بعد الفينة ليشرب من ماء المجرى النمير ، أو ليجمع ثمر النبق اللذيذ ، أو ليرقب النسور وهى تحوم فوق الصخور القريبة . وكانت الجموع فى الصباح تتبعه غير منشغلة مثل سيدها الالهى بجمال المنظر الطبيعى البديع ، وغير راضية أن تبتعد عنه ولو إلى حين ، وتواقة لسماع كلمات النعمة المنبعثة من فيه .

عند الفجر وقبل احتشاد الجمع ، دعا السيد تلاميذه الذين التفوا حوله رويدا رويدا . إلى تلك الساعة كان الرباط الذى يجمعهم حول شخصه لينا وجزئيا ، ومن المشكوك فيه أنهم قد فهموا تماما مدى أهميته ، ولكن الآن قد اقتربت الساعة ، فمن جماعة أتباعه العموميين الكبيرة قد اختار نهائيا وخصيصا تلاميذه الاثنى عشر . كان عددهم لا يذكر إذا قيس بالمئات التى تسمى نفسها تلاميذ هلليل أو غمالائيل ، وكانت

---

١ - أو "قرون" بالجمع .

مكانتهم فى العالم وضيعة خافية . هؤلاء ، وهم سمعان وأندراوس ابنا يونا ، ويعقوب ويوحنا ابنا زبدى ، وفيلبس من قرية بيت صيدا الصغيرة ، ومتى وهو لاوى ابن حلفى وأخو يعقوب ، ويهوذا الذى يعتبر أنه هو بذاته لباوس أو تداوس . هؤلاء كانوا غالباً من قانا أو كفر ناحوم . وحيث أن التقليد المرجح يحقق أن مريم زوجة حلفى أو كلوبا كانت الأخت الصغرى للعذراء فان هؤلاء الأخوة كانوا أولاد خؤولة للسيد . وكان نثنائيل أو برثولوماوس من قانا الجليل وكذلك توما وسمعان الغيور كانا من الجليل أيضا. وكان يهوذا الأسخريوطى ابنا لسمعان الأسخريوطى .

من جماعة الرسل المجيدة هذه ثلاثة لا نعلم عنهم شيئا وهم يعقوب الصغير (١) ، ويهوذا أخو يعقوب (٢) ، وسمعان الغيور . بل إن شخصيتى يعقوب ويهوذا محاطتان بصعوبات جمة نجمت عن ذيوع وشيوع هذه الأسماء بكثرة بين اليهود ، فلا يمكننا

١ ـ يعقوب " الصغير " لا " الأصغر " والكلمة اليونانية تعنى " الصغير فى جسمه " .

٢ ـ ولكن بعضهم يعتقد أن كلا من " يهوذا " ويعقوب المعروف لدينا وكذلك متى هم أولاد حلفى ولكن المشهور عن يهوذا أنه هو لباوس أو تداوس " التلميذ ذو الثلاثة أسماء " وكلمة " لبا " معناها القلب (ولقد ذكر ايرينيموس انه انما أعطى أسماء أخرى لأن كلمة يهوذا بالعبرية تحتوى على ثلاثة حروف من الرباعيات ، وليس هذا الرأى صائبا فان اسم يهوذا كان أحد الأسماء الكثيرة الذيوع عند اليهود) . ومما يدعم هذا الاعتقاد أن " لباوس " الواردة فى مت ١٠ :٣ جاءت فى بعض النسخ " تداوس " وفى بعض آخر " لباوس الملقب تداوس " ووردت فى مر٨:١٣ " تداوس " . وهو العاشر فى الترتيب .

وهذا جدول الرسل بحسب وروده فى البشائر الثلاث الأول وأعمال الرسل :

١ ـ بطرس	٧ ـ متى
٢ ـ أندراوس	٨ ـ لوقا
٣ ـ يعقوب	٩ ـ يعقوب بن حلفى
٤ ـ يوحنا	١٠ ـ سمعان القانوى أو الغيور
٥ ـ فيلبس	١١ ـ يهوذا أو تداوس أولباس
٦ ـ برثلماوس	١٢ ـ يهوذا الأسخريوطى

القول الفصل ان كانا هما كاتبي رسالتي الكاثوليكون . كذلك لم يكتب عنهما شيء فى الأناجيل ذات أهمية إذا استثنينا السؤال الوحيد الذى سأله [يهوذا ليس الأسخريوطى] والذى دونه يوحنا البشير [يو ١٤ : ٢٢] . ولا نعرف عن سمعان إلا لقبه « الغيور » أو « القانوى » ، وهما بمعنى واحد ويدلان على أنه كان يوما من أتباع يهوذا ، الذى من جسكالا ، (١) الثائرين المخيفين . ويدل الاسمان اليونانيان ، فيلبس وأندراوس ، وأيضا التجاء اليونان الذين أرادوا أن يروا السيد لفيلبس الذى أحال الطلب على أندراوس ، على أنهما كانا مختلطين باليونانيين ، وإن كنا لا نعلم شيئا يذكر عنهما بعد دعوتهما الأولى ، وهذا القول الأخير صحيح أيضا بالنسبة لتثنائيل ومتى . أما عن توما المسمى التوأم ، وهو تحريف اسمه باليونانية ، فنعلم أشياء هامة تدل على شخصية هامة تتمثل فيها سذاجة الطوية والبساطة وفى الوقت ذاته الاجتهاد والكرم ، وسرعة البذل حتى الموت ، والتردد والبطء فى الأيمان . أما يهوذا الأسخريوطى (٢) ، وربما كان الوحيد الذى من

---

١ ـ القراءة الصحيحة فى مت ١٠ : ٤ و مر ٣ : ١٨ هى " القانونى " ويدل منطوقها على انتمائه لشيعة ما . قال سويد كان اليهود يسمون من يحمون القانون " بالغيورين " ويقول نيسفورس انه سمى بالغيور لأن غيرته لمعلمه كانت نارية . راجع يوسيفوس عن هذه الشيعة وأعمالها وكيف أنه أطلق عليهم هذا الاسم كأنما كانوا غيورين فى عمل الخير لا الشر ، وأنهم كانوا يتخذون فينحاس مثالا لهم . وبالتأكيد إن لقب " القانوى " ليس مشتقا من قانا . ويلاحظ بروس أن انتخاب من كان فى الأصل غيورا ليكون رسولا متحديا الشبهات السياسية دليل جديد على أن يسوع فى انتخابه تلاميذه لم يجر وراء الفطنة التقليدية بل أراد السيد أن يكون تلاميذه المثال والأصل للكنيسة ولذا نجدهم رباطا من المتناقضات فهم متى العشار وسمعان الذى يكره الجباية ، أى اليهودي المالىء واليهودى المشتعل غيرة .

٢ ـ يو ٦ : ٧١ . وردت فى بعض النسخ يهوذا بن الأسخريوطى . ووردت هكذا أيضا فى يو ١٢ : ٤ و يو ١٣ : ٢ الخ حتى يظن تشندروف أن يوحنا البشير استعمل هذا الاسم دائما . وخربوط بلد على الحدود الجنوبية لليهودية (يش ١٥ : ٢٥) وعليه تكون " اسخريوطى " بمعنى " رجل من خربوط " ولكن ايوالد يقول ان اسمه نسبة إلى مدينة خارطة فى زبولون(يش٢١:٧٤) ويقول البعض على وجه ضعيف جدا انها مشتقة من " سكوراتيا " أى ازار من جلد أو" اسكارا"

اليهودية بين جماعة التلاميذ ، فسوف تكون لنا فرصة محزنة للتحدث عنه ، فقد وصم في الأناجيل كلها بالوصف المميت الشنيع على ايجازه [يهوذا الأسخريوطي الذى أسلمه] (١)

وكان التلاميذ الثلاثة المقربون إليه ، يعقوب ويوحنا وبطرس ، المختارين من المختارين ، والأكثر التصاقا به من أصدقائه وصحبه (٢) . فهؤلاء وحدهم الذين سمح بوجودهم فى حضرته عند اقامته لابنة يايرس ، وعند التجلى ، وعند آلامه فى البستان . ولا نعلم شيئا عن يعقوب سوى أنه منح الشرف الرفيع بأن يكون الشهيد الأول من جماعة الرسل . ومع أنه كان هو وأخوه يوحنا صيادين إلا أنهما كانا فى سعة عن باقي زملائهما ، فأبوهما زبدى كان يملك سفينة وأيضا عبيدا مأجورين . وذكر يوحنا عرضا في إنجيله أنه كان [معروفا عند رئيس الكهنة] (٣) . ولقد أسلفت الفكرة غير البعيدة الاحتمال أنه سكن كثيرا فى أوروشليم ، وهناك تمكن من استيراد السمك

أى اختناق . انما يجب التسليم أنه من الجائز أن تكون " كريوت حزرون " التى هى حازور . ويقول روبنصون انها " الكورتين أى المدينتين " وهو مكان خرب على بعد عشرة أميال من جنوب حبرون .

١ - مت ١٠ : ٤ و لو ١٦ : ٦ . ويلقب أيضا بسمعان الأسخريوطى فى بعض النسخ يو ٦ : ٧٠ و ١٣ : ٢ . ورد فى بعض التقاليد أن يعقوب ويوحنا ويعقوب الصغير ويهوذا ومتى وسمعان كانوا أولاد خؤولته ويهوذا الأسخريوطى ابنا لأحد أولاد خؤولته ، وان توما كان توأما إما لمتى وإما لتداوس ارتكانا على اسمه . كل هذه ظنون أساسها غير متين . ولكن من المهم أن نلاحظ أن كثيرا من التلاميذ كانوا أخوة مثل ابنى زبدى ، وابنى يونا ، وثلاثة أو أربعة لحلفى ، وربما أيضا ابنى تولومى .

٢ - لقد أسلفت وذكرت الرأى القائل ان سالومى كانت أختا للعذراء وهو رأى مشتق من يو ١٩ : ٢٥ . والظاهر أن زبدى قد توفى عقب دعوة ولديه للرسولية إذ لم يرد له ذكر بعد ذلك .

٣ - جاء فى التقليد أن يوحنا لبس فى أفسس الاكليل الذى يلبسه من هو من سبط الكهنوت على العامة (خر ٢٨ : ٣٦ و ٢٩ : ٦) . وهذا ما قيل أيضا عن يعقوب العادل أخى الرب . ولكن هذا الأمر يدل على اتخاذ المسائل المعنوية كأنها حقائق مادية .

الذى كان يأتيه من بحيرة الجليل ، وبذلك يمكننا أن نفسر معرفته الجيدة لحوادث تبشير السيد فى اليهودية التى أغفل باقى البشيرين ذكرها .

أما يوحنا وبطرس - والأول مثل الحياة العاطفية والآخر مثل الحياة العملية - فهما بلا شك أعظم وأجمل شخصيتين في جماعة الرسل . وكثيرا ما أخطىء فهم شخصية وخلق يوحنا البشير . لقد كان حقا يفيض رقة كاملة علوية وكان أعرف جميع الرسل بعمق وأهمية وصية السيد الجديدة ، وانجيله ورسائله مليئة بالاحترام الكامل والمحبة الوافية . ولهذا كان ولا يزال حبيبا لقلب الصوفى والقديس ولكن كان بلا شك أبعد ما يكون عن صنف المتدين الخانع الذى وصفه به بعض النقاد . لقد شارك أخاه يعقوب فى اسم « ابنى الرعد » ، وسؤالهما المزدوج أن يكونا المقربين في ملكوت الله ، وطلبهما القلبي الحماسي أن تنزل نار من السماء على مدينة السامريين [يو ١١ : ٥٤] ، والقـــوة المحرقة التقوية التي كتب بها سفر الرؤيا (الأبوغلامسيس) ، وسورة الغضب الشديدة التى تملكته عندما تنحى من حضرة سرتينيوس الكافر (١) ، كل هذا لدليل أنه كان فيه روح النسر - لا روح الحمامة - الذى أصبح الرمز الخالد ليوحنا (٢) . وفى تلك الأيام كانت الغيرة والحماس قد نحلا وماتا إذ ساد تدين عاقر كسول ، ولكن بلا شك لا غناء عن هاتين الصفتين فى التبشير بملكوت الله . فكان بلا نزاع وجود هذين العنصرين فى خلقه جنبا إلى جنب مع الرقة والمحبة جعلاه التلميذ [الذى كان يسوع يحبه] ، لأن عمق وقوة تصوراته ، والانسجام النادر للعقل ، والعاطفة للشدة والرقة فى النفس الواحدة ، والايمان الكامل الذى كان مبعث حبه ، وحبه الكامل الذى نفى الخوف ، هذه كانت المواهب والنعم التى جعلته أهلا أن يسند رأسه الصغير على صدر سيـــده .

---

١ - يوسابيوس . وقد قيل أيضا أنه كان إبيون .

٢ - تتجلى روح النسر فى لو ٩ : ٤٩ و رؤ ٢٢ : ١٨ و ٢ يو ٩ : ١٠ .

ولا تقل شخصية بطرس فى أهميتها عن شخصية صديقه يوحنا . وستكون لدينا فرص متعددة لنلمس خلجات الكرم ، والتهور ، والتردد ، والنبل ، والخوف ، في نزعته البشرية والمحبة للغاية . أما هنا فأكتفي بخلاصة حية للدكتور هاملتون حيث قال :

« يصعب أن يتحقق المرء إن كان أغلب حماسه قد انساب من مجرى الحب أو النشاط . كان قلبه العامر يسكب قوة وحزما فى كل موقف . هل سيده محاط بأوغاد مفترسين ؟ حينئذ يبرق حماس بطرس فى سيفه المسلول ، وينقلب « المراكبي » الجليلي في ثانية إلى جندى . هل هناك شائعة عن قيامته من القبر ؟ عندئذ تسبق قدما يوحنا الخفيفتان صديقه العجوز ، ولكن حماس بطرس يسبق حب يوحنا الهادىء ، فيترك التميذ المشدوه ويهجم مقطوع الأنفاس داخل القبر الفارغ. هل المخلص القائم من الأموات على الشاطىء ؟ فبينما يجمع زملاؤه الشباك ويوجهون السفينة شطر الشاطىء يسرع بطرس فيرمى بنفسه في البحيرة ويجاهد وسط الأمواج ليقع تحت قدمى المخلص وثيابه تقطر ماء . هل قال يسوع هاتوا من السمك الذى أمسكتم ؟ فقبل أن يتفهم أحد الكلمة امتدت ذراع بطرس القوية جاذبا إلى البر الشبكة المتمزقة من صيدها المتلألىء ، وكل حركة حماسية كانت كأنها دون قصد الجواب المقدم على سؤال السيد [ياسمعان ... أتحبنى ؟] . وحماس مثل حماس بطرس هو أفضل الأنواع إذ يتكيف كما يتطلب الظرف فيعلو مرتفعا إلى ذرى الأعجاب والثناء أو يتبع يسوع إلى السجن والموت ، أو يندفع فى أعمال مجيدة من الشجاعة والاخلاص ، أو يغرق ذاته فى مختلف وجوه النشاط » (١) .

هؤلاء هم الرسل الميمون الذين ألف السيد منهم جماعة واحدة وهو جالس على قمة قرن هاتين الخضراء . ونحن نتخيل أنه قضى الليل كله فى الصلاة على قمة الجبل ، وفى

١ ـ من كتاب " الحياة النشيطة " للدكتور هاملتون .

الصباح الباكر رافقه تلاميذه. ولا نعلم شيئا عن المظاهر التى دشن السيد بها هذا الترتيب العظيم للرسولية، ولكنا نعلم أكيدا أن هذا الاختيار قد أصبح رسميا ونهائيا، فلا عودة منذ تلك الساعة إلى مركب الصيد أو مكان الجباية لكسب العيش، ولكن سيشترك التلاميذ فى جولات التبشير، ومتاعب الكرازة، والغذاء الضنين، والمأوى المجهول، الأمور التى لازمت السيد حتى فى أسعد أوقات الكرازة. ويجب أن يعملوا جاهدين معه تحت شمس الظهيرة المحرقة وأن يناموا مثله تحت نجوم السماء.

وبينما كان يسوع يقرر هذا الاختيار اجتمع حشد كبير من مختلف الجموع، ليس فقط من شواطئ بحر الجليل المكتظة بالسكان، ولكن أيضا من اليهودية وأورشليم وحتى من شواطئ البحر البعيدة كصور وصيدا، وأتى الحشد ليلمس شخصه ويسمع كلامه (١).

نزل السيد من القمة إلى رأس التل (٢)، وأول كل شيء شغل نفسه بالحاجات الجسدية لأولئك السامعين المترقبين، شافيا أمراضهم، طاردا الأرواح النجسة التى سيطرت عليهم. وبعد ذلك، عندما جلس الجمع فى هدوء كامل وانتباه أكيد على جوانب ذلك المدرج الطبيعي الجميل المكسوة حواشيه بالحشائش الخضراء، رفع عينيه [لو ٦ : ٢٠] اللتين ربما كانتا منخفضتين لبرهة قصيرة فى صلاة داخلية، وفتح فاه (٣) وعلم تلاميذه، ثم قصد تعليم الجمع عن طريقهم، ونطق بذلك الحديث الذى سيعرف

---

١ ـ لو ٦ : ١٧ ـ ١٩ . أعتبر دون تردد أن لوقا البشير دون هنا الحديث الذي أورده متى ولذلك جمعت بينهما وذكرت ما فيهما من اختلاف ظاهري الذي يفسر بسهولة وسعة عقل باختلاف مركز البشيرين غير أنى فى الوقت ذاته لا أرى أي اعتراض مطلقا فى فكرة أن السيد كرر أجزاء من تعليمه فى أوقات وأمكنة مختلفة لمستمعين مختلفين أو ربما يكون قد عمد متى البشير إلى جمع وتدوين ليس عظة واحدة بل عظات متعددة قالها السيد على تلال الجليل .

٢ ـ لو ٦ : ١٧ الكلمة الأصلية معناها " بقعة مسهلة " وقد ترجمت إلى " السهل " وفى العربية " الجبل " . ٣ ـ مت ٥ : ٢ يدل على أهمية الحديث ورهبته .

إلى الأبد « بعظة الجبل » .

ولا شك أنه قد دهش حتى أقل القراء انتباها للمقارنة بين الأدلاء بهذه العظة وبين إعطاء الشريعة على سيناء . نحن نفكر في الشريعة كأنها قانون نارى أحاطته الرعود والبروق وصوت طبول تعلو ويزداد صداه علوا ، ونرى في هذه العظة سريان الموسيق الألهية وسط السكون الشامل وصلاة الفجر الهادىء الصافي . ذلك أنى برعد إلى الضمائر المنزعجة من حضرة غير المنظور الملتحف بكثيف الضباب والنيران المهلكة ، وإعصار الدخان ، وهذه نطق بها صوت عذب حرك القلوب برقة متناهية بكلام السلام. تلك تسلمت على الجبل الأجرد الذي تآكلت قمته من العواصف. وظهرت صخوره الجرانيتية الحمراء وكأنه يطل مهددا على الصحراء اللافحة ، وهذه قيلت على العشب الأخضر على جوانب التل المزدهر الذى ينحدر إلى بحيرة الفضة . تلك أرعشت القلب بخوف وقلق ، وهذه واسته بالسلام والحب . ومع هذا فان الوصايا الجديدة التى لجبل التطويبات لم تكن لتنقض بل لتكمل الناموس الذى نطق به في سيناء منذ القدم [١]. كان الناموس مرتكزا على الفروق الدهرية بين الخطأ والصواب ، الفروق القوية التى لا تتزحزح ، الثابتة مثل أسس الأرض . فأسهل أن تزول السموات والأرض من أن يزال حرف أو نبرة أو نقطة أو سن من حرف من ذلك الناموس الذى يحتوي على أصول الحياة الأخلاقية . لذلك نبههم السيد أنه ما جاء لينقض ذلك الناموس بل ليطيعه ويكمله ، وفى الوقت ذاته علمهم أن طاعته لا دخل لها مع الحذلقة اللاوية والتمسك بالحرف وانما هى بالأحرى تسليم للقلب والارادة للمعنى الحقيق وللروح التي تنطوى عليها الوصايا . ولقد أتم يسوع ذلك الناموس القديم بحفظه تماما ويمنحه قوة لحفظه لكل الذين يؤمنون به ولو انه جعل حدوده أعم وأعمق بكثير [٢] .

---

١ ـ مت ٥ : ٢١ تعنى الذى أعلن لهم منذ القدم وليس للقدماء . كان الربيون يعتقدون ببقاء الناموس ولكنهم كانوا يقولون عن ذلك حرفيا وليس روحيا كما أعلن يسوع .

٢ ـ راجع ملاحظات أوغسطينوس الجميلة عن عظة الجبل .

ابتدأت عظة الجبل بكلمة « طوبى » ، وبثمان تطوبيات ، وانه لأعلان جديد عن الطوبى . كان القوم ينتظرون مسيحا يرفع النير عن عنقهم ، ملكا مزهوا بالفخامة الأرضية ملتحفا بأبهة النصر والانتقام . كانت عقولهم محشوة بنبوات تقليدية كيف أنه سيقف على ساحل يافا ويأمر البحر فينفض لآلئه وكنوزه تحت قدميه ، وكيف أنه سيلبسهم الأرجوان والجواهر ويطعمهم منا أحلى مما عرفته البرية . ولكن يسوع أعلن لهم مملكة أخرى ومسرة أخرى ، غنى الفقر ، وملوكية الوداعة ، والطوبى العظيمة للأحزان والاضطهادات . وهذا الناموس الجديد الذى لا يأمر فقط بل يساعد أيضا كان سيظهر فى الحال وبرحمة مثل الملح يحفظ العالم من الفساد ومثل النور يهديه فى الظلمة . وأعقبت التطويبات مقارنة بين الناموس الجديد الذى للرحمة ، والناموس القديم الذى للنقمة . كان العتيق وقتيا ، وهذا أبديا . كان القديم شبها ومثالا ، والجديد إتماما وكمالا . وتطلب القديم الطاعة فى الأعمال الظاهرة ، أما الجديد فيستشف الأفكار الباطنة ، واحتوى القديم قواعد السلوك ، أما الجديد فاحتوى سر الطاعة . فالوصية [لا تقتل] اتسعت الآن فشملت كلمات الغضب وشعور الكراهية (١) .


الأقحوان

١ ـ مت ٥ : ٢٢ كلمة (باطلا) سواء كانت أصلية أم وردت فقط فى بعض النسخ فانها توضح الروح الحقيقية للوصية . لأنه يوجد شىء اسمه الغضب الحق والحنق المباح (اف ٤ : ٢٦) وقال أوغسطينوس بجمال " إنه ليس بالغاضب مع أخيه من يغضب من خطية أخيه " والكلمة (يا أحمق) فى نفس العدد ليس معناها يا جاهل فقط ولكن " يا مرتد . يا كافر " " يا متمرد (عدد ٢٠ : ١٠) " لا أقول انها مشتقة منها بل هى تحمل معناها . وما يحرمه يسوع ليس مجرد استعمال كلمات بالذات وإلا كان حرم سبابا وشتائم أفظع من هذه ولكنه يحرم مصدر الغيظ الباطل والحقد الذى تنبع منه أمثال هذه الكلمات . ونرى استعمالا جائزا لكلمات " الباطل "

وأظهر يسوع أن جرثومة النجاسة موجودة فى النظرة الشهوانية ، وأن تحريم الحلف يتناول كل قسم ، وأن قانون الانتقام العادل قد ارتقى إلى قانون انكار الذات الكامل ، وأن حب القريب قد سما إلى حب العدو أيضا (١) . ومنذ ذلك الحين يجب على أولاد الملكوت ألا يتطلعوا إلى أقل من هذا ، وأن يكونوا كاملين كما أن أباهم الذى فى السموات هو كامل .


زنابق الحقـــل

والحياة الجديدة التى تنبع من هذا القانون الجديد تخالف من كل وجه العادات اليومية من التحوطات البالغة والرسميات الفريسية التى كانت معتبرة حتى ذلك الوقت أنها المثل الأعلى للمحافظة الدينية . فالاحسان لا يجب أن يصحبه حب الظهور أو الاعلان ، ولكن يبذل بتواضع وفي الخفاء (٢) . والصلوات لا يجب أن ينطق بها بعلانية ريائية ولكن فى خلوة مقدسة . والصوم لا يمارس

فى يع ٢ : ٢٠ و "العميان" التى استعملها داود (مز ١٤ : ١) بل والمسيح (مت ٢٣ : ١٧).

١ ـ مت ٥ : ٤٣ وردت (وتبغض عدوك) وهذه انتقدها اليهود المتأخرون بشدة زاعمين أنها تحريف لناموس موسى . ولكن راجع تث ٢٣ : ٦ و ٧ : ٢ ومع أن هذه التعاليم وضعت لظروف خاصة فقد اتخذها شماى لاذكاء أشد أنواع البغض الوثنى والدينى . وقد جاء أيضا فى التلمود "لا تظهر شفقة أو عطفا على أممى" . ويقول جروفر أن المشنة مليئة بأمثال هذه الأوامر . ولو لم يكن اليهود قد تبعوا هذه الأوامر لما وجدنا شكاية من تاسيتوس عليهم .

٢ ـ لا نجد أثرا فى التلمود أو فى أى مكان آخر على أن الفريسيين اعتادوا أن يبوقوا عند تفريق الاحسان . ولذلك ما جاء فى مت ٦ : ٢ هو تعبير مجازى فقط للعلانية وحب الظهور (قارن

كفضيلة مذاعة ولكن كانكار ذات خشوعى. وكل هذه الأعمال التقوية يجب أن تقدم فقط على أساس محبة الله، وتقدم ببساطة ولا تطلب مكافأة أرضية ولكنها تختزن لنفسها كنزا سماويا لا يفسد. وخدمة الله لكي تكون حقة ومقبولة يجب أن تكون كاملة ولا يعتورها انشغال آخر، فلا يحد حماسها أو يعكر صفوها اهتمامات الحياة أو اضطراباتها، لأن الله الذى إليه تقدم هو أب أيضا، والذى يطعم طيور السماء التي لا تزرع ولا تحصد، والذى يكسو زنابق الحقل (١) بجمال أزيد من الملوك، لا يعجز عن أن يكسو ويشبع - بدون هم متعب - الأولاد الذين يطلبون أولا ملكوت الله وبره.

وما هو أساس هذه الخدمة...؟ هو فحص النفس الذى ينبع إلى عطف لا يبصر، وإلى تجاهل لا يتعقب، وإلى رقة لا تدين، خطايا الآخرين. هو الاحترام الذى لا يفرط أو يهزأ بالأشياء المقدسة. هو الإيمان الذى يطالب قوة من العلاء، ويوقن أنه إن طلب حسنا ينال حقا. هو إنكار الذات الذى يرى أن هاديه الوحيد في معاملته للعالم أجمع هو زيادة مجد الله ومسرة الناس.

الباب ضيق، والطريق كرب، ولكنه يؤدى إلى الحياة. وحسب أعمال الذين يعلنون أنهم يسيرون فيه يحكم على دينهم إن كان صدقا أو كذبا، وبغير هذا لا تنفع كلمات تبشيرهم ولا صنعهم القوات باسمه.

عدد ١٠ : ٣ و مز ٨١ : ٣ و يوئيل ٢ : ١٥) ويظن المستر شو ويوافقه شوتجن أن لهذا التعبير ارتباطا بشكل فتحات صناديق الاحسان الشبيهة بالبوق التى فى خزانة الهيكل (مر ١٢ : ٤١) ولكن "لا تصوت قدامك بالبوق " لا يمكن أن تعنى " لا تدع نقودك تخشخش وأنت تسقطها فى الفتحات الشبيهة بالبوق "، ولو أن اسمها " أبواق ". ويربط جروتنيوس هذا التعبير بعاموس ٤ : ٥ أما راتى فيظن أنه تلميح لعادة مقول أنها كانت شائعة وهى تصويت البوق عند تفريق رحمة الهيكل.

١ - (زنابق الحقل مت ٦ : ٢٨) ربما عنى بها يسوع الأزهار عامة أو الزنابق الحمراء الجميلة الكثيرة فى تلك الأصقاع وكلمة (قامة) الواردة فى عدد ٢٧ معناها الأصلى (عمر). قارن يو ٩ : ٢١ و اف ٤ : ١٣ و عب ١١ : ١١.

وأخيرا حذرهم يسوع قائلا إن الذى يسمع هذه الوصايا ويعمل بها يشبه إنسانا بنى بيته وحفر وعمق الأساس على الصخر الحى ، فبيته إذ كان مبنيا على الصخر بقى ثابتا وسط ضربات الزوبعة والسيول القاسية ، وأما من يسمعها ولا يعمل بها [فمثله كانسان بنى بيتا على الرمل بغير أساس فصدمه النهر فسقط لوقته وكان سقوط ذلك البيت عظيما] (١) .

هـذا ملخص بسيط غير منمق لتعاليم هـذه العظة العظيمة ، فلا عجب إن كان الذين سمعوها [بهتوا من تعاليمه] ولا سيما أنه كان يعلم [كمن له سلطان

---

١ ـ قارن هذا المثل مع حز ١٣ : ١١ و أيوب ٢٧ : ١٨ . ولقد لخص وستكوت تعاليم عظة الجبل بجمال فائق فيما يأتى :—

ا ـ وارثو ملكوت السموات (مت ٥ : ١ ـ ١٦) ، وميزاتهم الخاصة (٣ ـ ٦) ، والعامة (٧ ـ ١٢) ، وتأثيرهم (١٣ ـ ١٦) .

ب ـ الناموس الجديد . (١٧ ـ ٤٨) إكمال للقديم عامة (١٧ : ٢٠) وخاصة (القتل . الزنا . والحلف . والانتقام . والعداوة ٢١ ـ ٤٨) .

جـ ـ الحياة الجديدة (٦ ـ ٧ : ٢٧) ، أعمالها الرحيمة (٦ : ١ ـ ١٨) ، أغراضها (١٩ : ٣٤) نظمها (١٩ : ٣٤) ، مخاطرها (٧ : ١٣ : ٢٣) .

د ـ المقارنة القيمة .

لقد قورنت أمثلة حاخامية كثيرة ـ (ولكن دائما أقل جمالا وقصدا واتساعا وروحانية) ـ بجمل منفردة من عظة الجبل . وحيث أن المشنة لم تكتب إلا بعد الجيل الثانى ، ولأنه لا يمكن حصر انتشار الأفكار المسيحية حتى من التسرب إلى الحاخاميين الكارهين فلا يعتد بما يقدم ضد هذه الأمثال . إنه خطأ فاحش كما لاحظ أحدهم أن يظن المرء أن العالم مكـون من أقسام لا يتسرب بينها الماء مهما ظهرت تلك الأقسام أشد ما يكون انفصاما ، فقد أثرت المسيحية على اليهودية تأثيرا عظيما ، وفى الحقيقة كثيرا ما كانت العداوة جـدولا لا سدا سيما إذا اقترنت بالمنافسة . وإذا افترضنا أن هذه الأمثلة الحاخامية كانت أصلية وسابقة فالكافرون قد نطقوا بأمثلة على جانب عظيم من الحق منذ أقدم العصور . فان اكتشاف الحق من خصائص الروح الذى قيل عنه فى الكتب (نفس الانسان سراج الرب أم ٢٠ : ٢٧) فمسألة "الأولية" التى يتمسك بها بعض الكتاب لا قيمة ولا أهمية لها . إن الحقائق التى تبقى فى الظلام جنبا إلى جنب مع

وليس كالكتبة] (١) ، إذ كان تعليم الكتبة ضيقا ، صارما ، ماديا ، وقورا فى المنظر ، خليعا فى المخبر . كان تعليما عتيقا كثير التكرار ، لا جديد فيه ، لا قوة ولا نار ، عبدا لكل سلطان ، منافيا لأى استقلال . كان تعليما متحذلقا وفى الوقت ذاته ضعيفا ، وتعليما متكبرا وفى الوقت ذاته ضيقا ، لا يتعدى قيد شعرة الحدود الدقيقة وكل التأويلات والسوابق ، تعليما مليئا بالاقتباسات الجوفاء والاحتمالات المتضاربة ، والحرفية التى لا تطاق التى تلتزم سخافات رسمية وقواعد ملتوية ، تعليما يعلى من شأن الحفظ والذاكرة عن النبوغ والعقل ، ومن شأن النقل عن الابتكار ، تعليما يدور فقط حول الكهنة

أخطاء فاحشة ليست بحقائق ؛ انما الحقائق هى التى تعلم وتذاع وتصير من ملهمات البشر . " فوجب تقديم كل المجد لذلك الذى أظهر الحقائق التى كانت غائرة مخفاة وجعلها شائعة كالعملة " .

١ ـ انفرد الكتبة (السوفريم) كهيئة مستقلة من زمن عزرا . والكلمة مشتقة من " سفر " أي كتاب ومعناها المهتمين بالكتب ، أي يفسرون ويدونون الناموس ، وليس من " سفر " أى الذين يعدون ، إذ كانوا يعدون كل حروف الناموس وكانوا مخصصين لنقل وقراءة واصلاح وتفسير وحفظ الناموس . وللقيام بالأمر الأخير ابتدعوا (الدبهيري سوفريم) أى سياجات الناموس ؛ أو " كلمات الكتبة " التى كانت أساس " تقليد الشيوخ " (مت ١٥ : ٢ و غل ١ : ١٤) أو " القانون الشفوى " أو " الناموس الذى على الشفاه " لتمييزه عن " الناموس المكتوب " والذى تقرر المشنة أن أي مخالفة له تحسب أشد بكثير من تعدي كلمات الكتاب (سنهدرين ١٠ : ٣) والكتبة الحقيقيون بدأوا من عزرا الكاتب وانتهوا بسمعون العادل (سنة ٣٠٠ ق . م) ؛ وخلفهم " التنايم " أو " الناموسيون " أو " معلمو الناموس " وهؤلاء بقوا حتى سنة ٢٢٠ م . وحصروا كلمات الكتبة فى كتاب " الهلكوث " أى قواعد السلوك لتكون " سياج التوراة " وقد ورث " التنايم " مجدا من العظمة خلعه عليهم الأولون وكانت لهم مكانة كبيرة . وظل لقب " الكاتب " زمانا وإن كان قد عدم كثيرا من سمو منزلته الأولى . ولقد امتاز تعليم الربيين بقدمه والارتكان على السلطة السالفة ثم هو لا يخلو من ملاحظات مليئة بالجبن وفى الوقت ذاته بالتعصب . بل إن الحاخام اليعازر جعل موضوع افتخاره أنه لم يبتدع شيئا ، ومركز هليل العظيم كناصح أو رئيس للسنهدرين إنما حصل عليه فقط لأنه استظهر أقوالا وحكما لشماى وأبتالون . وقد كانت النصيحة الذائعة ليوشيا ابن براشيا هى " اتخذ لنفسك معلما " .

والفريسيين فى الهيكل والمجمع ، أو المدرسة والسنهدرين ، ويتضمن غالبا أمورا تافهة للغاية . بالتأكيد لم يكن خاليا بتاتا من المبادىء الأدبية ، وليس من المستحيل أن يجد المرء هنا وهناك بين خرائبه فكرة سامية ، ولكنه كان محشوا ألف مرة بالتفاصيل اللاوية عن النعنع ، والشبت ، والكمون ، وطول الذيل ، وعرض الأهداب ، وغسل الكؤوس والأوانى ، والربع من الثانية الذى يبدأ فيه توقيت الهلال الجديد أو حلول يوم السبت (١) .

---

١ - من يرغب فليتحمل مشقة تحقيق هذه الأمور بنفسه . لقد أراد البعض أن يرفع من شأن التلمود فى المدة الأخيرة . يقع التلمود وهو دائرة المعارف لأدب أمة فى اثنى عشر مجلدا ضخما فيكون من المدهش حقا ألا يعثر المرء فيه على بعض الأمثال الجميلة وبعض جمل من الأدب والعاطفة قد ترتفع إلى الأفكار النبيلة ، ولكن ما أؤكده بدون منازعة وما يحكم به أى انسان لنفسه أن ماله قيمة ضئيل جدا بالنسبة لما لا يقاس من أكوام السفاسف المدفونة فيها . فليطلع أى انسان على الترجمة الحديثة لاحدى نسخ التلمود الشهيرة ليتحقق ذلك . والتلمود ؛ أى المشنة والغمارة ، يحتوى على ستة « سيداريم » أى « أقسام متتالية » وأول هذه الأقسام قسم « سيد زرايم » أي قسم الحبوب . وأول فصل فيه اسمه « بيراكوث » أو التطويبات ويشمل تسعة أبواب « الاعتراف - العبادة - خدمة الرب الواحد - ومجموعة صلوات وتسبيحات لله معطى منح الحياة » . وهذا الفصل الأول سام وعال عن أى من الثلاثة والستين فصلا التى منها تتكون المشنة . وقد ترجمه إلى الفرنسية العالم العبرانى مويزشوراب ؛ فأطلب إلى أى قارىء يعتقد أننى تكلمت بخفة عن الكتبة فى الفقرات السالفة ؛ أو اننى أغفلت دون وجه حق من التلمود فى كتابى هذا أن يطالع ثلاثة أبواب دون ترتيب من هذا الفصل ويعمل ملخصا لها . وإنى لأدهش حقا إن كان بعد ذلك الاختبار البسيط لا يزال يتمسك بالأفكار العالية التى يعزوها بعض المؤلفين اليهود الحديثين للتلمود ، ولا سيما المستر ديوتش . قليل جدا من المؤلفين الانجليز قد درسوا التلمود جيدا مثل المؤلف العالم الدكتور لايتفوت مؤلف كتاب "هورى هيباريكا" وقد كان رجلا ذا شهامة عالية وبساطة ، وتقديره للتلمود بعد درس استغرق طول العمر تقريبا كان هذا : « صعوبة فى الانشاء لا يتغلب عليها المرء إلا فيما ندر ؛ خشونة فى التعبير متعبة ، تقلب مدهش فى البحوث . وهذه كلها أمور تؤلم وتؤذى وتضعف إلى حد كبير ذهن قارىء هذه الكتب لأنها ملأى بالترهات المستحيلة الفهم والتى تضطر المطالع الذى يريد التغلب على هذه الصعوبات أن يكون صبورا من الأول للآخر » .

أما تعليم يسوع فكان مختلفا جد الاختلاف في ماهيته ويعلو بما لا يقاس عن تعليمهم كما تعلو السماء الذى نطق تحتها بتعليمه السامى عن سقف المجمع الخانق أو المدرسة المكتظة . وقد بشر يسوع بتعاليمه حسب الفرصة الماثلة ، على جانب التل ، أو عند البحيرة ، أو في الطريق ، أو فى منزل الفريسى ، أو على مائدة العشار . ولم يكن تعليمه أعلى أو أعذب وهو يخاطب معلم اسرائيل تحت الخميلة الضخمة منه وهو يخاطب سامعين جهلاء عدهم الفريسيون المتعجرفون كأنهم ملعونون. وكان يسوع يمنح تعليمه بدون تحفظ فكان ينساب بحلاوة وكرم لسامع واحد كما للجماعات المزدحمة . بلى ، إن بعضا من أثمن إعلاناته قد قيل ، ليس أمام العظماء والولاة ولا أمام الجموع ، ولكن لليهودى المضطهد الذى أخرج من مجمع اليهود ، أو المستفسر الجبان فى منتصف الليل ، أو للمرأة الضعيفة جانب البئر وقت الظهيرة .

ولم تعن تعاليم يسوع بالتدقيقات فى العشور ، أو سفسطات الغسل ، ولكن بنفس الانسان ، وآخرة الانسان ، وحياة الانسان بالرجاء والايمان والمحبة . ولم يكن فى تعاليم يسوع تعريفات ، ولا مصطلحات ، ولا تفسيرات ، ولا مناهج مدرسية ، ولا نظريات فلسفية ، ولا مطولات متشعبة لمناظرات صعبة ، ولكن نظرات ثاقبة سريعة إلى الأعماق الداخلية لقلب الانسان ، جريئة محيرة إذ وهى غير مسيجة باستثناءات أو تحديدات ، فانها تعلق فى الذهن ببساطة لا تقاوم وتحرك القلب وتسيطر عليه بسلطان كامل .

كانت تعاليم يسوع تنبع من أعماق عواطفه القدسية فتسرى فى كيان كل مستمع هزة كأنها مسة تيار الكهرباء . وبالاختصار كان سلطان تعاليمه سلطان الاله المتجسد ، صوت الله يتحدث بلغة الناس بطهارة صارمة لكنها مشبعة بأرق العطف ، وبشدة مخيفة لكنها ممتزجة بالحب الذى لا يعبر عنه . كانت تعاليمه ، لو استعرنا تشبيه الآباء اللاتين « كبحر عظيم يتقطع سطحه الباسم إلى تموجات محببة تحت أقدام الصغار ،

ولكن يتطلع العقلاء إلى أعماقه التى لا تقاس برعشة من الدهشة ورعدة من الحب ».

أما نحن الذين نقدر أن نقارن تعاليم يسوع ، تعاليم ذاك الذى ينظر إليه البعض أنه ليس أكثر من نجار الناصرة ، بكل ما يختزنه العالم كأثمن ما يكون من الفلسفة والبلاغة والشعر . ألا يجب علينا أن نكرر بتأكيد عميق أن تعليمه كان بسلطان وانه تكلم كما لم يتكلم إنسان قط ؟ معلمون آخرون قد أعطوا بنعمة الله كلمات حكمة ، ولكن لمن منهم قد أعطى أن يجدد جنس البشر ؟ وما تكون حال الدنيا الآن لو لم يكن فيها سوى التمثيلات الجامدة والمحيرات الحذرة التى لكونفشيوس ؟ أو الأمر ذات الوجهين والتصريحات الخطرة لبلاتو ؟ هل كانت الدنيا تخطو الخطوات الأدبية الواسعة التى قفزتها لو لم يمنحها من الأعالى هذا العظيم شيئاً أعظم مما أعطاه سكياموني برجائه النحيل عن نيرفانا ،ينالها المرء بتصوفات غير عادية ، وشيئاً أعظم مما أعطاه بعض الأنبياء بسماحهم بالظلم وتصريحهم بالتسرى وتعدد الزوجات ؟

ربما تكون المسيحية قد انحرفت من أوجه عدة عن مثلها الأعلى العظيم القديم . ربما تكون قد فقدت شيئاً من طهارتها البكر . ربما تكون الكنيسة المجاهدة المنقسمة قد بعدت بعد هذه الأجيال الطويلة عن بهاء مجد أوروشليم الجديدة النازلة من السماء . ولكن أليست المسيحية على كل حال أفضل مما صارت إليه اليونان ، وأفضل مما عليه الترك والهند والصين ؟ هل أصابت المسيحية الأمم التى اعتنقتها بالضمور كما فعلت البوذية أو الديانات الأخرى ؟ وحتى كنظام أخلاقي - والمسيحية بالتأكيد أعظم من نظام أخلاق - فانا نقرر بتأكيد انها غير منقولة ، ويمكننا أن نقرر أيضاً أنه ما من ديانة غير المسيحية تمكنت أن تكتسح وتملك عواطف وقلوب العالم . بعض الديانات ظاهر نقصها وخطأها ، أما ديانتنا فلا يمكن البرهنة على خلاف كونها تامة كاملة . بعض الديانات سرية وقاصرة ، أما ديانتنا فبسيطة عامة . بعض الديانات وقتية ولأجل القليلين ، أما ديانتنا فأبدية ولكافة الجنس البشرى . إن كونج فوتزى وسكياموني

وغيرهما لم يتمكنوا أن يتخيلوا المثل الأعلى للجماعات دون الوقوع فى أخطاء شنيعة ، أما يسوع فقد أوجد كحقيقة ثابتة مملكة مجيدة أبدية ، صورتها للجميع وتاريخها خالد فى العالم ، فهى كما أعلنت فى البدء ملكوت السموات ، ملكوت الله .

ومع كل هذا فأى بساطة أولية فى اللغة الجديدة التى لتعاليم يسوع إذا قيست بأى تعليم آخر وقع على آذان العالم ! لا علوم فيها ، ولا افتعال ، ولا فخامة تمثيل ، ولا اجتهاد فى التحصيل ، ولا حيل فى البلاغة ، ولا حكمة مدارس ، ولكن فى استقامة السهم لأصابة الهدف تخرق تعاليمه أعماق الروح والنفس ، تعاليم مختصرة ، واضحة ، محددة ، مملوءة من القداسة والأمثال العادية من الحياة اليومية . فقلما كان منظر أو شىء مما كان شائعا في تلك الأيام فى الجليل إلا واتخذه يسوع كمثل عن وعد مجيد أو تعليم أخلاقي . فتكلم عن الحقول الخضراء ، والزهور الفيحاء ، وأوراق أشجار الربيع ، وعن حمرة السماء فى الغسق ، وعن شروق الشمس وغروبها ، وعن الرياح والمطر ، وعن الليل والعاصفة ، وعن السحب والبروق ، وعن المجرى والنهر ، وعن النجوم والمصابيح ، وعن النار والملح ، وعن العشب واهتزازه والزوان واحتراقه ، وعن الثياب المرتهنة وزقاق الخمر المتشققة ، وعن الحيات والبيض ، وعن اللآلىء وقطع النقود ، وعن الأسماك والشباك . والنبيذ والقمح والحنطة والزيت ، والأمناء وزراع الحدائق ، والفعلة والأجير ، والملوك والرعاة ، والمسافرين ورؤساء العشائر ، والممالك ورجال البلاط وملابسهم الناعمة ، والعروس وثياب العرس . كل هذه وردت فى أحاديثه [١] . عرف الحياة كلها ونظر إليها نظرة اشفاق عليها ونظرة من له سلطان عليها ، ولذا يمكنه أن يشارك فى أفراحها لا أقل من مواساة أحزانها . والعينان اللتان كثيرا ما أغرورقتا بالدموع عند نظر أحزان البشر المتألمين إلى جانب فراش موت أعزائهم ، كثيرا ما تألقتا

---

١ ـ قليلون هم الذين تكلموا بحلاوة عن تعاليم يسوع فى مثل هذه المواقف مثل دوبانلوب

يبرق عاطفى عند ملاحظة العـــاب الأطفال فى المروج الخضراء أو الطرقات المزدحمة .

ويجد القارىء فى كتابه مطولا ما اقتبسته هنا منه باختصار . وسأقتبس أيضا قليـلا من شعر آرثر هوج وإن لم يكن قد سبق وعرفه المطالع فسيشكرنى على ايراده قال :—

عبر البحر وعند الشاطىء فى ازدحام يتكاثف ويزداد
ومن كوخ منفرد إلى بلد مزدحم واجتياز للسهل ومنحدر الجبل
ماذا خرجتم لتنظروا أيها الأغبياء سكان الجليل
القصبة التى تحركها الريح أو الحشائش التى ترقص فى البحيرة

... ...

معلم ؟ فتشوا عنه تحت أقدام أولئك الجالسين على كرسى موسى
اذهبوا واسجـدوا له بعيـدا هنـاك فى أوروشلـيم
أما هنا فلن تنظروا سوى شاب يعظ من سفينته !

... ...

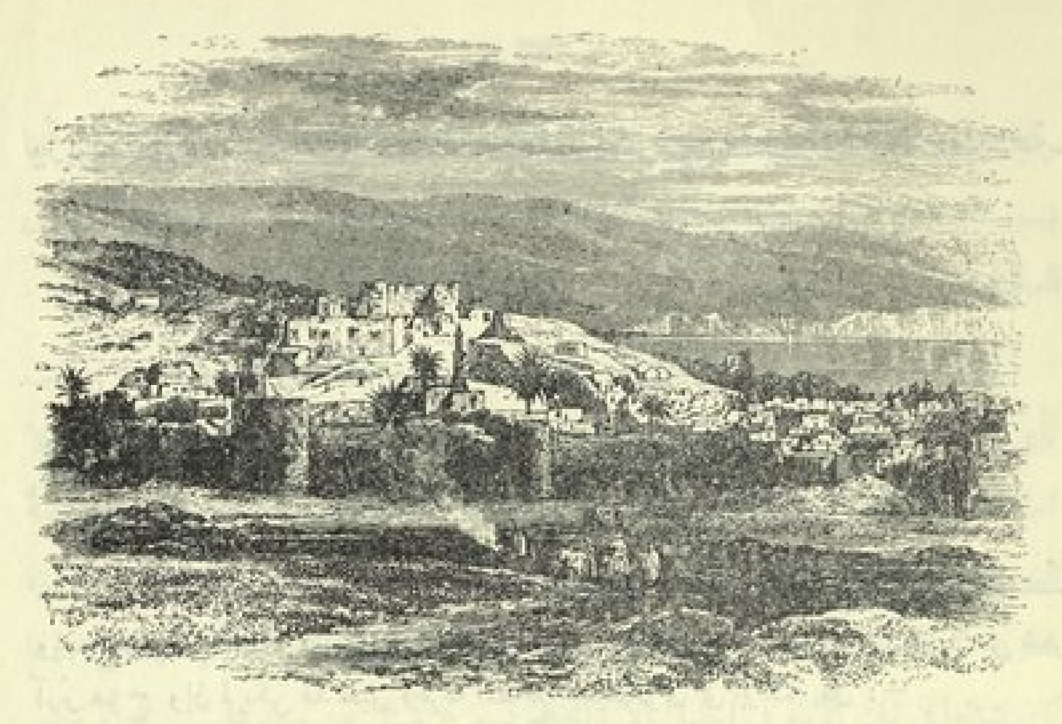
نبى ؟ أيها الأولاد والنساء الضعيفات
أفيقوا وابتعدوا عن الأحلام ! أين تعلم ؟
هل يتـكلم ؟ قولوا ! تعلـيم من يردد ؟

... ...

نبى ؟ من أى قبيلة هو ! من أى سبط من اسرائيل ؟

... ...

إنه يعلم كمن له سلطان وليس كالكتبة .



طبرية

الفصل التاسع عشر

معجزات أخرى

أرسل كلمته فشفاهم
مز ١٠٧ : ٢٠

أعقبت بدء الكرازة العظيمة ودعمتها قوات عظيمة ، وكما قال أحد الآباء (١) : « إن يسوع أردف التعليم بصنع العجائب إذ علم كن

١ - يوثيميوس . مت ٨ : ١ - ٤ و مر ١ : ٤٠ - ٤٥ و لو ٥ : ١٢ - ١٦ ومتى دون ٢٠ معجزة ومرقس ١٨ ولوقا ١٩ ويوحنا ٧ معجزات . وعدد المعجزات التي دونها البشيرون ٣٣ معجزة لأن بعض المعجزات وردت في بشارة واحدة وبعضها وردت في أكثر من بشارة .

له سلطان ، فثبت ذلك السلطان بأعمال فائقة » .

قد يخيل لنا أن السيد - بعد ليل قضاه فى الصلاة تحت قبة السماء ، وبعد فجر اختار فيه الاثنى عشر رسولا ، وبعد عظة طويلة ألقاها عليهم وعلى حشد من مختلف الطبقات - سيركن إلى الراحة التى يحتمها جهده المتواصل ، ولكن هذا كان بعيدا جدا عن الواقع ، والأيام التالية - إن كنا على حق فى ترتيب الحوادث - كانت أيام كدح مستمر وتعب لا يفتر .

عندما انتهت العظة تفرق الجمع إلى مختلف الجهات ، ومن كانت مساكنهم فى سهل جنيسارت لا شك أنهم تبعوا يسوع إلى قرية هاتين ، ثم عبروا الهضبة الضيقة ، وبعد الانحدار إلى الوادى تركوا مجدلة على اليمين واخترقوا بيت صيدا (١) ومنها إلى كفر ناحوم .

عندما نزل من الجبل (٢) اقترب من احدى المدن الصغيرة (٣) وكان يتقدم الجموع بمسافة ، إذ باحترام طبيعى آثروا عدم اقلاقه بعد تعبه الجم . وقد وقع بصره على منظر يستدر الشفقة (٤) لأن رجلا فاجأه ضارعا متألما ، وجثا على ركبتيه بقلب مضطرب وتوسلات حارة ثم انبطح على وجهه برأس عارية وثياب ممزقة وشفة مغطاة . لقد كان أبرص - مملوءا برصا - مضروبا بأشد وأقذر قروح ذلك المرض المخيف الكريه . ولا شك أن هذا البائس المسكين قد عمر قلبه بمقدار كبير من الايمان دفعه إلى أن يعتقد

---

١ - بيت صيدا الغربية . ربما البقعة الجميلة على البحيرة ، المنحدرة الشاطىء ، المتعددة المجارى ، والتى لها جزء رملى ناصع البياض ، وهى تعرف الآن بعين التابيجاه .

٢ - المكان والزمان وردت دلالتهما فى مت ٨ : ١ ولقد أجلت أيضا الحوادث التى ذكرها البشيران الآخران .

٣ - ربما كانت " هاتين " أو " مجدلة " ، فكلاهما يتفق ومجرى الحوادث .

٤ - هذا ظاهر من لو ٥ : ١٢ (وإذا) ومت ٨ : ٢ وهذا التعبير من مميزات كتابة هذين البشيرين ، استعملها متى ٢٣ مرة ولوقا ١٦ مرة .

أن نبي الناصرة الشاب قدير على شفاء مرض ، أردأ ما فيه انه ما دام قد سرى فى الدم فلا يمكن شفاؤه ، بل يتفاقم خطبه . ولكن أمل الحياة كله تركز وفاض فى ضراعة الرجل الحارة [يارب إن شئت تقدر أن تطهرنى] وفى الحال ، كرجع الصدى ، كان جواب إيمانه [أريد فأطهر] (١) .

كانت معجزات يسوع اعلانات أيضا . فأحيانا كان يؤخر إجابة ضراعة متألم عندما كانت ظروف الحال تستدعى ذلك . ولكننا لم نخبر قط أنه تأخر لحظة عندما صرخ إليه أبرص ، ذلك لأن البرص كان معتبرا كنوع من الخطية ويسوع يريد تعليمنا أن ضراعة الخاطىء القلبية لينتق ويتطهر تقابل دائما بالقبول السريع . عندما صرخ داود ـ وهو المثال لجميع التائبين ـ بألم عظيم [قد أخطأت إلى الرب] فان ناثان حمل إليه فى الحال رسالة الله الرحيمة [الرب أيضا قد نقل عنك خطيتك لا تموت] ٢صم ١٢:١٣. وللحال مد السيد يده ولمس الأبرص فشفى .

كان هذا تعديا شديدا « لحرفية » الناموس الذى يحتم طهرا وغسلا علنيا إذا لمس الانسان شخصا مصابا بالبرص (٢) ، ولكنه فى الوقت ذاته مثلا عظيما « لروح » الناموس الذى هو « الرحمة لا الذبيحة » . ويد يسوع لم تتنجس بلمس بدن الأبرص ولكن جسد الأبرص جميعه قد تقدس بلمس تلك اليد الطاهرة . وعلى هذا المثال أيضا قد أخذ طبيعتنا الانسانية الخاطئة وظل هو بلا ذرة من الخطية .

---

١ ـ قال بنجل "كأنه رجع الصدى لإيمان الأبرص الكامل . ونخيل امبرواز انه قال هذا لدحض الهرطقات متقدمافقال" أريد "من أجل فوتيموس ، وأمر من أجل أريوس ، ولمس من أجل مانيخوس ". لاحظ السرعة والفرح التى تمت بهما هذه المعجزات مع البطء والكآبة فى المعجزات التى فعلها فى آخر أيامه عندما صار قلب يسوع مثقلا بالحزن وابتدأ يتضاءل إيمان القوم به (قارن مت ١٣ : ٥٨ و مر ٦ : ٥) وقال بنجل " انه لم يتباطأ فى معجزاته الأولى حتى لا يتسرب إلى الذهن أنه يتعب فى عملها " .

٢ ـ لا ١٣ : ٢٦ ـ ٤٦ وعدد ٥ : ٢ .

لمس يسوع الأبرص ليمنحه الشفاء . فعل هذا في عمق تأثيره وسرعة استجابة عواطفه . ولكن كانت ارادته في ذلك الوقت أن يتمم ناموس موسى بطاعة كاملة . وبرهانا للمعجزة من جهة ، واعتبارا للبائس ، واتباعا للترتيبات اللاوية من جهة أخرى ، أمر الأبرص أن يذهب ويرى نفسه للكاهن ويقدم الذبائح المعتادة ويأخذ لنفسه الشهادة الرسمية أنه قد برىء (١) . وأضاف إلى هذه التعليمات أوامر صارمة شديدة ألا يقول كلمة واحدة لأي أحد (٢) . وقد يستخلص من سرعة حدوث هذه المعجزة أنها بقيت طي الكتمان إلا عن بعض أتباع السيد الأخصاء مع أنها حدثت في وضح النهار ، وفي الجوار القريب لمدينة ، وليس على بعد كبير من الجمع السائر خلفه . ولكن

---

١ - سنتكلم كثيرا عن البرص من الآن فصاعدا عندما ندرس معجزات السيد الأخرى وربما لا يمكن تكوين فكرة عنه أشد هولا مما ورد في لا ١٣ : ١٤ . والموضوع مفصل علميا وبتطويل في دائرة المعارف الانجيلية "لجاك" ، أما الطقوس التي ترافق التطهير الناموسي من البرص فمفصلة في لا ١٤ ، وهي عملية طويلة ذات شطرين فأولا يأتيه الكاهن خارج المدينة أو المحلة ويذبح عصفورا على مياه حية في اناء خزف ، ويأخذ خشب أرز وقرمزا وزوفا وعصفورا حيا ويغمسها في دم العصفور المذبوح وينضح على المتطهر من البرص سبع مرات ويطلق العصفور الحي ويعلن طهارة الأبرص ، فيغتسل ويحلق كل شعره ويقيم سبعة أيام خارج خيمته ، وبعد ذلك يحلق شعره ويرحض جسده ويأتي بخروف ذبيحة اثم وآخر ذبيحة خطية ونعجة للمحرقة (وان كان فقيرا ولا تنال يده فزوجي يمام أو فرخي حمام مع خروف واحد) ، ودقيقا وزيتا ذبيحة تقدمة ويأخذ الكاهن من دم ذبيحة الأثم والزيت ويدهن شحمة اذن المتطهر اليمنى وعلى ابهام يده وابهام رجله اليمنى ويصب الزيت على رأسه ويعلن طهارته . ولا يوجد أدنى شك أنه بعد هذه الاجراءات الدقيقة يكون البرء كاملا . وهذه الطقوس يشملها جزء "نجايم" ويحتوي على أربعة عشر بابا . وقد فصلها بايضاح كرانكهيت .

٢ - (وقال له أنظر لا تقل لأحد) مر ١ : ٤٤ وبتعبير أشد في ١٣ : ٢ و ١٤ : ٢ ولمعرفة مواضع أخرى لطلب السرية راجع مر ١ : ٢٥ و ٤٤ ولو ٤ : ٣٥ و ٥ : ١٤ و مر ٣ : ١٢ و مت ١٢ : ١٦ و مر ٥ : ٤٣ و لو ٨ : ٥٦ ويلاحظ من كل هذا أن هذه الأوامر قد أعطيت أغلبها في بدء كرازته .

لماذا فى هذه المرة وفي مرات أخرى متعددة فرض السيد على من صنع لهم معجزاته سرية قلما راعوها ؟ ربما لن نعلم الأسباب كلها ، ولكن بلا شك كان هناك دخل لظروف الزمان المكان ، وعقلية من صنع المعجزات لأجلهم . وهذا واضح أنه فى مرة أخرى عندما كانت الظروف مخالفة لما تقدم ، فانه أمر باعلان المعجزة وإذاعتها (١) .

فهل كان ذلك ـ كما يظن القديس يوحنا ذهبي الفم ـ لكي يزجر روح الزهو فى الناس ويعلمهم ألا يستهينوا ويتحدثوا عن الشعور الداخلى لعطايا الله العظيمة ؟ أو لينأى عن زيادة استفزاز حماس جموع الجليليين الذين تملكتهم الدهشة ؟ (٢) أو لأنه لم يرد أن يعرفوه كصانع أعاجيب قدير ، أو كحكيم عمومى بل أن يعرفوه على ضوء حقيق كمخلص بالاستعلان والايمان ؟

ومهما كانت الأسباب العامة فيظهر أنه فى هذه المرة كان هناك سبب له أهمية خاصة . فمرقس البشير الذي أبقى لنا ذكريات بطرس الرسول الحية والعميقة يصور لنا فى كتاباته المختصرة ولكن الدقيقة كيف أن أمر السيد للرجل كان مصحوبا بانفعال شديد فالكلمة [فانتهره وصرفه للوقت] كلمة متطرفة القوة وربما صحبتها حدة فى النظرة أو الاشارة . والمعنى الحرفى لكلمة [صرفه للوقت] هو « طرده » أو « ساقه للأمام » (٣) . ما كان سبب هذا الأمر الذى أعطى بشدة ، وما سبب هذا الانتهار

---

١ ـ مجنون جدارا (مر ٥ : ١٩ و لو ٨ : ٣٩) .

٢ ـ وهذا ظاهر بجمال من اقتباس اش ٤٢ فى مت ١٢ : ١٥ ـ ٢٠ . لم يعتبر أي نبي أن أعمال القوات هى أساس الأمر . على أقصى تقدير هى بينات لشهودها .

٣ ـ مر ١ : ٤٣ . يفسرها يوثيميوس " أنه نظر إليه بحدة وحرك رأسه " . حقيقة إن هاتين الكلمتين استعملتا فى الانجيل اليونانى مرارا ولكن فى مواضع الشدة مت ٩ : ٣٠ و ٣٨ و مر ١ : ١٢ و ١٤ : ٥ و يو ١١ : ٣٣ واستعملتا فى مواضع الحنق (مز ٧ : ١١ و اش ١٧ : ١٣) ويظن البعض أن " صرفه للوقت " ترجمة قاسية للأصل العبرانى ولكن تغير الضمير من المخاطب إلى الغائب (لو ٥ : ١٤) يدل على غضب السيد . وكلمة " خرج " لا تدل على أن المعجزة كانت فى بيت ولكن قد تدل على " خرج من المدينة " .

الفجائى ؟ ربما كان السبب أن لمس الأبرص ولو لمسا شافيا كان فى عينى الرجعية غير المتعقلة غير الروحانية نجاسة تقليدية ورسمية . وقد حدث هذا فعلا إذ يمكن استنتاجه من الآية المذكورة عن قصد - نتيجة للكيفية التى أذاع بها هذا البائس المطهر المعجزة - حيث قيل حينذاك عن المسيح [حتى انه لم يستطع أن يدخل مدينة ظاهرا بل كان خارجا فى مواضع مقفرة] مر ١ : ٤٥ (١) . وقد ذكر لوقا البشير حادثة مشابهة ولو أنه لم يذكر سببا خاصا لها ، ثم أضاف أن يسوع قضى الوقت فى الصلاة (٢) . وإن كان ذيوع شفاء الأبرص قد ألزم وجوب العزلة مدة قصيرة ، إلا أنه من الواضح أن الجمهور لم يراع إلا قليلا ظروف يسوع ، فحتى في الأماكن الخالية التى اتجها تجمعوا حوله من كل صوب .

غير محقق إن كان شفاء عبد قائد المائة (٣) قد حدث قبل أو بعد هذه العزلة . ولكن إذ أن متى ولوقا يوردانها بالقرب من عظة الجبل ، فانا نظن أن تجمهر الجموع ليطلبوه حتى في مواضع مقفرة كان لرغبتهم فى مشاهدة آياته .

حالما وصل السيد مدينة كفر ناحوم التي اتخذها موطنا مؤقتا له قابله وفد من شيوخ اليهود (٤) ، ربما كانوا « بتلانيم » المجمع ، ليتشفعوا عنده لقائد مائة له

١ - يقول لانج عن عزلة المسيح هذه بعد لمسه الأبرص أنها كانت نوعا من العزلة الناموسية .

٢ - من الملذ ملاحظة أن لوقا - أكثر من باقى البشيرين - قد دون صلوات يسوع لو ٣ : ٢١ و ٥ : ١٢ و ٩ : ١٨و٢٨ و ١١ : ١ و ٢٣ : ٣٤ - ٤٦ .

٣ - لو ٧ : ١ - ١٠ و مت ٨ : ٥ - ١٣ . شفاء بن خادم الملك وعبد قائد المائة فيهما نقط جد مختلفة تجعلهما حادثين منفصلين .

٤ - أورد متى البشير هذه الحادثة باختصار وذكر أن الطلب قد جاء من قائد المائة ذاته متبعا القاعدة السارية " ما يفعله الوكيل قد فعله موكله " (قارن فى حادثة مشابهة بين مت ٢٠ : ٢٠ و مر ١٠ : ٣٥) والالهام أو الوحى نور مرشد ، ولكنه كما يقول اليهود بحق عن ناموسهم الذي يقدسونه " الناموس يتكلم بلسان أولاد البشر " . فنحن نقول أيضا مع أوغسطينوس " ان البشيرين كانوا شهود صدق وصحو ، وإن كانوا يتباينون كما يفعل كل شهود عدول فى

عبد (١) أمين محبوب أمسكته نوبة صرع خطيرة مؤلمة . وقد يظهر غريبا جدا أن يهتم شيوخ اليهود هذا الاهتمام بشخص - سواء كان رومانيا أو لم يكن - كان بالتأكيد وثنيا ، وربما لم يكن حتى « على باب الهداية » (٢) . ولكنهم فسروا ذلك بأنه لم يكن فقط محبا لأمتهم - وهو أمر نادر الوقوع من أممى لأن اليهود كان ينظر إليهم دائما بعين الكراهية الشديدة - ولكن أيضا لأنه بنى لهم على نفقته مجمعا استحق مع كثرة المجامع التى في كفر ناحوم أن يطلق عليه [المجمع] لجماله وأهميته (٣) . ومجرد التجائهم ليسوع يدل على أن هذا الحادث كان فى أيام كرازته الأولى عندما نظر إليه الملايين بدهشة ورجاء ، وقبل أن تبدأ العداوة المميتة التى قامت ضده فى الأيام الأخيرة . وفى الحال استجاب يسوع رجاءهم وقال [أنا آتى لأشفيه] ولكنه قوبل فى الطريق برسل من قائد المائة المتواضع الواثق يضرعون إليه ألا يدخل تحت سقف أممى غير مستحق بل يشفي الغلام المتألم بمجرد كلمة منه (كما فعل بابن نبيل البلاط) . وإذ هو قائد مائة ، ولو انه في وظيفة ثانوية ، إلا أن له معاونين مستعدين دائما لينفذوا أوامره ، أفلا يقدر يسوع أن يأمر رسلا غير منظورين ليتموا ارادته دون أن يتجشم التعب بنفسه ؟ وقد

الأمور الطفيفة " . وينبغى أن ننظر إلى القصد بصرف النظر عن الأسلوب ، فقد تبدو أشياء كثيرة أنها متباينة حسب الظاهر ولكن واحدة منها لا تخالف الواقع. ولقد بحث أوغسطينوس هذا الموضوع باخلاص وصدق وقد اقتبس منه ترنش كثيرا فى كتابه " عظة الجبل " .

١ - لو ٧ : ٧ يدعوه (غلامى) ومت ٨ : ٦ (فتاى) .

٢ - يلاحظ الفورد انه لم يذكر مصحوبا باللقب الذى يدل على ذلك كما فى اع ١٠ - ١ : ٢ . ربما كان جنديا سامريا لهيرودس انتيباس أو ربما كان قائدا لحامية صغيرة فى كفر ناحوم .

٣ - لو ٧ : ٥ يقال انه كان فى أوروشليم ٤٠٠ مجمعا ولو أن تل حوم هى بقايا كفر ناحوم فانه كان يوجد بها على الأقل مجمعان كما تدل الآثار الرخامية المنقوشة التى تزين الهضبة التى بنى عليها تل حوم وربما يكون الزائر المشاهد جالسا فى نفس المجمع الذى شهد جماله لعواطف قائد المائة نحو اليهود والذى طالما ردد صوت يسوع .

تعجب السيد من هذا الايمان الكبير الذى لم يصادف مثله حتى ولا في اسرائيل. لقد وجد فى العوسج مالم يجده فى الزيتونة (١). واستخلص من هذا النتيجة التى وقعت دون ترحيب وبرود على الآذان اليهودية وهى ان كثيرين من أولاد الميراث سيطرحون فى الظلمة الخارجية وأن كثيرين سأتون من المشارق والمغارب ويجلسون مع ابراهيم واسحق ويعقوب فى ملكوت السموات. ولما عاد رسل قائد المائة وجدوا أن كلمته الشافية كانت كافية، وأن العبد المحبوب قد أعيد إلى العافية.

لا عجب، أنه بعد أيام مدهشة مثل هذه، إذا لم يجد يسوع وقتا للراحة. فمن شق الفجر على رأس الجبل، إلى وقت متأخر من الليل فى أى منزل اختاره لراحته المسائية، كانت الجموع تزدحم حواليه، غير مراعية خلوته، ولا معتدة بتعبه، بل جادة فى رؤياه، جادة فى نوال معجزاته، جادة توافة لسماع أحاديثه. ولم تترك له وقتا حتى لتناول الخبز. وحياة مثل هذه ليست فقط مضنية متعبة للدرجة القصوى، ولكن لنفس رقيقة ذات أعصاب عالية دقيقة ترتاح للعزلة النبيلة وتجد سعادة قدسية كاملة فى الصلاة الانفرادية، قد تكون هذه العلنية المستديمة وهذا الجهد البالغ غير المحدود، مما يورث الضجر والسآمة إن لم تماسك الروح بعطف وحب غير متناهيين. وقلب المخلص كان مليئا بهما. وربما فى هذه الفترة وقعت الحادثة التى حفظها لنا مرقس البشير وحده، إذ أن ذويه وألصق أقربائه لما سمعوا ما كان يعمل يسوع أتوا من موطنهم، قانا أو كفر ناحوم، لضبطوه ويمسكوه (٢). لقد أخطأ الذين نقلوا أخباره إذ لم يدركوا السمو الذى فى كلماته وأفعاله وحرارة لهب رأفته ونيران حبه الآكلة، ونظروا إلى ذلك كله

---

١ ـ أوغسطينوس.

٢ ـ مر ٣ : ٢١ (يضبطوه) كلمة غير جلية أقرب المعانى إليها "ذووه" وكلمة (ليمسكوه) قد وردت فى ٢ مل ٤ : ٨ مرادفة ليأكل خبزا وهذا جعل وردسورث يغلو فى ظن بعيد "ان أم يسوع كانت تقلد المرأة الشونمية فى سلوكها مع النبي اليشع إذ اجتهدت أن تمسكه ليأكل خبزا". وهذا رأى بعيد الاحتمال.

كأنه زيادة فى الحساسية ،ومغالاة فى الشعور ، بل كأنه شرود العقل وذهوله ، بل جنون الاحسان والغيرة . وكثيرا ما خلط العالم بين حماس الغـــيرة وشذوذ العقليـــة الجبارة المشوشـــة .

[أنت تهذى يا بولس] (١) . كانت الملاحظة الوحيدة التى استخلصتها غيرة الرسول وبلاغته من نفس وعقل الحاكم الرومانى المتشبع بالتهكم والاستهزاء والمضنى بالانهماك فى الملذات .

[به شيطان] (٢) . كان كل ما وصل اليه كثير من السامعين الثقيلى الفهم بعد انصاتهم إلى جانب من أرق وأسمى أحاديث السيد . « أى متعصبين عديمى العقل » ، كان ما رآه بعض متهكمي القرن الثامن عشر عن ولسلى وهويتفيلد . شبيها بهذا بل وأكثر قسوة كان الفكر الذى ملأ رءوس أقرباء يسوع المندهشين عندما رأوا النشاط المفاجىء العجيب بعد ثلاثين عاما قضاها فى عزلة هادئة فى خفاء غير ملحوظ . وحتى ذلك الوقت لم يرتبطوا معه بمحبة واعزاز ، ولم يعرفوه ولم يؤمنوا تماما به ، فقالوا [انه شارد العقل] . كان عليهم أن يعلموا بعدئذ بعديد من البراهين الدامغة أنه لم يكن منهم ، وانه لم يعد بعد مجرد النجار أخى يعقوب ويوسى ويهوذا وسمعان ، ولكن ابن الله مخلص العالم .

---

١ - اع ٢٦ : ٢٤ قارن ٢ كو ٥ : ١٣ .   ٢ - يو ١٠ : ١٠ .



نايين وجبل طابور " من بعيد "

الفصل العشرون

يسوع في نايين

أفعلك للأموات تصنع عجـائب أم
الأخيلة تقوم تمجدك . مز ٨٨ : ١٠

ان كان التوقيت الوارد فى أنجيل لوقا (٧ : ١١) حرفيا (١) ، لوجب أن يكون قد رحل يسوع فى نفس اليوم الذى أعقب حدوث الوقائع السالفة من كفر ناحوم إلى نايين ، لأن حادثة لمسه الأبرص والتقولات التي أثارتها ألزمت يسوع أن يرحل إلى حين عن كفر ناحوم .

---

١ - حوادث هذا الفصل مستقاة فى الأغلب من لو ٧ : ١١ - ٥٠ . حقيقـة حادثة ارسال تلميـذى يوحنا المعمـدان دونها أيضـا مت ١١ : ٢ - ١٩ . كلمة (فى اليوم التـالى) وردت فى لو ٩ : ٣٧ أيضا ولكن نفس الكاتب لم يدونها فى اع ٢١ : ١ و ٢٥ : ١٧ .

ونايين الآن قرية بائسة قذرة تبعد نحو خمسة وعشرين ميلا عن كفر ناحوم ، وتقع على الجرف الشمالى الغربى لجبل الدوحى أو حرمون الصغير . والاسم الذى ما زال علما عليها معناه « الجميلة » ، لأن موقعها قرب « أندور » قابعة كالعش بجـــال فائق على منحدرات الجبل الفخم ، ومشرفة تماما على « طابور » ومرتفعـات زبولون يـبرر هذا الاسـم الملـق .

وبكر يسوع كما يفعل الشرقيون دائما ليسافر فى ساعات الفجر الرطبة ، والغالب أنه رحل بحرا إلى طرف البحيرة الجنوبى ، وبعدئذ نزل إلى بطن وادى الأردن إلى البقعة التى تنحدر منها منخفضات « ازدرائليون » ، ومنها يسهل الوصول تاركا جبـل طابور على اليمين وأندور على اليسار إلى تلك القرية الصغيرة بعد الظهيرة بقليل .

وفي هذه الفترة الباسمة المحبوبة من كرازته كان يصحبه عادة ليس تلاميـذه فقط ولكن أيضا جمع فرح متعبد . وبينما كان هذا الموكب السعيد - الملىء بآمال عالية وغالبا بأفكار مخطئة عن الملك الآتى - معتليا الطريق الضيق الصخرى المؤدى إلى باب نايين ، قابله موكب آخر حزين قادم منها ليـــدفن شابا خارج أسوارهـا (١) . وكان يبدو أن الألم أعمق من المعتاد ، وربما أيضا فى هذه الأمة الشديدة العواطف كان النوح أشد مرارة وإخلاصا من الصراخ العادى ، لأن هذا الشاب هو - كما ذكر البشير بلغـة أشد عمقا وتأثيرا لـكامل بساطتها والتى حينما تقع على أذن اليهودى تثير شعورا من الحزن أعمق مما تفعل فينا (٢) - [ابن وحيد لأمه وهذه كانت أرملة] . وهـذا المنظـر

---

١ - عادة يهودية قديمة . الطريق غير معبد قرب مدخل نايين يجب أن يضـاف إلى الأماكن المؤكدة لحوادث حياة يسوع . والمدفن الصخرى المجاور للتل ربما كان يرجع تاريخـه إلى عهـد المسيح ، وإلى أحد قبوره كان سيحمل جثمان هذا الشاب .

٢ - لأنه من جهة كان يعتبر مصيبة عظيمة أن يموت المرء دون خلف ومن جهـة أخرى لأن موت الخلف كان يعد عقابا مباشرا للخطية (ار ٦ : ٢٦ و زك ١٢ : ١٠ و عاموس ٨ : ١٠) .

المفجع مس قلب المخلص المحب الرفيق بقوة لا تقاوم فتوقف لحظة ليقـــول للأم [لا تبكى] . وللمرة الثانية لم يراع المراسيم الظاهرية بل دنا ولمس النعش ، أو بالحري اللحد المكشوف الذى فيه الشاب الميت . ولا شك أنها كانت لحظة انحبست فيها الأنفاس انتظارا لما عسى أن يكون . ووقف الحاملون بدون أن يؤمروا مما اعتراهم من رهبة لا توصف . وحينئذ دوى فى قلوب الحزانى المبهوتين وقلوب المشيعين الصامتين ذلك الكلام الهادىء [أيها الشاب لك أنت أقول قم] (١) . هل دوى أيضا هذا المقطع المخيف في مجهولات الموت ووحدته غير المدركة ؟ وهل دوى فى الظلمات الكثيفة - الأشد حلكا من ظلام الليل - التى حجبت دائما عن نظر الانسان ما وراء القبور ؟



قبــور شقت فى الصخـر

---

١ - (قم) من الطبيعى أن نظن أن السيد استعمل نفس الكلمة بالآرامية فى اقامة ابنة يايرس (طاليثا قومى) مر ٥ : ٤١ .

نعم ... لأن الميت قام وبدأ يتكلم وسلمه يسوع إلى أمه .

لا عجب إن كان قد اعترى الجميع خوف عظيم . ربما ذكروا ايليا وأرملة صرفة ، أو اليشع والمرأة الشونمية ، فهما أيضا النبيان الأعظمان اللذان قد أعاد كل منهما إلى الحياة ولداوحيدا لأم ثكلى ، ولكنهما فعلا ذلك بتضرعات أليمة وجهود عظيمة ، مصارعين فى الصلاة ، متمددين على جسم الميت (١) ، بينما صنع يسوع هذه المعجزة عرضيا ، وبهدوء ، وفى الحال ، وباسمه ، وبسلطانه ، وبكلمة واحدة منه . لذلك ما استطاعوا إلا أن يقروا قائلين [وافتقد الله شعبه] .

وحوالى هذا الزمان بل ربما فى ذات اليوم (٢) وصلت إلى السيد رسالة صغيرة مضطربة من سابقه العظيم يوحنا المعمدان . ونفس اختصار الرسالة زاد فى روح الشدة والحزن التى تنطوى عليه . قال [أأنت هو الآتى أم ننتظر آخر] (٣) .

هل كانت هذه رسالة من ذاك الذى كان أول من عرف وأعلن أن المسيح هو حمل الله ؟ هل كانت هذه رسالة من ذاك الذى ابتهج إذ رأى السماء مفتوحة والروح نازلا على رأس يسوع مثل حمامة ؟

لقد ظن بعضهم أن هذه الرسالة قصد منها فقط ابعاد الشك عن تلاميذ يوحنا الذين تملكتهم الغيرة وانكسرت قلوبهم . وظن البعض أن السؤال يعنى فقط « هل أنت المسيح الذى شهدت أنا له » (٤) . وظن آخرون أن الرسالة لا تنطوى على تردد

---

١ - ١ مل ١٧ : ٢١ و ٢ مل ٤ : ٣٥ .

٢ - مت ١١ : ٢ - ١٩ و لو ٧ : ١٨ - ٣٥ . اننى أعلم أن ما يقوله ستير وغيره يخالف ذلك ، ولكنى لست ميالا لذكر الأسباب والبراهين فى كل خطوة .

٣ - الكلمة الواردة فى مت ١١ : ٣ تعنى حرفيا إما مصبحا " ثانيا " أو " خلافك " . أما الواردة فى لو ٧ : ١٩ فتعنى " آخر " . وإذ أن التلميذين تكلما بلا شك بالآرامية فهذا اختلاف يجب ألا يؤبه به .

٤ - الذين يظنون هذا الرأى يستندون فى الأغلب على أن ما ورد فى مت ١١ : ٢ هو أن

مخفى ، ولكن المقصود منها إيعاز مشرب بالجبن بأن الوقت قد حان ليظهر يسوع ذاته كمسيح أمته ، ورمز آمالها ، ومعيد حكومتها الكهنوتية . وظن غيرهم أيضا أنها توبيخ رقيق لترك صديقه وبشيره يتعذب فى سجنه بدون أن يجرى له معجزة مثل التى سرت عنها الأخبار . كل هذه الظنون التى كأنما استثيرت لانقاذ شهرة المعمدان هى جميعها على أحسن وجه غير صحيحة الاستناد فى كلياتها ومخالفة لنفس تعبير الكلمات فى جزئياتها . ويوحنا المعمدان فى عظمته الجريئة غير محتاج لمساعدتنا الضئيلة أو أن نجود عليه بظنوننا الحسنة . ونحن نستخلص من ذات كلمات الذى فى هذه الأزمنة عينها خلع عليه أعظم تقريظ لانسان آدمى ، نستخلص أن هذا النبى العظيم والنبيل ربما وجد حجر عثرة فى إيمانه من ترك المسيح إياه فى السجن [مت ١١ : ١١] .

وهل هذا غير طبيعى ؟ وهل هذا التردد مما يلام عليه يوحنا ؟ إن كل من يعلم شيئا عن القلب البشرى لا يتعجل فى الحكم ضده . فحياة أعظم مواليد النساء كانت قصيرة ومحزنة ، بل كانت تقويما مؤلما حافلا بالمخاطر والسحب القاتمة . ومع أن كل الناس قد تهافتوا جماعات ليسمعوا الواعظ النارى فى البرية ، فالأثر الحقيقى الذى تركه فى عقول الأمة لم يكن عميقا ولا ثابتا (١) ، حتى اننا نستطيع أن نقول مع الشاعر الاسكتلندى :

من سمع صوته أو أطاع صراخه ؟

إنما المغارات الصخرية فقط قد رددت رجع الصدى « توبوا ... توبوا »! وحتى قبل أن تصل كرازة يسوع إلى تمامها ، فان قوة وأثر يوحنا تضاءلا مثل النجم قبل بزوغ الشمس . ولا شك أنه شعر سريعا - وهذا الشعور جد مرير لأى قلب بشرى - أن رسالته فى هذه الحياة قد انتهت ، وانه لم يتبق أمر مهم عليه أن يتمه . حقيقة إن لحظات مثل هذه مليئة باليأس الشديد الكاسر للقلوب قد مرت فى حياة سابقيه العظام وحتى فى حياة موسى وايليا ، ولكن الأمر كان أشد بكثير مع يوحنا المعمدان عن غيره ، إذ

---

١ - مت ١١ : ١٨ و ٢١ : ٢٣ - ٢٧ و يو ٥ : ٣٥ .

أن صديقه ومخلصه كان معاصرا له ، وليس على مسافة بعيدة منه ، وفي كامل عظمتـه ، ويعمل كل يوم معجزات تشهد لأرساليته، ومع ذلك فلم ير يوحنا هذا الصديق والمخلص مرة أخرى على الأرض . لم يحبوه بزيارات تعزية أو محادثات تقـويه ، بل أحيط فقط بردود سامعين تضاءلت حتى محبة الاستطلاع فيهم ، وبحسد تلاميـذ ذات شهادته كسرت قلوبهم . وبعدئذ زاد معين البؤس إذ أن هيرودس أنتيباس - أحقـر وأضعف وأوضع رؤساء الربع وأشدهم استحقاقا للامتهان ، ربما متأثرا من الاعتبارات السياسية ، وربما حانقا من توبيخ يوحنا الصريح والعادل لحياة الفجور التي يعيشها - بعد أن سمع أولا للمعمدان استولت عليه مخاوف الخرافات التي تلازم دائما الماكـر الضعيف ، وانتهى به الأمر بالخنوع لغضب هيروديا فرمى يوحنا فى السجن .

يخبرنا يوسيفوس أن هذا السجن هو حصن ما كيروس أو ما كور ، وهو سراي ضخمة مقبضة بناها اسكندر جانيوس ودعمها هيرودس الكبير ، وهي واقعة على حدود الصحراء شمال البحر الميت وعلى تخوم العربية (١) . ونحن نعرف الكفاية عن القصور النائية وعن السجون الشرقية لنتيقن مقدار المخاوف والمكاره التي تحيط بأي إنسان فى مثل هذه السجون . وأى احتمالات لتعذيب أليم ، وأى خطر يومى للمـــوت غيلة بصنوف القسوة ؟ ! كم من المرات فى تاريخ العالم قد انسحقت أرواح كريمة لا غبار عليها ، وخارت نفوس قوية ، وأصابها ضعف النساء فى مثل هذه السجـون التى لا أمل فى الخلاص منها . فبعد أن ينتهى الغضب النبيل الأولى أو يضمحل التسليم الشجـاع المبدئى ، وبعد أن يصدأ ويتآكل الاحتمال الحـديدى للنفس من جراء الاكـراه على البطالة والوحدة التى تورث الخبل ، وبعد أن ينكمش القلب الكبير من الضعف الجسمانى واليأس من حياة آسنة فى أعماق الظلمة المنفردة ، بعد كل هذا من يسأل عن مقدار الدرك الذى يصل إليه الانحلال ؟ لقد كان لسافورولا ، وجيروم براج ، ومارتن لوثر

---

١ - اكتشفت بقايا هذا الحصن سنة ١٨٠٧ وزارها الدكتور تريترام .

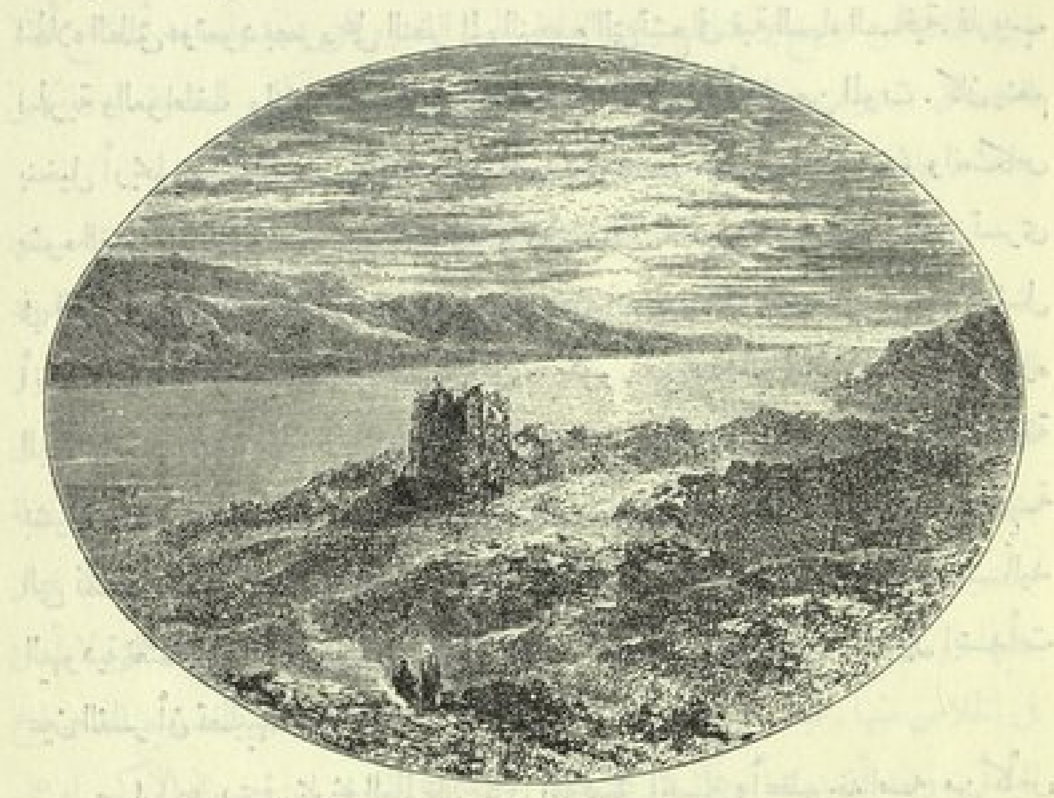
شجاعة ساعدتهم مثل المعمدان أن يقفوا دون رجفة أمام مجامع غاضبة وملوك صاخبة، فهل يستطيع أحد أن ينتقص من صلاحهم وعظمتهم ويرمى أى ظل من الدينونة أو المؤاخذة عليهم لتردد الأول والثانى وهما فى مغاور سجون فلورنس وكونستانس أو لما ساور روح الثالث من خيالات الجنون الخفى وهو فى سجن سراى ورتبرج؟

ولا شك أن السجن ليوحنا المعمدان كان أشد وأقتل، لأن ذلك النذير قضى حياته فى البرية والحرية، وعاش دائما وسط مناظر وأصوات الطبيعة، وتنفس بمسرة نسيم الخلاء الطلق، وتعود بصره على النظر إلى النجوم التى تشع فى قبة السماء الصافية. فلربيب الحرية والعواطف ولنفسه الخشنة التى لم تألف كان السجن أفظع من الموت. كان ينعم بنخيل أريحا، وبلسان جلعاد، ولعب الغزلان وسط الجبال المنفردة، وانعكاس ضوء القمر على الأمواج العجيبة للبحيرة المالحة، والآن لا شىء سوى الرطوبة التى تسرى فى البدن، والأصفاد الثقيلة، وخابية السجن المظلمة، ووحشية سجان يستخدمه مثل أنتيباس رئيس الربع الحقير فى حصن مثل ما كور. فى هذا السجن الأسود، وصخوره البركانية، ومياهه الحمية التى تتصعد منها روائح قطرانية، والذى كان مسكونا فى الحقيقة بشياطين من الوحشية الآدمية والرذيلة البشرية أنحس بكثير من الممسوخات الخرافية التى نصفها ماعز ونصفها إنسان، وأشنع من المخلوقات الكئيبة التى كانت التقاليد اليهودية تعتقد أن هذا الحصن وكل ضواحيه مسكون بها. لا عجب إن ابتدأت عين النسر أن تصيبها غشاوة.

مرارا عديدة فى تاريخ العالم ظهر كأن الله يسق أحسن وأعظم خدامه من كأس الخيبة حتى الثمالة، أو ينقلهم إليه فجأة بضربة الاستشهاد الحادة، أو يرميهم بين براثن مرض مطول قبل أن يتيح لهم ولو نظرة واحدة لنتيجة عملهم، ويطرحهم جانبا كأنهم آلات مكسورة لا نفع منها للغرض الذى أعدوا له، وذلك قبل أن يتوج بنجاح خالد وبركة فائضة الحياة التى ظنها الجاهلون جنونا، والنهاية التى خالوها أنها بلا كرامة انسانية.

إنما هذا جزء من نيران الرحمة التى بها يصفى الزغل من الذهب المحمى سبعة أضعاف الذى لروح ستكون مستحقة للهناء الأبدى .

ولكن لم تأت هذه التجارب المؤدبة فى أشد من الصورة التى أتت بها إلى يوحنا . لأنه ظهر كأنه لم يهمل فقط من الله في الأعالى ، ولكن أيضا من ابن الله الحي على الأرض . فبينما كان يوحنا يذوب فى سجن هيرودس كان يسوع فى مسرة بساطة الكرازة الجليلية يعظ جموعا منهللة بين زنابق الحقل أو من على أمواج البحيرة البهيجة.



البحر الميت فى ضوء القمر

آه ... ! لماذا يدعه الآب فى السماء وصديقه على الأرض يرزح فى هذا البؤس المخيم على الأرواح ؟ ألم تكن حياته طاهرة ؟ ألم تكن كرازته أمينة ؟ ألم تكن شهادته صادقة ؟ آه ... ! فلماذا لا يدعو ذاك الذى شهد له عبر الأردن فتنزل نيران من السماء

فتذرى هذه الأبراج المجرمة القذرة ؟ ألا يستبق من بين معجزاته المتعددة واحدة لقريبه البائس الذى سبق أمامه ليعد طريقه ؟ ألا يوجه من بين عديد كلماته الرحيمة الرؤوفة قليلا منها لذلك الذى رفع الصوت فى البرية ؟ لماذا لا يزعزع ابن داود بزلزلة عظيمة أساسات هذه السجون الآدومية حيث ذبح كثير من الأسرى النبلاء ظلماً وعدواناً ؟ أو لم لا يرسل واحداً من الاثنى عشر جوقاً من ملائكته ليطلق سراح سابقه وصديقه ويرده ولو للصحراء الموحشة مرة ثانية فيقنع أن يقضى حياته منفرداً بين الحيوانات الكاسرة تحت قبة سماء الله بعيداً عن خسة الانسان الظالمة ؟ فأى عجب إن قلنا ثانية إن عين النسر الأسير بدأت تصيبها غشاوة !

[أأنت هو الآتى أم ننتظر آخر] ؟

لم يجاوب يسوع على هذا السؤال مباشرة بل أرشد التلميذين وجعلهما ينظران بأعينهما بعض الأعمال التى سمعوا عنها حتى ذلك الوقت بآذانهم فقط ، وبعدئذ استشهد بالاصحاح الحادى والستين من أشعياء ، ثم أمرهما أن يعودا إلى سيدهما بالرسالة أن العمى يبصرون ، والعرج يمشون ، والبرص يطهرون ، والصم يسمعون ، والأموات يقومون (١) ، وفوق الكل وأعظم من الكل ، أن بشارة الفرح ينادى بها المساكين . ويمكننا أن نتخيل بأى حنان عميق قد أضاف بعدئذ [وطوبى لمن لا يشك فى] . طوبى لمن لا يعثر فى رغم الأحزان والاضطهادات . طوبى لمن يؤمن أننى أعرف ارادة الذى أرسلنى إلى التمام وكيف ومتى أتمم مشيئته .

وقد يسهل أن نتخيل - ولو أن هذا لم يدون لنا - أن التلميذين انصرفا بعد أن زودهما يسوع بكلمات خاصة من الحب والتشجيع لذلك السجين العظيم الذى كانت نهايته تقترب ، كلمات هى أحلى عنده من قطر الشهاد الذى كان يشبع جوعه في البرية وأعز من

---

١ - (الأموات يقومون) حتى لو أن المعنى الروحى لم يكن هو المقصود من هذه الكلمات كما هو ظاهر ، فان معجزة إقامة ابن أرملة نايين التى صنعها قريبا تبرر هذا الاقتباس .

ينابيع المياه للأرض الناشفة .

فلما ذهب هذان التلميذان - حتى لا يتهم يسوع بتملق عاطل وفي الوقت ذاته ليمنع أن يتسرب فكر واحد خاسر إلى ذهن سامعيه عن نبي الصحراء العظيم - تكلم عن صديقه وسابقه بلغة عذبة وحب كامل ونطق بالمديح الخالد ، معلنا أنه الصوت الموعود به فى الفجر الجديد لليوم النبيل ، أعظم المرسلين من الله . إنه إيليا الذى ذكرت النبوة القديمة انه سيتقدم مجىء المسيح ليعد طريقه .

[ماذا خرجتم إلى البرية لتنظروا] ؟

[أقصبة تحركها الريح] ؟

[بل ماذا خرجتم لتنظروا] ؟

[أإنسانا فى ثياب ناعمة] ؟

[ها هم ذوو الثياب الناعمة فى بيوت الملوك] ! (١)

[بل لماذا خرجتم] ؟

[ألتنظروا نبيا] ؟

[نعم أقول لكم انه أفضل من نبي لأن هذا هو المكتوب عنه ها أنذا أرسل ملاكى قدامك فيعد طريقك أمامك] .

بعد أن انتهى من هذا التقريظ الشعرى الحي ابتدأ يتكلم بوضوح أتم عن نفسه وعن يوحنا قائلا انه وإن كان يوحنا أعظم وآخر أنبياء العهد القديم لكن الأصغر فى ملكوت السموات أعظم منه . وللايجاز الذى دونت به هذه الكلمات فمعناها غير محقق تماما ، ولكن بلا شك ان العظمة المقصودة هنا هى فى الاستحقاقات الروحية

---

١ - فى لوقا (ها هم ذوو لباس المجد والنعيم فى بيوت الملوك) يوحنا أيضا دخل بيوت الملوك ولكن لا ليتملقهم بل ليزجرهم . وقد لاحظ لانج بحهل أن يوحنا لم يكن قصبة مرضوضة تحركها الرياح ولكن بلوطة نزعت العاصفة بعض جذورها .

وليس رفعة المركز . يقول مثل قانوني « الأقل من الشيء العظيم أعظم من الأعظم من الشيء القليل » ففي المعرفة المعلنة ، والرجاء الذي لا حد له ، وفي الارتباط الوثيق بيننا وبين أبينا والهنا ، أصغر طفل في عهد النعمة قد وهب عطايا أعظم من أعظم نبي في العهد القديم . وملكوت الله هذه التي اقتربت الآن يقدر أن يغتصبها الجميع بقوة مقدسة بهجة . ومثل هذه القوة المتحمسة - الطبيعية لكل الذين يجوعون ويعطشون من أجل البر - تكون مقبولة في عيني الله (١) .

إن كثيرين ممن سمعوا هذه الكلمات - سيما العشارين والشعب الذي كان الكتبة والفريسيون يهزأون منهم ويدعونهم « رجال الأرض » - قبلوا بفرح وشكر هذا المديح ووثقوا بيوحنا ، أما القامون معلمين للناموس المكتوب والشفوي فأصغوا لهذه الكلمات بكره وازدراء . ودهش يسوع لهذا التناقض فضرب لهم مثلا عن الأولاد المدللين الذين يرفضون كل مجهود من إخوانهم لتفريحهم وتسليتهم . لا شيء يمكن أن يسر طبائع مرة متمردة مثل التي لهم ، فهم لا يسرون بالمزمار ورقص الصغار الذين يعزفون ويمرحون كما في عرس ، ولا بالنواح الطويل لجنازة مصطنعة . وحكمة الله البالغه قد أظهرت لهم في مناسبات عديدة وبطرق مختلفة (٢)


غاب فلسطين (اوندودينا كس)

---

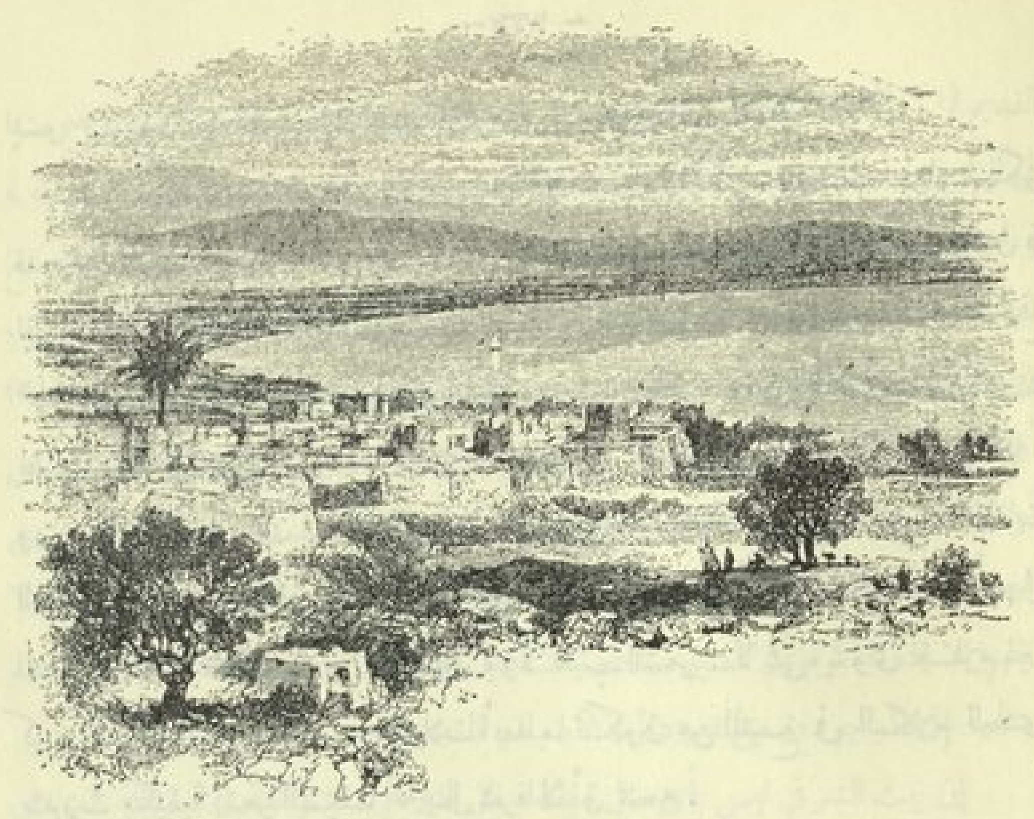
١ - قارن اش ٦٠ : ٨ و ١١ و لو ٥ : ٥٠ و ١٣ : ٢٤ .
٢ - أف ٣ : ١٠ و عب ١ : ١ .

ولكن بدون جدوى . جاءهم يوحنا في تقشف صارم فقالوا عنه مجنون ، واشترك يسوع في وليمة العرس فقالوا عنه أكول وشريب خمر (١) . فالحكمة تبرأت (٢) من جميع بنيها . أما الذين تصيبهم الافتراءات الباطلة ولم يدنسوا بساطتهم الألهية ، فمع أن الحمقى يحسبون أن حياتهم جنون وآخرتهم ستكون بلا كرامة إلا أن الأصغر فيهم سيصير بين أبناء الله وسيكون نصيبه مع القديسين (٣) .

١ - مت ١١ : ١٦ - ١٩ و لو ٧ : ٣١ - ٣٥ . الترجمة أكول وشريب تشعر بالمغالاة وربما لا تعني أكثر من "متبسط" أو قد تعني أكثر من هذا في الآرامية . شريب خمر وردت في أمثال ٢٣ : ٢٠ .

٢ - (تبررت) وفي هامش النسخة القبطية تبرأت أو تركت . قد تعني كلمة ملكوت السموات في هذا الموضع جماعة الرسل إذ يمكن اعتبارهم الملكوت الجديد في ذلك الحين فيكون أصغر واحد فيهم أعظم من يوحنا .

٣ - حكمة ٥ : ٤ و ٥ و مز ٥١ : ٤ و رو ٣ : ٤ . لقد وضعت في المتن التفسير الذي أعتقد أنه الأصح دون تطويل أو ابداء ملاحظة أو ذكر مصدر ، واتبعت هذا الطريق في أماكن أخرى .



مجدلة وبحيرة الجليل

الفصل الحادي والعشرون

الخاطئة والفريسي

لرائحة أدهانك الطيبة اسمك
دهن مهراق . نش ١ : ٣

ظاهر أن أعمال وأقوال اليوم السالف لم تنته ، لأنه كما يستدل من بشارة لوقا ، فى نفس اليوم ، ربما في نايين وربما فى مجدلة ، قد أجاب

يسوع دعوة أحد الفريسيين الذى كان يحمل الاسم الذائع « سمعان » (١) .

أما سبب هذه الدعوة أو الغرض منها فلا نعلمه ، ولكن حتى ذلك الحين لم يكن قد وقع خلاف كبير أو ظاهر بين يسوع وشيعة الفريسيين ، فربما ظنوا أنه يكون ذا نفع لهم كآلة سهلة للوصول إلى مآربهم السياسية والاجتماعية ، أو ربما يكون قد دفع سمعان حب الاستطلاع أو رغبته فى إضافة معلم شهير نابغ ، ومن الجائز أنه أراد أن يظهر استحسانا خفيا وموافقته على شيء استرعاه فى نظرات يسوع أو كلماته أو أعماله . وواضح جدا أنها كانت استضافة مقيدة ، وروعى فيها إظهار التنازل . فكل الاهتمامات العادية التى توجه لزائر محترم قد أهملت عن قصد وبرود ، فلم يكن هناك ماء للأرجل المتعبة المتربة ، ولا قبلة ترحيب على الخد ، ولا طيب للشعر . لا شيء سوى تقديم غير كريم لمكان خال على المائدة ، ومجاملات أبعد ما تكون عن المتبع فى الكلام العادى صدرت بكيفية تشعر الضيف أنه ينال شرفا لا أن يمنحه .

يخلع كل ضيف عندما يدخل منزلا فى سوريا أو فلسطين نعليه ويتركهما عند الباب لكى تبقى الحصر أو السجاجيد التى تقدست بالصلوات المنزلية نظيفة لا تتنجس بأقذار الطريق . وبعدئذ يتخذ مكانه على المائدة . وفى الأزمنة الأولى ، كما يتضح من العهد

---

١ ـ لو ٧ : ٣٦ ـ ٥٠ . الذين يقولون أن هذه الدعوة فى بيت سمعان الفريسى فى الجليل هى نفس الدعوة المتأخرة عن هذا الوقت جدا فى بيت سمعان الأبرص فى بيت عنيا ، ودهن القدمين من امرأة خاطئة فى المدينة هو دهن الرأس من مريم أخت مرثا ، يتعرضون لنقد كبير إذ أن هذا الرأى فى حكم المستحيل . أما عن الاسمين سمعان ويهوذا اللذين جعلا كثيرين يلتبس عليهم الاسم لأشخاص مختلفين وحوادث مختلفة فكانا اسمين شائعين جدا فى تلك الأيام مثل اسمى جرجس وحنا فى يومنا هذا . ولقد أتى فى الأناجيل ذكر ستة أشخاص باسم "يهوذا" و ٩٥ شخصا باسم "سمعان" ، وفى الرسائل ذكر شخصان باسم "يهوذا" وشخصان باسم "سمعان" وذكر يوسيفوس ١٠ باسم "يهوذا" و ٢٠ باسم "سمعان" فى كتاباته . ولا شك أنه كان يوجد مئات يحملون هذا الاسم فى ذلك الوقت . أما هذان الحادثان بالذات فلا يوجد أدنى شك فى أنهما مختلفان .

القديم (١) ، كانت عادة اليهود أن يجلسوا متربعين عند الأكل - كما هو المتبع إلى يومنا في الشرق - أمام طبق كبير (صينية) موضوع على كرسي منخفض وعلى « الصينية » وعاء فيه كمية كبيرة من الطعام يتناول منه الجميع طعامهم . ولكن هذه العادة ، مع انها مكثت قرونا عدة ، فقد تنازل اليهود عنها منذ الفترة التي أعقبت السبي . وسواء قد استعارو عادة الاتكاء من الفرس أو من غيرهم ، فالمؤكد من التعبيرات المدونة (٢) أن اليهود في أيام السيد كانوا مثل اليونان والرومان يتكئون وقت تناول الطعام على أرائك موضوعة حول موائد مرتفعة مثل التي نستعملها الآن . وسنرى فيما بعد أنه حتى الفصح كان يؤكل على هذا النحو . والحادثة الجميلة المؤثرة التي وقعت في بيت سمعان لا تفهم إلا إذا تذكرنا أن الضيوف كانوا متكئين على الأرائك حول المائدة وأرجلهم متجهة إلى الموجودين من غير دائرة الأضياف المدعوين .

إن بيت الشرقي ليس بأي حال معقله ، فإن الذيوع المنتشر لقانون الضيافة التي هي بالتأكيد أول الفضائل الشرقية يكاد يجعله يعيش وأبواب بيته مفتوحة ، وأي شخص في أي وقت يمكنه الولوج إلى داخله . ولكن في هذه الفرصة كانت هناك من احتاجت أن تستفز شجاعتها لكي تتطفل في الدخول إلى ذلك المكان المحترم ، لأن وجودها لم يكن فقط غير مرغوب فيه ولكن بالتأكيد أيضا كان مثيرا للدهشة .



جالسون للطعام

من ملف من القرن الثامن محفوظ بمكتبة باريس

١ - لا نسمع عن الاتكاء إلا بعد السبي استير ١ : ٦ و ٧ : ٨ .

٢ - الكلمات المستعملة "يتكيء" في لو ١١ : ٣٧ و يو ٢١ : ٢٠ و طوبيا ٢ : ١ . "يتكيء على المائدة" في لو ٧ : ٣٧ وقارن عزرا ٤ : ١٠ و "يتكيء إلى خلف" في لو ٧ : ٣٦ و ١٢ : ٣٧ ويهوديت ١٢ : ١٥ قارن رئيس المتكأ (يو ٢ : ٨) .

امرأة مسكينة ، ملطخة ، ساقطة ، اشتهرت بحياة شريرة ، اكتشفت [لو ٧ : ٣٧] أن يسوع يأكل في منزل ذلك الفريسي ، فتجرأت أن تشق طريقها وسط باقي الزائرين العديدين حاملة صندوقا من المرمر فيه طيب . وإذ وجدت من تفتش عنه ، وقفت باتضاع خلفه وأنصتت لكلماته ، وفكرت فى كل ما هو عليه وما انحدرت هى إليه ... ! فكرت فى النبي الشاب الطاهر غير المدنس ، وقداسته الخالية من الاثم ، وفي حياتها الخسيسة المليئة بالاثم ، وابتدأت تبكى . وتساقطت دموعها مدرارا على قدميه العاريتين وقد انحنت عليهما أكثر فأكثر لتخفى ارتباكها وعارها . ولو كان هو الفريسي لارتد مذعورا لمجرد لمسها إياه وبالأحرى من دموع امرأة مثلها ، ولهرع يتطهر من النجاسة التى يخال أنها لحقته ، ويطرد المسكينة المتطفلة الجريئة بلعنة . ولكن هذه المرأة شعرت بفطرتها أن يسوع لن يعاملها كذلك ، لأنها شعرت أن الطهارة الكاملة هى أيضا الرأفة الأعمق ، وعلمت أيضا أن التظاهر الشديد بالكرامة الذي لزميلها الخاطىء قد يطردها ولكن القداسة الكاملة لمخلصها سترحب بها . وربما تكون قد سمعت كلماته المتناهية فى الرقة والسمو والتى ربما يكون قد نطق بها فى نفس اليوم (١) [تعالوا إلى يا جميع المتعبين والمثقلين بأحمالهم وأنا أريحكم] . وإذ لم يوبخها يسوع تشجعت وتأكدت أنه مهما قد يفعل بها الآخرون فيسوع على كل حال لن ينتهرها أو يزدريها ، فاقتربت منه أزيد وركعت على ركبتيها ، وابتدأت تمسح بشعرها المسدول القدمين اللتين بللتهما بدموعها ، ثم غمرتهما بقبلها ، وأخيرا كسرت القارورة المرمرية ودهنتهما بطيب ناردين كثير الثمن .

منظر تلك المرأة وقد حلت شعرها ، وتواضعها ، وآلام توبتها ، وهاطل دموعها ، وتضحيتها بذلك الطيب الذى كان أحد وسائل صناعتها غير الطاهرة ، كان يؤثر حتى في

---

١ - ذكرت هذه الحادثة فى انجيل متى متابعة للحوادث السالفة (١١ : ٢٨) ولكن ظاهر أن متى هنا دون أحاديث أو أجزاء أحاديث فى أزمنة مختلفة .

العواطف المتحجرة ويستدر منها الشفقة . ولكن سمعان الفريسى نظر إليها بكراهية واشمئزاز وبرود ، ولم تحرك عواطفه الرغبة الطيبة التى أبدتها المرأة المحزونة اليائسة الكسيرة ولا تضرعها القلبي . لم يكفه أن يسوع قد احتمل هذه المخلوقة التعسة وتركها تقبل قدميه وتدهنهما ، بدون أن يكلمها هو كلمة تشجيع ، بل فكر فى نفسه أنه لو كان هذا نبي لعلم أى امرأة هذه ، ولكان قد رفضها وطردها باحتقار كما كان يفعل سمعان ذاته . بلى ، إن مجرد لمسها له يوجب العزل الناموسى ، فأية اشارة من السيد كانت تجعل سمعان سعيدا إذ يجد مسندا لطرد هذه الرجاسة من تحت سقفه .

لم ينطق الفريسى بشىء من أفكاره هذه أو يعلنها ، ولكن منظره وسلوكه الجاف ونظرة الاستخفاف البادية على وجهه والتى لم يكلف نفسه جهدا فى إخفائها ، كل هذا كشف ما كان يجول فى قلبه . وسمع (١) السيد أفكاره ، ولكنه لم يبادر فى توبيخ قسوته الباردة وجموده ، بل كى يسترعى اهتمام الجميع قال لمضيفه :

[يا سمعان عندى كلمة أقولها لك] .

فأجابه سمعان بتحفظ [قل يا معلم] .

[قال . كان لدائن مديونان . على الواحد خمسمائة دينار وعلى الآخر خمسون ولم يكن لهما ما يوفيانه فسامحهما كليهما فمن منهما يحبه أكثر] .

ويظهر أن سمعان لم تكن عنده أقل فكرة أن هذا السؤال له أية علاقة بنفسه ، كما لم يكن عند داود أقل فكرة عندما بادر بحكمه الواضح لناثان . وقال سمعان بصيغة متعجرفة (٢) وفي عدم اهتمام عجيب .

[أظن الذى سامحه بالأكثر] .

أجاب يسوع [بصواب حكمت] . ثم بدأ بعد ذلك ـ بشدة بالغة أعقبت الصبر

---

١ ـ قال أوغسطينوس معلقا على القول (سمع فكر الفريسى) " احفظ أفكارك جيدا لأن الأفكار تسمع فى السماء " .

٢ ـ لو ٧ : ٤٣ قارن اع ٢ : ١٥ .

والرقة المتناهية - فى تطبيق هذا المثل الصغير ، فضمنه ذلك القول الشاعري والمقارنة التقابلية التى كثيرا ما كان يفتهجها السيد فى تعاليمه العالية ، والتى تشابه أشعار أنبيائهم فى وقعها على آذان الذين سمعوها . ولو أن سمعان لم ير المقصود من المثل فربما قد فطن إليه الاحساس الأدق لقلب المرأة المنسحق . فما أشد موقفها وقد استدار الذى لم يلتفت حتى تلك اللحظة إليها ، وواجهها ، واسترعى انتباه كل الموجودين لكيانها المنكمش وهى جالسة على الأرض تخفي يديها وشعرها المسدول اضطراب وجهها ، وأوضح القول للفريسى المذهول فقال :—

[أترى هذه المرأة] ؟ (١)

[دخلت بيتك وماء لرجلى لم تعط أما هذه فقد بلت بالدموع رجلى ومسحتهما بشعرها] .

[لم تقبل فى أما هذه فمذ دخلت بيتك لم تكف عن تقبيل قدمى] (٢).

[بزيت لم تدهن رأسى أما هذه فقد دهنت بالطيب قدمى] .

[من أجل هذا أقول لك إن خطاياها الكثيرة مغفورة لها لأنها أحبت كثيرا والذى يغفر له قليل يحب قليلا] .

وبعدئذ ، كالختام العالى للموسيقى السامية ، أضاف ليس لسمعان بل إلى تلك المرأة المسكينة الخاطئة كلمات الرحمة : [مغفورة لك خطاياك] .

كانت كلمات السيد دائما اعلانات جديدة لكل من سمعها . وإذا حكمنا من أدلة

---

١ - (أترى) عدد ٤٤ وليس " أتلاحظ " . ربما لم يتنازل سمعان أن ينظر إليها مليا كما لو أن حتى مجرد النظر كان نجاسة لقداسته ! (دخلت بيتك) فى اليونانية الأصلية تعنى " كنت مضيفك أنت " بشىء من التوكيد . (ماء لرجلى لم تعط) أى ليصب عليهما قارن رؤ ٨ : ٣ و تك ١٨ : ٤ و قض ١٩ : ٢١ .

٢ - قارن يسوع بين (تقبل) وبين (لم تكف عن تقبيل) أى انها فعلت هذا بحماس عدد ٤٥.

بسيطة متعددة فى البشائر لوجدنا أنه كان يعقبها غالبا فى الأيام الأولى من كرازته هزة اندهاش واستحسان صامت تحولت فى تاريخ لاحق عند الذين رفضوه إلى دمدمة ساخطة وتهجمات شرسة .

كانت قوة وهيبة سلطانه الناجم عن حبه وطهارته ، والسمو الذى كان يشع من وجهه ويسمع فى صوته ، كافية لافحام سمعان واسكاته . أما الأضيـــاف فتجاسروا فى استغراب - أكثر منه فى غضب - أن يتساءلوا في أفكارهم السرية عما عـزاه لنفسه فى بساطة وهدوء من قوة غير بشرية ، فهامسوا صامتين فى قلوبهم وتساءلوا فقط [من هو هذا الذى يغفر الخطايا] . وعلم يسوع شكوكهم النفسية ، ولكن إذ سبق وتنبأ أشعياء عنه أنه [لا يخاصم ولا يصيح ولا يرفع فى الشوارع صوته] ، ولكى لا يكسر قصبة إيمانهم المرضوضة ولا يطفىء فتيلة استحسانهم واحترامهم المدخنة ، صرف برفق المرأة التى كانت خاطئة بهذه الكلمات الرحيمة:

] إن ايمانك خلصك فاذهبى بسلام [(١) .

وإلى سلام فوق كل شك قد ذهبت ...

إلى سلام الله الذى يفوق كل عقل ...

إلى السلام الذى يعطيه يسوع وليس كما يعطى العالم ...

نعود للدرس الذى نستخلصه من قصة هذه المرأة لأنه معدود من التعاليم الرئيسية التى أعلنها يسوع وهو أن الرياء البارد المليء بالأثرة مكروه فى عينى الله مثل الخطيـة الفاضحة ، وأن حياة خاطئة غير تائبة ظاهرها الاحترام ليست أقل موتا أو خطـرا من حياة بادية العار . وسأكتفي بذكر الكلمات المؤثرة للشاعر الانكليزى (٢) فهى أحسن تعليق على هذه الحادثة الجميلة :

---

١ - عدد ٥٠ لا يعنى فقط اذهبى فى سلام ولكن اذهبى إلى سلام أو لأجل السلام .

٢ - هارتلى كوليردج .

« جلست وبكت عند قدميه، وثقل الخطية يضغط على قلبها . لأن كل اللوم واللؤم والعار البشرى قد انتهى وانقضى وصار عتيقا ، وبقيت فقط حالة الخطية والبرص . وهذه ستذوب من حرارة الحب بنيران أشد من التي تلتهب لتنقى زغل الفضة وكدر الذهب . جلست وبكت ، وبشعرها مسحت الرجلين اللتين بوركت بلمسهما . وهو بدوره مسح أقذار اليأس من روحها الوديعة . لأنها أحبت كثيرا » .

فى تقليد قديم شائع في الكنائس الغربية ، تقليد سيبقى أبد الدهر غير محقق ، فى حد ذاته غير مستحيل ، ولا يمكن البرهنة على أنه غير حقيق ، أن شخصية هذه المرأة هى بذاتها مريم المجدلية التى أخرج منها سبعة شياطين (١) . وهذا الوصف الذى ألصق بها لم يذكر له مثل ويتفق مع اتقان التعبيرات العبرية التى قيلت بصددها للدلالة على طبيعة شهوانية وحياة طليقة . ويقول التلموديون الشيء الكثير عنها وعن غناها وجمالها الفتان وخصلات شعرها المعقوصة وتهتكها الفاضح وعن زوجها بابوس وعشيقها باندارا (٢) . ولكن كل ما نعلمه من الانجيل هو عمق اخلاصها وعرفانها للجميل الذى أوقفها قلبا وروحا على خدمة مخلصها . وفي انجيل لوقا فى الاصحاح التالى الذى ذكرت فيه هذه الحادثة قد ذكرت فى مقدمة النسوة اللواتى تبعن يسوع وكن

---

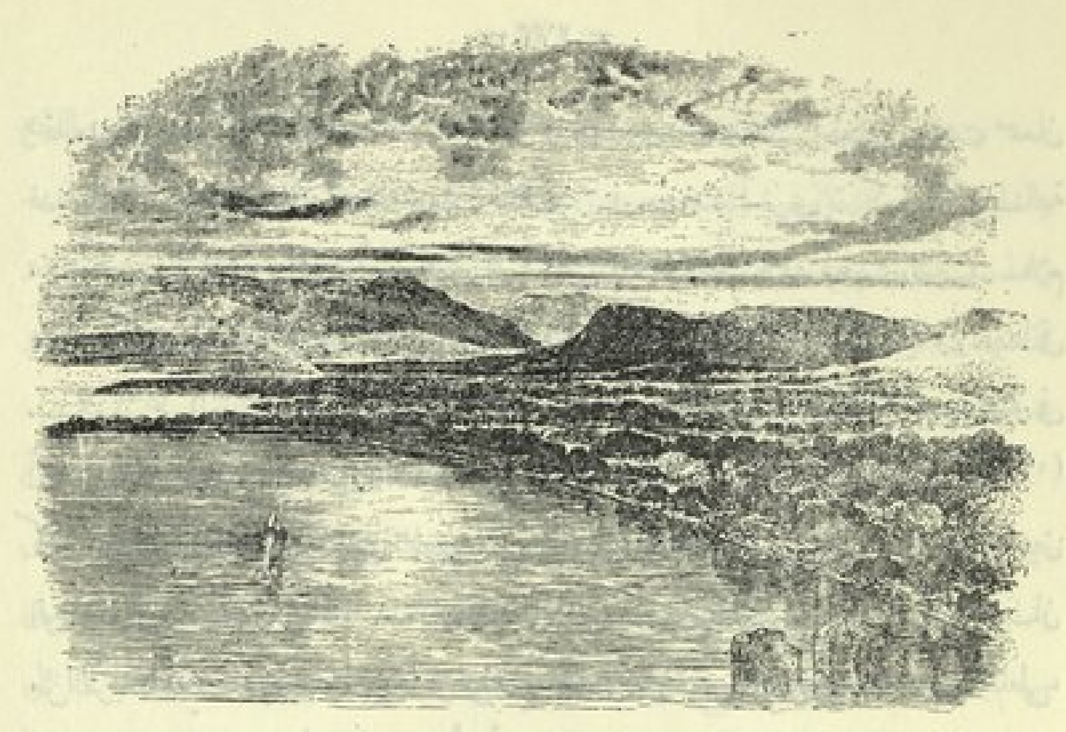
١ ـ هذا التقليد يذكره امبرواز وايريناوس وأوغسطينس وأقره غوريغوريوس الكبير . وقد يدهش كل من يطالع ما كتبه صديقى البروفسور تامتذ فى قاموس الانجيل تحت عنوان " مريم المجدلية " . إننى شخصيا أقبل احتمال هذا الرأى الذى يصفه أنه " اختلاق لا أصل له " . ولقد رددت على الاعتراضات الموهومة فى المتن وانى أختلف جد الاختلاف مع البروفسور تامتذ فى تفسيره السبعة شياطين فهذه حسب ظنه تتعارض مع القول أنها " خاطئة " ؛ فأحيله على لو ٤ : ٣٣ و مت ١٠ : ١ . ويتمسك غريغوريوس الكبير بحق أن " السبعة شياطين " قد تعنى " كثرة خطايا " وأثبت لانيفوت أن الربيين كانوا يعزون السكر والفجور لفعل الشياطين مباشرة .

٢ ـ ليعذرنى القارىء ـ وأنا أكد أنه فاعل ذلك ـ إن أنا لم أنقل كل الخرافات السخيفة الموجودة بالتلمود والخالية من كل قيمة تاريخية وأدبية .

يخدمنه من أموالهن [لو ٨ : ٢ و ٣] . وربما فى ايراد الحادثة التى وقعت فى بيت سمعان قد ترك اسمها لاعتبارات ذوقية جعلت البشيرين فى مواضع أخرى يتركون ذكر صناعة متى واسم بطرس . ويجوز أن تكون المرأة التى كانت خاطئة قد ذهبت لتجد سلام يسوع الذى وعد به فؤادها المضنى فى حياة العزلة والانفراد التام ، ولتحيا روحها فى سكون على المغفرة الرحيمة التى منحها السيد ، ولكنها ستظل أبد الدهر معروفة فى أذهان الجماهير بالمجدلية . بلى ... لقد أصبح اشتقاق اسمها فى اللغات الحديثة (١) كمرادف للتوبة المقبولة والخطية المغفورة . والمسافر الراكب على شاطىء جنيسارت بين الورود الزهراء ورائحتها الفيحاء يصادفه برج خرب ونخلة وحيدة هما الأثران الباقيان من القرية القديمة « مجدل »، فيتذكر على الأثر ذلك التقليد عن تلك التى خلد جمالها الخاطىء وتوبتها العميقة الشهرة لمجدل . ومع أن أكواخ الفلاحين الفقراء حقيرة ومقفرة ، والسكان عائشون فى جهل وانحطاط ، فلا يسع المسافر إلا أن ينظر باهتمام وعطف إلى المكان الذى يحضر إلى ذهنه أحد البراهين القوية على أنه ما من أحد مهما كان محتقرا ومهما كان عظم سقوطه فلن يعتبر منبوذا أو مطرودا عند ذاك الذى كان محور عمله أن يفتش عن الضال ويخلصه . وقد يرى ـ فى الهواء العليل ، والشمس المشرقة ، والعصافير المزقزقة ، والزهور القرمزية التى تزين فى بعض فصول السنة تلك العشش اللبنية ـ نوعا من الحب والحنان الغنى والوسيع يظلل بجمال ونقاء وبهاء سموى بقايا عظام تلك التى كانت يوما ما أرضية طريدة .

---

١ ـ راجع كثيرا من الروايات والمقطوعات التى كتبت بشأنها . لا يمكن استخلاص معنى من (تدعى المجدلية) الواردة فى لو ٨ : ٢ .



بحيرة الجليل وقرن هاتين

الفصل الثانى والعشرون

يسوع كما عاش فى الجليل

آلام المسيح خلاصنا من آلامنا
ودموعه أفالتنا المسرة . أثناسيوس

هذه هى الفترة فى بدء كرازة السيد التى ذخرت برحلات التبشير، والتجول في مدن وقرى الجليل معلما وواعظا وصانعا أعمال رحمة . وقد أشارت إليها كثيرا البشـــائر الثلاث الأولى وعلى الأخص بشارة لوقا، إذ وردت

بتفصيل أكثر : [وكان يسوع يطوف فى كل الجليل] (١) . كانت هذه الفترة ألمع وأوفق وأنشط فترة فى حياته . ولعل هذا الموضع أنسب ما يكون لذكر حقيقة أو اثنتين عن حياته على الأرض (٢) .

فلنتخيل أننا وسط إحدى الجماعات المتعددة الغفيرة التى كانت فى تلك الفترة تنتظر مقدمه فى كل مكان يسير فيه ، ولنقف بكل تواضع واحترام لنراه وهو يمر ، ودعونا ننظر إليه كما كانوا يفعلون .

نحن الآن واقفون مع الجموع على المنبسط الصغير الذي يجرى بين تلال زبولون ونفتالى فى مكان بين كفر قنا وقانا الجليل ، يحوطنا بحر من الغلال قد اصفرت للحصاد ، وتزركش جانبي الطريق أزهار كبيرة مختلفة زاهية . والطريق الذى نقف فيه يؤدى من جانب إلى عكا فالشاطىء ، ومن الجانب الآخر إلى قمة هاتين فبحر الجليل . والمنظر الطبيعي بالغ حد الجمال ، جمال يوم الربيع في فلسطين ، ولكن قلوب الجمع المترقب المتحمس منصرفة عن هذا إذ يشغلهم فكر واحد يسيطر على كل مشاعرهم . لأن بعضا منهم ، عمي ومرضى وعرج ، لا يدرون إن كان سيمتد إليهم اليوم بنان الرحمة ، أو كلمة شفاء ، أو حتى لمسة من هدب ثوب ذلك النبي العظيم المجهول أثناء مروره بهم فيغير

---

١ ـ مت ٤ : ٢٣ و ٩ : ٣٥ و مر ١ : ٣٩ و لو ٤ : ١٥ و ٤٤ و يو ٧ : ١ والكلمة معناها "يعلم وهو سائر" . فى هذا الجزء أتبع ترتيب لوقا واتركه فقط إذا وجد سبب يدعو لذلك . فعندما لا يوجد ترتيب حاسم فانى أتخير طريقة متى البشير فأجمع حوادث أو أحاديث متعددة ترمى إلى غرض واحد . وسيرى المطالع أننى أقرب ما يكون لترتيب لانج وستير ـ ولو أننى لا أتفق تماما معهما ـ ولا مع غيرهما من الكاتبين .

٢ ـ مجمل هذا الفصل وكثير من تفاصيله أوحته إلى نبذة صغيرة غاية فى الجمال والمتعة نشرها الدكتور ف. دليتش فى لينبرج ١٨٦٩ . وقد يظن البعض أن كلينا أنا والدكتور دليتش قد سبحنا فى الخيال عاليا ولكن إذا استثنينا استشهادا أو اثنين من التقليد القديم فكل حادث أو حتى كل تعبير له مرجع فى الأناجيل .

وجه مستقبلهم ويبهج حياتهم ، بينما على مسافة من الحشد وقفت فى وسط القمح شرذمة تغطى الشفاه وتصرخ محذرة من يقترب منها قائلة : نجس ... ! نجس ... ! ملتحفة بثياب وضيعة قليلة ، وهم بعض أشباح مخيفة مضروبة بالقروح ، فتستولى علينا رعدة إذ نتأكد أنهم مرضى بالبرص .

ويبدو من أحاديث الجمع أن دوافع مختلفة قد لمت شملهم ، فبعضهم دفعه الاهتمام ، وبعضهم دفعه حب الاستطلاع ، وآخرون حملتهم عدوى حماس لا يعرفون ماهيته . وتتناقل الألسن حكايات غريبة عن يسوع وعن رحمته ، وعن قوته ، وعن كلماته المملوءة نعمة ، غير أن بعض هذه الأحاديث كانت ممزوجة بالريبة والافتراءات . وينتحى الكتبة والفريسيون مترفعين عن الجمع ، يتهامسون فى دهشة وحنق وخوف .

وفجأة ، على المرتفع غير البعيد ، نشاهد غمامة من التراب تدل على جماعة مقتربة ، ونرى ولدا صغيرا من مجدل أو بيت صيدا غير حافل بتوبيخات الكتبة الهازئة ، يطفر ويشير إلى تلك الجهة ويجرى بحماس وهو يصيح « الملك المسيا ... الملك المسيا » . وهذه الكلمات ولو أنها على فم صبي فلا شك أنها سببت إسراع ضربات قلوب جماعة الجليليين البسطاء (١) .

وهوذا الركب يقترب . وإنها لجماعة مختلفة فيها الصغير والكبير ، وغالبيتها من الفلاحين ، يتخللهم دون ترتيب ، بعض ذوى الرتب العالية ، فهنا فريسى مقطب الوجه ، وهناك هيرودى لامع الثياب (٢) يهمس إلى تاجر يونانى أو جندى رومانى تعليقاته التهكمية على حماسة الجماهير . ولكن كان هؤلاء أقلية ، إنما كانت كل عين تقريبا في

---

١ ـ انقل بعضا عن دليتش واتخذ الآخر من اعلان المعمدان يو ١ ـ ٢٦ و٣٢ الخ وبعض حوادث لو (٤ : ٤١) واعلانات كانت بلا شك على شفاه أناس عديدين (يو ٤ : ٢٩ و ٧ : ٤١) .

٢ ـ التقليد اليهودي يذكر أن مينهايم و ١٦٠ تلميذا من مدرسة هلليل تخصصوا لخدمة هيرودس وكانت احدي علاماتهم لرفض القانون الشفوي لبس الثياب اللامعة (لو ٧ : ٢٥) .

ذلك الجمع الحاشد تتجه دائما إلى شخص واحد فى وسط صحبة منفصلة محوطة بباقى الجماعة المقتربة .

كان يمشى فى مقدمة هذه الصحبة بعض الرسل المنتخبين حديثا ، وفى المؤخرة آخرون نتبين لأحدهم وجها كئيبا (١) عابسا ونظرة حائرة لا تتناسق مع النظرة الواضحة البريئة التى تدمغ زملاءه كأناس مخلصين أمناء ، وتهامس بعض النظارة أنه يهوذا الذى من خربوط ، الوحيد بين أتباع يسوع الذى ليس من الجليل . ونتبين على بعد قليل ، خلف الرسل ، أربع أو خمس (٢) نساء ، بعضهن سائرات على الأقدام ، والأخريات راكبات بغالا . ومع أنهن ملثمات إلا أن بعض المرافقين قد تعرف على مريم التى من مجدل ، تلك التى كانت وقتا ما غنية خليعة والآن تائبة ، وسالومى زوجة صياد السمك زبدى ، وعلى أخرى من طبقة عالية هى يونا زوجة خوزى ياور هيرودس انتيباس (٣) .

---

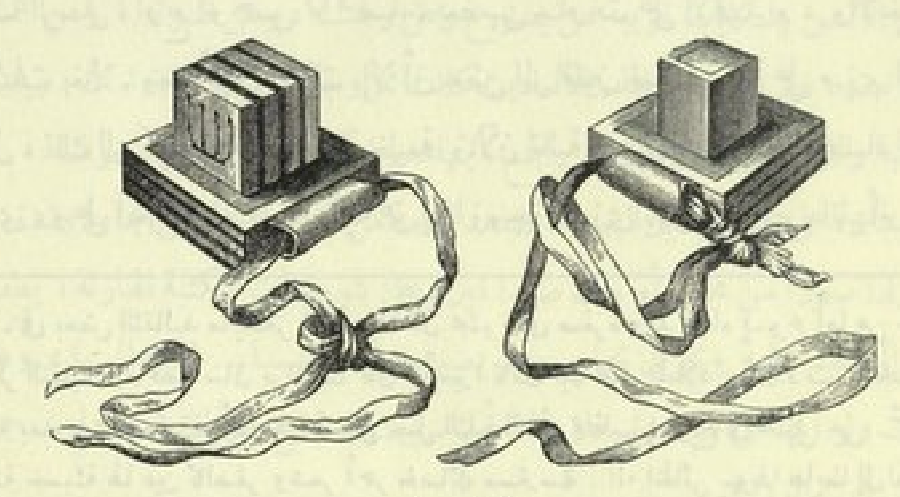
١ ـ فى بعض التقاليد ما يشعر أن يهوذا كان مجنونا فى صغره وقد شفاه يسوع أما عن منظره فيذكر التقليد وما قصه سان براندت قال " أخيرا كانت ليلة عيد الميلاد وتلألأت النجوم فى السماء بعد يوم عاصف فرأيت غيمة مثل جبل الثلج العائم وعليها يسوع فى شكل حى . ثم رأيت سحنة خسيئة لها عين كالصقر وشعر أحمر خصائله مسترسلة . انه الخائن يهوذا هابطا إلى الهاوية " .

٢ ـ وربما أزيد لأن لوقا يذكر (وأخريات كثيرات) لو ٨ : ٣ . ومن الغريب عدم ذكر شىء عن زوج بطرس أو غيره من الرسل المتزوجين . (١ كو ٩ : ٥) أما عن سوسنة التى يذكرها لوقا معهن فلا نعرف أى شىء مطلقا . وكانت بينهن أيضا مريم أم يعقوب الصغير ، وهذا مثل من ذيوع هذا الاسم الذى أدى إلى غير قليل من الاختلاف ، إذ لا أقل من سبعة مريمات ذكرن فى الأناجيل . ثم قوله إنهن كن يخدمنه من أموالهن يدل على أنه لم يكن فى تلك الجماعة الصغيرة مشاع كامل فى الممتلكات .

٣ ـ لم تذكر العذراء المباركة ضمن النساء اللواتى كن يخدمنه مع أن البشيرين ذكروا أقرباءه ثلاث مرات (مت ١٢ : ٤٦ و مر ٣ : ٢١ و يو ٧ : ٣) . وغيابها من التجول مع يسوع يظهر جليا العزلة الكاملة التى كانت تعيش فيها ، عزلة نتبينها أيضا من سكوت البشيرين عن الادلاء بشىء عنها ، عزلة توافق تماما ما أعطيناه من بعض الملاحظات العرضية فى الأناجيل والتى تدل على طبيعتها المتواضعة المفكرة .

وكان ذاك الذى تتجه إليه كل الأبصار فى وسط الصحبة ، يلازمه بطرس الذى من بيت صيدا ويوحنا الشاب ، ولكن عيون الجموع كانت مثبتة عليه وحده .

لم يكن مرتديا ثياب مجد من الحرير أو الأرجوان مثل خدام بلاط هيرودس أو أصدقاء بيلاطس الأثرياء ، ولا لابسا أفود اللاوى البيضاء أو طيالس الكتبة الفضفاضة . ولم يكن على ذراعه أو جبهته التفلين أو الفلاكتيز (١) التى يعرضها جدا الفريسيون . ومع أنه كان يتدلى فى كل ركن من ثوبه الهدب والشريط



التفلين

الأزرق الذى يختمه الناموس ، فانه لم يلبسه من النوع الكبير الحجم الذى يضعه الذين يودون التظاهر بطاعتهم الحرفية . كان يلبس الثياب العادية لزمنه ووطنه . ولم يكن عارى الرأس ـ كما يرسمه عادة المصورون ـ لأن التجول تحت أشعة شمس فلسطين يستحيل دون غطاء للرأس . كان يضع « كوفية » بيضاء كالتى تلبس هناك حتى هذا اليوم يغطى

١ ـ لا نعتقد أن يسوع قد لبس التفلين ، تلك العادة الخرافية التى تمسك بها اليهود أي لبس صناديق صغيرة تحوى الشريعة والتى نجمت عن سوء فهمهم وتعبدهم لحرفية الوصية . ومن يطلب المزيد فى هذا الموضوع فليراجع قاموس الدكتور سمث أو ما كتبه الدكتور جنزبرج فى الانسكلوبيديا (المعلمة) .

بها شعره ويشدها بعقال يتدلى على الكتفين والظهر . وكان جلبابه الخارجى «الطاليث» أزرق اللون ، نقيا ، نظيفا ، ولكن من أبسط الخامات ، يغطى كل جسمه ويظهر من من تحته حينا بعد الآخر جزء من « الكيتوفث » وهو قميص (غير مخاط) مغزول من الصوف المخطط ،شائع فى الشرق يشد بحزام على الوسط وينسدل من الرقبة تقريبا إلى القدمين المحتذيين « بالصندل » (١) . ولكن الثياب البسيطة لا تخفى الملك . لم يكن فى ذاته شىء من ترفع وكبرياء الحاخاميين ، ولكن نبله الطبيعى ووقاره غير المتصنع كانا كفيلين باسكات كل لسان خشن وإبادة كل فكر ردىء .

وهيئته ؟ هو رجل متوسط ، حوالى الثلاثين من العمر ، على وجهه كمال الطهارة وجمال الشباب مع رزانة ووقار الرجولة . وشعره الذى يشبهه التقليد بلون النبيذ مفروق من الوسط ومسترسل على عنقه ، ووجهه أنق وتقاطيعه أقرب للشكل الاغريقى من وجوه تلاميذه ، صيادى السمك ، التى لوحتها الشمس وجعلتها فى لون النحاس أو الزيتون . ومع أنه واضح أن تقاطيعه قد غيرها الحزن ، وان هاتين العينين الطاهرتين ونظراتهما الثاقبة التى لا توصف والتى تقرأ أسرار القلوب قد ومضتا مرارا بين الدموع فلا يوجد انسان - إلا من ابتلعت الخطية والأنانية نفسه تماما - يمكنه أن ينظر إلى هذه الطلعة الألهية التى لحياه الهادىء الصبور دون أن يعتريه تأثر وتغشاه رهبة . هذا هو الذى تحدث عنه موسى والأنبياء ، يسوع الناصرى ، ابن مريم وابن داود ، ابن الانسان وابن الله . وقد رأت عيوننا الملك فى جماله ، ورأينا مجده مجد الابن الوحيد الذى للآب ملآنا نعمة وحقا . وإذ رأيناه يمكننا أن نفهم جليا كيف أنه وهو يتكلم رفعت امرأة من الجمع صوتها وقالت [طوبى للبطن الذى حملك وللثديين

---

١ - لا بد أن استولت الدهشة على كل مفكر أنه ولا صورة لعظماء الرسامين من العصور الوسطى ظهر فيها السيد برأس مغطى . أما الثياب العادية فى فلسطين الآن فهى القميص والقفطان والحزام والعباءة (التى غالبا ما يلتحف بها النائم) ثم الطربوش .

اللذين رضعتهما] ، أما هو فأجاب بكلمات مملوءة بسر عميق عذب [بل طوبى للذين يسمعون كلام الله ويحفظونه] .

ومن المستحب أن نورد هنا بعض الحقائق عن حياته على الأرض :

أولا : أنها كانت حينئذ حياة فقر .

لقد أنذرت احدى النبوات الموسوية التى لم يفهمها اليهود عامة إلا فهما قليلا أنه سيتواضع باختياره إلى حياة فقيرة (١) . إنه وهو الغنى قد افتقر لأجلنا . ولد فى مغارة وأضجع في مذود . وقربت أمه لأجل تطهيرها اليمام الذى هو تقدمة الفقراء . ولا شك أن الهرب إلى مصر صحبته متاعب جمة . وعندما عاد عاش كنجار وابن نجار فى القرية المحتقرة الريفية . ثم جال متنقلا فى الأرض كمعلم فقير . ولقد ابتدأ عظة الجبل بهذه الكلمات [طوبى للمساكين بالروح] . وجعل أهم علامة لافتتاح قانونه الكنسى [إن المساكين يبشرون] . وإنها لملاحظة موفقة على فقره انه بعد السنوات الثلاث القصيرة التى لكرازته العلنية قد بيع من أحد تلاميذه بثلاثين شاقلا ، وهو ثمن أقل العبيد .

ثانيا : وبساطة حياته تتناسب مع فقر مظهره .

فلم يمتلك طول حياته سقفا يمكن أن يقول إنه له . فالبيت الوضيع الذى فى الناصرة شاركه فيه عديد من الاخوة والأخوات . وحتى المنزل الذى فى كفر ناحوم ، والذى طالما تردد عليه لم يكن يمتلكه ، بل كان لأحد تلاميذه . لم يمتلك عرض شبر من الأرض التى أتى ليخلصها . ولم نسمع أن أحدا من المتسولين الذى يكثر عددهم والحاحهم فى كل مملكة شرقية قد طلب منه إحسانا . ولو أنهم فعلوا لربما أجابهم مع بطرس

---

١ ـ لا ندرى شيئا عن أصل أو تاريخ الفكرة الحديثة الواردة فى كتاب زوهار والتى تقول بانتظار مسيا يتألم . ولكن ظاهر أن الأمة اليهودية لم تفهم ما اعتقد به الرسل بعد البند كوست (اع ٣ : ١٨ و ١٧ : ٣ و ٢٦ : ٢٢ و ٢٣) والتى ذكرها يسوع لهم مرارا (مت ٢٦ : ٢١ و ١٧ : ١٠ ـ ١٢ ـ ١٢ ولو ١٧ : ٢٥ و ١٤ : ٢٥ ـ ٢٧ و ٤٦) وإنها اتماما للنبوات القديمة (مز ٢٢ و اش ١ : ٦ و ٥٣ : ٢) .

[ليس لى فضة ولا ذهب ولكن الذى لى فاياه أعطيك] . وكان طعامه من أبسط نوع. كان حقيقة مستعدا أن يشارك فى المسرات العائلية البريئة فى منزل سمعان ، أو لاوى أو مرثا ، أو وليمة عرس قانا ، ولكن غذاءه العادى كان بسيطا مثل الذى لأحقر فلاح ، خبز من أخشن صنف (١) ، وسمك مصاد من البحيرة يشوى على الشاطىء ، وأحيانا قطعة من قرص عسل النحل غالبا من الصنف البرى الذى كان يكثر إذ ذاك في فلسطين . حقا إنه لخيط واه للنهاية الذى ارتكن عليه أعداؤه فى اتهامهم له وافترائهم عليه بقولهم [هوذا إنسان أكول وشريب خمر] . كان يسوع فقيرا ولكنه ما كان متكففا ، فلم يتخذ حياة التسول (كما فعل سكايا مونى) دقيقة واحدة ، بل لم يقل كلمة واحدة يمكن أن تحرف إلى امتداح تلك الخلة الوضيعة التى جعل منها بعض المعلمين الدينيين مظهرا لكمال التقوى . لم يقبل احسانا قط ، بل عاش هو وجماعة أتباعه القليلين على ممتلكاتهم الشرعية أو منتجات جهودهم الشخصية ، كان لهم كيس أو صندوق دراهم (٢) خاص بهم لقضاء حاجاتهم وللاحسان منه على الآخرين ، ومنه اشتروا ما يلزم لعيد الفصح ، ووزعوا ما استطاعوا على الفقراء . ولكن يبدو أن يسوع نفسه لم يمنح المساكين نقودا ، لأنه أعطاهم ما هو أثمن وأنبل من أن يقارن بفضة أو ذهب ، فضلا عن أنه لم تكن لديهم أحيانا نقود متوفرة حتى أنه عندما جاء الذين يجمعون المقدار التافه الذى يطلب من أقل الفقراء ، جزية للهيكل ، لم يكن مع بطرس ولا مع يسوع

---

١ ـ نستخلص هذا من أرغفة الشعير يو ٦ : ٩ . وخبز الشعير رديء الطعم حتى أنه كان يعطى عقابا للعسكر الذين يرتكبون ما يخل بالشرف . وكان اليهود يكرهونه . ولقد ورد فى قصة بسكايم " أن حصاد الشعير غزير " فأجاب يوحنان " قل هذا للخيل والحمير " .

٢ ـ (الصندوق) يو ١٢ : ٦ غالبا صندوق صغير مثل الذى يضع فيه الزمارون مزمارهم ، أو ربما كما يظن المستر مورَّوا انه سمى هكذا لمشابهته لفم المزمار أى يمتاز بجزء متحرك يفتح للداخل فقط كمطاط فم المزمار . (قارن ٢ كو ٢٤ : ٨ حيث تعنى الكلمة صندوق القربان و حز ٣٧ : ١ حيث تعنى التابوت) .

الدرهمان المطلوبان (١) . لم يكن لابن الانسان ما يمتلك سوى الثياب التى عليه .

ثالثا : وكانت حياته كما رأينا حياة كد .

كد منذ الصبا فى دكان النجار ليساعد فى كسب قوته وقوت عائلته بأمانة ونبل . ثم كد بعد ذلك ليخلص العالم . وقد رأيناه [يجول يصنع خيرا] . وقد كان هذا شعار حياته العامة ومحورها . وما عرفناه سالفا وما سنعرفه أيضا عن الكيفية التى قضى بها أيامه يظهر لنا المقدار الوفير من الخير الذى نشط فى عمله وتكدس فى ساعات النور القليلة . كان في أية لحظة مستعدا لتلبية أية دعوة سواء جاءت من متسائل يرغب فى التعليم ، أو مريض له إيمان أن يشفى . ولقد شغل التعليم ، والوعظ ، والسفر ، وصنع أعمال الرحمة ، والاحتمال بصبر للرعونة المغيظة لغلاظ الرقاب والجهلة ، والتحمل دون دمدمة لازدحام الجماهير المتواصل والأنانى ، شغل كل هذا وأمثاله وقته وجهوده حتى لقد خبرنا مرارا أنه لم يترك له وقت حتى للأكل . ما كان يحتفظ لنفسه بغير ساعات الليل الهادئة الساكنة التى كان كثيرا ما ينفرد فيها ليصلى لأبيه السموى وسط وحدة الجبال التى أحبها حبا جما .

رابعا : وكانت حياته حياة صحة .

فمن بين أحزان الحياة ومتاعبها اتقى المرض . فنسمع عن شفائه جماهير من المرضى ، ولكنا لم نسمع قط أنه قد مرض . حقا قال عنه سفر أشعياء الذهبي العاطفي [رجل أوجاع ومختبر الحزن ... لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها ... وهو مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا . تأديب سلامنا عليه وبحبره شفينا] . ولكن أحسن تفسير لهذا القول هو ما أوضحه متى البشير من أنه تألم مع من رآهم يتألمون [مت ٨ : ١٧] . قد تأثرت مشاعره بمتاعبنا ، وحنانه الألهي جعل هذه الآلام آلامه . بلى ... إن قصة حياته وموته تظهر قوة غير عادية فى التحمل الجسدى ، ولا يمكن لأحد

١ ـ مت ٢٧ : ٢٤ ـ ٢٧ .

غير متمتع بصحة جيدة أن يحتمل المتاعب المضنية المستمرة اليومية كما يصفها الانجيل. وفوق هذا يبدو أنه كانت له ميزة النوم السريع الذى هو أحسن ترياق طبيعي للتعب، وأحسن ملطف يهدىء الفكر المضنى، وخير حلال لعقد حبال الاهتمامات. فحتى على ظهر السفينة الصغيرة التى تضربها الأمواج ويتقاذفها البحر العاصف أمكنه النوم دون غطاء أو وسادة سوى المقعدة الصلبة المكسوة بالجلد التى يستعملها الربان لجلسته. وفى تلك الليالى التى قضاها تحت قبة السماء المتلألئة بالنجوم في البرية أو على قمة الجبل لم يكن له غالبا مرقد أنعم من الأعشاب النابتة ولا غطاء سوى « الطاليث » أو ربما عباءة مخططة كالتى يستعملها العرب إلى يومنا هذا. وسوف نرى فى المشهد المحزن الأخير كيف أن هذه القوة البدنية والقدرة على الاحتمال قد ساعدته أن يتماسك بعد كل ما أصابه، وبعد ليل لا نوم فيه، ويوم شاق متعب، وبعد خمس عشرة ساعة من المحاكمة والتعذيب بل والآلام المطولة لموت مرير.

خامسا: وأخيرا كانت حياته بلا شك حياة حزن.

لقد دعى بحق [مختبر الحزن] ولكنا نظن أيضا أنه يوجد مجال لاحتمال الخطأ فى تفهم هذا المعنى. لا يجب أن يغرب عن الذهن أن « الحزن » و « الفرح » نسبيان. ونحن متأكدون أنه إن كان هناك حزن طاحن، حزن مشاركة المتألمين والعطف عليهم (١)، حزن الرفض من الذين أحبهم، حزن البغضة من الذين أتى ليخلصهم، حزن من وضع عليه آثام العالم، حزن العذاب الطويل الأخير على الصليب عند ما ظهر كما لو أن أباه قد تركه، فلقد كان هناك أيضا فرح شامل. لأن أنحس أنواع الحزن وأشد أنواع البؤس - الذي هو الشعور بالبعد عن الله والاحساس بالعار والخطية والفساد الداخلى وعذاب دنس النفس الذى يعمل كسياط من نار ويؤدى بالروح البعيدة

---

١ - مت ٩ : ٣٦ و ١٤ : ١٤ و ١٥ : ٣٢ و ٢٠ : ٣٤ و مر ١ : ٤١ و لو ٧ : ١٣ و مر ٣ : ٥ و ٧ : ٣٤ و يو ١١ : ٣٣ و ٣٥ و لو ١٩ : ٤١.

عن الله إلى اليأس والقنوط - هذا النوع كان أبعد ما يكون عن يسوع ليس فقط في مداه البعيد ولكن حتى ولا فى أبسط مظهر له ولو وقتيا . ولكن من جهة أخرى فرح الضمير غير المبكت ، فرح الحياة غير المدنسة ، فرح الروح البعيدة عن أى ظل للانحطاط أو تصور للاثم ، فرح التخصص لخدمة الله ومحبة البشر ، هذا الفرح كان يسوع دائم الالتصاق به على أتم الوجوه . حقيقة إن العالم بالكاد يسمى هذا فرحا لأنه ليس مسرة الطائش التي تشبه شمس الشتاء الراقصة على نهر رقراق ، وليس ضحك الجهال الذى هو شبيه بقرقعة الشوك تحت القدر . هذا النوع من الفرح لا محل له عند الرجل الذى يشعر ما تعنى الحياة حقا . قال عظيم من الآباء اللاتين « صدقنى إن الفرح الحقيق أمر هام خطير » . فمن هذا النبع العميق الذى هو لب كل الأشياء النبيلة الطاهرة الدائمة الحقة قد شرب رجل الأحزان جرعات فياضة . ومع انه لم يذكر قط أنه ضحك بينما قد ذكر أنه بكى مرتين (١) ، وانه تنهد مرة ، وانه اضطرب أكثر من مرة ، فان ذاك الذى لم يبعث ظلا من الكآبة على الاجتماعات العامة أو الولائم البريئة لا يمكن أن يكون قد خلا من السعادة الداخلية التي أحيانا ما ارتسمت على محياه والتي كثيرا ما نلمسها فى بعض كلماته الرقيقة أو التى فيها رقة أو تورية (٢) . ولقد

---

١ - لو ١٩ : ٤١ والكلمة الواردة فى يو ١١ : ٣٤ تعنى أنه " ذرف الدموع ".

٢ - ان علقنا أهمية على القصة التى ذكرها ايرينيموس عن بابياس ممن سمعوا عن يوحنا البشير فانا نجد فيها مثلا للرقة الخيالية التى كان يتحدث بمثلها أحيانا فى أوقات انشراحه مخاطبا أتباعه البسطاء المخلصى القلوب . والكلمات التى لا شك انها قد تغيرت وانعكست حتى وصلت إلينا كانت وصفا رقيقا للبركات المسياوية ليست على الطريقة اليهودية القاسية ولكن بمعنى روحى واضح قال " قد علم الرب أنه ستأتى أيام تنبت الكروم كل كرمة لها ١٠ آلاف جذع ويحمل كل جذع ١٠ آلاف فرع وكل فرع ١٠ آلاف خرعوب وكل خرعوب يحمل ١٠ آلاف عنقود وكل عنقود يحمل ١٠ آلاف عنبة وكل عنبة تعطي عصير خمسة وعشرين مطارا وعندما يتناول أحد القديسين عنقودا يصيح العنقود الآخر أنا عنقود أفضل

قيل لنا فى أحد مواقف حياته [تهلل يسوع بالروح] (١) فهل يمكن أن نعتقد أن هذا التهلل حدث مرة واحدة ؟ .

اقطفني ومجد الله ". يقول يوسابيوس ان بابياس كان رجلا ضعيف العقل وإن هذه القصة أقرب إلى التلمود أو أحاديث الأساطير . وكتاب بابياس هذا اسمه " أخبار أقوال السيد " راجع هوفان وتيندر .

١ - لو ١٠ : ٢١ .



الزارع

الفصل الثالث والعشرون

يوم عظيم في حياة يسوع

" ان سري هو لى ولأولاد البيت " (١)

من كلمات يسوع غير المدونة

ترتيب

الحوادث التى سنشرع فى سردها الآن واحد تقريبا فى البشائر الثلاث الأولى ، ودون أن أهمل أى اشارات زمنية صريحة للبشارة

---

١ ـ ذكر هذا القول كليمنضس الاسكندري وهو يطابق الآية (أما أنتم فقد أعطى لكم أن تعرفوا اسرار ملكوت السموات) .

الرابعة سأتبع الترتيب مسترشدا بما جاء فى بشارة القديس لوقا ، إذ يظهر أن الترتيب فى بشارتى متى ومرقس يتبع وحدة الموضوعات (١) ، فتجمع الحوادث المتحدة فى التعليم الخلقى أو الدينى معا . أما القديس لوقا فواضح أنه عنى أكثر بالترتيب التاريخى ولو أنه بعض الأحيان قد جعل وحدة الموضوع تطغى على ترتيب الزمن (٢) .

بعد انتهاء الرحلة التبشيرية السالفة يضيف لوقا أن يسوع لما رأى نفسه محوطا بجمع كثير من كل مدينة [قال بمثل] (٣) ، ويذكر البشيرون الآخرون الخبر الطريف وهو أن هذه كانت المرة الأولى التى علم فيها بأمثال ، وأن هذه الأمثال قيلت للجمع الحاشد على الشاطىء بينما كان السيد جالسا على منبره المحبب لديه وهو السفينة التى كانت تحجز له على البحيرة (٤) .

ويستنتج من مرقس أن هذا التعليم ربما قيل فى عصر اليوم الذى شفى فيه المفلوج (٥) ، ولكن هذا الاستنتاج لا يرتكز إلا على خيط نحيل لا يمكن التمسك به . وكل ما نراه أن يسوع اتخذ هذا النوع من التعليم إذ أصبح ضروريا نظرا للحالة العقلية التى كان عليها بعض سامعيه من الجمع . والكلمة التأكيدية المفردة [اسمعوا] التى بدأ بها خطابه هيأتهم لسماع شىء غير عادى كان على وشك النطق به [مر ٤ : ٣] يجب دوام تذكره .

---

١ ـ يقول بابياس عن يوحنا الكبير أنه قال بوضوح ان القديس مرقس لم يكتب حسب الترتيب الزمنى لا كلمات ولا أعمال المسيح (راجع يوسابيوس) .

٢ ـ كلمة (اكتب) فى لو ١ : ٣ لا تعنى توخى دقة الترتيب بل هى كلمة لازمة للقديس لوقا استعملها دون النظر إلى توقيت معين فى اع ٣ : ٢٤ و ١١ : ٤ و لو ٨ : ١ .

٣ ـ لو ٨ : ٤ . تعبير مت ١٣ : ١ (وفى ذلك اليوم) قد يظهر أنه توقيت جازم ولكن الحوادث التى ذكر بعد ذلك أنها حدثت (فى ذلك اليوم) لا يمكن أن تكون قد حدثت مع الحوادث التى ذكرها فى الاصحاح السابق . هذا التعبير يستعمل على غير التخصيص راجع أع ٨ : ١ .

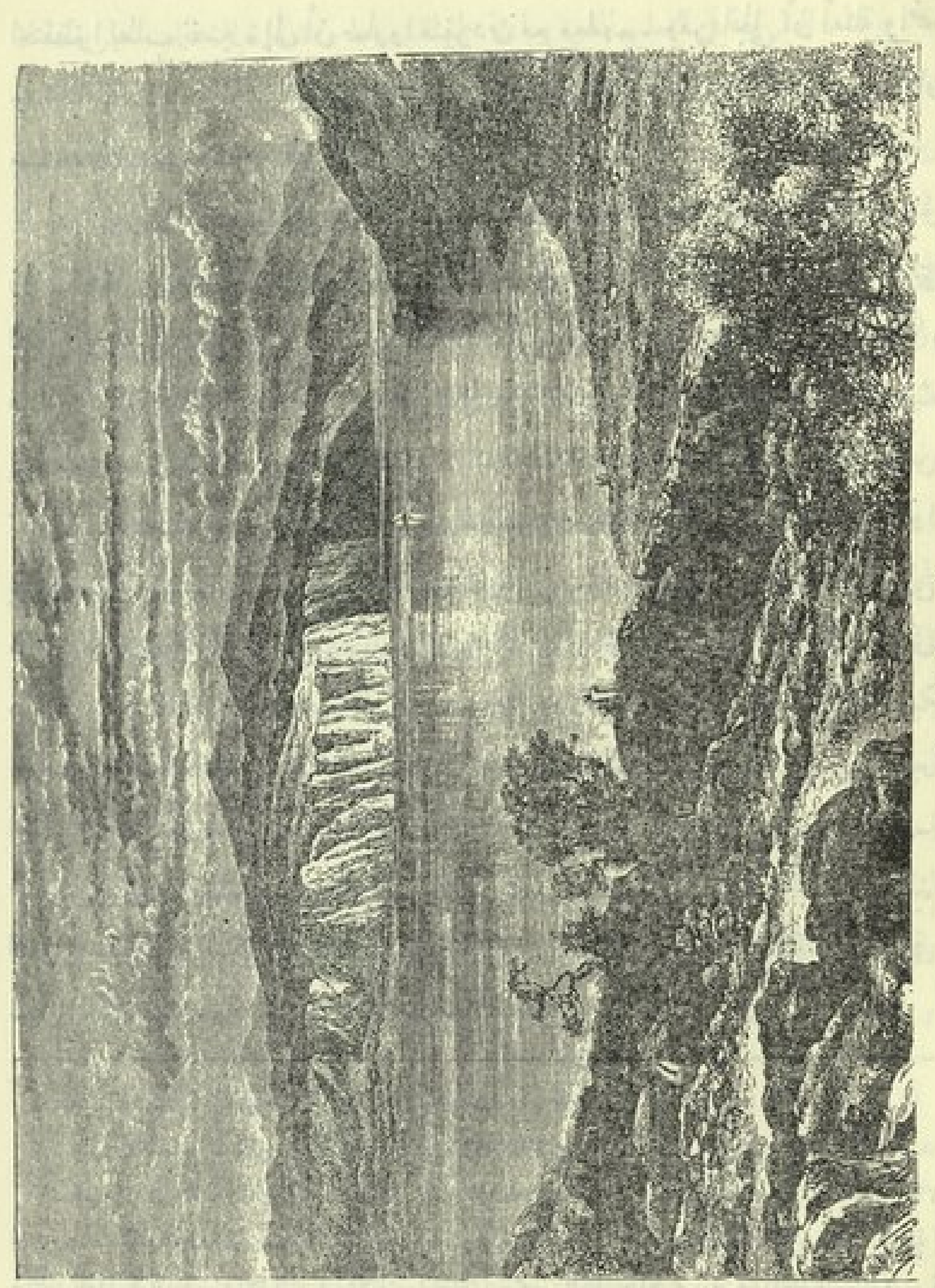
٤ ـ مت ١٣ : ٢ .   ٥ ـ قارن مر ٢ : ١٣ و ٤ : ١ .

ولا شك أن جزءا كبيرا من الجمع فى ذلك الوقت كان على علم بالقواعد العامة للبشارة التى كرز بها يسوع ، فكان الأمر في حاجة أن يمتحنوا ذواتهم ، وأن يمحصوا باخلاص نفوسهم ليعلموا إن كانوا حقيقة جادين فى رغبتهم أن ينتفعوا من كلماته . [فانظروا كيف تسمعون] كان هذا هو الدرس العظيم الذى أراد أن يودعه أذهانهم . أراد أن يحذرهم من الاستماع الكسول الذى لمجرد حب الاستطلاع أو للذة الذهنية ، كما أراد أن يثبت فى عقولهم أنهم مسئولون عن النتيجة التى تثمرها الكلمات التى قد سمعوها. فأراد أن يعلمهم بمثل أن مقدار استفادة السامع تتوقف غالبا على مقدار أمانته .

ولكى يريهم أن الثمر الحقيقى للتعليم الجيد هو تقديس الروح ، وأنه توجد أخطار متعددة تمنع نضجه قال لهم مثله الأول ، مثل الزارع . وكعادته استوحى خيال المثل من الأمور الحسية الواقعة تحت بصره من الحقول المزروعة في جنيسارت ، والقمح النابت فيها ، والسكك المطروقة التى تخترقها والتى لا يمكن أن تنمو عليها الحنطة ، والطيور المتعددة التى تحوم فوقها لالتقاط البذار ، والجهاد الضعيف للحياة الذابلة على الأماكن المتحجرة ، والنمو البليغ للأشواك الخانقة فى الأركان المهملة ، ثم الأرض الجيدة العميقة التربة وقد ظهرت عليها السنابل الذهبية سمينة قوية تتماوج تحت الرياح الهادئة وتبشر بثمار ثلاثين وستين ومائة . والمعني بالنسبة لنا نحن الذين طالعنا منذ الطفولة هذا المثل وإلى جانبه تفسير يسوع ـ غريب فى بساطته وسهولته ونرى فيه أحلى تشبيه للخطر المحيق بالشخص البارد غير المهتم ، والانسان السريع التأثر القليل العمق ، والدنيوى الطماع المتشاغل المترفه ، وهم يسمعون كلمة الله . ولكنه لم يكن سهلا لهذه الدرجة عند الذين سمعوه (١) ، وحتى الرسل قصروا عن معرفة معناه الكامل ولو أنهم

---

١ ـ مما يدل على أولية تعليم المسيح الذى يسمو به عن كل ما اعتاده الناس من التعبير أن البذرة التى زرعت واحدة فى كل الأماكن . (مر ٤ : ١٦ و مت ١٣ : ٢٠) (وهكذا أيضا الذين زرعوا على الأماكن المحجرة) .



بحيرة الجليل

احتفظوا بطلب تفسيره إلى أن صاروا منفردين مع معلمهم. ومن الجلى أن أمثلة واضحة جدا لنا كانت صعبة جدا لأولئك المستمعين البسطاء وأثارت فى عقولهم أفكارا مستحدثة لم يتعودوها من قبل (١).

وظاهر أن السيد لم يقل فى هذه الفرصة كل الأمثلة السبعة : مثل الزارع، ومثل زوان الحقل، وحبة الخردل، والخميرة، والكنز المخبوء، واللؤلؤة، والشبكة - التى لبعض وجوه الشبه فى موضوعها وتسلسل التعاليم فيها قد جمعها متى البشير سويا (٢). فسبعة أمثال (٣) تضرب دفعة واحدة وتقال دون تفسير لجمع مختلف المدارك يتحدث إليه لأول مرة بهذا الأسلوب من التعليم لا تثمر إلا الدهشة والتيه. بل يبدو جليا من تعبير البشير مرقس [وبأمثال كثيرة كهذه كان يخاطبهم بالكلمة حسبما كانوا يستطيعون أن يسمعوا] أن تعليمه كان تدريجيا غير متصل لئلا يفقد قيمته لو أعطى منه للسامعين بقدر أزيد مما يستطيعون أن يتذكروا أو يفهموا. ومن مقارنة بشارتى مرقس ولوقا يظهر أن تعليم هذا المساء اقتصر على هذا المثل وما هو شبيه به كمثل حبة الخردل، والبذار فالسنبل وامتلاء ما فى السنبل، أى الأمثلة التى تشجع على الصبر أولئك الذين كانوا يتعجلون سرعة إعلان ملكوت الله فى حياتهم وللعالم، وربما أيضا على مثل السراج ليحذرهم حتى لا يطفئوا النور الذى نالوه ولكن ليذكروا النور العظيم الذى يوما ما سيظهر كل الأشياء وليجعلوا نورهم يسطع ليضىء من جهة طريقهم فى سبل الحياة ومن جهة أخرى ليضىء نفوس كل الذين حولهم .

---

١ - مت ١٣ : ١ - ٢٣ و مر ٤ : ١ - ٢٥ و لو ٨ : ٤ - ١٨ .

٢ - فمكان التعليم قد تغير على الأقل فى مت ١٣ : ٣٤ - ٣٦ .

٣ - مت ١٣ : ٢٤ - ٣٠ و مر ٤ : ٢٦ - ٣٤ و لو ٨ : ١٨ - ٢١ ولو أضفنا مر ٤ : ٢٦ - ٢٩ لصار عددها ثمانية . وهى تمثل الاختلاف فى قبول البشارة (الزارع) والنتيجة (الزوان والحنطة) والثمن الغالى (الكنز واللؤلؤة) والامتداد التدريجى البطىء للانجيل والملكوت (حبة الخردل والخميرة والقمح) .

وهذه الطريقة في التعليم نادرة وباعثة على النشاط ومثيرة للاهتمام ، طريقة لا تدانى فى جمالها واتقانها ، طريقة فريدة فى تاريخ أحاديث البشر . كان من شأنها أن تزيد بلا شك عدد الجموع التى تزاحمت لتسمعه واستمر يعلم طيلة عصر ذلك اليوم الحار ، وبالكاد قدر أن يصرفهم عندما حل المساء (١) . ويظهر أنه قد استولى حينذاك على نفس السيد شعور بالتعب الشديد واشتياق ما عليه مزيد للراحة والانفراد والنوم. وربما يكون قد زاد في شوقه لطلب الراحة والسكون الجهد غير الموفق من أقربائه لفرض الرقابة على أعماله (٢) . حقيقة لم [يستطيعوا أن يصلوا إليه لسبب الجمع] ، ولكن هذا الجهد من جهتهم ربما كان سببا أيضا لرغبته فى الانفراد ، وأن يكون - ولو إلى وقت - حرا من هذه العلانية المستمرة وبعيدا عن هذه التدخلات غير المحترمة . وعلى أى حال فملاحظة بسيطة - حفظت لنا بقلم البشير مرقس التصويرى كالعادة - تظهر أنه كان هناك حماس واسراع غير عاديين فى انصرافه كما لو أن تعبه واجهاد الفكر الناشىء من الاحتكاك المتعب مع الجماعات جعلاه لا يعود إلى كفر ناحوم بل يغير فجأة خط سيره فبعد أن انصرف الجمع [أخذوه هو معهم فى السفينة] وحال حماسه دون عمل أى ترتيب . كان راغبا فى السكون والوحدة على الشاطىء الشرقي . إن الشاطىء الغربي للبحيرة فى وقتنا هذا ساكن هادىء لا يصادف المسافر عليه سوى قليل من الفلاحين المجهدين ، أو يهودى من طبرية ، أو صياد سمك عربى ، أو شيخ فارس مسلح من البدو . ولكن الشاطىء الشرقى هو الوحدة ذاتها . فلا

---

١ - مر ٤ : ٣٥ . لو كان الترتيب الذى توخيته صحيحا لوجب أن تكون هذه الحادثة قد حصلت فى أوائل مارس وهو وقت شديد القيظ فى فلسطين .

٢ - لو ٨ : ١٩ - ٢١ لا يمكن أن تكون هذه هى نفس الحادثة الواردة فى مت ١٢ : ٤٦ - ٥٠ و مر ٣ : ٣١ - ٣٥ كما يظهر من المقارنة ، ولكن بلا شك كانت ظروفها مشابهة وقد تستدعى نفس الملاحظة والكلمات ومع أن تخيل حدوث الوقائع المتشابهة بتكرار المرجع اليائس للساعين فى إيجاد توافق تام بين البشيرين إلا أنه فى هذه الحادثة بالذات جائز مسموح به .

شجرة ، ولا قرية ، ولا انسان ، ولا مسكن . لا شيء سوى سلسلة من التلال غير المرتفعة تتخللها شقوق صخرية وتنحدر إلى شريط ضيق قاحل يحد شاطىء البحيرة . ولا شك أن الفارق فى زمان السيد كان واضحا جليا بين هذه البقعة القليلة السكان وبين المدن المكتظة النشيطة الدائبة الحركة والمتقاربة فى سهل جنيسارت . ومع أن جزءا من سكان البرية كان فى زمنه من الأمميين إلا أننا نراه فى غير قليل من الأحيان ذا رغبة فى إعادة قوة وسلام نفسه المثقلة فيجتاز هذه الأميال الستة من المياه لينفصل عن الجموع التى يعظها .

ولكن قبل أن تدفع السفينة حدث عائق هام (١) فثلاثة على التوالى من سامعيه ـ ربما قد أخذوا بقوة وعمق هذه الطريقة من التعليم وربما أيضا قد استهواهم علو وامتداد شهرته ـ رغبوا أو خيل لهم أن عندهم الرغبة في ملازمته دائما كتلاميذ له . كان أولهم كاتبا ظن بلا شك أن وظيفته الرسمية تجعله مقبولا فصرح بوثوق : [يا معلم أتبعك حيثما تذهب] . ولكن رغما عن مكانة الرجل العالية ، ورغما عن وعوده المتألقة ، فذاك الذى لم يهتم مثقال ذرة « بخدمة الشفتين » ، والذى كان يفضل دائما « حياء الواجب المتحفظ عن شقشقة اللسان البليغ الجسور » ، رفض هذه التلمذة . وذاك الذى دعا العشار البغيض لم يقبل هذا الكاتب الشهير . لم يرذل الخدمة المقدمة ولكنه لم يقبلها . ربما رأى فى حماس الرجل المتقد دخان الغرور الأنانى فأظهر له أن خدمته ليست للغنى ولا للكرامة ولا للراحة ولا أمل فيها لطامع فى الربح العالمي ولذلك قال له [إن للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار (٢) وأما ابن الانسان (٣) فليس له مكان يسند فيه رأسه] .

---

١ ـ مت ٨ : ١٩ ـ ٢٢ و لو ٩ : ٥٧ ـ ٦٢ .

٢ ـ الكلمة الأصلية تعنى " ملجأ " لا عش لأن أغلب الطيور لا تعيش فى أوكار .

٣ ـ هذا هو اللقب الذى يثير أقل عداوة وفى الوقت ذاته يفهم انه يطلق على المسيا (قارن دا ٧ : ١٣ و يو ٧ : ٣٤) .

أما الثانى فنصف تلميذ (١) فقد اشتهى أن يصير بكليته للمسيح ولكنه أتى شرطا أن يذهب أولا ويدفن أباه . وكان جواب يسوع رهيبا [اتبعنى ودع الموتى يدفنون موتاهم] (٢) ، أى اترك العالم وكل ما في العالم فانه يهتم بذاته ، والذى يريد أن يتبع يسوع يجب أن لا يحب حتى أبيه وأمه نسبيا ، بل يدع موتى الروح يهتمون بموتى الجسد .

والجواب للطالب الثالث لا يختلف كثيرا عما تقدم إذ طلب هو أيضا التأجيل ، ولم يرغب أن يتبع يسوع فى رحلته هذه ، بل أراد أن يذهب أولا ليودع أهل بيته ، ولذا أجابه يسوع بما قد ذهب مثلا كل الأجيال [ما من أحد يضع يده على المحراث وينظر إلى خلف يكون مستقيما (٣) فى ملكوت الله] . قال القديس أوغسطينوس مع حلاوة فى التمثيل « إن الشروق المقبل كان يناديه ، فيجب أن يبتعد عن الغروب المدبر ولا يلبيه » . بهذه الروح تعزت وتحصنت نفوس القديسين المحبة للمسيح : توما الاكوينى ، وفرنسيس العزيزى ، وفرنسيس كافيار ، وغيرهم من عظماء الكنيسة (٤) عندما اضطروا أن يضحوا بالمحبة العائلية وأن يقطعوا كل رباط دنيوى لأجل المسيح .

---

١ - تقليد لا يشفع فيه سوى قدمه يذكر أنه كان فيلبس (راجع كليمنضس الاسكندرى) .

٢ - رأى بعضهم صعوبة وجفاء فى هذه الاجابة حتى أن يثوفيلاكت وآخرون ظنوا أن التلميذ سأله أن يأذن له بالعيش مع أبيه حتى يموت الوالد ، ولكن يكون الطلب على هذا الوجه لا قيمة له . أما سيب وغيره فيقولون لو أن أباه كان قد مات فعلا لكان هو قانونيا غير طاهر فيتعسر مجيئه إلى يسوع بالمرة . على أى حال فالدرس الذى يستخلص هو ما ذكره القديس أوغسطينوس " يجب أن يحب الوالد ولكن يفضل الخالق " . فسؤاله أن يشيع جنازة لا يفاضل بالمرة مع العمل الذى قدم نفسه إليه أما ان كان سؤاله يطلب وقتا أزيد من هذا أفلا يجوز أن التأخير قد ينتج عدولا عن عزمه أو حتى ينقلب إلى عداوة .

٣ - الكلمة الأصلية تعنى لا " يتفق تماما " ربما كان السائل والمجيب يلمحان لدعوة اليشع .

٤ - المعرب : لا حصر لأسماء عظماء وشهداء الكنيسة القبطية الذين ينطبق عليهم هذا (راجع السنكسار) .

أخيرا انتهت هذه المعطلات وتمكنت السفينة الصغيرة أن تبسط شراعها للإبحار. ولكن يظهر أن بعض الجموع تبعته حتى فى هذا الوقت لأن مرقس يخبرنا أنه [كانت معه سفن أخرى]. غير أنه فى الغالب - إذ لم نخبر أنها وصلت إلى العبر أى الشاطىء الآخر - قد تفرقت سراعا أو قفلت راجعة خشية العاصفة المتجمعة. على أى حال فى في سفينة وبين تلاميذه الأمناء استطاع يسوع أن يستريح بدون مقاطعة. وقبل أن يبتعد كثيرا عن الشاطىء وضع رأسه المتعب على وسادة الربان الجلدية ونام نوما عميقا، نوم التعوب المضنى، نوم الذين فى سلام الله.

وحتى هذا النوم الذى كان فى حاجة قصوى إليه سرعان ما تعرض لمقاطعة شديدة، لأن زوبعة غاضبة - يمتاز هذا المنخفض العميق عن سطح الأرض بكثرة حدوث أمثالها - قد اكتسحت بقسوة شديدة أمواج البحيرة. وفجأة امتلأ الجو بالأنواء، وهاج البحر من الزوبعة (١)، وأصبح الخطر شديدا وكانت السفينة كأنها تدفن المرة تلو الأخرى فى زبد الموج الغاضب الذى كان يعلو فوقها. ومع أنه - بلا شك - قد ناله رذاذها الصاخب وهو نائم على ظهر السفينة المكشوف عند المؤخرة، فقد ظل نائما (٢). كان تعبه شديدا فلم يقلق من العاصفة، ولم يجرأ أحد أن يوقظه، ولكن الآن قد

---

١ - كثيرا ما لاحظ المسافرون بل كثيرا ما وقعوا فى خطر هذه العواصف المفاجئة إذ يتغير هذا السطح الزجاجى الباسم فجائيا وتكتسحه أمواج سوداء خطيرة. والتعبير الذى استعمله البشيرون يدل على قوة العاصفة (فنزل فى البحيرة ريح شديد لو ٨ : ٢٣) (وإذا اضطراب عظيم حدث فى البحر) مت ٨ : ٢٤. وجو هذا الغور حار لأن بحر الجليل ينخفض ٦٠٠ قدم تحت سطح البحر الأبيض المتوسط فأحيانا تعلاه رياح باردة ثقيلة تمر على قمم جبال حرمون ولبنان الثلجية وتندفع بغضب لا مثيل له من بين فجوات التلال التى تتقابل عند رأس هذه البحيرة مكونة ما يماثل المخروطات الهائلة.

٢ - توجد رنة دهشة محزنة فى القول (وكان هو نائما مت ٨ : ٢٤) وقد استقى البشيرون تفاصيل هذه الحادثة مما شاهدوه عيانا - فيذكر متى ذهبان الأمواج للسفينة ولوقا احاطة الرياح بها ومرقس مؤخر السفينة والوسادة.

غشيت الأمواج السفينة فعلا حتى بدأت أن تمتلىء وتغرق . ففاجأه التلاميذ بصرخات كثيرة من الخوف والفزع وأيقظوه قائلين [يا رب نجنا فاننا نهلك] [يا معلم نكاد نهلك] (١) . صرخات مثل هذه اختلطت بصفير الرياح العالية وضجيج الأمواج



زهــور شواطىء بحر الجليـــل

العاتية ووقعت نصف واضحة على أذنه . ومثل هذه الأزمات ـ الأزمات المخيفة المفاجئة

١ ـ مت ٨ : ٢٥ و لو ٨ : ٢٤ .

غير المنتظرة التي لا تسمح بلحظة واحدة للاستعداد - هي التي تعجم عود الرجل وتدل عليه من أي روح وتظهر لا قوة أعصابه فحسب بل عظمة وطهارة كل كيانه .

وهذه العاصفة التي أرجفت أولئك الصيادين المتقشفين المجربين فوزت شجاعتهم ومهارتهم لم تهز ولا لحظة واحدة السلام الداخلي العميق لابن الانسان ، بل بدون أية علامة ارتباك ولا أية رعدة خوف اتكأ يسوع على مرفقه إذ هو نائم عند مؤخر السفينة التي توشك أن تغرق ، وبدون حركة أخرى (١) هدأ عاصفة أرواحهم بهذه الكلمات الهادئة [لماذا أنتم مرتاعون يا قليلي الايمان] . وحينئذ قام ووقف بكل سكون وبعظمة طبيعية على مؤخر السفينة العالي حيث عبثت الأنواء إلى لحظة بثيابه الفضفاضة وشعره المسترسل ، ونظر أمامه فى الظلمة وسمع صوته وسط صخب العناصر المضطربة قائلا [اسكت ... ! ابكم ... !] (٢) . وفى الحال سكنت الريح وصار هدوء عظيم . ولما شاهد التلاميذ والبحارة [مت ٨ : ٢٧] أيضا ضياء النجوم المنعكس على المياه التى صارت الآن ساكنة تعجبوا وتهامسوا قائلين : [أي انسان هذا] .

هذه معجزة قاهرة . وإنها لمعجزة من اللواتى تختبر إن كنا حقا نؤمن بصدق العجائب أم لا . إنها أعجوبة قوة لا يمكن تفسيرها مثل عديد من حوادث الشفاء بالقوانين السائدة . ليس غرضى من هذا الكتاب إفحام غير المؤمن أو معاداة المرتاب . وشىء مما يجب أن أقوله فى هذا الموضوع قد كتبته على أحسن ما أستطيع فى مكان آخر (٣) ولكنى أستسمح ذكر كلمات قليلة هنا . بعض الناس غير قليلى الاحترام أو غير ناقصى الاخلاص قد تساءلوا فيما إذا كانت الحقيقة مختلفة بعض الشىء ، وتساءلوا

---

١ - هذا ظاهر من مت ٨ : ٢٦ (وحينئذ) بعد أن تكلم مع الذين أيقظوه .

٢ - هنا قوة فى الكلمة الآمرة لا تظهر فى الترجمة . (مر ٤ : ٣٩) وتدل على أن النتيجة يجب أن تظهر فى الحال . قارن ١ كو ٩ : ٩ .

٣ - كتاب شهادة التاريخ للمسيح للمؤلف نفسه .

إن كان من الجائز أن نفهم هذه الأحاديث بروح مثل التى كنا يجب أن نتفهمها بها لو كانت قد كتبت فى تقليد يشهد العقل بصحته مثل حوادث قديسى العصور الأولى - القديس نيقولا أو براندن مثلا - وتساءلوا إن كنا قد نظن أن حقيقة هذه الحادثة لم يكن سلطانا خارقا تغلب على تلك العناصر التى لا تخضع لقوة البشر ، ولكن كان كل ما فى الأمر أن هدوء المسيح سرى إلى تلاميذه بتأثير مباشر خفى ، وأن العاصفة لأسباب جوية هدأت بالسرعة التى بها بدأت . أجيب على ذلك بأنه لو كانت هذه هى المعجزة الوحيدة فى حياة المسيح ، وانه لو كانت الأناجيل الصادقة كتابات مرنة أو فيها مبالغة أو غير دقيقة حتى تسمح بتخيل مثل هذه التفاسير ، وأنه لو كانت هناك سابقة عدم تصديق ما هو فوق الطبيعة ، وأنه لو لم تكن في الحياة الروحية حقائق سامية تبعد جدا عن فهم وتصور أولئك الذين يأمروننا ألا نرى فى الخليقة سوى تطبيق أصم للقوانين الطبيعية ، وأنه لو كانت قد تخلت عناية الله مدة هذه القرون العشرين عن الشهادة لأعمال وألوهية المسيح ، لما كان هناك مانع من قبول مثل هذه التفاسير . ولكن ما دمنا نؤمن أن الله يحكم ، وإن كنا نؤمن أن المسيح قام ، وإن كانت لنا أسباب تجعلنا نعتقد من أعماق نفوسنا وأفكارنا أن الله لم يسلم سلطانه وعنايته نهائيا لقوات الطبيعة الغشومة وعملها المحتوم غير المتعقل غير الرحيم ، وإن كنا نرى فى كل صحيفة من البشائر البساطة الهادئة التى للشهادة الحقة الأمينة ، وإن كنا نجد في كل سنة من سنى التاريخ المتتالية وفى كل اختبار من حياتنا الشخصية تحقيقا للشهادة التى أعلنتها ، فانا لن نتمسك بتفاسير العقليين ولن نضطرب لتمسك البعض بها .

وإن من يؤمن أو يعرف قوة الصلاة فى الأمور التى قد يعتبرها بعض الناس أنها وقائع محتومة فى الحوادث العمياء للحياة ، ومن يشعر كيف أن صوت المخلص المسموع فى الأجيال العديدة يمكن أن يهدىء عواصف أشد مما أثارت بغضب صدر ذلك البحر ، ومن يرى في شخص فاديه حقيقة أعظم وأقدر مما يراه الغير كأنه نتيجة ذلك الشىء الذى

ابتدعه الناس بخيال خصب وعبدوه تحت اسم القانون الطبيعي ، فله على الأقل لن توجد صعوبة أو تردد فى تصديق أن يسوع وهو على سفينة الصيد نصف المحطمة قد أصدر أمره فأطاعه البحر والريح ، وأن كلمته كانت بالحقيقة أفعل فى قوات الكون من المياه الهائجة والأهوية العاصفة .

لم يجد يسوع راحة حتى ولا على الشاطىء الآخر بل على العكس إذ ما عتم أن وصل إلى جزء البرية الذى دعاه متى البشير [بقعة الجرجسيين] (١) حتى قوبل بعاصفة من الهياج الانسانى والجنون والانحطاط أفظع وأشد وأنكى من عاصفة البحر الهادر . ما كاد ينزل من السفينة حتى اندفع من بين القبور الصخرية التى لوادى السماق إنسان أزعجه أشد أنواع الجنون الغاضب الذى كان ناجما من امتلاك الشيطان له . والمدينة القديمة الفخورة خلت من المستشفيات والملاجىء والمصحات العقلية . وإذ كانت هذه

---

١ - مت ٨ : ٢٨ - ٣٤ و مر ٥ : ١ - ١٩ و لو ٨ : ٢٦ - ٣٩ . تدعى فى الثلاث بشائر جدارا وجراسا وجرجسة . وبعد اكتشافات الدكتور طومسون لم يبق شك أن جرجسة (وهو الاسم الذى ذكره لوقا) كانت مدينة صغيرة قبالة كفر ناحوم لا زال مكانها الخرب يسميه البدو كرزه أو جرزة . ومكان هذه البلدة كان معروفا لأوريجانوس ويقال خطأ أنه هو أول من أدخل هذه التسمية . وكذلك ذكرها يوسابيوس وايرينيموس وفى أيامهم اعتبر الجرف العميق حيث تتقارب التلال إلى شاطىء البحيرة انه مكان صنع هذه الأعجوبة . أما جراسا فتقع شرقا حتى لتقرب أن تكون فى العربية . وأما " جدارا " فلا يكون سوى اسم الاقليم مشتقا من اسم عاصمته . ولكن هذا الرأى يضعفه : ١ - انها لم ترد بهذا النص فى زمان أوريجانوس إلا فى بعض الكتب . ٢ - باحتمال وضع هذا الاسم المشهور بدل اسم قرية جرجسة الصغيرة المجهولة. وخرائب جدارا لا زالت معروفة فى أم قيس التى تبعد ثلاث ساعات جنوب البحيرة وعلى الشاطىء الآخر لنهر اليرموك أو هيروماكس السحيق الضفاف مثل نهر الأردن . وعليه فهى أبعد من أن تكون لها علاقة بهذه الأعجوبة . فالحقيقة أن كلمة الجرجسيين هى الأصح وليست من وضع أوريجانوس لأنها موجودة بهذا النص فى ثمان من النسخ القديمة وكذلك فى النسخة القبطية والنسخة الحبشية . وعليه فيجب أن نعتبرها القراءة الأكثر احتمالا ولا شك أن متى الذى عاش على شواطىء البحيرة كان دقيق المعرفة بطوبوغرافيتها وأبقى لنا الاسم الأصيل .

الطغمة السيئة الحظ أخطر من أن تتعامل مع الناس فكانت تطرد من بين إخوانها وتمنع من الايذاء بطرق غير منتجة وفي الوقت ذاته قاسية إلى أقصى حد . فكان المرضى الذين لا أهل لهم - تحت ضغط هذه الظروف - يلوذون بشقوق التلال الصخرية التي تكثر في فلسطين والتي كان يتخذها اليهود مقابر (١) . وظاهر أن أمكنة قذرة ونجسة مثل هذه بكل ما يحوطها من روعة ومخاوف إنما تزيد وطأة المرض . وهذا الرجل الذي أصيب منذ زمن طويل ما كانت السيطرة عليه مستطاعة بأي حال . فقد حاولوا تقييده ، ولكن في نوبات جنونه كان يظهر تلك القوة غير العادية التي هي احدى مظاهر ذلك النوع من المرض العقلي (٢) ، فكان ينجح في حل ربطه وكسر سلاسله وأخيرا تركوه بين التلال المنفردة والموحشات النجسة التي رن فيها صدى صرخاته ليلا ونهارا وهو يرتادها موقعا الأخطار بذاته وبالآخرين ، شاردا ، يجرح نفسه بالحجارة .

هذا الشخص المخيف العاري المجنون الذي له ميل للانتحار قد اندفع إلى حضرة السيد بمجرد أن نزل من السفينة عند الفجر (٣) ، وربما أيضا قد تلكأ مجنون آخر

---

١ - المقابر هي الأمكنة المختارة لسكنى الشياطين في اعتقاد اليهود الذين كانوا يقولون " إذا نام انسان ليلة في المقابر فلا بد أن روحا نجسا يلبسه " (جروفر) ولا يجب أن ننسى أنه كان يظن أكيدا أن هذه الأرواح انما هي أرواح الأموات الطالحين . قارن الوصف المتين للسير وليم سكوت عن التأثيرات الحادثة على عقول الموسوسين لسكناهم في شقوق الصخور .

٢ - مر ٥ : ٤ . والبشيران مرقس ولوقايدونان التفصيلات الدقيقة في مشاعر مشاهدي الحادثة . أما متى فلا يذكر ظروفها وغالبا لم يكن حينذاك مع السيد بل كان يستعد في انهاء كل أشغاله التي ختمها بتلك الوليمة التي أعدها ليسوع ربما في عصر ذلك اليوم بعينه .

٣ - مر ٥ : ٢ و لو ٨ : ٢٧ ليس معنى هذا بالضرورة أن يكون عاريا تماما إذ يجوز أن يكون لابسا إزارا ولكن حب التعري حتى من أي دثار عام بين المجانين وكانت هذه هوية كريستيان السابع الداغاركي . ولا زال حتى اليوم يسير مجانين ثائرون عراة كما ولدتهم أمهاتهم في وسط تلال فلسطين وينامون في مغائرها (طومسون) .

على مسافة ليست ببعيدة (١) ليس من الجدريين وأقل إمعانا في لوثة العقل . والتلميح إلى وجوده هو الأمر الوحيد الذى شغل حيزا فى حادثنا . وحتى قبل أن يتحدث إلى أحد من الذين يتملكهم الشيطان كان مجرد حضور يسوع ونظرته وصوته يهدئهم ويرهبهم دائما . ولم يشذ عن ذلك مجنون جرجسة ، فبدلا من أن يهتاج على التلاميذ جرى من بعد إلى يسوع ووقع أمامه ساجدا ، خالطا شخصيته غير المتزنة مع عديد الأرواح النجسة التى كانت تملك نفسه وتضرع إلى السيد فى نبرات عالية مرتعبة ألا يعذبه قبل الأوان .

من المشاهد المعروف أنك إذا أثرت انتباه أى مجنون ليذكر اسمه ، أو أيقظت ذاكرته ، أو مسست مشاعره بالاشارة إلى ماضيه فقد يؤول هذا إلى فترة هدوء . ربما يكون هذا هو سبب سؤال يسوع للرجل [ما اسمك] . ولكن هذا السؤال كان نصيبه تلك الاجابة الوحشية [اسمى لجيون لأننا كثيرون] ، كأن الرجل قد نسى اسمه ، أو محته القسوة الهائلة لهذا الجمع من الشياطين التى فنيت فيها شخصيته (٢) . ووجود العسكر الرومان فى فلسطين جعله يعرف هذا اللقب للجماعة . وكما لو كانت فيه ستة آلاف روح نجس أجاب بتلك الكلمة اللاتينية التى صارت دارجة على لسان كل يهودى (٣) . وإذ كان الأمر مختلطا عليه بتخيلاته توسل كما لو كانت آلاف الأرواح

١ ـ كما يحتمل استنتاج هذا من مت ٨ : ٢٨ . يوجد خلاف هنا لكن ولا ناقد من الذين خبروا مفارقات الأخبار يرى فيه خلافا لا يمكن توفيقه ، أو يرى فيه بأى حال من الأحوال ما يقلل من انطباق الحديث . ولو كنا نعلم ظروف الحادث لما وجدنا صعوبة أو خلافا مطلقا فى أن متى ذكر اثنين بينما باقى البشيرين ذكروا واحدا . مثل هذه الاختلافات البسيطة توجد فى كل خطوة من شهادات الناس الكاملة الأمانة والذين لا يحلم أحد لمجرد هذه الاختلافات أن يتهمهم بالشك أو عدم دقة الملاحظة ويقول أوغسطين "أننا نختلف ولا نضاد" .

٢ ـ هذا الازدواج وتبادل الشخصية شائع بين هذه الفئة المنكودة .

٣ ـ مجدو القديمة كانت تحمل فى ذلك الوقت اسم لجيو من الفرقة الرومانية المعسكرة هناك ولا زالت تسمى لجيون والكلمة معناها : جيش أو فرقة أو جوقة .

النجسة تتكلم بفمه ألا يرسلهم إلى الهاوية ولكن يدعهم يدخلون الخنازير .

والكلام الذى يعقب هذا صعب لدينا فهمه ، ولو أخذ حرفيا يدخلنا فى مباحث غامضة تماما ومجهولة لنا ، ولا يوجد لها مفتاح إرشاد عن معناها الحقيقى ،ثم لن نكسب شيئا باستنباط الظنون عنها، وسأحتفظ برأيى قليلا وأورده بعد ذكر الآراء المخالفة . وهذا الكلام ورد فى لوقا هكذا :—

[وكان هناك قطيع خنازير كثيرة (١) ترعى عند الجبل فسألوه أن يدعهم يدخلونها فتركهم ولما خرجت الشياطين من الرجل ودخلت الخنازير ترامى قطيع الخنازير من الجرف إلى البحيرة فاختنق] .

وواضح أن المجنون قد شفى . ويرى بعضهم أنه عند النوبة الأخيرة الشديدة التى كثيرا ما تصحب الشفاء من هذا المرض الغريب الشنيع قد ارتبك بخوف شديد بكيفية ما قطيع كبير من الخنازير فارتمى من الجرف إلى البحيرة ، وأن هذا الهجوم المفاجيء من الخنازير قد ربطته عقول الموجودين ومنهم المصاب نفسه مع عتق هذا البائس من عبودية الجنون .

وإلى هنا لا توجد صعوبة ما ، فكل من يؤمن بالانجيل ويؤمن أن ابن الله قد صنع على الأرض أعمالا تفوق قوة البشر ، يجب أن يؤمن أن أكثر حوادث الشفاء كانت موجهة لأشنع صنوف الأمراض العقلية والعصبية التى نعزوها نحن لأسباب طبيعية والتى كان اليهود ككل الشرقيين يعزونها لقوات شيطانية (٢) . وإذ نعلم مدى

١ ـ مرقس كعادته فى التخفيض يقول (نحو الفين) .

٢ ـ كل الأمراض التى ندعوها " ملاخوليا " دعاها اليهود " أرواحا نجسة " فلا عجب أنهم لجأوا فى شفائها (اخراجها) إلى التعذيبات البدنية وكل المصابين بالخبل أو النورستانيا أو الأمراض العقلية كانوا يقولون أن بهم شياطين . ويبدو أن بطرس الرسول يضم كل الذين شفاهم المسيح فى قسم (المتسلط عليهم ابليس) اع ١٠ : ٣٨ . لمعلومات أوفى فى هذا الموضوع راجع جروفر وإدزارد .

التأثير الغريب لعقل الانسان على الحيوانات الدنيا بطريق خفي غير معروف ، فنعلم مثلا أن جبن الانسان أو سروره أو حتى مخاوفه الخيالية تتصل أكيدا بالكلب الذى يتبعه أو الجواد الذى يركبه . فانه توجد صعوبة قليلة ، أو لا توجد صعوبة بالمرة ، في أن صرخات واشارات رجل ممعن فى الجنون قد أحدثت خوفا لا يضبط فى قطيع من الخنازير سيما ونحن نعلم أن نوبة التخلص من المرض كانت تصحبها غالبا تشنجات مخيفة صاخبة وأحيانا انسكابات دم (١) ، وأن منظر ورائحة دم الانسان لهما تأثير غريب على حيوانات كثيرة . فهل لم يوجد شيء من هذا القبيل في هذه الحادثة الغريبة ؟

حقيقة إن البشيرين - كما تظهر لغتهم بوضوح - نظروا إلى هذا كله بمنتهى البساطة ودونوا أن شياطين حقة فى جماعات عدة خرجت من الرجل إلى الخنازير ، ولكن ألا يمكن أن يسمح هنا أن نفرق بين الحقائق الواقعة وبين ما يعتقده الذين نظروا الحادثة وسمعها منهم البشيرون ؟ إن كنا غير ملزمين أن نصدق ظن الرجل بأن ستة آلاف شيطان قد امتلكت روحه فهل نحن ملزومون أن نعتقد بما تخيله عقله المخبول من وجوب خروج أرواحه النجسة إلى الخنازير (٢) ؟ ولو أمكن أن نتأكد أن يسوع شجع أو أقر أن الخنازير قد جنت حقا من الأرواح النجسة التى خرجت فعلا من جسم الجرجسى إلى أجسام هذه الحيوانات العجماوات لآمنا دون تردد وحرفيا بهذه الحقيقة مهما بعدت عن الأفهام . ولكن هذا ما لا يمكن التأكد منه مما دونه البشيرون . فليعتقد من يريد التمسك بأن الانسان والحيوان يمكن أن يتملكهما الشيطان حرفيا ، ولكن ليحترزوا من أن يخلطوا اعتقادهم الخاص الذى يدينون به وحدهم بالحقائق التى

---

١ - هذا اعتقاد شهير عند اليهود . والربى صموئيل يعزو مرض الكلب لدخول الشياطين فى الكلاب .

٢ - راجع ما كتبه وستكوت فى هذا الموضوع بجهال واعتدال فى كتابه معجزات الانجيل . وقارن الخزعبلات المادية فيما كتبه يوسيفوس مع بساطة أحاديث البشيرين . والمؤكد أنه لا يمكن الجزم برأي بات فى موضوع امتلاك الشياطين للانسان والحيوان .

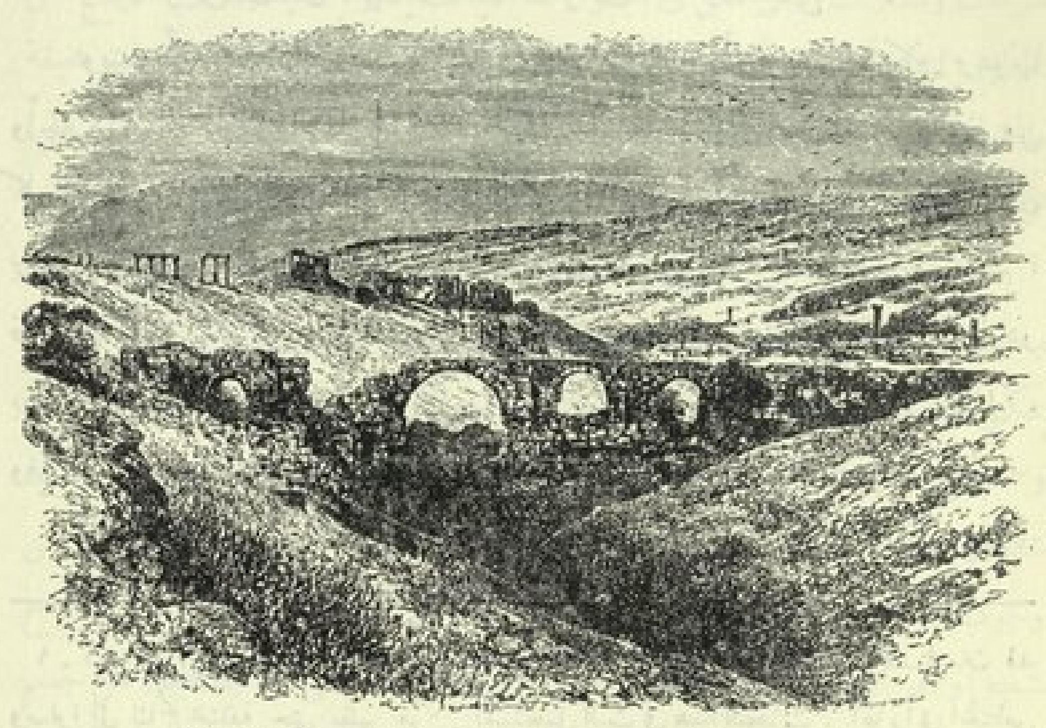
لا يستطيع رفضها غيرهم دون أن يتعاموا. وليذكروا أن التمسك الشديد والاصرار والتهديد أقرب ما يكون إلى افتقار المحبة والتسامح الذى للفريسيين الذى واجهه السيد بشديد الغضب وقارص التوبيخ. وامتلاك الشياطين لا يقر به بعض العلماء فى وقتنا الحاضر، وهو على أى حال أمر غير خطير الأهمية فى التقدير المسيحى (١).

ويبدو أن الحادث كان مرعبا وفجائيا وذلك من القول [فهرب الذين كانوا يرعونها وأخبروا فى المدينة وفى الحقل]. فتقاطر أهل جرجسة والجدريين والجراسيين من كل الكورة المحيطة وهرعوا ليروا « الغريب العظيم » الذى زار شاطئهم. وأى برهان حى قوى الوقع فى النفوس على عظمته وقدرته من المنظر الذى رأته عيونهم؟ فالمجنون القذر الذى كان رعبا لتخومهم، ساكن القبور، الزائغ البصر، الهادر بصرخات الغضب، الوحشى غير الأليف حتى ليقطع الأغلال، أصبح هادئا كطفل، وقد خلعت عليه يد رحيمة عباءة فكان [لابسا عاقلا] جالسا عند قدمى يسوع.
[فخافوا] من حضرته القدسية أكثر من خوفهم من هياج من كان مجنونا.

---

١ ـ كثير من الرجال القديرين الأتقياء المستقيمي الرأى وأمامهم ذات المعلومات قد وصلوا إلى نتائج مختلفة حتى يظهر من المستحيل البت فى هذا البحث. أما رأيى الخاص فهو :— اليهود ككل الأمم غير العلمية فى الأزمنة الغابرة كانوا يعزون أكثر الأمراض العصبية والجسمية لسكنى الشيطان، والتى تعزوها نحن لأسباب طبيعية. ولكنى أقرر أنه فى العصر المظلم البائس الذى شهد مجيء المخلص كانت توجد أنواع من الجنون تأثيراتها المباشرة من امتلاك الشيطان؛ ولا أجد شخصيا صعوبة أو ثقلا فى قبول هذا المعتقد. ولكننى فقط كنت أحاج ضد الجهد غير الرحيم والممقوت أن تدمج هذا البحث فى الايمان المسيحى الواجب على الكل والموضوع غامض (حتى على العلم نفسه) ليجزم المرء برأى قائم على أى الجانبين. وبعد كتابة ما تقدم تحققت أن كاتبين مجيدين بعيدين عن كل مظنة وهما نيندر ورزنس يتمسكان بنفس اعتقادى. فيقول نيندر "هل اتخذ يسوع نفس آراء المجنون أو أن هذا مجرد استنتاج عندما رأوا الخنازير نزلت إلى المياه؟ " ولا زال اليهود مثل آبائهم يعزون كثيرا من الأمراض والحوادث للأرواح النجسة (راجع الخاتمة).

حقا لقد شفي الرجل ولكن أين هذا من أن بعضا من الألف حيوان النجسة قد هلك ! إن الخنازير الثمينة كانت فى خطر ! بل إن طمع كل يهودى غير متدين أو أممي دنيء كان فى المكان الأول من الخطر لو قبلوا شخصا مثل يسوع . فبعداوة معجلة



خرائب جرجسة (نقلا عن فوتوغرافية بعثة المباحث الفلسطينية)

ولطف مفقود طلبوا إليه [أن ينصرف عن تخومهم] . وكان اليهود والوثنيون يعرفون من قبل الحقيقة الصادقة أن الله أحيانا يستمع الطلب الردىء فى حمو غضبه (١) ويسوع

---

١ ـ راجع خر ١٠ : ٢٨ و ٢٩ و عد ٢٢ : ٢٠ و مز ٧٨ : ٢٩ ـ ٣١ . جاء فى شعر شكسبير " نحن فى جهل نفوسنا كثيرا ما نطلب أشياء تضرنا ولكن الحكمة الالهية تحبسها عنا لنفعنا " .

وفى شعر أوروالى " إن الله أحيانا يسمع بعض صلواتنا لجاة ويرمى فى وجوهنا بعض ما نطلبه ، عطايا ولكن فى قلب قفاز المبارزة " .

نفسه علم تلاميذه ألا يلقوا القـــدس للكلاب ولا اللآلىء للخنازير لئلا تدوسها بأقدامها وتلتفت فتمزقهم . لقد جاء عبر البحر ينشد الهدوء والراحة ويفيض على هذه الجماعات القليلة نصف الوثنية من نعم ملكوت الله . ولكنهم أحبوا خطاياهم وخنازيرهم، وبأصرار كامل وعزم فضلوا كل ما هو خسيء دنيء ورفضوا هذه النعم وطلبوا إليه أن ينصرف . ففارقهم سريعا ولكن بحزن . لم تكن جرجسة موضعا له . كانت قمم التلال المنفردة التى فى شمالها أو حتى الشاطىء الآخر المزدحم أفضل منها.

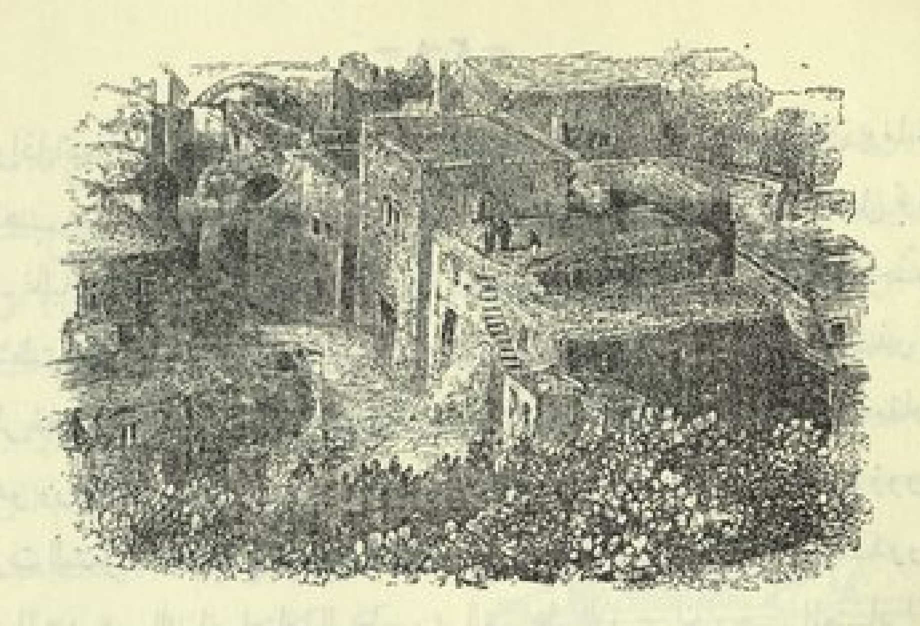
على أنه لم يتركهم في غضب . إن عملا من أعمال الرحمة قد صنع هناك . ان خاطئا قد خلص . أخرج الأرواح النجسة من نفس واحدة ، أن جماعة الجدريين متحدة قد طلبت ذهابه عنهم ، ولكن [طلب إليه الذى كان مجنونا أن يقيم معه] ، وتوسل ألا يتركه فيما بعد . ولكن يسوع لم يغفل أن يترك فرصة أخيرة للذين طردوه . قد طلب إلى آخرين ممن صنع لأجلهم معجزاته ألا يقولوا لأحد ، وأما لهذا الرجل - إذ كان هو ذاته تاركا المكان - فقد طلب وحتم عليه الاعلان ، إذ أمره : [اذهب إلى بيتك وإلى ذويك وحدثهم بما صنع الرب بك ورحمك] . وهكذا صار مجنون جرجسة أول مبشر لكورة ديكابوليس حاملا فى ذاته برهان كلماته . وعندما تحرك القارب الصغير المقل ليسوع عن الشاطىء ربما أن اليوم لن يكون بعيدا - أو على أى حال سيكون قبل أن يصير هذا الاقليم التعس الحظ طعمـــة(1) لعاصفة السيف

---

١ - راجع مذبحة جدارا المخيفة واحتراق عاصمة هذا الاقليم فى يوسيفوس .

المعرب : الاعتقاد الصحيح أن الشيطان كان يلبس أجسام الناس فى الزمن المظلم الذى سبق نور المسيحية وانه لا زال إلى يومنا هذا يعمل فى غير المؤمنين أو الذين أماتوا ايمانهم وتبعوا أهواء العالم فصاروا فى حكم من لم ينالوا المعمودية ، وان له سلطانا أن يتشكل بأية هيئة كانت حيوانية أم بشرية أم ملائكية (ولا عجب لأن الشيطان نفسه يغير شكله إلى ملاك نور ٢ كو ١١ : ١٤) وإن كان العلم إلى يومنا هذا ما زال قاصرا عن نفى أو اثبات هذه الأمور الخافية .

واندلاع النار ـ عندما « سيفضل حتى الجدريين القايلي الفهم يسوع عن الخنازير ويشعرون أن الحياة السعيدة وليدة الطهارة » .



منازل الناصرة ومنظر السهل الخارجي

الفصل الرابع والعشرون

يوم وليلة مهمين

"لا تفرح ما لم تنظر إلى أخيك بمحبة"
من كلمات يسوع غير المدونة (١)

ظاهر أن الحوادث التي سبقت قد حدثت في الصباح الباكر . وربما كان الوقت ظهرا عندما وصل السيد مرة أخرى إلى سهل جنيسارت وعرف الناس شراع مركبه العائد ، فقبل أن يصل إلى الشاطىء [لو٨: ٤٠] بزمن طويل اجتمعوا واحتشدوا وترقبوا عودته وقبلوه بفرح .

١ - ذكر هذا القول إيريناوس .

وإذا اتبعنا ترتيب الحوادث كما ورد فى متى (١) لرأينا أن هذا اليوم كان يوما خالدا فلقد ذهب يسوع أولا إلى كفر ناحوم التى أصبحت تعتبر [مدينته] ، ودخل توا إلى البيت - غالبا بيت بطرس الرسول - الذى كان يأوى إليه مدة اقامتـه فى كفر ناحـوم ، فاكتظت الجموع بعدد متزايد حتى ملأوا البيت والفناء الذى حوله حتى تعـذر عليه شق طريقه إلى الباب (٢) . وكان هناك مريض متألم مسكين ، طريح الفراش ، مفلوج ، صمم هو ورفاقه أن يصلوا إلى يسوع . كان أحد أولئك الغاصبين الذين يحـوزون ملكوت السموات بقوة . وإذ رأى الأربعة الذين كانوا يحملونه انهم لن يقـدروا أن يصلوا إليه بسبب الزحام اعتلوا السطح ربمـا من على الدرج الخارجى المعتـاد (٣) ، ونقبوا السقف بأزالة بعض الآجـر (٤) وأنزلوا المفـلوج على سريره الوضيـع (٥) إلى المكان الذى كان يسوع جالسا أمامه . وكان الرجل صامتا . ربما أسكته الخوف والحياء

---

١ - مت ٩ : ١ . ويذكر لوقا ٥ : ١٧ أن فريسيين ليس فقط من الجليل بل أيضـا من اليهودية كانوا حاضرين . غير أنه من الواضح أن هؤلاء لم يكونوا جواسيس أوروشليم الذين أرسلوا فيما بعد ليتجسسوا عليه (مر ٣ : ٢ و ٧ : ١ و مت ١٥ : ١) لأن لوقا يذكر بوضـوح (وكانت قوة الرب لأبرائهم) فنستخلص أنهم قد أتوا مدفوعين بعوامل غير معادية على الأقل .

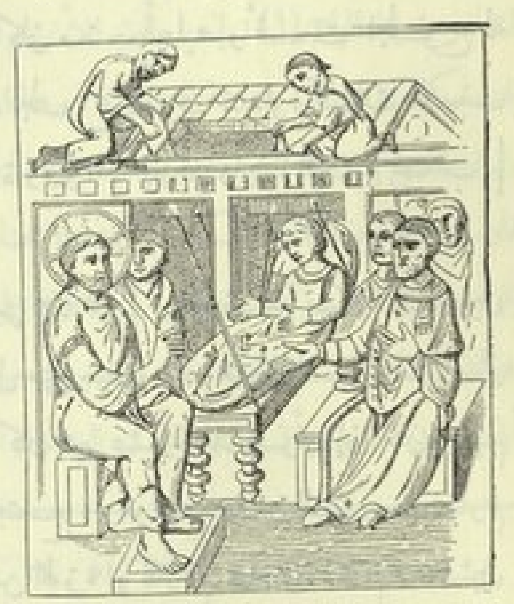
٢ - مت ٩ : ٢ - ٨ و مر ٢ : ١ - ١٢ و لو ٥ : ١٧ - ٢٦ .

٣ - المنازل الشرقية غير عالية وليس أسهل من الوصول إلى سطحها سيما إن كانت مبنيـة على مرتفعات . راجع مت ٢٤ : ١٧ بخصوص الدرج الخارجى .

٤ - لو ٥ : ١٩ (من بين الآجر) أما فى مر (كشفوا سقف البيت) وهذا قد يجعلنا نظن أنهم عملوا فتحة فى طبقته الطينية ، أو ربما قد وسعوا فتحة كانت فى السقف . إن التفاصيل غير كافية فلا نتمكن من معرفة ما فعلوه تماما على أى حال فتح السقف أمر بسيط عادى فى الشـرق (راجع كتاب " أرض الكتاب " لطومسون) أما الاعتراض على أن هذا العمل قد عرض سلامة بل حياة الجالسين فى البيت للخطر فهو نقد صبيانى جهول لقوم متعنتين .

٥ - لو ٥ : ١٩ الكلمة تعنى " سريرا صغيرا " ومر ٢ : ٤ الكلمة تعنى " فـراشا " ربما أكثر من مجرد حصير .

من الطريقة التى تطفل بها للوصول إلى حضرة السيد . ولكن يسوع قد سر من قوة وثبات وجرأة الايمان الذى ظهر فيمن فعلوا هذا الأمر ، ففي الحال منح المفلوج نعمة أثمن مما طلب قائلا له بلطف مثل ما قال للمرأة التى كانت خاطئة [ثق يا بنى (١) مغفورة لك خطاياك] . سبق أن لاحظ السيد التأثير السيء الذى تحدثه هذه الكلمات المثيرة للدهشة فى الحضور ، ولاحظه أيضا هذه المرة إذ تبادل الكتبة الموجودون النظرات وتجلت علامات عدم الموافقة الغاضبة على وجوههم(٢) . ولكنه هذه المرة لم يسكت كما فعل في المرة السالفة بل على العكس تحدى انتباههم لكلماته وزكاها بمعجزة . فاذ قرأ أفكارهم وبخ ضغينتهم القاتلة المكتومة التى امتلأت بها قلوبهم ووجه إليهم سؤ الاصريحا قائلا [أيما أيسر أن يقال للمفلوج مغفورة لك خطاياك أم أن يقال قم واحمل سريرك وامش] . أما يمكن أن يقول أى شخص القول الأول دون أن



شفاء المفلوج (٣)

١ ـ لو ٥ : ٢٠ (أيها الانسان) مر ٢ : ٥ (يا بنى) مت ٩ : ٢ (ثق يا بنى) وإذ هو التعبير الأكثر حنانا فالأغلب أنه التعبير الذي استعمله يسوع .

٢ ـ أصح القراءات لمر ٢ : ٧ تعنى " لماذا يتكلم هذا الانسان هكذا انه يجدف ".

٣ ـ هذه الصورة مصغرة عن أجمل الحفريات اليونانية من عمل القديس غريغوريوس النازيازى (القرن السادس) ومحفوظة بمتحف باريس . والمريض على سريره (نفس الكلمة التى استعملها يوحنا عن مفلوج بيت صيدا يو ٥ : ٨ والتى استعملها مرقس عن المعذبين الذين حملوهم إلى الشاطىء ـ مر ٦ : ٥٥) قد تدلى من بين الآجر ورفع يديه يتذلل إلى السيد الذى مد يده الجنى منهما . وقد جلس ثلاثة رجال فى ثياب براقة ينظرون باعجاب . وقد رسم يسوع كالعادة فى ثياب الأرجوان الملوكية . وأثاث المنزل كله من الذهب .

يستطيع أن يعرف أحد إن كانت الخطايا قد غفرت أم لا ؟ ولكن من يقدر أن يقول القول الثانى ويتم كلامه إن لم يكن له سلطان من فوق ؟ إن كنت بكلمة أشفى هذا المفلوج ألا يكون واضحا جليا أن لى سلطانا على الأرض أن أغفر الخطايا ؟ وهذا السؤال الذى لم يجيبوا عليه بل قوبل بصمت العناد الذى لا يتقهقر ، فالتفت للمفلوج وقال له [قم فاحمل سريرك وامش] . وللوقت أعيدت القوة للأعضاء المشلولة ، وأعيد السلام للنفس المريضة . شفى الرجل وحمل ما كان مضجعا عليه وأفسحت الجموع له طريقا فمضى إلى بيته ممجدا الله . وبينما كانت الجموع تتفرق تبادلوا كلمات التعجب الممزوجة بالخوف واعترت الجميع حيرة وقالوا [إنا قد رأينا اليوم عجائب لم نر أحدا مثل هذا قط] .

ثم خرج يسوع إلى شاطئه المحبوب [مر ٢ : ١٣] ربما ليفسح مكانا للسامعين المتزايدين ، وبعد برهة تعليم قصيرة قصد منزل متى حيث صنع هذا العشار الذى صار تلميذا وليمة وداع لكل أصدقائه . وإذ كان هو عشارا فلا غرو إن كان بينهم [كثيرون من العشارين والخطاة] ، حثالة المجتمع ، وموضع بغض الناس واحتقارهم أيضا . ولكن يسوع وتلاميذه بدون ذرة من الهزء أو الترفع جلسوا معهم متكئين فى الوليمة [لأنهم كانوا كثيرين هناك] . وهذا التفضل السخي قد أثار تذمرا عميقا لسببين ومن شيعتين قويتين وهما الفريسيون وتلاميذ يوحنا . أما الأولون فلأنهم يعتقدون أن مجرد الاختلاط برجال مثل هؤلاء ، ذوى حياة مفرطة شريرة ، تكسر كل تقاليد وسوستهم المتعجرفة . وأما الآخرون فلأن قبول مثل هذه الدعوات لحفلات الولائم يزرى بتمسكهم بضرورة تصوفهم السنى . ولكن من البعيد أن تكون هذه التذمرات قد قدمت في وقت الوليمة التى ربما يكون قد شاهدها بعض من الفريسيين أو تلاميذ يوحنا فالوا ونظروا لمجرد حب الاستطلاع ، ولم يشاركوا فيها لئلا يقعوا فى نفس اللوم الذى وجهوه إلى السيد . والغالب ان يسوع سمع تذمرهم قبل انتهاء

الوليمة . وكانت طريقة تقدمه له فريدة . ما زال الفريسيون في شك فى المسيح وحقيقة رسالته ، وكانوا يخشون عظمته فلم يجرأوا حتى ذلك الوقت أن يعادوه علانية فتجرأوا فقط على أن يبكتوا تلاميذه قائلين لهم [لماذا يأكل معلمكم مع العشارين والخطاة] وربما لم يستطع تلاميذه البسطاء أن يجاوبوهم ، ولكن يسوع واجه المعارضة فى الحال وجاوب هذه الشخصيات المحترمة الغاضبة معلنا أنه لم يأت لأصحاب البر الذاتى بل للخطاة الشاعرين بخطاياهم (١) . إنه لم يأت للأغنام السالمة بل للخراف الضالة ، ليكرز بالانجيل للمساكين ، وبوسع الرحمة للضالين . وهذا هو السبب الرئيسى أنه سكن بين الناس . ولم تكن مشيئته أن يفرض نعمته فرضا على أولئك الذين من البداءة قد أغلقوا قلوبهم بعناد ضدها ، ولكن أن يمنحها بحنان لأولئك الذين يحتاجونها ويشعرون أنهم يحتاجونها . ولهذا كان تعليمه [كالطل على الكلأ وكالوابل على العشب] . ثم أحال هؤلاء الغاضبين على اقتباسات مشهورة من العهد القديم (هوشع ٦ : ٦) (٢) حتى فى أيامهم قد لخصت أن مسرة الله في الرحمة والمحبة . وبعدئذ استعار نفس جملة حاخاميهم

---

١ ـ مت ٩ : ١٢ و مر ٢ : ١٥ و لو ٥ : ٢٩ . ويتضح منها أن متى قد ضحى تضحيات مادية زمنية كبيرة جدا ليتبع يسوع . ولم يدون البشيرون قبول متى الذى حدث قبل ذلك لكى يصلوا بين دعوته ووليمته . وواضح أنه لم يصنع هذه الوليمة العظيمة فى نفس يوم الدعوة لأن الاثنى عشر قد انتخبوا قبيل عظة الجبل ، ودعوة متى من مكان الجباية سبقت انتخابه تلميذا . وهذا يجعلنا نتحقق أن الوليمة قد تأخرت زمنا عن وقت الدعوة . يقول الأسقف نيومان فى كتابه " حل معضلات الكتاب صحيفة ٢٥٩ " " إن دعوة لاوى ووليمته قد فرق بينهما كافة الكتاب من عهد تاتيان سنة ١٧٠ م. إلى جرسون سنة ١٤٠٠ م. " وقد يجوز أن نضيف " وإلى يومنا هذا " .

٢ ـ الاقتباس من العبرانى . قارن مت ١٢ : ٧ و اصمو ١٥ : ٢٣ و تث ١٠ : ١٢ أم ٢١ : ٣ و خر ١٢ : ١٣ و هو ٦ : ٦ و ميخا ٦ : ٨ وهى آيات كانت تظهر لليهود لو أنهم فتشوا الكتب حقا لاتضح لهم كذب وهراء كل ترتيبات الفريسيين ومذهبهم.

وأمرهم - ثم معلمي الناموس الذين يدعون فائق العلم - قائلا [فاذهبوا وتعلموا] (١) [ما هو (٢) . أني أريد رحمة لا ذبيحة] . ربما لم يخطر قط على عقولهم المندهشة والمثقلة بطبقة كثيفة من التقاليد والفرائض أن المحبة التي بها تنازل أن يخالط الخطاة ليربح نفوسهم تسر الله أكثر من آلاف الحملان وآلاف أنهار زيت .

أما جواب السؤال المخاصم نوعا ما الذي قدمه تلاميذ يوحنا (٣) فقد كان أقل قساوة في نبراته . لا شك أنه رأف بالمرارة التي حاقت بعقولهم والتي نجمت من أن معلمهم العظيم الذي قد اعتادوا حتى ذلك الوقت أن ينظروا إليه وحده قد ألقي في غياهب سجن ماكيروس في بؤس مقيم . كان يمكن أن يجيبهم بأن الصوم على أحسن وجه عمل للتطهير نافع حقا وواجب ولا سيما إذا شعر أي انسان أنه يساعده على أماتة أي شيء رديء في طبيعته . ولكن إن كان للافتخار الروحي ، أو إن أدى إلى احتقار الآخرين فهو عديم النفع اطلاقا . وكان يمكن أن يجيبهم بأنهم قد خصصوا يومين (٤) في الأسبوع للصوم مع أن هذا فرض تقليدي لم يأمر به ناموس موسى الذي ينص على تخصيص يوم واحد في العام (٥) . وكان يمكن أن يجيبهم أيضا بأن الصوم لم يرسم

---

١ - مت ٩ : ١٣ . ٢ - " ما هو " أي " ما هو معنى " .

٣ - مت ٩ : ١٤ - ١٧ و مر ٢ : ١٨ - ٢٠ و لو ٥ : ٣٤ - ٣٩ . وظاهر أن الفريسيين في حماسهم لينتهزوا أي فرصة وكل فرصة ليقاوموه فرحوا بالاتحاد غير الاعتيادي مع تلاميذ يوحنا ، اتحادا قويا جعلهم أن يتقدموا أيضا مع تلاميذ يوحنا في سؤالهم (مر ٢ : ١٩) .

٤ - يوم الثلاثاء لأنه اليوم الذي اعتقدوا أن موسى صعد الجبل فيه للمرة الثانية ، ويوم الاثنين لأنه اليوم الذي اعتقدوا أنه عاد فيه (مابها كاما) قارن لو ١٨ : ١٢ .

٥ - هو يوم التكفير (لا ١٦ : ٢٩) (عد ٢٩ : ٧) . ويظهر أنه في وقت السبي قد سنت أربعة أصوام سنوية أخرى (في الشهر الرابع والخامس والسابع والعاشر) ولكن بالتأكيد لم يفرضها الأنبياء (زك ٨ : ١٩ و ٧ : ١ - ١٢) . أما أقدم وأصح جزء من " الطائيث " الذي نبت من مدرستي هليل وشماي فلا يوجد فيه غير جدول للأيام التي يحرم فيها الصوم والحزن (موجود ترجمته في تاريخ دربنبورج صحيفة ٤٣٩-٤٤٦) وانظر أيضا تفسير لايتفوت لمت ٩ : ١٤ .

واجبا عاما على اليهود ، وربما كان السبب فى هذا أن رحمة الله قد رأت كيف أن الصوم يؤثر تأثيرا مختلفا باختلاف الناس ، فبينما هو يحصن بعضا ضد هجمات التجارب فربما يعيق آخرين أو يعطل المرضى عن أداء الواجب . أو كان يمكن أن يجيبهم بأحالتهم على كلام أنبيائهم الذى يعلن أن الصوم الحقيقى في نظر الله ليس مجرد الامتناع عن الطعام بينما يظل المرء « يرعى في الآثام » ، ولكنه محبة الرحمة وصنع العدل واطلاق المأسورين (١) . ولكن يسوع بدلا من توجيههم لكل هذه الدروس التى ربما - فى حالتهم الراهنة - قد تزيد حزازاتهم ، أجابهم بلطف وجادلهم برفق وعاد بأذهانهم إلى نفس التشبيه الذى قاله معلمهم المحترم والمحبوب عندما مثل يسوع بالعريس واكتفى بسؤالهم [هل يستطيع بنوا العرس (٢) أن ينوحوا ما دام العريس معهم] ثم نظر بهدو لما سيجيء عليه ونطق بكلام ربما لم يفهمه أحد حينذاك ، وربما كان التنبؤ الأول الذى صرح به (٣) عن النهاية المريعة التى تنتظره معلنا : [ولكن تأتى أيام حين يرفع العريس عنهم فحينئذ يصومون فى تلك الأيام] . وعاد فأخبرهم بكلمات أعمق أهمية ، وإن كانت كعادته معلنة فى تشبيهات منزلية عادية ، أن ديانته ثوب جديد ، وليست رقعة جديدة فى ثوب قديم تجعل الخرق أسوأ ، وأنها ليست خمرا جديدة قوية مختمرة توضع فى زقاق عتيق مشقق الجلد فتنشق الزقاق وتراق الخمر ، ولكن ديانته خمر

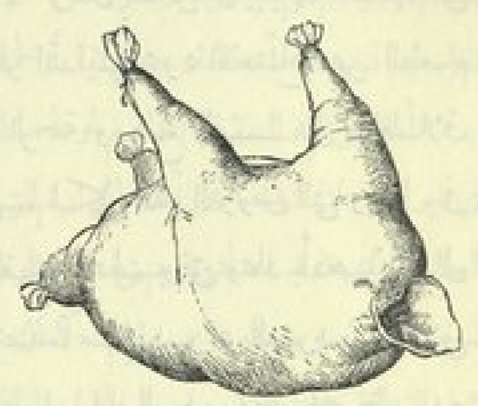
---

١ - راجع كلمات الأنبياء النبيلة السامية فى هذا (ميخا ٦ : ٦ - ٨) هو ٦ : ٦ و ١٢ : ٦ و عا ٥ : ٢١ - ٢٤ و اش ١ : ١٠ - ٢٠ و اش ٥٨ : ٣ - ١٣ .

٢ - يو ٣ : ٢٩ . حيث تستعمل كلمة " ينوحون " بدل يصومون وهذا يعطى قوة للاجابة . لأن الصوم علامة للحزن ولكن ملكوت الله ملكوت فرح واعلان اقتراب الملكوت الذى شبهه معلمهم بالعرس كان وقت فرح لا نوح . والتلاميذ هم " بنو العرس أو بنو هاهشوناه " وهو تعبير عبرانى يقصد به ألصق أصدقاء العروسين " .

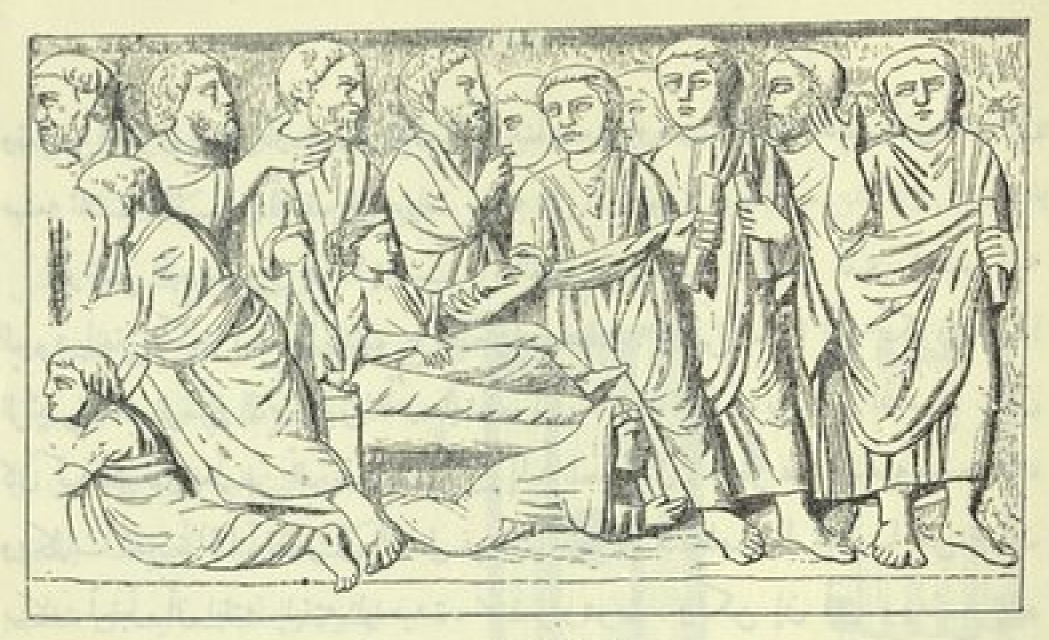
٣ - تلميح خفى سبق وقيل فى محادثة نيقوديموس (يو ٣ : ١٤) " يرفع " تدل على النهاية القاسية (مت ٩ : ١٥) (مرقس ٢ : ٢٠) .

جديدة فى زقاق جديد ، وأن الروح الجديدة يجب أن تختزن فى آنية مجددة تماما . إن الحرية الجديدة لن تفسدها تحديدات صماء مطولة لا معنى لها . إن التعليم الروحى يجب أن يفصل للأبد عن مجرد المظاهر الخارجية الدقيقة .



زقاق خمر

ولقد حفظ لنا لوقا البشير الأضافة الرحيمة المهمة [وما من أحد يشرب عتيقة ويريد جديدة لأنه يقول إن العتيق أفضل]. ليس هناك شىء فى خلق الانسان أصعب من سماحه باحترام مختلف الآراء فى المسائل الدينية . ولكن هذا هو ما تطلبه هذه الكلمات . كان يعلمهم أن ديانته ليست اصلاح القديم بل خلقه جديدا . ولكنه كان يعلم مقدار الصعوبة لرجال درجوا على احترام تقاليد الفريسيين وتمجيد تصوف المعمدان فى قبول هذه الحقائق الجديدة والغريبة . وعلى ذلك فتى وهو يجتهد أن ينير ظلمتهم أراهم أنه يقدر أن ينظر إليهم بعين أوسع من كافة العيون ، عين رحبة تعطف عليهم جميعا .



اقامة ابنــة يايروس *

الفصل الخامس والعشرون

يوم وليمة متى أيضا

أم ليس هناك طبيب
ارميا ٨ : ٢٢

لم تكد تنهي الوليمة في بيت متى (١) ويسوع ما زال يتابع حديثه

---

١ ـ اشارة التوقيت في مت ٩ : ١٨ (وفيما هو يكلمهم بهذا) بينة واضحة . ولا شك أن متى قد لاحظ الترتيب الزمني في يوم عظيم في حياته كهذا ، أي يوم وداعه لحياته الغابرة كعشار جليلي .

* هذه الحفرية (المأخوذة عن قبر في الجيل الرابع وموجودة الآن في متحف آرليس) تبين الحادثين الواردين في البشائر مجتمعة ـ الايمان المتواضع للمرأة التي زاحمت لتلمس هدب ثوبه ؛ والموت في بيت الرئيس يطيع أمر المسيح (يا صبية لك أقول قومي) . وعلى ك السيد بيده اليسرى ملفا يرمز الرسام به على انه (الكلمة) وكذلك يعقوب ويوحنا كرسل له ورأس السرير محلى بسمكة الموت رمز الأعمار . وباقي الأشخاص بعد الأبوين يظهرون كأنهم خارجين أو طالبين البقاء .

وتعليمه الحنون الذى أثاره سؤال تلاميذ يوحنا ، حتى بوغت الجميع بحادث آخر أدى إلى صنعه ثلاث عجائب من أعظم معجزات حياته على الأرض (١) .

رئيس المجمع ، روش ها كنيست ، أو العظيم في رؤساء الجماعة الذى ينظر إليه اليهود باحترام كبير ، جاء إلى يسوع باضطراب عظيم . وليس بعيدا أن يكون هذا الرئيس أحد الرسل الذين سبق فأتوه ليشفعوا فى قائد المائة الذى بنى لهم المجمع . فان كان كذلك فهو يعلم عن تجربة قوة من إليه يلجأ الآن . وخر عند قدميه وسجد له، وبكلمات كسيرة (٢) - تظهر فى الأصل غير متماسكة بل متقطعة لما تخللها من نوبات بكاء - أخبره أن ابنته - ابنته الوحيدة - تحتضر وتموت . ولكن إن أتى ووضع يده عليها فستحيا . فقام يسوع فى الحال من على المائدة (٣) بحنان لا يمكن أن يتصامم عن صرخة المحزون وذهب معه مصحوبا ليس بتلاميذه فقط بل أيضا بجمع مترقب شهد ما حدث . وأثناء مسيره أحاط به الجمع وازدحموا فى حماس حوله .

وسط هذه الجموع التى بلا شك شملت بعض الفريسيين وتلاميذ يوحنا الذين كان يتحدث إليهم وأيضا بعض العشارين والخطاة الذين جلسوا معه فى الوليمة - كانت نفس لم يجتذبها حب استطلاع لمشاهدة ما سوف يعمل يسوع لرئيس المجمع ، امرأة منذ اثنتى عشرة سنة تتألم من مرض مضن جعلها غير صالحة لكافة مرافق الحياة ومؤثر على وجه خاص لأنه كان يعتبر عند الناس أنه النتيجة المباشرة للعادات الخاطئة . وقد أنفقت كل مالها (٤) على أطباء مختلفين ولم تستفد شيئا بل صارت إلى حال أسوأ

---

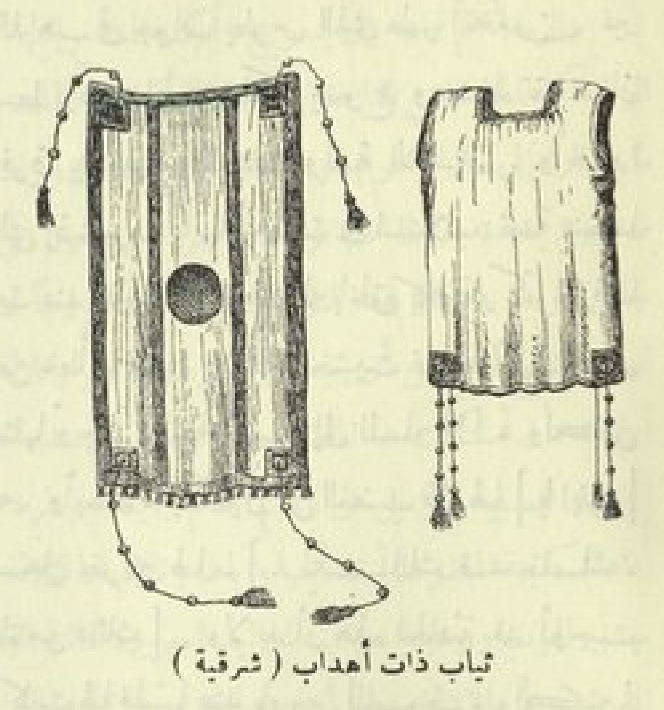
١ - مت ٩ : ١٨ - ٢٦ و مر ٥ : ٢٢ - ٤٣ و لو ٨ : ٤١ - ٥٦ .

٢ - مر ٥ : ٢٣ . إذا تذكرنا مركز يايروس فان هذه الحادثة ترينا المقام الأرفع الذى حازه يسوع فى ذلك الوقت حتى بين علية القوم .

٣ - مت ٩ : ١٩ .

٤ - مر ٥ : ٢٦ والبشير الطبيب لوقا يخبرنا أنها فى سبيل ذلك انفقت (كل معيشتها) ٨ : ٤٣ ولا غرو إن كان هذا قد حدث سيما ان اتبعت الوصفات الغريبة الواردة فى التلمود (لاتيفوت) .

وهى تلمس منهم الشفاء سدى والآن ستجرب كوسيلة نهائية أن تنال ما يمكن نواله بدون مال ولا ثمن من الطبيب العظيم . وربما عن جهل ولم يعد لها ما تكافئه به ، أو وربما عن حياء نسائى تخشى الافصاح عن المرض الذى منه تئن ، قررت في نفسها أن تسرق النعمة التى إليها تتوق دون أن يكشف أحد أمرها ولذلك فبقوة وإلحاف اليأس شقت طريقها وسط هذا الجمع المكتظ حتى اقتربت إلى حيث تقدر أن تلمسه ، وحينئذ استجمعت قوة من توتر أعصابها وأمسكت الهدب الأبيض لثوبه .


ثياب ذات أهداب (شرقية)

كان على كل يهودى أن يلبس حسب ناموس موسى فى كل زاوية من الطاليث هدبا أى « شرابة » معلقة بخيط أزرق رمزى ليذكر أنه قدس للرب (١) ، وكان فى الغالب يتدلى اثنان منها أسفل الثوب واثنان يعلقان عند الكتف حيث يلتف الثوب حول لابسه . وربما تكون المرأة قد لمست أحد هذين الأخيرين (٢) مرتعدة فى خفاء وسرعة ، وللحال شعرت أنها نالت بغيتها وأنها شفيت فتراجعت بين الجمع غير ملحوظة

---

١ ـ عدد ١٥ : ٣٧ ـ ٤٠ و تث ٢٢ : ١٢ والكلمة العبرانية هى "كانيفوت" ومعناها الحرف "أجنحة" . وكان "الزر" الأبيض وخيطه الأزرق أو الأرجوانى يدعى "تسيتسيث" .

٢ ـ ليس من السهل أن تنحى وسط زحام كثيف سائر ولا يمكن أن تفعل هذا دون أن يلاحظها الجمع .

من أحد ولكن ليست غير ملحوظة من المسيح لأنه علم أن قوة شفاء خرجت منه وميز لمسة الايمان الصامت حتى وسط ازدحام الجمع فوقف وسأل [من الذى لمسنى]. كان هناك شيء يقرب من الصبر الذاهب فى جواب بطرس الذى ظهر أنه من غير الفطنة أن يوجه سؤال مثل هذا وسط ازدحام الجمع ، ولكن يسوع وعيناه تفحصان الوجوه العديدة أخبره أنه يوجد فرق بين تدافع الازدحام ولمسة الايمان . وأخيرا استقر بصره على المرأة المسكينة التى إذ شعرت بأنها أخطأت فى استلاب نعمة يمنحها مجانا وبسخاء جاءت مرتعدة وخرت عند قدميه واعترفت له بالحق كله تاركة خوفها واستخذائها في رغبتها أن تكفر عن خطأها هذا . بلا شك خشيت غضبه لأن الناموس يأمر صراحة أن لمسة من مصابة مثلها توجب نجاسة طقسية إلى المساء (١) ، ولكن لمسته قد أبرأتها . ولمستها لم تنجسه . وأبعد ما يكون عن الغضب قال لها [يا ابنتى] ـ ونطق هذه الكلمة الكريمة قد سجل غفرانه لها ـ [.. ايمانك قد خلصك . اذهبي (٢) بسلام] [وكونى معافاة من دائك] . ولا بد أن هذه الحادثة قد أوجبت تأخيرا قليلا ، وكما رأينا كل لحظة كانت لها قيمتها عند يايروس الملهوف ، ولكنه لم يكن البائس الوحيد الذى له دالة وطمع في رحمة السيد . وإذ لم ينطق باحتجاج فواضح أن الحزن لم يصيره أنانيا . وفي تلك اللحظة جاءه رسول بهذه الرسالة القصيرة :

---

١ ـ لا ١٥ : ١٩ . لا زال الفريسيون كما كانوا يتجنبون لمسة المرأة بل ان الحاخاميين يبتعدون من لمس أى جزء من ثيابها (فرانكل فى كتابه يهود الشرق) .

٢ ـ كما سلف (لو ٧ : ٥٠) هذا التعبير يهودي ومعناه الحرفي " إلى سلام " لم يخاطب السيد أى امرأة أخرى بقوله " يا ابنتى " . وقد عزا التقليد لهذه المرأة أن اسمها فيرونيكا وبلدها بانياس (قيصرية فيلبي) وقد أقيم تمثال برونزي قديم فى ذلك المكان يعتقدون أنه يمثلها وهى تلمس هدب ثوب المسيح ولقد ذكره يوسابيوس وسوزومن (تاريخ الكنيسة) وقد اعتبر هذا التمثال شهادة عن صدق هذه المعجزة حتى ان الكافر جوليان وفى قول آخر كاسيموس قد حطمه .

[ابنتك قد ماتت] . وأضاف بلهجة ظاهر فيها بعض الكره والتهكم [فلماذا تتعب (١) المعلم بعــــد] .

والرسالة لم توجه إلى يسوع ولكنه استمع إليها (٢) ، وأراد بعطف أن يوفر على الوالد آلاما لا داعي لها فقال له هذه الكلمات الخالدة [لا تخف . آمن فقط] . وسرعان ما وصلوا إلى منزله فوجدوه محتلا بالنادبات المأجورات والزمارين الذين يقرعـون صدورهم بشدة مفتعلة طلبا لزيادة الأجر ، فيتعدون على صمت الحزن الحقيق وسكون جلال الموت . وكان هذا النواح المصطنع مكروها لدى المسيح فوقف لحظة عند الباب ليمنع الجمع من أن يتبعه ودخل المنزل هو وثلاثة فقط من أقرب رسله . ثم كان أول همه أن أسكت هذا الضجيج الباطل . وعندما قابلوا بسخرية اعلانه الرحيم : [لم تمت الصبية (٣) بل هى نائمة] نحاهم وأبعدهم وطردهم بشمم من المنزل (٤) . وعندما أعاد السكينة المفقودة أخذ أمها وأباها وتلاميذه الثلاثة ودخل بوقار إلى الغرفة المغمورة بهدوء الموت ورهبته ، وأمسك اليد الصغيرة المائتة الباردة ونطق بهاتين الكلمتين المثيرتين : [طاليثا قومى] [يا صبية قومى] (٥) فللوقت قامت الصبية ومشت . فبهت والداها (٦) ، أما هو فأمر بهدوء أن يعطوها لتأكل . وإن كان قد أوصاهما ألا يقولا لأحد عما جرى فلم يقصد أن تظل هذه الحادثة مكتومة لأن هذا مستحيل وقد

---

١ - الكلمة الأصلية ترادف الكلمة العامية " تخوت " أو " تدوش " أى تتعب بلا فائدة استعملت فى هذا الموضع وهذا الموضع فقط فى بشارتى مرقس ولوقا باستثناء لو ٧ : ٦ .

٢ - مر ٥ : ٣٦ . ولم ترد فى أي مكان آخر فى العهد الجديد .

٣ - مر ٥ : ٣٩ . (كانت فى الثانية عشرة من عمرها) .

٤ - مر ٥ : ٤٠ .

٥ - لا شك أن بطرس وقد حضر هذه الواقعة وأخبر مرقس نص الكلمات التى نطق بها يسوع . وقد دلتنا على اللغة التى كان المسيح يتكلم بها فى الغالب .

٦ - مر ٥ : ٤٢ .

شهد ظروفها جمع كثير، وإنما لأن أولئك الذين ينالون من الله رحمة بالغة ونعمة واسعة يزداد احترامهم لها وشكرهم بتعبدهم له من أجلها عندما تخبأ فى كنز القلب الداخلى .

حوادث هذا الليل الطويل واليوم النبيل كانت متتابعة مزدحمة مدهشة، ولكن متى البشير يذكر أيضا أنها قد ختمت بحادث آخر جديد عجيب من عمل القوة . ففيما هو منصرف من هناك تبعه أعميان يصرخان بصيحة لم تسمع قبل هذا : [ارحمنا يا ابن داود] . وكان يسوع كأنما بدأ يحد من معجزاته . لقد صنع أزيد مما يكفى لجعلهم أن يؤمنوا بقوته وإرساليته، ووجب أن ينتبه الناس لتعاليمه الأزلية أكثر من اهتمامهم بحوادث الشفاء الزمنيه . ثم لم يكن حتى ذلك الوقت قد أجاز استعمال هذا اللقب - الذى ربما أيضا قد ناديا به دون تبصر - اللقب الذى له صلة بالرجاء المسياوى، والذى إن كان قد قبله علانية فربما عطل أغراضه المقدسة، إذ قد يصل الأمر إلى ثورة مفاجئة ضد الحكم الرومانى . لذلك - دون أن يعير الرجلين أو صراخهما التفاتا - ذهب إلى البيت فى كفر ناحوم حيث كان يقيم . ولكنهما تبعاه أيضا بالحاح إلى داخل المنزل، وحينئذ فقط بدأ يمتحن إيمانهما فسألهما قائلا [أتؤمنان أنى قادر أن أفعل هذا] . قالا [نعم يا رب] فلمس أعينهما قائلا [ليكن لكما حسب ايمانكما](١) فانفتحت أعينهما، ثم حذرهما ألا يعلما أحدا بذلك ولكنهما مثل كثيرين من الذين شفاهم أغفلا أمره . لقد امتدح البعض عدم طاعتهم هذه وعزوها لحماس الدهشة وعرفان الجميل . ولكن ألم يكن هذا حماس الدهشة الصاخبة وثرثرة الافتخار الخشن ؟ كم من هذه الجموع الغفيرة التي شفاها قد صاروا له أتباعا حقيقيين ؟ ألم تظهر نيران المحبة والاخلاص المقدسة التى كان قد يذكيها الصمت الأقدس على مذابح قلوبهم وتطفأ فى لجة ثرثرتهم الباطلة وإذاعاتهم الفارغة ؟ ألم تكن الطاعة أفضل من الذبيحة والاستماع أفضل من دهن الكباش ؟ نعم إنه من السهل أن نغش أنفسنا، ومن السهل أن نقدم ليسوع ما يظهر

١ - مت ٩ : ٢٧ - ٣١ .

أنه خدمة وهو يتعارض تماما وأوامره الصريحة وتعاليمه الحقة ، وأن نحزنه - تحت ستار تكريمه بتكريرات باطلة وسجدات نافلة - نحزنه ، بمرارة عدم الاحتمال ، ورفع الكلفة المستهترة ، والتظاهر الخاوى لعبادة ميتة . خير ، وخير الف مرة ، أن نخدمه بعمل الأشياء التى أوصى بها فيتمجد اسمه أكثر من التبجح بحماس ظاهرى غالبا ما يكون كاذبا بقدر ما هو سمج . وهؤلاء الثرثارون الذين أذاعوا كثيرا عنه لم يقدموا له سوى تقدمة القلب الملتوى الحقيرة ، وتعديهم أوامره إنما أدى إلى إعاقة نفعـــه ، وإثارة اضطراب روحه ، بل ازدياد أعدائه والمطالبة بموته .



منظر فى أوروشليم

الفصل السادس والعشرون

زيارة لأوروشليم

" البساطة أفضل ذخيرة للمسيحيين "
كليمنضس الاسكندرى

من يدرس البشائر جنبا إلى جنب بعنـــاية وتكرار لكى يغترف معرفة واضحة على قدر الامكان عن حياة المسيح على الأرض لا يمكن أن تفوته حقيقتان أو ثلاث عن ترتيب تواريخ حوادث كرازته العلنية . فرغما عن الصعوبة الناشئة من اختلاف ترتيب الحوادث وايرادها دون توقيت فى البشائر الثلاث

الأول ، ورغما عن خلو الرابعة تقريبا من ذكر الجزء الأهم من كرازة الجليل نرى بوضوح الأمـور التالية :—

أولا : إن الحماس البرىء والترحاب المفرح اللذين كان يقابل بهما يسوع وكلامه وأعماله فى البداية في شمال الجليل قد حلت محلها رويدا رويدا ولكن فى زمن قليـل الريبة والـكراهية بل العداوة عند شيع قوية وطوائف كبيرة .

ثانيا : إن المظاهر الخارجية للكرازة وكذلك الأماكن التى بشر فيها السيد قد تغيرت كثيرا بعد قتل يوحنا المعمدان .

ثالثا : أخبار هذا القتل وازدياد المقاومة ومداومة حضور الـكتبة والفريسيين من اليهودية ليراقبوا أعماله ويتجسسوا على حركاته عاصرت زيارة لأورشليم لم يدونها البشيرون الثلاثة وحدثت فى العيد الذى لم يذكر اسمه الوارد فى يو ٥ : ١ .



صنـادل شرقيـة

رابعا : إن هذا العيـد غير المسمى قد وقع فى الجزء من كرازته الذى قد وصلنا إليـه الآن .

وسنرى فيما يلى أى عيد كان هذا وأنه قد سبقه ارسالية الاثنى عشر .

عند ختام رحلات التبشير التى حدثت فيها الوقائع التى وصفنا بعضها فى الفصول

السابقة امتلأ يسوع حنانا عندما رأى الجموع (١) كخراف غنمها الأعداء ، مهملة سائمة فى الحقول لأنه لا راعى لها (٢) ، وتمثلت لديه أيضا كحصاد قد ابيض ولكنه لم يجمع لعدم وجود العاملين . فأمر تلاميذه أن يطلبوا من رب الحصاد أن يرسل فعلة إلى حصاده . وإذ كان هو قد طاف الجليل أرسلهم اثنين اثنين ليثبتوا تعليمه ويصنعوا أعمال رحمة باسمة (٣) .

وكان طبيعيا أنه زودهم قبل أن يرسلهم بالتعليمات التى يهتدون بها فى سلوكهم فأمرهم أن يقصروا جهودهم فى ذلك الحين على خراف اسرائيل الضالة فلا يذهبوا إلى مدن السامرة أو الأمميين ، وأن يكون محور رسالتهم اقتراب ملكوت الله ، وأن يدعموها بكثير من أعمال القوة والشفاء ، وألا يأخذوا معهم مزودا للطعام ولا كيسا للنقود ولا ملابس غير التى عليهم (٤) ولا حذاء للسفر بدل صنادلهم العادية المصنوعة نعالها من ضفير النخيل ولا عصا للطريق إن لم يكن قد امتلكوا عرضا واحدة قبل ذلك (٥) . بل يجب أن تكون إرساليتهم ككل الارساليات العظيمة التى حدثت فى العالم ، بسيطة تكفل ذاتها (٦) وفى الكرم الشرقي الوسيع ـ الذى كثيرا ما يركن

---

١ ـ مت ٩ : ٣٥ ـ ٣٨ .

٢ ـ عدد ٣٦ " مهملين " " مطروحين " وقد وردت فى بعض النسخ " مشلولين " وربما كانت الأخيرة ملاحظة تفسيرية .

٣ ـ مت ١٠ : ١ ـ ٤٠ و مر ٦ : ٧ ـ ١٣ و لو ٩ : ١ ـ ٦ .

٤ ـ قليل من الشرقيين من يعتنى بتغيير الملابس ، وكثيرون منهم ينامون فى ذات الملابس التى يرتدونها نهارا .

٥ ـ هذا هو المقصود من هذا الأمر وهو يتضح من مقارنة البشائر .

٦ ـ يقارن رينان بين هذا الكرم والمدنية الحديثة . المسافر فى الشرق لا يتوانى عن الدخول إلى أى منزل يصادفه فيقابل بضيافة حاتمية مجانية ؛ ولن تصادف اعرابيا واحدا يتلكأ فى أن يفرغ لك آخر نقطة ماء فى قربته أو يشاركك فى آخر قطعة من الخبز الأسمر فى جعبته . ويقول الحاخاميون " الجنة مكافأة اضافة الغرباء برضى " .

عليه فى نشر الأفكار الجديدة - ما يزودهم بكل ما يحتاجون إليه . فاذا دخلوا مدينة فليتوجهوا إلى بيت يتوسمون قبولهم فيه وينذرونهم بتلك التحية القيمة الخالدة « شالوم لا كيم » (١) أى [السلام لكم] . فان كان هناك أولاد السلام ستفعل فيهم هذه البركة وإلا فستعود وتستقر على رؤوسهم . وإن رفضوهم فلينفضوا غبار أرجلهم شهادة عليهم بأنهم كلموهم بأمانة وكأنهم بذلك يخلون ذواتهم من مسئولية الدينونة التى تقع على الذين يكرهون النور عنوة وعنادا أزيد بكثير من غير المؤمنين الذين لم يشع على بلادهم النور أو التى ومض فيها يسيرا .

بهذا قد علمهم السيد أن الايمان المتكل ، واللطف الرقيق ، والبساطة المنكرة للذات ، هى أساس نجاح التبشير . ثم أخذ يحصنهم ضد التجارب التى لا بد منها والاضطهادات التى سوف تصيبهم فى عمل الكرازة .

إنهم يحتاجون ويجب أن يمارسوا حكمة الحيات لا أقل من بساطة الحمام لأنه سوف يرسلهم كحملان وسط ذئاب .

وربما لم تقدم لهم هذه الأحاديث بالشكل المتصل الذى نطالعه ، لأن السيد كان فى كل وقت مستعدا أن يشجع أسئلة السامعين المتواضعين المخلصين . ويقول تقليد قديم إن بطرس - كما نعهد فيه دائما كسامع متحمس متوقد الذهن - قاطع سيده متسائلا « لكن ماذا لو مزقت الذئاب الخراف ؟ فأجابه يسوع وهو يبتسم ربما من عقلية الرسول الحرفية الساذجة قائلا « لا تخاف الحملان إذا ماتت . فلا تخافوا ممن يقتل

---

٢ - قارن لك ٤٣ : ٢٣ . وهذه التحية كانوا يعتقدون انها تشمل كل البركات . ألم يخطىء كثير من الارساليات لنسيانها روح هذا التعليم . لقد قيل بحرقة ومرارة - ولكن مع الأسف أحيانا على أساس - أن الارساليات يجمل همها (١) تلمس القذى فى أفكار الناس أو عوائدهم (٢) خنقها دون تبصر . وقد نجم هذا غالبا عن حماس جهول . ولكن بولس الرسول لم يفعل هكذا لقد كان فى غاية اللطف والتسامح وهو يخاطب الأثينويين وعاش ثلاث سنين ونصف فى أفسس دون أن يشاكس أو يشاتم عباد أرطاميس .

جسدكم ولا يستطيع بعد ذلك شيئا . ولكن خافوا ممن يقدر بعد موتكم أن يهلك النفس والجسد فى جهنم » . وبعد ذلك عاد يسوع فتابع حديثه وحذرهم صراحة أنهم فى ذلك الوقت وفيما بعده سيسلمون إلى مجـالس الحكم ويجلدون فى المحافل (١) ويقفون أمام ملوك فلا يجب أن يساورهم الهم فى التفكير (٢) لأن الروح سيعلمهم ما يقولون . وسوف يرفض الأشرار تحية السلام وتغيرها أهواؤهم الفاسدة إلى صرخة عداء وغضب وكره ويطردونهم بل سيضطرون للهرب من وجه أعدائهم من مدينة إلى مدينة ، ولكن يجب أن يصبروا إلى المنتهى لأنهم لا يطوفون مدن اسرائيل حتى يأتى ابن الانسان (٣) .

وختاما حذرهم وعزاهم بتذكيره إياهم بما احتمله هو وكيف عارضوه . فلا يجب أن يخافوا لأن الله الذى يعتنى حتى بالعصافير الصغيرة (٤) إن سقطت على الأرض ، الله الذى ذات شعور رؤوسهم محصاة لديه ، الله الذى (وهنا ألمح ربما لسؤال بطرس) بيده ليس فقط مخارج الحياة والموت بل أيضا الحياة الأبدية والموت الأبدى والذى يجب أن يخافوه أكثر من ذئاب الناس . كان معهم ، وسيعترف بمن يعترف بهم ابنه وينكر من ينكرهم . سيرسلون إلى عالم من الخصام يزداد حلكة لأنه رفض السلام . وربما ظاهر العالم ضدهم أقرب الناس إليهم وأحبهم عندهم . ولكن أتباعه الحقيقيين يجب لأجله أن يتركوا الكل بل يجب أن يحملوا صليبهم (٥) ويتبعوه . ولكى يعزيهم

١ - تث ١٦ : ١٨ . كان لجند الجامع سلطان الجلد . راجع أع ٥ : ٤٠ و ٢ كو ١١ : ٢٤ .

٢ - الكلمة الأصلية لا تعنى "لا تفتكروا" ولكن "لا تنزعجوا أزيد من اللازم" .

٣ - هذا الوميض عن المستقبل البعيد ربما قيل فى زمن بعد هذا . ومجىء ابن الانسان هنا ينحصر فى معناه الأول الضيق الحبز أى سقوط اليهودية وتأسيس ملكوت المسيح على الأرض الذى عاش حتى رآه يوحنا الحبيب وآخرون .

٤ - مت ١٠ : ٢٩ . لا زال يربط عصفوران ويباعان بفلسين فى قرى فلسطين إلى يومنا هذا .

٥ - إن لم يكن المعنى مجازيا هنا (وقد استعمله المؤرخ بلوتارخ مجازيا) فلا شك أن هذا القول فى ذلك الوقت لم يفهمه تلاميذه .

أخبرهم أنهم سيكونون مثله فى العالم ، وأن من يقبلهم يقبله ومن يهلك نفسه من أجله يجدها ، ومن يعطي كأس ماء بارد لأصغر وأحقر أحد من الأطفال الذين له فلن يضيع أجره (١) .

هذا مجمل للتعليمات العظيمة الوداعية كما أوردها متى البشير ، ويجب أن يكتبها كل مرسل وكل خادم تقى بحروف من ذهب . إن عقم التبشير موضوع ألم وغم وهم لنا . هل يكون الأمر كذلك لو كانت كل الارساليات تقودها روح التعقل والمسالمة والبساطة وانكار الذات والاخلاص والصلاح ؟ هل خاب مبشر واحد ساعدته نعمة الله أن يعيش فى نور تعاليم مثل هذه ، وسار كما سار بولس الرسول وآباء الكنيسة ومبشروها الأولون (٢) .

واضح ان يسوع لم يفض بكل هذه التعليمات في هذه الفرصة (٣) بل ان بعضا منها قيل في ظروف مختلفة (٤) تالية ، وأن أجزاء أخرى قيلت قبل ارساليات تبشرية غير هذه مستقبلة (٥) . ولكنا مدينون لمتى البشير الذى كعادته فى الاعتناء دائما بوحدة الموضوعات ، قد جمع لنا فى صعيد واحد كل أنوار التعاليم التى ربما قيلت فى فرص تالية ، مثل ما قيل عند ارسال السبعين تلميذا أو حتى بعض الكلمات الوداعية للمسيح

---

١ ـ استنتج الفورد بمهارة : " ربما كان بعض الصغار حاضرين " .

٢ ـ انى لا أقول أن كل مبشر ملزم أن يعمل مجانا فهذا يخالف صراحة تعليم السيد (مت ١٠ : ١٠و١١) ولكن هناك ظروف يستحب فيها هذا (١ كو ٩ : ١٥ ـ ١٩ و ٢ كو ١١ : ٩ـ١٢ و اتس ٢ : ٩ الخ) ان أوامر السيد يجب أى نتبع روحها كما لا يجب أن نجهل أن هذه الطريقة فى التبشير كانت ولا تزال عادية وبسيطة فى الشرق عن جهات أخرى ويقول طومسون " انه لم يكن فى هذا خروج على عادات البلاد . وحتى يومنا هذا قد يخرج الفلاح الفلسطينى فى رحلة طويلة وليس فى كيسه بارة واحدة .

٣ ـ مرقس ولوقا يعطيان جزءا فقط من أوائل هذه التعليمات .

٤ ـ بعض التعبيرات فى عدد ٨ و ٢٣ و ٢٥ و ٣٨ .

٥ ـ مثل أعداد ١٨ ـ ٢٣ .

القائم من الأموات (١) .

كان اليهود معتادين طريقة إرسال السفراء ذوى السلطة . وهذا هو الوضع الذى بعث يسوع به تلاميذه وكانت منه عناية رحيمة حكيمة أن أرسلهم اثنين اثنين (٢) . كان الاثنان يتحدثان مع بعضهما عذب الأحاديث ويصلح كل واحد من أخطاء الآخر . والغالب أنه روعى ازدواج الأصدقاء أو الأخوة ، بطرس النارى مع اندراوس المفكر ، وابنا الرعد أحدهما ذو سطوة وهيبة والآخر ذو عطف وبلاغة ، فيلبس المؤمن وبرثلماوس الذى لا غش فيه ، توما البطىء المخلص مع متى المتعبد المتعقل ، يعقوب مع أخيه يهوذا ، سمعان الغيور ليلهب ويحرق بحماسه ظلمة وتردد ويأس روح الخائن يهوذا .

واستمر يسوع فى عمله وحده أثناء غيبتهم (٣) ، ربما وهو يسير متشددا إلى أوروشليم ، لأنه إن ساغ لنا أن نتكلم عما يحتمل وسط الكثير من غير المحقق فى ترتيب حوادث الكرازة فانه من أشد الاحتمالات أن هذه الفترة هى ما ينطبق عليها القول : [وبعد هذا كان عيد لليهود فصعد يسوع إلى أوروشليم] (٤) .

ولكى لا أقطع صلة استمرار الحديث سأترك البحث هنا وأكتفى أن أدلى فى الخاتمة(٥) ببراهين وافية، قدر ما سمح بهما كتب فى البشائر ، والتوقيت الذى تذكره، تدل على أن هذا العيد كان عيد البوريم .

ولكن كيف حدث أن يسوع صعد إلى أوروشليم لعيد مثل هذا، عيد المرح (٦)

---

١ - قارن مر ١٦ : ١٥ - ١٨ و لو ١٠ : ٢ و ٢٤ : ٤٧ .
٢ - علم الحاخاميون أنه من الخطأ أن تسافر وحدك دون رفيق تتكلم معه عن الناموس المقدس .
٣ - مت ١١ : ١ .
٤ - يو ٥ : ١ أما باقى البشيرين فلم يدونوا شيئا عن هذا بل تابعوا كرازة الجليل حتى قرب النهاية .
٥ - راجع التذييل الثامن بعنوان " العيد الذى لم يذكر اسمه الوارد فى يوحنا ٥ : ١ " .
٦ - عيد له مثيل عند الرومان احتفاء باله الزراعة .

عند اليهود ، عيد لم يأمر به الله (١) ، عيد نبت أصله من حبهم لمقاطعة الأمم أو معاداتها ، عيد للهو والسخرية ، عيد مدنى يتاح فيه الخلاعة والسفه ، عيد لا علاقة له بحفلات دينية ولا يحتفل به فى الهيكل ولا حتى فى المجامع ولكن فى المنازل (٢) .

الجواب أنه وإن كان يسوع فى أوروشليم في هذا العيد ، وإن كان قد صعد إلى أوروشليم فى وقت الاحتفال به ، فان كلمات يوحنا البشير لا تعنى بالضرورة أنه صعد خاصة ليكون هناك فى هذا العيد . فان عيد الفصح كان بعد ذلك بشهر واحد ، فربما يكون قد صعد إلى أوروشليم بالأكثر لحضور الفصح وأعطى نفسه فرصة البقاء فى اليهودية وأوروشليم لشهر قبله لكى يبشر مرة أخرى فى هذه الأماكن ، وأيضا لكي يتفادى العلانية والخطر إن هو صعد مع قافلة الحجاج من الجليل . وفرصة مثل هذه قد سنحت طبيعيا من غياب الرسل فى رحلتهم التبشيرية . ويقرر البشيرون أن يسوع كان له أصدقاء ومريدون فى أوروشليم وضواحيها ، ولا شك أنه زار تلك الضواحي وإن لم نخبر شيئا عنها . ويجوز أنه انتظر بين هؤلاء الصحاب عودة أتباعه الأقربين أي تلاميذه . ونحن نعلم الحب العميق الذى كان يكنه لأفراد منزل بيت عنيا . وليس غير طبيعي أن نخاله عائشا حينذاك فى عزلة سالمة عند أهل ذلك البيت الأتقياء كضيف مكرم تحترم عزلته .

وحتى لو كان يوحنا البشير قد أراد أن نعتقد أن حضوره لعيد البوريم هو السبب المباشر لزيارته لأوروشليم فيجب أن يتضح للأذهان أنه لا يوجد برهان ان هذا العيد فى أيام السيد كان قد انحط لما صار إليه فيما بعد ، إذ أضحى تذكارا مشوشا سخريا . ولا

---

١ ـ يقال أن ٨٥ شيخا احتجوا عند تقريره مبدئيا معتبرين هذا العيد بدعة على الناموس (راجع لاتيفوت عن يوحنا ١٠ : ٢٢) ويظهر أنه نشأ بين اليهود فى السجن .

٢ ـ المعرب : يماثل يوم "خميس السكارى" أو عيد المرافع وهو أيضا يوم خلاعى يبيح بعض الأجانب لأنفسهم فيه شرب الخمر والمساخر ولا تقام فيه احتفالات دينية بل يحتفل به فى المنازل والشوارع وهو أيضا يسبق عيد الفصح بفترة الصوم الكبير ونحمد الله أنه آخذ فى الانقراض .

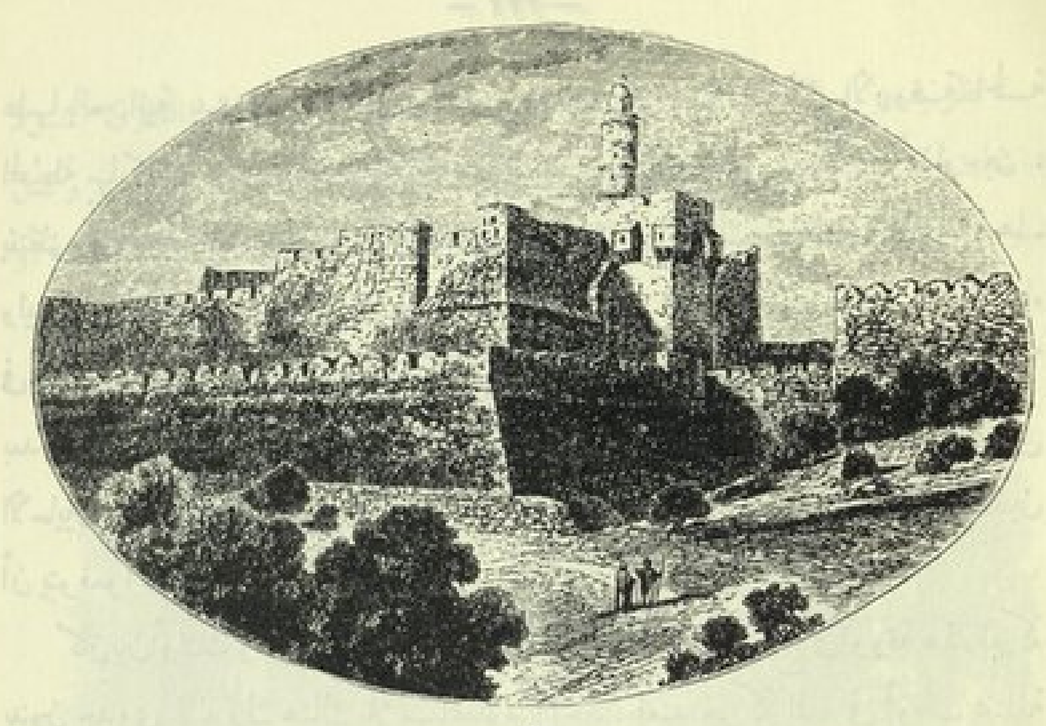
شك أن بعض اليهود ذوى العقول النبيلة كانوا يقيمونه بشكل هادىء مشكور. ولقد كان البر بالفقراء وتقديم أعمال الرحمة للمساكين أحد واجبات العيد. والأرجح أن هذا هو السبب الداعى لأتيان يسوع، وربما أيضا ليظهر أن كرازته العامة لا تتعارض مع الوطنية والجنسية أو لاظهار محبته الفائضة غير المتناهية التى علم بها وعمل.

بقى سؤال واحد. كان الفصح يقترب، وحضوره لهذا العيد العظيم كان من كل وجه مرتقب. فلماذا تغيب عنه؟ ولماذا عاد إلى الجليل بدلا من البقاء فى أورشليم؟ الحوادث التى سنذكرها وشيكا تعطينا الاجابة الوافية عن هذا السؤال.



الاستشهاد

هذا الرسم متخذ من أيقونة محفورة على حجر اليشب يمتلكها القس س. و. كنج وهى تمثل استشهاد قديسة ركعت أمام جلاد قد أمسك بيساره شعرها وبيمينه سيفا على شكل موسى ليطبح به رأسها وفوقها اسم المسيح علامة تدل على حضور سيدها فى هذه المحنة الغالبة فى حياتها. وعلى منكبيها حمامة تحمل غصن زيتون رمزا للحب والسلام الذى ستكون عما قريب فيها. أما انتصارها فى الختام فرمز إليه بغصن نخيل ظاهر فى جانب الرسم. وأما الكتابة التى فى أسفل فهى الحروف الأولى من جملة لاتينية تدل على اهداء هذه الأيقونة لمعتنق للمسيحية حديث كهدية فى عيد رأس السنة وهذه الأيقونة الغريبة المتقنة لا يمكن أن تكون قد صنعت بعد زمن ثيودوسيوس الأول (٣٧٩ - ٣٩٥ م).



باب يافا بأوروشليم

الفصل السابع والعشرون

معجزة بيت صيدا

شغل الربيون وقتهم بجدل لا نهاية له فيما إذا كان يعتبر حملا هذا النوع من الأحذية دون ذاك .
"أوريجانوس"

كانت في أوروشليم قرب باب الضأن بركة يعتقدون أن لها خصائص عظيمة للشفاء ، ولهذا كان لها اسم آخر غير اسمها المعتاد إذ أطلقوا

عليها بالعبرانية بيت صيدا أو بيت حسدا أو بيت الرحمة (١) لأن الأروقة الخمسة المحيطة بها كانت غاصة بجموع من المرضى البؤساء من عمى وعرج ومفلوجين ، ينتظرون فوران المياه وظهور فقاقيعها حيث تكون إذ ذاك خصائصها على أشدها . وليس فى الانجيل ما يدل على أن من استنفع بمائها شفى فى الحال أو بمعجزة . وإنما جاء فى بشارة يوحنا : [وكان ملاك ينزل كل أوان فى البركة ويحرك الماء وكل من ينزل أولا بعد تحريك الماء يبرأ من كل ما مرض به] يو ٥ : ٤ . يقول البعض ان الماء في بعض الأحايين يتشبع بغازات تجعل له خواص مقوية وهذا ما حدا بعديد من المرضى المختلفين أن يتوقعوا منه الشفاء (٢) .

كان بين أولئك رجل فقير له نحو من ثمان وثلاثين سنة مطروحا بفالج فى أروقة هذه البركة بدون جدوى لأنه ترك هناك بلا مساعدة من أحد . فعند حركة الماء فى أوقات مختلفة استطاع غيره ممن هم أقل ضعفا وأسعد حظا أن يسبقوه فتضيع منه الفرص المناسبة (٣) .

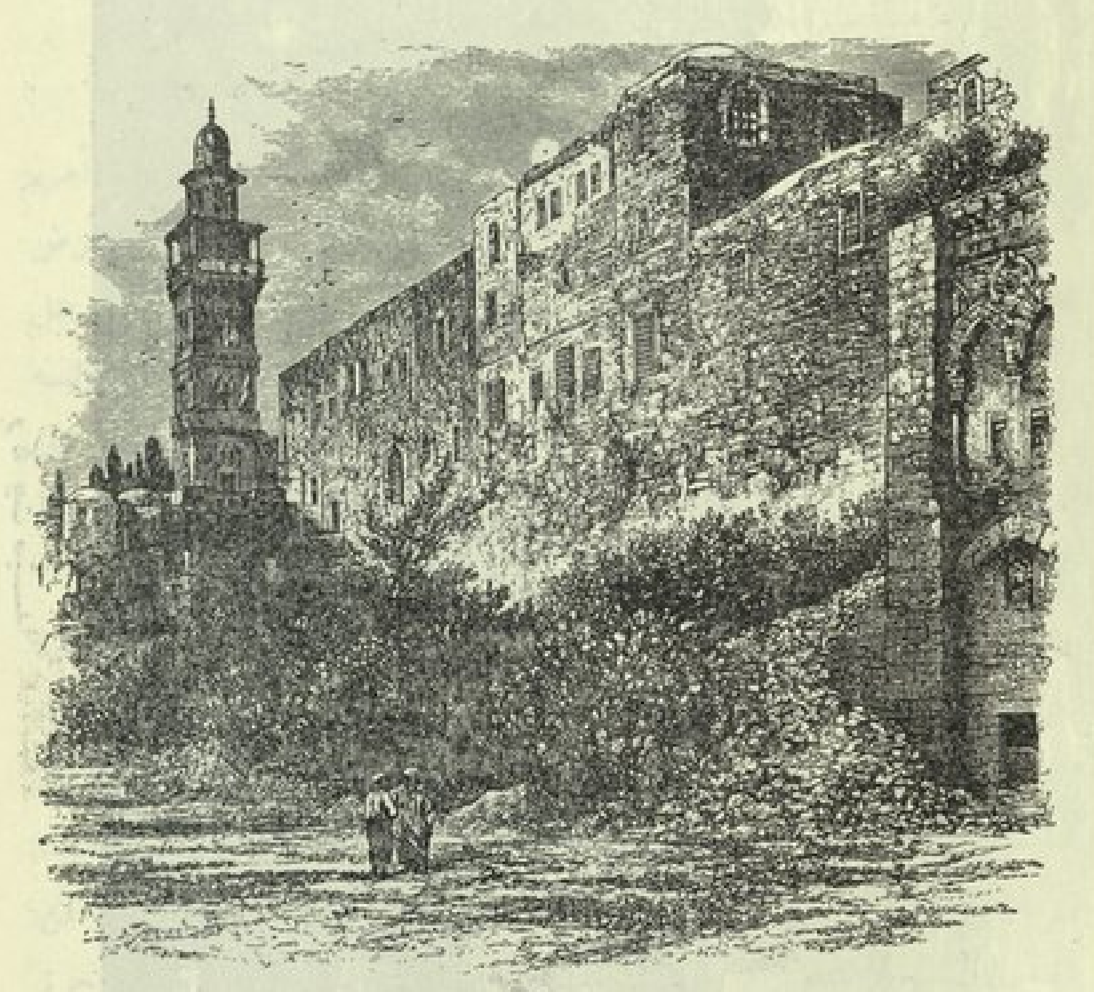
---

١ - يو ٥ : ٢ . توجد أسماء مختلفة حتى ان النسخة 8 وتشندروف تدعوها " بيت صاذا " . وربما يكون قد ذكرها يوسيفوس تحت اسم آخر ونحن نحسبه قد أهملها . والبركة التى يقولون عنها الآن للزائرين أنها بيت صيدا هى بركة اسرائيل وهى غالبا جزء من المنخفض حول برج أنطونيا . وربما كانت بيت صيدا هى البركة المعروفة الآن ببئر العذراء التى ليست بعيدة عن بركة سلوام وتتصل بها بمجرى خفى تحت الأرض (كما اكتشف الدكتور روبنصون) والذى كان له الحظ أن يشاهد خاصتها فى أنها تطفو حينا بعد حين . وقيل له انها قد تفور مرتين أو ثلاث فى اليوم وقد تفور مرة كل ثلاثة أيام فى الصيف .

٢ - المعرب : هذا تعمل فى التفسير خاطيء .

٣ - ستروس ومدرسته يعترضون على هذا الخبر . ويلاحظ لانج بسخرية لاذعة قائلا : لقد أقاموا فى المدة الأخيرة انتقادات كثيرة حول بركة بيت صيدا كأنها جم آخر من العمى والعرج واليابسين . فيقولون ان الرجل بلا شك كان له من أخذه إلى البركة فكيف لم يكن له أحد يلقيه فيها فى الوقت المناسب . هذه وأمثالها انتقادات سخيفة . فيوحنا (١) لم يذكر أن أحدا أتى به إلى البركة . وربما كان يعيش بالقرب منها فزحف بنفسه إليها . (٢) لم يذكر يوحنا أن البركة كانت تمنح الشفاء فى كل وقت كما انه لم يذكر أن الرجل لم يوضع بتاتا فى المياه المتحركة .

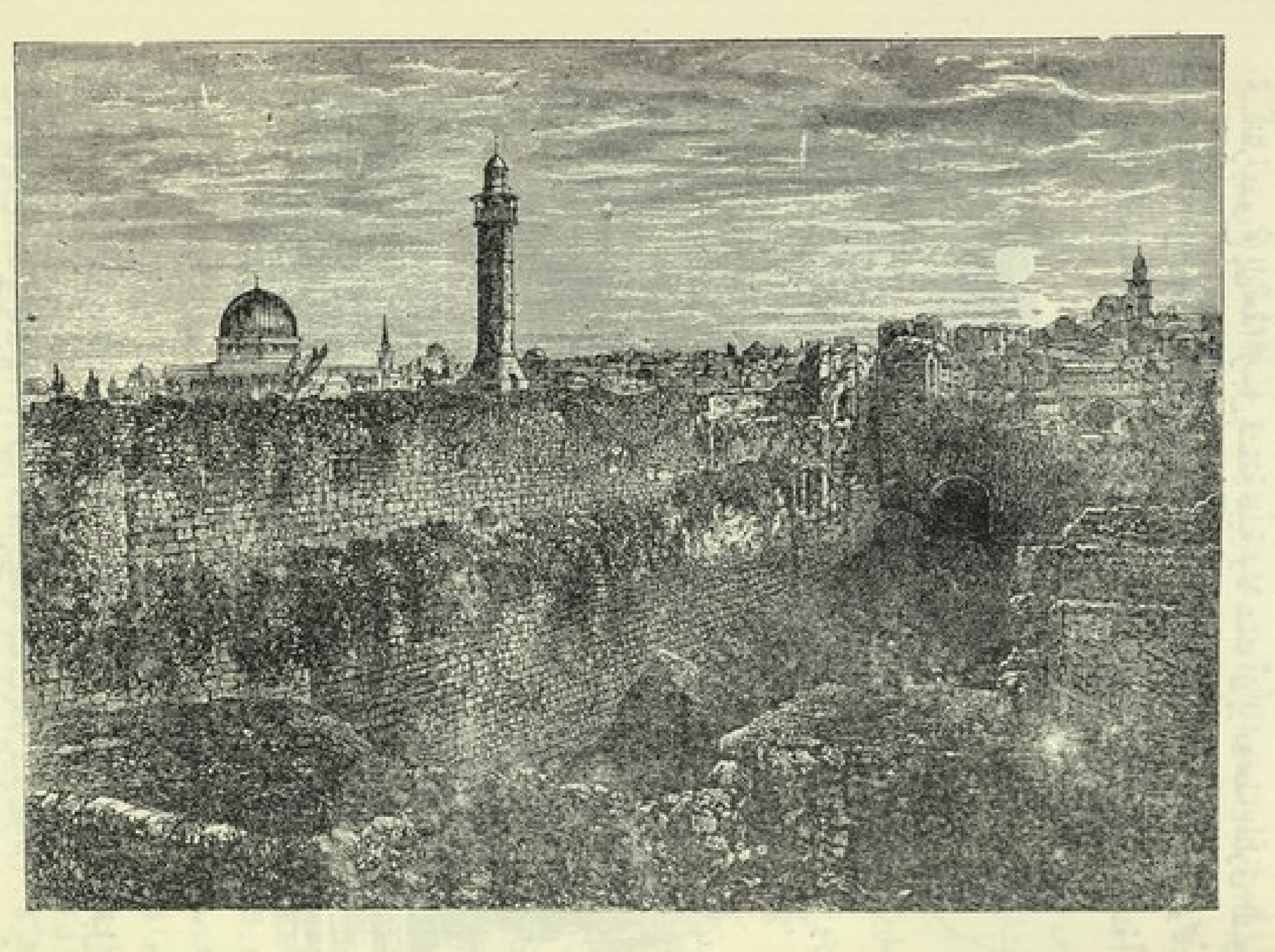
نظر يسوع إلى هذا الرجل بشفقة قلبية ولا شك أن إرادة هذا المخلوق المنبوذ قد شلت كأعضائه بل إن حياته كلها صارت يأساً مستديماً أشلا لا رجاء فيه . وكأن يسوع أراد أن يقدم هدية على عيد البوريم لهـذا المسكين ، وإذ لم يكن له فضـة أو



حصن أنطونيـا

ذهب ليعطيه أراد أن يساعد متألماً لم يعتن به أحد أو لم يتنازل أحد لمساعدته من قبل ، فقال له [أتريد أن تبرأ] .

ولأول وهلة لم تجل هذه الكلمات الصدأ الكثيف للرجل الخائر بل يظهـر أنه



بركة بيت صيدا

حتى لم يلتفت إلى فوق . ولكن بعد قليل دب فيه بصيص من الأمل الوقتى وظن أن المتحدث أحد الأغراب قد حركت الشفقة قلبه ليساعده على النزول إلى الماء متى تحرك ثانية فأجابه شاكيا بؤسه وانتظاره الطويل على غير جدوى . وكان يسوع قد اعتزم تقديم مساعدة أجدى فأسرع وقال له :

[قم احمل سريرك وامش] .

قال هذا بنبرات يستحيل أن لا يطيعها أحد . وسرى منظر المتكلم وصوته وأمره كشرارة الكهرباء في الأعضاء اليابسة والكيان المحطم الذى أفسدته حياة المرض والخطية (١) . وبعد ثمان وثلاثين سنة من الضعف برىء الانسان فى الحال وحمل سريره وابتدأ يمشى (٢) . وفى دهشة فرحه التفت حوله ليرى ويشكر المحسن إليه المجهول ، ولكن الزحام كان شديدا ، وقد أراد يسوع أن يتفادى الحماس غير الروحانى من جموع كانت تنظر إليه كصانع عجائب فقط فذهب بسكون غير ملحوظ من أحـــد (٣) .

ورغما عن هذا فعيون كثيرة ناقدة حاسدة كانت عليه ، لأنه على نسبة موت قوة روح الديانة فى الداخل تكون غالبا نسبة التمسك بشكلها الظاهرى. والتمسك بالشكليات، وعدم التدقيق ، والتظاهر المتحذلق ، هذه كلها وعدم الايمان صنوان ينميان جنبا إلى جنب . وكان هذا حال اليهودية فى زمن المسيح فحماسها المضىء الحي كان انطفأ ومات . وإيمانها القوى النبيل قد اندثر . أنبياؤها كفوا عن التنبؤ ، وشعراؤها وقفوا عن الغناء ، وكهنتها لم يلبسوا البر ، والأتقياء قليلون ، والفأس موضوع على أصل الشجرة

---

١ ـ راجع عدد ١٤ .

٢ ـ ربما كان سريرا بسيطا أو ربما لم يكن أزيد من لحاف أو عباءة مطوية . اعتبار حمل مثل هذا الفراش كسر للسبت حرفية متحذلقة لا من الكتب ولكن من الناموس الشفوي .

٣ ـ الكلمة الأصلية معناها " عام بين أمواج الجموع ".

غير الثمرة التي لم يعد جذعها صالحا إلا لتغذية طفيليات عديدة من الاحتفالات والتقاليد . أضحت اليهودية إذ ذاك « كميت له سحنة الأموات » . وعلى ذلك فخفظ السبت الذى كان المقصود منه ضمان الراحة المليئة بالحب والرحمة للمتعبين أصبح مجرد رمز طقسى وعادة عقيمة سيجوا حولها بأشد الحدود المزرية العديمة القيمة . بل أصبحت الحقيقة الماثلة أن كل ترتيب نبيل فى القانون الموسوى قد تسفل إلى مجرد تدقيقات عويصة لا معنى لها هى فرح الأرواح الضئيلة السقيمة والقبر المحزن لكل تقوى حقيقية أصلية طبيعية (١) .

وعندما تنحط ديانة ما إلى خرافة دون أن تفقد قوتها الظاهرية ، فانها دائما تكون استبدادية ، وماهرة فى تصيد الريب والهرطقات والمروق . فالذى شفى من الشلل أحيط سريعا بعدد من السائلين نظروا إليه بدهش وحنق وقالوا له :

[إنه سبت لا يحل لك أن تحمل سريرك] .

هنا مخالفة صريحة للناموس . ألم يرجم ابن شلوميت مع إن أباه مصرى إلى أن مات لأنه جمع حطبا فى السبت (٢) . ألم يقل أرميا النبي بوضوح كامل [تحفظوا بأنفسكم ولا تحملوا حملا يوم السبت] (٣) . نعم ! ولكن ما السبب ؟ لأن السبت كان قانونا للرحمة يحمى الأصاغر والمسخرين من حياة الكد المتواصل . كان واجبا حماية الأجراء والعمال من زيادة العمل الذى كان يفرض عليهم من أمة مضروبة بخطية الطمع الشنيعة ، ولأن فرز يوم من السبعة للراحة المقدسة كان ذا أهمية عظمى لحياة الجميع الروحية .

---

١ ـ ويهود فلسطين مع أنهم منحطون ، محتقرون ، متسولون ، كسالى ، غشاشون ، شهوانيون كما يشهد بذلك موطنوهم فلا زالوا يتعلقون بالخرافات السبتية ويقول الدكتور فرانكل فى كتابه "يهود الشرق" إن اليهود الألمان لا زالوا يحسبونها خطية من يمسك عصا أيا كانت يوم السبت !

٢ ـ لا ٢٤ : ١٠ ـ ١٢ مع عدد ١٥ : ٣٢ ـ ٣٦ .

٣ ـ ارميا ١٧ : ٢١ .


مشلول بيت صيدا *

هذا هو معنى الوصية الرابعة . فمن أى ناحية قد كسرت هذه الوصية إذا ما شفى إنسان بمعجزة وأراد أن يحمل إلى منزله ذات سريره الذى ربما كان الشيء الوحيد الذى يتملكه ؟ ما خالف الرجل وصية الله ولا ناموس موسى وإنما خالف فقط تقاليدهم البائسة المهلهلة التى أمرت بشدة ألا ينتعل المرء حذاء به مسمار لأنه حمل ، ولكن لا بأس أن ينتعل حذاء به مسامير ، والتى أفتت بأنه من الجائز أن يحمل رجل واحد رغيفا أما أن يحمل رجلان رغيفا بينهما فلا ! وهكذا إلى أقصى حدود السخافة الاستبدادية . أجابهم الرجل [إن الذى أبرأنى هو الذى قال احمل سريرك وامش] !

وقبلوا هذا الاعتذار من جهة الرجل . فانه مدين بالطاعة للصوت ذى القوة القاهرة الذى شفى شلل عمر طويل بكلمة . فمن جهته هو لا لوم عليه ولا تثريب . لقد كانوا مدفوعين وبالغرض مساقين ، وكانوا يبتغون صيدا أعظم من هذا المسكين البائس ورأوا أنهم لن يكسبوا شيئا من إضجاره .

فسألوه [من هو] . ونلاحظ هنا خبث رؤساء اليهود (١) فلم يسألوه من هو

---

* هذه الحفرية (بحجمها الطبيعى) مأخوذة عن حلية عاجية على غلاف كتاب من القرن الخامس يحتوى على منتخبات من البشائر وموجود الآن فى مكتبة رافنا وفيها يمسك السيد الصليب بيساره ويرفع يمينه للبركة . وقد رسم كالعادة بلا لحية وأطول من الشخص الآخر الذى كان يلبس إزارا عليه منطقة وهو ينظر إلى الخلف بشكر وهو حامل سريره الخفيف المغطى بالحصير .

١ ـ سبق فرأينا أن يوحنا يعنى بكلمة "اليهود" رؤساء اليهود .

الذى أبرأك إذ لا توجد هرطقة فى استخدام قوة معجزية ولكن سألوه من الذى قال له [احمل سريرك وامش] ؟

وربما حتى ذلك الوقت لم يكن شخص يسوع معروفا للجميع فى نواحى أوروشليم، أو ربما كان انتباه الرجل قليلا أو احساسه بليدا قبل الشفاء حتى إنه حقا لم يعرف المحسن إليه. ولكنه عرفه بعد قليل. ونلمس شيئا من التقوى فى ذهابه إلى الهيكل إذ ربما يكون هذا ليقدم الشكر لله من أجل هذا التغير العجيب والتجديد الفجائى لحياته الذابلة. وهناك رآه يسوع أيضا وخاطبه بهذا التحذير الوحيد الخالد [ها قد برئت فلا تخطىء بعد لئلا يكون لك شر أكثر] (١).

وربما حذره يسوع لأنه خبر طبيعة الرجل الدنيئة. على أى حال يوجد ما يستفز الشعور لأول وهلة عندما نقرأ : [فذهب الانسان وقال لليهود إن يسوع هو الذى أبرأنى]. من الجائز - ولكنه بعيد الاحتمال جدا - أن يكون الرجل قد أراد أن يمجد اسم من صنع معه هذا الفعل العظيم. ولكن إذ قد علم بالتأكيد إحساس اليهود الغضوب ضد يسوع، ولأنه لم يذع كلمة شكر أو تعبد ولم يبد دهشة أو تعظيما لله، كما أنه لا شك قد وضح له أن يسوع فى عمله هذه المعجزة كانت الشفقة حاديه الوحيد، وأنه ما كان يريد العلنية قط، فانا نعترف بأسف أن الدافع الأول في تصرف هذا الرجل هو تطوع اختيارى دنىء لا اضطرار فيه، جزء من حماية النفس زرى على حساب المحسن إليه، خليط لا يكاد يفهم من ضعف الخيال والجحود الوضيع. وواضح من هذا أن تحذير يسوع كان لازما تماما، كما كان التحذير غير مجد إذا حكمنا على الرجل حكما عادلا.

ولأن النتائج كانت سريعة خطيرة إذ غيرت فى الحقيقة مجرى البقية من حياة

---

١ - يرى الفورد أنه يحذره من الخطية التى ارتكبها منذ ٣٨ سنة ولكن الأرجح أن المعنى لا تعد تخطىء بمعنى لا تكن بعد خاطئا .

السيد ، لم يحرك اليهود هذا العطف السامى ولم يحركهم عمل القوة العجائبية بل شهروا أسلحتهم ليحاربوا عن هذا الجزء من تقليدهم [فمن أجل هذا كان اليهود يضطهدون يسوع لأنه كان يصنع هذا فى السبت] .

وردا على هذه التهمة أفاض السيد بالحديث الالهي العالى المحفوظ لنا فى الأصحاح الخامس من بشارة يوحنا . ولا يمكن القول إن كان قد أفاض به فى الهيكل أو أمام لجنة من السنهدرين ،ولكن المحقق أن الحاخامين العظام ورؤساء الكهنة الذين استدعوه ربما ليوبخوه أو يعاقبوه لكسره السبت دهشوا وخافوا بل ربما أيضا اغتاظوا بمرارة وارتباك من الكلمات التي سمعوها . قد دعوه أمامهم ليحذروه ولكن التحذيرات وقعت عليهم . أرادوا أن يعلموه ويوبخوه وربما لهذه المرة فقط أن يتنازلوا ويسامحوه ، ولكن اسمعوا ! هاهو يمزج عظمة التعليم بقسوة التوبيخ الرؤوف . لقد جلسوا حواليه بكل انتفاخ مراكزهم ليهزوه كأحد الأصاغر ، ولكن انظروا ! هاهم يرتعشون ويصرون على أسنانهم ، ولم يجرأوا أن يعملوا شيئا بينما بكلمات مثل لهيب النار يمزق المفاصل والمخاخ ، بكلمات ملآى بالحكمة والعظمة أكثر من الكلمات التى أتت وسط الرعود فى سيناء ، قد استمسك بالكرامة الرهيبة التى لابن الله .

وعلى ذلك فجهودهم - لأن يحملوه على حفظ وصاياهم الصبيانية والتقوى المصطنعة الحرفية ، وأن يحاضروه في عظم الجرم الذى يرتكبه بعمل المعجزات يوم السبت ، وربما لمعاقبته على تعديه الفظيع إذ أمر رجلا قد شفاه أن يحمل سريره - باءت بالفشل الذريع . ابتدأ كلماته باظهاره جهلهم وتوبيخهم لحرفيتهم . لقد ظنوا فى غباوة عن السبت كأن الله توقف عن العمل فيه لأنه تعب ، فأوضح لهم أن هذه الراحة القدسية إنما هى حركة محسنة . لقد ظنوا على ما يظهر وكما يظن بعض الناس للآن أن الله قد تنازل لبعض القوات الطبيعية الصامتة عن قوته الخالقة ، فأخبرهم أن أباه ما زال يعمل ، وأنه يعرف الآب ، وأنه محبوب منه ، فهو يعمل معه ، وأنه سيعمل أعمالا أعظم مما سبق . هو

الآن يقيم موتى الأرواح ، وسيأتى يوم يسمع كل من فى القبور صوته . هو الآن يمنح الحياة الأبدية للذين يؤمنون به ، وفى ذلك اليوم سيسمع صوته فى دينونة الأحياء والأموات (١) إذ قد أعطاه الآب هذا السلطان .

ثم هل كان يشهد لنفسه ؟ كلا . كانت هناك ثلاثة شهود شهدت وتشهد له : يوحنا الذى تهللوا به زمانا ورفضوه ، وموسى الذى يفخرون باتباعه وإن كانوا لا يفهمونه ، والآب الذى يدعون أنهم يعبدونه بينما هم لم يعرفوه ولا أبصروه .

لقد أرسلوا ليوحنا ليسمعوا شهادته . ما كان ليقبل شهادة من انسان ولكنه يذكر هذا فقط من أجلهم لأنهم إلى حين ارتضوا أن يتهللوا بهذا السراج النبوى العظيم الذى أضاءه الله (٢) . كانت له شهادة أعظم من شهادة يوحنا ، شهادة قوته المعجزة ، والآيات التى كان يصنعها ليس كالأنبياء باسم الله ولكن باسمه هو إذ قد دفع الآب هذا السلطان إلى يديه . ولأنهم لا يعرفون الآب تركوا نوره وأحبوا الظلمة . رفضوا كلمته وتمسكوا بأكاذيبهم وأضاليلهم . رفضوا من أرسله . فإن كانوا لا يعرفون الآب فإنهم يعرفون أو على الأقل يظنون أنهم يعرفون الكتب ، فإن الكتب كانت فى أيديهم بل قد عدوا حروفها ، ومع ذلك فهم يرفضون من شهدت له الكتب . أليس واضحا أن محبة الله ليست فيهم لأنهم وهم - كما يدعون - الأبرار الأتقياء ، الحاذرون ، المترفعون ، الكهنة ، رؤساء الدين ، قد رفضوا من أرسله ،

---

١ - فى اللغة الأصلية جناس مقصود بين الذين فعلوا الصالحات والأحياء . وبين الذين فعلوا السيئات والأموات .

٢ - يو ٥ : ٣٥ (قارن مت ٥ : ١٥ و لو ١٢ : ٤٠) (المصباح الموقد) - وليس النور - أى المضاء من غيره . قال لانيفوت انه كان مثل نور السراج الذى يحمده الناس ولكنه نور ضعيف مترافص وقتى إذا قيس بأمجاد اللهب الأزلى الذى قد أضىء هو منه . المسيح هو النور الذى يضىء كل مصباح . تهللهم بيوحنا كان سطحيا إذ " سمعوا ولم يعملوا " (حزقيال ٣٣ : ٣٢) .

كلمتـــه ، ابنـــه .

وأى عنصر من المرارة في داخلهم أورثهم هذا الثمر المر ؟ أليس هو الكبرياء ؟ وكيف يمكن أن يؤمنوا وهم يقبلون مجدا بعضهم من بعض ولم يطلبوا مجـد الاله الواحد (١) . هذا هو سبب رفضهم من أتى باسم أبيه ، بينما كانوا وسيظلون المطية المطيعة الذلول والفريسة البائسة لكل مسيخ دجال أتى باسم نفسه أمثال يهوذا وثيوداس وباركوشاب وأزيد من ستين غيرهم ورد ذكرهم فى التاريخ اليهودى .

ومع كل هذا لن يشكوهم إلى الآب . يوجد من يشكوهم وهو موسى الذى إياه يترجون . نعم موسى الذى يعلنون أنهم يتمسكون بأقل كلماته . موسى ، الذى وضعوا فوق أقل تعليم فى ناموسه أكواما وأحمالا ثقيلة من التقاليد والتفاسير ، إذ كانوا لا يؤمنون به ولا يطيعونه فلو كانوا قد آمنوا بموسى لآمنوا بالذى يخاطبهم لأن موسى كتب عنه . ولكن إن كانوا قد رفضوا المعنى الحقيقى للكلمات المكتوبة والتى يقولون أنهم يحبونها ويعبدونها فكيف يؤمنون بكلماته وأحاديثه التى كانوا ينصتون إليها بغضب وكره (٢) .

نحن نعلم بأى شعور مميت قد قوبلت هذه الاعلانات العالية . لم يتكلم المسيح قبل هذا بمثل هذا الافصاح . يظهر أنه أراد أن يعلن ذاته فى الجليل رويدا رويدا مثل انبلاج الفجر المتألق المشرق لأرواح وأذهان الذين سمعوا تعاليمه ورأوا أعماله ، ولكن فى أوروشليم حيث كانت كرازته أقصر وأتباعه أقل وأعداؤه أقوى وأعماله العظمى أندر اعتزم أن يترك رؤساء الشعب وقواده بلا عذر بأن يعلن لهم فى الحال طبيعة شخصيته بوضوح ما عليه مزيد . قد دعوه أمامهم ليجاوب عن كسر السبت فبدلا من أن يبرر العمل ذاته كما فعل مرارا في الجليل مبينا أن القانون الأعلى والأسمى

---

١ ـ الأصل اليونانى (المعرب : والقبطى أيضا) (مجد الاله الواحد) .

٢ ـ يو ١ : ٤٥ (ان الذى كتب عنه موسى فى الناموس والأنبياء قد وجدناه) .



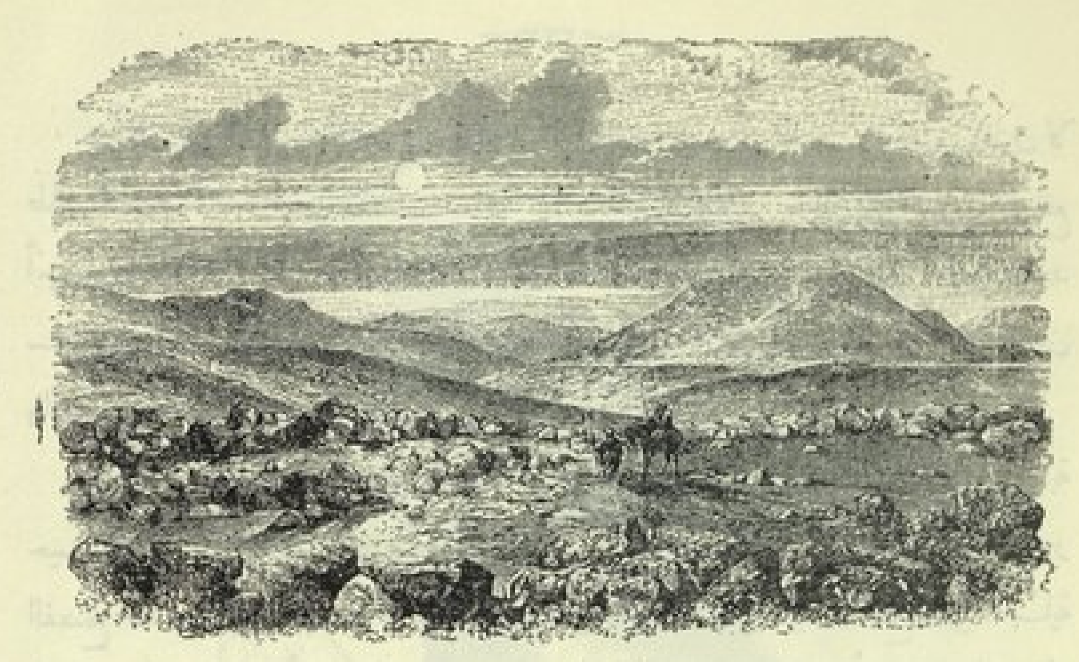
هذا الرسم محفوظ فى دوجلاس ومأخوذ من تحفة زمردية أهداها السلطان
بيازيد الثانى إلى البابا إنوسنت الثامن .

الذى للمحبة يجب أن يعلو ويبيد القانون الأدنى الذى للطاعة الحرفيـة التقليدية ، وبدلا من أن يريهم أنه عمل بنفس الروح التى التزمها رجال الله القديسون وعلم بها أعاظم الأنبياء قبله ، قد وضع ذاته أعلى وأعظم من السبت لأنه رب السبت أيضـا . نعم ... كابن من صنع السبت وكلمته لا زال يعمل فى كل قوى الطبيعة والعناية بها .

هنا تهمتان قاتلتان فى متناول اليد ضد نبى الناصرة هذا . الأولى انه كاسر للسبت والثانية أنه مجدف على المهوم . والجريمة الأولى كافية لمقاومته واضطهاده . والثانية كافية لحفز جهودهم الفعلية المتواصلة ليذيقوه الموت .

ولكن فى الوقت الحاضر لم يستطيعوا عمل شىء سوى الغيظ والحنق اللذين لا طائل تحتهما. لم يستطيعوا إلا أن يصروا على أسنانهم ويذوبوا. مهما كان السبب فالواقع أنهم لم يجسروا على عمل أى شىء الآن. لقد منعتهم قوة أعظم من قوتهم. لم تأت بعد ساعة انتصارهم. ولكن من هذه اللحظة كان مبيتا له فى قلوب الكهنة والحاخاميين والفريسيين حكم الموت العنيف الذى لا مرد له ولا نقض.

تحت هذه الظروف كان من العبث وأقل من العبث أن يبقى السيد فى اليهودية حيث كان كل يوم محوطا بالخطر من أولئك المتآمرين الأقوياء. لم يرد البقاء لحضور الفصح المقترب بل أصبحت عودته إلى الجليل محتمة. عاد بيقين واضح عن النهاية المميتة، ومعرفة تامة أن ساعات النور التى سيظل يعمل فيها قد بدأت تنساب إلى الغسق، وأن كمال عمله سيتم مع شعور داخلى بأن الموت معلق على رأسه الطاهر.



خرائب ماكيروس

الفصل الثامن والعشرون

قتل يوحنا المعمدان

انه خطية أن تقسم على ارتكاب خطية وخطية
أعظم أن تتمسك بالقسم الخاطىء . فمن يقدر
أن يرتبط بقسم مقدس لكي يتم عملا قاتلا .
شاكسبير في هنري الثامن

بقلب مملوء من الحزن والانقباض عاد المخلص إلى الجليل . لقد سبق أن رفض بغلظة في موطنه المنزوى بالناصرة وها هو الآن يرفض بقسوة فى أورشليم من قادة رؤساء أمته . وها هو يعود إلى جو سبق فتلبدت سماؤه

بضباب كثيف من مقاومات متجمعة عاصفة. لم يكد يعود حتى سرى فى هذا الجو القاتم خبر استشهاد مريع. كان فى ذاته مثل دقات ناقوس الخطر تنذر بحزن عن الموت الذى يزمع أن يذوقه يسوع. فالمصباح اللامع المنير الموقد من السماء قد أطفىء فجأة بسفك دمائه. إذ أن السابق العظيم - الأعظم فى مواليد النساء - النبى العظيم - والأعظم من نبى - قد قتل غيلة .

بعد موت هيرودس الكبير صار ربع الجليل من نصيب أنتيباس أضعف وأنحس أمير ولى عرش مملكة بائسة . كان ماكرا خادعا شهوانيا مثل أبيه . ثم هو يختلف عنه بجبنه فى الحرب وتقلبه فى السلم . وفيه قد اجتمعت - كما فى كثير من البارزين على مسرح التاريخ - خلتا عدم الأمانة والاعتقاد بالخزعبلات . ولكن المخاوف المزعجة التى ساورت ضميره لم تقف حائلا دون قوة ارادته الجامحة فى ارتكاب الجرائم باسراف . لقد امتزجت فى هذا الرجل أخسأ صفات طبيعة الرومانى والشرقي واليونانى .

كانت سياسة عديد من الأمراء الذين دانوا للسلطة الرومانية حتى بذات وجودهم أن يزوروا روما مرارا ليقدموا خضوعهم للامبراطور . وفي احدى هذه الزيارات ربما ليعزى طيباريوس فى وفاة ابنه دروسوس أو أمه ليفيا نزل انتيباس مدة اقامته فى رومية ضيفا على أخيه هيرودس فيلبس ، ليس رئيس الربع الذى يحمل ذات الاسم ، بل ابن هيرودس الكبير من مارينة ابنة سمعان البويثوس الذى حرمه أبوه من الميراث فكان يعيش فى رومية كشخص عادى (١) . هناك وقع فى شباك هيروديا زوجة أخيه فيلبس

---

١ - جزء بسيط من شجرة أنساب هيرودس توضح هذه القرابة .

هيرودس الكبير

= مريمنة ابنة هيركانوس = كليوباترة = مالثاس السامرية = مريمنة بنت سمعان

أرسطوبولوس — فيلبس رئيس ربع — ارخيلاوس — انتيباس — فيلبس

ايتورية — = ابنة الحارث — = هيروديا

أغريبا الأول — هيروديا = سالومه — = هيروديا — سالومة

وكافأ الضيافة التى وسعته بأن أغواها على الهرب معه . ومن كل النواحى كان عمله هذا كريها ، تجلت فيه الخيانة ونكران الجميل . لقد ساد فى عائلة هيرودس التزاوج من المحرمات ، ذوات القربى ، لدرجة أكثر مما فى أحط الأسر الشرقية أو التى خلفت المقدونيين وهيروديا ، إذ أنها ابنة أرسطو بولس ، لم تكن فقط زوجة أخيه فيلبس بل ابنة أخيه (١) ارسطوبولس أيضا . وقد أولدها زوجها ابنة كانت شابة فى ذلك الحين . وأنتيباس ذاته كان متزوجا من زمن بعيد من ابنة الحارث الأمير العربى ، فلم يكن كلاهما فى سن صغير ليتمسحا كعذر واهن بالشهوة الشبابية . كانت هذه المحنة شذوذا جنسيا من ناحيته ، وطمعا مسرفا من جهتها إذ فضلت ارتباطا شهوانيا غير محلل عن الحياة مع زوجها هيرودس الوحيد الذى لا يمكنه أن يفاخر ولا بجزء من عرش ملكي. ولقد وعدها أنتيباس أن يجعلها زوجته بعد عودته من رومية ، كما اشترطت عليه أن يطلق زوجته البريئة ابنة الأمير العربى .

لقد قيل بحق « ان رذائلنا الملذة تصبح آلات تعذيبنا » فمنذ ذلك الحين ابتدأت تتوالى على أنتيباس سلسلة من المصائب والنوائب وسوء الحظ توجها بعد ذلك بسنين موته في منفى سحيق بعد أن فقد عرشه وطاح ملكه . أصبحت هيروديا منذ البداءة هى المهيمنة الشريرة على منزله ، فأهاجت عليه الشعب وأغضبته ومررت علاقاته العائلية حتى ان زوجه الأميرة العربية لم تنتظر حتى تطلق بل تركته موفورة الكرامة وذهبت أولا إلى سراى ما كيروس على الحدود ومن ثم إلى حصن أبيها الصخرى في بترا . وأبوها فى عزة قطع كل الأواصر الطيبة التى كانت بينه وبين صهره السابق (أنتيباس) ثم جرد عليه حربا ثأر فيها لنفسه وفاز فيها بنصر حاسم بعد أن أوقع به هزيمة مخربة شديدة منكرة .

---

١ - كان الرومان يكرهون مثل هذه الزيجات ولم يخفوا بغضتهم للامبراطور كلوديوس لزواجه من ابنة أخيه أغريبانا ولكن هذه الزيجات كانت القاعدة فى أسرة هيرودس .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد . بل عوقبت الخطية بخطية والزواج الزوانى ختم بدم نبي . وقد اعتصم ذلك الظالم الفاسق في احدى السرايات الفخمة التى كان الهيرودسيون يفاخرون ببنائها ، وفي احدى قاعاتها البهجة المذهبة قدر أن يصم أذنيه عن أنين الكراهية العميقة المنبعث من شعبه ، ولكن صوتا واحدا وصل إليه فأوقع الاضطراب فى ضميره ولم يستطع أن يخفته أو يسكته . كان هذا هو صوت المعمدان العظيم ، ولا ندرى ما هى الظروف التى جمعت بينهما . ربما كان ذلك عقب أن سجنه متذرعا بالحجة السياسية أن تعليمه واحتشاد القوم حواليه مما يهدد الأمن العام ويجعله فى خطر (١) . كانت إحدى مميزات أخلاق هيرودس محبة استطلاع خاصة دفعته أن يلف ويدور حول حقائق الدين التى كانت حياته اليومية تخرج عليها خروجا ذريعا . لذلك دعا يوحنا إلى المثول بين يديه - كأيليا جديد أمام آخاب جديد - فجاء فى لباسه الصحراوى ، شعار من الوبر ومنطقة من الجلد ، ووقف النبيل المتصوف الصارم غير هياب أمام الملك المرتكب الخنا مع قريباته . ووقعت كلماته - وهى كلمات بسيطة عن الصدق والعدل واستنتاجات هادئة عن البر والتعفف والدينونة - وقع لهيب النار على ضميره الجامد الثلجى . وربما قد ساورت هيرودس المخاوف من لعنة ناموس موسى وأن ارتباطه سيكون عقيما بلا ثمرة أولاد فأنصت ببعض الأمل الواهى الضئيل في اصلاح الأمر مستقبلا ، بل كان مستعدا أن يطيع ويفعل أشياء عدة من أجل يوحنا . ولكن شيئا واحدا لم يرض أن يفعله أو ربما احتج لذاته أنه لا يستطيع أن يفعله وهو ترك ذلك الحب الآثم الذى استعبده ، أو طرد تلك المرأة الشريرة المتسلطة عليه والتى أذلت حياته بعد أن أفقدته سلامه . كان الاعلان الصريح للنبي الطاهر [لا يحل لك أن تتخذ امرأة أخيك] . وربما يكون قد اقتيد مرة بعد أخرى إلى تلك الأروقة المزخرفة وقد نحل واصفر من السجن والأمل الخائب . ومع تأكده أن

١ - لا ٢٠ : ٢١ . ونحن نعلم كيف أن مثل هذا الجرم أثقل ضمير هنرى الثامن .

اعلانه هذا يضرم ضده عداوة لا عفو معها ويزيد مدة حبسه فى الخلية المنفردة فلم يتردد أبدا أن يواجه هيرودس بتوبيخه [لا يحل لك] ولم يتردد فى توبيخه عن كل فعل شرير آخر صنعه (١) أو جهل ارتكبه. لقد جابه رجال خلافه - وربما رجال أفاضل وعظماء فيما عدا ذلك - خطايا الملوك بكلمات ناعمة جدا - ولكن روح المعمدان النارية والتى قويت فى مران نبيل بتصوف طويل فى البرية لا تهاب ملوكية بشرية ولا تهادن خطية متبجحة. فهل ندهش أنه عندما وقفت الشجاعة والقداسة والطهارة لتوبخ الشهوة الوضيعة لنفس مستعبدة فاسدة، ان الملك وهو بين رجال بلاطه اللامعين وعزوة قواده المدججين قد جبن وعذبه ضميره أمام هذا السجين المكبل (٢). ولكن يوحنا كان يعلم ضآلة الثقة التى ترجى من نفس أكلتها الخطية المقيمة. وانه ما دام أن ذاك الذى شهد له عبر الأردن لم يعمل معجزة لخلاصه فلم يعد من المحتمل أن ينتظر أى مخرج من هذا السجن الأسود إلا الى القبر من باب الموت.

وإلى الآن قام جبن ومخاوف ووسوسة هيرودس أنتيباس حائلا بين يوحنا - من جهة حياته على الأقل - وبين السم الزعاف الذى لكره الزانية (٣). ولكن أخيرا ما قصرت عن إدراكه بالتأثير العاطفى نالته بالخداع الماكر. كانت تعلم أن صوت المعمدان حتى وهو في السجن قد يقوى على كل مغريات جمالها الآخذ فى الذبول. وقد ينجح أخيرا أن يخلع عن هامتها التاج المجرم، فكانت تنتظر الفرصة المناسبة، ولم

١ - لو ٣ : ١٩ .

٢ - فى التاريخ مثيل لهذا الموقف. ثيودوسيوس والقديس امبرواز - أتيلاوليو - ثيارى القديس كولومبان هنري الثانى والقديس توما - هنرى الرابع وجريجورى السابع الخ

٣ - كانت هيروديا تحنق عليه بكراهية شديدة (لو ١١ : ٥٣) وتروم قتله (ولم تستطع لأن هيرودس كان يخشى يوحنا عالما أنه رجل بار قديس وكان يحافظ عليه ويسمع منه ويطيعه فى أمور كثير. وكان حزين القلب وبانبساط يصغى إليه) مر ٦ : ١٩ و ٢٠ .

يدم انتظارها طويلا لادراك مقصدها ١) .

كان الأمراء الهيروديون يقلدون رؤساءهم العظام أباطرة الرومان ويقيمون الولائم الداخرة والأعياد الفاخرة ، فاحتذوا حذوهم أيضا فى اقامة حفلات عيد الميلاد (٢) . لذلك أقام أنتيباس يوم عيد ميلاده ربما فى ماكيروس ، أو فى سراى مجاورة اسمها جولياس ، وليمة لرجال البلاط وقواد الجيش ونبلاء الجليل . وكفل غنى الهيروديين وهندسة قصورهم العديدة الباذخة وميلهم العام للظهور المسرف ألا ينقص هذه الوليمة شىء يمكن أن تحوزه الملوكية أو يجلبه المال . والدلائل متوفرة على أنها كانت « وليمة عيد تجلى فيها الصخب والنهم » ، وتتلاءم مع العوائد الحديثة الخسيثة التى طغت على الامبراطورية ، وتجمع بين البطنة الرومانية والخلاعة الآدومية . وزادت هيروديا بأن خبأت للملك مسرة مثيرة غير منتظرة يبعث مرآها بلا شك المرح فى ضيوف كضيوفه . كان في ذلك الزمان طلب الراقصين والراقصات عزيزا (٣) ، والشهوة لرؤية أمثالهم وهم من الخليعين غير المؤدبين قد سلكت طريقها إلى ذلك البلاط الصدوق نصف الوثنى للمغتصبين الادوميين حتى ان هيرودس الكبير شاد مسرحا في سرايه « لثيمليس » . وما كان عيد راق فى ذلك العصر يعد كاملا مالم يختم بصورة معربدة مهيجة . ولا شك أن هيرودس اتبع عادات زمانه . ولكنه ما كان يحلم أنه سيسر ضيوفه بالمتعة النادرة بأن يروا أميرة ، هى ابنة أخيه وحفيدة هيرودس الكبير من مريمنة وعليه من نسل سمعون رئيس الكهنة ومن سلسلة الأمراء المكابيين ، أميرة صارت فيما بعد زوجا لرئيس ربع وأما لملك (٤) ، تكرمهم بأنزال نفسها مكانة

١ ـ مر ٥ : ٢١ الكلمة الأصلية تدل على ترتيب سابق لهذه " الأيزابل " الهيرودية .

٢ ـ تك ١١ : ٢٠ تاريخ هيرودس الجزء الأول صحيفة ١٥٣ .

٣ ـ منستور . وراجع يوسيفوس .

٤ ـ تزوجت أولا عمها فيلبس رئيس ربع ايتورية ثم ابن عمها ارسطوبولس ملك كالسيس الذى أولدها ثلاثة أبناء . وكانت الأميرات الهيروديات مشهورات بجمالهن .

الراقصة المبتذلة . ومع هذا فعندما انتهت المائدة وامتلأ الأضياف واكتظوا من اللحم وفاضوا من السلافة أتمت سالومى - وكانت إذ ذاك فى أوج شبابها واكتمال جمالها الغض - ما قد يسمى فى يومنا هذا « نمرة » فى وسط (١) أولئك المستهترين السكارى [ورقصت وأرضت هيرودس والمتكئين معه] . وأثناء سكره وخماره حلف لهذه الفتاة المستهترة فى وجود الأضياف أن يعطيها ما تطلب حتى نصف مملكته (٢).

وأسرعت الفتاة إلى أمها تسألها ما تطلب ، وكان هذا عين ما توقعت هيروديا . كان لها أن تطلب ثيابا أو حليا أو قصورا أو أى شىء مما تحب المرأة ، ولكن لعقل مثل الذى لها كان الانتقام أحلى من الغنى والكبرياء . وقد تتخيل بأى حقد جنونى قد همست بأجابتها غير المترددة [اعطنى رأس يوحنا المعمدان] . فدخلت للوقت وبسرعة (أى رنة فى هاتين الكلمتين ! وأى تلميذ مفلح قد وجدت تلك الأم الشريرة فى ابنتها الشريرة) ، وطلبت سالومى قائلة : [أريد أن تعطينى هنا وفى الحال (٣) رأس يوحنا المعمدان فى طبق] . هذه الطلبة الفظيعة والالحاح فى سرعة تنفيذها يدلان على مشاركتها لبنات جنسها فى حمو الغضب . فهل كانت تظن أنها فى تلك اللحظة الآثمة وبين الأضياف الآثمين ستقابل طلبتها هذه بعاصفة من الضحك ؟ أم أملت أن تزيد طربهم وتشدد ونزمرحهم بهذا المنظر الممعن فى النكاية (٤) الذى يثيره سؤال هذه

١ - مت ١٤ : ٦ .

٢ - راجع وليمة أحشويرش الملك . يوجد تماثل غريب بين هذه الوليمة ووليمة أغريبا الأول التى أقامها لكسب عطف الامبراطور .

٣ - يستفاد هذا من الكلمة الأصلية فى مت ١٤ : ٨ ومر ٦ : ٢٥ وقد كان يجوز لنا أن نظن أنها قصدت شيئا من السخرية بقولها (الرجل الذى يعمد) لولا أنها الصيغة الغالبة فى بشارة مرقس (١ : ٤ و ٦ : ١٤) .

٤ - يظن فولكمار أن سالومى إذ ذاك كانت طفلة وآلة غير مدركة فى يد والدتها وأن " هنا وفى الحال " تدل فقط على لعب بنات فى جهول وقد يكون طلبها فى اسراع التنفيذ خشية ذهاب السكرة فعدول الملك.

الفتاة الجميلة بل أمرها النافذ أن تعطي في نفس الزمان والمكان وعلى أحد أطباق الذهب التى تزدان بها المائدة الرأس الذى يقطر دما لذاك النبي الذى أرعدت كلماته آلاف القلوب الشجاعة ؟

إن كان هذا كذلك فقد خاب أملها لأن رئيس الربع على الأقل غرق فى غم (١) عميق من جراء طلبها الذى محا سرورا قد أثاره رقصها الخليع ، وكان ختاما سيئا ومرا لوليمة عيد ميلاده . وجعله الخوف والسياسة والندم والخزعبلات ، وأى شرارة خابية من الشعور الطيب ما زالت تتقد تحت الرمضاء البيضاء لقلب أكلته الشهوات الرديئة ، كل هذا جعله يتريث ويتردد فى اجابة الطلب سريعا . ولا شك أنه شعر بأنه قد غلب على أمره بالمكر السيء الذى لعشيقته العنيدة . ولو أنه قد بقيت فيه ذرة من الرجولة لرفض هذا الطلب الذى لا يدخل ضمن - لا حرفية ولا روح - القسم الذى حلفه لأن نفس أى انسان لا يمكن أن تكون هبة تهدى لآخر ، أو كان قد أعلن فى الحال بشجاعة أنه ما دام هذا هو طلبها فان الحنث بقسمه يشرفه أكثر من التمسك به . ولكن كبرياء وضيعة وخوفا من الناس طغيا على كل حواسه الطيبة ، وإذ خشى انتقاد أضيافه أكثر من عذاب ما تبقى فيه من ضمير أرسل سيافا إلى السجن الذى لم يكن بعيدا ، وهكذا بأمر امرأة مستهترة ، ولكى يسر التخيلات الدنسة لفتاة عديمة الحياء ، ضرب عنق أنبل الأنبياء .

اجترم هذا الاثم فى الليل وفي الخفاء ، ومن رأوه خاطوا شفاههم ، ولكن السياف برز إلى النور حاملا ذلك الرأس النبيل من شعره تعلوه صفرة الموت القريب ، وفى الحال وضعه على طبق من المائدة الملوكية ، وتسلمته الصبية . والآن بخوف مثل « ميجريا » دفعت العبء الرهيب (٢) لأمها . ولنأمل أن شبح هذا المنظر المرعب

---

١ - الكلمة الأصلية فى مر ٦ : ٢٦ تعنى أنه " رمى فى غم مفاجىء " .

٢ - هذا الجيل الملتوى قد أنبت عديدا من السيدات النبيلات المولد المحبات لسفك الدماء . وقد

قد ساور أرواحهما من ذلك الوقت إلى يوم مماتهما .

ولا نعلم ما حدث بعد ذلك لهذا الأثر الكريم . يخبرنا التقليد أن هيروديا قد أمرت أن يرمى الجسد (١) الذى لا رأس له من فوق الأسوار لتلتهمه الكلاب والطيور الكواسر . ولكن على رأسها على الأقل وقع الانتقام السريع .

غير أن تلاميذ يوحنا - وربما كان بينهم منابن (٢) أخو هيرودس أنتيباس فى الرضاعة - أتوا وحملوا الجسد ودفنوه . وكان همهم التالى أن يذهبوا ويخبروا يسوع بقلوب كسيرة مريرة أن صديقه ونذيره - وأول من شهد له والذى حباه هو بتقريظ عظيم - قد مات .

وحوالى ذلك الوقت رجع التلاميذ من إرساليتهم وأخبروه بكل ما عملوا وعلموا، وانهم بشروا بالتوبة ، وأخرجوا شياطين ، ودهنوا بزيت المرضى فشفوهم (٣) . ولكن تقرير جولتهم كان قصيرا وليس مفرحا تماما ، ورغما عن نجاح جزئى فقد يظهر أن إيمانهم غير المدرب لم يكن كافيا للواجب الملقى عليهم .

تلهت فلوفيا يوخزها مرارا وتكرارا بأبرة غرها فى لسان رأس شيرون المقطوع . وأغريبينا استباحت على نفس الصورة رأس غرعتها لوليا بولينا . ومن المؤلم أن نلاحظ أن إطاحة الرأس ما كان ينظر إليها عند اليهود برهبة .

١ - مر ٦ : ٢٩ " الجثة " . هذا التقليد ذكره ايرينيموس ونيسفورس . وذكر التقليد أيضا أن أم الفتاة الراقصة هيروديا قد لاقت حتفها بأن سقطت وفصل الجليد رأسها (نيسفورس) فقد ذكر أنها كانت تجتاز بحيرة متجمدة فانكسر الجليد ووقعت إلى عنقها فى الماء ، وأن رأسها قد قطعه الثلج الذى دفعه تحريك المياه بشدة من وقوعها وبهذا هلكت . أعد الله دينونتها على مثال جرمها . ولكن التاريخ لم يذكر لنا شيئا عن سالومة بعد ذهابها إلى بلاط زوجها الثانى أرسطوبولس ولأن قضاء الله أحيانا كثيرة لا ينفذ فى هذه الحياة فقد يجوز على ما نعلم أن تكون قد ماتت دون أن يمثل بها - مثل بورجيا - فى بلاطها الصغير .

٢ - ربما كان منابن هذا (اع ١٣ : ١) ابنا لمنابن الذي تنبأ لهيرودس الكبير عن حظه العظيم .

٣ - قارن يع ٥ : ١٤ .

بعد قليل وصل نبأ آخر . وهو أن رئيس الربع السفاك كان يسأل عن يسوع . إنه يريد أن يراه . ربما سيرسل فى طلبه عند عودته إلى قصره الجديد الذهبى في عاصمته الجديدة طبرية ، لأن إرسالية الاثنى عشر قد أذاعت اسمه بين الناس [مر ٦ : ١٤] ، وراج سوق التخيلات عنه ، وأقر الجميع عظمة مهمته ، إلا أن بعضهم ظن انه ايليا ، وآخرين قالوا انه إرميا أو واحد من الأنبياء ، أما هيرودس فكان له أغرب حل لهذا الأشكال . قيل عن ثيودوس أنه أمر بذبح سيماخوس وبعد ذلك كان يتراءى له شبحه ويعذبه وأخيرا أصابه الجنون إذ كان يتخيل أن القتيل العجوز بتقاطيع مشوهة يحملق فى وجهه خلال كل طبق على المائدة . ولا يمكن أن يكون الحال خلاف هذا مع هيرودس أنتيباس . لقد جئ إليه فى إيوان الوليمة برأس إنسان كان يشعر من أعماق نفسه أنه قديس حق . وشاهد الملامح الصارمة ـ التى كثيرا ما نظر إليها بخوف ـ تحوم حولها رهبة الموت . أما صدرت من هاتين الشفتين المائتتين توبيخات أعلى وأشد مما نطقتا به فى الحياة ؟ هل خفتت تلك النبرات التى صرخت [لا يحل لك أن تأخذها] ؟ وأنها الآن تصيح بقوة علوية من الصمت البليغ للموت الرهيب ؟ لا نخطئ كثيرا إن ذكرنا أن تلك الرأس المحتزة ما كانت تغيب عن ذهن هيرودس المطارد من ذلك الوقت إلى أن وضع على سرير الموت . وها هو الآن ـ ولما يمض زمن طويل ـ يسمع بشهرة نبي آخر ، نبي أعظم بما لا يقاس يعمل آيات لم يأت يوحنا بمثلها قط . فبضمير مثقل ساورته مخاوف الخزعبلات وابتدأ يوسوس بخوف لأخصائه (١) قائلا : [هذا هو يوحنا المعمدان الذى ضربت أنا عنقه قد قام من الأموات ولذلك تعمل به القوات] (٢). هل عاد يوحنا إلى الحياة لينتقم انتقاما ذريعا ؟ هل يأتى إلى أبراج حصن ماكيروس

---

١ ـ أقاويل السراى الحانقة ربما نقلها خوزى أو مناين .

٢ ـ مت ١٤ : ٢ و مر ٦:١٦ . هذه الأفكار كانت ذائعة حتى انه عندما انكسر جيش هيرودس كسرة مريعة أمام الحارث رأي الناس فى هذه الهزيمة القضاء العادل لقتله يوحنا .



طبرية وبحيرة الجليل

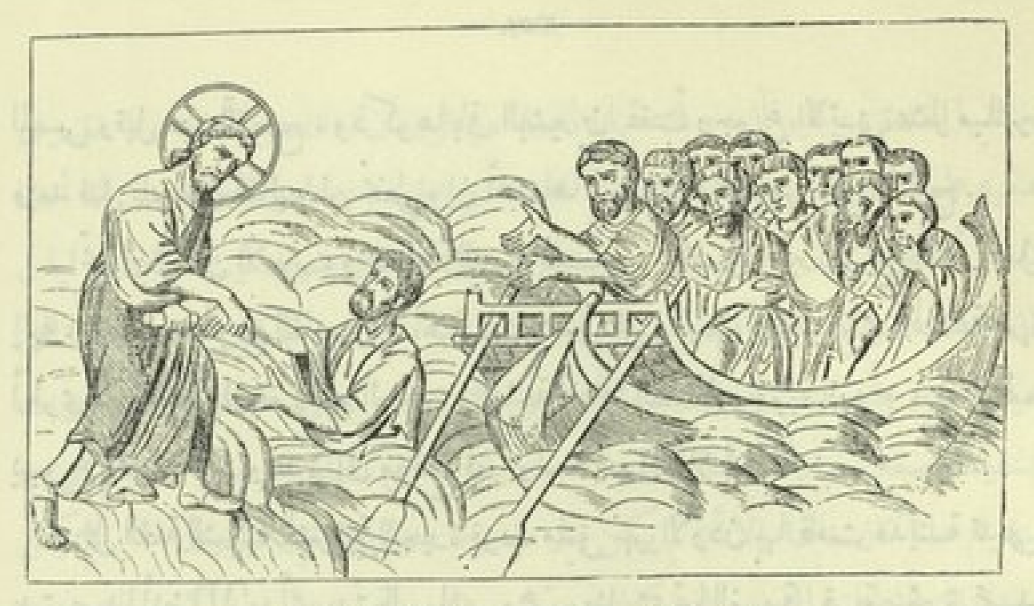
على رأس جماعات كبيرة ويعلن ثورة مهلكة ، أو هل يدخل إلى قاعات سراى طبرية الذهبية كشبح فى نصف الليل يزعجه بوقع أقدام مخيفة ويصرخ مع آخاب قائلا: [هل وجدتنى يا عدوى] .

وكما كانت أخلاق هيروديا الآمرة القاسية المكدر الدائم لسلام زوجها كذلك كان جشعها الجنونى السبب المباشر لخرابه . إذ عندما كال الأمبراطور كايوس (كاليجولا) الأنعامات على الملك أغريبا الأول أمرض هيروديا الحسد وعدم القناعة فحرضت أنتيباس على السفر معها إلى روما لكى تحصل ولو على جزء من الشرف الذى منح لأخيها . وكانت تطمع قبل كل شىء فى الحصول على لقب ملك (١) لزوجها بدلا من الرضى بلقب رئيس الربع وهو أقل بكثير . وعبثا حاول أنتيباس الجبان المحب للدعة أن يريها الخطر الذى قد يتعرض إليه من جراء هذا الطلب . ولكنها مررت حياته . وأخيرا تغلب إلحاحها على تعقله واضطر للخضوع لها . أما الأيام والحوادث فأظهرت صدق تشاؤمه . لم يكن هناك حب متبادل بين الأخوال والأعمام وأولادهم ولا بين الأخوة غير الأشقاء فى عائلة هيرودس المتشعبة ، ولذا فان اغريبا مدفوعا بعوامل السياسة أو الغيرة لم يفضح سلوك عمه وأخته فقط - مع انهما أعاناه فى مصائبه - ولكنه أرسل فعلا معتوقه فوتانيوس إلى روما يتهم أنتيباس بالخيانة العظمى . ولم يستطع رئيس الربع أن يبرىء نفسه من هذه التهمة فنفى سنة ٣٩ ميلادية إلى لاجدونم - ربما سنت برتراند دى كومنجز - من أعمال الغال ، ليس بعيدا عن الحدود الأسبانية (٢) . وصحبته فى منفاه هيروديا ،

١ - لقد دعى " ملكا " فى مرقس ٦ : ١٤ (وهذا اللقب المجامل كان ذائعا فى الجهات) ولكن دعى بتدقيق " رئيس الربع " فى مت ١٤ : ١ و لو ٩ : ٧ .

٢ - يقول يوسيفوس ان الله قد عاقب هيروديا لحسدها أخيها ، وهيرودس لأنه أعار أذنه لحديث النساء الباطل وأضاف أن الامبراطور كايوس عندما علم أن هيروديا هى أخت أغريبا أراد أن يظهر لها بعض العطف ولكنها رفضت هذا بأسلوب جملته يأمر بنفيها أيضا .

ربما عن اختيار أو ربما عن اضطرار بسبب الحـــاجة أو اليأس وهناك ماتا كلاهما في ذل وعار . أما سالومة الراقصـــة ـ مثيلة لوكرزيا بورجيا فى عائلة الهيروديين فقد اختفى ذكرها من التاريخ وان كان التقليد والأخبار قد ذكرا أنها ماتت شابة ميتة عنف ذريعة .



المشى على البحر (من رسم فى القرن التاسع)

الفصل التاسع والعشرون

اشباع الخمسة آلاف والمشى على البحر

(فى البحر طريقك وسبلك فى
المياه الكثيرة وآثارك لم تعرف)
مز ٧٧ : ١٩

اشباع الخمسة آلاف إحدى المعجزات القليلة فى كرازة المسيح التى دونها البشيرون الأربعة (١) . وإذ أن يوحنا قد أوردها عقب العيد غير

١ ـ مت ١٤ : ١٣ ـ ٣٣ و مر ٦ : ٣٠ ـ ٥٢ و لو ٩ : ١٠ ـ ١٧ و يو ٦ : ١ ـ ٢١ وسيجد المطالع أن التفصيلات التى فى المتن إما متخذة من البشائر رأسا أو استنتاجا . والبشائر متفقة

المسمى وقبل عيد الفصح ، وذكرها باقى البشيرين عقب رجوع الاثنى عشر مباشرة وبعد قتل المعمدان فغالبا لن نخطىء إن أثبتناها فى هذا الموضع من تاريخ المسيح .

تجول الرسل الأخير ، واضطهاد اليهود للمسيح ، وثقل الخبر المزعج الذى وصل إليه ، وضغط الجموع القادمة والذاهبة الذى شغل كل وقتهم ، اضطر تلك الجماعة مرة أخرى أن تحتاج إلى فترة من الوحدة والراحة لاعادة النشاط وتقوية الروح ، فقال لهم يسوع [تعالوا أنتم وحدكم إلى موضع قفر واستريحوا قليلا] .

على القمة الشمالية الشرقية للبحيرة قرب ملتقى نهر الأردن بها قامت مدينة تدعى بيت صيدا أيضا (١) ، أى بيت السمك . وهى - مثل سميتها الغربية - قرية صغيرة عمد إلى تكبيرها وتنسيقها حديثا فيلبس رئيس ربع أيتورية ، ودعاها لتميزها عن الأخرى بيت صيدا جولياس . واللقب الأخير قد أعطي تكريما لابنة الامبراطور أوغسطس ، الأميرة الجميلة سيئة الشهرة ، جوليا . وكانت هذه البلاد نصف الوثنية الهيرودية بمعالمها

تماما فى كل النقط الهامة . أما المفارقات الظاهرية البسيطة التى يضخمها النقد المغرض غير البرىء فمن السهل التوفيق بينها بدون عناء وقد اتفقت الأدلة فى المتن . قال كاتب عصرى " فكرة ان التاريخ الصادق يمتاز بتدقيق كل صغيرة أمر حادث جديد فى التاريخ " . وانا لا نشك ما دام لا يوجد تاريخ يعطى كافة التفصيلات فان هذه الطريقة الجديدة الانشائية وان ألبسته ثوب المظاهر الحقيقية فانها أقل صدقا فى الواقع من الطريقة القديمة التى كان يكتب بها الملاحظ المهتم غير ناظر للنقد . بلى ، إنا نشك أن التاريخ التمعلى قد لا يمكن الركون إليه بل هو خادع . إن كتب مشاهدان بصدق التأثيرات الحادثة لهما من الأمور العظام ، فعلى قدر صدقهما يزداد اختلافهما . فانه لا يوجد اثنان يريان الحوادث على نفس الضوء تماما أو يبديان ذات الاهتمام بنفس الظروف . ولو أن كاتبا آخر مع ثيوكليدس دقيقا مثله أرخ حرب البلوبنيزيان لكان لنا تاريخان مختلفان جد الاختلاف . فالاختلافات البسيطة الموجودة فى البشائر الأربعة إنما تؤكد استقلال شهادات كاتبيها . حقيقة قد تتعارض مع النظريات المتطرفة الخرافية غير الكتابية عن الوحى ولكنها تتمشى تماما مع الصدق الكامل والأمانة .

١ - نفس الاشتقاق أخذت منه مدينة صيدا اسمها .

ومبانيها المقلدة عن اليونان ، وبأسمائها الخليط عن الرومان ، تنفر السيد ولا تغرى قدميه على السير فيها . ومع أنه كان يتم كثيرا من عمله جوار المدن الكبيرة إلا أننا لا نعلم أنه علم في أية مدينة سوى أوروشليم . ولكن إلى جنوب بيت صيدا جولياس كان هناك منفرج ضيق أخضر يسمى سهل البطيحة ، خال من السكان مثل التلال التى تحيطه ، غير مأهول لا في ذلك الزمان وحتى الآن . وإلى هذا المكان صوبت السفينة الصغيرة سيرها حاملة القلوب المتعبة الحزينة التى تتطلب الراحة . ومع أن سفرهم هذا كان خاصا إلا أنه لم يكن غير ملحوظ ، ولم يبق غير معروف (١) . لم يكن يبعد ذلك الشاطئ المهجور الذى كان وجهتهم سوى ستة أميال عن كفر ناحوم ، ويظهر أن رياحا مضادة اضطرت السفينة الصغيرة أن تسير ببطء وبقرب من الشاطئ فعندما وصلوا إلى المكان الذى يرغبونه كان القصد الذى أراده السيد لتلاميذه قد ضاع هباء . فقد سبق جزء من الجموع وازدحموا عند المرفأ قبل أن يرسو مقدم السفينة على الشاطئ ذى الحصا . كذلك رؤيت عن بعد جماعات صاخبة من الحجاج أغرتهم شهرة النبي الجديد (٢) أن يخالفوا خطة سيرهم . فتحنن يسوع عليهم لأنهم كانوا كخراف لا راعى لها . ومن بشارة يوحنا نستنتج أنه عندما وصل إلى الشاطئ صعد هو وتلاميذه إلى الجبل وظلوا هناك حتى اجتمعت الجماهير وحينئذ نزل فى وسطهم وبدأ يعلمهم كثيرا وشفى مرضاهم (٣) .

ومال النهار وانحدرت الشمس لتغيب وراء الجبال الغربية (٤) . ومع ذلك بقيت

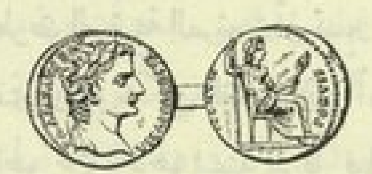
---

١ ـ مر ٦ : ٣٣ و لو ٩ : ١١ و مت ١٤ : ١٣ . ٢ ـ مر ٦ : ٣٣ و يو ٦ : ٢ و ٤ .

٣ ـ يقول المستر بروس أن الأصحاح السادس من يوحنا ملىء بالعجائب إذ يخبرنا عن معجزة عظيمة ، وحية عظيمة ، وعاصفة عظيمة ، وعظة عظيمة ، وديانة عظيمة ، ومحنة عظيمة لايمان واخلاص الاثنى عشر .

٤ ـ كلمة " المساء " فى مت ١٤ : ١٥ تعنى بعد الظهر وفى عدد ٢٣ تعنى بعد الغروب أى بعد الساعة السادسة بتوقيتنا .

الجماهير مجتمعة ، فقد سحرها ذلك الصوت الشافى وتلك الكلمات المقدسة . وبعد الغسق وهو قصير المدى فى الشرق سيأتى المساء سريعا وسيجد الجموع الذين نسوا فى حماسهم حتى ضرورات الحياة أنهم في ظلمة ومسغبة وبعد عن أى مكان آهل بالناس . وبدأ التلاميذ يضطربون خشية أن ينتهى اليوم بكارثة محزنة تكون سلاحا جديدا لأعداء السيد الألداء . ولكن رأفته سبقت فأعدت ما يوفر عليهم مخاوفهم الحقة . بل سبق فأوحت بها إلى عقل فيلبس[1] وحدثت بينهم مداولة قصيرة انتهت إلى أنه لا تكفيهم مائتا دينار (أزيد قليلا من سبعة جنيهات) ثمن خبز ليأخذ الواحد شيئا يسيرا وحتى لو كان هذا المبلغ موجودا فى الصندوق المشترك فليس هناك وقت لشراء ما يلزم

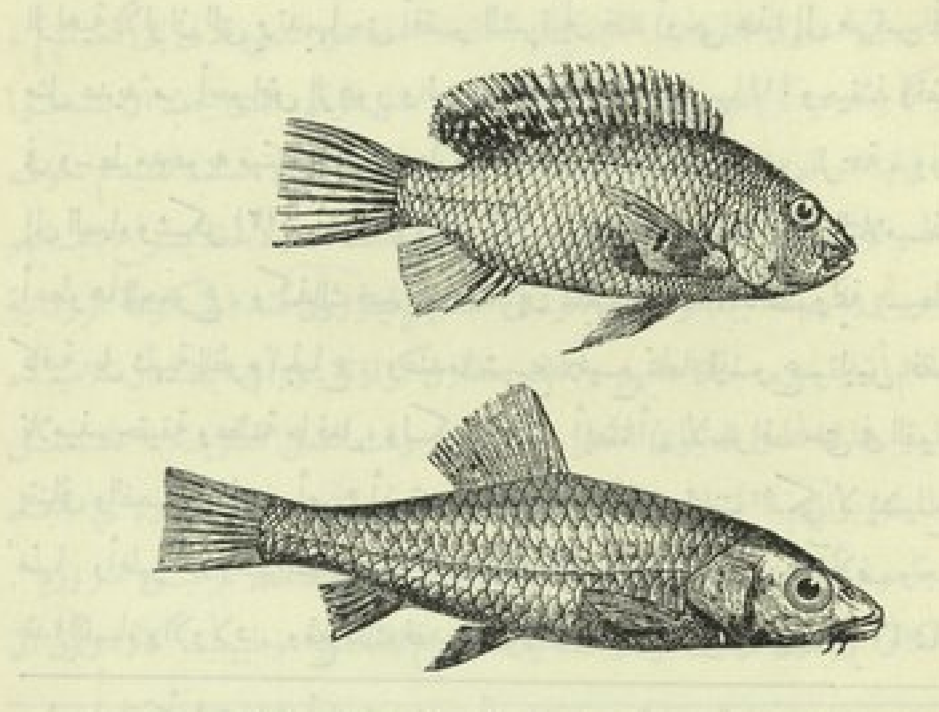


دينار طيباريوس *

١ - لم يذكر لماذا اختير فيلبس بالذات . هذه احدى الأمور التى لا يمكن تفسيرها والتى تكثر فى أحاديث الشهود العالمين جيدا بمجرى الحادث . يقول المستر بلنت زعما لأن فيلبس كان من بيت صيدا ، ولكن فيلبس كان من قرية بيت صيدا الثانية (عين تابيجاه الآن) التى هى عبر البحر فلا علاقة بين الاثنين . وان اكتشاف ريلاند أنه توجد مدينتان باسم بيت صيدا (بيت صيدا جولياس فى الشمال الشرقى للبحيرة ، والثانية مدينة صيد السمك فى غربها) يحل لنا كثيرا من مشكلات لو ٩ : ١٠ و مر ٦ : ٤٥ راجع روبنصون وستانلى الخ .

* الدينار (وهو المترجم فى الانجليزية بنس وإن كان أقرب فى قيمته للفرنك) كان العملة الفضية الدارجة للفاتحين الرومان كرمز لسلطانهم وقد طلبه يسوع وأراه لليهود كبرهان للخضوع السياسى فى ذلك الوقت . والعملة المرسومة تمثل رأس طيباريوس مكللة بالغار والتاج ويظهر على ملامحه ما تكنه طبيعته من الحزن والريبة التى نأمل أن يكون قد بالغ فى تصويرها المؤرخ تاسيتوس . وحول الرأس كتابة معناها طيباريوس قيصر ابن المرحوم أغسطس الملك . وعلى الوجه الآخر من الدينار كتب بنتفكس الكبير وهو لقب محبب لأباطرة الرومان يدل على أنه رأس الدين والسياسة . والملكة الجالسة على عرش تقبض فى يدها اليمنى سيفا وفى اليسرى غصن

وهنا قال أندراوس إن صبيا معه خمس خبزات من الشعير وسمكتان صغيرتان ، ولكنه قال هذا بنغمة اليائس وليظهر فقط عدم فائدة الفكرة الوحيدة التى خطرت له (١) .



سمك بحيرة الجليل (من عينات بالمتحف البريطانى)

(١) كروميس أندرى (٢) باربس بدرمى

وكانت اجابة يسوع قصيرة [ليتكىء الناس] .

وأمر الرسل وهم فى اندهاش وترقب أن يتكيء الجموع ـ كما يفعلون عند الطعام ـ

زيتون هى الأمبراطورة ليفيا التى يظهر أنها لعبت دورا عظيما فى السنتين الأولى لحكم ولدها . وإذ أن طيباريوس خلافا لمن سبقوه أو تبعوه لم يسك إلا دينارا واحدا فنحن على أشد التأكيد أن هذه العملة مثيلة التى أروها ليسوع . ويلاحظ أن الليرة الايطالية التى توافق قيمتها تماما قيمة الدينار لا زالت هى الأجر اليومى لفعلة الأرض فى جنوب ايطاليا وصقلية .

١ ـ لو أن هذا " الصبى " (يو ٦ : ٩) كان ملازما للرسل كما نستنتج من (ص : ٣٨) فالغالب أنه أيضا من بيت صيدا مثل فيلبس وأندراوس .

على العشب الأخضر الكثيف الذى يكسو جوانب التلال فى هذا الوقت اللطيف زمن الربيـــع ، وقسموهم فـرقا خمسين ومائة . وإذ جلسوا على هذا الترتيب بملابسهم الزاهية الألوان التى يرتديها حتى أفقـر الشرقيين فقد أوحى هذا إلى مرقس أنهم كانوا مثل عديد من أحواض الزهور والورود فى حديقة معتنى بها (١) وحينئذ وقف يسوع فى وسط مدعويه مبتهج القلب ، عارفا بما كان مزمعا أن يفعل من الرحمة ، ورفع عينيه إلى السماء وشكر (٢) ، وبارك الأرغفة (٣) ، وكسرها وأعطى التلاميذ (٤) وهم أعطوها للجموع . وكذلك قسم السمكتين عليهم جميعـا . كانت وليمة بسيطة لكن كافية بل شهية للقوم الجياع . وعندما شبع الجميع تماما فيسوع - ليس فقط ليرى تلاميذه حقيقة وعظمة ما فعل، ولكن ليعلمهم أيضا أن الاسراف حتى فى القوة المعجزة يتنافى والقصد الالهى - أمرهم أن يجمعوا الكسر التى بقيت لكي لا يضيع شيء منها . وأظهر الترتيب المنسق للجماعات أنهم كانوا أزيد من خمسة آلاف رجل (٥) عدا النساء والأولاد . ومع ذلك فقد امتلأت اثنتا عشرة قفـــة (٦) مما فضل

١ - (فاتكأوا جميعا فى أماكن) = أحواض . هو التعبير التصويرى الوارد فى مر ٦: ٤٠ الذى يعكس فى انجيله ما انطبع فى ذهنه .

٢ - يو ٦ : ١١ . ٣ - لو ٩ : ١٦ .

٤ - مر ٦ : ٤١ (وأعطى) تعنى وابتدأ يعطى والكلمة الأصلية . تفيد الحال الناقص والمستقبل المستمر . أى دوام الفعل . وهى المفتاح الوحيد الذى أعطى لنا لنفهم كيف تمت هذه الأعجوبة إذ تدل أن التكاثر قد حدث فى يدى السيد بين التقطيع والتوزيع .

٥ - النساء والأطفال ما كانوا يجلسون مع الرجال وانما يقفون أو يجلسون بعيدا والغالب أن عددهم لم يكن كبيرا فى هذا الموضع القفر البعيد .

٦ - قد لوحظ أن البشيرين الأربعة قد استعملوا فى هذه المعجزة كلمة (قفة) أى "السبت" العادى من الخوص ، بينما قد استعملوا كلمة " سلة " أى الذى من الحبال المجدولة فى معجزة الأربعة آلاف . وان ظن أحد أنه من المهم أن يسأل : ومن أين لهم القفف فالجواب أنها كانت من أعم ممتلكات اليهود يحفظون فيها الطعام ...الخ خشية النجاسة . وكان هذا الحرص واجبا حتى فى ذلك الوقت الذى اجتاح فيه الوثنيون فلسطين. وكان لليهود عبد يدعى عبد القفف (سبدوتيوس) .

عنهم بعدما شبعــــوا .

أحدثت هذه المعجزة أثراً عميقاً . كانت تتلائم تماما مع ما كان ينتظره العموم . فابتدأ الناس يتهامسون فيما بينهم قائلين [في الحقيقة هذا هو النبي الآتي إلى العالم] ، شيلوه بركة يعقوب ونجم وسيف رؤيا بلعام ، النبي مثل موسى الذى يجب أن يسمعوا له ، ربما إيليا الموعود به فى النبوة القديمة (١) ، وربما إرميا الذى حسب تقليدهم سوف يأتي ليدلهم على مكان التابوت والأوريم والنيران المقدسة . ولاحظ يسوع انجذابهم الظاهر ورأى أنهم قد يجنحون إلى القوة فى حماسهم فيثورون ضد الحكومة الرومانية فى اجتهادهم أن يقيموه ملكا عليهم وبذلك يعطلون كرازته . ورأى أيضا أن تلاميذه قد شاطروا هذا الحماس الدنيوى الخطر ، فهذا هو وقت العمل السريع ، فاستعمل سلطانه المباشر وألزم (٢) تلاميذه أن يركبوا السفينة ويسبقوه عبر البحيرة في اتجاه كفر ناحوم أو بيت صيدا الغربية (٣) . كان شيء من الضغط الرقيق ضروريا . لأنهم ما كانوا يريدون أن يتركوه وحده بين الجموع المتحمسة وطبيعيا كانوا يرون أن

---

١ - تك ٤٩ : ١٠ و عدد ٢٤ : ١٧ و تث ١٨ : ١٥و١٨ و مت ١٤ : ٥ . أذكر هنا ما ذاع بين اليهــود .

٢ - (الزم) مت ومر . كيف تكون هذه الكلمة عديمة التفسير لو لم يذكر يو ٦ : ١٧ سببها وكيف وضحت بعد أن أوضح لنا يوحنا الظرف وفى الوقت ذاته كيف يكون فهمنا لما حدث محدودا لو اقتصرنا فقط على درس بشارة يوحنا .

٣ - قارن مر ٦ : ٤٥ و يو ٦ : ١٧ . تل حوم (كفر ناحوم) وبيت صيدا (عين تابيجاه) كانتا قريبتين جدا فكانوا متجهين إلى أحدهما وإذ أن بيت صيدا كانت الأسهل فى الوصول فقد تعتبر كميناء لكفر ناحوم . نظرية طومسون وغيره التى تقول أنه توجد بيت صيدا واحدة لا تقوم إذا قارنا (مر ٦ : ٤٥) (إلى العبر إلى بيت صيدا) مع لو ٩ : ١٠ التى تدل على أنهم كانوا فى بيت صيدا جولياس . ولو أن القائلين بنظرية طومسون يجنحون إلى تفسير بعيد على الغالب غير محتمل فى أن التلاميذ كانوا فى بيت صيدا وحاذوا بسفينتهم الشاطىء إلى موضع القفر الذي كان فيه يسوع وأخذوه معهم فى السفينة وعادوا إلى بيت صيدا ثانية .

لهم الحق فى البقاء لو أن شيئا عظيما قد يحدث مثل اقامته ملكا . فى الوقت ذاته كان من السهل أن يصرف يسوع الجموع بعد أن رأوه قد صرف تلاميذه وأخص أصدقائه.

ولما صار المساء نجح فى صرف (١) الجموع برفق ورويدا رويدا وحملهم على تركه وحده وعندما انصرف الكل - عدا أشدهم حماسا - قافلين إلى أماكنهم جماعات جماعات ترك الباقين وهرب (٢) منهم وذهب إلى الجبل ليصلى . كان عالما أن الشدة البالغة ليوم ابن الانسان آتية فباتصاله مع أبيه السموى كان يستعد لعمل الغد العصيب وللاضطهادات المرة للأسابيع العديدة المقبلة . مرة قبل هذه قضى فى الجبال المنفردة ليلة كاملة فى الصلاة وحده كان هذا قبل انتخاب رسله المحبوبين وإبان بهجة الأيام الأولى السعيدة للكرازة . ولكن ما أبعد الفرق الآن فى شعور الكاهن الأعظم وهو يرتقى السلم الصخرى لهذا المذبح الكريم أى الجبل فى هيكل الليل . فان قتل سابقه المحبوب قرب إلى نفسه فكر الموت . ولم يتملقه هذا اللهيب الوقتى لشعلة الحماس الكاذب الأساس والذى كان مزمعا أن يطفأه في اليوم التالى . وما كانت الزوبعة التى بدأت تزمجر على رؤوس التلال الجرداء والرياح التى هبت وأعولت في الوديان ومياه البحيرة أمامه الهائجة إلى زبد مرغ والقارب الصغير الذى يظهر آونة ثم يختفى فى ظلال الغيام المتكاثف وهو يتراقص على الأمواج العالية إلا شبه رمز لتغيير مجرى حياته على الأرض . ولكن هنا على قمة الجبل المهجور وفى هذه الليلة العاصفة يستطيع أن يحصل على قوة وسلام وفرح لا ينطق به لأنه كان وحده مع أبيه . وها قد حل الظلام وهبت الرياح الشديدة (٣) عليه وهو منحن فوق الجبل في صلاة انفرادية وعلى

١ - قارن مر ٦ : ٤٥ (يصرف) = " ابتدأ يصرف " مع (اصرف) = فى الحال مر ٦ : ٣٦.

٢ - نستنتج أن بعضهم تلكأ من يو ٦ : ٢٢ . لقد استعملت فى المتن كلمة هرب منهم الواردة فى 8 بدل (انصرف إلى الجبل وحده) الواردة فى نسخ أخرى لأن سياق الحديث يدل على شدة تحمس الجمهور واحتياج يسوع لجهد ليتخلص منهم وحتى كلمة انصرف تدل على بعض هذا المعنى قارن مت ٢ : ١٢ .

٣ - يو ٦ : ١٧ و ١٨ .

تلاميذه التعابى على تلك البحيرة المضطربة .

مرت الساعة تلو الساعة وأقبل الهزيع الرابع من الليل (١) ولم تقطع السفينة سوى نصف المسافة التى يجب أن تجتازها لأن الظلام كان شديدا والريح مضادا والأمواج صاخبة وكانوا معذبين فى الجذف (٢) وفوق ذلك كله لم يكن معهم من يهدئهم وينجيهم لأن يسوع كان منفردا فى البرية . هو على اليابسة وهم على البحر الخطر ولكن طوال الوقت كان يراهم ويشفق عليهم وأخيرا عندما وصلت تعاستهم إلى الحد الأقصى رأوا قبسا في الظلام وشبحا أخافهم وثوبا مهفهفا مقتربا منهم يخطو على أمواج المياه (٣) وظهر أنه يريد أن يتجاوزهم فلما رأوه ماشيا على البحر ظنوه خيالا (٤) وصرخوا مرتعبين وفى العاصفة والظلام - وقد ظهر لهم كما يظهر لنا فى وسط قتام الحياة ان المحيط كبير وقواربنا الصغيرة ضئيلة جدا - دوى صوت السلام القائل [أنا هو لا تخافوا] .

هذا الصوت هدأ مخاوفهم . وللوقت كانوا يريدون أن يحملوه معهم في السفينة (٥) ولكن بطرس فى محبته المتسرعة وشوقه الكبير وحرقة فؤاده الشديدة بطرس الذى قال مرة فى معرفته نقص نفسه [أبعد عنى] - لم يشأ أن يصطبر حتى يقترب فصرخ بعاطفة قوية :

[يارب إن كنت أنت هو فرنى أن آتى إليك على المياه] .

---

١ - أى بين الثالثة والسادسة صباحا . فى ذلك الوقت كان اليهود قد تركوا التقسيم اليهودي لليل إلى ثلاثة أهزعة واتبعوا التقسيم الرومانى إلى أربعة أهزعة بين الساعة السادسة مساء والسادسة صباحا جدفوا خمس وعشرين غلوة بينما كان عرض البحيرة نحو أربعين (يوسيفوس).

٢ - مر ٦ : ٤٨ .

٣ - يو ٩ : ٨ .

٤ - مر ٦ : ٤٩ و لو ٢٤ : ٣٧ .

٥ - يو ٦ : ٢١ (وكانوا يريدون أن يحملوه معهم) أى أرادوا وقد فعلوا قارن يو ٨ : ٤٤ .

[تعـــال] .

فقفز من على جانب السفينة إلى الأمواج المضطربة . وطالما كان مثبتا عينيـه على شخص السيد فمع أن الرياح عبثت بشعره والرذاذ تناثر على ثيابه إلا أن كل شيء كان حسنا جدا . ولكن عندما حول نظره بأيمان متردد من السيد إلى الأمواج الغاضبـة وإلى الظلام السحيق من تحتها ابتدأ يغرق (١) وبنبرة يائسة أبعد ما يكون عن ثقتـه الأولى صرخ بضعف قائلا : [يا رب نجني] (٢) ولم يقصـر يسوع عن هذا فللوقت وبابتسامة حنونة مد يده وأمسك يد تلميذه الغارق وقال له بتوبيـخ رقيـق [لماذا شكـكت يا قليل الايمان] ولما صعد السيد إلى السفينة وتلميذه المخـزى الذى غمرته المحبة وبخت اسرافه فى اعتداده بنفسه سـكنت الرياح وعلى أمـواج هادئة وقمر ساطع وصلوا إلى العبر وأرسوا ودهش كل من فى السفينـة بحارة وتلاميذ وتقدموا وسجدوا له وخاطبوه باللقب الذى انفرد تثنـائيل باستعماله قبلا وقالوا له [حقـا انك أنت ابن الله] .

ولنقف برهة أمام هذا الخبر العجيب الذى ربما كان أصعب الأخبار كلها تصديقا أو فهما لدى الايمان الضعيف . وقد اجتهد بعضهم بنظريات مختلفة فى تفسير كنه هذه الأعجوبة . فتعبوا فى تخريج معنى الـكلمات [نظروا يسوع ماشيـا على البحر] . ورأوا أنها ربما لا تعني أكثر من أن يسوع قد مشى على الشاطىء محاذيا السفينة أو أن الرسـل فى قتام الظلام قد ظنوا أولا أنه مشى أو كان ماشيا على البحر . أمثـال هذه المراوغات معوجة طائشة ولو أن أحدا لا يجد من نفسه القـدرة على الايمان بالعجائب . أو حتى لو افتكر أنه من الخطأ أن يدين بالايمان الذى يصـدق بالعجائب . فليكن

---

١ - ما أبعد هذا عن اختراع البشر أو البهتان أو الخرافات !

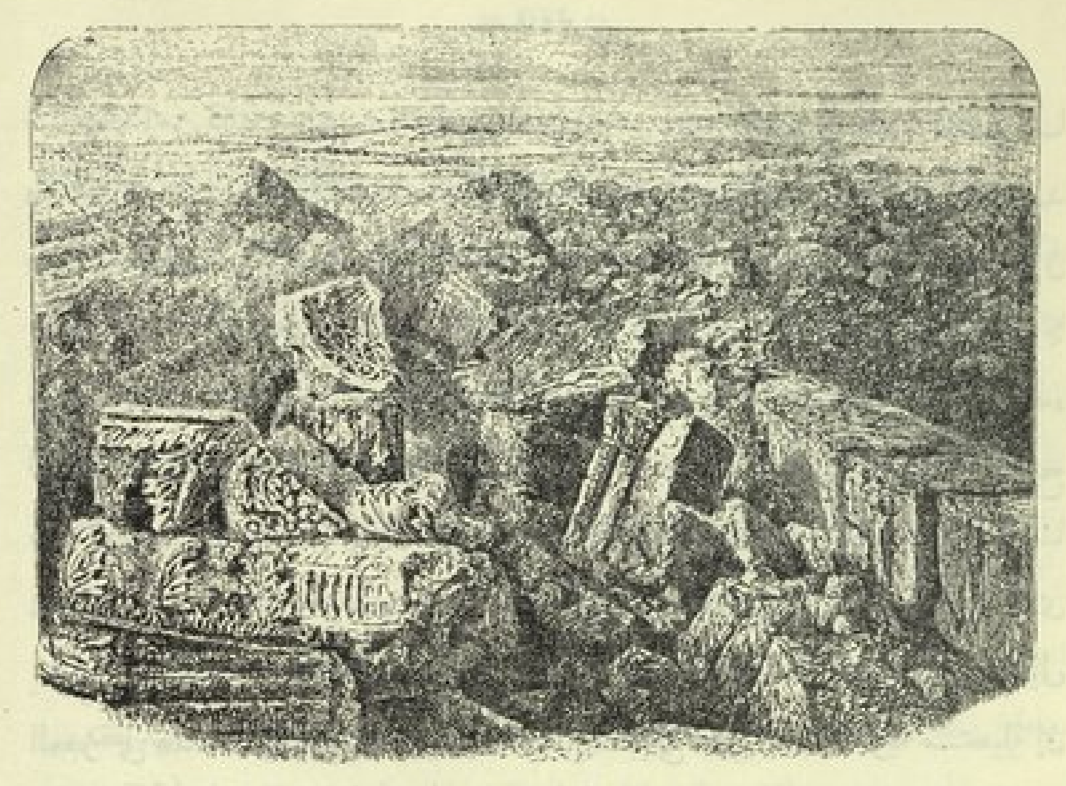
٢ - قال رئيس الأساقفة ترنش ملاحظا " فى هذه اللحظة الخطرة لم تغنه إجادته السبـاحة (يو ٢١ : ٧) فتيلا لأنه لا اختلاط بين وسائل المعرفة ووسائل النعمة " قارن مز ٩٤ : ١٨ .

متأكدا من ذلك تماما فى عقله وليتمسك باخلاص بالحق الذى يعتقـده . وليس لنا ولا لأى انسان أن يدين الآخرين . أمام سيده سيقوم أو يسقط . ولكن ليبتعـد من أن يدس عدم إيمانه ويتهم به أخبار البشيرين الواضحة الصـادقة . لقد قصدوا أن يصفوا أعجوبة مدهشة وهذا ليس مجال جدل من كل من يقرأ كلماتهم بامعان . وكما قلت سابقا فى ايماننا بالله نؤمن بقدرة فائقة تسيطر على حياة الناس وفى ايماننـا بهذه القدرة الفائقة نؤمن بالمعجز وفى ايماننا بالمعجز نؤمن بحقيقة قيامة السيد يسوع المسيح من الأموات وفى ايماننا بالقيامة نؤمن أنه كان بالحقيقة ابن الله . وحينئـذ فمهما تعمقنـا فى بحث ومعرفة جمال وغرابة وقوة قوانين الطبيعة فانا سنؤمن أعمـق بقوة هذا الذى يضبط تلك القوانين وان كل ما نجم عنها انما يمسكه بقبضـة يده وعندما ننظـر إلى المعجز على هذا الضوء فلن يكون أعظم من الطبيعى ولن نجدها نظرية مستحيلة إن ذاك الذى أرسل ابنه إلى الأرض ليموت عنا قد وضع السلطان والقوة بين يديه .

وهكذا نحن أيضا مثل بطرس ان ثبتنا عيوننا على يسوع فاننا نمشـى منتصرين على أمواج عدم الايمان المتلاطمة ودون خوف بين أنواء الشكوك المتعـالية . ولكن ان حولنا نظرنا عمن به قد آمنا ـ كما هو سهل جدا أن نفعل وكما نجرب دائـما أن نفعل ـ فانا ننظر إلى قوة وغضب هذه العناصر المخـربة بدلا عن ذاك الذى يقـدر أن يساعد ويخلص وحينئذ نحن أيضا سنغرق بالتأكيد . آه لو كنا نشعر دائـما أبدا أن مياه الطوفان تهددنا بالغرق وأن العمق فاغر فاه ليبتلع كنسيتنا وإيماننا لـكنا نسـأل الله دائما أبدا أن يسمعنا وسط عواصف الظلام وضجيج الحروب والمخاطر هاتين الآيتين الأكثر حلاوة بين كلمات المخلص .

[لا تخف آمن فقط] .

[تشجعوا . أنا هو . لا تخافوا] .



خرائب تل حوم

الفصل الثلاثون

حديث كفرناحوم

(اعملوا لا للطعـام البائد بل للطعام
الباقي للحياة الأبدية) . يو ٦:٢٧

انبثق فجر هذا اليوم عن احدى الحوادث المحـزنة فى حياة السيد . كان يوم مجمع كفر ناحوم الذى اعتزم فيه بيقين أن يبدد غيوم أفـراح الشهرة الشعبية غير المرغوب فيها والتى تجمعت حول شخصه وعمله بعد أعجوبة أرغفـة

الخبز وهذا الحادث كان امتحانا ليس فقط لبعض الملتفين حوله بل حتى بعض تلاميذه الأقربين، امتحانا لمحبتهم له، خابوا فيه تماما. وهذا الحديث فى المجمع سبب أزمة هامة شديدة فى حياته. تبعها اظهار لكراهية سحيقة كانت كنذير لتلك العاصفة من البغض التى بدأت من الآن فصاعدا تنصب على هامته.

سبق فرأينا أن بعض الجموع ملأهم استغراب غير جلى ومحبة للاستطلاع لا تطفأ نارها فتلكأوا فى السهل الصغير المجاور لبيت صيدا جوليأس ليتتبعوا حركات يسوع ويشاركوا فى النعم التى يمنحها والملك الذى ارتقبوا أن يكون قريب الظهور. رأوه وهو يصرف تلاميذه وربما لحوه وهو يصعد التل وحده وقد لاحظوا أن الريح كانت مضادة وانه لا مركب خلاف التى للرسل قد أقلعت من الشاطيء ولذلك تأكدوا أنهم سيجدونه فى أى مكان بين التلال فوق السهل. ولكن عندما أشرق الفجر لم يقفوا له على أثر لا فى التل ولا فى السهل. وفي الوقت ذاته وجدوا سفنا - ربما قد ساقتها ذات الريح التى عطلت مسير الرسل إلى الجهة المقابلة (١) - جاءت من طبرية. فأخذوها وعبروا فيها إلى كفر ناحوم وهناك فى الصباح الباكر بعد كل المتاعب والاضطرابات التى ذخر بها الأمس، بعد نهار أخباره محزنة وكده متواصل، بعد ليل عواصف وصلاة مستمرة، وجدوه جالسا هادئا يعلم بسكون (٢).

فدهشوا وسألوه [يا معلم متي جئت هنا] ولكنه قابل هذا السؤال بالصمت التام. كانت أعجوبة المشي على البحر للضرورة والرحمة ولم تكن لتعنيهم من أى وجه ولم تكن مقصودة لهم بأى حال. والأهم والأكثر أن يسوع لم يرد أن يكون ارتباط

---

١ - راجع بلنت.

٢ - ان كان ترتيبنا للحوادث صحيحا فهذا التعليم أيضا قد سبقته أعمال شفاء (راجع مت ١٤ - ٣٤ - ٣١) ولكن الغالب أن المقصود هنا إلى فترة من الزمن لا إلى يوم معين وهذا يظهر من المقارنة مع مر ٦ : ٥٣ - ٥٦.

قلوبهم به أو اقناع عقولهم عنه عن طريق النظر إليه كصانع عجائب . وإذ قرأ قلوبهم وعلم أنهم يطلبونه بالروح التى يكرهها تماما فقد رفع بهدوء ستار الرياء الذى ربما لا يشعرون بوجوده فيهم والذى يخفى خبيثة نفوسهم حتى عن أنفسهم . ووبخهم لأنهم يطلبونه فقط لما عسى أن يحصلوا عليه منه قائلا [انكم لا تطلبونني لأنكم رأيتم الآيات بل لأنكم أكلتم من الخبز وشبعتم] . وذاك الذى لم يرفض قط صراخ البائسين أو اجابة سؤال المخلصين - ذاك الذى لم يقصف قصبة مرضوضة أو يطفئ فتيلة مدخنة - رفض فى الحال الخدمة الخسيسة التى تنفضح أنانية وحب استطلاع دنىء . ولكن رحمة بهم نطق بالتعليم الخالد [اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي للحياة الأبدية الذى يعطيكم ابن الانسان لأن هذا قد ختمه الله الآب] .

وظاهر أنهم فى الأول تأثروا وخجلوا . لقد قرأ دخيلة قلوبهم على حقيقتها فسألوه [ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله ؟] .

[هذا هو عمل الله أن تؤمنوا به] .

[أية آية تصنعها أنت لنرى ونؤمن بك] ، آباؤهم قد أكلوا المن فى البرية الذى قال عنه داود [مز ٧٨ : ٢٤] انه خبز من السماء . وما قصدوا إليه من هذا القول ظاهر . لقد أعطاهم موسى المن من السماء ليأكلوا أما يسوع للآن فلم يعطهم سوى أرغفة شعير من الأرض . إن كان هو المسيا حقيقة فحسب كل تقاليد أمتهم يجب أن يغنيهم ويتوجهم ويطعمهم رمانا من جنة عـــدن ويسقيهم خمرا من نبيذ أحمر ويولم لهم لحم بهيموث ولوثيان والطير الكبير « بارجوشن »(١) . أما كان ذات المزمور الذى اقتبسوا منه يعلمهم بالأولى أنه أقل من العدم لو أن يسوع أطعمهم المن الذى فى حرفيتهم الغليظة

---

١ - عن الأحلام الحاخامية التى تتعلق بهذا راجع بكسترف . وبارطولوتش ولاتيفوت . وكانوا يعتقدون أن المن يتحول حسب ما يشاء كل واحد ويزيد شهية الأكل " ويتضمن كل لذة ويلائم كل ذوق " سفر الحكمة ١٦ : ٢٠ - ٢١ .

قد ظنوا أنه طعام الملائكة حقيقة ؟ أما علمهم داود صراحة فى نفس المزمور أن منحهم مثل هذه العطية انما جعلهم يسألون بجشع ما هو أزيد . وإن كان الله قد أعطاهم أزيد فما ذلك سوى [لأنهم لم يؤمنوا بالله ولم يتكلوا على خلاصه] ولكن وشهوة [طعامهم بعد فى أفواههم . فصعد عليهم غضب الله وقتل من أسمنهم . وصرع مختارى اسرائيل] . أما أوضح داود أنه رغما عن هذه العطية الفاضبة - بل وما قبل ذلك وما بعد ذلك - التى أشبعت إلى الملء شهوة قلوبهم لم يؤمنوا بالله ويخضعوا له بل أخطأوا إليه وأغاظوه أكثر كثيرا . أما برهن بجلاء ماضى تاريخ أمتهم ان الايمان يجب أن يرتكز على أساس أثبت وأعمق من القوات والعجائب وأن الشك وعدم الايمان يجب أن يحطما وتبددهما عواطف أنبل من مجرد الدهش لآيات اليد الممدودة والذراع القوية ؟

ولكن يسوع قادهم للحال إلى مراق أعلى من البراهين التاريخية . أخبرهم أنه ليس موسى هو الذى أعطاهم المن بل الله . وأن المن انما سمى خبزا من السماء تشبيها شعريا . ولكن أباه المعطى الحقيق يعطيهم الخبز الحقيق من السماء - بل [خبز الله هو الذى ينزل من السماء ويهب الحياة للعالم] (١) .

كانت عقولهم متعلقة بالأشياء الأرضية وآمالهم معقودة بالمصالح الزمنية فطلبوا الخبز الذى من السماء بنفس الروح التى طلبت بها المرأة السامرية الماء الطبيعى الذى يطفىء العطش الجسدى [وقالوا له يا رب اعطنا هذا الخبز في كل حين] .

[قال لهم يسوع أنا هو خبز الحياة من يقبل إلى فلن يجوع ومن يؤمن بى فلن يعطش إلى الأبد] وابتدأ يوضح لهم أنه أتى ليعمل مشيئة أبيه ، ومشيئته أن كل من يؤمن بابنه تكون له حياة أبدية .

وحينئذ انفجرت همسات الحنق القديمة ثانية ، لكن هذه المرة ليست من الجوع

---

١ - يو ٦ : ٤١ و ٥٢ .

الغليظة العقول بل من مقاوميه رؤساء اليهود [فكيف يقول هذا انى نزلت من السماء] كيف يقول انه [هو الخبز النازل من السماء] أليس هو يسوع بن يوسف نجار الناصرة ؟

ويسوع لم يقابل تذمرات الجموع ولا تعييراتهم عن المظنون أنهما والداه ولا عن مكان ولادته باظهار السر العلوى لأصله الجسدى أو بتمسكه بمعادلته لله . لم يكن على عجل فى طلب الاعتراف بألوهيته أو فى فرض العبادة الواجبة له بل جعل بهاء لاهوته يتبدى للناس فى أقواله وأعماله بلطف رويدا رويدا كضوء الفجر ولا يتألق لأول وهلة بقوة ضياء الظهيرة فهو حقا [قد أخلى نفسه من المجد] بكل معنى الكلمة .

ولكنه قابل تذمرهم كما كان يفعل دائما باعلان أوضح وأقوى عن الحق الذى رفضوه . كان هذا نفس السبيل الذى سلكه مع نيقوديموس وهكذا علم المرأة السامرية وهكذا جاوب أساطين الهيكل عندما وبخوا كسره لقواعدهم عن السبت . ولكن الربى الجبان والمرأة الخاطئة كانا أمينين ومخلصين فنظرا بتعمق أزيد إلى كلماته وطلبا باتضاع فهم معناها ليهتديا إلى الحق . لم يكن الأمر هكذا مع هؤلاء السامعين لقد قربهم الله للمسيح ولكنهم رفضوا هذا التقريب المنعم به والذى بدونه لا يستطيع أحد أن يأتى إليه . عندما ذكرهم يسوع أن المن لم يمنح الحياة الدائمة لأن آباءهم أكلوا منه وماتوا وانه هو خبز الحياة الذى يأكل منه يحيا إلى الأبد وعندما كلمهم بلغة أكثر غرابة أن هذا الخبز هو جسده الذى سيبذله عن حياة العالم فبدلا من أن يطلبوا المعنى الحقيقى لهذا الاعلان العميق جعلوه موضع نقد كلامى حرفى وخاصموا (١)

---

١ ـ يو ٦ : ٥٢ معناها " تقاتلوا " . تمسك اليهود بالحرفية مدهش إذ الأقوال الحاخامية ذاخرة بالتشابيه (لاتيفوت) قارن (مز ١٩ : ١٠ و ١١٩ : ٣ و اش ٣ : ١ و ام ٩ : ٥ و حز ٢ : ٨ و ٩) جاء فى قول الحاخاميين " كل أكل أو شرب فى الكتب الالهية يجب أن يفهم على قانون أعمال الرحمة " " سيأكل اسرائيل سنى المسيا " " العادل يأكل من الشيشناه " .

بعضهم بعضا قائلين [كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكله] .

كانت عقولهم جسدانية وإن كان العقل جسدانيا فهناك الموت . لم يطلبوا الحق فكان يبعد عنهم أزيد فأزيد . كان عندهم قليل أو معدوم فأخذ منهم . بلغة أكثر تأكيدا وكناية أشد بعثا على الدهشة قال لهم يسوع [إن لم تأكلوا جسد ابن الانسان وتشربوا دمه فليست لكم حياة فى أنفسكم](١) ولزيادة التأكيد والتوسع فى ذات الحقائق قال [من يأكل جسدى ويشرب دمى فله حياة أبدية] .

لا شك أن هذا الكلام صعب . بل جارح لأولئك الذين أتوا إليه بروح قاس كاذب . وبلا شك أيضا أن آلام وموت المسيح مخلصنا وسر التناول المقدس الذى فيه نأكل ونشرب جسده ودمه قد ساعدانا على فهم معنى كلامه بوضوح ومع ذلك فقد كان في ذات الكلام الذى استعمله الكفاية وفوق الكفاية ليوضح لكل سامع منتبه الحق الأسمى المعروف لديهم من نفس ناموسهم وهو [ليس بالخبز وحده يحيا الانسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله] والحق الأسمى الثانى ان الحياة الأبدية حياة الروح انما هى فى الاتصال الوثيق العميق مع حياة وتعليم ذلك المتكلم . ثم يجب أن نذكر أنه وإن كان العشاء الربانى قد أنار لنا معنى هذا الحديث فان الكنايات التى استعملها المسيح ليس لها ولا جزء فى المائة من الغرابة لدى اليهودى المتعلم مما لدينا . فالأدب اليهودى ذاخر باستعمال كلمة « الأكل » لقبول الحقائق واستمرائها « والخبز » للتعاليم الروحية . بل ان منحى التفكير العبراني قد أعطاهم المفتاح لتفسير كلامه على الوجه الصحيح . وبالتأكيد أن كثيرين ممن سمعوا يسوع تذكروا مثل هذه

---

١ ـ غير محقق ان كان يسوع بتسميته ذاته (ابن الانسان) قد عنى (ابن آدم) ـ (ايوب ٢٥ : ٦ و مز ٨ : ٤) أى ممثل البشرية أو (ابن الانسان) (دانيال ٧ : ١٣) وكلمة انسان هنا فى العبرانية تمثل الرجل فى ضعف طبيعته وربما قد حملت إلى آذان سامعيه فكرة عن المسيا كممثل للبشرية فى ضعفها وفى مجدها كذلك .

التعبيرات الواردة فى أنبيائهم . وإذ كان الحديث بادى الوضوح - إذ أن يسوع قد أبعد كل تحايل يهودي - فان عدم قدرتهم على فهمه نجم ليس عن عدم استطاعتهم لفهمه بل عن عدم إرادتهم لفهمه . قال أوغسطينوس « هذا الكلام صعب ولكن لقساة القلوب ، وغير مفهوم ولكن لغير المؤمنين » . لأنه كما ان « الخبز » أصل لقوام الجسد فكذلك « الخبز السموي » قوام الروح وسبيل وطعام الحياة الأبدية . فما أراد أن يعلمهم اياه هو ان الحياة الأبدية هى فى ابن الله . والذين يريدون حياة الأبد يجب أن يأكلوا من الخبز النازل من السماء ، أو بتعبير أعمق يجب أن يأكلوا جسد ابن الانسان (١) ويشربوا دمه . كان لهم أن يقبلوا أو يرفضوا هذا الحق الذى أعلنه وليست لهم حجة فى ادعائهم عدم فهم ما يعنيه .

توجد اعلانات لا يقصد منها التعليم فقط بل أيضا التمحيص . والغرض منها ليس فقط الأخبار بل أيضا الاختبار . وكان ذلك أيضا مقصد هذا الحديث الخالد إذ استدعى فهمه ليس فقط اعمال الفكر بل اخضاع الارادة . فكان من شأنه وضع حد للآمال الأنانية التى لتلك « الفئة الفضولية التى تدين بملك المسيا على الأرض » والتى كان حماسها الوضيع المقلوب ستارا لتغلغل حب العالم والمادة في القلوب . وقصد منه أيضا أن يضع أمام رؤساء اليهود كلمات نظرا لامتلائهم بالكره لن يستسيغوها ، ولكن لها قوة كبيرة على الاختبار والغربلة . بل ان كثيرين من تلاميذه لما سمعوها استصعبوها ولم يطيقوها . لم يعلنوا ذلك ولكن يسوع عرف عدم ارتياحهم لها . وعندما ترك الجمع خاطبهم على انفراد بأكثر رقة وأقل كناية مما سلف كما جاء فى الجزء الثالث والأخير من هذا الحديث الشهير . فلهم تنبأ عن صعوده المقبل (٢) الذى سيبرهن لهم حقا انه

---

١ - قال أوغسطينوس (آمن وحينئذ تكون قد أكلت) . المعرب : واضح جدا ان المسيح هنا كان يتحدث بلا شك عن سر التناول الذى كان مزمعا أن يؤسسه وما يقال خلاف ذلك باطل .

٢ - الأعداد ٢٦ - ٤٠ قيلت للجموع ٤٣ - ٥٨ لرؤساء اليهود ٦١ - ٦٥ للتلاميذ .

نزل من السماء . وبفيض العطف على ضعفائهم أعلن لهم ما تنطوى عليه التعبيرات الصعبة والتى أخفى وراءها كلماته عن معارضيه الذين طمست عيونهم الأنانية المرة والحقد المقيم. وفى جملة واحدة تعتبر المفتاح لحل الصعوبات ، جملة واحدة تلغى كل الالتباسات المتراكمة التى يؤول إليها كثير من تعبيرات السيد قال لهم [الروح هو الذى يحيي أما الجسد فلا يفيد شيئا والكلام الذى قلته أنا (١) لكم هو روح وحياة] وأخبرهم أن سبب صعوبة هذا الكلام هو لأن قوما منهم لا يؤمنون . وأيضا كما أخبر اليهود من قبل ، لأن روح الايمان عطية ونعمة من الله . وهذه النعمة يرفضها هؤلاء المتذمرون بل يحاربونها إلى الآن (٢) .

من ذلك الوقت تركه كثيرون ، كثيرون من الذين كانوا يطلبونه ، كثيرون ممن لم يكونوا بعيدين عن ملكوت السموات . ومن ذلك الوقت ستكون حياته وحيدة حتى وهو فى وسط الجموع لأن قليلين هم من يعرفونه ويحبونه . فبحزن قلب عميق وجه هذا السؤال المؤثر للرسل [أتريدون أنتم أيضا أن تمضوا] ؟ كان سمعان بطرس الحار القلب والسريع فى الكلام قد فهم ذلك الحديث الذى عثر فيه كثيرون . فأجاب عن الجميع قائلا [يا رب إلى من نذهب فان كلام الحياة الأبدية عندك ونحن قد علمنا وآمنا انك أنت هو المسيح قدوس الله] (٣) .

كان جوابا نبيلا ولكن في تلك اللحظة المريرة كان قلب يسوع مثقلا جدا ولهذا لم يقل لهم سوى [أنا اخترتكم أيها الاثنى عشر وواحد

---

١ - (الذى أقوله) وردت فى بعض النسخ .

٢ - يظهر أن هناك اشارة خاصة هنا ليهوذا الاسخريوطى عدد ٦٦ كما يظهر أن التبديد الواضح لكل الآمال السماوية الأرضية الذى قصد يسوع أن يظهره كان مبدأ التغيير والرفض الذى انتهى بالخيانة الفاضحة .

٣ - هذه هى القراءة فى النسخ (8 ب و ج و 8 ول الخ) وهى غير اعترافه (أنت هو المسيح ابن الله الحى) الذى قاله بعد بضع شهور .

منكم هو إبليس] (١) .

كان هذا التعبير قويا جدا وعدم وجود مثيل له يجعل من الصعب لدينا فهم حقيقة معناه ومع انه قد عرف بعد ذلك أن هذا التوبيخ كان موجها ليهوذا فمن المختلف عليه ان كان أحد فى ذلك الحين قد عرف ذلك إلا الخائن وحده .

وتركه عديد من التلاميذ الكذبة أو النصف مؤمنين .

ألا يمكن أن تكون هذه الكلمات قد قيلت رأفة منه ورحمة لتهىء فرصة لنفس الأسخريوطى القاسية الدنسة ليتركه هو أيضا قبل أن يتردى - دون رجعة - فى جريمته ؟ ان كان هذا كذلك فقد رفض حتى هذا التحذير أيضا وبخطية قاتلة ضد ضميره بقى ليذخر لنفسه غضبا فى يوم الغضب واستعلان دينونة الله العادلة .

---

١ - هذه الكلمة ابليس " ذيابولوس " غير الكلمة شيطان كما ترد مثلا (به شيطان) وقد فسر يوثاميوس ابليس هنا بمعنى " خادم الشيطان " أو متآمر " والمعنى الأخير هو الأقرب . بل كلمة " متآمر " هى التى وردت بمعنى الشيطان فى املو ٥ : ٤ و اصم ٣٩ : ٤ . لقد سبق فنوهت كيف أن اليهود - وكل الشرقيين حتى يومنا هذا - يستخفون استعمال كلمة شيطان . لدرجة أن أصبحت استعمالا لغويا ولو أن السيد كان يتكلم بالآرامية واستعمل لفظة " شاطانا " لكان وقعها أقل من العشر عندهم عما هى لدينا فأولاد صروية قال عنهم داود " مقاومين " شياطين فى ٢ صمو ١٩ : ٢٢ وقال سليمان عن هود " خصما " شيطانا فى ١ ملو ١١ : ٢٣ . وفى مت ١٦ : ٢٣ ذكرت الكلمة عن بطرس نفسه . وجاء فى ابن سيراخ ٢١ : ٣٠ (إذ لعن المنافق الشيطان = أى لعن " عدوا " = فقد لعن نفسه) . وهذا مهم من نواح عدة . كما نلاحظ أن كلمة شيطان بمعنى " مشتكى " قد وردت كثيرا فى العهد الجديد .



دعـوة التـلاميذ

هذه الصورة عن ملف من القرن التاسع عملها القديس غريغوريوس النازيانزي في الجـزء الأيمن على الشاطئ، يبارك بطرس في مقدمة السفينة بينما أندراوس أخوه عند المؤخـرة ماسك الشبكة والسيد ماسك بيمينه درجا رمزا على أنه الـكلمة وكالعادة لابس أرجوانا . ولباس بطرس أحمر فاتح وأندراوس أخضر فاتح . ويعقوب بملابس وردية مزركشة بالأخضر ويوحنا بملابس صفراء . وفي الوسط يسوع ومعه ثلاثة من التلاميذ يأمر زكا بالنزول من على الشجـرة وإلى اليمين متى جالسا أمام حائط مستدير وواضعا يديه على كومة من النقود ويلتفت بانتباه إلى يسوع الواقف خلفـه يناديه .



خرنوب الخنازير — ثمار شجر الخروب
من عينة بالمتحف البريطاني

الفصل الحادي والثلاثون

تجمع المقاومة

فقاقيع شفوية فارغة خلدتها
طقوس ظاهرية . جوستينان

مع أن الحديث الذى ذكر آنفا كان واحدا من الحدود الفاصلة في تاريخ كرازة السيد، ومع انه من ذلك الوقت قد تجهمت الغيوم أزيد فأزيد

فى طريقه إلا أنه لا يجب أن يظن أن هذه كانت المرة الأولى حتى فى الجليل التى فيها حاربوا شخصه وتعاليمه علانية .

١ ـ ابتدأ الشك وظهرت بوادر عـــدم الرضى عندما استعمل فى ظروف متعددة التعبير [مغفورة لك خطاياك]. قاله عندما خاطب المرأة التى كانت خاطئة والرجل الذى به شلل . وفى كلتا المرتين أثار الدهشة وعدم الرضى . أما فى بيت سمعان حيث لم تتخذ المقاومة الشكل العلنى وحيث لم يعمل يسوع معجزة فقد أبدل هذا التعبير بلطف بتعبير آخر (١) . لم يكن الأمر هكذا عند شفاء المفلوج فقد ارتفعت احتجاجات علنية من الكتبة والفريسيين فأعلن يسوع بوضوح أزيد عن عظمته ودلل بقدرته على صنع العجائب على حقه لغفران الخطايا (٢) ، ولم يكن لبرهانه هذا رد منهم لأن الاعتقاد الشائع كان يرجع أصل كل مرض إلى الخطية وكان الحاخاميون أيضا يرون أنه « لا شفاء لرجل من مرضه ما لم تغفر له كل خطاياه » (٣) . لذلك كان متمشيا مع أفكارهم ان ذاك الذى يقدر بسلطانه أن يشفي المرضى يقدر بسلطانه أيضا أن يغفر الخطايا . لكنهم لم يفهموا كيف يمكن أن شفاء أو غفرانا يأتى عن هذه الطرق غير المألوفة وبغير عديد الذبائح وبغير ممارسة الطقوس . ولكن مهما ظهرت هذه الطرق غير مرضية لعقولهم المرتبة على سنن درجوا عليها فالحقيقة الواقعة أن الشفاء كان يحدث فعلا ويشهد به مئات من الأحياء . لذلك شعروا أن هذا مجال للمعاداة غير مجد، فبمهارة أهملوا هذا الميدان إذ لو تشددوا ان هنا « تجاديف » فى كلامه لأذاعوا بأيقان أن هنا « معجزات » فى أفعاله .

٢ ـ ويظهر أيضا أنهم لم يتمسكوا بتهمة ـ أبقاها لنا اقتباس السيد لها ـ وهى انه

---

١ ـ لو ٧ : ٤٨ ـ ٥٠ .

٢ ـ مت ٩ : ٦ و مر ٢ : ١٠ و لو ٥ : ٢٤ .

٣ ـ نيداريم جزء ٤١ و راجع شوتج وكيم .

[أكول وشريب خمر] (١) فهذه التهمة كانت واضحة الكذب ، بادية الخبث ، ظاهرة التحامل ، ضد من لم يعش فى تصوف صارم مثل يوحنا ولكنه عاش تأكيدا فى أشد البساطة . حقا انه كان يقبل الدعوة إلى الولائم ـ وهذا كان يفعله أشد الفريسيين وسوسة وحذلقة ـ وهناك كانت توجد دائما فرص جديدة كى يعلم ويعمل خيرا . وهذه الفرية قوضها يسوع إلى الأساس عندما أظهر ان رجال هذا الجيل ماثلوا الأطفال المدللين فى السوق ، لا يسرهم أمر ولا يرضيهم شيء . يتهمون يسوع بالنهم لأنه لم يرفض الدعوة إلى وليمة بريئة ثم يتهمون يوحنا بأن به شيطانا لأنه رفض مفاسد الجماعات .

٣ ـ ولم يفلحوا أيضا فى توجيه تهمة عدم الصوم (٢) ضده . لأنهم عندما قدموها كانوا يتوقعون مساعدة قيمة ومناصرة قوية من تلاميذ يوحنا . ولكن هؤلاء اذ تيقنوا من كلمات نبيهم ان شكايتهم هذه كانت دون تعقل أو جدوى لم يجد الفريسيون نفعا من التمسك بتهمة اهمال عمل لم يحتمه ناموس موسى (٣) ولم يشجعه بعض من أنبل وأحكم معلميهم (٤) . فعدم جعل يسوع تلاميذه يصومون لن يفقده العطف العام ولن يقيم ضده الحجة حتى أمام المجمع أو أمام السنهدرين .

٤ ـ مخالفة صارخة ثابتة أثارت مقاومة قاتلة اجترمها في نظرهم يسوع باختياره

---

١ ـ مت ١١ : ١٩ .

٢ ـ مت ١١ : ١٦ و ١٧ .

٣ ـ عدا يوم عيد الكفارة العظيم . ويفهم من اجابة المسيح لتلاميذ يوحنا أن الأصوام الأربعة السنوية والتى اعتادوها من زمن النبي زكريا (زك ٨ : ١٩) قد أصبحت أصواما معتبرة راجع عن صوم اليومين وباقى الأصوام الفريسية فى بكستورف . ومن المدهش أن أقدم الكتابات الحاخامية (مجلات طانيث) التى كتبت قبل خراب الهيكل لم تذكر سوى الأيام التى يحتم فيها الصوم وقد وجد فى ختامها جدول بأيام الصوم ولكن هذا الجدول دخيل (راجع ديرنبورج)

٤ ـ مثل سمعان العادل الذى جعل أصول العالم " الناموس ، الصلاة ، الاحسان " .

متى كرسول ، وعـــدم امتناعه عن مصاحبة العشارين والخطاة (١) .
كانت الفوارق الدينية عند يهود ذلك الزمن لها حوائل منيعة أشد من فوارق الطبقات الاجتماعية . وليس غير هلليل هو القائل « لا يمكن لرجل جاهل أن يخلص نفسه » أو « لرجل من الشعب أن يكون تقيا » (٢) . كان اليهودى المترفع يرى عامة الشعب الذين لا يعرفون الناموس انهم ملعونون . وكان كل يهودى يعتبر نفسه انه وارث لعائلة الملوك وواحد من النسل الممتاز ، فينظر إلى الأممى والوثنى باحتقار ملكي ويترفع أسس على عادات لازمته آلاف السنين . لذلك كانت شيعة البر الذاتى تنظر إلى غير المبالين أو الخاطئين من الشعب نظرة أحسن قليلا - أو غير حسنة مطلقا - من نظرتهم إلى الوثنيين (٣) . وهوذا هنا من يخالطهم بحرية وعدم كلفة ، ويختلط بدون ذرة من البغضة أو العجرفة بالعشارين المكروهين أو الخطاة الظاهرين . بل وأكثر من هذا أنه سمح لنساء أخرج منهن سبعة شياطين أن يتبعنه في رحلاته ، وللزانيات أن يغسلن

---

١ - مت ٩ : ١١ و مت ١١ : ١٩ و لو ٥ : ٣٠ و ٧ : ٣٤ و ١٩ : ٧ .

٢ - بيركا ابهوث والكلمة " رجل جهول " أصلها الحرفى معناه " اناء فارغ " ورجل الشعب أصلها " رجل الأرض " . والأخير تعبير شائع فى كتابات الحاخاميين ويدل على تعصب وظلم الطبقة المتعلمة (يو ٧ : ٤٩) . فى جزء هوراجوث من المشنة يفضل الكاهن عن اللاوى وهذا عن الاسرائيلى وهذا عن النغل وهذا عن الحتحاب (يشوع ٩ : ٢٧) وهذا عن الغريب وهذا عن المعتوق . ولكن ان كان النغل تلميذا لحاخام ورئيس الكهنة رجل أرض فالأول له الأفضلية ! وكانوا يفاخرون بكرامة حاخام التلمود . وتعريف رجل الأرض هوحسب سواتا من لا يعيد الكريشما يوميا ومن لا يلبس التفلين ومن لا يخدم العلماء . كان من أجل مقاصد يسوع أن يضع أمثالا بدل الأمثال التى تظهر تغلغل روح الفريسية وتفاوت الطبقات . (اع ١٠ : ٣٤) ولكن لا يوجد نوع من ترفع الطبقات مكروه مثل ادعاء العلم الكاذب .

٣ - عندما قال السيد (فليكن عندك كوثنى وعشار) مت ١٨ : ١٧ انما ذكر قولا دارجا . ترفع اليهود القاسى الشنيع يظهر جليا فى كتب الشباث والبابهاكاما الخ (جروفروجاهر وهيل).

بدموعهن قدميه! أى اختلاف هذا عن الفريسيين الذين كانوا يعتقدون أن من يلمس أحد الطالحين فهو نجس، والذين وضعوا قاعدة صارمة تحرم استضافة من يظن أنه خاطىء (١).

فى أول الكرازة تهكم عليهم يسوع بحنو الهي شفوق وقابل هذه التهمة باحالتهم على الاقتباس المحبب لديه من كتبهم، ذلك القول العميق للنبي هوشع [اذهبوا وتعلموا] ما معنى [انى أريد رحمة لا ذبيحة]. كذلك سبق ووبخ قسوتهم واعتدادهم ببرهم الذاتى بقوله المثلى [لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى]. ولكن هذه التهمة لم تقف عند حد، وهذا الاعتراض لم يسقط. ففى أواخر أيامه وهو صاعد إلى أوروشليم لم يهدأ أعداؤه الثابتون بل رفعوا تهمتهم الغاضبة المحقرة متذمرين [ان هذا يقبل الخطاة ويأكل معهم] (٢). وحينئذ أجابهم يسوع مبررا سلوكه وأظهر بوضوح أكمل وحب أتم مما فعل من قبل مبينا قصد محبة الله للخطاة التائبين بهذه الامثلة الثلاث الخالدة البديعة: مثل الخروف الضال، ومثل الدرهم المفقود، وفوق الكل مثل الابن الضال. هذه الأمثلة المستقاة من المشاهدات البسيطة للحياة اليومية تمثل وستظل إلى الأبد تمثل - ولا سيما الأخير - فى حنو متزايد فائق أعمق أسرار عطف الله وفرح السماء

---

١ - فى الباب ٤٣ من البراكوت أحد الأمور الستة المحرمة على تلاميذ الحكماء " أن يجلسوا على مائدة واحدة مع الجهلة ". توجد أمثلة تظهر هذا الاعتراف النفسانى الفاضح عن " رجل الأرض " ذكرها جرونر.

٢ - كلمة (متذمر) فى لو ١٥ : ٢ معناها الأصلى " ظلوا بغضب يتحادثون بعضهم مع بعض. يظهر الفرق جليا بين سلوكه هذا وبين سلوك الفريسيين عندما نذكر الاحتياطات غير العادية والتى تقرب من المضحكة التى يتخذونها للوصول إلى النتيجة المستحيلة وهى البعد عن كل النجاسات الطقسية فى الولائم العامة. وهذا الشعور المتأصل راسخ لدرجة أننا نرى عداوة حتى لبعض التلاميذ والرسل لسنين طويلة بعد قيامة السيد إذ خاصموا بطرس قائلين (انك دخلت إلى رجال ذوي غلفة وأكلت معهم) اع ١١ : ٣. وهو صدى نظام الطبقات الذي ذكرناه آنفا (قارن علا ٢ : ١٢).

ويخاطىء واحد يتوب (١) .فأين فى كافة الكتابات أو الأدبيات البشرية ، مقدسةأو غير مقدسة ، ماهو محكم وواضح ومليء بالشفقةاللانهائية ، ما هو صادق وأمين في الصورة التى يرسمها لنتائج الخطية ، وفى الوقت ذاته كامل الرحمة فى الرجاء الموضوع للرجوع والتوبة مثل هذه القصة الصغيرة ، كيف تلخص تعزيات الدين وأثقال الحياة ، وتتضمن فى كلمات قليلة مختصرة مدلولات الخطية والعقاب والتوبة والمغفرة وتفصل الاختلافات المتأصلة فى الخلق والبواعث المتباينة التى تفرق بين شتى طبقات الناس ، والاستقلال المفاجيء لأرادة ذاتية عنيدة ، وتفضيل الملذات الحاضرة عن كل الآمال المستقبلة ، والتنائى بعيدا عن كورة الطهارة والسلام التى هى موطننا الحقيق لكى نترك العنان المطلق للشهوات الدنيا ، والتمتع المشوش الذى ينثر هباء أنبل مواهب الحياة ، وقصر النوبات الجنونية للملذات المحرمة ، والجـــوع القارص والعطش اللاذع والعبودية المريرة والانحطاط الشنيع والخوف القاسى الذى لا بد أن يكون النهاية المحتومة . فأين رسمت بمثل هذه الصورة هذه الاختبارات التى تتكرر ملايين المرات عن الخطية ونتيجتها ؟ لقد صورت فى بضع سطور قليلة من أرحم وأصدق يد فى مثل ذلك الابن الطائش . فهو يطلب ما يخصه قبل الأوان من ميراث أبيه ، ويسافر إلى كورة بعيدة ، ويبدد ماله عائشا فى خلاعة ، ويحتاج فى مجاعة عظيمة ، ويضطر للخضوع لتلك المهنة القذرة الصيت فيرعى الخنازير ويشتهى أن يملأ بطنه من الخرنوب لكن لم يكن أحد يعطيه (٢) . وماذا بعد ذلك .... العودة إلى رشده ، وتذكر أجراء أبيه

---

١ ـ فى مثل الخروف الضال نجد الخاطىء المفتون الثقيل الفهم ، وفى مثل الدرهم نجد الخاطىء الموسوم بعلامة الله ولكنه مرمى مفقود عديم النفع جاهل قيمته ، وفى مثل الابن الضال نجد الخاطىء العالم بخطيئته الفاعل لها بأرادته .

٢ ـ هذا الأمر عند اليهود فى منتهى الخسة مما هو عندنا لدرجة أنهم إذا تحدثوا عنه كنوا قائلين " الشيء الآخر " والخرنوب هو لأثمار المستطيلة لشجر الخروب (سراتونيا سيليكا) . وعندما كنت فى فلسطين ذقتها فاذا هى قابضة مع حلاوة ذات الياف خشنة ولا تصلح أبدا

الذين يفضل عنهم الخبز ، والرجوع إلى موطنه ، والاعتراف المؤلم ، والتوسل المتواضع غير المباشر الكسير القلب ، والنهاية التى لا يمكن أن تبارى والتى هى كصوت حلو من السماء قد أثر على ملايين القلوب وقادها إلى التوبة والدموع :

[فقام وجاء إلى أبيه وإذ كان لا زال بعيدا رآه أبوه فتحنن وأسرع ووقع على عنقه وقبله . فقال له ابنه يا أبت أخطأت إلى السماء وقدامك ولست بمستحق بعد أن أدعى لك ابنا . فقال أبوه لعبيده أسرعوا وأخرجوا الحلة الأولى وألبسوه واعطوه خاتما ليده وحذاء لرجله وقدموا العجل المعلوف فنأكل ونفرح لأن ابني هذا كان ميتا فعاش وكان ضالا فوجدناه] .

وإذ لا يمكن أن وترا يعطى صوتا أعلى أو أحلى أو أحن من هذا - إذ لا توجد بعد هذا تعزية للخاطىء - فقد يظهر لنا أنه كان يجب أن يكون هذا هو الختام السامى للمثل كما تختم الموسيقى بألحان أوتار الملائكة . وبالتأكيد كان المثل سيقف عند هذا الحد لو أن حقد وحنق وخفايا أسرار قلوب الناس كانت خلاف ما هى عليه . لذلك كان للمثل ملحق ينص مباشرة على التنديد بالظرف الذى استدعى قوله . إن التذمرات الغضوبة للفريسيين فى برودة قسوتهم وموات كبريائهم أظهرت مدى جهلهم بأن دمعة واحدة لخاطىء واحد تائب حقا هى فى نظر الله أعظم بما لا يقاس من ألف تقليد طقسى ، قليل الحب ، عديم الثمر ، لألف فريسى . لم يظنوا أو يتخيلوا أبدا أن التوبة تقرب الخاطىء والعشار بل حتى الزانية إلى الله أكثر من ألف مرائى بارد أو منافق تافه لا روح له متظاهر بالاحترام . لذلك أضاف يسوع للمثل كيف أن الابن الأكبر أتى وحزن لصوت الطرب ، وغضب لهذه المغفرة السريعة ، ووبخ قلب أبيه الرؤوف ،

قواما للحياة . ويباع الخرنوب فى باريس عند تجار الفاكهة ويقال انه يستخدم فى التقطير . وقد سميت هذه الشجرة بشجرة الجراد من الفكرة الخاطئة أن ثمرها هو الجراد الذي كان يأكله يوحنا ! مت ٣ : ٤ و لا ١١ : ٢٢ .

وأخرج خطيئات أخيه فى أسوأ مظاهرها بعد أن غفرت له . ولم يرد أن يذكر صلة الأخوة ، بل أظهر ضيق الصدر وخبث القلب غير المتسامح . ولم يميز بين الصلاح الظاهرى وبين الحب المقدس (١) . هذا الحقد الناشىء من اعتبار البر الذاتى ، وهذا الاحترام الممقوت غير الشفوق ، هو شر أخسأ من العصيان الظاهر والمعصية المشتهاة ، بل جرح غوره عميق لا يسبر قراره . ونحن عندما نطالع هذا المثل ونفكر مليا فى كل ما ينطوى عليه لا يسعنا إلا أن نشكر الله من كل القلب لأنه يستطيع أن يخرج الطيبات من أردأ الخبائث ، والعسل من الأسد المائت ، والماء من الصخر الجلمود ، ولأنه استطاع أن يخرج من قساوة نفس كهذه ، المادة اللازمة لأرأف اعلاناته الالهية فى مثل الابن الضال (٢) .

هكذا فسر يسوع علاقته بالعشارين والخطاة وأظهر الاختلاف البعيد بين روحه وبين التظاهر بالدين المتنفخ الذى هو فقط مجرد صورة بائسة فارغة للدين الحقيق .

لقد استعاضت يهودية تلك الأيام عن الصلاح والتقوى بتقاليدهم الفارغة والطقوس التى أفقدوها معناها وشوهوا جمالها . فأخطأت بتمسكها بالترفع العديم

---

١ ـ توجد فى اللغة الأصلية ما لا يمكن أن تظهره الترجمة ، وما يبين العلم العميق لقلب الانسان الغضوب فى شدة الحسد والبغض . فكلمة (ها) التى يبدأ بها الابن الأكبر احتجاجاته وعدم تفرقته بين حرية القيام بالواجب وعبودية الخدمة (كم من سنين وأنا عبد لك) والضمير المنكرر (وجديا لم تعطنى " أنا " لأتنعم " أنا " مع أصدقائى " أنا ") ثم قوله (ابنك هذا) بدل "أخى" ووصفه سيرته بأشنع قول : (الذى أكل معيشتك ـ أو معيشته ـ مع الزناة) وهذه القسوة المشينة الخالية من الرحمة فى التشنيع بخطية تاب عنها هى أحط صورة فى ثنايا هذا القلب الغضوب .

٢ ـ لقد كتبت فقط عن المثل من الوجهة الفردية . لكنه بالتأكيد يحمل من وجوه عدة أشياء كثيرة سيما علاقة اليهود بالأمميين ، وثورة الغضب الحسود التى تشتعل فى العقل اليهودى لمجرد ذكر ان الله يقبل ويغفر ويبارك الأمم ليس أقل من أولاد ابراهيم (اع ١٣ : ٥٠ و ٢٨ : ٢٨) .

الشفقة بدل الطهارة الصادقه ، وسرت أن تمرح بدون حق في محاباة تخيلية عن رحمة الله قصروها على أنفسهم وحرموا منها كافة أولاد الله الآخرين . ووصل هذا الرياء إلى حد أقصى فعموا عن أن يبصروا ما كانوا فيه من رياء ، بل لم يحملوا رياءهم أكثر من قصفهم كل قصبة مرضوضة واطفأئهم كل فتيلة مدخنة . وفي ريائهم شكروا الله لأجل خطايا الآخرين ! وظنوا أنه يسر بعبادة خالية من التواضع أو الصدق أو الاخلاص أو الحب . هؤلاء الفريسيون المساكين الذين خالوا أنفسهم أنهم أغنياء ولا حاجة بهم إلى شيء يجب أن يعلموا انهم فقراء ، أشقياء ، عمى ، عراة . هؤلاء الخراف الذين ظنوا انهم لم يضلوا يجب أن يفهموا أن الخروف الضال المسكين قد يحمل إلى الحظيرة على أكتاف الراعي الصالح بحنان أعظم . هؤلاء الأولاد البكر يجب أن يتعلموا أن روح أبيهم ـ مهما قصروا عن التحقق منها لقساوة قلوبهم المتجمدة ـ هي هذه :— [كان ينبغي أن نسر ونفرح لأن أخاك هذا كان ميتا فعاش وكان ضالا فوجد] (١) .

٥ ـ (١) واضح أنه مع الفرق الشاسع بين روح المسيح وروح الفريسيين إذ كانا على طرفي نقيض لا يلتقيان ، لم يستطع أعداؤه حتى ذلك الوقت أن يوقفوا عمله أو يفسدوا تأثيره . فغفرانه الخطايا ، وفي الوقت ذاته شفاؤه الأمراض التي كانوا يعتقدون أنها جميعها ناجمة عن الخطايا ، واشتراكه في الولائم العامة ، وحبه للعشارين والخطاة ، لا يمكن تحويرها إلى مخالفات للناموس . ولكن هنا تهمة ثقيلة ، جريمة يعاود اقترافها مرارا ، ثم هي مخالفة صريحة لنص ناموس موسى ، وهي عدم حفظ السبت . هذه التهمة هي التي أثارت دهشة وثورة وجنونا وحب انتقام دموي صحبه حتى الصليب . كان السبت ترتيبا موسويا قديما ، وأصبح الأمر الأهم والأشد مراعاة عن

---

١ ـ لم يشجع الآب الحقد الحسود الذي ظهر في شبه تبرؤ من علاقة الأخوة عندما قال (ابنك هذا) لو ١٥ : ٣٠ .

باقي الوصايا التي ينفرد بها اليهود ويعـزلهم عن باقي الأمم كشعب خاص . كان رمز امتيازهم ومحور تقاليدهم الجوفاء فركزوا كل طقوسهم ووطنيتهم وعتوهم في حفظه تمام الحفظ الحرفي إذ كانوا يعتقدون انه قد حفظ في السماء قبل أن يخلق الانسان، وأن بنى اسرائيل انما اختيروا لغرض وحيد وهو حفظ السبت (١) . ثم ألا يحفظ السبت بأعجوبة النهر الذى يسق المدينة المقدسة ؟ ! ولقد ازداد تمسكهم بالسبت لما حاق بهم من الهزء العام والمتعبة بل والخسارة من الأمم الوثنية . بل كانوا يفخرون انهم يحفظونه بحرفية تامة جامدة ولو سمحوا بخسارتهم في المواقع الحربية، ولو مزقهم مبغضوهم إربا إربا، ولو وقعت أوروشليم ذاتها في خطر، حتى السقوط في يد الأعداء. وأدى حفظه على هذا الوجه إلى أن سيجوه بأصغر وأدق وآلم وأسخف المحظورات العديمة الأهمية . لقد أسماه النبي [فرحا] لذلك حتموا حتى على الفقير أن يأكل فيه ثلاث وجبات . وأوجبوا أن يولموا يوم السبت ولكن دون إيقاد نار أو طهى طعام . وحسب مدرسة شماى القاسية الضيقة منعوا في السبت أن يعاد مريض أو يواسى محزون . بل حرموا الدفاع عن النفس وحمايتها يوم السبت ، وعلموا أن قتل البرغوث فيه مثل ذبح الجمل . أما كان الأمر بعدم اتيان أى عمل يوم السبت أمرا نافذا صارما أكيدا ؟ ألم يأمر موسى وكل الجماعة برجم ابن الشولومية حتى مات لأنه جمع حطبا في يوم السبت ؟ ألم يضع المجمع الكبير تشريعا يتضمن تسعة وثلاثين « أبهوث » أى المحظورات التي من الدرجة الأولى، وعددا جما من « تلدوث » أى نواهى الدرجة

---

١ ـ هذه الأمور المغالى فيها موجودة في " كتاب اليوبيل " وهو عبارة عن مجموعة قوانين تعصبية مفترسة يرجع تاريخها للجيل الأول عن الأنهار السبتية (راجع يوسيفوس) . والغالب أن تكون قد نبتت هذه الفكرة الخرافية من طبيعة عيون أوروشليم المتقطعة . وكان الأحق أن يدعى هذا النهر كاسرا للناموس لا حافظا له لأنه كان يفيض في اليوم السابع !

الثانية (١) . وهو ذا هنا من يقول عن نفسه انه نبي بل وأعظم من نبي وهو مع ذلك يتعدى حسب رأيهم تقاليد يوم الأيام ، ويفعل ذلك عن قصد ! ومن يطالع البشائر بانتباه يدهش للمقدار الهائل من العداوة القاتلة الذى أثير ضد السيد،ليس فى أوروشليم فقط بل أيضا فى الجليل والبرية لهذا السبب وحده (٢) .

---

١ ـ فمثلا محرم أن تعبر نهرا على أرجل خشبية إذ بذلك تحمل الأرجل الخشبية . لا تخرج سيدة بأشرطة على ثوبها ما لم تكن مخاطة على ذات الثوب . لا تلبس واحدة من الأسنان الاصطناعية . إذا آلم ضرس رجلا فلا " يمضمض " فه بالخل ثم يلقيه بل يملأ فه بالخل ثم يبتلعه . لا يكتب أحد حرفين هجائيين . لا يستدع المريض طبيبا ، ومن به تصلب فلا يضم ضمادا ولا يدهن موضع الألم . لا يخرج خياط ومعه ابرته غروب يوم الجمعة لئلا ينساها ويكسر السبت بحملها . لا تبق شريطا على رجل الديك يوم السبت لأن هذا معناه حمل شيء ! ويحرم شماى أن تأتمن أمميا على خطاب بعد يوم الأربعاء لئلا يعاق عن ايصاله إلى المكان المرسل إليه ما بعد السبت . ويقال انه كان يقضى طول الاسبوع فى التفكير كيف يحفظ يوم السبت ! وكان أتباعه يقولون ان نواهى السبت يجب تطبيقها على : (١) الانسان (٢) والحيوان (٣) والجماد . وخالفهم فى ذلك أتباع هلليل إذ قضوا باعفاء تطبيقها على الجماد فسمحوا مثلا بعدم اطفاء مصباح قد أوقد قبل السبت أو رفع شبكة الصيد أو منع تساقط الزيت من المعصرة . (راجع هذه الامور فى بكستروف وشوشجن ولاتيفوت وكيم وانو والتلمود الذى يناقض بعضه حتى فى هذا) . اتهم الحاخام كولونيموس بقتل غلام فكتب ورقة ووضعها على شفتى المائت لتعلن الجثة عن اسم القاتل الحقيقى . بهذا قد نجى نفسه من تمزيقه إربا إربا ولكنه كتب فى يوم سبت فأمضى بقية حياته فى تعذيبها بأعمال التوبة وعندما حضرته الوفاة أمر أنه لمائة سنة مقبلة كل من مر على قبره يقذفه بحجر لان عقوبة كاسر السبت هى الرجم ! وذكر سنيسيوس وريلاند أن بحارا فى وسط قيام الزوبعة ألقى المرساة وكان السبت قد بدأ فاستحرم أن يرفعها حتى حاق به شديد الخطر .

٢ ـ مت ١٢ : ١ و مر ٢ : ٢٣ ـ ٢٨ و مر ٣ : ١ ـ ٦ و لو ٦ : ١ ـ ١١ و ١٣ : ١٤ ـ ١٧ و ١٤ : ١ ـ ٦ و يو ٥ : ١٠ ـ الخ و ٧ : ٢٣ و ٩ : ١٤ ـ الخ .

أول اثارة مضادة فى الجليل وقعت بلا شك عقب الحوادث التى أوردناها في الفصل السابق . لقد حدثت معجزة اشباع الخمسة آلاف وأعلن حديث كفر ناحوم مباشرة قبل أحد أعياد الفصح . ولم يذكر واحد من البشيرين الأمور التى تبعت ذلك . ولو أن يسوع صعد إلى هذا العيد فقد صعد خفية على انفراد . ولم تدون أية حادثة عن زيارته هذه . ولكن الأكثر ترجيحا هو ان الاضطهادات والمخاطر التى صادفها فى أوروشليم أوجبت تغيبه إلى « أن يمر الظلم » (١) . غير أنه ليس من المستحيل أنه وان لم يذهب بنفسه فبعض تلاميذه قد أتموا هذا الواجب الطائفي . وربما ما لوحظ عنهم وعن سلوكهم إذ ذاك مضافا إلى الكره العميق الذى سبق وأثاره السيد بأمره الرجل الذى شفاه أن يحمل سريره وبالأساس الذى بنى عليه دفاعه عن هذه التهمة ، هو ما حدى بكتبة وفريسي أوروشليم أن يرسلوا بعضا منهم ليقتفوا خطواته ويتجسسوا على أعماله حتى على شاطىء بحيرته المحبوبة . وحقا نراه من الآن فصاعدا في كل مكان وزمان من باقي حياته فى حقول الحنطة ، فى المجامع ، فى الولائم ، في التجولات فى كفر ناحوم أو مجدل أو البرية أو بيت عنيا . نراه مقتفى الأثر ، مراقبا ، معارضا ، مسئولا ، مجربا ، مشتوما ، متآمرا عليه من هؤلاء المبعوثين الممثلين لرؤساء أمته والذين نقرأ مرارا أنهم ليسوا من مواطنيه بل [الذين أتوا من أوروشليم] (٢) .

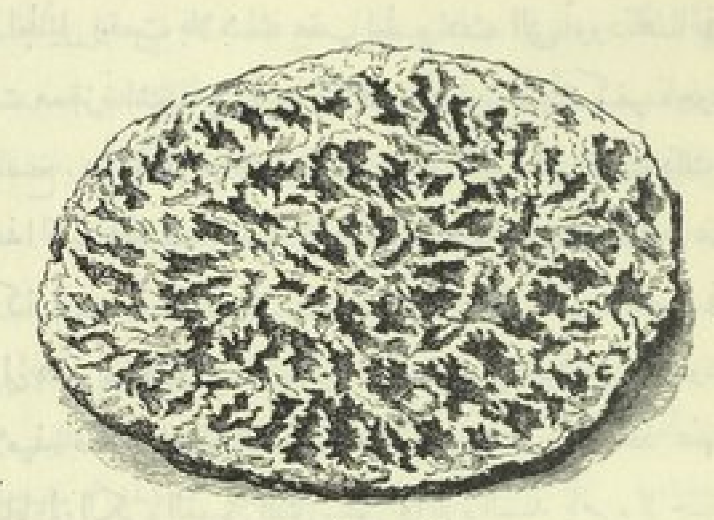
١ ـ أول هجوم ضد السيد فى الجليل حدث من أنه وهو سائر يوم سبت (٣) فى

---

١ ـ يو ٥ : ١٦ و ١٨ .

٢ ـ مت ١٥ : ١ و مر ٣ : ٢٢ و ٧ : ١ . أما الذين أتى ذكرهم قبل ذلك فلم يكونوا جواسيس معادين مثل هؤلاء . ونرى من اع ١٤ : ١٩ و ١٧ : ١٣ و غلا ٢ : ١٢ كيف أنه كان دائما بين اليهود الروح الوضيع الهادم للأخلاق وهو التجسس لاصطياد من يتوهمون أنهم مارقون .

٣ ـ هذا السبت ورد فى لوقا مضافا إليه التخصيص الغريب "السبت الاول من الثانى" أو "السبت الاول ثانيا" (هكذا فى الاصل وليس السبت الثانى بعد الاول كما فى الترجمة) ولا توجد أهمية لمعرفة المعنى المقصود من هذا الوصف لان النص صريح ان هذا حدث وسنابل


فطــير الفصح

الحقـول قطف تلاميذه وقد أضناهم الجـوع بعض سنـابل الحنطـة وفركوهـا بأيديهم ونفخـوا عنها أغلفتها وأكلوها . كان هـذا بلا شك جريمة وجريمة كبرى فى نظر الشرعيين نصت احدى «الأبهوث» (المحرمات) على أن الحصاد والدراس كانا بلا ريب ممنوعين ولـكن الحاخاميـين عدوا قطف السنابل حصادا واعتبروا فركها فى راحة اليد دراسا بل انهم حرموا المشى على العشب كى لا يكون هذا نوعا من الدراس،وأوجبوا عدم قطف ثمرة من على شجرة (١). والامور الأخيرة محرمات من الدرجـة الثانية (تلدوث) . وربما قد تتبع هـؤلاء الفريسيين يسوع فى هذا السبت ليراقبوه إن كان سوف يتعـدى ما أوصـوا ألا

القمح قد نضجت ، أى أسبوعا أو أسبوعين بعد الفصح حيث يقدم قطاف القمح الاول كثمار للموسم وربما كان القمح يطيب فى وادى جنيسارت الحار قبله فى السهول . والآراء المختلفة والتى لها ما يدعمها هى (١) السبت الاول من الشهر الثانى . وتسين . (٢) السبت الاول من السنة الثانية للدورة السبتية . وزلر . (٣) السبت الاول بعد اليوم الثانى للفطير . ابوالد وكيم وسكاليجر وغيرهم . وقد تبعوا فى ذلك تفسير كليمنضس الاسكندرى "للسبت الاول" .

١ ـ وبالمثل إذ أن "البناء" كان واحدا من التسعة والثلاثين "أبهـوثا" المحظورة يوم السبت منعوا أيضا تخثير اللبن لانه كان نوعا من البناء . كانت المحظورات مقسمة إلى « أصول وفروع » والبناء من القسم الاول وصنع الجبن من القسم الثانى .


القمح قديما

يتجاوزه المسافر يوم السبت وهو ما لا يزيد عن ألفى ياردة وما أسموه « تخوم السبت » (١) . ولكن حسن طالعهم أوقفهم على تعد أفظع وجرم صارخ ظاهر . لقد عمل التلاميذ ما يجعلهم حسب القانون عرضة للموت رجما . حقيقة إن يسوع نفسه لم يشترك فى هذا التعدى إذ كما جاء فى بشارة مرقس الرسول إذ [فيما هو سائر .... بين الزرع] (٢) أى فى الممر العادى محتملا الجوع كان تلاميذه يشقون طريقهم وسط الحقل ويقطفون السنابل . لم يكن هناك أى ضرر بالمرة فى قطف السنابل . ولم يكن هذا جائزا عرفا فقط ولكنه كان أيضا مباحا فى ناموس موسى (٣) . ولكن

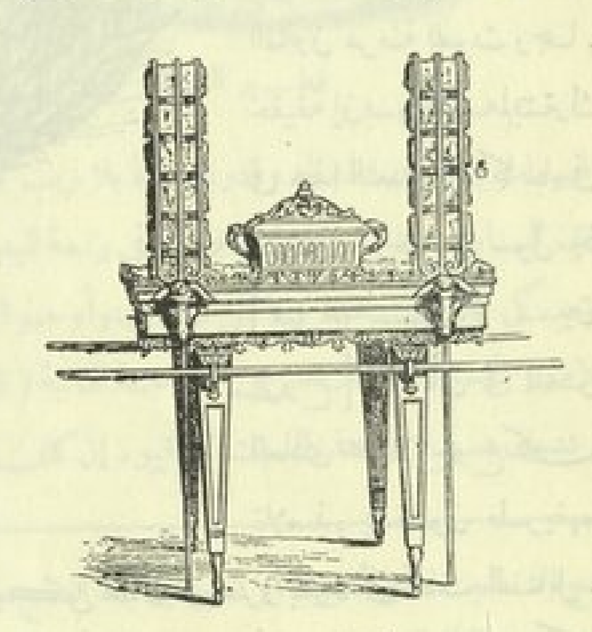
١ - قد علق على آيتى خر ١٦ : ٢٩ و راعوث ١ : ١٦ فى النسخة الاوروشليمية بكلمة " بعد ألفى ياردة " ولكن كان للفريسيين قواعد للهروب من المآزق التى تنجم عن هذا المحظور وفى المشنة عشرة فصول لبيان طرق الهرب .

٢ - مر ٢ : ٢٣ الجملة الاصلية قد تعنى « بدأ تلاميذه يشقون لانفسهم طريقا بقطفهم السنابل » أول من قال بهذا الرأى هو ماير وتبعه نولكار وكيم والاسقف وردسورث الخ .

٣ - تث ٢٣ : ٢٥ دهشت ونحن على قمة جرزيم من أن العرب نظروا بدون مبالاة إلى خيولنا وهى تأكل من الحنطة النابتة .

الأمر المريع انهم فعلوا ذلك [في السبت] . ففي الحال أحاط الفريسيون بالسيد وأشاروا بحنق إلى تلاميذه وسألوه بغضب قائلين [أنظر ... لماذا يفعلون في السبوت ما لا يحل فعله] .

بتلك السرعة الالهية وبثاقب الرأى وسمو المعرفة التى كانت تمتاز بها إجاباته حتى في أحرج الأوقات عندما يظنون أنهم قد أخذوه على غرة حمى يسوع تلاميذه في الحال بموافقته الصريحة ومناصرته الشخصية . ولما كانت التهمة هذه المرة موجهة إلى تلاميذه لا إليه فان السبيل الذى سلكه في الحجة والدفاع اختلف كلية عن الطريق الذى اتخذه في أوروشليم كما سلف ورأينا .



مائدة خبز الوجوه

فهناك قرر أن ما زعموه من مخالفة للناموس كان بسلطانه الذاتى أما هنا فمع أنه أعلن أنه رب السبت أيضا إلا انه اقتبس أولا من « كتبهم » ثم من « ناموسهم » سابقة وقانونا يعفيان التلاميذ من كل لوم . سألهم ربما بشيء من السخرية الرقيقة كما فعل في مواضع أخرى [أما قرأتم قط] . وهى لازمة محببة لدى حاخاميهم . كيف أن داود لم يدخل إلى بيت الله فقط (١) يوم السبت (٢) ، ولكنه أيضا [أكل خبز

١ ـ يقول البعض أن داود دخل بيت الله نيابة عمن كانوا معه !

٢ ـ ١ صمو ٢١ : ٦ قارن لا ٢٤ : ٨ و ٩ . ليس من غير المحتمل أن يكون هذا الفصل هو الذي قرىء صباح نفس اليوم في المجمع ولا شك أن الصلاة كانت قد انتهت لانهم ما كانوا يتناولون احدى وجبات الطعام الثلاث إلا بعد الانتهاء منها .

التقدمة الذى لا يحل أكله إلا للكهنة فقط]. فان كان داود ، شجاعهم ومحبوبهم وقديسهم ، قد كسر علانية وبعنف حرفية الناموس مرتكنا على سبب وحيد وهو أن احتياج الجوع أعظم من مراعاة الطقوس التقليدية ، فلماذا يؤاخذون تلاميذه إن أسكتوا جوعهم بعمل لا ضرر فيه ؟ ثم إن كان الربيون قد وضعوا قاعدة « لا سبت فى الهيكل » ، فيكسر الكهنة الخشب في السبت ، ويوقدون النار ، ويضعون خبز الوجوه ساخنا جديدا على المائدة ، ويقدمون ذبائح مضاعفة ، ويختنون الأطفال ، ومن كل وجه يخالفون قواعد « السوفريم » (١) عن السبت ومع ذلك يبقون دون اثم ، مع ان عملهم هذا يكسر السبت ويخالف نص الناموس الذى رسم السبت ، وذلك لأن الهيكل يعفى الكهنة . أفلا يعفى التلاميذ من هو أعظم من الهيكل [ان ههنا أعظم (٢) من الهيكل] ؟ ومرة أخرى ذكرهم انه يريد رحمة لا ذبيحة . إن السبت قد رسم من أجل الرحمة فليست تحل فيه فقط كل أعمال الرحمة بل أيضا بمثل هذه الأعمال يسر الله أكثر من كل التدقيقات والحذلقات التى لا معنى لها والتى أبدلت غنى بركة الله إلى أثقال وأشراك . إن السبت قد جعل للانسان لا الانسان للسبت [لأن رب السبت هو ابن الانسان] (٣) .

فى كتاب بيزا الموجود بجامعة كامبردج الآن وهو نسخة خطية ثمينة يوجد تعليق على لو ٦ : ٥ يقول « وفى ذات يوم رأى رجلا يعمل في السبت فقال له ان كنت تعلم

---

١ ـ وحتى هلليل كانت له فكرة عن هذا . وقد عارض فى ذلك شماى أيضا وقال ان وقع الفصح يوم سبت فليذبح خروف الفصح فى بيت كل اسرائيلى ولو انه يوم سبت لأن الكهنة يذبحون فى الهيكل كل سبت .

٢ ـ الكلمة الأصلية وردت فى الأصل مجردة من « ال » (مت ١٢ : ٦) وليس كما فى الانجليزية . المعرب : وفى النسخة القبطية وردت مجردة أيضا .

٣ ـ مر ٢ : ٢٧ ـ ٢٨ يوجد قول شبيه بهذا فى التلمود (بلا شك قد استعير من هذا واستعير دون نفع) وهو " لقد أعطيت السبت ولم تعط أنت للسبت " راجع ديرينبورج .

حقا ما تعمل فطوباك وإن كنت لا تعلم ما تعمل فملعون لأنك تتعدى الناس » وهذا التعليق مدهش حتى انا لا نتعجل برفضه وهو يمثل بوضوح روح تعليم السيد كما فهمها مثلا بولس الرسول. لأن معناها « ان كان عملك من الايمان فأنت تعمل حسنا وإلا فأنت تعمل خطية » (١).

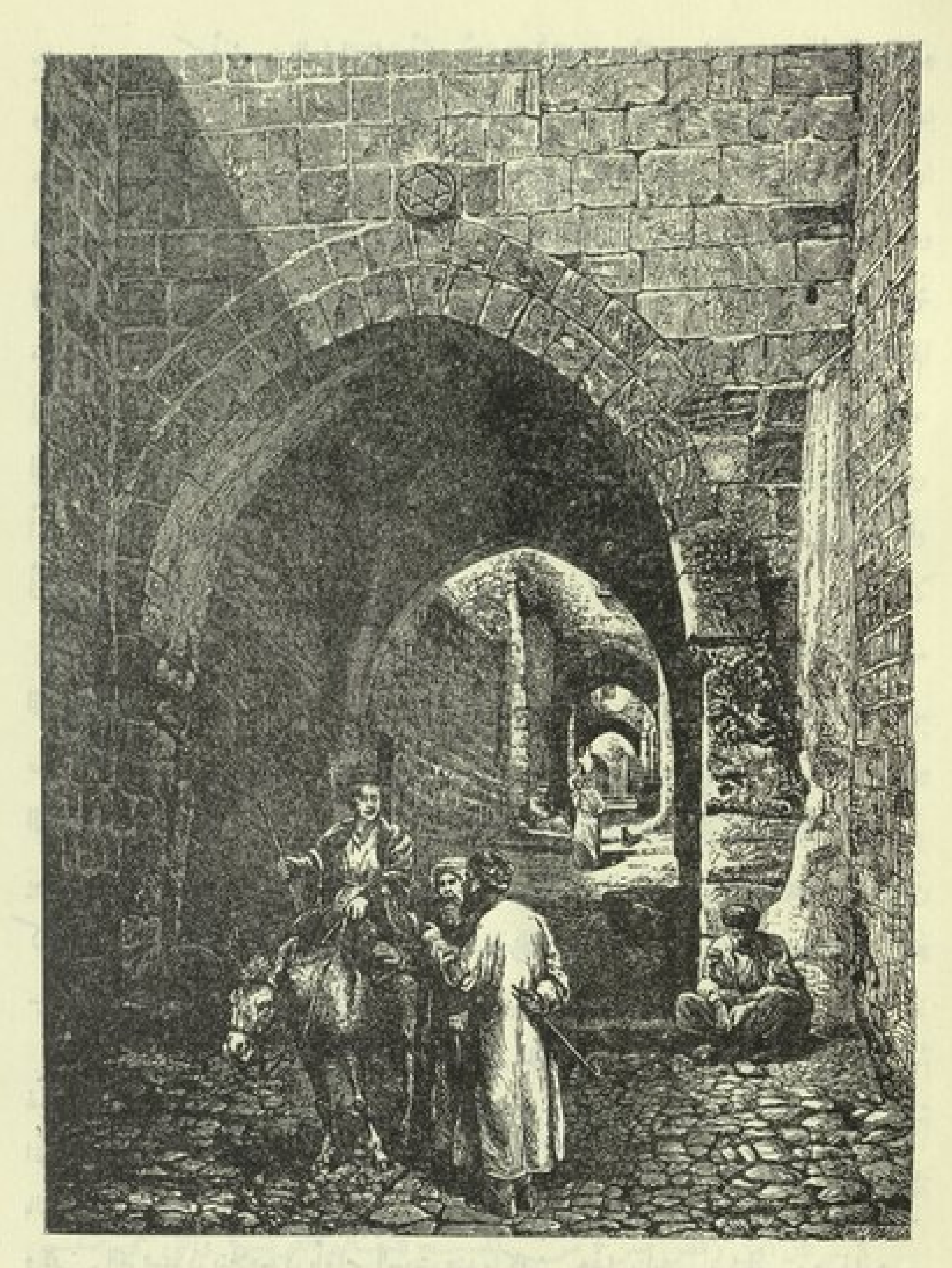
(٢) ويظهر أنه فى نفس اليوم (٢) الذى حدثت فيه هذه المصادمة المرة قد عاد السيد ودخل المجمع عند الغروب. وكان فى المجمع رجل - يقول التقليد (٣) انه كان بناء أصابه حادثا. تضرع هذا إلى يسوع لكى يشفيه فلا يضطر أن يستعطى. مجرد وجوده والغرض من وجوده كان ظاهرا للجميع. وجلس على الكراسى الأولى الكتبة والفريسيون والهيرودسيون وقد ثبتوا نظراتهم الحسودة الخبيثة على يسوع ليروا ما سوف يعمل ليجدوا شكاية عليه. لم يتركهم فى ترقبهم طويلا إذ سرعان ما أمر الرجل اليابسة يده أن يقف فى الوسط، وحينئذ رفع إلى محكمة ضمائرهم السؤال الذى كان يخطر فى قلوبهم ووضعه فى القالب الذى يظهر حقيقة الأمر إذ قال لهم [أيحل فعل الخير فى السبوت أم فعل الشر، أن تخلص نفس - كما أفعل الآن - أم أن تقتل - كما تتمنون فى قلوبكم أن تفعلوا - ؟]. لا يوجد سوى جواب واحد لهذا السؤال، ولكنهم ما كانوا هنا ليفتشوا عن الحق أو ليقولوا الحق. كان كل غرضهم أن يراقبوا ما سيفعله ليقدموا التهمة ضده أمام السنهدرين أو على الأقل ليدمغوه من الآن فصاعدا بالعار العلنى ككاسر للسبت. لذلك قابلوا السؤال بصمت غليظ عقيم. ولكنه لم يدعهم

---

١ - قارن (ماذبح للأوثان) اكو ٨ : ١ لقد انتقد بعضهم ذهاب الرجل إلى المجمع لطلب الشفاء يوم السبت ولكن يظهر أنه لا خطأ فى عمل الرجل ما دام له سبب قوى ربما أقل من عمل الولائم والتكاسل الذى لليهود. قال أوغسطينوس " خير أن تحرث من أن ترقص. يتأون عن العمل الجيد الصالح وينغمسون فى أعمال البطالة ".

٢ - راجع مت ١٢ : ٩ و ١٠ و مر ٣ : ١.

٣ - هذا التقليد قد ورد فى كتب الناصريين.



شارع في أوروشليم

يهربون من حكم أنفسهم العادل ضد أنفسهم . ولذلك برر نفسه بجنوحهم إلى الصمت وبما يفعلونه هم . وسألهم أيضا [أى انسان يكون له خروف (١) - واحد - فان سقط هذا فى السبت في حفرة أفلا يمسكه ويقيمه . فكم يكون الانسان أفضل من الخروف !] . كانت حجته مفحمة ، وعملهم أن وقعوا في مثل هذا الظرف غير منكور . ولهذا ظلوا على صمتهم الغشوم [فنظر إليهم بغيظ حزينا] . اشتعل فى قلبه حنق مقدس أضاء وجهه ونشط إشارته ورفع صوته وهو يتفحص بنظرة ثاقبة وجوههم الجامدة المتعالية ، بنظرة متئدة وبخت خبثهم وضعتهم لجهلهم وكبريائهم ثم تمالك تلك العاطفة القوية المريرة وهو ينتحي ليفعل عمل الرحمة وقال للرجل برفق [مد يدك] . ألم تكن اليد يابسة ؟ كيف يستطيع أن يمدها ؟ كلمة المسيح قد مدتها بالقوة لاتمام ما أمر . [فمدها فصحت يده كالأخرى] .

على هذا النحو اندحر أعداؤه ، وغلبوا على أمرهم فى المحاجاة ، وأخجلوا إلى السكوت ، وفشلوا فى اجتهادهم أن يمسكوا عليه ما يصلح لاتهامه . لأنه حتى فى صنعه الشفاء لم يعمل شيئا مطلقا يمكن أن يحوره بغضهم الشنيع إلى نقد لناموس السبت . لم يلمس الرجل ، ولم يسأله ، ولم يطلب إليه أن يستعمل قواه المستردة . لم يعمل سوى أنه نطق بكلمة . ولا يستطيع حتى الفريسى أن يقول أن النطق بكلمة كسر للسبت ، حتى لو أعقب الكلمة شفاء معجزى ! ولا شك أنهم شعروا باندحارهم ،

---

١ - ورد فى الغمارة انه مسموح بجذب الخروف فى حالة الخطر فقط وإنما يصرح فى الحالات غير الخطرة باسعافه بألواح من الخشب وتقديم الطعام له (راجع ريلاند) . ولذلك قد يجوز اغاثة رجل فى خطر الموت . وعلى ذلك لم يأثم شماى ولا ابتاليون عندما خلصا هليل وهو مغطى بالثلج ويكاد يهلك . يقول ستير فى الغالب كانت توجد مستثنيات سمحت للسيد بتوجيه توبيخه . وكان الفريسيون يتلاعبون بأوامر السبت عندما كان هذا يناسب صالحهم وهذا هو من (رياء الفريسيين) .

ولكن هذا زاد فى اشتعال غيظهم [فامتلأوا حمقا وكانوا يخاطبون بعضهم بعضا ماذا يصنعون بيسوع] لو ٦ : ١١ . حتى ذلك الوقت كان الفريسيون مخاصمين للهيرودبين . اعتبروهم يهودا نصف مرتدين ، لأنهم قبلوا حكم الرومان ، وتشبهوا بأعمال الوثنيين ، واعتنقوا مبادئ الصدوقيين ، وأمعنوا فى ممالأتهم للعائلة المالكة ، وجروا فى ذلك شوطا بعيدا ، حتى انهم اجتهدوا مجدفين أن يعتبروا هيرودس الكبير كأنه المسيا المنتظر ؛ ولكن الآن تناسوا عداوتهم القديمة وتصالحوا فى غضبهم الجنونى ليحاربوا عدوا مشتركا . وقد انضم الهيروديون إلى مضطهدى السيد ربما لخوفهم من أنتيباس ، وربما لارتيابهم السياسى ، وربما لمجرد الكراهية الطبيعية التى تغشى الدنيويين والمنحطين وتثيرهم ضد التعاليم الحلوة النبيلة التى تكشف عار حياتهم . وإذ أن الجليل كان الحقل المختار والمهم فى كرازة المسيح فقد رحب فريسيو أوروشليم بأية مساعدة تصدر من رئيس ربع الجليل أو من أتباعه . لذلك تشاوروا معهم لكي يهلكوا بالعنف ذلك النبي الذى لم يستطيعوا التغلب عليه باقامة الحجة ضده ، أو بمخاتلته وإيقاعه تحت الناموس .

لكن إلى ذلك الوقت لم تبعد عداوة الرؤساء الجموع عن المسيح ، ولكنها جعلته رغم هذا يتوق للذهاب إلى مكان آخر (١) لأنه كان يريد ألا [يخاصم ولا يسمع أحد في الشوارع صوته] . ولم تكن الساعة قد أتت بعد [ليخرج الحكم إلى النصرة] . غير أنه قبل رحيله حدثت أمور أشد غلظة ، وانفجرت ضده مراجل من الغضب أبعد أهمية وأكبر خطرا . وكان كل يوم يظهر بجلاء أن بينه وبين رؤساء الدين في أمته هوة سحيقة وفاصلة . وكان كل يوم يحتم فضح التقاليد الريائية التى تغلغلت فى تعاليمهم والتى كانت تنضح كما من طاعون داخلى مميت .

٦ ـ كان أول رفض صريح من المسيح للتعاليم الفريسية والتى هى صميم

---

١ ـ مت ١٢ : ١٥ و اش ٤٢ : ٢ لا تعنى بالضرورة انه ترك الجليل .

أساس طريقهم ناجا عن اجتهادهم وكتبة أوروشليم أن يحقروا مكانة تلاميذه (١). في إحدى المرات رأوا التلاميذ قد جلسوا ليأكلوا قبل أن يغتسلوا. وقد قرر القانون الشفوي وحتم بتشديد هذه الغسلات. حتى لقد فاخر اليهود المتأخرون بإعجاب شديد بما فعله الحاخام عقيبة عندما سجن ولم يسمح له بماء إلا ما يكفي بالكاد لأود الحياة، ففضل أن يموت جوعا عن أن يأكل دون الغسل القانوني (٢). لذلك أتى الفريسيون جماعة كعادتهم إلى يسوع وسألوه منتفخين لشعورهم بأهمية وأحقية انتقادهم وقالوا [لماذا يتعدى تلاميذه سنن الشيوخ لأنهم لا يغسلون أيديهم حينما يأكلون خبزا] ؟

وقبل أن يذكر مرقس البشير إجابة يسوع توقف ليخبرنا أن التقاليد الخاصة بالغسل التي كان يرعاها الفريسيون وكل رؤساء اليهود متعددة دقيقة. فقبل كل أكل وعند كل عودة من السوق (٣) كانوا يغسلون أيديهم مرارا (٤). فان لم يوجد ماء فليفتشوا عليه إلى أربعة أميال. وفضلا عن هذا كانت هناك قواعد صريحة لغسل الكؤوس والآنية (٥) والموائد وقدور النحاس. وكتاب « شلحان عاروق » أو « ترتيب المائدة » عبارة عن جملة أوامر حاخامية جمعها جوزيف كارو في سنة ١٥٦٧ ويحتوي - على الأقل - على ست وعشرين صلاة تتم بها هذه الغسلات. واهمالها كان

---

١ - مت ١٥ : ١ - ٢٠ و مر ٧ : ١ - ٢٣ .

٢ - بكستروف .

٣ - بعضهم يفسر مر ٦ : ٤ بأنهم من السوق لا يأكلون ان لم يغسلوا " ما اشتروه " - هذا غير مستحيل وان يكن غير مرجح .

٤ - الكلمة تعني التنظيف الجيد لكل يد بغسلها بقبضة اليد . وابيفانوس يفسرها بالغسل المتكرر وبعضهم بالغسل إلى الكوع .

٥ - الآنية " أي أكواب تسع حوالي ثلث لتر " . أما آنية الفخار ان تنجست فلا تغسل بل تكسر (لا ١٥ : ١٢) وكانوا يهتمون بالغسل جدا حتى انهم مرة غسلوا شمعدانات الذهب فسخر منهم الصدوقيون وقالوا انهم عما قريب سيغسلون الشمس .


غسل الأيدي في الشرق

بمنزلة قتل النفس انتحارا ويقتضى الحرمان من الحياة الأبدية! ومع كل هذا تجاسر التلاميذ أن يأكلوا بأيد غير مغسولة أى دنسة. وكالعادة اتخذ السيد جانب تلاميذه وناصرهم في أحقية ما فعلوا، ولم يتركهم وحدهم مع ما هم عليه من البساطة والجهالة لئلا تخيفهم حملة هؤلاء النقاد العظماء المدعين للقدسية. أجاب سؤالهم بأن وجه هو إليهم سؤالا أشد أهمية قائلا: [ولماذا أنتم أيضا تتعدون وصية الله من أجل سنتكم؟] (١)، لأن وصية الله هي [اكرم أباك وأمك]. ولكن تقليدكم هو ان الرجل بدل أن يعطى المال اللازم لاعالة أبيه وأمه يضعه في الخزانة ويقول [انه قربان] (٢) فيتخلص من كل

---

١ - في التلمود فصول "طهارادات" أي التطهير "وميكافوت" أي الغسل والاستحمام "ويدايم" أي غسل الأيدي وهذه أربعة أبواب.

٢ - ملاحظات لاتيفوت عن هذا الموضوع قيمة. إذ أوضح أن قول السيد يطابق ما ورد في "نداريم" و "نيزوت" اللذين يتضمنان "النذور". ثم الجملة الواردة في مت ١٥ : ٦ غير كاملة كأن السيد ربأ أن يذكر ما يضيفه مثل هذا الابن من كلمات مخجلة واكتفى بأن أعلن أن هذا التخريج المتوى لمعنى الرحمة والسلوك بها في طريق تقوى كاذبة تظاهرية تقليدية قد يفسد سلطة الآباء ويضعفها. وكلمة "قربان" مهما قيلت برعونة ودون تبصر فقد أصبحت نذرا يفضل



الشمعدان الذهبي (من نقش على باب تيطس)

واجب تجاه إعالتهما . وأشياء كثيرة تشبه هذه تفعلونها ... أيها المراؤون ! - وكانت هذه هى أول مرة وبخهم فيها السيد بشدة على هذا النحو - قد أبطلتم كلام الله من أجل سنتكم ... حسنا تنبأ عنكم أشعياء النبي قائلا [هذا الشعب يكرمنى بشفتيه وأما قلبه فبعيد عنى فهم يعبدوننى باطلا إذ هم يعلمون تعاليم هى وصايا الناس] (١) .

أداؤه عن طاعة الوصية الخامسة - هكذا علم الربيون . وتفسير هذه الآية انه إذا قبل (انه قربان) فهذه الجملة الاصطلاحية تقرر نقل الشىء من شخص لآخر فاذا قيلت للوالدين حتى فى سورة غضب ودون روية فان الربيين يعتبرون مال اعانة الوالدين " نذرا " لا رجوع فيه .

١ - مر ٧ : ٩ (أجيد) تدل على منتهى الهزء . فى المشنة الباب الأول "بابها كاما" والبابان التاليان يتضمنان القول عن الاستعواض وكلها مليئة بالتقاليد التى تنسخ الناموس . مثل آخر تنسخ به التقاليد ناموس موسى . غيروا ما ورد عن التعويض فى خروج ٢١ : ٢٤ وتث١٩ : ١٢ بمجرد ايفاء غرامة . بالتأكيد أعلم أنه مع تطور الزمن قد كرهوا العمل بشريعة ولى الدم - كما تركها اليونان وغيرهم - ولكن أرى أن غشكهم بحرفية الناموس ثم تركهم فعلا وصايا الناموس

لم يكن هذا دفاعا فقط عن التلاميذ ـ لأنهم أهملوا جملة من التقاليد (١) المخالفة فى ذاتها لما نص عليه الناموس المقدس ، تقاليد فى ظروف كثيرة يكرم كاسروها عن متبعيها ، ولكن كان أيضا توبيخا علنيا ممن اتخذ لنفسه سلطانا علويا غير هياب . وكان مضادة صريحة لترتيب تحكم في أعمال الحاخاميين وكان معتبرا أفضل من الأسفار الخمسة ذاتها . وكان روح هذا النظام تضحية الروح لأجل الحرف (والحرف دون روح لا يساوى إلا العدم) ، ثم تضحية الحرف ذاته لتفاسير ضارة للغاية . لقد كانوا يفرقون بين الناموس المكتوب « تواراه شيبيكتب » والناموس التقليدى أى الناموس الشفوى « توراه شبيل يه » الذى يؤكد أتباعه المتحمسون انه قد أعطى شفويا لموسى من الله ، وتوارثه شفويا سلسلة من الشيوخ . وعلى أساسه وجد التلمود أى « التعليم » الذى يتكون من جزئين المشنة أى « صورة الناموس » والغمارة أى « ملحق الناموس » . ولقد تطرفوا فى احترامهم للتلمود حتى قالوا انه والناموس بمثابة

الواضحة متذرعين بالتقاليد ما هو إلا رياء صرف وكذلك اعتراف أن التقليد الذى سرى فى المسيحية فى العصور الوسطى وهو انتهاز فرصة مخاوف الخاطئين المقتربين من الوفاة واستخلاص هبات منهم لأغراض الكنيسة هو تقليد لا يقل فى البطلان ان لم يكن أشد بطلانا من هذا التقليد الذى وبخه يسوع .

١ ـ يقول فرانكل ان " الاشكينازيم " و " البروشيم " إلى يومنا هذا فى أوروشليم لا يدرسون التوراة بل يستقون كل معلوماتهم من التلمود (بينما شيعة القرائين ينبذون هذا التعليم ويتمسكون بالتوراة) " من طالع الكتب ولم يدرس المشنة فهو قليل العقل " وأيضا الناموس مثل الملح ، والمشنة مثل الفلفل ، والغمارة مثل البهارات العطرة " . وقال الحاخام منسى " ان الناموس مثل الجسم ،والمشنة مثل الروح ،والغمارة مثل روح الروح " . وكانوا يحتمون على الطفل أن يدرس التوراة فى الخامسة ، والمشنة فى العاشرة ، والغمارة فى الخامسة عشر . ولقد مثلوا الله مداوما تلاوة التلمود ومعيدا لأحكام الشيوخ ! وقال الحاخام متصبا : ان قرارات الشيوخ تقف على قدم المساواة ليس مع المعجزات فقط بل مع الأصوات التى من السماء ! وقوله هذا جرى مجرى الأمثال .

الخمر والماء، وأن قراءة الكتب ليست بذات أهمية، وقراءة المشنة أمر له فضله، وقراءة الغمارة تجازى بأوفى الجزاء (١). وهذا النظام المحكم من الكتابات المبجلة والعوائد المحترمة هو الذى هاجمه يسوع وفضحه تماما، ليس فقط ليحمي من يخالفه، ولكن ليوبخ علنا أعظم مبادئه الثابتة ويشهر بها. وعليه فقد حكم بفناء وعدم أهمية جميع ذيول «الهاجادوث» أى التقاليد و «الهلاكوث» أى الوصايا، والتى وإن كانت لم تدون إلى ذلك الحين كتابة، ولكنها كانت محفوظة باعزاز وخشوع، منقوشة على عقول الشيوخ. وكانت الكنز المدخر لحكمة الحاخاميين.

ولم يكن هذا كل شيء. لم يكتف بهدم أساسات عبادتهم الظاهرية، بل علم الجماهير مبادىء تطيح بكامل سلطانهم، مبادىء من شأنها أن تذهب بحكمتهم المزدهى بها وتنزل بها إلى عدم الاحترام التام. وكان سموه فى عدم موافقتهم على نسبة غلوهم فى اعتدادهم بذواتهم وتبجحهم الذى لا حد له. وتحول يسوع عنهم كما لو أن لا فائدة ترجى منهم، ودعا إليه الجموع التى كانت تنظر إليهم كآلهة مصغرة، وتحدث إليهم بكلمات قليلة ثمينة [وقال لهم اسمعوا لى وافهموا... ليس ما يدخل فم الانسان ينجسه بل ما يخرج من الفم هو الذى ينجس الانسان] (٢).

---

١ - ولقد أكدوا ان الله علم الناموس لموسى فى النهار والمشنة فى الليل (بكستروف) وتشمل المشنة خمسة مواضيع هامة. ١ - تفاسير تقليدية. ٢ - نظم لا جدال فيها. ٣ - أفكار مقررة مبنية على مناحى العقل الثلاث عشر. ٤ - قوانين الأنبياء والحاخاميين. ٥ - أوامر قضائية.

أما الغمارة فالمقصود منها تفسير المشنة. ١ - لغويا. ٢ - مذهبيا. ٣ - استدلاليا. ٤ - رمزيا. قال الحاخاميون ابن عزرا وسلمون وحارش وبشاى ومايمونيدس ان الناموس هو "الفرائض" والناموس الشفوى هو "الأحكام" تث ٤ : ١٤. وقال الربى يشوع بن لاوى تفسيرا لخروج ٢٤ : ١٢ (فأعطيك لوحى الحجارة والشريعة والوصية التى كتبتها لتعليمهم) ان "لوحى الحجارة" هى الوصايا العشرة" والشريعة "هى اسفارموسى" والوصية" هى المشنة " والتى كتبتها "هى كتب الأنبياء" ولتعليمهم "هى الغمارة! (شوارب).

٢ - يوجد تشابه غريب بين هذا القول وما قاله فيلو ايضاحا لأحد تعاليم بلاتو «يدخل الفم

ولقد أوذى الفريسيون تماما من هذا الحديث الذى شجب الاحترام السائد العام لكل ما هو مجرد تظاهر . وكان نذير الموت لكل الطقـــوس الزائدة التى قبلوها اختيارا . ولم يتوان التلاميذ فى اخباره عن الحنق الذى أثارته كلماته عند الفريسيين لأنهم غالبا هم أيضا شاركوا فى احترام ومهابة هذه الشيعة المحبة للرئاسة . ولكن اجابة يسوع كانت اعلانا هادئا لعدم اكتراثه لما يحكم به العالم ولتفضيله لما يحكم به الله كما يظهره فى مستقبل الأيام [كل غرس لم يغرسه أبى الذى في السموات يقلع من أصوله . دعوهم هم عميان قادة عميان وإذا كان أعمى يقود أعمى يسقطان كلاهما فى حفـــرة] .

وبعد قليل عندما صاروا فى المنزل جرأ بطرس أن يطلب إيضاحا للكلمات التى خاطب بها الجموع بلهجة التأكيد . فوبخ يسوع بلطف تلاميذه لعدم فهمهم ، وأراهم بتعليم فائق أن ما يأكله الانسان انما يؤثر على كيانه الجسدى ولا يدخل إلى قلبه أو يمس جوهره الحقيق . [لأنه من الداخل من قلوب الناس تصدر الأفكار الشريرة . الزنا السرقة القتل الفسق الاغتصاب الشر الغش العهارة عين شريرة تجديف كبرياء جهل] .

الأفكار الشريرة مثل جدول صغير يتفجر عن ذلك السيل العرم الأسود !

[هذه هى التى تنجس الانسان وأما الأكل بأيد غير مغسولة فلا ينجس الانسان](١) .

الأكل والشرب غذاء فانيا لجسم فان ولكن يخرج منه كلام وقوانين باقية وروح باقية تحكم بها الحياة الخالدة » .

١ - توجد صعوبة شهيرة فى مر ٧ : ١٩ (وذلك يطهر كل الأطعمة) . قارن اع ١١ : ٥ - ٩ . والتفسير الوحيد لهذه الآية هو ما قاله القديس يوحنا فم الذهب « وذلك أى ما قاله يسوع ينقى جميع الأطعمة » وبذلك تصبح هذه الآية فريدة فى البشائر إذ هى قانون المسيحى تجاه الناموس الموسوى .



أسوار أوروشليم

الفصل الثانى والثلاثون

ازدياد المقاومة

" إن كان محتقرا أو مزدرى به أو مخذولا
فهو مخلصى ومسيحى " . ترتليان

تبقى يوم آخر لمقاومة أشد مرارة وخطرا وأعظم غلوا وتدخلا فى الخصوصيات ، يوم خصومة علنية فاصلة بين يسوع والجواسيس

الذين أتوا من أورشليم . قبل أن استسلم إلى حين لحقد أعدائه المميت وقبع فى أراضى الوثنيين ليجد الراحة التى لم يعد يهنأ بها فى الحقول الخصبة على تلال جنيسارت الخضراء، توجد أيام قليلة من حياة المسيح على الأرض وقعت له فيها من الحوادث والمقاومات ما يضطرب لها القلب مثل اليوم الذى سنصفه فيما يلى (١) .

كان يسوع يصلى منفردا فى الفجر الباكر فى احدى المدن التى كانت مسرحا هاما لكرازته فى الجليل ورآه تلاميذه واقفا وعيناه شاخصتان إلى السماء . والوقوف لا السجود وقت الصلاة هو المعتاد في الشرق . ومكث التلاميذ مبتعدين احتراما له ، ولكن عندما فرغ تقدموا إليه بالطلب الطبيعي ليعلمهم أن يصلوا كما علم يوحنا تلاميذه . ففى الحال استجاب لسؤالهم وعلمهم هذه الصلاة الكاملة القصيرة التى صارت منذ ذلك الحين الذخر المشتهى والأرث الأسمى فى كل صلاة مسيحية ، والمثال الذى تبنى عليه أحسن الابتهالات وأقربها منالا . لقد سبق فستعملها عند عظة الجبل ولكن شكرا عميقا منا ليسوع لأنه استجابة لسؤال تلاميذه قد أتى بها منفصلة واضحة . وربما نجد بعضا من جملها على نمط مصغر فى الصلوات اليهودية لأن لها مثيلات فى التلمود . وليس هناك دليل على انها قد استعيرت من المسيحيين . ولكن لم تكن قبل الصلاة الربية صلاة قد جمعت أحلى وأطهر ما في صلوات أمة إلى صلاة واحدة نبيلة لا تجارى ، صلاة جمعت كل ما وجده قلب الانسان المتعلم من الله . وهى فريدة فى مزيج الحب والاحترام الذى ترشدنا إليه عند اقترابنا من أبينا الذى فى السموات ، فريدة في

---

١ ـ الظاهر مما ورد فى مت ١٢ : ٢٢ وما يليه ومر ٣ : ١١ وما يليه أن هذه الحوادث وقعت فى الجليل ، فلا بد أن تكون وقعت فى هذا الحين من سياق ترتيب الحوادث ولقد دونها لوقا فى الرحلة ما بين ٩ : ٥١ ـ ١٨ : ٣٤ . وملاحظة الزمان فى بشارة لوقا غامضة (وحدث) وكذلك ملاحظته عن المكان غامضة (فى موضع) . وعليه فترتيب البشيرين الآخرين هو المرجح .

الروحانية التى تعلمنا أن نطلب أولا ملكوت وبره ، فريدة في روح المحبة العامة والتسامح الذى تغرسه ، فريدة فى صيغة الجمع التى تسودها من الأول للآخر والتى ترينا أن محبة الذات يجب أن تنتفى بتاتا ودائما من تضرعاتنا ، وانه لا يستطيع أحد أن يأتى إلى الله كأبيه بدون أن يعترف أن ألد أعدائه هم أبناء الله أيضا ، وفريدة فى أنه من السبع طلبات التي تحتوى عليها توجد طلبة واحدة ، وواحدة فقط ، لطلب البركات الأرضية . وهذه الصلاة فى أبسط مظاهرها ، وفى الطريقة التى تخجل كافة التكرارات الباطلة وتعذيبات الجسم الشنيعة التى يتزلف بها كثير من العابدين استعطافا لله ، وفى قصرها الشيق الذى يظهر كيف أن الله لا يريد أن تكون الصلاة حملا أو تعبا ـ ينطبق عليها ما قاله الآباء عنها بأنها « انجيل مختصر » وأنها « درة الصلوات » (١) .

والكلمات القليلة الأمينة التى أردفها لم تكن لتقل عنها سموا إذ علمت الرسل أنه ينبغى أن يصلى الناس فى كل حين ولا يملوا . لأنه إن كانت اللجاجة تتغلب على أنانية الانسان وتنفع معها فيجب أن يكون الالحاح كاملا فى طلب بر الله . ثم ثبت يسوع فيهم الدرس القيم وهو ان كنا نركن ونطمئن إلى أن محبة الناس لا تمنح سوى العطايا النافعة الشفوقة فيجب أن نؤمن أن محبة الأب العظيم الذى يحبنا جميعا تمنحنا بالأولى وبكل تأكيد أحسن وأثمن العطايا حتى الروح القدس لمن يطلبونه .

وبأى دقة ولكن أيضا بأى رأفة ولطف قد طبع هذه الدروس العظيمة فى أذهانهم ؟ ولو أنها قيلت بذلك الأسلوب الجامد الغشوم التأديبي المتبع فى التعاليم الأخلاقية لما تمكنت من أن تحرك القلوب ، أو تبعث الدفء إلى العقول ، أو تنقش بدون أن تمحى من أفئدة سامعيها . إذ بدلا من أن تساق فى ثياب الحذلقة والفلسفة المدرسية حملها فى سياق قصة صغيرة عن الأشياء العادية من الحياة اليومية المملوءة

---

١ ـ المقابلة بين الصلاة الربية وصلوات اليهود التى تشبهها (ولكن بأى فارق !) موجودة فى كتاب جروفر جزء ٢ صحيفة ١٩٦ ، وفى كتب لاتيفوت وشتوجن وتستين على مت ٦ : ٩ .

بساطة وفقرا . مسافر يسرى فى الليل ليتجنب القيظ المحرق ويصل إلى منزل صديقه . وصاحب البيت فقير ليس له ما يقدمه له ولكن لكى لا يهمل واجبات الضيافة حتى فى هذه الساعة المتأخرة يقوم ويمضى إلى منزل صديق آخر ليقترض منه ثلاثة أرغفة . ولكن هذا الصديق الآخر فى مرقده وأولاده معه وبيته مغلق وبابه مقفل بالمزلاج ويجيب الطلب الرقيق المحب بخشونة (١) . وغضب من الداخل ويقول [لا تتعبنى] . ولكن الصديق يعلم أنه قد أتى فى رسالة صالحة وضرورية فيستمر يقرع الباب . وفى النهاية ، ليس من أجل عواطف شفوقة ، ولكن من أجل اللجاجة (٢) ، يقوم الرجل ويعطيه كل ما يطلب .

وهنا لاحظ بعضهم بحلاوة « أن هذا ما يحدث عندما يعود القلب الذى كان بعيدا فى سياحة ويرجع إلينا فجأة فى نصف الليل - الوقت الأشد حلكا وضيقا - أى عندما يرجع إلى نفسه ويستشعر جوعا وليس عنده شىء يشبعه فأن الله يطلب منا ايمانا جريئا لجوجا » . لأنه إن كانت هذه اللجاجة قد تغلبت على تلكؤ انسان غير كريم ، فأى شىء تفعل مع من يحبنا أكثر مما نحب ذواتنا بل من هو مستعد أن يستجيب صلواتنا أكثر مما نطلب ونسأل !

قد لوحظ أن تاريخ المسيح على الأرض ملىء بالأضواء والظلال . فقد يجوز أن تدون حوادث فترة قصيرة أو يوم واحد بايضاح تام ، وتنقضى أحيانا أزمنة طويلة بسكوت تام . ذلك لأننا ننسى - ولو وضعنا هذا نصب عيوننا لما وجدنا صعوبة أو غرابة فى هذا الأمر وكيفية تدوين البشائر على هذا النحو - ننسى أن جزءا كبيرا من

---

١ - انه لا يرد التحية التى ابتدره بها بقوله (يا صديق) . ثم كلمة (لا تتعبنى) تدل على عدم الاصطبار . وفى الأصل كلمة (أغلقت بابى) تدل على إغلاقه إلى الصباح وكلمة (قلت أقدر) معناها لا أريد .

٢ - الكلمة الأصلية معناها " عدم الاستحياء " " الالحاح لذى لا يحمر خجلا " .

عمله كان لتدريب وتعليم تلاميذه الأخصاء على تغيير العالم فى المستقبل . وعندما نقارن ما كان عليه الرسل حينما اختارهم المسيح - وقد كانوا حقا بسطاء نبلاء ولكن جهلة جبناء ثقيلى القلوب والايمان - بما صاروا إليه عندما تركهم وسكب موهبة الروح القدس فى قلوبهم ، فاننا نرى أنه ما كانت هناك فترات سكون فى نشاطه الرحيم حتى عندما قصر أحاديثه على أولئك الذين عاشوا ملتصقين به مستفيئين بنور شخصيته الالهية . كانوا مطوبين حقا عن الملوك والأنبياء ومغبوطين عن سائر الناس لأنهم عاشوا فى امتياز مفضل إذ شاركوه في أفكاره الخاصة ونعموا بحلاوة ملائكية وبساطة قلبية بالنظر اليومى لتلك « السنين التى بلا خطية » . ولكن إن كانت لحقتهم هذه الغبطة فلم يكن ذلك من أجلهم وحدهم ، وانما من أجل العالم إذ كانت رسالتهم أن يرفعوه من الانحطاط واليأس والخبث إلى القداسة والصحو والحق ، من أجل القلوب النقية التى سوف تتمتع أبد الدهر بالتصاق أزلى وحضور روحى أقرب مما لو كانوا مع الرسل وهم يصعدون معه التلال المنفردة أو يرافقوه وهو يسير حثيثا فى الليل على شاطىء البحيرة الهادئة .

هذا اليوم الذى ابتدأ بتعليمهم الصلاة الربية ، صلاة الايمان والرجاء والمحبة ، لم يكن مقدرا له أن ينقضى بسلام . أيام قلائل فى حياة السيد قد أعفيت من احتكاكه وايلامه بخطايا الناس وأحزان البشرية . ولكن المشهد الذى ظهر اليوم أمامه كان من أنكرها وأقساها . فقد أحضروا إليه انسانا أعمى وأخرس ومجنـــونا ، متأثرا بانفعالات خفية من امتلاك الشيطان . ولم يتركه يسوع فريسة ضعيفة لقوات الشر ، فبنظرة وبكلمة منه أطلق المتألم المسكين من هذا الظلم الصارخ فشفي وبرىء [حتى ان الأخرس تكلم وأبصر] .

يظهر أنه كانت عند اليهود طرق من التعازيم خاصة (١) . ولكن توجد براهين

---

١ - قارن اع ١٩ : ١٣ .

على أن هذه الطرق ما كانت تجرب إلا فى الحالات البسيطة السهلة . أما فك هذه القوة القاهرة التى ربطت هذا الرجل ، والمقدرة على سكب الضياء إلى تلك العين المظلمة ، وإرجاع النطق إلى هذا اللسان المشلول ، والعقل إلى تلك النفس الشاردة ، فشىء لم يشاهد مثله الناس قط . أثارت هذه الأعجوبة عاصفة من الدهشة وفجرت اعجابا ظاهرا . ولأول مرة جاهرت الجموع علنا إن كان هذا الذى له تلك القوة ليس سوى مخلصهم المنتظر [وقالوا أليس (١) هذا هو ابن داود] ؟

ولم يقدر أعداؤه أن ينكروا أن معجزة عظيمة قد حدثت . وإذ أنها لم تغيرهم فقد قست قلوبهم وحمقهم . ولكن كيف يمكنهم أن يبددوا الأثر العميق الذى انطبع فى عقول الناظرين المتحيرين ؟ كان الكتبة الذين أتوا من أوروشليم أكثر حذقا ومكرا وأسرع بديهة وتفكيرا من اخوانهم الجليليين البسطاء . ففى الحال اخترعوا حيلة يجابهون بها هذا المأزق ، حلا وقحا مدهشا إذ قالوا : [ان معه بعلزبول وبرئيس الشياطين يخرج الشياطين] (٢) . ومن المدهش حقا أن الشفاه لم تنطق بالاجابة السريعة

---

١ ـ مت ٩ : ٣٢ و ١٢ : ٢٣ و لو ١١ : ١٥ الكلمة الأصلية تدل على " التردد " قارن يو ٨ : ٢٨ (ألعله يقتل نفسه) حيث تدل الكلمة الأصلية على التأكيد .

٢ ـ مر ٣ : ٢٢ و مت ١٢ : ٢٤ (ان هذا) قصدوا بها تحقيره . (بعلزبول) وليس بعلزبوب المحرفة " بعلزبول " من المؤكد هى القراءة الصحيحة ولكن شكل ومعنى الكلمة حقيقة غير معروف . وقد وردت بعلزبوب كاله عقرون فى ٢ مل ١ : ٢ ويوسيفوس فهم أن معناها " اله الذباب " . وليس فى هذا شىء مستهجن فبعض أسماء آلهة اليونان كانت تسمى بحامية الحشرات المؤذية (مثل زفس أبوميوس .. وهرقل كوورنيون الخ) وقد تعنى بعلزبول " رئيس الخليقة العلوية " أي رئيس الهواء (أفس ٢ : ٢) فيكون هناك جناس فى مت ١٠ : ٢٥ . وقد تعنى " اله الروث " ربما من الاعتقاد أن الشياطين تسكن الأماكن القذرة . وهذا يناسب تلاعب اليهود بالكلمات فى استهزائهم مآلهة الوثنيين (قارن كيرشيريز أى مدينة الخراب بدل كير هيريز ـ بيت هافن بدل بيت ايل ـ باركوزيبا أى ابن الكذب بدل باركوشيبا أى ابن النجم) وهذه الفرية شبيهة بفرية التلموديين الذين قالوا انه عمل معجزاته بالسحر الذي تعلمه فى مصر . " ولا غرو فان الجرو ينبح كما علمته الكلاب " .

التى تبادلتها الألسنة فى أوروشليم بعد ذلك عندما وجهت إليه نفس التهمة إذ رفضوها قائلين « ليست هذه كلمات من به شيطان » . ولكن شعب الجليل ساذج سليم النية وهؤلاء الفقهاء الحكماء الأجلاء الذين أتوا من المدينة المقدسة كان لهم سلطان موروث وتأثير موفور على أفهامهم البسيطة . وإذ قد شككوهم أكثر من مرة فى كلام السيد فقد علا الارتياب عقولهم . أضف إلى هذا مهابة سموه الشخصى ، والشعور بشىء أعلى من البشرية فى حضرته حتى فى أكثر أوقاته وداعة ، وقوته على معرفة الأفكار ، ورحمته التى لا تنام ، والخوف الغريب الذى كان يساور المجانين والكلام النشيط القوى الذي كان أحيانا يعلو إلى توبيخ صارم وأحيانا يلين بجمال وعطف يرغمهم على هدوء كالأطفال على ثدى أمهاتهم ، وغلظة قلوبهم الجحودة ورفضهم الدنيا الجديدة المليئة بالآمال والمخاوف التى بشرهم بها على أنها ملكوت الله ، وباختصار ، الرعب الذى كان يستولى عليهم بمجرد نظراته وحضوره إذ يجعلهم فى اقتراب لم يألفوه من الدنيا غير المنظورة . كل هذا لما لم يعدهم لقبول الحق فقد جعلهم من البداءة فريسة سهلة لكذب ذى سىء مجدف من ذوى السلطان .

لكن يسوع بكلمات هادئة قليلة بدد هذه السفسطة المريعة وذراها هباء ، وأراهم السخافة الواضحة فى ظنهم أن الشيطان يعادى نفسه ، ثم أظهر لهم أن القوة التى استخدمها يجب أن تكون أعظم من الشيطان وضد الشيطان . وعلى ذلك فهى روحية الهية ، ولهذا حذرهم من خطيتهم هذه المخيفة الخطرة لأنها تجترم ضد روح الله وتقرب من تلك الخطية التى لا تغفر لا فى هذا الدهر ولا فى الدهر الآتى ، ألا وهى التجديف على الروح القدس . وبعد هذه التحذيرات الخفية الغامضة تكلم معهم بلغة أشد وضوحا . أدار نور الحق وسطع به على قلوبهم الحقودة المرائية ، وأراهم كيف أن ثمر البحر المائت هذا من الكذب والغش لاينبت إلا من أصول وجذوع مرارة مستورة ، وكيف أنه من الكنز الشرير المخفى عميقا فى الظلام الدامس الذى أطفىء منه مصدر الضوء

يمكن أن تخرج هذه الأفكار المظلمة التى لعداوتهم الملتوية [مت ١٢ : ٣٤] . وأخيراً ، وبنغمة تحذير لا زالت تماوج وتتردد أبد الدهر ، حذرهم بقوله الصادق إن « كلام » الانسان يظهر حقيقة معدن القلب الذى فى الداخل ، وانهم على هذه الكلمات ، وعلى كل الكلمات الباطلة أو الكاذبة التى للخبث الكسول ، سوف يعطون حسابا فى اليوم الأخير .

ويظهر أن قوة وسلطان كلمات يسوع وشدة الانذار الذى حملته قد أسكتت الفريسيين إلى حين وأوقفت تكرار هذا التجديف الغريب السخيف .

وفى السكون الحادث صاحت امرأة من الجمع فى حماسة اعجاب لا تضبط ، معتادة حقا على احترام الفريسيين ذوي الثياب الطويلة والأهداب والثنيات العريضة ، ولكن شعرت من أعماق قلبها بالعلو الشاهق الذى سما به هذا المتكلم عنهم ـ صاحت رافعة صوتها كى يسمعها الجميع وقالت :

[طوبى للبطن الذى حملك وللثديين اللذين رضعتهما] .

[أما هو فقال لها بل طوبى للذين يسمعون كلام الله ويحفظونه] .

أعلنت المرأة بكل عمق العطف على جنسها كم تكون مباركة تلك الأم التى لها مثل هذا الابن ! وحقا كانت الطوبى لتلك الأم المباركة ، المباركة ثمرة بطنها ، المباركة بين النساء ، والمباركة لأنها آمنت [لو ١ : ٤٢ ـ ٤٥] . لكن ليست هذه البركة قاصرة عليها إذ توجد بركة أخرى وهى بركة إطاعة كلام الله . يقول القديس فم الذهب « كم من النساء باركن العذراء ، وودن لو يكن أما مثلها ! ماذا يؤخرهن ؟ لقد أعد يسوع طريقا معبدا لهذه السعادة ، ليس للنساء فقط ، ولكن للرجال أيضا ، هو طريق الطاعة الذى يمكن أن يسير فيه الجميع . فليست آلام الولادة فقط بل الطاعة أيضا تخلق أمثال هذه الأم المباركة .

ومع أن الفريسيين اندحروا إلى لحظة إلا أنهم لم يشاءوا أن يتركوا يسوع فى راحة مدة طويلة . لقد تحدث بلغة كلها تحذير صارم بل كلها توبيخ قاس إليهم وهم

القادة ورؤساء الدين فى زمانه ووطنه . ما الذى أعطى شجاعة مثل هذه لشخص من « آم ها آرتز » أى من رجال الأرض ، ومجرد « إناء خال من العلم » تخرج من بين العمال غير المعروفين والجهلة من الصناع الريفيين ... ؟ وكيف تجرأ أن يخاطبهم هكذا ؟ فليرهم على الأقل آية ، آية من السماء ، لا مجرد طرد أرواح أو أعمال شفاء ، ولكن آية عظيمة قاطعة لا تحتمل جدلا وتدل على سلطانه .

[يا معلم نريد أن نرى منك آية] .

كان هذا نفس السؤال القديم الذى حاربوه به فى أول كرازته عندما قالوا له : [أية آية ترينا حتى تصنع هذا] يو ٢ : ١٨ .

لمثل هذه الطلبات التى قدمت فقط للتشهير به ، وامتحانه من رجال لم يقتنعوا ولم يلينوا وقد رأوا للتو آية عظيمة وفى الحال عزوها دون خجل لقوة الشيطان ، طلبات ليست من قلوب مؤمنة ولكن لمجرد حب الاستطلاع والكره والجحود ، لمثل هذه الطلبات كان يسوع يعطى أذنا غير صاغية . لا يتنازل الله فيظهر قوته إطاعة لاحراج النقاد ، ولا يوافق حكمته أن يجدد نفوس الناس بمجرد اندهاشهم من صنع الآيات . ولو أن يسوع أعطاهم آية من السماء فهل كانت تحدث أى أثر فى نفوس قوم هم خلف من من يشهد التاريخ الذى به يفخرون أنهم وهم على مرأى الجبل ، بل تحت ثناياه الملتهبة ، قد جلسوا ليأكلوا ويشربوا ثم قاموا للهو واللعب ؟ هل كانت تحدث أي أثر فى أخلاق ورثة أولئك الذين وسمهم ذات أنبيائهم بأنهم عبدوا مولوك ونجم الاله رمفاق بعد أن قادهم عمود النار وشربوا من الصخرة المتفجرة ؟ لقد رأوا آيات وعجائب كثيرة ، ورأوا أعظم آية وهى حياة يسوع التى بلا عيب ، ولكنهم زادوا حنقا وتجديفا . لذلك لا تعطى لهم إلا آية تحت ستار النبوات التى لم يفهموها ، فقال للجموع الحاشدة [إن الجيل الشرير الفاسق يطلب آية ولا تعطى له آية إلا آية يونان النبى] . فكما كان يونان ثلاثة أيام وثلاث ليال في بطن الحوت ، في ظلمة البحر الهائج آية لأهل نينوى ،

كذلك يكون ابن الانسان في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال (١). رجال نينوى الذين تابوا بانذار يونان، وملكة سبا التى جاءت من أقاصى الأرض لتسمع حكمة سليمان، سيقومون فى الدين مع هذا الجيل ويدينونه لأنهم حقروا ورفضوا من هو أعظم من يونان ومن سليمان. لأن هذا الجيل قد حصل على بركات جمة فى النفى البابلى، والنهضة المكابية، وبالحكم المتزن النبيل تحت الملوك الأزمونيين، وأخيرا كرازة يوحنا قد طرحت عنهم روح العصيان الذى تملك على آبائهم. إن المنزل القديم قد رش وكنس، ولكن للأسف لم يدع روحا طيبا ليتربع على العرش، فعاد إليه الروح النجس القديم ومعه سبعة أرواح أخرى أشر منه، فصارت أواخرهم أشر من أوائلهم.

عند ذلك الحد توقف حديثه بمقاطعة مفاجئة [مت ١٢ : ٤٦]. ترامت الأخبار إلى أسرته انه كان وسط جمع غفير، وأنه يتكلم بكلمات أغرب وأشد مما سبق أن نطق بمثلها من قبل، وأكثر من هذا أنه قد وبخ بهزء علنى وفضح بغضب كريم المعلمين العظام الذين أرسلوا من أورشليم خاصة ليتجسسوا على كلماته. فتملك الخوف أسرته، وربما همس من نقل الخبر إليهم بالمكر السيء المحيق به والذى استفزته توبيخاته الصارمة. ومن القليل الذى نعرفه عن « اخوته » أنهم كانوا - كما يغلب على الظن - عبرانيين أولاد عبرانيين خاضعين تماما للسلطة الحاخامية والكهنوتية، وربما إلى ذلك الحين لم يكونوا قد آمنوا به، أو ربما قد أخطأوا فهم اعلاناته. فتساءلوا هل من المناسب أن يتدخلوا ثانية ؟ هل من الواجب أن يخلصوا يسوع - الذى اعتبروه أنه يسوعهم - من نفسه ؟ ألا يمكن أن يفرضوا عليه سيطرة عائلية ليخلصوه من

١ - مت ١٢ : ٤٠ التعبير اليهودى "ثلاثة أيام وثلاث ليال" قد يعنى كلمة "فترة" وهى المدة ما بين مساء الجمعة إلى باكر الأحد. وهذا التعبير الدارج قد أثار صعوبات غير قليلة قارن اصم ٣٠ : ١٢ و ١٣ و كو ١٠ : ٥ و ١٢ و تث ١٤ : ٢٨ و ٢٦ : ١٢. راجع الخاتمة.
المعرب : اعتبار الشرقيين إلى يومنا هذا جزء اليوم كأنه اليوم كله يحل هذا الاشكال الموهوم.

المخاطر المميتة التى يتعرض لها جليا من جراء تعاليمه الحاضرة ؟ ألا يمكن أن يؤثروا عليه ويضطروه برفق أن يختفى ولو إلى حين فى مكان قصى أمين ؟

لم يستطيعوا أن يصلوا إليه بسبب الزحام ، ولكن أمكنهم أن يجدوا من نبهه إلى حضورهم . ففجأة قاطعه واحد من الجمع قائلا [هوذا أمك وأخوتك خارجا يطلبونك] . وآسفاه ... انهم لم يفهموا أن الساعة قد أتت ليتخلص من صلات أقربائه حسب الجسد



تحفة عليها قصة يونان

تاريخ يونان يمثل هنا فى ثلاثة أقسام . فى الوسط النبى ساقط ويداه ممدودتان إلى جانب السفينة والوحش فاتح فاه نافخ بطنه فى استعداد لبلعه وقد جلس ربان السفينة على كرسى فى مؤخرها قابضا على الدفة بيد بينما الأخرى مرفوعة بأمر بسط الشراع الذى كان قد طوى عندما كانت الريح مضادة . وتظهر ثلاثة مجاذيف إلى جانب السفينة ربما استخدموها وقت العاصفة . وإلى اليسار يونان جالسا هادئا وماسكا عصاه فى يده تحت اليقطينة وعلى أعلاها طائر رمزا للنبوة . وإلى اليمين وقف يونان ويده فى وضع يشير إلى تعليم أهل نينوى . والنقش على حجر أحمر شديد اللمعان وهو من مجموعة مستر آرثر هوبلون صاحب سراى هالنجبرى باسكس ويستدل من الحفر على أن ناقشه من الجيل الرابع على الأكثر . لأنه بعد ذلك كان يشار إلى كرازة يونان بجمع غفير من الصغار والكبار يسعون إليه وليس بهذه الوقفة الوقورة (التى كانوا يرسمون عليها أباطرة الرومان) وعليه فهذه التحفة يرجع تاريخها بين زمن الرومان القديم وبين أوائل العصور الوسطى فى كيفية النقش والتعبير فهى بحق تشير إلى " حقبة فى تاريخ الفن " .

ويتحرر تماما من رقابتهم عليه . هل لا بد له أن يصـدم مرة أخرى تدخلهم الجرىء هذا ؟ نعم ... ولـكن هذه الصدمة يجب أن تـكون غاية في الرقة ، وأن تمنـح عـزاء أبديا للآخرين . فأجاب وقال [من هى أمى ومن هم أخوتى ؟ ثم مد يده نحـو تلاميذه وقال هؤلاء هم أمى وأخوتى لأن كل من يصنع ارادة أبى الذى فى السموات فهـو أخى وأختى وأمى] .



مدافن وادي يهوشافاط

الفصل الثالث والثلاثون

يوم التصادم

" القريب من الله قريب من السيف "
اغناطيوس

كانت حوادث هذا اليوم العظيم حتى الآن مليئة بالاضطراب الكافي ، ولكن لم تقف عند هذا الحد بل تبعتها ظروف أشد إيلاما وأمعن استفزازا .

حان وقت تناول الغذاء فسأله فريسى أن يأتى ويأكل في بيته (١) . وكانت الدعوة خالية من الترحيب ، معدومة الكرم تقريبا إن لم تكن قد سيقت بكراهيـة صميمة وسوء نية ، وكما نعلم حدث هذا فى دعوات فريسية أخرى . وعلى أحسن الفروض كان الدافع لها حب الاستطلاع ليرى المعلم الجديد عن كثب أو حب الغرور ليظهر كالمعضد لهذا الضيف الكبير . وعندما دخل يسوع لم يجد نفسه بين العشارين والخطـاة حيث يستطيع أن يعزى ويعلم ويبارك ، ولا بين المساكين ليكرز بملكوت السموات ، ولا بين أصدقاء وتلاميذ ينصتون باحترام عميق وحب أمين لكلماته ، ولكن بين وجوه باردة قاسية ، بين بسمات الازدراء وتقطيبات مناظرين متشامخين وأعداء ظاهرين ولم تشمل الدعوة تلاميذه الرسل ، فلم يكن هناك اخلاص توما فيعضـده ، ولا رقة نثنائيل فتشجعه ، ولا غيرة بطرس فتدافع عنه ، ولا محبة يوحنا تسند رأسه على صدره. وأتم الكتبة والفريسيون والصدوقيون - هؤلاء الأضياف العظماء - غسلاتهم الفنية بترفع وحذلقة . وأسرع كل واحد منهم بحسب مركزه على المائدة . أما يسوع فبدون واحدة من هذه المظاهر الخيالية دخل ، وللحال اتكأ على المـائدة (٢) . كانت الأكلة تافهة قليلة ، وكانت الجموع خارجا تصيح جائعة متعطشـة لكلمات الحياة الأبدية . لذلك لم يشأ أن يخلق تأخيرات كسولة أو يظاهر تقاليد غير ضرورية كانت فى هـذه البرهة بالذات زائدة وإن كانوا قد علقوا عليها أهمية دينية كاذبة وسخيفة .

وللوقت ظهرت علائم الدهشة على وجه مضيفه . كذلك ، بلا شـك ، أظهـر أولئك الأضياف غير السموحين بحواجبهم المرتفعة وإشاراتهم السمجة أكثر ما تجرأوا

---

١ - ليس ليأكل معه ولـكن (ليأكل عنده) أى ليأكل فى منزله . كانت أكلة الصباح هذه تشابه " التصبيرة " البسيطة بل أقل من الأفطار عندنا . وأحسن مفسر لهـذا الأصحـاح هو لانج جزء ٣ .

٢ - لو ١١ : ٣٧ (فدخل واتكأ) ، والـكلمة الأصلية تدل على معنى " واتكأ فى الحال " .

أن يظهروه من عدم الرضى والاحتقار . لقد نسوا تماما من هو وما قد صنع . كانوا من أول الأمر جواسيس ومفترين . لذلك ابتدأوا أن يحطوا من شأن ضيافتهم المفتعلة ، وينتهزوا فرصة جديدة ليتآمروا عليه ويخونوه . لذا حان الوقت لاستعمال لغة أوضح واعلان غضب أشد ، فلم يبخل يسوع عليهم بذلك . لم يتحدث إليهم بأمثال أو كلمات يجوز الخطأ فى فهم مرماها ، وأبان لهم مدى ريائهم ، وان نظافتهم الخارجية انما هى ستار شفاف يغطى جشعهم وخبثهم . وفضح تدقيقهم الفارغ الحقير فى تعشير النعنع والسذاب ، واهمالهم الذريع للفضائل الضرورية . فضح الزندقة والطمع والرياء والمباهاة والفريسية الظاهرة ، بينما قلوبهم في الداخل ملآنة فسادا وموتا . لقد كانوا مثل القبور غير الظاهرة والناس الذين يمشون عليها لا يعلمون وإنما يتنجسون .

وحينئذ تجرأ واحد من الموجودين ، ناموسى ، معلم متقدم أو مازورى (١) ، متمسك ، تجرأ أن يقاطع سيل توبيخه القاهر . ربما قد تخيل أن نبى الناصرة الشاب المتواضع والوديع القلب ، الذى كانت كلماته بين الجموع تنفث روحا من الحنان المتناهى ـ ربما تخيل انه كان رقيقا جدا ومحبا جدا لدرجة لا يستطيع معها أن يكون شديدا . وربما ظن أن مقاطعته هذه قد توقف العاصفة الثائرة لغضبة المستيقظ . ما كان يعلم أن الأخلاق القوية العظيمة لا يمكن أن تخلو من الغضب المقدس . وإذ كان جاهلا لما يجول فى ذهن المخلص ومندهشا كيف ان أناسا لهم مثل هذا المقام يعاملون بهذه الصرامة والصراحة قال محتجا : [يا معلم إن تقول هذا تشتمنا نحن أيضا] !

نعم هو يوبخهم أيضا لأنهم يضعون على أكتاف الآخرين أحمالا يرفضون هم أن يحملوها . وهم أيضا قد بنوا قبور الأنبياء الذين قتلوا من جراء خطاياهم . وهم أيضا قد أغلقوا أبواب الحكمة وأداروا لها ظهورهم وأخذوا مفتاحها حتى لا يدخل أحد .

---

١ ـ مجموعة الانتقادات الكتابية وغيرها التى جمعت فى " المازورا " كانت موجودة لأجيال عديدة قبل أن تكتب .

لذلك سيقع عليهم أيضا مع كل ذلك الجيل الشرير دم جميع الأنبياء من دم هابيل إلى دم زكريا الذى هلك بين المذبح والبيت (١).

لقد عاد يسوع فأدلى بهذا الكلام بأجلى وأشد بيان فى هيكل أوروشليم فى الأسبوع الأخير العظيم من حياته على الأرض أما في هذه الفرصة فقد أنزل عليهم من سماء تفوقه الأخلاقي أول البروق الكاسحة للقلوب التي أمطرها غضبه فى الويلات السبع (٢). لقد ظنوا أنه ربما تخدعه نعومتهم الغاشة وضيافتهم المرائية، ولكنه علم أنهم بغير اخلاص قلب منحوه أبسط مرافق اللياقة والترحيب. لقد استضافوه وحده فكان فريدا بينهم. بخيانة أحاطوه، فألهب رؤوسهم بتحذيرات الدينونة وأعلمهم بأنه إن لم يتوبوا فسيلقيهم إلى الأرض. لم يستطيعوا أن يغشوه لحظة. كثيرا ما توجد شفقة تظاهرية وشبه مرير للصداقة لا يستحق أى احترام. وقد تمر هذه مرورا عاديا في الطبقات الحديثة الفارغة التى تعاصر التمدن الكاذب حيث تكون الكلمات أنعم من الزيت وفى القلب حرب، ويكون الحلق قبرا مفتوحا وفى اللسان مداهنة. ولكن كل هذا يحترق إلى لا شيء أمام النيران الألهية الفاحصة ولا يترك وراءه سوى دخان ممرض. لقد حان الوقت الذى يظهر لأولئك المرائين أنه يعلم جيدا قلبهم الغاش ويكره من الأعماق خبث حياتهم.

شعروا أنه أعلن الحرب عليهم فانفضت الدعوة (٣) فى ضوضاء. وخلع الكتبة

---

١ - أى ٢٤ : ٢٠ و ٢١.

٢ - الخلف المخلد لشيعة الفريسيين يدعون فى وقتنا بالبروشيم وهم يفضلون ذواتهم مترفعين عن باقى رجال الدين. قال عنهم أحد اليهود انهم متعصبون، غير متدينين حقيقة، مخاصمون، لا يحتملون، ذوو وجهين؛ عندهم حفظ التقاليد الظاهرية هو كل شيء؛ ولا يهتمون بالقداسة بل هى عندهم عديمة الأهمية حتى صارت أقصى شتيمة عند "الشازريم" أن تقول له انك أحد البروشيم (فرانكل).

٣ - هذا ظاهر من لو ١١ : ٥٣ إذ هى فى اللغة الأصلية (ولما خرج من هناك).

والفريسيون القناع وتبدلوا فجأة من مدعي الصداقة ومن متسائلين مهتمين إلى مخبرهم الحقيق كأعداء ألداء . فأحاطوا به وتكأكأوا عليه بعنف كما لو كانوا يتهددونه ، ورموه بجارف من الأسئلة الماكرة ليمتحنوه ويحفزوه أن يتحرج فينطق بكلمات خبيثة ، مثل الصيادين الماهرين يحفزون الفريسة إلى الخروج من مكمنها . واجتهدوا أن يقعوا على قول خطأ ، أو اعتراف ينم عن جهل ، أو بالأكثر على كلام فيه ظل من التجديف حتى يستطيعوا أن يقدموا ضده تهمة قانونية يوردونه بسببها إلى التهلكة وشيكا . [لو ١١ : ٥٣] .

وخرج يسوع من هذا المأزق الضيق سالما . أما كيف فعل هذا ، وكيف تجنب نيران العداوة هذه ، فلم يذكر لنا . وربما كان كافيا أن ينحى أعداءه جانبا آمرا اياهم أن يتركوه حراً ، مرة أخرى ، إذ أن الجموع فى هذه الأثناء قد خامرها الشك أو تسربت إليها أخبار ما يحدث داخلا . وللوقت [اجتمع ربوات جموع حتى داس بعضهم بعضا](١) فى سرعتهم وحماسهم . وبلغت همساتهم الغضوبة الثائرة مسامع الفريسيين فحذرتهم أنه من الخطر أن يستمروا أكثر فى مؤامرتهم . وخرج يسوع للجموع ولا زالت تلتهب روحه بالغضب الشديد العادل الذى كان قد تملك عليها . وفى الحال خاطب تلاميذه وآلاف السامعين معهم ، وانفجر فى هذا التحذير القدسى العنيف : [تحرزوا لنفوسكم من خمير الفريسيين الذى هو رياؤهم] . وأعلن لهم انه ما من خفي إلا وهو مكشوف أمام عين الله التى تسطع ألف مرة أكثر من الشمس . ثم أوصاهم ألا يخافوا من الناس - وربما كان ساورهم بعض الخوف من جراء الحوادث المقلقة التى حدثت فى الأيام الأخيرة - بل أن يخافوا فقط من الذى بعدما يقتل الجسد له سلطان أن يلق الجسد والروح كليهما فى جهنم (٢) النار . ان الله الذى يحبهم سيعتنى بهم ،

---

١ - هذا يظهر من لوقا ١٢ : ١ حيث يفهم من النص الأصلى أن تجمع الجماهير كان فجأة .

٢ - جهنم هو تحريف الكلمة العبرانية "جى هنوم" أي وادى هنوم خارج أوروشليم الذى

والابن الذى سيعترف أمام الآب والملائكة بأولئك الذين يعترفون به أمام الناس .

وبينما كان يسوع يخاطبهم هكذا فوجىء بمقاطعة لحديثه لم يكن هذا محلها. حقيقة لم تكن هذه المرة مقاطعة العداء أو التدخل فى غير مناسبة ، أو الحجاب لا يستطاع كتمانه ، لكنها كانت مقاطعة الحكمة العالمية والأنانية . شخص من الجمع - وكان محبا لذاته ، متوسط الثقافة ، إذ رأي الجموع الصاغية ، وسمع كلمات السلطان والقوة ، وعرف هزيمة الفريسيين الأخيرة ، وربما ترجى بعض الاعلانات المسياوية وظهور قوتها فى الحال - صمم على استخدام هذه الفرصة المواتية للوصول إلى مآربه الدنيوية . وظن - إذا سمح لنا باستعمال هذا التعبير التجارى - انه سيتمكن من أن يضرب ضربة مالية رابحة . فبدون اعتبار وبغير مناسبة قاطع يسوع قائلا : [يا معلم قل لأخى أن يقاسمني الميراث] .

وكان توبيخ السيد له يقرب أن يكون صارما لانحصار تفكيره فى ذاته . يظهر أنه كان أحد أولئك الناس غير القليلين الذين لا محط لأنظارهم فى العالم جميعه إلا على أنفسهم . ويظهر أنه ظن أن الغرض الأهم من مجىء المسيا هو أن يصون له حصته فى الميراث ، ويوقف أخاه العاصى عند حده • ففى الحال بدد يسوع كل آماله الدنيوية البائسة ، وحذره وكل الذين سمعوه من أن يطغى على رجائهم المرتقب ،الأفق الضيق الذى للمتع الأرضية • وما أقصر - ولكن ما أغنى فى الوصول إلى المقصود - المثل الذى ضربه لهم عن الغنى الأحمق الذى جعلته محبته لذاته - المحبة الشنيعة الطامعة الناسية الله - أن يفعل هذا وذاك ، والذى - كأنما ليس هناك شىء اسمه الموت - كأنما النفس تحيا بالخبز -ظن أن : [ثمارى] و [خيراتى] و [أهرائى] و [كلى واشربى وافرحى] قادرة أن تصون ما تبقى فيه من نسمة حياة لسنين عديدة ، والذى كان صدى كلماته

تدنس أولا بعبادة مولوك ثم برمى الجثث فيه . ولكى يطهر من العفونة والأوبئة أضرمت فيه نيران عظيمة . فأصبح اسمه علما على كل مكروه ذريم .

هذه صوت من السماء يهـــز القلوب وتلذع سخـريته قائلا : [يا جاهـــل فى هذه الليـــلة] (١) .

وحينئذ توسع السيد لتمكين هذا الدرس ، فعلمهم أن النفس أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس ، وذكرهم ثانية أن الله يكسو الزنابق التى لا تتعب بأمجد مما قد لبس سليمان ، ويقيت الغربان التى لا تهتم . وذكرهم أيضا أن الطعام واللباس ومختلف المتلكات ليست هى الحياة بل لهم أشياء أفضل يطلبونها ويتطلعون إليها . فليحذروا من التأرجح فوق البحر المضطرب الذى للاهتمامات القليلة الايمان (٢) . فلتكن حياتهم حياة الرجاء غير الخائف والاحسان غير المحدود ، حياة الأحقاء المشدودة والسرج المضيئة ، حياة العبيد الأمناء الذين ينتظرون عودة سيدهم فى ساعة لايعرفونها.

هذه الكلمات قيلت لتلاميذه خاصة ولكن سمعها الجمـــع الذى وجهت إليـه . ولكن حب استطلاع بطرس تغلب عليه فسأله ان كان هذا المثل قد قيل لهم وحدهم أم للجميع أيضا .

لم يجب يسوع على هذا السؤال ، وكان صمته خير إجابة . وإنما طلب أن يكون كل إنسان عبدا أمينا حكيما ، وحينئذ طوبى له . ولكن الويل كل الويل بنسبة ما منح

---

١ - (فى هذه الليلة تؤخذ روحك منك) لو ١٢ : ١٦ - ٢١ . لا يستدل أن غناه قد جمع عن طريق غير صائب انما خطأه انه نسى المعطى ، ونسى أنه وكيل عليه فقط ، ونسى أن الموت قد يخليها سريعا من قبضة يده . وواضح أن نابال وأنانيته وحماقتـه وموته البائس يشابه هـذا كما هو ظاهر من تكرار ياء الملكية (قارن ١صم ٢٥ : ١١) . وهذا المثل يشابه ما جاء فى ابن سيراخ (١١ : ١٨ - ١٩) مما جعل ستير يلاحظ بجهال أن يسوع كان يستشهد أيضا بالاسفار المحذوفة . وفى اللغة الأصلية أيضا تظهر حيوية وقوة تتمشى تماما مع الحالة النفسية التى كان يسوع متأثرا بها وهو يتكلم .

---

٢ - لو ١٢ : ٢٩ (لا تقلقوا) فى الأصل تعنى : "لا تكونوا مثل مركب تتمايل فى الزوبعة بعيدة عن مدخل الميناء" .

من معرفة وامتيازات لذلك العبد النهم ، شريب الخمر ، غير الأمين ، الذى يأتى سيده فيجده غارقا فى مخالفته .

وعندما ذكر يسوع تلك المحاكمة المخيفة للعبد غير الأمين سرى ألم قدسى فى روح السيد. إذ تذكر السلام المرفوض الذى سوف ينتهى بأكبر مظلمة عاتية (وهى الصلب)، وتذكر البيوت المنقسمة على ذاتها ، والأصدقاء المتفرقين، وأن له صبغة سوف يصطبغ بها، وانه متضايق حتى تكمل ، وانه قد جاء ليلقى نيرانا على الأرض ، وقد بدأت واضطرمت هذه النيران التى هى بمثابة معمودية روحية ، نيرانا ممحصة تهدى أو تعمى ، تنير أو تدمر ، تحرق الطين أو تصفى الذهب (١) . وهنا أذكر حديثا حفظه لنا التقليد له اتصال بما نحن بصدده يذكر أن المسيح قال « من هو قريب منى قريب من النار ومن هو بعيد عنى بعيد عن الملكوت » .

ثم ترك هذه الأفكار الحزنة وعاد ثانية فاهتم باحتياجات الجماهير الملحة . فسألهم ان كانوا يميزون من السماء المحمرة بعبوسة ، ومن السحب الآتية من المغرب ، ومن الريح الهابة من الجنوب ، أن المطر سينزل أو أن الحر سيشتد . فلماذا إذن لا يميزون علامات الأزمنة ؟ لماذا يتطلبون آيات من السماء وأفقها البعيد ، والهواء الذى يستنشقونه والأرض التى يمشون عليها مليئة بالآيات . بلى ، لو فتشوا حسنا لرأوا أن فى نفوسهم آيات . من يروم رؤية النجم الذى يهدى طريقه ويقرر مصيره يجب ألا يفتش عنه فى السماء المتقلبة الظواهر ، ولكن فى أعماق قلبه (٢) . وناشدهم أن ينتهزوا

---

١ ـ لو ١٢ : ٥٠ (كيف أنا محتمل) = منحصر أو متضايق . وكلمة . (ماذا أريد) هذه الكلمة عسرة الفهم فسرها أوريجانوس وماير والفورد وغيرهم بمعنى " ماذا أشتهى " ويغلب أن يكون هذا هو الصواب وان كنت أعتقد أن الكلمات الأصلية معنى يدل على عواطف أعمق .

٢ ـ قارن مت ١٦ : ٢ و ٣ و لو ١٢ : ٥٤ ـ ٥٧ .

الفرصة السانحة ويتصالحوا مع الله لئلا يدركهم « فوات الأوان » الذى يندب به الافراد وكذلك الشعوب فى أواخر الزمان .

والظاهر أنه ختم حديثه عند هذا الحد • وكانت هذه هى المرة الأخيرة التى يسمعون فيها كلامه أياما عديدة . لأنه إذ رأى أنه محوط بأعداء أقوياء قد استفزهم بحدة ، وأنه مبغض من المقربين إلى الملك الذى يعيش فى دائرته ، وأنه مقتفى الأثر بكره علنى ومؤامرات سرية من جواسيس تعلم وتعود الشعب احترامهم ، وإذ شعر أن الناس لم يفهموه ، وأن حكم الموت قد تقرر عليه فى عقول الرؤساء والمعلمين ترك أرض موطنه إلى حين ، وذهب ليبحث فى البلاد الوثنية والمدن المسالمة عن الراحة والاطمئنان اللذين حرمهما وطنه عليه •



خرائب صور

الفصل الرابع والثلاثون

بين عبدة الأوثان

(الجالسون فى أرض ظلال الموت
أشرق عليهم نور) . اش ٩ : ٢

ثم خرج يسوع من هناك ومضى إلى نواحى صور وصيدون] . هذه هى الملاحظة القصيرة التى كتبت كمقدمة لما دون باختصار عن فترة من حياته وعمله كان يلذ لنا لو أنها أعلنت بإيضاح أزيد . وقد نتخيل أنه قد حصل بالتأكيد في هذا المكان البعيد على الاطمئنان والراحة ولكن الواقع أن الأمر لم



صيـــدا

يكن كذلك . لأنه كما سبق أن ذكرنا قد سرت شهرة معجزاته إلى تلك المدن الفينيقية القديمة فسرعان ما وصل إلى نواحيها حتى ظهر جليا انه من المستحيل أن يستتر إذ أن امرأة طلبته وتبعت الجماعة القليلة السائرة معه وهى تتوسل قلبيا [وكانت تصرخ قائلة ارحمنى يا رب يا ابن داود . ابنتى معذبة إذ بها شيطان] .

وكان يخطر لنا أن السيد سيجيب فى الحال مثل هذه الصلاة بقبول ورضى شفوق سيما أن فى إجابة ملتمسها رمز لامتداد ملكوته فى الأقسام الثلاثة العظيمة لدنيا عبادة الأوثان . لأن هذه المرأة كانت كنعانية سورية فينيقية مولدا ، وكانت رومانية بالرعوية ويونانية باللغة والثقافة . فطلبها الرحمة من مسيا الشعب المختار هو الباكورة لحصاد زرع جيد سينبت فيا بعد فى صور وصيدا وقرطاجنة واليونان وروما . ولكن السيد صمت [فلم يجبها بكلمة] . أليست هذه هى احدى البراهين التى لا تحصر على أن هذه ليست أقاصيص مرنة أو كاذبة وانما حقائق ثابتة راهنة ؟

لم يذكر لنا فى أى مكان آخر مثيل لهذا الاغضاء الظاهرى من جهة يسوع . كما لم يذكر لنا هنا عن الأسباب التى دعت إليه . انما نستنتج سببين . ربما أراد أن يمتحن شعور تلاميذه الذين فى روح يهوديتهم الضيق ربما يكونون غير مستعدين أن يروه يمنح بركته ليس فقط لأممية ولكن أيضا كنعانية سليلة أمة ملعونة . حقيقة انه شفى ابن قائد المائة . ولكن ربما كان هذا رومانيا ، وبالتأكيد كان محسنا لليهود ، وعلى الأرجح جدا إنه كان على باب الهداية . وربما ـ ونحن نعلم ما حدث بعدئذ ـ أراد أيضا أن يمتحن ايمان المرأة لكى يكلل ايمانها بمكافأة تامة ولكي تعلم عنه أكثر من اللقب اليهودى الذي ربما تكون قد عرفته مصادفة (١) ولكن إذ أن كل معجزة غنية فى

---

١ ـ نخبر صراحة فى مر ٣ : ٨ و لو ٦ : ١٧ ان الذين من تخوم صور وصيدا كانوا بين سامعيه ومشاهدي معجزاته وانه على الأقل فى مناسبتين مختلفتين قد رحب به ولقب بابن داود (مت ٩ : ٢٧ و ١٢ : ٢٣) .

مغزاها الروحى ربما رمى إلى تشجيعنا فى صلواتنا وآمالنا فى كل الأزمان وإلى تعليمنا المثابرة حتى لو ظهر أنه يشيح وجهه ويصم أذنه عنا .

أما التلاميذ فلتعبهم من صراخها والحاحها سألوه أن يصرفها ولكن كما لو كانت وساطتهم غير مجـدية أجابهم قائلا [لم أرسـل لأحد إلا إلى خراف بيت اسرائيـل الضالة] .

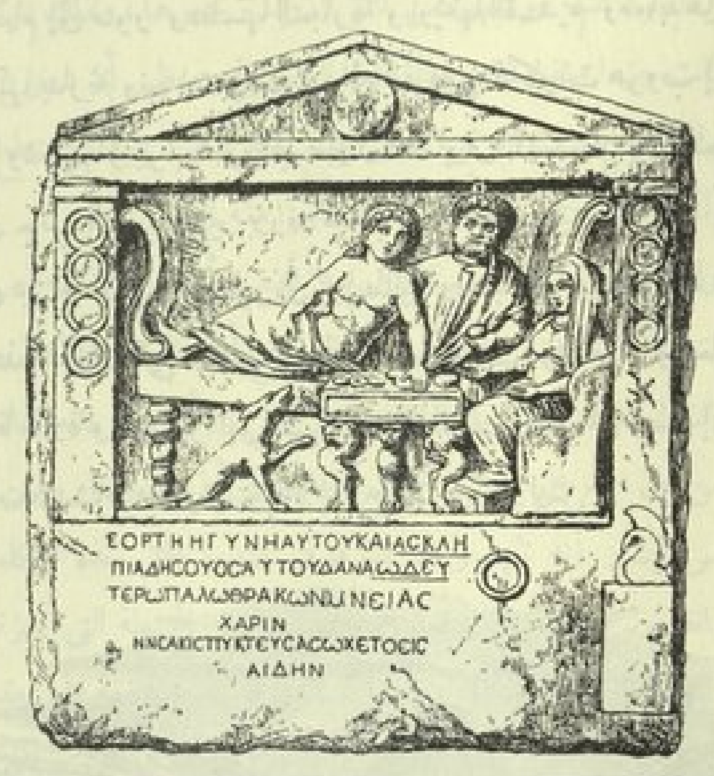
حينئذ جاءت المرأة ووقعت عند قدميه وسجدت له قائلة [يا رب أعني] . هل يمكن أن يبقى غير متأثر بهذا البؤس والحزن ؟ هل يمكن أن يرفض هذا الطلب ؟ هل يمكن أن يتركها لتعانى حيـاة طويلة من الألم وهى تشاهد نوبات ابنتها المجنونة ؟ ولكن بهدوء وجفاء انفرجت تلكما الشفتان اللتان لم تنطقا إلا بالرحمة لكل صلاة تضرعية عن هذه الجملة [ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ليعطي للكلاب] .

جواب مثل هذا كفيل بأثارة عاصفة من الثلج داخل روحها . ولكن بالتأكيد ما كان يجيبها هكذا لو لم يعرف بسابق علمه أن روحها كنز نادر يرى الشفقة والقبول فى ثنايا رفضه الظاهرى . لذلك ما كان كل ثلج وطنها لبنان قادرا أن يطفىء نار الحب المستعرة على مذبح قلبها . فبسرعة رجع الصـدى رددت تلك الاجابة المجيدة الخـالدة :

[نعم يا رب فان الكلاب أيضا تأكل من الفتات الساقط من مائدة أربابها] .

لقد انتصرت ، وانتصرت إلى أقصى حد ، فلم يزد السيد دقيقة في برهة الانتظار وألم الترقب ، فأسرع بقوله لها [يا امرأة عظيم ايمانك . ليكن لك ما تريدين] . وختم مرقس البشير هذا الحديث بتعبيراته البسيطة الجميلة التصويرية المعتادة بهذه الكلمات المؤثرة [فذهبت إلى بيتها ووجدت الصبيـة على السرير وقد خرج منها الشيطـان] .

ولا ندرى مقدار الزمن الذى صرفه يسوع فى تلك التخوم ولا فى أى مكان بالذات قد مكث . وربما يكون قد أسرع فى ارتحاله للعلانية التى صحبت حركاته هناك



الكلاب تأكل الفتات

هذه اللوحة التى وجدت سنة ١٨٤٠ فى ايدنجيك (سيراكوز القديمة) تسجل المحاورة التى حدثت بين السيدويين المرأة الفينيقية . وكلب مدلل (وهو المعنى الحقيقى للكلمة الواردة فى مت ١٥ : ٢٦ ومر ٧ : ٢٧) ظاهر من عضلات ظهره ورجله المرفوعة أنه يسأل بشدة طالبا بعض الفتات من سيده دانيوس الذى جلس متكئا ويده على كتف ابنه أسكليباوس وإلى يساره جلست زوجه هيروت . وقد أقيمت هذه اللوحة تذكارا لدانيوس الذي " ذهب إلى الدنيا السفلى بعد أن انتصر ٩ مرات فى المصارعة " وقد ظهرت تسعة تيجان ، أربعة على كل من الجانبين ، وواحدة من تحت دلالة على ذلك . وهذا التذكار يظهر كيف أنهم كانوا يعتبرون الدنيا كمائدة وليمة والموت قفزة إلى الظلمة . الكلب عند اليهود حيوان مكروه بينما هو عند اليونان كما عندنا حيوان مدلل ولهذا السبب ذكره السيد للمرأة اليونانية .

والتي عافت راحته وتمرين وتدريب أقرب وأحب أتباعه إذ لم يذهب إلى تلك التخوم ليعظ أو يصنع قوات . لذلك انتقل يسوع من هناك . لقد نظر بشعور من الحزن ممتزج بالاهتمام إلى صور وعظمتها التجارية وتاريخها القديم ومعابدها الوثنية النجسة الفخمة وصلتها بتاريخ ونبوات وطنه ، وإلى صرفة وتذكارات هروب إيليا ومعجزاته ، وإلى صيدا وشهرة أرجوانها ومقابر ملوكها الغابرين تشمخ بين النخيل وأشجار الليمون إلى جانب البحر الشهير بزرقة مياهه الذي تمخر فيه سفن لا تحصى بقلوعها البيضاء إلى جزائر الأمم وإلى اليونان وإيطاليا وأسبانيا . لم يكن هنا مجال عمله ولذلك انتقل من هذه الجهات التي سادت فيها عبادة ملكرات وأشيراه والبعليم وعشتاروت وانتحى شرقا مخترقا وادي نهر ليوناس الجبل السحيق إلى أن وصل إلى منابع نهر الأردن واحتذى شاطئه الغربي جنوبا إلى جهات ديكابوليس .



نهر جابوك

وديكابوليس اسم أطلق على المنطقة التى فى شرق الأردن والتى تمتد شمالا إلى دمشق وجنوبا إلى نهر اليابوق أعالى الحد الشمالى للبرية . وكانت اتحادا لعشر مدن حرة لم يتمكن اليهود عند عودتهم من النفى أن يسترجعوها ، ولذلك استمرت محتلة من الأمم ، وظلت جزءا منفصلا من المقاطعة الرومانية . ويظهر أن يسوع قد قوبل بترحاب في هذا الاقليم نصف الوثنى . وفى كل مكان ذهب إليه لم يستطع أن يمتنع عن عمل القوات والمعجزات رحمة بالمعذبين الذين طلبوا منه العون .

فى احدى هذه المدن (١) قدموا إليه رجلا أصم وأخرس ليشفيه [مر٧: ٣٢-٣٧]. كان شفاؤه مستطاعا بكلمة منه ، ولكن من الواضح أنه كانت هناك ظروف خاصة فى هذه الحالة بالذات استدعت تفضيل الشفاء التدريجي ، وأن يظهره بعلامات محسوسة . ولذلك أخذه من بين الجمع على حدة ، ووضع أصابعه فى أذنيه ، وتفل ولمس لسانه . وهنا يحفظ لنا مرقس البشير أنه تنهد ونظر إلى فوق عندما نطق بهذه الكلمة الواحدة « افثا » أى انفتح . وهنا أيضا لم تعلن لنا العوامل المحيطة التى أحزنت روحه . ربما يكون قد تنهد شفقة على الرجل ، وربما يكون قد تنهد شفقة على جنسه ، وربما يكون قد تنهد من أجل الخطايا التى تنزل بالناس إلى الدرك السفلى والآلام التى توقع بهم العذاب . ولكن من المؤكد أنه تنهد بروح شفقة عميقة وعطف . ولاشك أن هذا التنهد قد صعد كصلاة قوية إلى أذن أبيه السموى (٢) .

وإذ أن جمهور هذه الجهة البعيدة القاصية غير معتاد على معجزاته ، فقد دهشوا

---

١ ـ جرازا ـ جدارا ـ هيبوس ـ بلا ـ جرجسة ـ بيت هيشين أو سيكابوليس ، كلها كانت حسب رأى بلينى بلادا فى ديكابوليس والاحظ تحريف اسم مدينة أو مدينتين .

٢ ـ هذا التنهد لم يصعد منه من أجل لسان واحد وأذنين ولكن من أجل كل الألسنة والآذان عامة . بل ، أيضا من أجل الأجسام والقلوب والأرواح والناس جميعا من آدم إلى آخر بنيه .

جدا وخالفوا كالعادة أمره بألا يقولوا لأحد ، فانتهى بذلك كل أمل فى الهدوء والتستر . والغالب أن حادثة الشفاء هذه كانت بالقرب من الشاطىء الشرقي لبحر الجليل (١) فتبع جمع كثير يسوع إلى قمة التل الذى يشرف على البحيرة ، وأحضروا إليه عرجا وعميانا وصما وعسما وطرحوهم عند قدمى الطبيب الصالح فشفاهم ، فامتلأوا بهجة وتعجبا ، ولم يرتضوا أن ينصرفوا من حضرته . ومع أنهم أنصاف وثنيين فقد [مجدوا إله اسرائيل] (٢) .

مكثوا معه ثلاثة أيام ، وإذ أن كثيرين منهم أتوا من أماكن بعيدة فقد فرغ طعامهم . فتحنن عليهم يسوع إذ رأى إيمانهم ، ولم يرد أن يخوروا فى الطريق . فمرة أخرى مد لشعبه مائدة فى البرية . ولقد تعجب البعض كيف أن التلاميذ لم يتوقعوا أو يوعزوا إليه ما يعمل . ولكن هنا نبرة من الصدق ولمسة من الدقة . كانوا يعلمون أنه لا يسرف فى إظهار الأمور العلوية أو فى عمل قواته العجائبية . مرارا وتكرارا كان مع جموع غفيرة ، ولكنه فى مرة واحدة فقط قد أشبعهم . فضلا عن أنه بعد هذه المرة قد وبخ بصرامة أولئك الذين تبعوه لينعموا دفعة أخرى بهذه العطية ، ونطق بذلك الحديث المحير الفاحص الذى جعل كثيرين يتركونه حتى من أصحابه (٣) . لذلك كان طلب التلاميذ أن يكرر إشباع الآلاف أمرا أباه احترامهم المتزايد له سيما وقد تذكروا كيف أنه رفض بتاتا أن يعمل آية عندما طلب إليه الغير ذلك . ولكن سرعان ما تبينوا أول علامة تدل على ما ينوى عمله حتى كانوا بإيمان كامل خدامه المطيعين . فأجلسوا الجموع وفرقوا عليهم الطعام المتكاثر معجزيا من الأرغفة السبعة والأسماك الصغيرة القليلة . وفى هذه المرة دون أن يأمرهم جمعوا الكسر التى فضلت

---

١ - ربما قرب وادى السماق مقابل مجدلة .

٢ - مت ١٥ : ٢٠ - ٢٩ و مر ٨ : ١ - ٩ .

٣ - هذه الملاحظات على ما أعلم لم يلاحظها أحد من قبل .



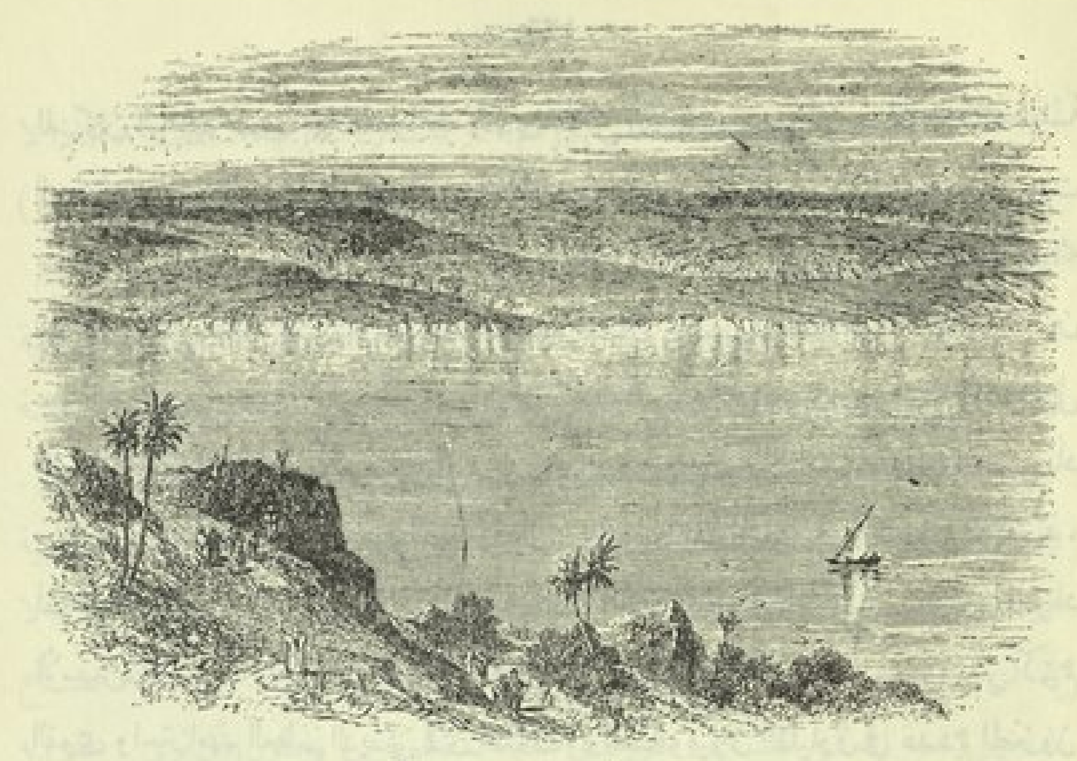
مباركة الخبز والسمك (١)

عنهم فملأت سبع سلال كبيرة ٢) مجدولة من الحبال . وكان الذين شبعوا أربعة آلاف

١ ـ هذا الرسم منقول من حفرية خشبية من الجيل التاسع ، ويمثل السيد مادا يديه يبارك الخبز والسمك الذى قدمه تلميذاه . ومنظر يسوع مملوء مهابة .

٢ ـ السلال الكبيرة هذه المرة وليست القفف الصغيرة كما فى المعجزة السالفة . قارن اع ٩ : ٢٥ حيث أدلى بولس من على السور فى سلة . ويخطىء الذين يقولون ان المعجزتين معجزة واحدة أختلف البشيرون فى تدوينها . فالمعجزتان مختلفتان تماما فى كل شىء فى الزمان والمكان والعدد والنتائج والتفصيلات . وإنها لأحدى مميزات الصدق التى لا يمكن أن تحدث فيما هو مخترع . ان المعجزة الصغرى تلت الكبرى لأن غرض السيد كان عمل الرحمة لا التظاهر بالقوة .

عدا النساء والأولاد . وبعدئذ بهـــدوء وسلام وبدون اظهار للحماس الزائد عن الحد الذى صحب المعجزة التى شابهتها سالفا اشـــترك يسوع مع تلاميذه فى صرف الجمع الفرح الشكور .



التلال المشرفة على بحر الجليل

الفصل الخامس والثلاثون

الاعتراف العظيم

(وهؤلاء عرفوا أنك أنت أرسلتني)

يو ١٧ : ٢٥

كانت مقابلة يسوع على الشاطىء الآخر مختلفة جد الاختلاف . رحب به الوثنيون المساكين في ديكابوليس بحماس احترامي ، أما فريسيو أورشليم المتعجرفون فجابهوه بكره تهكمي . ربما بعد الغيبة الطويلة قد اشتاق

للمكان الوحيد الذى يجد فيه راحة والذى يمكن أن يدعوه موطنه ، فدخل السفينة الصغيرة وعبر البحيرة إلى مجـدلة (١) . والمرجح أنه تجنب عن قصد بيت صيدا أو كفر ناحوم التى تبعد قليلا عن مجدلة إلى الشمال والتى أصبحت قلعة أعدائه الفريسيين . ولكن يظهر أن هؤلاء كانوا مترقبين حضوره ، وكأنهم كانوا واضعين عيونا لهم في برج مجدلة ليلاحظوا شراع مركبه العائد . فأنه بمجرد أن وضع قدميه على الشاطيء أتوا إليه . ولم يكونوا وحدهم بل كانوا مصحوبين هذه المرة - وأى اتحاد مشئوم ! - بمناظريهم وأعدائهم الصدوقيين ، هذه الطائفة المتعصبة ، نصف الدينية ، نصف السياسية ، والتى كان ينتمى إليها فى ذلك الحين رئيسا للكهنة وبعض أفراد الأسرة المالكة . ولقد تألبت عليه كل الطوائف الحاكمة - الفريسيون بمركزهم القوى واحترامهم العظيم الدينى لدى الشعب ، والصدوقيون القليلون في عددهم المعتزون بأموالهم ومقامهم ، والهيروديون المثلون لسلطة الرومان وصنائعهم رؤساء الربع ، والكتبة أعلام المعرفة ورمز السلطة الرجعية - هؤلاء جميعا اتحدوا فى جبهة قوية متآمرة ضده ، مصممين قبل كل شيء على منعه من الكرازة وفصم عرى المحبة بينه وبين القوم الذين صنع فى وسطهم معظم قواته (٢) .

لقد وجدوا بالاختبار أن أمضى سلاح فعال لانقاص قيمة ارساليته وتقويض تأثيره هو أن يطلبوا منه آية ، وآية من السماء . لو كان هو المسيا فلم لا يعطيهم خبزا من السماء كما يظنون أن موسى هو الذى أعطاهم ؟ أين رعود صموئيل ونيران إيليا ؟

---

١ - يقول مرقس البشير " نواحى دلمانوثه " مر ٨ : ١٠ . ولا يعلم شيء مطلقا عن دلمانوثه .

٢ - سيب فى اسرافه المدهش وافكاره الغريبة يقارن بين اليهود فى ذلك العصر وبين طوائف الفكر فى هذا العصر على هذا النحو : (١) الفريسيون = المتطهرون (المعرب : هى طائفة قامت فى المانيا فى اواخر القرن ١٧) . (٢) السنيون = المتصوفون (٣) الصدوقيون = الارستقراطيون (٤) الهيروديون = الملكيون (٥) الغيوروز = الراديكاليون (٦) السامريون = المنبوذون.

لماذا لا تظلم الشمس ، أو يتحول القمر إلى دم ، أو تتناثر النجوم متساقطة ، لماذا لا يهديهم عامود نار فيقتادهم للنصر ، أو لماذا لا تنفتح السماء بظاهرة نورانية (باث كول) فتدعم كلماته ؟

وكانوا يعلمون أنه لن يمنحهم آية مثل هذه ، وأنه قد أعلن لهم الأسباب القوية لرفضه المثلث أن يجيب هذا الطلب غير الروحانى . ولو أنهم عرفوا أو فهموا حقيقة تجربته فى البرية لعلموا أن أجوبته الأولى للمجرب كانت بروح انكار الذات الكامل . ولو أنه أجاب طلبهم فأى فائدة تعود من وراء ذلك ؟ لأنه ليس تأثير القوات الخارجية هو الذى يجعل الحبة الجيدة تنمو (١) ، وانما عنصر الحياة الكامن فى داخلها . ولأنه لا يمكن أن يتغير قلب قاس أو يزول كفر عنيد بالآيات والعجائب ، وانما بالانضاع الداخلى ونعمة الله التي تنسكب مثل ندى السماء بسكون وبدون أن ترى . فلو أنه أتاهم آية لعزاها ناظروها المعاندون إلى قوة الشياطين ، ولفسرها الذين سمعوا خبرها كما تشاء لهم الأهواء ، ولأنكرها جيل مقبل ونظر إليها كأنها اختراع أو أضافها إلى سجل الأساطير .

ولكن رغما عن كل هذا فقد شعر الفريسيون والصدوقيون أن رفضه فى هذا الوقت أن يعطيهم آية هو سلاح له أثره فى إضعاف اعجاب الناس به . غير أنه لم يتردد لحظة في رفض تجربتهم . لن يعمل أعجوبة علوية بناء على أمرهم ، كما لم يعمل بناء على أمر المجرب . فأخبرهم فى الحال كما أخبرهم فيما مضى أنهم لن يعطوا إلا آية يونان النبي ، ثم أشار إلى السماء غربا وقد صارت قانية من وهج الألوان الداكنة عند غروب الشمس [وقال لهم إذا جاء المساء تقولون ان السماء صحو إذ أنها محمرة وفى الصباح تقولون ان اليوم شتاء لاحمرار السماء بعبوسة يا مراؤون تعرفون أن تميزوا

---

١ - يو ٢ : ١٨ و ٦ : ٣٠ و مت ١٢ : ٣٨ .

السماء وأما علامة هذا الزمان فلا تعرفونها] : (١) .

وعندما كان يتكلم تنهد بروحه [مر ٨ : ١٢] . لقد كان غائبا منذ زمان عن موطنه . فى صور وصيدا فتشوا عنه بإيمان وثقة ، وفى ديكابوليس قوبل بترحاب وشكر ، أما هنا فى موطنه فقد جابهوه بعداء قاهر متفاخر تحت ستار الغيرة الربانية . لقد نزل من السفينة إلى السهل الجميل حيث سبق فصنع أعمالا عديدة نبيلة ورحومة ، وتكلم بأحاديث ستظل أبد الدهر خالدة فائقة . وها هو قد عاد ثانية إليه ليعمل فى هذا الاقليم الصغير حيث كانت تسير وراءه الآلاف تستمع إليه بسكوت عميق لكل كلمة ينطق بها . ولكنه ما اقترب من مجدلة ـ تلك القرية الصغيرة التى ارتبط اسمها بأحد أفعال السيد الألهية المملوءة رحمة ـ وعندما اقترب مرة أخرى من المدن الصغيرة والقرى التى منحت شبه مأوى لمن لا بيت له ، وعندما تخطى الشاطىء الكثير الحصى ووطئت قدماه الأعشاب المزهرة التى تزين حافة الماء ، وعندما وقع على أذنه غناء الطيور المتعددة تغرد مرحبة ـ وجد أمامه كل الرياء الملىء بالخيلاء الذى لديانة متداعية قد وقف أمامه حائلا يسد عليه الطريق !

ما كان ليفرض مراحمه قسرا على الذين رفضوها . وكما فى زمن مقبل فضلت أمتهم اللص القاتل على رب الحياة . هكذا الجليليون أيضا الآن فضلوا أن يحتفظوا بفريسييهم ويخسروا مسيحهم ، فتركهم كما ترك الجدريين . وإذ رفضوه ، ولم يسمحوا له حتى بالراحة فى موطنه ، فبقلب مثقل وحزن رزين تركهم . تركهم بلا عودة علنية مرة أخرى ، وإن كان فيما بعد قد زار التخوم المجاورة ولكنه لم يعمل فيها معجزة ولم يعظ أو يعلم (٢) .

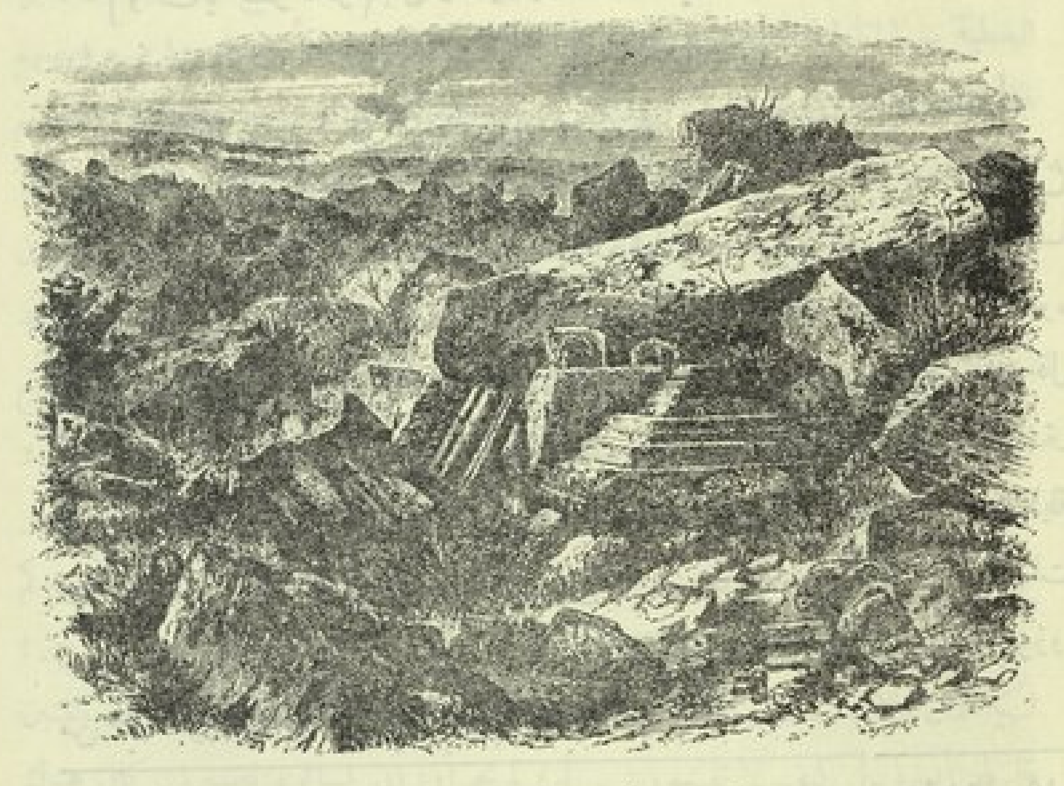
وفى غروب ذلك اليوم وكان الوقت خريفا عاد إلى السفينة ثانية وأمر التلاميذ

---

٢ ـ مت ١٦ : ١ ـ ٤ و مر ٨ : ١٠ ـ ١٣ .

٢ ـ يوجد شىء يؤكد ذلك فى مت ١٤ : ٤ و مر ٨ : ١٣ .

أن يبحروا شطر بيت صيدا جولياس فى الطرف الشمالى للبحيرة . ولا شك أنهم فى طريقهم مروا تجاه الشاطىء الناصع الرمال قرب بيت صيدا الغربية حيث صرف بطرس وأندراوس وابنا زبدى زمان حداثتهم ، وحيث رأوا بمجمع كفر ناحوم برخامه



خرائب كورزين

الأبيض يرمى ظله على ماء البحيرة الخجلة من انعكاس ألوان الشمس الغاربة . هل فى تلك اللحظة التى يترك فيها الجليل عالما تمام العلم أن عمله هناك قد انتهى وانه يبحر منها تحت نير الحزم الجزئى وما يقرب من النفي والموت المحقق ، هل فى تلك اللحظة الرهيبة قد نطق بتلك الويلات الشعرية التى تحق بها المدن غير التائبة التى صنع فيها أغلب قواته ؟

[الويل لك يا كورزين . الويل لك يا بيت صيدا لأنه لو حدثت فى صور وصيدون القوات التى حدثت فيكما لتابتا قديما في المسوح والرماد] .

[لكنى أقول لكم إن صور وصيدون سيرأف بهما فى يوم الدين أكثر منكما] .

[وأنت يا كفر ناحوم هل ترتفعين إلى السماء فسيهبط بك إلى الهاوية لأنه لو حدثت فى سدوم القوات التى حدثت فيك لبقيت إلى اليوم] .

[ولكنى أقول لكم ان أرض سدوم سيرأف بها يوم الدين أكثر منك] .

ولا ندرى إن كانت هذه الكلمات المؤثرة قد قيلت فى هذه الفرصة كوداع صارم محزن لخدمته العلنية فى البلاد التى أحبها أم قيلت فى موضع آخر (١) . ولكنا نعلم بالتأكيد أن نفسه كانت مفعمة بالحزن لعدم إيمان أولئك القوم الذين لم يمكنوه من وضع قدمه فى أرض موطنه ، ولقساوة قلوبهم وظلمة عقولهم وفساد أفئدتهم . قال أحد الخطباء المتعمقين المشهورين « لا يوجد غش للنفس أشنع من ذلك الذى يستر الكره والكذب تحت ستار الصراحة وخلف وظيفة الدين » . وبغض هذه الرذيلة الشنيعة لا بد أنه كان عظيما فى قلب السيد حتى انه عندما سارت السفينة وواصلت العبور ازاء الشاطىء الجميل إلى مرساها شمالى البحيرة قال لتلاميذه [أنظروا وتحرزوا من خمير الفريسيين وخمير هيرودس] (٢) .

---

١ ـ هذه الويلات الفريدة الكاملة قد دونها مت ١١ : ٢٠ ـ ٢٤ ولو ١٠ : ١٢ ـ ١٥ . وسجلها الأول مع أحاديث ولجة سمعان الفريسى والثانى مع إرسالية السبعين . وربما كان من الخطر ابداء الرأى فى انه قال هذه الكلمات المملوءة جلالا رزينا وتحذيرا خالصا أكثر من مرة . ولما كان متى البشير لم يراع بالمرة الترتيب الزمنى فأنا لا نجد مكانا أنسب لقولها إلا هذا الحين . ان لهذه الكلمات نبرة وداعية ، وزيارته القريبة لصور وصيدا تعطيها أهمية خاصة هنا . وذكر كورزين التى لا يعلم عنها شىء برهان ـ إن احتاج الأمر إلى ذلك ـ على أن البشائر كتبت كملاحظات متقطعة . وربما كانت مدينة داخلية ـ أبعد من تل حوم بثلاثة أميال ـ وقد اكتشف الدكتور روبنسون خرائبها المسماه كرزاه .

٢ ـ أو (خمير الصدوقيين) لأن أغلب الهيروديين كانوا منهم .

لم يزد شيئا ، فقلبت بساطة التلاميذ الغريبة المعنى الذى أراده وفسرت كلماته بجهالة . كانوا كثيرا ما يأخذون تعابيره التمثيلية حرفيا وتعابيره الحرفية تمثيليا . عندما قال [لى طعام لستم تعرفونه] قالوا هل أتاه أحد بطعام . وعندما قال [لعازر حبيبنا قد نام] أجابوا [يا سيد ان كان قد نام سيشفى] . وهنا ، مع أن الخمير كان رمزا للخطية سيما الخطية المخفاة أو الخطية غير الظاهرة ، فانهم بعد أن تشاوروا مع بعضهم قالوا انه ربما يحذرهم من شراء خميرة الفريسيين والصدوقيين ، أو ربما كان يوبخهم بطريق غير مباشر لأنهم فى حزنهم وعجلتهم وسفرهم المفاجىء لم يحضروا معهم إلا رغيفا واحدا ! وحزن يسوع لعدم فهمهم ولحرفيتهم الجهولة هذه . كيف يفتكرون أن ذلك الذى بكلمة منه قد تباركت وتكاثرت الأرغفة والأسماك حتى انهم جمعوا بعد أن أشبع الخمسة آلاف اثنتى عشرة قفة ، وبعد أن أشبع الأربعة آلاف جمعوا سبع سلال من الكسر الباقية ، كيف يفتكرون بعد هذا أن هناك أى خطر عليه أو عليهم من ألم الجوع ؟ لذلك كان هناك شىء من الغضب فى الأسئلة السريعة التى أظهر بها خطأهم دون أن يصحح ظنهم إذ قال لهم [ما بالكم تفكرون ان ليس عندكم خبز ؟ أحتى الآن لا تعلمون ولا تفهمون ؟ أقلوبكم عمياء ؟ لكم عيون ولا تبصرون ! لكم آذان ولا تسمعون ! ولا تذكرون !] . وبعد أن ذكرهم بالأعجوبتين السالفتين قال لهم أيضا : [كيف لا تفهمون] ؟ لم يجرأوا أن يسألوه تفسيرا . كان هناك شىء يثير الخوف ويعلى من شخصيته السامية تغلب على حبهم الشديد له . أسكتهم جارف من الاحترام القاهر . ثم بدأ يشرق عليهم أن شيئا آخر هو المقصود ، وانه ما كان يحذرهم من خمير الخبز ولكن من تعليم الفريسيين والصدوقيين .

وفى بيت صيدا جولياس ـ غالبا فى اليوم التالى ـ قدموا إليه أعمى لكي يشفيه . وقد أتم له الشفاء بطريقة مشابهة جدا للتى شفى بها الرجل الأصم والأخرس الذى من ديكابوليس . لم تكن فيها السرعة أو الاستجابة العاجلة التى لمعجزاته الأولى . ثم هى

تخالف بقية معجزاته المكتوبة . فقد أمسك يسوع بيد الرجل وأخرجه خارج القرية، وتفل في عينيه، ووضع يديه عليهما، وسأله ماذا يبصر . وتطلع الرجل بعيدا ، وإذ لم يكن قد شفي تماما بعد قال [انى أرى الناس كأشجار يمشون] . ولم يبصر الرجل جيدا إلا بعد أن وضع يسوع يديه مرة ثانية عليه، فرأى جليا . وأرسله إلى بيته الذي لم يكن في بيت صيدا، لأنه منعه بتأكيد وتكرار ألا يدخل المدينة ، وألا يخبر



خرائب قيصرية فيلبي

أحدا فيها . ولا يمكننا تفسير أسباب الخطة التي سلكها يسوع هنا . ولقد نجمت

استحالة فهم الأمور التى جعلته يختار هذا السبيل من اختصار الحديث على النحو الذى رواه به البشير - كما هو الغالب مع الكتاب الخبيرين بالموضوع - إذ ترك تفصيلات عديدة كانت عنده واضحة جدا فظن أنها لا تخفى على أحد ممن يطالعون بشارته .

وكل ما يمكن أن نستنتجه هو نفور يسوع وتجنبه لهذه البلاد الهيرودية ، شبه الوثنية بطرق بنائها المستعارة عن اليونانية ، وبعوائدها المستهجنة وبتعريجها بين عبادة الأصنام، وحتى بأسمائها - مثل بيت صيدا جوليباس - التى تخلد بعضا من أحط صنوف البشرية (١) . ونحن نعلم من البشائر ذاتها أن غنى وقوة المعجزة يتناسبان وايمان المنعم عليه . فكان من الطبيعي أن تكون المعجزات قليلة وتدريجية فى الأماكن التى كان فيها الايمان يسيرا (٢) .

ثم ترك يسوع بيت صيدا جولياس وتوجه شطر قيصرية فيلبس . وقد نص صراحة على أنه لم يدخل المدينة نفسها ولكنه زار نواحيها والقرى المحيطة بها (٣) . ولم يذكر لنا السبب الذى دعاه لأن يتوجه إلى هناك . كانت بلدة قد رأت كثيرا من تصاريف الزمان والحدثان . غالبا كانت هى بعل جاد التى ذكرها يشوع [يش١١: ١٧]، إنها لم تكن بعيدة عن تل القاضى الذى هو الحد الشمالى لمملكة اسرائيل ومركز عبادة الأوثان الممثلة فى العجل الذهبي ، إذ أن مدينة « لايش » التى يملكها الصيداويون القليلو الاهتمام ومدينة « دان » كانتا المعقل المهم لأحدى قبائل حروب اسرائيل . ثم استعمرها اليونان وغيروا اسمها إلى « بانياس » إجلالا للمعبد الكائن فى المغارة تحت

---

١ - لقد سمى هيرودس فيلبس عاصمته الجديدة تكريما لجوليا ابنة الامبراطور أوغسطس التى أنكرها .

٢ - ما من أحد درس البشائر يقول ان هذا " اعلان خطر " . وحتى لو كان الأمر كذلك لكان دليلا جديدا على الصدق الكامل للبشائر (مت ٨ : ٥٨ و مر ٦ : ٥ و ٨ و ٩ : ٢٣) الخ.

٣ - مت ١٦ : ٢٣ و مر ٨ : ٢٧ .

تلها العالى ، والتي زركشت صناعيا كمعبد « لبان » وزينت بالأقبية التى كانت تحوى وقتاما تماثيل حورياته النافرة من الغابات . ولما صارت عاصمة لهيرودس فيلبس غير اسمها اكراما لاسمه واسم ولى نعمته طيباريوس . وربما تفرس يسوع باهتمام في قمة الجبال النبيلة ليبانوس والجبال المواجهة لها أيضا ، وربما أيضا قد راقب القمة الفخمة المكسوة بالثلوج التى لجبل حرمون وهى تتلمع ناصعة فى الفجر أو قانية في الغسق ، وربما يكون قد تجول حول بحيرة « فيالا » وشاهد النبع الغزير الذى كانوا يعتقدون أن الأردن بعد مجرى طويل تحت الأرض يتفجر ويبدو بهيجا للعيان فى هذا المكان لأول مرة . ولا ريب أنه نظر بحزن إلى المدينة ذاتها وهو يذكر ارتدادها عن اليهودية ومماثلتها الضئيلة للعظمة الرومانية وتماثيلها المحطمة الموجودة فى مغاراتها الدنسة الهيللينية .

لكن حدث أثناء ارتحاله شمالا ما يصح أن يقال عنه بأنه الذروة فى كرازته على الأرض (١) . فالجموع التى كانت تتجمهر حوله فى المدن الآهلة كانت هنا تتبعه من بعيد . تلاميذه وحدهم كانوا قريبين منه وهو واقف فى صلاة انفرادية . وعندما انتهت صلاته أومأ إلى تلاميذه أن يقتربوا إليه وهو يتابع ارتحاله وسألهم السؤالين الأعظمين اللذين يترتب على إجابتهما مستقبل عمله كله على الأرض .

سألهم أولا [عما يقول الناس من هو ابن الانسان] .

كانت الاجابة مفجعة . لم يجرأ الرسل ولم يريدوا إلا أن ينطقوا بكلمات الصحو والحق ، وأعلنوا الصدق الكاسر للقلوب بأن الدنيا لم تعرف المسيا الذى أتى لخلاصها ، ولم يقدروا إلا أن يكرروا الظنون الكسولة التى تلوكها ألسنة الناس . فقالوا إن قوما - يرددون صدى ضمير انتيباس المثقل بجرمه - يقولون انه يوحنا المعمدان . وآخرون ممن سمعوا توبيخاته القاسية التى لحزنه المثار رأوا فى هذه الأقوال القوية

١ - مت ١٦ : ١٣ - ٢٨ و مر ٨ : ٢٧ - ٩ : ١ و لو ٩ : ١٨ - ٢٧ .

نبرات صوت الرعود فقالوا انه إيليا جديد . آخرون ممن أصغوا إلى أحاديث الحنان وكلمات المحبة العامة رأوا فيه روح الرثاء التي لأرميا وقالوا انه عاد ثانية ربما ليرد إليهم الأوريم الضائع والتابوت المفقود . وآخرون وهم الغالبية المطلقة قالوا انه واحد من الأنبياء . فما من أحد - رغما عن الهتاف الذى دوى أحيانا معلنا أنه المسيا من الجماهير المندهشة عند ظهور احدى أعاجيبه الخارقة - قد حقق من هو . النور قد أضاء فى الظلمة [والظلمة لم تدركه] .

[فقال لهم وأنتم من تقولون إني أنا] ؟

لو أن هذا السؤال العظيم قد أجيب عليه بغير ما قيل ، بل لو أمكن أن يجاب عليه بخلاف ما قيل ، ربما كان قد تغير مستقبل العالم ، وأن رسالة المخلص - أتكلم إنسانيا - تكون قد خابت ، وأن المسيحية وملكوت المسيح ما استقرتا قط ، فان معظم عمل المسيح على الأرض كان بين تلاميذه . هو زرع البذار وهم حصدوا الثمار . هو جددهم وهم جددوا العالم . لم يعلن للآن صراحة أنه المسيا . حقيقة إن يوحنا شهد له ، وحقيقة قد أوضح بكلامه وعمله للذين قدروا أن يقبلوه انه ابن الله ، ولكن باشارة غير مباشرة إذ كان يرغب أن يضيء نور هذا الاعلان شيئا فشيئا على عقول بنية ، وأن ينير عليهم من الحقائق التي يتكلم بها ، ومن الحياة التي يحياها ، وليس من العجائب التي صنعها ، وأن يحمل إليهم - لا بأصوات رعود وبروق وسلطان علوى خارق للطبيعة ولكن بواسطة حياته الخالية من الاثم الفائضة بالتضحية - انه بقداسة ابن الانسان عليهم أن يتحققوا من عظمة ابن الله .

ولكن كانت الاجابة - لأنه قد كتب منذ البدء فى سفر الدهور أن تكون هكذا - وكان لبطرس ، الحار القلب ، مرنم جوقة الرسل ، الشرف الخالد أن يكون البوق الذى نطق بها :

[أنت هو المسيح ابن الله الحى] .

جواب بطرس بكل ما فيه من ملء الحكمة وأكيد الايمان قد كفر عن نقص معرفة الجموع (١) . وقد أظهر انه قد وضح أخيرا السر المخفى عن الأجيال والأزمنة . وها قد تحقق الرسل على الأقل أن يسوع الذى من الناصرة هو المسيا المنتظر من أمتهم . وليس هذا فقط ، ولكن قد أعلن لهم بنعمة من الله خاصة أن المسيا المرتقب كان رئيسا وحاكما وابنا لداود ، وأعظم من كل هذا ، كان [ابن الله الحي] .

وبعظمة رهيبة وافق المخلص على هذا الاعتراف العظيم . [فأجاب يسوع وقال له طوبى لك يا سمعان بن يونا (٢) ان لحما ودما لم يعلن لك هذا لكن أبى (٣) الذى فى السموات . أما أنا فأقول لك أنت بطرس (بترس) وعلى هذه الصخرة (بترا) سأبنى كنيستى وأبواب الجحيم لن تقوى عليها . وسأعطيك مفاتيح ملكوت السموات فما تربطه على الأرض يكون مربوطا في السموات وما تحله على الأرض يكون محلولا فى السموات] (٤) .

---

١ ـ (أجاب سمعان بطرس و " قال ") وليس " تقول " . كان بطرس الرسول واحدا بين أولين وقائدا بين الأنداد . ولو كان أزيد من ذلك أو لو أن كلمات يسوع هذه منحته أى ظل من الرفعة عن باقى الرسل فكيف طلب يعقوب ويوحنا أن يجلس واحد عن يمينه والآخر عن يساره ؟ وكيف تشاجر الرسل على الأقل مرتين بعد هذا عمن يكون الأعظم بينهم .

٢ ـ بمثل هذا خاطبه يسوع فى مناسبات أخرى عظيمة (يو ٢١ : ١٥ ـ ١٧) .

٣ ـ ليست الكلمة اليهودية المعتادة " أبينو " أى " أبانا " ولكن " أبى " .

٤ ـ الجناس اللفظى المبنى على قواعد اللغة أمر شائع فى كلمات المفكرين العظام فى كل أمة ولسان . والأغلب أن السيد كان يتكلم بالآرامية . وبها كلمتا (أبواب الجحيم) هى " شارية شيول " فيها جناس بديع . كذلك (أنت كيفاس وعلى هذه الكيفا) الخ . وكثير من المفسرين العظماء من الأجيال الأولى إلى يومنا هذا قد قرروا ان (هذه الصخرة) تعنى إما اعتراف بطرس أو تعنى المسيح (راجم وردسورث) ولكن على كلا التفسيرين توجد صعوبة فى فهم القوة التى تنطوي فى كلمة (أنت بطرس) ومن جهة أخري وصف الناس بأنه الصخرة

إلى هذا الحين لم ينطق يسوع بكلمات أعظم من هذه . كانت هذه شهادته هو عن نفسه . وكانت الوعد أن كل من يقبل هذا الكلام يكون مباركا . كانت تدعيم الحقيقة التى لا يقدر أن يقرها أحد إلا بارشاد روح الله . كانت الاعلان للبشر طرا أنه ليس بالمعرفة الأرضية، ولكن بالنعمة الالهية ، يمكن أن تقبل هذه الحقيقة .كانت بمثابة وضع حجر الزاوية فى كنيسة المسيح ، والمرة الأولى التى نطقت بها هذه الكلمة الخالدة التى زاملت وامتزجت بعدئذ بتاريخ العالم (١) . كانت الوعد أن هذه الكنيسة المؤسسة على صخر هذا الاعتراف الموحى به ستبقى ولا تقوى عليها قوات الجحيم . وكانت كلمات السيد الانعام على هذه الكنيسة فى شخص ممثليها بسلطان الحل والربط ، والغلق والفتح ، والوعد بأنه إذا استعملت هذه القـــوة بأمانة على الأرض يوافق عليها فى النهاية فى السماء .

قال العظيم بنجل « كل هذه الحقائق يمكن تفصيلها بإيقان لكن أى شأن لها بروما ؟ » (٢) فليغص من يشاء فى كل المجادلات التى أوجدها تحريف معنى هذه الكلمات الخالدة التى نقشت داخل القبة الكبيرة لكنيسة القديس بطرس . ولكن تكفى قوة ضئيلة لهدم الاهرامات المقلوبة الغريبة لهذه المجادلات التى بنيت عليها . ولولا أنها مسألة تاريخ لكان من غير المصدق كيف أنه على أساس خيالى مثل هذا

بعيد جدا عن لغة الكتاب (من هو صخرة غير الهنا) ٢ صم ١٢ : ٣٢ و مز ١٨ : ٣١ و ٦٢ : ٢ و اش ٢٨ : ١٦ وعلى الخصوص ١ كو ٣ : ١١ و ١٠ : ٤ . المفتاح رمز يهودى معتاد عن السلطة (اش ٢٢ : ٢٢ و لو ١١ : ٤٢) . سأعود إلى هذا ثانية .

١ ـ من المهم أن نلاحظ أن كلمة كنيسة لم ترد فى البشائر إلا مرة ثانية غير هذه فى مت ١٨ : ١٧ .

٢ ـ الآيات التالية وحدها تثبت أن بطرس الرسول لم يكن له سلطان أعلى أو سيطرة على باقى الرسل : مت ١٨ : ١ و اف ٢ : ٢٠ و رؤ ٢١ : ١٤ و ٢ كو ١١ : ٥ و ١٢ : ١١ و غلا ٢ : ٩ ـ ١١ و لو ٢٢ : ٢٤ ـ ٢٦ و يو ٢١ : ١٩ ـ ٣٢ الخ .

بنى الادعاء التعصبي لقوة يتمسك بها أساقفة كنيسة من المؤكد تقريبا أن بطرس الرسول لم يؤسسها ، وفى مدينة لا يوجد برهان واحد غير مشكوك فى صحته على أنه قد وضع قدمه فيها . ونحن نأمل أن طغيان الكهنوت الرومانى وعجرفته المظيمة ، والاستعمال المشين للاعتراف ، والقوة الخيالية للتحلل من القسم واليمين ، والادعاء الأشعبي الباطل بوجود حق التحكم فى السلطة المدنية والسيطرة عليها ، والاغتصاب المتطرف للعصمة فى استعمال الأسلحة الخطرة للأناثيما وإعادة الحل ، ومظالم البابوية الفاحشة ، وقساوة محاكم التفتيش الشنيعة - نأمل أن كل هذه المخالفات قد مضت وانتهت ولن يكون لها قيام إلى الأبد . أما كنيسة المسيح فقد بقيت وكان الرسل فيها حجرا حيا وأساسا قويا ، وقوات الجحيم لم تقو عليها ، ولا زال لها السلطان أن تفتح على وسعها أبواب ملكوت الله ، ولا زال فى مقدورها أن تحررنا من الفروض والتقاليد الكسولة وأحمال الطقوس والتعاليم البابوية الخالية من المعنى ، ولا زال لها القوة التى تثبت فى قلوبنا وضمائرنا حقائق الديانة المعلنة والقوانين الأبدية للناموس الأدبي والفضيلة .

ولقد تم هذا الوعد العظيم لبطرس بسخاء عظيم لأنه هو الذى ذير فى يوم الخمسين (البندكوستى) الجماعة الأولى الغفيرة من اليهود الذين قبلوا الايمان المسيحى ، ولأنه هو الذى قبل الأممي الأول (١) وأدخله إلى كامل النعم المسيحية . كان اعترافه العظيم مثل الصخرة بنى عليها ايمان كثيرين . قد تتألب قوات الجحيم فتهزمهم ولكن لن تقوى عليهم . ولكن كما أضاف واحد (٢) من أحمق وأكرم وأعلم آباء الكنيسة

---

١ - قد لمح بطرس نفسه إلى أن هذه الحقيقة هى كمال وعد المسيح (اع ١٥ : ٧) .

٢ - أوريجانوس . للبحث المستفيض فى هذا الحديث المهم يجب مراجعة الكتب اللاهوتية . غير أنى ألفت النظر للعظة القيمة الهادئة " الاعتراف والحل " لصديقى المستر بلمتر (سنة ١٨٧٤) والتى فرق فيها بوضوح بين ثلاث أشياء كثيرا ما تختلط على الفهم (١) المفاتيح (٢) سلطان الحل والربط (٣) قوة غفران الخطايا وامساكها . ١ - اعطاء المفاتيح (وكان هذا جزءا من

الأولى «إن اعترف أى أحد بما لا يمكن أن يعلنه لحم ودم بل الآب الذى فى السماء فهو أيضا ينال هذه البركات الروحية الموعودة» .

يمكن أن يقال إن المخلص من هذا الحين قد أكمل جزءا عظيما من عمله على الارض لأن رسله قد تيقنوا سر شخصيته . ولقد وضعت الأساسات ويسوع نفسه حجر الزاوية الكريم الذى سيقام عليه البناء العظيم .

ولكنه أمرهم ألا يذيعوا هذه الحقيقة الآن ، فان وقت التبشير بها لم يحن بعد . وكانوا يجهلون بالتأكيد الطريق الأمثل لاظهارها ، إذ لم يكونوا قد تثبتوا تماما في الايمان لدرجة أن يقفوا معه فى ساعة الشدة . إلى الآن سيعرف فقط أنه المسيح أولئك الذين تراه مباشرة بصيرتهم الروحية فى حياته وأعماله أنه هو . انه هو الذى [لا يخاصم ولا يصيح ولا يسمع أحد فى الشوارع صوته][1] . ولكن بعد أن يثبت ايمانهم بقوة قيامته دون أى ارتياب أو زعزعة ، وبعد أن تمتلىء قلوبهم من جدة روح قدس الله ، وعندما تكرس جباههم نهائيا بسيف لهيب «البندكوستي» ، فحينئذ - وليس قبل ذلك - تأتى الساعة التى يعلمون فيها الشعوب أن يسوع هو حقا ابن الله الحى .

ومع أنهم قد عرفوا الآن من هو إلا أنهم لم يعرفوا شيئا عن الطريق الذى سيتم

رسم الكتبة وتدشينهم) معناه فتح كنز الوحى الألهى ومنحه لتلاميذ المسيح قارن مت ١٣ : ٥٢ و لو ١١ : ٥٢ و مت ٢٣ : ٤ . ولا بد أن فهم منها سامعوها سلطان تعليم الكنيسة . ٢ - سلطان الحل والربط ومنح فيما بعد لكافة الرسل (مت ١٨ : ١٨) أعطاهم سلطانا مثل الذى للربيين الذين حسب مدرسة شماى كان لهم سلطان الربط وحسب هليل سلطان الحل أى اعلان ما هى التعاليم التى تتمسك أو لا تتمسك بها الكنيسة (مت ٢٣ : ٤ و اع ١٠ : ٢٨) أى سلطان التشريع فى الكنيسة . ٣ - قوة غفران الخطايا وامساكها (يو ٢٠ : ٢٢ و ٢٣) وهو سلطان يفوق السالفين ويرفضه الكتبة بشدة أى سلطان النبوة فى الكنيسة وله اتصال بموهبة الروح القدس لمغفرة الخطايا .

١ - مت ١٢ : ١٩ و اش ٤٢ : ١ .

به مقاصده الألهية . إذن قد حان الوقت لنزداد استعدادهم . لقد جاء الوقت ليعلموا انه وإن يكن ملكا قاهرا فان مملكته ليست من هذا العالم . لقد حان الوقت ليطفىء فيهم إلى الأبد كل الآمال الأرضية الباطلة للمجد والعظمة والرق فى مملكة المسيا ، بل يجب أن يفهمـــوا أن ملكوت الله ليس أكلا أو شربا ، بل برا وســـلاما وفرحا فى الأيمان .

وعلى ذلك فقد بدأ بسكون وايقان أن يتحدث لهم عن زيارته العتيدة لأوروشليم ، ورفضه من رؤساء أمته ، والاهانات والآلام التى تنتظره ، وموته العنيف ، وقيامته فى اليوم الثالث . كان قد سبق فتنبأ لهم باعلانات بعيدة وبايعازات مختلفة (١) عن آلامه القادمة ، ولكن الآن يتحدث لهم علانية وبكامل حرية الحديث (٢) . فأعلمهم أنه سيرفض من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ، أى من كل ذوى السلطة والكرامة والمهابة فى أمته ، ولكنه لم يقل انه سيسلم إلى الأمم . وأخبرهم أنه ينبغى أن يموت ، ولكنه أبقى الحقيقة المخيفة أنه سوف يصلب إلى زمان رحلته الأخيرة لأوروشليم (٣) . كان يكشف لهم غيب المستقبل بالدرجة التى يحسنون احتمالها ، ومع ذلك ، لكي يقلل حزنهم ويقوى ايمانهم ، قال لهم بوضوح تام انه سيقـــوم ثانية في اليوم الثالث .

ولكن العقل البشرى له ميزة غريبة فى رفض كل ما لا يستطيع أن يفهمه ، وفي

---

١ ـ مت ١٠ : ٣٨ و يو ٣ : ١٤ (ابتدأ ... أن يخبر) مت ١٦ : ٢١ . تدرج فى الاعلان ووضوح فى التنبؤ يلاحظ كلما قرب الوقت (مت ١٦ : ٢١ و ١٧ : ٢٢ و ٢٠ : ١٨ و ٢٦ : ٢) .

٢ ـ مر ٨ : ٣٢ اعلانات أسبق ولكن أقل وضوحا فى يو ٢ : ١٩ (اهدموا هذا الهيكل) و ٣ : ١٤ (يرفع ابن الانسان) يو ٦ : ٥١ (... هو جسدي الذي سأبذله عن حياة العالم) مت ٩ : ١٥ (... يرفع العريس من بينهم) مت ١٦ : ٤ (آية يونان النبي) .

٣ ـ مت ١٦ : ٢١ و ٢٠ : ١٩ . وعلى أى حال فان طريقة موته قد أوضحت فى تمثيل (يحمل صليبه ... ويتبعنى) الذي قيل بعد ذلك مباشرة مت ١٦ : ٢٤ .

تجاهل ونسيان كل ما لا يقع فى دائرة اختباراته السالفة . والتلاميذ ، الأمناء دائما ، البسطاء دائما فى شهاداتهم ، لم يخفوا عنا جمود بصيرتهم الروسية ولا طغيان الأفكار اليهودية على عقولهم (١) . لقد سمعوا اعلانه هذا ولم يفهموه [أما هم فكانوا غافلين عن هذا الكلام . وكان مستورا عنهم] (٢) . وهنا كما فى مواضع أخرى متعددة كان يقع خوف الهى عليهم [وخافوا أن يسألوه] (٣) . كان التنبؤ عن موته بعيدا جدا عن كافة ما تعودوه وعن منحى أفكارهم حتى انهم تغافلوه كأمر غير مفهوم غير جدير بالتقدير . كان سرا لم يستطيعوا إماطة اللثام عنه . أما عن القيامة ، فحتى عندما تنبأ ثانية لأكثرهم روحانية ، فانهم اقتصروا على التساؤل فيما بينهم عما هوا القيام من الأموات (٤) .

لكن بطرس فى تسرعه واندفاعه ظن أنه قد فهم ، وظن أنه قادر على المنع ، فقاطع هذه الأحاديث الرهيبة بغيرته الجهولة العابثة . الوحى الذى جعله يرى وينطق بالاعتراف العظيم الجديد ، ثم التقريظ الباهر الذى ناله ، والوعد الذى منح له ، كل هذا قد تجمع فانتفخت عقليته وقلبه ، فأمسك يسوع (٥) من يده أو ثوبه واقتاده خطوة أو اثنتين بعيدا عن باقي الرسل وابتدأ ينصح ويأمر وينتهر سيده ويقول له : [حاشاك يا رب . أن يحدث لك هذا] (٦) . وللحال بلهب سريع من غضب مفاجيء وبخه السيد لدنيويته وجسارته ، وأشاح عنه وثبت عينه على باقي الرسل وتكلم فى مسامعهم .

---

١ ـ مت ١٥ : ١٧ و ١٦ : ٧ و يو ٤ : ٣٢ و ١١ : ١١ و ١٢ و ١٦ .
٢ ـ لو ٩ : ٤٥ .
٣ ـ مر ٩ : ٣٢ و لو ١٢ : ٥٠ و ١٨ : ٣٤ .
٤ ـ مر ٩ : ٩ .
٥ ـ مت ١٦ : ٢٢ و قارن مر ٨ : ٣١ و ٣٢ .
٦ ـ معنى الكلمة الأصلية " لا قدر الله " " لا سمح الله " " منع الله هذا " ومعناها الحرفى " ليرحمك الله " وليس كما ورد فى بعض التفاسير " ارحم نفسك " .

لأنه جيد أن الذين سمعوا كلمات الوعد الوسيع يسمعون أيضا التوبيخ المريع . وقال له : [تخلف عني يا شيطان ! أنت عثرة لي لأنك لا تفكر في ما لله بل في ما للناس] . فكرك هذا البشرى الجسدانى ، جهدك هذا لتبعدني عن صبغة الموت ، هو خطية ضد المقاصد الأزلية (١) . كان يجب أن يتأكد بطرس - وليت الكنيسة التى تجاهر أنها قد ورثت عنه مزايا خاصة فائقة تأكدت فى ذات الوقت - أنه أبعد من أن يكون معصوما ، وأنه معرض للخطأ والسقوط فى لحيظة واحدة من أعالى المعرفة الألهية إلى أسفل الجهالة الأرضية .

[اذهب خلفي يا شيطان] (٢) : هى نفس الكلمات التى قالها للمجرب فى البرية . كان التوبيخ صارما ، ولكن ربما يحمل لآذاننا معنى أكثر شدة مما للآذان التى سمعته . كلمة « شيطان » لا تعنى أكثر من « عدو » . وفى كثير مما جاء فى العهد القديم لا تعنى العدو الأكبر لجنس البشر (٣) . وأطلقت أيضا على الملائكة المعاندين ، بل كانت ولا زالت عند اليهود وأهل الشرق عامة تطلق على كل ما هو جرىء أو قوى أو خطر

---

١ - يقول ستير " أخطر الناس علينا هم أولئك الذين يودون لنا الخير إن كانت أفكارهم دنيوية فقط " . وآسفاه . . أشد أعداء الانسان الحقيقيين هم أهل بيته ، أصدقاؤه ، أكثر الناس حباله ، إذ فى دنيويتهم يصبحون ألد الأعداء . إذ يجرونه من علو وسمو تضحية النفس إلى ما هو مادي وعادي ومريح ودنيء .

٢ - مت ١٦ : ٢٣ و مرقس ٨ : ٣٣ .

٣ - مثال ذلك فى عدد ٢٢ : ٢٢ - ٣٢ حيث نفس الكلمة قد وردت مرتين عن الملاك الذي أرسل لايقاف بلعام امل ١١ : ١٤ قيلت عن هود و ٢٣ عن رازون . ١ صم ٢٩ : ٤ استعملها الفلسطينيون عن داود . راجع أيضا مز ١٠٩ : ٦ وهامشه . وكذلك فى أقوال الربيين قد ورد " عندما ينطح ثور رجلا فان الشيطان هو الذى يقفز من بين قرنيه " وقال الربى سمعون " عندما تعري امرأة شعرها تجلس الشياطين على رأسها " . إن كلمة " شيث " أو " شيطان " تطلق على كل شخص ماكر قدير شقى .

أو عدو سرى أو مخاصم علنى . أما استعمالها فى هذا الحادث فقد كان لأن بطرس قد اتخذ طريق الجدل الذى استعمله ابليس فى البرية . وأما تسمية بطرس [عثرة] فقد كان فيها اشارة إلى اسمه إذ شبهه بالصخر الملقى فى الطريق يعثر المارين . ولاشك أن هذا التعبير قد نقش فى ذهن الرسول عميقا حتى انه قال ان [حجر الزاوية] يصير للذين لا يؤمنون [حجر صدمة وصخرة عثرة] ابط ٢ : ٨ .

وبعد أن وبخ هذه المحبة الجهولة وحذر رسوله الجرىء من هذا التخاذل غير الروحي انتهز فرصة هذه الحادثة وأدلى ببعض تعاليمه العميقة الخالدة التى خاطب بها ليس تلاميذه فقط بل الجموع أيضا (١) .فقد ذكر عرضا فى بشارة مرقس أنه حتى فى تلك الأماكن (٢) القاصية كانت تتبعه جموع تسير على مسافة قليلة وراءه هو وتلاميذه، وكانت تدعى أحيانا إلى حضرته لسماع كلمات النعمة الخارجة من فيه. وهؤلاء كتلاميذه قد سرت فيهم الفكرة التى أوحت تدخل بطرس الجسور . فلهم أيضا قد تحدث بالكلمات التى علمتنا وتعلمنا إلى الأبد أن روح الواجب ومعنى الحياة الحقة ، وكذلك خدمة الله المقبولة ومثل النبل الأعلى ، مدخرة فى قانون تضحية النفس . ففى هذه الفرصة تحدث بالكلمات القليلة التى كان لها تأثير لا يمحى فى عقول الناس : [فانه ماذا ينتفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه أو ماذا يعطى الانسان فداء عن نفسه] .

وبعد أن حذرهم وتنبأ لهم أنه سيحاكم ، عزاهم من صدمة هذا الاعلان غير المنتظر بتأكيده أن بعضا من القيام لن يذوقوا الموت حتى يروا ابن الانسان آتيا فى ملكوته . وإذا فسرنا ملكوت ابن الانسان روحيا كما هو ظاهر في البشائر فلا توجد صعوبة فى تفسير هذه النبوة ، إذ يكون معناها أنه قبل أن يموتوا جميعا تكون أساسات ملكوته قد ثبتت إلى الأبد وزال العتيق وشيد الجديد . ثم ان ثلاثة منهم

---

١ ـ لو ٩ : ٢٣ .

٢ ـ قارن مر ٨ : ٣٤ و ٧ : ٢٤ .

قد رأوه عقب ذلك مباشرة متجليا ، وان جميعهم خلا واحدا سيرونه قائما من الأموات، وان واحدا على الأقل - التلميذ الحبيب - كان سيبقى حيا إلى سقوط أوروشليم وخراب الهيكل الذى يجعل اتمام ناموس موسى حرفيا مستحيلا . وربما تكون لهذه النبوة معان أعمق وأحق لأنها أكثر روحانية (١) . قال القديس امبرواز « ان كنا نريد ألا نرهب الموت فلنقف حيث المسيح . المسيح حياتك ، وهو ذات الحياة التى لا يمكن أن تمــــوت ».

١ - يظهر أن مترجمى الانجيل الأقدمين فهموا أن أول اتمام لهذه النبوة هو التجلى . فالحقوا عددا من مرقس ٩ للاصحاح الثامن . قارن أيضا ٢ بط ١ : ١٦ " معاينين عظمته " بمعنى التجلى وإليه عزى قوة مجيء المسيح راجع أيضا ابو ١ : ١ و ٤ : ١٤ .



جبل حرمون

الفصل السادس والثلاثون

التجلّي

(ونحن سمعنا هذا الصوت مقبلا من السماء
إذ كنا معه فى الجبل المقدس) ٢ بط ١ : ١٨

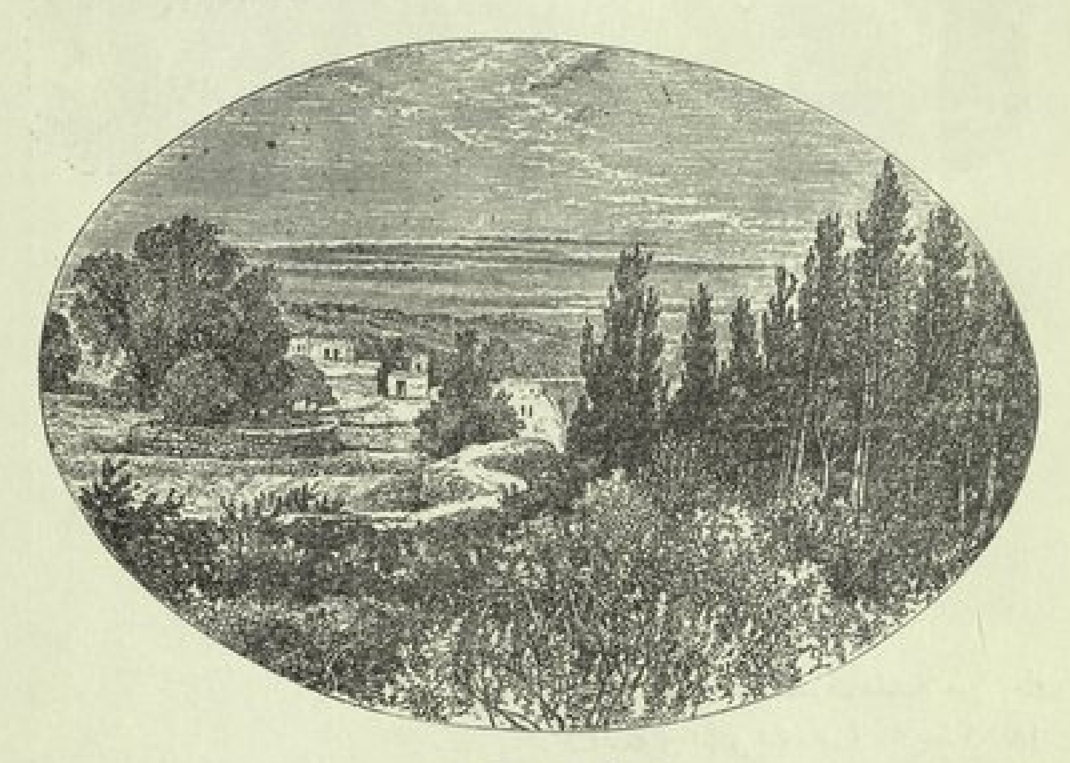
لم يخبرنا أحد من البشيرين عن الأسبوع الذى تلا الحادث السالف الخالد . ولكنهم يذكرون فقط أنه [بعد ستة أيام] [1] قد أخذ الثلاثة الأعزاء

---

١ - مت١٧ : ١-١٣ ومر٩ : ٢-١٣ ولو٩ : ٢٨ - ٣٦ (بنحو ثمانية أيام) التى ذكرها لو فى العدد ٢٨ عدد ضمنى يثبت بجلاء استقلاله فى ايراد الخبر كما ذكر أيضا وحده تفصيلات عديدة جديدة .

من تلاميذه وأكثرهم استنارة [وصعد بهم] ـ وهذا التعبير فى اللغة الأصلية يشعر بالأهمية وبتوقع حدث خاص (١) ـ إلى جبل عال أو كما أسماه لوقا البشير [الجبل] بالتعريف .

ولقد تغلغل فى تقاليد الكنيسة المسيحية لأجيال عديدة أن الجبل المذكور هو جبل طابور ، حتى انه على هذا الاعتقاد قد بنيت هناك ثلاث كنائس ودير قبل الجيل السادس . ولكن من المؤكد تقريبا أن طابور لم يكن مكان هذا التجلى العظيم



خرائب قيصرية فيلبس

لأن قمة طابور المستديرة المكللة بالأشجار وهذا الجبل الجميل الذى يؤلف قطعة فريدة من المنظر الطبيعي الذى يصادف المسافر فى الحد الشمالى لوادى أزدراليون كانا من

١ ـ قارن لو ٢٤ : ٥١ .

الزمان القديم بقعة آهلة بالسكان والحصون . ويوسيفوس نفسه قد أعاد لأقل من ثلاثين سنة بعد الوقت الذى نحن بصدده تقوية الحصن المسمي إيتابيوريون . فلم تكن هذه البقعة تصلح بحال أن يأخذ فيها يسوع ثلاثة من تلاميذه [منفردين] . فضلا عن أنه لم يذكر أحد من البشيرين أنه قضى الستة أيام التى بين الحادثين فى السفر جنوبا من قيصرية فيلبس وهو آخر مكان كان فيه ، بل على العكس أورد مرقس بوضوح مر ٩ : ٣٠ أن يسوع ما [اجتاز الجليل] الذى يوجد فيه جبل طابور إلا بعد الحادث المذكور هنا . كما أن التل الصغير غير المشهور المسمي بانيوم القريب من قيصرية فيلبس لا ينطبق عليه ما ورد في البشائر (١) . ولذلك فانه طبيعى أكثر أن نفتكر أن السيد ، وهو تواق لأن يخترق الأراضى المقدسة التى ولد فيها إلى حدها الشمالى ، قد ارتحل على مهل حتى وصل إلى منحدرات الجبل العظيم المكسو بالثلج الذى ترى كتلته المتألقة جنوبا حتى من نواحى البحر الميت والذى يختم بجمال فائق الحدود الشمالية لفلسطين . وذلك الجبل العظيم هو حرمون محط خيال شعراء اليهود واسمه ذاته معناه [الجبل] . والمنظر الذى شاهده كان كافيا جدا ليشتهر بالنعت الذى لم يطلق على جبل سواه في الكتب وهو [المقدس] ٢ بط ١ : ١٨ . فعلى هذه المراعي التى يبللها الطل المتنسم من الثلوج التى على القمة ، وعلى هذه المراعى المنعشة الندية بين أفخم مناظر الطبيعة حيث تحلو العزلة النبيلة التى كان يرغب السيد فيها لينعش نفسه استعدادا للجهاد العظيم القادم سريعا ، يمكن أن يجد يسوع مكانا ليركع فيه مع تلاميذه منفردين فى صلاة صامتة .

برودة الجو ووحدة المكان كانتا عذبتين لرجل الأحزان ، مريحتين من تعبه بعد الحرارة المحرقة للنهار الشرقي ، والعلنية المستديمة التى زاحمت خطواته حتى فى تلك

---

١ - اسم البلد على العملة قيصرية بانيوم .



التجـلى

الأصل المتخذة عنه هذه الصورة حفرية ١٠ × ١٢ بوصة وهى من أوضح الصور التى عملها القديس غريغوريوس النازيانزي (متحف باريس) فى أعلى دائرة صفراء قاتمة اللون محيط بالأشخاص الثلاثة المهمين : موسى عن اليسار ـ وإيليا عن اليمين فى ثياب بيضاء ، وإلى جانب كل منهما اسمه الكريم ، ورأس السيد تحيطه هالة عليها رمز الصليب ، وقد رسم مرتديا ثوبا بنفسجيا وقميصا أزرق مخطط بالمذهب . وبيده اليسرى ماسكة ملفا ، بينما رفعت اليمين فى وضع المباركة . ورجلاه المحتذيتان صندلا بالكاد تلامسان الجبل الذى كتب على قمته " التجلى " . وأسفل على الوادى الرسل الثلاثة بطرس ويعقوب ويوحنا ، وقد كتب اسم كل منهم إلى جواره . ورسم يوحنا ساجدا على ركبة واحدة بينما بطرس ويعقوب قد استولت عليهما الدهشة وأمسك بطرس عصا فى يده . وقد رسمت ثيابهم بالأزرق المخطط بالمذهب . وعباءة يوحنا بالأخضر الباهت والآخرين بالأصفر الداكن وقد ظهرت شعور رؤوسهم جميعا ما عدا إيليا مقصوصة ولحاهم جميعا مرسلة عدا موسى.

الأماكن القاصية . وكان الوقت مساء (١) عندما صعد إلى الجبل . ولا شك أنه وهو يعلو منحنياته مع أولئك الشهود الثلاثة « ابنى الرعد ورجل الصخرة » قد امتلأت روحه بسرور رهيب وسلام سماوى أفاضه الاتصال الانفرادى مع الآب ، وأيضا لأنه سوف يحاط فى الساعة المقبلة بخدام ليسوا من الأرض وبنور لا يستمد من الشمس أو القمر أو النجوم . قد صعد ليستعد للموت فأخذ معه تلاميذه الذين إذ يرون مجد الابن الوحيد للآب المملوء نعمة وحقا قد تتحصن قلوبهم ويتقوى ايمانهم فلا يتزعزعون عندما يرون الخزى المشين والتحقير الذى لا يعبر عنه اللذين للصليب.

هناك إذن ركع وصلى فارتفع فوق متاعب وبؤس العالم الذى رفضه . وقد تغيرت هيئته أمامهم ، وأضاء وجهه كالشمس ، وابيضت ملابسه كحقول الثلوج التى تعلو فوقهم ، وأحاطته هالة من المجد المتألق اللامع ، وانبعث من وجوده ضياء إلهى حتى أن الثلج والنور والبرق (٢) كانت الأمور الوحيدة التى وصف بها البشير ذلك البهاء السموى . وإذا بشخصين يحفان به ! (٣)

« عندما كان فى البرية الجرداء يمنطق نفسه لعمل الحياة أتت ملائكة الحياة لتخدمه . والآن وهو في الربوع الزهراء يمنطق نفسه لعمل الموت ، أتى خادماه من

---

١ ـ هذا واضح من لو ٩ : ٣٢ و ٣٧ سيما إذا قورن مع لو ٦ : ١٢ .

٢ ـ مت ١٧ : ٢ و مر ٩ : ٣ و لو ٩ : ٢٩ ومن الملذ أن نلاحظ أن لوقا إذ كان يكتب لليونان والرومان ابتعد عن كلمة " تجلى " التى استعملها باقى البشيرين وكتب بدلا منها " تبدل " لئلا يقرن قراءة الكلمة مع الأفكار السائدة فى كتابات نيكاندر وأنطونيوس ليباراليس وأوفيد الوثنية.

٣ ـ كلمة (وإذا) فى مت ١٧ : ٣ تظهر أى تأثير بليغ قد انطبع فى مخيلة الذين رأوا المنظر . " والشخصان اللذان ظهرا كانا نائبين عن الناموس والأنبياء . وكلاهما فارقا العالم بطريقة غريبة ... ومثل محدثهما العظيم قد احتملا الصوم الخارق مدى ٤٠ يوما وليلة . وهما أيضا كانا على الجبل المقدس فى حضرة الله . وقد أتيا الآن باحترام ورهبة ليضعا فى يديه إلى الأبد بمظهر رمزى مجيد قوتهما الممنوحة والمنتهية ".

الموت الذى انتصر عليه . أما الأول فأتى من المدفن تحت عباريم الذى ختمته يداه من زمن بعيد ، وأما الثانى فأتى من مكان الراحة الذى دخله بدون أن يرى فسادا . هنا وقف إلى جانبيه موسى وإيليا وتكلما عن موته . وعندما ختمت الصلاة ، وارتفى مصيره العتيد ، وكما فى البداية وقف النجم على بيت لحم ، حل عليه الآن مجد عظيم من السماء ، وجاءت الشهادة على نبوته الدائمة وقوته الثابتة إلى الأبد : [له اسمعوا] »(١) .

ظاهر من خبر لوقا البشير الأكثر افاضة أن التلاميذ الثلاثة لم يشاهدوا بدء هذا التجلى العجيب . عندما ينتهى الشرق من صلاته يلتحف بعباءته (٢) ، ويفترش الأرض على الأعشاب فى الهواء الطلق ، ويستولى عليه نوم عميق فى لحظة واحدة . والتلاميذ كما فعلوا بعدئذ فى جثسيمانى ناموا الآن على حرمون . كانوا تعابى [فكانوا قد ثقلوا بالنوم] . وفجأة (٣) صحوا فى كامل يقظة الروح فرأوا وسمعوا .

فى ظلام الليل لمع شخص سيدهم الممجد وأرسل ضوءا فائقا على أعشاب الجبل . وإلى جانبه فى ذات المجد الذهبى (٤) كانت هيئتان كريمتان علموا أو سمعوا أنهما موسى وإيليا . وفى ذلك السكون الشامل تحدث الثلاثة عن الموت الوشيك فى أورشليم الذي كان قد أنبأ المسيح تلاميذه به .

وعندما بدأ هذا المنظر (٥) أن يزول ، عندما أزمع الزائران العظيمان أن يفارقا إلههما ، عندما التحف السيد معهما بهذا المجد المظل ، فبطرس ـ فى رغبته الحارة أن يعيقهما ، متحيرا ، مبهوتا ، مأخوذا ، غير عالم ما يقوله (٦) ، غير عالم أن « الاقرانيون » (٧)

---

١ ـ وسكن . ٢ ـ لذلك كان الأمر الرحيم فى ناموس موسى أن يعاد الثوب الخارجى المرتهن مساء لصاحبه (حز ٢٢ : ٢٦) . ٣ ـ هذا ما أراه ترجمة لما ورد فى لو ٩ : ٣٢ " تيقظوا فجأة " . ٤ ـ لو ٩ : ٣١ . ٥ ـ استعملت هنا الكلمة " المنظر " فى مت ١٧ : ٩ وهذه الكلمة لم ترد فى العهد الجديد إلا هنا وفى أحد عشر موضعا فى سفر الأعمال للأحلام (اع ١٦ : ١٠ و ١٨ : ٩) وللرؤى (اع ١١ : ٥) ولأى مؤثر على الروح واضح مثل أى مؤثر على الحواس (اع ٧ : ٣١) . ٦ ـ هذا التفصيل غالبا أثبته بطرس الرسول نفسه (٩ : ٦) . ٧ ـ جبل الصلب .

أسنى بهاء من حرمون بما لا يقاس ، غير عالم أن الناموس والأنبياء قد كملا الآن ، غير عالم أن سيده أعظم لا نهائيا من نبي سيناء ومنتقم الكرمل . طفق يقول [يا رب حسن لنا أن نكون ههنا (١) . أتشاء أن نصنع هنا ثلاث مظال واحدة لك وواحدة لموسى وواحدة لايليا] . قد كان ليسوع أن يبتسم لهذا العرض الساذج من تلميذه المتحمس ليسكن الستة إلى الأبد فى مظال صغيرة مضفورة على منحدرات حرمون . ولكن ما كان لبطرس أن يصطنع العالم لمتعته الشخصية ، بل كان يجب أن يعلم أن الجلجثة لا تقل فى معناها عن حرمون . لن يتركهم يسوع فى سحابة مجد أو مركبة نارية ، ولكن بذراعين ممدودتين بألم على الشجرة الملعونة ، وليس بين موسى وإيليا ولكن ، بين لصين [واحدا عن يمينه وواحدا عن يساره] .

لم يجاوب يسوع على كلمات بطرس الغريبة الحالمة ، إذ بينما هو يتكلم ظللتهم سحابة . ليست سحابة مظلمة كما فى سيناء ، ولكن سحابة نيرة ، « شكيناه » مضيئة ، وصوت منها يقول [هذا هو ابنى الحبيب ... له اسمعوا] ، تخافوا جدا وسقطوا على وجوههم فوق الأعشاب . ولما رجعوا إلى نفوسهم من صدمة هذا الصوت الرهيب وهذا الضوء العجيب ، ورفعوا أعينهم ونظروا فيما حولهم (٢) فوجدوا أن كل شيء

---

١ ـ كلمة جيد فى العهد الجديد أحيانا يكون لها معنى التفضيل فتكون بمعنى " أفضل " أو " أحسن " .

٢ ـ مر ٩ : ٨ (قارن مت ١٧ : ٨) دليل على الصدق والبساطة . وهو دليل لا يوجد له مثيل أبدا فى الخرافات منذ انشاء العالم . وأمثال هذا الدليل كثير جدا فى البشائر . نحن نعلم أن هذا المنظر قد أثر تأثيرا بليغا فى اثنين من مشاهديه الثلاثة . فيشير يوحنا فى يو ١ : ١٤ و ابو ١ : ٦ ، وبطرس الرسول فى رسالته الثانية يشير إليه ٢ بط ١ بكيفية عجيبة سيما وأنها غير مقصودة . فيشير إليه لا تثبيتا فقط لتبشيره ولكن فى استعماله كلمة " خروجى " عن الموت (٢ بط ١ : ١٥) مشابهة لما فى (لو ٩ : ٣١) ـ قارن مت ١٧ : ٤ ـ وإذ يكتب الرسول وذهنه منصرف إلى التجلى نراه يذكر " سراج منير فى موضع مظلم إلى أن ينفجر النهار " . وهذا دليل على أن التجلى كان مساء . ويلاحظ بنجل أن كلمة " خروجى " شاملة لمعنى الآلام فالصلب فالموت فالقيامة فالصعود .

انتهى . فالسحابة المضيئة قد اختفت ، واللمعان الشبيه بالبرق للوجوه النيرة والثياب التي لا تقوى العين على النظر إليها قد مضت . وأصبحوا وحيدين مع يسوع والنجوم ترى ضياءها الهادىء على جنبات الجبل .

وكانوا خائفين أن يقوموا أو يتحركوا ، ولكن يسوع سيدهم - كما رأوه قبلا راكعا يصلي - جاء إليهم ولمسهم وقال [قوموا ولا تخافوا] .

وانبثق الفجر على حرمون ، ونزلوا من على الجبل . وفيما هم نازلون أمرهم ألا يقولوا لأحد حتى يقوم من الأموات . إن المنظر كان لهم . فكان عليهم أن يتفكروا به في أعماق قلوبهم فى تكتم ملىء بانكار الذات . اعلانه لأخوانهم التلاميذ قد يثير حسدهم وقد يوقظ فى نفوسهم هم الاعجاب بالذات . وقبل قيامته من الأموات لن يزيد شيئا فى ايمان الآخرين بل ربما يلبل معرفتهم عن عمله على الأرض . حفظوا أمر يسوع ، ولكنهم لم يفهموا معنى ما قاله . وما وسعهم إلا أن يفكروا فى نفوسهم أو يسائلوا بعضهم بعضا عما هى هذه القيامة من الأموات . ثم إن سؤالا آخر هاما أشكل عليهم وثقل على قلوبهم . لقد رأوا إيليا ، ولقد تأكدوا حقا ويقينا أن سيدهم هو المسيح ، فلماذا يقول الكتبة ويدعمهم فى هذا ملاخي النبي (١) أن إيليا هو الذى يأتى أولا ويرد لهم كل الأشياء ؟ وحينئذ اقتادهم السيد بلطف

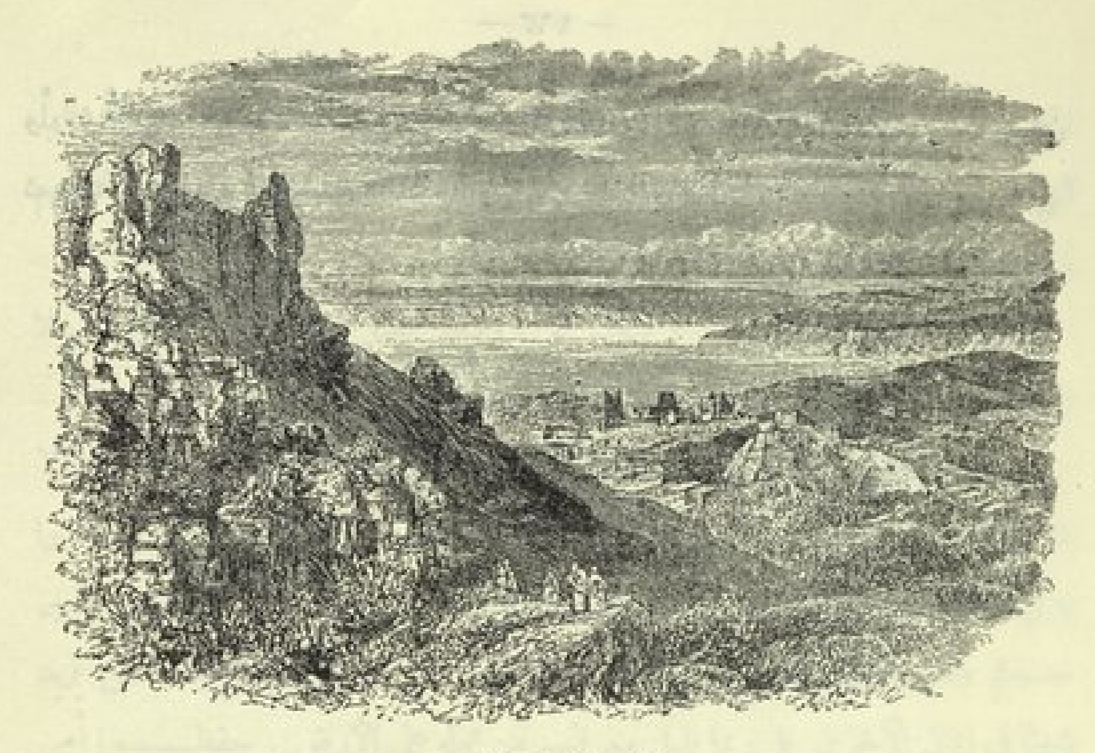
ويقول الأسقف ترنش إن بطرس باستعماله كلمة معاينين (٢ بط ١ : ١٦) قد تعنى شهود أسرار مقدسة .

كثيرون يتقولون على التجلى ويحسبونه خرافة . ومن المدهش ان الاصحاح الأول من رسالة بطرس الثانية يدحض اتباعهم لأية " خرافات مصنعة " . فلن يكون التجلى الذي يتحدث عنه فى ذات الآيات احدى هذه الخرافات .

١ - ملا ٤ : ٥ .

وأراهم أن إيليا قد جاء وأنهم لم يعرفوه وقد ناله من أمته نفس النهاية التي ستصيب من شهد له . وحينئذ فهموا أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان (١) .

٢ ـ لو ـ ١ : ١٧ بروح وقوة إيليا . قارن مت ١١ : ١٠ . انتظار اليهود لمجيء إيليا معروف "إلى مجيء إيليا " الذي سوف يرد لهم قدر المن وعصا هرون الخ الخ . وبالاختصار يكون زمانه وقت افتقاد (قارن اع ٣ : ٢١) ، وراجع تفسير لاتيفوت لمت ١٧ : ١٠ و ١١ .


صافد وبحيرة الجليل

الفصل السابع والثلاثون

الصبي المجنون

" ولكن بعضهم يقول لأن وجهه قد ازداد جمالا
عن النور ... كان يجذب الجموع " ناوفيلس

كل من طالع البشائر يرعى انتباهه التباين - التباين الذى رآه وخلده رفائيل فى احدى لوحاته القيمة - بين السلام والمجد والاتصال السماوى الله

فى أعالى الجبل ، وبين التشويش والسخط وعدم الايمان والألم ، الأمور التى ميزت أول منظر وقعت عليه عيون يسوع وتلاميذه عند نزولهم إلى الأوساط البشرية الدنيا (١) .

فى غيابهم حدث ما ملأ باقى الرسل اضطرابا وخوفا ، لأن جموعا حاشدة ، بينها كثير من الكتبة ، ضيقوا الخناق بشدة بالجدل والغمز المقتدر على الباقين من أصدقاء يسوع المختارين (٢) .

وفى هذا المأزق لمحت الجموع يسوع فجأة ، وكان فى منظره شىء من السلطان غير العادى والسرور البادى ، فامتلأوا دهشة وركضوا يسلمون عليه (٣) . فسأل الكتبة بشدة عما كانوا يتشاجرون بسببه هم والتلاميذ ، فلم يتقدم أحد بالجواب ، لأن الكتبة قد غمرهم الخزى ، ولأن التلاميذ قد عرفوا ما فى نفوسهم من ضعف إيمان وعجز . وحينئذ زاحم الجموع رجل أتى وركع أمام يسوع ، وصرخ بصوت عال (٤) ، وقال انه والد لابن وحيد ، امتلاك الشيطان له يظهر فى صرع شديد بكل مضاعفاته الخطيرة مع خرس وشلل وميل جنونى للانتحار . وقد أحضر المعذب المسكين إلى تلاميذه ليخرجوا منه الروح الشرير فعجزوا ، فأثار هذا تعنيف الكتبة لهم ومشاجرتهم معهم .

وقد أحزن المنظر كله يسوع قلبيا [فأجاب وقال لهم أيها الجيل غير المؤمن إلى متى أكون معكم . حتى متى أحتملكم] ويظهر أنه عنى بصرخة الغضب هذه كل الموجودين - الجمع المستولى عليه الدهشة ، والكتبة وتلاميذه المترددين - ثم قال : [قدموه إلى] .

---

١ - فى مملكة فيلبس كان كثير من اليهود وبالطبع عديد من الكتبة .

٢ - مر ٩ : ١٤ . سأتبع أخبار مرقس البشير هنا لأنها أجلى وأوضح .

٣ - مت ١٧ : ١٤ و لو ٩ : ٣٨ .

٤ - مت ١٧ : ١٥ .

فأحضروا الصبي المنكود . وما كادت تقع عيناه على يسوع حتى أمسكته نوبة أخرى شديدة من مرضه فوقع على الأرض فى تشنج مريع ، وصار يتمرغ والزبد يخرج من شفتيه . كان هذا أشد وأقتل نوع من الصرع الشيطانى مما جعل السيد أن يرأف بصاحبه (١) .

وتريث قبل أن يعمل . أراد أن يحمل هذا المنظر بكل مخاوفه يؤثر على الجموع الصاخبة لكي يفهموا أن العجز لم يكن منه . وأراد في الوقت ذاته أن يولد وينمى ويثبت إيمان الوالد الملتجيء المتألم .

[كم من الزمان مذ أصابه هذا] ؟

[منذ صباه . ومرارا كثيرة يلقيه فى النار وفي الماء ليهلكه لكن أعنا ما استطعت وتحنن علينا]

فأجابه يسوع وقد رد إليه نفس كلمته [ان استطعت أنت أن تؤمن فكل شيء مستطاع للمؤمن] (٢) .

وللوقت صاح الوالد المسكين الضعيف بدموع تلك الصيحة التى رددتها الملايين منذ ذلك الحين ، والتى هى جد مناسبة للجيل الذى نعيش فيه الذى وصف بحق « انه خال من الايمان ولكن يرتجف هلعا من الكفران » ، صاح الوالد قائلا : [أومن يارب فاعن ضعف ايمانى] .

أثناء هذه الحادثة القصيرة تزايدت الجموع أكثر فأكثر ، واستدار يسوع للمتألم [قائلا له أيها الروح الأبكم الأصم . أنا آمرك اخرج منه . ولا تدخله بعد] . فصرخ الصبي صرخة أشد ما تكون قسوة ، وتشنج بأشد ما يكون هولا ، ثم انطرح على الأرض غير مرغ ولا مزبد بل ساكنا كالموت [حتى ان كثيرين قالوا انه

١ ـ مت ١٧ : ١٥ .
٢ ـ مر ٩ : ٢٣ .

مات] . ولكن يسوع أمسك بيده وأنهضه بين دهشة الجموع المتحيرة المبهوتة وسلمه إلى أبيه هادئا معافى .

سبق أن أعطى يسوع تلاميذه موهبة اخراج الشياطين ، بل قد استعمل هذه القوة باسمه بعض من ليسوا من تلاميذه الأصليين (١) . ولم يعجز الرسل أبدا قبل هذه المرة . وعلى ذلك كان طبيعيا أن ينتهزوا أول فرصة ينفردون فيها معه ليسألوه عن سبب خيبتهم . فأخبرهم صراحة أن السبب فى ذلك كان عدم ايمانهم . ربما أضعفهم شعورهم بغيبته عنهم ، وربما ظنوا أنهم أقل مقدرة على مجابهة الصعاب وينقصهم وجود ابنى زبدى وبطرس ، وربما تكون نبوته المحزنة عن رفضه وموته قد أثرت تأثيرا سيئا على عقول الضعفاء منهم . وعلى أى حال اتخذ يسوع هذه الفرصة ليعلمهم درسين عظيمين . الأول أنه توجد أنواع من الشرور الروحية والجسدية والعقلية شديدة ، من الصعب أو من المستحيل الاقلاع عنها حتى أنها لا تطرد إلا بالصلاة وضبط النفس وانكارها ، والصوم فى هذا هو أشد الأمور فاعلية وأقواها أثرا (٢) . والدرس الثانى أن كل شىء مستطاع مع الايمان الكامل ولو كان مثل حبة الخردل فانه يأمر حتى حرمون (٣) أن ينتقل ويطرح وسط أمواج البحر العظيم فيطيع .

كان يسوع قد وصل الآن فى تجوله إلى أقصى حدود الأراضى المقدسة الشمالية ، فابتدأ يعود موجها خطواته شطر موطنه . ونرى من بشارة مرقس أنه رتب أن تكون عودته سرية مخفاة ، ربما ليس بالطرق العامة المعتادة ، ولكن بين التلال والأودية التى فى شمال الجليل ، إلى أن جاء إلى التخوم غرب الأردن . لم يكن قصده بعد الآن

---

١ ـ مر ٩ : ٣٨ .

٢ ـ مر ٩ : ٢٩ و لو ٩ : ٢١ .

٣ ـ " نقل الجبال " كان مجازا شائعا عند اليهود يفيد التغلب على المصاعب الجسام . وكانوا يطلقون على المعلم الماهر " مقتلع الجبال " راجع أمثلة متعددة لهذا فى مؤلف لايتفوت وفى تفسيره لمت ٢١ : ٢١ .

تعاليم الجموع التي قد أغويت لرفضه ، والتي لم يعد يستطيع أن يظهر بينها بأمان . ولكنه توفر على متابعة ذلك الجزء الآخر والأهم فى عمله وهو تهذيب وتدريب تلاميذه ، وصار أهم موضوع تردد فى تعليمه هو قرب تسليمه وموته وقيامته . ولكنه تكلم إلى قلوب ثقيلة الفهم أعماها التعصب المغروس عميقا ، فتجاهل التلاميذ تحذيراته البينة ، وأخافهم الجبن غير المؤمن ، فلم يطلبوا أو يسألوا إيضاحات أزيد . ونحن لا يمكننا أن نرى ونتبين التغيير الكبير الذى أحدثته فيهم القيامة إلا بملاحظة أنهم قد دونوا بصدق وصراحة مدى وتأصل عدم فهمهم لأقواله في هذه الأيام الثمينة التى كان السيد موجودا فيها بينهم .

والشيء الوحيد الذى يظهر أكيدا أنهم تحققوه أن أمرا غريبا هاما خالدا سيكتنف حياة السيد ، وأنه سيصحب ذلك ازدهار عظيم فى مملكة المسيا . وهذا للأسف قد أثر فيهم التأثير الوحيد الذى ما كان يجب أن يكون . فبدلا من أن يكون داعية لزيادة وتقوية انكارهم لذواتهم فقد أيقظ طمعهم وطموحهم ، وبدلا من تدعيم محبتهم ووداعتهم أثار حسدهم وكبرياءهم . فتناقشوا فى الطريق بعضهم مع بعض . وربما قد تذكروا إذ ذاك التمييز الذى حبا به بطرس وابنى زبدى على حرمون . وتساءلوا [أيهم العظيم بينهم] ؟

ولم يعر السيد هذا الشجار التفاتا للتو ، بل تركهم برهة لحكم ضمائرهم ، حتى إذا وصلوا كفر ناحوم ودخل البيت [سألهم فيم كنتم تفكرون فى الطريق] (١) . [فصمتوا] في خزى عميق وكان الصمت أبلغ اعتراف بمطامعهم الخاطئة . حينئذ جلس وعلمهم ثانية كما سبق أن فعل مرارا أن من يريد أن يكون أولا يجب أن

---

٢ ـ راجع ما يأتى مت ١٨ : ١ ـ ٣٥ و مر ٩ : ٣٣ ـ ٥٠ و لو ٩ : ٤٦ ـ ٥٠ التى اعتقد أنها حديث واحد متصل لنفس الحادثة كتبه بايضاحات مختلفة البشيرون الثلاثة .

يكون آخر الكل وخادما للجميع ، فطريق الرفعة هو الاتضاع . وإذ أراد أن يثبت هذا الدرس بمثال فريد فى رقته وجماله دعا صبيا صغيرا وأقامه فى الوسط ، ثم أخذه بين ذراعيه ، وحذرهم بأنهم إن لم يتضعوا ويصيروا مثل ذلك الصبي الصغير لا يدخلون ملكوت السموات (١) . يجب أن يكونوا فى العالم كأطفال . وعلمهم أن من يقبل أحد هؤلاء الأصاغر باسمه فقد قبل المسيح والآب الذي أرسله .

ويظهر أن كلمة [باسمي] أوحت إلى يوحنا البشير سؤالا مفاجئا قطع به كلام السيد . لقد رأوا رجلا يخرج الشياطين باسم المسيح لكنه ليس منهم فمنعوه ، فهل كانوا على صواب (٢) ؟

فأجاب يسوع [لا تمنعوه] . من يعمل أعمال رحمة باسم المسيح لا يستطيع أن يتقول شرا على هذا الاسم . من ليس ضدهم فهو معهم . وكما يكون عدم الاهتمام عداوة أحيانا فكذلك قد يكون الحياد مساعدة أحيانا (٣) .

---

١ ـ يوجد تقليد ـ ذكره نيسيفورس ـ لا يمكن أن يكون صحيحا أن هذا الصبي هو الشهيد القديس اغناطيوس . وربما قد دخل عن الترجمة الخاطئة لكلمة اغناطيوس التى معناها " يحمل الله " وليس " محمولا من الله " على أي حال لقد لقب هذا القديس بهذا الاسم بعد مقابلته الشهيرة لتراجان .

٢ ـ يقتبس بروس حادثة مماثلة من تاريخ حياة باكستر لأن أتباعه قد رموا السير هيل بعدم الايمان لأنه لا يحضر الصلاة فى اجتماعاتهم الأسبوعية ، ولكن باكستر انتهرهم وقال " أنا الذى رأيته يصنع خيرا للناس ، ورأيت حياته التى بلا لوم ، أشهد أنه تقى أكثر منى " .

٣ ـ فى مناسبة أخرى قال يسوع ما يظهر انه يتنافر مع هذا (من ليس معى فهو ضدى) مت ١٢ : ٣٠ . ولكن من السهل التحقق أن الحديثين يتمم أحدهما الآخر . قال جزوت " إن الذى لا يعمل فى مجرى الحياة النشيطة ، الذى يزهد فى مساعدة الآخرين ، فتبعا للظروف والأشخاص قد يكون تارة عضدا مساعدا وتارة على العكس مخربا مفرقا " . قارن هذه الملاحظة الهادئة مع ما قاله رينان بتعصب ممقوت " هنا قانونان لجذب الآخرين للدين ، مختلفان تمام الاختلاف ، بينهما تناقض مصحوب بشجار عنيف " . وانى مدين للمستر جارنت بالملاحظة التالية

وعاد يسوع بلطف إلى حديثه ، والطفل ما زال بين ذراعيه ، يشير إليه فى ملاحظاته . فحذرهم من الأجرام المريع والخطر الشنيع فى اساءة أو تضليل أو تجربة أو غواية أحد هؤلاء الصغار عن طريق الطهارة والحق ، أو تعليمهم أى أمر ردىء ، أو الايحاء لهم بأى فكر شرير ، لأن ملائكتهم يرون وجه الآب فى السماء . أما أولئك الأشرار المعثرين ، أولئك الناس الذين يتممون عمل الشيطان ، فان آخرة مريعة تنتظرهم ، وخير لهم لو علق في أعناقهم أثقل حجر رحى ويطرحون فى البحر (١) . وكانت لغة كلماته هذه أشد مرارة وأعظم أهمية مما سبق أن تحدث به .

واستمر فى تحذيره لهم مبينا أن أية تضحية مهما عظمت يجب أن تهون إذا ساعدتهم على الهروب من أية تجربة تقيم حجر عثرة فى طريق نفوسهم هم أو نفوس الآخرين . فان أعثرتك يدك اليمنى فاقطعها ، فخير أن تدخل السماء أعسم ، وافصل الرجل اليمنى واقطعها ، فخير أن تدخل السماء أعرج ، واقلع العين اليمنى ، فخير أن تدخل السماء أعور ، من أن تبقى على اليد أو الرجل أو العين عمالا للاثم فطعاما للدود الذى لا يموت ووقودا للنار التى لا تطفأ . خير أن يغرق المرء بحجر الرحى المعنوى ، أى التجارب التى لا يقاومها والتى تغرق الروح المجرمة فى بحيرة النار والعذاب واليأس . وكما أن الملح يرش على الذبيحة لتطهيرها ، يجب أن تمتحن كل نفس بالملح ، أو تمحص بالنار ، أو بكليهما ، بملح صدق الله تفحص النفس بواسطة التعقل والضمير ، والا فانها ستمحص بنيران حكم الله العادل ، النيران الممحصة التى تعنى من النيران المهلكة .

القيمة " صرح بومباى فى لهجة عدائية قائلا : " ان الذين ليسوا مع الجمهورية هم مع الأعداء " بينما صرح زعيم آخر : " ان الواقفين على الحياد ، الذين لا ينتمون لأى فريق ، هم فى عداد الأصدقاء " .

١ ـ (حجر الرحى) مت ١٨ : ٦ و لو ١٧ : ٢ الكلمة الأصلية معناها " حجر الحمار " أى حجر الرحى الأعلى ، الثقيل جدا ، لدرجة أنه يستعان على إدارته بحمار .

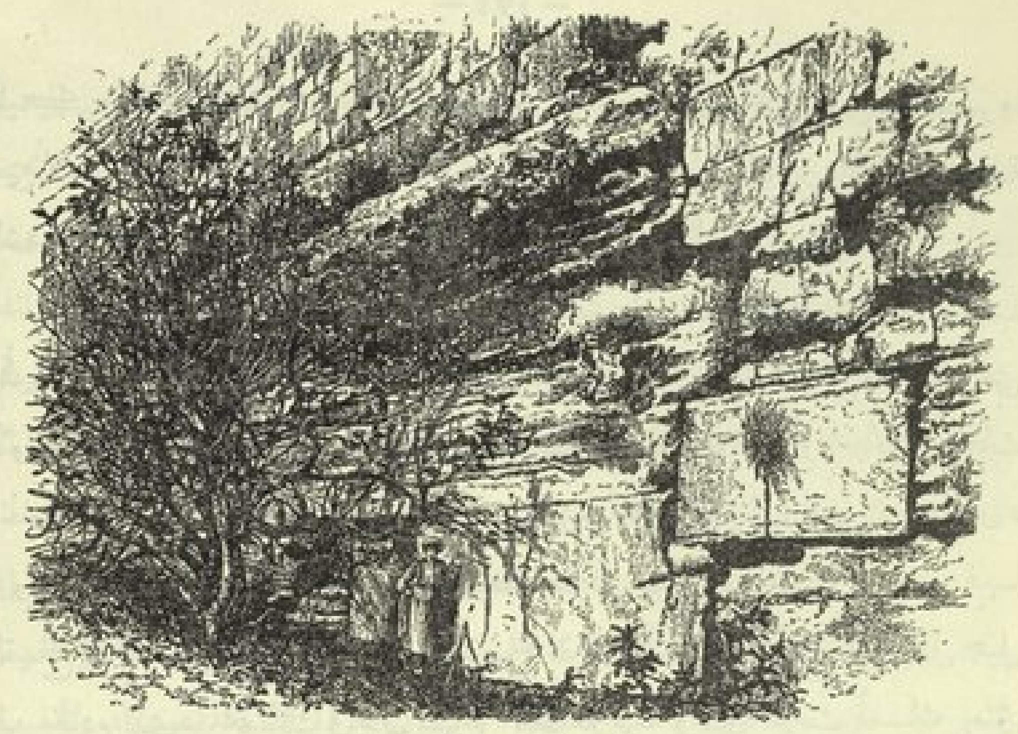
فليكن لهم هذا الملح المنق المطهر ، الفاحص للنفس ، القاسى على النفس . وليتبصروا حتى لا يفسد هذا الملح أو يفقد ملوحته ، وإلا احتاج الأمر لنيران الله المؤلمة الشديدة (١) . [فليكن فيكم ملح وسالموا بعضكم بعضا] .

ولكي يثبت فيهم وجوب السلام المتبادل الذى كسروه ، وانه مهما كان غضب الله ضد الذين يعثرون الآخرين ، فانه لا يجب عليهم أبدا أن يكنوا أية بغضة حتى لأولئك الذين يسيئون إليهم ويضرونهم ، بل يجب أن يصالحوا . أولا بالاستعطافات الخاصة ، وإلا فبالالتجاء العلني بكل لطف وحزم - كل أخ يخطيء إليهم . وبطرس ، بروح يهودية حقة ميالة للتقييد ، أراد أن يحدد عددا معينا للمرات التى يوهب فيها التسامح (٢) ، فعلمهم يسوع أن مرات التسامح لا نهاية لها . وقد أوضح ذلك بمثل جميل عن الخادم الذى سامحه الملك فى دين عشرة آلاف درهم ، والذى للوقت أمسك بعنق خادم رفيقه ولم يشأ أن يسامحه فى دين بسيط حقير لا يتجاوز المائة سحتوت ، وهو مقدار لا يتجاوز واحد فى المليون مما سومح هو فيه . وربما يكون قد فهم الصبي وهو بين ذراعى يسوع هذا المثل ، ولكن أى عمق لا يقدر يجب أن يكون معناه لنا - نحن الذين تعلمنا منذ الحداثة حبه الكفارى - مما يفوق عما كان فى الوقت الذى قيل فيه حتى لبطرس أو يوحنا .

---

١ - اش ٢٣ : ١٤ و ١٥ .

٢ - القاعدة الحاخامية تسمح بالغفران إلى ثلاث مرات . قارن عاموس ١ : ٣ و أي ٣٣ : ٢٩ .



بقايا الباب القديم في أورشليم

الفصل الثامن والثلاثون

راحة قصيرة في كفرناحوم

" اذهبوا واعلموا أننا ملوك وأولاد
ملك في ملكوت آخر " أحد المعلمين

حادث آخر وقع أثناء اقامة يسوع القصيرة في كفر ناحوم دونه متى البشير وحده (١) .

١ - مت ١٧ : ٢٤ - ٢٧ .

منذ القدم كانت العادة جمع النقود الفينة بعد الفينة للهيكل . وكان هذا يحدث على الأقل عقب كل تعداد ، فتجمع الضرائب ، نصف شاقل من شاقل القدس عن كل يهودى بلغ العشرين من العمر فدية عن روحه للرب (١) . وكانت هذه النقود تخصص لخدمة الهيكل ويصرف منها فى شراء التقدمات مثل التيوس والوعول الحمر والبخور وخبز التقدمة وباقي لوازم خدمة الهيكل . وبعد الرجوع من السبي تضاءل نصف الشاقل هذا إلى ثلث شاقل (٢) ، وصار دفعه اختياريا . ولكن بعد ذلك رجعت الضريبة إلى قيمتها الأصلية ، وتحتم أن يدفعها كل يهودي فى أى بقعة من الأرض ، غنيا كان أم فقيرا . وإذ أن تشريعها قد سن أولا لاظهار مساواة النفوس جميعها عند الله فقد أمر أن [الغنى لا يكثر والفقير لا يقلل] . وبهذه الوسيلة كان يجمع قدر عظيم من المال يحمله إلى أوروشليم رسل شرفاء (٣) .

كانت هذه الضريبة اجبارية . وتطلب في أول آدار بهدوء وأدب فان لم تدفع إلى اليوم الخامس والعشرين كان جامعو الضريبة « طوبهين شيقليم » يأخذون رهنا كضمان من المتأخرين .

وعلى ذلك فبمجرد عودة السيد إلى كفر ناحوم تقدم أولئك «الطوبهيين شيقليم» بمنتهى الأدب حسب تعاليم الحاخاميين إلى بطرس الرسول [وقالوا له أما يوفى معلمكم الدرهمين] (٤) .

---

١ ـ خروج ٣٠ : ١١ ـ ١٦ . كلمة " الجزية " فى الترجمتين الانجليزية والعربية ليست صائبة ولا تخصص معنى . وكانت الجزية دينارا يدفع للامبراطور الرومانى.

٢ ـ نحميا ١٠ : ٣٢ .

٣ ـ إذا حسبنا اجمالا أن الشاقل يساوى سبعة قروش ونصف (شلنا وستة بنسات) فانه يجمع من كل مليون مشترك ٧٥٫٠٠٠ من الجنيهات .

٤ ـ كان الدرهمان عملة يونانية توازي نصف الشاقل تماما . أما الأستار أو العملة الفضية لأربعة

وهذا الطلب يثير سؤالين . الأول لماذا لم يستوفوا هذه الجباية من السيد فى السنوات الماضيات ؟ والثاني لم تطلب الآن منه فى الخريف قرب عيد المظال بدلا من شهر آذار أى قبل ذلك بنحو ستة شهور ؟ والجواب عليهما هو أنه يبدو أن الكهنة والحاخاميين العظام كانوا يعفون من الضريبة ، وأن تغيب السيد المتكرر عن كفرناحوم هو الذى سبب التأخير ، كما أنه كان مسموحا دفع المتأخرات بعد زمانها (١) .

وسؤالهم لبطرس بدلا من يسوع أحد الدلائل المتعددة على الرهبة التى كانت تملأ قلوب ألد أعدائه لا سيما وأن هذا الطلب على الأغلب قد كان رغبة منهم فى إغاظته وتجاهل مقامه . وبطرس باندفاعه العجول كعادته بدون أن ينتظر ليستشير سيده كما كان يجب أن يفعل ، أجابهم وقال [بلى] (٢) .

ولو أنه تريث برهة ، أو لو أنه علم أكثر ، أو لو أنه تذكر اعترافه العظيم الذى فاه به منذ قليل ، لما أجاب بهذه السرعة . لأن هذه النقود كانت تجبى فى الأصل فدية عن نفس كل انسان (٣) . فكيف يدفع الفادى ـ الذى فدى كل النفوس بفدية نفسه ـ

دراهم فكانت توازى الشاقل . وكان الأستار والدينار الرومانى (وهو تقريبا ربع قيمة الأستار) العملتين الشائعتين فى ذلك الحين لأن قطعة " الدرهمين " قل استعمالها ، وقيمتها كانت حوالى ١٨ بنسا .

١ ـ قد استخلص جرزوبل (فى مؤلفه جزء ٢ صحيفة ٣٧٧) ان هناك دلائل على جواز دفع الفدية فى أى عيد من الأعياد السنوية .

٢ ـ يبدو أنه كان هناك شجار بين الفريسيين والصدوقيين بخصوص هذه الضريبة ، هل تكون اختيارية أم اجبارية . وبعد مخاصمات عديدة انتصر الفريسيون . لذلك قد يجوز أن الطلب قدم ليسوع ليختبروا أى جانب يظاهر . وربما كان هو سبب ما ظهر فى إجابته لبطرس وصار كقاعدة عامة أن كل ما يمنح لله يجب أن يكون لا عن اضطرار ولا بدمدمة . راجع المقال الشيق الذى كتبه بلمتر فى قاموس سمث .

٣ ـ خروج ٣٠ : ١١ و ١٢ .

كيف يدفع فدية نقدية عن نفسه ؟ وكانت هذه النقـود تجبى لخدمات الهيكل فكيف يحق إذن دفعها من ذاك الذى هو رب الهيكل الذى كان سيدخل إلى حجاب قدس الأقداس بفدية دمه ، ولـكنه دفع ما لم يكن به مدينا لـكى يخلصنا من الدين الذى علينا ، والذى ما كنا نستطيع وفاءه أبدا (١) .

وعندما دخل بطرس إلى المنزل - ربما عارفا فى ذلك الوقت أن اجابته كانت سابقة للأوان ، وربما أيضا متذكرا فى هذه اللحظة أن صندوقهم الصغير لا يحتمل هذا الطلب القليل - وقبل أن يعلن حيرته [سبقه يسوع قائلا ماذا تظن يا سمعان ممن يأخذ ملوك الأرض الجزية أو الجباية أمن البنين أم من الاجانب] ؟

لم يكن هناك إلا جواب واحد : [من الأجانب] .

[أجابه يسوع إذن البنون أحرار] . وأنا ابن الملك الأعظم ، وأنت أيضا ابن له على وجه آخر ، فنحن غير ملزمين بدفع الجزية . وإن دفعناها فلن يكون هذا إجباريا كما قرر الفريسيون أخيرا ، ولـكن ندفعها عن اختيار ونعطيها بسرور .

يوجد شيء رقيق بل ملاطفة دقيقة في هذه الوسيلة التي أظهر فيها يسوع لرسوله المندفع المأزق الحرج الذى خلقه تسرعه والذى أوقع فيه سيده . ونرى فيها كما لاحظ أحدهم كيف أن يسوع كان يخاطب تلاميذه بلطف وحرية ومحبة . وفى الوقت ذاته نرى أنه يدعم النظرية الخالدة أن الخدمات الدينية يجب أن تقدم بكرم فطرى وشعور غريزى بالواجب ، وليس نتيجة للاضطرار أو الضغط الخارجي . لكن ليس كل ما هو قانونى مناسبا ولائقا ، بل ليس هناك شيء ضد المسيحية أكثر من التمسك القاسى بحقوقنا حرفيا . فالمسيحي الحقيق يجب دائما أن يتنازل عن بعض اختصاصه ويأخذ أقل مما هو دائن به . لذلك أضاف من يجب أن نسير على هدى خطـواته وقال بهدوء : [ولـكن لئلا نشككهم ..] أى لئلا نقيم الصعاب أو نضع حجـــر عثرة

١ - قارن مز ٦٩ : ٥ وعظات أوغسطينوس .

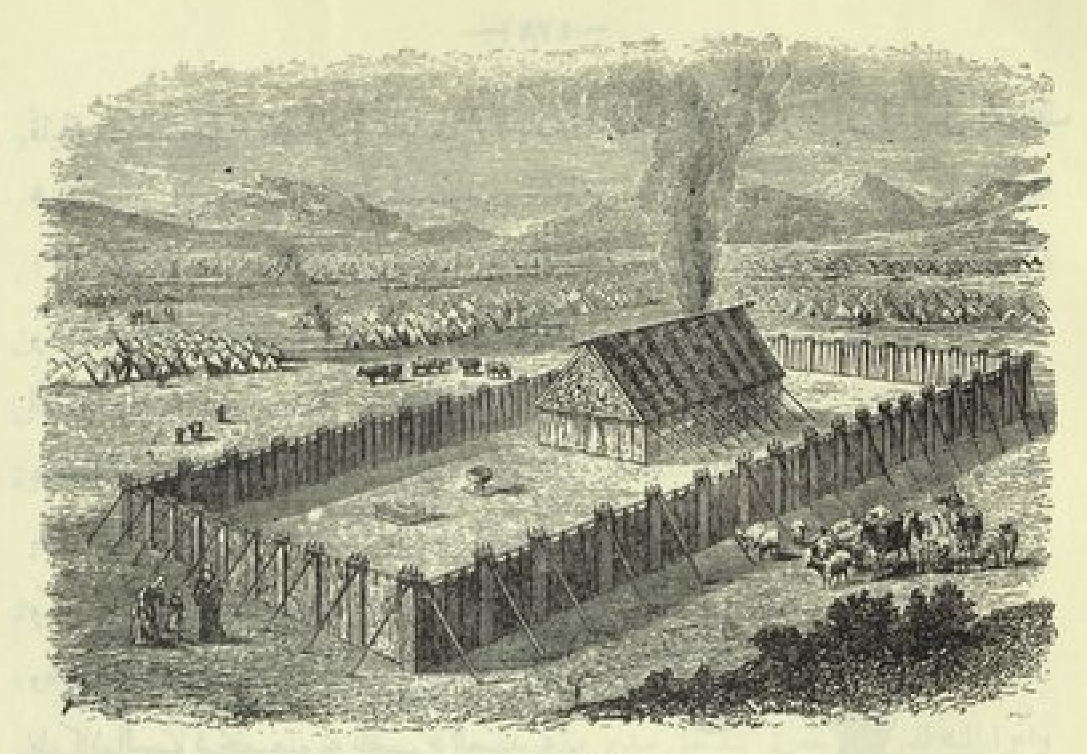
أمامهم [امض إلى البحر والق صنارتك وأول سمكة تطلع خذها وإذا فتحت فاها تجد إستارا فخذه واعطهم عنى وعنك]. قال بنجل « فى نفس هذا العمل الوديع تجلت عظمته والتمعت ». دفع الجزية لئلا يجرح إحساسات أى انسان، وأيضا لأن تلميذه وعد بها نيابة عنه. ولكنه لم يدفعها بطريق عادى، وإلا اتخذ هذا دليلا على قبول المبدأ. وفى إطاعته لقوانين الوداعة والاحسان أطاع أيضا قوانين الكرامة والحق. قال كلاربوس « قد دفع الجزية ولكن من فم سمكة لتظهر وتعرف ملوكيته » (١).

عندما يسخر الناقد بولوس بخشونة ويقول « انها أعجوبة من أجل نصف جنيه ! » إنما يظهر جهله التام بالدروس العالية السامية التى انطوت عليها هذه الحادثة والتى ميزت أعاجيب السيد في كل الظروف. ولكني أوافق العلامة أولشوزن فى اعتبارها أصعب أعاجيب الانجيل للفهم، لأنها لا تقع في دائرة أعاجيب المسيح الأخرى، بل هى فضيلة فريدة فى ذاتها. ويقول رئيس الأساقفة ترنش « من المهم أن نلاحظ أن البشير لم يدون لنا سبب هذا الأمر » بل ذهب إلى أن نفس تدوين هذه الحادثة على هذا النحو قصد به أن يكون عجائبيا. وهذا فى الحقيقة ما يتأثر به كل مطالع له. والترجمة الحرفية لكلمات يسوع تعنى « وإذا فتحت فاها ستجد أو تحصل على أستار أو ستاتير ». ومع أنه لا توجد صعوبة مطلقا فى الظن أن سمكة قد بلعت العملة المتألقة التى سبق أن وقعت عرضا فى الماء (٢)، فاننى لا أجد صعوبة أبدا فى الاقرار (كما أومل أن هذا الكتاب يوضح جليا) أن أعجوبة ما يفعلها يسوع قد تعنى التفاصيل ذاتها، أو الطريقة التى دونت بها، أو تترك لنا دون إيضاح.

---

١ - (عنى وعنك) أى " بدلا " لأنها كانت نقود فدية ولم يقل " عنا " لأنها دفعت لسببين مختلفين باختلافهما. ذكر وتستين أن أحد الملوك قد دفع جزية عن نفسه. راجع ترنش فانه كتب بجمال وحذق عن هذه الأعجوبة.

٢ - لهذه الحادثة شبيهات - راجع بوليكاربس وأوغسطين. للآن يعتاد بعقدته السمك بجملها تبتلع قطعة من الصفيح اللامع.



منظر عام للمظال

الفصل التاسع والثلاثون

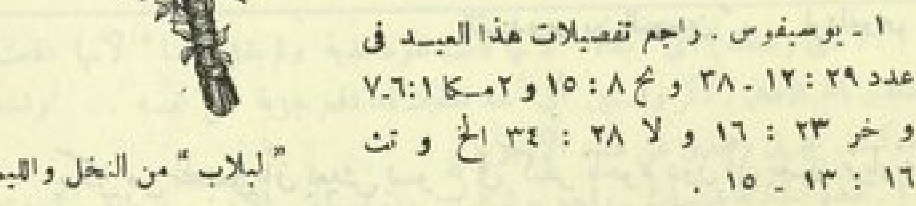
يسوع في عيد المظال

" الطاهر بين الخطاة ، العادل بين الظالمين ،
القدوس بين النجسين " . لودلفوس

لم يكن من المحتمل أن يعيش يسوع فى كفر ناحوم دون أن يعلم بزيارته لها بعض سكانها ، غير أنه من الواضح الجلى أن اقامته فيها كانت لمدة

قليلة ، وكانت ذا صبغة خاصة تماما . والحديث والحادث المذكوران فى الفصل السالف هما الأمران الوحيدان الباقيان لنا منها .

حل الخريف ، وكان كل الجليل على قدم وساق استعدادا لما يسبق بدء الرحلات السنوية احتفاء بعيد من الأعياد الثلاثة الكبار ، عيد المظال . وهذا العيد ، عيد الحصاد ، كان يقصد به ذكرى ارتحال الاسرائيليين فى البرية وكان يقام بفرح عام عظيم حتى أن يوسيفوس (١) وفيلو يلقبانه بالعيد « الأقدس والأعظم » ، بل كان اليهود يخصصونه بلقب « العيد » . وكان يحتفل به سبعة أيام متتالية من الخامس عشر إلى الحادى والعشرين من شهر تشرين (٢) ويختتم فى اليوم الثامن بخدمة دينية . وكان اليهود ، لكي يعيدوا ذكرى ارتحالاتهم في البرية ، يعيشون أيام العيد فى « سكوث » صغيرة أو مظلات مقامة من أغصان الزيتون الكثيفة الأوراق والنخيل والصنوبر والريحان





"لبلاب" من النخل والليمون

١ ـ يوسيفوس . راجع تفصيلات هذا العيد فى عدد ٢٩ : ١٢ ـ ٣٨ و نح ٨ : ١٥ و ٢ مكا ١ : ٦ ـ ٧ و خر ٢٣ : ١٦ و لا ٢٨ : ٣٤ الخ و تث ١٦ : ١٣ ـ ١٥ .

٢ ـ (سبتمبر ـ أكتوبر) .

الشامى ، ويحمل كل شخص فى يده « لبلابا » مجدولا من قلب النخل أو الزيزفون أو فروع المشمش والليمون (١) . وفى هذا الأسبوع كانت تتناوب جميع فرق الكهنة . وكانت سبعون من الثيران تقدم ذبيحة عن السبعين أمة التى على الأرض (٢) . وكان الناموس يقرأ كل يوم (٣) . وكانت تقرع طبول الهيكل يوميا إحدى وعشرين مرة بنغمات الحماس والانتصار . ومما كان يضاعف الفرح في هذا العيد أنه كان يأتى بعد أربعة أيام من حفلات يوم الكفارة الرهيبة المبهجة والذى كانت تقام فيه كفارة مقدسة من أجل خطايا جميع الناس .

فى أمسية السفر لهذا العيد تقدم بعض الأقارب من عائلة يسوع ، وهم من يدعوهم الانجيل مرارا « أخوته » ومن أطلق التقليد القديم على خلفائهم « الديسبوزينيين » ، وأتوا إليه للمرة الأخيرة بتدخل مدبر مقصود مؤلم . وقد ظن هؤلاء أيضا مثل الفريسيين والجموع وبطرس أنهم أكثر معرفة من يسوع نفسه بالطريق الأمثل الذى يجب أن يتم به عمله على الوجه الأحسن والأسرع الذى يجعل الناس عامة يقرون ما يقوله عن نفسه . أتوا إليه بلغة النقد وعدم الرضى ، بل بما يقرب من الشكاية والتوبيخ ، متسائلين عن الغرض من هذه السرية غير المفهومة غير المتعقلة . وكأنهم يقولون : « انها تضاد ما تعلنه ، إنها تضعف شجاعة أتباعك . إن لك تلاميذا فى اليهودية فاذهب إلى هناك ودعهم يرون أعمالك التى تعملها » . [إن كنت تعمل هذه فاظهر نفسك للعالم] . وإذ كانت هذه هى اللغة التى استعملوها مع سيدهم وربهم ، وإذ كانوا يطالبون باظهار قوته بالبرهان ، فمن الجلى أن معرفتهم له كانت قاصرة محصورة

---

١ ـ لا ٢٣ : ٤٠ .

٢ ـ ثلاثة عشر ثورا فى اليوم الأول واثنا عشر فى اليوم الثانى واحد عشر فى اليوم الثالث وهكذا .

٣ ـ نح ٨ : ١٨ قارن يو ٧ : ١٩ .



أشكال مختلفة للمظال (عن مشنة سورنهوس)

استحقت تلك الجملة التفسيرية التي كتبها التلميذ المحبوب : [لأنه ولا أخوته أيضا كانوا يؤمنون به] . كان أجنبيا عند أخوته (١) .

كان فرض أوامرهم عليه ـ وهو الثمر المر للكبرياء العجولة والجهالة غير الروحية ـ يستحق اللوم الشديد (٢) . ولكن السيد أجابهم بهدوء ولطف وكرامة : « إن وقتي لأعلن ذاتي للعالم الذي هو عالمكم أنتم أيضا ، والذي لا يستطيع لذلك أن يبغضكم كما يبغضني [لم يحن بعد] » [فاصعدوا أنتم إلى العيد أما أنا فلست أصعد إلى هذا العيد لأن وقتي لم يكمل بعد (٣) ولما قال هذا مكث هو في الجليل] .

---

١ ـ مز ٦٩ : ٨ و يو ٧ : ١ ـ ٩ .

٢ ـ يقول ستير " واضح من قولهم بالأمر له (انتقل من هنا) يو ٧ : ٣ أنهم اتخذوا هذه الصيغة الجريئة اتكالا على قرابتهم له وفي الوقت ذاته كانوا يعبرون على ألا يكونوا من تلاميذه .

٣ ـ الكلمة الأصلية المترجمة (لست) تحمل معنى الحاضر فيكون المعنى الحرفي " لست الآن أصعد " أي " لست أريد الآن أن أصعد) .

[أما أنا فلست أصعد إلى هذا العيد] . هذه الكلمات نزيدها ايضاحا ما هو وارد فى اللغة الأصلية مما يجعل المعنى الحقيقى « أما أنا فلست أصعد إلى هذا العيد بعد » (١) . وحتى لو كانت كلمة « بعد » ليست واردة هنا فى اللغة الأصلية فان كلمة بعد الواردة فى تكملة الآية [لأن وقتى لم يكمل بعد] تدل بوضوح على أن هذا الوقت آت . ولا يريد أن يعلم أخوته الذين ظهر للأسف افتقارهم التام للعطف والاحترام متى يكون ذلك الوقت . وكان هناك سبب لهذا . كان ضروريا لأمان حياته التى ما كانت تنتهى قبل ستة شهور من الآن ، كان ضروريا لاتمام مقاصده الالهية التى ارتبطت وحوادث الأيام القليلة المقبلة ، أن لا يعلم اخوته شيئا عن خططه . ولهذا تركهم يصعدون إلى العيد وهم فى أتم شك إن كان مزمعا أو غير مزمع أن يتبعهم (٢) . كان من المحقق أن تسألهم الجموع ان كان آتيا إلى العيد . وكان من الضرورى أن يجيبوا بصدق كامل أنهم يعلمون أكيدا أنه ليس آتيا معهم ، أما ان كان سيأتى أو لا يأتى قبل انتهاء العيد فلا يعلمون . أما أن هذا قد حدث وأن هذا كان جوابهم فواضح من السؤال

---

١ - " لست " وردت فى نسخة تشندروف و 8 و د و ك و السريانية و " لست بعد " وردت فى النسخة ب و د و ف و ج و هـ . ويظهر أن " لست " فقط هى الأقرب " لأن القراءات الصعبة تفضل دائما على السهلة " .

٢ - حتى منذ الجيل الثالث بعد المسيح تصدى الفيلسوف بورفرى ، وهو من أقدر من هاجموا المسيحية ، إلى هذه الحادثة واتهم السيد فيها بالخداع . فمن هذا واضح أن أقرب القراءات كانت فى زمانه " لست " وظن ماير وهو أحد المفسرين العظام أن يسوع فى هذه الحادثة قد غير رأيه وهذا الظن الأخير فج وبه شىء كثير من قلة الاحترام . أما الطعن الأول فتشهير لا معنى له . لأنه لو خطر لمثل بورفرى مثل هذا الاتهام فانه من غير المعقول أو المدرك كيف أن يوحنا البشير يتمسك بهذا الخاطر . وعليه فعندى سواء كانت الكلمة " لست " أو " لست بعد " فان الرسول لم ير شيئا فى كلمات السيد سوى رغبته فى ابعاد أخوته عن معرفة أى شىء محقق عن خططه ثم أيضا لأنه مكث بعد ذلك فى الجليل .

الذى تردد وطن من أذن لأخرى فى تلك الشوارع المزدحمة البهيجة [أين ذاك] (١) هل جاء ؟ هل سيأتى ؟ وإذ أنه لم يظهر فقد بدأت الجموع تتحدث عن شخصيته وعن كرازته . كانت كلمات الاعجاب به [انه صالح] قليلة وجبانة أما كلمات الحكم ضده [كلا ، بل أضل الجميع] فكانت مرة وأكيدة . انه مسيخ كذاب . [ومع ذلك لم يتكلم أحد عنه جهارا] لأن كل واحد كان يخشى جاره والجميع خافوا أن يزجوا بأنفسهم فى موضوع لم يعلن [اليهود] أى رؤساء الكهنة والفريسيون رأيهم النهائى فيه .

وفجأة وسط هذه الهمسات والمجادلات ، عند انتصاف العيد ، غير مصحوب بأتباعه ، غير ممهد لحضوره من أقربائه ، ظهر يسوع في الهيكل وكان يعلم . ولا ندرى بأى طريق قد وصل إلى المدينة المقدسة ، وكيف اخترق شوارعها المكتظة بدون أن يلاحظ . كما لا ندرى ان كان قد عاش فى مظلة من أغصان النخل باقى أيام الأسبوع وسار وسط الجموع اللابسة الثياب البراقة كما هى العادة فى أيام المواسم عند الشرقيين . وكلما أخبرناه أنه جاء إلى أوروشليم ووجد جالسا فى بهو فسيح يتصل بأروقة الهيكل [وكان يعلم] .

ومكثوا برهة ينصتون وقد ملكتهم الرهبة فى سكون ولكن سرعان ما عاودتهم وساوسهم انه ليس نبيا رسميا ولا ينتمي إلى مدرسة رسمية ولا يتمسك به لا أتباع هلليل ولا أنصار شماى . انه ناصرى قد تدرب فى دكان نجار جليلى [كيف هذا يعرف الكتاب ولم يتعلم] ؟ كما لو أن القليلين المتعلمين من الله - الذين علمهم القلب النقى والعين النيرة والحياة التى بلا لوم - لا يسمون عما لا يقاس فى الحكمة والمعرفة الخالصة الحقة عن أولئك الذين يعلمهم رجال آخرون ! ليس صوت التدريب ولا صوت اللماحية هو المزكى ولكن كما يقول الفيلسوف اليونانى القديم « صوت

١ - يو ٧ : ١١ .

الوحي . صوت النبع الألهى الذى يفيض بأشياء بسيطة غير منمقة ولكن يظل ملايين السنين » .

وقد فهم يسوع نظراتهم وترجم همساتهم وقال لهم ان تعليمه من أبيه السماوى . وأنهم هم أيضا لو عملوا مشيئة الله لتعلموا وفهموا هذه الدروس العالية . فى كل الأجيال وجد ميل للخلط بين الثقافة والعلم وبين المعرفة والحكمة . وفي كل الأجيال يسود ثقل فى الفهم بأن العلم الحقيقى الذى يمتاز بأعمق وأنبل الصفات والخلال قد يوجد جنبا إلى جنب مع الجهل التام الأكل بكل ما يحتوى عليه ويتضمنه تعليم المدارس . لذلك قال يسوع لسامعيه إنهم فى ذات الوقت الذى يعلمون فيه الناموس الذى أعطاه موسى، يجهلونه إلى حد كبير، ولا يستطيعون فهم مبادئه، لأنهم لم يكونوا أمناء فى العمل بالناموس (١) . وحينئذ سألهم علانية [لماذا تطلبون أن تقتلونى] ؟

نية قتله كانت معلومة بالتأكيد لديه ومعلومة لبعض من الذين سمعوه ولكنها كانت سرا مجرما يخفى عن أغلبية الجموع . وهؤلاء هم الذين أجابوا بينما استمسك الآخرون بسكوتهم الآثم [أجاب الجمع (٢) وقالوا بك شيطان . من يطلب أن يقتلك] . لكن لماذا تكلموا بمثل هذه اللهجة القاسية المفترسة ؟ ألا تنكر نحن بلغة أقل لهيبا أية تهمة غير معقولة لا أساس لها ؟ ألم يكن حتى فى عقول تلك الجماعات التى لم تكن تحبه تماما شعور غير مريح يدلهم على البون الشاسع بينهم وبين محدثهم، شعور غير مريح عن التفوق الذى لا يحد بينه وبينهم ،وهذا قد آلمهم وأغاظهم وألبسهم العار ؟ ألم يعرفوا بفطرتهم الغليظة أن هذا النبي ما جاء لينزل إلى مستوى آرائهم ، وانما ليرفعهم ويعلو بهم إلى مراق شعروا أنهم لا يستطيعون فيها التنفس ؟ ألم

---

١ ـ قارن يو ١٤ : ١٥ و يو ١٤ : ١٦ و١٧ و ٢٠ و ٢١ و أيوب ٢٨ : ٢٨ .

٢ ـ يو ٧ : ٢ (أجاب الجمع) لا اليهود .

يكن فى قلوبهم حتى ذاك الوقت شىء غير مدرك من بغض الرذيلة للفضيلة وكره الظلام للنور ؟ أكانوا يجيبونه [بك شيطان] عندما سمعوه يقول إن بعضا منهم يتآمر على حياته لولا شعورهم فى داخلية نفوسهم أنهم قادرون فى أى لحظة أن يشتركوا فى هذه المؤامرة الدنيئة بل وأن يتموها بأيديهم ؟

ولم يعر يسوع وقاحتهم الثقيلة انتباها بل ذكرهم بمعجزة الشفاء التى صنعها فى السبت (١) ، والتى ما زالوا مندهشين مبهوتين منها ولكن بتعجب فارغ ، غير فاهمين ان من له السلطان أن يتم عملا كهذا كان حريا أن يعلو عن التمسك الفارغ التقليدى السفسطائى الذى يحفظون به السبت . ويسوع الذى كان دائما يكرز بدرس المحبة لا بعبادة الحرف، وأن فى هذا وحده إتمام الناموس، أوضح لهم انه حتى على قياس مبادئهم اللاوية والطقسية لم يكن فى كلمات الشفاء التى نطق بها كسر للسبت من أى وجه. فحتى موسى أسس أو على الأصح أعاد أساس وجوب الختان فى اليوم الثامن. فان صادف أن يكون اليوم الثامن سبتا كانوا يضحون بهذه الوصية في سبيل اتمام الختان ويعملونه يوم السبت رغما عن الجهد الذى يستنزفه . فان كان قانون الختان تغلب على قانون السبت فلماذا لا يتغلب قانون الرحمة ؟ ان كان صوابا أتيان بعض أعمال متتابعة فى عمل هذا الجرح فهل كان خطأ بكلمة واحدة منح الشفاء التام ؟ إن كان الختان الذى هو على أحسن تقدير رمزا للخلاص لا يمكن تأجيله ولو يوما واحدا حتى ولو كسر السبت فلماذا يعتبرونه إجراما عدم تأجيل خلاص حقيق كامل ؟ وحينئذ أجمل دفاعه عن نفسه بكلمة فريدة هادئة [لا تحكموا بحسب الوجوه بل احكموا حكما عادلا] (٢) أى بدل اقتناعكم بهذه الطريقة السطحية للنقد تعالوا ولو مرة واحدة لتقرير قاعدة عادلة للحكم.

---

١ - نقل ستير عن الحاخاميين قولهم " الختان ولو أنه جزء من ٢٤٨ من أجزاء الجسم يفضل عن السبت " فكم بالحرى يفضل جسم الانسان جميعه .

٢ - يو ٧ : ٢٤ (بل احكموا) معناها الأصلى (بل احكموا مرة واحدة) .

ولقد تحير سامعوه وبهتوا وقالوا [أليس هذا هو الذى يطلبون قتله ؟ ... ألعل ... هذا هو المسيح ؟] لا يمكن أن يكون لأننا نعلم من أين أتى هذا [أما المسيح فمتى جاء فلا يعلم أحد من أين هو] .

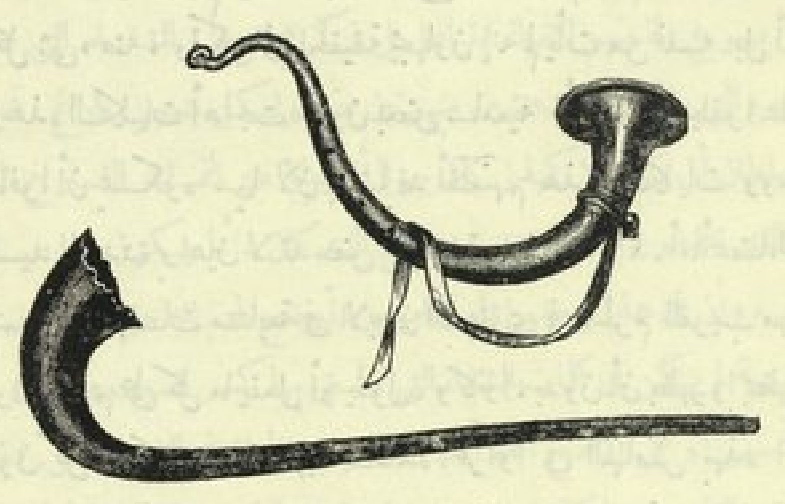
كان هناك بعض التهكم في جواب يسوع . قال لهم أنهم يعلمون من أين أتى ويعلمون كل شيء عنه ، ولكن فى الحقيقة يجهلون إنه لم يأت من نفسه بل أتى ممن لا يعرفونه . هذه الكلمات أهاجت جنون بعض سامعيه فأرادوا أن يلقوا عليه الأيدى ولكنهم خافوا أن يمسكوه سيما لأن بعضا قد أقنعتهم هذه الكلمات ووجدوا فى أعاجيب السيد المتعددة براهين لا تدحض على صدق اعلاناته (١) . أما أعضاء السنهدرين فكانوا مجتمعين فى جلسات متتابعة فى الايوان الصخرى فى الحرم القريب من الهيكل يطلعهم جواسيسهم على كل ما يفعل أو يقول . وكانوا ، بدون أن يظهروا بمظهر المراقبين له ، يلاحقون كل حركاته بعيون خبيثة حاسدة . فرأوا فى التهامس بهذه المجادلات الحسنة في حقه وفى الخوف منه ، وفى الايمان به الذى يتزايد رغم سلطانهم وتحت بصرهم ، تحقيرا لهم وخطرا عليهم . لذلك قرروا خطة للعمل أجرأ . فأرسلوا خداما ليقبضوا عليه خفية فى أول فرصة تسنح . ولم يعتر يسوع خوف . كان سيبقى معهم زمانا يسيرا أيضا ، وبعد نهاية هذا الزمان ـ وليس قبل نهاية هذا الزمان ـ سيمضى إلى الذى أرسله (٢) . وحينئذ سيطلبونه ـ سيطلبونه ليس بمقاصد عدائية كما يفعلون الآن بل بكل آلام الندامة والخزى السحيقة ـ ولكنهم لن يجدوه بل يطلبونه بدون

---

١ ـ من المهم أن نلاحظ أن اليهود ما حاولوا أبدا نكران صحة أعاجيبه . كل ما أمكن أن يقوله عنها كتاب (طولدوت يشوع) وأمثاله أنه صنعها بواسطة " شمفوروش " أو الاسم الأعظم إذ كان عندهم تقليد جامح يعزو إلى " هذا الرجل " (كما كانوا دائما يدعونه بغضا) انه قد تعلم النطق بهذا الاسم . راجع ترجمة طولدوت عن هولوزيك سنة ١٧٠٥ وراجع كتاب واجنيل سنة ١٦٨١ .

٢ ـ قارن يو ٨ : ٢١ .

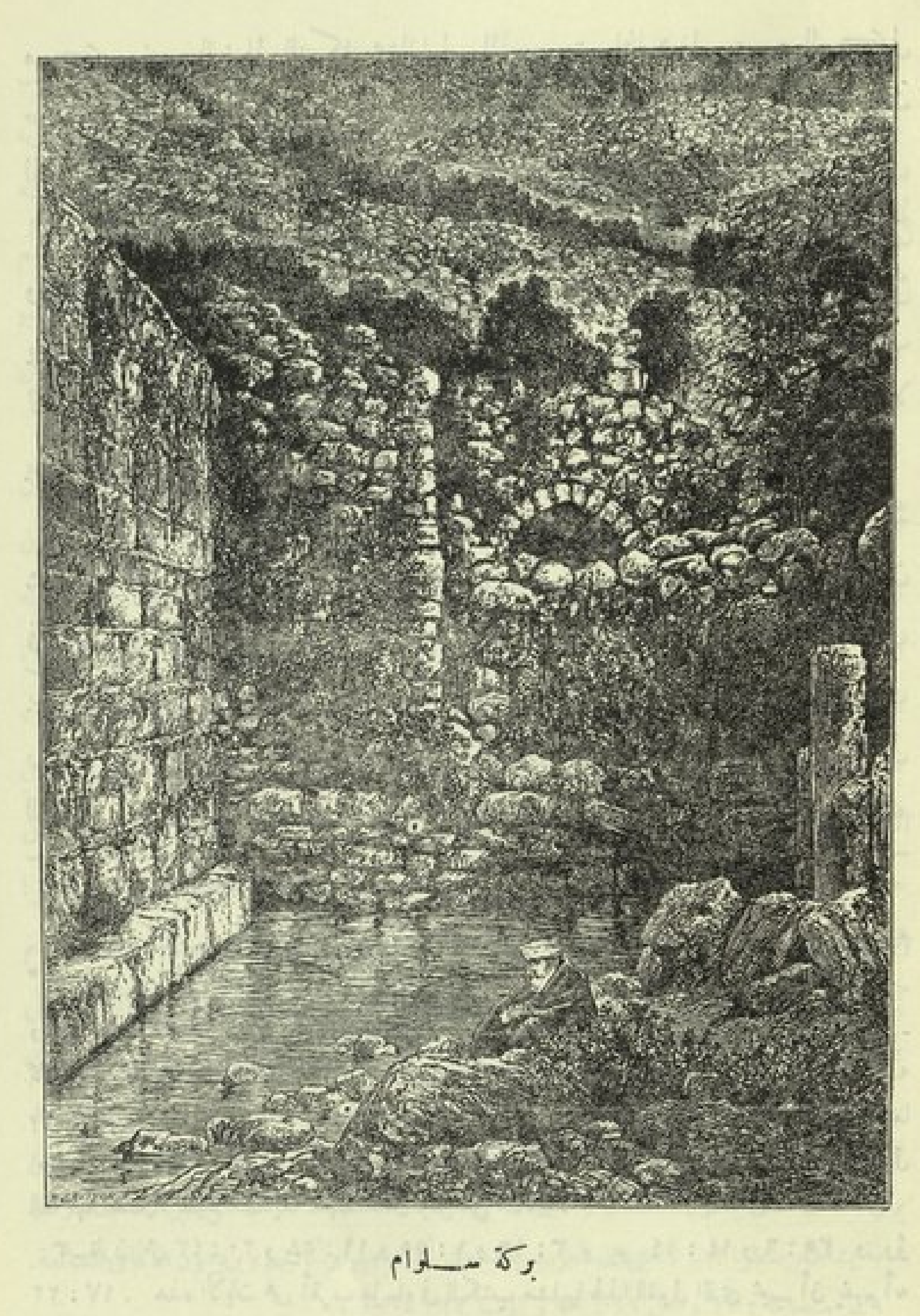
جدوى . ولم يفهم أعداؤه بتاتا ما رمى اليه . ولكنهم سيفهمون ذلك جيدا وبمرارة قاسية في الأيام المضطربة الشنيعة الآتية . وقنعوا بما صورته لهم أفكارهم الهازئة انه ربما قد اعتزم أن يذهب ويعلم بين الأمم (١) .



أبواق الكهنة

وهكذا مضى هذا اليوم الخالد . وفى اليوم الأخير من العيد وقف يسوع في الهيكل . فى كل من الأيام السبعة وربما أيضا فى اليوم الثامن كانت تقام حفلة خاصة وخدمة مفرحة . فكان الناس يغدون فى الصباح الباكر إلى الهيكل . وعندما توضع تقدمة الصباح على المذبح يحمل أحد الكهنة ابريقا من ذهب إلى بركة سلوام عند قاعدة جبل صهيون وبهيبة عظيمة يغترف ثلاث مرات من الماء ثم يعود بالابريق فى

١ - (الأمم) معناها (شتات اليونانيين) يو ٧ : ٣٥ ولكن على الأغلب المعنى المقصود هنا هو " الممالك الأممية التى فيها يهود مشتتون " وهذه الفكرة ظهرت لليهود المتعصبين انها مضحكة وذكر فرانكل عن أحد حاخامي أوروشليم أنه لم يعلم فى أي جزء من الأرض يعيش ولم يعلم شيئا عن أوروبا . وكان يسمى كل جزء من العالم غير فلسطين " شوتزلورتز " أي خارج الأرض المقدســة .



بركة سلوام

موكب نصر بالغ إلى الهيكل مجتازاً باب الماء . حتى إذا دخل حرم الهيكل صدحت الأبواق المقدسة بلحن مفرح يستمر إلى أن يصل الكاهن إلى أعلى درجات المذبح ، فيصب الماء فى وعاء فضى على الجانب الغربى ،ويصب خمراً في وعاء فضي آخر على الجانب الشرقي وحينئذ يرنمون التهليل (١) ،حتى إذا أتوا إلى آية [احمدوا الرب فانه صالح وان إلى الأبد رحمته] كان المتعبدون اللابسون الثياب البهجة الواقفون على جانبي المذبح يلوحون بما فى أيديهم من « لبلاب » تلويح الانتصار . وكانوا عند المساء يطلقون لأنفسهم عنان الفرح والمرح حتى قال أحد الحاخاميين « من لم ير فرح جر الماء لا يعلم ما هو الفرح » (٢) .

ومن الواضح أنه إشارة لهذه العادة المفرحة ـ وربما مشاركة للشعور فى أن هناك شيئاً ناقصاً نجم عن عدم اتباعها فى اليوم الثامن ـ انتهز يسوع تعطش جموع المعيدين في الهيكل ـ كما عمل مع المرأة السامرية عند البئر المنعزل ـ فأظهر لهم الحق الجديد الذى يكمل المعنى الروحى [اش ١٢ : ٣] ، والمعنى التاريخي (١ كو ١٠ : ٢٤) للمنظر الذى رأوه . فوقف [وصاح قائلا من يعطش فليقبل إلي ليشرب . ومن يؤمن بى كما قال الكتاب تجرى من بطنه أنهار ماء الحياة] (٣) . وشعر أفضل من فى الجمع فى داخلهم

---

١ ـ مز ١١٣ : ١١٨ أما التهليل الكبير فهو مز ١٣٦ .

٢ ـ راجع كتاب سوكاه . كانوا يسمون هذا عيد "شمحات بيث هاشوباه" وهذا اليوم "هوضاه رباه" أو "أوصنا العظيم" لأنه فى اليوم السابع كانوا يتلون التهليل سبع مرات . وأصل هذا الاحتفال غامض ولكن يظهر أن الفرح الفائض فيه ـ المواكب والمشاعل والمراقص ـ كان يذكر الفريسيين بانتصارهم على اسكندر بانياس الذي بدل أن يسكب الماء على المذبح رشه بازدراء على الأرض . ففى غضبهم رجموه بالليمون الذي كانوا يحملونه (لا ٢٣ : ٤٠) وعندما استصرخ خدامه ليساعدوه حدثت مذبحة أريقت فيها دماء ما يقرب من ستة آلاف . واستعمال الفاكهة استعمالا سيئاً كقذيفة سهلة المنال ليس من النادر .

٣ ـ قارن اش ٤٣ : ٢٠ و ٥٨ : ١١ و ٥٥ : ١ و ١٢ : ٣ و يو ١٤ : ١٤ و ٦ : ٣٥ و رؤ ٢٢ : ١٧ . هذه الآيات هى أقرب ما جاء فى الكتب مشابها لهذا القول الذى يجب أن يفهم أنه

(وهذا أقوى براهين المسيحية عند الذين يؤمنون من كل أرواحهم وقلوبهم بالله محب يعتنى بأولاده فى أرض الناس) انهم فى أشد الحاجة لعزاء وخلاص حلول الروح القدس، وان الذى يتكلم معهم هو وحده الذى يستطيع أن يمنحهم إياه . وبدأوا يتحدثون عنه ويعلنون أنه النبي والمسيح ، ولكن هذا أهاج حفيظة الآخرين . لقد خلقوا لأنفسهم صعوبة مؤسسة على جهلهم التام للحقائق لم يستطع ذهنهم الضيق المتعصب أن يتغلب عليها . [قالوا هل يأتى المسيح من الجليل] ؟ [ألم يقل الكتاب (١) انه من نسل داود يأتى المسيح من بيت لحم] ؟

أثناء هذا الاختلاف فى الرأى بين الجموع عاد الخدام الذين أرسلهم الفريسيون ليلقوا القبض على يسوع بدون أن يجتهدوا حتى فى تنفيذ خطتهم. وبينما كانوا يجوسون فى أروقة الهيكل أو يختبئون وراء أعمدته ملحوظين من ذاك الذى كانوا يترقبونه وقعت على آذانهم بعض الكلمات الألهية التى فاضت من بين شفتيه . وإذ سمعوا لم يستطيعوا أن يتموا مأموريتهم . وقع عليهم تأثير مقدس لم يتمكنوا من مقاومته ، فان قوة أشد بما لا يقاس من قوتهم سلبتهم صلابة أعصابهم وشلت إرادتهم . ذلك لأن الاستماع ليسوع لم يكن فقط يرغم على التخاذل فى عمل أى مقصد ضده بل إن خوفا ورهبة كانا يبدلان ألد الأعداء إلى شبه تلاميذ له . وكانت الحجة التى لم يستطيعوا تقديم سواها أنه [لم يتكلم قط انسان هكذا] . ولا شك أن جرأتهم فى عدم إطاعتهم للأوامر الصريحة جعلتهم يخشون على أنفسهم وأن يخافوا النتائج المترتبة على مخالفتهم . ولكن الطاعة للأوامر كانت تتطلب جرأة أزيد بكثير مما لهم . ناهيك

اقتباس لا نقل . ولا يوجد فى الشرق تمثيل للشوق أقوي من الماء فى أرض ناشفة يابسة . ومن يرى الحماس الذى يعتور الانسان والحيوان على حد سواء عند الاقتراب من عين ماء بعد رحلة شاقة يشاهد منظرا عجبا ، حتى ان العرب ينشدون أهازيجهم وأغانيهم ويرددون الأغانى الشائعة.

١ — ميخا ٥ : ١٢ و اش ١١ : ٥٠ و ارميا ٢٣ : ٥ الخ .

بالجرح الناتىء الذى يوخز به صاحب ضمير مستيقظ إذا حاول ارتكاب جريمة .

أما الفريسيون فقابلوهم بتعنيفات حانقة [قائلين ألعلكم أنتم أيضا قد ضللتم] ؟ أتريدون أنتم أيضا أن تتبعوا نبي الجهلاء المحبوب من الملعونين والجموع الخاسئة المنكودة ؟ (١) وحينئذ تشجع نيقوديموس وأدلى بكلمة عن وجوب الاستماع إلى يسوع أولا قبل أن يحكم عليه . لكن لم يكن لديهم جواب لعدالة هذه القاعدة فرجعوا إلى توبيخاتهم [أأنت أيضا من الجليل] ، وعادوا إلى التعصب الجاهل القديم قائلين [ابحث وانظر . انه لا يقوم نبي من الجليل] .

أين إذن - كما سبق فسألنا - جث حيفر التى أتى منها يونان ؟ وأين تشب التى أتى منها إيليا ؟ وأين الكوش التى أتى منها ناحوم ؟ وأين مدينة الشمال التى أتى منها هوشع ؟ يهود اليوم - وقد علموا الكتب - يقرون أن المسيح سيأتى من الجليل (٢) . ويسكن بعضهم طبرية لأنهم يعتقدون أنه سيصعد من مياه البحيرة . ويسكن بعضهم مدينة صافد - المدينة المبنية على التلال - لأنهم يعتقدون أنه سيقيم هناك عرشه أولا . ولكن ليس هناك جهل أشنع من الجهل الذى يرفض التعليم ، ولا عمى أقل نجاحا فى الشفاء من العمى الذى يصر صاحبه على عدم الابصار . غير أن التعصب لحكم سابق ، والجمود الضيق ، والظن أن هذا مطابق لعلم اللاهوت ، هو بلا شك ، وقبل كل شيء ، أشنع الجهل وأفظع العمى . بهذه الروح التى تجاهلت سنة العدالة التى قدمها نيقوديموس وتجاهلت الأثر الغريب الذى أثر به يسوع على خدامهم المعادين له ، انفض مجلس السنهدرين بدون قرار ، وذهب كل عضو منه إلى منزله .

---

١ - احتقار الفريسيين الكنسى " للجموع " فاق الحدود فى الاستهزاء حتى على ما يوجد عند الوثنيين .

٢ - اش ٩ : ١ و ٢ وقد أعلنوا هذا فى كتابهم " الزهار " .



السنهدرين (*)

الفصل الأربعون

المرأة التي أمسكت في زنا

" ضميرنا يجعلنا كلنا جبناء "
شيكسبير

من الصعب أن نصل إلى نتيجة حاسمة عن زمان الحادثة الشهيرة التي تتحدث

(*) هذه الحفرية الخامسة من مجموعة فسيفسائية تزين كنيسة " ابوليناريس " في رافنة تحت خميلة مقامة على عامودين قورنثيين . جلس ثلاثة قضاه ووقف يسوع أمامهم يتحدث ويده

عنها ، وعن مكانها الحقيق فى ترتيب الحوادث (١) ، مع ما يكتنفها من صعوبات .

عند انتهاء اليوم المذكور في الفصل السالف مضى يسوع إلى جبل الزيتون . ولا ندرى إن كان قد ذهب إلى حديقة جسثيمانى ، أو إلى منزل مالكها الصديق المجهول ، لأنه ليس له أين يسند رأسه . نام ببساطة على طريقة الشرقيين فوق الأعشاب الخضراء تحت أشجار الزيتون العتيقة . إنما نلاحظ مرة أخرى كرهه للمدن المزدحمة ، وحبه للهواء الطلق النق المنعش ، وتفضيله سكون التلال المنعزلة . هذا كان شأنه فى كل حياته على الأرض .

لم يكن بالتأكيد في خلق السيد ذرة من الشعور المتعالى ولا حب الذات الممرض الذى يحدو يبعض الناس أن يتجنبوا الناس اخوانهم . كذلك من يريدون أن يكونوا خدامه الحقيقيين لا يجب أن ينتموا لفريق محبي الناس الخياليين الذين يئنون من البؤس ، وينأون عن البؤساء ، ويجلسون فى وحدة لذيذة يدللون احساسهم الرقيق وعواطفهم غير الفياضة .

أما يسوع فكان على عكس هذا . ما دام الوقت نهارا كان يستمر عاملا مضحيا بكل عزيز وغال رغما عن الحرارة والازدحام والمقاومة والتعب ، جاهدا في أعمال المحبة بين خصومات الجموع غير الشريفة التى تعرض النفس . وإذا أتى المساء واستحالت الأعمال على الرجال ولم يعد واجب يستدعى بقاءه داخل أوروشليم - والذين

مرفوعة . الاثنان القريبان منه مسنان ولهما شعر أبيض ، أما الثالث فشاب فاحم الشعر وكلهم فى ثياب بيضاء وأوسطهم يرتدى عباءة بيضاء مخططة بالبنفسجي والآخران عباءتين حمراوين مخططتين بالبنفسج أما يسوع فرسم فى ثياب بنفسجية محتذيا صندلا وتميز بارتفاع قامته وهالة المجد حول رأسه . وإلى جانبه اثنان لبسا ثيابا بيضاء وعباءتين حمراوين . والرسم يقال أنه من الجيل السادس إذ تندر مشاهد الآلام فى الرسوم التى قبل هذا التاريخ .

١ - يو ٨ : ١٥ و ١٧ و ٢٤ و ٤٦ .

خبروا قذارة المدن القديمة المقبضة يقدرون الارتياح الذى يشعر به عندما كان يترك المدن الكبيرة - كان يهرب من الشوارع الضيقة والأسواق المكتظة ويعبر السهل ويعتلى منحدر الجبل الأخضر الذى يشرف عليه حيث يكون وحيدا مع أبيه السماوى فى الليل المتألق بالنجوم .

فاذا أشرق الفجر كانت تجتذبه واجباته إلى داخل أسوار المدينة مرة أخرى ، وإلى ذلك الجزء من المدينة الذى سمعنا أنه كان يوجد فيه لا فى سواه ، أى فى أروقة بيت أبيه . وفى هذا الفجر دبر أعداؤه مؤامرة جديدة ضده ، ظروفها جعلت مكرم أشد إيلاما له أكثر مما قصدوا أن يكون خطرا عليه .

ويبدو أن المرح وترك الجبل على الغارب فى عيد المظال بعد أن صار شبيها بأعياد قطاف الكروم ، كانا يتسفلان أحيانا إلى أعمال طائشة ، مبتذلة ، إباحية ، أتاحتها الفرص المتعددة الناجمة عن التبدل الكلي فى كيفية المعيشة وسكنى الناس جميعهم فى المظال . وعمل من هذه قد كشف فى الليلة السالفة ، ووقعت المرأة الآثمة فى أيدى الكتبة (١) والفريسيين .

ولو أن أخلاق الأمة فى ذلك الوقت كانت طاهرة كما فى الأيام التى سن فيها موسى شريعة « مياه الغيرة » (٢) الرهيبة ، ولو كان حكام ومعلمو السبت أعلى وأسمى من رعاياهم فى القداسة الحقيقية الروحية كما كانوا يدعون ويعلنون ، لما قصر العثور على هذه الزانية المسكينة وعقابها المرتقب عن أن يحركا كل عقل طاهر ونبيل إلى عطف يمتزج مع الرعب الذى تثيره هذه الخطية الشنيعة وجزاؤها المريع . كان لزاما

---

١ - من الملاحظ أنه لا يوجد فى موضع آخر غير هذا فى بشارة يوحنا ذكر فيه الكتبة ضمن أعداء المسيح (ولو أن البشيرين الثلاثة كثيرا ما ذكروهم على هذا النحو) وتوجد بعض النسخ وردت فيها (رؤساء الكهنة) بدلا من (الكتبة) .

٢ - عدد ٥ : ١٤ - ٢١ .

بالطبع - حتى مع هذه الافتراضات - أن يوقعوا العقاب المقرر بنفس الشدة التى لا تلين التى كانت للآباء السائحين الأولين فى الأيام القديمة التى لساليم، أو حتى بذات الصرامة التى للعزة الألهية. ولكن حزم القاضى النزيه النقى القلب ليس الحزم الذى يتنافى كلية مع الرحمة، بل هو حزم لا يتعمد أن يوقع أى قصاص لا موجب له، ولا يزيد قطرة واحدة من الألم. انها صرامة لا تتعارض مع الشفقة العادلة الصالحة، ولكنها تتعارض تماما مع هذا المزيج من الدوافع الحقيرة والدنيئة، وتتعارض تماما مع روح الاستهتار الخبيث والهزل البشع.

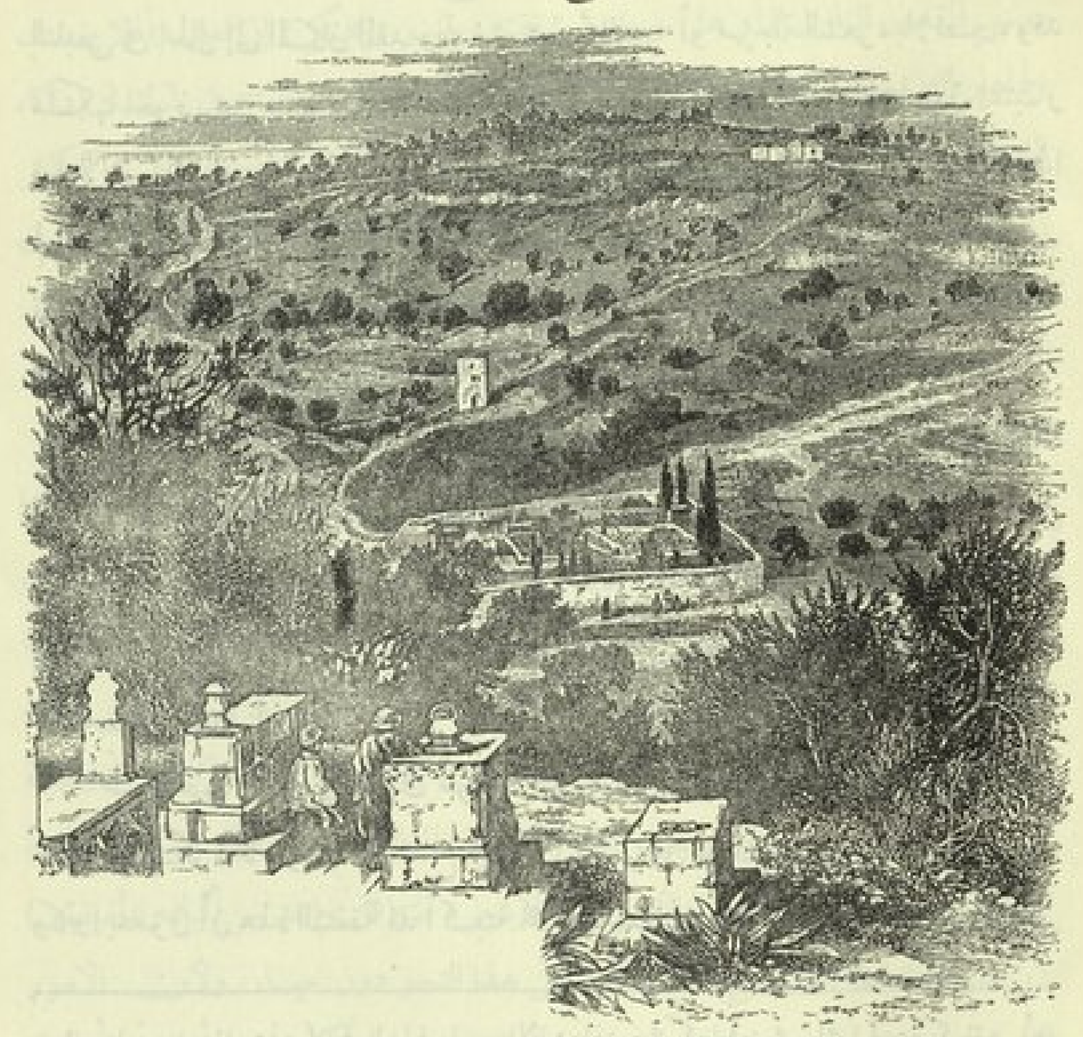
إن الروح التى كانت تحرك هؤلاء الكتبة والفريسيين لم تكن بأى حال من الأحوال روح الاخلاص التى للطهارة المستثارة. فلقد تفشى الفساد تماما في أخلاق الشعب تبعا لانحطاط الحياة العامة، ومن المعاشرة اليومية مع الوثنيين ومخالطة فسادهم، ومن الانحراف التدريجي من التمسك بالعبادة القلبيـة إلى التشبث بالتقاليد اللاوية. ولذلك أبطل نظام مياه الغيرة وانمحى منذ زمن بعيد وترك عقاب خطية الزنا بالرجم من عهد طويل بل نسى من عدم العمل به. ولم يكن لدى الكتبة والفريسيين - مع تظاهرهم الخارجي بالتمسك بالدين - أدنى اشمئزاز حقيق من هذه النجاسة التى كثيرا ما لطخت حياتهم [1]. فلم يروا فى هذه الحادثة التى وضعت المرأة الأثيمة تحت سلطانهم سوى فرصة لاغاظة وإيقاع ذلك النبي الجليلى - الذى سبق فاعتبروه ألد أعدائهم - فى مكيدة وربما فى خطر.

كانت عادة اليهود أن يستفتوا الحاخاميين العظام فيما صعب من الأمور أو فيما

---

١ - هذا جلى واضح مما ورد فى التلمود ومما ذكره يوسيفوس. وقد جاء فى كتاب السوتاه أن الطقس الموسوي لمياه الغيرة انما أبطل لذيوع وانتشار هذه الجريمة. كما جاء فيه أن الحاخام يوحنان بن زكاي هو الذى أوقف العمل به (راجع مشنة سورنهوس جـ٢ صحيفة ٢٩٠ - ٢٩٣).

اكتنفه الشك . ولم تكن هنا لا صعوبة ولا ريبة . لقد مضى زمن طويل على ابطال ناموس موسى بخصوص إماتة الزانية ، فلم يعمل به ولم يطبق بالقوة . وإن لم يكن قد أبطل فالقانون الرومانى السارى كان يمنع إعمامه .



جبل الزيتون

وفى الوقت ذاته كانت عقوبة الطلاق دينيا ، مدنيا مصرح بها للزوج المغبون . وما كانت حالة هذه المرأة تختلف عن حالة أية امرأة أخرى أخطأت مثلها . ولو أنهم أرادوا باخلاص أن يعرفوا رأى يسوع فما كان هناك أى داع أو أقل سبب

أو معذرة مطلقا فى جر المرأة نفسها واحضارها إلى مجلسه وتحميلها آلاما معنوية شديدة لا تطاق سيما إذا علمنا تحجب المرأة فى الشرق إذ ذاك .

تعريض المرأة لهذا الرعب البالغ الحد وهذه العلنية الفاضحة ، وجرها من مكان التلبس فى الحال إلى المكان المقدس ، غير محجبة الوجه أو مرجلة الشعر ، بلا نصير ، وقد ملكها الخوف من حب استطلاع بارد شهوانى لحشد خبيث ، واتخاذها دون اعتبار قط لآلامها الشخصية أداة ووسيلة مسخرة لاذكاء حقدهم ضد يسوع - وعملهم هذا لم يكن ثورة للكرامة والآداب بل ليشفوا غليلا ميتا - انما أظهر ما كانوا عليه من تعصب قاس ووحشية بربرية لا شفقة فيها ولا رحمة حجرت القلوب والضمائر ، وحشية ممجوجة مكروهة لدى من هو فى كمال الرأفة لأنه في كمال الطهارة .

على هذه الصورة جروها إليه وأوقفوها فى الوسط . أوقفوا الاثم الفاضح قبالة الطهارة الكاملة ، والبؤس الدنىء أمام الرحمة الشاملة . وكما لو كانت قلوبهم خالية من الغل الدفين له ابتدأوا بمرح وسخرية متسترة بدثار الاهتمام أن يقدموا قضيتها أمامه [وقالوا له يا معلم هذه المرأة وجدناها فى زنى وناموس موسى يأمر أن ترجم (١) فماذا تقول أنت ؟] .

ظنوا أنهم أوقعوه فى مأزق حرج . كانوا يعلمون شفقته الألهية الفياضة ، التى تحب بينما يكره الآخرون ، وتمتدح بينما يهزأ الآخرون ، وتشجع بينما يحطم الآخرون . وكانوا يعلمون أن هذه الشفقة قد أكسبته اعجاب العديدين والأخلاص والتفانى القلبي

---

١ - (ترجم مثل هذه) وفيها ما فيها من الازدراء . ولكن أين شريك الجريمة ؟ لقد أمر موسى أن يقتل هو أيضا (لا ٢٠ : ١٠) . وكان الرجم هو العقوبة المقررة للزنى (تث ٢٢ : ٢٢ - ٢٤) فهنا صعوبة ثانية . وليس هناك أى أساس لظن لاتيفوت انها ربما كانت مخطوبة . يقول الحاخاميون ما لم ينص صراحة على كيفية القتل فالأصوب الخنق ، لكن ليس هنا محل لهذا (قارن خروج ٣١ : ١٤ و عدد ١٥ : ٣٢ - ٣٥) .

من غير القليلين . كانوا يعلمون أن بين تلاميــذه عشارا ، وأنه جلس على المـائدة مع خطاة ، وأن امرأة خاطئة لم ينتهرها غسلت قدميه وأصغت إلى حديثـه . فهل سيترك هذه المرأة أيضا فيكون عرضة لتهمة الكفر إذ يضع ذاته فى مخالفة صريحة لناموس موسى المقدس النارى ؟ أو هل سيخون شفقته ويقسو ويحكم ؟ إن فعل ، أفلا يغضب الجماهير التى جذبها عطفه ويثيرهم فيعرض نفسه لدى الحكام الرسميين لتهمــة إذكاء الفتنة ؟ كيف يمكن بأية وسيلة أن يخرج من هذا المأزق ؟ فأمامه إذن إما الكفر أو الخيانة ، إما محاكمته أمام السنهدرين أو تسليمه للحاكم ، إما معارضتــه المتعصبين المتمسكين أو انفضاض الكثيرين . وكل من هذه على أية حال يوافق مقاصدهم غير النزيهة . وظنوا أنه واقع ولا شك فى واحدة من هذه . فأى فرصة سعيدة موفقــة قد أتاحتها لهم هذه المرأة المسكينة الآثمة ! ؟

ولكن صبرا ! حقيقة دناءتهم وقسوتهم ومكرهم وسخريتهم العلنية لكل ما يجب أن تخفف من حدته الشفقة وتكتمه الرقة مرت على ذهن السيد ، فانقبضت نفسه حزنا على أمته وجنسه ، وتألم ليس من أجل انحطاط المتهمة التعسة التى كساها الخجل ، ولكن من أجل جريمة متهميها الذين قد تعروا من الخجل ! (١) وحمى غضبه جدا لأن عداوتهم التى لا رجاء في محوها قد تسفلت فاستعملت هذه الأسلحة الدنيئة في محاربته ، وحنق إذ جعلوه المحور الثاني لمثل هذا المنظر المخزى ، وثار (وليس منافيا للاحترام أن نتخيله يثور للحق ، الأمر الذى لايتجرد منه أقل واحد من أتباعه الحقيقيين) لأن قدسية تحفظه الشخصى قد انتهكت على هذا النحو دون حيـاء . ولأن الأمور التى يجب أن تبقى فى دائرة الخفاء النبيل قد استبيحت علنا بمكر وهزء أمامه ، فأطرق بوجهه وهو جالس كما لو كان لم يسمعهم أو لم يرد أن يسمعهم ، وانحنى يكتب بأصبعه

---

١ ـ جاء فى كتاب لبراكوت عن الحاخام بابا وغيره انه قال " خير للمرء أن يرمى نفسه فى أتون نار من أن يجعل أى انسان يحمر خجلا أمام الناس " وقد استخلصوا هذا من تك ٣٨ : ٢٥ .

على الأرض .

كان هذا الفعل كافيا لأناس غيرهم . فلو أنهم قصروا عن أن يفهموا أن عمله هذا دليل الغفران ـ لأن كتابته على التراب رمز للمحو والنسيان (١) ـ فأى أناس غيرهم ما كانوا يقصرون عن ادراك معنى حركته ، وانها اعلان واضح من يسوع على عدم رغبته فى التدخل فى مثل هذه الأمور (٢) . ولكنهم لم يفهموا شيئا ، ولم يدركوا شيئا ، ووقفوا دون حياء يؤيدون سؤالهم المخزى وهم قابضون على المرأة ، يشيرون إليها ، ويهزأون بها من غير شفقة فى نظراتهم الماكرة وبدون حنان فى قلوبهم الصلبة الحديدية .

وما كان لهذا المنظر أن يطول أكثر من هذا ، فاستقام من انحنائه ، وواجههم القدير على قراءة قلوبهم بهدوء ، وأمضى عليهم الحكم المحزن الذى ضمنه فى هذه الكلمات الخالدة :

[من منكم بلا خطية (٣) فليرجمها أولا بحجر (٤)] .

لم يكن هذا الحكم نقضا لناموس موسى بل قبولا لعدالته . ولا شك أنه كان ثقيلا على قلب المرأة كأنه إمضاء شهادة الوفاة . ولكن هذا الحكم أتى بنتيجة لم تكن منتظرة بتاتا . ظل الناموس الصارم مرموقا ، لم يأت الوقت ، ولم تكن إرادته أن يبطله . ولكنهم بعدم عملهم بالناموس بدليل احالة المسألة عليه كما لو كانت محتاجة لحكم جديد قد اعترفوا عمليا أن الناموس فى ذلك الوقت كان حيا نظريا فقط ، ولم يكن يعمل به . وحتى عندما أذن لهم بسلطانه لم تكن لهم نية العمل به . وإذ أن كل الاجراءات لم تكن شرعية ولا قانونية ، فبهذه الكلمات نقل يسوع القضية من دائرة الناموس إلى محكمة

---

١ ـ قارن ار ١٧ : ١٣ .

٢ ـ الغالب أنهم فهموا ما رمى إليه يسوع كما قال وستين الخ .

٣ ـ أى بلا خطية من هذا النوع .

٤ ـ قارن تث ١٧ : ٧ .

الضمير . قد يضطر القاضى أحيانا أن يحكم على مجرم أحضر أمامه من أجل أمور هو نفسه قد اجترم مثيلات لها . ولكن هذا يختلف كلية عمن يقيم ذاته قاضيا ويتصيد بحماس اتهاما لغيره دون أن يكون مضطرا لهذا . لذلك كان حكمهم عليها معناه الحكم على ذواتهم دون رحمة أمام الله ، وأن من يرميها أولا بحجر انما كان يطحن نفسه .

نظر إليهم يسوع لحيظة . ولكن هذه النظرة استشفت طيات نفوسهم . وتكلم إليهم بكلمات هادئة قليلة ، ولكن هذه الكلمات الرزينة الخافتة - مثل الصوت الذى سمعه إيليا فى حوريب - كانت لهم أشد من الزلازل ، والرياح القاصفة ، ووقعت مثل شرارة النار على رمضاء قلوبهم ، فأضرمتها وأشعلتها وأذكت فيها روح الخجل والحياء . فوقف الكتبة والفريسيون صامتين مرتعبين ، وارتخت أيديهم التى كانت قابضة على المرأة ، وارتدت بخزى إلى الأرض نظراتهم المتحدية المفعمة بالغش والمكر واللؤم . أولئك الذين جلبوا عارا غير عادل شعروا الآن بألم لا يوصف من عار لا يحد . ووقعت على ضمائرهم المذنبة كأصوات بروق ورعود متتالية أفكار مثل هذه : [لذلك أنت بلا عذر أيها الانسان كل من يدين . لأنك فى ما تدين غيرك تحكم على نفسك . لأنك أنت الذى تدين تفعل تلك الأمور بعينها . ونحن نعلم أن دينونة الله هى حسب الحق على الذين يفعلون مثل هذه . أفتظن هذا أيها الانسان الذى تدين الذين يفعلون مثل هذه وأنت تفعلها انك تنجو من دينونة الله . أم تستهين بغنى لطفه وامهاله وطول اناته غير عالم أن لطف الله انما يقتادك إلى التوبة . ولكنك من أجل قساوتك وقلبك غير التائب تذخر لنفسك غضبا فى يوم الغضب واستعلان دينونة الله العادلة ، الذى سيجازى كل واحد حسب أعماله] . وهم كانوا مثل المرأة التى يدينونها فلم يجسروا أن يبقوا .

بوجوه محمرة وقلوب كسيرة ، من أكبرهم إلى أصغرهم ، واحدا بعد الآخر ، ذابوا من أمامه بسكون ، ولم يرد أن يزيد فى خجلهم وعارهم وخزى وجوههم بمراقبتهم . ولم يرغب أن يظهر معرفته لأسرار نفوسهم الدنسة ، ولم يشأ أن يحفزهم إلى مايقسى قلوبهم ويجعلها

كالنحاس فيكذبون ضد شهادة ضمائرهم . لذلك انحنى مرة أخرى وكتب على الأرض . وعندما رفع رأسه ثانية كان قد هرب كل متهميها، ولم يبق سوى المرأة منكمشة أمامه . كان جائزا أن تذهب هي أيضا دون أن يعوقها شيء . بل كان طبيعيا أن تهرب إلى أي مكان لتأمن الخطر ولتخفي عارها وخطيتها . ولكن الندم وربما أيضا عرفان بالجميل عظيم اختلط فيه الرجاء باليأس سمراها وأبقياها أمام قاضيها . ونظرته التي لا يمكن أن تجابه - تلك النظرة الوحيدة التي صوبتها إليها نفس ذات سلطان لا يداني لحياة طاهرة لا تشوبها شائبة - كانت في ذات الوقت نظرة اشفاق وغفران . كان بقاؤها دليل توبتها، وتوبتها سبيل غفرانها . ودعونا نثق أن غفرانها قد كفل مستقبلها . قال أوغسطين ببلاغة « أمران قد تركا وحدهما هنا البؤس والرحمة » .

سألها [يا امرأة أين الذين حكموا عليك . أما يحكم عليك أحد ؟]

وكانت الاجابة التي استطاعت أن تنفرج عنها شفتاها :

[لست أرى أحدا يا رب] . وحينئذ نالت اذن الانحراف المملوء عطفا ولكن فحصا للقلوب [ولا أنا أحكم عليك . اذهبي ومن الآن لا تعودي تخطئين] .

لو كانت معارضات النقاد ضد صدق هذه الحادثة أكثر بكثير مما هي لما نالت من صحتها ، فانها تحمل في حد ذاتها طابعا من الصدق هو أقوى البراهين على أصليتها . وليس بكثير أن أذكر أن ما تحويه من خليط القسوة والعطف، وما تظهره من المكر السيء الدنيء والنبل السامي الرفيع في الفكر والعاطفة ، ليعلو عن أن يخترعه خيال البشر . بينما هي تصور البصيرة الألهية التي تقرأ أدق خفايا القلوب ، والحب الالهي الذي يرى تلك الخفايا بعطف وسيع عما تراها عيوننا ، فتعطينا معرفة عن قوة وشخصية يسوع عالية جدا وأولية جدا . فلا يمكن أن يكون لها أساس سوى الواقع والحقيقة . ولا يمكن لأحد أن يبتكرها ، لأن قليلين جدا من يستطيعون فهم عمق طهارتها ، وبارع

جمالها ، والسلطان الرزين للادانة والغفران ، الأمور التى امتازت بها هذه الحادثة .

إن المرات المتعددة التى هدم يسوع فيها دون أى تردد الحيل الماكرة التى رتبها أعداؤه وضعت أمام عيوننا قاعدة خالدة للفكر والعمل هى بين البراهين الدامغة الخاصة المحققة على أن حكمته كانت أعلى من حكمة البشر . وفى هذه الحادثة كانت الشرارة اللامعة التى انبعثت منه نتيجة التصادم مع حقد وغدر الانسان فائقة التألق والسناء . ثم إن مجرد كون هذه الحادثة وهذا الحديث لم يلقيا سوى قبول ضعيف فى القرون الأولى لتاريخ الكنيسة (١) ، ومجرد اعتبار بعض الكنائس (٢) أن هذه الحادثة خطرة فى منحاها ، ومجرد أن كثيرين من الآباء البارزين اما تجاهلوها أو تحدثوا عنها بلسان المعتذر كل هذا كان الدليل القاطع على أن معناها الأدبى ومغزاها أعلى جدا من أن يسمح بظن ابتكارها أو إدخالها دون سلطان فى صلب الكتاب المقدس . ولكن الغريب حقا ألا يرى أحد أن شعاع الرحمة الذى فاض من السماء على الخاطئة البائسة قد ضاعف عشرة مرات شناعة وكراهة هذه الخطية في ضمائر الناس . الضمائر التى تقبل كقانون للحياة أن تجاهد حتى تكون فى قداسة الله كما أن الله قدوس .

مهما كان هذا المنظر مؤلما لقلب يسوع الطاهر القدوس فقد خفف وقعه ذلك الخلاص المملوء عطفا ، الخلاص الذى نثق انه بقى أبد الدهر ، الذى انعم به على نفس واحدة خاطئة . ولكن الحوادث التى أعقبته كانت بالغة الحد فى سوء التفاهم المستمر والتأثيرات المتباينة والتهم المريرة ، حتى انها جعلت هذا العيد الكبير والاحتفال البهيج ينتهيان بانفجار مفاجىء من الحقد ومحاولة صاخبة من رؤساء اليهود كى يضعوا

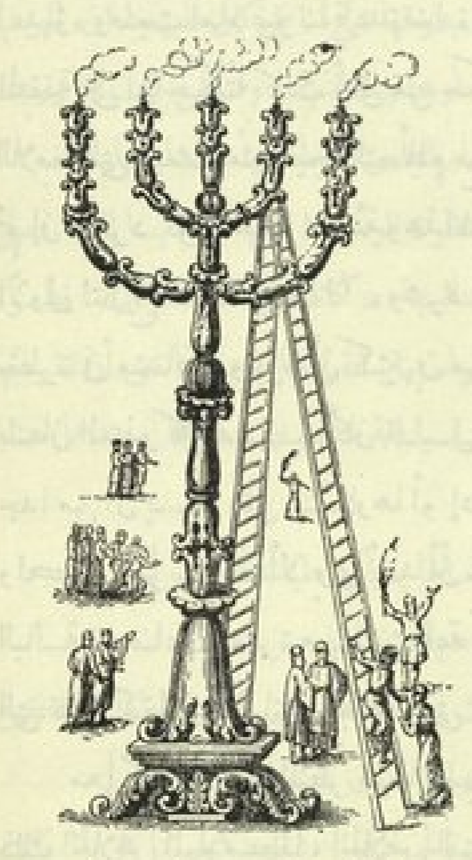
---

١ - يقول أوغسطين " ان بعض قليلى الايمان قد تجاهلوا هذه الحادثة " .

٢ - وقال البطريرك نيقون (الجيل العاشر) ان هذه الحادثة قد أهملت خطأ من النسخ الأرمنية لأنهم ظنوها ضارة بالمجموع . وقال ودسورث " إن القسوة الشنيعة التى تقابل بها هذه الخطية سهلت رفض الحادثة فى بعض الكنائس الشرقية " .

حدا لحياته ليس بمحاكمة علنية ولكن بالقوة والعنف والخديعة .

لأنه فى ذات اليوم (اليوم الثامن للعيد أو اليوم التالى بعد العيد) استمر يسوع يدلى بأحاديث متقطعة أراد منها غالبا للمرة الأخيرة إعلان حقيقته الألهية بوضوح للأمة اليهودية .



مراج كبير (عن سورينهوس) *

كان فى هذه اللحظة جالسا فى الخزانة (١) وهى إما بناء خاص في الهيكل سمى هكذا، وإما جزء من رواق النساء الذى يحوى الثلاثة عشر صندوقا ذات الفتحات الشبيهة بفتحات البوق والمسماة « شبهيروث »، والتى يضع الناس سيما الفريسيون عطاياهم فيها . وكان فى هذا المكان قريبا من يسوع سراجان عظيمان مموهان بالذهب، ارتفاع الواحد منهم خمسون ذراعا (٢) . وفى أعلاه مصابيح تضاء طول ليالى عيد المظال فترى ضوءها اللطيف على المدينة. وكان القوم وحتى الكهنة والفريسيون المعتبرون يرقصون حول السراجين فى حماس مفرح بينما كان اللاويون الواقفون بترتيب على الخمس عشرة درجة التى تؤدى إلى الرواق يرنمون على أصوات

---

١ - يوسيفوس . قارن لو ٢١ : ١ و مر ١٢ : ٤١ .

٢ - الذراع مقياس للقدماء من المرفق إلى منتهى الوسطى ومقداره من ١٨ إلى ٢٢ بوصة .

* صورة هذه السرج من مهنة سورينهوس وكانت فتائل الأربعة مصابيح الكبيرة تصنع من ثياب الكهنة المستهلكة .

النـــاى وآلات الموسيقى الأخرى الترانـــيم الجميلة التى أطلق عليها منذ القدم ترانيم المصـــاعد (١).

وبمناسبة هذه المصابيح التى ربما لظرف خص قد استرعت انتباه السامعين، كلمهم يسوع أيضا قائلا: [أنا هو نور العالم].


لاوى (عن كالمت)

كانت هذه عادته فى حديثه، يتخذ أمثلة من الأمور المحيطة فيثير أشد الانتباه، وينقش الكلمات أعمق ما يكون في أذهان سامعيه. فالفريسيون الذين سمعوه اتهموه بمدح النفس الباطل. فأظهر لهم أن الآب أيضا يشهد له، وأن النور يرى ويظهر بمجرد وجوده، وبدونه لا يرى لا هو ولا الأشياء المحيطة فسألوه [أين أبوك]، فأجابهم بأنه إذ لم يعرفوه هو لا يقدرون أن يعرفوا أباه. وحينئذ أنذرهم بحزن أنه سيمضى وسيطلبونه ولا يقدرون أن يأتوا إليه. وكانت اجابتهم الوحيدة سؤالا ذميا، إن كان مزمعا أن ينتحر فيزج نفسه في غياهب القبر (٢).

ولكنه أفهمهم أنهم هم - وليس هو - من أسفل، انهم هم - وليس هو - ان استمروا فى عدم ايمانهم بوجوده الأزلى - هم الذين سيقضى عليهم بهذه النهاية المظلمة. فسألوه مرة ثانية بحنق وحيرة جاحدة [من أنت]، فأجابهم بهدوء: [من البدء كلمتكم مرارا].

---

١ - مز ١٢٠ - ١٣٤ .

٢ - راجع يوسيفوس .

أرادوه أن يعلن أنه المسيا فيتخذوه مخلصا زمنيا ، ولكنه أراد أن يعلن لهم حقائق أعظم وأبق ، أنه كان النور والحياة والماء الحي ، وإنه أتى من عند الآب ، وأنهم سيعلمون من هو ومن أين أتى عندما يرفعونه على الصليب . كانوا يطلبون فقط مسيا اليهود أما هو فأراد أن يعرفوه كفادى العالم ومخلص نفوسهم .

ولما سمعوه يتكلم آمن به كثيرون من ألد أعدائه هؤلاء ، ولكنه كان إيمانا متقلبا ، إيمانا كاذبا ، نصف ايمان ليس فيه ذرة من القوة الخلاصية ، ولا يمكن أن يثق به يسوع . وقد قدمه إلى امتحان عاجل أظهر به انه إيمان فارغ تبدل إلى كره جنونى . أخبرهم أن الايمان والطاعة هما دليل التلمذة الصادقة وعماد الحرية الحقة . فكانت كلمة الحرية حجر المحك الذى أظهر إيمانهم المزيف الظاهرى . ما كانوا يعرفون حرية سوى تلك الحرية السياسية التي كانوا يتمسكون بها كذبا . رفضوا وعد الحرية الروحية المستقبلة على حساب الحصول على الحرية الوطنية الحاضرة . فأوضح لهم يسوع أنهم ما زالوا عبيدا للخطية فعلا ، أما اسما فقط فأولادا لابراهيم وأولادا لله . لقد كان اليهود يتيهون افتخارا بنقاوة أصلهم وتميزهم بدم واحد نقى (١) . وها هو يظهر لهم انهم في الحقيقة باستعبادهم الروحي وباختلاط دمهم بالقسوة والكذب (٢) أولاد من كان منذ البدء كاذبا وقتالا للناس ، أولاد للشيطان (٣) . وهذا التوبيخ القارص ألهب حنقهم فقابلوه بقولهم : [انك سامرى وبك شيطان] (٤) . والسيد بكل لطف تغاضى عن هذا القدح وعاد مرة ثانية فأكد لهم الوعد الذى أنعم به

---

١ - التلمود والانجيل مملوءان من البراهين على زهوهم الطائفى وفخرهم اعتدادا بدينهم ونسبهم .

٢ يظهر أن الكذب كان فى كل مراحل تاريخ اليهود نقصا خلقيا فاشيا . قال الشاعر اليهودى سابير للدكتور فرانكل " استمع لكل أحد ولا تصدق أحدا حتى أنا نفسى لا تصدقنى " .

٣ بعضهم يترجم الأصل فى الآية ٤٤ لا أولاد ابليس بل " أخوة ابليس " ولكن على غير أساس ولا أدري كيف وقعوا فى هذا الخطأ .

٤ - يو ٨ : ٤٨ أنت سامرى . تظهر أي بغض طائفى تنفثه هذه الكلمات .

بأنهم إن حفظوا كلامه فانهم لن يموتوا فى خطاياهم فحسب بل لن يروا الموت أبدا . ولكن قلوبهم العمياء الغبية لم تفهم حتى فى كلماته هذه معنى روحيا ، فاتهموه بعناد جنونى وسوء التقدير لجعله نفسه أعظم من ابراهيم والأنبياء الذين في اعتبارهم وحسب أفكارهم كانوا أمواتا (١) . أما يسوع فأخبرهم أن ابراهيم ليس بميت بل حي في العالم الآخر ، وانه ببصيرة النبوة وروح العلم قد رأى يومه وفرح . وهذا القول ظهر لهم إما أن يكون لا معنى له وإما أن يكون كفرا ، وقالوا له : [ليس لك خمسون سنة بعد] (٢) ، وابراهيم قد مات منذ سبعة عشر قرنا ، فكيف يمكن أن نفهم كلاما مثل هذا . وحينئذ ، بكل لطف ولكن أيضا برزانة وعظمة مقدسة وبتلك اللازمة التى ما كان يستعملها إلا عندما يوضح حقيقة مؤكدة ، أظهر لهم المخلص أزليته ووجوده الألهي الكائن قبل أن يظهر فى الجسد وقال لهم :

[الحق الحق أقول لكم قبل أن يكون ابراهيم أنا كائن] (٣) .

---

١ ـ لو ١٦ : ٢٢ و مت ٢٢ : ٣٢ .

٢ ـ فى بعض الكتب الرائقة التى لا قيمة لها وردت كلمة " أربعون " بدل " خمسون " ومن المدهش حقا أن أحد الكتاب الحديثين مثل جروفر يحيى الخطأ القديم الذى وقع فيه اربنيوس ويقول أنه يستخلص من هذه الآية أن المسيح عاش خمسين سنة على الأرض ، فالاعتقاد المؤكد أنه صلب وعمره ثلاثة وثلاثون سنة . بل لا يمكن أن يستخلص من هذه الآية أن مصائب حياته أثرت على وجهه أو أن رزانة منظره جعلته يظهر كمن له خمسون سنة إذ الواضح أن اليهود كانوا يتكلمون عموميا وبألفاظ العقود ، وكأنهم أرادوا " أنك لم تبلغ بعد سن الرجولة الكاملة وتقول أن ابراهيم رآك ! " .

٣ ـ يو ٨ : ٥٨ هذا برهان واضح لتأكيد ألوهيته . لقد ذكرت فى مكان آخر أن الذين ينكرون هذه الحقيقة عليهم إما أن يثبتوا أنه ما قال هذا الكلام قط وإما أن يذعنوا أن ذاك الذى كان عظيما ووديعا ومتواضع القلب وبلا خطية عن كافة البشر انما هو فوق البشر . واليهود وهم أعظم أمة كانت على الأرض تعتقد بتسامى الاله اللانهائى ولا شك أنهم يرمون أى كائن بشرى يدعى الألوهية بأنه مغاير للعقل والفضيلة بل مجنون كافر . (راجع محاضرات المؤلف عن شهادة التاريخ للمسيح) .

وحينئذ بانفجار غضب ساخط ، وفى احدى تلك النوبات الفجائية التى لا تضبط من الغيظ التعصبي التي كانت هذه الأمة فى كل الأجيال عرضة لها إذا ما صدمت فى معتقداتها الدينية ، أخذوا حجارة ليرجموه (١) . ولكن نفس العمى الناجم من اشتعال غضبهم سهل أن يتجنبوه . لم تحن ساعته بعد ، وبهدوء كامل خرج من الهيكل دون أن يمسه أحد .

---

١ ـ حالة مبانى الهيكل غير المكتملة جعلت حجارة كبيرة فى متناول أيديهم .

الفصل الحادي والأربعون

المولود أعمى

"من الأعماق المظلمة يخرج النـور ،
وعلى العين المظلمة يضيء النهار". بوب

أثناء عودته من الهيكل بعد محاولة رجمه ، أو فى السبت الذى تلاه (١) ، مر يسوع برجل أعمى منذ ولادته يصرخ معلنا عن بؤس حاله وهو جالس يستعطي بجانب الطريق عند باب الهيكل .

كان اليهود ينظرون إلى الآلام الخاصة كأنها النتيجة السريعة للخطايا الخاصة . وربما ظن التلاميذ أن كلمات السيد للمفلوج الذى شفاه عند بركة بيت صيدا ، وكذلك للمصاب بالشلل فى كفر ناحوم ، تبرر هذا الاعتقاد (٢) . لذلك سألوا كيف ولد هذا الرجل أعمى ؟ هل يمكن أن يكون هذا نتيجة خطايا أبويه ؟ فان لم يكن ، فهل يجوز الظن أن هذا نتيجة خطاياه هو على أى سبيل ؟ والظن الأول قاس والثانى

---

١ ـ لا يمكن البت فى هذا . ان كان فى ذات السبت بعد كل الظروف التى سبقت فمن الملاحظ قوة هدوء يسوع . وعلى أي احتمال نلاحظ أن غليان الهياج لقتله كان وقتيا .

٢ ـ يو ٥ : ١٤ .

مستحيل . لذلك أخذتهم الحيرة (١) .

رفض السيد أن يجاريهم فى هذه النواحى غير المجدية من النظريات العقيمة وتنحى - كما كان دائما يفعل - عن أن يذكر أو يجلس لاستقصاء خطايا الآخرين . فأجابهم بأنه لا خطاياه ولا خطايا أبويه أحدثت تلك العاهة المستديمة طول الحياة ، ولكن الآن بوساطتها ستظهر أعمال الله (٢) . انه نور العالم فالى زمان قصير أيضا سيطرد ظلمة العالم . وتفل على الأرض ، وصنع من التفل طينا ، وطلى به عينى المولود أعمى ، وأمره أن يذهب ويغتسل فى بركة سلوام . فذهب الأعمى واغتسل وأتى بصيرا .

كان القدماء يعتقدون أن لعاب الصائم له قوة شافية للعيون . وكان الطين يستعمل لازالة أورام الجفون (٣) . ولكن ظاهر أن هذه الوسائل لم تنقص من عظمة الأعجوبة . وليس لدينا من المعلومات ما يجعلنا أن نفهم لماذا فضل السيد فى هذه الحالة وحالات أخرى شبيهة بها طرقا بطيئة مركبة لأظهار قوته العلوية الفائقة ، بينما كان يشفى كثيرين بكلمة . ولم يعلن لنا قواعد عمله التى بلا شك كان يقررها تبعا لمعرفته بالظروف الخافية وما يراه ببصيرته فى قلوب أولئك الذين كان يمنحهم الشفاء . وربما فى هذه الحالة قد فعل هكذا ليعطى أكثر من درس خالد للأمور التى أعقبت فعله .

وعلى أى حال ، فالطريقة التى اتبعها هذه المرة أدت إلى نتائج خطيرة ، لأن الرجل كان معروفا جد المعرفة في أوروشليم انه متسول أعمى طول حياته فأثار استعادته لبصره

---

١ - خر ٢٠ : ٥ لا يمكننا أن نتخيل أن أولئك الجليليين البسطاء كانوا يعرفون شيئا عن مذهب تناسخ الأرواح أو عن تعليم الحاخاميين عن الخطايا قبل الولادة أو عن مذهب افلاطون أو المذهب الاسكندري عن الوجود السابق أو عن المذهب الحديث وهو العقوبة السابقة لخطايا لاحقة .

٢ - الأصل اليونانى لا يفيد الحصر أو البذل أى لا يفيد أن الرجل انما ولد أعمى فقط لاظهار مجد الله فى عمل الشفاء .

٣ - راجع سويث جزء ٧ و تاريخ تاستيوى و بلينى .

زوبعة من الدهشة . وحتى أولئك الذين عرفوه تماما بالكاد صدقوا أنه هو بعينه الأعمى المتسول الذى عاشروه . غمرتهم الدهشة والحيرة فصاروا يلحون عليه أن يقص عليهم أمر شفائه مرارا وتكرارا . ولكن قصته أدخلت إلى دهشتهم عنصرا جديدا من الغضب الفريسى لأن الشفاء قد صنع فى السبت . فان الحاخاميين يمنعون أن يطلى أى رجل ولو عينا واحدة بالتفل فى يوم سبت إلا فى حالة الخطر الذريع . ويسوع لم يطل عينيه الاثنتين بالتفل فقط ولكنه أيضا مزج الطين بلعابه ! كان هذا عمل رحمة يتفق تماما مع ذات السبب الذى أوجب السبت والتعاليم الرئيسية التى جعل السبت شاهدا أبديا عليها . ولكن روح الحرفية الضيقة ، وعبودية التدقيقات الفارغة ، والطاعة الغبية الروح التى تأمل أن تخلص بالنتيجة الحسابية لمجموع الأعمال الطيبة والرديئة . كانت قد حقرت السبت وأنزلته من أوضاعه الحقيقية وفكرته الأصلية إلى مجرد خزعبلات ضارة . أصبح سبت الحاخاميين بكل عبودياته الفارغة غير سبت ناموس الله الرحيم المقدس . لقد تسفل إلى ما أسماه بولس الرسول [الأركان الضعيفة الفقيرة] غل ٤ : ٩ .

وهؤلاء اليهود كانوا مشبعين بهذه الصغائر حتى أن أعجوبة فريدة من الرحمة مثل هذه أيقظت فيهم من الدهشة والشكر أقل بكثير مما أشعلت فيهم من الغضب لاهمال خرافاتهم السبتية . ولذلك ، فبكل حماس الديانة المتعبدة للحرف أتوا بالرجل إلى مجمع الفريسيين . وبعدئذ توالت المناظر التى رسمها بدقة يوحنا البشير فى الأصحاح التاسع . فنلاحظ أولا سؤالهم المتكرر عن كيف أبصر الأعمى ، ثم تأكيدات بعضهم من أن يسوع لا يمكن أن يكون من الله لأنه لا يحفظ السبت ، ثم اعتراض البعض الآخر على أن تمسكهم بكسره السبت معناه اقرارهم بصنع المعجزة ، واقرارهم بالمعجزة ينفى عن صانعها الوصف الذى يصمه به الأولون . وإذ اختلط عليهم الأمر من كل ناحية سألوا الرجل الأعمى نفسه عن رأيه هو فيمن شفاه .

وإذ لم يكن داخل دائرة تفكيرهم السيء أجاب دون خـوف أو تردد وقال : [إنه نـبي] (١) .

إلى هذا الحين تحققوا أي نوع كانت طبيعة الرجل الأعمى الذي يتعاملون معه . وإذ كانوا يجتهدون أن يجدوا ولو ثقب ابرة ينكرون به المعجزة أو يهملوها جانبا أرسلوا إلى أبويه ودعوهما وسألوهما قائلين [أهذا ابنكما الذي تقولان إنه ولد أعمى . فكيف يبصر الآن] ؟ ربما أرادوا أن يخيفوا أو يرشوا هذين الأبوين لينكرا علاقتهما به أو يقرا أن في الأمر غشا . ولكن الأبوين أيضا تمسكا بالصدق . ولكن ببعض الذلة اليهودية والمكر رفضا أن يبديا أي شيء قد يضعهما في موقف محرج ، فقالا : [نعلم أن هذا ابننا واننا ولدناه أعمى أما كيف يبصر الآن فلا نعلم أو من فتح عينيه فلا نعلم . هو كامل السن اسألوه ليتكلم عن نفسه] .

وحينئذ - ويكاد المرء يشفق على حيرتهم - رجعوا ثانية للرجل الذي كان أعمى وقد عرف مثل أبويه أن رؤساء اليهود قد قرروا أن ينطقوا « الشريم » أي بالحرم أو أمر الفرز من المجمع على كل من يجرؤ أن يعترف أن يسوع هو المسيا . فأمل الفريسيون أنه سيرضخ ويطيع مشورتهم ويعطي مجدا لله (٢) ، أن ينكر أو يتجاهل المعجزة ويقر رأيهم في أن يسوع رجل خاطيء .

ولكن الرجل كان من طبيعة أصلب من طبيعة أبويه . وما كان يخشى سلطتهم أو يتأثر بكلماتهم فتنفس بحرية تامة في جوهم الذي يفاخرون ادعاء بعظمة قدسيته .

---

١ - كان تعليم اليهود أنفسهم يقرر " أن أمر نبي لا شك في نبوته أن يوقد الناس نيرانا في يوم السبت أو يلبسوا أسلحة الحرب أو يقتلوا الأعداء الخ فيجب أن يهبوا دون إمهال ويعملوا كل ما يأمر به من غير تردد أو وسوسة " (أبواب مومى وبوكوك وألن الخ) .

٢ - كما لو كانوا يريدون أن يجعلوه أن يحلف أن يقول الصدق الصريح . والجملة استحلاف أن يقول الحق وقد خلط الفورد بين " اعط مجدا لله " وبين " حمدا لله " على شفتانه . قارن ٢ كو ١١ : ٣١ التي ألفت نظري إليها أحد أصدقائي وكذلك قارن رو ٩ : ١ و ٥ .

قالوا له [نحن نعلم أن هذا الانسان خاطىء] فأجابهم الرجل [ان كان خاطئا فلا أعلم انما أعرف شيئا واحدا انى كنت أعمى والآن أبصر] . فعادوا ثانية لسؤالهم المتعب غير المثمر [قالوا له ماذا صنع بك . كيف فتح عينيك] ، وكان الرجل قد استكفى من هذا الكلام ، لذلك [أجابهم قد قلت لكم فلم تسمعوا أيضا . هل تريدون أن تصيروا له تلاميذا] . سخرية جريئة لاذعة أن يسأل أعضاء السنهدرين العظماء المتحذلقين الحانقين إن كانوا يريدون حقا أن يعتقد انهم متحمسون بأخلاص لكي يؤمنوا بهذا النبي الناصرى ! وضح إنهم أمام رجل لا يمكن أن يرهبوا أمانته الحقة أو يفسدوها . وإذ لم ينفع معه لا سلطانهم ولا وعدهم أو وعيدهم ركنوا إلى الشتيمة [قائلين أنت تلميذ ذاك وأما نحن فانا تلاميذ موسى ... وأما هذا فما نعلم من اين هو]. أجاب الرجل وقال لهم إن هذا أيضا لعجيب انكم لا تعرفون من أين هو وقد صنع آية لم يصنع مثلها موسي . ونحن نعلم أنه لا هو ولا غيره يستطيع أن يصنعها ما لم يكن من الله (١) . كيف يتجاسر مجرد متسول أعمى ، هرطيق ، جهول بالطبيعة ، بجملته مولود فى الخطية ، أن يعلمهم ، هم ظل شماى وهلليل على الأرض ! ولم يقدروا بعد هذا أن يضبطوا معين غضبهم فطردوه من حضرتهم وأخرجوه خارج المجمع .

ولكن يسوع لم يهمل من اعترف به فى شجاعة . وهو ذاته على احتمال كبير جدا - في هذا الوقت أو وقت سابق لهذا - قد وضع تحت نير الفرز من المجمع (٢) ، لأننا لا

١ - ليس فى العهد القديم أو فى سفر الأعمال تفتيح عينى أعمى .

٢ - حقيقة ان هذا كان من أبسط أنواع الحرم أى (نيزيفاه) إذكان وقتيا لمدة ٣٠ يوما وينطبق على مجمع واحد . ولكن ما دام قد أجرى يمكن مده إلى (ندوى) أى حرم استين يوما ويسرى على باقى المجامع . وحرم المجمع لا ينطوى تحته الحرم من الهيكل حيث خصص باب للمحرومين . وأقسى أنواع الحرم كان " الشريم أو الشمانه " وهو نوع يضاهى الحكم الرومانى " منع الماء والنار ". يدعى اليهود أن يشوع بن براخيا هو معلم يسوع وهو الذى حرمه وبوق بذلك ٤٠٠ بوقا من قرون الخراف (واجنزيل) ولكن ابن براخيا هذا عاش فى حكم اسكندر يانيوس أى سنة ٧٩ قبل الميلاد ؛ فيظهر بطلان هذا القول بجملته .

نطالـع بعد هذا أنه دخل ثانية إلى مجامع مثل التى كانت فى السنين الأولى لكرازته، الأماكن المستحبة لتعليمه. وجد يسوع الرجل وسأله [أتؤمن بابن الله] ؟ فأجاب [وقال من هو يا سيد لأومن به].

[قال له يسوع انك تراه وهو الذى يكلمك] (١).

[فقال أومن يا سيد وسجد له].

لا شك أنه عقب ذلك بقليل. أوضح السيد التأثير المختلف الذى يقع على سامعيه: [يبصر العميان ويعمى المبصرون]. وكان الفريسيون يحومون حوله فى عدم رضى أو ارتياح. وفى محبتهم الذاتية المريضة كانوا يريدون أن يستخلصوا أفكاره عنهم فسألوه [وقالوا ألعلنا نحن أيضا عميان] ؟ فأجابهم يسوع انه لا خطية فى العمى الطبيعى ولكن أولئك الذين يعثرون فى عمى الخطأ، المقصود عمدا، ومع ذلك يدعون الأبصار، فانهم يحكمون على أنفسهم.

وإن كان المتقدمون والمعلمون والمرشدون عميانا فكيف يبصر الشعب ؟

وهذه الفكرة ذكرته بطبيعة المعلمين الصالحين والطالحين. وفصل ذلك بمقطع جميل - نصف مثل ونصف تمثيل - عن الرعاة الحقيقيين والكاذبين. فأخبرهم عن الراعى الصالح (٢) الذى يبذل نفسه عن الخراف بينما يهرب الأجير عند الخطر ويخون القطيع. ثم أوضح أنه باب الخراف الذى دخل منه كل سابقيه الحقيقيين بينما دخل الكذبة - من أول سارق تسلق حظيرة الله - من طريق آخر. وحينئذ أخبرهم أنه

١ - يقول الأستاذ وستكوت انها حقيقة مدهشة انه لا يوجد مثال لهذا الاعلان المفاجىء لمنبوذ المجمع الا الاعلان المماثل (يو ٤ : ٢٦) للمنبوذة من الأمة (أنظر كتاب خصائص عجائب الانجيل).

٢ - يقول مستر سنداى انه لا يوجد فى البشائر مقطع شبيه بهذا إلا الواردة فى يو ١٥. "لم يفصل البشيرون بين المقاطع والأمثال". وفى البشارة الرابعة لا أمثال تدخل ضمن المقاطع.

بارادته سيضع حيـــاته عن الخراف - خراف هذا القطيع وكل القطعان التى له (١)، وانه بسلطانه سيأخذها . ولكن هذه الأسرار الألهية كانت أعلى من أن يفهموها . فأعلن البعض أن هذا خلط من به شيطان ، وانه كان مجنونا . ولكن آخرين قالوا ان هذا الكلام لا يشبه حديث من به شيطان ، وأن شيطانا لا يقدر أن يفتح عينى الأعمى . ولذلك فبدون ثمرة لهم سوى الثمرة المرة للحنق والكره انتهت زيارة يسوع فى عيد المظال ، وإذ كانت حياته الآن فى خطر ترك أوروشليم مرة أخرى وعاد إلى الجليل فى زيارة قصيرة قبل أن يودع موطنه القديم الوداع الأخير .

---

١ - يوحنا ١٠ : ١٦ فى الأصل يمكن التفرقة بين الحظيرة الواردة فى الترجمة و "القطيع" الموجودة فى الأصل .



أحجار كريمة رسم عليها الراعى الصالح

الرسم يظهر ثلاث أحجار (الصورة مكبرة ضعفين) عليها رسم السيد كاملا يحمل الخروف الضال إلى القطيع مثل فى ١ بخروفين قابعين فى ٣ بثلاثة خراف تتطلع بترحيب إلى عودة الضال والأولى من كرنيلية ، صفراء ، بالمتحف البريطانى ومكتوب عليها يسوع وحروف أخرى لم تتحقق معناها . والثانية من حجر السارد اشتراها حديثا من الهند الكولونيل بيرس ولا شك أنها أثر قديم من أيام دخول المسيحية فى هذه البقاع النائية وتكرار اسم المسيح على الجانبين لتميز الرسم عن اله الرعاة هرمس كريفوريوس الذى يعبد فى تجرة البوطية . أما الثالثة فمن حجر اليشب الأحمر والأصفر ، فى غاية الجمال من مجموعة مستر أرثر هوبورن الفريدو وكل من هذه الجواهر قد يرجع عهده إلى الزمن الزاهر لحكم قسطنطين الكبير (٣٠٥ - ٣٢٧) بعد الميلاد .

الفصل الثانى والأربعون

توديع الجليل

(لكل كمال رأيت حدا أما وصيتك فواسعة جدا) مز ١١٩ : ٩٦

عقب ذكر الحوادث السالفة دون يوحنا البشير حادثة وقعت بعد شهرين فى عيد التجديد في الشتاء (١) . واتباعا لمقصده الأساسى من بشارته ، وهو ذكر أعمال المسيح فى اليهودية لا سيما فى أورشليم التى تركها باقى البشيرين ، لم يدون شيئا عن زيارة يسوع الأخيرة للجليل أو رحلته النهائية لأورشليم التى يعطينا باقي البشيرين تفصيلات متعددة عن بعض أجزائها .

أما أن يسوع قد عاد إلى الجليل فظاهر ليس فقط مما دونه الباقون ، ولكن من طبيعة الحال ، ومن بعض الاشارات العرضية فى بشارة يوحنا ذاتها (٢) .

١ - يو ١٠ : ٢٢ - ٤٢ كان عيد المظال يقع فى أواخر سبتمبر أو أوائل أكتوبر . وعيد التجديد كان يقع فى العشرين من ديسمبر .

٢ - راجع يوحنا ١٠ : ٢٥ (واضح أنه يعود على حديثه الأخير معهم لشهرين قبل ذلك) وعدد ٤٠ (أيضا) . ثم عدد ٢٢ : (وكان فى ذلك الوقت التجديد فى أورشليم) لن يكون لها معنى إلا إذا أشارت إلى زيارة ثانية . وربما قد أضيفت هذه الكلمات خاصة لتدل على أن عيد التجديد كان يجوز حفظه فى أي مكان .

من المعروف تماما أن جزءا كبيرا من بشارة لوقا (٩ : ٥١ ـ ١٨ : ١٥) يؤلف جزءا من تاريخ الكرازة ويحتوى على حوادث لم يدونها سوى هذا البشير . وقد ورد به من دلائل تعيين الزمان والمكان ما يستدل منه على ارتحال بطيء من الجليل إلى أوروشليم (٩ : ٥١ و ١٣ : ٢٢ و ١٧ : ١١ و ١٠ : ٣٨) . وبعد عيد التجديد عاد يسوع إلى البرية حتى استدعى من هناك لموت ليعازر (يو ١٠ : ٤٠ ـ ٤٢ و ١١ : ١ ـ ٤٦) وبعد اقامة ليعازر رحل إلى افرايم (١١ : ٥٤) . ولم يترك مكانه فى افرايم إلا لستة أيام قبل الفصح الأخير عندما جاء إلى بيت عنيا (١٢ : ١) .

وعلى ذلك فهذه الرحلة العظيمة من الجليل إلى أوروشليم ، الغنية بالملابسات ، والتى دعت لأن يذكر بعض كلماته الأكثر خلودا ، إما أن تكون رحلة إلى عيد المظال أو عيد التجديد . وفى حكم المقرر أنه لا يمكن أن يكون الأول ، ليس للاعتبارات السالفة فقط ولكن لأن هذه كانت رحلة عاجلة وفي الخفاء ، أما تلك فرحلة علنية بطيئة .

ويختلف كل باحث إن قليلا أو كثيرا مع باقى الباحثين فى تواريخ وتتابع الحوادث التالية . لذلك بدون الدخول فى بحوث دقيقة متعبة مطولة فى أمور يصعب فيها الوصول إلى التأكد التام ، سأذكر هذا الجزء من تاريخ المسيح على الترتيب الذى يظهر لى أنه الأكثر احتمالا بعد دراستى المتكررة للبشائر ، والذى وجدت أنه فى تفصيلاته يتفق مع النتائج التى وصل إليها باحثون عديدون . وسأذكر فقط ما يبرر خطتي .

أولا : إن ما ذكر فى بشارة لوقا لنهاية ١٨ : ٣٠ يتعلق غالبه برحلة واحدة ، وان كانت وحدة الموضوع أو أسباب أخرى قد جعلت البشير الطاهر أن يدخل فى كتابته عنها لمناسبة الموضوع بعض الحوادث أو الأحاديث التى لمدة سابقة أو لاحقة (١) .

---

١ ـ مثلا ٥٩ : ٥٧ ـ ٦٢ (قا مت ٨ : ١٩ ـ ٢٢) و ١١ : ١ ـ ١٣ (قا مت ٦ : ٩ ـ ١٥ وأيضا ٧ : ٧ ـ ١٢) ١١ : ١٤ ـ ٢٦ (قا مت ٩ : ٣٢ ـ ٣٥) و ١١ : ٢٩ و ١٢ : ٥٩ (قارنها مع

ثانيا : إن ترتيب ذكر الحوادث حتى فى بشارة لوقا على حدتها (١) لا يمكن أن يتخذ بحال (٢) على أنه مطابق تماما لتاريخ حدوثها . ولذلك فمكان أى حادث فى الكتابة ليس بالضرورة دالا على مكانه الحقيق فى ترتيب الأزمنة .

ثالثا : إن هذه الرحلة هى بنفسها التى ذكرت جزئيا في بشارة متى ١٨ : ١ - ٢٠ : ١٦ وفى بشارة مرقس ١٠ : ١ - ٣١ .

رابعا : إن الحوادث المدونة في مت ٢٠ : ١٧ - ٢٨ و مر ١٠ : ٣٢ - ٤٥ و لو ١٨ : ٣١ - ٣٤ ، لا تتعلق بهذه الرحلة (وهذا واضح من ذات البشائر (٣)) ، بل تتعلق بآخر رحلة أتمها يسوع ، الرحلة من أفرايم إلى بيت عنيا فأورشليم .

فاذا اعتبرنا أن هذه الاستنتاجات صحيحة (واني أعتقد أنها ستزكى نفسها كأنها الأكثر احتمالا عند أولئك الذين يدرسون المسألة بحذافيرها) فلنبحث عن الحوادث التى لا يمكن أن يكون زمانها إلا أثناء هذه الاقامة الأخيرة ليسوع فى الجليل عقب عيد المظال . كانت هذه الاقامة المؤقتة فى الجليل قصيرة جدا. ويظهر أنه لم يكن

أجزاء من عظة الجبل) . ان نظرية " تكرار الحوادث " البليدة التى كثيرا ما تتخذ على عواهنها تعين بعض الباحثين المغرمين بالمطابقة ولكنها نظرية أساسها الغالب فكرة كاذبة لا تتفق والكتب المقدسة عن الوحى ، والتى لا يجب الأخذ بها إلا عند وجود الدلائل القوية . أما " تكرار الأحاديث " فأمر طبيعى ومحتمل جدا من ظروف الحال .

١ - مثلا لو ١٠ : ٣٨ - ٤٠ و ١٣ : ٣١ - ٣٥ و ١٧ : ١١ - ١٩ .

٢ - إن دلالات الزمان والمكان غير واضحة فى البشائر لأن طريقة التدوين كانت محددة بمقاصد أخرى (لو ١٠ : ١ و ٣٥ و ٣٨ و ١١ : ١ و ١٤ و ١٢ : ١ و ٢٢ و ١٣ : ٦ و ٢٢ و ١٤ : ١ و ١٧ : ١٢ الخ) . وليس هناك من دليل على أن لوقا البشير قصد الدقة فى التوقيت عندما قال فى ١ : ٣ (تتبعت ... بتحقيق) فانه واضح من دراسة إنجيله انه وإن كان قد تتبع الترتيب الزمنى إلى درجة ما فانه كثيرا ما جمع حوادث وأحاديث لاعتبارات روحية أو لوحدة الموضوعات .

٣ - مثلا مر ١٠ : ١٧ و مت ١٩ : ١٦ .

الغرض منها سوى اعداد ارسالية السبعين وتدشين الاعلان الأخير عن ملكوت المسيح في كل أنحاء الأرض المقدسة التى كانت أقل عرفانا بكلامه وأعماله ، وقد تضمنت نصائحه للسبعين ووداعه الأخير للجليل ، والغالب باحتمال كبير أن تسليمه هذه الأوامر اتفق وبدء ارتحاله . ولكن يوجد حادثان آخران وردا فى الاصحاح الثالث عشر من بشارة لوقا يتعلقان على الأغلب بهذه الاقامة القصيرة ، وهما مذبحة الجليليين والتحذير الذى وصله عن تدابير هيرودس ضد حياته .

كان نزول يسوع هذه الأيام القليلة غالبا فى بيت كفر ناحوم ، مدينته . وبينما هو هناك يستعد للرحيل الرهيب الذى لم تكن بعده عودة جاء إليه قوم يخبرونه عن حادث جديد من تلك الثورات المتعددة التى امتاز بها حكم بيلاطس البنطي . ولا نعلم شيئا خاصا عن الحادث الذى أشاروا إليه ، فان قطع رؤوس بعض المتحمسين الثائرين، تطيحها الحامية الرومانية ، كان أمرا عاديا فى تلك الأوقات المتأججة لايثير سوى ملاحظة عرضية (١). لا شك أنه وجدت مئات من الاضطرابات المماثلة لم يدونها يوسيفوس . إن تعصب اليهود الملتهب فى ذلك الوقت ، والآمال الجامحة التى كانت دائما تشعل غضبهم ضد الحاكم الرومانى ، والتى جعلتهم مطية ذلول لكل مدع كذاب ، ألزم ضرورة إقامة برج أنطونيا الذى كان يرمى ظله الطويل على الهيكل ذاته ، بل كان يتصل بسلم مع الهيكل ليتسنى للقوات الرومانية التدخل السريع وايقاف الشغب الذى كان وللآن يهدد سلامة أوروشليم من حين لآخر فى فرصة الأعياد (٢) . وإذ أن الجليليين

---

١ ـ أع ٢١ : ٣٤ لقد ذبح ارخيلاوس ٣٠٠٠ يهوديا فى هياج حدث فى عيد الفصح لثلاثين عاما قبل هذا. ومرة أخرى أمر بيلاطس جنوده أن يتخفوا فى زى فلاحين ويعملوا خناجرهم فى الجموع (راجع يوسيفوس)

٢ ـ ان الحكومة التركية بسياسة عميقة حددت حج العرب إلى القبر المزعوم أنه لموسى النبى فى ذات الوقت الذى تكون فيه أوروشليم مائجة بالحجاج المسيحيين لعيد القيامة وذلك لمساعدة الحامية التركية ان حصل أى شغب بين المسيحيين فى كنيسة القبر المقدس .

كانوا أشد اليهود شغبا واشتعالا ، فقد كانوا أكثرهم تعرضا للصدام . وواضح أن الأمر الذى استرعى اهتمام المخبرين ليس ذات المذبحة ، ولكن الظرف المريع أن دماء هؤلاء المشاغبين قد اختلطت بالأنهار الحمراء التى فاضت من ضحايا ذبائح تقدمتهم (١) . والقوم الذين أتوا بهذا الخبر للمسيح كانت رغبتهم فى الشكاية من جرأة الحاكم الرومانى الدامية أقل من ابداء استغرابهم من التهم المزعومة التى أدت إلى هذا المصير المحزن لأولئك العابدين المذبوحين .

إن سفر أيوب يقوم فى العبرانية كشاهد أبدى على الاستنتاجات العجولة لتفسير المصائب البالغة ، وإن روح اليفاز وصوفر وبلدد (٢) ما زالت حية ، وقد انتهز السيد كل فرصة وكل مناسبة ليوقفها ويوبخها . [فأجاب وقال لهم أتظنون أن هؤلاء الجليليين كانوا خطاة بين سائر الجليليين إذ كابدوا هذه الآلام . أقول لكم لا . إن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون] . وحينئذ ذكرهم بحادث قريب العهد لموت فجائى إذ سقط [البرج فى سلوام] فداهم وأمات ثمانية عشر شخصا تصادف أن كانوا تحته (٣) . وأخبرهم أنه لما كان هؤلاء المساكين [غير مدانين بين سائر الناس الساكنين في أوروشليم] فان لم يتوبوا هم أيضا فجميعهم يهلكون . ولا شك أن الدرس المجيد الذى رغب يسوع أن يعلمه لهم هو أن جميع ظروف الحياة وكل شدائد الناس ليست نتيجة المصادفات العمياء ولا الجزاء المباشر ، ولكنها جزء من ترتيب عظيم للعزة الالهية يعطي فرصة للناس أن يتعلموا القانون العام وهو أن ما يسمى « بحوادث الحياة » يحصل

---

١ ـ هذه الأمور تكررت فى حصار أوروشليم . ولكنه واضح أنه ينقصنا تفصيلات فى هذه الحادثة بالذات لنفهم حقيقتها . إذ حسب المنطق كان يجب أن ينظر إلى جليليين يذبحهم فى الهيكل حاكم رومانى كشهداء لا كمجرمين . غير أن رجال العهد القديم كانوا ينظرون للموت غير الطبيعى كأنه عقوبة .

٢ ـ أى ٤ : ٧ و ٨ : ٢٠ و ٢٢ : ٥ .

٣ ـ يظن إيوالد أن هؤلاء الرجال قد استخدمهم هيرودس فى حفر قناة الماء التى اغتصب لها مال القربان واستعمله فى هذا الأمر الزمنى . ولذلك عد العمل غير تقى (راجع يوسيفوس) .

للجميع على السـواء ، وإن كان في الوقت المناسب سينـال كل واحد الجزاء حسب أعماله (١) . ولكن كان لـكلماته أيضا إتمام حرفي تنبؤى . فلا شك أن بعض سامعيه قد عاشوا ليتذكروها عندما أباد سيف تيطس الأمـة اليهودية ، وعندما فاض الدم فى شوارع أوروشليم كالطوفان ، واحترق باقي المدافعين عنها بين أنقـاض الهيـكل الذى تأكله النيران ، ولم يستطيعوا فداءه حتي بأرواحهم .

كانت الـكلمات محزنة قاسية ولكن المسيح لم يتـكلم بلغة الانذار والوعيد فقط ، بل وضع أمامهم رجاء مباركا . ولو أن شجرة التين لم تثمر سنة فأخرى ، بل [تعطل الأرض أيضا] (٢) ، فان هناك واحدا يشفع فيها . وحتى لو كانت الفـأس قد أعدت ، بل أمسكت فى الوضع الأخير ، فهناك من يمنعها عند هذا الحد فلا تنزل ضربتها الفاصلة ، إن عادت الشجرة المعتنى بها تماما فأثمرت .

لقد قصد أن تكون زيارته لموطـنه القديم قصيرة . إلا أن أعـداءه كان يسرهم لو حملوه على زيادة تقصيرها . كانوا خائفين من رب الحياة ، غير أنهم لم يجرأوا أن يظهروا ما يبطنون ، بل جاء إليه فريسيون بتوسلات كاذبة لأجل سـلامته يستعطفونه : [اذهب واخرج من هنا فان هيرودس يريد أن يقتلك] (٣) .

ولو أن يسوع استسلم للخوف وعجل ارتحاله خشيـة خطر ـ حتى ولو لم يكن له وجود إلا فى مخيلتهم فانه على كل حال ليس خطرا مباغتا وشيـكا ـ لو أن يسـوع فعل شيئا من هذا لتملوا بفرح خبيء لانتصارهم على حسابه . ولكن اجابته كانت فائقـة الهدوء . قال لهم : [امضوا فقولوا لهذا الثعلب (٤) هاأنذا أخرج شياطين وأتمم الشفاء

---

١ ـ عا ٣ : ٦ و ٩ : ١ .

٢ ـ لو ١٣ : ٧ . توجد هنا اشارة طبيعية للسنوات الثلاثة التى كرز فيها السيد .

٣ ـ غالبا هذا التأكيد كاذب من جانبهم لأنه يتنافر مع لو ٢٣ : ٨ .

٤ ـ لو ٨ : ٣٢ " هذا الثعلب " كما لو أن هيرودس كان حاضرا معهم بشخصـه ، وكما كان تماثلا لهم فى مكره .

اليوم وغدا وفى الثالث أكمل] (١) . وأضاف بإيقان كامل وطمأنينة تشوبها سخرية مرة وحزن [ولكن ينبغي لى أن أعمل (٢) اليوم وغدا وفى الآتى أذهب فانه لا يهلك نبي خارجا عن أورشليم] . وربما فى شدة ألمه قد ظهرت عواطفه المكتومة في شكل تنهد ورثاء محزن على تلك المدينة الخاطئة المذنبة ، الحمراء من دماء المرسلين إليها المقتولين فيها ، كما فعل عندما بكي وهو مشرف عليها من قمة جبل الزيتون (٣) .

وهكذا فشلت تماما مؤامرة هؤلاء الفريسيين . وسواء كانت حقيقة الأمر أن هيرودس قد وضع فى نفسه نية مترددة أن يرى يسوع ويميته كما قتل قريبه من قبل ، أو أن تلك الشائعة كانت مجرد اختراع من الفريسيين ، فان يسوع لم يعر المسألة التفاتا . ومهما كانت ترتيبات هيرودس فان مشيئة يسوع كانت أن ينهي زيارته القصيرة فى الجليل فى الوقت الذى يريده هو وليس قبل ذلك . بقى عليه يوم أو اثنان (٤) يستمر فيهما يكمل أعمال الرحمة لكل من طلبها منه ، وبعد ذلك يحين وقت انطلاقه ، فيولى ظهره للمرة الأخيرة لموطن شبابه ويثبت وجهه

---

١ ـ أو " أكمل " (بتشديد الميم) والمعنى أصل إلى النهاية . يو ١٩ : ٢٦ و فيلبي ٣ : ١٢ و أع ٢٠ : ٢٤ .

٢ ـ " أذهب فى عملى " تعنى " مع ان وقتى الباقى قصير فانى لن أزيده قصرا " وكلمة " اليوم " هنا تعنى زمنا غير محدد وأن يكن قصيرا .

٣ ـ وقد تحقق هذا الويل إلى درجة عجيبة . يقول الدكتور فرانكل إن كل حاج يهودي يدخل أورشليم فى يومنا هذا يمزق ثيابه وهو يقول " قد صارت صهيون صحراء وباتت فى الخرائب " ! وقد خاطبه الشاعر اليهودى سابر قائلا " كل ما هنا الآن أشجار لا زهر فيها ، وانما ثمر مر هو الحزن . لا تتطلب فرحا هنا ، لا فى الناس ولا فى الجبال " وقال الدكتور فرانكل أيضا إن أحد اليهود الأغنياء الأتقياء بعد أن استوطن أورشليم سنتين فارقها وهو يقول " من يريد ألا يكون له سرور هذه الحياة (عولوم هذا) ولا سرور العالم الآتى (عولوم هابو) فليعش فى أورشليم " .

٤ ـ أى زمن قصير .

للذهاب إلى أوروشليم [لو ٩ : ٥١] . فيجب أن يخبروا سيدهم هيرودس الماكر، الذى يشبهونه، أنه حتى ذلك الوقت سيكون يسوع فى حصن حريز لا يدانى منه، ولا يمكن أن يتطفل عليه لا مكرهم ولا قسوته .

وقد وصف يسوع هيرودس أنتيباس عن استحقاق بكلمة الهزء والاحتقار غير المخفف، الوحيدة التى دونت أنها خرجت من بين شفتيه . لقد تحدث أحيانا بكلمات الغضب المحرق، أو بكلمات كرامة كاسحة، أو بكلمات سخرية لاذعة، أو بكلمات لطف طيبة، لذلك دهش بعضهم من استعماله كلمة احتقار واضحة . ولكن لم لا ؟ لا يمكن أن تخلو روح نبيلة من النقد المر . ان نقد المنتقد يسير جنبا إلى جنب كمال الخلق . وكما أن الغضب والثورة للكرامة لهما مكان معين مصدق عليه فى سجل العواطف البشرية، كذلك أيضا الاحتقار . وما دامت هناك أشياء يحكم عليها بحق أنها محتقرة فسيظل الاحتقار موجودا . وإن كان هناك رجل قد استحق الاحتقار الكامل فهو ذلك الأمير المراوغ، الحانث، الخائن لدينه، الخائن لأمتـــه، الخائن لأصدقائه، الخائن لأخوته، الخائن لزوجته، والذى أسماه يسوع : [هذا الثعلب] . إن الآثام غير الانسانية التى كانت ترتكبها القياصرة على مسرح الاستبداد والشهوات والقسوة وعدم الخزى والبذخ المخرب، كل هذه انعكست بشناعة فى أشباه نحيلة لنيرون وكاليجيولا، حيث قلد هؤلاء الظالمون، الحليون، نصف الأدوميين، نصف السامريين، أسوأ مفاسد الامبراطورية التى كانوا يستمدون منها حتى مجرد وجودهم . كانت اليهودية تئن تحت الاستبداد الفاحش الرقيع لأولئك الهيروديين المولدين، أولاد آوى، المتملقين تحت أقدام القياصرة الأسود(١) . وقد يستلزم احترام السلطة

١ - ما قيل عن اغريبا ينطبق تماما على أنتيباس : " كان أحط مخلوق رأته الأرض . كان باورا فى أوائل الامبراطورية .... ففسد بتأثير البلاط الرومانى، فتملق أحط الدنايا لأحط الرجال فى أحط عصر فى تاريخ العالم " .

أيا كانت احترام السفالات والجهالات .

ولا ندرى إن كان « هذا الثعلب » قد سمع هذا الوصف الذى دمغه به يسوع أم لا . لم يتقابلا قط إلا صبيحة يوم الصليب حيث صب أنتيباس شتائمه الفارغة على يسوع . إنما نعلم يقينا أن يسوع قد أكمل آخر واجباته في الجليل . فقد دعى أتباعه إليه ، واختار منهم سبعين ليعدوا طريقه والغالب أن عددهم كان رمزيا (١) ، وأن ارساله عددا عظيما كهذا ، يبعثهم اثنين اثنين قدامه إلى كل مكان كان هو مزمعا أن يذهب إليه ، جعل لهذه الرحلة التى أعلن فيها ذاته علنية عظيمة . والأوامر التى أعطاها لهم تماثل تماما الأوامر التى أعطاها للاثنى عشر وإن اختلفت فى كونها أقصر لأن عملهم كان وقتيا ، وفى حذف النهى غير الضرورى الآن عن زيارة السامريين والأمم ، وفى منحهم قوة أقل لصنع العجائب (٢) .واختلفت أيضا بما انطوت عليه من رنة حزن منشؤها ما اختبره من الرفض المتتالى .

والآن حان الوقت لكى يمضى . ولا شك أنه مضى حزينا إذ بلا ريب قد ترك وراءه قلوبا مخلصة ، ولكن ما أقلها ! لقد رفضه الجليل كما رفضته اليهودية . على شاطىء البحيرة الذى كان يحبه خرج السكان برمتهم ، وكمندوبين مفوضين رجوه أن يرحل عن تخومهم . وعلى الشاطىء الآخر اجتهدوا أن يحزنوا آخر أيامه بينهم بتلفيق

١ - ورد فى بعض المؤلفات أن عددهم اثنان وسبعون لكى يتفق مع عدد السنهدرين . والشيوخ الذين أمرهم موسى (وحتى عدد هؤلاء أصابهم نفس الاختلاف) خر ٢٤ : ١ . وبعض الذين يركنون إلى الخيال بدون أي دليل يجعل العدد رمزا للسبعين أمة على الأرض (راجع لاتيفوت) وهى السبعون أمة التى تفرقت عند بابل (راجع تفسير يونان لتكوين ١١ : ٧ و ٨) .

٢ - قارن مت ١٠ : ٥ - ٤٢ و لو ١٠ : ١ - ١٢ . لا فرق كبير بين كلمة "خراف" و "حملان" (لو ١٠ : ٣ و مت ١٠ : ١٦) عدم التسليم على أحد فى الطريق تعبير مثلى عن سرعة الارسالية (٢ مل ٤ : ٢٩) ونجم عن أن التحيات عند الشرقيين طويلة منسقة .

مؤامرة دنيئة يخيفونه بها ليهرب . وفى الناصرة القرية الجبلية الحلوة التى قضى فيها أيام صباه ، فى الناصرة بكل ذكرياتها السعيدة لطفولته ومنزل والدته قد عاملوه بغلظة وعنف حتى انه لم يستطع أن يزورها ثانية . وحتى فى كورزين وكفر ناحوم وبيت صيدا - هذه الجنات على شاطيء البحيرة الفضية - وحتى في السهل الأخضر البهيج حيث سار فى كل مزرعة مع تلاميذه يصنع أعمال الرحمة وينطق بكلمات المحبة ، حتى هناك أحبوا الطهارة الفريسية مثيلة القبور المبيضة والتقاليد الجوفاء للطقوس الضيقة أكثر من نور الحياة الذى وهبه لهم ابن الله . لقد وقع سخط الله على مدن كثيرة عظيمة قديمة ، نينوى وبابل ، صور وصيدا ، سدوم وعاموره . ولكن حتى نينوى وبابل كانتا تحطمان أوثانهما العظيمة ، وحتى صور وصيدا كانتا تتحولان عن أباطيلها الطامعة ، وحتى سدوم وعموره كانتا تتوبان عن شهواتهما القذرة ، لو صنعت فيهما بعض القوات التى عملت فى مدن وقرى بحر الجليل .

[الويل لك يا كورزين . الويل لك يا بيت صيدا] . أما كفر ناحوم مدينته فلها ويل أعظم !

بأفكار مثل هذه فى قلبه ، وبكلمات مثل هذه على شفتيه ارتحل يسوع من مكان كرازته حيث رفضوه ، ووقع الويل على كل هذه الكورة لا سيما على هذه البقعة منها . لا زالت فريدة فى جمالها حتى بعد أن أصبحت خربة مهجورة خطرة . لا زالت تغرد فيها ملايين لا تحصى من العصافير ، وتلعب على مرآة البحيرة آلاف الطيور البحرية ، وتصب فيها النهيرات الجارية من التلال المجاورة ، وقد ملىء مجراها باللؤلؤ ، وتنثر فى طريقها الزمرد . ولا زالت الأعشاب العطرية يفوح شذاها إذا ما داستها الأقدام ، والأقحوانات الطويلة تملأ الأجواء برائحتها الرقيقة . ولكن كروم العنب وحدائق الفاكهة قد غاضت ، والأسطول وسفن الصيد قد توقفت عن عبور البحيرة ، وأصوات الرجال قد خفتت ، والتجارة الرابحة قد بطلت . بل حتى أسماء ومواقع البلدان

قد نسيت . فبينما كانت تلمع متألقة ناجحة ، وترمى ظلها على البحيرة الوضاءة ، فهى الآن أكوام غبراء ، أطلالها خربة لدرجة تمنع تمييزها ومعرفتها . ولم يتبق فيها سوى نخلة واحدة وشارع فريد من الأكواخ البائسة ، وهذان يخلدان ذكرى المدينة الصغيرة التى عاشت فيها يوما ما امرأة غسلت قدمى المسيح بدموعها ومسحتهما بشعر رأسها (١) .

والجليل الذى رفضه قضى عليه أن يذكر بآلام عقيمة مرة أيام ابن الانسان الهائئة الهادئة ، إذ لم تمر ثلاثون سنة حتى قامت زوبعة الفتح الرومانى فعصفت على تلك الأراضى الباسمة . ومن يشأ فليطالع فى تاريخ يوسيفوس عن هذه الحرب وتفصيلاتها الشنيعة ، عن المذابح التى اكتسحت ومحت الجليل ، والتى اضطرت ذلك المؤرخ إلى الاعتراف المتكرر : « حقا ان الله هو الذى سخر الرومانيين لمعاقبة الجليليين ، وجعل سكان مدينة فدينة يبادون بين أعدائهم السفاحين » . وبعد الوصف الخالد للبحيرة والسهل الذى قال عنه إنه « مطمع الطبيعة » ، ذكر القتال المريع البحرى على تلك المياه المتألقة الذى بلغ فيه عدد القتلى بمن ذبح فى المدينة نحو ستة آلاف وخمسمائة نفس . وقال إن مئات قد ضربوا بالسيف أو طعنوا بالحراب . وأراد آخرون أن ينجوا بأنفسهم بالسباحة ، ولكنهم كانوا إذا رفعوا رؤوسهم صوبت إليها النبال ، وإذا استمسكوا بالمراكب الرومانية قطعت أيديهم أو أطيحت رؤوسهم . وأضاف المؤرخ قائلا : « وحينئذ كان يرى المرء البحيرة غارقة فى الدماء ، ملأى بالجثث ، إذ لم ينج منهم واحد . وانبعث فى الأيام التالية على هذه الكورة رائحة كريهة ومنظر مؤلم ، لأن الشواطىء اكتظت بحطام السفن والجثث المنتفخة ، وإذ ضربتها الشمس وتعفنت أفسدت الهواء لدرجة أن هذا البؤس لم يكن مبعث حزن لليهود فقط بل أيضا لأولئك الذين

١ - (ويل لك يا كورزين) (وأنت يا كفر ناحوم) يظهر مداها جليا من الصور التى رسمتها بعثة حفائر فلسطين .

حاربوهم وكانوا السبب فى كل ماحدث » .

أما كان بين أولئك الذين ذبحوا في هذه الجزرة أو بين الذين أسلمهم فاسبسيان عقب ذلك مباشرة لمذبحة هائلة خائنة بين تراقية وطبرية،أو بين الألف ومائتين الهرمين الذين لا نفع منهم الذين ذبحهم فى الملعب ، أو بين الستة آلاف الذين أرسلهم لنيرون ليساعدوه فى محاولته لحفر برزخ آثوس ، أو بين الثلاثين ألفا وأربعمائة الذين باعهم عبيدا ، أما كان أحد بينهم في منفاه وتعذيبه ويوم عقابه وشناعة احتضاره يذكر أن نهاية كلمات النعمة الخارجة من فم يسوع كان ذلك [الويل] الذى ألجأه إليه عنادهم !

لا شك أنه لم يكن شيء سوى الحزن فى توديع مكان مثل هذا . ولكن النفس العلوية التى ليسوع لا يمكن أن تظل طويلا فريسة لحزن شديد . فكانت تجتهد أن تتخلص من التأثيرات الشائكة التى للمعارضة المستمرة فى عدم الايمان والخطية إلى طهارة وسلام السماء ، ومن الأشياء الوقتية التى ترى إلى الأشياء الباقية التى لا ترى ، ومن ظلال فساد البشر إلى ضياء سلام الله .[وفى تلك الساعة تهلل يسوع بالروح] ! وأى سرور وأى تهليل لا حد له ! إذ لم يفكر فى دينونة الناس ولكن في الرحمة . قد تهلل (١) وهو يفكر كيف انه ما قد أخفى عن الحكماء والفهماء قد أعلن للأطفال ، وانه ما أرسل للعظماء والعلماء القليلين ولكن للجهلاء والتعابي الكثيرين ، وعندما أخبر تلاميذه أن ليديه المحبتين قد دفع الآب كل سلطان ، وانهم سيرون فيه ويختبرون روح أبيه ، وسيرون ويعلمون ما اشتهاه أنبياء وملوك كثيرون ولكن لم يصلوا إليه . وحينئذ ، حتى فى ساعة افتقادهم ، لن يشكوا فى محبته أو محبة الآب لهم . وفي تلك الساعة التى تهلل فيها بفرح عظيم وسرور فائق نطق بتلك الكلمات التى لم

---

١ - (تهلل) . يظهر أن لو ١٠ : ٢١ يتعلق بالحديث الذي ينهى عدد ١٦ وإن كان قد وضع بينهما خبر رجوع السبعين وهذا واضح لكل من قارن هذه الفقرة بما ورد فى مت ١١ : ٢٠-٢٧ فهذا هو الموضع الأكثر احتمالا ومناسبة لهذا القول ما لم نتبع نظرية " تكرار الأحاديث " .

تحتو لغة البشر على أرق منها ، كرسالة منه ودعوة لكافة أولاده التعابى فى الأسرة البشرية . [تعالوا إلى يا جميع المتعبين والثقيلى الأحمال وأنا أريحكم ... أحملوا نيرى عليكم وتعلموا منى فانى وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم] .

وعلى ذلك فقد تغلب فرح لا نهائى أبدى على حزن وقتي . لقد كتب البعض عن يسوع كأنه رجل أحزان فقط ، وظنوا أن حياته كانت آلاما مستمرة ، حياة غير متقطعة من الهموم والوجوم . ولكننا نجد فى الانجيل ، وفى الانجيل فقط ، التوافق الكامل ، بل الاتحاد الوثيق بين الفرح والحزن . وملايين من المسيحيين نراهم [مكتئبين في كل شيء لكن غير متضايقين ، متحيرين لكن غير يائسين ، مضطهدين لكن غير متردددين] (١) . كيف أن رجل الأحزان حتى فى أيام رجولته قد عاش عيشة سعيدة ، سعيدة بمعنى السعادة الحقة ؟ لأنها حياة قدسية بلا خطية ، حياة مخلصة فرحة فى طاعة أبيه السماوى ، حياة أسعد مما منح لبنى البشر بقدر ما فاقهم فى هذه كلها . إن النبع العميق الطاهر يفيض فى طريقه مسرورا حتى لو أن الغابات الموحشة ظللت جانبيه ، وحتى لو أن الشمس بضيائها الوقتي لم تلعب على مياهه .

وإذا كان السرور حقيقيا وساميا يكون شديدا ، طاهرا ، محصورا ، غير مختلط . فكم بالحرى يكون ثابتا غير متقلب سرور الله ، سرور ابن الانسان يسوع المسيح ، الذى أتى ليعطي جميع الذين يحبونه من ذلك الحين وإلى الأبد فرحا لا يستطيع أحد أن ينزعه منهم ، فرحا لا يمكن للعالم أن يعطيه أو يأخذه ، أن يمنحه أو يمنعه .

---

١ - ٢ كو ٤ : ٨ - ٩ .



عملة برونزية لفسبسيان

عملة ربع الدينار لفسبسيان على وجه منها رسم رأسه مكللا بتاج متداخل مضفور ومكتوب حوله " الامبراطور قيصر فاسبسيان أغسطس الرئيس الأعلى ذو القوة التشريعية ، أب موطنه ، والقنصل للمرة الثالثة " . وهذه الألقاب تدل بوضوح على التدرج من الديموقراطية الرومانية إلى الدكتاتورية الحالية ، لأنها تظهر كيف أن الألقاب القديمة المدنية والحربية استمرت ولكنها تجمعت واتحدت فى شخص الأمبراطور . فاللقب " امبراطور " معناه تقريبا القائد العام . وقيصر تشير إلى قاعدة الوراثة المحبوبة فى الوظيفة . والكتابة تدل على الرئيس الأعلى الدينى فى تلك المملكة الوثنية ، وتذكرنا بالجهود الأولى لمجلس عموم رومانى ووجود مجلس ليحمى الصغار من جور الكبار . وأعظم من يستحق هذا اللقب هو الامبراطور ماركوس أوريليوس الذى جعل كل حر مولود فى الامبراطورية يتمتع بحقوق الرعوية الرومانية . وتساعدنا الكتابة أيضا على معرفة تاريخ هذا النقد (٧١ ق م) لأنهم كانوا حتى ذاك يؤرخون بعدد القناصل ومن وجهه يستدل على الشجاعة والثبات والارادة التى لا تنثنى والتى ساعدته أن يرتقى من طبقة حقيرة إلى أعلى مرتبة . ولكن فى ملامحه ما يدل أيضا عليه تناهى الخطة الموجودة فى قيصر . وعلى الجهة الأخرى من العملة شجرة نخيل تحتها فتاة يهودية تبكى . وفوق رأسها درع نصر بيد آلهة نصر عظيمة حولها حروف بمعنى " مجلس سناتو روما أهلها . تدل على استعباد اليهودية " والحروف الباقية تدل على أن هذه العملة ضربت بأمر السناتو إذ كان له أمر النقود النحاسية أما الذهبية والفضية فكان من حق الامبراطور .



قرية عين غانم

الفصل الثالث والأربعون

حوادث الرحلة

"ليس من الدين الارغام في الدين"
ترتليانوس

لم نخبر بأي طريق ارتحل يسوع عند مفارقته جنيسارات . ولكن إذ أنه في الغالب تجنب الناصرة بكل تذكاراتها العميقة السرور العميقة الحزن ، فالمحتمل أنه عبر البحيرة عند طرفها الجنوبي واستدار حول منبسط ازدرائليون ، إما

بطريق وادى بيت شيان أو من فوق جبل طابور ، وحول حرمون الصغير مارا فى طريقه بأندور ونايين وشونم .

وعبر الهضبة ومر بتنآش ومجدو ووصل إلى سلسلة التلال التى تحد شمال السامرة . وفي أول مرتقى تلك التلال تقع المدينة الصغيرة عين غانم أو « نبع الحدائق » (١) . وهى أول مدن السامرة التى كان سيذهب إليها ، فواضح أنه سبق فأرسل تلميذين أمامه ليعدا له . والحادث التالى مذكور فى بشارة لوقا قبل ارسالية السبعين ، ولكن هذا غالبا لاتباعه الترتيب السياقي لا الزمني . فان كان كذلك فيكون التلميذان المرسلان اثنين من السبعين ، تقدماه ليعدا طريقه من الوجهة الروحية وغيرها ، وإلا يكون التلميذان المرسلان اثنين من الرسل وهما يعقوب ويوحنا ، اذهما اللذان شعرا أكثر وبدقة خاصة بمرارة احتقار رفضه . على أى حال فالسكان الذين حتى إلى يومنا هذا ليسوا مشهورين برقتهم أو ضيافتهم للغرباء رفضوا بتاتا أن يقبلوه (٢) . حقا أثناء ارتحاله شمالا عبر السامرة قبل ذلك ورحب به السامريون بل تحمسوا وأعاقوه بينهم واشتاقوا لسماع كلامه ، ولكن الآن قد تغيرت الظروف من وجهين . أولا لأنه ذاهب رسميا للمدينة التى يكرهونها والهيكل الذى يحتقرونه ، وثانيا لأنه كان مصحوباً هذه المرة ليس بتلاميذ قليلين بل بجمع حاشد يعلن أنه النبى والمسيا . ولو أن جرزيم لا أوروشليم كان مقصد ارتحاله لتغير كل شيء . فالمكان الذى يقصده والجموع التى تتبعه ألهبا فى السامريين عداوتهم الوطنية إلى درجة أنهم أبوا على المسافرين التعابى الأمور الذوقية العادية الانسانية . وإذ كان شعور مدينة عين غانم ، هذه المدينة الصغيرة التى على الحدود ، شعورا عدائيا لا شك فيه فقدأصبح واضحا

---

١ - لو ٩ : ٥١ - ٥٦ . لا زالت عين غانم مكانا جميلا يستحق اسمه الشعري الذى تحرف إلى جنين .

٢ - يقول طومسون انهم " متعصبون خشنون نارون " .

أن أية محاولة للسفر عرض السامرة أو في ظل معبدهم هى خطرة ان لم تكن عقيمة (١) . لذلك غير يسوع خط سير الرحلة ويمم ثانية شطر وادى الأردن . لقد رفضه الجليل وطردته السامرة فوجه خطواته إلى طريق البرية .

هذا الخذلان القاسى امتزج فى ذهن يعقوب ويوحنا بثورة حادة للكرامة . فما من شيء محرج ولا باعث لليأس مثل عدم التوفيق فى الحصول على الطعام والمأوى وآداب الضيافة العادية بعد تعب السفر سيما لجماعة كبيرة تضطر لبدء ارتحال جديد حينما كانت تتوقع الراحة . كانا مملوءين من رجاء ملكوت المسيا ، وظنا أنه قد حان الوقت أخيرا لأن تعلن بقوة . لذلك أراد الأخوان أن يبدآها بانتقام ناموس يثير الدهشة ويعيد الروح المشتعلة إلى نفوس التابعين الذين قد ساورهم الارتياب من هذا الرفض السريع . [قالا يا رب أتريد أن تقول فتنزل من السماء نار فتحرقهم] ، كما صنع إيليا ؟ قال القديس امبرواز « أى عجب في طلب ابنى الرعد حدوث البرق » ؟ وهذه الجرأة النارية ظهرت لديهما محقة ليس فقط لسابق ما فعله ايليا (٢) ، ولكن أيضا لأن ما عمله كان فى أرض السامرة بالذات . أكانت النار ضرورية لحماية النبي شخصيا وحده أكثر من اعلاء شرف المسيح وأتباعه ؟ ولكن يسوع التفت إليهما وانتهرهما لأن سماء الله لها منافع أخرى غير ارسال الرعود . فاخبرهما [قائلا لستما تعلمان ما روحكما] (٣) . لم يتحققا الفرق بين سيناء والكرمل وبين الجلجثة وحرمون . انه جاء ليحيى لا ليهلك . ومن

---

١ - كانت الخصومة والعداوة بين اليهود والسامريين تزداد وتصل إلى أشدها أيام الأعياد والمواسم الوطنية ، وكثيرا ما كانت تتخذ شكلا عمليا . لذلك كان الحجاج الجليليون (غالبا وليس دائما) يتخذون طريق شرق الأردن . وكان اليهود يتهمون السامريين بأنهم عن اصرار يلحقون الضرر بالمسافرين المسالمين ، وبأنهم كانوا يشعلون علامات نار كاذبة ليضللوهم حينما يكون القمر محاقا ، وبأنهم قد نجسوا الهيكل بأن ذروا فيه عظام موتى (يوسيفوس) .

٢ - ٢ مل ١ : ١٠ - ١٢ .

٣ - لو ٩ : ٥٥ .

يسمع كلامه ولا يؤمن به فهو لا يدينه (١) . لذلك بدون أى كلمة غضب انصرف إلى قرية أخرى (٢) . ولا شك أن يوحنا الرسول الذى ما كان يعلم فى هذا الوقت أى روح هو ، قد تذكر هذه الكلمات التى قالها يسوع عندما جاء هو وبطرس ليثبتا من آمنوا حديثا من السامريين ويمنحاهم عطية الروح القدس .

وربما فى هذه الفرصة - لأنه ما سمحت فرصة مناسبة قبل هذه أفعمت برفض سريع قاس - قد التفت يسوع للجموع العظيمة المحيطة به (٣) وتحدث بالكلام الخالد الذى حذر به من يريد أن يكون له تلميذا حتى لا ينتظر حبا أرضيا ولا قبولا حسنا ولكن ليتوقع خصاما واضطهادا وحسابا للنفقة ، والذى أمر فيه بقطع أى رباط أرضى لو احتاج الأمر وبوجوب التحرر التام من كل اهتمامات الحياة (٤) بل وبحمل الصليب واتباع يسوع . وهذه لغة غريبة لم يفهموا كامل مرماها إلا فيما بعد ! ألا ينطوى على الخزى ويدل على صغر العقل أن يبنى انسان برجا ولا يستطيع اتمامه وان يدخل ملك

---

١ - يو ٣ : ١٧ و ١٢ : ٤٧ .

٢ - (أخرى) غالبا تدل على انها لم تكن قرية سامرية .

٣ - لو ١٤ : ٢٥ - ٣٣ . ننبه القارىء إلى أن حوادث هذا الفصل والذى يليه لم يعط البشيرون ترتيبا خاصا لها . وعليه فالترتيب الحقيقى لحدوثها لا يمكن التحقق منه . يقول ستيوارت إن لوقا البشير قد رتب هذه الحوادث بحسب الحروف الهجائية . وهذه الخرافة لا تدل على شىء سوى عدم تحققنا من ترتيب الحوادث فى هذا الجزء المهم من بشارة لوقا . أما وستكوت فقد رتب الحوادث كما يلى :- الكنيسة العامة ، الانذار برفض اليهود ، الاستعداد (٩:٤٣-١١:١٣) تحذيرات (١١ : ١٤ - ١٣ : ٩) ، تعاليم عن النجاح (١٣ : ١٠ - ١٤ : ٢٤) ، تعاليم عن التلمذة (١٤ : ٢٥ - ١٧ : ١٠) ، النهاية المقتربة (١٧ : ١١ - ١٨ : ٣٠) .

٤ - كلمة (يبغض) فى لو ١٤ : ٢٦ قد استعملت مجاراة لعادة السيد فى ذكر الحقائق العظيمة بصفة متناهية حتى تقع محيرة فى آذان سامعيها كى يتعلموا حقيقتها دون انتقاص وتطبع نهائيا فى أذهانهم وكان لا بد أن ينطق بها هكذا لتسترعى وتسيطر وتحكم على أذهان البشر إلى الأبد .

حربا لا نتيجة لها سوى الدمار والخسران . خير لهم ألا يتبعوه بالمرة إلا إذا كانوا على استعداد أن يتركوا كل شيء على الأرض ، على استعداد أن يضحوا ملذات الزمان الحاضر واهتماماته ويعيشوا فقط لما هو للأبدية . الذى لا يؤمن يناله الضرر والأذى ، ولكن مصيره يستدر شفقة أقل من ذاك الذى يصير له تلميذا كى يصير منتفعا ، ذاك الذى يعرج بين طريقين ، الذى ينظر مثل زوجة لوط إلى ما يجب أن يهرب منه ، الذى يجتهد عبثا ولهلاك نفسه أن يخدم الله والمال .

أصبحت السامرة مثل الجليل مغلقة أمامه ، فكان لا بد له أن يسافر عن طريق البرية ووادي بشيان على حدود هاتين المقاطعتين . وهناك حدثت واقعة مؤلمة للغاية (١) . من خارج احدى هذه القرى دوت في أذنيه صرخة خافتة صاعدة من صميم القلب ، وإذ رفع ناظريه أبصر عشرة رجال برص جمعت شملهم رابطة البؤس المميت . وكانوا على بعد ، ولا يجترئون على الاقتراب ، لإن دنوهم كان نجاسة . لذلك كانوا مضطرين أن يحذروا كل من أتى نحوهم بالصرخة الممزقة للقلوب « نامى ! نامى ! أى نجس ! نجس ! » كان البرص ـ هذا الموت الحى ـ شيئا يذكر المرء بأشد الأفكار هولا عن الألم والانحطاط الذى يفسد مخارج حياة دم الانسان ويشوه وجهه ويدنس لمسته وتنتقل عدواه إلى غيره ، ثم يطغى ببطء على فريسته بمرض أكال أشد من الطاعون ، بل إن الموت أخف منه وطأة وبشاعة . ويظهر أن هذه الأفكار كانت تهز قلب السيد بشفقة حادة فجائية . وما كاد يسمع صرختهم الباعثة على التحنن: [يا يسوع المعلم ارحمنا] حتى ناداهم للتو بدون أن يترك مجالا لهم للاقتراب [وقال لهم امضوا فأروا الكاهن ذواتكم] . كانوا يعلمون أهمية هذا الأمر . علموا أنه يأمرهم بسرعة بالذهاب ليتسلموا من الكهنة الاعتراف بشفائهم والشهادة بعودتهم لكل حقوق الانسان ومنح الحياة (٢) . وحالما سمعوا هذا الصوت القدير شعروا بتيار الحياة السليمة والقوة المتجددة

---

١ ـ لو ١٧ : ١١ ـ ١٩ . ٢ ـ لا ١٣ : ٢ و ١٤ : ٢ .

والدم النقي يدب في عروقهم] وفيما هم منطلقون برئوا] .

والذين لم يروا المنظر الفظيع للمصابين بالبرص وهم يضجون كاشفين عن عاهاتهم، طالبين الأحسان وهم ملقون جانب طرق أي مدينة شرقية (١) بالكاد يفهمون مقدار العطف الفائق الذى لا يعبر عنه والمنحة الفائضة التي نالوها من الرب يسوع . وقد كان المرء يفكر انه لن يصيبهم عائق أو مانع لتقديم الشكر القلبي ، وان هذا يدفعهم للعودة فى الحال ولو احتاج الأمر لاجتياز النار والماء كى يطرحوا أنفسهم بدموع وحمد عند قدمى مخلصهم ، ويشكروه على عطية هى أثمن من الحياة ذاتها . ولا ندرى أية أنانية مطبقة ، وأى تعصب يهودى ، وأى تدخل طقسى ، وأى برص جديد أخسأ من عدم الشكر المخجل ومن الجهل الخرافي قد منعهم ! وكل ما نعلمه أن واحدا فقط من العشرة الذين برئوا هو الذى عاد ، وكان هذا سامريا . على حدود المقاطعتين اجتمع كما يجتمع الزبد على جانبي الرمال والأمواج بؤس الأمتين(٢) . ولكن بينما ذهب التسعة اليهود غير شاكرين مما أوجب أشد الأسف ، فالسامرى [عاد يمجد الله بصوت عظيم وخر على وجهه عند قدميه شاكرا له] . ومع أن قلب يسوع قد تعود جحود الناس فقد تحرك بمثل من الجحود الفاضح ، مثل شاذ اجماعي ، فسأل بدهشة حزينة [وقال أليس العشرة قد طهروا فأين التسعة الآخرون] ؟ (٣) [انهم لم يوجدوا ليرجعوا ليمجدوا الله ما خلا هذا الغريب الجنس] . قال لانج : « كما لو أن كل هذه العطايا قد رميت فى قبر عميق صامت » . صوت بؤسهم كان له رجع الصدى فى رحمته السريعة . ولكن صوت رحمته المعجزى ، ولو أنه رن فى كيانهم الجسمانى فأبرأه ، لم يوقظ معرفة الجميل والشكر فى قلوبهم الأرضية الباقية فى برصها .

---

١ - انظر الصورة المؤثرة غير المغالى فيها التى رسمها الدكتور طومسون فى كتابه .

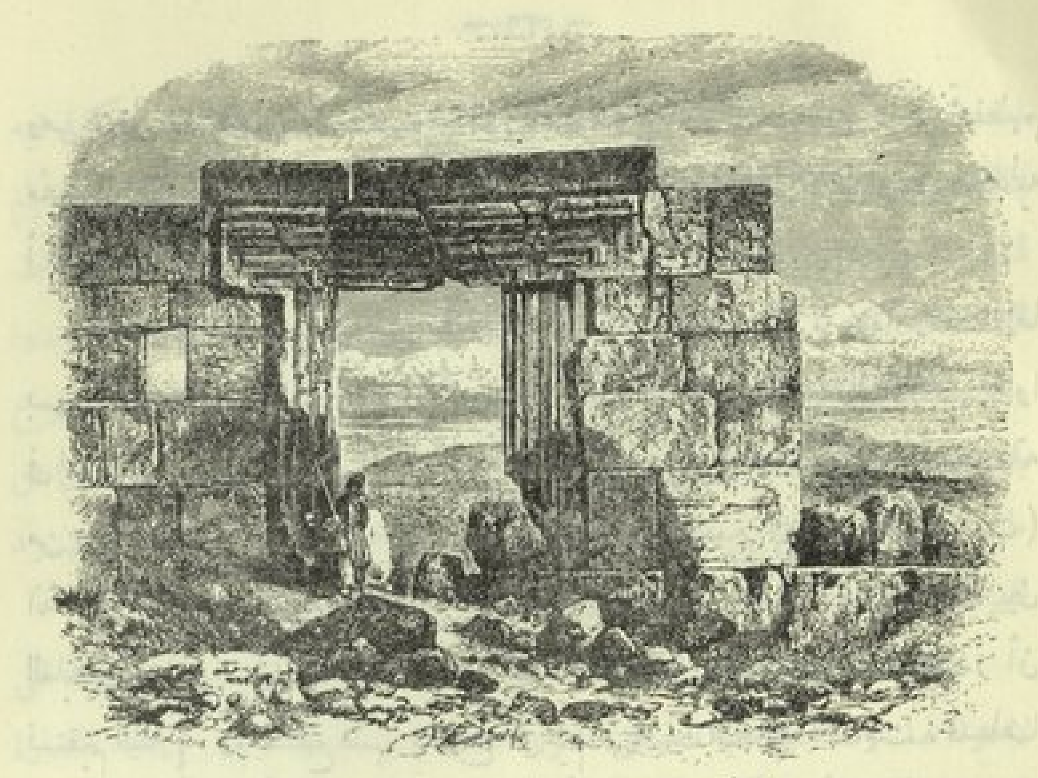
٢ - لا يعيش اليهود والعرب سويا فى أوروشليم إلا فى " بيت المساكين " أو " وحى البرص " .

٣ - لو ١٧ : ١٧ .

لذلك لن تكون عودة هذا الغريب فارغة ، وهذه الفضيلة النادرة - ويا للأسف أية ندرة ! (١) - فضيلة الشكر لن ترجع دون مكافأة . ليس جسمه فقط ، ولكن روحه العظيمة الثمينة جدا ، بقدر عمق أمراضها أيضا ، يجب أن تشفى بكلمة من مخلصه. [قال له قم وامض . إيمانك قد خلصك] .

---

١ - قال وردسورث " قد سمعت عن قلوب غير عطوفة تقابل ببرود أعمال الرحمة ، بل وآسفاه ان شكر الناس أحزنني أكثر من سكوتهم " ولكنه يقصد الشكر التقليدي الذي يردد على سبيل العادة .



بقايا المجمع فى ميرون (عن البعثة الفلسطينية)

الفصل الرابع والأربعون

تعاليم الرحلة

" واعمل سياجا للناموس "
بيرك أبوت الفصل الأول

لم يسلم السيد حتى فى هذه الرحلة الأخيرة من الانتقادات والمقاومات والملاحظات الدنيئة ، أو بمعنى آخر ، لم يسلم من الفريسية أى من الفريسيين ،

ومن هم على شاكلتهم (١) . فالظروف التى كانت تثير هم ضده هى هى التى كانت تحفظهم مدة كرازته الأولى، وهى هى التى كانت فيها تتجلى شخصيته كالمثل الأعلى وتكون تعاليمه أكثر نفعا، أى عمل الرحمة فى السبت ومخالطة العشارين والخطاة .

إحدى هذه المشاحنات السبتية حدثت فى أحد المجامع . وكما لاحظنا سالفا إما بسبب الحرم الصغير (شيريم) أو لأى سبب آخر ، كان دخول السيد إلى المجامع نادرا فى المدة الأخيرة من كرازته . لكن ليس حرمانه من دخول أحد المجامع معناه حرمانه من دخول باقى المجامع . ويتضح من سلوك رئيس هذا المجمع (روش ها كنيست) انه كان يكن ليسوع خشية ممزوجة بالحسد والريبة . وفى هذا اليوم جلست بين العابدين امرأة مسكينة أحناها لثمانى عشرة سنة طويلة [روح مرض .. ولم تقدر أن تستقيم البتة] . ولم يستطع قلب يسوع الرحيم أن يخيب التجاءها الصامت . فدعاها إليه وقال لها [يا امرأة انك محلولة من ضعفك] (١) ووضع يديه عليها ففى الحال شعرت بالقوة المعجزة فاستطاعت أن ترفع كيانها المنحنى منذ زمن طويل، وللوقت ابتدأت تسبح بكلمات الحمد لله . ولكن قطع حبل ثنائها الغضب الجهول غير المتعقل الذي لرئيس المجمع . فهنا، تحت وقع بصره وبدون استئذان من « سلطانه الحقير القصير » الذي كان يتيح له نوعا من السيطرة كل يوم سبت، امرأة ـ احدى أعضاء مجتمعه ـ كان لها الرجاء فى الشفاء ! وإذ تسلح « بآيات » محببة لديه وبكامل ريائه الرسمى وقف ووبخ الجمع البرىء مبينا أن الابراء في السبت جرم شنيع لكسر السبت ، بينما يمكن الاستشفاء فى أى يوم من الأيام الستة الأخرى . وواضح أنه رمى إلى أن المخالفة غير المباحة هى الابراء، لأنه بالتأكيد ما أراد منع من به مرض من الحضور إلى المجمع اطلاقا يوم السبت . والآن ظاهر أن المرأة المسكينة لم تنطق بكلمة ضراعة واحدة

---

١ ـ لو ١٣ : ١٢ كلمة (محلولة) فى الأصل تضمن الحال ودوام النتيجة فى الاستقبال .

ليسوع أو أنها استرعت انتباهه لأمرها بأى حال . فهذا الخطاب الذى لا حكمة فيه بتاتا قد يعنى أحد أمرين . الأول « أيها المرضى لا يجب أن تأتوا بتاتا إلى المجمع أيام السبوت فى الظروف التى نحن فيها لئلا تتعرضوا لكسر السبت إذ قد تعمل آيات الشفاء عليكم». أو « أيها المرضى ان أراد أحد أن يبرئكم فى يوم السبت فلا تريدوا وتنجوا». ولم يكن لرئيس المجمع الشجاعة الكافية أن يوجه هذه الملاحظات ليسوع بالذات، أو الجرأة الكافية ليسوقها للمرأة التى شفيت. ولكنه وعظ بها كليهما عن طريق توبيخه الجموع التي لم يكن لها أى دخل في المسألة سوى أنهم كانوا الشهود العرضيين لها .

لم يذكر في البشائر كلها مثل شبيه بهذا التدخل غير المشروع أو الحماقة التى لا دواء لها . وقد جلب عليه الطريق الملتوى الحقير الذى سلكه لأظهار جهالته المثارة هذا اللقب الذى أوجبته كرامة السيد والذى لم يستطع هو ولا جسر أن يصده علنا [يا مراءون] . كلمة واحدة طاحنة أجابه بها يسوع . لقد عرض هذا الرجل الرسمي يسوع لأنه نطق كلمات قليلة للمرأة ، ووضع يديه عليها ، وعرض بها لأنها إذ كانت منحنية استقامت ثم شكرت الله ! من العسير أن نتخيل شللا مثل هذا يصيب الشعور الأخلاقي لو لم نكن نشاهد يوميا التأثير المميت على القوة العاقلة من النوم العميق لفكر متعصب سبق وكون رأيه ، سيما إذا كان لا أساس لهذا الرأى سوى تقاليد لا معنى لها . وكان يسوع دائما يسوق الحجج والبراهين المختلفة مجتهدا أن يقنع فريسي أمته بأن أفكارهم عن السبت قد أبدلت السبت من عطية إلهية إلى عبودية ثائرة (١) . لقد برر ذاته أمام حاخامي أورشليم بالركون إلى سيرته وإلى سلطانه

١ - من المدهش أن يهود فلسطين إلى هذا اليوم يشابهون أسلافهم الفريسيين . يقول الدكتور طومسون " لا أريد أن أفصل خرافاتهم الخسيئة ولا تعصبهم المسكين ولا عوائدهم العامة أو المنزلية ولا مبادئهم التى هى خليط لا يحتمل من الغرابة والطرافة ومن الاعتداد بالبر الذاتى

كما دعمته الشهادة المثلثة : شهادة يوحنا المعمدان وشهادة الكتب وشهادة الآب . وبرر ذاته أمام فريسي الجليل باقتباسه من الكتب [لو ٦ : ٣ـ٥] وبتقديمه احتجاجا يستسيغه عقلهم العادى ويرتكز على بصيرتهم فى القواعد الثابتة للأشياء [لو ٦ : ٩] . ولكن سكان البرية هؤلاء ، ذوى العقول البطيئة غير المدربة ، قد لا يفهمون لا المحبة ولا الحرية اللتين يكفلهما السبت ، ولا السلطان العظيم الذى ليسوع إذ هو رب السبت . إن أفهامهم لا تعلو عن الأشياء المادية ، ولا يستطيعون الاقتناع إلا فى دائرة أعمالهم اليومية ومرافقهم المحدودة .

لم يكن فيهم من يعتبر نفسه غير محق فى حل ثوره أو حماره وأخذه إلى حيث المياه ليسقيه فى يوم السبت (١) . وإن كان هذا العمل يحتاج لمجهود أزيد بكثير من وضع اليد على امرأة مريضة أو الشفاء بكلمة عجائبية ، وإن كان السبت قد تنحى لحاجات الثور والحمار ، ألا يجب أن يتنحى من أجل الضرورة القصوى لابنة ابراهيم ؟!

الفريسى والاباحة التامة الصدوقية . وها هى بعض أمثلة من الصغائر التى يأتيها ويأمر بها ربيوهم : ممنوع أن يحمل اليهودي يوم السبت حتى ولا منديل جيب إلا داخل أسوار المدينة فان لم يكن للمدينة أسوار فحسب منطقهم المعكوس لا يجب أن يحمله بالمرة . ولكى يتفادوا هذه الصعوبة فى مدينة صافد أقاموا أعمدة فى أطراف الشوارع ووصلوها بخيوط لتكون بديلة الأسوار ! وأى يهودى له ضمير يمكنه أن يحمل منديله داخل هذه الأسوار الموهومة . ولقد أضحكنى أننى كنت أسير يوم سبت مع أحدهم ووصلنا إلى نهاية طريق كان الخيط قد انقطع فأتم سيره دون تحرز لما يحمل فى جيبه لأنه على حد تعبيره "لم يجز الأسوار بعد" ! ولكن فى زيارتى الأخيرة لهذه المدينة وجدتهم قد أقلعوا عن هذه العادة لما تثيره من سخرية . فأى ملاحظة هذه على مثل هذه الوصايا السبتية التى حاربها يسوع . ومن يريد أن يطلع أزيد على ترهات مثل هذه فليراجع بكستروف حيث يجد أمثلة ليست سخيفة مثل هذه فحسب بل أمثلة حقيرة أيضا .

١ ـ كان ممكنا تفادى هذا باعداد المياه من الليل السابق لولا الكسل ولولا أنه ينقصهم الاخلاص الحقيقى . ولكن هذا النوع من التعبد للحرف يكون دائما مصطنعا .

ان كانوا يعملون مثل هذه الجهود فى السبت ليقللوا من ساعات عطش قليلة ، ألا يسمح له بعمل ما هو أقل من هذا بكثير لينهى أسرا شيطانيا قاسيا استمر ثمانية عشر عاما ؟ بمثل هذه الأقوال التى لا تجابه لا عجب إن كان قد أخجل يسوع أعداءه ، أما الناس الأكثر بساطة والأقل حذلقة فقد تهللوا من أجل كل أعمال الرحمة الجيدة التى صنعها لأجلهم (١) .

مرارا وتكرارا كان السيد يضطر أن يفتدى هذا النظام الألهى القديم العظيم الذى لمحبته من التحديدات الضيقة الشكلية والخبيثة التى لتقاليدهم الكسولة غير الحكيمة . وكان يعطى أهمية كبرى للحرية النبيلة العاملة بالمحبة فى يوم الراحة هذا . أما هم فكانوا يعطون أهمية عظمى للوقوف عند حد الكسل والاضراب عن العمل وهو ما أوصلوا إليه حفظ السبت . وهذا التمسك الدقيق المتعصب والخنق الذى امتلأوا به كلما أظهر لهم يسوع قساوتهم السبتية نشأ من عدة ظروف . لقد استكانوا لهذه الطريقة الدينية التي طغت عليهم منذ زمان طويل لأنه من السهل أن يستعبدوا للحرف ، ولكنه صعب أن يدخلوا إلى حرية الروح . سهل أن يطيعوا عددا من القوانين الظاهرية ، ولكنه صعب أن يدخلوا بتعقل وانكار ذات إلى مشيئة الله . سهل أن يربكوا النفس بشبكة من التحفظات السخيفة ، ولكنه صعب أن يسلموا لأطاعة القلب المستنير . سهل أن يكونوا ضيق العقول متكبرين عنيدين ، ولكنه صعب أن يكونوا متواضعين فى الروح . سهل أن يكونوا متعصبين أو حرفيين ،

١ـ ربما قالوا فى نفوسهم : إن كانت مربوطة هذه الثمانية عشر عاما فلا ضرر من انتظارها يوما أيضا ! ولكن هذه الحجة يتخذها السيد عكس ذلك لأن من يحب قريبه كنفسه بالحرى يقول ولا لحظة أزيد. إن كانت المساعدة ممكنة هل يمكن أن تمنع المساعدة ؟ (تحل) فى آية ١٦ فى النص الأصلى رد مقنع متنازل على (تحل) فى آية ١٤ غير الحكيمة المتحجرفة غير المتعقلة . قال ستير " ألا يحق أن هذه المرأة تبعا لقانون المحبة الذي سن خصيصا لأعمال الله فى السبت كما لأعمال الناس فى الأيام الباقية أن تحل من هذا البؤس " .

ولكنه صعب أن يكونوا طاهرين، محبين، متعقلين، أحرارا. سهل أن يكونوا فريسيين، ولكنه صعب أن يكونوا تلاميذ. سهل جدا أن يعتنقوا طريقا مريحا حسب تعاليم الحاخاميين، ولكنه صعب جدا أن يحبوا الله من كل القلب ومن كل القدرة ومن كل النفس.

وعندما كان السيد يضع الفأس على أصل السبتية الجهولة المتعجرفة كان يضعها على أصل كل الصغائر البائسة أي « الأركان الضيقة » التي كانوا قد اعتادوا أن يحسبوها ديانتهم الروحية. فهل روح المسيحية هذه الأيام خالية من الفريسية حتى لا تحتاج إلى مثل هذه الدروس؟ أليست الكلمات التى ذكرتها الآن ـ مع كونها مجرد توسع فى الدروس التى علمها يسوع دائما ـ توبخ تقصيراتنا فى عدم فهم روح المسيح؟

حادثة مثل هذه قد حفظت لنا للمرة السادسة (١) العداوة التى أثيرت من مثل هذا القبيل. وليس ممكنا لنا تفسير محبتهم للمجادلة ودخولهم في مشاكسة تنتهي دائما بخذلانهم التام بغير السبتية التى انحطت إلى جنون خاص. فى سبت معين ـ والسبت كان أعظم يوم للاستضافة (٢) عند اليهود ـ دعى يسوع إلى منزل [رئيس للفريسيين]،

---

١ ـ لو ١٤ : ١ ـ ٦ الخمسة الأخرى هى (١) شفاء بيت صيدا يو ٥ : ١٠ (٢) المنظر فى الحقول مر ٢ : ٢٣ (٣) ابراء اليد اليابسة مت ١٢ : ١٠ (٤) منح البصر لأعمى سلوام يو ٩ : ١٤ (٥) شفاء المرأة المشلولة لو ١٣ : ١٤.

٢ ـ نح ٨ : ٩ ـ ١٢. كان الطبخ ممنوعا (خر ١٦ : ٢٣) ولكن هذه الدعوات لا بد أنها استلزمت جهودا ان قليلة أو كثيرة. وهذا يدل على مقدار الاخلاص الحقيقى من اليهود فى حفظ السبت. وكيف أنهم كانوا يتلاعبون فى آرائهم عنه "ويمطونها" إلى دوائر مرنة وسيعة وكيف أن الأمور الجسدية والتنعم والعوائد غير الحكيمة نازعت الروحانية المستنيرة. لم يكن هناك أى اعتراض لقبول السيد مثل هذه الدعوات. لم يكن فيها شىء خطأ أو ما يتعارض مع المبادىء الصادقة لذلك أجازها يسوع بحضوره ولكن إن كان اليهود مخلصين لمبادئهم وآرائهم لحق عليهم اعتبارها خاطئة.

وهذا اللقب يدل على أنه كان رجلا عالى المقام وربما أحد أعضاء السنهدرين . وهذه الدعوة كانت مماثلة لسالفات لها كثيرات لم يكن أساسها الاحترام أو الاكرام بل كان الدافع لها إما حب الاستطلاع الكسول أو المكر السيء . [وكانوا يراقبونه] طول وقت الطعام بانتقــــاد عدائى . كان الفريسيون كما قيل حسنا عنهم « يؤدون واجبات الديانة الظاهرية بدقة مثالية » (١) . كان بين الحضور غير المدعوين الذين حسب العوائد الشرقية إلى هذا اليوم يدخلون ويقفون حول الحجرة ويتطلعون طيلة وقت الطعام رجل مريض بالاستسقاء . وقد يستدل من وقوفه فى مكان ظاهر أمام يسوع ومن مراقبة الفريسيين الدقيقة انه قد جيء به عمدا ربما ليختبروا إرادة يسوع في احترام صغائرهم عن السبت ، وربما ليخذلوا قوته المعجزية إذا لم يستطع شفاء مرض عديم البرء لا تجدى فيه وسائل التطبيب (٢) . إن كان هذا الافتراض صحيحا فهنا مثل آخر شنيع يظهر أن هؤلاء المعلمين القساة لا يتورعون عن اتخاذ البؤس الشامل والخزى الكاسر للقلوب أداة تستعمل ثم ترمى ، يستخدمونها كلما سنحت الفرصة فى محاربتهم ليسوع . أما هو ففى هذه المرة إذ علم مايضمرونه أوقفهم في منتصف طريقهم الماكرة التى دبرها أولئك المتعلمون البارزون فسألهم هذا السؤال البسيط :

[أيحل الأبراء فى السبت] ؟

لا يريدون أن يقولوا « نعم » . ولا يجرأون أن يقولوا « لا » . إن كان الأمر غير قانونى فان واجبهم المحتم عليهم يقتضى أن يفصحوا بهذا دون تحايل أو التواء وأن يمنعوا ان استطاعوا إلى ذلك سبيلا الرحمة المعجزية التى أعدت لهذا البائس . فان لم يجرأوا ـ إما خوفا من الناس أو خشية تكذيبهم فى الحال أو لأنه قد راعهم سمو يسوع الفائق أو لمجرد كبريائهم السوداوية الشاكة أو ـ إن تخيلنا أن كانت لهم دوافع

---

١ ـ راجع بروس فى كتابه " تدريب الاثنى عشر " .

٢ ـ المعرب : وإلى يومنا هذا يعجز الطب عن شفاء مرض الاستسقاء .

أفضل . لأنه فى أعماق قلوبهم ربما بقيت قطعة لم تتحجر بتقاليدهم الكسولة التى ليست من الدين فى شىء أشعرتهم أن الأبراء جائز قانونيا ، بلى وأكثر من هذا ، أن الأبراء حق . فسكوتهم حسب حكمهم هم يترك يسوع حرا أن يشفى دون لومة لائم . كان صمتهم هذا حسب آرائهم وحسب مبادئهم إحقاقا كاملا لما يعمل . كان سؤاله البسيط وعجزهم عن اجابته إقرارا شاملا لكسبه الحق في هذه المعارضة . وعليه فقد أمسك الرجل وأبرأه وصرفه .

وحينئذ عاد يبرر ما عمله بما يفعلون فقال لهم [من منكم يقع حماره (١) أو ثوره فى بئر ولا يصعده حالا فى يوم السبت] ؟ علموا أنهم لا يستطيعون إلا الاقرار بالايجاب ، فيكون اقناعه جازما لا يقاوم ، لأن الانسان أفضل من الحيوان ، وتخليص الحيوان يستدعي مجهودا أشد بكثير من ابراء الانسان . وعلى ذلك فقد انتهت مكيدتهم الدنيئة الصغيرة إلى سكوت مكبوت هو دليل خذلان كامل ضاق كرمهم عن أن يعترفوا به .

لم يرد يسوع أن يفيض فى موضوع أصبح فى عقل كل سامع مخلص واضحا إلى الأبد . فلفت أنظارهم إلى دروس أخرى أن استسقاء كبريائهم المنفوخ مرض أصعب فى شفائه من مرض ذلك البائس الذى أرادوا أن يصطادوه به . ما كادت المائدة تعد حتى قامت مخاصمة غير مستحبة بين تلك الصحبة المجيدة عمن هو الأول . هذا أمر عادى بل ذائع يظهر ميول الطبيعة البشرية فى أضعف وأحقر نواحيها (٢) . ولا شىء يظهر جليا فراغ الديانة الفريسية مثل كبريائها الفظيعة ورفعتها الذاتية . وسأكتفى بمثل واحد . ذات مرة دعى الملك جانياس بعض عظماء فارس وكان بين من دعوا لاستقبالهم

---

١ ـ لا شك أن اليهود كانوا دائما يقرون بل يعملون بالمبادىء التى دعمها يسوع وهم يفعلون هذا إلى يومنا هذا . فيهود طبرية رغم كل حذلقاتهم السبتية يستحمون يوم السبت .

٢ ـ لو ١٤ : ٧ ـ ١١ .

الربي سمعون بن شيتاش الذى عندما دخل أجاس نفسه بين الملك والملكة . فلما سئل عن سبب هذا الفضول الجسور أجاب أنه مكتوب فى سفـــر حكمة بن سيراخ « ارفع الحكمة ترفعك وتجلسك أمام العظماء » (١) .

فى ذلك العصر كان اليهود قد اتخــــذوا عادة المتكآت عن اليونان والرومان . وصدور المتكآت كانت الأماكن الوسطى فى المتكأ الأوسط. وإذ رأى السيد تكالب المدعوين فى اتخاذ هذا المتكأ لأنفسهم (٢) وضع قاعدة أسمى وأجمل فى واجبات الضيافة العامة ، قاعدة تنطوى على درس عميق للوداعة الروحية . وبين انه كما أن الرجل الجسور المعتد بنفسه المغرور بذاته يكون عرضة فى المجتمعات الأرضية للتحقـــير الشنيع وللاضطرار لأن ينزل عن مكانه للرجل الفطن المتواضع ، هكذا أيضا فى دنيا الأبد [كل من يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرتفع] . فالكبرياء والترفع وتعظيم الذات ليس لها مكان في ملكوت الله . أما الشيء الوحيد الذى يخول لنا الدخول هناك فهو التواضع . قال الشاعر هربرت « يجب أن نتضع إن أردنا دخول السماء لأن هناك السقف عال أما رتاج الباب فمنخفض » .

وابتدأ يعلمهم درسا آخر انتقد به عيبا ظاهرا فى الذى قد دعاه (٣) ، معلنا أن الفخامة والاسراف والأمل برد المثل ليست قواعت الضيافة الصحيحة . يوجد جزاء أوفى للعطف إذا منح للفقراء عن مكافأة ولائم الملق التى تقام للأصدقاء والأغنياء . فاذا صنعت وليمة للأصدقاء والأقوياء فلا تنس الضعفاء والبؤساء (٤) . فالاحسان الذى تدفع

---

١ - حكمة ١٥ : ٥ و ٢٩ : ٤ قارن امثال ٤ : ٨ .
٢ - لو ١٤ : ٧ . ٣ - لو ١٤ : ١٢ - ١٤ .
٤ - كان السيد يعلم أن كل سامع يفهم - حتى دون مساعدة الأمثال العادية فى الأدبيات الشرقية - الأساليب الجريئة وأحيانا المحيرة التى كان يصوغ فيها تعاليمه . لقد فهم كل المفسرين عدا قليل من المتعصبين أن (فلا تدع أصحابك ولا أخوتك . .) معناها لا تدعهم فقط بل ادع أيضا المساكين والضعفاء . ان أردأ النقاد لم يأخذوا على تعاليم السيد أنه يرمى إلى ما يتنافى مع

إليه المنفعة ما هو إلا محبة ذات خادعة . وقد تنالون بركة أبدية أعظم لو دعوتم من به الاستسقاء هذا أو لو أنكم احتسبتم أولئك النظارة المساكين في عداد الأضياف المدعوين .

عند ذلك قطع الحديث أحد الأضياف ربما لأنه افتكر أن هذا الدرس غير مناسب أو قاس ، وأدلى بملاحظة سخيفة ممسوخة قد يساء فهمها فى هذا الظرف . قد سكب على المياه المضطربة مثلا عاما غير شخصي . وبدلا من أن يستفيد من هذا الدرس الالهي ظهر أنه ارتضى أن يستمر قانعا بأرجاء المسألة كسلا منه إلى المستقبل البعيد . وكأنه واثق تماما من تلك البركة التى كان فهمه لها ضئيلا وماديا . ولكن السيد حول هذه الملاحظة الكسولة إلى فرصة جديدة لأحد تعاليمه الأكثر خلودا . تحدث إليهم بمثل أظهر به أن أكل الخبز فى ملكوت السموات يستدعي شروطا قد يأبى قبولها أولئك الذين يظنون أنهم سيأكلونه على وجه التحقيق . تحدث إليهم عن ملك أرسل الدعوة إلى وليمة عظيمة ، ولكن عندما حان الوقت قوبلت برفض عام (١) . كان لأحدهم ضيعة يهتم بها وكان مضطرا أن يذهب ويتفقد حقلا جديدا أضافه إليها . وكان آخر اهتمامه محصور فى البيع والشراء وكل ما تتطلب التجارة . وكان ثالث مشغولا بأموره المنزلية الراضية حتى أن حضوره صار خارجا عن الحسبان . وحينئذ رفض الملك فى غضبه هؤلاء الأضياف المتراخين غير المحترمين ودعا للوقت عبيده وأمرهم أن يسرعوا

العطف الطبيعى فضلا عن الذوق السليم . قارن أمثلة يجب أن يتخذ فيها ذات النهج فى التفسير فى مت ٥ : ٤٦ و ٤٧ و لو ٦ : ٣٢ - ٣٤ و لو ٩ : ١٣ و لو ١٤ : ٢٦ (قامت ١٠ : ٣٧) و يو ٦ : ٢٧ و ايو ١ : ١٧ و ١٥ : ١٠ و ام ٨ : ١٠ . من الواضح أن الشفقة الحقيقية فى هذا العصر لا تنحصر فقط فى دعوتهم إلى الولائم .

١ - لا زالت جملة "تفضلوا فالعشاء أعد" أي تعالوا لأن الطعام معد شائعة إلى يومنا هذا . والرفض معناه سبة .

إلى الشوارع والأزقة ويحضروا المساكين والضعفاء والعمي والعرج . وإذ فعلوا هذا وبقى أيضا مكان أمرهم أن يأتوا أيضا بمن لا مأوى لهم ، المتسكعين فى الطريق وإلى جانب السياجات . كان تطبيق هذا المثل على الحضور واضحا . فالقلب الدنيوى إن شغله تدبير الممتلكات ، أو حيازة الغنى ، أو التلذذ بالراحة المنزلية ، فهذه الأمور تتعارض والرغبة فى الأكل من الوليمة الحقيقية فى ملكوت السموات . ربما يكون عدد الأميين والبدو والزناة والعشارين وعاملى الطرق ومتسولى الشوارع أوفر بكثير من عدد الكتبة المتفاخرين بعلمهم والفريسيين بعريض أهدابهم . ثم انتقل إلى المفرد المتكلم كى يدخل المغزى عميقا إلى قلوبهم وقال [لأني أقول لكم انه ولا واحد من أولئك الرجال المدعوين يذوق عشائى] . إنه الدرس الذى كثيرا ما علمه . شىء أن تدعى ، ولكن قبول الدعوة شىء آخر . [كثيرون يدعون ولكن قليلين ينتخبون] . أو كما قال أحد الأمثال « كثيرون يحملون وقليلون يشعرون بالله » .

تعاليم شبيهة بهذه حفلت بها مدة كرازة السيد . وهذا المثل المذكور آنفا كان توبيخا ليس فقط لفرزهم ذواتهم ولتعاليهم عن الناس بل أيضا لظلمهم وماديتهم . فى فرصة أخرى كان السيد يعلم تلاميذه فأخبرهم عن مثل وكيل الظلم (١) ليريهم ضرورة

---

١ - لو ١٦ : ١ - ١٣ . لولا أنه قامت صعوبات لا طائل تحتها ولا لزوم لها حول هذا المثل لكان الأمر الواضح فى مدح وكيل الظلم ليس ظلمه أو تبذيره ولكن نظره البعيد وحكمته التى تطلع بها للامام ومقدرته التى اعتزم بها مجابهة الصعاب التى لا ريب آتية . ويظهر أن هذا المثل قد حير بعض المفسرين لدرجة أنهم لم يصلوا إلى أبعد ما وصل إليه جوليان فى نقده الخامىء المجهول وظنه أن هذا المثل يمتدح ويقر الغش ! ولكن ما أوضح الاستنتاجات البسيطة . هذا الوكيل الردىء أظهر إصالة فى الرأى وإصابة فى الغرض وفهما صافيا فى الطريقة غير الشريفة التى خلص بها نفسه من نتائج خيانته السابقة . فكونوا أنتم وكلاء أمناء أوفياء وأظهروا نفس الاجتهاد والقصد والحكمة فى التسلط على الحالى والزمنى لكسب المستقبل والخالد . وكما جمل الوكيل أصدقاء له من المدنيين فلما فرغت يده قبلوه فى منازلهم ، فأنتم أيضا استعملوا غناكم ووقتكم وفرصكم - ومعرفتكم هى غنى نظير نقودكم - لأجل منفعة البشر اخوانكم حتى إذا ما

الحرص والأمانه والتعقل والفطنة فى إدارة أعمال وممتلكات ومتعلقات هـذه الحياة حتى لا يخسروا ميراثهم من الغنى الأبدى . هذا هو الدرس الذى ثبته كثير من أحاديثه. إنه من المستحيل أن تكون دنيويا وروحيا سويا ، أن تكون خادما لله وفى الوقت ذاته عبدا للمال . وبالمقارنة العالية الجريئة التى كان يدعم بها تعاليمه الألهية ويثبتها فى قلوب وأذهان الناس طلب إليهم التبصر فى الحكمة الألهيـــة بمثل عن تبصر الحـذق الاجرامى .

ومع أن يسوع كان يتحدث مبدئيا إلى تلاميذه فان بعض الفريسيين الموجودين سمعوه . ونلحظ بالتأكيد أن هذا الكلام أكثر من غيره قد أحفظهم وأشعل فيهم حقدا لم يخفوه فابتدأوا يعاملونه باحتقار علني غير مؤدب . ولماذا ؟ لأنهم كانوا فريسيين وفى الوقت ذاته محبين للمال (١) . ألم يحلوا بذواتهم بنجاح مسألة « الاستنفاع بالدارين

خرجتم من الدنيا مساكين عراة فهؤلاء الاخوان يرحبون بكم إلى كنوز لا تفنى . هذا فى الغالب تفسير عدد ٩ الذى فيه بعض الصعوبة . هذا المثل له نفس المغزى من القول المشهور " كونوا صيارف فهماء " . أما مثلا قاضى الظلم والصديق اللجوج فيظهر منهما أن مغزى المثل قد يقوى بالمقارنة دون امتداح من ضرب به المثل . ومن المحتمل أن يكون يسوع قد ضرب المثلين من ملابسات حدثت إذ ذاك .

١ - لو ١٦ : ١٤ الكلمة الأصلية معناها " هزأوا به بسخرية " يظهر أن رذيلة محبة المال متأصلة فى العنصر اليهودى . يقول الدكتور طومسون " إلى هذا اليوم أى تاجر يهودى فلسطينى يفكر ويغش . والصبي الراعى على الجبال يتحدث عن القروش من الصباح إلى المساء كذلك سائق البغال على الطريق والمزارع فى حقله والصانع فى دكانه والتاجر فى مخزنه والثرى فى قصره والقاضى فى محكمته . النقود ! النقود ! النقود ! هى بغية كل قلب ومضغة كل لسان ونهاية كل مقصد . كل شىء يباع ويشرى ، كل صلاة لها ثمنها ، وكل خطيـة لها تعريفتها " . وتاريخ أوروشليم الحديثة يمت بصلة قوية إلى المشاحنات على النقود والشكايات من ظلم الربيين وظلمهم فى توزيع " الشالوكا " أى الاحسان " والكاديما " أى الرواتب . إنها حكاية محزنة ومن يعرف حقائقها ودقائقها لا ينكرها سيما اليهود الأتقياء . (فرانكل) .

على أمتع وجه » . فمن يستطيع أن يرتاب فى مستقبلهم المحقق أو أن يعتوره شك فى حصولهم على « المجالس الأولى » والأمكنة الممتازة الظاهرة في العالم الآتى ؟ أليسوا هم الدليل والشاهد القائم على سخافة الظن إن محبة المال تتنافر مع محبة الله حسب رأيهم ؟

وإجابته لهم الواردة فى بشارة لوقا مخجلة جدا ، ولكنها تتضمن أولا أن الظهور بير الحياة شيء واخلاص القلب شيء آخر . وثانيا أن الملكوت الجديد الذى أعد طريقه يوحنا كان يغتصبه أدنأ من فى العالم ويقبلون إليه بينما هم رفضوه ، مع أن هذا الملكوت لا ينقض الناموس ولكن يكمله بالأولى . والاعداد التى تلى ذلك وإن ظهرت لنا غير متتابعة لما قبلها (١) فهى تعنى انهم لم يكونوا أمناء لذلك الناموس الذي لن يسقط منه حرف . لأنهم كانوا يتغاضون عن أكثر أوامره صراحة . وكان يرمى فى الغالب بملاحظته هذه إلى ممالأتهم لهيرودس انتيباس الذى قنعوا بالرضى عنه والذى لم يجسر واحد منهم أن يستعمل معه لغة التوبيخ الجريئة مثل ما فعل يوحنا المعمدان ، مع أن قوانين الناموس الصريحة الذى يعلنون أنهم يحترمونه تحكم بأن طلاقه من ابنة الحارث كان زنائيا وان زواجه من هيروديا كان زنائيا مضاعفا وكان أسوأ وأنجس .

ولكي يوضح ما كان يشرحه لهم قال مثل الغنى وليعازر (٢) الذى ملىء بالمعانى كباقي أمثال السيد ، ويمكن تفسيره على أكثر من وجه . ولكنهم على الأقل ما

---

١ ـ قارن لو ٧ : ٢٩ و ١٥ : ١ و مت ١١ : ١٢ و ١٣ .

٢ ـ من الغريب أن هذا هو المثل الوحيد الذى ذكرت فيه أسماء . كما أن لعازر وبارتيماوس وملخس فقط هى الأسماء التى ذكرت فى معجزاته . ربما كان هناك المباح للأسماء ، المنسية على الأرض ، المكتوبة فى السماء ، والتى لها ضجة على الأرض لكن غير مذكورة فى السماء . ولكن اسم لعازر فى هذا المثل موافق تماما . قال هربرج " لنا فى هذا المثل نافذة تفتح على النار ننظر منها ما يجرى هناك " أما الاستنتاجات اللاهوتية التى تستخرج من هذا المثل فيجب أن تقابل باحتراس . بعضهم يظن ـ وإن كان بعيدا جدا ـ أن الخمسة أخوة تشير إلى خمسة أبناء حنان كلمة لعازر معناها " الله ساعدي " .

كانوا يمكنهم أن يخطئوا فهم الغرض الصريح الظاهر منه وهو أن التقدير في الحياة الأخري كثيرا ما يعكس الوضع الذى يكون فيه الناس هنا ، وأن الله لا يحابى الناس ، وأن القلب يجب أن يختار بين تنعمات هذه الحياة وبين تلك التى لا يمكن أن تؤثر عليها مظاهر هذه الحياة . وما يمكن أن يسمى ختام هذا المثل يحتوى أيضا على درس هام وهو أن الأمور التى تقدمها نعمة الله لكل نفس حية كافية لانارتها وخلاصها . فاذا أهملت هذه فلن تفلح أعجوبة فى إيقاظ الروح المنغمسة فى انهماكات الحياة . [إن كانوا لا يسمعون لموسى والأنبياء فانهم ولا أن قام واحد من الموتى يقتنعون] . قال بنجل « نحن مخلصون بالايمان ، بالسماع لا بالأشباح » .

الأشارات المتكررة عن هذه الحياة كأنها مكان اختبار وتجربة وامتحان ، وعن الدينونة العظيمة ، وعن القاضى الذى ينطق بكلمة واحدة [تعالوا] أو [اذهبوا]، فتحل كل المشاكل وتقر كل المسائل إلى الأبد ، قد حولت طبيعيا أذهان مستمعين عديدين لهذه المواضيع العامة . ولكن يوجد فينا جميعا ميل لتحويل هذه المسائل لغيرنا لا لأنفسنا ، وأن نجعلها أمورا للنظر التخيلى وليس للأهمية العملية . ولكن هذه الميول التى كانت تسلب التعاليم الأخلاقية كل قداستها وتقلب تحذيراتها إلى مجرد اعتذارات عن عمل الخير كان يناهضها ويوبخها السيد . وقد سنحت له فرصة طيبة لفعل هذا فى هذه الأيام التي كان فيها [يجتاز فى كل مدينة وقرية يعلم وهو سائر إلى أوروشليم]. (١) كان يتحدث - ربما ليس للمرة الأولى - عن البدء اليسير ثم النمو العظيم لملكوت الله فى النفس وفى العالم عندما سأله أحد سامعيه بروح حب استطلاع غير حكيم إن لم يكن غير طبيعى وقال له [يا رب قليلون هم الذين يخلصون] . ولا ندرى الدافع الذى أوحى بهذا السؤال ، هل الاعتداد القوى بالنفس أم الشفقة اليائسة ؟ ولكن على كلا الحالين قد تضمنت إجابة السيد عدم الرضى عن السؤال ذاته وتضمنت أيضا الطريق

١ - لو ١٣ : ٢٢ - ٣٠ و مت ١٣ : ٣١ - ٣٢ و مر ٤ : ٣٠ و ٣١ .

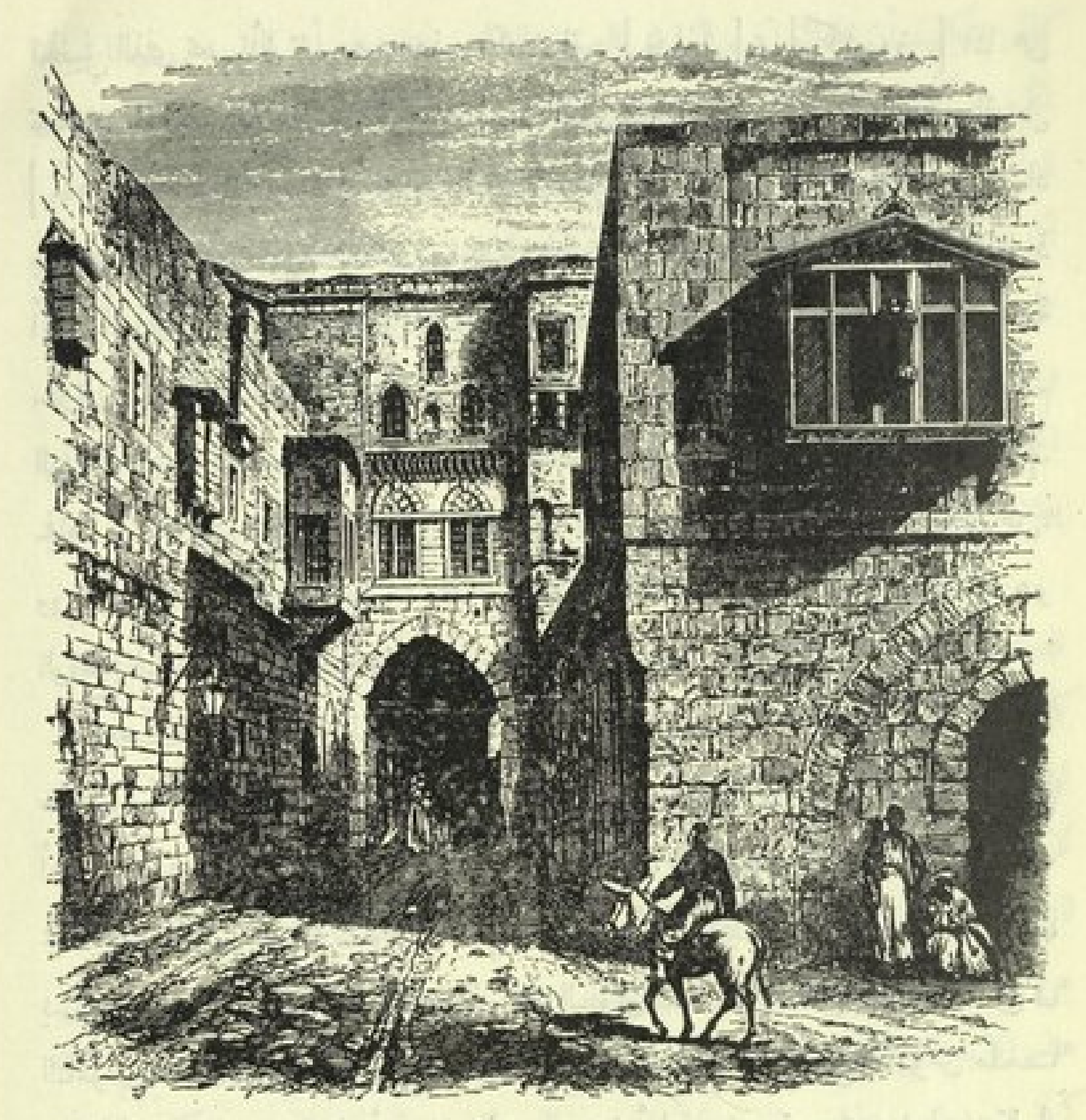
الحقيق الذى يجب أن تقرب به هذه الأسئلة . [قليلون] و [كثيرون] انما هى تعبيرات لفظية . فلا تضيعوا فرص الحياة الثمينـــة فى هذه الأسئلة الكسولة بل [جاهدوا] ، فانه لن يدخل أحد من الباب الضيق ولو كان من نسل ابراهيم دون جهاد باخلاص . وإذ أن جهود الكثيرين ، جهودهم العنيدة وجهودهم الخاطئة ستخيب ، وإذ أنه سيأتى يوم يغلق فيه الباب ويكون الوقت قد فات فلا دخول ، وإذ أنه لا ضراعة حارة إذ ذاك تنفع ، ولا سابق معرفة قديمة تشفـــع ، واذ أنه حتى الذين فى كبريائهم الروحية ظنوا أنهم يعرفون السيد تماما ، سيسمعون الرفض الشنيع [انى لا أعرفكم]. فجاهدوا أنتم حتى تكونوا ضمن الداخلين الذين سيأتون من أربعة أطراف الأرض، وربما ترفض أنت يا ابن ابراهيم . وقد يقع هذا على أذنك غريبا (١) لكن هذا هو الواقع [فها أن آخرين يصيرون أولين وأولين يصيرون آخرين] (٢) .

وهكذا كان يحول السيد طوال مدة الرحلة كل مقاطعة جهولة ، وكل نقد هازىء ، وكل سؤال خاطىء ، إلى فرصة حسنة لتعليم سامعيه ، ومنهم لكافة العالم أجمع . فعل هذا أيضا عندما قام [ناموسى] ليجربه ـ لا ليتطلب الهداية وإنما ليجد مجالا للاعتراض ـ وسأله السؤال الهام [ماذا أعمل لأرث حيـــاة أبدية] . وإذ رأى يسوع الدافع الشرير الذى حدا به إلى هذا السؤال سأله بدوره عن الجواب المعطى فى الناموس الذى أوقف الرجل مدار حياته على تعليمه وتفسيره وأعطى الناموس ملخصا حسنا لأحسن تعليم ذائع فى أمته إذ ذاك . وحينئذ أعاد يسوع توكيد إجابته وقال له

---

١ ـ هذا هو المعنى للتعبير الأصلى الوارد فى البشائر وقد ذكر ثلاثة وعشرون مرة فى بشارة متى ، وست عشرة مرة فى بشارة لوقا ، ولم يرد ولا مرة واحدة فى بشارة مرقس .

٢ ـ قد وسم هذا المعنى شعرا بلباقة الشاعر دانت اذ قال " كان فى الدنيا مشهورا بالعظمة والادعاء ولكن لم تلبسه أية فضيلة ثوبها .... هناك فى السماء من يزدهرون كملوك عظماء وكانوا هنا يلحسون التراب ويتركون وراءهم مذمة فضحة " .

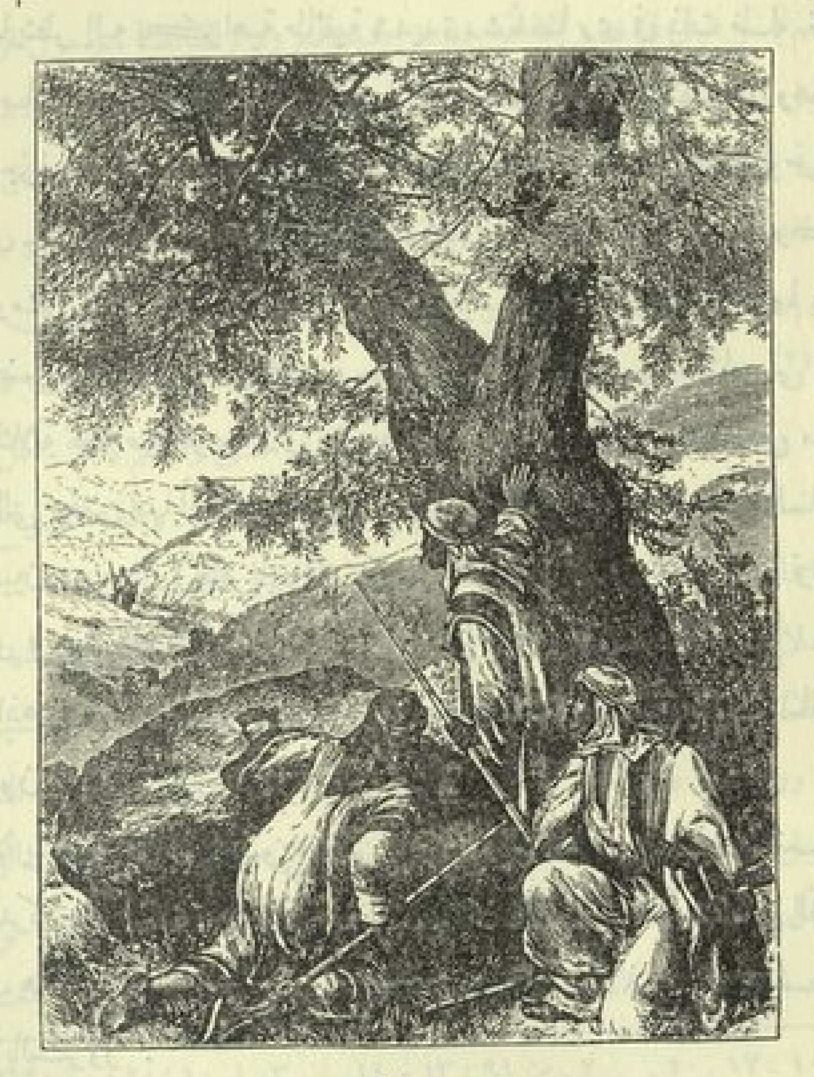


"بيت الرجل الغنى" فى أوروشليم

[افعل هذا فتحيا] . ولكن إذ أراد شيئا أزيد من هذا ، وإذ أراد أن يبرر سؤالا كان عنده ثانويا فى الحقيقـــة وكان يعلم أنه سأله بدافع غير كريم ، وإذ أراد أن يغطي تقهقره وخذلانه بسؤال جديد قال ليسوع : [ومن هو قريبي] ؟ وكان يسوع يعلم أى ضيق وبهتان ستحمل إجابة الناموسى لو أنه سأله رأيه هو فى هـذا . ولذلك

أجاب على هذا السؤال بنفسه أو بالحرى أعطى الناموسى البيانات اللازمة للاجابة عليه في مثل من أمتع أمثاله المشهورة .

حدثه كيف أن مسافرا كان يجتاز المنحدر الصخرى من أوروشليم إلى أريحا



لصوص من البدو

فوقع بين أيدى اللصوص الذين لكثرة اغتيالاتهم وتعددها قد أطلق على هذا المنحدر المشئوم اسم « طريق الدم » . وقد ترك هؤلاء البدو ، قطاع الطرق ، ذلك المسافر على

طريقتهم التى يعملون بها للآن مجروحا ، عريانا ، قريبا من الموت ، على الطريق . وكان كاهن عائدا إلى مدينة كهنوته قد مر بالطريق ونظره فجاز مقابله وتركه . وأتى لاوى بعدم اكتراث أزيد ورآه وفعل الشيء ذاته ببرود وسكون . ولكن سامريا مسافرا - شخصا ينظر إليه بكراهية طائفية شديدة ، شخصا يرى فى ذات ظله نجاسة ، سامريا صالحا ، مثلا لذلك المتكلم الألهي الذى رفضه الناس واحتقروه وهو قد أتى ليضمد جراحات الانسانية الدامية التى لم يكن لها دواء أو شفاء لا فى الناموس التقليدى أو الأدبى - لكن سامريا صالحا أتى إليه ، وشفق عليه ، واعتنى به ، وأركبه على دابته ، ومشى إلى جانبه فى ذلك الطريق غير المعبد الحار المترب الخطر ، ولم يتركه إلا بعد أن ضمن سلامته وأعد بكرم حاجاته المقبلة . وسأل يسوع الناموسى [فمن من هؤلاء الثلاثة تظنه صار قريبا للذى وقع بين اللصوص] ؟ ولم يكن الناموسى من الغباوة للدرجة التى يرفض فيها أن يرى . ولكنه علم أيضا أنه يجب أن يخرج « السامريين » و « الأمميين » من دائرة الأقرباء . فلم تكن له الشجاعة أن يجيب دون تردد « أنه السامرى » ، ولكنه استعمل جملة ملتوية وقال [الذى صنع معه الرحمة] . [فقال له يسوع اذهب فاصنع أنت أيضا هكذا](١) . وأنا صديق العشارين والخطاة سأكون نظير السامرى تجاهك .

ولا يتسرب الظن أن يسوع قضى شهرى رحلته هذه بجملتهما فى تعاليم مهما سمت فقد كان باعثها الظاهرى والموحي بها الأخطاء والعداوات التى قابلته في الطريق ، إذ كانت هناك بلا شك ظروف متعددة خلال هذه الأيام أفعمت قلب المخلص بالسرور .

كان من أهمها رجوع السبعين . ولا نخال بالطبع أنهم عادوا جماعة دفعة واحدة ، ولكن من حين لآخر عاد اثنان اثنان عند اقتراب السيد من المدن المختلفة والقرى

---

١ - لو ١٠ : ٢٥ - ٣٧ .

التي أرسلهم إليها. ورجعوا يخبرونه عن نجاحهم الذى ملأ قلوبهم البسيطة بالفرح والاندهاش [قائلين يا رب حتى الشياطين أيضا تخضع لنا باسمك](١). ومع انه لم يعطهم سلطانا خاصا لأخراج الشياطين، لكنهم استطاعوا أن يفعلوا ذلك باسمه. وشاركهم يسوع فى فرحهم إلا أنه حد من شدة سرورهم الفائضة، وحول فرحهم إلى مجرى أنبل وأقدس، وأمرهم أن يتأكدوا تماما أن الصالح أقوى دائما أبدا من الطالح، وأن الغلبة على الشيطان - ووقوعه مثل البرق من السماء - قد صارت ويجب أن تظل إلى الأبد. لقد أعطاهم السلطان والنصرة على كل المؤثرات الشريرة وكلمة وعده ستكون لهم قوة. فعالة. تحميهم من كل ضرر فيطأون الأسد والصل ويدوسون الشبل والثعبان (٢). لأنه وضع حبه عليهم فسيخلصهم، ولأنهم عرفوا اسمه فسينجيهم ويرفعهم. ولكن كان هناك موضوع سرور أعمق وأحق وأعظم وأهم وأقل خطرا لأنه أقل تعلقا بشخصياتهم وأقل ظهورا وإليه حول أفكارهم. وهذا الفرح الأسمى هو أن أسماءهم قد كتبت ولن تمحى (٣) من سفر الحياة فى السماء.

فضلا عن هذه المسرة التى ملأت نفس يسوع، إذ علم إيمان تلاميذه الفرح ورجاءهم الكامل، فقد تهلل أيضا بالروح. لأنه وإن كان الكتبة والفريسيون قد احتقروه ورفضوه فان الخطاة والعشارين قد أحبوه وعبدوه. إن المساكين الذين كرز لهم بالانجيل والعميان الذين فتح عيونهم والمرضى الذين جاء ليشفيهم والضالين الذين كان عمله أن يهديهم ويخلصهم، كل هؤلاء قد تجمعوا بشكر قلبي وشعور حي حول الراعي الصالح والطبيب القادر. ولقد تذمر الكتبة والفريسيون (٤) كعادتهم.

---

١ - لو ١٠ : ١٧ - ٢٠.   ٢ - مز ٩١ : ١٣ و ١٤.   ٣ - لو ١٠ : ٢٠ و رؤ ٢٠ : ١٢ و ١٥.

٤ - لو ١٥ : ١ - ٢. هذه هى المرة الثالثة التى وبخ فيها الاعتزال للبر الذاتى. الأولى فى بيت سمعان الفريسى (لو ٧ : ٣٩). والثانية فى وليمة متى (مت ٩ : ١١). ومثل هذا قد حدث فى وليمة زكا (لو ١٩ : ٧) وفى كل هذه المرات قد تكلم يسوع بتهكم لاذع وجادل منتقديه فى ميدانهم وجاراهم - لاقناعهم فقط - فى تقديرهم لنفوسهم كأبرار وتقديرهم للقوم الذين ازدروهم وتعالوا عن عشرتهم كخطاة. راجع بروس

ولكن أية أهمية لتذمرهم لدى أولئك السامعين الفرحين ، إذ كان هو يتكلم للتعابى والثقيلى القلوب بكل أنواع الرجاء والبركة والتشجيع . فبمثل الأرملة اللجوجة (١) علمهم واجب الايمان ، وأن الاجابة محققة للصلاة المؤمنة الملحة . وبمثل الفريسى المتكبر (٢) المتعجرف ، البادى الاحترام ، الصائم ، المتصدق ، المتكل على بره الذاتى ، المتفاخر على الله في الهيكل ، وعودته إلى منزله غير مبرر ، والعشار المسكين الذى لم يستطع أن يتفوه إلا بصرخة واحدة يستدربها رحمة الله بل وقف بعيدا يضرب صدره مخفوض العينين - بهذا المثل علمهم أن الله يحب التواضع الاستغفاري أكثر عن مجرد الخدمة الظاهرية ، وأن القلب المتواضع والروح المنكسرة لا يرذلها الله .

وليس هذا فقط ، بل جعلهم يشعرون أنهم أعزاء لدى الله . وحتى إن أخطأوا فانهم أولاده على كل حال وهو يحبهم ويقبل توبتهم . وعليه ، فلمثلى الخروف الضال والدرهم المفقود أضاف ذلك المثل الذى يتركز فيه كل الأنجيل فى أكمل نعمته ، مثل الابن الضال .

وبالتأكيد لم تجتمع فى لغة البشر كلها ما تجمع فى هذه الكلمات القليلة الخالدة التى حوت دنيا وسيعة من الحب والحكمة والرأفة . كل سطر وكل لمسة من هذه الصورة مليئة بالمعانى الفائقة الجمال الخالدة الأهمية . تطلع الولد البائس لكل ما يمكن أن تهبه الحياة ، ترك المنزل القديم ، السفر إلى كورة بعيدة ، نوبة الملاذ القصيرة هناك ، والجوع العظيم فى الأرض ، النهاية العاجلة لكل ما يجعل الحياة نبيلة ومحتملة ، ما تبع ذلك من الانحدار والفساد والبؤس المرير ، رجوعه إلى نفسه وتذكره كل ما تركه ، العودة فى توبة كسيرة القلب عميقة الاتضاع ، رؤيا الأب له من بعد ، فيضان العطف والرقة على الضال المسكين العائد ، الفرح الصاخب لكل أهل البيت من أجل المحبوب المفقود الذى رجع الآن إلى منزله ، الحسد غير العادل والشكوى الوضيعة للأخ الأكبر ، ثم

١ - لو ١٨ : ١ - ٨ .
٢ - لو ١٨ : ٩ - ١٤ .

الختام البديع للمثل كانتهاء الفاصل الموسيقى [يا بنى أنت معى فى كل حين وكل مالى فهو لك لذلك كان ينبغى أن نفرح ونسر لأن أخاك هذا كان ميتا فعاش وكان ضالا فوجد]. كان كل هذا مثلا إلهيا بالحقيقة عن زيغان الانسان ومحبة الله بلغة لم تسبق أن وردت فى أى الأدبيات ولم يسبق أن سمعتها أذنا إنسان فى أى مكان . ضع فى كفة كل ما كتبه أو قاله كونفشيوس أو سكايامونى أو زاردشت أو سقراط ـ وهم قد كتبوا وقالوا كلمات كثيرة جميلة وتقية ـ وضع فى الكفة الأخرى مثل الابن الضال فقط ، بكل ما يدل عليه أو يشير إليه ، ثم انظر أى روح عادلة تشك فى أية كفة ترجح الأخرى فى ما هو خالد القيمة والمطابقة لحاجات الانسان .

وهكذا كانت تقترب هذه الرحلة العظيمة رويدا رويدا إلى نهايتها . والسجل الوحيد (١) الذى لحسن حظنا قد حفظها لنا فى بشارة لوقا يمتاز برهبة عظيمة كما لو كان ظل النهاية المحتومة يتخلله ، وكما لو كانت كلمة « الوقت قد فات » نصف المكتومة تسمع بين ثنيات تحذيره . ونكاد نلمس فيه همس الشوق العميق الذى سبق أن عبر عنه يسوع بقوله [لى صبغة أصطبغ بها وكيف أنا محتمل حتى تكمل] . إنه كان الحزن من أجل السلام المكسور ، والخصومات الغضوبة، التى سيثيرها عمله على الارض . كان شعوره أنه يستعد ليغوص فى الآلام التي بأرادته والنيران التى اشتعلت (٢) . ويظهر أن هذا قد تملك عقول جميع الذين سمعوه فكانوا يترقبون شيئا عظيما ـ مخيفا أو مسرا حسب حالة ضميرهم ـ انتظارا جديرا ، إعلانا جديدا ، أو إظهارا لما فى أفكار وقلوب

---

١ ـ أغلب حوادث وأحاديث هذه الرحلة الواردة فى لوقا (٩ : ٥١ ـ ١٨ : ١٤) لم يذكرها باقى البشيرين وانما يتقابل الكل فى (لو ١٨ : ١٥ و مت ١٩ : ١٣ و مر ١٠ : ١٣) . فمن المعقول أن نظن أن ما دون بعد ذلك يخص زمنا بعد وقت هذه الرحلة . ويمكننا فقط أن نتخيل لماذا كتب لوقا وحده عن هذين الشهرين . ربما كان متى وبطرس (الذى أخبر مرقس) قليلى الوجود مع يسوع فى تلك الفترة إذ كانا فى عمل ارسالية مثل الذى عهد به إلى السبعين .

٢ ـ لو ١٢ : ٤٩ ـ ٤٣ .

الناس . وأخيرا تشجع الفريسيون وسألوه [متى يأتى ملكوت الله] ؟ (١) كان هناك شيء من الانتقاص والاستهزاء فى سؤالهم ، وكأنهم يقولون « متى ينتهي كل هذا الوعظ والاستعداد ومتى يجيء الوقت المحتوم ؟ » . وأظهرت إجابته أن وجهة نظرهم كانت كالمعتاد خاطئة جدا . إن مجيء ملكوت الله لا يتحقق بترقبهم الضيق الملىء بالدهشة (٢) . مسحاء كذبة وربيون مضلون سيقولون [ها هو هناك أو هنا] . ولكن ملكوت الله كان في وسطهم . بل إن كانت لهم الأرادة والفطنة لكي يعرفوا ملكوت الله ويقبلوه فهو في داخلهم (٣) . هذه الاجابة كانت كافية للفريسيين ، ولكنه أضاف لتلاميذه كلمات أخرى ليفهموا منها المعنى الأكمل لأنه حتى هم لم يتحققوا تماما أن ملكوت الله قد أتى . كانت عيونهم مشدودة للأمام فى استطلاع شديد واشتياق عميق لمستقبل زاهر . ولكن المستقبل مهما زها مجده فانهم سيشتهون بتلهف شديد ممزوج بالأسى أن يروا هذا الماضى ويتمتعوا بأيام ابن الانسان ، هذه التى فيها تنظر عيونهم وتداول أيديهم كلمة الحياة . فى ذلك الحين إن قالوا لهم [ها هو هناك ... أو هنا] فلا ينخدعوا ولا يضيعون فى قلق أو جدل لا خير فيها فرص الحياة الذهبية (٤) . لأن مجيء ابن الانسان سيكون لامعا ، فجائيا ، مخوفا ، عاما ، لا يقاوم مثل خاطف البرق . ولكن قبل هذا اليوم يجب أن يتألم ويرفض ، وفضلا عن هذا ، فان مجيئه الثانى سيومض فى انتصاف ليل دنيا حالكة الشهوات غير منتظرة مجيئه كما داهم الطوفان الناس أيام نوح. ومثل مطر النار والكبريت الذى أحرق

---

١ ـ لو ١٧ : ٢٠ ـ ٣٧ .

٢ ـ لو ١٧ : ٢٠ " بترقب " معناها الأصلى بترقب خاطىء قارن ١٤ : ١ .

٣ ـ " داخلكم " هو المعنى المنطوى على الكلمة ولكن قد تعنى أيضا وسطكم قارن رو ١٤ :١٧ و ١ : ٢٦ و ١٢ : ٣٥ وتث ٣٠ : ١٤ .

٤ ـ راجع ستير .

الفساد البراق الذى لمدن السهل ، فالويل فى ذلك اليوم للذين ينظرون بيأس وإلى دنيا لا بد أن ستحرق بالنار . لأنه حتى تلك اللحظة ستستمر كل مشاغل الحياة وكل صلات العمل أو الصداقة ، أما فى تلك الليلة فستكون فرقة مروعة .

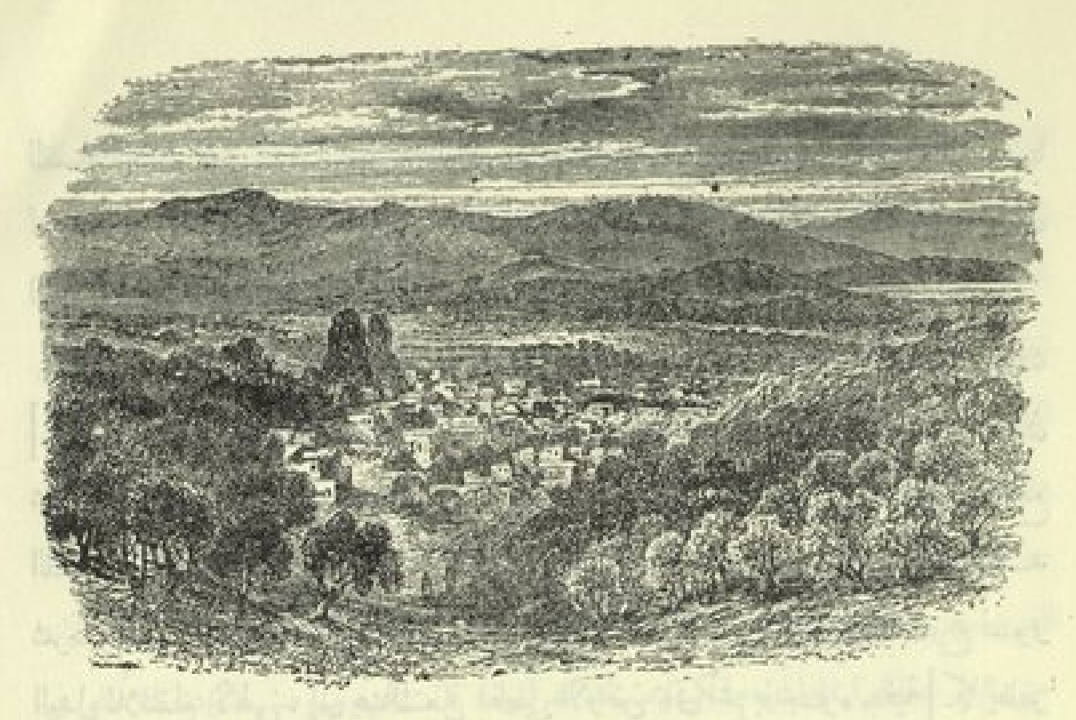
لقد اندهش وخاف التلاميذ من كلمات لها هذه المهابة والرهبة فسألوه فى خوف [فى أى مكان يارب] . ولكن « لأين » يوجد جواب ضنين مثل الذى « لمتى » . فان مجىء ابن الانسان يتشابه جغرافيا وتاريخيا . قال لهم [حيث تكون الجثة هناك تجتمع النسور أيضا] فارمجدون السرية لا يمكن تحديدها بخطوط عرض وطول . فأينما وجد شر شخصى ، وأينما وجد فساد شعبى ، وأينما وجد انحطاط عام ، فالى هناك تسرع نسور العدل للانتقام الألهى . إلى هناك من أقاصى الأرض تأتى أمم بوجوه جافية [كما يطير النسور] (١) لتمزق وتبتلع . [فراخه تحسو الدم وحيثما تكن القتلى فهناك هو] (٢) وأوروشليم ، نعم وكل الأمة اليهودية كانت تنحدر سريعا إلى الاضمحلال الناشىء من الفساد الداخلى . وقد بدأت أصوات اجنحة النقمة تضرب وحفيفها يسمع فى الهواء (٣) . كذلك عندما ينتهى العالم إلى موت وفساد مرة أخرى يسمع صوت [الأجنحة المجتمعة] .

ألم يكن التاريخ كله شاهدا عظيما لهذه النبوات الخالدة في مصير الأمم والشعوب . أما حدث أنه كما لو كان يسوع قد أتى مرارا ليخلص أو يدين ؟

---

١ ـ تث ٢٨ : ٤٩ . ٢ ـ أى ٣٩ : ٣٠ .

٣ ـ اليهود والقدماء عامة كانوا يعتبرون الجوارح من النسور . لا يمكن الأخذ بتفسير يوحنا فم الذهب ونيوكلافت القائل بأن الجثة هى المسيح والنسور المجتمعة هم القديسون . راجع عظة وردسورث عن مت ٢٤ : ٢٨ . ولكن ان رجعنا إلى أيوب ٣٩ : ٣٠ لكفى وحده لدحض هذا الفكر . قارن تث٣٨ : ٤٩ و أى ٣٩ : ٣٠ وحب ١ : ٨ وهو ٨ : ١ ورؤ ١٩ : ١٧ ـ ٢١ .



بيت عنيـــا

الفصل الخامس والأربعون

عيد التجديد

مثلثو الغبطة هم الذين حياتهم صلوات أمينه ، الذين يفنون حبهم فى الحب الأسمى . من ذا يحفظ روحه طاهرة كروحهم ؟ وأية بركة توازى التى لهم ؟ "تنسون"

لم يقض يسوع ساعات أكثر راحة وهناء فى أى مكان آخر غير ذلك المنزل الهادىء عنـــــد تلك الأسرة الصغيرة التى فى بيت عنيا التى يخبرنا

يوحنا البشير انه كان يحب جميع أفرادها . وهذه الأسرة مكونة من مرثا ومريم وأخوهما لعازر . وقد يكون صحيحا أو غير صحيح أن مرثا كانت أرملة ، وأن زوجها كان سمعان الأبرص ، وأن لعازر كان ذلك الربى الرفيق الصالح الذى جاء ذكره فى التلمود . ولكننا نرى من البشائر أن هذه الأسرة كانت على شيء من اليسر ورفعة وكرامة القدر ونباهة الذكر ، ليس فقط في القرية الصغيرة ، بل فى أوروشليم أيضا . ولا شك أن هذه الضيعة الصغيرة المنفردة الواقعة على أكمة عالية هادئة بالقرب من أوروشليم ولكن تحجبها عنها قمة جبل الزيتون ، فلا هى منقطعة تماما عن العالم العجاج ولا هى فيه - لا شك أنها كانت ذات تأثير خاص فى نفس السيد ، وبالأكثر لأن أصدقاءه بحب واحترام قد وضعوا منزلهم المقدس البهيج تحت كامل تصرفه . وإنا لنجده هناك أمسية عيد التجديد ، أى عند نهاية هذه الرحلة العلنية التى قصد بها الاعلان التام والنهائي لملكوته الآتى (١) .

من الطبيعى أن تحدث جلبة في هذا البيت الصغير عند تشريف ضيف كهذا . لذلك أسرعت مرثا المجدة المحبة المضيافة ، وقد ركزت فكرها على واجبات الكرم هنا وهناك ، تعد له لوازمه اللائقة . وكانت مريم أختها متلهفة أيضا على استقباله كما يجب (٢) ، ولكن فكرها من جهة احترامه اختلف عن فكر أختها . كانت تعلم أن مرثا تسر جدا من القيام بكل حاجاته المادية فتركتها وجلست عند قدميه لتسمع كلامه . ولا جناح على مريم فى هذا ، لأنه واضح أن أختها كانت مسرورة من العمل الذى اختارته فى اتمام أقصى ما يمكن من واجبات الضيافة والكرم ، ولأنها كانت قادرة

---

١ - يلاحظ ستير أن لوقا البشير ربما ذكر هذه الحادثة مقدما اياها عن ترتيبها الزمنى ليلقى نورا على السؤال (ماذا أعمل ؟) الذى قاله الناموسى . فان كان هذا حقا فهنا مثل واضح على أن لوقا راعى دائما وحدة المواضيع فى ترتيبه .

٢ - لو ١٠ : ٣٩ .

تماما بدون أية مساعدة على القيام بكل ما هو مطلوب . ولا جناح على مرثا فى خدمتها النشيطة ، إنما خطأها الوحيد انها في حماس نشاطها الخارجي قد فقدت ميزان سلامها الداخلى . بينما كانت تتعب وترتب أضج سلامها مس من الغيرة عندما رأت أختها هادئة جالسة « كسولة » أو كما ظنتها هى عند قدمى الضيف العظيم تاركة عبء التعب كله يقع على كاهلها . ولو أنها تريثت فى تفكيرها لكانت قد حكمت أنه كان عند مريم مقدار متكافىء من الفطنة ومحبة النفس فى تنحيها حينئذ عن الأعمال المنزلية . ولكن من الصعب أن يكون الانسان دائما نبيل العقل عادلا ، بل من المستحيل أن يكون هكذا إذا سمح لأية خلة وضيعة - كغيرة قليلة مثلا - أن تدخل . وعلى ذلك لم تمالك مرثا نفسها عندما تملكتها أول خلجة من الغيظ . وبدلا من أن تطلب برفق من أختها أن تساعدها ، ان كانت مساعدتها ضرورية حقا ، ولا شك أن مريم إذا حكمنا صدقا عليها كانت تجيب طلبها فى الحال - نراها تدخل بجفاءة (١) بما يكاد يقرب من نفاذ الصبر ، وليس بكامل الاحترام ، وتسأل يسوع إن كان لم يحفل ومريم جالسة مكتوفة اليدين بينما قد تركتها وحدها منهمكة فى سائر الأمور [فقل لها أن تساعدنى] . ولم يكن من الانصاف لو أضافت مرثا تلك الجملة العادية من سىء القول « لأنه لا فائدة أن أقول انا لها ذلك » .

إن الروح غير الكاملة التى لا ترى ما هو صالح وعظيم وحقيق ، والتي كثيرا ما تخيب فى جهد الحصول عليه ، تكون عادة قاسية فى حكمها على تقصيرات الآخرين . ولكن الروح العلوية السامية التى تقترب إلى مقياس الانسان الكامل تتخذ حكما أهدأ وألطف تجاه التقصيرات والضعفات التى لا بد أن يقع نظرها عليها كل يوم لأن القلب يكون أكثر اتساعا ، ولذلك فجواب يسوع وإن كان توبيخا إلا أنه رقيق للغاية ،

---

١ - هذا هو معنى الكلمة الأصلية فى عدد ٤٠ والتى لا يستعملها تقريبا سوى لوقا البشير لو ٢٠ : ١ و ٢ : ٣٨ و اع ٢٣ : ٢٧ قارن اتس ٥ : ٣ .

حنون للنهاية ، جواب يطهر ولا يؤلم القلب الأمين المسكين لربة المنزل المحبة هذه .
كان جوابا طبيعيا جدا الذى إذ نسمعه نتخيل الابتسامة نصف الحزينة ولكن الكاملة الحنان التى أضاءت وجهه وهو يقول [مرثا مرثا انك لمهتمة ومضطربة من أجل أمور كثيرة والحاجة إلى يسير أو واحد . أما مريم فاختارت لها النصيب الصالح الذى لن ينزع منها] .

ليس فى هذه الآية شىء مما يراه رؤساء روما من تفضيل حياة الفكر على حياة العمل ، فالأمران ضروريان ، والاثنان يجب أن يتحدا . كما يقال بحق عن بولس الرسول : « إنه في وسط جهده المتواصل كان له السلام الداخلى والتفكر الهادىء الذى لمريم » ، ويوحنا بكل ما أوتى من روح علوية مفكرة كان يعمل بنشاط مرثا ، فلم يقصد يسوع أن يوبخ أى مقدار من العمل يقدم لخدمته ولكن فقط روح الانهماك والارتباك ، والافتقار إلى الهدوء والسكون ، والمغالاة فى الضيافة . ووبخ أيضا الميل إلى مؤاخذة الآخرين والتدخل فى شئونهم ، الأمر السائد بين كثير من المسيحيين المتحمسين مثل مرثا ، والذين ينقصهم تماما رجاء مريم المقدس وهدوءها الكامل (١) .

الغالب أن بيت عنيا كانت مكان راحة يسوع أثناء زياراته لأوروشليم لأن الطريق كان يسيرا مبهجا على جبل الزيتون إلى أن يجىء إلى الهيكل [وكان شتاء](٢) .
وعيد التجديد كان يحتفل به وكانوا يقيمونه فى الخامس والعشرين من شهر سيسلو ووافق في تلك السنة كما حسبه ويزلر فى العشرين من ديسمبر . أسسه يهوذا المكابى تخليدا لذكرى تطهير الهيكل سنة ١٦٤ ق. م. ، أى لست سنوات ونصف بعد

---

١ - (مرثا مرثا إنك لمهتمة ومضطربة) كلمة مهتمة فى الأصل تعنى الانهماك الداخلى ومضطربة تعنى الارتباك الظاهرى (الحاجة إلى يسير أو واحد) هذه القراءة وردت فى النسخ 8 و ب و ل . والنسخة القبطية . ربما يكون أصلها الظن للاحتياج أكثر من شىء واحد للغذاء . وعلى أى حال فالواضح أن السيد كان يرمى إلى المعنى السامى الروحى أيضا .
٢ - يو ١٠ : ٢٢ .

تدنيسه الشنيع من أنطوخوس أيفانوس . ومثل عيد الفصح وعيد المظال كان يقام ثمانية أيام بسرور وفرح عظيم (١) . وكان يدعى باليونانية إنسفيا . وكان يدعى أيضا « عيد الأنوار » . وكانت احدى مميزاته إضاءة كل الأنوار ثمانية أيام تخليدا لمعجزة تقليدية يقال ان الزيت قد تكاثر فى إناء وجده يهوذا المكابى وكان الأناء مختوما بخاتم رئيس الكهنة . وحضور السيد فى مثل هذا العيد يقر حقوق الكنيسة فى سن نظمها وحفلاتها . ويبدو أنه نظر دون اعتراض إلى الحماس المفرح للوطنية القومية .

كان الرواق الشرقي للهيكل يسمى رواق سليمان لأنه على الأقل قد بنى من بقايا المواد التى كانت فى الأصل جزءا من الهيكل القديم (٢) . وهنا تحت الأعمدة اللامعة المزينة للعيد بالنفائس البديعة سار يسوع جيئة وذهابا ، صعودا ونزولا ، بسكون وبدون أتباع ، يتطلع أحيانا عبر وادى قدرون على قبور الأنبياء المبيضة الذين قتلهم اليهود ، ويستمتع بشمس الشتاء اللطيفة . وفجأة ، كما بحركة سبق تدبيرها ، أحاطت (٣) به طائفة الفريسيين وابتدأوا يسألونه بحماس أثاره فيهم ذات المكان الذى كان يتمشى فيه والذى يعيد إلى الأذهان ذكريات المجد التليد وربما أيضا ذكريات العيد السعيد الذى كانوا يحتفلون به تخليدا للخلاص المجيد الذى أتاه نفر قليل من الرجال الشجعان وحطموا به ظلما شنيعا . سألوه بصبر ذاهب [إلى متى تعلق أنفسنا . ان كنت أنت المسيح فقل لنا علانية] . قل لنا باخلاص ، وقل لنا الآن ، وهنا فى رواق سليمان ، ومنظر الدروع والتيجان الذهبية وأصوات الصفوف والدفوف تعيد للأذهان مجد يهوذا الأزمونى ، هل ستكون مكابيا أعظم أو سليمانا أفخم ؟ هل أشجار الليمون

---

١ - راجع هذه الحوادث فى ١مكا ٤ : ٥٢ - ٥٩ و ٢ مكا ١٠ : ١ - ٨ ولقد زينوا مدخل الهيكل بتيجان من الذهب والدروع كما شهد بذلك يوسيفوس .

٢ - يوسيفوس .

٣ - يو ١٠ : ٢٤ .

وفروع الازهار وسعف النخل التى نحملها اليوم تذكارا للنصر القديم سنحملها يوما من الأيام تمجيدا لك (١) ؟ كان حماسا غريبا عجولا له أهمية عظمى إذ يقرر دينونتهم العظمى لأنه يقرر تماما أنه تكلم كلاما وعمل أعمالا ترفعه إلى هذه المكانة لو شاء أن يعلن ذاته. ولو أنه أعلن ذاته لهم بكلمات مطولة واضحة، ولو أنه فعل ذلك بالمعنى والمقاصد التى يطلبونها، لكانوا على الأغلب حملوه ورحبوا به للتو بين ضجيج التهليل والاستحسان. فالمكان الذى كانوا يتكلمون فيه يثير أعظم الأحلام عن ملوكيتهم الغابرة، والفرصة سانحة تذكيها ذكريات حماسية عن واحد من أعظم وأشجع محاربيهم وأكثرهم انتصارا، والحال السياسية المحيطة بهم تشابه تماما التى خلصهم منها ذلك الأزمونى النبيل. فشرارة واحدة من ذلك اللهب القديم كانت كفيلة باذكاء أرواحهم المشتعلة إلى نيران من التعصب لا تقاوم بل تكتسح ولو إلى حين الرومان والهيروديين. ولكن إذ أن ساعة سقوطهم كانت قد بدأت تدق وكأس ظلمهم كانت مترعة، فما كانت مثل هذه الحركة إلا لتعجل لسنين عديدة الهلاك الشنيع الذى حل بهم أولا عندما قتلوا بالملايين لما خرب تيطس أوروشليم، وبعد ذلك عندما أبيد « المسيح الكذاب » باركوشيباس هو وكل أتباعه بفظاعة لا مثيل لها فى حصار بيت حير.

ولكن إن كان زمان الخلاص السياسى قد فات فقد أتى يوم خلاص أعلى وأعمق وأوسع وأبقى. غير أنهم للأول كانوا تواقين وللثانى رافضين. اشتاقوا من كل قلوبهم أن يتخذوا من يسوع مسيا زمنيا طائفيا، ولكنهم قاوموه بكره كابن الله ومخلص العالم. لقد أظهر لهم بأحاديثه مرارا وتكرارا أنه كان مسيا بمعنى أعظم وبروح أسمى مما كانوا يحلمون، ولكن مسيا بالمعنى الذى كانوا يطلبون لم يكن، ولم يرد أن يكون. لذلك لم يغشهم بقوله « أنا مسيحكم »، بل أحالهم على تعاليمه المتكررة التي تعلن بوضوح عن شخصيته، وعلى الأعمال التى تشهد له. لو كانوا من خرافه. وهنا يذكرهم بالحديث

---

١ ـ ٢ مكا ١٠ : ٧ .

العظيم الذى فاه به فى عيد المظال قبل هذا بشهرين - لكانوا سمعوا صوته ، ولكان قد أعطاهم حياة أبدية ، ولظلوا آمنين فى حفظه ، إذ لا يقدر أحد أن يختطفهم من يد أبيه. ثم أضاف برزانة [أنا وأبى واحد نحن] .

المعنى الذى أراده لا يمكن أن يلتبس على أحد . لم يكن هو المسيا فقط بل يقول انه الاله . ولو انه كان يقول بوحدانية مع الآب لا تعدو ذلك الاتحاد التعبدى بالايمان والطاعة مثل الذى يوجد بين كل الأرواح الطاهرة وخالقها ، لما جرحتهم أقواله أكثر من أقوال ملوكهم وأنبيائهم . ولكنهم تحققوا فى الحال أنه يعنى ما يفوق ذلك بما لا يقاس . فللوقت انحنوا ليتناولوا (١) بغضب بعضا من الحجارة الكبيرة المقدسة المبعثرة هناك لأبنية فى الهيكل لم تتم بعد . ولو أن ساعته قد جاءت لما نجا من موت عنيف كالذى أصاب أول الشهداء بعدئذ ، ولكن سلطانه غير المضطرب جعلهم يرمون سلاحهم عندما قال لهم [أعمالا كثيرة أريتكم اياها من عند أبى فمن أجل أى عمل ترجمونني] (٢) . [أجابه اليهود لسنا من أجل أى عمل حسن نرجمك بل لأجل تجديف لأنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلها] . وكانت اجابة السيد شعاعا مضيئا مثل الذى كان كثيرا يضىء به تفسير الكتب . قال [أليس مكتوبا فى ناموسكم أنا قلت أنكم آلهة] . [فان كان قد قال آلهة (٣) (الوهيم) لأولئك الذين صارت إليهم كلمة الله ولا يمكن أن ينقض المكتوب فالذى قدسه الآب وأرسله إلى العالم تقولون أنتم إنك تجدف لأنى قلت انى أنا ابن الله] . واستشهد بحياته وأعماله كبراهين لا تدحض على وحدانيته مع الآب . إن كانت عصمته من الخطايا ، وإن كانت معجزاته غير كافية لتشهد بأنه لا يمكن أن يكون المدعي المجدف الذى يودون أن يرجموه ،

---

١ - الكلمة الأصلية فى يو ١٠ : ٥٩ (تناولوا) وفى يو ٨ : ٥٩ (فأخذوا) .
٢ - ترجموننى) الكلمة الأصلية معناها الحرفى (أنتم ترجموننى) .
٣ - مز ٨٢ : ٦.

فأى براهين أخرى يمكن أن تقدم ؟ كانوا يدينون بالوحدانية المحصورة دارجين على أن يفكروا بأن الله بعيد بعدا لا نهائيا عن الانسان ، مع أنه كان واجبا أن يعلموا من الناموس والأنبياء إن الله قريب من فم ومن قلب كل الذين يحبهم ، بل أنه يمنحهم حلولا نورانيا من مجده الأبدى . ألم يكن هذا دليلا على أن من أتى ليكمل الناموس ويسن بدلا منه ناموسا أفضل ، من شهد له من قبل جميع الأنبياء ، من أعد يوحنا الطريق أمامه ، من تكلم بما لم يتكلم مثله انسان ، من عمل أعمالا لم يأت بنظيرها شخص منذ تأسيس العالم ، من برر كل أقواله وأعطى قوة لكل أعماله بجمال لا عيب فيه لحياة لا غبار عليها . ألم يكن هذا دليلا على أنه كان صادقا عندما قال إنه والآب واحد وانه ابن الله ؟

كان دفاعا لا يقاوم ، فلم يجرأوا أن يرجوه . ولكن لأنه كان وحيدا وبلا سلاح ، [فطلبوا أيضا أن يمسكوه] ولكنهم لم يجسروا . مجرد وجـــوده أخافهم . وكل ما استطاعوه أنهم أفسحوا له طريقا وألقوا عليه نظرات البغضاء ، وهو يجتاز بينهم . لم يتبق شك أن أى تعليم بينهم يذهب هباء . ما كان ممكنا أن ينزل إلى مستوى أفكارهم عن المسيا ، كما لم يقدروا أن يسموا بأفكارهم إلى مستواه . فبقاؤه بينهم معناه تعريض حياته للخطر يوميا بدون جدوى . وها قد صارت اليهودية مغلقـــة أمامه كما كان الجليل مغلقا أمامه أيضا ، ولم يبق سوى اقليم واحد فى كل ارض موطنه مأمون العاقبة . وذلك الاقليم هو البرية عبر الأردن . فولى وجهه شطر بيت عنيا الثانية (١) التى فى عبر الأردن حيث كان يوحنا يعمد أولا ومكث هناك .

ولا نعلم كم بقى هناك ، ولا الحوادث التى وقعت إذ ذاك . ولكننا نعلم أن بقاءه هناك لم يكن فى خفية لأن يوحنا البشير يخبرنا أن كثيرين أتوا إليه (٢) وآمنوا به ،

---

١ ـ المشهورة بيت عبرا .

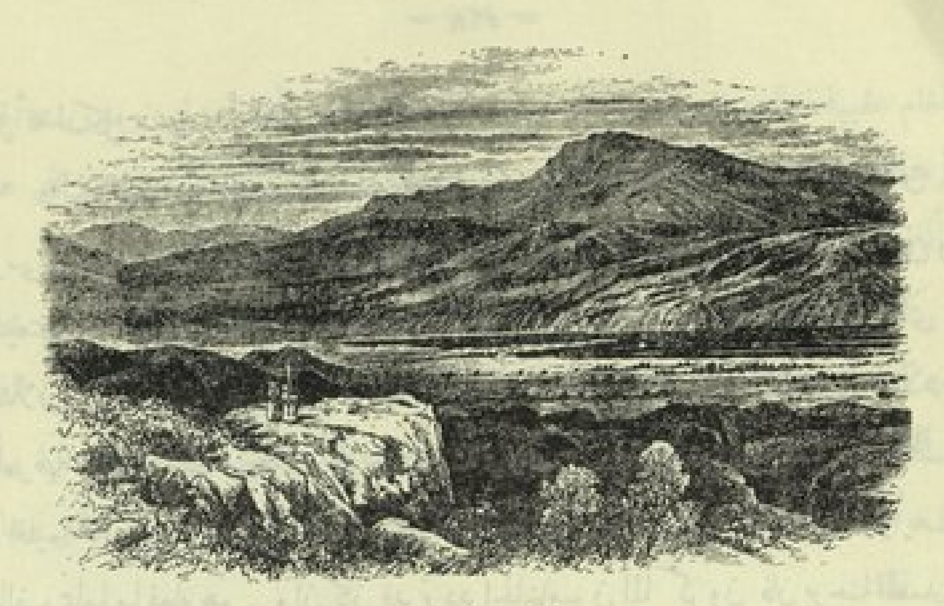
٢ ـ يو ١٠ : ٤١ و ٤٢ . راجع ما كتب عن بيت عنيا سالفا .

وأقروا أن يوحنا الذى كان عندهم مثل نبي مع أنه لم يعمل آية واحدة قد شهد عن يسوع في نفس هذا المكان وأن [كل ما قاله عنه فهو حق] .



صورة للسيد (*)

* هذه صورة نصفية مكبرة مرتين عن الأصل مأخوذة عن زمردة خضراء وتظهر بوضوح فن القرن السادس وتمثل السيد بوجه كامل مرتديا قيصا وعباءة ويده اليمنى كالعادة مرفوعة بالبركة ويساره تحمل كرة رمزا لسلطانه على كل الأرض. والحروف الجانبية اختصار ايسوس خرستوس أى يسوع المسيح . والحروف التى على أذرع صليب البهاء خلف رأسه تعنى (الكائن والذي كان) رؤ ١ : ٨ .



تلال جلعاد

الفصل السادس والأربعون

الزيارة الأخيرة للبرية

(في وقت المساء يكون نور)
زك ١٤ : ٧

أينما كانت كرازة السيد علنية ولو إلى حد ضئيل كنت تجد دائما فريسيين يراقبونه ويتجسسون عليه ويجتهدون أن يمسكوا عليه حكما خاطئا أو قرارا مريبا . ولكن ربما لم يخترع خبثهم سؤالا تحوط اجابته المصاعب الجمة مثلما أتوا [ليجربوه] قائلين [هل يحل للانسان أن يطلق

امرأته لكل ذنب ؟] (١)

والسؤال مفعم بالصعوبات من كل ناحية . ولأسباب متعددة أولا لأن أمر موسى فى الموضوع كان معلنا بغموض وإبهام وتعقيد مما أفضى إلى اختلاف فى رأى الشيعتين المهمتين الشاملتين للحاخاميين . واختلاف الرأى بين المدرستين أدى إلى اختلاف فى العادات القومية . وثانيا لأن الاختلافات اللاهوتية والحاخامية والأدبية والعرفية قد تعقدت وتفاقمت بالاختلافات السياسية . فالحاكم الذى سئل هذا السؤال في اقليمه كان يهمه الجواب ، وقد سبق أن قتل أعظم الأنبياء لجرأته فى ابداء رأيه الذى يخالف تماما ما فعله هو . وإن كان قد تردد الحاخاميون الماكرون فان يوحنا المعمدان ، على الأقل ، لم يترك أى ظل من الشك فى تفسير ناموس موسى ، وقد دفع ثمنا لصراحته فدية الموت .

كان تشريع موسى أنه [إذا اتخذ رجل امرأة وتزوج بها فان لم تجد نعمة فى عينيه لأنه وجد فيها عيب شيء (باللغة العبرانية إرفت دابهور أى مسألة عرى) وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته ومتى خرجت من بيته ذهبت وصارت لرجل آخر] (٢) . والآن يتوقف كل شيء فى تفسير هذا القانون على معنى « ارفت دابهور » أو على الأصح على تفسير الكلمة الواحدة إرفت . المعنى الشائع هو وصمة أو دنس أو نجاسة . ولكن هلليل ومدرسته قد فسرها بأن « الرجل يمكنه تطليق امرأته لأى كراهية يشعر بها نحوها » (٣) . أو كما نجرأ

---

١ - مت ١٩ : ١ - ١٢ و مر ١٠ : ٢ - ١٢ .

٢ - تث ٢٤ : ١ كلمة ارفث دابهور معناها حرفيا " عري شيء " قارن تث ٢٢ : ١٣ - ٢١ .

٣ - (لكل ذنب) الواردة فى مت ١٩ : ٣ ترجمة " كول دابهور) التى كان يتمسك بها هلليل راجع بكستروف ويوسيفوس وقارن ابن سيراخ ٢٥ : ٢٦ .

الحاخام عقيبة فقال « ان رأى امرأة تسره أكثر » (١) . أما شماى ومدرسته فقد فسرها بعدم جواز الطلاق إلا لعلة فضيحة عدم الأمانة . ولذلك كان ينطبق فى هذه المسألة كما فى كثير غيرها المثل الذائع بين اليهود « بحل هلليل ما يربطه شماى » .

كان شماي على صواب أدبيا وعلى خطأ تفسيريا . وهلليل على عكسه كان محقا تفسيريا مخطئا أدبيا . كان شماى على صواب لأنه رأى أن روح ناموس موسى الذى سن الطلاق جعله مباحا فقط فى حالة عيب الدنس . وكان هلليل على صواب إذ رأى أن موسى قد ترك بابا للطلاق فى حالة العيب المدنى أى فى أحوال تقل نوعا ما عن تلك .

فى وسط هذه الظروف كانت مناصرة إحدى المدرستين إساءة قاتلة للأخرى ، إما استفزاز كراهية الغالبية المرنة أو عداوة الأقلية المتعقلة . لأنه فى ذلك الجيل الشرير كما إلى وقتنا هذا عند يهود الشرق ساد تعليم هلليل . وكان هذا فى الحقيقة منحى الفكر الشائع في ذلك الزمان . أما فى عالم الوثنية وخاصة عند الرومان فقد كان الرباط الزوجي مرنا لدرجة مخزية . فبينما قد مضت أجيال زمان الجمهورية بدون حادثة واحدة لطلاق لعلة الزنا فقد كان الطلاق فى زمان الامبراطورية هو القاعدة والأمانة الزوجية هى الشذوذ عن القاعدة . مضت أيام فرجينيا ولوكراتي وكرنيليا ، وكان هذا عهد جولياس وبوبياس ومسيلناس وأغريبنتا ، العهد الذى قال عنه سنيكا « إن النساء يحسبن السنين لا بأعوام القناصل ولكن بعدد أزواجهن المطلقين » . وقلد اليهود هذه العادة المخزية . وإذ أن تعدد الزوجات كان قد انتهى عهده فقد

---

١ ـ أما تفاسير باقى الحاخاميين فمخجلة . مثلا " ان غزلت علانية ـ ان مشت برأس عارية ـ إن زادت ملح الحساء " ولكن المفسرين الحديثين قد تنصلوا عن هذه الأمور . فلا غرو ان كانت نتائج هذا التشريع سيئة حتى لقد ذكر فى " باب جوماه " ان الحاخام ناثمان كلما ذهب إلى بلد ليقيم فيها فترة قصيرة كان يرسل مناديا فى طلب زوجة مدة مكثه فيها .

توصلوا إلى ما يقر به بسهولة إبدالهم زوجة بأخرى (١) . وحتى يوسيفوس ، الفريسى من الفريسيين ، والذى فى كل مناسبة يعزو لنفسه اخلاق ومكانة الرجل التقى الصالح ، يذكر دون أى ظل من الخجل أو الاعتذار أن زوجته الأولى قد تركته ، وانه طلق الثانية بعد أن أنجبت ثلاثة أولاد ثم تزوج بثالثة . ولكن إن ناصر يسوع رأى شمالى - وكانت كل تعاليمه السالفة قد جعلت الفريسيين يتأكدون أنه سيفعل هكذا تجاه هذا السؤال - فانه يكون معلنا ما يقول به الرأي العام أن هيرودس أنتيباس زان مضاعفا لأنه زان قد تزوج بزانية زواجا زنائيا .



سفر ناموس قديم

أما يسوع فما كان أبدا يسترشد فى إجابته أو يحتاط بقواعد الضرورات

١ - لا زال الطلاق شائعا بين يهود الشرق وحدثت سنة ١٨٥٦ ستة عشر حالة طلاق بين اليهود القليلين الموجودين فى أوروشليم . وفى الواقع يطلق اليهودى امرأته فى أى وقت شاء ولأى سبب . وهو الحاكم فى هذا وحده والعائق الوحيد - لمنع وقوع الطلاق فى نوبة سوداء مفاجئة - هو وجوب تصديق ثلاثة حاخاميين على الطلاق الذى يجب أن يكتب على ورقة مسطرة لا تحوى لا أزيد ولا أقل من اثنى عشر سطرا وتعطى فى حضرة عشرة شهود .

أو ظروف المناسبات ، وفى حكمه ما كان يهتم لا بغضب الجموع ولا بسخط الظالم على السواء . بل كان همه الوحيد أن يجيب حتى أمثال هؤلاء السائلين بما يرفعهم إلى دوائر النبل والسمو . ولو كان سؤالهم [هل يحق] سؤال إخلاص لكان الرد قد شمل الاجابة عليه . لا يحق شيء لانسان إن ارتاب فى أحقيته . ولكن لم يجاوبهم رأسا بل أرشدهم إلى النبع الذى يجدون فيه الجواب الحق . وضع أمامهم جنبا إلى جنب النظام الأولى وترتيب موسى ، وقابل سؤالهم [هل يحق] بسؤاله [أما قرأتم] . ذكرهم أن الله من البدء قد خلقهما ذكرا وأنثى ، مظهرا أن ارادته هى أن علاقة الزواج أشد العلاقات ارتباطا وعدم فكاك (١) ، وانها تتقدم وقد تعلو عن كافة ما سواها .

وإذ أرادوا أن يصطادوه بمخالفة للناموس النارى سألوه [إذا لماذا أوصى موسى أن يعطى كتاب طلاق فيطلقن] ؟ وهذا السؤال ينطوى على منحى كاذب كثير الذيوع بين الذين يعبدون الحرف . وعلى هذا المنحى الكاذب لمرمهم المقلوب يضعون استنتاجات أشد زورا ونكرا . فى الحال صحح يسوع خطأهم قائلا [من أجل قساوة قلوبكم أذن موسى أن تطلقوا نساءكم ولكن من البدء لم يكن هكذا] . ثم أصدر حكما قانونيا بدون خوف ضد هيرودس أنتيباس - بدون أن يذكر اسمه - فى لغة شديدة [ان من يطلق امرأته بغير علة الزنى يجعلها تزنى ومن يتزوج بمطلقة يزنى] . ومسألة هيرودس كانت أحط مثل لهذين النوعين من الزنى . لانه بينما كان متزوجا بزوج طاهرة غير مطلقة قد تزوج امرأة آثمة مطلقة ، ثم هى زوجة هيرودس فيلبس أخيه ومضيفه . وقد فعل ذلك بدون وجه لمعذرة ما ، ولكن إجابة لشهوة مجرمة إذ كان شبابه وشبابها قد وليا .

لو أراد الفريسيون أن يتخذوا من حكمه هذا ذريعة للايقاع بين أنتيباس ويسوع واستنزال مصير يوحنا عليه لقدروا . ولو اختاروا أن يهيجوا عليه أتباع مدرستى

---

١ - تك ٢ : ٢٤ .

هلليل وشماى على السواء لقدروا إذ أظهر أن كليهما مخطيء. تعاليم هلليل لقصورها الخلق وتعاليم شماى لقصورها فى التأويل الدينية. ولكنه في الوقت ذاته أفاض نورا قويا على صعوبات التقنين الموسوى مظهرا انه كان لظروفه وليس نهائيا، وقتيا وليس مخلدا. وما كان اليهود من أتباع هلليل يحسبونه أمرا إلهيا يفخرون به كان على العكس شرا لا بد منه أذن به للحياة الجسمانية وليس للضمير المستنير أو القلب الطاهر. وكان فى الحقيقة شهادة على قساوة قلوبهم وفساد حالهم (١).

وقد ارتبك الفريسيون واحتاروا، وشملهم الخزى كالعادة، ووجدوا أنفسهم تجاه حكمة أعلى بما لا يقاس مما لهم وفطنة الهية أسمى مما عندهم، فرجعوا ليبحثوا ويفتشوا عن شباك جديدة ماكرة ولكن محتوم أيضا خذلانها. ولا شيء يظهر أهمية وجوب تعاليم المسيح هذه أكثر من أنها أدهشت بل أحزنت تلاميذه أنفسهم. لأنه فى ذلك العصر الرديء الذى تفشى فيه الفساد وانحط فيه الزواج إلى درجة من الاحتقار وعدم الاعتبار فى روما حتى اضطروا لسن قوانين تفرض ضريبة على العزاب رأى تلاميذ السيد فى تعاليمه الطاهرة أمرا قاسيا حتى ان عدم الزواج ظهر لهم أفضل. وقد أفصحوا عن رأيهم هذا بمجرد ما انفردوا معه فى المنزل. فأى ضربة قاضية كانت وجهت لسعادة الحياة وإلى أخلاق العالم لو أن السيد أقر قرارهم العجول بصفة عامة. وأى دليل عجيب على ألوهيته بينما كان كل معلم أخلاقي عظيم قد نطق أو أقر أكثر من تعليم خطر قاتل شديد الفعل فى تسميم الحياة وسلام الأمم فان جميع كلمات يسوع المسيح كانت كاملة النفع إلهية الطهارة. لم يعط جوابه للزيجة مقاما أقل يضطرب من جرائه ضمير ملايين ممن قد بورك زواجهم من السماء (٢). رفض أن يمنح العزب تزكية عامة، بل

١ - راجع تث ١٠ : ١٦ و اش ٤٨ : ٤ و خر ٣ : ٧ الخ. ومع ما قاله يسوع فى هذا الصدد يعتبره جيجر وبعض النقاد انه حاخامى من مدرسة هلليل لم يعلم شيئا أوليا من عندياته!! فيا للمغالطة

٢ - قارن التأثير القاتل الذى وقع على ملايين من أتباع بوذا إلى يرمنا هذا من جراء تفضيل سكايامونى للرهبنة التصوفية.

قرر أن عدم الزواج غير موافق لجميع الناس عدا الأقلية النادرة . فالبعض لايصلحون للمضجع الطاهر لظروف ولادتهم أو بنيتهم (١) ، والبعض لا يصلحون لما نالهم من جراء العبودية الظالمة الغشومة التي كانت دائمة بكل قساوة شناعتها . والبعض أبعدوا ذهنهم عن فكرة الزواج لأسباب دينية أو أغراض أخرى سامية . ان واجب بعض الناس أن يتزوجوا ويخدموا الله وهم في الزيجة . وواجب غيرهم ألا يتزوجوا ويخدموا الله في بتوليتهم . وليس في كلمات يسوع هذه شيء من الصعوبات والاختلافات التي يراها بعض المفسرين . وخير ايضاح لها هو ما جاء في الاصحاحين السابع (٢) والتاسع من الرسالة الأولى إلى الكورنثيين . وما عناه السيد هو أنه إلى جانب الحالات النادرة التي لا توجد فيها المقدرة الطبيعية على الزواج فانه يوجد قليلون . وعلى هؤلاء فقط ينطبق قول الرسل ـ يعتقدون أنه نظرا « لأزمنة خاصة أو ظروف ماسة أو لمناسبة واجبات خطيرة هامة بدعوة علوية » فالزواج بحكمة وحق يجب أن ينحى جانبا لأنهم قدمنحوا من الله موهبة ونعمة العفة وقوة حياة الطهارة الناجمة من عقل قد تقدس وصار نبيلا لتوفره على خدمة روحية خاصة .

ثم ملاحظة جميلة مؤثرة على أن الزواج مكرم في كل شيء والمضجع غير دنس وهي أن يسوع قد عمل ما غذى خيال كل شاعر ورسام في كل جيل . فذاك الذي من أوائل أعماله أنه بارك حفلة عرس جعل من أواخر أعماله أن يحتضن الأطفال بين ذراعيه . ويبدو أنه قد عرف في البرية أن موعد ارتحاله قد حان لذلك أحضر إليه آباء

---

١ ـ مت ١٩ : ١٠ ـ ١٢ .

٢ ـ من المؤسف جدا أن أوريجانوس أعظم المفسرين قد تمسك بحرفية هذه الآية وخفى نفسه . بينما تعاليم كثيرة للسيد كانت يجب أن توضح له خطأ تعديه على نظام خليقة الله وان هذا ليس بالعاصم عن الشهوات الرديئة أو الخطية اللحمية . ولقد عاش هذا الرجل العظيم ليرى ويعترف أنه في هذا قد أخطأ بنبل ـ بنبل لأن خطأ العقل كان مقترنا بعوامل غاية في الحماس، منبعثة من قلب كامل التضحية .

وأمهات وأصدقاء ثمر المضجع الطاهر ، أولادا بل أطفالا صغارا (١) لكي يضع يديه عليهم ويباركهم . أرادوا أن يودعوه وداعا رزينا قبل أن يتركهم نهائيا . أرادوا أن يربحوا وثيقة بركته الخاصة للجيل الآتى . لكن التلاميذ ظنوا أن عملهم هذا جرىء فضولى . لم يشاءوا أن يزحموا السيد دون جدوى ويتعبوه ، أو يشوشوا عليهم فى أثناء أحاديثهم العالية . وعز عليهم أن يأتى عدد من النسوة والأطفال ويحشروا ذواتهم بين أشخاص وأعمال هامة (٢) . وما كانت النساء مكرمات ولا الأطفال محبوبين في القديم كما هو الآن ، ولم تكن تحيطهم هالة الحنان والتقدير ، بل أحيانا كثيرة كانوا معرضين لقسوة خاسئة واهمال شنيع . ولكن ذاك الذى أتى ليكون صديقا لكل الخطاة ونصيرا لكل المرضى والمتألمين أتى أيضا ليعلو بالمرأة إلى مركزها اللائق . أتى لكي يكون صديق الطفولة التى لا حول لها والحافظ الأمين للصبوة البريئة حتى ان الصغار الذين لا يعقلون يجب أن يقبلوا في كنيسته بسر العماد ليصيروا أعضاء له وورثة لملكوته. وأعاد توبيخ الرسل إليهم ، واستاء منهم بقدر استيائهم من الأطفال وآبائهم ، وقال لهم كلمات حفظها لنا البشيرون بكل حنانها الخالد [دعوا الأولاد يأتون إلى ولا تمنعوهم من أن يأتوا إلى لأن لمثل هؤلاء ملكوت السموات] . وضمهم إليه ووضع يديه عليهم وباركهم وكرر التحذير الذى نحتاج إليه دائما ، ولذا أنذرنا به مرارا [إن لم ترجعوا وتصيروا مثل هذا الصبى فلا تدخلون ملكوت السموات] .

عندما انتهى هذا المنظر الجميل التعليمى العميق يخبرنا متى البشير أنه مضى ربما فى رحلته إلى بيت عنيا الثانية كما سيذكر فى الفصل القادم . وفى الطريق حدثت حادثة أخرى ارتسمت عميقا فى عقول ناظريها ودونها ثلاثة من البشيرين .

شاب غنى جدا وذو مركز عال يبدو أنه قد تملكته فجأة فكرة انه قد أهمل

---

١ - الكلمة الأصلية تعنى " الأطفال الصغار " و لو ١٨ : ١٥ تعنى " مواليد " .

٢ - قارن رفض المرأة الشونمية من جيحزى ٢ مل ٤ : ٢٧ .

حتى ذاك الوقت فرصة لا تعوض ، وأن الشخص الوحيد الذى فى مقدرته أن يفسر له معنى الحياة الحقيق وسرها كان مزمعا أن يفارقهم . فاعتزم ألا يفوته الوقت فأتى مسرعا متلهفا متحمسا على صورة أدهشت كل من رآه ورمى نفسه تحت قدمى يسوع وصرخ قائلا [أيها المعلم الصالح أى صلاح أعمل لأرث الحياة الأبدية] .

إن كان هناك شىء شيق في التواضع الممتزج بالحماس لهذا الشاب الحدث المتاز فقد كان فى سؤاله الشىء الكثير مما يؤاخذ عليه . لأن فكرته أن يستطيع أن يرث الحياة بصلاح يعمله مبنية على أساس خاطىء من أصله . وإذا مزجنا القراءة الأصلية الواردة فى متى مع ما جاء فى البشائر الأخرى لظهر أن اجابة السيد كانت هكذا [لماذا تسألنى عن الصلاح (١) . ولماذا تدعونى صالحا . لأن الصالح واحد وهو الله]. لم يقبل لقب « الصالح » كما لم يقبل لقب المسيا عندما أعطى له على غير معناه الحقيقى . لم يشأ أن ينظر الشاب إليه « كحاخام صالح » كما كان كثير من الناس يحطون من قدره وينظرون إليه هكذا . فأظهر له أنه وقد أتى إليه - وهو أعلى من انسان . فخطابه كله كسؤاله كله كان خطأ . لايقدر مجرد انسان أن يبنى أساسا غير الموضوع . لقد أخطأ هذا الشاب الغنى فى اعجابه بيسوع كأنه حاخام متناه فى القداسة . فلم يكن من المتبع أن يطلق على حاخام مهما تسامى فى الطهارة لقب [الصالح] . وأخطأ في طلبه أن يصف له ما يحفظ الحياة فى فضيلة . لكن يسوع أضاف قائلا له بنفس الروح [ولكن ان كنت تريد أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا] .

لم يكن الشاب ينتظر إجابة بسيطة ظاهرة مثل هذه . لم يستطع أن يدرك أن السيد يقول عن الوصايا العشرة ولذا سأله بدهشة قائلا [وما هى ؟] وإذ كان الشاب يريد أن يعمل شيئا أحاله يسوع على الوصايا المكتوبة فى اللوح الثانى لأنه كما لاحظ

---

١ ـ من المهم ملاحظة أن لقب " المعلم الصالح " غير معروف بالمرة عند اليهود ولم يرد بتاتا فى التلمود (لاتيفوت) ولذلك كان نشازا ظاهرا فى استعمال الشاب له .

بعضهم بجمال « ان يسوع كان يرسل المتكبرين للناموس بينما يدعو المتواضعين للانجيل » . فقال الشاب متعجبا [هذه كلها حفظتها منذ حداثتى] (١) ولا شك أنه يجوز أن يكون قد حفظها حرفيا - كما حفظها ملايين - ولكن واضح أنه كان يعلم قليلا عن معنى هذه الوصايا كما فسرها يسوع . والسيد إذ رأى إخلاصه نظر إليه وأحبه (٢) وقدم له اختبارا قصيرا يفحص دخيلة نفسه . لم يقنع الشاب بالأمور العادية بل كان يبحث وراء الأمور العالية أو على الأقل افتكر كذلك فأعطاه يسوع عملا عظيما ليعمله وقال له [يعوزك شىء واحد . اذهب وبع مالك واعطه للفقراء .... وتعال اتبعنى]

كان هذا كثيرا . ومضى الشاب الحاكم مغموما والاكتئاب يملأ قلبه وسحابة حزن تقطب جبهته (٣) لأنه كان ذا قنية كثيرة . ففضل راحة الأرض على كنوز السماء ولم يرد أن يشترى أشياء الأبدية بترك الأشياء الزمنية ، فأقدم على ما أسماه الشاعر دانت « الرفض العظيم » ، واختفى من تاريخ الانجيل ولم يذكر البشيرون عنه شيئا بعد ذلك . ولكن تبعه خيال الشاعر القوى : « ورأى بين الملايين الذين تذريهم الرياح مثل الأوراق المتساقطة الخريفية وترميهم على تخوم الدنيا الأخرى ، يتبعون بعمى تلويح علم الشر الممرض ، مرفوضين من السماء ، محتقرين حتى من جهنم ، مكروهين من الله ، مبغضين حتى من أعداء الله - رأى بينهم شخص ذلك الشاب الذى دفعه الجبن على

---

١ - عندما أتى ملاك الموت ليأخذ روح الحاخام شانينا قال له " اذهب واحضر كتاب الناموس وانظر ان كان فيه شيئا لم أحفظه " ! (فيلو المؤرخ اليهودي) .

٢ - مر ١٠ : ٢١ والكلمة الأصلية معناها قدره . ولكن تعريف الفعل جعلها تعنى "سر به" قال أوريجانوس " سر به جدا وقبله " . وكانت القاعدة أن يقبل المعلم رأس التلميذ إذا جاوب حسنا ولكن هنا لا تدل الكلمة على شىء من هذا .

٣ - فى مت ١٩ : ٢٢ " حزينا " وفى مر ١٠ : ٢٢ " عبس " قارن أيضا مت ١٦ : ٣ و لو ١٨ : ٢٣ .

أن يقدم على الرفض العظيم » .

ولكنا نرغب أن نعتقد - أو يجب أن نعتقد - أن نهاية أفضل انتظرت من عندما نظر إليه يسوع أحبه . ولكن سقوط هذا الشاب فى الامتحان الذى وضعه له يسوع أحزن السيد فنظر إلى تلاميذه وأظهر [كيف أنه يعسر على ذوى الأموال الدخول إلى ملكوت الله] .

وقد وقعت الكلمات على آذانهم وقعا صعبا جدا حتى ارتاعوا وفكروا : ألا يمكن أن يكون الرجل المقبول غنيا ، أو يستحيل أن يكون الغنى مقبولا ؟ ولكن يسوع أجابهم وهو يخفف من شدة وألم كلماته باستعمال اللقب المحبب [يا بنى] . [يا بنى كيف أنه يعسر على ذوى الأموال الدخول إلى ملكوت الله] (١) . ثم أضاف بنظرة اشفاق للتلاميذ - كما يستخلص من انجيل متى - [انه يسهل دخول جمل فى ثقب ابرة من أن يدخل غني فى ملكوت الله] (٢) . ولا شك أن الدهشة قد بلغت بهم أقصى حد . ألا يوجد اذن رجاء لنيقوديموس أو ليوسف الرامى ؟ إن تعاليم يسوع عن الغنى تبعد جدا عن الأبيونيين (٣) ، كما أن تعاليمه عن الزواج تبعد عن

---

١ - فى حالة " متكلين " على أموالهم يكون الأمر مستحيلا لا عسيرا . حقيقة إن الاتكال على المقتنيات لا امتلاك المقتنيات هو ما يجعل دخول الملكوت عسيرا . ولكن حتى الناقد لوسيان عرف أن هناك دائما خطرا مستديما لمن يمتلكون الأموال إذ يتكلون عليها .

٢ - بعضهم يفسر " دخول جبل فى ثقب ابرة " محرفين (جمل) إلى (جمّل) بتشديد الميم ولكن هذا ظاهر الخطأ . وورد فى التلمود دخول فيل فى ثقب ابرة . أما تفسير " دخول الجمل المحمل من الفتحات الصغيرة التى فى أسوار المدن بعسر فهو تفسير فى حد ذاته جميل ولكن يحتاج إلى برهان (المعرب) لا زالت هذه الفتحات فى أورشليم تسمى " ثقب الابرة " وأعتقد أن هذا التفسير هو الأقرب .

٣ - الابيونيون : (المعرب عن القاموس) هى شيعة يهودية مسيحية أفرزت نفسها عن الكنيسة الجامعة إلى عهد ايرينيموس . تمسكت بناموس موسى وأنكرت رسولية بولس وميلاد يسوع عجائبيا .

الأسينيين (١) . ولكن الأشياء المستحيلة في الطبيعة هينة للنعمة ، وما هو غير مستطاع عند الناس مستطاع عند الله .

وحينئذ أجاب بطرس ربما مقرا أو ربما يائسا [هوذا نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك فماذا عسى أن يكون لنا] ؟ أي فائدة نجتنيها (٢) ؟ كانت اجابة يسوع تشجيعا كاملا وفي الوقت ذاته تحذيرا رهيبا . أما التشجيع فبأعلانه أنه ما من حالة تضحيـــة إلا وتكافأ حتى في هذا الدهر وحتى في وسط الاضطهادات بمائة ضعف من البركات الروحية وتعوض في الدهر الآتي بالحياة الأبدية . وأما التحذير فقد سبق أن سمعوه وهو أن أولين كثيرين سيكونون آخرين وآخرين أولين . ولكي يثبت في أعماق قلوبهم أن ملكوت السموات ليست مسألة تجارية أو معادلات حسابية ، وأنه ليست هناك مساومات مع رب البيت السموي بل أمام عينيه الفاحصتين الحادتين يوم الدينونة قد تتقدم الأمم على اليهود والعشارون على الفريسيين وخطاة حديثي الايمان على رسل قديمي العهد - ضرب لهم مثل رب الحقل وفعلة الكرم الذي يتضمن بين تعاليمه المتعددة الحقيقة الصادقة أنه بينما لا يحرم جميع الذين يخدمون الله من مكافآتهم الحقة الكاملة فانه لا يوجد في السماء لا تفمقم ولا حسد ولا غيرة في تفاضل الاستحقاقات ، ولا جهاد وضيع وتقاتل على الأسبقية ، ولا اختلافات خاسئة عمن أدى أعظم الخدم أو من نال أقل النعم .

---

١ - الأسينيون : (المعرب عن القاموس) شيعة يهودية قليلة تمسكت بالزهد وشيوعية الممتلكات .

٢ - رمز الاثنى عشر عرشا تمشى مع رجاء تلك الأيام عن " رد الأشياء " راجع اش ٤٢ : ٩ و ٦٥ : ١٧ و رو ٨ : ١٩ و رؤ ٢١ : ١ وقارن ١ كو ٣ : ٢٢ و ٢ كو ٦ : ١٠ .



طريق بيت عنيا

الفصل السابع والأربعون

اقامة لعازر

(ولى مفاتيح الهاوية والموت)
رؤيا

هذه المقابلات والتعليمات الوداعية ربما قد وقعت أثناء اليومين اللذين كان فيهما يسوع مقيما فى بيت عنيا البرية بعد أن وصلته من بيت عنيا

الأخرى التى كثيرا ما وجد فيها يتنا الرسالة المحزنة [ها ان الذى تحبـه مريض] (١) .
وكان لعازر هو الصديق الشخصى الحميم والوحيد خارج دائرة الرسل . وكانت الرسالة المستعجلة التماسا ظاهرا لحضور ذاك الذى فى حضرته - كما نعلم - لم يحدث أن مات أحد .
ولكن يسوع لم يحضر ، واكتفى - وقد شغله عمله المهم - بأن بعث بهذه الاجابة : [هذا المرض ليس هو مرض الموت بل لأجل مجد الله] . ثم أقام في الموضع الذى كان فيه يومين آخرين ، وفى نهايتهما قال لتلاميذه : [لنذهب إلى اليهودية أيضا] . فذكره تلاميذه كيف أن اليهود قد فتشوا عنه هناك ليرجموه وسألوه كيف يجسر أن يذهب إلى هناك أيضا . ولكنه أجابهم أنه يمكنه أن يسير فى اطمئنان في ساعات يوم عمله الاثنتى عشرة لأن نور واجبه الذى هو إرادة أبيه السموى يحفظه من الخطر . وحينئذ أخبرهم أن لعازر نام وانه ذاهب ليوقظه . قد تذكر على الأقل ثلاثة منهم كيف أنه فى موقف خالد آخر قد تكلم عن الموت كأنه نوم ، ولكن إما أنهم سكتوا بينما تكلم رسل آخرون ، وإما أنهم كانوا ثقيلى القلوب فلم يذكروا . وإذ فهموا أنه يتكلم عن النوم الطبيعى اضطر أن يفصح لهم أن لعازر قد مات ، وانه يفرح لذلك من أجلهم لأنه سيذهب ليرده إلى الحياة . فقال توما المحب ولكن القانط دائما : [لنمض نحن أيضا لكي نموت معه] ، كما لو كان قد قال « انها مجازفة غير مجدية وخطرة لكن على أى حال لنذهب » .

وبدأ يسوع فى الصباح الباكر . ومن السهل قطع المسافة - وهى نحو عشرين

---

١ - يو ١١ : ١ - ٤٦ . الكلمة فى عدد ٣ تعنى " الذى تحبـه أنت " . ولم تستعمل هذه الكلمة إلا مرة للتلميذ الذي كان يسوع يحبه ، بينما فى عدد ٥ تستعمل الكلمة التى معناها الأصلى " يهتم بهما " قيلت عن الشقيقتين . ونلاحظ أن فى ثلاث مرات من الأربع التى قيل فيها " التلميذ الذى كان يحبه " استعملت الكلمة " يقدره " . وفى المرة التى استعملت كلمة " يحبه " كتبها البشير عن لسان غيره .

ميلا - قبل غروب الشمس . ولكن عند وصوله مكث خارج القرية الصغيرة . فقربها من أوروشليم - إذ لا تبعد عنها سوى ميلين (١) - ومكانة العائلة وغناها قد استدعيا عددا كبيرا من عظماء اليهود ليعزوا الأختين ويشاركوهما الأحزان . فكان من الواضح وجوب العمل باحتراس بين هؤلاء الأعداء الألداء . بينما كانت مريم - كما هو خلقها الهادىء المفكر - جالسة في المنزل غير عالمة بمجيء السيد (٢) كانت مرثا الأكثر نشاطا قد أتاها خبر اقترابه وذهبت فى الحال لمقابلته . لقد مات لعازر فى نفس اليوم الذى فيه وصلت ليسوع الرسالة أنه مريض . ومضى يومان مكثهما فى البرية وانقضى الرابع فى الطريق . ولم تستطع مرثا أن تفهم هذا التأخير المحزن فقالت في رنة توبيخ رقيق [يا سيد لو كنت ههنا ما كان أخى ليموت] . وحتى الآن ظهر أنها ترجو أملا غير واضح يخفف من هذا الحرمان . والكلمات القليلة التالية ذات أهمية عظمى لأنها اعلان من يسوع أفاض العزاء ليس فقط لمرثا ولكن للملايين منذ ذلك الزمان وإلى انتهاء العالم :

[سيقوم أخوك] .

وما كانت تحلم مرثا أن أخاها سيوقظ من نوم الموت ولذلك أجابت [أنا أعلم أنه سيقوم فى القيامة فى اليوم الأخير] .

[قال لها يسوع أنا هو القيامة والحياة من يؤمن بى ولو مات فهو يحيا . وكل من هو مؤمن بى فلن يموت إلى الأبد . أتؤمنين بهذا] .

---

١ - كلمة (كانت) فى عدد ١٨ لا تعنى بالضرورة أنها كانت أثرا بعد عين أيام أن كتب يوحنا بشارته . ولو أن هذا محتمل .

٢ - هنا دليل صادق ملذ على صحة البشائر ، دليل مهم لأنه غير مقصود وهو أن خلق مريم ومرثا كما رسمه بكلمات قليلة البشير يوحنا ينطبق تماما مع ما ذكره عن خلقهما لوقا البشير فى الحادثة التى دونها وحده فى لو ١٠ : ٣٨ - ٤٢ . فالذين يرفضون انجيل يوحنا عليهم أن يثبتوا كيف حدثت هذه " الأعجوبة الحرفية " كما يقول ماير .

لم يكن لروح مثل روح مرثا أن تتفهم هذه الأفكار المتبادلة بين الموت الطبيعي والروحي الذى جاء فى هذا الحديث العميق . ولكن بدون أن تنتظر لتسبر غوره ألجأها حبها واخلاصها أن تجيب [نعم يا سيد أنا أومن أنك أنت المسيح ابن الله الآتي إلى العالم] .

وإذ نطقت بهذا الاعتراف العظيم ذهبت لتدعو أختها التى سأل يسوع عنها والتى شعرت مرثا بفطرتها أن قلبها وعقلها كانا خيرا مما لها في قبول هذه الحقائق العالية . وجدت مريم في المنزل . والخفية التي أدت بها الرسالة والسرعة الصامتة التى قامت بها لمقابلة سيدها تظهران أن الحرص كان مطلوبا وأن زيارة يسوع لم تكن خلوا من الخطر . واليهود الذين كانوا يعزونها والذين تركتهم فجأة هكذا تبعوها إلى القبر ظانين أنها ذهبت لتبكي هناك ، ولكن سرعان ما علموا سبب ذهابها إذ رأوا يسوع خارج القرية محوطا بأصدقائه ، وأبصروا مريم تسرع اليه وترتمي عند قدميه بنفس التوبيخ الأليم الذى استعملته أختها [يا سيد لو كنت ههنا ما كان أخى ليموت] . واهتياج عاطفتها تجلت فى كلماتها القليلة ، وانزعاجها المفرط لم يدعها أن تنطق بأكثر مما قالت . ربما كانت محبتها أعمق من أن تسمح بتعلقها بأمل حسى مثل أختها ، وربما بانضاع أكمل قد تركت الأمر كله لسيدها . ومنظر الحب الكامل والألم الشامل ، المنظر الذى يرثى له للحرمان الانساني وعدم جدوى العزاء البشرى فى مثل هذه الظروف ، وصراخ الندب المأجور المفتعل مع الحزن العميق الحقيقى ثم العتب الصامت « لماذا لم تأت سريعا لتختطف الفريسة من العدو وتنجى صديقك من حمة الموت وتنجينا من حمة أشد مرارة هى حرقة الفراق » ، كل هذه المؤثرات حركت بحنان عطف يسوع الرقيق إلى حد عميق . واحتاج الأمر جهدا كبيرا لضبط النفس (١) . مجهودا هز كل

١ - " تألم بالروح واضطرب " الكلمة الأصلية معناها " أزعج نفسه " والخيالات الفلسفية التى رأت فى هذا التعبير ما يعنى ان يسوع قد أثار من عواطفه للدرجة التى بقرها هى خيالات فى

جسمه برعشة قوية - قبل أن يجد الكلام إلى شفتيه سبيلا . وحينئذ استطاع أن يقول [أين وضعتموه] فقالوا له [ياسيد تعال وانظر] . وبينما كان يتبعهم فاضت عيناه (١) بدموع صامتة . ولم يفت القوم ملاحظة دموعه . ولكن بينما لاحظ بعضهم باعزاز وإجلال انها برهان محبته للميت تساءل آخرون بخبث وربما أيضا بما يقرب من السخرية: « أما كان يقدر هذا الذى فتح عينى المولود أعمى أن لايدع صديقه هذا يموت أيضا؟» ما كانوا قد سمعوا أنه فى احدى قرى الجليل البعيدة قد أقام الميت وإن كانو قد علموا أنه في أوروشليم فتح عينى المولود الأعمى وظهرت لهم ان هذه المعجزة لا يفوقها شيء . وعلم يسوع ملاحظتهم وسمعها . ومرة أخري تجلى المنظر أمامه لكن بأحزانه الخالصة والنادبين الصاخبين والعداوة غير المكتومة كلها مجتمعة حول عمل الموت الذريع وغمر كل روحه . ومع علمه أنه سيقيم الميت مرة أخرى قد اهتز كيانه بعاصف من الأحاسيس (٢) . وكان القبر مثل قبور أغنياء اليهود عبارة عن فجوة عرضية محفورة فى الصخر لها حجر كبير أو لوح من الصخر يغطى فتحتها (٣) . فأمرهم يسوع أن يرفعوا هذا « الجلل » كما كان يسمى حينذاك . وعندئذ تدخلت مرثا مدفوعة باعتقادها أن الروح قد فارقت الجسد وابتعدت عن الجثمان نهائيا ، ومدفوعة برقتها الطبيعية خشية

غير موضعها (قارن يو ١٢ : ٢٧ و ١٣ : ٢١) والتفسير الذى أوردته فى المتن هو تفسير يونابيوس أحد أعلام المفسرين .

١ - " فدمعت عينا يسوع " . الكلمة الأصلية معناها " ذرفتا الدموع " أي بكى يسوع فى صمت وليس كما انتحب بصوت عال كما فعل على أوروشليم (لو ١٩ : ٤١) .

٢ - يو ٩ : ٣٨ .

٣ - لازالت مدينة بيت عنيا إلى يومنا هـذا تسمى الليعازرية نسبة لليعازر وتذكارا دائما للمعجزة . ولا زالت هناك فى وسطها حفرة يلصقون بها أنها قبر ليعازر . أما أن الليعازرية هى المدينة القديمة فحقق . أما القبر فلا يمكن أن يكون فى وسط مدينة .

المعرب : ولا زال بالقرب منها فندق ريفى يقولون أنه بنى على انقاض الفندق الذى ذكره يسوع فى مثل السامرى الصالح !.

من المنظر الخانق الذى سيظهره الحجر إذا رفع لأنهم يسرعون فى الجو الحار بالدفن عقب الموت (١) . وإذ أنه قد مضى اليوم الرابع لدفن ليعازر ، فالغالب أن يكون قد دب اليه التعفن . ولكن يسوع ذكرها بوعده بهيبة . فدحرج الحجر عن المكان الذى وضع فيه الميت . ووقف يسوع عند المدخل بينما ارتد الباقون قليلا وعيونهم مثبتة على القبر الساكن المظلم . ووقع عليهم جميعهم صمت عندما رفع يسوع عينيه إلى أبيه شاكرا . وحينئذ ارتفع ذلك الصوت ذو السلطان المهوب الرنان ، وكما فى مثل هذه الظروف نطق بأوجز الكلمات وقال : [ليعازر هـلم خارجا] . وهذه الكلمات رنت مرة أخرى فى كورة الظلام المحجب الذي يفصلنا عن الدنيا الآتية . وسرعان مانطق بهذه الكلمات حتى خرج كالسيف من وسط القبر شخص ملفوف فى أكفانه البيضاء المريعة وهو مربوط اليدين والرجلين ومنديل حول الرأس يسند الفك الذى لأربعة أيام مضت كان قد أرخاه الموت . خرج بوجه لم يعد مخيفا ولا أزرق داكنا ، ولكن بوجه شاب معاد للحياة بدمه الصحي يجرى فى عروقه . وقد أعيد كما يخبرنا التقليد ليعيش بعد ذلك ثلاثين سنة أخرى كلها حياة ونور وحب وأمل .

دعونا نتريث قليلا لنجيب على السؤال الطبيعي وهو لماذا سكت البشيرون عن ذكر هذه الأعجوبة العظمى . ان بحثت الأمر بالتفصيل فهذا معناه أن أكتب بحثا فنيا مطولا عن طريقة إنشاء البشائر .

ولكنى أكتفى بالقول إن البشائر الثلاث الأولى قد اقتصرت تقريبا على كرازة الجليل بينما يوحنا توفر على أعمال اليهودية . ولكن بالطبع كما أشار الثلاثة الأول صراحة عن كرازة يسوع فى أوروشليم كذلك كتب يوحنا أيضا عن كرازة الجليل . ولم يعتزم

---

١ ـ ذكر فرانكل أن حاخاما مات الساعة الثانية بعد ظهر أحد الأيام ودفن فى الساعة الرابعة والنصف ! والغالب أيضا أن اعتراض مريم كان يدعم اعتقادها ان الروح لم تعد تحوم حـول الجسد بعد الثالث حسب الاعتقاد اليهودي الخطأ .

واحد من الأربعة أن يدون سجلا كاملا ولا حتي جــــدولا مستوفيا لكل أمثال أو أحاديث أو أعمال أو معجزات يسوع . ولم يكن غرض أى واحد منهم أن يكتب تاريخا مفصلا للثلاث سنين ونصف التي قضاها يسوع فى الخدمة الجهارية . وانما ذكر كل واحد منهم الحوادث التى أتت فى حيزه وكانت معروفة جليا لديه بمشاهداته الشخصية ممن يوثق بهم أو تسليمات شفوية (١) . وذكر كل واحد منهم ما يكفى أن يبرهن أن ذاك كان بالحقيقة المسيح ابن الله الحى مخلص العالم . والآن إذ أنهم لم يروا في اقامة ليعازر قوة معجزية أعظم مما سلف أن دونوه (يو ١١ : ٣٧) ، وإذ أنه كما قيل حسنا أن مقياسا لعظمة المعجزات لم يكن قد اخترع بعد ، وإذ أن هــــذه المعجزة قد وقعت فى دائرة اليهودية ، فانه لا تظهر لنا صعوبة فى تعليل عدم ذكرهم هذه المعجزة بأكثر من عدم تدوينهم معجزة بيت صيدا وتفتيح عيني من ولد أعمى . وفضلا عن هذا فانا نتلمس في باقي البشائر سكوتا خاصا عن عائلة بيت عنيا . فذكر أن المنزل كان [بيت سمعان الأبرص]. ودعيت مريم فقط [امرأة] فى مت ٢٦ : ٦و٧ ومر ١٤ : ٣ واقتصر لوقا عنـد ذكـر بيت عنيا على تسميتها [قرية] لو ١٠ : ٣٨ مع أنه كان يعلم اسمها جيدا (لو ١٩ :٢٩) وعليه ، فتوجد مناصرة قوية للرأى القائل انه عنـد تدوين البشائر الأولى كانت هنـاك أسباب خاصة لعدم تدوين أعجوبة قد تؤدى إلى خطر محقق لرجل كان لا زال حيا ، رجل اجتهد اليهود أن يتخلصوا منه كشاهد على قوة المسيح المعجـزية (يو ١٢ : ١٠) . ولو فرضنا جدلا أن هذا الخطر قد زال فانه من المكروه جدا أن تجعل هذه العائلة الهـادئة في بيت عنيا مركزا لحب استطلاع غير مؤدب وشديد ، وعرضة لأسئلة عن أشياء مخبوءة لا يستحب إعلانها . ويبدو أنه كان هناك عائق ما قـد ختم على شفـاه البشيرين الثلاثة قد أزيح لوقت طويل قبل أن تكتب بشارة يوحنا .

قال ابراهيم فى مثل لعـازر والغنى [إن كانوا لا يسمعون لموسى والأنبيـــاء فانهم

١ ـ كالعذراء أو باقى الرسل .

ولا ان قام واحد من الموتى يقتنعون] . كان هذا هكذا مع كثيرين ممن شاهدوا هذه الآية ، ولكن كثيرين أيضا لم يفلحوا فى شىء سوى أن يحملوا عنها خبرا غضوبا منذرا بالويل والثبور للسنهدرين بأوروشليم . واجتمع السنهدرين بروح البغضة والحيرة . لم يقدروا أن ينكروا الأعجوبة ولم يريدوا أن يؤمنوا بمن فعلها ، وخافوا فقط من تأثيره المتزايد ونمو سلطانه ، واستخلصوا أنه إنما يفعل ذلك ليقيم نفسه ملكا وينتهى الأمر بتدخل الرومان وفقدانهم وجودهم السياسى . وظلوا فى حنقهم يقدمون بدون جدوى مشورات مختلفة إلى أن وقف يوسف قيافا ليخطب فيهم . كان هو الرئيس الدينى المدنى وقد بقى فى وظيفته إحدى عشرة سنة من سنة ٢٥م عندما أقامه فاليريوس جراتوس حتى سنة ٣٦م عندما طرده فيتليوس . حقيقة إن جزءا كبيرا من شرف هذا المركز قد منح لأناس أو حنان حسب اسمه اليهودى الأصلى الذى حرمته السلطات الرومانية فقط من رئاسة الكهنوت والذى كان - كما سنرى فيما بعد - هو الناصح أو الحكيم . وعلى أى حال



رئيس كهنة (عن كالمت)

كان هو المعتبر رئيسا للكهنة من اليهود المحافظين . بينما فى ذات الوقت كان قيافا هو رئيس الكهنة (١) الأسمى والظاهرى . وعلى ذلك كانت تعزى له موهبة النبوة التى كانوا يعتقدون انها لا تزال ولو إلى حد ضئيل تتسلسل في أفراد اعقاب هارون بعد أن انقضى عصر الاحلام والأوريم والتفاؤل والتنبؤ « والباث كول » التى كانت تعتبر على هذا الترتيب الوسائل العادية التى تعلن بها ارادة الله (٢) . وعليه فعندما قام قيافا ، ودون حياء ، قدم اقتراحا أنانيا ظالما فاجرا خبيثا ، وأخبر السنهدرين بغضب أن كل مساعيهم جهل مطبق وان الأمر الوحيد الذى يجب أن يعمل هو أن يضحى فرد سواء كان بريئا أم مذنبا عن أمة ، أو كما قال يوحنا البشير ليس عن الأمة فقط بل من أجل كل ابناء الله المشتتين فى كل العالم . قبلوا دون تردد صوت هذه النبوة غير المقصودة وبقبولها قد ملأوا كأس الغضب والدينونة لأنفسهم وأتموا الجريمة التى جلبت على رؤوسهم الأثيمة ذات الكارثة التى ارتكبوا الجريمة خصيصا لدرئها . كانت عبادة مولوك التى هى أنكى من تقديم البشر ذبيحة كما فى أيام منسى هى التى حتمت عليهم خرابا مدلهما دائما (٣) . حقيقة كان هناك من لم يوجدوا على جبل المشورة الرديئة (٤) ، أو إن وجدوا

---

١ ـ يرى بعضهم سخرية لاذعة فى تعبير يوحنا (١١ : ٤٩) " كان رئيسا للكهنة فى تلك السنة " كما لو أن اليهود قد تملكتهم الطريقة المحتقرة واعتادوا التغير المستمر لرؤساء الكهنة الذين أصبحوا مجرد نواطير خيالية يقيمها ويسقطها المتسلط الرومانى إذ كان يوجد لا أقل من خمسة رؤساء كهنة ورؤساء كهنة سابقين فى هذا المجلس ـ حنان واسماعيل بن فابى واليعازر بن حنان وسمعون بن كميث وقيافا الذى كان قد وصل إلى رتبته عن طريق الرشوة . (راجع ريلاند الذى يعطى جدولا لرؤساء الكهنة عن يوسيفوس ونيسفوروس) .

٢ ـ راجع يوسيفوس .

٣ ـ لا شك أن بعض المتآمرين قد عاش ليتحقق من النتيجة المريرة أن الأمور الخاطئة أدبيا لا يمكن أن تنتج نفعا سياسيا ، وأن قتل البرىء قد أسرع فى خراب أمتهم . وهذا الخراب كان وقعه شديدا بالأكثر على أولئك الذين جلبوه .

٤ ـ هذا هو الاسم الذي أطلق على المكان الذى أجمع التقليد أنه كان مكان منزل قيافا حيث المعتقد أن هذا الاجتماع قد حدث فيه .

هناك لم يرتضوا تلك المشورة . ولكن من ذلك اليوم صدر الحكم السرى انه يجب قتل يسوع . ومن ذلك الوقت كان السيد عائشا وثمنه على رأسه .

ومع أن هذا الحكم كان سريا بحتا فى البدء فقد شاع فى الحال ولم يجهله يسوع . ولذلك فالأسابيع القليلة الباقية من حياته على الأرض إلى أن جاءت الساعة التى كان فيها الفصح الذى أزمع فيه أن يضع ذاته بأرادته قد قضاها فى العزلة عائدا إلى مدينة صغيرة مجهولة بالقرب من البرية اسمها افرايم (١) . وهناك بعيدا عن جلبة وتدبيرات أعدائه صرف هذه الأسابيع الباقية براحة وسكون وسرور محوطا فقط بتلاميذه يعلمهم فى ذلك الانفراد المملوء بالسلام ويعدهم للعمل العظيم ، ومد مناجلهم فى تلك الحقول التى ابيضت فى العالم كله . وقليلون - أو ربما ليس غير تلك الجماعة الوفية - من علموا مكان عزلته لأن الفريسيين لما رأوا أنه يستحيل عليهم ابقاء تدبيراتهم سرا أصدروا أوامرهم علانية ليدل عليه كل من علم أين هو ليمسكوه ولو بالقوة ويتمموا عليه الحكم الذي أصدروه . ولكن حتى ذلك الوقت لم تثمر الرشوة بعد .

ولم نخبر عن مدى تلك الأيام المحوطة بالخفاء والخطر ، كما لا يمكننا رفع الحجاب الذى أسدل عليها . ولو أن الحكم الذى صدر فى « بيت الدين » فى منزل قيافا أعتبر حكما قانونيا بالموت فانه ليس من المستحيل أن أولئك القانونيين المتحذلقين قد احتملوا أربعين يوما فى انتظار شهود يتقدمون لصالح المتهم (٢) ، ولكن من المشكوك فيه جدا

---

١ - يوجد شك كبير فى مكان افرايم هذه . ربما كان موقعها مكان القرية الحديثة قرب البرية المسماه " الطيبة " (يوحنا ١١ : ٥٤) وتبعد حوالى ٢٠ ميلا شمال أوروشليم (ايريثيموس) . وليس هناك ما يضطرنا أن نتخيل أنها لا بد أن تكون جنوب شرق أوروشليم كما يحتم ايوارد . أما يوسابيوس فيقول أنها قرية تبعد ثمانية أميال عن أوروشليم . ولكن هذا لا يجعلها مكان أمان . أما ان كانت افرايم هى الطيبة فانه مكان يبعد حوالى ٢٠ ميلا من أوروشليم يضمن السلامة .

٢ - هذا هو تخيل " سيب " ارتكانا على تقليد مضطرب فى التلمود يقول انه لأربعين يوما

أن يظن هذا الآن موت يسوع الذى أرادوه له دبر ليكون بطريقة سرية مختصرة يحمل طابع القتل غيلة لا المحاكمة القانونية .

قبل موته (وهو الوقت القانونى لاحضار الشهود) قد حوكم يسوع أمام يشوع بن براخيا وأصدر الحكم بموته وأعلنه بضرب أربعمائة طبلة . وسبق أن بينا خطأه .



زمردة لرموز مسيحية *

* هذه الزمردة الحمراء تعتبر لغناها فى الرموز احدي الكنوز النفيسة المسيحية الموجودة بالمتحف البريطانى . فالحمامة التى تمسك بمنقارها غصن الزيتون تمثل السلام والحب اللذين يغمران النفس ان ارتكزت تماما على السمكة التى كانت للمسيحيين رمز مياه المعمودية وأيضا لأنها باليونانية ترمز ليسوع المسيح الله العالى والمخلص . وهذا الرمز تؤكده العلامة التى إلى اليسار . أما الحروف التى إلى اليمين فهى اسم مالكها روفس اسم محبب عند كنيسة رومية (رومية ١٦ : ١٣) وأيضا خلده مرقس ١٥ : ٢١ .



جبـل أربحـــا

الفصل الثامن والأربعون

أريحا وبيت عنيا

الـكلمات العظيمة الثلاث :. يا يسوع ارحمني. تشدد وانهض انه يدعوك. ايمانك قد خلصك.

لونجفلو

من على جبل افرايم المخروطي الشكل أمكن يسوع أن يشاهد جماعات الحجاج عندما اقترب الفصح وابتدأوا يعبرون وادى الأردن ميممين

شطر أوروشليم ليطهروا أنفسهم من كل النجاسات الناموسية قبل ابتداء العيد العظيم (١) . لقد حان الوقت لترك مكان عزلته ونزل من افرايم إلى الطريق العام ليسير مع قوافل حجاج الجليل .

وإذ أدار ظهره للمدينة وابتدأ الرحلة التى سوف تنتهي فى أوروشليم استولى على كيانه كله تنبؤ وقور وسمو فى الروح . وأضفى عظمة جديدة غريبة لكل حركة ولكل نظرة . كان تجلى تضحية الذات مثل ذاك التجلى السابق الذى للمجد أوقع كل من رآه فى الدهشة والخوف بدون أن يستطيع تبيان السبب (٢) . لا توجد سوى صور قلائل فى الانجيل أكثر تأثيرا من هذه التى ترى فيها يسوع سائرا إلى موته ماشيا وحده في الممر المؤدى إلى الوادى السحيق بينما يتبعه تلاميذه سائرين خلفه في احترام عميق ممزوج بتوقع الخوف والأمل ، وعيونهم مثبتة عليه ، وهو يتقدمهم برأس منحن ، وهم لا يجرأون أن يقطعوا عليه تأملاته . ولكنه أخيرا وقف واستدعاهم وأفصح لهم مرة أخرى - للمرة الثالثة - بأيضاح وبيان وتفصيلات مدهشة مرهبة عما سبق وأخبرهم به أنه سيسلم للكهنة والكتبة فيحكمون عليه ويسلمونه لأيدى الأمم فيهزأون به ويجلدونه . وللمرة الأولى يفصح بدون غموض عن الخاتمة المروعة . انهم سيصلبونه وانه فى اليوم الثالث يقوم . ولكن عقولهم كانت ملآى بآمال المسيا وكانت مشغولة من قبل بالاعتقاد الجازم أن ملكوت الله آتية بكل مجدها فمر هذا التنبؤ على أذهانهم كالريح العاطلة فلم يقدروا ولم يريدوا أن يفهموا .

وليس هناك دليل أكثر غرابة على عدم مقدرتهم فى تفهم معني ما قاله يسوع من الطلب الذى قدم له بعد قليل وفى نفس الرحلة والذى سجله البشيرون جميعهم (٣) ،

---

١ - مت ٢٠ : ١٧ - ١٩ و مر ١٩ : ٣٢ - ٣٤ و لو ١٨ : ٣١ - ٣٤ .

٢ - مر ١٠ : ٣٢ .

٣ - مت ٢٠ : ٢٠ - ٢٨ و مر ١٠ : ٣٥ - ٤٥ و لو ١٨ : ٣٢ - ٣٤ .

الطلب الذى قدم فى غير أوانه والعجيب في عدم روحانيته. أتت إليه سالومى - احدى ملازمات يسوع الدائمات - وابناها يعقوب ويوحنا اللذان كانا من المتقدمين بين الرسل وخروا إليه سجدا وسألوه معروفا. فاستفسر عما يريدون، وحينئذ تكلمت الأم نيابة عن ولديها الكبيرى القلب الطامعين، وطلبت أن يجلس في ملكوته واحد عن يمينه وواحد عن يساره (١). واحتمل يسوع بلطف أنانيتهم وخطأهم. قد طلبا فى جهلهما وعماهما المكانين اللذين بعد أيام قليلة سوف يشاهدانهما - للخزى والخوف - محتلين باللصين المصلوبين. كانت أفكارهما منشغلة باثنى عشر عرشا، أما أفكاره فبثلاثة صلبان. كانا يرجوان تيجانا أرضية أما هو فأخبرهما عن كأس من المرارة، وصبغة من الدم (٢). فهل يستطيعان أن يشربا معه من هذه الكأس ويصطبغا معه بهذه الصبغة؟ وربما قد فهما الآن ما يعنيه، ومع ذلك أجاباه بجرأة [نستطيع]. وحينئذ أخبرهما أنه يجب عليهما حقا أن يفعلا ذلك. ولكن الجلوس عن يمينه أو يساره فقد حفظ لمن أعد لهم من أبيه السماوى (٣). يقول باسيليوس « ان العرش جزاء الأتعاب وليس هبة تمنح للطامعين. انه مكافأة البر وليس استجابة للالتماسات ».

فلما سمع العشرة بما كان تبرموا بالطبيعة وتملكهم الحنق على هذا المجهود السرى الذى بذله الأخوان لكي يحتفظا لنفسيهما برفعة الشرف، غير عالمين أن التقدم فى الشرف على الأرض - وبهذا فقط كانوا يحلمون - يجب أن يكون هو السبق فى الاستشهاد أو الاستزادة فى الضيقات (٤). وهذا سيعلن لهم في حينه ولكن حتى

---

١ - ذكر يوسيفوس أن يوناثان جلس عن يمين شاول وأبنير عن يساره (راجع وتين الخ) قارن ١ مل ٢ : ١٩ و ٢٢ : ١٩ .

٢ - يو ١٨ : ١١ و رؤ ١٤ : ١٠ و مز ٧٥ : ٨ و كيم عن "صبغة الدم".

٣ - النص الأصلى يفيد (ليس لى أن أعطيه إلا للذين أعد لهم من قبل أبى) مت ٢٠ : ٢٣ المعرب : وهذا هو النص الوارد فى النسخة القبطية. قارن مت ٢٥ : ٣٤ و ٢ تى ٤ : ٨ .

٤ - اع ١٢ : ٢ و رؤ ١ : ٩ .

الآن قد جمعهم وعلمهم - كما علمهم مرارا - (١) أن اسمى الشرف إنما يكتسب عن طريق أعمق الانضاع ، مخبرا إياهم أن رؤساء هذا العالم يتميزون بشبه سلطان قليل وقصير على إخوانهم ، وكثيرا ما يفرضونه قسرا ويظلمون به إخوانهم . ولكن فى ملكوت السموات يجب أن يكون رئيس الجميع هو خادم الجميع . بلى إن السيد الأعلى قد قضى حياته فى أحقر الخدمات ، وها هو ذا مزمـــع أن يضعها فدية عن الكثيرين .

ولما قرب من أريحا (٢) فى الغور الحار الذى لا زرع فيه تكاثفت حوله جموع الحجاج السائرين معه . وكان اليوم إما عشية الخميس ٧ نيسان أو صبيحة الجمعة ٨ نيسان عندما وصلوا قرب المدينة العظيمة الشهيرة ، المدينة ذات الرائحة العطرة ، مدينة الزهور والنخيل ، « حديقة الله » . وهى الآن قرية عربية بائسة منحطة ، ولكن حينذاك كانت مدينة ناجحة آهلة بالسكان واقعة فى واحة خضراء مزهرة (٣) شهيرة بالعسل والشهد

---

١ - مت ١٠ : ٤٢ و ١ بط ٥ : ٣ .

٢ - مت ٢٠ : ٣٠ - ٣٤ و مر ١٠ : ٤٦ - ٥٢ و لو ١٨ : ٣٥ - ٤٣ لأولئك الذين لهم نظر ضيق جبان موسوس غير مسيحى عن الوحى سيضطربون للاختلافات بحسب الظاهر بين البشيرين فى ايراد هذا الحادث . يذكر متى أنهما أعميان أما الباقون فيذكرون واحدا . ومتى يذكر (وفيما هو خارج من أريحا) ، بينما يذكر لوقا بوضوح (ولما قرب من أريحا) أى قبل أن يدخلها ولكن لن تضير هذه الاختلافات أى قارىء متسم المدارك إذ لا تتناول " صدق " الحديث ، ولكن " دقة " ايراده . وان هذه الاختلافات بدون تدخل عجائبي مباشر وغير ضروري قد حدثت فى كتابة البشيرين بالفعل كما تحدث لكل الشهود الأمناء لأى حادث ما . أما فكرة ما كنيت أن هذه المعجزة قد حدثت بين الأريحتين - أريحا القديمة العبرانية والمدينة الحديثة نصف الهيرودوسية فهى فكرة غير مستحيلة وكذلك أيضا الفكرة أن أحدهما شفى عند دخول المدينة والآخر عند الخروج منها .

٣ - حكمة ٢٤ : ١٤ .

والميروبلانوم (١) ، غنية بالمياه من نبع اليشع وآبار أخرى .

فى مكان ما قرب هذه البلدة جلس بارتيماوس بن طيما يستعطى هو وزميل له فى البؤس . وإذ سمع جلبة الجموع السائرة وأخبر أن يسوع الناصرى كان عابرا صاح قائلا : [يا يسوع بن داود ارحمنى] . واستاءت الجموع من هذا الضجيج العالى ورأوه غير لائق بمقام ذاك الذى سيدخل أوروشليم كسيا أمته . ولكن يسوع كان قد سمع صراخه وتأثر قلبه الحنون فوقف وأمر أن يدعى إليه . وحينئذ غير الجمع الزاخر نغمته وقالوا البرتيماوس - وهو الشخص الظاهر في الحادثة حتي أن اثنين من البشيرين أهملا ذكر رفيقه بتاتا - [تشدد وانهض وتعال فانه يدعوك] فتفجر سروره حالا وطرح رداءه ، أي عباءته ، وقفز (٢) واقتادوه إلى يسوع . فسأله [ماذا تريد أن أصنع بك] ؟ فأجابه الأعمى ملقبا إياه ربونى (٣) ، وهو أعظم لقب احترام يعرفه ، وقال [يا سيد أن أبصر] . فقال له يسوع [اذهب إن ايمانك قد خلصك] . ولمس عينيه وعينى زميله ، فللوقت أبصرا وتبعاه مع الجموع الفرحة وهما يمجدان الله .

كان لزاما أن يستريح فى أريحا قبل أن يبدأ السير فى الطريق المؤدى منها إلى أوروشليم ، وكان جرفا صخريا خطرا مكمنا للصوص متصعدا من ٦٠٠ قدم تحت البحر إلى ما يقرب من ٣٠٠٠ قدم فوق البحر ، ويقطع فى نحو ست ساعات (٤) . وكان الكهنة والعشارون هما الطائفتين المتازتين فى أريحا إذ كانت مدينة كهنوتية . وكان المنتظر طبيعيا أن يكرم الملك ابن داود خليفة موسى فى بيت أحد من أولاد هارون . ولكن المنزل الذى اختاره يسوع ليستريح فيه حتمته ظروف أخرى (٥) .

---

١ - هو نوع هندي من الفاكهة . المعرب : لا زالت أريحا إلى يومنا هذا شهيرة بالموز .
٢ - مر ١٠ : ٥٠ .
٣ - القاب الشرف كانت تصاعديا : رب . ربى . ربان . ربونى .
٤ - حوالى ١٥ ميلا .
٥ - لو ١٩ : ١ - ١٠ .

كانت فى المدينة محلة للعشارين تأسست لجباية الضرائب المتحصلة من تجارة متسعة في نوع من البلسم ينمو هناك بكثرة لا مثيل لها (١)، ولتنظيم الصادر والوارد بين المقاطعة الرومانية وإقليم هيرودس أنتيباس . وكان أحد رؤساء العشارين يدعى زكا . كان كره الشعب له مضاعفا لأنه كان يهوديا . وكان يؤدى وظيفته الخسيئة قرب المدينة المقدسة . وكانت مرتبته الرسمية تزيد في كره الناس له إذ كان اليهود يعتبرون أنه ما وصل إليها إلا باجتهاد خارق فى خدمة مستعبديهم الرومان ، وينظرون إلى ثروته كدليل على تعدد اختلاساته . هذا الرجل كانت له رغبة حادة أن يرى بعينيه أى نوع من الرجال كان يسوع . ولكن إذ كان قصير القامة لم يستطع أن يختطف نظرة بسبب الجمع المزدحم ، فأسرع إلى الأمام وجرى فى الطريق الذى كان سيجتازه يسوع وصعد على جميزة (٢) تظلله . تحت هذه الشجرة سيمر يسوع ، وستكون لهذا العشار فرصة طيبة ليرى الشخص الوحيد فى أمته الذى لم يظهر كرها مركزا متعصبا للطائفة التى ينتمى إليها ، وليس ذلك فقط بل وجد بين أفرادها كثيرا من المستمعين المخلصين ورفع واحدا منهم إلى مرتبة رسول . ورآه زكا مقبلا ، ولا ريب أن قلبه قد خفق بشدة من الفرح وعرفان الجميل عندما وقف النبي العظيم ، المسيا المنتظر من أمته ، تحت الشجرة ونظر إلى فوق ، وناداه باسمه ، وأمره أن يسرع وينزل لأنه معتزم أن يكون ضيفا فى بيته (٣) . لن ينظره زكا فقط بل سيأتى يسوع إليه ويتعشى معه ويصنع عنده منزلا . المسيح الممجد ينزل ضيفا على العشار الممقوت . بفرح ظاهر أسرع زكا من على فروع الجميزة وتقدم ليرى الطريق إلى منزله . ولكن تذمرات الجموع

---

١ ـ يوسيفوس .

٢ ـ الجميزة (لو ١٩ : ٤) لا يجب أن تختلط بشجرة التوت (لو ١٧ : ٦) وشجرة الجميز سهل جدا تسلقها .

٣ ـ يقال أنه البناء الخرب المربع الشكل فى قرية " ريحا " أى أريحا القديمة وإن كان بناء مرسيدنيا من القرن الثانى عشر .

كانت عالية طويلة عدائية (١) . افتكروا أنه أمر غير لائق ، غير سيـــامى ، بل يستوجب التعنيف والزجر ، أن الملك فى وسط أتباعه المتحمسين يلوذ بمنزل رجل ذات وظيفته علم على الانحطاط القوى . ثم هو حتى فى وظيفته هذه ذو شهرة سيئة . غير أن ابتسامة يسوع الباعثة على الاطمئنان ، وكلمته الكريمة كانتا عنـد زكا أعظم من كل تذمرات وشتائم الجموع . لم يحتقره يسوع ، فأى قيمة لاحتقار الناس ؟ إن يسوع قد أكرمه ، فلم لا يكرم ذاته ويحترمها ؟ كما كان يزداد بتحمس كل ما هو منحط فيـه من جراء الاحتقار والكره كذلك أيقظ فيه الحنان العطوف كل ما هو نبيـل . يجب أن يجتهد أن يكون أهلا ، أو على الأقل أكثر استحقاقا لضيفه المجيد ، أو على أقل القليل سيعمل ما فى وسعه ليكون أقل عارا . لذلك وقف ظاهرا بين الجمع وقال - لكن ليس لهم لأنهم يحتقرونه ولأنه لا يهتم بهم - بل للسيد نطق بعهده وصحبه بعمل عظيم شهد بتوبته وسجل مغفرته [ها أنذا يا رب أعطي المساكين نصف أموالى . ومن ظلمته شيئا أعوضه أربعة أضعاف] (٢) . كانت هذه التضحية العظيمـة بالشيء الذى كان حتى ذاك الوقت أعز شيء عنده ، وهذه الترضية الكاملة عن كل كسب أتاه من طريق غير شريف ، وهذا الاعتراف العاني ، وهذا العهد العانى ، كل هذا كان وثيقـة لسيده وبرهانا على أن عطفه عليه لم يذهب هباء . وعلى ذلك فالحب بلمسة واحدة قد فك أختام الينابيع المغلقة التى للتوبة بينما الاحتقار كان يغلقوـا إلى الأبد ! ولم تعطـه أية حادثة أخرى فى طريقه المظفر فرحا أقدس ولا أعمق ! ألم تكن رسالته في قرارتها أن يفتش

١ - لو ١٩ : ٧ (الجميع تذمروا) .

٢ - لانج وآخرون يرون فى (من ظلمته شيئا) نوعا من الانكار انه اغتصب أحدا ونوعا من التحدى استفز به أن يتقدم أحد ويتهمه ، ولكن المعنى الأصلى للجملة لا يحتمل هذا . كلمة (ظلمته)معناها اكتسبت منه بطريق منحط غاش أو ماكر . (راجع خر ٢٢ : ١ - ١٩) وأربعة أضعاف أكثر مما يجب قانونيـا أن يرد (عدد ٥ : ٧) وهـذا دليـل على أن أغلب ثروته جمعت بأمانة .

عن الضال ويخلصه ؟ ونظر إلى العشار الذى صار نبيلا برفضه السريع لكل ثمار الخطية وهو أصدق اختبار للتوبة الحقيقية وقال له [اليوم صار الخلاص لهذا البيت لأنه هو أيضا ابن لابراهيم] ، بالمعنى الحقيقى الروحي وليس بالمعنى الحرفي السطحي المتفسخ المادى (١) .

ثم لكي يريهم أى خطأ كانت الانتظارات التي تحمسهم وأى خطأ كانت القواعد التى بنوا حكمهم بها عليه لأنه ارتضى ضيافة زكا بدأ - إما أثناء الطعام في بيت العشار أو على احتمال أصح عندما عاودوا الارتحال ثانية - يقول لهم مثل الأمناء (٢) . قاله على نمط الحوادث المعتادة فى تاريخ العائلة الهيرودية فأخبرهم عن رجل شريف ذهب إلى كورة بعيدة ليحصل على ملك جديد ، (٣) وسلم لعبيده أمناء ليحسنوا الاتجار فيها والربح منها حتى يعود . وكان عبيده يكرهونه فأرسلوا سفارة وراءه ليرفض ولا يملك عليهم . ولكن رغما عن ذلك تثبت ملكه وعاد ليعاقب أعداءه وليكافىء عبيده حسب أمانتهم . ولكن عبدا خائنا بدلا من أن يستعمل المبلغ الذى أؤتمن عليه صره فى منديل وأعاده إليه مع شكاية غير عادلة وغير مؤدبة من قسوة سيده .

---

١ - التقليد أنه صار فيما بعد أسقفا لقيصرية متأخر جدا لا قيمة له (اكليمينفس الخ)

٢ - لو ١٩ : ١١ - ٢٧ .

٣ - (رجل شريف الجنس قد ذهب إلى كورة بعيدة ليأخذ ملكا ويعود) . كان هذا الكلام يكون غير مفهوم تماما لو لم نعلم أن هذا حدث مرتين من ارخيلاوس ومن أنتيباس (يوسيفوس) . وفى حالة ارخيلاوس أرسل اليهود وفدا وفدا من خمسين ليشتكوا من مظالم يعارضوا بها مطالبه . ولقد فشل آنئذ ولكن عاد فافلح . واثناء غيابه حرس فيلبس ممتلكات ارخيلاوس والقصر الجميل الذى بناه فى اريحا (يوسيفوس) لئلا يغير عليها القنصل سابنيوس وذكر السيد هذه الحوادث فى هذا المثل مدهش فى الكيفية التى كان يتناول بها الأشياء العادية جدا ويجعلها اساسا لتعاليمه العالية ثم هو ايضا دليل لا ريب فيه على صحة وصدق البشائر .

فهذا الرجل جرد من مناه وأعطى للأكثر استحقاقا وصلاحية من عبيده الأوفياء . وهؤلاء قد كوفئوا بغنى ، أما المواطنون الثائرون فقد أحضروا أمامه وذبحوا . هذا المثل له عدة وجوه فى تطبيقه . كان يدل على سرعة انتقاله من العالم ، وعلى البغضة التى تؤدى إلى رفضه ، وعمل الخائنين فى استخدام كل ما ائتمنهم عليه ، والشك فى عودته ، والايقان أنه عندما عاد كان الحساب عسيرا . ويدل على ديثونة الكمالى والجزاء الأوفى لمن يخدمونه صدقا والهلاك التام لكل من حاولوا رفض سلطانه . والمرجح أنه وهو يقول المثل قد وقفت القافلة واجتمع الحجاج مزدحمين حوله ، فلما انتهى تركهم ليفكروا فى مغزى المثل ، وتقدم هو على رأس الجماعة المندهشة التى سارت وراءه على بعد تنظر إليه بعيون ملؤها الهيبة وهو يصعد متمهلا ذلك المنحنى الصخرى الطويل القاحل .

لم يقصد أن يجعل أوروشليم مكانا يستريح فيه وإنما فضل كالعادة أن يمكث فى البيت المحبوب في بيت عنيا . وقد وصل إلى هناك يوم الجمعة مساء الموافق ٨ نيسان سنة ٧٨٠ رومانية (أو ٣١ مارس سنة ٣٠ ميلادية) لستة أيام قبل الفصح ، وقبل أن تغرب الشمس وتبدأ ساعات السبت . وهنا يفترق عن قافلة الحجاج إذ يذهب بعضهم فينزلون أضيافا على أصدقائهم فى المدينة بينما يسرع الآخرون - كما إلى يومنا هذا - في إقامة أخصاص من البوص فى وادى قدرون على المنحدرات المطلة على جبل الزيتون .

انقضى يوم السبت في هدوء . وفى المساء أقاموا له وليمة عشاء (١) . وقد ذكر لنا

---

١ - مت ٢٦ : ٦ - ١٣ و مر ١٤ : ٣ - ٩ و يو ١٢ : ١ - ٩ كان يوم السبت السابق للفصح يسمى عند اليهود " سبت هاجادول " أى " السبت العظيم " . يظهر لنا أن البشيرين الثلاثة يضيفونه ليومين قبل الفصح ولكنهم يفعلون ذلك لذكر خيانة يهوذا التى " عقدت نهائيا " يوم الأربعاء من الأسبوع المقدس . ولكننا نرى من يوحنا أن هذه كانت المقابلة الثانية معهم أما المفاوضة الأولى فقد تركت تفصيلاتها دون جلاء .

متى ومرقس - بغرابة ليت بقليلة - أن الوليمة كانت فى بيت سمعان الأبرص . أما يوحنا فلم يذكر بتاتا أى شىء عن سمعان الأبرص الذى لم يرد اسمه في أى موضع آخر فى البشائر بل من الواضح فى بشارته أن الشخصيات البارزة في هذه الوليمة كانت أسرة بيت عنيا. فكانت مرثا هى ذات السلطة الكاملة فى الأشراف على المائدة ، وليعازر كان محط الأنظار كشخص يسوع . وبالاختصار قد تزاحم نفر عديد ليروا ليعازر لأن أسرته كانت ذا مقام رفيع وأفرادها معروفون جيدا ومحبوبون . ثم إن الأعجوبة الشهيرة والتى لا ريب فيها التى عملت لأجله جعلت كثيرين يؤمنون بيسوع . غير أن هذا قد حمس الفئة الحاكمة فى أوروشليم وزاد فى تهورهم الردىء حتى لقد اجتمعوا فعلا ليتشاوروا كيف يتخلصون من هذا الشاهد الحى على قوة المسيح الذى رفضوه . وإذ أن اقامة ليعازر لها اتصال وثيق بحلقة الحوادث التى كتبها البشيرون الثلاثة الأوائل بتدقيق فنحن مسافون للنتيجة انه يوجد سبب جوهرى - لا نعرفه تماما بوثوق وإن كنا نتخيله - لسكوتهم المدهش عن هذا الموضوع ، كما نرى تجنبهم له فى اطلاق كلمة [امرأة] على مريم ، وعدم تلميحهم بالمرة لمرثا وليعازر ، وفى ذكرهم أن هذا العشاء قد صنع في بيت سمعان الأبرص . فمن هو سمعان الأبرص هذا؟ من المحقق أنه لم يكن أبرص آنئذ وإلا ما استطاع أن يسكن فى بيت أو يختلط مع الناس . هل سبق أن شفاه يسوع فكان ذلك سر الايمان الوثيق الذى ساد على هذه الأسرة الصغيرة وأساس المحبة الرقيقة التي كانوا يظهرونها دائما فى الترحيب به؟ أو هل كان سمعان هذا متوفى حينئذ؟ لا يمكننا الاجابة على هذه الأسئلة كما لا توجد لدينا المعلومات الكافية التى تساعدنا أن تقرر إن كان هو أبا مرثا ومريم وليعازر كما يظن بعضهم ، أو أن مرثا كانت أرملته ووريثة منزله كما يظن غيرهم .

مهما كان الأمر ، فقد كانت هذه الوليمة بعيدة الأثر ، كبيرة الأهمية ، ليس بسبب كثرة عدد اليهود الذين تكالبوا على مشاهدتها ليروا بنظرة واحدة نبي الناصرة والرجل

الذى أقامه من الأموات ، ولكن لأنه حدثت فى أثنائها حادثة هامة كانت السبب المباشر لبدء النهاية المظلمة المروعة .

وبينما كانت مريم جالسة في حضرة أخيها المحبوب الذى اختطف من براثن الموت ، وفى حضرة سيدها الذى تحبه وتعبده أعمق التعبد لم تستطع حبس عواطفها . لم تكن مثل أختها مهتمة بالخدمات العملية للوليمة ولكنها جلست ونظرت وفكرت فتأججت نيران عواطفها وشعرت بوجوب اعلان حبها وشكرها وتعبدها بعلامة ظاهرية . فقامت وأحضرت وعاء مرمريا من طيب ناردين هندى وجاءت بلطف حيث جلس يسوع وكسرت القارورة فى يديها وسكبت هذا العطر الخالص (١) الكثير الثمن أولا على رأسه ثم على قدميه . وحينئذ - غير واعية لوجود أى أحد سواه - مسحت قدميه بخصل شعرها الطويل بينما امتلأ جو البيت كله بالرائحة الجميلة . كان عمل تضحية وإخلاص وإيثار فريد . والجليليون المساكين الذين تبعوا يسوع ولم يعتادوا أية رفاهية، وإن كانوا يعلمون جيدا قيمة هذه الهدية الغالية ربما أدهشهم مقدار هذا التبذير والاسراف فى برهة قصيرة . ولم يشعر إلا من سمت روحه أن هذه الرائحة الشذية التى عطرت المنزل هى أمام الله تقدمة زكية ، وأن هذه العطية كانت قليلة جدا إزاء محبة التى قدمتها أو مقام الذى قدمت إليه .

كان هناك شخص رأى أنه مهما كان السبب فان فعلها هذا غريب بل كريه . لا توجد رذيلة تتملك فتعمي الفكر وتحط القدر مثل رذيلة الطمع . والطمع كان الخطية

---

١ - مر ١٤ : ٣ قارن (قارورة طيب ناردين خالص) وجود مثل هذا العطر الغالى يظهر غنى الأسرة . وهو هدية قيمة ملوكية (راجع تاريخ هيرودتس) وكلمة (خالص) معناها " أصلى " وهو خير تفسير لها . كان عملها انفجارا عظيما من عواطف الحب والحزن والتعبد لأن مسح رجلى أى ملك مهما عظم بالطيب لم يكن معروفا . ومع عظمة وبذخ الرومان فلم يعرف هذا عندهم إلا بعد أن علمته " اوتو لنيرون " (راجع تاريخ بلينى وجرمى تيلور) .

المختمرة المتسلطة على الروح المظلمة التي ليهوذا الخائن. وكان سقوطه في الجهاد ضد تجاربه الذاتية، وخيبته فى كل انتظار وأمل ارتجاه من قربه ليسوع، والتوبيخ الذى لا يحتمل الذى كان يهز كل كيانه فى اتصاله اليومى بالطهارة التي لا عيب فيها، والظل المظلم الذى يشعر به رغم أنفه أنه يسبق خطواته وخطيئته والذى كان يزداد حلكه لسيره فى ضياء شمس البر شهورا طويلة، والاحساس أن عين سيده وربما أيضا عيون بعض رسله كانت تقرأ أو ابتدأت أن تقرأ الأسرار الخافية فى قلبه، كل هذه الأمور أبدلت تدريجيا عدم محبته المستترة إلى بغضة وكراهية أكالة. ثم إن رؤيته لتضحية مريم الباذخة وتيقنه أن الوقت قد فات لتحويل هذا المبلغ الجسيم إلى الصندوق الذى كان مجرد إحرازه ووجوده فيه قد يريح طمعه، فضلا عن المبالغ التى كان يستخلصها لنفسه منه، كل هذا ملأه حنقا وجنونا. ملكه الشيطان ... ! شعر كما لو كان قد غبن هو شخصيا، وكما لو أن النقود كانت من حقه، وبطريقة لا تعقل قد اختلست منه وحرم منها، فقال بغيظ [لماذا هذا الأتلاف].

واحسرتاه ... ! كم من المرات تتكرر هذه الكلمات. لأنه كلما وجد عمل تضحية مجيد فانه يوجد دائما يهوذا ليهزأ به ويسخر منه. [فانه قد كان يمكن أن يباع هذا بأكثر من ثلثمائة دينار ويعطي للمساكين]. ثلثمائة دينار قيمتها تربو على عشرة جنيهات ! ساوره جنون حانق لافتكاره في هلاك هذا القدر الكبير من النقود مع ابن الهلاك كان مستعدا أن يبيع سيده بأقل من ثلث هذا المبلغ. رأت مريم أنه قليل جدا أن تدهن به قدمى المسيح. أما يهوذا فرأي أن ثلثه مكافأة كافية لبيع حياة سيده ذاتها (١).

تمسحه فى قوله: [ويعطى للمساكين]، درس تعليمي كبير. كان الدثار الذى

---

١ ـ مت ٢٦ : ٨ و يو ١٧ : ٢ أكثر من ثلثمائة دينار تزيد عن ١٠ جنيهات بينما الثلاثين من الفضة تقل عن ثلاثة جنيهات وثلاثة أرباع الجنيه .

استتر به يهوذا ليخفى ولو قليلا ـ وحتى عن نفسه ـ غلظة دوافعه ، والستار الذى احتمى وراءه ليخفى اشتهاءه إيداع هذه النقود عنده لكي يتمكن من استلاب بعضها وزيادة ما فى جيبه الخاص إذ كان سارقا . وهكذا قلما يخطىء الناس تحت النور الوضاح للضمير المتيقظ بل يعمون بصائرهم بحجج كاذبة ودوافع غرارة . ومع أن يهوذا لم يستطع أن يخفى دناءته عن عين يوحنا الصافية فالغالب أنه أخفاها عن نفسه تحت فكرة أنه انما يحتج ضد عمل فيه إتلاف خيالى وأنه إنما يدافع ـ دون أن تعود عليه فائدة ـ عن البر والاحسان .

ولكن يسوع لم يسمح لهذه العدوى من الخلق العالمي أن تمتد أكثر ـ وكانت قد بدأت تسرى فى بعض التلاميذ البسطاء ـ ولم يسمح أن تتحمل مريم من جراء فعلها النبيل أكثر من هذا ـ وقد بدأت أن تصير محور نظرات قاسية آلمتها وجعلتها تضطرب ـ فقال : [دعوها . لماذا تتعبون المرأة . فانها قد عملت بى عملا حسنا . لأن المساكين معكم فى كل حين أما أنا فلست معكم فى كل حين . وهذه إنما ألقت الطيب على جسدى لتكفينى] . ثم أضاف تلك النبوة التى ما زالت إلى يومنا هذا تتم بدقة [انه حيثما يكرز بهذا الانجيل فى العالم كله يخبر أيضا بما عملته هذه المرأة تذكارا لها] .

[لتكفينى] . واضح إذن أن الحكم عليه ودفنه كان قريبا . وكانت هذه أيضا ضربة قاصمة للآمال المسياوية . فلا غنى أرضى ولا ارتفاع إدارى يجب أن يتوقعه أتباع من سيموت سريعا . وقد يجوز أن هذا كان دافعا آخر ليأس السارق الخائن الذى سمع خيبة آماله علنيا وأسكت ووبخ ضمنيا . خسارة النقود التى ظن أنها ستكون تحت تصرفه أضرمت في داخله نيرانا محزنة مظلمة لكنه لن يخسر كل شىء . فى كرهه وجنونه ويأسه ذهب خفية هذا المساء بالذات إلى أوروشليم ، واستأذن فى الدخول إلى حجرة المداولة التي لرؤساء الكهنة فى بيت قيافا ، واسترق المقابلة الأولى القتالة التى ساومهم فيها حتى يسلم إليهم سيده [وقال لهم ماذا تعطونى وأنا أسلمه إليكم] ؟ لم نخبر

عن الاشتراطات الأشعبية التى قدمت ولا عن بخل أولئك الكارهين المتحدين قبل أن ينتهوا فى مساومتهم على هذه القيمة التافهة ثمنا للدم . ولكن بلا شك إن الكهنة اليهود الماكرين قد ختلوا ذلك الرسول اليهودى المجهول المسكين . لأن كل ما عرضوا عليه وقدموه له مبلغ ثلاثين من الفضة (١) ـ لا يتجاوز الثلاثة جنيهات وستة عشر شلنا ـ وهو ثمن أقل العبيد . بهذا الثمن سيبيع سيده ، وببيع سيده سيبيع حياته نفسها بلعنة العالم إلى منتهى الأجيال . وعلى ذلك كان يهوذا يتحرك طوال الأسبوع الأخير من حياته ومن حياة سيده وغرض القتل يجوس فى قلبه المظلم اليائس . ولكن حتى تلك اللحظة لم يعين الوقت أو تقرر الخطة . ولكنه استلم فقط عربون تسليمه . وانما يبدو أنه كان هناك اتفاق عام أنه لا يجب أن يحاول هذا فى العيد لئلا يحدث شغب فى الشعب من الذين آمنوا به وقبلوه سيما من الحجاج العديدين الذين من وطنه الجليل . واعتقدوا أن فرصا عديدة ستسنح لهم إما في أوروشليم أو أى مكان آخر عندما ينتهى الفصح وتعود المدينة المقدسة إلى هدوءها العادى .

وحوادث اليوم التالى برهنت على صدق حكمتهم الأرضية وشهدت بطول باعهم فى قرارهم الخبيث هذا .

---

١ ـ خر ٢١ : ٣٢ و زك ١١ : ١٢ . كلمة (تعاهدوا) فى مت ٢٦ : ١٥ يظهر أنها تعنى "دفعوا". لم يكن الشاقل إذ ذاك متداولا وربما دفعوا له بعملة سورية أو فينيقية تعادله . وتفاهة المبلغ تدل على أن السلطات لم تكن تنظر لخدمات يهوذا كم لو كانت ضرورية لا غنى عنها ، بل فقط مما توفر التعب وإراقة الدماء .

المعرب : الثلاثون من الفضة تساوى ٣٧٥ قرشا .



تل المشورة الرديئة

الفصل التاسع والأربعون

أحد السعف

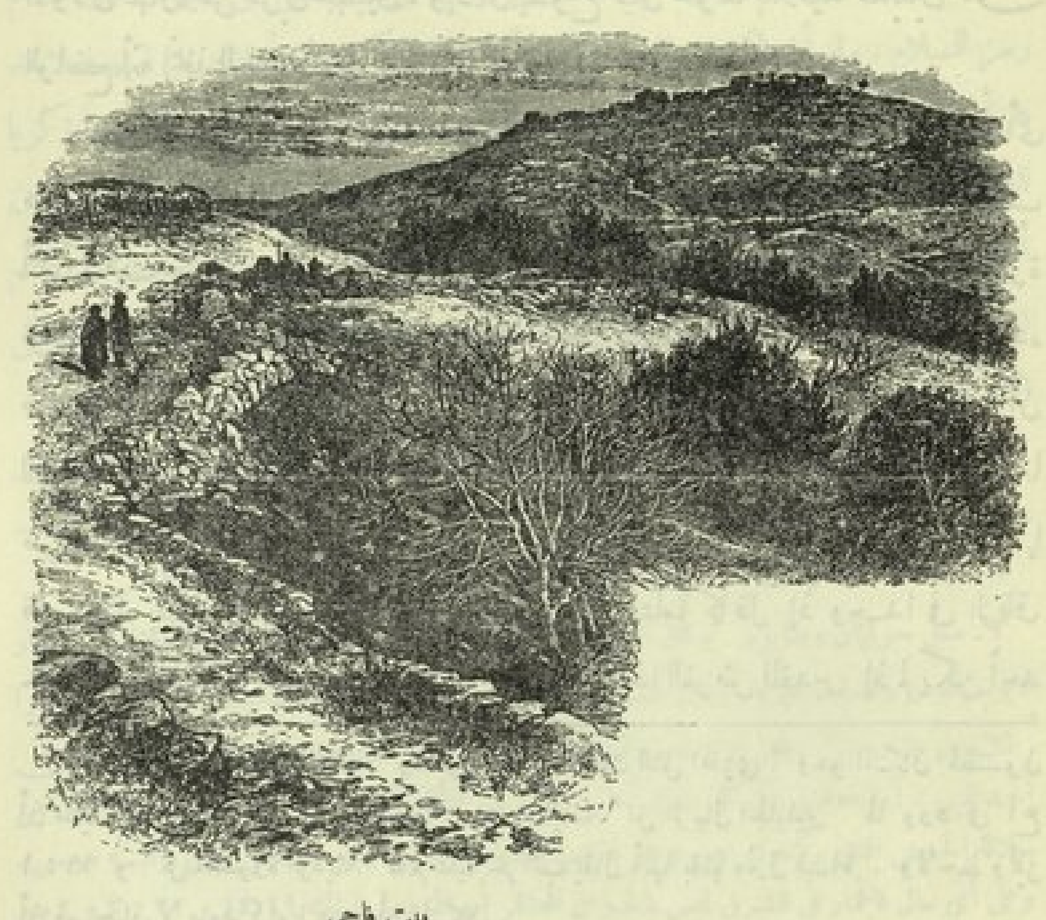
"اركب متقدما فى بهاء ومجد ، وفى أبهة
متواضعة اركب إلى الموت !" أحد المرتلين

كان هناك شعور عام أنه رغم كل ما حدث في الآونة الأخيرة فان يسوع سيحضر فى عيد الفصح . كان القوم (١) يتناقشون باستمرار فى

---

١ - مت ٢١ : ١ - ١١ و مر ١١ : ١ - ١١ و لو ١٩ : ٢٨ - ٤٠ و يو ١٢ : ١٢ - ١٩ .

احتمال مجيئه إذ كان حضوره المرتقب منتظرا بدهشة عميقة واهتمام .
وعلى ذلك فعندما علموا صباح الأحد باكرا أنه لا بد سيدخل المدينة المقدسة أثناء هذا اليوم كان الحماس عظيما جدا . ونشر الخبر عديد من اليهود الذين زاروا بيت عنيا في الليلة السالفة بعد أن أنهى غروب الشمس السبت وصار مباحا أن يطيلوا



بيت فاجي

رحلة يوم السبت . ولذلك استعد جمع كثير جدا لمقابلته والترحيب بالمخلص الذى أقام الميت .
ابتدأ رحلته ماشيا . وكانت توجد ثلاثة طرق توصل من بيت عنيا إلى أوروشليم

قاطعة جبل الزيتون ، أحدها بين قمتيه الشمالية والوسطى ، وثانيها يرتفع إلى أعلى بقعة في الجبل وينحدر مارا بقرية حديثة تسمى الطور ، والطريق الثالث ، وهو حتى الآن ، والذى لا بد أن كان فى كل زمان الطريق العام ، يلتف حول الكتف الجنوبي للكتلة الوسطى من الجبل ويفصل ما بينه وبين « تل المشورة الرديئة » (١) . كان الطريقان الأولان عبارة عن ممرين جبليين ، وإذ أن يسوع كان محوطا بتلاميذ عديدين فمن الواضح أنه اتخذ الطريق الثالث الوسيع السهل .

مروا تحت نخيل بيت عنيا (٢) واقتربوا من حدائق التين فى بيت فاجي ، أى « بيت التين » ، وهى ضاحية صغيرة أو مزرعة لم يكتشف للآن موضعها ويغلب أنها كانت جنوبى بيت عنيا وعلى موقع النظر منها . وإلى هذه القرية أو أى دسكرة قريبة منها أرسل يسوع اثنين من تلاميذه . ومن الوصف الدقيق للمكان الذى أورده مرقس البشير نظن أن بطرس كان أحدهما . وإن كان هذا الظن صادقا فالغالب أن التلميذ الذى رافقه كان يوحنا . وأخبرهما يسوع أنهما إذا دخلا القرية سيجدان أتانا مربوطة ومعها جحش فليحلاهما ويأتيانه بهما . فان صادف أن عارض مالكهما فليسكتاه بقولهما له [الرب محتاج إليهما] . وحدث تماما كما قال إذ وجدا فى الزقاق خلف البيت (٣) الأتان والجحش الذي كان معدا لهذا الغرض المقدس إذ لم يكن أحد

١ ـ التقليد يسميه " تل المخالفة " وملتون يسميه " ذلك التل المخزي " وهو المكان المظنون أن سليمان بنى عليه المرتفعات الوثنية ويسمى أيضا " تل الرجال الجليليين " لما ورد فى اع ١ : ١١ و " تل المشورة الرديئة " تقع عليه خرائب يقال أنها بقايا منزل قيافا . ولاحظ وليمز أن قبر حنان لا يبعد كثيرا عن هذا المكان .

٢ ـ لا يوجد نخيل فى بيت عنيا الآن : ولكن لا بد أنه كان فى ذلك الزمان . وفى كل فلسطين يندر الآن النخيل وأشجار التين وكروم العنب . يقول بعضهم أن بيت فاجى هى " أبو ديز " . ويقول لانيفوت أنها من ضواحى أوروشليم استنادا على بعض مراجع التلمود ولورود ذكرها فى أوروشليم ودائما قبل بيت عنيا . وأظن أنها كانت إلى الشرق منها .

٣ ـ مر ١١ : ٤ .

قد ركبه قط (١) . ولما علم صاحبهما بطلبهما سمح لهما في الحال بأخذ الحيوانين فقاداهما إلى يسوع واضعين الثياب عليهما إظهارا للاحترام الرسمي (٢) . واعتلى الجحش وابتدأ الموكب المنتصر . لم تكن حركة فتنة لأثارة الحماس السياسي. ولم تكن كبرياء مستفزة لتذكار انتصار طموح . بل كانت مجرد انفجار فرح ريـــفى ، مجرد حبور جليليين مساكين وتلاميذ محتقرين . لم يركب على فرس حرب ولكن على حيوان كان عندهم رمز السلام . ولو أن الأمميين المتعجرفين رأوا هذا الموكب لهزأوا به بل انهم فعلا قد هزأوا من ذكره (٣) . ولكن الرسل تذكروا فى الأيام المستقبلة انه قد أتم نبوة زكريا القائلة : [لا تخافي يا ابنة صهيون هوذا ملكك يأتيك وديعا راكبا أتان وجحشا ابن أتان] (٤) .نعم انه كان موكبا متواضع الأبهة جدا ، ولكن إلى جانبه كم تتضاءل أعظم انتصارات الحروب الشنيعة والفتوحات الظالمـــة فتظهر عديمة الأهميـة وتستدعى الاستخفاف والاحتقار .

وركب يسوع على الجحش الذى لم يعتله أحد قبله واقتاده من لجامه بعض تلاميذه.

---

١ ـ عدد ١٩ : ٢ و تث ٢١ : ٣ و صم ٦ : ٧ .   ٢ ـ قارن ٢ مل ٩ : ١٣ .

٣ ـ مثل جوليان وسابور . وكان الرومان يهزأون من اليهـود فى كل أمر له علاقـة بالحمـار (يوسيفوس وتاسيتوس) . ونال المسيحيون نصيبهم من التنكيت والتبكيت الفـارغ حتى دعوا " فلاحين مزارعين " وقيل إن سابور قدم لليهود حصانا ليركبوا عليه مسياهم المنتظر ولكن أحد اليهود أجابه بحنق أن كل خيله أحقر بكثير من الحمار الذي سيركبه المسيـا لأنه كان من سلالة الجحش الذى ركبه ابراهيم وهو ذاهب ليقـدم اسحق ومن الجحش الذي ركبـه موسى . وعلى أي حال فالحمار فى الشرق ليس بالحيوان المحتقر أو المرذول (تك ٤٩:١٤ و ٢٢ : ٣ و ٢ صم ١٣ : ٢٩ و مض ٥ : ١٠) ولكن من الغريب أن يوسيفـوس إذ رآه محتقـرا من الأوروبيين والأمميين كتبه " الحيوان " و " الحصان " . ومن الواضح أن يسوع ركب على الجحش الذى يسلس قياده وهو سائر إلى جانب أمـه . راجع اع ٢٣ : ٢٤ .

٤ ـ هذا الاقتبـاس مزيج من اش ٦٢ : ١١ و زك ٩ : ٩ والترجمـة العبرانية معناهـا الحرفى " سيأتى فقيرا راكبا على حمار بل على جحش ابن أتان " .

وسرعان ما نزع القوم ثيابهم يفرشونها (١) أمامه على الطريق ، وقطعوا أغصان الزيتون والتين والجوز وطرحوها أيضا على الطريق . وحينئذ انفجر التلاميذ فى حماس يهللون قائلين [هوشعنا يا ابن داود . مبارك الملك الآتى باسم الرب ملك اسرائيل . هوشعنا فى الأعالى] (٢) . وتلقفت الجموع هذا التسبيح المفرح ورددوه وأخبروا بعضهم كيف انه أقام ليعازر من الأموات (٣) .

وكان الطريق يتصعد تدريجيا إلى مراقي جبل الزيتون فى حقول خضراء وتحت أشجار مظللة إلى أن ينحنى فجأة نحو الشمال . وحتى هذه الزاوية من الطريق كانت أوروشليم محجوبة وراء كتف الجبل . أما عندها ففى الجو الصافى تظهر بوضوح كامل للنظر . وإذ أنها محاطة بوديان منخفضة خضراء تبدو عالية هذه المدينة ذات الذكريات التي تعد بالآلاف . وكانت أشعة الشمس فى الصباح تتكسر على الأبراج الرخامية وقباب الهيكل الذهبية وتنعكس كالنيران المشتعلة فى أضواء بهية تضطر الناظر أن يخفض بصره (٤) أو يحوله عنها . ولمحة مثل هذه لمدينة مثل هذه لها أثر بالغ فى كل الأزمان . وحتى الآن كثير من المسافرين اليهود والأمميين إذا ما وصلوا إلى هذا المكان يشدون لجم خيولهم ويتفحصون النظر فى شعور عميق يجل عن وصفه أى كلام . وأوروشليم في تلك الأيام « فى ملامتها الفخمة من الأبراج المتعالية » كانت تعد احدى عجائب الدنيا (٥) . فكان منظرها لا يقاس فى جلاله مع منظر مدينة اليوم الخربة

---

١ - مت ٢١ : ٨ .

٢ - هذه التسابيح مقتبسة من مزامير التهليل (١١٣ - ١١٨) والتى كانت ترنم فى عيد المظال وهوشعنا = أوصنا = خلصنا (مز١١٨ - ٢٥) .

٣ - يو ١٢ : ١٨ الترجمة الأصلية للحرف ليست " حينئذ " ولكن من أجل هذا أو لذلك .

٤ - يقول يوسيفوس " أنها كانت تضطر من ينظر إليها فى الصباح عند شروق الشمس أو فى الغروب عند أفولها أن يخفض بصره كما يفعل عندما يجابه قرص الشمس ذاته " .

٥ - تاريخ تاسيتوس .

المتهدمة . فمن يقدر أن يصف بل من يقدر أن يتدخل في موجة العطف الألهى العظيمة التى شعت من نظر المخلص فى هذه اللحظة وعند هذا المنظر عندما أبصر كتلة الذهب والثلج هذه ؟ ألم يكن هناك إعجاب وفرح فى قلب ملكها الحقيق ؟ ما أبعده عن كل هذا ! على قبر ليعازر ذرف دموعا صامتة ولكن هنا بكي بنحيب مرتفع (١) . لم يكن لكل عار هزئه ولا لكل آلام تعذيبه التى تمت بعد ذلك بخمسة أيام القوة أن تستخلص منه أنة واحدة أو تبل جفونه بدمعة واحدة ، ولكن هنا تغلبت كل الشفقة التى كانت تفيض بها نفسه فلم يبك فقط بل انفجر فى نوبة من الانتحاب حتى أن صوته المخنوق كان يجاهد في الظهور . فياله من نصر مساوى غريب ! ويا لها من مقاطعة غريبة لتهاليل الفرح ! المخلص يبكى على المدينة التى فات زمان افتقادها ! الملك يتنبأ عن الخراب الكامل الذى سيحل بالأمة التى أتى ليملك عليها ! بينما كانت الجموع تنظر وتدهش ولا تفقه ما تفكر أو تقول صرخ [لو كنت أنت تعلمين في هذا اليوم ما هو لسلامك] وهنا قاطع الحزن الجملة ، وعندما وجد الصوت ليستأنف أضاف فقط [أما الآن فقد خفي عن عينيك . إنه ستأتى عليك أيام يحاصرك أعداؤك بترسة ويحيطون بك ويضايقونك من كل جهة ويدكونك وبنيك فيك ولا يتركون فيك حجرا على حجر حيث أنك لم تعرفى زمان افتقادك] . « كانت هذه آخر دعوة من مجد الله على جبل الزيتون قبل اختفاء بهائه (السكيناه) عن عيونهم إلى الأبد » (٢) .

ولقد تمت هذه النبوة حرفيا بشدة وفظاعة قبل انتهاء خمسين عاما . ولأربعة سنين قبل الحرب بينما كانت المدينة فى كامل سلامها ونجاحها طاف فى شوارعها

---

١ - (فدمعت عينا يسوع) يو ٩ : ٣٥ (بكى عليها) لو ١٩ : ٤١ .

٢ - فى تفسير حز ١١ : ٢٣ يقول الربيون ان السكيناه استقرت ٣ سنين على جبل الزيتون تدعو الناس للتوبة بلسان بشري وأخيرا اختفت إلى الأبد .

رجل (١) حزين مذهول يكرر الصراخ : « صوت من الشرق . صوت من الغرب . صوت من الاربع رياح . صوت على أوروشليم والمسكن المقدس . صوت ضد العريس والعروس . صوت ضد جميع هؤلاء الناس » . ولم تستخلص منه الجلدات أو التعذيبات كلمات أخرى سوى قوله « الويل لأوروشليم ! الويل للمدينة ! الويل للناس ! الويل للمسكن المقدس ! » وظل هذا الرجل على هذه الحال حتى قتل بعد سبع سنين إبان الحصار بحجر من منجنيق وكان صوته صدى يردد تلك النبوة .

لم يشأ تيطس (٢) أن يحاصر المدينة فى البدء ، ولكن يأس وعناد اليهود ألجآه إلى ذلك فأحاطها بسور من الطين والخوازيق . فلما تخرب سور اللبن هذا أقام حولها حائطا من البناء . ولم يرد أن يضحي بالهيكل ، بل عمل كل جهد ممكن للمحافظة عليه ، ولكنه اضطر أن يتركه رمادا . ولم يعتزم أن يكون قاسيا على سكان المدينة ، ولكن تعصبهم المميت في مقاومتهم محا كل رغبة عنده فى الابقاء عليهم حتى انه أخذ على عاتقه ما قارب افناء هذا الجنس ، بصلبهم بالمئات وبعرضهم في الملعب بالآلاف ويبعهم عبيدا بالملايين ،حتى ان يوسيفوس قال بعد الحصار مباشرة انه لا يمكن لانسان حتى لو كان من عرض الصحراء أن يرى فى اليهودية أى جمال . ولو أن يهوديا هبط المدينة فجأة فمهما كانت معرفته للمدينة قبل ذلك لتساءل أى مكان هذا ؟ ومن يتطلب فى أوروشليم الحديثة أن يجد آثارا من أيام المسيح لهذه المدينة التى فتحت عشر مرات فعليه أن يحفر عليها على عمق عشرين قدما تحت الثرى وقل ان وجد شيئا . وإنما لا زالت فى جهة واحدة من المدينة فقط بعض الحجارة الضخمة شاهدة على مدى الخراب الذى تمثله يجتمع إلى جوارها كل يوم جمعة بعض اليهود الفقراء واقفين كل واحد فى الكفن الذى سيدفن فيه وهم يبكون ويولولون على أمجادهم المتناثرة الغابرة التى

١ - يشوع بن أنانوس .
٢ - ابن فاسبسيان .

لبينهم الحرب المدنس (١) .

توقف الركب برهة ريثما ذرف يسوع دموعه السخينة ونطق بويلاته التنبؤية .



تمثال تيطس (عن فيسكونتي)

١ - قال الدكتور فرانكل يصف ما خالجه عندما وقع بصره على أورشليم "مرت أمام ذهني أعمال ومناظر الأجيال الأولى وهتف داخلي صوت يقول "مقابر على مقابر في مقابر !" فتأثرت جدا وانحنيت فوق السرج أمام مدينة جيهوفاه "يهوه" ونزلت الدموع على عنق الجواد .

ولـكن ها قد أبصر القوم الذين في وادى قدرون وحول أسوار أوروشليم والحجاج الذين قد تزاحمت مظالهم وخيامهم على المنحدرات الخضراء - أبصروا الجماعة المقبلة وسمعوا صدى هتاف الفرح فعلموا معنى هذا الهـزيج . وفى ذلك الوقت كان النخيل كثيرا حول أوروشليم ، وإن كان اليوم قليلا ، فقطعوا من سعفه النضير ، وتدفق الناس على الطريق ليرحبوا بالنبي الآتى (١) . وعندما تلاقى الركبان الزاخران ، من القوم الذين صحبوه من بيت عنيا وممن خرجوا ليقابلوه من أوروشليم ، تركوه راكبا فى الوسط وتقدم الذين يسيرون قدامه والذين يسيرون خلفه وهم يلوحون بالأغصان ويهللون قائلين [هوشعنا] في طريقهم إلى باب أوروشليم .

وكان بين الجموع بعض الفريسيين ، فكان فرح الناس حنظلا وافسنتينا عندهم . ما معنى هذا الهتاف المسياوى والألقاب الملوكية ؟ أليست غير لائقة وخطرة ؟ ولماذا سمح هو بها ؟ [يا معلم انهر تلاميذك] . ولكنه لم يفعل بل قال لهم [ان سكت هؤلاء صرخت هذه الحجارة] . وربما أعادت هذه الكلمات إلى ذهنهم التحذيرات والويلات ضد الأنانية والقسوة ثم نقمة الخراب الكامل الواردة فى حبقوق النبى [لأن الحجارة من الحائط تنادى والشظية من الخشب تجاوبها] وشعر الفريسيون أن لا قوة لهم على مقاومة تيار هذه الحماسة .

---

١ - (سعفا من النخل) يو ١٢ : ١٣ التى كانت معروفة جيدا ليوحنا البشير . والتى أعطت بيت عنيا اسمها لو أن معنى اشتقاق الكلمه صحيح . ويظهر أن استانلى هو أول من فهم ترتيب الدخول الانتصارى على حقيقته . قارن كيف أن الشوارع زينت بالرياحين أمام مردخاى (استير ١٠ : ١٥) ورحب بالمكابيين أيضا على هذا النحو (٢ مكا ١٠ : ٧) وفى " كيتوبه " نقرأ كيف فرشوا الثياب أمام نيقوديموس بن جوريون وأيضا مثل مدهش على صحة ودقة البشائر بالأعادة العرضية لنفس المنظر عندما زار القنصل الانجليزي المستر فاران أوروشليم فى زمن الضيق الشديد سنة ١٨٣٤ .

وعندما وصلوا إلى الأبواب ارتجت المدينة كلها بحماس وخوف وتساءلوا [من هذا]، وهم يطلون من المشربيات ومن على السطوح أو يتنحون جانب الأسواق والطرقات ليفسحوا لهم كى يمروا . وأجاب مصاحبوه بشىء من الزهو بمواطنهم العظيم



دخول أوروشليم (عن بوسيو)

- ولكن كما لو كان أيضا بظل من الريبة قد اعتور آمالهم السياوية عندما احتكوا باحتقار وكراهية أهل المدينة - [هذا هو يسوع النبي الذى من ناصرة الجليل] .

لم يتقدم الموكب ذاته أزيد من قاعدة جبل المريا (الهارهبيت اش ٢ : ٢) حيث لا يمكن أن يجتاز بعدها إنسان فى حلة السفر أو بأرجل غير مغسولة . فقبل أن يصلوا إلى باب شوشان تفرق الجموع ودخل يسوع . السيد الذى يطلبونه أتى فجأة إلى هيكله . أتى رسول العهد ولكنهم لم يعرفوه ولم يسروا به ، مع أن أول عمل له كان

ليطهره وينقيه كي يقدموا له ذبائح البر (١) .وعندما نظر إلى كافة الأشياء التي حوله (٢) تحرك قلبه مرة ثانية بغضب شديد . لثلاث سنين مضت ، في الفصح الأول ، قد طهر الهيكل ولكن ويا للأسف عبثا ! لأنه سرعان ما عاد الطمع فتغلب على الاحترام واحتلت الردهات المزينة بالفسيفساء والمظلات ذات العمد التي في رواق الأمم قطعان من الثيران والماشية وباعة الحمام والصيارف ، وامتلأ المكان من قذارة الماشية المحتشدة وانبعث منه صدى أصوات المساومات ورنين الذهب (٣) . لن يبدأ تعليمهم في المكان المدنس ، فمرة ثانية بمزيج من الحزن والغيظ طردهم خارجا دون أن يقدر أحد أن يقاوم غيرته المحرقة . ولم يحتمل حتى غدو الناس جيئة وذهابا في هذا المكان الهادىء ، محولين اياه إلى سويقة . ولا شك أن ازدحام النـــــاس - ويقال انهم كانوا نحو ثلاثة ملايين يهودي - الوافدين على المدينة المقدسة في أسبوع العيد قد جعل منظر رواق الأمم أسوأ وأشد هرجا منه في أي وقت آخر سيما في هذا اليوم الذي حسب الناموس كان الزوار

---

١ - مت ٣ : ١ - ٣ .

٢ - اتبع ترتيب متى - لا مرقس - في اثبات تطهير الهيكل يوم أحد السعف بعد دخوله منتصرا مباشرة مفضلا هذا الترتيب لهذه الأسباب (١) من غير المرجح أن يكون قد بدأ رحلته متأخرا في النهار لاشتداد الحر حتى في هذا الوقت من السنة ولأن هذا ضد عاداته (٢) فان كان قد بدأ مبكرا ولم يترك الهيكل إلا متأخر (مر ١١ : ١١) فليس هناك ما يستدل به على كيفية صرفه اليوم (لأن الرحلة إلى أورشليم تستغرق ساعتين على الأكثر) إلا إذا رتبنا أن الحوادث الواردة في المتن قد حدثت أيضا يوم الأحد (مت ولو ويو) (٣) ان تطهير الهيكل نتيجة طبيعة أكثر للدخول المنتصر وليس للمجيء الهادىء في اليوم التالي (٤) لا توجد أسباب لارجاء هذا التطهير لليوم التالي .

٣ - عدد الحجاج الغرباء الكبير والضرورة الموضوعة لتغيير عملتهم التي عليها رموز وثنية إلى " شاقل القدس " (نصف شاقل حسب شاقل القدس) خر ٣٠ : ١٣ كانت تجعل تجارة هؤلاء القوم مكسبة جدا لأن العمولة كانت ١/١٢ من الشاقل . لكن وجود هؤلاء المتكسبون يتعارض مع قانون زك ١٤ : ٢١ حيث كلمة كنعاني تعني تاجر .

مضطرين لشراء وانتخاب وفرز حمل الفصح (١) ولكن ولا أي اعتبار لتجارتهم أو تسهيل أمورهم جعله يحتمل أن يصيروا بيت أبيه الذى هو بيت الصلاة لكل الأمم إلى مكان أشبه الأشياء بالمغاور القذرة التي كثيرا ما رآها في وادي الحمام حيث كانت تتشاجر عصابات اللصوص على الأسلاب التي نهبوها بغير وجه حق (٢).

ليس قبل أن أعاد الهيكل إلى السكون والاحترام استطاع أن يبدأ تعاليمه المعتادة. ولا شك أن الأمر كان أسهل هذه المرة لأنه قد تممه مرة أخرى قبل ذلك. وعندما بطلت الغوغاء التعسة وعاد الهيكل إلى ما يجب أن يكون عليه دائما تقدم إليه المرضى فشفاهم، وتكاثر حوله السامعون بالمئات متعجبين من التعاليم التي تخرج من فيه (٣)، وحتي أطفال الهيكل الصغار في فرحهم البرىء استمروا يهتفون «أوصنا» (٤) ترحيبا به. أما رؤساء الكهنة والكتبة والفريسيون والمتقدمون فرأوا واحتقروا وتعجبوا وتواروا. ولم يستطيعوا أن يعملوا شيئا إلا أن يصروا على أسنانهم في عجزهم قائلين بعضهم لبعض انهم لا يقدرون أن يعملوا شيئا لأن كل العالم قد ذهب وراءه. ولكنهم كانوا يأملون أن تأتي ساعتهم وسلطان الظلمة. لقد جرأوا أن

---

١ - خر ١٢ : ١ - ٥ .

٢ - "مغاور الأشقياء" أشد من مخبآت اللصوص. وإن كانت (بيت الصلاة) قد ذكرهم بأرميا ٧ : ٦ وأشعيا ٥٦ : ٧ فإنها لا شك تذكر بفكرة "الدم البرىء" وبالمكسب الطامع. ولقد صار الهيكل بعد ذلك بسنين قليلة "مغارة قتلة" عندما جعله السيكاريون مسرحا لقساوتهم. قال يوسيفوس لقد أصبح الهيكل الآن "ملجأ وأيضا محلا للظلم". وقال حنان في خطبة له "خير لي لو أنني مت قبل أن أري بيت الله مملوءا بالمخالفات وهذه الأماكن المقدسة التي لا يجب أن تداس جزافا مملوءة بأقدام سفكة الدماء الأشرار". وعندما كان يجرح أحد شيعة الغيورين كان يجري إلى الهيكل فينجس الأرض من دمه. وفي كلمة شاملة جامعة "لم تقتل طائفة فيهم مثل طائفة الرحمة".

٣ - لو ١٩ : ٤٨ .

٤ - المعرب : (أوصنا) هو النطق الشائع والوارد في اللغة القبطية والكلمة معناها "يارب خلصنا".

يقولوا له كلمة واحدة فردهم جوابه الهادىء فى خزى متفرقين . لفتوا نظره متذمرين من صراخ الأطفال فى أروقة الهيكل قائلين : [أما تسمع ما يقوله هؤلاء] ؟ ربما كانوا أطفالا يعملون فى خدمات الهيكل الموسيقية . فان كان الأمر كذلك فلا غرو أن ازداد اشتعال غضب شيعة الكهنة . ولكن يسوع ، بسكون ، حمى الأطفال من كراهيتهم غير المخفاة وأجابهم [نعم . أما قرأتم قط فى الكتب أن من أفواه الأطفال والرضع أعددت تسبيحا] (١) .

وانقضت ساعات هذا اليوم الخالد فى أحاديث سامية وسط محاولات خاسئة من أعدائه ليعيقوا عمله أو يغيظوه ، وامتاز أيضا بحادثة لها روعة عميقة . دهش بعض اليونانيين ممن رأوا وسمعوا يسوع - وربما كانوا ممن تهودوا حديثا واستهواهم العيد للحضور إلى أوروشليم - وأتوا إلى فيلبس وطلبوا إليه أن يحتجز لهم مقابلة خاصة مع يسوع (٢) . بحث الكلدان الشرقيون عن مهده وأتى اليونان الغربيون إلى صليبه (٣) . أما من هم ولماذا طلبوه فلا نعلم . إلا أن تقليدا ملذا ، لكن لا يمكن الارتكان عليه ، يخبرنا أنهم سفراء لابيقاريوس الخامس ملك الرها الذى عندما سمع بمعجزات يسوع وبالمخاطر التى هو معرض لها أرسل هؤلاء السفراء يمنحونه سلاما ومكانا أمينا فى مملكته . ويذكر التقليد أنه مع رفض يسوع لما عرضه أبيقاريوس فقد كافأ إيمانه بكتابة خطاب له وشفائه من مرضه (٤) .

---

١ - مز ٨ : ٢ . هلا تذكروا بقية الآية (بسبب أضدادك لتسكيت عدو ومنتقم) .

٢ - يو ١٢ : ٢٠ - ٢٥ .

٣ - قد دعوا يونانيين وعليه فيكونون من الأمم . أما الظن بأنهم ممن تهودوا حديثا فيظهر من يو ١٢ : ٢٠ (قارن أيضا اع ٨ : ٢٧) .

٤ - الخطاب الأبوكريفى من أبيقاريوس للمسيح قد ذكره يوسابيوس (راجع تاريخ الكنيسة) الذى يعترف أنه قد استقاه من سجلات محفوظة فى (الرها) واقتبسه موسى كورينيسيس (راجع معلمة الانجيل) والخطاب والجواب يرجع عهدهما إلى الجيل الثالث . ويقول ابيقاريوس

ولم يذكر لنا يوحنا البشير شيئا عن الظروف المحيطة . ولم يخبرنا لماذا طلب هؤلاء اليونان مقابلة يسوع من فيلبس خاصة . وليس تركيب اسمه اليوناني بذى شأن (١) ، فان بيت صيدا كانت مدينة ذلك التلميذ . وكان كثير من اليهود فى ذلك الوقت يتخذون أسماء وألقابا يونانية لا سيما الدارجة فى عائلة هيرودس . لم يجرؤ فيلبس أن يستجيب طلبهم فى الحال ، وهذا دليل رقيق على الاحترام الشخصى الذى كان يشعر به التلاميذ نحو معلمهم ، بل ذهب واستشار مواطنه أندراوس ، واتحد التلميذان في إخبار يسوع عن مطلب اليونان . ولا ندرى إن كانا قد قدما الطالبين إلى حضرته فعلا أم لا . ولكن على أي حال قد رأى يسوع فى هذا الحادث علامة جديدة على أنه قد أتت الساعة كى يتمجد اسمه ، إذ أن يسوع أجاب وقال إن حبة الحنطة يجب أن تموت قبل أن تأتى بثمر . وكذلك تمجيده لا بد أن يأتى عن طريق آلامه وأن الذين يتبعونه يجب أن يستعدوا فى كل الأوقات لأن يتبعوه حتى الموت . وإذ هو عالم أن ملاقاة تلك الساعة المخيفة معناها الانتصار عليها قال [أيها الآب مجد اسمك] . وللمرة الثالثة سمع صوت من السماء يقول [مجدت وأمجد أيضا] (٢) . ويخبرنا يوحنا البشير صراحة أن هذا الصوت لم يميزه الجميع على السواء . حسب بعض الجمع أنه صدى

أنه سمع بمعجزاته وتحقق من أصله الالهى فخر له قائلا « أكتب هذا إليك طالبا منك أن تتنازل وتتعب ذاتك بالحضور لتشفينى من سقمى . وإذ علمت أن اليهود يتقمقمون عليك ويطلبون ضررك فأنا عندي مدينة جميلة صغيرة تكفينا نحن الاثنين » . والجواب الذى يشابه فى لغته كتابات البشائر يبدأ بالاشارة إلى يو ١٠ : ٢٩ وبعد رفض طلب الملك يضيف « بعد صعودى سأرسل لك واحدا من تلاميذي يشفيك من مرضك ويمنحك الخلاص أنت وكل الذين معك » ويؤخذ من سيدرينوس أنه كان مضروبا بالبرص ، ومن بروكوبيوس أنه كان مريضا بالنقرس .

المعرب : قد ذكر هذا الخطاب الاسقف ايسيذوروس فى كتابه الخريدة النفيسة .

١ - يلاحظ لانه ما جاء بالتقليد أن فيلبس كرز بعد ذلك فى فريجيه وأندراوس فى اليونان .

٢ - يو ١٢ : ٢٨ .

صوت رعد ، وآخرون قالوا [ملاك هو الذى كلمه] . ولم يفهم الصوت إلا القليلون . لذلك أخبرهم يسوع أن هذا الصوت كان من أجلهم وليس من أجله ، وأن دينونة هذا العالم - إدانة الخطية من الروح القدس - قد أتت الآن ، وأن رئيس (١) هذا العالم سيطرح خارجا ، وأنه يجب أن يرفع مثل حية النحاس فى البرية (٢) ، وأنه متى ارتفع هكذا سيجذب إليه كل أحد . وتحير الناس من هذه التلميحات المبهمة القاتمة فسألوه ما يمكن أن يكون معنى أن ابن الانسان ينبغى أن يرفع . فان كان يعنى أنه يجب أن يؤخذ عنوة إلى ميتة عار فكيف يكون هذا ؟ أليس لقب ابن الانسان أحد أسماء المسيا ؟ ثم ألم يذكر النبى أن حكم المسيح يدوم إلى الأبد (٣) . الجواب الحقيق على سؤالهم لا تقبله سوى القلوب الروحية . لم يكونوا مستعدين له . كان يسيئهم ويجرحهم . لذلك لم يجاوبهم يسوع ، ولكنه أمرهم أن يسيروا فى النور فى الزمان القليل الذى سيبقى فيه معهم فيكونوا أبناء للنور . لقد أتى نورا للعالم ، والكلمات التى فاه بها ستدين أولئك الذين رفضوه . لأن كل كلامه - كل رد قصير وكل حديث طويل - كان من عند الآب . كان أشعة ضياء من عند أبى الأنوار ، أشعة محيية من الحياة الأبدية (٤) .

ولكن كل هذه الحقائق الشافية المجيدة كانت غير مفهومة لدى العيون العمياء وميتة للقلوب المتحجرة . وحتى القليلين من ذوى الرتب العالية والثقافة الواسعة ، الذين فهموا قليلا منها وآمنوا قليلا بها ، لم يجسروا أن يعترفوا بالايمان به لأن الاعتراف به

---

١ - يقصد ما يسميه اليهود "سار هاعولام" وما دعاه بولس "اله هذا العالم" (٢ كو ٤ : ٤) والكلمة اليونانية "كوزموس" ترادف العبرانية "العولاميم" . وكان اليهود على خلاف اليونان لا يعتبرون جمال الخليقة الظاهرى ولكن معناها الداخلى المركز ليس على الترتيب المادى بل النظام المعنوى . (راجع وستكوت وقارن اف ٢ : ٢) .

٢ - قارن يو ٣ : ١٤ و ٨ : ٢٨ .

٣ - (الناموس) هنا اصطلاح عام على العهد القديم . والاقتباس من مز ٨٩ : ٣٦ قارن يو ١٠ : ٣٤

٤ - يو ١٢ : ٤٤ - ٥٠ .

كان يجر خطر « الشيريم » ، أى الحرم الكبير الشنيع ، من مجلس السنهدرين ، وهذا ما لا قبل لهم على احتماله ، [لأنهم أحبوا مجد الناس أكثر من مجد الله] .

وعليه فقد انسدل في ختام يوم الانتصار بعض من الحزن وشعور من الرفض فلم يكن أمانا أن يبقى السيد فى المدينة ، ولم يكن أيضا موافقا لرغباته ، فانتحى خفية من الهيكل وأخفى ذاته عن أعدائه اليقظين متبوعا حتى خارج أسوار المدينة بمجلس أتباعه الجليليين . [خرج خارج المدينة إلى بيت عنيا] مع الاثنى عشر ولكن الغالب أنه وإن كان ولى خطواته نحو بيت عنيا فلم يدخل إلى القرية لأن التخفى كان غرضه فى هذا الظرف وهو ما لا يدركه لو أنه عاد إلى المنزل المعروف حيث رآه كثيرون في وليمة المساء السالف . والأكثر احتمالا أنه اختار مكانا هو وتلاميذه على منحدر التل المظلل بأشجار الزيتون ليس بعيدا عن ملتقى الطرق التي تؤدى إلى القرية الصغيرة . ولم يكن غير متعود على ليال يقضيها فى الهواء الطلق وهو ورسله ملتحفين ثيابهم الخارجية فيمكنهم النوم العميق الهادى، على العشب الأخضر تحت ظلال الأشجار (١). وكان ظل الخائن يهوذا واقعا عليه وعلى قطيعه الصغير . هل نام الخائن هو أيضا بهدوء مثل الباقين . ربما ...! فان الندم ربما يقض مضجع الرجل الواقع فى الشر لأول مرة . وعندما يذوق اللذة ويزول وقر الضمير ولا يبقى من جرم الجريمة إلا الخراب الذى أنتجته فان الندم أيضا يستكين على وسادة النوم وفى الغالب يترك مجالا فسيحا دون إزعاج . عندما يختار الرجل طريقه فانه يتركه وحده ليتبعه إلى النهاية (٢) .

---

١ ـ كلمة (بات) الواردة فى مت ٢١ : ١٧ والتى تعنى حرفيا "عسكر" لا تحتم بالضرورة كونه نام فى العراء . وإن كان هذا هو الأغلب المرجح (١) هذا هو المعنى الأصلى للكلمة قارن قض ١٩ : ١٥ و ٢٠ (٢) يستخلص هذا من لو ٢١ : ٣٧ (٣) كانت عادته أن يذهب مساء إلى جبل الزيتون وعلى ما نعلم لم يكن هناك منزل (٤) نومه فى بيت عنيا ذاتها لا يتفق مع يوحنا (١٢ : ٣٦ فمضى وتوارى عنهم) .

٢ ـ فرود فى كتاب تاريخ أنجلترا .



أورشليم (من جبل الزيتون)

الفصل الخمسون

يوم الاثنين من أسبوع الآلام
يوم الأمثال

(تفاح من ذهب فى مصوغ من فضة)
ام ٢٥ : ١١

١ - تيقظ السيد مبكرا من نومه فى العراء جوار بيت عنيا وبمم شطر

المدينة والهيكل ، وفى طريقه شعر بالجوع . وكان المتدينون المتمسكون يحفظون يومى الاثنين والثلاثاء كأيام صوم اختيارية . وقد أشير إلى ذلك فى مثل الفريسى وهو يقول [أصوم يومين في الأسبوع] . ولكن كان هذا عملا زائدا عن الحد في التصوف لم يأمر به أو يقره لا الناموس ولا الأنبياء . أما من أتى لينقل حياة الناس عامة إلى النبل بطهارته الألهية فقد برر ليس بالتضييقات الخارجية ولكن بالتسليم الكامل للنفس . وربما في حماس عطفه لتعليم شعبه قد أهمل الحاجيات العادية للمعيشة أو ربما لم تتيسر الظروف للحصول على طعام من الحقول حيث كان قد قضى الليل . وربما أيضا لم تكن قد مرت بعد ساعة الصلاة وتقديم ذبيحة الصباح التى ما كان يتناول أى يهودى أى طعام قبلها . على أى حال ومهما كان السبب جاع يسوع لدرجة جعلته أن يبحث عن ثمر على جانبي الطريق يقوته ويقويه على عمل يومه . وقليل من البلح أو التين وقطعة من الخبز الأسمر وجرعة ماء كافية فى كل زمان لأكلة الشرقي البسيطة .

وحتى يومنا هذا تكثر الأشجار فى هذه الجهة ولكن ليس بالكثرة التي كان عليها النخيل وأشجار التين والجوز التى كانت تجعل ما حول أوروشليم كبستان مزدهر قبل أن يقطعها تيطس ليستعملها فى الحصار . وكانت أشجار التين تزرع على جانبي الطريق إذ كانوا يعتقدون أن الغبار يساعد على إنمائه (١) . وكان ثمرها المنعش ملكا مشاعا للجميع . ونظر يسوع أمامه على بعد شجرة تين وحيدة (٢) . ومع أن موسم التين لم يكن قد أتى بعد ، ولكن إذ كانت هذه الشجرة مكسوة بالخضرة ،

---

١ ـ راجع كتاب التاريخ الطبيعى لبلينى ومقتبس ماير . حق قطف التين عام (راجع تث ٢٣ : ٢٤) .

٢ ـ مت ٢١ : ١٩ (فأبصر شجرة تين) بالمفرد (وجاء لعله يجد فيها شيئا) مر ١١ : ١٣ تدل على نوع من الدهشة لازدهار الشجرة غير العادي .

وإذ أن ثمار التين ينضج دائما قبل تفتح الأوراق فقد ظهرت تلك الشجرة كما لو أنها مثمرة أزيد من المعتاد . وأوراقها الكثيرة الكبيرة أظهرت أنها عديدة الثمار . ونموها المبكر فضلا عن أنه أظهرها مثمرة فقد أظهرها أيضا فارعة القـــوة . فكانت كل الظروف تدل على وجود « الكرموز » أى الثمر المتأخر البنفسجي اللون وهو التين الخريفي الذى يظل على الشجرة طول الشتاء وإلى أن تخضر أوراق الربيع الجديدة [١] ، أو تدل على وجود « الباكورة » اللذيذة أى الثمار الأولى الناضجة على شجرة التين والذى يحبه الشرقيون كثيرا [٢] . فالمشكلة التى يقيمها بعضهم حول قول مرقس البشير [لأنه لم يكن أوان التين] لا أساس لها بالمرة . إذ لا شك أن يسوع كان معتادا أن يرى فى سهول جنيسارت التين الناضج على الشجر كل شهور السنة عدا شهرى يناير وفبراير كما يقول يوسيفوس . وإلى يومنا هذا يوجد فى فلسطين نوع من التين الأبيض أو المبكر ينضج فى أوائل الربيع ولزمن طويل قبل وجود التين العادى الأسود [٣] . وعلى هذا فأسباب عديدة دعت يسوع أن ينتظر وجود ولو قليل من التين يطفىء به غلة الجوع على هذه الشجرة المورقة التى تبشر بوجود الثمر ولو أن أوان التين العادى لم يكن بعد .

وعندما أتى يسوع إلى التينة ضجر إذ لم يجد عليها شيئا من الثمر مع أن العصير كان يدور فيها والأوراق مفتحة مزدهرة . كانت الشجرة عافرا ومثلا صادقا للمرائى ذى المنظر الخارجي الخلاب المضل والذى لا يدل على حقيقته ، مثلا صادقا للأمة الذى

---

١ ـ هوشع ٩ : ١٠ و اش ٢٨ : ٤ و نح ٣ : ١٢ و ار ٢٤ : ٢ (تين جيد جدا مثل التين الباكورى) .

٢ ـ لا داعى مطلقا لتعمل بعضهم فى التفسير وقولهم " لم يكن طقس جيد للتين " أو لم يكن موسم جيد للتين هذه السنة .

٣ ـ لقد ذكر الدكتور طومسون مؤلف كتاب " ارض الكتاب " أنه أكل من هذا التين فى أوائل أبريل .

تظاهرها الطويل العريض بالدين لم يثمر فيها ثمر الحياة الطيبة . كانت عاقرا ولا أمل في إصلاح عقرها لأنها لو كانت قد أثمرت في السنة الماضية لبقي شيء من « الكرموز » بين أوراقها العريضة ، ولو كانت قد أثمرت هذه السنة لكانت « الباكورة » في لذيذ طعمها وجميل رائحتها قد تكونت قبل أن تظهر الأوراق . هذه الشجرة لم يكن فيها أي أمل في المستقبل كما لم يكن فيها أي بصيص منه في الماضي .

وإذ كانت غاشة عديمة النفع ومجرد عائق للأرض جعلها التحذير الحسي الخالد ضد حياة الرياء المستعصي الذي استمر حتى فات الوقت . فعلى مسمع من تلاميذه نطق عليها بالحكم الرهيب [لا يخرج منك ثمر إلى الأبد] . وبمجرد الكلمة توقفت الحياة المنتحلة وابتدأت الشجرة أن تذوى .

الانتقاد الذي وجه لهذه الأعجوبة غريب في سخافته كما هو غريب في تهجمه لأنه بني على الجهل والتحزب . أولئك الذين ينكرون ألوهية يسوع يسمونها أعجوبة القصاص أو أعجوبة الانتقام أو أعجوبة غضب غير محترم أو اظهار لعدم صبر الأطفال عند اليأس أو غضب غير مهذب ضد الطبيعة البريئة . ولكني أخال انه ولا واحد من الذين يؤمنون أن الحادثة واقعية ومعجزية يستطيع أن يجسر أن يتهم دوافع الذي أجراها . غير أن بعضهم يتقول أنها قصة مفتعلة غير حقيقية إذ يعتبرونها تشير إلى إظهار غير مشروع لغضب نجم عن حرمان بسيط وأنها معجزة تخريب تعدي بها يسوع على مالك الشجرة إن كان لها صاحب أو على حقوق الجمهور . وردي على الاعتراض الأول أنه يكفي جدا وبالتأكيد أن أذكر أن كل صحيفة من العهد الجديد تظهر استحالة الظن أن الرسل والبشيرين كانت لهم فكرة كهذه ضئيلة وكاذبة حتى يتخيلوا أن يسوع ينتقم لمضايقة عرضية من جماد غير مسئول . هل يعقل أن يوصف ذاك الذي أبى عند أمر المجرب أن يشبع جوعه بابدال الحجارة في البرية إلى خبز بأنه قد انساب في غضبه (إذ يعسر التعبير بغير هذا) ضد شجرة لا تعي ؟

قد نجد سخافات غير محترمة طريقها فى الكتابات غير القانونية ولو أن البشيرين تدانوا لكتابة مثلها فبلا أدنى جدال لن تكون لهم القدرة ولا الرغبة على افساد رسم الصورة الألهية الخالدة التى للسيد يسوع المسيح التى مكنتهم معرفتهم للحق وبارشاد روح الله القدوس أن يصوروها للعالم وإلى الأبد كأعن هبة . أما عن إذواء الشجرة فهل وجه أحد لوما إلى صاحب الشجرة فى المثل عندما قال عن شجرة التين غير المثمرة [اقطعها لماذا تعطل الأرض] ؟ هل وجه أحد تهمة القسوة والتخريب ليوحنا المعمدان لأنه صرخ [ها الفأس موضوعة على أصل الشجر فكل شجرة لا تأتى بثمر جيد تقطع وتلق فى النار] ؟ هل وجه أحد تهمة إفساد تصوير خلق الله إلى النبى عندما قال [إنى أنا الرب ... يبست الشجرة الخضراء] كما قال أيضا [وأفرخت الشجرة اليابسة] ؟ عندما يضرب القريص أغصان الكرمة وعندما يحرق البرق الزيتون أو عندما يشق البلوطة الشامخة الملتوية الأغصان ، هل يبدأ أن يجدف على الله سوى أشد الناس جهلا وغباوة ؟ ثم هل هى جريمة تحت أى ظرف استئصال شجرة لا خير فيها ولا نفع منها ؟ فان كان الجواب سلبا فهل هى جريمة أشنع أن تستأصل بأعجوبة ؟ فلماذا إذن يوجه اللوم نقاد متشاككون إلى مخلص العالم الذى يقصر لبنان جميعه أن يكون تقدمة محرقة له لأنه عجل في اذواء شجرة واحدة عقيمة وأسس على إهلاكها ثلاثة دروس خالدة . أولا : كانت رمزا على إهلاك غير التائبين . ثانيا : تحذيرا من خطر الرياء . ثالثا : ومثلا على قوة الايمان (١) .

---

١ - ما يرمى إليه هذا المثل يظهر جليا لأولئك الذين تعمقوا فى درس الأنبياء أكثر منا (هو ٩ : ١٠ و يوئيل ١ : ٧ و ميخا ٧ : ١) . ويلاحظ وستكوت " انه حتى هنا فى برهة اليأس الحزين عندما التفت إلى تلاميذه انقلبت كلمة الدينونة إلى كلمة الرجاء . ليكن لكم إيمان فى الله ومهما طلبتم فى الصلاة فآمنوا أنكم نلتموه . نلتموه سلفا كما يوحى الطلب . وستنالونه " . لقد أطلت عند هذه المعجزة لأنها تقيم صعوبة عند بعض المفكرين الأجلاء . والذين لا يرون فيها الدروس التى أسلفتها (والاثنان الأولان منها يستنتجان من البشائر ولو لم يدونا) يعتبرون

وساروا فى طريقهم ودخلوا الهيكل كالعادة وسرعان ما جوبهوا بدليل من روح المقاومة العنيفة التي كانت تسود حكام أوروشليم (١) . تقدم إليه وفد منهم عظيم فى عدده مهيب في فخامته (٢) مكون من رؤساء الكهنة - أى رؤساء الأربعة والعشرين فرقة - ومن الكتبة المتفوقين ومن الحاخاميين المتضلعين - النائبين عن الشيع المختلفة لمجمع السنهدرين - تقدم هذا الوفد ليخيف من احتقروه كالنبي الجاهل المسكين الذى من الناصرة المقوتة ، ويرهبوه بكل ما هو مهيب من السن وعال من الحكمة ومؤثر من السلطان مما هو ممثل فى أعظم مجالس الأمة . وأفسح الناس الذين كان يعلمهم الطريق لهم لئلا ينجسوا تلك الثياب الفضفاضة أو الهدب الطويلة بلمسة . ولما رتبوا أنفسهم حول يسوع سألوه فجأة بغلظة [بأى سلطان صنعت هذا ومن أعطاك هذا السلطان] . سألوه البينة عن السلطان الذى جعله أن يتخذ علنا وظيفة الربى والنبي وأن يدخل إلى أوروشليم راكبا وسط الهتاف من الجموع المحيطة وأن يطهر الهيكل من المتاجرين الذى كانوا يتغاضون عنهم ؟ (٣)

ولقد أدهشهم الجواب كما أوقعهم فى حيرة إذ بسرعة وبديهة وبكلمات قوية لا يوجد لها مثيل فى العالم خصوصا لبقائها صافية هادئة تحت أشد الهجمات . قال لهم يسوع إن جوابه على سؤالهم يتوقف على جوابهم هم على سؤاله [معمودية يوحنا من

المعجزة " تركيبا حرفيا لتشبيه مثالى " أو مثلا عن قوة الايمان (لو ٢٣ : ٣١ و رؤ ٦ : ١٣) وأن هذا المثل قد صيغ فى شكل معجزة . وربما كان هذا الرأى خيرا من الأفكار السقيمة التى يتهمون بها " من أرسله الآب " . ولكن فيما قدمته سالفا من شرح للمعجزة ما يجعل فى نظرى أن هذه الصعوبة ليس مما يعسر التغلب عليها .

١ - يلاحظ أننى أتمم هنا ترتيب شاهد العيان متى البشير الذى يقف ليتم باقى قصة التينة وإن كان يتعلق باليوم التالى . ٢ - مر ١١ : ٢٧ .

٣ - مر ١١ : ٢٧ - ٣٣ و مت ٢١ : ٢٣ - ٢٧ و لو ٢٠ : ١ - ٨ لقد أرسل السنهدرين رسلا إلى يوحنا المعمدان ولكن بروح أقل عداوة .

السماء كانت أم من الناس] ؟ فاستولى عليهم سكوت ، فقال لهم يسوع مقاطعا همسهم [أجيبونى] ! كان الذين قد أرسلوا مندوبين ليفحصوا علنا ما ادعاه يوحنا فى موقف يمكنهم من الاجابة ومع هذا لم يحروا جوابا . علموا تماما أهمية السؤال ولم يستطيعوا أن يهملوه كسؤال غير جدير بالاجابة . لقد شهد يوحنا علنا وبتأكيد ليسوع واعترف به أمام رسلهم ليس كنبي فقط ولكن كنبي أعظم من شخصه . بلى قد اعترف به أنه النبي أى المسيا ، فهل يقرون معموديته أو لا يقرون ؟ وواضح أن ليسوع الحق فى طلب اجابتهم على سؤاله قبل أن يجيبهم على سؤالهم ولكنهم لا يقدرون أو على الأصح لا يريدون أن يجيبوا على سؤاله . لقد أوقعهم فى حيرة . لا يريدون أن يقولوا [من السماء] لأنهم رفضوها من القلب . ولا يجرأون أن يقولوا [من الناس] لأن الايمان بيوحنا (كما يشهد بذلك حتى يوسيفوس) كان قويا ومتينا فان رفضوه علنا عرضوا سلامتهم الشخصية للخطر (١). لذلك اضطروا وهم معلمو اسرائيل أن يخضعوا للضرورة المحتومة ويقولوا [لا نعلم] .

يوجد مثل عبرانى جليل يقول « عود لسانك أن يقول لا أعلم » ولكن قولهم [لا نعلم] فى هذا الظرف كان شيئا مخالفا تماما لعاداتهم ، شائنا لمقامهم وضربة قاضية لادعاءاتهم . كان جهلا لا تعذر فى محيطه الجهالة لأنهم وهم المقامون لتفسير الناموس ، وهم المعتبرون لتعليم الشعب ، وهم المعترف بهم كالمحتكرين للعلم الكتابى والتقليد الشفوى ، يضطرون ضد ما يعتقدونه حقا أن يقولوا أمام الجموع [لا نعلم] عن رجل له شهرة ذائعة وتأثير مقدس ، رجل اعترف بالكتب التى يفسرونها ومارس العادات التى يحترمونها ثم يقولون عنه [لا نعلم] إن كان مرسلا إلهيا ملهما أو دخيلا غشاشا ! هل كانت المميزات بين الرسول الملهم أى « النبي » وبين المغتصب الخادع أى « المسيخ »

---

١ - يوسيفوس . لو ٢٠ : ٦ (أيقنت) الكلمة الأصلية تفيد دوام الحال وكلمة (يرجمنا) التى استعملت هنا فقط تدل على الثورة الشنيعة التى كانت تثار لو أنهم أعلنوا رفضهم لنبوة يوحنا .

مماثلة غير واضحة ؟ كان لهم هذا إذلالا مخيفا لم يتناسوه قط أو يسامحوه ! ولكن أى مجازاة حقة أوجبوها على رؤوسهم . واللعنات التى أعدوها لغيرهم ارتدت عليهم ، والسؤال المنتفخ الذى جهزوه آلة لتحطيم غيرهم قد رجع بقوة مفاجئة وانقض عليهم لخزيهم وحيرتهم .

ولم يحمل يسوع على اضطرابهم هذا ولو أنه كما يبدو من إجابته قد علم تماما أن قولهم [لا نعلم] معناه لا نرغب أن نقول . وإذ أن خيبتهم وقصورهم عن إجابته صراحة قد أحلته من إخبارهم عن سلطان كانوا فى حيرتهم غير قادرين أن يقروه فقد أنهى الموقف بالاقتصار على قوله [ولا أنا أيضا أقول لكم بأى سلطان فعلت هذا] .

ولذلك عادوا وراء الستار قليلا ورجع يسوع إلى تعليم الشعب بعد أن انفضت مقاطعتهم له . وعاد مرة أخرى يحدثهم بأمثال لا شك أن قد فهمت مرماها الجموع المحيطة وكذلك أيضا أعضاء السنهدرين . وتعمد لفت أنظارهم لما كان مزمعا أن يقول فسألهم [ماذا تظنون] ؟ جاء دورهم ليسألهم . فأخبرهم عن ابنين أحدهما قد رفض بداءة وبغلظة أمر أبيه ولكنه أخيرا ندم وأتمه . والثانى وعد بتملق طاعته ولم يتمها أبدا . ثم سألهم [فمن من الاثنين عمل إرادة أبيه] . فلم يستطيعوا إلا أن يجيبوا أنه الأول . وحينئذ أوضح لهم المعنى الصريح العظيم لأجابتهم وهو أن العشارين والزناة رغما عن عارهم الفاضح الظاهر ومخالفتهم يظهرون لهم - هم المتحذلقون المتعالون المشرعون لأمتهم المقدسة - طريق ملكوت السموات . نعم إن هؤلاء الخطاة الذين يكرهونهم ويحتقرونهم سيسبقونهم فى الدخول من الباب الذى لم يغلق بعد . فان يوحنا قد جاء لليهود حسب تعاليمهم وعاداتهم (١) فتظاهروا أنهم قبلوه ولم يقبلوه ، ولكن العشارين والخطاة قد تابوا عند أمره . فهؤلاء الكهنة المعتزلون والحاخاميون الهابون رغم

---

١ - مت ٢١ : ٣٣ - ٤٦ وص ١٢ : ١ - ١٢ و لو ٢٠ : ٩ - ١٩ و اش ٥ : ١ - ٧ .

عصائبهم العريضة وتمائمهم الظاهرة هم فى نظر الله أسوأ من الخطاة الذين يربأون أن يلمسوهم بطرف أصبعهم .

ثم أمرهم قائلا [اسمعوا مثلا آخر] ، مثل الكرامين الثائرين الذين لا يودون أن يؤدوا الثمار . كان كرم رب القوات هو بيت اسرائيل ، ورجال اليهودية هم أشجاره الزاهية وهم القواد والمعلمون ، فكان ينتظر منهم بالطبع أن يقدموا الثمار . ولكن رغما عن كل ما فعله لكرمه فلم يكن هناك عنب وإن وجد فعنب رديء برى . انتظر العدل فاذا ظلم والبر فاذا صراخ . وإذ لم يقدروا أن يقدموا ثمارا ولم يجرأوا أن يعترفوا بالعقم العديم الثمر الذى كانوا هم السبب فيه فقد شتموا وضربوا وجرحوا وقتلوا رسولا بعد رسول ممن بعث بهم رب الكرم . وأخيرا أرسل ابنه وهذا الابن مع أنهم عرفوه - وما كان يمكن إلا أن يعرفوه - فقد ضربوه وجلدوه وقتلوه . فعندما يأتى رب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرامين ؟ فالجمع باعتقاد بريء والفريسيون ربما ليظهروا احتقارهم لمعنى المثل الذى بلا شك لم يقصروا عن فهم بعض مراميه أجابوه انه بالرديء يهلك أولئك الأردياء ويسلم الكرم إلى كرامين آخرين . وللمرة الثانية اضطروا أن يصرحوا بأفواههم ويحتموا الدينونة على أنفسهم ويعترفوا بشفاههم أنه من عدل الله أن يحرمهم من كل امتيازاتهم التى فضلهم بها ويمنحها للأمم .

ولكي يظهر لهم أن كتبهم قد تنبأت عن سلوكهم هذا سألهم إن كانوا لم يقرأوا في مزمور ١١٨ أن الحجر الذى رفضه البناؤون قد صار بقصد الله العجيب رأس الزاوية ؟ كيف يمكن أن يبقوا بنائين بعد ذلك بعدما تعدوا عن قصد وأبعدوا عامدين أساس عملهم ؟ أما تتضمن بوضوح النبوة القديمة عن المسيا ان الله سيختار بنائين آخرين (١) للعمل فى هيكله ؟ والويل لمن يعثر - كما كانوا يعثرون - فى هذا الحجر

---

١ - قارن اش ٢٨ : ١٦ و دا ٢١ : ٤٢ و اع ٦ : ١١ و اف ٢ : ٢ و ابط ٢ : ٦ و ٧ . معلمو الشعب دعوا " بنائين " فى قض ٢٠ : ٢ ويلاحظ ستير أن هذا المزمور هو نفسه الذى اشتق

المرفوض منهم ، ولكن ما زال الوقت كافيا كى يتجنبوا الأبادة الذريعة التى تحيق بالذين يقع عليهم هذا الحجر . ورفضه في وداعته وتواضعه يورث الألم والخسران . وإن استمر الرفض له عندما يجىء فى مجده أليس معناه الهلاك التام من أمام الله ؟ الجلوس على كراسى القضاء والحكم عليه معناه الخراب لهم ولأمتهم . ولكن الحكم منه هو عليهم أليس معناه أن يسحقهم إلى تراب (١) .

لقد فهموا الآن بجلاء أتم مرمى هذه الأمثال واشتاقوا إلى ساعة الانتقام ! ولكن الخوف أمسكهم لأن الجموع ما زالت تعتبر يسوع كنبي .

وضرب لهم مثلا آخر فى يوم الأمثال هذا ينذرهم به وهو مثل عرس ابن الملك . وهو يشابه فى مبناه وأساسه مثل العشاء العظيم الذى سبق ونطق به فى رحلته الأخيرة فى بيت أحد الفريسيين ، ولكنه يختلف عنه جد الاختلاف فى كثير من تفاصيله وفى المغزى الذى استخرجه منه . فهنا الشعب غير الشكور الذى وجهت إليه الدعوة لم يستخف بها فقط وظل غير عابىء يتابع أعماله العالمية ، ولكن بعض المدعوين شتم وقتل الرسل الذين أتوهم . وأبان المثل نهاية أولئك بحديث يقرب من التنبؤ بأن الملك أهلكهم وأحرق مدينتهم . وأشار بقية المثل إلى مواضيع أخري حبالى بمعان عميقة (٢) . دعي آخرون ، وامتلأ العرس بمدعوين أخيار وأشرار . ودخل الملك فرأى واحدا قد حشر نفسه وسط الجماعة بثيابه المهلهلة دون أن يرتدى أو يقبل ثياب العرس، الأمر الذى تحتمه أوائل آداب الاجتماع (٣) .

منه الجموع "هوشعنا" . رأس الزاوية هو الحجر المهم أو حجر الأساس . أحيانا يوضع فى زاوية البناء فيربط حائطين سويا . حرف الاشارة فى مت ٢١ : ٤٢ معناه (هذا الفعل) قارن مز ١١٨ : ٢٣ و ١ صم ٤ : ٧ .

١ ـ دا ٢ : ٣٤ ـ ٤٤ .

٢ ـ قد أمر الخدام أن يذهبوا إلى (مفارق الطرق) ولكنا نخبر أنهم ذهبوا إلى (الطرق) مت ٢٢ : ٩ و ١٠ وهنا اشارة لطيفة إلى نقص عمل الوسائل البشرية . ٣ ـ صفنيا ١ : ٨ .

هذا الضيف الغليظ المتطفل الجرىء كان مصيره أن يطرح خارجا من خدامه الملائكة ويرمى فى الظلمة الخارجية حيث البكاء وصرير الأسنان . وللمرة الأخيرة ، ليعمق التحذير الذى سبق فساقه وصاغه فى تشابيه عديدة مماثلة نظرا لعظم أهميته ، قال لهم يسوع [كثيرون يدعون وقليلون ينتخبون] (١) .

هذه التعاليم الواضحة المرى ملأت عقول رؤساء الكهنة والفريسيين بحنق يتزايد ويشتد مرارة . لقد بدأ النهار برفضه الأجابة عن سؤالهم الديكتاتورى واظهار أحقيته للرفض ، بل وأزيد من هذا فان سؤاله هو لهم لم يظهر فقط سموه الهادىء وتعاليه عن التأثيرات الرديئة التى أذاعوها بين الشعب بل ألزمهم الصمت الخسىء والريائى واضطرهم أن يستتروا تحت معذرة الجهل . وأتبع سؤاله بأمثاله . وفي المثل الأول (٢) قد أفحمهم بعدم كفاية الارتكان على المراكز الكاذبة التى لا تتآزر بالعمل . وفى المثل الثانى (٣) أظهر عظم الأمانة الموكولة إليهم والمسئولية الملقاة عليهم وأبان لهم المجازاة المريعة لسوء تصرفهم فيها وتعديهم القلبى لمطالبها . وفى المثل الثالث (٤) أظهر أيضا عظم العقاب الذريع الذى ينجم عن الرفض بعناد لدعواته ثم استحالة غش عين الآب السماوى بمجرد القبول الأسمى المفتعل . أراد أن يثبت فى ضمائرهم خطايا خدمة الشفاه الكاذبة والثورة غير المخلصة والرياء الأعمى . وكان كل هذا مظهرا للقوة الدقيقة الفحص التي صحبت كلماته والتى كانت لهم كسيف الروح خارقة للمفاصل واصلة إلى المخاخ . ولكن لا شيء يورث الجنون عند الرجال الأردياء مثل إظهار غشهم لنفوسهم فقد أثار غضب الرئاسات اليهودية إلى درجة عظيمة جدا غير

---

١ ـ مت ٧ : ١٣ و ١٤ و ١٩ : ٣٠ و ٢٠ : ١٦ الذين طرحوا المتطفل هم (خدامه) الملائكة ولبوا (عبيده) البشر الذين ذكروا فى الجزء الأول من المثل .

٢ ـ مثل الابن .　　٣ ـ مثل الكرم .

٤ ـ مثل العرس .

خافية حتى انهم كانوا يسرون لو أمسكوه من تلك الساعة . ولكن الخوف ألجمهم فتركوه يمضي دون أذى إلى مكان راحته الهادىء . غير أنه إما فى هذه الليلة بالذات أو باكرا في صبيحتها قد عقد الأعداء مجلسا آخر - ويظهر أنهم فى هذه الأيام العصيبة كانوا يعقدونه يوميا - ليروا إن كان في الامكان عمل مجهود أكثر إجماعا وترتيبا وقوة ليصطادوه بكلمة أو ليمسكوه متلبسا بتعليم جاهل أو خطأ فيفقدوه اعتباره عند الشعب أو ليوقعوه في ورطة خطيرة مع السلطة الادارية . وسنرى فى الفصل التالى نتيجة ترتيباتهم ومشورتهم الرديئة .

الفصل الحادي والخمسون

آخر وأعظم يوم في خدمة يسوع الجهارية
يوم التجارب

(وأغلق الباب)
مت ٢٥ : ١٠

في اليوم التالى بكر يسوع وتلاميذه ليدخل للمرة الأخيرة إلى أروقة الهيكل . وفى طريقهم مروا على شجرة التين الوحيدة التى لم تعد مفرحة في حلتها الخضراء البهيجة الكاذبة بل قد يبست من أصولها وذوى كل فرع فيها . وكانت عين بطرس الحادة أول من لحظها فقال [يا سيدى ها شجرة التين التي لعنتها قد يبست] . ووقف التلاميذ لينظروا إليها وليعبروا عن دهشتهم لسرعة اللعنة التى حاقت بها . وما أدهشهم أكثر قوة يسوع ، أما المعانى العميقة لعمله المثالى فيظهر أنهم نسوها إلى حين . وترك يسوع هذه المقاصد التعليمية تشرق عليهم رويدا رويدا وتحدث إليهم بمثل أنه لو كان لهم إيمان فى الله - إيمان يجعلهم أن يقدموا صلواتهم بثقة كاملة غير مرتابة - فانهم يستطيعون ليس فقط أن يصنعوا ما حدث لهذه التينة بل أيضا لو قالوا [لهذا الجبل] . وإذ كان يتحدث فربما أشار إلى جبل الزيتون .

[انتقل وامض إلى البحر فيكون] . ولكن إذ أنه فى هذه الحالة الفريدة قد خرجت القوة للأهلاك فقد أضاف تحذيرا هاما كى لا يتخيلوا أن هذا العمل المثالى يعطيهم الحرية أن يحرفوا القوات المقدسة التى يمنحها الايمان وتجلبها الصلاة ويستعملوها فى أغراض الغضب والانتقام . كلا فليست هناك قوة مستطاعة للقلب الذى لا يعلم كيف يسامح . والقلب الذي لا يسامح لن يسامح قط . فلن يكون السيف ولا الجوع ولا المرض آلات فى أيديهم يستغلونها . ولن يحلموا أن يثيروا ضد أعدائهم نار السماء أو « ريح الموت » (١) . وانما سر الصلاة المستجابة هو الايمان ، وطريق الايمان فى الله هو المغفرة لمن يسيئون إلينا . والله لن يغفر إلا للذين يغفرون ويسامحون غيرهم .

وما لبث أن جلس في الهيكل حتى ظهرت نتائج تدبيرات أعدائه فى الليلة السالفة واتخذت طريقا جديدا فى خطط الخداع الماهرة إذ اختاروا أشدها خطرا وأحكمها وضعا ليصطادوه ويهلكوه . وتظهر طبيعة المؤامرة القاتلة من أنه لكي يقوموا بها قد اتحد الفريسيون فى رباط مشئوم مع الهيروديين . قد تصالحت الطائفتان المشهورتان بالعداء لبعضهما على مؤامرة لأهلاك العدو المشترك (٢) . قد اتحد المتفانون مع المتملقين ،

---

١ - بعضهم يظن أن ربما من السموم كانت الوسيلة فى أن التينة قد يبست . وهذا خطأ .

٢ - مت ٢٢ : ١٥ - ٢٢ و مر ١٢ : ١٣ - ١٧ و لو ٢٠ : ١٩ - ٢٦ . ليس هذا أول أو آخر مثل فى التاريخ الذي يتحد فيه القساوسة مع السياسيين المعادين لهم ليحققوا مصلحا يتخيلون أن غيرته ضارة بهما . (نيندر) . قبل هذا لا نسمع عن الهيروديين إلا فى مر ٣ : ٦ يظهر أنهم نسل الانطاكيين القدماء (٢ مكا ٤ : ٩) - راجع كتاب سلفادور عن حياة المسيح - وواقعيا كانوا من البوطيين وأتباعهم الذين ارتبطوا مع هيرودس الكبير بالنسب وبوحدة المنافع الزمنية . عندما أحب هيرودس مريمنة بنت سمعان الذي كان ابنا لأحد البوطيين من الاسكندرية أقام سمعان رئيسا للكهنة بعد أن رفعه إلى مقام النبلاء . وهؤلاء البوطيون قد ظلوا فى رئاسة الكهنوت ٣٥ سنة وشاركوا أسرة حنان فى التؤدد . وعلى العموم فى هذه الحقبة كانت رئاسة الكهنوت مشاعا بين الصدوقيين والهيروديين . وقد فقدوا كل رعايتهم للشعب وتحكمهم به .

الحذلقة المنيعة مع السياسة المرنة، مدرسة الغيرة اللاهوتية مع مدرسة اللف والدوران للمنفعة الزمنية، لكي يفزعوه ويربكوه. لم يأت ذكر الهيرودين فى البشائر إلا نادرا. نفس لقبهم - وهو صفة لاتينية أطلقت على الناطقين باليونانية من خادمى بلاط الأمير الأدومى الذى بتدخل روما صار ملكا يهوديا - يظهر دائما أصلهم الخليط. وكان أغلب اهتمامهم موجها للأمور السياسية فوقفوا بعيدا عن تيار الحياة الدينية إلا أن ميالهم اليونانية ومنافعهم الدنيوية ألجأتهم إلى أن يعلنوا احتقارهم لناموس موسى (١). كانوا فى الحقيقة رجال بلاط اقليميين، أناسا تمتعوا فى شمس المظالم الحقيرة وضلعوا مع الظالم كى يزيدوا فى منافعهم الذاتية. كان مقصدهم الأولى أن يقودوا عائلة هيرودس ويجعلوها فى علاقات حسنة مع الأمبراطورية الرومانية ولذا كانوا يمقتون كل حماس أو ثورة يهودية. ولهذا أيضا قلبوا أسماءهم السامية وحرفوها إلى أسمـــــاء يونانية، واتخذوا عاداتهم الأخلاقية، فارتادوا المدرجات وقبلوا الرموز التى تقر السيطرة الوثنيـة، بل زادوا فى هذا الدرجة أنهم اجتهدوا بكل ما لديهم من وسائل أن يمحوا العلائم المقدسة المميزة للأمة اليهودية. فاحتمال الفريسيين ولو للمهادنة الوقتية مع رجال مثل هـؤلاء مجـرد وجودهم كان اغتصابا شنيعا لآمالهم المسيحية يساعدنا أن نسبر غـور شـدة الكراهية القاتلة التى أثارها فيهم يسوع. وهذه الكراهية كان مقدرا لها أن تصير أعظم إماتة. كانت على درجة الحرارة الحمراء ولكن كلمات وأعمال هذا اليوم سوف تذكيها إلى أشد ما يكون وترفعها إلى درجة الحرارة البيضاء.

كان فى إمكان الهيرودين أن يتقدموا إلى يسوع بدون أن يثيروا شبهـة دوافع

وإن كانوا أقل صراحة فى عدم الحياء فقد ساروا على خطة الأمراء الأردياء الذين من أيام ياسون ومنيلاوس اجتهدوا أن يدخلوا "التجديدات اليونانية والعادات الوثنية" (٢ مكا ٤:١٣-١٤).

١ - لقد أرادوا أن يجعلوا من هيرودس الكبير المسيا! ولكن السنهدرين الماقى تمسك بأوامر تث ١٧ : ١٥ وأعطى أصواته ضد هيرودس.

عدائية . ولكن الفريسيين وهم راغبون أن يأخذوه على غرة لم يأتوا إليه بأنفسهم بل أرسلوا إليه بعض تلاميذهم المبتدئين (والذين أصبحوا قادرين فى الرياء) يأتون إليه كما لو كان بروح الاستفادة المملوءة بالبساطة الخالية من الحقد (١) . ورتبوا أن يشيروا فكرة أن خلافا قد حدث بينهم وبين الهيرودبين وأنهم راغبون فى حله برفع الأمر إليه وقبول القرار النهائى الذى للسلطان السامى للنبى العظيم . فأتوا إليه وأحاطوا به مظهرين الاعتبار والاكرام واللطف وقالوا له بملق متصنعين الاهتمام [يا معلم نعلم أنك محق وتعلم طريق الله بالحق ولا تبالى أحدا لأنك لا تنظر إلى وجه إنسان] ، وكأنهم يتوسلون إليه لكى يعطيهم رأيه الخاص دون خوف أو محاباة ، وكما لو كانوا محتاجين حقا رأيه ليهديهم في هذه المسألة الأخلاقية ذات الأهمية الفعلية ، وأنه هو وحده القادر أن يحل حيرتهم المحزنة . ولكن لماذا هذا التقرب الملتوى وهذه المسكنة العقربية ؟ لأن اللسان المشقوق والحمة المسمومة ستظهران للتو . [فقل لنا] إذ أنك حكيم وعادل وشجاع [فقل لنا ماذا تظن أيجوز أن تعطى الجزية للملك أم لا] ؟ هذه الجزية التى نكرهها نحن كلنا ولكن الهيرودبين يقررون قانونيتها ، هل يجب أن نؤديها أم لا ؟ من محق ؟ نحن الذين نكرهها ونقاومها أم الهيرودبون الذين يسرون بها ؟ (٢)

ظنوا أنه « يجب » أن يجيب « بنعم » أو « لا » إذ لا مخرج من سؤال صريح قد وضع بحرص واخلاص واحترام . ربما سيجاوب « نعم إنه قانونى » . فان كان هذا فسينتفى كل خوف الهيرودبين منه لأنه لن يكون خطرا عليهم أو على مبادئهم . إن كان قد ظهر لهم شيء من الخطر في الحماس العام وتأييد الشعب له فاذا أجاب صراحة ذاك الذى يتخذونه على أنه المسيا وأقر وناصر هذه المظلمة الوثنية وأجاز تدخلها المرير فان إجابته هذه ستلاشى اعتبار الناس له وتودى حتما بما يشعر به الشعب نحوه .

---

١ ـ يسميهم لو ٢٠ : ٢٠ (جواسيس وهم مراؤون) قارن أى ٣١ : ٩ .

٢ ـ مت ٢٢ : ١٥ ـ ٢٢ و لو ٢٠ : ١٩ ـ ٢٦ و مر ١٢ : ١٣ ـ ١٧ .

ومن الجهة الأخرى - كما كانوا يكادون يجزمون أنه سيتخذ وجهة نظر مواطنه يهوذا الفالونيطي - لو أجاب « لا إنه غير قانونى » فى هذه الحالة أيضا سيتخلصون منه إذ يكون ثائرا علنيا ضد السلطة الرومانية ويسلمه حلفاؤنا الجدد فى الحال إلى المحاكمة أمام رئيس الربع ، وسيعامله بيلاطس البنطي من أجل ادعاءاته بمنتهى الغلظة ولو أدى به الأمر أن يخلط دمه مع دم الذبائح كما سبق أن فعل بجليليين آخرين مثله .

ولا شك أنهم انتظروا الاجابة وقد حبسوا أنفاسهم تلهفا . غير انهم إن كانوا قد نجحوا فى إخفاء الحقد الذى كان يجول فى عيونهم فان يسوع في الحال قد رأى الحمة وسمع فحيح الأفعى الفريسية . لقد بادؤوه بقولهم [يا معلم] ، [محق] ، [لا تبالى أحدا] [لا تنظر إلى وجه انسان] . ولكنه بحومم برجزه وبكلمة واحدة غاضبة [يا مراؤون] . كلمة تكفى لمحو خداع آمالهم وسحق مكرهم إلى التراب [لماذا تجربوننى . ايتونى بدينار] (١) . وكان من غير المحتمل أن يحملوا العملة الرومانية المكروهة برموزها الوثنية وإن كانوا على استعداد لأن يخرجوا من مناطقهم فى الحال شاقل القدس . ولكن ما كان عليهم سوى أن يخطوا إلى رواق الأمم ويستعيروا من إحدى موائد الصيارفة عملة رومانية سارية . وبينما وقف الناس حواليه فى سكوت متعجبين أتوا إليه بدينار ووضعوه في يده ، وعلى أحد وجهيه سك رأس الأمبراطور طيباريوس بملامحه القاسية الجميلة وعلى شفتيه ابتسامة الازدراء الخبيثة ، وعلى الوجه الآخر عنوانه « العظيم بونتيفكس » (٢) . وانه لمن مجرد الصدفة أن كان الوجه القاسى لهذا الظالم الفاسق قد ضرب على هذه العملة بالذات فان من عادة الرومان التى امتاز بها حكمهم

---

١ - مر ١٢ : ١٥ و ١٦ .

٢ - راجع مادن وكريمان . ولم تكن العملة تحمل الاسم كاملا " طيباريوس قيصر " بل اختصاره (ط قيصر) .

أن يتمشوا وإن كان باحتقار مع خزعبلات الأمم. ولذا سمحوا أن تسك لاستعمال اليهود خاصة عملة تحمل اسم الامبراطور دون رسمه (١) . فقال لهم يسوع [لمن هذه الصورة والكتابة] قالوا له [هما لقيصر] . [حينئذ قال لهم أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله] هذا الجواب كان كافيا لأن مجرد قبولهم للعملة جواب لسؤالهم الفاضح لتفاهته . بل نفس الكلمة التى استعملها السيد كان فيها الدرس الشاق . لقد سألوه [أيجوز أن نعطى] ؟ فأصلح خطأهم فى إجابته باستعمال كلمة معناها الأصلى [أعطوا] ثانية أى « أرجعوا » . لم تكن هبة اختيارية بل دينا قانونيا . ليس عطاء بسرور ولكن ضرورة سياسية . لقد كان مفهوما تماما بين اليهود ، وقد كتب ذلك بأوضح لغة من حاخاميهم العظام في الأزمنة الأخيرة « أن قبول عملة أى ملك معناه الاعتراف بسيطرته » (٢) .

وعلى ذلك فقد كان قبولهم الدينار كعملة سارية اعترافا علنيا أن قيصر كان ملكهم وأنهم قد قرروا - حتى أشدهم حماسا - إجابة السؤال وأن دفع الجزية جائز وأقروا ذلك بدفعهم إياها باستمرار . كان واجبهم أن يخضعوا للقوة التى قبلوا أن تسيطر عليهم . وكانت الجزية تحت هذه الظروف إنما توازى المنافع التى ينالونها (٣) . ولكن يسوع لم يشأ أن يتركهم بهذا الدرس وحده بل أضاف الكلمات الأشد عمقا والأعظم أهمية [وما لله لله]

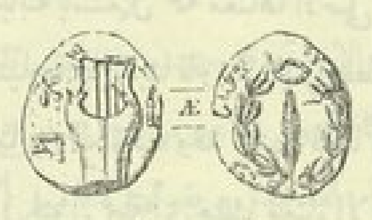
---

١ - راجع كيم . كان الأسينيون يكرهون أية عملة إذ كانوا يعتقدون أن فيها مخالفة للوصية الثانية . العملة اليهودية ما كان يضرب عليها صور بل رسوم للنخيل والزنابق والعنب والمباخر الخ . راجع ايوالد ومانك واكرمان ومادن الخ .

٢ - مايمونديز جزلة نمرة ٥ . وفى تقليد حاخامى أن أبيجايل قد عارضت تأكيد داود أنه ملك لمجرد أن عملة شاول كانت هى السارية (سنهدرين) . راجع أيضا القصة الغريبة الواردة فى أفودزار التى استشهد بها كيم .

٣ - قارن أمر إرميا (٢٧ : ٤ - ٨) أن اليهود يجب أن يطيعوا نبوخذ نصر لكن رفضهم لأوامر الدين جعلهم عبيدا له . وهكذا أيضا يجب اطاعة طيباريوس وكاليجولا ونيرون (رو ١٣ : ١ و ١ بط ٢ : ١٣ - ١٤) "وقد فاخر المسيحيون الأولون بطاعتهم المادئة للقوة الحاكمة" (جوستينان) .

لقيصر أنتم مدينون بالعملة التى اعترفتم بها كرمز لسيطرته والتى تحمل صورته وكتابته، وأما لله فأنتم مدينون بذواتكم. ولا شيء يظهر بوضوح كامل مدى رياء هؤلاء السائلين الفريسيين من أنه رغما عن هذه الأجابة الالهية ورغما عن اقتناعهم الذاتى السرى المحبب إلى نفوسهم فانهم جعلوها - اختلاقا - أساسا لاتهام صاحب ضد يسوع وعزوا إليه أنه [يمنع أن تؤدى الجزية لقيصر](١).



عملة يهودية *

أصابهم الدهش والتحقير للهدم الكامل والفجائي لخطة بدت لهم أنها لا تقاوم، واضطروا رغم أنفسهم للاعجاب بالحكمة التى ازدهرت في دقيقة من بين شباك مكرهم السيء التى تمزقت شر ممزق، فارتدوا حانقين. لم يجدوا هم بأنفسهم شيئا فى كلامه يمكنهم أن يمسكوه عليه. ولكن - غير ناكصين من هذا الفشل الذريع - ظن

١ - لو ٢٣ : ٢ .

* هذه العملة يقال أنها سكت سنة ٦٩ ميلادية باسم بارجيوراس أحد الرؤوس الثلاثة العظماء الذين عاشوا ليحيوا موكب نصر تيطس فى السنة التالية والذين قتلوا قرب الفوروم روما. على وجه منها نقشت كلمة سيمون حول ذات الثلاثة أوتار، بلا شك ترمز إلى الشكر المفرح على النصر مرتين ضد سيستوس جالوس (حاكم سوريا حينذاك) الذى قاد مواطنيه إليه ابن جيوراس هذا سنة ٦٦ م. ونفس الفكرة خلدت على الوجه الآخر بشكل نخلة محاطة بأكاليل من الزيتون وحروف عبرانية قد تعنى "لاشيروت جيروشلايم" أي "خلاص أوروشليم". أصل هذه العملة محفوظ بالمتحف البريطانى .

الصدوقيون أنه ربما يكون لهم نجاح أفضل (١) . كان هناك شيء من التعجرف والالتواء وبعد المرمى فى السؤال الذى تقدموا به بروح وان تكن أقل اتقادا في الحقد فكانت أكثر امعانا فى السخرية . إلى ذلك الحين تجاهل هؤلاء الأبيقاريون الثقلاء نبي الناصرة (٢) واحتقروه . كانت شيعة الصدوقيين تزهو بانتماء بعض رؤساء الكهنة وبعض أعظم أغنياء القوم إليها وبحسن علاقاتها مع الهيروديين والسلطات الرومانية . وإلى ذلك الوقت ما كان الصدوقيون متحمسين ضد يسوع ، ولم يهيئوا لأنفسهم غرضا أزيد من إغاظته بجعله مضطرا للاعتراف بصعوبة الأجابة . أتوا إليه بسؤال غير قائم على أساس من الواقع بل تولد من روح جهولة معتدة بذاتها ، سؤال مثل عديد الاعتراضات التى يقدمها صدوقيو هذا اليوم ضد قيامة الأجساد ، ولكن فيه على كل حال الكفاية من الأرباك يعطيهم سلاحا من الجدل يقوى معتقداتهم الرديئة والكفاية من الصعوبات التي يقيمونها فى طريق معارضيهم . خاطبوا يسوع باحترام مفتعل ولفتوا نظره لما جاء فى ناموس موسى بخصوص قوانين الزواج ووضعوا أمامه قصة خيالية خشنة وقالوها كما لو كانت قد حدثت فعلا (٣) عن أخ أكبر مات بدون أن يعقب أولادا وتزوجت أرملته أخوته الستة بالتوالى ، الأصغر فالأصغر . وماتوا هم أيضا الواحد تلو الآخر تاركين الأرملة على قد الحياة . ثم سألوه متهكمين [فى القيامة لمن تكون زوجة

---

١ ـ مت ٢٢ : ٢٣ ـ ٣٣ و مر ١٢ : ١٨ ـ ٢٧ و لو ٢٠ : ٢٧ ـ ٣٩ يظن هنرج أن حادث المرأة التى أمسكت فى زنا مكانه هنا فتكون هنا ثلاث تجارب مختلفة للمسيح : الأولى سياسية والثانية ناموسية والثالثة نظرية . ومع أن لانج وكيم والبكوث وغيرهم يرون هذا فانى لا أجد احتمالا لهذا الظن إذ لا يوجد ولا ظل وقائع أو ظروف تدعمه ولأن حوادث الحياة لا تقع محكمة الترتيب هكذا كما أنه واضح أن هجوم الفريسيين هذه المرة كان مرتبا من قبل . أما سؤالهم عن المرأة الزانية فكان عرضيا وفجأة ووقتيا .

٢ ـ لم يذكروا تقريبا مثل هذا إلا فى مت ١٦ : ١ .

٣ ـ مت ٢٢ : ٢٥ (فكان عندنا) عن قوانين زواج الآخرة راجع تث ٢٥ : ٥ ـ ١٠ .

لأن السبعة اتخذوها زوجة] ؟ إن كنا نحكم من الكتابات التلمودية فقد حل الفريسيون هذا السؤال بطريق واضح وحسب أهوائهم قرروا أنها تكون زوجة للرجل الأول . وحتي لو أن يسوع كان أجابهم بهذه الاجابة الفقيرة فانه من الصعب أن نرى كيف كان الصدوقيون يجابهون هذه الاجابة . أو ماذا يستفيدون من وضعوم هذا السؤال المادى الفارغ سيما وأن هذه الاجابة قد أقرها رجال اشتهروا بعلو حكمتهم . ولكن يسوع لم يكتف بهذه الاجابة التى قد يرتفى بها هلليل أو شماى . وحتى عندما كانت تشابه تعاليم أو أمثال يسوع في لغتها لغة أحد الحاخاميين السابقين فان روحها ومغزاها تختلفان اختلافا بعيدا بعد السماء عن الأرض (١) . ولو كان يسوع مثل أى معلم أرضى لقابل السؤال بما يستحقه من الازدراء والتهكم ولكن روح السخرية تتنافى مع روح الوداعة . فبدون أى تحقير جابه هذا المأزق المتمجرف بأجابة عميقة جدا . ومع أن السؤال كان مباغتا فجائيا فقد كان الجواب خالدا أبديا ، وقد فتح أبواب الفردوس على مصاريعها ليرى الناس ما لم يبصروه من قبل ، وساق دليلا ضد أحد اعتراضات عدم الايمان الشائعة لم يقدمه لا نبي ورابي من قبل . ولم يجاوب يسوع هؤلاء الصدوقيين بنفس الشدة التى امتازت بها إجاباته للفريسيين أو الهيروديين لأن غرضهم أظهر استهتارا واستخفافا لا مكرا سيئا خبيثا . أخبرهم أنهم يضلون جهلا منهم بالكتب وجهلا بقوة الله ، فلو لم يجهلوا قوة الله لما تخيلوا أن حياة أولاد القيامة ما هى إلا صورة بارزة منعكسة متكررة من حياة أولاد هذا العالم . في السماء - ما بعد القبر -

---

١ - يجب أن يحمل دائما فى الذهن أن أغلب إن لم يكن كل أمثال الحاخاميين التى رأى فيها وستين وشوتجن ولاتيفوت ... الخ مشابهة فى كلمات يسوع انما هى أمثال جاءت فى زمن متأخر عن وقته . فهؤلاء الحاخاميون كانت لهم فرص وسبعة ليضيئوا شموعهم الضئيلة من نبع الضياء السماوي " ويختطفون المجد كأنه من عندياتهم " . أنا لا أؤكد أن الحاخاميين قد استعاروا من المسيحية عن قصد . ولكن قبل انقضاء نصف جيل بعد قيامة السيد كانت الأفكار المسيحية منتشرة فى كافة الأرجاء معطرة ومالئة الأجواء .

ولو أن الحب يبقى ويخلد ولكن مجرد الحياة الجسدية فى العلاقات البشرية تتغير وتتسامى « والذين سوف يحسبون أهلا للحصول على تلك الحياة والقيامة من الأموات لا يتزوجون ولا يزوجون ولا يموتون فيما بعد ولكن يصيرون كملائكة من السماء، وإذ أنهم أولاد القيامة يصيرون أولاد الله». أما عن جهلهم بالكتب (١) فسألهم يسوع إن لم يكونوا قد قرأوا ما جاء في سفر الخروج فى الجزء منه المسمى « الفرع » كيف أن الله قد وصف ذاته لعظيمهم موسى الذى أعطاهم الناموس أنه [اله ابراهيم واله اسحق واله يعقوب] . ولقب مثل هذا كم يكون عديم القيمة لو أن ابراهيم واسحق ويعقوب ما هم إلا قبضة من تراب أغبر متطاير أو من العظام النخرة البالية في مقبرة الحيثيين ! [الله ليس اله أموات بل اله أحياء . فأنتم تضلون كثيرا] . أليس من المستحيل أن يصف ـ جل وعلا ـ ذاته بأنه إله التراب والرماد ! ما أبهى وأعمق هذه القاعدة فى تفسير الكتب ! ربما كان الصدوقيون يعتقدون أن هذه الكلمات تعنى الاله الذى وثق به ابراهيم واسحق ويعقوب . ولكن ما أصغره وأقله وصفا لبث الايمان والشجاعة اللازمين للقيام بعمل هام . « أنا الاله الذى وثق به ابراهيم واسحق ويعقوب . فالى أى مصير تصل هذه الثقة إن لم تكن هناك قيامة ؟ إلى الموت والعدم والسكون الأبدى وإلى أرض مظلمة كالظلمة نفسها بعد حياة ملآى بالتجارب حتى أن آخر هؤلاء البطاركة شبه حياته بارتحال سنين قليلة ورديئة . ولكن الله يعنى أكثر من هذا

---

١ ـ برهن لهم يسوع على قيامة الأموات من الأسفار الخمسة لا من الأنبياء واعلاناتهم الصريحة لأنهم كانوا يعطون أهمية أكثر للناموس . كان تقوية قوله (وموسى أيضا) لو ٢٠ : ٣٧ . لا يوجد أى دليل على أن الصدوقيين قد رفضوا العهد القديم كله ما عدا الناموس . "الفرع" معناه الجزء من الخروج المسمى هكذا (خر ٣) مثل ٢ صم ١ قد سمى "القوس" وحزقيال ١ وسمى "المركبة" الخ . اشعار هوميروس قد سميت على هذا النمط .

- إنه عني وقد فسر ذلك ابن الله - أن الذى ساعدهم ووثقوا به هنا سيكون ساعدهم وبقاءهم دائما وإلى أبد الأبد ، ولن تكون لهم الحياة المستقبلة أرضا ينسى فيها كل شيء (١) .

١ - الربي سمعون بن اليعازر أخمهم بذكر عدد ١٥ : ٣١ . ولكن نلاحظ أن هذا الخطأ العقلي أو العمى الفكري الذى للصدوقيين لم يقابله السيد ولا بعشر الغضب من الخطأ الخاقي الذى للفريسيين . بعض الكتاب الحديثين يشكون من أن الصدوقيين كانوا يرفضون حقيقة قيامة الأموات ، وإنما اختلط الأمر بينهم وبين السامريين . وبعض الكتاب يقول أن الصدوقيين اعتقدوا أنه لا يمكن اثبات القيامة من الناموس . فإن كان هذا حقا فإنا نجد سببا لبرهنة السيد على القيامة من الأسفار الخمسة فقط .

الفصل الثانى والخمسون

التنبؤ العظيم

(تنبأ على رعاة اسرائيل تنبأ)
حز ٣٤ : ٢

كل من سمع هذه الاجابات السامية قد خشع حتى الصدوقيين المتعالين. أما الجموع الصاغية فقد دهشت وفرحت . وحتى بعض الكتبة ، إذ سروا من دفعه الروحى لهذه الفرية التى لم يستطيعوا أن يصدوها بمحاولاتهم ، لم يقدروا أن يحبسوا إعلان امتنانهم بل صرحوا قائلين [حسنا يا معلم] . فالحكمة والبصيرة التى علت عن البشر والتى تجلت في إجاباته خلقت حتى بين أعدائه تحولا وقتيا إلى صفة . ولكن عاد روح الحيل الشرعية والخصومة فاستيقظ . وفى هذه المرة تقدم ناموسى (١) من طلبة التوراة وظن هو أيضا أن يجرب المسيح ويسبر مدى علمه

١ - مت ٢٢ : ٣٤ - ٤٠ و مر ١٢ : ٢٨ - ٣٤ . ذكر متى كلة ناموسى وهى كلة يستعملها لوقا البشير أزيد من " أحد الكتبة " كى لا يساء فهمها عند الأمميين الذين كتب لهم . ويوسيفوس يسمى الكتبة " مفسري الناموس " .

وحكمته . وسأل سؤالا فضح للحال كذب وعدم روحانية وجهة نظره [يا معلم أية وصية هي العظمى في الناموس] ؟

الحاخاميون فى تعاليمهم وخلطهم الجسديات والعبادة الظاهرية وتحوير الكلمات والتمسك بالحرف قد نسجوا نسيجا كبيرا من الحذق والدهاء العديم القيمة حول ناموس موسى . ومن الأشياء السخيفة التي أرضوا فيها كسلهم أنهم حاولوا فى اجتهاد تعصبي أن يعدوا ويقيسوا ويزنوا ويكيلوا الوصايا التي للناموس التقليدى والتى للناموس الأدبى، كل واحدة على حدة . ووصلوا إلى النتيجة الفطنة أنه يوجد مائتان وثمانية وأربعون أمرا بعدد أعضاء جسم الانسان حسب رأيهم ، وثلثماية وخمسة وستون نهيـــا بعدد العروق والشرايين أو بعدد أيام السنة ، مجموعها سبعماية وثلاثة عشر بعدد الحروف التى فى الوصايا العشرة . وقد وصلوا إلى نفس النتيجة عن طريق آخر ، أن اليهود قد أمروا أن يلبسوا أهدابا (تسيتيث) على أركان الطاليث مربوطة بخيط أزرق . وإذ أن كل هدب فيه ثمانية خيوط وخمس عقد وكلمة (تسيتيث) تساوى سبعمايه فيكون المجموع النهائى للوصايا سبعماية وثلاث عشرة (١) كما أسلفنا . وبالتأكيد لا يمكن أن يكون هذا العدد الكبير من الأوامر والنواهى فى مستوى واحد بل بعضها خفيف (كال) وبعضها ثقيل (كوبهد) . ولكن ما هى أعظم الوصايا ؟ حسب تعاليم بعض الخاميين أن أعظمها ما كان متعلقا بالتفلين والتسيتيث ، أى التثنيات والأهداب . فمن حفظها باجتهاد عد أنه حفظ الناموس كله (٢) .

---

١ ـ عدها ربيون آخرون ٦٢٠ وهى القيمة العددية لكلمة "كيثر" أى التاج . وهذا الضرب من التخريج كان يسمى "غماتريا" ولكن حكماء المجمع الكبير قصروا العدد على ١١ متخذين ذلك من مز ١٥ وقد لاحظوا أن أشعياء قد قصر العدد على سته (اش ٥٥ : ٦ و ٧) وميخا على ثلاثة (٦ : ٨) وحبقوق على ١ (٢ : ٤) ويقال أن هليل عندما رد أحد المرتدين أحاله على (لا ١٩ : ١٨) "هذا هو لب الناموس أما الباقى فتفاسير" .

٢ ـ راش عن (عدد ١٥ : ٣٨ ـ ٤٠) . عندما سأل الربى يوسف الربى يوسف بن ربا أية

وعلم بعضهم أن اهمال الغسل يوازى الانتحار . وقال بعضهم إن أوامر المشنة « ثقيلة » بينما أوامر الناموس بعضها « ثقيل » وبعضها « خفيف ». واعتبر بعضهم أن الوصية الثالثة هى أعظم الوصايا . ولم يتيقن أحد منهم القاعدة العظيمة وهى أن التعدى عمداً لأحد الوصايا هو مخالفة للكل (يع ٢ : ١٠) لأن المقصد من الناموس كله هو روح الطاعة لله . فى السؤال الذى قدمه الناموس ، كان أتباع شماى وهليل مختلفين . وكالعادة كلا التعليمين كان خطأ . أما أتباع شماى فقالوا إن الأهم هو مراعاة الأمور الظاهرية التافهة بغض النظر عن الروح التى تتم بها والمقاصد التى ترمى إليها . أما أتباع هليل فقالوا إن أى أمر إيجابى فى ذاته قد يكون عديم الأهمية ، غير متحققين أن أعظم الوصايا ضرورية لأتمام حتى أقل الواجبات .

ولكن بعض الربيين المستنيرين قد رأوا صائبين أن أعظم كل الوصايا ، إذ هى نبع كل الوصايا ، هى التى تأمر بمحبة الله الواحد الحق . وقد سبق (١) أن أظهر يسوع موافقته على هذا الرأى ، وهنا يكرر هذه الموافقة . وأشار إلى تفلين (٢) الناموس الذى كان يحول جزءا من أجزائه الأربعة على « الشمة » (تث ٦ : ٤) والتى

وصية أمره أبوه أن يحفظها أكثر من الكل أجابه " ناموس الأهداب " . وأنه مرة وهو ينزل سلما داس على أحد الخيوط فقطعها فلم يرض أن يتحرك من مكانه حتى أصلحت . وهذه كانت من أربعة خيوط أحدها أزرق " يلفم مزدوجا " حتى يصير ثمانية ؛ سبعة ذات طول واحد أما الثامن فيكون طوله أزيد يسمح بعمل خمسة عقد فيه رمزا لعدد أسفار الناموس ! (راجع بكستروف وليومودنا فى كتابه ملقوس وعادات اليهود) . أما التعاليم عن التفلين فغريبة فى حذلقتها (راجع تانش) .

١ - لو ١٠ : ٢٧ .

٢ - هذه الجمل كانت تكتب على الرقوق فى حقائب صغيرة أو صناديق من الجلد وتسمى التفلين وهى أربعة (حز ١٣ : ١ - ١٠) (١١ : ١٦) (تث ٦ : ٤ - ٩) (١١ : ١٣ - ٢١) ولا زالت شيعة البروشيم أى الفريسيين الحديثين يعلقون التفلين إلى يومنا هذا .

يجب أن يتلوها مرتين فى اليوم كل اسرائيلى تقى وأخبره أن هذه هى عظمى الوصايا وأولاها [اسمع يا اسرائيل الرب الهك رب واحد]. والثانية التى تشبهها [أن تحب قريبك كنفسك] . محبة الله التى تبعث على محبة الناس ومحبة الانسان أخينا الناتجة من محبة الله أبينا [بهاتين الوصيتين تعلق الناموس كله والأنبياء] (١) .

السؤال الذى قدمه الناموسى كان مجرد أحد « المحاورات حول الناموس » (٢) التى تسلمتها المدارس المختلفة والتى كانت غير مثمرة وعديمة الجدوى . ولم يقصر عن أن يلاحظ أن يسوع لم يجاوب السؤال بروح الجدل الكسول ومماحكات الكلام التى كان معتادا على سماعها ، وأنه لم يوافق في إجابته على أحد الأخطاء الشائعة والتجاديف التى كانت تفضل الطقسى على الروحي والتقليد على التوراة وأحكام السوفريم على أقوال الأنبياء . ولم يجار خطأ الحاخاميين القاتل القائل إن إطاعة أمر ما يكفر عن معصية أمر آخر . فالوصايا التى جعلها العظمى لم تكن خاصة بل عامة ، ولم تكن منتخبة من عدة وصايا ولكن جامعة لكل الوصايا . كانت للناموس قوة الملاحظة والشجاعة على الاعتراف بأن إجابة يسوع كانت حكيمة ونبيلة [حسنا يا معلم بالحق قلت] . وأظهر أنه قد قرأ الكتب باقتباسه من تعاليم الأنبياء الحرة ما يعلن أن محبة الله ومحبة الانسان أعظم من جميع المحرقات والذبائح (٣) . وأثنى يسوع على اخلاصه وامتدحه بكلمات تتضمن تشجيعا كريما وتحذيرا شديدا قائلا له [لست بعيدا عن ملكوت الله] . كان الأسهل له أن يدخل والأخطر عليه أن يتنحي ، فان دخل

---

١ ـ كلمة بتعلق غالبا كلمة مثالية ولكن بعض المفسرين يقول انها تشير إلى تعليق الأهداب التى تذكر بالناموس (عدد ١٥ : ٣٩) .

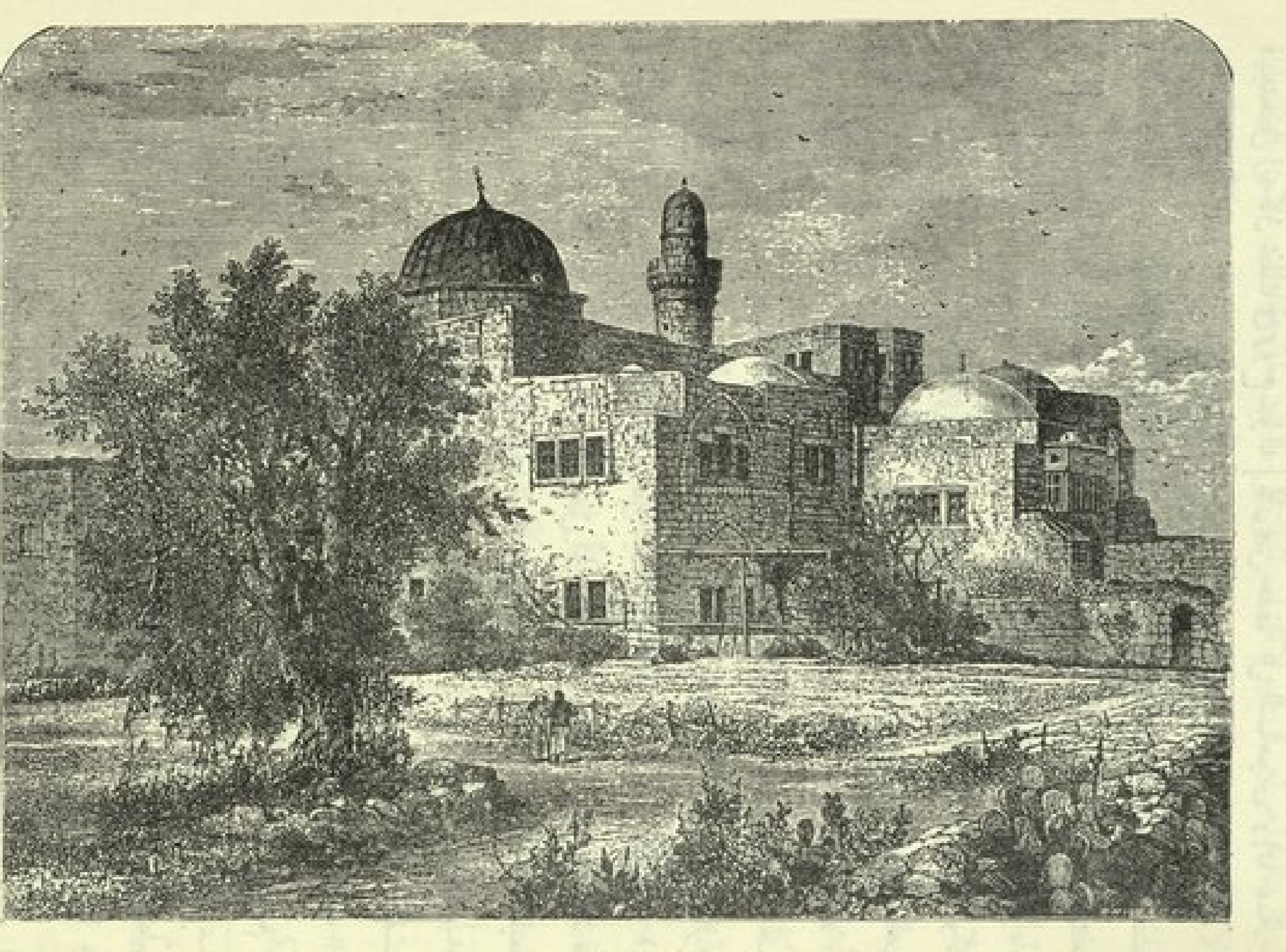
٢ ـ تيطس ٣ : ٩ .

٣ ـ ١ صم ١٥ : ٢٢ و يوشيا ٦ : ٦ و ميخا ٦ : ٦ ـ ٨ ولقد أضاف إيرانيوس أن من أقوال يسوع غير المدونة " لقد اشتقت من زمن لسماع مثل هذه الكلمات ولم أجد حتى الآن من يقولها " .

فسيتحقق أنه كان مخطئا فى روح سؤاله [لأن من حفظ كل الناموس وإنما عثر في واحدة فقد صار مجرما فى الكل] (١) .

لم يجسر بعد هذا أن يمسكه أو يصطاده أحد بكلمات شفتيه . لقد اختبر السنهدرين من تكرار خيبة مشاريعهم الماكرة وتحقير حكمتهم المتكبرة أن شعاعا واحدا من نور شمس حكمته كان كافيا أن يمزق ويفرق إربا إربا غمائم المنازعات الكلامية والتكريرات الباطلة التي عاشوا فيها وتحركوا بها ووجدوا منها . وكان من الحسن لهم أن يقتنعوا أنه من السهل عليه جدا لو أراد لاستعمل ضدهم بقوة قاهرة نفس الأسلحة التى استعملوها ضده فارتدت كليلة وجلبت عليهم الخسران . إلا أنه قدم لهم سؤالا واحدا بسيطا مؤسسا على نفس نمطهم فى التفسير ومشتق من أحد المزامير (١١٠) المعتبر عندهم أنه مسياوى . فى هذا المزمور قد ورد [قال الرب - (جيهوفاه) - لربى - (ادوناى) - اجلس عن يمينى] ، فكيف يكون المسيح ابن داود ؟ هل يستطيع ابراهيم أن يدعو اسحق أو يعقوب أو يوسف أو أى واحد من ذريته قرب أم بعد ربا له ؟ فان كان هذا نفيا فكيف جاز هذا لداود ؟ لن يستطيعوا إلا إجابة واحدة لأن هذا الابن سيكون إلهيا لا بشريا - ابنا لداود بالولادة الجسدية ولكن ربا لداود بوجوده الألهي . ولكنهم لم يجدوا هذا التفسير اليسير ولا أى تفسير آخر . لم يجدوه لأن يسوع كان مسياهم وقد رفضوه ، واختاروا أن يتجاهلوا أنه ابن داود حسب الجسد ، وانه عندما قال كمسياهم عن نفسه أنه ابن الله رفعوا أيديهم فى رعب تقوى مفتعل وأخذوا حجارة ليرجموه . وهنا أيضا قد رفضوا مفتاح الأيمان الذى يقودهم إلى التفسير الحق فكانت حكمتهم خاطئة جدا . ورغما عن ادعائهم بتعجرف أنهم قادة الشعب فى مسألة هامة وأولية تتعلق برجاء المسيا قد أجبروا على التأكد مرتين فى يوم واحد أنهم [عميان قادة عميان] .

١ - يع ٢ : ١٠ .



قبر داود في أوروشليم

قد أحبوا عماهم ، ولم يعترفوا بجهلهم ، ولم يتوبوا عن أخطائهم . لم يطرد إحسانه إليهم سم كرههم المرير له . ولم تقشع حكمته ظلمة شذوذهم الكثيفة . قد انتهوا بعناد وتصلب وعدم تزحزح إلى وجوب قتله ، فإن فشلوا فى مؤامرة فما كان هذا إلا ليزيدهم عنادا قاسيا فى تدبير غيرها . وإذ أن المحبة قد لعبت دورها بدون جدوى فقد « قفز العدل على المسرح » . وإذ أن نور العالم قد سطع بدون أن ينيرهم فإن البرق الخاطف سينذرهم بخطر موقفهم . لم يتبق أى أمل فى أن يتصالحوا معه إذ كانوا مغمورين فى كره غير تائب نحوه . لذلك التفت إلى تلاميذه ولكن على مسمع من كل الناس (١) وأنزل على رؤوسهم المجرمة بموجة من الغضب الروحانى المرة تلو الأخرى رعود ويلاته الملاشية (٢) . ما داموا يحملون سلطانا قانونيا ظاهريا فعلى مستمعيه أن يحترموهم (٣) ، ولكنه حذرهم من أن يقلدوهم فى كذبهم وظلمهم وعجرفتهم ومحبتهم للعظمة وولعهم بالألقاب وطمعهم الأشعي وكبريائهم وأنانيتهم وحذرهم من العصائب العريضة والأهداب المبالغ فيها والثياب الفضفاضة التي تكسو قلوبا قاتلة ، والصلوات الطويلة التى تخفى نوايا طامعة (٤) . وحينئذ نطق برهبة وشدة بويلاته الثمانية [ويل لكم أيها الكتبة

١ ـ بعض أروقة الهيكل كانت تسع ٦٠٠٠ نفس والغالب أن تزدحم بأكثر من هذا فى الفصح أو فى عيد المظال .

٢ ـ مت ٢٣ : ١ ـ ٣٩ جهد لانج فى أن يقابل هذه الويلات الثمانية مع التطويبات الثمانية وهذا مثل من وضع الذكاء فى غير محله أضر كثيرا بالتفاسير الصحيحة .

٣ ـ فى الجملة الأصلية يوجد جناس لطيف بين كلمتى " موشيش " أى موسى " وموشاب " وهذا دليل آخر على اللغة اللطيفة التى كان يستعملها يسوع .

٤ ـ عن ادعاءاتهم واعتداداتهم راجع المقتطفات والقصص الواردة فى التلمود (جيروفر) . واحدة منها تكفى . مثلوا السماء بمدرسة حاخامية . الله كبير ربيها . وفى ذات مرة اختلف الله وجميع الملائكة على أبرص إن كان قد طهر أو لم يطهر وأحالوا القرار على الحاخام ابن ناشمان الذى قتله عزرائيل لذلك وأتى به إلى الأكاديمية السمائية . ففهم رأيه إلى رأى الله الذى سر منه كثيرا .

والفريسون المراؤون] مرسلا إياها جملة وراء جملة بلهب فاحص محرق . الويل لهم لأنهم فى مهارتهم المجهولة قد أغلقوا أبواب ملكوت السموات ، وفى غيرتهم الضارة لم يسمحوا لغيرهم بالدخول ؟ الويل لهم من أجل ريائهم الظالم وزندقتهم الطموحة ! الويل لهم لتعصبهم مع كل دخيل فيجلبون عليه فسادا أعظم ! الويل لهم لحذلقتهم العمياء التى تفرق بين قدسية القسم حتى أدت للحلف الباطل الذريع ! (١) الويل لهم للتمسك الضئيل الكاذب الذى يقدم عشور الأعشاب ولا يفكر مطلقا فى العدل والرحمة والايمان ، والذى يصفى عن البعوضة فى الكأس ويبلع الجمل في القلوب (٢) . الويل لهم لتنظيفهم خارج الصحفة والكأس بينما هما مملوءان بما يؤدى إلى البطنة والسكر ! الويل لهم أمثال القبور التى تظهر بقدسية المعابد مكلسة بلامع الرياء بينما هذا الطلاء إنما تزيد بالمقارنة ما فيها فى الداخل من الفساد وكل النجاسات ! الويل لهم لتوبتهم الريائية التى تحكم على آبائهم أنهم قتلوا الأنبياء بينما قد ورثوا هم روح القتل وتغلغلت فيهم وزادوا عن جرائم آبائهم بتلمسهم ضحية تجعل وزرهم أشد وأفظع ! نعم سيأتى عليهم كل دم بار سفك على الأرض من دم هابيل الصديق إلى دم زكريا بن براخيا الذى قتلوه بين الهيكل والمذبح (٣) . كان ضباب الانتقام القرمزى يتجمع من مدة

---

١ - التخريجات الوضيعة التى كان اليهود من ورائها يحنثون بأيمانهم اشتهرت حتى فى الدنيا الوثنية . الاتهامات التى ذكرها يسوع فى ويلاته قد أقرها كتاب اليهود . جاء فى إحداها أنه توجد عشرة رياءات فى العالم تسعة منها فى أورشليم . وجمع كيم شبيهات مماثلة من كتب مزامير سليمان - ومراجعات موسى - وكتاب أخنوخ . عن اكتساب الدخلاء راجع جوف . وعن تفسير الأيسون اختلفوا هل يعشرون زهوره فقط أم أيضا سيقانه وبذوره .

٢ - كانوا يصفون الماء خلال كتان نقى ليتجنبوا بلع أى دبيب قذر (لا ١١ : ٤١ - ٤١) .

٣ - زكريا بن باروخ أو براخيا كان أحد عظماء الرجال وأنقاهم فى زمانه وقد ذبحه الغيورون بعد هذا التاريخ بأربعة وثلاثين سنة وسط الهيكل ورمى جثمانه إلى الوادى السحيق تحته فلا يمكن أن يكون هو زكريا المومأ إليه هنا . وليس هناك دليل على اعتقاد أوريجانوس أنه زكريا أبو يوحنا المعمدان الذى قتل وانه ابن براخيا أيضا . المعرب : وقد ورد هذا فى كتاب

طويلة ويتكاثف من عناصر الغضب على رؤوسهم وستنفجر ميازيبه ويندلع لهيبه !

وعند هذا الحد تكسر الصوت الذى دوى بغضب نبيل عادل ورق برأفة عظيمة وهو يقول [يا أوروشليم يا أوروشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها . كم مرة أردت أن أجمع بنيك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها فلم تريدوا (١) . ها أنذا أترك لكم بيتكم خرابا وانى أقول لكم إنكم من الآن لا ترونني حتى تقولوا مبارك الآتى باسم الرب] (٢) .

[الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون] . لقد تجرأ بعضهم واتهم هذه الكلمات بالظلم والمرارة وعزاها إلى نوبة من اليأس غير النبيل أو ثورة من الغضب لا سبب له . ولكن ألا توبخ الخطية أبدا ؟ ألا يرفع النقاب عن الرياء أبدا ؟ أليس الغضب النبيل جزءا ضروريا من الروح النبيلة ؟ أليست الثقافة اليهودية ذاتها تشهد بصحة هذه الصفة التى لصقها يسوع بالفريسيين ؟ قال اسكندر يانوس لزوجه وهو على فراش الموت « لا تخافى الفريسي الحقيق ولكن خافى تماما من الفريسي المبيض » . وقال الحاخام ناشمان « إن القاضى العالى سيعاقب بعدل أولئك الذين يلفون أهدابهم

أخبار الكنيسة القبطية . أما النبي زكريا فقد كان ابن براشيا ولكن لا يوجد ما يدعم أنه قتل (زك ١ : ١) وعليه يجب أن نستنتج أن السيد أشار إلى زكريا بن جيهويدا الملقب براخيا والذى رجم بأمر يوآش فى قدس هيكل الرب . ١ ـ وهذا القتل حسب كتب اليهود هو آخر ما فى العهد القديم . ٢ ـ عند موته قال زكريا هذا " الرب ينظر ويجازى " . ٣ ـ اليهود أنفسهم لهم أقاصيص تقليدية عن هذا القتل (راجع لاتيفوت وستانلى) وقد ترك هذا الحادث أثرا عميقا عندهم واعتقدوا أنه بسببه قد حمى غضب الرب عليهم (٢ أيام ٢٤ : ١٨) .

١ ـ هذا التشبيه الجميل وارد أيضا فى أحد كتب اليهود وهذا أقرب ما ورد فى الابوكريفا إلى كلام السيد . وقد وردت زيادات فى هذا الحديث فى نسخة الأبوكريفا اللاتينية والانجليزية لم ترد فى النسخة العربية أو الأثيوبية . وقد ورد أيضا عنصر هذا التشبيه فى تث ٣٢ : ١١ .

٢ ـ يقصد بهذا مجيئه الثانى . (زكريا ١٢ : ١٠ و هوشع ٣ : ٤ و ٥) (كم مرة) تدل على أن كرازة السيد فى أوروشليم كانت أوسع مما ورد فى البشائر الثلاث الأولى .

ليظهروا أنهم فريسيون حقيقيون وهم ليسوا كذلك » . بل إن التلمود ذاته قد فصل بوضوح تام وسخرية قاسية لاذعة سبعة أنواع من الفريسيين ألصق بستة منها خلة هى خليط الكبرياء والرياء ! فهناك الفريسي « الشليمي » الذى يطيع الناموس لمنفعته الشخصية (قارن تك ٣٤ : ١٩) . وهناك الفريسي « الينكيفي » ، أى المتعثر ، أى المدعي التواضع لدرجة دوام التعثر لأنه لا يرغب أن يرفع قدمه عن الأرض . وهناك الفريسي « القاني » أو الدامى الذى يضرب نفسه في الحوائط لأنه حي خجول لا يقدر أن يسير وعيناه مفتوحتان لئلا يرى امرأة . وهناك الفريسي « الميدوركى » أى الملاطى الذي يغلق عينيه كما بالملاط لنفس السبب . وهناك الفريسى الذى وصفه « اعطنى واجبا آخر وأنا أتمه » ، وقد صادف يسوع كثيرا من هذا النوع أثناء خدمته . وهناك الفريسى « الجبان » الذى لا يعمل إلا بدافع الخوف . والنوع السابع فقط هو الفريسى « عن المحبة » وهم الذين يطيعون الله لأنهم يحبونه من كل القلب .

[ها أنذا أترك لكم بيتكم خرابا] ؛ ألم تتم تلك اللعنة بحرفية مريعة (١) . ومن لا يرى صداها فى تعبير تاسيتوس « انفتحت أبواب الهيكل بقوة وسمع صوت من هو أعلى من البشر ورأى الناس الله يفارق الهيكل » . ويقول يوسيفوس وهو يذكر مقتل حنان الصغير وعددا من النبلاء والرؤساء « لا يمكن أن أفكر إلا أن سبب هذا إنما كان لأن الله حتم خراب هذه المدينة الرجسة وأنه كان يريد أن ينقى هيكله لذلك ، سمح بهلاك أولئك المدافعين العظام الأبطال . وحتى أولئك الذين ارتدوا الملابس المقدسة وترأسوا الصلوات العامة ونظر إليهم باحترام من سكان الأرض طرا قد طرحوا عراة وصاروا مأكلا للكلاب وطعاما للحيوانات المفترسة » (٢) . ولم يذكر

---

١ ـ قال فرانكل إنه " رأى واحدا من اليهود واقفا يصلى بخشوع وقد لف جسده وذراعيه بكفنه وهو يصيح بالكلمات التى يقولها كل يهودى عندما يرى الأرض المقدسة الويل لى لأن مدائنك المقدسة صارت صحراء " .

٢ ـ يوسيفوس . قارن ميخا ٣ : ١٢ .

التاريخ خبرا مملوءا بالمخاوف والفظائع والبؤس الشامل والانحطاط الذى لا يعبر عنه مثل حادث حصار أوروشليم . ولم تتم نبوءة قاصمة بالشدة والتمام مثل نبوءة المسيح هذه . كان الرجال يسيرون متخفين فى زى النساء وسيوفهم تحت ثيابهم ـ المناظرة الغاضبة بين يوحنا وشمعون ـ والكهنة يقذفون بالسهام من أعلى أبنية الهيكل فيقعون مذبوحين إلى جانب ذبائحهم والدماء التى للأجسام المختلفة (أجسام الكهنة والأغراب والملحدين) مختلطة وراكدة كبحيرات فى الأروقة المقدسة ، والجثث ذاتها مكومة أكواما مكدسة ، تلالا على جوانب المذبح ذاته ، والنيران تلتهم خشب الصندل المطعم بالذهب ، والعدو والحبيب كلاهما ينطرحان على أرض القيشانى في هذه المذبحة المختلطة ، والكهنة وقد أفقدهم الجوع عقولهم يقفزون بجنون إلى النيران الآكلة حتى انتهى أخيرا عمل هذه النيران وصار هيكل أوروشليم ومسكن الله المقدس الجليل كومة من الخراب الذريع تنطفىء أخشابه المحترقة فى بحيرات الدماء المتخثرة .

أو لم يأت الدم المهرق على الأرض من أيام هابيل البار على هذا الجيل ؟ ألم يبق أحياء عديدون من هذا الجيل ليشاهدوا ويساهموا فى هذه الويلات التى لا توصف التى ذكرها يوسيفوس ؟ وليروا زملاءهم يصلبون في سخرية وهزء « بعضا على هذا النحو وبعضا على نحو آخر » « حتى ضاقت الأمكنة بالصلبان والصلبان بالجثث » ، وليختبروا السكوت المطبق والظلمة المدلهمة التى كانت تكسو المدينة فى فترات سكون الانتقام لينظروا ستمائة ألف جثة تحمل خارج الأبواب ، وليبصروا الأصدقاء يتقاتلون بجنون على الحشائش والأعشاب وبقايا المجارى ، وليعاينوا الغيورين يتمايلون من الجوع ويتعثرون مثل الكلاب المجنونة ، وليسمعوا القصص المرعبة عن الأمهات البائسات اللواتى عضهن الجوع فأكلن أبناءهن ، وليباعوا عبيدا زرافات وجماعات حتى لم يعد من يشتريهم ، وليشاهدوا الشوارع تجرى فيها الدماء والنيران المشتعلة فى البيوت تذكيها دماء المدافعين عنها ، والأطفال الصغار تباع بالمئات وتعرض فى المدرجات

لسيف الجلاد وافتراس الأسود « حتى لم يبق شيء يعمله الأعداء إذ قتل كل الرجال واحترق البيت المقدس وفنيت المدينة كلها بالنار » . ويحققون أنه فى هذا الحصار قد هلك مليون ومائة ألف رجل فضلا عن سبعة وتسعين ألفا أسروا وهلك أغلبهم بعد ذلك بقليل إما فى المناجم أو فى الملاعب . ومن المرعب أن يشعر بعض شهود العيان من غير المسيحيين وقد شعروا وأعلنوا « أن المدينة قد استوفت عقابها لأنها أنجبت جيلا من الرجال كانوا السبب في تعاستها » ، وصرحوا أنه ما قاست أية مدينة ما حاق باوروشليم من الضيقات ، وأنه ما من زمن قد أخرج جيلا مثمرا فى الشر مثل هذا الجيل منذ بدء العالم (١) .

---

١ - كل هذه التفصيلات متخذة من يوسيفوس .





عملة تخلد افتتاح اليهودية *
(الأصل فى المتحف البريطانى)

الفصل الثالث والخمسون

توديع الهيكل

"بما أن كنيسة الله كانت تنمو حسنا فى كل الأرض فقد أصبح محو الهيكل محتوما كشىء عتيق لا نفع منه"
أوروس

كان واضحا للجميع أن التنبؤ العظيم الذى أتينا على ذكره فى الفصل السالف لا بد أن يكون مبعث الانفجار الأخير والذى لا أصل بعده.

---

* العملة التى على اليسار عملة لتيطس على وجه منها تمثل يهودية جالسة على درع إلى جانب نخلة وهى تبكى بينما وقف تيطس خلفها فى ثياب الحرب واضعا قدمه اليسرى على خوذة وماسكا بيمينه رمحا وبيساره سيفا قصيرا . وعلى الوجه الآخر (غير مبين فى الرسم) كتب "تيطس قيصر فسبسيان امبراطور بونتيف رئيسا حاكما وقنصلا للمرة الثانية" وهذه الصفة الأخيرة تحدد سنه ٧٢ م ؛ أى السنة التالية لانتصاره فى فتح اليهودية والذى من أجله قد منحه أبوه اللقب

فبعد استعماله لغة مثل هذه لا يمكن أن يكون احتمال للمصالحة . لقد فات الوقت وأغلق الباب ، وعندما ترك يسوع الهيكل لا شك أن تلاميذه قد تأكدوا أنه يتركه للمرة الأخيرة .

ولكن الظاهر أنه بينما كان يفعل هذا - ربما وهو جالس بقلب محزون وعينين كسيرتين فى رواق النساء ليهدىء نفسه المضطربة من جراء هذه الغضبة النبيلة ويريح باله المتعب من هذه التهجمات المتتالية - حدثت حادثة أقل إيلاما جعلته يغادر مقادس بيت أبيه ليس بكلمات الغضب ولكن بكلمات الرضى . كان في رواق النساء هذا ثلاثة عشر صندوقا تسمى « شوب هيروث » ، كل منها على شكل بوق يتسع رويدا رويدا بعد فتحه ، وقد نقش عليها مختلف الكتابات . في هذه كانت تلقى عطايا الاحسان والهبات الدينية التى تساعد على غنى الهيكل العظيم . كان يسوع جالسا هناك ، والجميع يلقون عطاياهم ، والأغنياء منهم امتازوا بتشامخهم وهم يلقون الذهب والفضة . ورفع يسوع عينيه (١) اللتين كانتا في الغالب منخفضتين فى تفكير حزين ، وفى لحظة واحدة رأى كل ما هنالك . فى تلك اللحظة قدمت أرملة قربانها بخوف . وربما انفرجت شفاه الأغنياء احتقارا لعطاء كان الأقل قانونيا . أعطت « فلسين » ، أصغر عملة سارية لأنه لم يكن قانونيا اعطاء فلس واحد حتى من أفقر الناس . « والبروتاه » أو « لبتون » كان يساوي ثمن « آس » أى أقل من نصف الفارزنج ، فتكون عطيتها كلها أقل يسيرا من الفارزنج (٢) . وفى بؤس الفقر ربما خجلت هى أيضا من إعطاء

المرغوب فيه " امبراطور " .

والعملة التى على اليمين تبين على وجه منها نخلة مليئة بالثمار وإلى جانبها يهودية تبكى جالسة على درع وينظر إليها باعزاز يهودي أسير ، يداه مربوطتان خلف ظهره وعند قدميه خوذة ودرع .

١ - لو ٢١ : ١ (تطلع) توجد فى التلمود حكم مثل " من يعطى فى الخفاء هو أعظم من موسى " ومثل " خير ألا تعطى من أن تعطى علانية وبتشامخ " .

٢ - أصغر العملة الانجليزية ويساوى نحو المليم .

قربان حقير مثل هذا بينما كان الأغنياء حولها يجودون بالذهب . ولكن يسوع قد سر بروح الاخلاص والتضحية الذى صاحب العطية . كانت مثل كأس الماء البارد الذى يقدم بدافع المحبة والذى لا تنسى مكافأته في ملكوته . أراد أن يعلم للأبد الدرس العظيم أن الأصل فى الاحسان هو انكار الذات . وانكار الذات الذي تجلى عند هذه المرأة المدقعة الفقر كان أعظم مما لأغنى فريسى جاد بالذهب . [لأن الجميع ألقوا مما فضل عنهم . أما هذه فمن عوزها ألقت كل ما عندها ، كل معيشتها] . قال القديس امبرواز « درهم من القليل خير من كنز من الكثير لأنه لا يهم ماذا أعطيت ولكن ماذا أبقيت » .

بعدئذ ترك يسوع الهيكل للمرة الأخيرة ولكن إحساس رسله كان متعلقا بحب الفخر الوطنى لذلك المكان المقدس الخالد (١) فوقفوا ليلقوا نظرة طويلة أخيرة . ولفت أحدهم بتحمس نظره لأحجاره العظيمة وتحفه الفخمة ، وإلى الأبواب التسعة المطعمة بالذهب ، والباب الأثمن منها المصبوب من نحاس كورنثوس ، وإلى الأبراج العالية الجميلة ، وإلى القطع الرخامية المنحوتة وطولها أربعون ذراعا وارتفاعها عشرة أذرع شاهدة بتعب وسخاء أجيال عديدة ، وإلى الايوانات بأعمدتها الفخمة ، وإلى النقش المسرف في النحت والفسيفساء ، وإلى تلك المربعات الرخامية البيضاء فالحمراء المنمقة التى تماثل قمم ومنخفضات أمواج البحر ، وإلى تلك العناقيد الكبيرة من العنب المصنوعة من الذهب كل عنقود بحجم الرجل ، تتعانق أوراقه الكبيرة بفخامة فوق الأبواب الذهبية . أرادوا أن ينظر معهم إلى الأروقة المرتفعة بتدرج بديع ـ رواق الأمم بفسيفسائه الثمين وأعمدته الضخمة التى من حجر واحد ، وفوقه سلم من أربع عشرة درجة يؤدى إلى رواق النساء ، وبعده سلم من خمس عشرة درجة يؤدى إلى رواق الكهنة ، ثم بعده أيضا سلم من اثنى عشرة درجة يؤدى إلى الطابق الأخير

---

١ ـ مت ٢٤ : ١ و مر ١٣ : ١ و لو ٢١ : ٥ ـ ٦ .

المتوج بالقدس وقدس الأقداس الذى كان الربيون يحبون أن يشبهوه بأسد رابض والذى برخامه الأبيض وسقوفه المحلاة بالذهب كان يماثل جبلا عظيما تتوج الشمس الذهبية قمه الثلجية (١) .

ظن التلاميذ أن جمال ونخامة المنظر سيشفعان لديه ويميلان قلبه كما يتوسل صامت . ولكن قلب يسوع كان حزينا . لأن لديه جمال أى هيكل هو إخلاص المتعبدين فيه . وليس الذهب ولا الرخام ولا الفسيفساء اللامعة ولا خشب الجوز المحفور ولا الزخرفة الدقيقة أو الجواهر الفريدة بمغيرة فى نظره مغارة اللصوص إلى بيت صـــلاة . كان البناؤون لا يزالون يشتغلون بهمة كما كانوا يفعلون من نحو خمسين سنة . ولكن إذ كان عملهم غير مبارك من الله كان مقضيا عليه ومحتوما أن يباد قبل أن يكمل - مثل مدرج مدينة بومباى المذنبة الذى هدمته ودمرته الزلازل - لم يلتفت يسوع إلى هذا المنظر المتألق وأجاب باختصار يقرب من الشدة [أترى هذه الحجارة العظيمة ؟ لا يترك حجر على حجر ههنا إلا وينقض] وكانت الخاتمة النهائية للاله المغادر المكان هى [قوموا ننطلق من ههنا] . ويذكر تاسيتوس ويوسيفوس أنه فى حصار أوروشليم كان الناس يتسمعون أصواتا كما لآلهة مفارقة (٢) . ولكن الآن قد خرج الصوت واقعيا ولو لم تصحبه زلازل أو أعاجيب لتنذر أن حقبة كبرى من تاريخ العالم قد انتهت . وإنما حدث ذلك بهدوء « لأن الله سر أن تتم كل الأشياء فى وقت حصادها وإن بطؤت أزمانها » . وبعد خمسة وثلاثين سنة دفن هذا الهيكل فى رماد خرابه ولم يستطع لا هدريان ولا جوليان ولا أى شخص آخر أن يبنى بديلا له بل إن ذات مكانه أصبح

١ - هذا التشبيه وارد فى وصف يوسيفوس المفصل للهيكل والذى منه استقيت هذه المعلومات واستمرت هدايا الملوك للهيكل حتى آخر زمانه . أهداه اغريبا السلسلة الذهبية التى منحه اياها كاليجولا . وصف أوروشليم والهيكل فى ذلك الزمان مفصل فى كتاب ديلتش سنة ١٨٤٣ .

٢ - يوسيفوس وتاسيتوس .

غير محقق حتى وقتنا الحاضر (١) .

بحزن وسكون ، وبتثل هذه الأفكار فى القلوب ، ولت تلك الجماعة الصغيرة ظهورها للبناء المقدس الذى ظل رمزا للتاريخ اليهودى منذ أيام سليمان . واجتازوا وادى قدرون واعتلوا الممشى السحيق الذى يؤدى عبر جبل الزيتون إلى بيت عنيا . ووقفوا عند قمة التل وجلس يسوع ليستريح ربما تحت فروع البلوطتين اللتين كانتا تزينان أعلى التل . كان منظرا يوافق تماما وحى الأفكار المقدسة إذ كانت المدينة المقدسة ترى على الجانب تحته ، المدينة الزانية منذ القديم والتى في ذلك اليوم - وهو اليوم العظيم الأخير فى خدمته العلنية - أظهرت نهائيا أنها لم تعرف زمان افتقادهـــا ، وعند قدميه كانت منحدرات جبل الزيتون وحديقة جثسيمانى ، وعلى المنحدرات المقابلة قامت أسوار المدينة والهضبة الوسيعة التى بنى عليها الهيكل بأعمدته الرخامية وسقوفه الذهبية . وإلى الشرق كانت ترى التلال العارية المنفردة التى لبرية اليهودية ممتدة إلى الأفق الأرجوانى حيث تلمع جبال موآب مثل قلادة من الجواهر فى ضوء شمس الغروب . وفى عمق أخاديد الغور القاحلة كانت ترى المياه الزرقاء الباهتة لبحر لوط الغريب . فلهذا جل ببصره وهو جالس على قمة التل إلى أى جهة كان يرى علامات من غضب الله وخطية الانسان . فالى جانب تعيش تلك البحيرة الصامتة التى تصيح أمواجها المقبضة ومياهها بشهادة أبدية عن انتقام الله من خطايا الشهوة ، وإلى جانب آخر المدينة الفخمة المجرمة التى شاركت فى سفك دماء الأنبياء والتى كتب عليها أن تهوي إلى مفاسد أنكى فالى مجازاة أشد . وزاد المنظر رهبة أن شمس حياته الغاربة بسطت ألوانا عميقة كئيبة على كل زمان غربته على الأرض .

عكست ظلال أفكاره على منظره وتقاطيع وجهه مهابة غريبة وهو جالس صامتا

---

١ - تبطس نفسه دهش لضخامة بناء أوروشليم ورأى فى التغلب عليها يد الله (يوسيفوس) راجع جروفر عن خراب الهيكل .

بين جماعة أتباعه القليلين المخلصين الساكتين . فبشيء من الخوف تقدم إليه تلاميذه المقربين المعززين ، بطرس ويعقوب ويوحنا واندراوس ، وعندما رأوا عينيه مثبتتين على الهيكل سألوه على انفراد [قل لنا متى يكون هذا. وما هى علامة مجيئك وانقضاء هذا الدهر] (١) . أما سؤالهم [متى ؟] فقد ظل في الحاضر بدون إجابة . كانت هذه عادة يسوع عندما يسأله أحد سؤالا جهولا أو عديم الاحترام أو غير لائق ، لا يوبخه مباشرة ، وإنما يمر عليه مر الكرام ويبدل الاجابة بتعليم أدبى عظيم يمت إليه بصلة ، ويجعل للسؤال قيمته (٢) . ولذلك اتخذ من هذا السؤال سبيلا إلى حديثه العظيم عن نهاية العالم ، الحديث الذى كان له أربعة مفاتيح [احترسوا] و [اسهروا] و [اصبروا] و [صلوا] .

قامت صعوبات كبيرة عن هذا الحديث وألفت كتب برمتها لأزالتها . وحقيقة أن اللغة التشبيهية التى اكتسى بها والخفاء المقصود الذى شاءت إرادة الله أن يلبسه لتفاصيل المستقبل والتى قد تؤدى معرفتها إلى استغراب كسول أو خوف مهول سيجعلان إلى الأبد أجزاء منه عسرة الفهم . ولكن إذا قارنا ما كتبه البشيرون الثلاثة (٣) ، وأن كل ما كتبه أحدهم يوضح ما كتبه الآخران ، وإذا تذكرنا أنه فى البشائر الثلاث قد كتبت خلاصة كلمات يسوع وزبدتها ، وأنها كتبت فى معناها لا مبناها وبصورة قد تحتمل الاختلاف اللفظي ، وإذا تذكرنا أنها فى الغالب الترجمة اليونانية للكلمات الآرامية التى نطق بها ، وإذا تيقنا أن الغرض من النبوة فى كل الأجيال التحذير الروحي أكثر من تبيان الأزمنة إذ أن كل الأزمنة إزاء صوت النبوة، كما في نظر الله ، إنما هى حاضر أبدى مستمر [لأن يوما كألف سنة وألف سنة كيوم] ،

---

١ - مت ٢٤ : ٢٥ و مر ١٣ : ٣ - ٣٧ و لو ٢١ : ٧ - ٣٨ .

٢ - قارن لو ١٣ : ٢٣ - ٢٤ .

٣ - مت ٢٤ : ٢٥ و مر ١٣ و لو ٢١ .

وأخيرا لو قبلنا مع كل الاحترام وبدون الرجوع إلى التفاسير اللاهوتية العويصة ، والتعابير المعقدة ، لو قبلنا التأكيد الصريح الذى للسيد نفسه فى بشريته أنه لم يكن معلوما لديه لا اليوم ولا الساعة وإنما الآب قد حفظ الأوقات والأزمنة ، فانى أقول أنه لو قرأنا هذه الاصحاحات وهذه القواعد ماثلة دائما أمامنا فانى متأكد أن كل قارىء بجد وإخلاص سيجد أن أكثر الصعوبات قد زالت من نفسها .

لو قابلنا بشارة لوقا مع البشارتين الأخريين نرى جليا أن يسوع قد لفت أنظار تلاميذه إلى أفقين ، أحدهما قريب والآخر بعيد ، كما سمح لهم بنظرة سريعة في رحاب المستقبل ، وأن الحد الفاصل لكل أفق يمثل حقبة أو أبدية لها نهاية عظمى . ويصدق على كل حقبة منها ، أولا بالمعني الحرفى « كجيل » ، وثانيا بالمعنى الأعم « كبشرية » ، أنها لن تنتهي حتى يتم الكل ، وان احداهما مثال للأخرى . فدينونة أوروشليم ، يتبعها تأسيس الكنيسة المنظورة على الأرض ، ظل لدينونة العالم وتأسيس ملكوت المسيح فى مجيئه الثانى . وإن كانت اللغة التنبؤية غير الواضحة والمثل الواردة فى بشارة متى وإلى درجة أقل فى بشارة لوقا قد تحمل على الظن أن هذين الحادثين متصلان أو على الأقل متعاقبان ، فانا نرى بوضوح فى بشارة لوقا أن السيد قد حذر بجلاء سائليه من تلاميذه أنه وإن كانت بعض العلامات التى تنبأ بها سيعقبها انتهاء حقبة عظمى من تاريخ العالم فان النهاية العظمى ، النهاية الأخيرة ، لن تعقبها فى الحال . فلا يرتاعوا بأخبار حروب أو مجاعات ولا تصيبهم حمى الترقب الحار أو السريع (١) . ولو وضعنا نصب عيوننا أن جزءا من كلام يسوع كان أوليا عن سقوط مملكة اليهود وتشتيتهم ، وجزءا عن نهاية العالم ، وأنه كان يحادثهم بالتبادل والتخالف الفكرى والكلامى ، الأمر الطبيعى لمن حمل وتحرك فى دائرة الأبدية غير محصور في دائرة الأزمان ، وانه لم يفرق لنا البشيرون بوضوح الفقرات التى كان يعنى بها أفقا دون الآخر ، فلن نضل بتأثيرات

---

١ - لو ٢١ : ٩ وأيضا مت ٢٤ : ٦ و مر ١٣ : ٧ راجع بوست .

سطحية خاطئة بل نتحقق أنه فى هذا الحديث الأخير قد تنبـــأ السيد عن حادثين عظيمين ، الأول أن أوروشليم تداس بالأقـدام طويلا حتى ينتهى زمان الأمم (١) ، والثانى الكرازة بأنجيل الملكوت لكل ممالك العالم (٢) . اننا لا ننكر أن الكاتبين الملهمين للبشائر قد دونوا بكامل الحكمة والأمانة كل ماهو ضرورى لحياة وخلاص الجنس البشرى ، ولـكن اختصارهم لما نطق به يسوع والترتيب الذى وضعوه لأحاديثه يجعلنا نظن أن الأفق الثانى أقرب للأول مما هو في تقـدير السماء مع أن يسوع قال [ولكن لا يكون المنتهى سريعا] .

في هذا الحديث قد حذرهم يسوع من المسحاء الكذبة والأنبياء الكذبة وأخبرهم أن الحروب القاسية بين الأمم والاضطرابات والمصائب التى قد تتـوافت مع أزمات التاريخ العظمى ما هى إلا مبتدأ الأوجاع وأول علائم الزمان الآتى (٣) ، فلا يرتاعوا . وتنبأ عن الاضطهادات المريرة وزيادة الأثم ونقص الايمان والكرازة العامة كعلامات على اقتراب النهاية . وكما نعلم من مقتبسات أخرى فى البشائر أن هذه العلامات التي سبقت خراب أوروشليم ستظهر ثانية وعلى وجه مضاعف قبل انتهاء كل الأشياء (٤) .

والجزء الثانى من هذا الحديث انصب جليا على المستقبل القريب . تنبأ بوضوح على خراب المدينة المقدسة فأعطاهم الآن العلامات المنذرة باقترابه كى يطلبـوا السـلامة لذواتهم . فاذا رأوا المدينة قد أحاط بها أعداؤها ، وقامت الرجسة المؤدية للخـراب فى المكان المقدس ، فحتى الذين في الحقول والذين على السطوح فليهـربوا من اليهـودية وليلجأوا إلى التلال التى فى عبر الأردن من البلايا التى لا يعبر عنها والتى ستتبع بعد ذلك .

---

١ ـ لو ٢١ : ٢٤ أى كل ظروف الأمم تحت الترتيب المسيحى .
٢ ـ مت ٢٤ : ١٤ .
٣ ـ مت ٢٤ : ٨ .
٤ ـ ١ تس ٥ : ٣ و ٢ تس ٢ : ٢ .

ولا يجب حتى ذلك الوقت أن يحملوا بخداع كذاب بسبب حدة الأشتياق للآمال السماوية . وسيقول لهم البعض أنه هنا وأنه هناك فلا يجب أن يصدقوا لأن مجيئه سيكون مثل البرق الذى يضىء من المشارق إلى المغارب وسيكون ظاهرا ولا يخطئه العالم ومثل النسور (١) التى تجتمع حول الجثة سيطير خدامه المعدين لانتقامه . وهذه التحذيرات ان راعاها المسيحيون فسيحفظون فى الأمان . فقبل أن يغلق يوحنا الجسكالى أبواب أوروشليم ، وقبل أن يبدأ سمعون الجراسى في قتل اللاجئين « حتى ان من هرب من الظالم الذى داخل الأسوار كان يهلكه الظالم الثانى الذى خارج الأبواب (٢) ، وقبل أن يرفرف النسر الرومانى فوق المدينة المحتوم عليها الهلاك ، وقبل أن تتسلط نزوات الشهوة والقتل فيلجأ كل عابد فى خوف إلى أروقة الهيكل (٣) ، كان المسيحيون قد أخذوا حذرهم من وقت فسيح وهربوا إلى مدينة بللا الصغيرة فى البرية حيث كانوا آمنين من السرقة والقتل والجوع وأكل لحم البشر والأبادة التى جعلت حصار أوروشليم مرتعا لخراب لم يحدث مثله منذ بدء الخليقة (٤) .

وانتقل يسوع إلى ظلمة الشمس والقمر وتساقط النجوم . واضطراب قوات السماء ، وهى علامات قد تكون لها مدلولات حسية حرفية (٥) ومدلولات رمزية

---

١ ـ لتفسير هذه العلامة راجع لو ١٧ : ٣٧ . إن " النسور " هى الرومان وهذا دليل اضافى فى كتاب أخنوخ ٩٢ حيث يشبه الأعداء من الأمم بالنسور والغربان . وكانت النسور هى الرمز الأعم الذى يرى على نقود المستعمرات . ولا زال كثير منها فى الشرق فلا بد أن يكون هذا الرمز معروف لدى اليهود الذين نظروا إليها بكره خاص آكرمان ويوسيفوس .

٢ ـ يوسيفوس .

٣ ـ عن مظالم الغيورين راجع يوسيفوس .

٤ ـ مت ٢٤ : ٢١ . يقول يوسيفوس " إنه لم يكن جيل شرير أو مدينة غاصت فى البؤس منذ انشاء العالم مثل هذا الجبل أو تلك المدينة .

٥ ـ المعرب : أثبت العلم نهائيا أن العناصر ستنحل و تتساقط النجوم محترقة (راجع كتاب مشرقة).

مثالية ، هذه التي يجب أن تسبق ظهور ابن الانسان في السماء وجمع المختارين من الاربعة رياح بصوت بوق الملائكة .

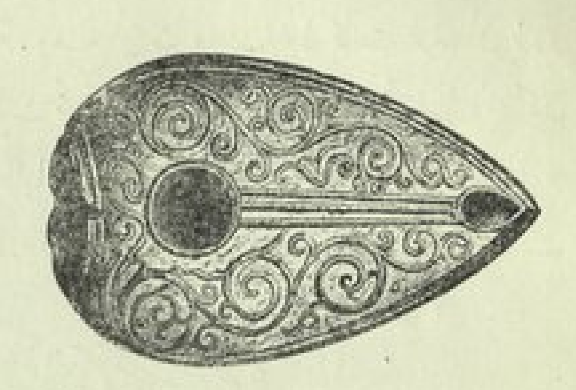
إن يوم الرب له علاماته كما ليوم خراب أوروشليم . ولهذا امر أتباعه فى كل الأجيال أن يرقبوا هذه العلامات ويترجموها على صحتها كما يعلمون أن الصيف قريب من شجرة التين إذا أخرجت أوراقها . ولكن ذلك اليوم سيأتى على العالم فجأة ، وعلى غير انتظار ، ودفعة واحدة . وكما سيكون يوم الجزاء الحسن لخدامه الأمناء سيكون يوم النقمة والهلاك للسكيرين والمرائين والظالمين . ولكي يحفر على عقولهم دروس السهر والايمان وليحذرهم بتأكيد شديد ضد مخاطر الحياة الكسولة والمصباح المدخن (١) حدثهم بالمثلين البديعين ، الجميلين جدا ، البسيطين جدا ، الغنيين بالتعاليم ، مثل العذارى العشرة ومثل الوزنات . ورسم منهما صورة ليوم الدينونة العظيم الذى يميز فيه الأمم كما يفصل الراعي الجداء عن الحملان . فى ذلك اليوم يعتبر أولئك الذين يظهرون أقل شفقة لأصغر أخوته أنهم به قد فعلوا . وحينئذ لئلا تكون هذه التعاليم العليا عن الدينونة قد أعادت إلى ذهنهم الأفكار



نسر رومانى على قاعدة (عن مونتيفوسن)

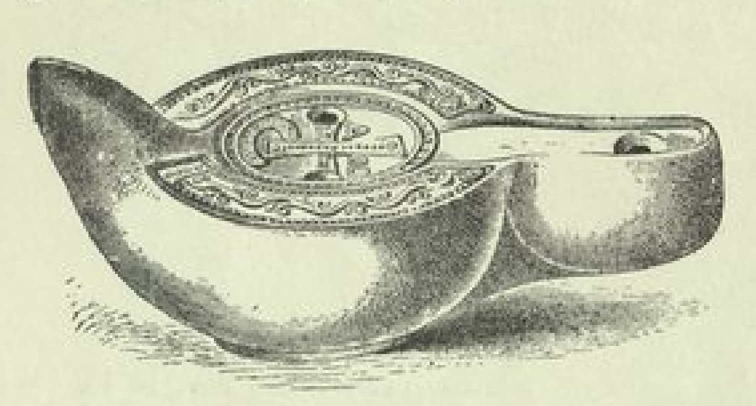
---

١ ـ مت ٢٥ : ٨ (مصابيحنا تنطفىء) أى تدخن لا انطفأت . وهكذا نور روح قدس الله ينطفىء داخل " أوعيتنا الأرضية " .



مصباح شرق (عن عملنا فى فلسطين)

اليهودية القديمة الخاطئة أردفها بالخاتمة الحزنة التى كادت أن تصبح عادية وهى أن موته وآلامه يجب أن يسبق الكل . وأوضح لهم الآن بكل بساطة وبيان عن الكيفية والظروف التى سيتم بها بل أيضا عن ذات اليوم [تعلمون أنه بعد يومين يكون الفصح وابن الانسان يسلم ليصلب].



مصباح شرق

وهكذا انتهى الحديث العظيم على جبل الزيتون وغابت الشمس فقام وسرى بتلاميذه وعبر الطريق القصير الباق إلى بيت عنيا لآخر مرة على الأرض . وبعد تجربته وأتعابه وتعاليمه المهيبة والانفعالات القاسية التى حدثت فى هذا اليوم الملىء بالمصاعب كم كانت شهية لديه ساعة الغسق اللطيف والمساء الهادىء . وأى سلام وعطف منشط أحاطا به فى تلك القرية الهادئة والبيت المقدس . وكما لاحظنا سالفا نجد أن يسوع لم يكن يحب المدن وندر أن نام داخل أسوارها . كان يأنف من آثامها المتكدسة ومن علانيتها الظاهرة، ومن ملذاتها المتقدة، واستمرارها على وتيرة واحدة لا تتغير ، ويكرهها بكل الكراهية الفطرية الغريزية التى للنفوس الرقيقة . وكانت المدن الشرقية قذرة وليس لها أفاريز ، وترمى المتخلفات في شوارعها ، والكلاب البرية هى التى تتولى تنظيفها ، ويزحم الحيوان

الانسان دون تميز فى أسواقها المكتظة . ومع أن ضرورات عمله كانت تلزمه أن يزور أوروشليم ويعظ الجموع العديدة التي كانت تحتشد فى كل فرصة حول أبوابها فانه كان فى كل فرصة ممكنة ينام خارج أبوابها طلبا للأمان ومراعاة لما كان عليه من الفقر لأنه كان يحب ذلك البيت الحلو فى بيت عنيا . كان يشعر بغبطة وهو يطأ العشب النابت



أزهار وحشائش فلسطين
(من الطبيعة)

على الجبل تحت ظلال شجر الزيتون بعيدا عن كل المناظر المشوشة والأصوات وحيث يتمكن من أن يرقب بهاء وجلال غروب الشمس ونزول ندى السماء . ولا شك أن هذا السير المسائى إلى بيت عنيا في غروب يوم الثلاثاء من أسبوع الآلام قد بعث سلاما عميقا فى روحه . ولا شك أن فكر ذلك الكأس المر الذى كان سيشرب به سريعا كان حاضرا فى ذهنه ، ولكن حاضر فقط بفكر

التضحية العالية وإكمال الحب . لم يفكر فى الآلام التى سيتحملها ولكن في الآلام التى سيخلص العالم منها ، ولا فى قوة الظلمة التي ستظهر كأنها تحوز عليه نصرا وقتيا ولكن في قوة النصر الفدائى للكفارة الكاملة الكافية . هذه هى الأمور التي نظن مع كامل الاحترام أنها كانت موضع تفكيره .

ترى ماذا أوحي جمال فلسطين الفائق في وقت الغسق ، والألوان الرقيقة لحشيش وأزهار الربيع ، والجلال الرهيب يكسو الوديان التى حواليه ، ومنظر التلال البعيدة تستحم فى أشعة الشمس الغاربة المحمرة ، وبرودة النسيم بعد الحرارة المحرقة ، ترى ماذا كانت هذه كلها أمام ذاك الذى دنيـــا الطبيعة كانت أمام عينيه كتابا مفتوحا يطالع فى كل صفحة منه اسم أبيه . وهذه الأماكن كانت موطنه لأن بيت عنيا كانت له ناصرة ثانية . وكان الذين يحبهم محيطين به . وها هو ذاهب إلى الذين يحبهم أيضا فهلا نتخيله سائرا في صمت أعمق من أن يصفه كلام وتلاميذه حواليه أو يتبعوه عن كثب ، والقمر الزاهى بدأ يعلو ويكسو أوراق الزيتون فتنعكس فضة لامعة ، وضوء الغسق يفني فى نور القمر بعد بهاء نور النهار كما بدأ يختلط الشفق الأرجوانى لآلامه المقبلة مع انحدار ضوء يوم تبشيره السعيد الذى بدأ فى المغيب .

الفصل الرابع والخمسون

بداية النهاية

(فوزنوا أجرتى ثلاثين من الفضة)
زك ١١ : ١٢

الكلمات النارية الغاضبة التى نطق بها يسوع فى اليوم الأخير العظيم لكرازته لا بد أنها أشعلت كرها وحنقا غير محدودين بين طائفة كهنة اليهود . فليس فقط أنهم قد هزموا وأخجلوا فى موقعة علنيـة فى نفس المكان الذى تتجلى فيه عظمة مجدهم وفى وجود أخلص أتباعهم ، وليس فقط أنهـم قد اضطروا أن يعترفوا بجهلهم بتعاليم الكتب ذاتها الأمر الذى هو دائرة عملهم ثم اعترافهم بعجزهم عن ابداء رأيهم فى موضوع كان واجبهم الأول يحتم افتاءهم فيه ، ولكن بعد كل هذا التحقير ، ذاك الذى ازدروا به كمعلم الناصرة ، الشاب النشيط ، ذاك الذى أهمل عاداتهم ونأى عن تقاليدهم ، ذاك الذى كانت كلماته عندهم خبيثة وان تلقفها الناس بشوق وأصغوا لها بانتباه وفرح ، قد انقض عليهم على موقع السمع من حجرة الاجتماع ووجه إليهم وهم فى ذات مقدسهم ومعقلهم ، إليهم هم الذين اعتادوا طول حياتهم أن يحرق لهم ويشمون بخور التملق الذى لاحد له ، وجه إليهم وابلا من الويلات حاصدا فاحصا

خالدا فى شدته حتى أن من سمعه لن يستطيع نسيانه إلى الأبد . اذن حان الوقت لأنهاء هذا . فقام الفريسيون والصدوقيون والهيرودبون والكهنة والكتبة والشيوخ وحنان الظالم القاسى وقيافا الدنيء الذليل، متخوفين من ثورة دينية قد تدمر أساسات طريقتهم، واجتمعوا كلهم غالبا في ذات المساء فى سراى قيافا (١) ودفنوا كل اختلافاتهم ومحوها فى مؤامرة الحقد المشتعل ضد المسيا المنتظر منذ زمان والذى لم يروا فيه جميعهم إلا عدوا مشتركا . كانت مهادنة لأهلاكه بنودها التعصب ، والكفر ، والمادية ،وحنق الموتور ، واحتقار المستقيم ، وبغض النافع ، وظهر جليا أنه من المستحيل أن تنجو قوة أرضية من هذه العصبة التى جمعها الكره الانتقامى .

ولا نعلم شيئا عن تفصيلات هذا الاجتماع ولكن البشيرين قد سجلوا القرارين اللذين انتهى إليهما المتآمرون . الأول تأكيد قوى متجدد أنه يجب أن يميتوه دون تأخير وتحت أى ظرف . والثانى أن يتم هذا بمكر لا بعنف خشية الجموع . ولهذا السبب عينه ، وليس لقداسة العيد ، يجب أن يؤجل موته إلى ما بعد نهاية الفصح وتفرق الحجيج الذين لا يحصون وعودتهم إلى بلادهم .

وحدث هذا الاجتماع على الأغلب الأصح مساء الثلاثاء عندما كانت العواطف الثائرة التى استفزتها حوادث اليوم لا زالت في غليانها البركانى . فى نفس الدقيقة التى كانوا يقررون فيها أنه فى أثناء العيد لا يجب أن يذبح [فصحنا] كان يسوع جالسا على منحدرات جبل الزيتون يتنبأ لتلاميذه بكل تأكيد هادىء أنه يجب أن يضحى فى ذات اليوم الذي فى مسائه يذبح الحمل ويبدأ الفصح .

ولهذا ، قبل انفضاض المجمع ، حدث ما غير فى الحال قرار المجلس وجعل القبض على يسوع سريعا وممكنا دون إثارة الشعب التى كانوا يخشونها . والمهلة ، الأيام الثمانية ،

---

١ ـ اسم قيافا وهو لقب رئيس الكهنة يوسف هو تحوير من كيفا أي الصخرة (راجع كتاب سلفادور عن حياة يسوع صحيفة ١٠٤ جزء ٢) .

التى أملاها خوفهم لا رحمتهم وجعلتهم يرجئون تنفيذ حكم الموت المرير، يجب أن تلغى كما يجب الأسراع فى الضربة السرية فى الحال .

قبل أن ينفضوا وصلتهم رسالة أطارت سهما قتالا من الفرح إلى قلوبهم ، وقد نتخيل أيضا أنها ملأتهم بشىء من الفزع وخوف المفاجأة . ومع أنهم شعروا في داخل قلوبهم بعظم الجريمة التى أزمعوا على ارتكابها فلا ريب « أنهم وجدوا الفرصة المغرية تقابل هويتهم المجرمة » وأن الروح الشرير يفسح الطريق أمام وجوههم . إذ أخبروا أن الرجل الذى يعرف يسوع ، والذى كان معه ، والذى كان تلميذا له ، بل واحدا من الاثنى عشر ، كان مستعدا أن يضع نهاية سريعة حاسمة لحيرتهم ويتابع معهم المفاوضة التى سبق أن بدأها .

كان منزل قيافا فى حرم الهيكل أو قريبا منه . وكانت أبواب المدينة والهيكل تغلق عند غروب الشمس . ولكن فى وقت هذا العيد السنوى والازدحام الحاشد كان طبيعيا أن ترخى قليلا هذه القواعد تسهيلا للراحة العامة . فعندما اختلس يهوذا الأسخريوطي نفسه من وسط أخوته فى ذلك الليل المميت كان واثقا أنه سيدخل بلا صعوبة إلى داخل المدينة وإلى حضرة الشيوخ المجتمعين . ولذلك فقد طلب السماح من حراس الهيكل - اللاويين المخصصين لحفظ وصيانة المبانى المقدسة - (١) فى الحال أوصلوا رسالته وقادوه شخصيا أمام كهنة وحكام اليهود .

كان بعض الكهنة قد رأوه فى الاجتماع السالف وتذكروه بلا شك . وإن كانت ليهوذا الصورة التى تركها له التقليد « انه الحقير الضئيل ذو العين المستديرة والشعر الأحمر بخصلة طويلة » ، فانهم لن يتعبوا في التحقق من أنه رجل خيروط وأنه أحد تلاميذ يسوع . وان يقتصدوا في تحقيره وكرهه إذ أنه اليهودى الوحيد بين التلاميذ الجليليين . وها هو سيتحالف بخبث معهم . ومعرفتهم أن واحدا قد عاش

---

١ - أنظر ٢ أى ٣٥ : ٨ و اع ٤ : ١ و ٥ : ٢٤ .

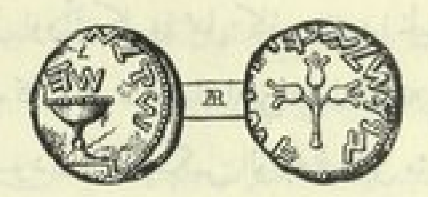
مع يسوع وسمع كل ما قال ورأى كل ما عمل كان مستعدا لخيانته شجعتهم فى مسعاهم . وعلمه أن الرؤساء والنبلاء كانوا على استعداد ليس فقط لمدحه بل لمكافأته على ما اعتزم شجعه فى عمله البائس الأسود . وكما ينعكس الوجه فيقابل مثيله على صفحة الماء هكذا اتحد قلب يهوذا وقلوب اليهود فى ارتباط عواطفهم المشتركة . وكما أن الحديد يشحذ الحديد فهكذا سلاحه غير الماضى الذى للغضب الوحشى قد شحذ نصلا جديدا لغضبهم المصقـــــول .

هل أتى الطلب الدنىء ، أى ثمن الدم ، منه هو أم هم الذين قدموه ؟ وهل دفع فى الحال أم بعد القبض على يسوع ؟ وهل كانت القيمة القليلة الدنيئة ، الثلاثون من الفضة ، وهى ثمن أقل العبيد (١) ، كل المكافأة أو العربون لمبلغ كبير ؟ هذه أسئلة كانت الأجابة عليها قد ترمى نورا قويا على أخلاق ودوافع يهوذا . ولكن لغة البشيرين لا تساعدنا على ابداء إجابة محققة لأن تفصيلات هذه الاتفاقية لا يعلم عنها إلا القليل . وما كان ليهوذا أو لشركائه (المبجلين) سبب يدعوهم للافاضة فيها . وكان المسيحيون الأول تعتريهم رعشة مكروهة لذكرها ، أعمق من أن يعبر عنها كلام . حادثة واحدة مظلمة فقط هى التى استرعت أفكارهم بكل شناعتها وهى أن يهوذا كان خائنا . إن يهوذا كان أحد الاثنى عشر ومع ذلك باع سيده . ولكن الأغلب أن يهوذا قبض ذلك المبلغ فقط وفى الحال . ولا شك أن الاتفاق كان سهلا وذلك لنظريتهم بأنهم فى غنى عن خدماته . انه نظر بالجشع ، الذى كان خطيته المقيمة ، إلى العملة الفضية (ويا لسخرية القدر الغريب !) التى سك على وجه منها غصن زيتون رمز السلام وعلى الآخر مبخرة رمز الصلاة ، ومكتوب عليها « أوروشليم المقدسة » (٢) وإن كان

---

١ - نحو ثلاثة جنيهات وستة عشر شلنا . راجع خروج ٢١ : ٣٢ و تك ٣٧ : ٢٨ و زك ١١ : ١٢ و١٣ .

٢ - فى مت ٢٦ : ١٥ الكلمة الأصلية معناها الحرفى " وزنوا " أي " دفعـــوا " (قارن



الشاقل *

هؤلاء الشيوخ قد ساوموا معه حسب عادة أمتهم ، وكما يستنتج من النص ، فربما ذكروا له أن وساطته غير ضرورية ، وأنه إنما يؤدى لهم لا خدمة بل تسهيلا بسيطا ، ولكنهم قادرون أن يتموها لو أرادوا بدون مساعدته . ولكن شيئا واحدا هو المحقق أنه تركهم خائنا أصيلا . ومنذ ذلك الوقت كان يغتنم الفرصة ليسلم معلمه وقلما لا يكون إلى جانبه جمع محب .

زك ١١ : ١٢ و ١٣) وما ورد فى مر ١٤ : ١١ معناها " وعددا " أو ما جاء فى لو ٢٢ : ٥ " ساوموا " هذه أمور غير هامة ولا غرض منها والخلاف لفظى والتوافق تام فى المعنى بين البشيرين . وإنى أستنتج أن يهوذا قد ذهب مرتين أمام الكهنة . مرة لبعد بالقبض عليه ومرة ليرتب تفاصيله . وربما وعد بالمبلغ فى المقابلة الأولى ودفع له فى الثانية . والبشير متى يشير إلى ما ورد فى زكريا . علاقه الآيتين يفسرها كيل فى كتابه عن " الأنبياء الصغار " .

* هذا الشاقل قد وجد مع غيره قرب أوروشليم فى شتاء ١٨٧٣ ـ ٧٤ وهو يماثل المرسوم فى صحيفة ١٨٠ ، مرسوم على وجه منه اناء مقدس وربما قدر المن المحفوظ فى التابوت وعلى الوجه الآخر فرع فيه ثلاثة أكام يمثل عصا هرون التى أزهرت . ولكن هذا الشاقل غريب فى رمز التاريخ الموجود فوق القدر ومعناه السنة الخامسة . لأن العملة المعروفة قبل ذلك كان منقوشا عليها تواريخ أربع سنوات متتالية على الشواقل و ثلاث سنوات على أنصاف الشواقل . ويلاحظ أن شواقل السنة الأولى نقش عليها " جيروسالم " ـ بالمفرد ـ أى أوروشليم المقدسة ، فى حين أن هذه القطعة وما بعدها نقش عليها " جيروسالم " ـ بالمثنى ـ وربما اشارة إلى المدينتين العليا والسفلى . وبمساعدة مستر سولسى ومدام فوكس والمستر ف . و . مادن يرجح أن تاريخ هذه القطع يرجع إلى حكومة عزرا . وعلى ذلك يرجم تاريخ هذه القطعة إلى سنة ٤٥٣ ق . م .

ما كانت دوافع ذلك الرجل ؟ من يستطيع أن يحاول الوصول إلى عمق تلك الهوة السحيقة ليجد الأسباب بين الشعاب المختلفة في قلب مضطرب بخطايا مقيمة غير ملجمة ؟ لم يستطع البشيرون سوى القول إن الشيطان قد دخله . ظهر لهم أن اثم الرجل غير العادى لا يفسر بشىء عادى أو بشرى . وما كتبه الثلاثة الأول يدل بوضوح على أن سبب هلاكه كان الطمع . ويذكرون علاقة مباشرة بين مقابلته الأولى للسنهدرين وبين حرمانه من الاستفادة من « الثلثمائة دينار » (١) التى ربما كانت تدخل فى حوزته فاعتبر أنه قد سلب ! أما يوحنا البشير الذى ما كان يستطيع التحدث عنه دون موجة من الألم فقد ذكر فى كلمات متعـــددة [أنه كان سارقا] (٢) . والبشيرون طبعا كانت اختباراتهم قليلة عن الرباطات القاتلة وتشعبـــات الخطايا الكامنة ، كانت اختباراتهم قليلة عن العمى الروحي والبواعث السامية التى يثيرها فى المجرم حتى إنهم لم يروا فى هذا السبب باعثا كافيا . ولكن الملاحظات اليوميـة التى تقـع تحت بصرنا فى حياة الظلام ترينا أن الباعث على اتيان الجرائم قد يكون دافعا صغيرا للغاية غير كاف بالمرة كما قد يكون تجربة عظيمة غير عادية . ألا نقرأ فى العهد القديم عن الذين ينجسون حق الله بين شعبه من « أجل حفنتى شعير ورغيفين من الخـبز » وعن الذين يبيعـون البار من أجل الفضة والمسكين من أجل حذاء ؟ قد تظهر تجربة يهوذا الفجائية مخيفة ولـكن ارتـكابها كان مقررا بميوله السابقة . فهذا اللهب الشديد الذى اندلـع منـه كان مخرجا لما كان منذ القديم يحترق تحت الرمضاء دفينا فى قلبه طيلة حياته .

ولا شك أن دوافع أخرى قد اختلطت وشجعت ، وربما للنفس المخدوعة ، حلت

---

١ ـ نستدل على أن ما ظنه خسارة ٣٠٠ دينار كانت سبب خيانتـه لأن الثـانية قد كتبت مباشرة بعد الأولى كما اننا نستدل على ان ناداب وابيهو كانا مخمورين عندما قـدما نارا غـريبة من ورود الأمر للكهنة بعدم شرب المسكر مباشرة بعد ذكر إماتتهما (لا ١٠ : ١ ـ ١١) .

٢ ـ يو ١٢ : ٦ .

مكان الدافع الأعظم . فربما فكر فى نفسه قائلا : أليس هذا الأجراء سيحتم على يسوع أن يعلن مملكته المسياوية ؟ وعلى أسوأ الفروض ألا يستطيع أن ينجي نفسه بمعجزة ؟ وإن لم يكن ، ألم يخبرنا مرارا أنه سيموت ؟ فان كان هذا حقا فلماذا لا أجنى فائدة قليلة مما هو على كل حال لا بد أن يكون ؟ ثم هلا يكون من الصواب أن أفعل ما يوافق عليه كل رؤساء الكهنة ؟ آلاف من أمثال هذه الأفكار الشيطانية ربما تكون قد وثبت إلى قلب هذا الخائن واختلطت بالكره الناجم من شعوره أنه فى انكار ذاته واتباع يسوع سيكون بلا منفعة وبلا ربح ، وأنه لن يكسب من ورائه مركزا أو ثروة بل فقرا واضطهادا . وربما أيضا كانت هناك بعض المرارة الناشئة من توبيخ يسوع له ، وبعض الغيرة الحسودة لمحبة يسوع له أقل من اخوانه ، وبعض اليأس المغيظ من شعوره أنه مشكوك فيه .

واحسرتاه ... ان الخطية الواحدة تتوالد بسرعة وتتكاثر بازدياد مريع وتتحد عفوا بآلاف من مثيلاتها حتى انها تطغى على الأخلاق وتحيطها بضباب يظلم العقل ويلطخ الروح ! وربما ثار فى نفس يهوذا عديد من الخطايا المتلاطمة المختلطة : الكراهية ، الطمع العالمي ، السرقة ، بغضة كل ما هو طاهر وصالح وجيد ، النكران الدني للجميل ، الحقد العنيد . وكل هذه العناصر تجمعت فى اتمام هذه الخيانة المخيفة القذرة . كل هذه قد هاجمت تلك النفس المظلمة بغضب وعتو وشدة عمياء جنونية ودخلتها وامتلكتها .

[دخله الشيطان] سواء كان هذا التعبير حرفيا أو مجازيا فانه أحسن وصف لحالة الخاسئة . استولى عليه جنون لتلاشى سحر الآمال الكاذبة . أقنع ذاته بأن الملكوت الجديد خدعة فارغة فوقع فريسة لفكر غاش أوقعه فى اعتقاد شنيع أنه إنما كان يهمل المادة طمعا فى الخيال . ولم يكن يهوذا دائما هكذا . ولم يكن رديئا دائما . جاء وقت كان فيه ولدا بريئا وشابا مخلصا حتى انه اختير كباقي التلاميذ ليكون واحدا من الاثنى عشر ورسولا للملكوت الجديد مبشرا بآمال عظام . وساعد فقر

وتحول المدة الأولى من كرازة المسيح فى أن يعصمه من التجربة . وإنما اشتعلت تجربته الخاصة ـ وهى تجربة مثلثة الخطر لأنها صادفت أهواءه الكامنة ـ ربما بعد الفترة التى اتخذت كرازة السيد فيها شكلا مرتبا وأقرب إلى التركيز . وحتى عند ذاك لم تسيطر عليه مرة واحدة . ولقد وجهت إليه تحذيرات رهيبة [يو ٦ : ٧٠] فكان أحيانا يظهر أن فيه أملا . وربما عاودته نكسات من عدم الأمانة بعد أوقات تغلب عليها واختبر فضيلة النبل . ولكن إذ لم يسد على خطيته سادت عليه خطيته ، واقتادته كعبد لأذلاله وإهلاكه . ترى هل استرق الخطى ثانية ليبت عنيا هذه الليلة وثمن الدم فى جعبته ؟ وهل نام مع باقي الرسل اخوانه ؟ كل ما نعلمه تأكيدا أنه من الآن فصاعدا كان متيقظا ، منتظرا ، مترقبا ، فى تجسسه .

ولا شك أن اليوم التالى فى أسبوع الآلام ، يوم الأربعاء ، قد أقلقه . كل يوم كان يترك يسوع بيت عنيا فى الصباح ويذهب إلى أوروشليم ، فلماذا لم يذهب هذا اليوم ؟ هل ارتاب فى خيانته ؟ ولقد انتظر الناس سماع صوت السيد ذلك اليوم فى أروقة الهيكل دون جدوى . لا شك أنهم انتظروه بحماس فائق ، ولا شك أن الكهنة والفريسيين ترقبوه بأمل ردىء . ولكنه لم يأت . وقضى اليوم فى وحدة تامة ، وإلى ما اتصل إليه علمنا ، فى راحة وسكوت . كان يعد نفسه فى اطمئنان وسلام لأجل شدة الجهاد المقبل . ربما قد تجول وحده على المرتفعات والتلال حول القرية الهادئة . وهناك تحت أشعة الشمس المنعشة اتصل علويا مع أبيه الذى فى السموات . ولكن كيف مضى اليوم فهذا ما لا نعلمه . قد أسدل حجاب من الصمت المقدس على هذا . كان معه القليلون الذين أحبوه وآمنوا به فربما تحدث إليهم ، ولكن عمله كمعلم على الأرض كان قد انتهى .

وفى تلك الليلة نام للمرة الأخيرة على أرضنا . وفى صبيحة الخميس استيقظ ولم يعد ينام بعد .



صورة للمسيح (من مقبرة القديس كاليستوس)

الفصل الخامس والخمسون

العشاء الأخير

" لم يأكل الحمل القانونى ... ولكنه هو
تألم كحمل حقيقى " . أحد المفسرين

فى مساء الثلاثاء من أسبوع الآلام أكد يسوع أن موعد موته

سيكون فى الفصح . ولو أن العادات الناموسية كانت مرعية تماما فان خروف الفصح له ولتلاميذه يجب أن يكون معدا منذ مساء الأحد السالف . ولكن مع أن الفصح كان يراعى منذ زمن السبى إلا أن الظروف الطارئة المتغيرة قد أدخلت بلا شك تعديلات طبيعية على الترتيبات القديمة ، إذ صار من المستحيل واقعيا لملايين الحجيج أن يحتجزوا لذواتهم حمل الفصح لمدة طويلة قبل موعده .

فى صباح الخميس - الخميس الأخضر كما كانوا يسمونه فى العصور الوسطى [1] - حدثت مخاطبة بين يسوع وتلاميذه عن عيد الفصح . سألوه أين يريد أن يعدوه . وكانوا يظنون أنه سيأكله في بيت عنيا لأنه قد انتهى من كل تعليم للشعب ، وأنه سيصرف هذا الخميس كما صرف اليوم السابق فى وحدة كاملة ، ولأن الحاخاميين قد اعتبروا أن بيت عنيا فى مثل هذه الأمور واقعة فى نطاق أوروشليم . ولكن ترتيبه كان خلاف ذلك لأنه ، وهو خروف الفصح الحقيق ، سيضحي مرة واحدة وإلى الأبد فى المدينة المقدسة حيث في هذا الفصح وفي ذات اليوم سيضحي مائتان وستون ألفا من الخراف التى كانت رمزا له .

وعليه فقد أرسل بطرس ويوحنا إلى أوروشليم وأعطاهما علامة سرية غريبة . أخبرهما أنه عند الدخول من الباب سيجدان خادما حاملا جرة ماء من إحدى العيون القريبة لاستعمالها ليلا . فاذا تبعاه سيصلان إلى منزل فيفضيان لمالكه برغبة المعلم [2] أن يأكل الفصح هو وتلاميذه عنده . وسيضع صاحب البيت هذا . ظن بعضهم أنه يوسف الرامى وبعضهم أنه يوحنا مرقس - تحت تصرفهم فى الحال علية مفروشة معدة بما يلزم من مائدة وأرائك [مر ١٥ : ١٥] . فأتيا ووجدا كل شىء كما قال يسوع

---

١ - المعرب : كان تقليد الكنيسة القبطية أن يلبس البطريرك حلة خضراء يوم خميس العهد .

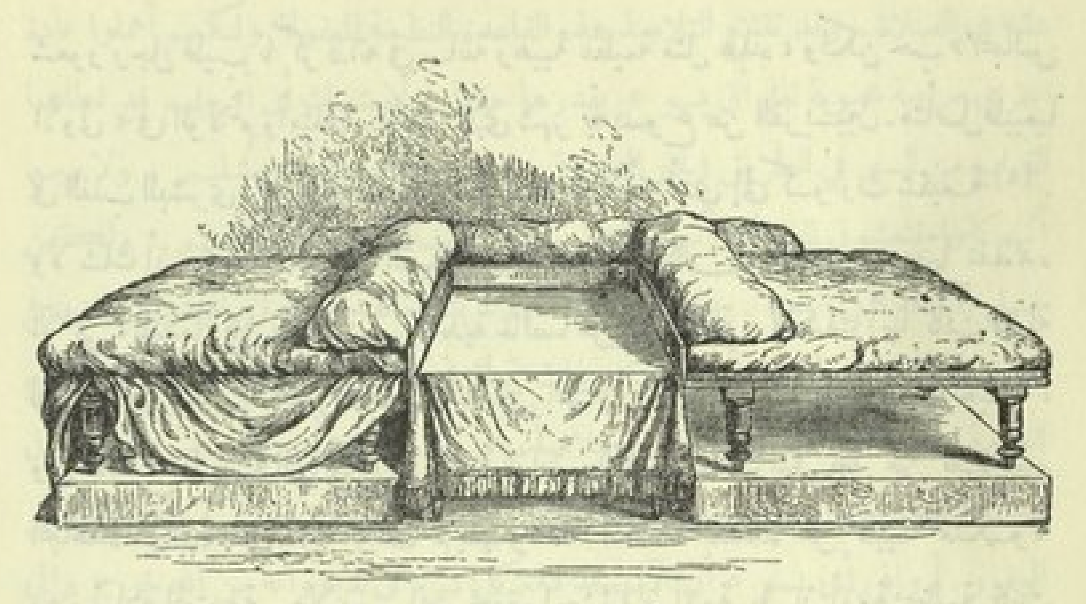
٢ - مر ١٤ : ١٤ يشتم من التعبير أن صاحب المنزل كان تلميذا ولا سيما لأن الرسالة قد تضمنت (ان وقتى قد قرب) مت ٢٦ : ١٨ .

[وأعدا الفصح] . وتوجد أسباب وجيهة (مذكورة فى الخاتمة) يستدل منها على أن هذا العشاء لم يكن الفصح اليهودى المعتاد ولكنه عشاء تناوله السيد مع تلاميذه فى الليلة السابقة للفصح أى فى غروب الخميس ١٣ نيسان كان له صبغة تشبه الفصح وقصد به أن يحل مكان العيد اليهودى بما هو أعمق وأتم روحيا .

عند اقتراب المساء حينما يمنع حلك الغسق المتزايد كل مراقبة غير مرغوب فيها ترك يسوع وتلاميذه بيت عنيا بالطريق القديم عبر جبل الزيتون ، الطريق الذى لم تطأه قدماه المقدستان مرة أخرى إلا بعد قيامته . ولا ندرى مقدار لفتهم للأنظار ولا كيف أن شخصه المعروف لكثيرين ، والذى كان الشخص الأساسى لحماس عظيم صحبته منذ أربعة أيام هتافات النصر ، وقوبل فى اليوم التالى بصخب الشتائم ، قد استطاع أن يدخل أوروشليم هو وأتباعه غير ملحوظ . ولا نستطيع أن نختطف منهم لمحة إلا عندما نجدهم مجتمعين في تلك « العلية » الوسيعة ، ذات العلية التى بعد ذلك بأيام ثلاثة رأى فيها التلاميذ الغارقون في الحزن مخلصهم القائم من الأموات ، وربما نفس العليـــة التى مع أصوات هبوب الرياح الشديدة قد كرس اللهيب البندكوستي كل جبهة متواضعة .

عندما وصلوا كان العشاء معدا والمائدة مجهزة وذات الأرائك ثلاث قد فرشت وسادانها استعدادا للضيوف . ويود الخيال لو يستعيد كل تفصيلات ذلك المنظر الخالد فى قداسته ، العميق فى تأثيراته . غير أنه إذا وضعنا جنبا إلى جنب الملاحظات المدونة عن عادات اليهود القديمة مع العادات الشرقية الباقية غير المتغيرة فلن نحيد إلا قليلا تجاه هذه التفصيلات عامة . ولا شك أنها أبعد ما تكون عما جعلتنا مهارة ليونارد دى فينشي وغيره من عظماء الفنانين والرسامين أن نظنه أو نتخيله عنها .

كانت الحجرة غالبا بيضاء خالية من كل زينة وأثاث إلا الضرورى . ووضعت أرائك ووسائد كبيرة تكفى لاستلقاء ثلاثة أشخاص أو أزيد حول الجوانب الثلاثة



ذات الأرائك الثلاث (عن باردن)

للمائدة غير المرتفعة التي من الخشب الزاهي الألوان والتي لا يزيد ارتفاعها عن الكراسي المعتادة . وكان كرسي الشرف هو الأوسط في الأريكة الوسطى . وهذا قد شغله السيد واستلق كل منهم متكئا على مرفقه الأيسر كي تكون يده اليمنى طليقة (١) . واتكأ إلى يمين يسوع التلميذ المحبوب ليستطيع أن يسند رأسه في أي وقت على صدر صديقه وسيده .

مجرد أخذهم أماكنهم حول المائدة قد أذكى في عقول الرسل تلك المجادلات عن أيهم أعظم [لو ٢٢ : ٢٤] والتي في فرص سالفة قد وبخها (٢) السيد بلطف وحزم . وربما يبدو لنا أن مجرد اختيار مكان على المائدة مسألة تافهة عديمة القيمة لا تجرح

١ ـ عادة أكل الفصح وقوفا انتهت منذ زمان بعيد وصار العرف المرضي عنه هو الاتكاء لأنه عادة الأحرار (ميامن بيساخ) .

٢ ـ مر ٩ : ٣٤ و مت ١٨ : ١ إن الظن بأن يهوذا هو الذي بدأ بهذه المشاحنة بصفته أمينا للصندوق ليس بمستبعد .

شعور رجل طيب ناكر لذاته في ساعة رهيبة عظيمة مثل هذه ، ولكن حب « المجالس الأولى » فى الولائم وأمثالها ـ الأمر الذى شهر به يسوع عن الفريسيين ـ متأصل طبيعيا فى القلب البشرى ، وأحيانا ما يكون قويا لدرجة أنه أدى إلى كوارث شنيعة (١) . ولا شك أن مشاحنة من هذا القبيل فى الوقت الذى كان فيه يسوع مهتما بمقصده الأسمى ، عندما كان يتنسم نسيم الأبدية خالصا من أية شائبة ، لا شك أنها كانت مؤلمة له إلى أقصى حد إذ أظهرت كيف أنه حتى المختارين من أتباعه لم يفهموا معنى حياته ، وان الأرواح النجسة التي للكبرياء ومحبة الذات والأثرة لم تستأصل بعد من نفوسهم الجاهدة ، وأنهم حتى ذلك الوقت لم يفهموا تماما اعلاناته العديدة عن طبيعة ملكوته وعن نهايته المحتومة . ولا ريب إنهم تحققوا جزئيا ان أزمة بل ان أزمة عظيمة كانت قريبة منهم ، وأن سيدهم سيتألم ويموت . ولكن يبدو أنهم اعتبروا أن هذا أمر مؤقت يتبعه حالا إعلان مجده وإعلاء عرشه المسياوى على الأرض .

سمع يسوع فى سكوت أليم همسات الحسد بينما كانوا يحتلون أماكنهم حول المائدة (٢) ، فأراد ليس بمجرد التوبيخ الكلامى ، بل بالعمل الحسى ، الذى هو أعظم أهمية وأعمق أثرا ، أن يعلمهم وجميع الذين يحبهم درسا نبيلا .

تفرش أرضية أى حجرة شرقية بالحصر ما لم يكن صاحبها مدقع الفقر . وعندما يدخل أى شخص يخلع نعله عند باب الغرفة ، أولا لئلا يلوث الحصر البيضاء النظيفة بأتربة وأوساخ الطرق والشوارع ، وثانيا لئلا ينجس الحصر الذى تقدس بالركوع

---

١ ـ يذكر كثيرون المنظر الشهير بين كريمهلت وبرنهلت فى نيبولنجن . وفى العصور الوسطى قد أسيلت الدماء على ذات مذبح كنيسة يوحنا اللاتيرانى من جراء المشاحنة الشنيعة على العظمة بين الأسقف هلدشين والأب المرسوم على فولدا .

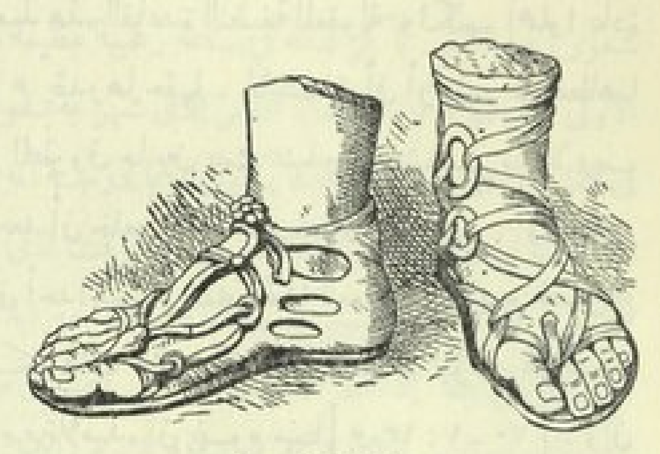
٢ ـ يو ١٣ : ٢ (ولما كان العشاء) قد تعنى لما انتهى العشاء . وقد وردت هكذا فى بعض الترجمات .

عليه فى الصلاة . وقد تتبع التلاميذ هذه القاعدة النظيفة المعقولة ولكنهم أهملوا عادة أخرى مرعية محبوبة نعلم أن يسوع يقدرها حقها . لا شك أن أرجلهم قد غطاها التراب من السير في الطريق الحار المطروق ما بين بيت عنيا وأوروشليم ، ولا ريب أنهم كانوا ينتعشون للعيد لو أنهم بعد أن خلعوا صندلهم غسلوا أقدامهم . ولكن غسل الأقدام عمل العبيد . وإذ أن أحدا منهم لم يتقدم لهذا العمل الوديع فيسوع نفسه بكل تواضع لا نهائي وانكار ذات ترك مكانه على المائدة ليؤدى لهم هذه الخدمة الحقيرة التى أبى أى واحد من تلاميذه أن يقوم بها [يو ١٣ : ١ - ٢٠] . وإن دهشة التلميذ الحبيب ظاهرة في حديثه وهو يسجل باتقان كل تفصيل من هذا المنظر الوقور . [وإذ رأى يسوع أن الآب قد دفع كل شيء فى يديه وأنه من الله خرج وإلى الله يمضى قام من العشاء وخلع ثيابه وأخذ منديلا واتزر به] . ومن المحتمل أنه في انكاره التام لذاته خلع عن ذراعيه ونصفه الأعلى « السينشاه » و « الكيتونث » كما لو كان أحقر العبيد ، واتزر بالمنشفة على وسطه . ثم صب ماء فى الطست النحاس الكبير الموجود دائما فى كل بيت شرقي وابتدأ دون التلفظ بكلمة يغسل أرجل تلاميذه ويمسحها بالمنشفة التى كان متمنطقا بها .

ولقد أسكتهم الخزى والخوف حتى إذا جاء إلى بطرس وجدت عواطفه الثائرة مخرجا فى سؤاله [يا رب أتغسل رجلى] ؟ ! أنت ابن الله ... أنت ملك اسرائيل الذى كلام الحياة الأبدية عندك ... أنت الذي يجب أن يدهن ملوك الشرق قدميه بالناردين ويغسلها التائبون بالدموع الغالية ، أتريد أنت أن تغسل قدمى بطرس ؟ إنه الخوف القديم وانقاص قيمة النفس التى قبل ذلك بسنوات ثلاث قد استخلصا من قلب ذلك الصياد الجليلى هذه الصرخة [امض عني يا رب فانى رجل خاطيء] (١) . إنها كانت الارادة الذاتية التي منذ عام قد أبديت وهو يحاول أن يثنى عزم سيده ويقول

---

١ - لو ٥ : ٨ .



صنادل شرقيـــة

[حاشاك يا رب أن يحدث لك هذا] (١) . ولكن يسوع علم برأفة ما ينطوى عليه تصريح تلميذه ، فأخبره أنه لا زال قاصرا عن فهم أعماله ، ولو انه سيأتى اليوم الذى فيه تتفتح معانيها له رويدا رويدا . ولكن بطرس في عجلته وعناده ، وكما لو أنه قد شعر أزيد من سيده بعظمة من يخدم ووضاعة من تقدم له الخدمة ، استمر فى معارضته بحدة قائلا [لن تغسل رجلى إلى الأبد] . وحينئذ أظهر له يسوع خطر اعتزازه بنفسه الذى يستتر وراء اتضاع كاذب وقال [إن لم أغسلك فلا نصيب لك معي] . إن كنت تريد أن تكون لى فدع جانبا على حد سواء الغرور بالنفس وامتهان النفس . إن تابعى يجب أن يخضع لأرادتى حتى عندما يستعصى فهمها عليه ، وحتى عندما تظهر أنها تخالف ما يعتقده فى . هذه الكلمة الهادئة غيرت مجرى عواطف ومنحى أفكار ذلك التلميذ المتحمس الحار القلب . لا نصيب معك فى السماء ... ! حاشا ... ! [يا رب ليس رجلى فقط بل ويدى أيضا ورأسى] ! ولكن ، مرة ثانية ، لا يجب أن يخضع لأرادة المسيح على طريقته هو بل على طريقة يسوع . هذا الغسل الكامل لا يحتاج إليه الأمر . لقد سبق فاعتمد عند قبوله هذا الغسل الذى للتجديد . لا يحتاج الأمر سوى إلى الغسل اليومى من الأوساخ البسيطة المستجدة . الأرجل التى تتسخ من أتربة الخطايا اليومية يجب أن تغسل بالتجديد اليومى ، ولكن كيان وقلب الرجل سبق أن غسلا وتطهرا وتقدسا [قال له يسوع إن الذى استحم (٢)

---

١ ـ مت ١٦ : ٢٢ . ٢ ـ المعرب : وهذا القول دليل على أنه لا يجب إعادة المعمودية .

لا يحتاج إلا إلى غسل رجليه بل هو طاهر كله . وأنتم طاهرون] . واضطر أن يضيف بأنة عميقة [لكن ليس كلكم] . يشير بهذا إلى علمه بوجود خائن بينهم لأنه كان يعلم ما لا يعلمونه هم من أن يدى رب الحياة قد غسلت للتو قدمى الخائن . أى عمق غريب لا يسبر له قرار من نكران الجميل وجنون قلب الانسان ! فهذا الخائن الذى يخبىء الخيانة السوداء الامينة في قلبه الكاذب قد شعر ... ورأى ... وعلم ... ولكنه احتملها . لقد شعر بلمس هذه الأيدى الرؤوفة الرقيقة وانتعش بالمياه المطهرة ، ورأى تلك الرأس المقدسة منحنية على قدميه اللتين قد اتسختا من الرحلة العجلى السرية عبر جبل الزيتون التي أوصلتـه إلى مجمع القتلة المتظاهرين بالتقوى الصاخبة . لكن لم يكن له تطهير فى ذلك الماء السلسبيل . لم يخرج منه الشيطان بذلك الصوت الرقيق ، ولم يشف برص قلبه من اللمسة الصانعة العجائب .

ولم يلحظ باقي الرسل فى تلك الدقيقة معنى الاستثناء المحزن [لكن ليس كلكم] . ربما لأن ضمائرهم قدمت لهم ، حتى لأشدهم إيمانا ، سببا محزنا ليرجع كل واحد تلك الكلمات بألم إلى نفسه . وبعد أن غسل يسوع أقدامهم لبس ثيابه واتكأ مرة ثانية على المائدة . وإذ اتكأ على يده اليسرى كان يوحنا إلى يمينه ورأسه قريبة جدا من صدر يسوع . وإلى جانب يوحنا ربما على الطرف الملاصق للأريكة المجاورة كان أخوه يعقوب . ومما نستنتجه من التفصيلات القليلة عن هذا العشاء أن يهوذا كان على يسار يسوع . ربما اغتصب لنفسه هذا المكان ، أو ربما لأنه كان أمينا للصندوق العام ، فقد احتل مكانا له أفضليته بين تلك الجماعة القليلة . كما أن بطرس اتكأ غالبا على رأس الأريكة التالية إلى يسار يهوذا . ولما ابتدأ الطعام علمهم يسوع ما عناه بما عمل بأنهم حسنا وبحق لقبوه [المعلم] و [الرب] لأنه كان كذلك . ومع ان السيد أفضل من العبد والمرسل أفضل من رسوله ، فهو ، ربهم ومعلمهم ، قد غسل أقدامهم . كان نوعا من العمل النبيل . ويجب أن يكون هذا دائما أساس معاملتهم بعضهم لبعض . لقد

فعل ذلك ليعلمهم التواضع ، ليعلمهم انكار الذات ، ليعلمهم المحبة فطوبى لهم إن عرفوا هذا الدرس وعملوا به . طوبى لهم إذا علموا أن المشاحنات حول الأسبقية ، وتدعيم الادعاءات ، والتمسك بالكرامة ، والتعلق بالسيطرة لمجرد الاستئثار بالسلطة ، لازمت نقائص ومظالم الوثنية . علمهم أن أعظم المسيحيين هو أكثرهم اتضاعا ، وأن الأعظم بينهم هو الذي لأجل الآخرين يضع بسرور على نفسه أصغر الأعمال ويطلب لنفسه أحقر الخدمات . لقد حذرهم مرارا وتكرارا من التطلع إلى المكافآت العالمية أو النجاح الدنيوى ، فالعرش والوليمة والمملكة والمنازل الكثيرة ليست على الأرض(١) .

ومرة أخرى عاوده اضطراب روحه . كان يتكلم عن الذين قد اختارهم ولكن ليس عنهم كلهم لأنه كان بين هذه الصحبة المباركة شخص يستنزل اللعنة على رأسه . لقد حدث هذا مع داود إذ أن ألصق أصدقائه صار ألد أعدائه ، وهكذا كان الأمر مع ابن داود . سيعلم تلاميذه سريعا أنه بكل سابق المعرفة قد جاز عليه جميع ما انتظره . وسيقدرون سريعا أن يحكموا أنه كما أن الانسان الذى يقبل باسم المسيح أصغر خدامه يقبله كذلك ، ومن يرفضه يرفض أباه . وهذا الرفض للأله الحى هو الجريمة التى كانت ترتكب فى تلك اللحظة ، وترتكب فى وسطهم .

فهنا بالقرب منه يسمع يهوذا كل هذا الكلام ولا يحرك ساكنا إذ كان مملوءا حقدا وكرها ، ويقسى قلبه بشدة ويغلق باب ذلك القلب بكل ثقل امتلاك الشيطان فيغلق بذلك باب رحمة الله ، بينما حتى الآن ، وفى هذا المكان ، كان مخلصه يريد أن يفتحه له . وجلس الخائن وعلى وجهه ابتسامة الرياء الكاذبة ولكن يحتل قلبه الغضب والخزى والطمع والخيانة والخوف . لذلك كانت مصادقة هذه الشخصية السوداء وقصور هذا التواضع البالغ الأليم عن أن يمس أو يحرك مشروع هذا الرجل البشع مما جعل

---

١ ـ لكى نصل إلى كامل حدود ما أراد يسوع أن يعلمه فى هذا الظرف يجب أن نضيف إليه (كما فعلت) ما ورد فى لو ٢٢ : ٢٤ ـ ٣٠ و يو ١٢ : ١ ـ ١٧ .

يسوع يضطرب بالروح إلى أشد الأعماق . وقد عصر الألم قلبه وهو يقول بصراحة ووضوح [الحق الحق أقول لكم إن واحدا منكم هو الذى سيسلمنى] ! فى هذه الليلة سيتركونه كلهم حتى أحبهم إليه . ليس هذا فقط بل فى هذه الليلة حتى أجرأهم قلبا سينكره بأقسام . وليس هذا فقط بل سيسلمه واحد منهم . وقد وجفت قلوبهم وهم يصغون إليه . انتشر حزن عميق على العشاء المقدس . ومثل الأرجوان الأعتم المنذر الذى يختلط بألوان غروب الشمس ظهرت علامة سوداء فى أفقهم كنذر مستطير غير معروف كنهه ولكنه مقترب فاستولى عليهم شعور من الخوف لا يعبر عنه . إن كانت آمالهم ستمحى على هذا النحو ، وإن كان فى هذا الفصح ذاك الذى تركوا كل شىء من أجله والذى كان لهم كل شيء في الوجود سوف يخونه واحد منهم ويورده النهاية القاسية الشائنة ، إن كان هذا جائزا فكل شىء إذن جائز . لقد تزعزعت قلوبهم ، وكل تقصير فى المحبة، وكل نقص فى النبل، وكل خلجة من الأنانية وكل ضعف فى إيمانهم ،وكل فكر شرير ساورهم،وكل كلمة شريرة نطقوا بها ،وكل فعل شرير ارتكبوه، قد تجمع كله فى أذهانهم وملأ أفئدتهم من الخوف . لا أحد منهم كان خاليا من شىء ما ، وكل واحد منهم قرأ عدم تثبته من نفسه في عيني زملائه من التلاميذ .

وفى تلك اللحظة من الحزن الشديد أو ما يقرب من اليأس المرير ، بشفاه مرتجفة ووجنات باهتة ، سأل كل واحد منهم السؤال المتواضع [ألعلى أنا هو يا رب] ؟ وهو سؤال أفضل فى كل وقت من السؤال : « من هو ؟ » إن المراقبة النادمة وحكم الانسان على نفسه بتواضع خير دائما من الكبرياء الفريسي والتجبر فى انتقاد الغير . ونفس الخوف الذى ظهر فى سؤالهم ونفس الاخلاص الذى دعا إليه كانا صك براءتهم . وسكت يسوع. آه ... لو أمكن ، ولو حينئذ ، أن يكون وقت ليهوذا ليتوب فيه . ولكن بطرس لم يتمكن من حبس حزنه أو كظم عدم اصطباره . وإذ كان راغبا أن يعرف الخيانة ويمنعها أومأ دون أن يراه يسوع إلى يوحنا ليسأله من هو [يو ١٣ : ٢٤] . وكانت

رأس يوحنا بالقرب من يسوع فوضعها بثقة المحبة على صدر سيده وهمس متسائلا [يا رب من هو] (١) ؟ والجواب الذى قيل بصوت خافت أيضا سمعه يوحنا فقط وأكد الشك الذى كانت طبيعة يهوذا السيئة تثيرها فيه . على الموائد الشرقية يأكل الأضياف بأصابعهم من طبق عام ، ومن المعتاد أن يغمس المرء فى الطبق قطعة من الخبز الرقيق اللين الذى يوضع إلى جانب كل ضيف ثم يطوى داخلها بعضا من اللحم أو الأرز ويقدمها لآخر . وعمل عادى مثل هذا يحدث كل يوم على الموائد لا يلفت النظر أبدا . وناول يسوع اللقمة المغموسة للتلميذ الخائن ، وهى العلامة التى ذكرها ليوحنا . وربما نقلها يوحنا إلى بطرس . والتى تدل على الشخص الخائن فى هذه الجماعة الصغيرة .

وحينئذ أضاف يسوع بصوت عال كلمات ليس لها سوى معنى واحد ، كلمات هى أشد ما انفرجت عنها شفتاه : [إن ابن الانسان يمضى كما هو مكتوب عنه فويل لذلك الرجل الذى به يسلم ابن الانسان . خير لذلك الرجل لو لم يولد] ! كلمات قيل عنها حسنا « إنها كلمات هلاك لا يوصف ، كلمات ويل لا يوصف » . وهى كلمات أشد ما تكون لأنها خارجة من شفتي الحب الذى لا يوصف ، كلمات قادرة أن تظهر لروح الخائن المفقودة الهوة السوداء الشنيعة المفتوحة تحت قدميه . لا شك أنه عرف شيئا مما جرى ، وربما أيضا يكون قد تسمع لنتف من الحديث وعلم على الأقل بشعور مبهم أن لهذا الحديث صلة به ، وربما أيضا قد حدس ويده تقابل يد يسوع فوق الصحفة أن لاعطائه اللقمة معنى خاصا . حينما كان يتساءل الآخرون من هو الخائن ؟ مكث ساكتا في جمود التحدى محتقرا ، أو فى وجوم الجريمة مكتئبا ، ولكن الآن ، كما لو كان قد نجس بروح الاشمئزاز الذى أثاره مجرد احتمال وقوع الخيانة ، قد شجع أعصابه للسؤال المملوء من الخزى أو الذى لا خزى فيه . بعد أن صمت الجميع وقع على أذن

---

١ ـ يو ١٣ : ٢٣ . التأثير الحادث من هذا التغيير الحسي فى جلسته يلاحظ فى (يو ٢١ : ٢٠) ومعناها الحرفى " استلق " .

المخلص الصوت الممجوج بهمس فات أوانه ، وبكل مرارة السخرية المتحدية ، ولم يسأل كما سأل الباقون باحترام حي [ألعلى أنا هو يا رب] ، بل باللقب الرسمى البارد [ألعلى أنا هو يا معلم] ؟ وحينئذ سجلت جريمته تلك الأجابة الخافتة غير الموبخة [أنت قلت] . لم يسمع الباقون هذا . وربما يكرن يوحنا وبطرس قد سمعاها وحدهما . وأكل يهوذا اللقمة التى أعطاها له يسوع . [وبعد اللقمة حينئذ دخله الشيطان] . وكما تسفو الرياح فى الليل العاصف فتخرب وتقصف وتصفر فى الجدران البالية للخرب المهجورة كذلك فى حياة يهوذا المتهدمة ثارت دفعة واحدة رياح الحسد والطمع ونكران الجميل والحقد . وفى هذه الهوجاء التى عصفت بروح دمغتها الجريمة الشنيعة تغلب الشيطانى على الانسانى ، واتحد فى ذلك القلب الأسود العالم وجهنم . فى تلك النفس المفقودة حبلت الخطية وولدت موتا [فقال له يسوع ما أنت عامله فاعمله سريعا] . قال له ذلك على مسمع من الجميع . علم ما تنطوى عليه هذه الكلمات وعلم أنها تعنى « إن مقصدك نضج فاعمله بدون هذه الرياءات غير المجدية والتأخيرات التى لا داعي ولا معنى لها » . فقام يهوذا عن المائدة ، أما التلاميذ الأبرياء القلوب فقد ظنوا أن يسوع أمره أن يذهب ليشترى ما يحتاجونه لفصح الغد ، أو ليعطي من صندوقهم المشترك ما يساعد الفقراء على شراء خروف الفصح . وعلى ذلك ،فمن الحجرة المنيرة ، ومن المائدة المقدسة ، ومن الصحبة المباركة ، ومن حضرة سيده ، خرج يهوذا للحال . وأضاف التلميذ المحبوب برعشة لها معنى مخيف سادلا ستار الظلمة وراء الشبح الشائن : (وكان ليلا) .

ولا نستطيع القول بشيء من التأكيد هل حدث هذا قبل أو بعد تأسيس العشاء الربانى هل تناول يهوذا أو لم يتناول من هذه القدسيات ؟ كما لا ندرى إلى أى حد قد مارس تفصيلات عيد الفصح نصف المفرحة ، نصف المحزنة ، أو إن كان لم يمارس منها شيئا على الاطلاق في هذا العشاء الأخير . كما لا ندرى أيضا إن كانت عادات الفصح

فى تلك الأيام مشابهة لما دونه الحاخاميون . لا شيء أبسط من العادات الأولى التى كانوا يمارسونها لذكرى خلاصهم من مصر ومن الملاك المهلك . كان محور التقليد فى هذا العيد هو أكل خروف الفصح بسرعة وبخبز غير مختمر وأعشاب مرة ، وقوفا وأحقاؤهم مشدودة وأرجلهم منتعلة ، كما أكلوه بسرعة ليلة خروجهم من مصر . ولا زال السامريون يقيمونه على هذا النمط على قمة جبل جرزيم إلى يومنا هذا ويقدمون للغريب لقمة من الفطير ملفوفة على شكل زيتونة داخلها قطعة من الهندباء البرية أو أى عشب آخر مر ، وربما تشبه ذات اللقمة التى قبلها يهوذا من يد المسيح ، غير أنها لا تغمس فى الصحفة . وحتى لو كان العشاء الأخير فصحا فانا نعلم يقينا أن اليهود فى ذلك الوقت قد تركوا منذ زمن طويل أكله وقوفا واتباع الأمر الذى يمنع أى انسان من ترك المنزل إلى الصباح . لقد دخلت تغييرات جوهرية عديدة بين الفصح المصرى والفصح الدائم الذى كانوا يراعونه بعد ذلك . هذا الأخير كان يمارس بأن يملأ كل فرد كأسا من النبيذ يتلو عليه رأس العائلة صلاة بركة . وبعد ذلك تغسل الأيدى فى طست ماء وتعد مائدة موضوع عليها الأعشاب المرة والخبز الفطير « والشاروسيث » (صنف من البلح والزبيب والخل) وخروف الفصح ولحم « الشاجيجاه » . ويغمس الأب قطعة عشب فى طبق الشاروسيث ويأكلها وهو يبارك ثم يوزع لقمة مثلها على الجميع . وبعد ذلك يتناول كأسا أخرى من النبيذ ثم يسأل أصغر الموجودين سنا عن معنى ليل الفصح . ويجاوب الأب بالتفصيل عن سبب حفظه ثم يرنمون الجزء الأول من التهليل (مز ١١٣ و ١١٤) . وتعاد البركة ثم يشرب كأسا ثالثا من الخمر . يعقب ذلك صلاة ثم يشرب كأسا رابعة ويرتل باقي التهليل (مز ١١٥ - ١١٨) وينتهى الحفل بالبركة والترنيم [١] . ولا شك أن بعض الحقائق التى ذكرت عن العشاء الأخير تماثل فى بعض جزئياتها هذه الحفلة . فمثلا يتضح أن العشاء بدأ بالبركة وإدارة كأس من النبيذ

---

١ - راجع ما كتبه الدكتور جينسبرج عن الفصح وكذلك معلمة كيتو .

أمرهم أن يقتسموه بينهم قائلا إنه لن يذوق نتـــاج الكرمة حتى تأتى ملكوت الله (لو ٢٢ : ١٧) . والكأس الثانية بعد العشاء قال عنها بعضهم إنها توازى الكأس الثالثة أو « كأس ها باراكاه » أى كأس البركة التى للحفلة اليهودية (١ كو ١٠ : ١٦) والترانيم التى رتلوها قبل ذهاب هذه العصبة الصغيرة إلى جثسيمانى كانت على احتمال كبير هى الجزء الأخير من التهليل .

علاقة هذه الأمور التى فصلنا وقوعها على المائدة مع مختلف تقاليد الفصح التى أسلفنا ذكرها علاقة مشكوك فيها . ولكن الأمر الذى لا شك فيه ، والذى له أهمية عظمى عند كل المسيحيين ، هو تأسيس سر الأفخارستيا فى هذا العشاء الأخير ، والذي لنا عنه أربعة مصادر ، لأن الوصف المختصر الذى كتبه بولس الرسول يوافق حرفيا ما كتبه البشيرون الثلاثة تقريبا . وفى كل منها تتضح الأمور الأساسية التى يخبرنا عنها بولس الرسول بجلاء : [لأننى تسلمت من الرب ما سلمتكم أيضا أن الرب يسوع فى الليلة التى أسلم فيها أخذ خبزا وشكر فكسر وقال خذوا كلوا هذا هو جسدى المكسور لأجلكم . اصنعوا هذا لذكرى . كذلك الكأس أيضا بعدما تعشوا قائلا هذه الكأس هى العهد الجديد بدمى اصنعوا هذا كلما شربتم لذكرى] (١) . ومنذ تلك الليلة الخالدة لم تكف الكنيسة عن إطاعة أمر السيد . ومنذ ذلك اليوم جيلا بعد جيل كان هذا السر المبارك المقدس تذكارا لموت المسيح وتقوية وانعاشا لنفوس المؤمنين بالتناول من الجسد المقدس والدم الكريم تحت عرضى الخبز والخمر (٢) .

---

١ ـ ١ كو ١١ : ٢٣ ـ ٢٥ .

٢ ـ المشاحنات بين الكنائس التى قامت حول سر التناول أمور تحزن القلب بعيدة عن روح المسيح والمسيحية .

الفصل السادس والخمسون

الحديث الأخير

"كان الأعظم جدا هو أيضا المحب جدا"
براوننج

سرعان ما انتعشت أرواح الصحبة القليلة بمجرد أن ترك يهوذا العلية كما لو كان قد زال عنهم كابوس مميت . فوجود هذه الروح التي امتلكها الشيطان جثم بثقل على قلب سيده ، فبمجرد أن ذهب خف الحزن الذي كان قد استولى على العيد خفة محسوسة . والسرور المجيد الذي غمر روح السيد وكذلك الفرح الذي شع مثل نور الشمس وراء السحب قد سريا منه إلى أرواح تلاميذه . قضت ساعتان سريعتان في حديث حلو رقيق حول هذه المائدة الهادئة . والآن وهو عالم بفراقه لهم سريعا إذ قد تقرر هذا نهائيا في عزمه العلوي فتح قلبه للصحبة الصغيرة التي أحبته وتكلم مع تلاميذه بأحاديث الوداع التي حفظها لنا يوحنا البشير وحده والتي هي « نسيج فريد من الحزن والفرح ومطعمة بالأسرار كما بالزمرد » . قال كما بزفرة راضية [الآن تمجد ابن الانسان وتمجد الله فيه] . قد دنت ساعة المجد ، المجد

الذى يكتسب عن طريق الآلام والتواضع . وأصبح الوقت الذى سيقضيه معهم قصيرا . وكما قال لليهود فالآن يقول لهم أنه حيثما يذهب لا يستطيعون أن يأتوا . وإذ يقول لهم هذا يدعوهم للمرة الأولى والأخيرة [يا أولادى] الصغار . مع انه كان فى هذه الصحبة مثل بطرس ويوحنا ، رجال أثرت كلماتهم وأعمالهم منذ ذلك الوقت وإلى الأبد على كل العالم والبشر ، رجال سيكونون القديسين الشفعاء للأمم ، وستبنى كاتدرائيات تخليدا لهم ، وتدعى مدن بأسمائهم ، إلا أن عظمتهم ليست سوى انعكاس من مجد القائم من الأموات وشعاع من الروح الذى سيرسله . فهم لا شىء بل أقل من لا شىء بدونه ، صيادو سمك جليليون ، جاهلون ، غير مسموعين ولا معروفين إلا فى القرية موطنهم ، بلا معرفة ولا نباهة ذهن ، غير أنه اعتبرهم « أولاده » الصغار . ومع أنهم لا يستطيعون أن يتبعوه إلى حيث يذهب ، غير أنه لم يقل لهم كما قال لليهود (١) أنهم سوف يطلبونه فلا يجدونه ، بل على العكس أعطاهم وصية إن ساروا بها فى خطواته فسيعرف العالم أنهم تلاميذه ، وسوف يجدونه سريعا . وهذه الوصية الجديدة هى أن يحبوا بعضهم بعضا. لم تكن هذه الوصية جديدة فانه (٢) حتى فى ناموس موسى (لا ١٩ : ١٨) وجد لها مكان للتعليم [تحب قريبك كنفسك] بل قد اعتبر المعلمون الحكماء من اليهود أن هذه الوصية أساسية وضرورية (٣) . ولكن كما يقول يوحنا فى رسالته إنها وإن كانت قديمة فأنها من وجه آخر جديدة جدا ، جديدة فى الأهمية التى أعطيت لها ، جديدة فى الدوافع التى تأمر بها ، جديدة فى المثال الجديد الذى أمر بها ، جديدة بالتأثير الذى قدر أن تتمه من الآن فصاعدا . المحبة التى هى امتحان وميزة التلمذة له ، المحبة التى هى أعظم من الايمان والرجاء ، المحبة التى هى كمال الناموس (٤) .

---

١ - يو ٧ : ٣٤ و ٨ : ٢١ .

٢ - من الملاحظ أن الكلمة المستعملة معناها الحرفى (طازج) لا (جديدة) .

٣ - يعقوب ٢ : ٨ و ١ يو ٣ : ١١ .

٤ - قال الشاعر براونتج " اسمع نصيحة صديق ... الحياة وكل ما فيها من هم وسرور وأمل

عند هذا تدخل بطرس بسؤال اعتراضي إذ أراد قبل أن يبدأ يسوع بتعليم آخر أن يستفسر عن شيء أشكل عليه فهمه. لماذا تغلب الصيغة الوداعية على حديث السيد؟ [إلى أين تذهب يا رب] فأجابه يسوع [حيث أذهب أنا لا تقدر الآن أن تتبعني وستتبعني أخيرا]. إذ ذاك فهم بطرس أن يسوع إنما يعني « الموت ». ولكن لماذا لا يقدر هو أن يموت الآن أيضا؟ أليس هو مستعدا أن يقول كما سبق توما فقال [لنذهب ونموت نحن أيضا معه]. فقال للسيد [لماذا لا أقدر أن أتبعك الآن. نفسي أضعها عنك].

[لماذا]؟ كان ممكنا أن يجيبه يسوع: لأن القلب أخدع من كل شيء. ولأن افتقارك للتواضع الحقيقي يمنعك. ولأنه مخبأ حتى عن نفسك المقدار الكبير الباقي من الجبن ومحبة الذات المستتر في دوافعك. ولكنه لم يعامل هذا القلب النبيل الذي لتلميذه الضعيف المدعي والذي لم يقو حبه على الامتحان، وإن كان كامل الاخلاص، لم يعامله هكذا بل أعفاه من كل توبيخ. وبكل لطف كرر سؤاله [أتضع نفسك عني]؟ وأضاف [الحق الحق أقول لك إنه لن يصيح الديك حتى تنكرني ثلاث مرات].

سبق أن حل الليل وقبل أن يبزغ فجر ذلك اليوم المميت في الأفق الشرقي، وقبل أن يصيح الديك معلنا في الظلمة الحالكة أن الفجر قد اقترب يكون قد بدأ يسوع أن يضع نفسه عن بطرس وعن كل من يخطئ، بينما يكون بطرس، رغم تحذيره، قد أنكر ثلاث مرات سيده ومخلصه، ورفض ثلاث مرات مجرد فكرة معرفته، كأن هذا عار وسبة. وقد فعل يسوع كل ما تمكن عمله ليعفيه من آلام

وخوف ما هي إلا فرصتنا الوحيدة لاعلان المحبة المتعلقة والمكافأة عليها كيفما كانت في الماضي والحاضر والمستقبل وما هي وما سوف تكون. وان نتمسك بها رغم حسد العالم. فاذا تعلمنا التصق بها. وهذه هي الحياة".

سقوطه الأدبى هذا بتحذيره له وعطفه عليه والصلاة من أجله إذ طلب من أجله لكي لا يفنى إيمانه (١) . لقد سمح للشيطان أن يغربلهم كالحنطة (٢)، ورغما عن ثقة بطرس بنفسه، ورغما عن تعبده واحتجاجه، ورغما عن كل إخلاصه الخيالى فلن يكون إلا تبنا . (ويلاحظ فى بشارة لوقا أن هذه هى المرة الوحيدة في الأنجيل كله التى خاطب بها السيد سمعان باسم بطرس وهو الاسم الذى سبق فمنحه له، كما لو أنه عنى أن يذكر رجل الصخرة أن قوته ليست كامنة فيه ولكن مكتسبة من الاعتراف الذى أدلى به يوما) . غير أن يسوع وضع نصب عينيه رجاء بالنعمة أنه سيتوب ويرجع إلى سيده الذى سينكره . وعندما يأتي ذلك اليوم فأنه يأمره أن يظهر أصدق برهان مقبـــول للتوبة وهو أن يثبت الآخرين . إن كانت سقطة بطرس ضربة قاسية لتحذيرات مخلصه فان توبته أتمت بتبل هذه النبوات المعزية . ومن اللذ للغاية أننا نجد نفس الكلمة التي قالها يسوع له قد أعادها هو فى رسالته فى موقف مناسب. وهذا يظهر كيف أنها نقشت عميقا فى نفسه (٣) .

أراد يسوع أن يشعر تلاميذه أنه قد حان الوقت الذى يتغير فيه كل شيء صادفوه فى ربيع إرساليتهم فى الجليل . إذ ذاك أرسلهم بلا كيس ولا مزود ولا حذاء ولم يعوزهم شيء ولكنهم الآن فى حاجة إلى الكيس والمزود، بل سيصبح السيف لازما . [ومن ليس له فليبيع ثوبه وليشتر سيفا] . ولكن طريقة نطقه بهذه الجملة لا تدل على أنه يقصـــد أن تؤخذ حرفيا . لقد كانت عادة السيد ـ لأن كلماته كان يقولها لكل الأجيال فيجب أن تثبت كمناخس أو تدق كمسامير فى أماكنها المناسبة ـ كانت عادته أن يكسو تعاليمه الأخلاقية فى تشبيهات حية وكلمات قوية . وكان غرضه الآن

١ ـ لو ٢٢ : ٣٢ المعنى الأصلى "ينقص للدرجة القصوى" .

٢ ـ لو ٢٢ : ٣١ قارن عاموس ٩ : ٩ .

٣ ـ لو ٢٢ : ٣٢ قارن ١ بط ٥ : ١٠ .



حديقة جثسيماني

أن يحذرهم من الحال الذى تغير فيجب أن ينتظروا الضيق والبغضة والاهمال والمقاومة والمعارضة التي يصبح فيها الدفاع عن النفس واجبا محتما . ولكن كأنه يحذرهم بوضوح أنه لا يتطلب أن يبذلوا هذا الجهد حالا ـ كما لو كان يحذرهم من الطيش في الدفاع عن حياته التى كان سيضعها بأرادته ـ أضاف أن نهايته قد اقتربت وأنه حسب النبوة القديمة سوف يحصى مع أثمة . ولكن الرسل كالعادة بجهل وبلا انتباه أخطأوا فهم كلامه ولم يروا فيه الدرس الروحي ولكن مجرد المعنى الحرفى . فكان تعقيبهم الذى يشبه تصور الأطفال [يا رب إن ههنا سيفين] . سيفين .. ! كما لو كانا كافيين للمدافعة عن حياته المقدسة ضد القوة الغشومة ! وكما لو كانا ذخيرة وافية لذلك الذى تحت أمر كلمة واحدة منه تأتى أكثر من اثنى عشر جوقا من الملائكة ! وكما لو أن هذه القوة الضعيفة فى تلك الأيدى الضعيفة تقدر أن تخلصه من الحقد الدفين لأمة من الحقد ! فقال بحزن [يكفى] لم تكن هناك فائدة من إتمام الموضوع . وحتى الدرس المقبل فى جثسيمانى لن يعلمهم ضعف فهمهم لكلماته . ترك الموضـــــوع ، وترك جانبا السيفين المعروضين ، وابتدأ فى العمل الأكثر رقة ، عمل التعزية الذى كان عليه أن يقول كثيرا فيه .

أمرهم ألا تضطرب قلوبهم ـ فانهم يؤمنون ويجب أن يكون لأيمانهم ثمر . وأخبرهم أنه سيتركهم ليعد لهم مكانا في المنازل الكثيرة التى فى بيت أبيه ، وأنهم يعلمون إلى أين يمضى ويعرفون الطريق .

فكان الجواب المربر لتوما الحزين [يا رب لسنا نعلم أين تذهب فكيف نعرف الطريق] .

[قال له يسوع أنا هو الطريق والحق والحياة ليس أحد يأتى إلى الآب إلا بى . لو كنتم عرفتمونى لعرفتم أبى أيضا ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه] .

وحينئذ قفز أحد تلك الاعتراضات الساذجة التى تظهر مدى عدم مقدرتهم على

الفهم وعمق جهالتهم الروحية بعد زمن طويل من التعليم الألهي - ويجب أن نشكر الله لأن سذاجة وجهالة الرسل قد سجلته لنا ببساطة واتضاع وإخلاص ووضوح . لأن هذا يبرهن على قوة التغيير الذى حدث فى نفوسهم بعد القيامة ، إذ كانوا قبلا رجالا جبناء جسديين ، يهود غير مستنيرين ، فأصبحوا الرسل الذين نعلم قيمتهم ، والذين قد ألهمتهم الحوادث التى شهدوها ، وأبدلهم الروح القدس الذى منحهم الحكمة والبلاغة فصاروا ، قبل أن تنتهي حياتهم القصيرة بميتات عنيفة ، أعظم معلمي العالم .

اعترض فيلبس الذى من بيت صيدا قائلا [يا رب أرنا الآب وحسبنا] .

[أرنا الآب] . ماذا كان إذن ينتظر فيلبس ؟ هل رؤيا تهز الأرض ؟ أم نورا يعمي البصائر يتفجر من السماء ؟ ألا يعلم بعد أن غير المنظور لا يرى بالعيون الجسدية ، وأن المحدود لن يستطيع رؤية غير المحدود ، وأن الذين يودون رؤية الله لا يبصرون مثالا محسوسا ، ولا يسمعون صوته الرهيب إلا عن طريق ما يذيعه البشر ، وأن وجوده لا يفهم إلا بواسطة الأشياء التى صنعها ؟ هل قصر تماما عن أن يكتشف انه طوال هذه السنين الثلاث إنما كان سائرا مع الله ؟ وانه لا هو ولا أى مخلوق بشري يمكنه أن يعرف الله في هذا الدهر سوى من يعلن له بواسطة [الابن الوحيد الذى فى حضن الآب] ؟

لم تكن في إجابة السيد الهادئة أية خلجة من الغضب ولكن لهجة تدل على ألم المفاجأة إذ قال له [أنا معكم كل هذا الزمان ولم تعرفني يا فيلبس . من رآنى فقد رأى الآب . فكيف تقول أنت أرنا الآب] ؟

وحينئذ ركن إلى كلماته وأعماله مبينا أنها لا يمكن أن تكون إلا إذا كان فى الآب . ثم ابتدأ فى إعلان مجيء الروح القدس وكيف أن هذا المعزى سيسكن فيهم ويجعلهم واحدا مع الآب ومعه .

ولكن يهوذا لباوس وجد فى هذا صعوبة لا يفهمها . لم يعرف أن العين لا تقدر

أن ترى إلا ما تملك من قوة ذاتيـــة لرؤياه . لم يدرك أن الله لا يرى إلا من الذين قد انفتحت بصائر أذهانهم فينظرون الأمور الروحيـة . سأله [يارب ماذا حـدث انك ستظهر لنا ذاتك وليس للعالم] ؟

كانت صعوبته من نفس نوع صعوبة فيلبس ، عدم القدرة على التفرقة بين الظهور الجسدى والروحى . ودون أن يزيح السيد هذه الصعوبة مباشرة أعطاهم كلهم مرة أخرى مفتاح فهم كلماته وهو أن الله يعلن للذين يحبونه وأن برهان المحبة هو الطاعة . ثم أحال باقى التعاليم على المعزى الذى سيرسله لهم والذى سيذكرهم بكل شيء . أما الآن فانه أفاض عليهم بركة السلام ولم يشأ أن يكلمهم كثيرا بعد لأن تراله مع رئيس هذا العالم يجب أن يبدأ .

وعند هذا الحد من الحديث حدثت حركة بين تلك العصبة القليلة لأن يسوع قال [قوموا ننطلق من ههنا] .

فقاموا عن المائدة واتحدت أصواتهم في ترتيل جزء من التهليل الكبير (غالبا مزامير ١١٦ و ١١٧ و ١١٨) . أى تأثير خالد قد أصبح لهذه الترانيم من هذه المناسبة، وأى معان مليئة قد حملت بعض أعدادها لبعض منهم ! ولا شك أن عواطفهم قد تأثرت وهم يرنمون سويا أعدادا مثل: [أحاطت بي أسوار الموت وآلام الجحيم أمسكتنى. وجدت حزنا وألما وحينئذ دعوت اسم الرب . الرب أطلب . خلص نفسى] ، أو مثل : [ماذا أرد للرب من أجل كل حسناته . آخذ كاس الخلاص وأدعو باسم الرب] ، أو مثل [قد وضعت أمامى معثرة لكي أسقط ولكن الرب عضدني . الله قوتى وترنيمى . وهو خلاصي . الحجر الذى رفضه البناؤون هذا صار رأس الزاوية . هذا هو عمل الرب وهو عجيب فى أعيننا] .

وقبل أن يبدأوا سيرهم إلى حديقة جثسيمانى على ضوء القمر ، ربما وهم ملتفون حول سيدهم ، وبعد أن انتهى ترتيلهم ، كلمهم مرة أخرى . أوصاهم أولا عن الضرورة القصوى

للاتحاد به إن كانوا سيأتون بثمر ويخلصون من الهلاك. وقد ضمن هذا فى تشبيه « الكرمة والأغصان ». ولا توجد حاجة للبحث عن ظرف خاص أوحى بهذا التمثيل سوى « نتاج الكرمة » التى تناولوا منها. ولكن إن كان الأمر قد احتاج إلى شىء آخر فأنا نتخيل إما أنه نظر خلال الظلمة فرأى ضوء القمر يلتمع كالفضة على أوراق كرمة تلف أغصانها حول النافذة، أو وقع بصره على الكرمة الذهبية الفخمة التي كانت تزين بابا من أبواب الهيكل. وبعد أن ثبت فى قلوبهم هذه الحقيقة التى صاغها على شكل مثل حي أظهر لهم أن الآلام التى تنتظرهم من دنيا غاضبة ستتحول لهم نبعا عميقا من الفرح والسرور. وحينئذ بلغة أعمق وأكمل وأوضح مما سبق أن تكلم بها إليهم أخبرهم أنه رغم الحزن الذى سيملأ قلوبهم لتركه إياهم فان انطلاقه خير لهم. خير لهم أن ينتهى وجوده الأرضى معهم حتى يكون حضوره الروحانى ألصق وأقرب إليهم مما كان قبلا. وهذا سيتم عندما يحل الروح القدس. وحينئذ من هو الآن معهم سيكون فيهم. سيبكت الروح القدس العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة، ويرشدهم إلى جميع الحق ويخبرهم بكل شيء. و [ذاك يمجدنى لأنه يأخذ مما لى ويخبركم]. وها هو ذاهب إلى أبيه، فبعد قليل لا يرونه ثم بعد قليل سوف يرونه.

وعدم تحقق الرسل مما يعنيه حملهم مرة أخرى فى فترة سكوت أثناء حديثه الرهيب على أن يتساءلوا فيما بينهم، وكانوا يريدون أن يسألوه ولكن خوفا عظيما وقع على أرواحهم فلم يجسروا. لقد قاطعوا مجرى أفكاره قبل ذلك مرارا عديدة بأسئلة مع انه لم يوبخهم عليها ولكن بلا ريب قد أحزنته لفراغها ولعدم الفهم الذى أظهروه لكل الأمور التى رغب أن يثبتها فيهم. وعلى ذلك انتهت همسات تساؤلهم إلى صمت، ولكن سيدهم برأفة أتى لعونهم وأوضح لهم أن هذه الساعة القصيرة الآتية عليهم ستكون للنوح والحزن ولكن سيثبتها فـــرح لا ينزعه أحد منهم، ولا يكون لفرحهم حد لأن كل ما يحتاجونه من الآب فاياه يعطيهم. أما هو فسيمضي إلى الآب

الذى من عنده أتى (١) . والذي يحبهم لأنهم آمنوا به .

وكان شكر الرسل عميقا لهذه الكلمات البسيطة الكاملة التعزية . فأعلنوا اعتقادهم بالأجماع مرة أخرى واعترفوا أنه من عند الله قد خرج . أما يسوع فقد حد من حماسهم لأنه كان يقصد من كلامه أن يمنحهم سلاما فى الحاضر وشجاعة ورجاء للمستقبل . ولكنه عرف وأخبرهم ـ رغم كل ما قالوه ـ انه قد أتت الساعة التى فيها يتفرقون فى خوف أنانى ويتركونه وحده ، ولكن ليس وحده لأن أباه معه .

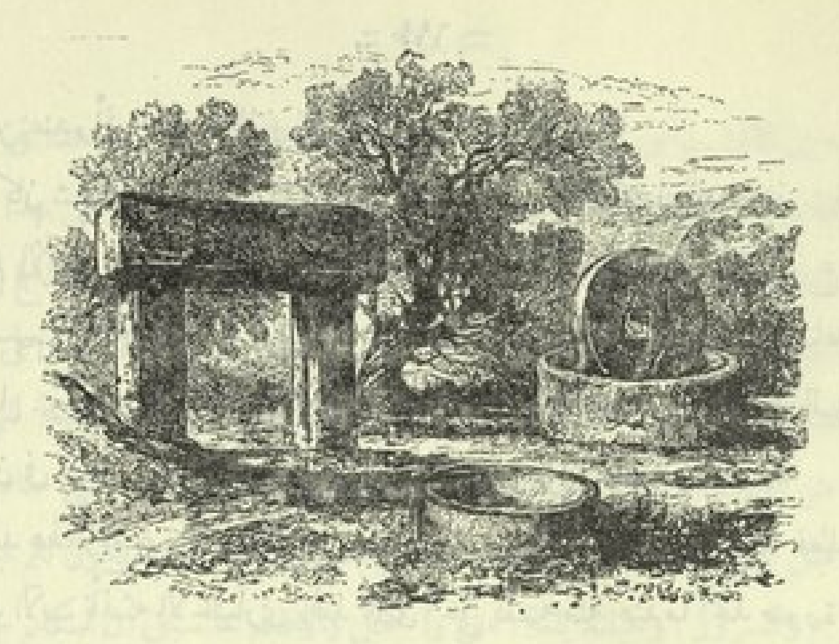
بعد هذا رفع عينيه إلى السماء وصلى صلاة رئيس الكهنة العظيمة فطلب أولا أن يمجد الآب تأنسه الاختيارى بالمجد الذى أخلى نفسه منه عندما اتخذ صورة العبد ، وثانيا أن يحفظ فى اسمه هؤلاء الذين أحبهم والذين ساروا معه على الأرض (٢) ، وأيضا لكي يقدس ويكمل ليس هؤلاء فقط بل كل الملايين وكل الأجيال الذين سيؤمنون بواسطة كلامهم إلى الأبد .

وعندما انتهى من هذه الصلاة الألهية تركوا العلية وخطوا فى السكون المتسع بضياء القمر فى ذلك الليل المشهود .

---

١ ـ من الأمور الدقيقة (التى لا يمكن للترجمة أن تظهرها) التى نستدل بها على تمسك السيد بأصله الألهى انه يستعمل كلمة " بيتو " لكل سؤال وصلاة إلى الله من الآخرين ـ وهى كلمة تستعمل فى الطلب من الأصغر إلى الأعلى وأما لصلاته هو فكان يستعمل كلمة " روجو " وهى كلمة معناها الطلب من الند إلى الند . وأيضا عندما كان يطلب من تلاميذه أن يصدقوه كان يستعمل كلمة " يؤمنوا " (يو ١٤ : ١) وهى لا تستعمل إلا لله بينما تستعمل كلمة معناها " ثقوا " لتصديق الناس (يو ١ : ١٢ و ٢ : ٢٣ و مت ١٨ : ٦) . وأيضا عندما كان يتحدث إلى الله أبيه كان يقرنها دائما بحروف التعريف " يا أيها الآب " " يا أبتاه " أما إذا تحدث عنه كأبينا فكان لا يستعمل حرف التعريف . وهذا ظاهر تماما فى يو ٢٠ : ١٧ أصعد إلى " الآب الذى لى وأبيكم " يقول أوغسطين : (أصعد إلى أبى الذى هو أبوكم) .

٢ ـ (كنت أحفظهم) الواردة ترجمة ليوحنا ١٢ : ١٧ ومعناها الأصلى " حرستهم " أو " رعيتهم " .



معصرة الزيتون

الفصل السابع والخمسون

جثسيماني - والآلام والقبض

" لم يخف من مجرد الموت ولكن خطايانا التي
وضعت عليه كانت تسحقه بثقلها الشديد "
أحد المفسرين

أدى الطريق الذي سلكه يسوع وتلاميذه إلى أبواب المدينة - غالبا الباب الذي يدعى في وقتنا باب استفانوس - ومنه إلى جانب المنحدر السحيق عبر وادي قدرون الذي ينخفض مائة قدم، ثم إلى الطريق المتصعد ذي الزرع

الذى يتشعب منه . ومن زار هذا المكان في مثل ذلك الأوان من السنة وفى مثل تلك الساعة من الليل ، من شعر برهبة السكون حتى فى هذه البقعة القليلة البعد عن أسوار المدينة ، من شاهد روعة الظلال العميقة التى ترميها الفروع الباسقة لأشجار الزيتون العتيقة والتي يتخللها نور متماوج يلمع على حشيش الأرض ويطل من بين أوراق الشجر التى تتألق كالفضة من ضياء القمر ، يمكنه أن يتحقق مدى الرهبة والخوف اللذين ساورا هؤلاء الجليليين القلائل وهم يسيرون في سكوت لا يقطعه شيء ، ويمشون بشيء من التستر بينما يحوم رعب خفى حول رؤوسهم ، ويتبعون ذاك الذى كان يخطو أمامهم برأس منحن وقلب كسير إلى نهايته التى اختارها .

لقد أخبرنا عن حادثة واحدة وقعت أثناء هذا الاسراء الخالد فى منتصف الليل إلى البستان المعتاد فى جثسيمانى . كان التحذير الأخير للتلاميذ عامة ولبطرس خاصة . ساورت قلوبهم رعشة قاسية من الجبن من حالك الظلمة والتخـــلى عن الممتلكات والصدى المكتوم لخطواتهم والصبغة الخفية لحركاتهم والشعور أن الخيانة قد بدأت . لذلك استدار يسوع بحزن وقال لهم انهم جميعهم يشكون فيه هذه الليلة بالذات لأنهم سيجدون إذن أى علاقة معه حجر عثرة فى طريقهم ، وستتم النبوة القديمة القائلة [اضرب الراعي فتتفرق خراف الرعية] . ولكن كراع سوف يمشي أمامهم ويقودهم إلى الجليل فنفروا جميعا من مجرد احتمال تركهم لسيدهم . وكان بطرس أعلاهم صوتا وأشدهم تأكيدا فى نفيه ربما لأن ثباته فى إيقانه كان موضع مغمز أو ربما يكون قد ساوره شك فأكد أنه إن شك فيه الجميع فهو لا يشك . هل كان شعوره الباطن بالضعف هو الذى جعل تأكيده قويا وظاهرا ؟ لم يزحزحه عن تأكيده الصارم حتى تكرار تحذيره انه قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات سيكون قد أنكره ثلاث مرات . وأصغى يسوع بسكوت حزين رصين لتلك الأقسام التى ستتطاير سريعا في الهواء .

وعلى هذا النحو وصلوا إلى جثسيمانى الذى يبعد نحـــو نصف ميل عن أسوار

المدينة ، وهو بستان أو حقل يحده فى الغالب سياج بسيط (١). وإذ كان يسوع يرتاد هذا المكان كثيرا مع تلاميذه فمن المحتمل أن يكون ملكا لأحد أصحابه . وكلمة جثسيمانى معناها « معصرة الزيت » . ولا شك أن هذا الاسم أطلق على هذا المكان لوجود معصرة تدرس الزيتون الناتج من الأشجار التى لا تحصى والتى بسببها أطلق على هذا التل اسم جبل الزيتون . ومن استراح فى حر الظهيرة فى حدائق عين غانم أو الناصرة فى الربيع تحت الظلال الجميلة من الفروع المتشابكة لأشجار الزيتون والرمان والتين قد يتصور ما تكون عليه هذه البقعة . والمكان التقليدي الذى يمتاز بالروعة والجمال لوجود أشجار الزيتون العظيمة فى ضخامتها وقدمها والتى لا تزال إحداها تسمى شجرة الآلام (٢) ، مكان ظاهر يقع فى زاوية ملتقى الممرين اللذين يفضيان إلى قمة وكتف جبل الزيتون حتى ليشك المرء أنه المكان الحقيقى بل يغلب على الظن أن المكان الذى رأى ذلك المنظر الرهيب المؤلم كان أحد البساتين الخاصة غير البعيدة . ولذلك فالمكان الحقيقى لا يمكن تحديده بالضبط تماما ، ولكن الموضع العام لجثسيمانى معروف بجلاء وهو الآن كما كان . ولا زالت معالمه العامة كما هى ـ ضوء القمر المتقطع ، والجذوع البنية اللون ، وأوراق الشجر الصفراء ، والحشائش الرخوة الخضراء ، والوادى السحيق يكتنفه جبل الزيتون من جهة الشرق ، وأوروشليم تشرف عليه من جهة الغرب . وسيظل هذا الموضع على ممر الأزمان غير منتقص الأهمية إذ أن فيه قد دخل مخلص

١ ـ الكلمة فى يو ١٨ : ١ معناها بستان والواردة فى مت ٣٦ : ٣٦ معناها حقل .

٢ ـ كان لى السرور الفائق أن أزور جثسيمانى مع صديقين دون دليل تحت ضوء القمر الكامل ليلة عيد الفصح الموافق ١٤ أبريل سنة ١٨٧٠ . يقولون إن شجر الزيتون هذا لا يمكن أن يكون له من القدم إلى زمن يسوع لأن تيطس قطع جميع الأشجار التى حول المدينة . ولكن هذا القول لا يجزم به . على أنه من المحتمل أكثر أن تكون هذه الأشجار " خلفة " تلك التى كانت السبب فى تسمية هذا الجبل المقدس . ومن المؤكد تماما أن جثسيمانى قريب من هذه البقعة . والتقليد الذى يحددها قديم جدا .

الجنس البشرى وحيدا إلى وادي الظلال .

قد علم يسوع أنه قد أتت الساعة المريرة لانسحاقه العميق وأنه منذ الآن إلى لحظة خروج الصرخة التى بها سينتهي لم يبق أمامه سوى الآلام الجسدية ومر العذاب النفسى . فكل ما يمكن لكيان جسدى أن يحمله كان سيتجمع على جسمه الناحل . وكل شقاء ممكن أن تسببه الشتائم القاسية القاصمة كان سيقع بثقل على نفسه . بل فى هذا العذاب المريع للجسم وهذه الآلام الشديدة للنفس سيصيب سمو وضياء روحه كسوف وقتى لكنه شنيع . سيجابه الألم فى أشد أنواعه ، والعار فى أقسى وحشيته ، وكل أثقال الخطية ، وأسرار وجود الانسان وارتداده وسقوطه . سيجابهها متجمعة سويا . ولكن بقى شيء واحد قبل هذا الصراع الفعلى ، أى قبل ابتداء الآلام المادية الصريحة . عليه أن ينعش قوى جسمه ويشدد أعصاب نفسه ويهدىء روحه بالصلاة والوحدة قبل أن يواجه ذلك الوقت الذى فيه سيقذف كل ما هو شرير فى مملكة الشر أردأ ما فيه على البار القدوس . والآن سيقابل تلك الساعة منفردا فلا تنظره عين وهو فى عمق انسحاقه إلا عن بعد وخلال الظلام والظلال ، مع انه كان يسر لو شاركه تلاميذه عواطفهم . كان يخفف عنه فى تلك الساعة التى لسلطان الظلمة أن يشعر أنهم قريبون منه وأن الأقربين منه هم الأحب إليه . فقال للغالبية [اجلسوا ههنا حتى أمضي لأصلى هناك] . وتركهم ليناموا على الحشائش ملتحفين عباءاتهم ، وأخذ معه بطرس ويعقوب ويوحنا على بعد رمية حجر . كان حسنا أن يرى بطرس كل ما يثبت الوفاء والاخلاص للمسيح . وكان جيدا أن ينظر يعقوب ويوحنا الكأس التي أرادا فى السابق أن يشرباها . ولكن بعد قليل حتى صحبة أولئك المختارين والموثوق بهم كانت أثقل مما يحتمل . استولى عليه حزن لا ينطق به وصراع فوق الطاقة وارتعاد شديد الحلكة ودوار كما لو كان إغماء متزايدا لموت مرتقب (١) . وهذا المزيج المختلط من العواطف

---

١ ـ مت ١٦ : ٣٧ و مر ١٤ : ٣٣ قارن أى ١٨ : ٢٠ و مز ١١٦ : ١١ راجع بيرسن .

لا يجب أن يراه أحد . [حينئذ قال لهم إن نفسي حزينة حتى الموت . امكثوا ههنا واسهروا معي] . وسلخ نفسه من عطفهم وحبهم القوى ، ثم انتحى على مضض بعيدا عنهم وربما أيضا عن ضوء القمر إلى الظلال . وهناك إلى أن غلبهم النعاس اختبروا روعة تلك الصلاة والأحزان التى كان يجتازها . وقد رأوه أحيانا جاثيا على ركبتيه وأخرى منطرحا على الأرض (١) الندية وهو يصلي بحرارة . وقد سمعوا نتفا من غمغمة الصلاة التي تضرع بها إلى إرادة أبيه . كان مضمونها واحدا من الأول للآخر وإن تغيرت الألفاظ [وكان يقول يا أبتاه كل شيء مستطاع لديك فأجزعني هذه الكأس ولكن ليس كأرادتي أنا بل كأرادتك أنت] (٢) .

وهذه الصلاة في كل روعتها وقدسيتها اللانهائيتين قد استجيبت . هذه الصرخة القوية وهذه الدموع السخية لم ترفضا . ولن نتطفل على هذا المنظر فانه محفوف بسر ومحاط بهالة لا تخطو بعد دائرتها أقدام . ونحن ان نفكر فيها نصير كالتلاميذ ، تثقل عيوننا وتختلط حواسنا . يكفينا أن نشاركهم في الدهشة والحزن . شعروا وهم نصف صاحين ونصف مثقلين بحمل من النوم المضطرب . إنهم شهود جمود غير متيقظين لآلام لا ينطق بها أعمق مما لا يقاس من أن يتبينوها لأنها فاقت كل الأشياء التى قد ندعي فهمها حتى في الأوقات التى يكون فيها ذهننا أصفى ما يكون . كان المكان كما لو كان مسكونا بأرواح الخير والشر تتصارع فى نزال عنيف صامت على النصر الأبدى . رأوا ذاك الذى كانت تفر أمامه الشياطين صارخة فى رعب منطـــرحا على وجهه إلى

ومن المهم ملاحظة أن هذا العدد (مت ٢٦ : ٣٨) والعدد (يو ١٢ : ٢٧) هما المكانان الوحيدان الذى استعمل فيهما يسوع كلمة " نفس " أو " عنصر الحياة " بدل كلمة ذاته .

١ ـ لو ٢٢ : ٤١ قارن اع ٢٦ : ٣٩ .

٢ ـ لا شيء يظهر عدم أهمية الحرف إذا قيس بالروح مثل اختلاف البشيرين الثلاثة فى ألفاظ هذه الصلاة مع اتفاق معانيها (الفورد) .

الأرض . وسمعوا ذاك الصوت الذى أمر البحر والرياح فأطاعاه يولول في غمغمة حزن مريع . وشاهدوا قطرات العرق التى تتساقط منه فى هذا الصراع المميت كقطرات الدم . وظهر لهم خلال الظلال المظلمة للأشجار على ضياء القمر المتقطع ملاكا يشدد قوته كى يقوم منتصرا في هذه الصلاة الأولى وليس به من آثار هذه المعركة الحامية إلا الآثار القرمزية على جبهته .

من أين أتى كل حزن القلب وهبوطه هذا ؟ وهذا الدهش المخيف والارتياح المظلم، وهذا الانفعال الذى كاد يودى به قبل أن يناله تعذيب واحد والذى جعل عرقه يتفجر كقطرات الدم وكاد يسحق الجسد والنفس والروح كما بضربة قاضية ؟ هل كان مجرد الخوف من الموت ؟ ـ هل كان من مجرد الجهد والعزم على مجابهة ما عرفه من قبل هو وكل ما فيه من الآلام ذرتحت لذلك نفسه ؟ أكتب بكل خزى وحزن أن هناك من تجرأوا وتكلموا بخفة عن جثسيمانى ، وراقبوا هذا المنظر الأليم من قمة مظانهم الجاهلة المتكبرة بما يقرب من الازدراء والكره ، ويتقولون أن يسوع قد أظهر هنا شعورا من الجبن والخوف . وفى ذات اللحظة التى يجب فيها أن نعجب ونؤمن ونمجد فانهم يحركون ألسنتهم بالتجديف على اله السماء . فحتى إن لم تكن لهم دوافع شريفة تؤثر عليهم ، وحتى إن اعتبروه مجرد نبى يستعد لملاقاة موت قاس ، وحتى إن لم يكن لهم إحساس مهذب ولا عطف راق يعصمهم من السخرية على آلام شهيد فى اللحظة التى كانت الأوجاع فيها على أشدها ، أليس العدل الاعتيادى والنقد التاريخي العادل يبينان لهم عظم البرود والكذب ـ إن لم يكن أنكر من هذا ـ الذي لجمود الاحساس البائس والذى يمنعهم من أن يروا . لم يكن مجرد خوف من الألم أو مجرد نكوص من الموت هو الذى دفع النفس الطاهرة البريئة التى لابن الانسان إلى الاضطراب ؟

ألا يرى حتى الأطفال الصغار أن هذا الرأي يتعارض مع الشجاعة المنيعة التى لم

تهزها آلام خمس عشرة ساعة متوالية من التعذيب وعدم النوم ، ويتعارض مع الصمت السامى أمام الكاهن والحاكم والملك ، ويتعارض مع الاحتمال الذي لم تقدر كل التعذيبات الشنيعة أن تستخلص منه صرخة واحدة ، ويتعارض مع السمو الهادىء الذى لا حد له والذى أخاف الرومانى الدنيوى المتصلب وأجبره على احترام اضطرارى ، ويتعارض مع العلو الروحي الذى لم ينتقص والذى فتح أبواب الفردوس أمام عامل الشر ونطق بالغفران الرقيق للمعتدين ؛ ألمجرد الخوف من الموت ينسحق ابن الانسان بينما رجال طاعنون أخنتهم السنون وفتيات ضعيفات وأولاد يانعون - مثل بوليكاربوس وبلاندنيا (١) وأتالوس - قد قابلوا الموت بشجاعة وبلا تأوه أو رجفة لمجرد الايمان باسمه ! غريب أن تتجرأ بالشتم ألسنة غير نقية على من أظهر إلى النور الحياة والخلود « فأثار شجاعة الشجعان المستعدين للهجوم الأعزل على السيوف ، وبسالة لأرواح التى تستسيغ الموت والاقدام على الجود بحياة يؤمنون أن بعدها الخلود » .

إن أخسأ الغافلين وأحط المجرمين قد تقدموا للمقصلة دون رعشة أو زفرة وكثيرا من القتلة القساة قد اعتلوا سلم المشنقة بخطوات ثابتة ناظرين إلى الجموع الصاخبة بوجوه لم تهتز فيها جانحة . وإذا اتخذنا أسلوب الخطباء لنقلنا « لا توجد عاطفة فى عقل الرجل مهما وهنت إلا وهى قادرة على مقابلة الموت والتغلب على الخوف منه . فالانتقام ينتصر على الموت ، والحب يستخف به والشرف يوحيه والحزن يرحب به بل الخوف ذاته قد يرتضيه . وقد ينتحر الانسان ولو لم يكن بائسا ولا مجرما بل لمجرد تعبه من الحياة الرتيبة . وليس بالقليل الأهمية أن نلاحظ تفاهة التغيير الذى يحدث للأتقياء عند اقتراب الموت إذ يبقون كما هم حتي اللحظة الأخيرة » . إن الموت كالولادة أمر طبيعي . وإن المسيحي ليس فى احتياج أن يقال له إن الخوف من الموت لم يكن هو الذى استنزف من مخلصه عرق الدم . كلا لم يكن الخوف بل شيء أعظم مما

---

١ - المعرب : تيودورة وبسيلبدس .

لا يقاس من هذا ، شيء لا تصل إليه مداركنا مهما اتسعت ولا مخيلاتنا مهما سبحت . كان شيئا أقتل من الموت . كان سر الاثم وثقل خطية العالم هو الذى جثم بعنف على قلبه . كان مذاق الأله المتأنس ذى الحياة الخالية من الخطية للكأس المر الذى سممته الخطية . كان انحناء الرأس الألهى ليتحمل ضربة جعل لها ارتداد البشر أمض النتائج المخيفة . وكان أيضا الشعور كيف أن قوة الشر قد استفحلت فصارت مريعة فظيعة فى العالم الذي أبدعه الله حتى استلزمت ضرورة هذه الضحية . كان الاحتمال لمن هو بلا خطية لأنكى الشرور التى يمكن أن يقترفها الأنسان . كان اختبار نبع الطهر الكامل والحب الكامل لكل ما هو كريه من الجحود البشرى ، وما هو قتال من الرياء الانسانى ، وما هو قاس من الغضب الآدمى . كان حيازة النصر النهائى على حنق الشيطان وحيله وقد صوب إلى رأسه وحده كل السهام الملتهبة التى للكذب اليهودى والفساد الوثنى والغيظ المركز الذى للأغنياء المتعجرفين والغضب الصاخب الذى للجمهور الأعمى العاتى . كان الشعور أن خاصته التى جاء من أجلها قد أحبت الظلمة أكثر من النور ، وأن أمته المختارة قد أجمعت على رفض جنونى للبر والقداسة والمحبة .

كل هذا مر به فى هذه الساعة فأثار فيه التياعا طاهرا لا تبلغه مداركنا وذاق مقدما مرارة أشد من أشد مرارة للموت . بعد قليل قام منتصرا حقا ولكن تعبا لدرجة الأغماء ومثل يعقوب منهوكا من المصارعة فى الصلاة .

وأتى يتطلب لمسة من التقوية الأنسانية والعطف بين المختارين من المختارين : أى رسله الثلاثة . ولكن يا للأسف وجدهم نياما . كانت ساعة خوف وشدة ، ولكن ليست ساعة خطر محقق ، فلم يحفزهم حبهم ليسوع ولا شعورهم باكتئابه الذى يجل عن الوصف أن يفتحوا عيونهم مستيقظين ، بل تحول حزنهم وتعبهم وانفعالهم إلى نوم عميق . وحتى بطرس بعد ادعاءاته ووعوده المتسرعة كان نائما إذ كانت عيناه ثقيلتين . فكل ما قاله لبطرس [أتنام يا سمعان] وعندما وقعت هذه الجملة الموبخة الحزينة على

آذانهم وأيقظهم من نومهم سألهم [أهكذا لم تقدروا أن تسهروا معى ساعة واحدة ، فاسهروا وصلوا لئلا تدخلوا فى تجربة]. ثم أضاف لاليخجل تراخيهم ولكن ليظهر خطره [أما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف] .

تركهم مرة أخرى وأعاد دفعة ثانية ، ولكن بعمق أكثر ، تلك الصلاة . وفى فترة من سكون عاطفته عاد إلى تلاميذه . ولكنهم كانوا نائمين أيضا ولما أيقظهم لم يجدوا شيئا يقولونه فى حيرتهم واضطرابهم . فحسنا تم ما تنبأ به داود [انتظرت رقة فلم تكن ومعزين فلم أجد] مز ٦٩ : ٢٠ .

وللمرة الثالثة والأخيرة ، ولكن بسلام أعمق وارتياح أبهج ، عاد ليجد التعزية الوحيدة فى الاتصال مع الآب . وقبل انتهاء ساعة كان مستعدا لمجابهة أنحس ما يمكن أن يعمله الشيطان والانسان . كان يعلم كل ما سيقع عليه وربما يكون الآن قد رأى الأنوار المرتعشة إذ كان مطاردوه نازلين من حرم الهيكل . ومع هذا فلم يكن اضطراب فى كلماته الهادئة عندما جاء للمرة الثالثة فوجدهم نياما أيضا ، بل قال لهم [ناموا الآن واستريحوا . ها قد اقتربت الساعة وابن الانسان يسلم إلى أيدى الخطاة] . ناموا رغم كل المساعدة التى تقدرون أن تقدموها والتعزية التى قد تمنحنها عطفكم . ولكن كل شىء قد تغير الآن . لست أنا الذى أريد أن أقطع عليكم نومكم الثقيل . ستفعل هذا قسوة الآخرين وخشونتهم . وبعد قليل ابتدرهم قائلا لهم : [قوموا ننطلق هوذا الذى يسلمنى قد اقترب] (١) .

نعم إنه وقت يتطلب أكثر من الاستيقاظ ولأنه بينما كان الأبرار نائمين كان الأشرار يرسمون الخطط ويتآمرون باستعدادات متطرفة . بينما كانوا يغطون فى النعاس

---

١ ـ لقد تساءل بعضهم لماذا لم يذكر يوحنا شيئا عن هذه الآلام ؟ لا ندرى ! ولكن يحتمل جدا أنه رأى أنه قد ذكرها باقى البشيرين بأقصى تفصيل معلوم عنها . ولكن بالتأكيد سكوته لم ينجم عن فكرة أن الآلام غير جديرة بعظمة المسيح .

من الاضطراب العميق كان الخائن مستيقظا فى خبثه النشيط (١) . قد مضى أكثر من ساعتين مذ خرج يهوذا من تلك العلية المضيئة والصحبة المجيدة المفرحة إلى الظلام. ولكنه شغل هاتين الساعتين تماما ، فذهب إلى رؤساء الكهنة والفريسيين يهيجهم ويضرم فيهم نيران الحماس لأنه كان يوم الاسراع فى تنفيذ مهمته ، ولأنه كان يخاف حقا ممن سوف يسلمه ، وربما أيضا ليزيد فى أهمية عمله حمل علماء اليهود على تزويده بعصبة من خدامهم ومن حرس الهيكل وقوادهم ومن بعض الحامية الرومانية التى ببرج أنطونيا تحت إمرة رئيسهم . كانوا ذاهبين لمهاجمة شخص وحيد ليس عنده وسائل للدفاع ومع ذلك فقد كان الجند مسلحين بالسيوف وكذلك الحشد الصاخب سلح نفسه بالعصي . كانوا ذاهبين للقبض على من لا يحاول هربا ولا اختفاء ، والقمر التمام يسطع على تجريدتهم الشائنة. ومع ذلك لئلا يهرب فى بعض المغاور الجيرية أو يختفي فى ظل أشجار الزيتون الكثيفة فقد حملوا مصابيح ومشاعل فى أيديهم . ومن الجلى أنهم ساروا بأقل جلبة ممكنة وبخفية وحرص ولكن فى سكون الليل الشامل لا يمكن أن يتحرك ركب كبير مثل هذا دون أن يسترعى الأنتباه . وفيما كان يسوع يوقظ تلاميذه النائمين التقطت أذناه عن بعد صليل السيوف ووقع الأقدام المسرعة والجلبة غير المكتومة تماما لحشد يتقدم . وكان يعلم بكل ما سيأتى عليه ويعلم أن البستان الهادىء الذي أحبه والذى كان له فيه أحاديث شهية مع تلاميذه مرارا عديدة كان معروفا جيدا عند الخائن . كان يعلم أن هذه الأصوات العدائية غير العادية واللهب الأحمر للمصابيح والمشاعل التى تنير ، إلى جانب ضوء القمر ، الأماكن التى تتخلل كروم الزيتون ، كانت كافية لتعلن أن يهوذا قد باح بسر مكانه وأنه قد اقترب .

وبينما كان يسوع يتكلم أقبل الخائن (٢) . وإذ بالغ فى لعب دوره تدفعه الجريمة

---

١ - (لأن أبناء هذا الجيل أحكم من أبناء النور فى جيلهم) لو ١٦ : ٨ .

٢ - فى وصف هذه الوقائع قد اعتبرت البشائر الأربع كأنها حديث واحد تمم بعضها بعضا

المنكرة تعجل ولم تكن له الجرأة لينظر ويفكر ، فتقدم واندفع مسرعا إلى داخل السياج وكان يتقدم كل الباقين (١) . فقال له يسوع وهو يدنو منه [يا صاح . الذى جئت من أجله . ..] (٢) ولم يتم الجملة فقد قطعها اضطراب روحه العميق كذلك لم يرد يهوذا جوابا . ولما كان مصرا على اعطاء رفقائه العلامة الشائنة المتفق عليها قائلا لهم [الذى أقبله هو هو فأمسكوه وخذوه فى حيطة] (٣) أسرع للوقت وتقدم إلى يسوع وقال مناديا إياه باللقب البارد العادى [سلام . يا معلم] وطبع على الوجه المقدس قبلة مصنعة نجسة (٤) . فقال له يسوع بتوبيخ حزين رصين [يا يهوذا أبقبلة تسلم ابن الانسان] . وكانت هذه الكلمات كافية لأنها أظهرت حقيقة الرجل لنفسه إذ كشفت له عمله المنكر بكل بساطة وأعلنت خيانته التى لا مثيل لها فى شناعتها وشرها وانتفاء الموجب لها . وحينئذ تسلل ذلك الشق بشعور حتى نفس الشياطين من هوله تعطف عليه ، وهرول إلى باب السياج الذى كان يقتحمه الآن باقي الجموع .

[يا رب . أنضرب بالسيف] ؟ كان هذا سؤال بطرس المتحمس والتلميذ الآخر

وبدون ابداء نظريات مربكة يرى القارىء أنه حديث متوافق بسيط محقق . أما عن ترتيب الحوادث فأرى أن لانج فى هذا الموضع قد قدم أحسنها . أما أن يهوذا قد تسرع فى اعطاء العلامة فيظهر من يو ١٨ : ٤ ـ ٩ . ١ ـ لو ٢٢ : ٤٧ .

٢ ـ مت ٢٦ : ٥٠ لاحظ (يا صاح) لا يا " صاحب " كما هى موجودة فى بعض الترجمات خطأ فما كان يستعمل أبدا أى تعبير حتى فى حوادث الحياة اليومية ما لم يكن تماما بل يوجد شىء من الشدة فى استعماله كلمة (يا صاح) قارن (مت ٢٠ : ١٣ و ٢٢ : ١٢) والحقيقة أن يهوذا كان فى أدق معانى الكلمة رفيقا وكما يلاحظ أمونيوس " ليس الرفيق دائما بالصديق " .

٣ ـ مر ١٤ : ٤٤ .

٤ ـ الكلمة المستعملة فى مت ٢٦ : ٤٩ و مر ١٤ : ٤٥ تدل على " قبلة ضاغطة " قارنها بما ورد فيما سلف يتضح أن الكلمة تعنى قبلة متحمسة . شىء من هذا القبيل يلاحظ فى استعمال يهوذا كلمة (يا معلم) بينما كان باقى الرسل يخاطبونه (يا رب) وكان يهوذا يستعمل دائما هذا اللقب الرسمى البارد (ربنا) .

وهما اللذان كان معهما السيفان لأن الرسل كانوا حتى ذاك الوقت داخل البستـــان فلم يقدروا عدد الذين أتوا للقبض على السيد (١) . ولم يجب يسوع في التو لأنه بمجرد أن دحض الكذب الأجرامى الذى ليهوذا تخطى بنفسه السياج ليجابه مضطهديه . ما هرب وما اجتهد فى اخفاء ذاته بل وقف أمامهم فى كامل ضياء البدر الكامل ، فى عظمته الفريدة ، وحيدا غير مسلح ، فكسف بحضرته الهادئة مشاعلهم وأسلحتهم التى لا موجب لها .

[قال لهم من تطلبون] ؟

لم يكن هذا السؤال دون مقصد . إنما سأله كما يذكر يوحنا البشير كى يعفى تلاميذه ويحفظهم من كل عدوان . ويسوغ لنا أن نتخيل أيضا أنه سأله كى يجعل كل الحاضرين شهودا على القبض عليه ويحول هذا دون الغدر به أو قتله خلسة .

[أجابوا وقالوا له يسوع الناصرى] .

دفعهم حماسهم وخوفهم إلى هذه الأجابة غير المباشرة . مع أنه لو كان هناك أدنى شك فى شخصيته فان يهوذا كان واقفا هناك ـ لاحظته عين البشير وهو يجتهد دون جدوى أن يستتر بين مختلف طبقات الجموع ـ كان هناك كى يضمن عدم وقوع أى خطأ قد ينجم من جراء فشل العلامة التى تعجل ابداءها فنشرت .

[قال لهم يسوع أنا هو] (٢) .

هذه الكلمات الهادئة أثارت نوبة مفاجئة من الخوف والدهش . وهذا الجواب

---

١ ـ هذا ظاهر من المتن . والمكان الذى حدد من أيام الملكة هيلانة على أنه جثسيمانى قد يكون هو أو لا يكون . ولكن من المحقق أنه كان لهذا البستان أو الحقل سياج حوله .

٢ ـ يو ٢٨ : ٥ هذا دليل دقيق على أن الرسول كان شاهد عيان . ولا يمكن تفسير ما كتب إلا على هذا الأساس . ونجد أمثاله كثيرة فى بشارة التلميذ المحبوب . واعطاء كلمتى (أنا هو) أى دلالة سرية (اش ٤٣ : ١٠ و يو ٨ : ٢٨) كما فعل لانج وغيره من المفسرين أمر غير متزن .

الرقيق « كان فيه قوة أعظم من الرياح الشرقية أو صوت الرعد لأن الله كان فى « الصوت الهادى » ، وقد صرعهم أرضا » . والشواهد لا تنقصنا من التاريخ للدلالة على أن الجبين المضطرب والنظرة الثابتة والوقفة الهادئة لرجل أعزل قد شل حركة أعدائه وجرد سلاحهم . ان الغال المتوحشين الغلاظ القلوب لم يستطيعوا أن يرفعوا سيوفهم ليضربوا سفراء روما العظماء . وعندما أوشك أحد العبيد البربر أن يقتل ماريوس فى سجنه فزع وصرخ « لا أقدر أن أقتله » ورمى سلاحه أرضا وجرى مهرولا من أمام ذلك الشجاع المسن السجين (١) . فهل هناك إذن أى أساس للنقد الشنيع الذى يجرح شهادة يوحنا البسيطة العجيبة إذ قال إنه عند سماع الجموع لكلمات يسوع [أنا هو] قد تمشت بينهم رعدة خوف سارية ، وإذ هم يدبرون على غير هدى وقعوا على الأرض . وهذا بالتأكيد شىء طبيعى جدا . ويجب أن نذكر أن يهوذا كان بينهم ، ولا ريب أن نفسه كانت فى اضطراب مريع ، وأن الشرقيين عرضة للعواطف الفجائية ، وأن الخوف عاطفة (٢) انفعال حساس للغاية ، وأن أكثر الواقفين كانوا قد سمعوا عن معجزات يسوع العظيمة . وأن جميعهم على أي حال كانوا على علم أنه يقول إنه نبي ، وأن الكيفية التى قابل بها يسوع هذه التجريدة الكبيرة التي ادعى يهوذا

---

١ - (فيل باتري) . ذكر مفسرون آخرون حوادث ماركوس انطونيوس و بروبوس برتيناكس و تيليجنى و الأميرال كاليجنى و الأسقف ستانسيلاوس الخ ولم يصل إلى علمي أن واحدا منهم ذكر حادثة أفيديوس كاسيوس الذي خرج إلى باب خيمته بثياب النوم فهدأ بمجرد حضوره جيشا ثائرا . وجاء فى التلمود أن سبعين من أشجع المصريين وقعوا أرضا وهم يهمون بتقييد شمعون أخي يوسف . ويقول جرمي تيلور بجمال "كانت عليه هالة من السمو الالهي فلم يستطيعوا أن يمسكوه أولا ولكن مثل موجة تناطح صخرة عالية فترتد على أعقابها وتتناثر إلى أجزاء ثم بعد ذلك تتصاعد زاحفة فتقبل قدمى الصخرة وتحيط بها كذلك هجم العسكر بخشونة أولا فارتدوا مرتين من مجد عظمته وإذ وقعوا عند قدميه سمح لهم بعد ذلك أن يقبضوا على جسده .

٢ - انفعال عصبي سيمبتاوى .

مدفوعا بمخاوفه أنها ضرورية للقبض عليه فأوحى إليهم أنه قد يستعمل ضدهم قوات خارقة وأنهم كانوا يرتكبون جريمة شنيعة فى منتصف الليل تشل أغلظ العقول . فان تذكرنا هذا كله وتذكرنا أيضا أن مجرد وجود يسوع وكلمة منه كافيان لتهدئة غضب الجموع الثائرة وضمنت سلامته فى وسطهم (١) فان الأمر لا يحتاج إلى الالتجاء لمعجزة لتفسر لنا أن هؤلاء الأفاكين ومرشدهم الخائن قد تراجعوا من وقع كلمتى [أنا هو] كما لو أن برقا خاطفا قد فاجأهم والتمع فى وجوههم .

ولما عادوا ووقفوا سألهم مرة ثانية [من تطلبــــون] ؟ وأجابوا أيضا [يسوع الناصرى] . [أجاب يسوع قد قلت لكم إنى أنا هو . فان كنتم تطلبوننى فدعوا هؤلاء ليذهبوا] ، لأنه قال فى صلاته [إن الذين أعطيتنى لم أهلك منهم أحدا] .

كانت هذه الكلمات إيذانا للرسل أنه لم يعد فى مقدورهم تقديم أى خدمة له وأن لهم أن يتبصروا فى أمر سلامتهم لو أرادوا . ولكنهم عندما رأوا أنه قصد ألا يبدى مقاومة وأنه كان على وشك تسليم ذاته لأعدائه نبض بعض النبل أو الحماس فى روح بطرس الوثابة . ومع أنه لم يكن أمل فى المقاومة ولا منفعة من ورائها فقد استل سيفه وبضربة ضعيفة غير موفقة قطع أذن رجل يسمى ملخس كان عبدا لرئيس الكهنة . فى الحال أوقف يسوع هذا التلاحم الخطر الذى فى غير موضعه وقال لبطرس (٢) [رد السيف إلى مكانه لأن كل الذين يأخذون بالسيف بالسيف يهلكون] . وحينئذ وبخ تلميذه المتسرع بحزن سائلا إياه إن كان لا يعتقد حقا أنه يمكنه لو أراد أن يضمن السلامة لولا أنه يريد اختياريا أن يتم فيه المكتوب بأنه سيشرب الكأس التى أعطاها

---

١ - لو ٤ : ٣٠ و يو ٧ : ٣٠ و ٨ : ٥٩ و ١٠ : ٣٩ و مر ١١ : ١٨ .

٢ - يوحنا الحبيب وحده يذكر اسمى بطرس وملخس وهذا نتج من أنه كان ألصق من باقى البشيرين فى حضور هذه الحوادث التى تهز القلوب . ولنلاحظ أن اسم بطرس لم يذكر فى البشائر الأولى . وربما لم يدرج اسمه عن قصد للخوف عليه من اليهود .

له الآب . لو أراد أن يضمن السلامة ليس بمساعدة الأثنى عشر رسولا الضعفاء ولكن بمساعدة أزيد من عشرة جيوش من الملائكة (١) . وحينئذ استدار للعسكر الذين يقبضون عليه وقال [كفي إلى هنا] (٢) وبعمل رحمة معجزية لمس الأذن فشفاها .

يبدو أنه فى هذا الليل المضطرب قد مرت هذه الآية بدون أن ينتبه لها إلا القليلون . وعلى أى حال لم يكن لها أى تأثير على هؤلاء الرجال الغلاظ الذين قد زال خوفهم الآن تماما وحل بدله جرأة وقحة . لقد سلم السيد ذاته بأرادته وأصبح أسيرهم الذى لا حول له ولا طول . ولم يقصف رعد ، ولم ينحدر ملاك من السماء ليخلصه ولم تبتلعهم نار ، ولم يروا أمامهم سوى رجل أعزل تعوب قد خانه أحد أتباعه المقربين جدا ، وراقب القبض عليه بألم غير مجد قليل من الجليليين المرتعبين . وبعد أن أمسكوه بحرص تجرأ للحال بعض رؤساء الكهنة والشيوخ وقواد جند الهيكل أن يظهروا من مكامنهم التى راقبوا منها سالمين كيفية القبض عليه وتجمعوا حوله باستطلاع مخزى. فلهؤلاء خاصة قال [كأنما إلى لص خرجتم بسيوف وعصي وقد كنت معكم فى الهيكل كل يوم ولم تمدوا على أيديكم . لكن هذه هى ساعتكم وسلطـــــان الظلمة] . وهاته الكلمات القاتلة أطفأت آخر بصيص من الأمل فى عقول أتباعه . [حينئذ تركه التلاميذ كلهم ...] حتى بطرس الناري وحتى يوحنا المحب [... وهربوا] (٣) . ولكن شابا مجهولا ، ربما مالك جثسيمانى ، وربما مرقس الرسول ، وربما ليعازر شقيق مرثا ومريم ، قد تجرأ في هذه اللحظة الرهيبة أن يتريث ويسير جانبا فى ذيل الجمع المعادى السائر .

---

١ - الفرقة فى زمان الامبراطورية كانت مكونة من ٦٠٠٠ رجل .

٢ - بمعنى " اتركونى لحظة لأشفى هذا الرجل المجروح " كما يفسرها الفورد أو بمعنى " سامحوا عمل المقاومة الوحيد هذا " .

٣ - مت ٢٦ : ٥٦ قال برونتج معاتبا " تركتم يسوع الذى رأيتموه متجليا ، من مشى على البحر وأقام الميت . كان كل ما فى الأمر مشاعل واضطراب ووجوه رومانية وأيد غليظة والخوف مما يفعل اليهود . هذا هو الامتحان وقد أصابكم فيه الفشل . هذا ما كان فقط ... " تركتم وهربتم " .

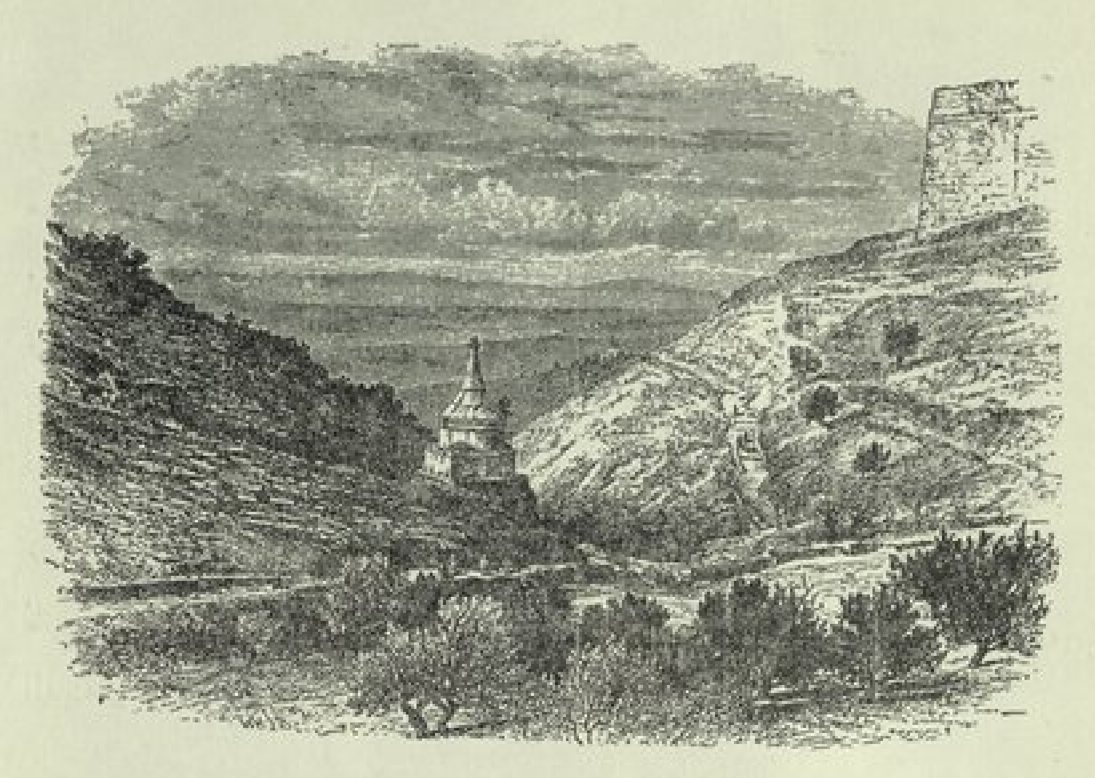
ويبدو أنه قد أوقظ من النوم لأنه لم يكن مؤتزرا بشيء سوى « السنيدون » أى ملاءة من الكتان ملتفا بها على عريه وهو نائما . ولكن مبعوثى اليهود ساءهم هذا ، ربما لمجرد رعونة الجماهير لرؤية شخص فى غير الملابس المحترمة ، أو ربما لأنه ساءهم تدخله عن قريب ، فأمسكوا الأزار الذى كان ملتفا به وللوقت فاجأه خوف مرعب هو أيضا فجرى عريانا تاركا الأزار فى أيديهم (١) .

صار يسوع الآن وحيدا فى قبضة أعدائه وعند أمر القائد ربطت يداه خلف ظهره (٢) . وأحاط به الجند الرومان من كل ناحية وسار وراءهم خدم اليهود . ومرة ثانية فى هذا الليل البهيم قادوه عبر وادى قدرون واعتلوا الطريق المتصعد المؤدى إلى المدينة وأخذوه إلى بيت رئيس الكهنة .

---

١ ـ ذكر هذه الحادثة مر (١٤ : ٥١) وحده . الظن أنه لعازر نجم عن مكان الحادث واحتمال الحال وأن الأزار (السيندون) لباس لا يحوزه إلا الأغنياء . (راجع البروفسور بلمتور) . أما ظن إيولد أنه بولس الرسول (!) فيظهر لى أنه غريب جدا والكلمة " عريه " كثيرا ما تعنى فى اللغة الأصلية " لا شىء عليه سوى الثياب الداخلية " (١ صم ١٩ : ٢٤ و لو ٢١ : ٧) ولكن غالبا فى هذا المكان لها المعنى الحرفى أى العرى التام .

٢ ـ يو ١٨ : ١٢ .



الطريق الصاعد من قدرون

الفصل الثامن والخمسون

يسوع أمام الكهنة والسنهدرين

"كن متأنيا فى الحكم"
بيرك أبهوت

قد كتب النقاد بتأكيدات متفاوتة عن وجود « اختلافات » عديدة واردة فى الحديث « ذى الأربع اخباريات » الخاص بمحاكمة المسيح والحكم

عليه وموته وقيامته ، إلا أن هذه ليست مما يدخل أى انزعاج للباحث المسيحى ، ولا يجب أن تثير أقل ارتياب عند أى انسان يدرس البشائر . وكان خليقا بالنقاد أن يقبلوا عليها كأنها تواريخ صادقة وأمينة وان تكن كل منها على انفراد غير مكتملة التفصيل . ولكن بعد درس متكرر أصرح بلا تردد أنه ولو أن الاختلافات البسيطة متعددة ، وأن التفصيلات الصغيرة ليست بالغة منتهى التوافق ، وأن كل بشارة على حدتها لن تعطينا بيانا شافيا ، غير أنه يمكن التحقق من عدم وجود أية مشكلات لا تحل في هذا الجزء من التاريخ الأنجيلي وأن أحد البشيرين يتم التفاصيل التى ذكرها الباقون ، وأنه من الممكن جدا فهم ترتيب الحوادث بأن نجمع إلى واحد كل الوقائع التى تذكرها البشائر الأربع ، وأنه لا يمكننا دائما أن نكون متأكدين تماما أن ترتيب الحوادث هو بالضرورة كما نتخيله . والقارىء المدقق للبشائر يصل بها إلى اعتقاد هو التحقق الكامل . وحتى إذا نظر النقاد إلى البشائر مثل أى سجل تاريخي قيم قرر فيه المؤلفون كل ما يعرفونه أو شعرت نفوسهم بضرورة تسجيله عن الحوادث المتتابعة المتزاحمة المتراكمة فى ليل ويوم شنيعين مليئين بالأضطرابات ، فأنهم بقليل من التعب والدرس يرون كيف أن كل ما جاء بها يقع على وجه التحقيق والتدقيق في مكانه المخصص من التاريخ العام للحوادث ويرينا نحن محاكمة سداسية واستهزاء رباعيا وبراءة ثلاثية وإدانة ثنائية للمسيح يسوع ربنا .

وإذ نقرأ البشائر جنبا إلى جنب نرى في الحال أن المحاكمات الثلاث المتتالية التى كانت أمام اليهود كانت أولها أمام حنان ولم يذكرها إلا يوحنا وحده ، وثانيها (١) كانت أمام قيافا وقد ذكرها متى ومرقس ، وثالثها أمام السنهدرين ، وقد ذكرها

---

١ ـ ومع هذا فان يوحنا يلمح بوضوح للمحاكمة الثانية (١٨ : ٢٤) ومتى ومرقس يلمحان إلى الثالثة (مت ٢٧ :١ و مر ١٥ : ١) . ومع أن لوقا لم يذكر سوى المحاكمة الثالثة وهى القانونية وحدها فانه يشير أيضا إلى الأولى والثانية (٢٢ : ٥٤) .

لوقا فقط . وليس في هذا عجب لأن الأولى كانت الفعليـة ، والثانية الأسميـة ، والثالثة الرسمية الحقيقية ، حتى يصير حكم الموت عليه معترفا به قضائيا . وكل واحدة من جهة قد اعتبرت أنها الأشد فتكا والأهم شأنا في الثلاثة . فالأولى التي أمام حنـان مثلت السلطة التحضيرية ، والتي أمام قيافا مثلت المحكمة الفعلية ، والتي أمام السنهدرين عند شق الفجر كانت المصادقة النهائية (١) .

عندما أمر القائد الذي يرأس فرقة جند الرومان أن يوثقوا يسوع ساروا به من غير أن يبدى أية مقاومة .

كان الليل إذ ذاك قد انتصف فأسرعوا به من ظلال جثسيماني التي ينيرها القمر إلى شوارع المدينة الساكنة ثم إلى دار رئيس الكهنة (٢) التي يبدو أنه كان يقطنها المحركان الأولان لهذه المظلمة السوداء ، حنان وزوج ابنة يوسف قيافا . قادوه أمام حنان أولا . حقيقة إن هذا الحنان بن سيث (الذى أسماه يوسيفوس أنانوس وأسماه البشيرون أناس) كان رئيس الكهنة لمدة سبع سنين (٧ - ١٤ م) ، وأنه قبل الوقت الذى نحن بصدده بأزيد من عشرين سنة قد خلعه الحاكم فاليريوس جراتوس، وخلفه أولا اسماعيل بن فابى ثم ابنه اليعازر ثم صهره يوسف قيافا . ولكن العائلات الكهنونية ما كانت تقيم أهمية - إلا ما ترتضيها - للأوامر التي يعتبرها المتمسك بالناموس تماما انها تعد باطلة . وإن تنقص شعب اليهود الماكر حيل تساعدهم على إبطال الأمر الروماني ومعاملة حنان كلما أرادوا كرئيس كهنتهم الفعلي ولو لم يكن الرسمي . فمنذ أيام هيرودس

---

١ - يمكن اعتبار المحاكمة الأولى أمام حنان كأنها مؤامرة ، والثانية أمام قيـافا كأن بها نوعا من " أخذ الأقوال " ، والمحاكمة أمام السنهدرين أنها القانونية وحدها .

٢ - (دار) مت ٢٦ : ٥٨ قد تعنى السراى كلها مع الفراغ الذى فى حرمها . والغالب أن الدار كانت قريبة من الهيكل (نح ١٣ : ٤) ، وأن حنان وقيافا سكناها سويا ويظهر هذا من مقارنة يو ١٨ : ١٣ و ١٥ . إذ زي يوحنا المعروف لدى قيافا يسمح له بالدخول فيشاهد المحاكمة التى أمام حنان .

الكبير انحطت رئاسة الكهنوت من وظيفة دينية دائمة إلى شرف عرضي متنقل. ولم يهتم العسكر القساة أي اهتمام مطلقا بأي شخص كانوا يقودون إليه فريستهم. وحتى إذا تنازل القائد وسأل عن هذا فما أسهل أن يجيبه رئيس جند الهيكل - الذي غالبا ما كان فى هذا الوقت كما كان بعده واحدا من أولاد حنان ذاته - أن يقدمه للقائد على انه « حكيم » أو « ناصح » أو « نائب » (١) مجلس السنهدرين أي الشخص

١ - يقال إن اللقب "حكيم هالوهانيم" أي نائب أو "رئيس" الكهنة استعمل من أيام أن أهمل السلوسيديون لمدى سبع سنوات تعيين خلف للشرير الكيموس وصار "نائبا" يحل مكانه . ولكن يظهر أن ظروفا جعلت هذا الحكيم ضروريا . وترى الكاهن الثانى هذا مذكورا فى ٢ مل ٢٥ : ١٨ و ار ٥٢ : ٢٤ (بكستروف) . فمثلا فى ليلة عيد الكفارة كان يتحدث الحارث ملك العرب مع شمعون بن كميث الذى كان رئيس الكهنة ، وإذ أصاب ملابسه رذاذ من لعاب الملك أصبح نجسا قانونيا لا يستطيع الخدمة فى اليوم التالى فقام أخوه نائبا عنه ولكن يبدو أن لقب "حكيم" دخل بعد ذلك الزمان . ولم يكن سوى رئيس الكهنة الحقيقى يستطيع فى الظروف العادية أن يكون "ناصحا" . إن اللقب "ناصح" محوطه الخفاء ، وربما كان يعادل اللقب "رئيس شعب الله" . ويقول إيوالد ربما كان حنان "أبو بيت الدين" كما كان يدعى الثانى فى السنهدرين . على أي حال من الواضح تماما أنه فضلا عن كونه رئيس كهنة فانه يفضله فى المركز (قارن اع ٦ : ٦) . وكانت رئاسة الكهنوت فى ذلك الوقت وقفا على ست أسرات مترابطة بالنسب سيما البوئيوزيين وأسرة حنان والكمهدتيين والكانيثراس . ومنذ زمن هيرودس أصبح رؤساء الكهنة مجرد ألاعيب فى يد السلطة الرومانية حتى كان منهم ٢٨ فى ١٠٧ سنة . والتلمود ويوسيفوس يشهدان بصحة ما تعزوه البشائر من القوة للطائفة لا للفرد . وحتى فى تلك الأزمنة الرديئة كان هذا المركز يتطلب كرامة ظاهرية وانكار ذات حقيقى لا يستطيع سوى قليل من الناس أن يقوم به . وكان مطمع كل أسرة أن يجلس أكبر عدد منها على هذا الكرسي (هذا ما استخلصه ديرمترج من يوسيفوس ومن الخطاب الذى أرسله يوناثان بن حنان إلى أغريبا) . ولقد اشترت مارثا بنت بوئيوس رئاسة الكهنوت لزوجها يشوع بن جمالا وفرشت الطرق بالسجاجيد من بيتها إلى الهيكل عندما أرادت أن تشاهده وهو يقدم الذبيحة . وهذا الرجل قد صنع لنفسه قفازا من الحرير ليلبسه حتى لا تتسخ يداه وهو يخدم !

الأحق بتولى المسألة مبدئيا .

المحاكمة الأولى

كان أمام حنان أولا (١) أن وقف يسوع كسجين أمام القضاء . والغالب أن حنان هذا هو الذى استدعاه وأسرته هيرودس الكبير من الاسكندرية كى يكونوا عونا له فى ظلمه البغيض . ويقول يوسيفوس المؤرخ اليهودى إن حنان كان أسعد مخلوق فى زمانه لأنه مات بعد شيبة طويلة وتمتع هو وخمسة بنين له - إن لم نذكر صهره أيضا - بظلال رئاسة الكهنوت (٢) واذن فقد كان لنصف قرن هو المسيطر عمليا على سلطة الكهنوت . ولكن هذا التاريخ المارق من مثل يوسيفوس ليس بالشىء الذى يذكر فيشكر . فنحن نعلم أنه رغما عن غناه قد ترك وراءه اسما رديئا . ونحن نعرف من أخلاقه ما يكفى لأن لا نرى فيه سوى صدوقي متعصب ، ظالم ، غير وقور ، مع انه بلغ السبعين من العمر مملوء من الغش الملتوي والضعة والقسوة التى تخالف بتاتا معنى اسمه (٣) . وفى هذه اللحظة كان يغوص في مؤامرة ظالمة شائنة يستخزى منها حياء أخسأ الرجال . فأمام هذا الرئيس الرائف المتآمر ، وفى منتصف الليل ، بدأت المرحلة الأولى من تلك المحاكمة الطويلة الشنيعة .

وكان عن قصد أن أبقى لنا يوحنا البشير ذكر هذه النقطة من المحاكمة التي تركها

---

١ - يو ١٨ : ١٣ و ١٩ - ٢٤ .

٢ - اليعازر سنة ١٦ م . - يوناثان سنة ٣٦م . - تيوفيلوس سنة ٣٧ م . - ماتياس سنة ٤٢-٤٣ م . حنان الصغير سنة ٦٣ م . راجع ما كتبه التلمود عن حنان وأسرته فى لاتيفوت . قد اشتهروا بالمكر (يوسيوس) وأيضا بالطمع والضعة (ديوثيرون) . ولقد جاء فى (البسخائم) ضد هذه الأسر ما يأتى : الويل لبيت حنان ! الويل لفحيح الأفاعى ! وويح البوثيوزيين لمغامراتهم والكانتراس لعارهم والفابيين " لقبضات أيديهم " وهذا الاقتباس غير واضح المعنى تماما وان كان التلمود يذخر بما يشير إلى عدم استحقاق ومادية الكهنة فى هذه الأزمنة (رينان) .

٣ - معناه " الرحوم " أو " الرؤوف " .

باقى البشرين ، إذ لا بد من مضى سنين حتى يقدر الناس أن يتعرفوا جليا على المحرك الأولى للحوادث التى عاصروها . لأنه غالبا ما يعتبر العامل الأكثر ظهورا أنه المسئول عن الحوادث بينما يكون هو فى الحقيقة حلقة بسيطة في الدائرة الرسمية . فان كان هناك رجل أكثر جرما من غيره فى موت يسوع فذلك الرجل هو حنان . فتقدمه فى العمر وعظمته فى المقام وممتلكاته الدنيوية وتأثيره كرجل له أحسن الصلات مع هيرودس والحكام جعل لحكمه أهمية لا نظير لها . كان مجرد تقديم يسوع أمامه معناه أنه قد عزا إلى تعاليمه صبغة سياسية وانه قد خاف أخيرا من أن يسوع سوف يبعد الناس عن دائرة الطغمة الكهنونية ودسائسها مما لم يستطعه شماى أو ابتاليون . ومن المهم أن نلاحظ - وعلى ما اتصل إليه علمي أنه لم يكتب عن هذا أحد من قبل - انه وان كان الفريسيون قد دفعهم لمقاومة يسوع حقد نارى ، وأن تحمسهم لاماتته كان متملكا عليهم حتى انهم ارتضوا أن يتحدوا فى العمل مع شيعـــة الصدوقيين الكهنوتية الأرستوقراطية التى تخالفهم جد الاختلاف فى الأمور السياسية والاجتماعية والدينية ، فأنه بمجرد أن تمت خطة القبض عليه وإدانته لم يلعبوا سوى دور بسيط للغاية بعد ذلك حتى أن اسمهم لم يذكر ولا مرة واحدة جليا فى أي أمر يمس عمليا القبض أو المحاكمة أو الحكم أو الصلب . اختفى الفريسيون كجماعة من الميدان وحل مكانهم رؤساء الكهنة والشيوخ . بل إنه مما يشك فيه جدا أن أحد الفريسيين العظام كان عضوا في ذلك المجمع الفاسد الذى اغتصب فى تلك الأزمنة بصفاقة لقب السنهدرين، والذى يستنتج من بعض إشارات غير قليلة وردت في التلمود أنه قد أصبح عبارة عن عصبة محصورة ، لا دينية ، غير وطنية ، من كهنة محتكرين خادمين للزمنيات ، من عائلات البوثيوزيين والكامهيت والفابيين وحنان ، وأغلبها دخيلة الأصل وليست من فلسطين ، تناصرهم الحكومة ويكرههم الشعب . وكان هذا المتآمر الشرير محور السنهدرين وحياته .

وربما نجد سببا آخر للانسحاب الظاهرى للفريسيين من كل تضامن فعلى فى

الخطوات التي قارنت الحكم على يسوع وتنفيذه ، ليس فقط لما يعزى إليهم من اللين ولا لعدم أهميتهم النسبية في الأمور المدنية ، ولكن لعدم محبتهم مطلقا لأولئك الذين قد أسلموا ابن الله لجهودهم القاتلة . ويظهر حقا أن هناك ظرفا غير ملحوظ أشعل حنق الصدوقيين إلى ما ليس بعده مزيد وفي الوقت ذاته استدر شفقة مناظريهم الفريسيين. ما الذى أبدل عدم المبالاة المخزية لهذه الشيعة الأرستقراطية القوية ؟ أنهم القوامون على المبادىء والمتمسكون بآراء ليس لها أي سلطان على الناس حتى أن يسوع لم يوجه لهم معشار ما وجه من التوبيخات القاسية التى أنزلها على الفريسيين. ثم هم الذين لم يلعبوا إلا دورا بسيطا ثانويا فى المعارضة التي أحاطت كل خطوات المسيح من قبل . بل إنهم كانوا أحيانا معه تماما وهو يرفض ويفضح المهاترات الشرعية الحيلية التى للناموس الشفوى ،بل كان يظن انهم يسرون به. وإذ يجدون فيه مناصرا مقدسا قويا لا يقهر لكل « الهنجادوت » و « والهلاكوت » التى توالدت وازدهرت في نمو طفيلي حتى خنقت كل جسم الترتيبات الموسوية . فمن أين الآن هذا الانفجار المفاجيء لمعارضة هوجاء قاتلة أشد من القتل ؟ انها ملاحظة لم ينتبه إليها أحد من قبل ولكن بعض اشارات فى التلمود جعلتنى أعتقد تماما أن غضب هؤلاء الكهنة كان نتيجة كلام وأعمال السيد بخصوص بيت الله الذى اعتبروه كمعقلهم ومكان سلطانهم الخاص سيما تطهيره الثانى العانى له . بالتأكيد لم يستطيعوا أن يحشروا هذا السبب فى اتهاماتهم لأنه عمل قد أقره الفريسيون على الأقل باطنيا من كل قلوبهم . ولو أنهم قدموا هذا الاتهام ضده لفقدوا كل فرصة فى التأثير على بيلاطس بالظهور أمامه بأنهم متحدون سويا ضد يسوع . قد يجوز أن يمر التطهير الأول على اعتبار أنه عمل شخصى أملته الغيرة ، لا أهمية له ، لأن تعاليم يسوع كانت فى ذلك الوقت قاصرة على بعض الجليليين المحتقرين البعيدين . ولكن التطهير الثانى كان علانية وأشد تحقيرا لهم . ويظهر أنه أشعل غضبا عاما ضد سوء استعمال الهيكل استدعى هذا التطهير . ونرى بوضوح فى البشائر

الثلاث أن الذين اشتكوا من عمله هذا لم يكونوا من الفريسيين بل رؤساء الكهنة والكتبة (مت ٢١ : ١٥ و مر ١١ : ١٨ و لو ١٩ : ٤٧). الذين وجدوا فى عمله هذا حافزا جديدا يطلبون من أجله إهلاكه .

ولكن قد يسأل أحد ألا يوجد عنصر آخر فى عمله هذا غير كسر سلطانهم الجسور وتوبيخ الترتيبات التى يقرونها، سبب آخر أثار غضب هذه الأسر الكهنوتية ؟ نعم لأننا نستنتج من التلمود أن عمله سيؤول إلى التعرض لطمعهم والتدخل فى كسبهم الجشع غير المشروع الطمع الذى هو خطيئة يهوذا الرابضة وخطيئة الأمة اليهودية الرابضة كان أيضا الخطيئة الرابضة في أسرة حنان . ثم الذين أوجدوا « الشانوجوت » أى الأربعة حوانيت الشهيرة تحت شجرتى البلوط اللتين على جبل الزيتون تباع فيها كل الأشياء الطاهرة ناموسيا والتى جرى البيع فيها بدهاء تجارى حتى ارتفع فيها سعر الحمامة الواحدة إلى قطعة ذهبية حتى رفع هذا المقت الذريع غضب رفيع لواحد من أحفاد هلليل . وهناك براهين تحقق أن هذه الحوانيت التى زحفت إلى أن وصلت إلى ما تحت مظلات الهيكل نفسه لم يصرحوا بها بسلطانهم فقط ولكنها كانت تدار لمنفعتهم وكسبهم أيضا والتدخل فى هذا معناه حرمانهم من مورد وسيع للغنى السريع والمتع الدنيوية التى كانوا يعلقون عليها أهمية كبرى . وعليه كان يوجد سبب جوهري لحنان رئيس « أولاد الأفاعى » ، كما دعاهم أحد كتاب التلمود ، أن يشد أقصى وتر عنده من وحشية وقسوة كى يسحق نبيا كانت أعماله تؤدى به وبأسرته القوية إلى الاحتقار والفقر النسبي معا .

بهذه المشاعر المريرة من الازدراء والكراهية اغتصب رئيس الكهنة السابق حق سؤال يسوع أولا . وإذ لم يكن قادرا على اظهارها بل كان مضطرا أن يخفيها تماما عن العيون فقد كان من جراء كبتها أن اشتد أوارها وزادت مرارتها . وكما كانت ذات المحاكمة غير قانونية كانت طريقتها ، وفى مثل هذا المكان ، وفى مثل تلك الساعة،

غير قانونية ولا تتفق أبدا مع أى اجراء شرعي مهما كان . كان تواقا أن يستخلص بأية وسيلة من يسوع تهمة عن إثارة فتنة سرا أو عن تعليم غير قويم فسأله عن تلاميذه وعن تعليمه . وكانت الأجابة مع كل هدوءها تنطوى على توبيخ عميق [أنا كلمت العالم علانية وكنت أعلم كل حين فى المجامع وفى الهيكل حيث يجتمع كل اليهود ولم أقل شيئا فى الخفاء . لماذا تسألنى سل الذين سمعوا ما قلت لهم هوذا هؤلاء ..] وربما أشار للواقفين [... يعلمون ما قلته أنا] . وتكرار ضمير المتكلم أنا ووضعه الظاهر غير المعتاد فى آخر الجملة يظهر أن المقارنة كانت مقصودة ، وكأنه يقول « انتصاف الليل ، واثارة الفتنة ، والخفاء ، وهذه السخرية غير المهذبة بالعدالة ، هى لكم وليست لى أنا » . لم يكن شىء مستور فى تعليمى ولا شيء مخفي في أعمالى . ولم تكن هناك مؤامرات فى المخابىء بين تلاميذى ، ولكن أنتم ! والذين لكم ! شعر حتى خدم حنان بسوء مركز سيدهم عند هذا التوبيخ الهادىء ، وأن البراءة النقية لهذا الربى الشاب الذى من الناصرة قد أخجلت الرياء الأشيب لهذا الصدوقي ، فانفجر أحدهم فى قحة لا يبررها قانون وقال له [أهكذا تجاوب رئيس الكهنة] ؟ وإذ لم يوبخ من رئيس الكهنة المعتدى على العدالة انتهك حرمة وجه المسيح المقدس باللطمة الأولى ، ذلك الوجه الذى قال عنه الواعظ الشاعر : « إن الملائكة تنظر إليه باندهاش كالأطفال إلى شعاع النور » . قد ضرب من عبد مهان وقد احتملت هذه الاهانة بوداعة نبيلة . ان بولس الرسول عندما أهين بالمثل التهب بغضب مفاجىء ضد هذه القسوة غير القانونية ووبخ الدهماء ومن دفعهم بقوله « سيضربك الله أيها الحائط المبيض (١) » ولكن ابن الله الذى هو أعلى

---

١ ـ اع ٢٣ : ٣ . من الغريب أن التلمود قد اشتكى من هذه الأسرات الكهنوتية (بيساخ ومنا كوت) انهم لاحتكارهم كل الوظائف جعلوا أولادهم خزنة وقواد الجند للهيكل الخ الخ " ولأن خدامهم كانوا يضربون الجمع بالعصى " عندما كتب يوسيفوس عن حنان بن حنان " انه محب للحرية وعاشق للديموقراطية " كانت ملاحظة عرضية غير دقيقة غير أمينة فهذا العدل وهذه الفضيلة لا تتفقان مع ما كتبه هو بنفسه عنه (راجع يوسيفوس ٩٢٠) .

من كل الرسل والملائكة بما لا يقاس ، بدون أى شعلة من الغضب ، وبدون حدة زائدة للكرامة الذاتية ، وبخ المعتدى الوقح بهذه الكلمات [إن كنت تكلمت رديئا فاشهد بالردىء وان حسنا فلماذا تضربنى] ؟

ثم وضح لحنان أنه لا شيء يحمل يسوع على الكلام وانه أمام هذا القاضى لن يجيب على أى سؤال . ومع أنه لم يسمع منـــــه ولم يدنه فقد أرسله موثقا - عربون إدانته - مخترقا فناء السراى إلى صهره يوسف قيافا الذي لا بنعمة الله ولكن بأمر الحاكم الرومانى كان رئيس الكهنة الرسمى .

المحاكمة الثــــانية

كان قيافا مثل حميه صدوقيا ، ومثله متعصبا مرن الأخلاق ، ولكنه كان أقل منه في قوة الارادة . وفى منزله تمت المرحلة الثانية من المحاكمة الخاصة غير القانونية (١) . ومع أن الرسل المساكين لم يقدروا أن يسهروا ساعة واحدة فى صلوات قلبيــــة فقد سهر هؤلاء المتآمرون الأشرار طول الليل في كرههم المميت حيث اجتمع قليل من أشد أعداء يسوع من الكهنة والكتبة . ولكي تعقد لجنة من لجان السنهدرين يجب أن يجتمع ثلاثة وعشرون عضوا على الأقل . وقد نخال أن هؤلاء الذين اجتمعوا وكان يسوع يحاكم الآن أمامهم كان أغلبهم كهنة . كانت هناك ثلاثة « سنهدرينات » أو على الأصح ثلاث لجان مختلفة للسنهدرين تجتمع فى العادة فى أماكن مختلفة فى « ليشكات هجازيت » أو الايوان ذى البلاط وفى « بيت مدراش » أو الايوان المجاور لحجاب الهيكل والايوان القريب من باب جبل الهيكل . وإن كان هذا هو الأمر الواقع فليس بعيدا أن نظن أن هذه اللجان المختلفة كانت تضم عناصر مختلفة وان احداها كانت غالبيتها كهنوتية . وإن كان هذا الظن صحيحا فان هذه اللجنة على الأرجح

---

١ - مت ٢٦ : ٥٩ - ٦٨ و مر ١٤ : ٥٥ - ٦٥ غير قانونية لأن المحاكمات الشرعية يجب أن تكون فى النهار (سنهدرين ٤ : ١) .

هي التي عهد إليها في هذه الأزمة الحاضرة اصدار أشد الأحكام خطرا على شخص كانت تعاليمه ستؤدى إلى خطر على الحكم الكهنوتي ذاته (١) وعلى بقائه .

ولكن مهما كانت طبيعة المجلس الذى برأسه قيافا الآن ، فمن الجلى أن الكهنة قد اضطروا إلى تغيير خطتهم فبدلا مما فعله حنان مجتهدا أن يخيفه ويصطاده فى شباك من الأسئلة الملتوية التى قد تجر إلى اتهامه بثورة مستترة اجتهدوا هم أن يصموه بجناية الخطأ العام . ولقد جعلت انقساماتهم المريرة واختلافاتهم الشديدة وإلصاق التهمة به مهمة اتهامه مأمورية صعبة . فان أقاموا ضده بهتانا أنه يقاوم السلطات المدنية فهذا يستدر عطف الفريسيين عليه واحتمال انحيازهم إلى صفه . وإن زعموا أنه كسر السبت زورا أو أنه أهمل مراعاة التقاليد فهذا يوافق آراء الصدوقيين . ولم يجرأ الصدوقيون على أن يشتكوا عليه لأنه طهر الهيكل . ووجد الفريسيون انه عبثا أن يشتكوا عليه برفض تقاليدهم ولكن يسوع أنبل مما لا يقاس من أنبل رسله فلم يذكر تلك العداوات الكامنة أو يوقظ الفتن الخابية ليتخلص من هاتين الشيعتين بل لم يمس المهادنة المؤقتة التي تحالفوا بها على بغضه المشترك . وإذ لم يجدوا ما يتمسكون به عليه كان رؤساء الكهنة وكل المحفل [يطلبون شهادة زور] . هذا هو التعبير المريع الذى استعمله البشيرون : [يطلبون شهادة زور على يسوع لكى يقتلوه] . أناس كثيرون ذوو طمع وشذوذ غير طبعى يطلبون شهود زور غالبا من النوع الحقير غير النبيل فتمنحهم قوات الشر ما يطلبون . ويظهر من التلمود أن الاتهام عن طريق الشهود (٢) كان عاديا وقد اتبع

---

١ ـ ٢٣ عضوا أي نحو ثلث أعضاء السنهدرين . مر ١٤ : ٥٣ لا يجب أن تؤخذ حرفيا بل تعنى جميع الذين اشتركوا منهم فى هذه المؤامرة وهذا ظاهر من مر ١٥ : ١ حيث تعنى كل المجلس . (مت ٢٦ : ٥٩) أى كل أعضاء السنهدرين . وقد تطلق كلمة السنهدرين على (بيت الدين) أيضا (مت ٥ : ٢٢) .

٢ ـ ان اختصار البشيرين لم يجعل لنا وسيلة للتحقق ان كانوا قد اتبعوا فى هذا عادات اليهود المرعية فى المحاكمات . راجع ما كتبه يوسيفوس عن محاكمة زكريا بن باروخ .

هذا فى محاكمة يسوع . وقد جاء فى التلمود أن شاهدين قد وضعا فى مخبأ بينما كان تلميذ (جلى انه الخائن يهوذا الأسخريوطي) يقضي علنا باعترافات ملتوية ضد ما يدعيه يسوع . وليس ما جاء بالتلمود أقل بهتان من التأكيد الفارغ الذى لا يتفق مع التوقيت والتاريخ الذى ذكر فى سجلات السنهدرين ويقول أن يسوع حوكم أمام يوشيا بن براخيا ، وأنه لمدة أربعين يوما استمر المنادون يعلنون أنه متهم بأحضار السحر من مصر ، وانه قد أضل الناس ، فلم يتقدم شاهد واحد يدافع عنه . فاذا رمينا جانبا هذه المخترعات الشائنة فانا نعلم من البشائر أنه مع استعداد أذناب أولئك الكهنة للكذب فان شهاداتهم كانت ممعنة فى الكذب والخيال والتناقض حتى انها انتهت إلى لا شيء وحتى أن أولئك القضاة الموتورين غير العادلين لم يرتضوا أن يقبلوها . وأخيرا تقدم اثنان بشرت شهادتهما المزورة أنها أكثر قبولا . لقد سمعناه يقول شيئا عن نقض الهيكل وإعادة بنائه فى ثلاثة أيام . وحسب قول أنه صرح [انى أقدر أن أنقض هيكل الله] ، وعلى قول آخر انه صرح [انى أنقض هذا الهيكل] . والحقيقة أنه لم يقل لا هذا ولا ذاك بل صرح [انقضوا هذا الهيكل] فالأمر كان صادرا إليهم . سيكونون هم الهادمين وإنما وعد هو بالبناء . كانت إحدى شهادات الزور التى بولغ فى تزويرها لأن لها صلة ما بالحق وبتغيير مبنى الكلمات ذاتها ومع سبق الأصرار . قلبوا معناها راجين أن يبنوا عليها بطريق الاستدلال تهمة التجديف . ولكن حتى تهمة الزور هذه التى عليها سيماء الحق لم تتفق وبقى يسوع صامتا بينما فند أعداؤه شهادات بعضهم بعضا . إن الجريمة غالبا ما تثرثر ملتمسة المعاذير بينما البراءة الكاملة تبقى صامتة . ترك متهميه الكاذبين ومستمعيهم الكاذبين يوقعون أنفسهم فى الشراك الملتوية لأكاذيبهم الخبيثة ، وكفر صمت يسوع البريء عن معاذير آدم المذنب .

ولكن هذا السكوت الملكى أوقعهم فى اضطراب ، بل خيبهم وأربكهم وأجنهم

وأنزل عليهم إلى لحظة كابوسا لا يحتمل من تبكيت النفس . وشعروا إزاء هذا الصمت أنهم المجرمون وهو قاضيهم . وإذ رأوا أن كل سهم مسموم من شهادات الزور المرتبة باعتناء سابق قد سقط دون اضرار عند قدميه كما لو كان قد ارتد كليلا وصده درع من طهارته الناصعة . وابتدأوا يخشون أنه بعد كل هذا قد يخيب تعطشهم لدمه فيذهبون دون إرواء غلتهم وتسقط كل مؤامراتهم . هل سينتصر عليهم لضعف أسلحتهم دون أن يحرك أصبعا أو ينطق كلمة ؟ هل سينتصر عليهم نبي الناصرة لمجرد أنه تنقصهم كذبات مسبوكة ؟ هل حياته في حرز حتى ضد افتراءات مدعمة بالقسم ؟ إن هذا لا يحتمل !

حينئذ استولت على قيافا هزة من الخوف والغيظ فنزل من على كرسى القضاء ووقف فى الوسط وقد تتخيل على أية صورة وبأى صوت سأل يسوع : [هلا تجيب بشيء فان هؤلاء يشهدون عليك] . ولو كان يسوع يعلم أن قضاته لا يرعون الرماد ولا يتطلبون الأكاذيب فربما أجابهم ولكنه بقى فى صمت غير مشوب .

عند ذلك تملك رئيس الكهنة الكاذب هذا يأس تام وغضب جارف ، وبكل تناقض مدهش مخجل قام واقفا فى الوسط (١) كما فى وضع تهديدى لسجينه وقال [أستحلفك بالله الحى أن تقول لنا هل أنت] . هل أنت صانع شر ؟ هل أنت مثير فتنة في الخفاء ؟ هل علمت تجاديف فى العلانية . كلا ولكن - والسؤال يظهر الخوف الذى كانوا يخفونه وراء مؤامراتهم ضده . [هل أنت المسيح ابن الله الحى] .

سؤال غريب يوجه إلى مذنب موثق لا حول له ، وسؤال غريب من سائل هو رئيس كهنة شعبه ! سؤال غريب من قاض كان يقتني شهود الزور ضد سجينه ؟ ولكن إذ استحلفه هكذا ولمثل هذا السؤال لم يستطع يسوع أن يصمت . لا يقدر

---

١ - مر ١٥ : ٦٠ كان أعضاء السنهدرين يجلسون على دواوين فى حجرة دائرية وكان مجلس الناصح أو الرئيس فى الوسط وأبو بيت الدين أى أبو بيت القضاء عن يمينه والشاكام (الحاخام) أو الرجل العاقل عن يساره ويقف المتهم قبالتهم (يوسيفوس وكيم) .

أن يترك نفسه للفهم الخاطىء في هذا الأمر . في الأيام الأولى السعيدة لكرازته عندما أخذوه بالقوة ليقيموه ملكا ، في الأيام التي لو أنه اتخذ مساويته حسب أهوائهم وقابل مشتهيات قلوبهم في منتصف الطريق وأقام نفسه على جناح عال من خضوعهم وتعبدهم . في تلك الأيام أبعد اللقب الملكي ، ولكن الآن في هذه اللحظة العصيبة التي يتوقف عليها كل شيء ، عندما كان الموت قريبا - أتكلم إنسانيا - عندما استحال أن يستفيد أى شيء ، ووجب فقد كل شيء بأعلانه ، دوى في الأبدية ، أي في كل الأجيال الماضيه والحاضرة والمستقبلة ، الجواب الرهيب [أنا هو (١) . ولسوف ترون ابن الانسان جالسا عن يمين القوة وآتيا وسحاب السماء] (٢) . وفي هذه الأجابة دوى رعد أشد مما كان في سيناء ولكن لم يسمعه المضادون ولا الصدوقيون حينذاك ولا يسمعونه الآن . وفي افتعال مغالى فيه من الخوف والتطير مزق ذلك القاضي الظالم الذى خاب في إقامة شهود الزور ، مزق (٣) رئيس الكهنة الكاذب ثيابه الكتانية أمام رئيس الكهنة الحقيق وطلب من المجمع الحكم عليه في الحال قائلا [قد جدف . ما حاجتنا بعد إلى شهود . ها قد سمعتم الآن التجديف . فما رأيكم] ، وفي أصوات مختلطة وهرج صرخوا انه « ايش مافت » ، انه رجل الموت ، [مستوجب الموت] . وبذلك انفض محفلهم الأسود وانتهت المرحلة الثانية من محاكمة يسوع (٤) .

---

١ - مت ١٦ : ٦٤ . الفورد يشير إلى يو ١٢ : ٤٩ .

٢ - دا ٧ : ١٣ .

٣ - هذا كان محرما على رئيس الكهنة حتى في أوقات الحزن (لا ١٠ : ٦ و ٢١ : ١٠) ولكن "هلاشا" يعتبر أنه قانوني في حالات التجديف .

٤ - قارن عدد ٣٥ : ٣١ .

الفصل التاسع والخمسون

الفترة التي بين المحاكمات

(بذلت ظهرى للضاربين وخدى للناتفين .
وجهى لم أستر عن العار والبصق)
أش ٥٠ : ٦

على هذا النحو استقبل اليهود أخيرا مسيحهم المنتظر : الذى ترقبوه بآمال قلبية مدة ألفين من السنين ، والذين لهم قرابة ألفى سنة أخرى وهم يتحسرون فى ألم مرير . من تلك اللحظة اعتبره كل أعضاء مجلس اليهود هرطيقا مستحقا للموت رجما . وإنما ألقى فى الحبس حتى يلوح الصباح ، لأنه فى ضوء النهار فقط ، وفى « ليسكات هجازيت » أى قاعة المحاكمة ، وفى التئام كافة السنهدرين ، يمكن أن يكون الحكم عليه قانونيا وإذ اعتبروه الآن كشخص يجوز شتمه بغير جناح أو عقوبة فقد زف فى الفناء إلى حجرة الحراس بالضربات والشتائم التى لم يشارك فيها الخدام الوضيعون فقط بل ربما أيضا قام بقسط منها الصدوقيون الذين أهاجهم الغضب وأخرجهم عن برودة طباعهم . وقد كان الزمن قد تخطى انتصاف الليل بوقت طويل ،

وهواء الربيع يهب حينئذ باردا جدا ، فكان خدام الكهنة يصطلون حول نيران موقدة من الفحم وهم فى الفناء تحت ظل النجوم في العراء الزمهرير . وعندما مر بهم يسوع سمع ما كان أشد مرارة قاتلة من كل ما يمكن أن يملأ به أعداؤه كأس آلامه من مرارة - سمع أجرأ تلاميذه ينكره بحلف .

لأنه فى تلكما الساعتين الحزينتين اللتين بدأت فيهما هذه المأساة ، بينما كان يسوع واقفا أمام حنان وقيافا كانت تجرى مأساة أخلاقية أخرى فى الردهة الخارجية .

وعلى قدر ما يمكن استخلاصه من مختلف الروايات يظهر أن السراى التى فى أوروشليم التى كان يقطنها حنان رئيس الكهنة الرسمي وقيافا رئيس الكهنة الأسمى كانت مبنية حول فناء مربع ومدخلها على شكل ممر مسقوف فى نهايته بضع درجات تؤدى إلى القاعة التى اجتمع فيها المحفل . وكان اثنان فقط من تلاميذه قد استفاقا من انزعاجهما وتبعا عن بعد مؤخرة الركب الحزن . أولهما وهو التلميذ المحبوب كان معروفا عند بيت رئيس الكهنة كشاب صياد سمك من بحيرة الجليل . لذلك أدخل في الحال بدون احتياج لاخفاء شخصيته أو عواطفه . لكن لم يكن الأمر هكذا مع زميله الآخر . وإذ أنه جليلى مجهول فقد أوقفته البوابة الشابة . خير له ألف مرة لو كان قد توارى نهائيا لأنه كان ليل اضطراب وخوف وارتياب . وكان بطرس ضعيفا ، وحبه الغزير كان ممتزجا بالخوف ، ومع هذا فقد تجرأ على الدخول فى وسط ألد أعدائه .

وأسف يوحنا لأنه أعيق عن الدخول وربما قاس ثبات زميله بثباته هو فتدخل بنفوذه كى تسمح له البوابة بالاجتياز . ودخل بطرس بجرأة غير فطنة وهو يخفى الدوافع الطيبة التى جعلته يأتى إلى هذا المكان مع أنه قد حذر من قبل ، ولكن حذر بدون جدوى . وسار فى الفناء وجلس فى وسط خدم [1] الرجال الذين فى تلك اللحظة كان سيده واقفا أمامهم يجرون عليه حكم الموت . ويظهر أن البوابة التى أدخلت كل من له

١ - لو ٢٢ : ٥٥ .

علاقة بالقبض على يسوع قد استبدلت - كما هو طبيعي في تلك الساعة المتأخرة - ببوابة أخرى (١) فأتت هذه وتقدمت إلى جماعة الخدم، وعلى ضوء النيران الأحمر، تفرست بنظرة ثاقبة إلى الغريب المريب الجالس بينهم، وللحال تذكرته فقالت [وأنت أيضا كنت مع يسوع الجليلي] (٢) . أخذ بطرس على غرة . وفى تلك الفترة من حياته كانت طبيعته السريعة التأثر عرضة تماما للتغير حسب الظروف بسرعة تحت تأثير العواطف المتباينة . وحتى بعد ذلك بزمن طويل جدا نجد ما يثبت هذه الصفة من طبيعته فى سرعة موافقته لآراء رسول الأمم وفى السرعة المماثلة التى جعلت الاستخزاء الكاذب والخوف من الذين هم فى الختان يؤثران فيه فينحرف إلى الأركان الضعيفة الضيقة الخاطئة التى لبعض من جاءوا من عند يعقوب . فلا شك أن هذه الصفة كانت غالبة عليه فى هذه الفترة المحزنة من حياته . وعلى ذلك فبمجرد سؤال بسيط من جارية صغيرة ضعيفة مستطلعة يهتز من المفاجأة ويلجأ إلى نكران سريع . ولا شك أنه فى هذه اللحظة لم ير فى إنكاره هذا لسيده إلا إبعادا لبقا لخطر لا لزوم له . هل أمل أن يقف عند هذا الحد . وآسفاه فان نكرانه مرة واحدة يؤدى دائما إلى نكرانه ثلاث مرات ! والبدء فى ذبح الحق عفوا يؤول دائما إلى قتله عمدا . والكذبة مثل حجر يرمى على منحدر الجبل تبعد للحال عن سلطان قائلها .

ونكرانه هذا قبل إلى لحظة لأنه كان علنيا جدا ومؤكدا جدا (٣) . ولكنه أخذ حذره من الخطر وانسحب متلبسا بالجريمة من قبالة النيران إلى المدخل المسقوف

---

١ - لو ٢٢ : ٥٦ . قارن أيضا يو ١٨ : ١٧ مع مت ٢٦ : ٦٩ و مر ١٤ : ٦٧ . لأجل "البوابة" انظر مر ١٣ : ٣٤ و اع ١٢ : ١٣ .

٢ - من المهم أن نلاحظ أنه ولا واحد من البشيرين يضع على فم الجارية ذات الكلمات (وهذا يؤيد طبيعة كتابتهم) إلا أن كلا منهم يحتفظ بكلمة (أيضا) التى فى سؤال الجارية وتقصد بها يوحنا مع بطرس .

٣ - مت ٢٦ : ٧٠ و مر ١٤ : ٦٨ .

وعندئذ وقع على أذنيه (١) صياح ديك استرعى بعض انتباهه . ولكن وقت إمهاله وأمانه كان قصيرا جدا إذ يظهر أن البوابة ، وكان من واجبها أن تلفت الأنظار للغرباء المشبوهين ، تَوثّرت بخصوصه للجارية التي استلمت منها نوبة الحراسة على الباب . فهذه بدورها إذ رأته بين بعض المتسكعين الواقفين هنـــاك أشارت إليه وصرحت أنه بالتأكيد [كان مع يسوع الناصرى] . وظهر لبطرس ان كذبة ثانية كانت ضرورية جدا الآن . ولكى يحصن نفسه ضد كل ضرر فقد دعمها بقسم . وإذ أصبح الهرب مستحيلا لأنه كان يزيد الشك فانه بعزم يائس بائس وباحساسات يصعب تصورها عاد ووقف بين الجماعة الملتفة حول النيران .

ومرت ساعة كاملة لا ريب أنها كانت ساعة مخيفة ، ساعة لا يمكن أن تنسى ، لأن طبيعة بطرس العصبية الضعيفة ما كانت تشعره بالراحة تحت هذا الثقل الجديد من نكران الجيل والكذب . لو مكث صامتا بين خدم الكهنة هؤلاء ، فان عصبيته وعدم استقراره يفضحانه بلا ريب إذ وهو شاعر تماما بجرم هذه الخطية المخفاة يجتهد دون جدوى أن يتظاهر بعدم الأهمية ولو تحدث فان لهجته الجليلية تفضحه . وواضح أنه رغم إنكاره بقسم لم يأبهوا به بل احتقروه . وبعد قليل اتهمـــه أحد خدام رئيس الكهنة - نسيب للعبد الجريح ملخس - وأكد بشدة أنه كان مع يسوع فى البستان ، ودعم قوله ببرهان أنه ينطق خطأ بعض الحروف في لهجته الريفيـــة . واقتفى رجال آخرون أثره فى اتهام بطرس . فان لم يثبت فانه سيخسر كل شىء ظن أنه ربحه . ورب

---

١ - مت ٢٦ : ٧١ و مر ١٤ : ٦٨ . قد وجه نقد خصىء للديك إذ ظن البعض أن اليهود كانوا يحتفظون بالديكة لاعتبارها نجسة إذ أنها تنبش فى الروث . فبدون أن نلجأ إلى الظن أن هذا الديك قد كان ملكا لأحد الرومان فى برج أنطونيا فان التلمود يذكر أن الديكة كان يعتنى بها فى أورشليم وذكر حكاية الديك الذى رجم لأنه تسبب فى قتل طفل (بيراكوت ٢٧ : ١) راجع بكستروف أنه تنازل منا أن نعير مثل هذه الاعتراضات التفاتا سيما إن كان أساسها اعتبارات تلمودية منشؤها عدم معرفتنا الكاملة لأدب غير تاريخى ملىء بالمتناقضات .

مجهود آخر سيخلصه تماما من كل هذه التهم المزعجة ويساعده على أن ينتظر ويرى النهاية. وضيقت هذه العصبة الكسولة من الخدم المهددين عليه الخناق أزيد فأزيد ، فغاص أكثر في حمأة الانكار والخوف [فابتدأ حينئذ يحلف ويلعن إنى لا أعرف هذا الرجل] . وفى هذه اللحظة المهلكة من الاجرام - التى كان يحتمل أن تكون لحظة جحود وارتداد قتال كما حدث لزميله الرسول الآخر ، فى تلك اللحظة المهلكة بينما كانت شتائمه تحوم فى الهواء صاح الديك فى السحر والظلام باق والجو بارد . وفى اللحظة عينها سمع الرب آخر مقاطع تلك الشتائم الكاذبة ، ربما من باب قاعة المحاكمة المفتوح (١) ، أو ربما وهو مار على الجماعة المستدفئة حول النار ويدفع بقسوة وغلظة وسخرية مقذعة وبصق ولكم ، فالتفت الرب فى كل ألم تحقيره وفى كامل عظمة صمته ، [فالتفت الرب ونظر إلى بطرس] . وطوبى للذين عندما ينظر إليهم يسوع بحزن ينظر إليهم أيضا بحب ! كانت نظرة كافية . كانت هذه النظرة المعاتبة بحزنها الصامت البليغ مثل سهم أصاب نفسه الداخلية . وكما تذيب أشعة الشمس المسكة الأخيرة لكتلة الثلج قبل أن تنحدر كالسيل الجارف من على الجبل أذابت تلك النظرة النفس الكاذبة الرسول الجاحد فانزلقت بعيدا عنه . كانت نظرة كافية . « لم ير أعداء بعد ، لم يعرف خطرا بعد ، لم يخف موتا بعد » . ووضع طرف عباءته على رأسه (٢) ، ومثل يهوذا أيضا مرق إلى الليل . إلى الليل ولكن ليس كيهوذا . إلى الظلمة الخارجية التى لا بارقة أمل فيها ، ظلمة البؤس والحكم على النفس ، لا إلى ظلمة الندم واليأس . إلى الليل ولكن كما قيل بجمال « لكي يقابل فجر الصباح » . إن كان ملاك البراءة قد فارقه

---

١ - ربما كانت الحجرة التى حوكم فيها السيد من النوع الذى يدعى فى الشرق "ايوان" أى حجرة مفتوحة الجانب الأمامى ذات قبو أو اثنان ، أرضها مبلطة ولها مصاطب قليلة الارتفاع (راجع معنى كلمة ليوان) .

٢ - مر ١٤ : ٧٢ . هذا التعبير خير من القول : خرج بتواضع ، أو القول : عندما تذكر ، أو القول : خبأ وجهه بيديه .


(عن ديدرون) جزء من نقوش من العاج
لبعض مناظر أسبوع الآلام من القرن العاشر

فان ملاك التـوبة قد اقتـاده بلطف من يمينه . وأوقفت روح النعمة بقوة ،ولكن بعطف ،ذلك التائب الكسير القلب أمام محكمة ضميره حيث حكم على حياته القديمة وعاره القديم وضعفـه القديم ، ونفسـه القديمة ، بالموت من الحـزن الألهى الذى يؤول إلى ولادة جديدة نبيلة .

ولقد حدثت هـذه الجريمـة الـتى اقترفها فى حقه الرجل الذى صـرح أولا أنه المسيـح - الذى مشى إليه على المياه الهائجة - الذى استل سيفـه لأجله فى جثسيمانى - والذي أكد غاضبا أنه يفضل أن يموت عنه من أن ينكره ولقد كان هذا الانكار المشفوع بالشتائم هو الذى سمعه يسوع مباشرة عقب الحكم عليـه بالموت ومباشرة قبل البدء فى الاستهزاء الأول به . لانه في غرفـة الحـراس التى حبس فيها سجينا إلى مطلع الفجر حلت قيود كل جهالة الحقد الذى للتعصب الدينى، وكل قساوة ضيق العقل التى للشـدة الشرسـة وكل الغلظة العنيفـة الـكامنة وراء العبودية فى الشرق ،وانسابت بعنف

ضده . فذات تواضعه ،وذات صمته ، وذات عظمته، وذات براءته التي بلا دنس، وذات ذيوع شهرته ، وكل سمو إلهي ومعدن رباني ،رفعه إلى مستوى أعلى :ا لا يقاس عن جلاديه . كل هذا جعله فريسة مرحب بها لقسوتهم الوضيعة الشيطانية إذ بصقوا على وجهه وضربوه بالعصي ولكموه بجماع أيديهم وصفعوه بأكفهم (١) . وفى خصب عدم حيائهم الكريه الخانق ابتكروا لهم نوعا من التسلية (٢) ،فحجبوا عينيه وغطوا وجهه ولطموه المرة تلو الأخرى وهم يكررون السؤال [تنبأ لنا من الذى لطمك الآن يا أيها المسيح] . وعلى هذا النحو صرفوا الساعات السوداء الباردة الباقية من الليل إلى الصباح وهم ينتقمون لدناءتهم الحالية ومخاوفهم الماضية من براءته الايجابية الناصعة . وفى وسط هذه السفالة السافرة الطائشة وقف ابن الله موثوقا ، مربوط العينين ، فى عذاب طويل ،صامت، وحيدا وبلا دفاع. كان هذا هو الاستهزاء الأول ، الاستهزاء به كمسيح ثم تسلم القاضي القدوس الوحيد كمجرم والمخلص فى قيود .

المحاكمة الثالثة

وأخيرا انتهت الساعات اللعينة الطويلة ورجف الفجر الأغبر واحمر خجلا صباح ذلك اليوم الخالد . عند الفجر الباكر ـ لأنه هكذا يقضي الناموس الشفوى ـ وأولئك الذين أمكنهم أن يتلاعبوا بالعدل والرحمة ظلوا متحذلقين فى الأشياء التافهة جدا أخذوا يسوع إلى « ليسكات مجازيت » أى القاعة المبلطة جنوبى شرقي الهيكل وربما إلى « الشانوجوت » أو الحوانيت التى أنشأها حنان وأسرته ، حيث دعى السنهدرين لمحاكمته الثالثة فعلا ولكن الأولى شكلا وقانونا (٣) . والغالب أن الساعة الآن

---

١ ـ مت ٢٦ : ٢٧ و مر ١٤ : ٦٥ و لو ٢٢ : ٦٣ و ٦٤ .

٢ ـ يقتبس وستستين عن التلمود أن استهزاء مثل هذا قد وجه إلى المسيح الكذاب باركوشيباس .

٣ . لو ٢٢ : ٦٦ ـ ٧١ من التفضل فقط تسمية هذا المجمع بالسنهدرين . يقول جوست أنه فى ذلك العهد الرومانى لم يكن أثر مطلقا لسنهدرين حقيقى قانونى وإنما اجتماعات خاصة غير كافية

السادسة صباحا . واجتمع السنهدرين بكامل أعضائه أو بما يقرب من الاجماع . وكانوا مصممين تماما على إماتته عدا الأقلية النبيلة أمثال نيقوديموس ويوسف الرامى . وتأمل أيضا . غمالائيل حفيد هلليل . كان هناك الكهنة الذين وبخ يسوع طمعهم وأنانيتهم والشيوخ الذين كشف رياءهم والكهنة الذين ندد بجهلهم (١) . وأنكى من هؤلاء كان الصدوقيون الدنيويون المتعصبون الذين يدعون الفلسفة دائما أشد الأعداء خطرا ومكرا (٢) وهم الذين دحض بحزن حكمتهم . كل هؤلاء كانوا مصممين على إماتته . كلهم امتلأوا

العدد . ولكن كل الحقائق عن سنهدرين تلك الأيام ضئيلة . ويقال إنه فى أيام السبوت والأعياد كان السنهدرين يجتمع فى " بيت مدراس " أو مجمع الهيكل الذى بنى على " الشيل " أو الحائط بين الرواق الخارجى ورواق النساء (لانيفوت وكيم) . ويقال عن الحاخام اسماعيل ابن الحاخام جومى مؤلف كتاب (سيدار أولام) انه قال إن السنهدرين فض نفسه لأربعين سنة قبل خراب الهيكل من الاجتماع فى القاعة المبلطة وكان يجتمع فى " الشانوجوت " وهذا هو الانتقال العاشر من الانتقالات الواردة فى " روسن هاشنا " ويقال ان الشانجوت عبارة عن أربعة حوانيت تحت بلوطة فى جبل الزيتون لبيع الحمام الخ . وتتصل بقنطرة عبر وادي قدرون بالهيكل (طالنيث) وقد أوجدتها أسرة حنان الذى جعل مكسبها كبيرا . ويقال إن هذه الحوانيت قد خربها الدهماء عندما استولوا على ممتلكات الكهنة المكروهين لثلاث سنوات قبل حصار أوروشليم (ديرنبورج وبكستروف) .

١ ـ هؤلاء هم " السوفريم " الذين كانت لهم فى العادة لجنة خاصة فى السنهدرين .

٢ ـ مع أن يوسيفوس كان فريسيا فاننا فى هذه النقطة قد نرتكز على شهادته لاحتمالها . ان المنحى الفلسفى للرجل الدنيوى إذا هاج لا يعرف وازعا . كان السنهدرين فى الغالب محكمة بسيطة وكان الأعضاء يصومون يوما قبل الحكم على انسان بالاعدام . وكثير من الحاخاميين كانوا يأنفون من العقوبات الصعبة ويعلنون عدم رضائهم عنها . وكان الربى عقيبة يعتبره عارا ان حكم السنهدرين بالقتل على أى مجرم . ففى حادثة المسيح كانت قسوتهم من تأثير الصدوقيين إذ جاء فى (مجلث طانيث) أن الصدوقيين كان لهم ما يقرب من " مجموعة قوانين جنائية " مريعة فى شدتها حتى ان الفريسيين تركوها جانبا وكانوا ينظرون إلى الكهنة الصدوقيين مثل شمعون بن شيتاس ويقولون ان لهم " أيادي ساخنة " راجع ديرنبورج صحيفة ١٠٦ .

كرها لطيبته التى لا يعبر عنها . كلهم اشتعلوا سخطا ضد طبيعته النبيلة التى لم يروا مثلها حتى فى أحسن أحلامهم . ولكن مأمورية الوصول إلى اهلاكه لم تكن سهلة . إن الخزعبلات اليهودية عن موته الواردة في التلمود عبارة عن أكاذيب مخزية من أولها لآخرها إذجاء فيها أنهم مدة أربعين يوما أرسلوا المنادين ينادون علنا كما هى العادة فلم يتقدم شخص واحد ليشهد ببراءته . وعليه رجموه أولا كمسيح مضل للشعب ثم بعدئذ علقوه على شجرة العار ، بينما الحقيقة أن أعضاء السنهدرين ما كانوا يملكون الحكم بالموت (١) . ولو أن الفريسيين تجرأوا أن يغتصبوه إبان الاضطرابات كما فعلوا بعدئذ مع استفانوس إلا أن الصدوقيين الأقل تعصبا والأكثر سياسة ما كانوا يفعلون هذا . فان لم يقنع المجلس بالحكم على مجرم « بالشيريم » أو الحرم الكبير فكان الطريق الوحيد أن يسلموه للسلطة العسكرية (٢) لتقضي بموته . وفي الوقت الحاضر لم تكن ضد يسوع تهمة سوى تهمة التجديف مع سبق الاصرار مبنية على اعتراف استخلصه رئيس الكهنة بالقوة بينما حتى شهودهم الذين رشوهم قد فشلوا فى تدبير شهادة الزور كما يحبون . أما التهم القديمة العديدة فلا يمكن الارتكان عليها . فان ما أسموه تعديه للسبت كان دائما مرتبطا بصنعه المعجزات ، فكان يؤدى بهم حتما إلى أرض شائكة . ورفضه للتقاليد الشفوية كان يثير مسألة كان الصدوقيون والفريسيون

---

١ ـ هذا ما قاله اليهود صراحة (يو ١٨ : ٣١) ومع أن ملاحظات تاريخية معاصرة تدل على أن الرومان كانوا يتغاضون عن حكم الموت بقضاء مؤسس على أمور دينية (يو ٥ : ١٨ و ٧ : ٢٥ و اع ١٣ : ٢٧) فان اليهود لم تكن لهم الحرية فى إبرام مثل هذا الأمر . يدل على هذا ما أصاب حنان الصغير من الاهانة والتحقير من أجل ما فعله هو والسنهدرين فى حادث مقتل يعقوب أخى الرب . ولكن دولنجر يتخذ رأيا آخر ويقول إنهم ما كانوا يقدرون أن ينفذوا حكم الموت أو الصلب فى يوم عيد . ولكن مهما كانت الصعوبات حول هذه النقطة فان التلمود صراحة يناصر تأكيد يوحنا البشير (راجع بيراكوت وسنة أو سبعة أماكن أخرى) وأيضا بكستروف .

٢ ـ اع ٢ : ٢٣ .

فيها أعداء ألداء . وتطهيره الهيكل بسلطان كان يستهوى الشعب والربيين. وتهمة تعاليمه الخفية المضلة قد أبطلتها العلانية الوضاحة التى لحياته . وتهمة الهرطقة قد اضمحلت لعدم وجود شهود يقيمونها . كانت المشكلة التى أمامهم هى تحوير التهمة الدينية التى للتجديف مع الأصرار إلى التهمة المدنية وهى الخيانة العظمى مع الأصرار . ولكن كيف يمكنهم عمل ذلك ؟ لم يكن حتى نصف أعضاء السنهدرين مجتمعين فى المحاكمة السريعة الليلية ، والتى كانت لذلك غير القانونية ، فى بيت قيافا . والمقرر أنهم يجب أن يسمعوا كلهم شيئاً كى يستطيعوا قانونيا أن يعطوا أصواتهم . فى إجابته على سؤال قيافا قد أقر بجلال أنه المسيح ابن الله . واعلانه هذا لا معنى له كتهمة عند الحاكم الرومانى. ولكن إن أعاد أمامهم إقراره فيمكن تحريفه وتأويله أنه حض على ثورة سياسية ، ولكنه لم يكرره رغم كل استدراجهم له لأنه كان يعلم أنه عرضة للتحريف بعناد ولأنه كان واضحا أنهم بحاكمونه متعدين كل قواعدهم المرعية وتقاليدهم المتبعة التى تأمر أن كل مجرم أمام المحكمة يجب أن يعتبر بريئا حتى تثبت إدانته .

ربما وهم جلوس على هذا النحو وملكهم مقيد ، لا حول له ولا قوة ، واقفا صامتا أمام أصواتهم الصاخبة ، ربما ذكر واحد أو اثنان من الأعضاء المحترمين المنظر المخالف لهذا تماما عندما التأموا لمحاكمة هيرودس من أجل قتلاه فوجموا صامتين فى رعب وجبن بينما وقف أمامهم هيرودس ، لا باتضاع وشعر أشعث وثوب أسود ، ولكن فى حلة من الأرجوان وشعر رأسه مقصوص معقوص ورجال الحرب محيطون به . ولم يجرؤ واحد منهم من فرط الخوف أن يتلو التهم الموجهة ضده . وظلوا صامتين لم ينطق منهم سوى سامياس[1] متنبئا أن يوم الانتقام سيأتى قريبا وأن هيرودس

---

١ - يوسيفوس . وهنا أتى لأول مرة ذكر للسنهدرين . أما فى التلمود فبكل عدم العناية اليهودية دعى هركانوس بيانوس وسامياس بسمعون بن شيتاش . والتلمود يخلط دائما بين أسماء هلليل وبوليو وابتاليون ، وسامياس وشماى وشمعايا وشمعون .



حقل دما أى حقل الدم

الذى كانوا يرتعشون هم وأميرهم هيركانوس أمامه سيكون خادم نقمة الله عليهم . فأى اختلاف اذن بين هذا المنظر الحالى وذلك المنظر الذى لم يمض عليه إلا نصف قرن ! فهم الآن فى جلبة وملكهم فى صمت . كانوا أقوياء وملكهم بلا دفاع . هم المجرمون وملكهم برىء . هم خدام النقمة الأرضية وملكهم وسيط المصالحة السماوية .

أخيرا لينهي منظرا بائسا وفى الوقت ذاته مشينا تكلم يسوع وقال : [ان قلت لكم لا تؤمنون وإن سألتكم أيضا لا تجيبون] . ولكن حتى لا يجدون عذرا فى عدم فهمهم من هو ، أضاف فى صوت من التحذير الرهيب : [ومن الآن يكون ابن الانسان جالسا عن يمين قوة الله] . فقال جميعهم [أنت اذن ابن الله] ؟ (١) فأجابهم بجملة اعتادوا سماعها وعرفوا كامل مداها [أنتم تقولون إنى أنا هو] . وحينئذ صرخوا كما فعل قيافا من قبل : [ما حاجتنا بعد إلى شهادة فاننا نحن قد سمعنا من فمه] . وعلى ذلك فبهذا الحكم الثالث من سلطة اليهود الذى ظنوا أن بيلاطس سيقره ببساطة فيطفىء شعلة كراهيتهم الملتهبة ، انتهت المرحلة الثالثة لمحاكمة السيد . وهذا الحكم أعقبه ، كما يبدو ، الاستهزاء الثانى (٢) وهو يماثل الأول ولكن أمعن فى الشتائم وأشد فى الاحتمال لأن استهزاء الكهنة والشيوخ والفريسيين أشد وقعا من استهزاء الخدم والأفاكين .

بسرعة وقعت النقمة الألهية على الفاعل الأصلى والمحرك للسفالات الدنيئة لهذه المحاكمة . كان يهوذا بلا ريب خلال كل هذه الساعات مشاهدا وهو مضمون السلامة لكل ما حدث . وعندما لاح صباح هذه الليلة الباردة وعلم قرار الكهنة والسنهدرين ورأى أن يسوع قد أسلم للحاكم الرومانى ليصلب ابتدأ أن يتحقق تماما ماقد فعل . إذ

---

١ ـ قارن دا ٧ : ١٣ و مز ٨ : ٤ و ١١٠ : ١ .

٢ ـ إلا إن كان لو ٢٢ : ٦٣ ـ ٦٥ (الظاهر انه يشير إلى عدد ٧١) يصف محاكمة لم يذكرها ولكنا نفهم من مت ٢٦ : ٦٧ أن الذين شتموا المسيح بعد المحاكمة الثانية لم يكونوا خداما فقط .

أنه توجد دائما فى كل جريمة فظيعة قوة منيرة فضاحة تثير مسرح الضمير بالمعالم غير عادى وتطرد ظلال المنفعة الذاتية وتظهر الأعمال والدوافع فى وضعها الصحيح الحقيق. وفى يهوذا، كما فى آلاف عديدين من قبله وبعده، فتح العيون هذا الذى يعقب اعمام الخطايا المريعة التى أدت إليها خطايا كثيرة، قد ساقه من التوبيخ إلى اليأس ومن اليأس إلى الجنون ومن الجنون إلى الانتحار. ولو أنه قد ذهب حتى ذلك الوقت إلى سيده ومخلصه وخضع تحت قدميه طالبا المغفرة لسار كل شيء حسنا. ولكن وآسفاه إنه ذهب لمن ساعدوه وشاركوه ورغبوه فى خطيته فلم يقابل منهم لا بشفقة ولا بنصيحة. لقد كان آلة مكروهة مكسورة يجب أن ترمى جانبا الآن. قابلوا ندمه المؤدى إلى الجنون بلا اهتمام بارد واحتقار قاس. قال لهم [قد أخطأت إذ سلمت دما بريئا]. هل كان يطمع أن يخففوا عذابات ندمه أو يشاركوه فى احتمال لوم جريمته أو ليعزوه وليعذروه؟ على العكس فى غلظة من علياء كبريائهم قالوا له [ماذا علينا نحن؟ أنت أبصر!] (١). وكان هذا هو الجواب الوحيد الذى لا قلب فيه الذى قدموه لذلك الخائن المسكين الذى شجعوه ورحبوا به وحرضوه على جريمته. شعر ألا أهمية له بعد ذلك وتحقق أن التحالف على الخطية لا مجال فيه مطلقا للاحترام المتبادل ولا أساس فيه للعواطف بل للكراهية المتبادلة وتأكد أن الصلة الوحيدة بينهم هى أنه تقاضى منهم الثلاثين من الفضة، القيمة التافهة التى لأجلها قد باع نفسه ولن يتمتع بها أزيد مما تمتع عاخان بالذهب الذى طمره أو آخاب بالحقل الذى اغتصبه، فطرح الفضة بحنق على أرض المكان المقدس، حيث جلس الكهنة، والذي لن يسمح له بعد الآن بدخوله. وأسرع إلى وحدة يائسة لم يعد منها حيا. لن نعلم أية «أجنحة نجسة» كانت تحوم حوله وتضرب رأسه، واختلف القول عن كيفية موت هذا البائس. إذ المرجح أن تفصيلات موته لم تعلن قط. فقد جاء أنه علق ذاته وشنق نفسه. ولا زال

١ - مت ٢٧ : ٤ نفس الكلمات قد أرجعت إليهم من بيلاطس مت ٢٧ : ٢٤.

التقليد يفرز فى أوروشليم شجرة جرداء كئيبة خربها الريح ويدعونها شجرة يهوذا . وفى قول آخر ـ ليس مما يستحيل توفيقه مع القول الأول إذا تخيلنا أن الحبل انقطع أو الفرع انكسر تحت ثقله ـ انه وقع على الأرض فانشق من الوسط وخرجت أمعاؤه (١) . وحسب قول ثالث شاع بين المسيحيين الأولين أن جسده انتفـــخ إلى حجم هائل إذ أصيب بمرض خبيث من داء الفيل ثم مرت عليه عربة دهمته . أما المتآمرون العظام فى حذلقتهم ووسوستهم الكهنوتية لم يريدوا أن يلقوا ثمن الدم الذى أعيد فى « القربان » ، أى الصندوق المقدس ، (٢) بل بعد المشاورة اشتروا بها حقل الفخارى مقبرة للغرباء ، وهو حقل ربما كان فى نية يهوذا أن يشتريه وربما أيضا لقى حتفه فيه . وهذا الحقل كان مرعبا معروفا إلى زمن طويل « بحقل الدم » ، وهو مكان قذر، مسكون، شنيع.

---

١ ـ اع ١ : ١٨ .

٢ ـ متى البشير يقتبس دائما مماثلات من العهد القديم أردف باقتباس ظاهر أنه من ارميا ١٨ : ١ و ٢ و ٣٢ : ٦ ـ ١٢ وزكريا ١١ : ١٢ و ١٣ . ومن الغريب انه لا يذكر أبدا زكريا مع انه اقتبس منه ثلاثة مرات ولكن يوجد مثل وقول يهودى أن زكريا كان له روح إرميا . الترجمة الأصلية " يرمونها فى الصندوق " وفكرة بعض المفسرين أن هناك حقلين غير موفقة . أماكن متعددة يظن أنها حقل دما . أحدها حقل يدلون عليه للحجاج فيه منزل خرب قبالة بركة سلوام . ويقول باباس إن نفس الأرض كما لو كانت قد لعنت هى أيضا فما يجسر انسان أن يمر بها دون أن يغلق أنفه بيديه .



بيلاطس يغسل يديه *

الفصل الستون

يسوع أمام بيلاطس

"عاقبه بيلاطس البنطى"
تاسيتوس

صلب على عهد بيلاطس البنطى . هكذا سلم فى كل عقائد الطوائف المسيحية هذا الاسم غير السعيد إلى اللعنة الأبدية . ولكن لم يكن

* هذه الصورة تمثل منظرا قديما جدا يحمد عليه الفنانون المسيحيون الأولون . انه المنظر الخامس من احد عشر نقشت على مقبرة فى لوسينا محفوظة الآن فى القصر الاتيرانى برومية .

الغرض من ذكر هذا الاسم فى قانون الايمان تقد خلقه بل تعيين زمنه لأنه فى الحقيقة من كل الحكام الدينيين والمدنيين الذين وقف أمامهم يسوع للمحاكمة كان بيلاطس أقلهم حقدا وكرها وأكثرهم رغبة في اعفائه من العذاب أو على الأقل فى الابقاء على حياته .

أى نوع من الرجال كان ذلك الذى وضع فى يديه سلطان من فوق ليقرر المصير الأخير لحياة المخلص ؟ لا نعلم إلا النزر القليل عن أصله وعن أسلافه قبل سنة ٢٦ م عندما أصبح الوالى السادس لليهودية . أما عن مركزه فهو من « مرتبة الفرسان » ، وهو مدين فى تعيينه لنفوذ سيجانوس . أما لقبه « البنطي » فيدل اشتقاقه على أنه سامى من الساميين ، واسم « بيلاطس » دعى به تيمنا لسلف حربى ، وإن كان له اسم سابق فلم يحفظ لنا . ولقد سار فى اليهودية بكل غلظة الكبرياء وقسوة العجرفة كحاكم رومانى صميم . وبمجرد أن تم له الأمر كوال أمر عسكره أن يحضروا النسور الفضية وبعض العلامات والرموز الأخرى التى لفرق الجيش من قيصرية إلى المدينة المقدسة وبذلك أثار انفجارا من الغضب فى عواطف اليهود ضد عمل يعدونه كفرا صنميا . فظلوا يحاصرون أو قل يهاجمون مقره في قيصرية خمس ليال وخمسة أيام ، وهم يفترشون الأرض فى العراء ويصيحون أحيانا بتوسلات صاخبة وأحيانا بانذارات متوعدة . ولم يتركوا أماكنهم فى اليوم السادس رغم أنهم كانوا تحت خطر مذبحة سريعة غير

ونتحقق أن بيلاطس هو الجالس مع مساعده إلى اليمين من الشارة (التى هى شعار نائب الملك) ويستدل من وجهه المحول إلى الجانب أنه فى تفكير رزين . وكلاهما يرتدى أكماما قصيرة وعباءة مشبوكة على الكتف اليمين ووقف وراءهما ثلاثة خدم اثنان منهما جنديان لابسان درعين ، فهما حارسان . وإلى أمام الثلاثة عبد يصب الماء من ابريق ومن مهابة الفن الهادىء وتركيب الصورة وحلاقة ذقن كل من فيها يظهر أن هذه الصورة لا تعدو القرن الرابع م . ولم يحدث حتى ذاك تغيير فى طرق القضاء عن الجيل الأول ولا فى الملابس فنرى فى هذه الصورة لا خيالا فكريا ولكن تصويرا أمينا لأخبار الانجيل .

متبصرة من يد الجند الذين أرسلهم خصيصا ليحيطوا بهم إلى أن غلب على أمره ساخطا . وهذه العزيمة المتعقبة الباسلة المتذرعة بالأمل من الشعب الذى كان سيسوسه نغصت كل حياته وأفعمتها بشعور من الكراهية لا مزيد عليه .

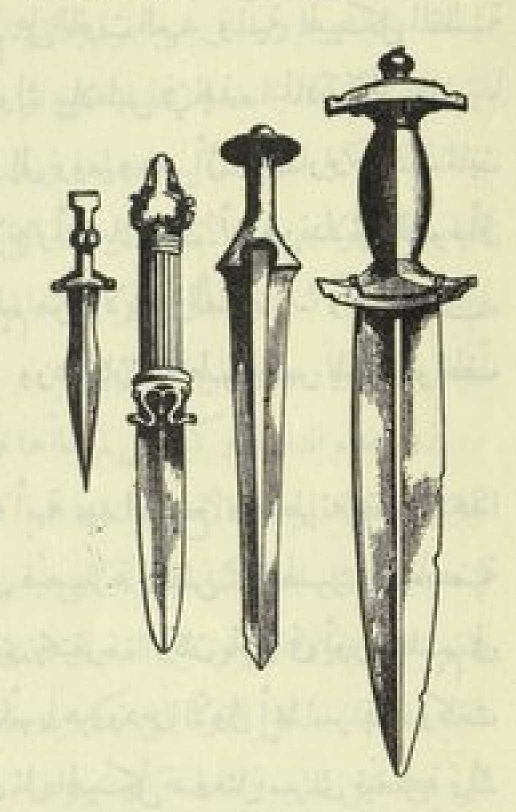
أما ثورة اليهود الثانية فكان سببها أقل أهمية وكان تجنبها ممكنا بسهولة لو أن بيلاطس درس طباعهم بتقدير أكثر واحترم خزعبلاتهم الشائعة بتبصر أزيد . يظهر أن أوروشليم كانت تحل بها المصاعب دائما ، وبكل أسف إلى يومنا هذا ، من قلة ورداءة موارد المياه . ولكي يعالج هذه الحالة شرع بيلاطس فى بناء قناة تستورد المياه من برك سليمان . واعتبر بيلاطس أن مشروعه للنفع العام فأراد أن يستعمل لهذا الغرض بعض نقود « القربان » أو الخزانة المقدسة وحينئذ ثار اليهود وبغضب ليحولوا دون استعمال ضريبتهم المقدسة فى هذا العمل الدنيوى . وأغاظت شتائمهم وتوبيخاتهم بيلاطس فأمر أن يتخفى عدد من جنوده فى ملابس يهودية ويندسوا بين الجموع الثائرة بعصي وخناجر مخبأة تحت ملابسهم ويقتصوا من زعماء الفتنة. وإذ رفض اليهود أن يفضوا تجمهرهم بسكون أعطيت الاشارة فأتم الجند ما أمروا به بحماس قلبى وإيقان حتى أنهم قتلوا وجرحوا وأماتوا ضربا عددا عظيما من الثائرين والأبرياء وأحدثوا شغبا شنيعا مفاجئا ، فمات كثيرون أيضا تحت أقدام الجماهير الزاخرة المنزعجة المشتتة (١) .

وبهذا أعطى بيلاطس درسا مقدما فى صلابة السلوك لهذا الشعب البارع فى التعلم والتقليد فنسجوا على منوال واليهم فى انتهاج القتل السياسى والصلابة عندما كانوا يطلبون صلب المسيح .

---

١ ـ حادثان شبيهان ذكرهما يوسيفوس . ويظن إيوالد ان برج سلوام الذى سقط وأمات ١٨ شخصا ربما يكون له علاقة بهذه الأعمال . وهذا يعطى مجالا للذين يريدون أن يعزوا هذه الحادثة كقصاص من الله (لو ١٣ : ٤) ولقد قيل أن كره اليهود لعمل القناة يرجع إلى خوفهم من أن يجعل المدينة سهلة الغزو وأقل مناعة عند الدفاع عنها .

وثورة ثالثة لليهود تمردية قد زادت فى كره الوالى لرعاياه إذ تحقق أنه من المستحيل عليه العيش مع هؤلاء القوم ولو بروح المسالمة دون أن يثير مشاعرهم الحساسة من جهة معتقداتهم. كان قد علق بعض الدروع المذهبة المهداة إلى طيباريوس في سراى هيرودس بأوروشليم التى ينزل فيها أيام الأعياد. وجاء فى خطاب أغريبا أمام الأمبراطوركايوس كما ذكره فيلو أنهم عزوا هذا العمل إلى مكر مقصود. ولكن أغريبا شهد أن هذه الدروع كانت بسيطة وليست محلاة إلا بكتابة أو نقوش بارزة وقرر أنه من العدل أن يذكر أن اليهود إنما غضبوا بدون مبرر لما قصد منه بيلاطس مجرد زينة بسيطة لا ضرر منها. وما كان يستطيع أن ينزلها بعد أن علقها دون خطر يجرح إحساس هذا الامبراطور الحزين المتشائم الذى لأكرامه قد علقت هذه الدروع. ولما لم يرضخ بيلاطس لما طلبوا فان رؤساء الشعب كتبوا يشتكون عليه مباشرة لدى طيباريوس ذاته. وكان من سياسة طيباريوس أن تظل المستعمرات راضية. واحتقرت عقليته الجبارة عناد بيلاطس الذى قد يغامر بقلاقل عن أن يضحى بأوهام. ولهذا فان الأمبراطور وبخ بيلاطس وأمره أن ينقل هذه الدروع المكروهة إلى هيكل أوغسطس فى قيصرية.



خنـاجر رومانيـة

وإلى جانب الثورات الثلاث السالفة نقرأ في البشائر عن ثورة أخرى عنيفة خلط فيها بيلاطس دم الجليليين بدم ذبائحهم. وأخيرا عزل بيلاطس من الولاية نتيجة اتهام

وجه إليه السامريون لدى لوسيوس فيتليوس نائب الملك على سوريا، مشتكين أنه مع سبق الأصرار قد هاجم وقتل وشنق عددا منهم اجتمعوا على جبل جرزيم بدعوة من دجال - ربما شمعون ماجوس - وعدهم أن يدلهم على تابوت العهد وآنية الهيكل المقدسة زاعما أن موسى كان قد خبأها. وظهر أن سلوك بيلاطس في هذه الحادثة كان متسرعا وشديدا بدون مناسبة. ومع أنه عندما وصل إلى روما وجد أن طيباريوس قد مات ولكن حتى غايوس أبى أن يعيده إلى ولايته لأنه رأى بلا ريب أن من دلائل السوء أن يكون على غير علاقة حسنة مع شعب كل إقليم من ولايته الصغيرة. ولقد كان سيجانوس يكن أشد أنواع الكره لليهود، وربما كان بيلاطس يظهر بالمثل عواطف من كان صنيعته.

هكذا كان بيلاطس البنطى الذى جذبته أبهة عيد الفصح واضطرته مخاطر هذا العيد السنوى الكبير أن يترك مقره المعتاد فى قيصرية فيلبس ويحضر إلى عاصمة الشعب الذى يبغضه ومقر رئاسة التعصب الذى يحتقره. وكان ينزل فى أوروشليم فى أحد القصرين الفخمين الذين أسرف في بنائهما هيرودس الأول أيما اسراف. وكانت هذه السراى قائمة فى المدينة العليا جنوبى غربى تل الهيكل، ومثل سراى قيصرية ترك الحاكم المحامى الاقامة فيها وأعدت للوالى الرومانى. وكانت تدعى دار ولاية هيرودس. وهى إحدى العمائر الشامخة التى تفوق الوصف وتتمشى مع هويات ذلك العصر من الفخامة حتى أن يوسيفوس كتب عنها بحماس وإعجاب شديدين. وكانت تشمل جناحين عظيمين من الرخام الأبيض سميا « بالقيصرين » و « الاغريبين » تبعا لروح التملق التى كان يظهرها الهيروديون للبيت المالك. وبين الجناحين فناء واسع شاسع يشرف على منظر أوروشليم الفخم ومزين بأقبية منحوتة وأعمدة ذات ألوان عدة، وأرض الفناء مزركشة بالفسيفساء الغالية يتخللها النوافير والأحواض والرياحين التى تأوي إليها أسراب اليمام. أما من الخارج فكانت تحوط السراى أسوار عالية وأبراج وسقوفات

براقة مموهة بأبهى مختلف الألوان . أما من الداخل فكانت الحجرات وسيعة تكفى لاستضافة مائة زائر وكانت مزينة بأثاث ثمين وأوان من الذهب والفضة . كانت مقرا شائقا جدا لمجرد روماني من مرتبة الفرسان ؛ غير أن التعصب الجامح لسكان أوروشليم جعلها مسكنا لا يحب إلا قليلا حتى ان بيلاطس وأسلافه أيضا لم يجتهدوا أن ينعموا بعظمتها أكثر من أسابيع محدودة فى السنة كلها إذ كانوا يضطرون أن يوجدوا فى العاصمة اليهودية مدة الأعياد المزدحمة التى كانت عرضة دائما لثورات من الوطنية المستعرة. وسرعان ما اكتشفوا أن قصرا شائقا لن يكون سوى مقام كريه ما دام مؤسسا على أرض تهتز متأرجحة من حمم البراكين .

فى هذه الدار الملوكية التى لم تطأها قدما المسيح فى أيام حريته ابتدأت على أجزاء ثلاثة منفصلة المرحلة الأخيرة لتلك المحاكمات المحزنة التى سبقت آلامه الأخيرة . لم تكن مثل المحاكمة الفارغة التى أجراها حنان ، ولا الاعتراف الذى استخلصه بالقوة قيافا ، ولا القرار غير القانونى الذى اتخذه السنهدرين . لأن القاضي هنا كان فى صفه واجتهد بكل القوة التى لكبرياء ضعيفة وكل الجرأة التى لجبن مجرم وكل الشفقة التى يمكن لطبيعة ملطخة أن تحبوها ، اجتهد أن يخلصه . لذلك كانت محاكمة نشيطة متحمسة مليئة بالحوادث . وقد شملت ثلاثة مناظر متغيرة وتهمة مثلثة وتبرئة مثلثة من الرومان ورفضا مثلثا من اليهود وتحذيرات مثلثة لبيلاطس وجهودا مثلثة من قبله مع نشاط متزايد واضطراب متكاثف حاول فى أثنائها جميعا أن يثنى عزم متهميه ويطلق سراح الفريسة (١) .

---

١ ـ بعض النقاد الألمان يظنون أن جزءا كبيرا من محاكمة يسوع كما وردت فى بشارة يوحنا غير تاريخية وهذا خطأ . حقيقة لم يذكرها يوسيفوس ولا فيلو لكنها تتفق وأخلاق بيلاطس والعلاقات التى كانت بينه وبين الامبراطور وبين اليهود .

المحاكمة الرابعة

كانت حوالى الساعة السابعة صباحا عندما ظن اليهود أن يخيفوا الوالى بعددهم ومقامهم وبحفل كبير يؤثر على الناظرين من أعضاء السنهدرين والكهنة وعلى رأسهم قيافا بلاشك، فقادوا يسوع مربوطا بحبل حول عنقه(١) من قاعة الاجتماع فوق القنطرة التى تعلو وادى طيبروبيون وساروا به على مرأى من كل المدينة موثوق اليدين كمجرم محكوم عليه، فصار حقا منظرا للملائكة والناس.

وإذ أقلقوه فى هذه الساعة المبكرة وربما كان على استعداد لقلاقل أزيد مما تصحب عادة أى عيد للفصح دخل بيلاطس إلى إيوان المحاكمة حيث اقتيد يسوع ومعه - كما هو ظاهر - عدد من الذين يشتكون عليه وبعض من يهتمون تماما بقضيته. أما رؤساء اليهود العظماء إذ تحرزوا من النجاسة التقليدية وليس من إجرام الضمير، خائفين من الخبز الخمير لا من الدم البرىء، رفضوا أن يدخلوا لئلا يتنجسوا فلا يستطيعون أن يأكلوا الفصح ذلك المساء. فخرج إليهم بيلاطس (٢) لا بخلق طيب سموح ولكن ساخطا نازلا عن اضطرار لما يعتبره خرافات محتقرة لطائفة منحطة. خرج إليهم تحت أشعة الشمس اللاذعة فى ربيع الشرق. وألقى نظرة سريعة غاضبة على الحفل الشائن للكهنة النبلاء وعلى الغوغاء المهيجة لهذا الشعب الغريب الذى يكرهه كرومانى وكحاكم سواء. وبهذه النظرة الواحدة لاحظ عواطف متهميه المفترسة كما لاحظ أيضا العظمة الوديعة المتعالية التى لفريستهم. كان سؤاله قصيرا وبغلظة [أية شكاية تقدمونها على هذا الانسان]؟ وفاجأهم السؤال على غرة. ولكنه أراهم أنه يجب

---

١ - مت ٢٧ : ٢ و مر ١٥ : ١ .

٢ - إذ كان بيلاطس واليا فقط كان عليه أن يستمع إلى القضايا بنفسه وفى هذه القضية بالذات ربما قد رفض التنفيذ إلا بعد النظر والمحاكمة. ولم يشأ أن يحقر ذاته فيكون فقط آلة لتنفيذ خزعبلات اليهود.

أن يستعدوا لعداوة غير مخفاة لكل مقاصدهم . وظهر لهم أن بيلاطس مزمع على النظر فى القضية بينما كانوا ينتظرون منه إقراراً بقتله ليس بطريقة الاعدام اليهودية ولكن بوسيلة يعتبرونها أشنع وألعن (١) . فكان جوابهم غير المحدد ولكن المؤكد [لو لم يكن هذا شريراً لما كنا نسلمه إليك] . ولكن معرفة بيلاطس الرومانية للقانون وفطرته الرومانية لحب العدل واحتقاره الرومانى لتعصبهم القاتل جعله يرفض اصدار الحكم بناء على تهمة غير محدودة بتاتاً ويختم بالتنفيذ على قراراتهم غير القانونية المظلمة . وربأ بنفسه أن يكون هو الجلاد بينما لم يكن هو القاضى . فأجابهم باحتقار متعال إذن [خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم] . بذلك أرغموا على الاعتراف المحقر أنهم إذ منعوا من « حق الحكم بالموت » فانهم لا يستطيعون أن يودوا بحياته بالحكم الوحيد الذى يرضيهم . لأنه حقاً كان قدر فى الحكمة الأبدية أن يموت المسيح ليس بالرجم أو الخنق اليهودى ولكن بطريق الاعدام الرومانى الذى كان يثير فى اليهود رعباً لا ينطق به . سيموت موت الصليب (٢) ، وسيملك من على صليبه يموت هو الميتة المخيفة المشتهرة القاسية عن كل الميتات ، ميتة علنية بطيئة ، ملعونة ، مؤلمة ،

---

١ - تث ٢١ : ٢٢ - ٢٣ . ومنه الاسم الكريه " المعلق " الوارد فى التلمود عن المسيح ويدعى المسيحيون " خدام المعلق " والأسباب التى أرادوا أن يصلبوه من أجلها كثيرة عدا الظاهرة للحقد والانتقام لأن الصلب (١) يلطخ اسم وذكر يسوع بشناعة (٢) وبذلك يحملون الحكام الرومان شركاء فى مسئولية قتله (٣) وبهذه الوسيلة ستغفل فرصة اعتباره شهيداً .

٢ - تث ٢١ : ٢٣ و عدد ٢٤ : ٤ و ٢ صم ٢١ : ٦ . دارت أسئلة حول كيف ومتى منع اليهود من الحكم بالاعدام (يو ١٨ : ٣١) . ويستدل من التلمود أنهم تنازلوا عنه اختيارا " لسبكات هجازيت " لكثرة عدد القتلة الذين كانوا يستحقون الحكم . ولكنهم يؤرخون ذلك بالطريقة اليهودية غير الدقيقة بالمرة ويقولون " وذلك لأربعين سنة بعد خراب الهيكل " (ابودازورا - وبكستروف - والتلمود) وبعضهم يقول انه كان مصرح بحكم الموت أو سمح لهم به أو على الأقل تغاضى الرومان عنهم فى القضايا الدينية (اع ٧ : ٥٧ - ويوسيفوس) لا فى القضايا المدنية والتى كان لهم فيها الحكم الابتدائى فقط .

لا يفقد معها الانسان الشعور ، وألمها أشد من الحرق . وهى أسوأ الميتات جميعا كما كانت أسوأ نتائج اللعنة التى سيمحوها إلى الأبد .

أسقطوا مؤقتا تهمة التجديف التى لا توافق مقصدهم (١) واندلعوا فى نوبة تعبيرات وتهم أظهرها ثلاث : إنه أضل الأمة ، ومنع إعطاء الجزية ، وسمى نفسه ملكا . وهذه التهم الثلاث كانت كذبا صريحا . وكانت الثالثة أمعن فى الكذب لأنها تحمل رائحة من الصدق . ولكن إذ لم يواجهوا يسوع ببراهين أو شهود فان بيلاطس الذى فى تصرفه ولغته يظهر الاحتقار المرير الممزوج بالخوف الذى يضطره إليه اليهود ـ تنازل ليعير التهمة الثالثة وحدها التفاتا وبدأ يستكشفها من اعترافات السجين ـ وهو أمر محبب فى المحاكم الرومانية ـ ليساعده ذلك على فهم التهمة ، فترك السنهدرين العجول والجمع الصاخب وعاد داخلا إلى دار الولاية . ولم يحفظ لنا وصف هذا المنظر الخالد سوى يوحنا البشير . واقتيد يسوع ـ ولو انه ليس فى الثياب الناعمة ولا وليد بيوت الملوك ـ إلى الدرج الثمين وفوق البلاط المصنوع من العقيق واللازورد وتحت السقوف المذهبة المطعمة بخشب الصندل والمنمقة بالأرجوان التى لسراى مهجورة لملك يهودى عظيم . وهنا وسط هذه الفخامة المسرفة أخذ بيلاطس الذى ابتدأ يهتم بأمر هذا السجين وسبق فرأى فيه شيئا من النبل أثر فى طبيعته الرومانية ـ أخذ يسأله بكلمات شفوقة [أأنت ملك اليهود] . أنت الفقير ، المتعب ، الدامع ، الشريد ، فى هذه الساعة من الاحتياج المرير الشديد ، المصفر الوجه ، الوحيد ، وبلا صديق ، النحيل ، اللابس ثياب الفلاحين الفقيرة ، الموثوق اليدين ، وعلى وجهك وعلى ملابسك آثار سيئة مما أصابك من أعدائك ، ولست مثل هيرودس الجميل القاسي الذي تقر الجماهير المتعطشة لدمائك انك ملكها ، [أأنت ملك اليهود] ؟! توجد ملوكية لا يفهمها بيلاطس ولا الرجال الذين على شاكلته ، ملوكية القداسة وسمو التضحية . فان قال « لا » فانه

---

١ ـ قارن اع ١٨ : ١٤ .

يذكر الحق وإن قال « نعم » فانه يحير السائل . لذلك أجاب بمهابة رقيقة [أتقول هذا من ذاتك أم آخرون قالوا ذلك عنى] (١) . فقال بيلاطس بازدراء [ألعلى أنا أيضا يهودى . إن أمتك ورؤساء الكهنة هم الذين أسلموك . ماذا فعلت] ؟ فعلت أفعال عجائب ورحمة وقوة وبر ولا شيء سوى ذلك . ولكن يسوع رجع إلى اجابة السؤال الأول بعد أن مهد الطريق أمام بيلاطس ليفهم إجابته وقرر انه ملك ، ولكن ليس من هذا العالم ، وليس ممن يحارب خدامهم عنهم . فقال بيلاطس بدهشة [فأنت إذن ملك] ؟ فأجاب نعم ، ولكن ليس ملكا من أرض الباطل والأوهام ، ملك ولد ليشهد للحق وكل من هو من الحق يسمع له . فقال بيلاطس دون اصطبار الحق ! [ما هو الحق] ؟ ماله وهو الحاكم الرومانى العملى المكدود ولهذه النظريات الغامضة ؟ وما دخلها فى مسألة هى حياة أو موت ؟ فأى خيالات غير عملية هذه وأى أحلام من أرض العجائب ؟ ومع أن بيلاطس قد رفض الدخول فى هذه المجادلة باحتقار فانه قد تأثر وتحركت عواطفه إذ أن عقله القضائى وتربيته الحقوقية ومعرفته بطبائع الانسان قد جعلته يسبر غور حقيقة الناس وأرته أن يسوع لم يكن بريئا فقط بل أيضا أنبل بما لا يقاس من متهميه الكهنة الهادرين . ووضع جانبا كأمر خيالى فكرة الملك غير الأرضى ورأى في السجين الماثل أمام المحكمة رجلا حالما بريئا عالى النفس ولا شيء أكثر من هذا . فترك يسوع مكانه وخرج لليهود ثانية ونطق بأول حكم للبراءة ، مؤكدا غير متردد [أنا لم أجد علة ما فى هذا الانسان] .

المحاكمة الخامسة

ولكن هذه البراءة العلنية المؤكدة عملت فقط على زيادة إشعال حنق أعدائه إلى لهيب مفترس . هل بعد كل المؤامرات التى دبروها وقاموا بها ، هل بعد كل ما احتملوه

---

١ - هذا يدل على أن يسوع الذى أدخل من البدء إلى دار الولاية لم يسمع الشكايات التى قدمت ضده أمام الوالى .

فى اجترامها وبعد ليل لا نوم فيه قضوه فى المخاتلة وشراء شهود الزور والمناورات ، هل يفسد عليهم مقصدهم تدخل هذا الأممي الذى كانوا متكلين عليه بالذات لتتميم مرماهم المر ؟ هل ستخلص هذه الفريسة بعد أن أمسكوها فى مخالبهم المميتة وتفلت من أيدى رؤساء الكهنة والحكام لمجرد ازدراء أو شفقة وثنى متعجرف ؟ إن هذا يفوق الاحتمال ! فارتفعت أصواتهم فى ضجيج وحشى انه « ميسيت » [انه يهيج الشعب وهو يعلم في كل اليهودية مبتدئا من الجليل إلى ههنا] .

فى وسط هذه الصيحات الصاخبة الحماسية التقطت أذن بيلاطس المتمرنة كلمة « الجليل » . وفهم أنه كان المكان الأهم فى كرازة يسوع (١) . وإذ كان يميل إلى التخلص من مأمورية يسر لو أعفى منها فكر بضربة معلم سياسية حاذقة أن يتخلص من سجين محير ويريح نفسه من قرار لا يوافقه ويعمل عملا رقيقا غير منتظر مع رئيس ربع جليلى غير صديق جاء كالعادة إلى أوروشليم اسميا ليحفظ الفصح وفعليا ليسر رعاياه ويتمتع بمباهج العيد التى تزخر بها العاصمة المائجة بالازدحام . ولهذا وهو مسرور سرا ليرمى عن عاتقه مسؤولية كريهة بعث به إلى هيرودس انتيباس (٢) الذى كان غالبا مقيما فى السراى الأزمونية القديمة التى ظلت المقر الملكى فى أوروشليم إلى أن فاقتها السراى الأنيقة التى بناها أبوه الظالم الضال (٣) . وعلى ذلك جروا مرة ثانية المتألم التعوب وسط الشوارع الضيقة المزدحمة بين استهزاءات الجماهير الغاضبة .

---

١ - لو ٢٣ : ٦ .

٢ - لو ٢٣ : ٧ . كان الحسد المتبادل والميل لتدخل كل فى سلطة الآخر كافيين للخصومة بين بيلاطس وانتيباس فضلا عن أنه فى كل الاختلافات كانت سياسة انتيباس الظاهرة أن ينحاز إلى اليهود . ويقارن رينان علاقة انتيباس مع الوالى بعلاقات الراجا الهندى مع نائب الملك تحت الحكم البريطانى .

٣ - هذه السراى الأزمونية استعملها أغريبا الثانى بعد ذلك بكثير . وسبب على طريقته يرى أن يسوع قد دخل سراي داود (فى بيت لحم) وسراى الأزمونيين وسراي هيرودس .

لقد حفظنا لمحات عن هيرودس أنتيباس هذا من قبل . وإنى أعلم أن صفحات التاريخ وصور المتاحف لا تحوى شخصا زريا مثيلا لهذا الصدوقي الفاسد المجرم الادومى ولا شبيها لهذا الأمير الصغير الغـــارق فى الشهوات والدم . لقد قال عنه يسوع كلمة الاحتقار الخالص الوحيدة التى دونت أن يسوع قد نطق بها (١) . إن الخزعبلات تسير والالحاد سويا على الدوام . والكافرون يدينون بالطلاسم ، والذين لا يؤمنون بالله يؤمنون بالأشباح (٢) . وفرح أنتيباس جدا لرؤية يسوع إذ كان يريد أن يراه منذ زمن طويل لما كان يسمع عنه . كان يرجو قاتل الأنبياء هذا أن يشبع يسوع دهشته الفاغرة بأعجوبة محاباة الملوكية ، فخاطبه وسأله فى كلام كثير ، ولكنه لم يظفر منه ولا بلفظ واحد يجيبه به . لقد واجه السيد كل أسئلته البذيئة بعظمة الصمت . لمثل هذا الشخص الذى تحول عنده الهزء إلى فضيلة كان الكلام ضياعا وهباء . وحينئذ ظهرت كل سفالة الرجل خلال القشرة الرقيقة المموهة للتهذيب السطحى . وأصابت يسوع السخرية الثانية وهزأ به هذه المرة ككاهن ونبى . فقد سخر منه هيرودس وجلادوه المولدون غاية السخرية وعاملوه بغلظة واحتقار مدرب . وهزأوا من اتضاعه وبراءته بألباسه ثوبا لامعا . وبعد ذلك أعاده هذا الأمير الشرير إلى الوالى وأصبح وإياه نصف متصالحين بعد العداء الطويل الذى كان بينهما من قبل . وهكذا بعد أن أشبع هويته من الهزء الدنىء رمى مسئولية اصدار الحكم على دار الولاية . ومع أن رؤساء الكهنة والكتبة وقفوا حول عرشه يتملقونه ويحرضونه على اقتراف قتل جديد شنيع باتهاماتهم الشديدة فانه أراهم عمليا أن اتهاماتهم مضحكة بمقابلة الأمر كفكاهة . هذه هى المحاكمة الخـــامسة

---

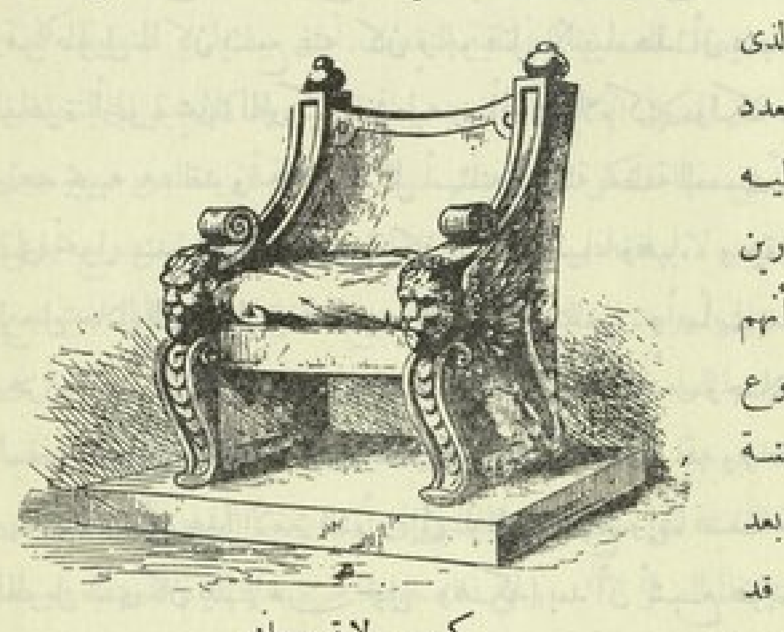
١ - لو ١٣ : ٣٢ .

٢ - كان فيلبس الذى من أورليانس ملحدا شنيعا وعندما كان فى السجن اجتهد أن يتكهن عن مصيره ببواقى فنجان القهوة ! وكثر فى العصر الالحادى الكلدانيون والعرافون والسحرة وقارئو البخت والدجالون .

والبراءة الثانية الرسمية العلنية .

المحاكمة السادسة

والآن وقد أوقف يسوع ثانية أمام الحاكم المتردد المتحير ابتدأت المرحلة السادسة والأخيرة والأكثر هياجا وأشد إيلاما من هذه المحاكمة الشنيعة . لقد آن الأوان لبيلاطس ليعمل حسب اعتقاده الحق الواضح وينجي نفسه من جريمة الدم البرىء . فخرج إليهم مرة ثالثة وجلس على أريكة فخمة - ربما عرش أرخيلاوس الذهبي فوق مرتفع البلاط (١) الذى من الرخام الثمين المتعدد الألوان . ثم دعا إليه الكهنة والسنهدرين والشعب وأخبرهم أنهم قدموا إليه يسوع لمحاكمته كمثير فتنة واضطراب ولكنه بعد تمحيص كامل عادل قد وجده ، وهو والبهم الروماني ، بريئا تماما من هذه التهم وانه حينئذ أرسله إلى ملكهم الوطني وهو أيضا وصل إلى النتيجة ذاتها وهي أن يسوع لم يأت جرما يستوجب عليه حكم الموت . وكانت الفرصة الذهبية سانحة الآن لدى بيلاطس ليعلن عظمة عدل دولته الأمبراطورية فيعلن براءته ويطلق سراحه ، ولكنه عند هذه النقطة بالذات تلكأ وتردد. ساوره



كرسي ولاية روماني

---

١ - يو ١٩ : ١٣ " جباثا " أو موضع البلاط . كان الحكام الرومان والقواد يهتمون جدا بهذه المرتفعات التى يجلس عليها القضاة .

الخوف كـكابوس من حدوث ثورة أخرى فتنازل أن يسير إلى منتصف الطريق ليسر أولئك المتعصبين الخطرين وكما لو أنه يعطيهم بعض الحـق ويتمشى مع اتهاماتهم فانه سيؤدب يسوع فيجلده علنا ويهزأ من ادعاءاته المضحكة ويخــزيه ويجعله دنـا فى عيونهم (١) وبعد ذلك يطلق سراحه . وفكرة اطلاق السراح هذه أوحت إليه وسيلة أخرى من وسائل السياسة الملتوية ، فتذكر وكذلك الشعب فى وقت واحـد تقريبا ، أن العادة دائما أن يطلق أسيرا فى الفصح ، ولهذا فانه يقترح أن يطلـق سـراح يسوع لا كأنه واجب من مقتضيات العدالة بل كانعام بالعفو .

وإذ قدم هذا العرض، وإذ تلاعب باجرام مع شعوره الداخلى بالحق وتنازل ضد رغبته عن حقوق وامتيازات سلطانه كان يعمل ضد تحذير قد وصله . كان التحذير الأول من جراء نخس القلب العميق والاحساس الداخلى القوى الذى غمره وهو ينظر إلى أسيره الصامت المنحنى الرأس . وكما لو كان يرغم على تقوية عزمه كى يمنع انهيار العدل كلية وصله الآن تحذير ثان رهيب ، تحذير لأى رومانى عادي وروماني يتذكر مقتـل قيصر وحلم كالبورنيا لا ريب أنه ظهر لديه كتحذير إلهى شديد . تجرأت أن ترسل إليه زوجته كلوديا بروكيولا (٢) رسالة علنية حتى وهو جالس على كرسي القضاء قائلة إنها فى ساعات الصباح الباكر عندما تكون الأحلام حقيقية قد رأت حلما مزعجا مؤلما (٣) بخصوص هذا البار . وكانت أشجع من زوجها إذ طلبت إليه أن يحترس فلا يصنع به شـــــرا .

بسرور ، بل بكل سرور ، كان يود بيلاطس أن يطيع إحساسه الداخلى وأن يرضي عدله وشفقته وأن يرضخ لهذا التحذير الغريب الذى وصله كعلامة سرية تضطره

---

١ ـ تث ٢٥ : ٣ يوسيفوس .

٢ ـ اسمها هذا ورد فى كتاب نيقوديموس الذى يذكر أيضا أنها دخلت حظيرة الايمان .

٣ ـ مت ٢٧ : ١٩ .

أن يتشاءم . بل بسرور كان يود أن يساير غريزته الدنيا فيظهر قوته ويتغلب على أولئك المتعصبين الحسودين المكروهين الذين كان يعلم أنهم يجرون وراء دم برىء ، وأن اتهامهم ليسوع بأنه مثير لفتنة ، هم الذين كانت لهم الثورات كنسمة الحياة ، أمر خاسىء باطل ، وأن رياءهم الشفاف المفضوح هذا إنما زاد فقط فى احتقاره غير المستتر . ولو أنه تجاسر أن يتبع ما توحي به فطرته وغرائزه الحقة لطردهم من دار الولاية دون أن يعيرهم التفاتا . ولكن بيلاطس كان خاطئا ، والخاطىء جبان ، والجبانة ضعف . أعمال قسوته الماضية ارتدت على نوع ما إلى رأسه واضطرته الآن أن يميت بواعث الشفقة وأن يضيف إلى قساواته الماضية قسوة جديدة هى أشنع الكل (١) . وكان يعلم أن شكايات قوية معلقة فوق رأسه . أما كان دم أولئك السامريين الذين احتقرهم وظلمهم وأولئك اليهود الذين طعنهم حيثما اتفق وسط الزحام بأيدى رسله السريين المتخفين وأولئك الجليليون الذين خلط دماءهم بدم ذبائحهم ، أما كان كل هذا الدم يصرخ طالبا الانتقام ؟ أما كان فى خطر إرسال وفد للشكاية ضده ؟ أما كان خطر هذه البعثة يعجل ويزداد لو أنه تسبب فى إثارة فتنة من وراء مسألة غامضة وتهم عن ادعاء بالملك فى شعب كان جل رغبة الرومان أن يغروهم على احتضان سلاسلهم ؟ هل يجرأ أن يقف ضد احتمال نشوب ثورة جامحة أم يتنازل فيمنحهم إقرارا بسيطا لمشروع قد اتخذ سريعا شكل ضرورة سياسية ؟

رجعت سياسته الملتوية على رأسه وجعلت من المستحيل عليه أن ينفذ رغائب نفسه . ونقمة خطاياه الماضية هى أنه أصبح غير قادر أن يعمل البر . وتحرش الكهنة والسنهدرين والشعب به (٢) بتهور طالبين ما ذكرهم به من منحه أسير الفصح .

---

١ - نرى مثيلات هذه الخواطر تساوره تماما أثناء مشادته مع اليهود بخصوص مسألة الدروع "كان يخشى من ارسال وفد يفضح كثيرا من سوء تصرفات حكومته وشذوذه وقوانينه الصارمة وعقوباته القاسية وهذا ما أوقعه فى حيرة شنيعة" عن فيلو .

٢ - مر ١٥ : ١١ . قد أعطانا التاريخ وإلى يومنا هذا أمثلة عديدة عن تقلب الجماهير المطبق . ولكن فى كل هذه المناظر يتضح أن غضب وعناد الجمهور لم يكن فجائيا وابن الساعة .

وخلعوا العذار أكثر وأبانوا طبيعتهم الشريرة وبغضهم لمخلصهم لأنهم بينما كانوا يذيعون أنهم غاضبون من خوف فتنة يذكيها من هو كامل الطاعة والتسليم فانهم صرخوا طالبين إطلاق حرية رجل تلطخت ثورته بالسرقة والقتل. لقد ذنبوا البرىء وأحبوا المجرم وطلبوا عفو الوالى لا عن يسوع الناصرى ولكن عن رجل لسخرية القدر المخيفة كان اسمه أيضا يسوع بار اباس (١) الذى لم يكن مثل يسوع منهما زورا ولكن كان في الواقع قائد ثورة ولصا وقاتلا ـ لكن كان متوقعا أن أولئك الذين فضلوا صدوقيا دنيئا على كاهنهم الحقيق وأدوميا دخيلا على سيدهم وملكهم، أن يفضلوا القاتل على المسيا.

وقد يجوز أن يكون قد استقدم باراباس وأن ذاك اليسوع القاتل المتجهم ويسوع البرىء الفادى وقفا سويا أمام القضاء العالى جنبا إلى جنب (٢). وضج الشعب، وقد حرضه الكهنة، وصرخ طالبا العفو عن الثوروى اللص. ونحوه اتجهت مشيرة كل يد وله كل صوت قد ارتفع. ولكن للقدوس الحسن عديم الدنس والضرر، لذلك الذى حيته آلاف بهتاف «أوصنا» منذ خمسة أيام فقط ـ لم توجه نحوه ولا كلمة عطف، ولا بادرة استرحام وجدت نحوه سبيلا. [محتقر ومخذول من الناس].

ووضع بيلاطس السؤال صريحا أمامهم فسمع بحنق مزدوى اختيارهم الصريح. وإذ أراد أن يخفى عاره المر وحنقه فى التشهير بهم، الأمر الذي زاد فى هياجهم بدون أن يأتى بأية نتيجة، سألهم باحتقار [إذن ماذا أفعل بمن تقولون عنه إنه ملك اليهود]. وحينئذ علت الصرخة الجنونية لأول مرة [اصلبه]. وعبثا مرة بعد الأخرى فى فترات

---

١ ـ بار اباس ابن أب شهير وربما ابن ربان أي ابن حاخام. القراءة يسوع باراباس قديمة من أيام أوريجانوس فى مت ٢٧ : ١٧. ما ذكره ابو الدمن أن السنهدرين طلب أن يطلقه لأنه من أسرة تنتمى إليهم وأن الشعب طلبه لأنه سجنه فى ثورة أموال القربان غير محقق.

٢ ـ مت ٢٧ : ٢١.

الهدوء بين الصخب المرتفع صمم بيلاطس حقيقة على مؤازرة يسوع ولكن بضعف لأن يستحيل على رجل ما لم يكن أزيد براءة من بيلاطس، حتى ولو كان واليا رومانيا، أن يصغى دون أن يرتجف للصيحات العصبية للجموع الشرقيـة (١) . عارضهم قائـلا [وأى شر عمل] [انى لم أجد عليه عـلة للموت] [فأنا أؤدبه وأطلقـه] . ومثل هذه المعارضة التى لم تكن بعزيمة كاملة كانت غير كافية بالمرة وإنما فقط أظهرت لليهـود المخاوف الداخلية التى لو اليهم (٢) وجعلتهم فعـلا سادة المـوقف ، فـرارا وتكرارا وبسورة غضب أشـد توقـدا مزقوا الهواء بصيحاتهم الكئيبة [خـذ هذا] [أطلق لنا باراباس] [اصلبه اصلبه] .

كرباج أو مجلدة (عن بونارى)

وفى لحظة مال بيلاطس مع العاصفة وأطلق باراباس وأسـلم يسوع ليجـلد .

---

١ ـ راجع اش ٥ : ٧ . هذه الغوغاء اليهودية كثيرا ما لا تحتمل . " جاءوا حول قضاء بيلاطس واهتاجوا ضده " آلاف متعددة تجمعت وصرخت ضده ليترك هذا المشروع " وبعضهم وبخوا بيلاطس وأهانوه كما يفعل جبناء مثل هؤلاء القوم . فأمر اليهود أن يذهبـوا ولـكنهم بـكل جرأة وبخوه " عن يوسيفوس .

٢ ـ كذلك فى مسألة الدروع المذهبة نال رؤساء اليهـود مأربهم بتحققهم من تردد عقليـة بيلاطس (فيلو) . وهذه فعلا هى الوصمة التى رمى بها .

والكلمة المستعملة (١) تعنى أن ذاك لم يكن بالعصى - ولم يكن لبيلاطس حملة مشاعل - ولكن كان بما دعاه هوراس « الكرباج الشنيع » والذى لا شبيه له الآن إلا « العقدة الروسية » . وكان الجلد هو الاجراء المبدئى للصلب أو أية عقوبة بالغة (٢) . وكان الجلد تعذيبا متناهيا فى الشناعة حتى ليثور العقل ضده . وقد ألغى مع زيادة رأفة البشر التى تضاعفت مرارا بل وفى غالب الأحيان خلقت بالفهم التدريجي للحقائق المسيحية . كان المتألم الحزين يعرى علنا ويربط من يديه فى وضع منحن إلى عمود ثم تكال الضربات على أعصاب الظهر المشدودة المرتجفة بألسنة من الجلد فى أطرافها أثقال من العظم أو الرصاص غير المصقولة . وأحيانا كانت تنزل الضربات عرضا أو أحيانا تكال عمدا بوحشية بربرية على الوجه والعينين . كان عقابا شنيعا لدرجة أنه من جراء آلام التمزق كان يغمى على المجلود المعذب ، أو كثيرا ما يموت أثناء الجلد ، أو يهلك بعد الجلد بقليل متأثرا من الآلام المبرحة وانحلال الأعصاب . وهذه القسوة البالغة التى لا نجرأ أن نطيل في وصف شناعتها ، هذه القسوة التى تبعث فى القلب رعشة وبرودة أعقبها الاستهزاء الثالث الشديد المرارة - الاستهزاء بيسوع كملك .

فى الأمم المتمدينة يعمل كل ما يمكن عمله ليعفي الرجل المحكوم عليه بالأعدام من أية آلام يمكن تفاديها ولكن عند الرومان كانت الشتيمة والسخرية من المقدمات المعتادة للعذاب الأخير ، أو كما قال تاسيتوس « كان يهزأ بهم حتى وهم فى آلام الموت » . عادة مثل هذه تعطينا عينة من أحط وأخسأ الشرور البشرية التى تفرح بفرض الألم والتى تشعر بسرور غير عادى من آلام الغير حتى لو لم يكن قد فعل أمرا رديئا . إن مجرد منظر التعذيب ترتاح إليه النفوس المنحطة وربما كانت للرومانى الأصيل مسكة

---

١ - مت ٢٧ : ٢٦ و لوقا يقول بحزن (واسلم يسوع كارادتهم) وكأنه أراد أن يسدل حجابا عما كان بعد ذلك . لم يرد أن يقول واقتادوه بل يردف (وفيما هم يقتادونه) .

٢ - مت ٢٧ : ٢٦ .

من التعقل كافية ليتبين الكرامة الفطرية لهذا المتألم الصامت. أما العسكر الخاسئون وجنود المستعمرات فكانوا غالبا مجرد الحثالة الزائفة من الأقاليم المختلفة ومثل هؤلاء هم الذين أتوا بيسوع إلى حجرتهم في « القشلاق » وهناك هزأوا في حقدهم الشرس بالملك الذي عذبوه. زاد في متعة مسرتهم أن يكون في قبضة يدهم وتحت سيطرتهم من هو يهودي المولد (١)، طاهر الحياة، نبيل التربية. أبهجهم أن يتخلل شيء جديد حياتهم الرتيبة المملة فدعوا كل الكتيبة حتى الخالين من نوبة العمل ليشهدوا ألاعيبهم الوحشية. وأمام أولئك القساة مثلوا بإسهاب حفلة مسخرية جوفاء لتتويج هازيء. وعليك هازيء واكرام هازيء. فعلى جبين يسوع في تقليد طائش لأكليل الغار الامبراطوري ضفروا جدائل من الغصون المورقة ذات الأشواك الناتئة. وفي يده الموثقة وضعوا قصبة بدل السيف. ومن على أكتافه الممزقة الدامية نضوا الثوب الأبيض الذي ألبسه إياه هيرودس وهو يسخر منه والذي لا بد أن أصبح الآن مبللا من دماه ووضعوا عليه ثوبا أرجوانيا - ربما عباءة حربية مهملة أرجوانية مزركشة بأهداب زرقاء - (٢) ثم برصانة مفتعلة شبكوها على كتفه الأيمن. وحينئذ تقدم كل واحد منهم وأحـــنى ركبته بخضوع سخري مصطنع وبصق ذريـــع وكال ضربة على الرأس بالقضيب الذي لم تستطع يده الموثقة أن تحمله وكانوا يمرون أمامه وهم يحيـــونه قائلين [السلام يا ملك اليهود] ! (٣).

---

١ - يذكر يوسيفوس أمثلة متعددة للعناد المجهول الذي يجعل العسكر يسرون بأبذاء الأمــة المكروهة التي عاشوا في ربوعها.

٢ - مثل هذه الملابس كانت ترسل هدايا للملاك الموالين (لا ٣٠ : ١٧ - تاسيتوس - كيم - ١ مكا ١٤ : ٤٤) - متى يقول توما " أرجوانيا " ومرقس "بنفسجيا" وكان الأقدمون لا يقدرون الألوان أو على الأقل باختلاف كبير عما نفعل الآن. فنحن الآن نصيب التسمية على اختــلاف اللون البسيط. راجع ملاحظات غلادستون القيمة في هذا الصدد. وعن الاستهزاء راجع فيلو الذي يذكر أنهم سخروا من أغريبا الثاني في شخص رجل أبله في الاسكندرية. وكل انجليزي يذكر الشتائم التي كالها شكسبير في روايته ريتشارد الثاني. ٣ - يو ١٩ : ٣.

وحتى الآن وبعد هذا الحد من الايذاء أراد بيلاطس ورجا بل وجاهد أن يطلقه . وحاول أن يجعل ذلك الجلد المخيف لا كسابق للصلب ولكن كعقوبة بالتعذيب بعد أن قصر القضاء أن يستخلص من المتهم أي اعتراف أزيد . لهذا عندما جيء يسوع



أشواك فلسطين *

زيزفون اللوتس — زيزفون شوك يسوع

ووقف إلى جواره كشهيد فوق بلاط المحكمة العالى ، وقطرات الدم القانية تخضب إكليل العذاب الأخضر ، وعلامات اللطم والبصق على وجهه ، وتعب ألمه المميت ظاهر على عينه التي لم تنم ، والأرجوان الباهت يشف عن بقع من الدم النافر من ظهره الممزق

---

* لا يمكن تحقيق أى نبات أخذ منه هذا الإكليل الشائك . وانى أرى أن شجرة النبق - كما يرى كل الزائرين لفلسطين - أليق نبات للألم والهزء لأن أوراقها لامعة الاخضرار وأشواكها عظيمة القوة . حقيقة أن النبق كثير فى الجليل ولم أره حول أورشليم ولكن ربما كان شيء منه فى حديقة سراى هيرودس . وبالتأكيد لم تحمل الجند نفسها أية مشقة بل أخذوا أول نبات صادف أيديهم . المعرب : فى زيارتى للقدس رأيت " عاقولا " ذا أشواك طويلة صلبة على شكل حبال رفيعة طويلة ويجدلونه على شكل أكاليل تباع للزائرين وهو كثير جدا حول أورشليم والغالب أن من هذا قد ضفر أكليل يسوع .

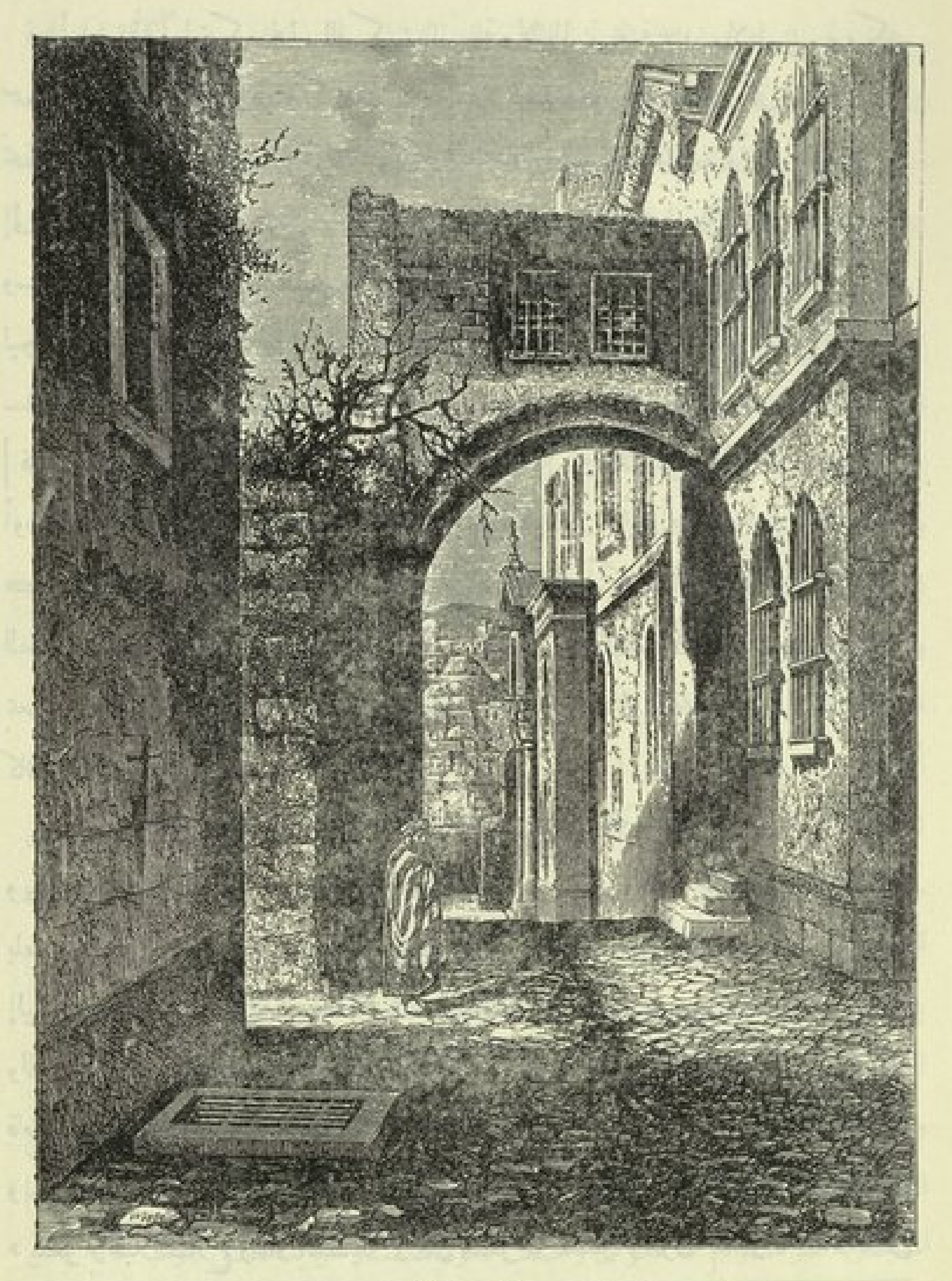
ويتقطر منه نقط حمراء على الأرض الملونة بالفسيفساء ، فى ذلك وحتى هكذا فى ساعة شدة تواضعه وهو واقف فى عظمة سكينته المقدس أمام هذه المحكمة العالية وحوله أصوات الجموع الصاخبة أشرق عليه سمو ونبل علوى حتى أن بيلاطس صرح طواعية بتلك الجملة التى حركت قلوب الملايين وقال [هوذا الانسان] .

ولكن لم يثمر فيهم هذا القول سوى إعلاء صراخهم بأصوات أعلى [اصلبه . أصلبه] . لأن مجرد رؤيته على هذه الحال من الخزى والحزن الذى لا يعبر عنه قد رمى وقودا جديدا لنيران كرههم . وعبثا استصرخ ذلك الجندى الوثنى إنسانية الكهنة اليهود . لم ينبض قلب بالشفقة ولا خالجت نبرة عطف تلك الصرخة المترددة أصلبه ! أصلبه ! وكأنه قرار مريع لترنيمة الموت . وقد يظن وبحق أن قلب ذلك الرومانى الذى سفك الدماء كالمياه فى حقول المعارك أو المجازر العلنية أو المذابح السرية قد قسا وتحجر وتثلج ، ولكن قلوب أولئك الكهنة المتحذلقين المرائين والكهنة الدنيويين كانت أشد قساوة وتحجرا . فقال لهم بيلاطس [خذوه أنتم فاصلبوه فانى لا أجد علة ما يؤخذ بها] . أى إقرار من قاض رومانى ! إنه برىء على ما أرى ولكن إن كنتم لا بد صالبيه فخذوه أنتم واصلبوه إذ لا يمكن أن أقر هذا الحكم الجائر الذى يخالف القانون ولكنى سأتغاضى عن تعديكم له . ولكن لم يسمح له حتى هذا المخرج المسكين المجرم فان الشيطان يتطلب دائما من عبيده إتمام ذيول قصة جرائمهم وأخيرا يحصل على ختمهم بالرضى . ما يريده اليهود وما سوف ينالونه هو الاقرار الصريح لا التغاضي بالصمت . لقد سبروا مقدار قوتهم وعلموا أن هذا الحاكم الملطخ بالدماء لا يمكنه أن يقف ضدهم . وتحققوا أن السيادة الرومانية تتسع للأذعان للخزعبلات المحلية . فبجرأة ذروا مع الرياح كل المسائل المختصة بالجرائم السياسية ، وبكل ادعاءاتهم الريائية وحماستهم المشبوبة صرخوا [لنا ناموس وحسب ناموسنا هو يستحق الموت لأنه جعل نفسه ابن الله] .

[ابن الله] لم تكن هذه الفكرة بالغريبة ولا بالمستهجنة عند بيلاطس . لم يكن سمعها من قبل . وقد أرهبته كملامة ثالثة منذرة محذرة من الجريمة التي كان ينساق إليها تحت تأثير خوفه وسوابقه . فمرة أخرى ترك الجماهير الصاخبة خارجا وأخذ يسوع معه إلى دار الولاية الهادئة وكما قال ترتليان بجمال « وقد أصبح في دخيلة قلبه مسيحيا » وسأله بلهجة مملوءة من الرعب [من أين أنت] ؟ وآسفاه لقد صار الوقت متأخرا جدا ليجاوبه . لقد غاص بيلاطس عميقا في قسوته البالغة وظلمه . لقد تكلم يسوع إليه سابقا بما فيه الكفاية ، ولم يبق ما يقوله أزيد للحيوانات الكاسرة التي تصول خارجا . [فلم يجبه يسوع] . وحينئذ بما يقرب من الغضب قال له بيلاطس [لماذا لا تكلمني (١) أو لا تعلم أن لي سلطانا أن أصلبك وأن لي سلطانا أيضا أن أطلقك] ؟ سلطانا ؟ كيف أكان العدل لا شيء ؟ أكان الحق لا شيء ؟ أكانت البراءة لا شيء ؟ أكان الضمير لا شيء ؟ وفي الحقيقة وواقع الأمر إنه لم يكن لبيلاطس أي سلطان حتى ولا بمعنى سلطان الظالمين الغاشمين فكان افتخاره هذا كاذبا عاطلا لأنه في نفس تلك اللحظة كان يضع « لا أجرؤ » فوق « أنا أريد » .

ورأف يسوع بحيرة هذا الرجل الضعيف الذي أبدلته الخطية من حاكم إلى عبد . وبدون أن يدحض قوله أو يوبخه بل على العكس مخففا خطيته لا مثقلا لها أجابه بلطف [ليس لك علي أي سلطان لو لم يعط لك من فوق . من أجل هذا فالذي أسلمني إليك له خطية أعظم] إنك حقا تقترف جريمة عظيمة ولكن يهوذا وحنان وقيافا والكهنة واليهود جرمهم أعظم . وعلى ذلك فبكرامة فائقة وفي الوقت ذاته برقة فائقة قاضى يسوع قاضيه ! وفي أعماق نفسه الداخلية شعر بيلاطس بصدق هذه الكلمات واعترف صامتا بسمو أسيره الموثق الممزق . وبكل ما بقي فيه من انسانية ونبل « شعر برهبة الصلاح وعلو الفضيلة وجمال منظرها فشعر وحزن لسقوطه » . انتفض

١ - الوضع الأصلي لضمير المتكلم هنا يفيد التوكيد ويكون بمعنى " تكلمني أنا " .



باب "ابن الانسان" في أوروشليم

فى داخله كل ما تبقى من نفسه ولم تأكله الكبرياء والقسوة كصدى غير مرغوب فيه من مجرد تلك الكلمات القليلة الهادئة من ابن الله. لقد حكم يسوع على جرمه، وهذا الحكم لم يغظه وإنما قد عمق خوفه من هذا الانسان الغريب الذى ظهر أن ضعفه المتناهى أعظم وأقوى من أعلى قوة. وفى ذلك الحين رغب بيلاطس أكثر من أى وقت أن يطلقه. وبضمير مضطرب اعتلى كرسي الولاية للمرة الثالثة والأخيرة وبدأ فى عمل مجهود يائس. فتقدم يسوع وهو ينظر إليه وهو واقف صامت فى ألمه بكامل الهدوء على تلك «الجباثا» اللامعة وحواليه اضطرابات الجماعة الوحشية، وقال لأولئك المتوحشين كما لو كان قد توصل إلى اعتقاد جديد [هو ذا ملككم]. ولكن هذا وقع على أذنهم مثل هزء مخز أن يقال عن هذا المتألم المضروب المسبوب إنه ملكهم. واختلط مجرى أسود بحماسة هذا الجمهور الغاضب المتقلب. فبين صيحات أصلبه ابتدأوا يهدرون بصرخات منذرة تهديدية لأول مرة. وكانت الساعة وقتئذ التاسعة. وقد صار لهم نحو ثلاث ساعات (١) يصخبون وينتظرون أمامه. وابتدأت كلمة قيصر تطوف

١ ـ عن الساعات يوجد خلاف مشهور بين يو ١٩ : ١٤ (وكان وقت الساعة السادسة) وبين مر ١٥ : ٢٥ (وكان وقت الساعة الثالثة فصلبوه). توجد حلول كثيرة لازالة هذه الصعوبة ولكن ما يستحق منها الذكر هى هذه: (١) ان كلمة (فصلبوه) فى مرقس تشمل كل الاستعدادات السابقة لذات الصلب مع جزء كبير من المحاكمة وهذا الرأي هو الأصوب يستعمل الماضى للحاضر (٢) يقولون ان أحد البشيرين أقل تدقيقا من الآخر فى التوقيت ولو لم يكن هناك حل بسيط وطبيعي غير هذا لشعرت أنه لا صعوبة فى إقراره. ولكن إذ أن توافق ودقة البشيرين جميعا حتى فى الدقائق تظهر لى جليا فى وقائع لا عدد لها فانه ضد أى قانون من قوانين العدل أن يصر المرء على أن هناك اختلافا أو عدم دقة (٣) يقولون إن يوحنا يستعمل التوقيت الرومانى المدنى ولكن لم يكن للرومان حساب ساعات كهذا ثم هذا يجعل أن اقرار بيلاطس أخذ حوالى الساعة السادسة صباحا أفرنجية فتكون المحاكمة ما بدأت بعد طلوع النهار وإلا فلا يكون وقت للحوادث التى وقعت بينها وبين الحكم.

ومن الصدق أن نقرر أن الأقدمين ما كانوا يراعون التوقيت تماما كما نفعل نحن الآن.

بالشفاه فى دمدمة غضوبة فقال لهم بيلاطس صارفا غضبه وجرح قلبه فى التنكيت عليهم [أأصلب ملككم ؟] . أجاب الصدوقيون والكهنة وقد ضربوا عرض الحائط بكل الرغبات الوطنية وبكل رجاء مسياوى [ليس لنا ملك (١) إلا قيصر] . وردد الغوغاء مرارا وتكرارا [إن أطلقت هذا الرجل فلست صديقا لقيصر . كل من يجعل نفسه ملكا يكون معاديا لقيصر] (٢) .

وعند ذكر اسم قيصر الأسود المخيف ارتعب بيلاطس . كان اسما ساحرا سيطر عليه وغلبه إذ تذكر الوسيلة الظالمة الرهيبة وهى الصاق تهمة الخيانة العظمى والتى يمكن أن تطلق جزافا على جميع التهم والتى جعلت العذاب ومصادرة الأملاك أمرا شائعا بل والتى صيرت الدماء تسيل كالمياه فى شوارع روما . وتذكر الامبراطور طيباريوس العجوز الكئيب الذى كان قابعا فى كابرى كى يخفى وجهه المضروب بالقروح ووساوسه القاتلة وأمراضه العليلة وانتقامه اليائس ، والذى كان في هذا الوقت قد أصابه جنون يورث صاحبه حب القتل وبغض الناس وشراسة الخلق إذ تكشفت لديه خيانة وكذب وزيره وصديقه الوحيد سيجانوس الذى كان بيلاطس مدينا له بمنصبه . وربما كان هناك جواسيس بين هؤلاء الغوغاء فاعتراه فزع وأذعن هذا القاضى غير العادل لمخاوفه الذاتية . خان بأرادته هذه الفريسة البريئة وأسلم يسوع إلى ألم الموت . وذاك الذى كثيرا ما فرط فى العدل لم يستطع الآن أن يجرى العدل الوحيد الذى أراد أن يتمه . ذاك الذى كثيرا ما ذبح الشفقة امتنع عليه الآن أن يتذوق حلاوة الشفقة الوحيدة التى اشتاق إليها . ذاك الذى كثيرا ما أساء استعمال سلطانه لم يقدر الآن أن يستعمله ولو فى هذه المرة الوحيدة إلى جانب الحق . حقا قد صارت خطيته هى سيدته

---

١ - المرادف الطبيعى هو كلمة امبراطور ولكن فى الأرياف كانوا يتحدثون حتى عن يوليوس قيصر على أنه ملك .

٢ - نفس أغريبا الأول على مسكوكاته كلمة معناها " محب لقيصر " .

المشومة ورذائله المحبوبة صارت آلات عذابه ! هل خطر على ذهنه قانون الاثنى عشر جدولا القائل « لا يجب أن تعتبر صيحات الناس الفارغة بتاتا عندما يصرخون طالبين إطلاق المجرم وتذنيب البرىء » ؟ وكان كل حرف منه أداة توبيخ له وهو يطلق باراباس ويسلم يسوع . ربما ... على أى حال لم يتركه ضميره مستريحا لأنه فى هذه الأثناء - أو فى وقت قبل هذا من المحاكمة - لعب دورا فى رواية مضحكة مبكية أراد به أن يحل ضميره من وزر الجريمة . فطلب ماء وغسل (١) يديه قدام الجميع قائلا : [انى برىء من دم هذا البار . ابصروا أنتم] . هل ظن أنه بهذا قد غسل جريمته ؟ يستطيع أن يغسل يديه فهل يستطيع أن يغسل قلبه ؟ أما كان يجدر به ويحق أن يقول مع الملك القاتل فى الدرامة الخالدة « هل يمكن أن تغسل مياه جميع الأوقيانوسات هذا الدم من يدي ؟ إنه أسهل لو أمكن لهذه اليد أن تحول عشب البحار من لونه الأخضر إلى الأحمر » (٢) . أما مرت على ذهنه المسكين وهو يخنق ضميره هكذا ، ولو إلى لحظة واحدة ، كلمات الشاعر مواطنه : « إن من أيسر الأمور عليك أن تظن أن جرائم القتل المريعة يمكن أن تمحوها مياه النهر » . ولو أن هذا قد حدث فان فكره حالا قد أغرق فى صرخة هى الأشد رعبا والأشد فتكا والأشد خلودا فى كل سجلات التاريخ [دمه علينا وعلى أولادنا] . عندئذ سلم بيلاطس نهائيا . وبغضب وتلكؤ قال كلمة « مستوجب الصلب » وأسلمه ليصلب .

ولنقف لحظة لنشاهد انتقام التاريخ . ألم يصر دمه عليهم وعلى أولادهم ؟ ألم يقع دمه بالأكثر على أولئك الذين كانوا أشد انغماسا في هذه الجريمة ؟ قبل أن تتم هذه الذبيحة الرهيبة مات يهوذا فى ويلات انتحار بشع ، وخلع قيافا فى السنة التالية ، ومات

---

١ - مع ان هذه العادة كانت يهودية (تث ٢١ : ٦ و ٧ ويغسل جميع شيوخ تلك المدينة... أيديهم .. ويقولون أيدينا لم تسفك هذا الدم وأعيننا لم تبصر) فقد كانت أيضا رومانية ويونانية .

٢ - شيكسبير .

هيرودس منفيا شريدا ، وأنزل بيلاطس عن الولاية بعد ذلك بقليل بنفس التهم التى أراد أن يتفاداها بتحمهم هذا القرار الدنىء ومات منتحرا فى المنفى وقد أثقلته المصائب تاركا وراءه اسما ملطخا (١) . وبيت حنان خرب بعد جيل واحد بأيدى رعاع مهتاجة جرت ابنه فى الشوارع وجلد وضرب فى مكانه حتى مات . وبعض أولئك الذين رأوا وشاركوا مناظر ذلك اليوم وآلاف من أبنائهم قد رأوا وشاركوا أيضا عذاب حصار أوروشليم المريع الذى يشهد التاريخ أن ليس له مثيل فى كل رعبه وهوله الفائق حتى أن رينان يقول « ظهر كأن الأمة كلها ضربت موعدا مع الفناء » .

لقد صرخوا ليس لنا ملك إلا قيصر فلم يصر لهم ملك إلا قيصر . فإلى زمن قصير بقيت لهم ملوكية محلية محتقرة خيالية وقسى عليهم قيصر بعد قيصر وظلمهم وعذبهم وقاومهم حتى قاموا أخيرا فى ثورة ضد القيصر الذى طلبوه فأطفأ قيصر بدم أحسن رجالهم المدافعين البقايا المشتعلة لهيكلهم المخرب . لقد اضطروا الرومان أن يصلبوا مسيحهم ومع أنهم اعتبروا هذا العقاب برهبة خاصة فقد صلبوا هم وأولادهم ربوات ربوات خارج أسوارهم حتى لم يعد مكان وحتى عز الخشب وصار العسكر يتفننون فى استكشافات خصبة لاستنباط طرق أخرى لاتمام هذا الموت الشنيع (٢) .

---

١ ـ يقول يوسابيوس ان نفيه إلى فينا اللوبرجوم ، وقبره فى جبل بيلاطس ، وحديقة بيلاطس واستشهاده الذي تعيده الكنيسة الحبشية فى يوم ٢٥ يونيو تقاليد غير محققة ، وكذلك ما ورد فى كتاب نيقوديموس أنه قد "ختن و قلبه" يظهر أن المسيحيين الأولين لم يكونوا غافلين عن جهوده لانقاذ يسوع . ويقول الأسقف جرمى تيلور فى كتابه "تاريخ المسيح" إن الله لم يرسل بروقا على كل القاتلين ، ولم يكسر بطاحون الحوادث وعدم الاستقرار كل المخالفين ، ولم يحدث بصوت الرعود كل الظالمين ، ولم يقطع لأول وهلة كل الثائرين غير الخاضعين . ولكن إذ فعل ذلك مع بعضهم فاننا نرى هذا صوتا إلهيا ينذر مثل هذه الجرائم بمثل هذه العقوبات وبالهلاك فى الأبدية . أى صدق واحترام فى هذا وليس فى النقد اليائس الذى لرينان .

٢ ـ الفكرة انهم إذ باعوا السيد بثلاثين من الفضة بيع كل ١٣ منهم بقطعة واحدة من الفضة ليس لها أصل إلا فى كتاب دخيل من العصور الوسطى اسمه "انتقام المخلص" . حقا ان

لقد أعطوا ثلاثين من الفضة فى دم مخلصهم أما ثم فبيعوا بالآلاف وبثمن أقل من هذا بكثير . لقد فضلوا باراباس على مسيحهم بينما كان خنجر القاتل آخر يجمع لأمتهم الفانية .



عملة سكها بيلاطس البنطي (عن المتحف البريطانى) *

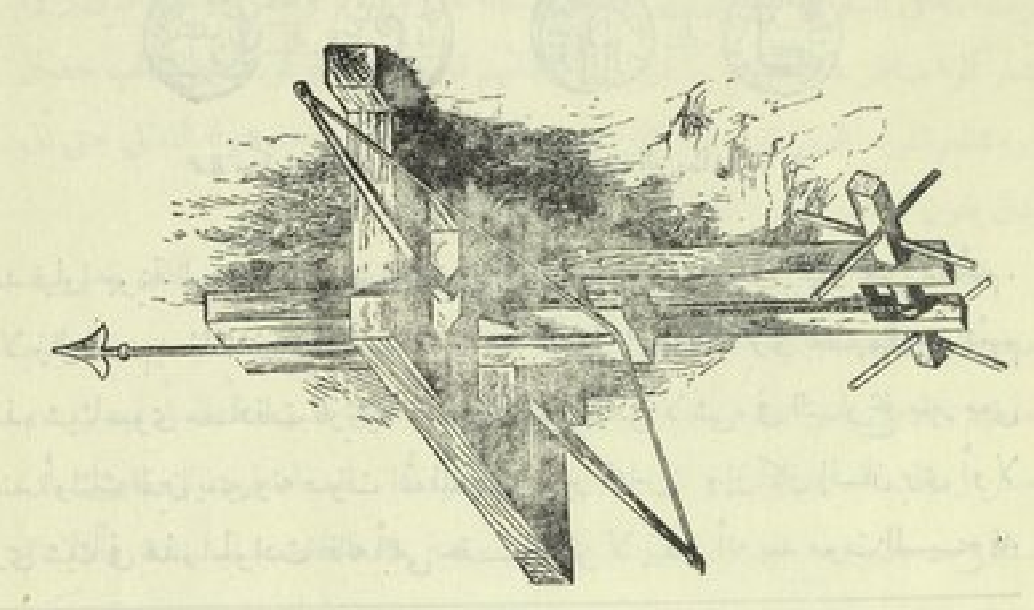
لقد قبلوا جريمة الدم فغرقت الصفحات الأخيرة من تاريخهم فى أنهار من دمائهم . ولا زال دمهم يسفك بقسوة طائشة جيلا بعد جيل[١] . وقد لا يرى بعضهم فى حوادثهم هذه شيئا سوى مصادفات تاريخية لا معنى لها ، ولكن لا شيء فى التاريخ بغير معنى عند أولئك الذين يعتبرونه صوت الله المنادى بمصير الناس . وإن كان إنسان يرى أو لا يرى شيئا فى هذه الحوادث فانه أعمى حقـــا من لا يبصر أنه بعد موت المسيح قد

دم يسوع الذى صار خلاصا للعالم كان لعنة عليهم فتحول المن إلى دود ونبيذ الملائكة إلى خل سيما عندما يملأ فى أوعية غير طاهرة أو تذوقه حلوق مفرطة . بل ان الشمس ذاتهـا أخرجت ضفادع عندما تنعكس على طمى النيل .

* هذه عملة نحاسية سكت فى أيام ولاية بيلاطس البنطى القليلة على فلسطين وتدل على امتلاك الرومان والاحترام الرفيق لعواطف محكوميهم . فعلى وجه العملتين كتب طيباريوس قيصر مع سنى حكمه أى ٢٩ م. ٣٩ م. ولـكن لم يرسم عليها وجه كما كانت عادة النقود التى تسك فى روما . وعلى احداها رسم آنية ربما أهديت من قيصر للهيكل . وعلى الوجه الآخـر للعملة الأولى ثلاثة سنابل غنية مربوطة سويا وحواليها اسم " جوليا أم القيصر " تخليدا لاسم الملكة الوالدة ليفيا التى عاشت إلى سنة ٢٩ م. وهو آخر تاريخ وجد على نقود باسمها . أما العصـا السحرية على العملة الأخرى فهى رمز للشعوذة التى كان طيباريوس يدين بها .

١ ـ المعرب : وآخر مذابح عامة لهم كانت أيام هتلر فى الحرب العظمى الثانية .

وضعت الفأس على أصل الشجرة العقيمة التى للجنسية اليهـــودية ، ومنذ ذلك اليوم وأوروشليم وكل تخومها أصبحت « مع ازدياد الأميال من شواهد القبور وتزايد المدافن » أكثر قليلا من مقبرة هائلة - حقل دما - أو حقل الدم . حقل الفاخورى



قـــوس وسهم رومانى

لدفن الغرباء . ومثل علامة قايين طبعت جريمة الدم على جبهة طائفتهم وستظل حتى يغسلها نفس ذلك الدم لأنه برحمة من الله عظيمة ان هذا الدم قد سفك أيضا من أجل الذين سفكوه والصوت الذى جهدوا أن يخفتوه بالموت ارتفع فى صلاته الختامية طالبا الرأفـــة بقاتليه لعلهم واجدون فى هذا الدم كفايتهم ولعل تلك الصلاة تستجـــاب لهم (١) .

---

١ - انى أضيف هذه الكلمات الأخيرة بأخلاص عميق ان من يتتبع روح النقمة فى الجزء الأخير من هذا الفصل يحكم خطأ على الروح التى كتب بها . وعا يقع هذا الكتاب فى يد يهودي فانه أكثر من كل قارىء ان كان مخلصا لحقائق الايمان الذى تدرب فيه سيعترف



الجـلد *

بابن الله فى التاريخ. والحوادث التى دونها ليست خيالية ولكنها حقائق واقعية . واليهودى على الأقل يعتقد أنه فى الأمور الزمنية يفتقد الله أحيانا ذنوب الآباء فى الأبناء . ولقد رأينا مرارا وتكرارا فى التاريخ أن ذنوب الآباء قد افتقدت فى الأبناء . هذا الظلم الظاهرى إنما هو سطحى . توجد نيران تطهر كما توجد نيران تمحو . ومن يقدر أن يقول إن مصائب اليهود (التى وآسفاه كثيرا ما أثارتها خطايا المسيحيين) لم يقصد بها سوى تصفية وتمحيص الذهب ؟ ولنذكر أن دينونة الله - بل أكثرها شدة وأعظمها عدم شفاء - قد تأتى مستترة لا فى ثياب الآلام بل فى فيض النجاح الأرضى والراحة .

* هذه العملة قد سكت فى بدء الجيل الأول قبل المسيح وربما كانت لتخليد اطفاء الفتنة التى قامت سنة ١٣٣ - سنة ١٣١ ق. م على وجه منها جندى رومانى له درع قصير . وجلدة مرعبة بها عقد ليضرب عدوا واقعا على ركبتيه خلف درعه . والحروف تشير إلى اسم الموظف (غالبا بروقنصل) التى سكت العملة تحت سلطانه . والوجه الآخر رأس منيرفا عليها الخوذة وهى إحدى آلهة روما وتحتها علامة * دلالة على أنها تساوى عشرة قطع من النحاس وإلى اليمين كلمة روما .



مدخل باب اسطفانوس بأوروشليم

الفصل الحادي والستون

الصلب

"عندما تدعو أحباء وأعداء الصليب
اذكرني يا يسوع يا ابن الله"
توماس

ابجيلى اكسيبيدى كروسيم . (اذهب يا جندى وجهز الصليب) . بجملة

مثل هذه من الأمر المريع أصدر بيلاطس أمره أخيراً (١) . ولا شك أن التنفيذ أعقب الحكم في الحال . والغالب أن الساعة الآن حوالى التاسعة والوقت اللازم للاستعدادات الواجبة لن يكون طويلا . وفى أثناء هذه الفترة القصيرة جرد العسكر الذين كان من واجبهم أن يقوموا بتنفيذ الحكم يسوع من عباءة الحرب الأرجوانية والتى اصطبغت بحمرة قانية من دمائه وألبسوه ثانية ثيابه الخاصة (٢) . وعندما جهزوا الصليب وضعوه - أو ربما عارضة منه - على كتفيه وساقوه إلى مكان الصلب . ولقرب العيد العظيم واحتشاد الملايين من اليهود في أوروشليم صار من المرغوب فيه أن تنتهز الفرصة لايقاع الخوف فى قلوب كل فاعلى الشر . لذلك اختير اثنان منهم لينفذ فيهما الحكم مع يسوع ، إثنان من اللصوص الأفاكين من أحط الطبقات . ووضع صليباهما عليهما ومشت فرقة كاملة السلاح تحت إمرة رئيس المائة . ومشى الموكب على هذا النحو شاقاً طريقه بين آلاف المتفرجين الذين كان بعض منهم مجرد مشاهدين مستطلعين والبعض الآخر أعداء غاضبين .

وما كان الصليب ، وما كان ممكنا ن أيكون ، ذلك الشىء العالى الثقيل الذى جعلتنا ملايين الصور أن نتمثله . كان الصلب عند الرومان عقابا شائعا ومن الجلى أنهم لن ينفقوا عناء فى صنع آلة العذاب والعار هذه (٣) . فبلا شك كان يعمل من أبسط أنواع

١ - من المحتمل لكن غير المؤكد أن بيلاطس أرسل تقريرا لطيباريوس عن الصلب كما أنه من المحقق أن " أكتابادوزيس وموررز واسبستولانى بيلاطس " مختلقة وقد يرى تشندورف فى خلالها بعض السجلات القديمة بين الزوائد الكثيرة ولكنى لا أرى فيها شيئا مهما أو مهما .

٢ - (الجلده) الواردة فى مت ٢٧ : ٢٦ رجوع إلى ما سلف .

٣ - من أنواع الصلبان المختلفة . الصليب المتقابل (X) والصليب المعكوف . ولكن من المؤكد أن الصليب الذى علق عليه يسوع إما كان الصليب الذى بلا قائمة عليا (T أو صليب القديس أنطونيوس) وإما كان الصليب ذا الثلاثة أذرع (أو الصليب العادى الرومانى †) . ولما كان النوع الأول على شكل أحد الحروف اليونانية فقد كان له الأفضلية عند الآباء . ولكن ما

الخشب الذى تصل إليه اليد من شجر الزيتون أو الجميز مضمومة إلى بعضها على أخشن الأشكال . ولكن لكى يحمل الصليب جسم إنسان يجب أن يكون لجسمه حجم وعزم كافيان . ولشخص قد أضعفته القسوة الشنيعة لا بد أن يسبب له حمل مثل هذا بؤسا زائدا (١) . ولكن يسوع لم يكن منهوكا من هذه القسوة فقط ولكن أضعفته الأيام السالفة العنيفة من الجهاد والاضطراب وكذلك الليل المفعم بالعواطف العميقة والذى لا نوم فيه ، والعذاب النفسى فى البستان . ثلاث محاكمات ، وثلاثة أحكام بالموت أمام اليهود ، والمناظر الطويلة المجهدة فى دار الولاية ، والفحص أمام هيرودس والاستهزاءات الوحشية التى نالته أولا من أيدى السنهدرين وخدامهم ومن أيدى حراس هيرودس ومن أيدى الكتيبة الرومانية ، كل هذا مضافا إلى التمزقات الأليمة الناجمة من الجلد قد حطم تماما قواه البدنية . ووضح من خطواته المتعثرة بل وسقوطه الفعلى مرارا تحت هذا الثقل المريع أنه يحتاج لقوة تمكنه من حمل الصليب من دار الولاية إلى جلجثا . ولو لم يكن من باب الشفقة على ضعفه فمن باب عدم رغبة العسكر الرومان . فى هذه العقبات والتأخير وجدوا طريقة سهلة للخروج من هذه المشكلة . لم يبتعدوا إلا قليلا عن أبواب المدينة حتى وجدوا رجلا عائدا من الحقل ،

يجعلنا متأكدين ـ على نوع محتمل جدا ـ وما يجعلنا نناصر الشكل الثانى الذى حفظته لنا تقاليد الفن لمدة تزيد على ١٥٠٠ سنة هو ما كتبه متى فى ٢٧ : ٢٧ (فوق رأسه) أى كان للصليب فرع (ذراع) أعلى . ولم أتعرض لما تسمى قصة " اختراع الصليب " لأنها ظاهرة البطلان . وكان اليهود يحرقون الصلبان . ولقد جمعت كل ما يهم عن هذا الموضوع فى مقالتى الصليب " والصلب " المنشورتين فى قاموس الانجيل لسمث .

١ ـ قارن تك ٢٢ : ٦ و اش ٩ : ٦ . ليس من المحقق إن كان المحكوم عليه يحمل الصليب كله أو جزءا منه ، القائمة أو العارضة مثلا . فان كان جميعه فالغالب ألا يكون كما فى الصور مسمرا ولكن تكون عارضتاه مربوطتين بحبل ويحمل وهو على شكل ٧ . وإن كانت اليدان موثقتين كما جاء فى التقاليد كتاب (أعمال بيلاطس) فان صعوبة حمل هذا الثقل تزداد أكثر جدا .

معروفا عند المسيحيين الأولين باسم سمعان القيرواني ، أبا الكسندر وروفس ، وربما للاحظة من اليهود السائرين عرفوا أنه كان يعطف على تعاليم المتألم فسخروه فى خدمتهم الغريبة (١) .

واستمر الموكب الخاسىء . ومع أن التقاليد الأبوكريفية للكنيسة الرومانية تذكر حوادث عديدة عن « طريق الآلام » فيادولوروزا . فان حادثة واحدة فقط هى التي دونتها البشائر (٢) . ذكر لوقا أنه كان بين الجموع الزاخرة التي تبعت يسوع نسوة عديدات . ويبدو أن يسوع لم يظفر من الرجال الحاشدين فى الجمع الزاحف ولا بكلمة حنان أو عطف مع أن بعضا منهم ، ولا شك ، قد رأوا عجائبه وسمعوا كلماته ، وبعضا قاربوا أن يقتنعوا إن لم يكن قد آمنوا فعلا بمساويته التى أعلنتها شفتاه وهو يدلى بأحاديثه العظيمة فى الهيكل ، وبعضا من الجمهرة المتحمسة التى صحبته من بيت عنيا قبل ذلك بخمسة أيام يلوحون بأغصان النخيل ويهللون بأوصنا . ولكن إما من جبن بلا إخلاص ، وإما من جحود عميق ، وإما أيضا من حزن شديد ، قد التزموا

---

١ ـ (فسخروه) . يبدو أنه كان عاديا عند العسكر الرومان أن يسخروا الناس فى حمل الأثقال بدلا منهم . كان للقيراونيين مجمع فى أوروشليم (أع ٢ : ١٠ و ٦ : ٩) . اسما اسكندر وروفس شائعان جدا حتى ليصعب التحقق إن كانا هما المذكورين فى أع ١٩ : ٣٣ و انى ١ : ٢٠ و رو ١٦ : ١٣ . الفكر الذى يظنه الكرينثياويون والباسيليديون والكاربوكراتيون من أن سمعان قد صلب خطأ بدل يسوع فكر سخيف ولا يستحق أى اهتمام . ورأى عاطل أيضا يقول إن يهوذا قد صلب بدله ! ورأى آخر أن رجلا اسمه تيتيان هو الذى صلب أو شاخصا «شبحا» خلقه الله على شبه المسيح ! ولتسرب هذه السخائف والأساطير إلى بلاد العرب فانهم يعتبرون صلب يسوع كحكاية نافلة . ولكنه " صلب وقبر وقام " (قانون الايمان) .

٢ ـ هذه الحوادث هى التى أوجدت المحطات (المرحلات) التى نراها فى الكنائس الرومانية وهى بلا شك مستقاة من الأبوكريفا . وابتدعها الفرنسيسكان . أما الفيادولوروزا أو طريق الآلام فلم يذكر قبل الجيل الرابع عشر . ومن المحتمل المحزن أن يسوع قبل أن يرفع عنه حمله كان يساق ويجلد .

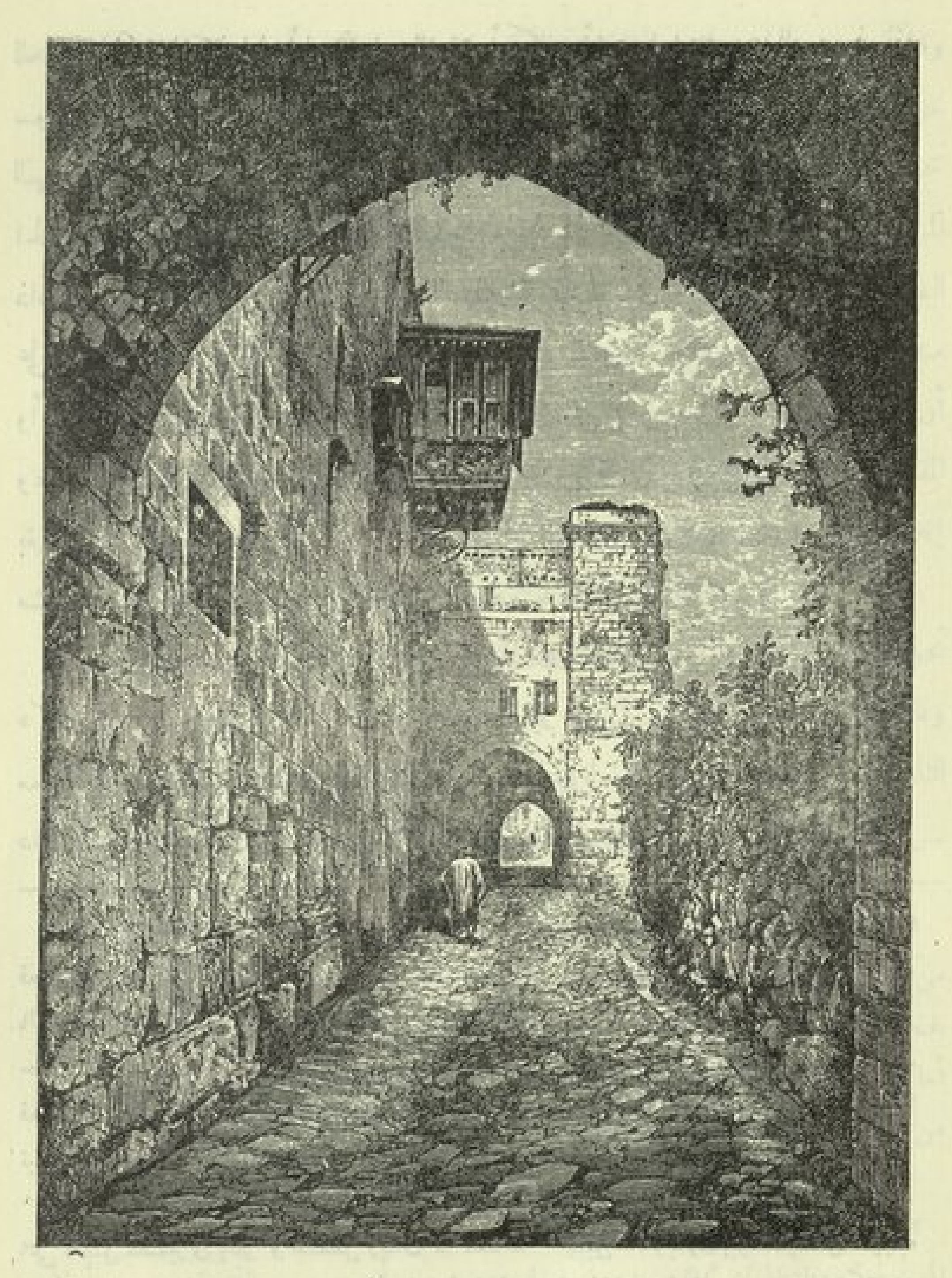
الصمت . ولكن أولئك النسوة وهن أسرع إلى الشفقة وأقل تقدير للظروف السائدة لم تستطعن ولم يردن إخفاء حزنهن ودهشتهن اللتين أثارهما هذا المنظر فقرعن صدورهن وملأن الهواء بندبهن إلى أن أسكت يسوع ولولتهن بكلمات تحذير رهيب . التفت إليهن - وهو أمر كان يتعذر فعله لو كان حتى ذلك الوقت يتعثر تحت ثقل الصليب - وقال لهن [يا بنات أوروشليم لا تبكين على بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن . فها أيام تأتي يقولون فيها طوبى للعواقر والبطون التى لم تلد والثدى التى لم ترضع . حينئذ يبتدئون يقولون للجبال اسقطى علينا وللآكام غطينا فإن كانوا يفعلون هذا بالعود الرطب فماذا يكون باليابس] ؟

كان ندبهن نتيجة انفجار عواطف حنان نسائية لم تستطعن ضبطها عندما رأين نبي الانسانية العظيم فى ساعة عاره وضعفه يسبقه مناد يعلن الجرائم التى اتهموه بها. والعسكر الرومان يحملون عنوان خزيه ، وسمعان منحنيا تحت ثقل الخشب الذى كان سيسمر عليه يسوع . فحذرهن وأظهر أن كل ما رأينه في هذا الموكب السارى من الويل لا يقاس بدواعى الأسى الأعظم من هذه التي تنتظرهن وأولادهن وأمتهن . ستعيش كثيرات منهن - وأغلب أولادهن - حتى يرين أنهار الدم المسفوك وآلام تعذيب لم يعرف العالم شبيها لها وأياما تفقد مقدرة الناس على احتمال الألم فيطلبون الهرب تحت التل المبنية مدينتهم عليه (١) .

إن شجرة التين التى لحياة أمتهم كانت للآن رطبة خضراء ، فإن كانت أعمال ظلمة مثل هذه تقترف الآن فماذا يكون عندما تذوى الشجرة وتيبس وتصير معدة

---

١ - هو ٩ : ١٢ - ١٦ و ١٠ : ٨ و اش ٢ : ١٠ و رؤ ٦ : ١٦ و كلمات يسوع هذه قد تمت بكل ألم حرفيا . فانه عند حصار أوروشليم خبأ مئات من اليهود المساكين أنفسهم فى مغاور قذرة مظلمة تحت الأرض فمات فضلا عمن اغتيلوا حوالى ٢٠٠٠ ، فقتلوا دفنا تحت خرائب مخبأهم . (يوسيفوس) .



فيا دولوروزا — طريق الآلام

للحريق (١) ؟ إن كانوا فى أيام الأمل والترفق أمكنهم أن يذلوا مخلصهم الشنق فماذا سوف يحدث في أيام التجديف والجنون واليأس ؟ إن كان الكهنة والكتبة فى وضح النهار أمكنهم أن يصلبوا البار فماذا سيفعل بهم الثوار والقتلة من مظالم نصف الليل الحالك والاضطرابات الملطخة بالدماء ؟ اليوم يوم الجريمة أما ذلك فسيكون يوما تنتقم ذات الجريمة لنفسها بغضب ذريع . هذا التحذير الرهيب الذى يعتبر آخر عظة للمسيح على الأرض قصد به أولا من سمعوه ولكن مثل كل كلمات يسوع لها معنى أعمق وأوسع لكافة الجنس البشرى . تحذر هذه الكلمات كل ابن آدم أن يوم المسرة المفرطة وعدم الايمان التجديفى سيتبع حتما بالهلاك . إنها تحذر كل إنسان يعيش فى الأرض بترف ويأكل ويشرب ويسكر وإن كان إمهال الله يتأنى وإن كان صمته يظل غير مشوب فستأتى أيام يزمجر فيها برعود ويحرق غضبه كنيران آكلة .

وأتوا بعد هذه الحادثة الفريدة المحزنة إلى المكان القاتل المسمى جلجثة أو باللاتينية « كالفارى » أى الجمجمة . أما لماذا سمي هكذا فغير محقق . وربما يفهم أنه مكان شهير معد لأطاحة الرؤوس . أو ربما كان المكان مرتفعا عاريا مستديرا مثل الجمجمة . وهو دائما يدعى « تل الجلجثة » . ولكن البشائر تسميه فقط « مكان » الجلجثة لا « تل » (٢) .

---

١ ـ المعنى الحقيقى لهذا الكلام الذى صار مثلا غير محقق والتفسير العام هو " ان كان فى اتمام قصد الله وجب أن أتألم أنا القدوس البار هكذا . ان كان الغصن الرطب قد ضرب . فكيف بالشجرة اليابسة لحياة شريرة بفروعها الكريهة عندما تحرق بأشد النيران " قارن أم ١١ : ٣١ و حز ٢٠ : ٤٧ و ٢١ : ٤ وخصوصا ١ بط ٤ : ١٧ راجع شنكل . صعوبة هذه الكلمات قدرت منذ العصر الأول ونرى تلميحا سخيفا إليها فى كتاب " انتقام المخلص " . إذ جعلوا تبطس يقول " لقد صلبوا السيد على شجرة خضراء ... فلنصلبهم على شجرة يابسة " !

٢ ـ مت ٢٧ : ٣٣ و مر ١٥ : ٢٢ كلمة كالفارى كترجمة لجمجمة وردت فى لو ٢٣ : ٣٣ . سمى بالجبل الصغير فى إتنر واستعمل ريناف كلمة معناها " الجبيل " . ويقول إيوالد إنه تل الغريب المذكور فى ار ٣١ : ٣٩ . وليس من الموافق الدخول فى مجادلات حول الموضع . ربما سيكتشف يوما من الأيام ازاء الحائط الثانى لأسوار أورشليم .

وقد كتبت مطولات لتحديد المكان ولكن لا يعلم عنه خبر أكيد لأن المعلومات حتى ما يقرب منها للصحيح تنقصنا تماما . والأغلب أن يكون المكان دفينا مهجورا تحت تلال القاذورات التى للمدينة التى غزيت عشرات المرات. أما الجبل المنزلق الأشعث المرسوم فى الصور المقدسة فخيالى مثل جمجمة آدم التى ترسم فى الغـــالب تحت قدم الصليب (١) أو مثل آلاف التقاليد التى تجمعت حول هذه البقعة التى رأت أعظم وأفجع منظر فى تاريخ العالم . وكل ما نعلمه عن جلجثة أو ربما ما سوف نعلمه هو ما أراد الله أن نعلمه عنه أنه كان خارج أسوار المدينة . إن ديانة المسيح روحية ، في غنى عن الآثار المقدسة ، ولا ترتكز على الأماكن المقدسة ، وهى لا تقول لكل بنيها [انه هنا أو إنه هناك] بل [ملكوت الله فى داخلكم] .

خلال هذا العقاب المتناهى فى الوحشية والشر إلى أقصى حد والذى قد محته من نحو خمسة عشر قرنا (٢) شفقة الناس والكره العام له كانت تتبع عادتان، عادة في اليهودية وعادة كان يتبعها الرومان أحيانا تظهر لمسة من الشفقة الانسانية العارضة . أما العادة الثانية فهى أن تكال للمعذب ضربة قوية تحت الأبط لا تحدث الوفاة ولكن تعمل على سرعة دنوها . ولا أريد التحدث عن هذه العادة لأنه لسبب ما لم تتبع فى هذه الحادثة

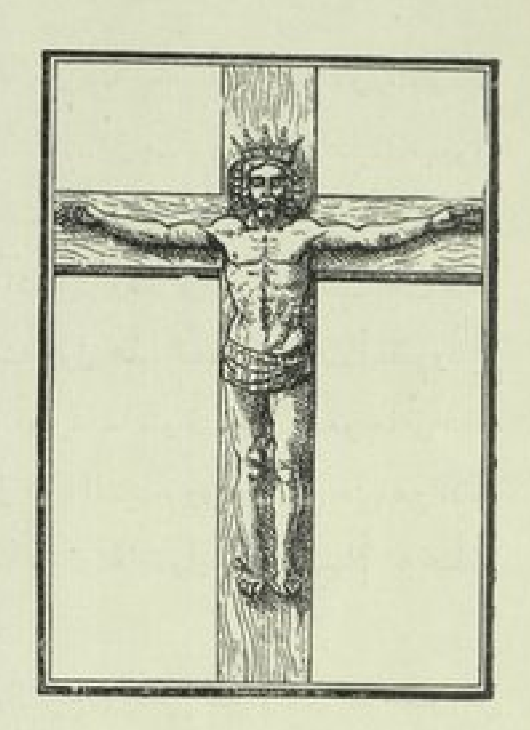
---

١ - يقارن أوريجانوس هذا بما جاء فى ١ كو ١٥ : ٢٢ . يوجد تقليد قديم يقول أن ثلاث نقط من الدم وقعت على رأس آدم وجعلته يقوم من الأموات اتماما للنبوة القديمة التى اقتبست فى اف ٥ : ١٤ حيث سمع ابينيموس أحد الوعاظ يقول "استيقظ أيها النائم آدم... فيلمسك المسيح" أما القراءة الصحيحة فهى " يضىء لك المسيح " وهذه الجملة فى الأصل شعرية وإذ ليس لها مورد من الكتب فيظن أنها جزء من ترنيمة مسيحية قديمة .

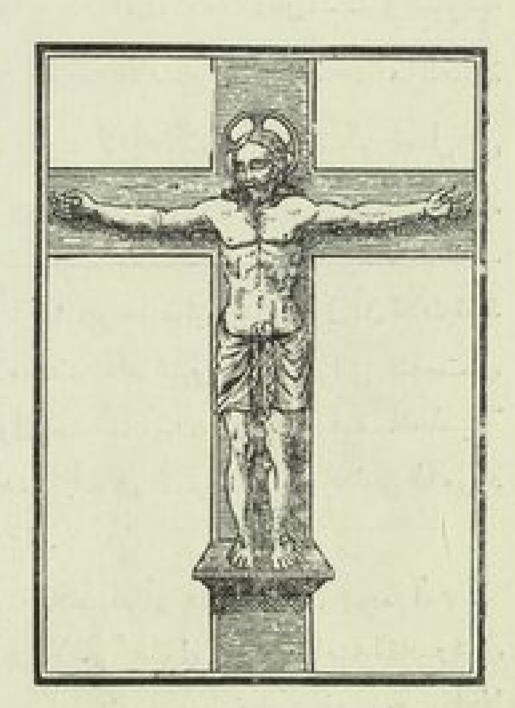
المعرب : تقليد شرق يشير إلى أنه دعى بالجمجمة للاعتقاد أن هنا قد دفنت جمجمة آدم .

٢ - محاه قسطنطين . عار الصلب لا زال محفوظا فى الاسم " طالولى " الذى يخلعه التلمود على المسيح " وعباد المعلق " الذى يدعون به المسيحين مع انه حسب خرافتهم قد رجم أولا وبعدئذ علق على شجرة أما الرومان فيسمون الصلب الاستعباد - العار - الخ .









مجموعة من أقدم الصور للصلب عن روكا

بالذات . أما العادة الأولى التى تدل على أن طبيعة اليهود أرأف فتخذة من تفسير حاخامى رحيم لأمثال ٣١ : ٦ يتضمن اعطاء المحكوم عليهم قبل البدء مباشرة فى التنفيذ جرعة من النبيذ يضاف إليه مخدر قوى (١) . وكانت عادة نساء أوروشليم الغنيات أن يجهزن هذه الجرعة المنومة على حسابهن ويفعلن ذلك دون اعتبار خاص لأى مجرم بالذات. وربما قد تعاطى فاعلا الشر منها ما شاءا بالقدر الذى أراداه. ولكن عندما قدمت ليسوع لم يرد أن يشرب منها . كان هذا هذا الرفض من أسمى أعمال البطولة . كان تأثير الجرعة يصيب الأعصاب بالخدر ويحجب الذاكرة فتكون كسكن ولو جزئى للآلام الطويلة التى لهذه الميتة المفجعة . ولكن ذاك الذى تسفل بعض النقاد الحديثين لدرجة من الضعة حتى اتهموه بالضعف النسائى والجبن واليأس فضل أن يجابه الموت وجها لوجه ، وأن يقابل تلك المخاوف دون أن يرضى أن يخفف من حدة الآلام المتدفقة أو يوقف نبض عصب ممزق واحد .

ووضعت الصلبان الثلاثة على الأرض . وصليب يسوع الذى ربما كان أطول من الاثنين الآخرين وضع فى الوسط باستهزاء مرير . سمرت الآن العارضة الأفقية مع العارضة الرأسية . وبالتأكيد سمر أيضا على رأس الصليب العنوان الذى قد يجوز أن يكون حمله يسوع مغلولا إلى عنقه ، أو يجوز أن يكون قد حمله أحد الجند أمامه . وعروه من ثيابه وتبعت بعد ذلك اللحظة الأشـــد عذابا من الكل . وضع على آلة العقاب وشدت ذراعاه على العارضة الأفقية وفى وسط الكف المبسوط وضع طرف مسمار حديد كبير ودق بضربات المطرقة حتى دخل فى الخشب وبعدئذ إما فى كل قدم

---

١ - أكتب هذا التطويل لأن تعودنا على الحكايات التى كررت دائما يمنعنا من تفهم معنى الصلب على حقيقته وبالتأكيد خير لنا لو نشعر به . والغالب أن هذه العقوبة الشنيعة قد أخذها الرومان عن الفينيقيين أما المصريون فكانوا يربطون المعلق من يديه ورجليه على الصليب ويتركونه حتى يموت جوعا .

على حدة أو فى الاثنين سويا ، وهما موضوعان على بعضهما ، دق مسمار آخر كبير الحجم شاقا طريقه ممزقا اللحم المرتجف. ولا نعلم إن كان المتألم قد ربط أيضا إلى الصليب أم لا. ولكن لمنع تمزق اليدين والقدمين من ثقل الجسم الذى يصعب أن يرتكز على أربعة جروح كبيرة كان قرب وسط الصليب بروز خشبي قوى يحمل ولو جزئيا ثقل الجسم الذى يصبح سريعا ثقلا من الآلام .

غالبا في هذه اللحظة من الآلام التى لا يعبر عنها سمع صوت ابن الانسان ، لا في صرخة طبيعية من ألم هذا العذاب المخيف ، ولكن فى صلاة هادئة ، بعطف إلهي ، من أجل أولئك القتلة المتوحشين غير الشفوقين ، وأيضا من أجل جميع الذين فى جهل الخطـــايا يصلبونه دائما ثانية من جديد (١) قائلا : [يا أبت اغفـــر لهم لأنهم لا يعلمون ما يفعلون] .

بعدئذ رفعت الشجرة الملعونة (٢) مع حملها الانسانى معلقـا فى ألم ، لا حـول له ، متحملا آلاما جديدة لأن كل حركة كانت تهيج ألم الجروح الحديثة فى اليدين والرجلين. وبأيد قوية ركزت تلك الشجرة بثبات فى حفرة عميقـة عملت خصيصا فى الصخـر . وكان القدمان مرتفعين قليلا عن الأرض ، فكانت الفريسة فى متناول يد كل من يختار أن يضرب ومواجهة كل إشارة شتيمة أو كره . وكان المصلوب يترك الساعات الطويلة ليشهر به ويهان ويسب بل وليعذب أيضا من الجموع المارة التى تستهويهم شهوة رؤيا كل ما هو مريع ، الأمر الذى هو صفة لازمة للقلوب الغليظة . وقد تجمعوا حول منظر كان الأحرى أن يجعلهم يذرفون الدم مع الدموع .

---

١ ـ قال الشاعر بروننج متخذا هذه الفكرة " أليس حبه الذي للآن يحارب ضد الخطية يشارك ويخذل ويصلب فى كل مرة نجترم خطية على الأرض " .

٢ ـ خشبة العار . هذه الشجرة التى كانت للخزى واللعنة ترفع الآن على قضبان السلطة وتحفر وترسم على جباه الملوك . ونحن لا نستطيع بيان الرعب والكره اللذين كانا يقرنان بها عندما كانت فقط " للألم والاجرام والشهرة الذريعة " جيبون .

وهناك فى آلام مبرحة تفوق حد الاحتمال وتزداد إلى درجة الجنون مع مرور الوقت الذى قد يطول على المصلوبين فى عذاب قاس حتى أنهم كانوا كثيرا ما يضطرون أن يتوسلوا ويتضرعوا لمشاهديهم بل أيضا لمنفذى الحكم فيهم ويستحلفونهم باسم الرحمة أن يضعوا حدا لهذا العذاب المريع الذى لا يستطيع إنسان أن يحتمله سيما ان الحس يظل سليما إلى النهاية ولا يفقد الشعور ، كانوا بدموع اليأس القاتل يترجون من أعدائهم منحة الموت الغالية (١) .

إن الموت على الصليب يشمل فى الحقيقة كل ما يمكن للموت أن يتملك من الأهوال والأوصاب ، فمن دوار إلى تشنج إلى عطش إلى جوع إلى قلق إلى حمى جراحية إلى تصلبات إلى كزاز (٢) إلى عار علنى إلى اضطهادات متواصلة إلى خوف الترقب إلى آلام الجروح المهملة ، كل هذه مركزة للدرجة التى لا تحتمل ولكن للدرجة التى تقصر عن منح المتألم راحة فقد الشعور . هذا التعليق فى وضع غير طبيعى يجعل كل حركة مؤلمة والعروق الممزقة والأوتار المنسحقة تنبض بألم لا يسكت ، والجروح الملتهبة لعدم وقايتها وتعريضها غير مربوطة تصيبها الغرغرينة تدريجيا ، والشرايين - سيما التى للرأس - تنتفخ وتضغط بالدم الزائد ومع الازدياد التدريجي لكل أنواع العذاب هذه يتزايد معها عطش محرق مغيظ لا يحتمل . وكل هذه المضاعفات الجسمانية تنتج اضطرابا وعصبية داخلية تجعل الموت - ذلك العدو المجهول الذي يهز اقترابه أغلب الناس هزا - تجعله راحة عذبة مرغوبة .

كان هذا هو الموت الذى ارتضاه المسيح . ومع أنه كان سريعا من جراء ما سبق أن احتمل من عذاب فقد ظل معلقا من الظهر حتى قاربت الشمس على الغروب قبل

---

١ - لهذا توجد حوادث تاريخية خنق أو قتل أو تقريبا أميت المجرم قبل أن يصلب وحوادث أناس دفعوا رشوات كبيرة على هذه المنحة المخيفة ولكنها رحيمة .

٢ - تصلبات ويبوسة .

أن « يسلم ذاته للموت » .

عندما رفع الصليب رأى رؤساء اليهود بوضوح لأول مرة الهـزء المميت الذي أفرغ فيه بيلاطس غضبه . أعماهم الغيظ قبلا فظنوا أن علة صلبه كانت عنوان عار موجه ليسوع . ولكن إذ شاهدوه الآن معلقا بين لصين رأوا فجأة أنه هزء على موجه لهم. لأنه على القطعة المربعة الخشبية المعلقة على رأس الصليب فوق يسوع والمبطنـة بالجبس الأبيض كى تظهر بوضوح الحروف السوداء التى كتبت باللغات الثلاث المتمدينة فى الدنيا القديمة والتى كانت إحداها على الأقل معروفة تماما بالتأكيد لكل انسان فى الجمع الحاشد ، أى اللاتينية الرسمية واليونانية السارية والآرامية الدارجة ، معلنة الجميع أن هذا الانسان المحكوم عليه بهذه الميتة المملوءة عارا وعبودية، هذا الرجل المصلوب بين فاعلى شر منظرا للعالم كان :

[ملك اليهـــود] (١)

ولم يجد فيها حقدهم الدفين شيئا من الاحتقار للمصلوب . لقد ملك حتى على صليبه. حتى هنا قد تمجد على الكهنة الذين سعوا فى موته وعلى الجمهور الطائش القاسى غير المهذب الذى كان يتكاتف ليشبع نهم عينيه من آلامه . كان حقدهم عنيفا ضد إنسان أفزع نبله الروحي والخلق فاعلى الشر المائتين وأخاف المنفذين الوثنيين حتى وهو فى أشد خذلانه الجسدى . كان مزاح الوالى الرومانى ممتزجا بشىء من الجد . بينما كان ينتقم لنفسه من رعيته المكروهة بهذا القول المملوء نخة علنية فربما عن قصد أنه كان على وجه ما [ملك اليهود] ، أعظم وأنبل وأصدق من أنجبته أمته ولذلك صلبته أمته . لم يكن الملك غير أهل لمملكته، ولكن المملكة غير مستحقة للملك . نعم كان هناك شىء يفوق الملوكية فى عينيه اللامعتين اللتين لم تكفا عن النظر بحزن إلى مدينة البر التى صارت

---

١ ـ لا ندرى أى البشيرين قد دون العنوان بدقة أكثر ، والغالب أن يكون يوحنا الذى دون أطول عنوان وأنه كتب بالآرامية إذ يأخذ حيزا أقل .

مدينة القتلة . وقد شعر اليهود بعظم وثقل الاستهزاء الذى رماهم به بيلاطس . لقد كاد أن يسمم ساعة انتصارهم . فأوفدوا رؤساء الكهنة يرجون الوالى أن يغير هذا العنوان البغيض قائلين لبيلاطس [لا تكتب إنه ملك اليهود بل هو قال إنى ملك اليهود] .

ولكن شجاعة بيلاطس التى كانت قد خانته وغاضت منه سريعا عند ذكر اسم قيصر قد عاودته الآن . كان مسرورا بأية وسيلة وبكل وسيلة أن يخزى ويتغلب على الرجال الذين جعلته صيحتهم الثائرة فى الصباح يعمل ضد إرادته . قليل من الرجال لهم المقدرة الممتازة فى التعبير عن أقصى الاحتقار مثل الرومان . فبدون أن يكلف بيلاطس نفسه بيان أحقية ما فعل صروف هؤلاء الشيوخ الوقورين بجواب قصير بارد محتقر [ما كتبته قد كتبته] (١) .

توجد حوادث قد أنزل فيها رجال من على الصليب وأعيدوا إلى الحياة (٢) . فلكى تمتنع أية وسيلة للاغاثة ولو في الدقيقة الأخيرة وضع الوالى أرابع من العسكر ومعهم رئيس مائة في موضع الصلب ليحرسوه . وكانت ملابس الفرائس تصبح عادة نهبا مشاعا للرجال الذين كان من نصيبهم أن يؤدوا هذه المهمة الكريهة المتعبة . وبدون أن يحلموا كيف أنهم كانوا يتممون عفوا ولكن بتدقيق النبوة القديمة اليهودية بدأوا يقتسمون ثياب يسوع فيما بينهم . فقسموا الطاليث إلى أربعة أجزاء غالبا بتفتيق أماكن الخياطة . ولكن الكيثونيت ، أى القميص كان نسيجا قطعة واحدة ، فاذا مزق يتلف . لذلك قنعوا أن يصير ملكا لمن تصيبه القرعة من الأربعة . وعندما انتهوا

---

١ - خلق مثل هذا فى بيلاطس كان يجوز أن يقال عنه إنه " خيالى " لو لم يذكر فيلو " أنه كان له القصد الملعون أن يغيظ الناس " .

٢ - بناء على توسل من يوسيفوس الذى سجد أمام تيطس أنزل ثلاثة رجال أحياء من على صلبانهم " ومع كل العناية الممكنة " مات منهم اثنان رغم كل الجهود . مثل هذا قد روى عن ساندوكس وعن الثائرين فى حكم لويس الخامس عشر .

جلسوا يراقبون النهاية وهم يصرفون الساعات المتعبة التى استطالت بالأكل والشرب والمرح والمراهنة ولعب النرد .

كان منظر اضطراب مقبض ، ووقف أغلب القوم يتفرسون صامتين . ولكن أقلية منهم وهم يمرون على الصليب - ربما بعض شهود الزور والمتآمرين عليه فى الليل السابق - سخروا من يسوع بشتائم عالية واتهامات غضوبة ، وكانوا يأمرونه أن ينزل من على الصليب ويخلص نفسه ما دام مستطيعا أن يهدم الهيكل ويبنيه في ثلاثة أيام . ولم يستح رؤساء الكهنة والكتبة والشيوخ - وكانوا أقل شفقة من عامة الشعب - أن يلطخوا كرامتهم الوقورة وشعرهم الأبيض وشهرتهم العالية بإضافة تو بيخاتهم القاسية لتو بيخات أولئك النفر القليل الشرير . لم يروعهم الصبر النبيل الذى للمتألم ، ولم يكفهم إتمام انتقامهم العنيف ، ولم يحرك عواطفهم الألم الذى ليس معه حول ، بل كانوا يهنئون بعضهم ويهزأون فيما بينهم تحت صليبه قائلين [خلص آخرين ولم يقدر أن يخلص نفسه] ، [إن كان هو المسيح ملك اسرائيل فلينزل الآن عن الصليب لنرى ونؤمن به] . فلا عجب بعد هذا إن كان العسكر الجهلاء قد شاركوا أولئك الشيوخ غير المحترمين الملوثين خزيا فى سخريتهم . ولا عجب إن كانوا أثناء طعامهم قد تحدوا الرجل المائت بسخرية طروبة وهم يحملون بقسوة كؤوس النبيذ الخاثر إلى شفتيه المحروقتين بينما يرددون التعبيرات اليهودية ضد ضعف ملك عرشه الصليب وتاجه الشوك . بلى إن العدوى الجبارة قد أصابت البائسين المسكينين اللذين صلبا معه - ربما كانا زميلين لباراباس الذى أطلق سراحه ، ووارثين غضب ثورة يهوذا الفالينوطى - واللذين درجا وتدربا على ألا يعتبرا مسيحا ومخلصا سوى السيف . هذان عيراه أيضا وأمراه أن يخلص نفسه ويخلصهما كذلك (١) إن كان ما يدعيه صحيحا . وقد تصايحت كل الأصوات

---

١ - لقد قنعت فى هذا الموقف كما فى كثير غيره بتفنيد الاختلافات التى يظن بوجودها بين البشائر واظهار أنها غير موجودة . وقد استعملت كلمة " تعبير " لما ظهر من الصين أولا

التى حوله بالتجديف والخنق . وفى ذلك العذاب الطويل البطيء لم تسمع أذناه المشرفتان على الموت أى حرف من عرفان الجميل أو العطف أو الحب . كانت السفالة والكذب والوحشية والجهل هى صفات الدنيا البارزة التى ظهرت بوضوح أمام المخلص فى دقائقه الأخيرة ؛ ونهر من الأوحال والرزايا هو الذى جرى تحت الصليب قبالة عينيه القريبتين من النهاية .

ولكن وسط هذه الصيحات المنكرة المترددة لم يتكلم يسوع . كان يقدر أن يتكلم، فان آلام الصلب لا تصيب القوة العاقلة أو تشل مقدرة النطق . فاننا نقرأ عن مصلوبين استمروا ساعات طويلة يعلنون حزنهم أو حنقهم أو يأسهم على الطريق الذى يتوافق مع طباعهم ، ونقرأ عن مصلوبين ثاروا ولعنوا وبصقوا على أعدائهم ، وعن مصلوبين ظلوا إلى النفس الأخير يحتجون ضد ظلم الحكم الذي صدر عليهم ، وعن مصلوبين طلبوا الرحمة بتوسلات ذليلة ، وعن مصلوب خطب جموع بنى وطنه من على الصليب وحكم عليهم كما لو كان على منصة القضاء فرماهم بالدناءة وعنفهم على رذيلتهم . أما يسوع فلم ينطق إلا ما يبارك ويعضد ويزيد في مسرة ورجاء الآخرين . أما عن حمق المارة والكهنة وأعضاء السنهدرين والجند وهذين اللصين المسكينين المصلوبين معه وكما كان قبل المحاكمة وأثنائها صامتـــا فهنا أيضا على الصليب بقى فى صمت ملوكى لا تشوبه شائبة .

كان هذا الصمت مضافا إليه عظمته الصابرة وقداسته الألهية وبراءته التى أحاطته وشعت منه كهالة نورانية أبلغ من أى كلمات . وقد أثر أولا على أحد اللصين . ويظهر أن هذا « اللص الطوبارى » كما تسميه بعض التقاليد اشترك قليلا فى التعييرات التى نطق بها زميله فى الخطية . ولكن عندما تطورت هذه التعييرات إلى تجاديف اعترف عما في صميم فكره . ربما كان قد صادف يسوع قبلا وسمعه، أو ربما كان واحدا

(مت ٢٧ : ٤٤) " وتجديف " لما فاه به غير التائب (لو ٢٣ : ٣٩) .



نقوش قديمة على المقابر تمثل مناظر من آلام المسيح

من أولئك الآلاف الذين شاهدوا معجزاته . ولا يوجد مرجع أصيل للتقليد الذى يسبغ عليه اسم «دماس» أو للقصة اللطيفة أنه نجى حياة العذراء والطفل أثناء الهروب إلى مصر . ولكن ربما يكون قد اقترب إلى حضرته على سهول جنيسارات عند مغاور اللصوص التى فى قفار وادى الحمائم ووجدت كلمات يسوع مكانا طيبا فى تربة قلبه الخصبة . لم تقع كلها على أراض محجرة . فحتى فى هذه الساعة ، ساعة العار والموت ، عندما كان يجازى بنتائج أعماله الرديئة الماضية ، انتصر الإيمان . وكما تصاعد أحيانا اللهب من الرمضاء الفانية كذلك كانت نيران الحب لله ولمخلصه ، لم تنطفىء تماما بين فحم حياته الخاطئة التي جثمت بثقل على قلبه . وتحت الصرخات التى تجاوبت أصداؤها حول صليب يسوع قد بقى نخس عميق فى القلوب بعثه الشك والخوف . وحتى فى تهاني الكهنة نلمس رنة خافتة خفية من الخوف .

لنفرض أن حدثت الآن معجزة قاهرة ، أما يجوز أن يتغير فجأة هذا المنظر الاستشهادى إلى مجد سماوى ؟ أما يجوز أن الملك الذى يظهر الآن فى عجز الموت يستدعى فجأة وبصوت عظيم ربوات الملائكة ويقفز من على صليبه إلى السحب السارية

فى السماء ويأتى بنيران آكلة لينتقم من أعدائه؟ وها إن الجو يظهر مملوءا بآيات بينات. كانت ظلمة قاتمة تتجمع فى السماء، وهزات وزلازل في الأرض وأجساد قديسين منبعثة من القبور أرعبت القلوب وحامت لتكون شهودا رهيبة لهذا المنظر.

فى البدء اشترك اللص المائت فى التعبيرات والتضرعات نصف اليائسة وقد خيب هذا الانكسار والضعف كل ما أمله. ولكن الآن ظهر له أن هذا الانكسار أعظم من الانتصار، وهذا الضعف أشد من القوة. وكلما أمعن فى النظر انبلج فجر الايمان فى قلبه تدريجيا إلى ضياء النهار الكامل. لقد خرس من مدة طويلة عن النطق بكلمات التعيير وابتدأ الآن يزجر تجاديف زميله. ثم أدار رأسه إلى جهة يسوع وصرخ إليه بدعاء حار قائلا [اذكرنى يا رب إذا جئت في ملكوتك]. وحينئذ تكلم فى الحال، ذاك الذى ظل صامتا وسط الاتهامات القاسية، باستجابة لهذه الصلاة الخاشعة قائلا [الحق أقول لك انك اليوم تكون معي فى الفردوس].

ومع انه لم يتكلم أحد ليقوى يسوع، ومع أن الحزن العميق والخوف والدهشة أخرست الجميع إلا أنه كانت بين الجمع قلوب تنبض بالعطف تجاه المتألم الرهيب. ووقفت عن بعد نسوة عديدات ينظرن وينتظرن حتى فى هذه الساعة نجاته السريعة. كثيرات من هؤلاء كن من اللواتى خدمنه فى الجليل وأتين من هناك مع جماعات الحجاج. ومن البارزات فى هذه الجماعة الكسيرة القلب كانت مريم أمه وأخت أمه (١) مريم زوجة كلوباس أم يعقوب ويوحنا ويوسى، ومريم المجدلية، وسالومة زوجة زبدى. ومع مرور الساعات زحفن أقرب فأقرب إلى الصليب. وأخيرا وقعت عينا المخلص الذابلتان على أمه فاخترقتا قلبها مرارا كما بسيف وهى واقفة مع التلميذ الآخر الذى كان يحبه. والظاهر أن أمه لم تكن تصحبه كثيرا فى تجوالات كرازته. ربما خدمات وطلبات وواجبات البيت الفقير جعلت ذلك مستحيلا. ومع أنه فى مبدأ كرازته قد

١ - يو ١٩ : ٢٥ .

أظهر لها بلطف ورقة أن علاقته البنـــوية بها قد خلفتهـــا علاقة أسمى وأعلى وأقدس . ومع أن هذه النهاية المريعة لكل آمالهـا الواسعة لا شك قد جربت إيمانها بحزن جارف لا ينطق به ، فقد ظلت أمينة له فى تلك الساعة الفذة التى وصل فيها إلى أبعد درجات الاتضاع . وكانت تود أن تعمل له كل ما يستطيع حب وحنان أم أن يفعل. وهو أيضا لم ينس لحظة من حنت عليه في وقت الطفولة ، والتى شارك معها العيش فى كوخ الناصرة ثلاثين عاما . فبحزن وشفقة دبر المستقبل الذى ينتظرها في السنين الباقية من حياتها التى لا بد أن ستذخر باضطهادات واضطرابات معتقد جديد نابت . فبعد قيامته سيكون نصيبها مرتبطا بتلاميذه . والتلميذ الذى أحبه أكثر وكان أقرب إلى حياته وقلبه كان أوفقهم للعناية بها . لذلك سلمها كوديعة مقدسة ليوحنا الذى أحبه أكثر من زملائه ، ليوحنا الذى أسند رأسه على صدره فى العشاء الأخير . فقال لها بكلمات مختصرة ولكن نفثت أرق روح للحنان [يا امرأة هو ذا ابنك] . ثم قال ليوحنا البشير [هذه أمك] . ما كان يستطيع أن يشير بيديه المثقوبتين ولكن بلفت رأسه . ومن تلك الساعة ـ وربما من تلك اللحظة ـ ليعفيها من منظر يقطع نياط قلبها بعذاب لا قبل لها على احتماله أخذها ذلك التلميذ إلى بيته (١) .

حل الآن وقت الظهر ، ولا ريب أن أشعة الشمس فى المدينة المقدسة كانت عالية حامية محرقة تشرف على هذا المنظر الرهيب بقوة وحدة تضارع قيظ الظهر فى صيف بلادنا ،غير أنه قد اسود وجه السماء [وتحولت إلى ظلمة] فى [يوم الرب العظيم الرهيب] هذا . ولا يمكن أن تكون ظلمة كسوف طبيعى فان قمر الفصح كان فى تمامه . ولكنها كانت [آية من السماء] طالما طلب الفريسيون شيئا من قبيلها بالحاح ولكن بدون جدوى في أيام كرازة يسوع .

---

١ ـ يو ١٩ : ٢٧ وهذا برهان أيضا على أن يوحنا كان له اتصال بأورشليم عن باقى الرسل وهذا يفسر كتابته بمعلومات أوفى عن كرازة اليهودية .

وقد ركن الآباء الأولون على علماء الوثنية كالمؤرخ فالوس والباحث فليجون لتفسير هذه الظلمة . ولكنا لا نملك الوسائل للوصول إلى صحة هذه المستندات ومن المحتمل أن تكون هذه الظلمة غمامة كثيفة كسيفة أظلت المدينة المجرمة وضواحيها . ولكن مهما كان نوعها وماهيتها فمن الجلي أن هذه الظلمة قد ملأت عقول جميع من شاهدوها برهبة عميقة . لقد انحصرت تعبيرات وسخريات كهنة اليهود والعسكر الوثنيين فى الساعات الأولى للصلب . ولكن المرحلة الأخيرة منه قد ملأت قلوب المجرمين والأبرياء على السواء بانفعالات الخشية والارتياع .

لم يذكر لنا شيء عن حوادث الساعات الثلاث الأخيرة . ذلك الانحجاب الرهيب لشمس الظهيرة أخاف كل قلب فتوقف عن عمل أى شيء فلم يكن هناك ما يدون . ولا يمكن أن نعلم ما تألم به يسوع حينذاك من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا وهو معلق هذه الساعات الثلاث فى ظلمة وصمت . أو إن كان قد تكلم فلم يكن هناك من يسجل كلماته . ولكن عند اقتراب نهاية هذه الفترة تضاعف عذابه ، وأخلى إلى آخر حد من المجد الذى كان له من قبل انشاء العالم ، وشرب حتى الثمالة من كأس المرارة والتحقير محتملا ليس فقط اتخاذ صورة العبد بل أيضا أقصى حقد ممكن للكره البشرى أن يرمى به أضعف العبيد . فصرخ تلك الصرخة العجيبة التى لن يسبر غور كامل معناها أى انسان قائلا :

[ايلى ايلى لما صبختنى . أي الهى الهى لماذا تركتنى] (١) .

فى هذه الكلمات التى اقتبسها من المزمور الذى عده الآباء الأولون نبوة قديمة عن آلام المسيح قد نطق يسوع بكلمات داود فى انسحاقه تعبيرا لآلامه هو . كان فى

---

١ ـ هذه الصرخة على الصليب لم يدونها سوى يوحنا ومرقس وكتبها مرقس باللهجة الآرامية البحتة (الوي الوي) . ونطقه بالآرامية فى هذه اللحظات الأخيرة يدل على أنها كانت اللغة السائدة فى كلامه طول حياته .

تلك الساعة وحده ، يهبط أعماقا تلو أعماق لا غور لها ، ويقترب من النهاية الأخيرة من موت أشد عليه مما على أى شخص من أولاد البشر ، لأنه كان إلها وقد صار انسانا . فظهر أن ناسوته الألهى لم يعد يحتمل أ كثر .

لا ريب أن صوت المتألم رغم أنه كان عاليا - من نوبة عواطف لو كانت في غيره لكانت أقرب إلى مساس اليأس - فقد كان غير واضح أو جلى من شدة الأنهاك الذى كان عليه وهو مصلوب حتي أن بعضا من الوقوف نظرا للظلمة المدلهمة والضوضاء المضطربة ووقع الأقدام المتحركة لم يسمعوا ما قاله . وانما سمعوا فقط المقطع الأول فقالوا لبعضهم انه نادى إيليا (١) . وان السرعة التى سرت بها هذه الفكرة الخاطئة برهان آخر على الحالة المشوشة التى كانوا عليها من الحماس والخوف والرعب الدائم من شيء عظيم مرتقب مهوب، نجم عما سلف منهم من قسوة متوحشة . إن إيليا النبى العظيم للعهد القديم كان يأتى ذكره دائما عند اليهود كلما ذكروا مجىء المسيا وان مجيئه سيكون فى غضب . وأن مجىء المسيا سيكون يوم نار تتحول فيه الشمس إلى ظلمة والقمر إلى دم وتتزعزع فيه قوات السماء . وها قد حجبت شمس الظهيرة فى كسوف غير طبيعى . ألا يجوز أن يأتى شبح رهيب من السماء فيمزق الحجب ويمس الجبال فتدخن ؟ ولكن لم يتم شيء مما ترقبه الشعور بالأجرام . وليس هذا حتى الآن طريق صنع الله مع البشر . فرسائله للبشر إلى أجيال عديدة مقبلة لن تكون فى الرعد أو الزوبعة أو الزلازل أو الرياح المزمجرة أو النيران المدوية ولكن فى [الصوت الهادىء] . يتكلم دائما في سكوت الأزمنة الظاهر فى همسات يفهمها قلب الانسان بدون لغة أو كلام ولكنها همسات مسموعة الصوت واضحة .

---

١ - لقد قيل أنه من المستحيل أن يخلط يهودى بين الوى وإيليا وان كل يهودى يفهم تماما معنى كلمة الوى ولكن هذا النقد لا يجوز فى ظروف كالتى نحن بصددها وأيضا لا شك أنه كان فى هذا الجم الحاشد من حجاج الفصح كثير من كل الأمم لا يعرفون الآرامية .

والآن اقتربت النهاية سريعا . كان يسوع معلقا ما يقرب من الست ساعات على الصليب وكان يتألم من عذاب العطش وهو أقسى ما يمكن للكيان البشرى أن يتحمل ، وربما الألم الوحيد غير المخفف من كل ينابيع الأهوال التى تفيض وتتجمع فى هذه الميتة التى هى أشنع أنواع الميتات جميعها . ومن حسن حظ الجنس البشرى أن المسيح لم يقر أبدا الطريقة الفلسفية للتظاهر غير الطبيعي والتصنع بعدم المبالاة بالمؤثرات . ولهذا نطق بالكلمة الوحيدة التى لألم جسمانى انتزعت منه بعد كل الساعات الطويلة التى احتمل فيها أقسى ما يمكن من العذاب الذى يستطيع أن يوقعه إنسان . صرخ قائلا : [أنا عطشان] . ولو أن هذه الكلمة قد قيلت منذ سويعات قليلة مضت لكانت أثارت عاصفة من السخرية الجنونية . ولكن الآن قد جعلهم الخوف أكثر إنسانية . كانت على الأرض قرب الصليب آنية فخارية كبيرة ملآى « بالبوسكا » الذى كان شراب الجند الرومان المعتاد . وكان فم الآنية مغطى باسفنجة كسدادة . وفى الحال أخذ أحدهم - ولا ندرى إن كان عدوا أم صديقا أم عابرا دفعه حب الاستطلاع للوقوف - أخذ الاسفنجة وملأها بوسكا ليعطيها ليسوع . ومع أن الصليب لم يكن مرتفعا إلا أن رأس المتألم المرتكزة على العارضة الأفقية التى للشجرة الملعونة كانت أبعد من متناول يد ذلك الرجل فوضع الاسفنجة على قصبة من جذع الزوفا(١) يقرب طولها من القدم، وأدناها من الشفتين المائتتين (٢) . إلا أن هذا العمل البسيط الذى أملته الشفقة والذي لم يرفضه يسوع قد أثار هياجا عصبيا عند بعض اليهود الناظرين وقالوا للرجل [دعه لنرى هل يأتى إيليا ليخلصه] . أما الرجل فلم يتراجع عن عمل الرحمة هذا ولكن بعد أن انتهى منه يظهر أنه أيضا ردد مع الباقين هذه الكلمات المتحدية (٣) . ولكن

---

١ - مر ١٥ : ٣٦ . الزوفا ربما من نوع المرجورام أو كباريس سبينوزا وجذعه خشبي .

٢ - مت ٢٧ : ٤٨ و يو ١٩ : ٢٩ .

٣ - مر ١٥ : ٣٦ .

إيليا لم يأت ولا معزيا بشريا ولا منجدا ملائكيا . كانت ارادة الله . كانت إرادة ابن الله أن « يكمل بالآلام »(١) ، ولكي يكون مثلا أبديا لكل أولاده إلى منتهى العالم أن [يصبر إلى المنتهى] .

والآن قد جاءت النهاية . ومرة أخرى اقتبس كلمات مرنم اسرائيل الحلو (٢) ، ولكن أضاف إليها اللقب الملىء من الحب والثقة والذى سمح المسيح وبواسطته أن يستعمله كافة البشر ، وقال [يا أبتاه فى يديك أستودع روحي] . وبعدئذ بجهد أعظم صاح بصرخته الأخيرة الكلمة المنتصرة الوحيدة [قد أكمل] . وسرعان ما قالها حتى خفض رأسه على صدره و [أسلم الروح] [فدية عن كثيرين] وذبيحة راضية لأبيه السماوى (٣) . انتهت حياته المقدسة ، وبانتهاء حياته انتهى جهاده ، وبانتهاء جهاده انتهى عمله بالجسد ، وبانتهاء عمله انتهى فداؤه ، وبانتهاء الفداء انتهى تأسيس الدنيا الجديدة (٤) . وفى تلك الدقيقة انشق حجاب الهيكل إلى اثنين من فوق إلى أسفل (٥) وحدثت زلزلة جعلت الأرض تضطرب فتشققت الصخور ودحرجت بعضها من أماكنها العالية وكانت هذه تغلق وتغطى مغاور مقابر اليهود . وهنا قام بعض الأموات وانطلقوا

---

١ ـ عب ٥ : ٧ ـ ٨ و ٢ : ١٠ و ق ٢ : ٨ ـ ٩ .

٢ ـ مز ٣١ : ٥ قارن اع ٧ : ٥٩ و ا بط ٢ : ٢٣ .

٣ ـ قد يكون مقصودا أن البشيرين قد استعملوا كلة (وأسلم الروح) (مر ١٥ : ٣٧ و لو ٢٣ : ٤٦ وكذلك مت ٢٧ : ٥٠ و يو ١٩ : ٣٠) ولم يستعملوا فعل " مات " كما يقول أوغسطين ان ذلك معناه " بذل حياته " لأنه أراد ذلك (اش ٥٣ : ٧) . لم أتحدث بتوسع عن المبحث اللاهوتى الخاص بتألم المسيح فهذه المباحث اللاهوتية تظهر أنها تفوق إدراك البشر ولها كتبها الخاصة . ولكن تسليم يسوع ذاته بارادته واختياره الكامل ظاهر تماما من يو (١٠ : ١٨) .

٤ ـ لا نج .

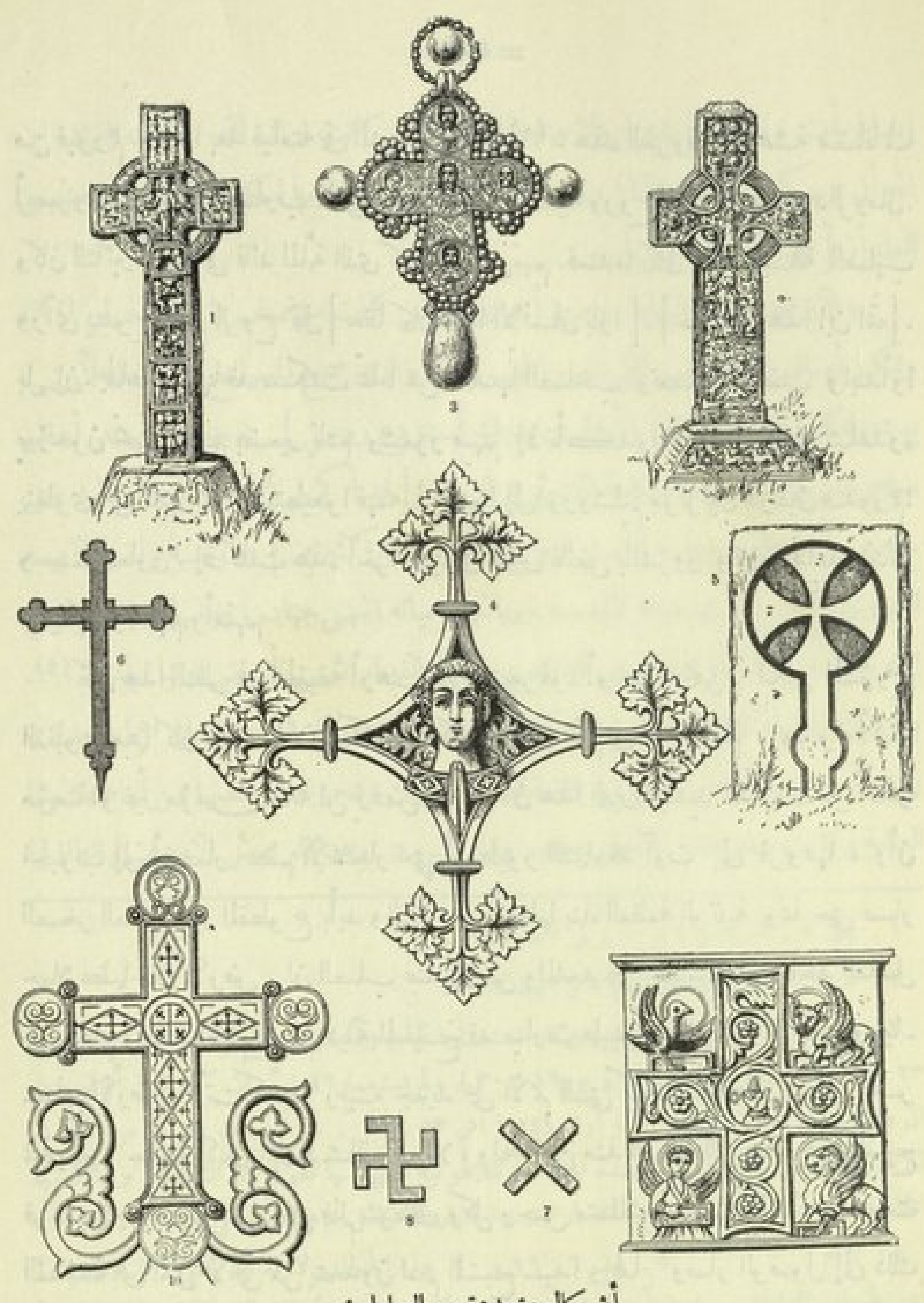
٥ ـ عب ٦ : ١٩ و ٢٠ هذا الحجاب لا بد أن يكون "الباروشيت" أى الحجاب الداخلى . جاء فى أبوكريفا أحد كتب العبرانيين انه فى تلك اللحظة قد سقطت عارضة كبيرة من على الحجاب . ولقد ذكر فى كتب اليهود علامات فى الحقيقة قد حدثت عندما أسلم السيد ذاته ولكن حسب طريقتهم المرنة عزوها إلى تاريخ زمان خراب الهيكل .

من قبورهم وظلوا بعد قيامته فى المدينة المقدسة (١) . هذه الظروف المدهشة مضافا لما أبصروه من احتمال المصلوب لاشى عدم المبالاة القاسية وروح المرح التي للجنود الرومان. وكان التأثير أشد على قائد المائة الذى كان على إمرتهم .فعندما كان واقفا قبالة الصليب ورأى يسوع يسلم الروح قال [حقا كان هذا الانسان بارا] . [حقا كان هذا ابن الله] . بل إن الجماهير ذاتها قد سكتت تماما عن حماسها الصاخب وتعصبها الغاضب وابتدأوا يرزحون تحت حملهم بضمير نادم وشعور مبهم إذ تأكدوا أن المنظر الذى شاهدوه ينطوى على كثير مما لم يستطيعوا فهمه فرجعوا إلى أوروشليم مولولين قارعين صدورهم! وحسنا يفعلون . إذ كانت هذه آخر قطرة فى كأس فائض بالشرور وكان هذا بدء اندثار مدينتهم واسمهم وأمتهم .

كان هذا المنظر في الحقيقة أرهب من أن يعرفوه أو نعرفه نحن . لكن المؤرخ الدنيوى مهما كان متعصبا لا ينكر أنه كان المحور الأهم فى تاريخ العالم . وسواء أكان مؤمنا أو غير مؤمن فانه لن يرفض أن يقر أن هذا الدين الجديد قد نبت من أصغر الحبوب إلى أن صار أعظم الأشجار حتي أن طيور السماء قد آوت إلى فروعها ، وأن الصخر الصغير غير المقطوع بأيد والذى حطم تحطيما بناء العظمة الوثنية ونما حتى صار جبلا عظيما ملأ الأرض . إن الصلب عند المؤمن والملحد على حد سواء هو الحد الفاصل بين قديم وجديد الأيام . وإن ديانة المسيح قد صارت طبيعيا وخلقيا ـ ولا أقل روحيا ـ سياج الأرض . أتت كفجر ربيع جديد على الأمم التى كانت سكرى فى خمر الجرائم . حقيقة كان الجهاد شاقا وطويلا ، ولكن منذ الساعة التى مات فيها المسيح قرعت أجراس الوفاة لكل ظلم شيطانى وكل رجس متملك. من تلك الساعة أصبحت القداسة هى المثل الأعلى لمن يتخذون اسم المسيح سيدا وإلها . وصار الوصول إلى ذلك المثل التراث المشترك لكل النفوس التى يحل فيها روحه .

---

١ ـ مت ٢٧ : ٥٢ و ٥٣ .



أشكال متعددة من الصلبان

١ و ٢ صليبان أيرلنديان ـ ٣ الصليب الدحجاوي ـ ٤ صليب يونانى على شكل زهرة ـ ٥ صليب بات ـ ٦ من كنيسة لورنزو فى سوبيا كو ٧ صليب القديس اندراوس ـ ٨ فيلفور ـ ٩ من كنيسة سانتا ماريا بروما ـ ١٠ صليب لاتينى .

نتائج عمل المسيح لا يمارى فيها لانها حقيقة تاريخية حتى عند غير المؤمنين إذ طردت القسوة. وألجمت الشهوة. وخطأت الانتحار. وعاقبت ومحت قتل الأطفال، وختمت على كل الرجاسات التى لا حياء فيها التى للوثنية ونفتها إلى الظلمة التى تشبهها. لم توجد فئة إلا أصلحت أغلاطها، فقد خلصت المصارعين، وحررت العبيد، وحرست الأسرى، ومرضت الزمنى، وآوت اليتيم، ورفعت المرأة، وأحاطت سنى الطفولة الرقيقة بهالة من البراءة القدسية. فى كل ناحية من نواحي الحياة أحس العالم بتأثيرها اللطيف. أبدلت الشفقة من نقيصة إلى فضيلة (١)، وأعلت شأن الفقر من لعنة إلى طوبى (٢)، وشرفت العمل من حطة إلى كرامة وواجب، وقدست الزواج من عادة مألوفة ثقيلة الحمل إلى سر مبارك. وأظهرت للمرة الأولى جمال الطهارة الملائكى التى يئس منها البشر، والوداعة التى ازدرى بها العالم. خلقت معنى الرحمة والاحسان وأوسعت حدود واجباتها من دائرة القريب الضيقة المحصورة إلى أوسع الآفاق لتشمل كافة الجنس البشرى. وأثبتت الفكرة أن الانسانية هى الأخوة العامة حتى في البلاد التى لم تؤمن ببشارتها، قد قدست حياة وطهرت نفس كل فرد على حدته. وفى كل الديار التى قومت فيها أخلاق المؤمنين الحقيقيين خلقت قلوبا متجددة نقية، وأرواحا مسالمة، وبيوتا حلوة، حتى يخال أن الملائكة التى أنشدت وهتفت يوم تأسيسها قد همست لكل متألم مثقل أو محزون يائس من بنى البشر قائلة «ولو أنك جالس بين آنية الفخار فستمنح أجنحة طائر الحمام، الأجنحة الفضية ذات الرياش الذهبية».

آخرون «لو استطاعوا» أو «لو أرادوا» قد لا ينظرون فى عمل كهذا قوة الله وعنايته وبما يظنون أنه من الفلسفة العصرية أن الديانة المسيحية والملكوت المسيحي يمكن أن يفسرا بحلم كسول لنبيل عاش لنفسه أو بالخيالات العاطفية لمختل ثاب إلى رشده.

---

١ - قال سنيكا "الشفقة رذيلة الروح".

٢ - وقال أيضا "الفقر وزر كبير وتعيير عظيم".

نحن لا نضطهدهم ولا نشهر بهم ولا ندينهم ولكننا نقول ما لم تكن الحياة ذاتها هباء فارغا فلا يمكن أن يكون هذا هو الأصل الحقير للديانة الوحيدة فى العالم التى توازن تماما بين الفلسفة والعامية، بين الديانة والمبادىء، بين الخضوع والخنوع الوضيع وفجر الحرية، بين المثل الأعلى والحقيقة، بين الباطن والظاهر، بين السكون الوقور والحركة الموفقة، بين التمسك الرفيق بالقديم وأجرأ مشاريع الاصلاح العامة. إن شهادة التاريخ للمسيح شهادة قد أعطيت بأيقان تام واقتناع لا يجادل ولم تعط مثلها لأحد سواه.

ومع أنه واجب حتى على غير المؤمن أن يرى التغييرات التى أحدثتها حياة يسوع وموته فى العالم فان المؤمن يرى أمورا أعمق فى حياة وموت يسوع، أمورا لديه ليست بأقل من القيامة من الأموات. انه يري فى صليب المسيح ما يفوق أهميته التاريخية بما لا يعبر عنه. يرى فيه اتمام كل النبوات واكمال كل التواريخ. يرى فيه تفسير سر ولادة المسيح وتفسير الانتصار على الموت. يرى فى حياته المثل الكامل وفى موته الفداء الشامل. وعندما يتأمل فى التجسد والصلب لا يشعر أن الله بعيد أو أن أرضنا ما هى إلا بقعة صغيرة فى الأفق اللانهائى، أو أن نفسه ما هى إلا ذرة لا قيمة لها رمتها الصدفة بين ملايين أرواح الأحياء من أجناس البشر العديدة، بل يقر فى إيمان ورجاء [ويكون مسكنى فوقهم. وأكون لهم إلها ويكونون لى شعبا] و [أنتم هيكل الله الحي كما قال الله إنى سأسكن فيهم وأسير بينهم] (١).

قاربت الشمس على الغروب عندما بدأت الظلمة ترخى سدولها على الذبيحة التى اكملت. كان أولئك الذين لم يظنوا انه دنس أن يقتلوا مسياهم في بدء عيدهم خائفين منزعجين إلى أقصى حد لئلا تتنجس قداسة اليوم التالى الذى يبدأ متى غربت الشمس من بقاء الجثث على الصلبان. ومن المرعب أن نذكر أن بعض المصلوبين يبقون ساعات طويلة

---

١ - حز ٣٧ : ٢٦ و ٢ كو ٦ : ١٦ .

وأحيانا مدة يومين فى عذابهم فسأل اليهود بيلاطس أن تكسر سيقانهم وترفع أجسادهم . وهذا «التكسير» كما كان يدعى ، يتم بضرب سيقان المصلوب بمطرقة ثقيلة وهى قسوة كانت دائما تعجل الوفاة إن لم تحدثها فى الحال . ولم يكن اليهود وحدهم هم الراغبين فى أن يعجلوا النهاية بهذه الضربة القاتلة القاضية بل إن الجنود المعينين لحراسة التنفيذ كانوا يرغبونها أيضا لأنهم ما كانوا يجرأون أن يتركوا الميدان قبل أن تفارق المصلوبين الحياة . لذلك منحت هذه الرغبة سريعا . وكسر الجند سيقان فاعلى الشر أولا (١) . وعندما جاءوا إلى يسوع وجدوا أن صرخته العظيمة كانت الأخيرة ، وأنه قد مات ، فلم يكسروا سيقانه . فبدون قصد حفظوا تشابهه التام لخروف الفصح الذى كان رمزاله والذى



عسكر رومان - من بوابة قسطنطين

١ - ربما كان السبب أن جنديين بدآ فى "التكسير" من الجانبين كل منهما إلى جانب صليب أو

أمر [أن عظمة لا تكسر] (١) . ولكن لئلا يكون فى إغماء . وهناك حوادث قليلة التبس فيها موت الرجال فانزلوا عن الصليب وبعثت فيهم الحياة - وإذ أن العسكر كانوا معرضين لفقد حياتهم لو لم يتم التنفيذ . ولكى يتأكدوا من موته طعن واحد منهم جنبه بالنصل العريض لحربته واخترق الجرح كما رغبت الطعنة المصوبة مكان القلب . ويقول يوحنا بتأكيد من عاين وشاهد برؤية العين (وهو ارتكان يكون في غاية الغرابة والتجديف لو أن هذا الخبر مصطنع كما حاول النقد الحديث بجهد مضنى أن يبرهن على ذلك ولكن عبثا) إنه [للوقت خرج ماء ودم] . هل كان هذا الماء نتيجة مضاعفات مرضية تسببت من آلام المخلص الشنيعة ؟ أو أن طرف الحربة قد مزق غشاء القلب فرأى الذين أنزلوا الجثمان بعض المصل مختلطا بالدم ؟ فعلى أى الحالتين كانت طعنة الحربة هذه كافية لأخراس كل الادعاءات الهرطيقية أن يسوع ظهر فقط أنه مات . وكما أنها أكدت للجند فأنها تؤكد لكل الذين شكوا فى أن ذاك الذى قام من الأموات ثانية قد صلب حقا ومات فعلا ودفن ، وأن روحه قد أسلمت إلى الدنيا غير المنظورة (٢) .

ربما لأن صليب يسوع كان الأكثر ارتفاعا فقد ترك للآخر .

١ - خروج ١٢ : ٤٦ (يوحنا يرجع إلى زك ١٢ : ١٠) رؤ ١ : ٧ . من الأمور الغريبة أن خروف الفصح كان كما لو يصلب حرفيا على قطعتين متعارضتين من الخشب وقد حضرت عيد الفصح عند السامريين على جبل جرزيم سنة ١٨٧٠ وكانت سبعة حملان معدة للشواء وكانت على سبعة صلبان . ٢ - اتخذ الآباء الأولون من هذه الحقيقة دحضا لكل الشكوك . وبما أن خروج المصل والدم من جرح يحدث عقب الوفاة قد أكد حصوله بعض ثقاة الأطباء . وإن كان نادرا فلا حاجة لاعتباره كمعجزة . وتختلف الآراء إن كان هذا الماء هو مصل غشاء القلب أو المصل الناجم من تخثر دم منسكب . وهذا غير مستحيل سيما إن كان السيد قد مات من تمزق القلب (مز ٢٢ : ١٤ و ٦٩ : ٢٠) أو من انسكاب بللورى . كما ورد فى رسائل الدكتور سمسون وأطباء آخرون وفى كتاب الدكتور حنا (يوم آلام الرب) وكتاب الدكتور ستر ود " السبب الطبيعى لوفاة المسيح " .



يوحنا البشير والخراف (عن فسيفساء قديمة فى رافنا)

الفصل الثانى والستون

القيامة

" وقام فى اليـــوم الثالث "
قانون الايمان

فى اللحظة التى مات فيها المسيح ما كان شيء يبدو في منتهى الضعف ولا أزيد استحقاقا للرثاء وانعداما للأمل ولا أشد وجوبا للسخرية والخذلان واليأس والمحو من الكنيسة التى أسسها . لم تكن سوى حفنة ضئيلة من

الأتباع الضعفاء، أجرأهم قد أنكر سيده بتجديف وأحبهم إليه قد تركه وهرب . كانوا فقراء ، وكانوا جهلاء ، وكانوا بلا رجاء . لم يمتلكوا سيفا واحدا ولا مجمعا واحدا . إن تكلموا تظهرهم لغتهم . وإن تحدثوا باليونانية الدارجة كانت محتقرة كشيء مزدرى . كانوا فى درجة من الضعف وعدم الأهمية حتى أن المتحيز الجهول لن يتنبأ لهم بالبقاء حتى ولا كشيمة جليلية . فكيف تسنى لهؤلاء الرجال الجهلاء الضعفاء وصليبهم الخشبي أن ينتصروا على المغريات الشهوانية القائلة للخرافات الوثنية ، ويخضعوا ملوكا وجيوشا ، ويغلبوا العالم ؟

ما الذى أخرج القوة من ضعف كامل وبغيض ؟ يوجد لذلك جواب وجواب واحد « القيامة من الأموات » . كل هذا الانقلاب كان نتيجة قوة قيامة المسيح . لو قسنا ما ظهر أنه فضيحة شائنة للمصيبة التي انتهى إليها عمله مع الأمجاد الألهية التى استوجبها ليس رغما عن تلك الآلام وذلك العار بل من أجل تلك الآلام وذلك العار، فأننا نشعر بعدم مقدرتنا بتاتا أن نوفق بين هذه الحقيقة المفجعة وبين نتيجتها الباهرة إلا بوجود حقيقة أخرى مؤكدة كتأكيد آلام المسيح ومجيدة بدرجة كافية تجلو كافة أحزانهـــا (١) .

كانت الشمس الآن على شفا الأفق والسبت يقترب و [لأن يوم السبت ذاك كان عظيما] ، سبت له عظمة ومهابة خاصة لأنه كان سبتا وفصحا فى آن واحد (٢) ، قد اتخذ اليهود كل حيطة لمنع النجاسة القانونية ليوم مقدس فأسرعوا بحماس عقب التحقق من موت الضحايا لأنزال أجسادهم من على الصلبان . ولم يتعبوا أنفسهم بخصوص القبور

---

١ ـ وستكوت . " لو لم يقم المسيح لكان واجبا علينا ليس فقط أن نفسر كيف سرى الاعتقاد بقيامته بدون أي رجاء سابق يمهد فى قبولها وكيف قبلت بهذا الاقتناع الذاتى وألبست شخصية المسيح صفات لم تخلع على أى أحد من قبل وذلك من التلاميذ اليهود والذين تربوا على الوحدانية البحتة " .

٢ ـ يو ١٩ : ٣١ و تث ٢١ : ٢٢ و ٢٣ و لا ٢٣ : ٧ .

تاركين ذلك لخدمات الأصدقاء العرضية أو الأقارب لموارات رفاتهم في قبور مجهـولة . وترك جسد يسوع المائت معلقا للنهاية لأن شخصا لا يمكن تجاهل مقامه قد ذهب ليستأذن بيلاطس أن يعمل بالجسد كما يريد .

كان هذا هو يوسف الرامى (١) ، رجلا غنيا ذا خلق عال وحياة بلا لوم وعضوا بارزا فى السنهدرين . ومع أن ناحية فى طباعه أو ضعفا فى إيمانه قد منعه حتى الآن عن إعلان إيمانه بيسوع إلا أنه سبق أن امتنع عن ابداء صوته فى السنهدرين وأبى التستر على جريمتهم . والآن قد أثارت فيه الكرامة والأحزان كل الشجاعة . أما وقد فاته أن يعلن عطفه على يسوع كنبي وهو حى ، فعلى الأقل سيبدى إخلاصه له كشهيد فريسة لمؤامرة دنيئة . فذرى مع الرياح كل تستر وحذر وما أن رأى أن صليب جلجثة يحمل جسدا لا حياة فيه حتى ذهب سريعا إلى بيلاطس في ذات أمسية الصلب وتضرع إليه أن يهبه الجثمان . ومع أن الرومان كانوا يتركون أجساد عبيدهم المصلوبـين لتأكلها الكلاب وتنهشها الغربان فان بيلاطس لم يجد صعوبة فى إقرار العادة الأوفر احتراما وإنسانية التي لليهود والتى تحتم دفن الموتى (٢) حتى فى أشنع الحالات . ولكنه دهش للسرعة التى دب بها الموت إلى يسوع وأرسل إلى قائد المائة ليتحقق أن موته كان له زمان لئلا يكون فى اغماء أو غيبوبة (٣) . وإذ تأكد أن هذا قد تحقق أمر فى الحال أن يعطى الجثمان - وبلا ريب ببعض الرضا الخفيق - لعناية هذا « المشير الشريف » . وبدون أن يضيع يوسف ثانية واحدة اشترى مقطعا من الكتان (٤) الثمين

---

١ - اريماثا أو الرامة مكانها غير معروف . قد تكون رامة بنيامين (مت ٢ : ١٨) أو رماثيا افرايم (اصم ١ : ١) ولـكن بالتأكيد ليست رملة دان .

٢ - لم يكن طلب يوسف خلوا من الخطر فأن أرواحا قد أزهقت لمجـرد مثل هذا الطلب كما حدث عند أيام الشهيد بروفيروس وقد قيل إن بيلاطس قد استخلص رشوة لنفسه (اع ٢٤:٢٦) ولكن الظاهر أنه لم يفعل لأن اعتناء اليهود بالدفن كان مشهورا وأي أمر يضاد هذا ما كان يطاع

٣ - هذا ما يظهر من مر ١٥ : ٤٤ . ٤ - وهنا دليل ناصـع من البشائر على أن يوم

وأنزل الجثة من على الصليب . فى الوقت ذاته ساعدت قوة مثاله فى إيقاظ شعور مماثل فى روح نيقوديموس المحب الخائف . فان كان هو - كما هو الغالب - نيقوديموس بن جوريون الذى ذكره التلمود فقد كان غنيا جدا (١) . ومهما كان قد تستر وانكمش في حياة يسوع فقد امتلأ قلبه الآن فى أمسية موته بنوبة من العطف والندم وأسرع إلى مكان صلبه ودفنه بتقدمة لها قيمة ملوكية حقيقية . والايمان التى احتاج يوما ما ستارا من الظلام جرؤ أن يظهر محبته على الأقل فى غسق الغروب وانتهى أخيرا أن يعلن اخلاصه فى وضح الظهيرة . وشكرا للهيب جمر الحزن والعطف المتقد فى قلب هذين التلميذين الغنيين النبيلين إذ أن من مات كأثيم دفن كملك . [جعل مع الأشرار قبره ومع غنى عند موته] . وهذا الكتان الثمين (السنديون) الذى اشتراه يوسف نثر بغنى بمائة رطل من المر وخشب الند العطر الذى اشتراه نيقوديموس (٢) . وحمل الجسد الممزق إلى قبره الهادىء المحبوب بينما كانت روح الاله المتأنس تعمل عملها العظيم (٣) .

قرب مكان الصلب - إن لم يكن في الواقع جزءا منه - كان بستان ليوسف الرامى فى داخل سياجه أمر أن يحفر فى الصخر الأصم قبر جديد لنفسه ليوارى فيه قرب المدينة المقدسة (٤) . وكان القبر جديدا لم يوضع فيه أحد قط . ورغما عن الرعب الرهيب الذى كان اليهود يعزونه لمقابرهم المنحوتة فى الصخر ، ورغما عن الوسوسة

السبت ذاك كان عظيما والسنديون أو الكفن غالبا من الكتان الأبيض مثل الذى أمر غمالائيل الثانى أن يدفن فيه حتى يبطل عادة الدفن فى الثياب الغالية على ما كان يضلل اليهود والثلاث كلمات التى استعملت لدفن يسوع (مر ١٥ : ٤٦) و (يو ١٩ : ٤٠) و (٢٠ : ٧) استعملت أيضا لليعازر .

١ - يقال أنه هلك وأهل بيته فى حصار أوروشليم ولقد سبق فذكرت أن ابنته التى كان صداقها مليون دينار من ذهب رؤيت تجمع الحبوب من روث حصان . رجو أن تكون هذه القصة لا تدل على الكره اليهودي ضد من كان مسيحيا فى قلبه على الأقل .

٢ - لو ٢٣ : ٥٤ . ٣ - ١ بط ٤ - الأرض المحيطة بأوروشليم كانت لمدفن كبير وأمثلة لقرب المقابر من المدن تشاهد فى اليهودية بالمئات .

المتحذلقة التي جعلت اليهود تنأى عن مس أية جثة ، لم يتردد يوسف أن يهب جسد يسوع المثوى الأخير الذي كان قد أعده لذاته . وكان يجب أن تتم الاستعدادات بسرعة وعجلة لأنه إن غربت الشمس بدأ السبت . فكل ما أمكن عمله هو غسل الجسد ووضعه في العطور وربط الرأس بمنديل أبيض ولف الكتان مرارا حول الأعضاء الجريحة ووضع الجسم الطاهر باحترام في الفجوة الصخرية . وبعدئذ بمجهود اشترك فيه عدة رجال دحرج صخر عظيم على الفتحة العرضية للقـــبر . وما انتهوا من هذا حتى اختفت الشمس وراء تلال أوروشليم وانبثق فجر السبت الجديد (١) .

عرفت المكان مريم المجدلية وكذلك مريم أم يعقوب ويوسي ونساء أخريات جليليات ، وتأكدن من القبر فأسرعن إلى منازلهن ليعددن عطورا وأطيابا قبل أن يبدأ السبت ليتسنى لهن الرجوع في بكور يوم الأحد لكي يتممن تحنيط الجسد الذى بدأ في تكفينه بسرعة نيقوديموس ويوسف . وقد أمضين بسكون ذلك السبت الحزين الذى كان عند كل القلوب الكسيرة التى أحبت يسوع سبت خوف ويأس .

ولكن لم يكن أعداء يسوع ساكنين فان الجحود الشنيع للضمائر المجرمة لم يتنبه حتى بعد موته على الصليب . تذكروا برعب النبوات الشائعة عن قيامته ، وآية يونان النبي التى قال إنها وحدها سوف تعطى لهم (٢) ، والقول الهام عن الهيكل المنقوض الذى سيقيمه في ثلاثة أيام . وهذه النبوات التى كانت ضئيلة عند المؤمنين المتسحقين المترددين قرئت مثل حروف من نار على الحائط ، يذكيها لهب مندلع من الشعور بالجريمة المنكرة ، فتظاهروا بالخوف من أن يسرق تلاميذه الجثة ويسببوا ضلالا ، فطلبوا من الوالى أن يحرس القبر بحرص حتى اليوم الثالث . ولقد أعطاهم بيلاطس إذنا مختصرا غضوبا أن يعملوا كل ما أرادوا (٣) . والظاهر أنه بعد انتهاء سبت

١ - وكانت عادة اليهود اعتبار غروب الجمعة كأنه بدء السبت وسموا ذلك باسم خاص .

٢ - مت ١٢ : ٣٩ .

٣ - الكلمة الأصلية بالكاد تعنى " أمر " وقد صدر لبعض

الفصح العظيم ووضع جنديا رومانيا وختم الحجر أرسلوا هم أيضا خدامهم وحراسهم زيادة فى الاحتياط .

انقضى الليل ، وقبل أن بدأ بصيص الفجر يبدد ظلام اليوم الأول من العيد (١) ، حفز الحب القوى الذى جعل أولئك النسوة يتأخرن أزيد عند الصليب أن يكن السابقات عند القبر ، فحملن الأطياب الثمينة غير عالمات شيئا عن الحراس أو الأختام [كن يقلن فيما بينهن من يدحرج لنا الحجر عن باب القبر]. وسبقت المريمان متقدمتين على هذه العصبة الصغيرة وتبعتا سالومى ويوانا (٢) . وقد وجدت النسوة أن المعضلة قد حلت لهن . علمن إذ ذاك أو بعد ذاك أن رؤيا خاطفة للأبصار وملائكة بثياب بيض قد أرهبوا حراس القبر ودحرجوا الحجر عن بابه بينما زلزلت الأرض . وحين وصلن إلى المقبرة وجدن ملائكة فى ثياب بيض أمروهن بالعودة سريعا إلى الرسل وإخبارهم ، سيما بطرس ، أن المسيح حسب كلمته قد قام من الأموات وسيسبقهم مثل الراعى إلى الجليل موطنهم المحبوب . فعدن مسرعات مضطربات من الفرح والخوف ولم يخبرن أحدا سوى الرسل . وحتى عند تلاميذه كان كلامهن كقصة خيالية عجيبة .

ولكن مريم المجدلية التى منحت رؤيا لظهوره على حدة أسرعت فى الحال إلى

الجند الذين كانوا يعادون لليهود ليعملوا كبوليس مدة اجتماعات الفصح العظيمة . والخبر يبعد فكرة كونهم من حراس الهيكل .

١ ـ أولئك الذين يظنون أنه من الحق أو العدل أن يتلمسوا اختلافات بين كتاب ذكروا ببساطة الحق إلى الدرجة التى فى قدرة فهم معاصريهم وباللغة العادية الدارجة فى الحياة اليومية قد يجدون شيئا من هذا بين (والظلام باق) فى يو ٢٠ : ١ وبين (إذ طلعت الشمس) فى مر ١٦ : ٢ ولكن هذا النقد لا يستحق اهتماما جديا . لقد جهدت فى الكتاب كله أن أظهر بهدوء توافق الصدق الصريح بين البشائر ولا يتطلب الأمر أزيد من هذا . ويقول جوسن أنه يمكن بسهولة وبساطة تفسير هذه الاختلافات وليست هذه أهمية أو أضرار من المهاجمات للإيمان المسيحي ان كانت على هذا الأساس .

٢ ـ مر ١٦ : ١ ـ ٧ ويو ٢٠ : ١ ولو ٢٤ : ١ ـ ١٠ و مت ٢٨ : ١ ـ ٧ .



مناظر عن الآلام (عن نقش من ميلانو)

إلى بطرس ويوحنا (١) اللذين سرعان

---

١ - من يقرأ بامعان اعلانات هذه "الظهورات" التي حدثت في اليوم الأول للقيامة يتضح له أنها حفظت لنا على وجه عام كمذكرات متناثرة متداخلة (مت ٢٨ : ١٦ و لو ٢٤ : ٣٤ و اع ١ : ٣) لا يمكن معها أن نحصل بدقة تامة وبدون استنتاج أن نعيد ترتيبا أكيدا للحوادث. اعتقادنا في القيامة كحادث تاريخي محقق تدعمه لنا الظروف المعاصرة والتالية يرتكز على أساسات أعمق وأوسع روحانية وأشد متانة من أن تزعزعه خلافات ظاهرية لا يمكن القول أنها متباينة "فالاختلافات العشرة" التي دونت حتى من أيام سلسوس لم تزحزح ولو إلى ساعة واحدة ايمان المسيحيين. وما نستخلصه من هذه الأخبار هو ما نتوقعه من شهود عيان حفظوها شفهيا ثم كتبت من نحو أكثر من ١٨٠٠ سنة فدونوا "الصدق الصريح" متغاضين عن بعض التفاصيل الدقيقة المحيطة. ان بولس الرسول ليس بالتأكيد بالمأفون ولا بالمتحمس المتحيز يشهد بصدق الظهورات ويكتب بعد فترة طويلة الرؤيا التي جملته هو السقط من أسرة التلاميذ (١ كو ١٥ : ٤ - ٨) لو كانت ظهورات المسيح لتلاميذه مخترعة فكيف تسنى لهم أن يمتلكوا هذا الخلق البسيط الصلب الذي لم يظهر فيه تهوس دنيء ؟ لو كانت هذه

ما تلقفا هذه الأنباء المدهشة حتى قاما ليريا بعيونهما ما قد حدث . وقد سبق يوحنا زميله الأكبر سنا منه ، وإذ وصل أولا نظر بدهشة صامتة داخل القبر المفتوح . كان القبر خاليا وكل جزء من الكفن الكتانى فى مكانه ملفوفا بعناية . وحينئذ أتى بطرس وبجرأته الطبيعية غير ملتفت إلى النجاسة الطقسية ولا إلى أى شىء آخر سوى محبته ودهشته فدخل إلى القبر وتبعه يوحنا فرأى وآمن . وعاد التلميذان يحملان هذا التحقق غير المشكوك فيه إلى أخوانهما الحائرين (١) . ورغما عن الخوف والاضطراب والفهم الثقيل الذى باعترافهم كان أبطأ من أن يدرك الحقائق التى لقنوها فقد انبلج فى هذا الحين رجاء متردد سرعان ما نما إلى يقين تام أن المسيح حقا قد قام . فى ذلك الصباح كان قبر يسوع فارغا ، وفراغه أوقع تلاميذه فى غاية الحيرة ، حيرة مشوبة في صدور بعضهم بحزن وجزع (٢) واعتقدوا بعد ذلك وببراهين متعددة أنه قد قام حقا من الأموات ، ولتيقنهم من هذا الاعتقاد أصبحوا مستعدين أن يلاقوا الموت فى كل وقت ، وان هذا الاعتقاد قد أحدث تأثيرا كاملا فى أخلاقهم فجعل الجبان شجاعا والضعيف قويا . ولم يكن في استطاعتهم قط اختراع كذب مجرم يعرفون أنه مفتعل . وحتى لو قدروا على

الظهورات من نسج الخيال فكيف تفسر وقوعها المفاجىء السريع النهائى عقب صعود السيد . يقول لانج إن ظهورات اليوم الأول لم تدون لنا كسلسلة متصلة وأن مجرد النقد الكلامى الصبيانى لن يفسر لنا الشعور المشترك الذى حفز هؤلاء الأفراد المختلفين إلى حماس متحد . ويلاحظ وستكوت اختلاف مقصد البشيرين فمتى يتكلم عن عظمة ومجد القيامة ومرقس يتكلم عنها كحقيقة واقعة ولوقا كضرورة روحية ويوحنا كمحك للأخلاق .

١ ـ راجع التباين المشابه فى خلق الرسولين الوارد فى يو ٢١ : ٧ .

٢ ـ وهذا رغما عن الانذارات المتكررة للرسل الواردة فى يو ٢ : ١٨ ـ ٢٢ و ٦ : ٦١ ـ ٦٤ و ١٠ : ١٧ و ١٨ و ١٣ : ٣١ و مت ١٢ : ٣٨ ـ ٤٢ و ١٦ : ١٣ ـ ٢٧ و ١٧ : ١ ـ ٩ و ٢٦ : ٦٣ و ٦٤ و مر ٩ : ٣٠ ـ ٣٢ و ١٠ : ٣٢ و ٣٤ و لو ٩ : ٤٣ ـ ٤٥ . قد يجوز أن كلهم لم يسمعوا كل هذه الانذارات ولكنهم سمعوا الكفاية من السيد ليجعله أن يقول لهم (يا عديمى الفهم وبطيئى القلب فى الايمان) .

ذلك فيستحيل أن يكون للمكذب المفتعل القوة القادرة أن ينتصر على إلحاد العالم وتجدد أخلاقه . وعلى اعتقاد القيامة قد بنى المسيحيون حفظ اليوم الأول ، يوم الأحد من كل أسبوع الذى ما زال يراعى فى العالم كله ، وبنوا أساسات الكنيسة المسيحية . هذه حقائق لا يستطيع النقد النزيه أن يغفلها وإن تباطأ أو تردد فى إقرارها .

ولكن حتى تلك اللحظة لم تره عين ، وكان لمريم المجدلية التى كانت روحها الآن حارة كاللهيب شفافة كالبللور والتى أخرج منها سبعة شياطين ، كان لها منحة هذا الشرف المجيد أولا . إن رؤية الملائكة لم تخفف من حدة الاضطراب والخوف التى استولت عليها عندما رجعت مرة ثانية إلى المقبرة ورأت أنه أصبح مستحيلا أن تقدم الخدمات الأخيرة المنبعثة عن الحب والحنان لجسد سيدها المصلوب . لم يقدر الملائكة اللابسون الثياب البيض ولا كلماتهم أن تنزع الاضطراب الذى ساورها للفكر الذى تملكها وهو [أنهم أخذوا سيدي ولا أعلم أين وضعوه] وفيما كان قلبها مفعما بهذا الخاطر التفتت وإذا يسوع ذاته واقفا أمامها . انه كان يسوع ولكن ليس كما عرفته . كان هناك شيء روحانى ، شيء ليس من هذه الأرض ،فى هذا الجسم المقام الممجد. تغير فى الهيئة أو الملابس جعلها تظن أنه حارس البستان . وبرجاء حار طلبت منه أن يفسر لها سر هذا القبر الفارغ المليء بالملائكة . قالت له باسترحام مر وقد أدارت رأسها وهى تخاطبه ربما لتخفى دموعها الجارية المنسكبة وقالت [إن كنت أنت قد حملته فأخبرنى أين وضعته وأنا آخذه] .

قال لها يسوع [يا مريم] .

هذه الكلمة الوحيدة فى نبراتها الرهيبة الرقيقة سويا اخترقت فى الحال قلبها فاستدارت إليه والظاهر أنها اجتهدت أن تمسك قدميه أو هدب ثوبه وصرخت فى لغتها الوطنية الآرامية [رابونى . الذى هو يا معلم] . وعقد الفرح السديد لسانها عن أن تنطق بغير هذا . أما يسوع فأوقف بلطف حدة عاطفتها الحماسية وقال لها [لا

تلمسيني (١) لأنى لم أصعد بعد إلى أبي . فاذهبي إلى أخوتي وقولي لهم إني أصعد إلى أبي الذي هو أبوكم وإلهي الذى هو إلهكم] . فأسرعت طائعة خائفة وأعادت عليهم تلك الرسالة الرهيبة . وقد رن صوتها كالبشير الأول الذى طبع على عقول جميع من سمعوه أثرا لا يمحى إذ أخبرت [انى رأيت الرب] .

٢ ـ وما كانت شهادتها غير مدعمة . لقد قابل يسوع النسوة الأخريات وقال لهن [سلام] . واختلط الخوف بالفرح حين أردن أن يمسكن قدميه . حينئذ قال لهن [لا تخفن . اذهبن واعلمن إخوتي أن يذهبوا إلى الجليل وهناك يرونني] (٢) .

كان بقاء الحراس جوار قبر فارغ لا ضرورة له . وخشية العواقب والرعب من كل ما رأوا هربوا وهرعوا الرجال السنهدرين وأسروا إليهم بما شاهدوا . لكن كان الايمان أو البحث بعيدين جدا على السواء عن تلك القلوب الغليظة ، بل كان حصنهم الوحيد هو الكذب . اجتهدوا أن يخفتوا المسألة كلها . فأوعزوا للحراس أن يقولوا انهم كانوا نياما ، وفيما هم كذلك سرق التلاميذ جسد يسوع (٣) . غير أن قصة مثل هذه كانت ظاهرة البهتان حتى لا تصدق وسخيفة حتى لا تعلن . وإذا عرفت فلا شيء يعفي هؤلاء الجند وهم رومان من العار والقتل . لذلك رشا الصدوقيون الجند ليتشاوروا فيما فيه صالحهم وليدفنوا الأمر كله سرا مكتوما . ولم تنتشر هذه الفرية الوضيعة إلا رويدا رويدا وبعد حين . ورغما عنهم بعد ستة أسابيع من القيامة كانت

---

١ ـ يو ٢٠ : ١٧ معناها أن يوم الحضور الشخصي الجسماني ، يوم المحبة البشرية قد انتهى ومن الآن فصاعدا سيكون مع شعبه أقرب وألصق لأن حضوره سيكون روحيا .

٢ ـ مت ٢٨ : ٩ و ١٠ .

٣ ـ مت ٢٨ : ١١ ـ ١٥ . غريب أن أولئك الذين يظهرون اشمئزازا من فكرة الغش عند أولئك القضاة الدنيويين المتحيزين من أعضاء السنهدرين لا يتورعون من القول أن المسيحية قد أسست على صدق مشبوه يقرب من الغش المتعمد من أناس ماتوا من أجل الصدق الذي كرزوا به وعلموا أن روح الصدق هو الواجب الأول للدين الذي نادوا به .

هذه الحادثة العظيمة لكل مسيحى الايمان الذى لا يتزعزع . وبعد سنين قليلة تفوت براهينها التاريخية المحسوسة وشهاداتها المختلفة عن حقيقتها برؤية خالدة أعلنت . وقد حققها وارتضاها شاب ذو عقلية حادة جبارة ونبيلة ، فريسي غيور مضطهد اسمه شاول (١) . ولكن بهمسات ولدت ميتة وانتشرت هذه الكذبة السوداء السالفة بطرق خافية ملتوية وكان الغرض منها مضادة الحقيقة الواقعة . ويذكر متي البشير أنه عندما كتب إنجيله كانت لا تزال شائعة بين اليهود وظلت تتناقل بينهم لعدة أجيال ، وهى إحدى الخرافات التجديفية التى أعيدت وقد تضخمت بعد ذلك باثنى عشر جيلا فى كتابهم (تولدوت يسوع) .

٣ ـ الظهور الثالث كان لبطرس ، ولا ندري تفصيلاته بالمرة . وربما كانت فى طبيعتها شخصية جدا عن أن تعلن . وحقيقة هذا الظهور ترتكز على شهادتى لوقا البشير وبولس الرسول (٢) .

٤ ـ الظهور الرابع حدث فى ذات اليوم وأحيط بظروف عميقة الأهمية . كان تلميذان ذاهبين إلى قرية اسمها عمواس (٣) وموضعها غير معروف ولكنها تبعد حوالى ثمانية أميال عن أوروشليم . وكانا يتحدثان بقلب حزين مضطرب من الحوادث المريعة التى صارت فى اليومين السابقين ، وإذا بغريب يصحبهما ويسألهما عن سبب نظراتهما العابسة وكلماتهما القلقة ، فوقفا وحدقا في هذا المسافر المجهول بنظرة عدائية مريبة (٤) .

---

١ ـ رو ٦ : ٤ واف ١ : ٢٠ وغل ١ : ١ و ١ كو ١٥ : ٤ ـ ٨ الخ . والأخيرة هى أول استشهاد عن القيامة وكتبت سنة ٥٤ م.

٢ ـ لو ٢٤ : ٣٤ و ١ كو ١٥ : ٥ .

٣ ـ عمواس ليست هى عمواس (نيكوبولس) التى تبعد ١٦٠ غلوه أى حوالى ٢٢ ميلا عن أوروشليم . والكلمة معناها "الآبار الحارة" وقد يكون موضعها قرية "كولونيه" ولكن لا يمكن الجزم بموضع مكان أشير إليه عرضا على هذا النحو .

٤ ـ لو ٢٤ : ١٣ ـ ٣٥ . هذا وإن إجابة كليوباس التى تنطوي على شيء من التأكيد تظهر أن

وعندما أجاب أحدهما الذى كان اسمه كليوباس (١) كان فى الجواب الذى جرأ أن ينطق به شيء من الريبة والدهشة [أأنت وحدك غير مقيم بأوروشليم فلم تعلم ما حدث فيها



السير إلى عمواس (عن حفرية من العاج من القرن التاسع)

التلاميذين لم يكونا مستريحين لتدخل هذا الغريب . وبعد الحوادث الأخيرة القريبة كان هذا الحرص أمرا طبيعيا .

١ ـ لو كانت هذه الحادثة خيالية كما يزعم بعض النقاد فلماذا ذكر هذا الاسم المجهول كليوباس ليدعمها ؟ ثم لماذا لم يذكر الاسم الآخر أما كان من السهل جدا اختيار اسمين لرسولين مقدمين ؟ ان القول بأن كليوباس هذا هو كلوباس أو حلفى مجرد ظن .

فى هذه الأيام] . فسألهما [وما هو] ؟ وحينئذ أخبراه كيف أن آمالهم التى رجوها من أن يسوع كان النبى العظيم الذى سيفـــدى شعبهم قد تحطمت وديست إلى الأرض وكيف أن أعماله المقتدرة أمام الله والناس قد مضت وانتهت منذ يومين على صليب العار . ثم وصفا له الدهشة التى استولت عليهم فى اليوم الثالث هذا عندما حيرتهم بعض النسوة وأسمعنهم شائعات عن رؤيا ملائكية وشهادة بعضهم أنهم رأوا القبر فارغا . وأضاف المتكلم بأنة حزينة [أما هو فلم يروه] .

وحينئذ وبخها لعدم فهمها وبطء قلبيهما . وأراهما ذلك الغريب كيف أنه فى كل العهد القديم من موسى فما بعده كانت نبوة طويلة عن آلام المسيح كما عن مجده . وإذ كانوا يتحدثون فى هذه الأمور الهامة اقتربوا إلى عمواس وظهر أن الغريب سائر إلى مكان أبعد منها ولكنهما أمسكاه بالحاح ليمكث معهما وإذ جلسوا لتناول الطعام البسيط بارك وكسر الخبز وناولهما وحينئذ انفتحت عيونهما فجأة ورغما عن شكله المتغير [١] عرفا أن الذى كان معهما هو الرب . ولكن عندما عرفاه لم يجداه فقال أحدهما للآخر [أما كان قلبنا ملتهبا فينا وهو يكلمنا فى الطريق ويوضح لنا الكتب] ؟ وقاما للحال وعادا لأورشليم يبشران بهذه الأخبار الغريبة الفرحة . ولم يجدا الآن سامعين مرتابين بل قوبلا هما أيضا بالتأكيد المفرح المفعم بالسرور [حقا لقد قام الرب وظهر لسمعان] .

٥ ـ مرة أخرى ، وللمرة الخامسة فى يوم القيامة هذا ، الخالد إلى أبد الدهور ، أظهر يسوع ذاته لتلاميذه . كان عشرة منهم مجتمعين سويا والأبواب مغلقة من خوف اليهود وفيما هم يتبادلون هذه الأخبار السعيدة إذا يسوع ذاته قد وقف فى وسطهم [وقال لهم السلام لكم] . والهيئة غير العادية لهذا الجسم الممجد ، والأمر الرهيب أنه قد قام من الأموات صيراهم فى اضطراب وخوف [٢] . كان حضور السيد جسدانيا

---

١ ـ مر ١٦ : ١٢ (بهيئة أخرى) .   ٢ ـ قال اغناطيوس إن يسوع قال "أنا لست روحا بلا جسم" .

بلا شك ولكنه متغير فظنوا أن روحا هو الماثل أمامهم [فقال لهم لماذا تضطربون ولماذا تخطر أفكار على قلوبكم . انظروا يدى ورجلى فانى أنا هو . جسونى وانظروا فان الروح ليس له جسم بعظم كما ترون لى] . ولما قال هذا أراهم يديه وجنبه . وعندما كان يتنازع قلوبهم الفرح والدهشة وعدم التصديق سألهم إن كان عندهم شيء يأكله . ولكى يزيد تأكدهم أكل قدامهم جزءا من سمكة مشوية وشهد عسل . وحينئذ مرة أخرى قال لهم [السلام لكم . كما أرسلنى أبى أرسلكم أنا أيضا . ثم نفخ فى وجوههم وقال اقبلوا روح القدس . من غفرتم لهم خطاياهم تغفر لهم ومن أمسكتموها عليهم تمسك] .

٦ ـ واحد فقط من الرسل كان غائبا وهو توما أى التوأم . وقد رأينا فيما سلف أنه كان محبا ولكنه حزين . ظهر له أن الخبر أجل من أن يصدق وعبثا حاول باقي الرسل أن يؤكدوا له [إنا قد رأينا الرب] . من حظنا وليس من حظه أن أعلن بتأكيد قوى أنه لا شيء يقنعه ما لم يضع أصبعه فعلا فى أثر المسامير ويده فى جنبه . مضى أسبوع والشكوك المدونة بأمانة عن الرسول المخلص بقيت كما هى . فى اليوم الثامن أو كما نقول نحن بعد ذلك بسبعة أيام ـ لأن القيامة قد جعلت اليوم الأول من الأسبوع حتى من ذلك الوقت مقدسا لقلوب الرسل ـ كان الأحد عشر مجتمعين داخل الأبواب المغلقة ، ومرة أخرى ظهر لهم يسوع . وبعد بركته المعتادة الرهيبة اللطيفة دعا توما وأمره أن يمد أصبعه ويضعه فى أثر المسامير ويضع يده مكان الحربة فى جنبه كى لا يكون فيما بعد [غير مؤمن بل مؤمنا] . أجاب التلميذ غير المصدق بموجة من الايقان [ربى والهى] . قال له يسوع [لما رأيتنى آمنت . طوبى للذين لم يروا وآمنوا] .

٧ ـ الظهور التالى للمخلص القائم كان لسبعة من التلاميذ عند بحر الجليل ، سمعان وتوما ونثنائيل وابنى زبدى واثنين آخرين ليس من المستبعد أن يكونا فيلبس

واندراوس ولو لم يذكر اسمها (١) . مرت فترة لم يظهر فيها المسيح ، فقبل أن يعودوا لأورشليم فى العنصرة ليقبلوا وعد انسكاب الروح القدس قال سمعان انه سيعاود مؤقتا صناعته الأولى كصياد للسمك . لم يكن لهم بعد كيس مشترك ، وربما نفذت مرافق العيش فكان هذا هو السبيل الوحيد الواضح للحصول من طريق شريف على ما يحتاجون إليه . واقترح الآخرون أن يصحبوه وأقلعوا مساء لأن الليل هو أحسن وقت للصيد وتعبوا الليل كله عبثا .

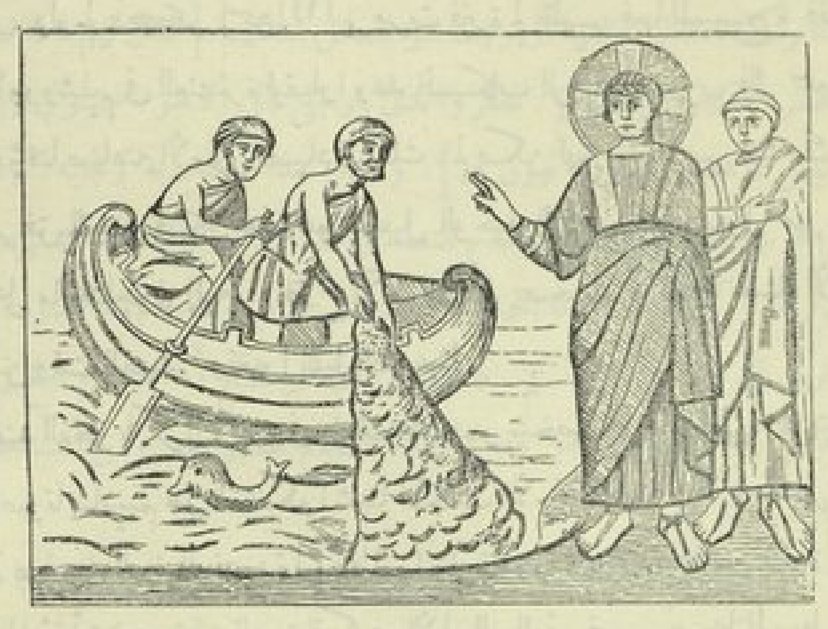
وعند الفجر باكرا وقف فى ضباب السحر شخص على الشاطىء لم يتبينوه ، وسمعوا صوتا يناديهم هل أمسكوا شيئا فكانت الأجابة القانطة [لا] . فأمرهم [ألقوا الشبكة عن يمين السفينة فتجدوا] . فألقوا ولم يقدروا أن يجذبوها من كثرة السمك . وهذه الحادثة أيقظت بقوة قاهرة ذكرى الأيام السالفة . فهمس يوحنا إلى بطرس قائلا [إنه الرب] . فنى الحال شد ذلك المتحمس الحار القلب منطقة الصيد على حقويه (٢) وقفز إلى البحر ليسبح المائة يارده التى تفصله عن الشاطىء . وألقى بنفسه وقد بللته الأمواج عند قدمى يسوع ، وتبعه الباقون يبطء يجرون الشبكة المليئة غير المخرقة وبها مائة وثلاث وخمسون سمكة كبيرة . ولما أتوا تطلعوا فرأوا جمرا موضوعا على الشاطىء وسمكا يشوى عليه وخبزا إلى جانبه . وهو منظر قد يرى إلى يومنا هذا على شواطىء بحيرة الجليل . وذاك الواقف أمرهم أن يحضروا سمكا مما أمسكوا فللحال قام سمعان وساعد بذراعه القوية فى جر الشبكة إلى الشاطىء . وذاك الذى علم جميعهم أنه الرب ولكن صوته وهيئته ملأنا قلوبهم احتراما مهيبا فلم يجسروا أن يسألوه من أنت ، أمرهم أن يأتوا ويأكلوا وفرق عليهم الخبز والسمك .

وانتهت الأكلة السعيدة فى سكوت وبعدها قال يسوع لتلميذه الضعيف ولكن

---

١ - يو ٢١ : ١ - ٢٤ .

٢ - من المعتاد فى الشرق الصيد دون ستر للجسم سوى قطعة قماش حول الوسط .



صيد السمك العجيب
(رسم من القرن السادس من كنيسة القديس أبوليناريوس فى رافانا)

المحب [يا سمعان] . ولم يكن قد حان الوقت بعد ليعيد له اسم بطرس [يا سمعان بن يونا أتحبنى (١) أكثر من هؤلاء] . أجابه [نعم يا رب أنت تعلم أننى أحبك] . فقال له السيد [ارع خرافى] .

وقد شعر سمعان في داخل قلبه بما عنى يسوع من توبيخ رقيق بقوله [أكثر من هؤلاء] . قد أرجعت هذه الكلمات إلى روحه التائبة قوله الفخور الذى أكده بين أخوانه [ولو شك فيك الجميع فأنا لا أشك] . قد علمه الخذلان الاتضاع . ولذلك فلم يدعى الأولوية فى الحب ، بل لم يستعمل الكلمة الدالة على منتهى الاحترام والحب والأكرام التى استعملها يسوع فى سؤاله بل أبدلها بكلمة أضعف تعبر عما

١ - لا توجد كلمة تدل على المعنى الأصلى الدال على فائق الاحترام والاكرام . بينما كلمة (أتحبنى) تدل على عاطفة أكثر . وحتى لو كان يسوع قالها بالآرامية فان الكلمة اليونانية تدل على هذا أيضا .

يكنه قلبه من المحبة البشرية والاحترام الحار . أما في المرة الثانية فقد ذكره سؤال يسوع باعتداده بنفسه ولكن بايلام أقل إذ سأله قائلا فقط :

[يا سمعان بن يونا أتحبني] ؟

ومرة أخرى أجاب التلميذ المتواضع بنفس الكلمات السابقة

[نعم يا رب أنت تعلم أنني أحبك]

فقال له السيد [ارع كباشي](1) .

ولكن سمعان قد أنكر ثلاث مرات فكان من الأنسب أن يعترف ثلاث مرات. فبعد فترة قصيرة سأله أيضا ، وهذه المرة بنفس الكلمة الأقل احتراما ولكن أكثر حرارة والتي سبق أن استعملها الرسول نفسه .

[يا سمعان بن يونا أتحبني] ؟

فحزن بطرس واكتأب عميقا وصرخ

[يا رب أنت عارف بكل شيء وأنت تعلم أني أحبك] .

[ارع غنمي] . وبعدئذ أضاف برهبة [الحق الحق أقول لك إنك لما كنت شابا كنت تمنطق ذاتك وحدك وتذهب إلى حيث تشاء ومتى شخت فانك تبسط يديك وآخر يمنطقك ويحملك إلى حيث لا تريد] .

وفهم الرسول أن كلمة سيده تنبيء عن سني خدمته المقبلة وآلام استشهاده . ولكنه لم يكن الآن سمعان بل بطرس . دخل الصخر إلى نفسه وكان في قلبه مستعدا حتى الموت أن يطيع ذلك الصوت الذي قال له [اتبعني] . وبينما كانت تلك المحادثة مستمرة كان بطرس يمشي إلى جانب المسيح على بعد خطوات قليلة قبل زملائه . وإذ التفت بطرس رأى زميله الوحيد المقرب إليه ، التلميذ الذي كان يسوع يحبه ، يتبعهما على مهل فأشار إليه وسأل يسوع قائلا [يا رب . وهذا ما هو] . وكان جواب يسوع

١ - يو ٢١ : ١٥ .

رادعا لروح الاستطلاع الفضولى [إن أردت أن أتركه حتى أجىء فما بالك أنت . فأنت اتبعنى] . ولم يجرؤ بطرس أن يسأل أكثر . والجواب الذى قصد يسوع أن يكون غير واضح أدى إلى الاعتقاد الذي ذاع فى الكنيسة الأولى أن يوحنا لن يموت حتى يجىء المسيح الأمر الذى جعل الرسول يصحح بهدوء هذا الخطأ بأيراد الكلمات الحقيقية التى قالها يسوع . ولا نعلم عن كيفية موته شيئا ، ولكنا نعلم أنه عاش أكثر من اخوته التلاميذ ، وأنه قد عاش حتى رأى خراب أمته الذريع والذي جعل القيام بأطاعة أوامر العهد القديم مستحيلا ، وفتح فى العالم طريقا غير معرقل لتأسيس الوصية الجديدة التى للملكوت ليس من هذه الأرض وكان فى أدق المعانى أقرب حادثة فى التاريخ البشرى ينطبق عليها من هذه الناحية مجىء الرب ثانية .

٨ ـ ربما فى هذه المرة قد أخبر يسوع تلاميذه عن جبل الجليل حيث يراه للمرة الأخيرة كل الذين عرفوه وأحبوه . ولا نعلم إن كان هذا جبل طابور أم جبل التطوبيات ولكن فى الوقت المحدد اجتمع أكثر من خمسمائة شخص مع التلاميذ الأحد عشر (١) ليتقبلوا من يسوع آخر أوامره ليعلموا ويعمدوا كل الأمم ويتقبلوا منه الوعد الأخير أنه سيكون معهم دائما كل الأيام وإلى انقضاء الدهور (٢) . وقد كتب بولس الرسول بعد حدوث هذا الظهور بعشرين عاما معطيا شهادة قيمة عنه وأن أغلب هذا العدد من شهود الرؤيا للقيامة كانوا أحياء وأن بعضهم قد رقد .

٩ ـ ظهور تاسع ليسوع لم تسجله البشائر وإنما وصل إلينا مما كتبه بولس الرسول

---

١ ـ مت ٢٨ : ١٧ وكلمة (أما بعضهم شك) تعنى أن بعضهم لم يصدق المنظر كله لا كما ذهب وستين وغيره أن بعضهم لم يسجد . ربما كان هذا البعض واقفا بعيدا أو ربما لم يعرفه كما سبق أن رأينا فى أربعة مواضع (مت ٢٨ : ١٧ و لو ٢٤ : ١٦ و ٢٧ و يو ٢١ : ٤) ان شيئا غير معتاد فى جسده المقام من الأموات جعله ليس من السهل التعرف عليه فى الحال. على أى حال لنا هنا برهان لا يعتوره الشك على صدق البشيرين .

٢ ـ يفسر بعضهم اتمام هذه النبوة على وجه آخر ما جاء فى رؤيا يوحنا اللاهوتى .

فى رسالته إلى الكورنثيين إذ قال [فاننى سلمت إليكم فى الأول ما قبلته أنا أيضا أن المسيح مات من أجل خطايانا حسب الكتب وأنه دفن وأنه قام فى اليوم الثالث حسب الكتب وأنه ظهر لصفا ثم للاثنى عشر . وبعد ذلك ظهر دفعة واحدة لأكثر من خمسمائة أخ ..... وبعد ذلك ظهر ليعقوب ثم للرسل أجمعين وآخر الكل كأنه للسقط ظهر لى أنا] (١) . ولا نعلم شيئا عن هذا الظهور ليعقوب إلا إن كان هناك أساس من الصحة للتقليد الوارد في كتاب العبرانيين من أن يعقوب ، أول أسقف لأوروشليم وأخا الرب (٢) ، قد أكد تأكيدا صارما بعد العشاء الأخير أنه لن يأكل أو يشرب حتى يرى يسوع مقاما من الأموات ، ولذلك فى بكور يوم القيامة ذاته جاء يسوع وبعد أن أعطى السندون لخادم الكاهن أعد مائدة وشكر وأعطى يعقوب قائلا « كل خبزك الآن أيها الأخ لأن ابن الانسان قد قام من الأموات » .

١٠ - مضى الآن أربعون يوما منذ الصلب ظهر فى خلالها الرب تسع مرات ورأته عيون البشر ولمسته أيدي البشر ، ولكن جسده لم يكن مجرد جسد إنسانى ولم يكن خاضعا للقوانين البشرية ولم يعش فى هذه الايام حياة الناس . وأتى الوقت لذى ينبغي فيه أن يحتجب حضوره الأرضي إلى الأبد حتى يأتى فى مجده ليدين العالم . قابلهم فى أوروشليم واقتادهم معه فى طريق بيت عنيا (٣) وأوصاهم أن يمكثوا في المدينة المقدسة حتى ينالوا موعد الروح القدس وأوقف عند حد أسئلتهم المتحمسة عن الأزمنة والأيام وأوصاهم أن يكونوا له شهودا فى كل الأرض . وهذه التوديعات الأخيرة لا ريب أنه قالها لهم على أحد المرتفعات المنفردة التى تحيط بالقرية الصغيرة (٤) .

١ - ١ كو ١٥ : ٣ - ٨ .

٢ - وقد يجوز أن يكون يعقوب بن زبدى .

٣ . كانت الوحدة والخفاء هى التى حفظت المواقف الموسمية للمسيح . الصحراء متمعنه يصلى . ولد فى خفية . أشبع الآلاف فى البرية . وعلى جبل فى وحدة تجلى . وعلى جبل مات وعلى جبل صعد إلى أبيه .

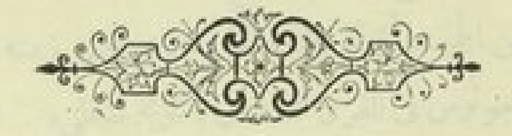
٤ - لو ٢٤ : ٢٠ .

وعندما انتهى من قولها رفع يديه وباركهم، وفيما هو يباركهم افترق عنهم وصعد أمام عيونهم وأخذته سحابة عن أبصارهم .

بيننا الآن وبين حضوره ورؤيته بالعين، بيننا وبين ذلك الفادى المجد الذى يجلس الآن عن يمين الله لا زالت تلك السحابة مخيمة فوقنا . ولكن عين الايمان تقدر أن تخترقها، وبخور الصلوات الحقيقية يعلو عليها، ومن خلالها يستطيع غيث البركات أن ينهمر . وإن كان قد غاب عنا إلا أنه قد منحنا فى روحه القدوس شعوراً أقرب لوجوده معنا واحتضاناً ألصق بين ذراعي حنانه أزيد مما لو كنا قد تمتعنا بالعيش معه فى ذلك الزمن الغابر فى بيت الناصرة أو أقلعنا معه فى القارب الصغير على مياه جنيسارات البللورية. وقد يجوز أن نكون قريبين منه فى كل الأوقات سيما فى الأوقات التى نركع فيها للصلاة ، قريبين مثل ذلك التلميذ الحبيب عندما وضع رأسه على صدره . كلمة الله قريبة منا بل هى فى أفواهنا وآذاننا . نعم قد لا يسمع صوته فى الآذان التي صمت . قد يجوز أن ضوضاء الحروب العالية التى تهز العالم ومناداة الأطماع والملذات قد تطغى على الهمسات الرقيقة اللطيفة التي تأمرنا [اتبعنى] . وبعد ألفى عام للمسيحية يجوز أن صخب الألحاد الذى للنقد العجول بالكاد يسمح للإيمان أن يكرر العقيدة التى جددت العالم دون سخرية . بل ومن المحزن أكثر من هذا أنه من حين لآخر حتي فى إنجلترا المسيحية قد يسمع لسان مجـــدف يهزأ بابن الله وهو يتألم فى البستان أو يسلم الروح على الشجرة المرة . ولكن سر الله لخائفيه ، وسيريهم عهده ، وهو يتكلم للآن لجميع الذين ينصتون له . لقد وعد أن يكون معنـــا كل الأيام وإلى انقضـــاء الدهر ، ولم نجد أن وعده يسقط قط . إنها كانت ثلاثة وثلاثون سنة قصيرة لحياته القصـــيرة على الأرض . إنها كانت ثلاث سنين متقطعة مضطـــربة هى التى كرز فيها بانجيل الملكـــوت ولكن إلى الأبد وإلى انقضـــاء الأزمنة وإلى أن تزول الأرض ذاتها وكل الأفلاك والسموات

الموجـودة الآن من الوجـــود . سيظل كل فرد من أولاده الحقيقيين الأمنـــاء يجد فى اسمه السلام والرجاء والغفران ، هذا الاسم الذى يدعى عمانوئيل الذى تفسيره :—

الله معنـــــا



الخاتمة

التذييل الأول

صحيفة ٧٧ ، صحيفة ١٠٤

تاريخ ميلاد المسيح

ولو أنه يستحيل تعيين يوم ميلاد المسيح بتأكيد تام إلا أنه توجد أدلة كافية ترجح جدا أنه كان قبل التاريخ الجارى بأربع سنوات .

من المسلم به من الجميع أن تاريخنا الحالى - الذى ليس زمنه أقدم من عهد ديونيسيوس اكسيجونوس فى القرن السادس - تاريخ خاطىء . غير أننى أصرح بأننى لا أدعي الدخول فى تفصيل النظريات الحديثة للتاريخ التى قدمها كيم . ليس فقط لأننى غير كفء لتحقيق البحوث الخاصة بالتقاويم بل أيضا لأن هذا يقتضى أولا اتساعا في الكتاب غير محمود وثانيا لأن هذه النظريات ترتكز على نظرات للبشائر بعيدة جدا عن وجهة نظرى لها .

١ - أول دليل محقق هو أن المسيح قد ولد قبل وفاة هيرودس الكبير . وتاريخ هذا الحادث محقق تماما وذلك : (١) لأن يوسيفوس يؤرخ أنه مات بعد سبع وثلاثين سنة من يوم أن أعلن ملكا من الرومان . ومن المحقق أنه أعلن ملكا سنة ٧١٤ . ولما كان يوسيفوس يحتسب السنة من نيسان إلى نيسان ويحتسب الأجزاء الأولى أو الأخيرة من نيسان كأنها سنة كاملة فمن المحقق أن يكون هيرودس الكبير قد مات بين نيسان سنة ٧٥٠ و نيسان سنة ٧٥١ ، أى بين سنة ٤ ق.م. و ٣ ق.م. (٢) ذكر

يوسيفوس أنه فى الليلة التى أمر فيها هيرودس بحرق يهوذا متياس وأتباعه كان القمر فى خسوف (١) . ولقد وقع هذا الخسوف على وجه التأكيد فى ليلة ١٢ مايو سنة ٤ ق.م. ولقد مات هيرودس قبل عيد الفصح (٢) بسبعة أيام على الأقل ، العيد الذي (ان اعتبرنا التقويم اليهودى) وقع تلك السنة فى ١٢ أبريل . وواضح من الأشارات المدونة فى البشائر أن المسيح قد ولد قبل وفاة هيرودس بأربعين يوما على الأقل . فمن الواضح الأكيد أن الميلاد يستحيل أن يكون تاريخه بعد فبراير سنة ٤ ق.م.

٢ - الدليل الثانى المحقق هو الذى ذكره لوقا البشير والذى يحدد زمن كرازة يوحنا المعمدان بالسنة الخامسة عشرة لحكم طيباريوس ويحدد أيضا أن المسيح عندما بدأ كرازته كان له نحو ثلاثين سنة (٣) لو ٣ : ٢٣ .

فاذا حسبنا هذه الخمس عشرة سنة لسلطنة طيباريوس من يوم وفاة أوغسطس قيصر (وكان ذلك فى شهر أغسطس سنة ٧٦٧) لكان عماد المسيح سنة ٧٨٢ . ولكن سبق أن رأينا أنه لا يمكن أن يكون تاريخ الميلاد بعد فبراير سنة ٧٥٠ فيكون قد اعتمد فى السنة الثانية والثلاثين من عمره على الأقل ، وهذا لا يتفق مع تعبير لوقا البشير. والحقيقة أنه يوجد أساس متين للاعتقاد أن لوقا لم يؤرخ زمن سلطنة طيباريوس من يوم وفاة أوغسطس بل من يوم أن أعلن طيباريوس امبراطورا ملازما مع أوغسطس سنة ٧٦٥ ، وهى طريقة كانت متبعة فى القديم وشائعة بالتأكيد فى المقاطعات . وبذلك يثبت أن يسوع قد بدأ كرازته العلنية سنة ٧٨٠ وهو تاريخ يتفق تماما مع التاريخ المحقق لميلاد المسيح .

الجهود التى بذلت لتحقيق اليوم والشهر الذى ولد فيه المسيح ذهبت عبثا إذ لا

---

١ - كتاب التقاويم لأيدلر جزء ٢ صحيفة ٣٩١ . ٢ - ايدلر .

٣ - وردت هذه فى بعض التراجم (وكان يسوع قد بدأ فى السنة الثلاثين) . وهذه تراجم لا يعول عليها .

توجد لدينا الوسائل التي توصلنا إلى تحديده ولو على وجه التقريب والاستنتاجات التي استخلصت من تعداد كيرينوس ، وترتيب فرق الكهنة للخدمة ، والدلال السنوى للقراءات اليهودية ، وأزمنة القنصليات كما ذكرها ترتليانوس ، ومجيء المجـــوس ، والاقتران الفلكى الذى يقال أنه قد حدث وكان السبب فى رحلتهم ، وغلق أوغسطس لمجمع يانوس للمرة الثالثة والاستنتاجات الأخرى التى استخلصت من دلائل غير هذه ، كلها غامضة لا تجدى نفعا بل على العكس قد تؤدى إلى نتائج غير محققـــة أبدا بل أحيانا كاملة الخطأ .

وثمة دليل ثالث يجوز أن نعتبره مصداقا لما قررناه من أن ميلاد المسيح حدث قبل التاريخ الجارى بأربع سنوات قد نستنتجه مما جاء فى يو ٢ : ٢٠ [فى ست وأربعين سنة بنى هذا الهيكل] . وبما أن هيرودس بدأ بناء الهيكل فى السنة الثامنة عشرة من حكمه أى ربما في شهر كيسلو سنة ٧٣٤ ، فالسنة السادسة والأربعين لبناء الهيكل تكون سنة ٧٨٠ وهى كما رأينا سالفا كانت السنة الأولى لكرازة السيد والسنة الثلاثين من عمره وبالتالى تدعم تاريخ ميلاده الذى قررناه .

غير أن هذا الدليل ليس مؤكدا وهذا الاستنتاج يشوبه بعض الشك ، لأن يوحنا قد استعمل فى هذا التوقيت كلمة لا تدل على الدقة البالغة (قارن عز ٥ : ١٦) .

الصعوبات والمشكلات في التاريخ الذى دونه لوقا البشير فى ٣ : ١ و ٢ تنحصر فى ذكره لحنان كرئيس للكهنة وللسيانوس كرئيس ربع على الأبلية .

١ - بخصوص حنان : حقيقة قد وردت فى بعض القراءات [حنان وقيافا رئيسى الكهنة] ولكنها وردت في كل النسخ المعتبرة (8 ، ا . ب . ج . د . ه . الخ) [رئيس الكهنة حنان وقيافا] . وهذا التعبير بالنص وارد أيضا فى اع ٥ : ٦ . ولهذا نبت السؤال كيف يذكر لوقا أن حنان هو رئيس الكهنة بينما كان يشغل الوظيفة قيافا . لقد أجبت على هذا السؤال بأسهاب (فى الفصل الثامن والخمسين)

ولكنى ألاحظ هنا : (١) أن حنان قد خلع بأمر من فاليريوس جراتوس [1] ، ولهذا كان يعتبره كل يهودى حصيف أنه هو رئيس الكهنة الفعلى حسب ناموس موسى (عدد ٣٨ : ٢٥) . (٢) ان كان حنان فى ذلك الوقت يشغل مركز « الساجان » أو « الناصح » أو لا يشغله فكل الدلائل تشهد أنه كان حينذاك أعظم زعيم له نفوذ فى الطبقات الأرستقراطيـة والكهنوتية والصدوقية فى أوروشليم . (٣) يوسيفوس نفسه يعترف بمركز حنان ويتكلم باستخفاف عن مجرد « الكلاب الصغيرة » التى رفعتها السلطات الزمنية فاعتلت رئاسة الكهنوت فى تتابع سريع [2] .

٢ ـ بخصوص ليسيانوس. ظن النقاد أن لوقا البشير قد أخطأ فى ذكره لليسيانوس رئيس ربع على الأبلية . ولكن الحقائق تثبت : (١) أنه كان هناك رئيس اسمه ليسيانوس ملك شاليس عند جبل لبنان وفى الغالب أيضا رئيس ربع على الأبلية فى أيام أنطونيوس وكليوباترا قبل التاريخ الذى ذكره لوقا البشير بستين سنة (يوسيفوس) . وكان هناك ليسيانوس آخر فى أيام حكمى كاليجولا وكلوديوس قبل التاريخ الذى ذكره لوقا بعشرين سنة . ونحن لا ندرى إن كان هناك آخرون باسم ليسيانوس بين هذين الاثنين . ولكن ليس هناك ما يبرهن على عدم وجود ليسيانوس بينهما كما لا يمتنع أن ليسيانوس الثانى الذى ذكرناه هو الذى عناه لوقا البشير . وحتى رينان بعد أن قرأ حفائر زينودورس فى بعلبك لم تعد لديه الأسباب التى جعلته يظن أولا أن البشير قد أخطأ فى هذه النقطة التاريخية .

بل إن رئاسة ربع على الأبلية التى ذكرها لوقا تدل على حقبة تاريخية لها أهميتها لأن أبلية كانت فى فترة من الزمان جزءا من الأقاليم اليهودية منحها كاليجولا سنة ٣٦ ق.م. لصديقه هيرودس اغريبا الأول . ومن يريد الاستزادة فليراجع

---

١ ـ كان حنان رئيسا للكهنة رسميا من ٧ ـ ١٤ قبل الميلاد وتتابع ثلاثة رؤساء كهنة من ضمنهم ابنه ليعازر قبل أن يعين صهره قيافا رئيسا للكهنة سنة ٢٤ .

٢ ـ يوسيفوس.

ملاحظات ويزلر عن الحقائق التاريخية الواردة فى بشارة لوقا . ولكن كفي ما تقدم للبرهنة على أن البشير فضلا عن عدم وقوعه فى أى خطأ فقد حفظ لنا حقيقة تاريخية كانت خافية . ولو لم يكن على إلمام تام بالظروف الحقيقية فليس من اليسير أن ندرك كيف كان في استطاعته أن يكتب هذه الاشارة الدقيقة العرضية دون أن يعرض نفسه للوقوع فى خطأ يمكن اجتنابه .

التذييل الثانى

صحيفة ٧٩

المسيح والمسيحيون في التلمود

ورد اسم يسوع حوالى عشرين مرة فقط فى نسخ التلمود غير المنقحة والتي ظهرت آخرها فى أمستردام سنة ١٦٤٥ .

وتمتاز الأشارات عنه بكره شديد يخفى تحت ستار من الخوف الشديد ، كما تمتاز أيضا بعدم دقة شنيعة من أولئك الكتاب البعيدين عن معرفة التاريخ والنقد بعدا شاسعا ، فهم يشيرون إلى المسيحيين عادة « بأولاد بلعام » و « التنيم » أى الهراطقة و « الأمميين » و « الناصرين » ليتجنبوا بلا شك ذكرهم صراحة .

وجاء فى فصل السنهدرين ٤٣ أن يسوع كان له خمسة تلاميذ : متاؤوس ، ونداؤوس ، وشخصا آخر له اسم عبرانى ومعناه الناصرى ، وبونى (ويقصدون به إما نيقوديمون بن غوريون أى نيقوديموس أو يقصدون به بانوس) ونيق (ربما تحريف نيقولاتيان) .

وقد دعوا السيد المبارك بالأسماء التالية :

« هذا الرجل » (قارن أعمال ٥ : ٢٨) والكلمة تعنى تقريبا « فلان » .

« الذى لا نسميه » .

« هانوتزى » (أى الناصرى) .

« الأحمق » .

« المعلق » . قال ابن عزرا عن تفسيره تك ٢٧ : ٣٩ ان قسطنطين وضع على صدره رمز المعلق. وقال الربى بشاى عن مز ١٣٠ ١٤ انه فى كلمة الكرمة وضع حرفا منها إلى أعلى ليدل على عبيد المعلق - أى المسيحيين - الذين لاشوا كرم اسرائيل .

« ابشالوم » .

« ابن ستادا » .

« ابن باندرا » .

وقد وضعوا اسمه اليونانى بحروف عبرية كل حرف منها بداءة كلمة عبرية . أى - ليكن ذكره مبادا واسمه ممحى - .

ولم يذكر فى التلمود عن يسوع إلا أنه كان تلميذا ليشوع بن براخيا (مع ان هذا عاش قبل المسيح بقرن !) وانه صحبه إلى مصر حيث تعلم السحر وكان « مسيت » أى مضلا للناس وانه رجم أولا ثم صلب كمجدف بعد أربعين يوما لم يتقدم أثناءها أحد ليشهد له أو يبرئه (١) .

أما كتاب « طولدوث يشوع » فهو مؤلف حديث وخليط كريه من تقاليد تلمودية مقتضبة ومحتقر حتى من اليهود أنفسهم (٢) . وقد طبعه واجنسيل مع ترجمته اللاتينية ولكن التجاديف الواردة فيه فظة غليظة فلن أشير إليها .

كذلك لن أشير إلى المساوىء الخسيئة التجديفية التى تنطوى تحت أسماء ابن ستادا وابن باندرا الخ . وقد ذكرها بكستروف فى كتابه عن التلمود صحيفة ١٤٥٨ وما يليها .

---

١ - لاتيفوت باب السنهدرين ٦٧ وباب السبت ١٠٤ : جراتز ٢٤٢ . ٢ - ماشورك ، جراتز ٢٤٣

التذييل الثالث

صحيفة ٨٨

يسوع وهلليل

التاريخ المرجح لحياة هلليل أنه ولد سنة ٧٥ ق.م وجاء إلى أوروشليم سنة ٣٦ ق.م وصار « ناصحا » سنة ٣٠ ق.م ومات سنة ١٠ ق م . ويقول الحاخام المتضلع جيجر من فرانكفورت ومؤلف كتابي جوذئيم وارشريفت « كان يسوع فريسيا (!) سار على خطوات هلليل ، وانه لم ينطق بحكم جديدة ، ولم يأت بأفكار أولية بينما كان هلليل الصورة الصحيحة للمصلحين » . ويقول هذا الكاتب أيضا وكأنه يقدم مقارنة مستورة « ان هلليل كان شخصية تاريخية حقة (١) بينما أحاطت غيره هالة من التقاليد أو المعجزات حجبت شخصيته وجعلتها غير واضحة » . وأدخل رينان بعض التحسينات على هذه الملاحظات فاعترف بعظمة يسوع وأفضليته على هلليل غير أنه يرجع ويقول « ان هلليل كان معلمه ، وأن المسيح كان تلميذا انتحل لنفسه لقب الرابي وكانت أخطاؤه أقل من التي لمواطنيه جميعهم وانه أعلن أنه يأتي مسيا بعده » .

وإني أؤكد أن الأسئلة حول « الأولية » غير جديرة بالاحترام ومتناهية في

---

١ - هل يقر المستر جيجر أنه تاريخ صادق أن هلليل كان يعرف لغة الجبال والتلال والوديان والأشجار والخضروات والحيوانات الأليفة والمفترسة والشياطين (كما جاء في الـوفـريم) وأن " الباث كول " انحاز إلى جانبه ضد شماى (كما جاء في باب إروبيم) وان ثلاثين من تلاميذه استحقوا أن تغطيهم الشكيناه مثل موسى وثلاثين آخرين استطاعوا أن يوقفوا الشمس مثل يشوع (كما جاء في بابها باترا) وان غيرة أعظم تلاميذه يوناثان بن عـزي كانت نارية لدرجة أنه عندما كان يدرس الناموس كانت العصافير التي تحوم حول رأسه تحترق (كما جاء في باب سوكا) وراجع أيضا اتو وبكستروف وجوفرود .

الحق عامة إذا وجهت لتعاليم السيد خاصة فان « أولية » تعاليم يسوع حتى عند من يعتبرونه مجرد معلم بشرى تقوم على أن كلماته قد حركت قلوب جميع الناس فى كل الأجيال وجددت أخلاق العالم .

من غير مدع بالفن يهاجم أولية ميشيل انجيلو لأن صورته يبتا قيل أنها تشابه تمثالا لسيجنوريللى ؟ أو رفائيل لأن منتجاته الأولى فيها نفحة من بيروجنو ؟

ومن غير الجهول ينتقص من عظمة ملتون لأن فى « الفردوس المفقود » بعض أقوال تشابه ما فى « آدم » لباتستا أندريانى ؟

فان كان يوجد من لا يستطيعون أن يرتفعوا فوق هذا الأفق الضيق فيكفى أن يتذكروا أننا - حسب ما يقرر كتاب اليهود أنفسهم - لا نستطيع أن نفرق بين الأمثال والحكم التي ابتدعها هليل وبين التى عزيت إلى مدرسته لأنها لم تكتب إلا بعد سنين طويلة من صلب المسيح وربما كان غالبها مستق من التعاليم المسيحية التى بلا ريب كان لها تأثير كبير على حفيد هليل ، الربان غمالائيل .

إن الأمر لا يحتاج لمعرفة كبيرة للتأكد أن هذه التخيلات اليهودية باطلة لأن اتجاه يسوع نحو حاخامية أمته وكل ما تعلق بها - والهاجادوت أو أمورها التقليدية والهلاكوت أو عاداتها المتبعة ، وتدقيقاتها الفارغة وطقوسها المرضة وفراغها الأجوف وجهالاتها اللادينية العتيقة المستعبدة وآرائها المتأرجحة المتضاربة ، لم يكن اتجاه الاحترام التسليمى بل الكره الظاهرى .

كان هليل ربيا « حلو الصفات ونبيلا » بل كان أعلى شخصية أنجبتها الربانية . ويبدو أنه كان بالحقيقة علامة متواضعا مسالما ومستنيرا ، إلا أن الفارق بينه وبين يسوع لا يمكن قياسه . والمقارنة بين تعاليمه وتعاليم يسوع كالمقارنة بين نور اليراعة وضياء الشمس . ثم إن طريقة تعليمه ومدى اتساعها مختلفتان جد الاختلاف . كان هليل يرتكز على ما قاله سابقوه أما يسوع فكان يعلم بسلطانه . تكلم هليل فى المدارس

وللمعتزلة أما يسوع ففى الشوارع وجوانب الطرق وللمشارين والخطاة . قصر هليل تعليمه فى أوروشليم، أما يسوع فجاب كل أرض فلسطين طولا وعرضا . حصر هليل جهده كله تقريبا على الناموس اللاوى وحور فى أحكامه كى يجعلها أكثر سهولة وقبولا ، أما يسوع فاهتم بالناموس الأخلاق ووسع دائرته فلا يقتصر على الأعمال الظاهرية بل يطبق أيضا على أفكار القلب الداخلية .

هل نطق بحكمة عريقة فى الفريسية مثل التى قالها هليل « لا يمكن لرجل غير متعلم أن يتجنب الخطية ولا يمكن لرجل الأرض (الفلاح) « آم ها أرتز » أن يكون تقيا (١) . ليس هذا هو صدى بل ذات القول الحانق القاسى الذى قاله الفريسيون [هل آمن به أحد من الرؤساء] ولكن هذا الشعب الجاهل ملعون ، ألا تنطوى هذه الأقوال على الروح التى حاربها يسوع بحياته وأعماله والتى وبخها بصرامة كل أقواله .

نروى ثلاث قصص - ثلاث - عن هليل .

الأولى : مع كونه من نسل داود وقد وفد إلى أوروشليم فى الحادية والأربعين من عمره (سنة ٣٦ ق.م) فقد عمل كعتال عمومى يتكسب حوالى قرشا ونصف قرش فى اليوم، يعطى نصفها لبواب مدرسة شماى وابتاليون لكى يسمح له بالدخول إلى محاضراتها وفى فجر أحد أيام شهر تيبيت قال شماى لابتاليون « يا أخى لماذا المدرسة مظلمة هكذا؟ يظهر أن اليوم كثيف السحب » . ونظرا إلى فوق فرأيا أن النافذة يسدها شكل هيكل بشرى مغطى بالثلوج . ورغما عن السبت رفعا عنه الثلج ودلكاه بزيت ووضعاه قرب المدفأة . كان هذا الشخص هو هليل . لم يكتسب شيئا في اليوم السالف ،

١ - سبق أن ذكرت ما يدل على الاحتقار الذى كانوا يصبونه على الرجال العاديين المساكين - آم ها أرتز - وأضيف هنا أنه ما كانت تقبل شهادتهم ولا يرحب بهم فى المجتمع ولا يعتنى أحد برد ممتلكاتهم إن اغتصبت . وكانوا يطلقون عليهم وعلى زوجاتهم وأولادهم اسم "الحيوانات" أو " الحيات " وقد أذنوا فى تمزيق الآم ها أرتز المسكين كسمكة . (مك كول . الخ)

ورفض البواب بغلظة أن يدخله فصعد فى الغسق إلى نافذة « بيت مدرستة » فتجمدت أعضاؤه ودفن تحت الثلج (١) . ولاعادته إلى الحياة بالتدليك والتدفئة والاستحمام لم يكسر شماى وابتاليون السبت فحسب بل أعلنا أن هليل كان مستحقا أن تلغى لأجله كل القواعد السبتية العادية .

الثانيـة : يحكى أن أمميا جاء إلى شماى وقال له « أريد أن أتهود على يديك ولكن يجب أن تعلمنى الناموس كله وأنا واقف على رجل واحدة ! » فطرده شماى من حضرته بالدكم . فالتجأ الرجل إلى هليل ، فأجابه بكل هدوء « ما لا ترتضيه لنفسك لا تصنعه بقريبك . هذا هو كل الناموس . أما الباقي فتفسير له . اذهب واحفظ هذا » (٢) .

الثالثـة : تراهن رجل مع صاحبه فقال له أعطيك ٥٠٠ زفسا إن جعلت هليـل يغضب الآن . فقال صاحبه رضيت . وكان الوقت عصر الجمعة وهليل يغتسـل ويمشط شعره استعدادا للسبت . فقرع الرجل بشدة وسأل باختصار وغلظة :

« هل هليل هنا » ؟

فالتحف هليل عباءته وقال له بخجـل « ماذا تريد يا بنى »

« لى سؤال أريده »

« اسأل يا بـنى »

« لماذا رأس البابليين مستديرة » ؟

---

١ - جـ ـوما ٣٥

٢ - اند سدق ولاحظت غباوة الذين يتحككون بمسألة الأولية فى تعاليم مثـل هذه . وانا اجد شبيها بهذا القول ليس فقط فى الأسفار الخمسة بل أيضا فى سفر طوبيا ٤ : ١٥ (لا تفعـل هذا لأى رجل تكرهه) والمرجح أن تاريخ هذا السفر يسبق زمان هليل بمائتى سنة . بل إن إوالد ذكر قولا مماثلا من الوثنيين يرجع تاريخه قبل ذلك ويقرب منه ما ذكره كونفوشيوس للملك زو أن " المعاملة المماثلة " يجب أن تكون قاعدة سلوكه فى الحياة . وقال بوذا ما يشبه ذلك أيضا . وراجع هسيود .

فأجاب هلليل مبتسما : « سؤال هام يا ولدى . لأن لهم قابلات ماهرات » .

فأدار الرجل ظهره ومضى ليعود بعد ساعة ويقاطعه بنفس الطريقة الفظة . وكان سؤاله هذه المرة :

« لماذا عيون التدمريين ضيقة » ؟

« سؤال هام يا ولدى . لأنهم يعيشون فى الصحارى » .

وعاد الرجل مرة ثالثة ليسأل بدون أدب :

« لماذا أمشاط أرجل الافريقيين عريضة » ؟

فأجاب هلليل بهدوء « لأنهم يعيشون على أرض رخوة » .

وعندئذ قال الرجل إن لدى أسئلة عديدة أوجهها إليك ولكنى أخشى أن تغضب .

ولكن هلليل زم عباءته وقال بهدوء : اسأل ما تشاء .

فوجد الرجل أنه جرد من كل أسلحته فسأله :

هل أنت هلليل الذي يدعونه « ناصح اسرائيل »

« نعم » . فقال الرجل أرجو أن لا يكون كثيرون من أمثالك .

« لماذا يا ولدي »

« لأنى خسرت ٤٠٠ زفسا من أجلك »

« هدىء روعك يا بنى . خير لك أن تفقد من أجل هلليل ٤٠٠ زفسا (١) وفوقها ٤٠٠ زفسا أخرى من أن يفقد هلليل صبره » .

لا ريب أن هذه قصص جميلة . ومثلها أن رجلا غنيا فقد متاعه وطلب إلى هلليل أن يستأجر له حصانا وتابعا . وإذ لم يوفق لوجود تابع فقد سار هلليل وراءه ثلاثة أميال .

غير أننا نجد أحيانا فى القليل الذي كتب عنه (٢) بعض تصرفات مهما كان قصده

---

١ - الزفس عملة تساوى الدينار تقريبا ؛ عليها رأس زفس. ٢ - ذكر إيوالد قصصا أخرى .

فى اتيانها حسنا فلا يمكن امتداحها . فعلى الضد من تعليم شماى أمر أن يشاد فى أغنيات العرس بجمال العروس مهما كانت قبيحة المنظر . ومرة أخرى كى يتجنب الخلاف أو المشاحنة مع شماى ومدرسته وافق على ثور كان مزمعا أن يقدم ذبيحة على أنه بقرة. والحاخاميون قد يبجلون هذه التصرفات ولكننا نشعر من صميم قلبنـــا أنها أعمال تصدمنا . ولو أن أعمالا مثلها حدثت فى حياة المسيـح فأى تأثير ضار كان يحيق بالعالم وبقانونه الأدبى . المسيـح وحده من كل الذين عاشوا على الأرض استطاع أن يقـول [من منكم يبكتنى على خطية] . ومع أن القليل هو ما نعلمـه عن سقـــراط وكونفوشيوس وسكياموتى وهليل .. و ... وغيرهم بالنسبة للكثير الذى نعلمـه عن المسيح فان فيه أشياء عديدة لا نوافق عليها ، بينما لا يوجد شيء غير إلهي أو غير مقدس في السجل الرباعى الذى لتاريخ المسيح .

إذا تركنا حياة هليل جانبا وفحصنا تعاليمه لوجدنا أن الفرية القائلة إن هليل كان مدرسا للمسيـح كاذبة منهارة من أساسها . فحتى أنبل إجاباته التي ذكرتهـا سالفا فى القصة الثانية هى اجابة ناقصة ، وتتناول فقط الجدول الثانى من الوصايا ملخصة له ، ولا تضاهى بحال إجابة المسيـح العميقة لمن سأله نفس السؤال ، لأن هليل يهمل الجـدول الأول للوصايا وهو الذى يتأسس عليه الجدول الثانى ، والذى بدون اتمامه يصبـح العمل بالثانى مستحيلا . لماذا فى هذه الحكمة الشهيرة ينسى هليل الشمـة (تث ٦ : ٤ و ٥) ويذكر فقط اللاويين (لا ١٩ : ١٨) . أما يسوع فلم يفعل هكذا (مت٧:١٢ولو٦:٣١).

قيل إن يسوع قد استعمل أحيانا واحدا أو بعضا من السبعة « ميـدوث » التى وضعها هليل لتفسير الكتب . ولكن هذه « الميدوث » ما هى فى الحقيقة إلا ملخص لحقائق موجودة ومعروفة (كمقارنة الأدنى بالأعلى أو العكس مت ٧ : ١١ و ١٠ : ٢٩ أو ذكر الشيء بما يماثله مت ١٢ : ٥) . فضلا عن أن هذه الميدوث ما هى إلا محاولات لتقوية وتدعيم سلطان الناموس الشفوى الذى رفضه يسوع بـل ليس كثيرا أن

نقـول أنه احتقـــــره .

إن المرات التى وافقت فيها قرارات يسوع أحكام شماى تعادل فى كثرتهـا ما يقال إنها تشابه تعاليم هلليل . ثم انها تضمنت مواضيع أكثر أهمية (مت ٥ : ٣٢ و ١٩ : ٩ و ٢٨ : ١٧) فمن افتكر قط أن يدعى أن يسوع كان تلميذا لشماى ؟

مثلا : أحد أحكام هلليل المشهورة الرقيقة البارعة كانت بصدد سلسلة من الأسئلة الفارغة المنصبة حول جواز أو عدم جواز أكل بيضة تضعها فرخة فى يوم عيد ، وإن تصادف أن يكون هذا العيد يوم سبت . وهذا السؤال الثمين استحق أن يمنح اسم (بيتسا .. أى بيضة) لفصل كامل من أجزاء التلمود !! أكان من المستطاع أن يقابل يسوع هذا السؤال إلا بسخرية رقيقة أو جناس عال ؟ أما هلليل فكان فى هذا الموضوع متعصبا ضيق الفكر (بل شمايا) أكثر من شماى نفسه (١) .

كانت تعاليم هلليل فى بعض المواضع غامضة جدا . حكم مرتكنا على تث ٢٤ : ١ ان للرجل أن يطلق امرأته حتى لو طبخت طعامه رديئا وإن كان بعض المتأخرين أمثال جوست وغيره فسروا هذا القول بأنه انما قصد « إن أتت بالعار إلى منزله » ولكن كلمة « حتى لو » تدل على معنى أن هذا أقل القليل .

أما طريقته فى تفسير قواعد السنة السبتية (واردة فى التذييل التاسع) فما هى إلا

---

١ - كل الديانات الطقسية والمدققة عرضة للوقوع فى مثل هذه الأسئلة الخيالية السخيفة . منذ سنين قليلة حدث اضطراب فى مدينة الرأس بين السكان من جراء المناظرة فى سؤال شبيه بهذا . أرسل السلطان من يتفقد حالتهم الروحية ، فى ساعة مرأتى هذا الشخص عن نوع من " أبى جلمبو " كان الأهالى معتادين أن يستمرئوه انه نجس فقاوموا رأيه انه ليس فى كتبهم شىء عن " أبى جلمبو " فبحث عن قول يحرم أكل العنكبوت وقال ان " أبى جلمبو " ما هو إلا من فصيلة العنكبوت . واستمر النزاع فأحالوا الأمر على رئيس متحف الأسماك الذى قرر أن " أبى جلمبو " ليس من فصيلة العنكبوت . غير أن المتمسكين رفضوا الأخذ بهذا القرار وعلى ما وصل إليه علم من أخبرنى بهذه الواقعة أن الخلاف ما زال مستمرا إلى يومنا هذا !

مجرد تبن تذريه الرياح .

أورد هنا بعض تعاليم هليل القيمة :ـ

١ ـ لا تخالف الاجماع ولا تثق بنفسك حتى يوم الممات .

٢ ـ إن لم أعتن بنفسى فمن سيعتنى بى ؟ وإن اعتنيت بنفسى فقط فماذا أكون ؟ وإن لم أعتن الآن فمتى يكون ؟

٣ ـ لا تدن جارك حتى تضع نفسك فى ظروفه أولا .

٤ ـ لا تقل إننى سأتوب عندما أجـــد فراغا إذ ربما لن يكون من نصيبك هذا الوقت .

٥ ـ الرجل الغضوب لن يكون معلما .

٦ ـ فى المكان الذى لا يوجد فيه رجل ، كن رجلا .

٧ ـ كن من تلاميذ هرون الذى أحب السلام .

٨ ـ من يطمع فى تضخيم اسمه يخرب هذا الاسم (١) .

لا ريب أن هليل كان رجلا صالحا وعظيما استحق العويل الذى أنشد على قبره (آه الرقيق الطاهر تلميذ عزرا) ولكن من السخف أن تقارن تعاليمه مع تعاليم السيد . فقد كانت تعاليمه عبارة عن فتاوى قانونية وحيل شرعية وتقاليد ضيقة ، أما تعاليم السيد فدينية أخلاقية إلهية . إن كان يسوع لم يقل شيئا أوليا كما يحب الربيون الحديثون أن يقولوا فكيف يعللون أن حتى اسم هليل غير معروف إلا عند الباحثين بينما كلمات يسوع قد أحدثت التغيير العظيم الذى لم تشاهد الدنيا مثله قط ؟ لو لم يكن للعالم سوى كلمات هليل لتغذيه لذوى أو مات جوعا .

إن أصغر أو أقـــل مثـــل قاله المسيـــح يفـــوق جميع ما قاله

---

١ ـ بعض هذه الحكم (الأخيرة مثلا) عسيرة الفهم فى الأصل . وتحتمل شتى المعانى (إيوالد) وقد دونت فى " برك أبهوث " ولنذكر أن هذا الكتاب لم يدون إلا بعد الجيل الثانى للمسيح .

هليل (١) . بل إن أقل أو أصغر نبي من أنبياء العهد القديم أعظم بما لا يقاس من هذا المدعو (أعظم وأعلى فريسى) . لقد صرف هليل ومدرسته وشماي ومدرسته جيلا في مناقشات غير مجدية ولا أساس لها وفى تفسيرات عقيمة للكلمتين (ارفث دابهور) تث ٢٤ : ١ بدون الوصول ولو إلى قاعدة معقولة تجعل خصومتها غير ذات موضوع . ولكن يسوع وضع القاعدة وحل الاشكال إلى الأبد في اللحظة التى قدم إليه مت ١٩ : ٣-٩ .

ليطالع القارى غير المتحيز (البرا كوث) التلمودى ترجمة شواب ليرى نوع المسائل السخيفة (٢) المدققة فى الأمور الطقسية التافهة التي شغلت عقل هليل وحياته ، وليفكر بهدوء بأي مزيج من الشفقة والسخرية كان يقابل يسوع تخيلاتهم واعتقادهم فى هذه المسائل وحينئذ سيحكم بنفسه باستحالة بل وبسخافة الرأى القائل إن هليل كان معلما للمسيح .

---

١ - راجع الكتيب القيم عن " يسوع وهليل " لمؤلفه ديليتش وإيوالد وبودياس وكتابات جيجر عن " هليل وشماي " . وإيجواليني وجراتز وهيكسفيلد وفرلكس .

٢ - مثلا . ان كنت تحمل زيتا عطرا وريحانا هل يجب أن تبارك الريحان أولا وبعدئذ الزيت ؟ هل ترفع " الفلاكتين " وتخلعها عند الأماكن الخاصة التى تدخلها يوميا أم لا ؟ إن كان يجوز أو لا يجوز أن تكون على بعض الأوضاع فى بعض الأوقات وأنت تدرس الناموس ؟ هل واجب أن تغسل يديك أولا ثم تملأ الكؤوس أم العكس ؟ هل تضع المشوش (الفوطه) على المائدة أم على المقعد ؟ الخ الخ . إن ذكر جزء من عشرة من الأمور التى أثارت الجدل بين مدرستى هليل وشماى متعب وكريه ولكن التلمود بنى على مسائل مثل هذه تافهة وسخيفة بل إن بعضها يستفز القىء ... فمقابلة الحاخامية بالمسيحية أو هليل بيسوع شىء يقتضى إما صفاقة لا حد لها أو شللا كاملا للقوة العاقلة الناقدة .

التذييل الرابع

صحيفة ٩١

تعلم اليونانية

توجد قصة تكررت مرارا فى التلمود تشير إلى أنه فى أثناء حصار أوروشليم فى الحرب المدنية التى وقعت بين هيركانوس الثانى وأرسطوبولس ، كان أنصار الأخير يدلون يوميا من على السور صندوقا مملوءا بالنقود ليوضع بدلها الضحايا اللازمة للتقدمة اليومية . ولكن عجوزا يعرف (الحكمة اليونانية) أخبر المحاصرين أن الهيكل لن يسلم ما دامت هناك وسيلة لاستمرار تقديم الذبيحة . ففى اليوم الثانى وضعوا فى الصندوق خنزيرا تشبث بقدميه في منتصف السور فحدثت زلزلة ، فلعن علماء اليهود ورؤساؤهم كل من يربى الخنازير ومن يعلمون أولادهم (الحكمة اليونانية) (سوتا ٤٩ ـ مينا كوت ٦٤) ١) .

لكن كما يقول جراتز وديرنبورج إنه كان يقصد (بالحكمة اليونانية) فى بعض الأماكن (نوعا من السحر) أما فى الحالة التى نحن بصددها فانها ترادف (فن الاتصال بالأعداء) كما فعل هذا العجوز الخائن بواسطة سهام رشق فيها خطابات . ويقول البعض إن هذا العجوز هو أنتيبانر .

غير أن الربيين فى هذا الأمر ككل أمر يخالفون بعضهم بعضا ، فالواقع هو أن كثيرين منهم احتقروا وحاربوا تعلم اليونانية . ويخبرنا يوسيفوس بوضوح أنهم اعتبروه نوعا من العبودية أن يكون المرء بارعا فى اللغات . ومع أن اليونانية كانت ضرورية للأغراض التجارية فقليلون جدا تعلموها أو أتقنوها .

---

١ ـ جروفر وفيلو وتيو .

ويشهد أوريجانوس أيضاً أن اليهود لم يعنوا بتعليم اللغة اليونانية أو أدبياتها (١).

قال الربي عقيبة إن الاسرائيلي الذي يقرأ كتب الأمميين لن يشارك في الحياة الأبدية. أما غمالائيل فكان الربي العظيم الوحيد الذي سمح لتلاميذه بمطالعتها وهذا ربما ما جعلنا نحصل على اقتباسات بولس الرسول الشهيرة من أراتوس وميناندر وإبيمنديز اع ١٧ : ٢٨ و ١ كو ١٥ : ٣٣ و تيطس ١ : ١٢ .

التذييل الخامس

صحيفة ٢٣٨

التلمود والناموس الشفوي

يعتقد اليهود أن الناموس جزءان ، الناموس المكتوب (توراة شيكيبيت) والناموس الشفوي - الذي على الشفاه (توراه شيبيل بي). وهذ الأخير أي التقليد له ذات المنزله كالجزء الأول إن لم يفقه.

ويشمل التلمود المشنة والغمارة.

وظل الناموس الشفوي بلا تدوين على الأقل إلى زمن تنايم (٣٠ - ٨٠ ميلاديه) الذي كان يقول بخطأ كتابته.

أما « مجلات طانيث » فهو أقدم من التلمود وعبارة عن « هاجادوث » أي أقاصيص وأخبار، و« هلا كوث » أي أحكام عن الأزمنة والقدسيات. والمظنون أن كاتبه هو حنانيا بن حزقيا المعاصر للمسيح.

---

١ - سلوس .

وأول من أخضع المشنة للكتابة هو الربي الشهير جيهودا هاكودش المتوفى سنة ١٨٠ م وحفزه إلى ذلك الخوف من انقراض أمته بعد المذبحة التي أعقبت اندحار « باركوشيباس » والاستيلاء على « بيت حير » . ومع أن تدوين الناموس الشفوى لم يلق تشجيعا فان « مجلات سيثاريم » أو ملفات سرية من الناموس قد وجدت قبل ذلك الحين . والواقع أن القوانين كثيرا ما يخيل أنها غير مكتوبة بينما تكون قد مضت أجيال على تدوينها .

ومعنى كلمة المشنة « التكرار » وقد قسم مايمونيدس الناموس الشفوى إلى خمسة أجزاء (١) البيروشيم وهى تفاسير مقول إنها من أيام موسى (٢) الدينيريم وهى قواعد أو أحكام « هلاكوث » أخلاقية معتقد أنها من أوامر موسى (٣) عادات عامة مرعية (٤) أحكام الفقهاء معتبرة كأنها « سياج للناموس » (٥) مقترحات تجريبية .

أما جيهودا فقد قسم مجموعته الضخمة إلى ستة « سيداريم » أى كتبا تحتوى على ٦٣ « ماسيكوث » أى جزء و ٥٢٥ بيراكيم أى فصلا . وهذه هى الكتب الستة :

(١) سيدر زيرائيم أو الحبوب ويحتوى على (البراكوت) عن العبادة (والبيه) أى الركن عن حقوق التربة . (والتيريموث) أى الغسل الخ .

(٢) سيدر موئيل أو العيد ويحتوى على الشبث أي السبت والايروبهيم أى الأمزجة (١) والبسخايم أى الفصح واليوما أى يوم الكفارة والسوكا أي عيد المظال والبستا أى البيضة وروش هاشاناه أى السنة الجديدة والطانيث أى الأصوام والشجيحاه أى تقديم الشكر .

(٣) سيدر ناشئيم عن النساء ويشمل جتين أى الطلاق وكيثيوبهوت أى عقـــود الزواج .

(٤) سيدر نزيكيم عن الأصابات ويشمل بابها كاما أى الأول ومتزيا أى الثانى

---

١ - علاقة الأمكنة والمسافات مع حفظ السبت .

وباترا أي البوابة الأخيرة والسنهدرين وابهودا زارا أى الخدمات الغريبة وأبهوت أى الآباء الخ .

(٥) سيدر كاداشيم عن التكريس .

(٦) سيدر طهاروث عن التطهير ويشمل بدايم أي يطهر الأيدى الخ .

وتفسير المشنة [١] ضخم جدا بل لا نهاية لضخامته ويسمى الغمارة أى المكمل. ومن المشنة والغمارة يتكون التلمود أى ما يجب أن يحفظ. ويرجع تاريخ تلمود أورشليم إلى ما بعد سنة ٣٩٠ م. وتلمود بابل إلى ما بعد سنة ٤٢٠ م.

وتذييلات المشنة تسمى توسيفتوث وتأويلات الغمارة الاضافية تسمى توسافوث وملحقات المشنة وهى عبارة عن تفسيرات تسمى باراتياس (مثل سيفرا وهى مدرش أو تفسير للاويين وسيفرى أو تفسير للعدد والتثنية ومشيلتا تفسير للخروج) .

ولغة التلمود مطاطة ، وأحيانا فاسدة ، وغالبا غير مفهومة . وقد يحتوى على بعض أشياء جميلة أو نبيلة ولكن أقل بكثير من أى كتابات بشرية تماثلها فى الضخامة . ولا يوجد مثله كتاب متعب، غير مجد ، كثير اللف والدوران ،قاحل ، ملىء بالمتناقضات والأخطاء . وتوجد الآن بعض أجزاء منه مترجمة ، ويمكن المطالع لها أن يحكم بنفسه على ذلك . قال لاتيفوت وهو أحق من جميع البحاثين فى التكلم عن هذا الموضوع : « صعوبة الأسلوب التى لا تقهر ، وغلظة اللغة المخيفة ، والهباء المدهش لسخافة المواضيع، كل هذا يؤلم ويغيظ ويتعب كل من يقرأه » .

لهذا الموضوع بقية فى التذييل الثانى عشر : ملاحظات عن التلمود .

---

١ ـ النسخة الهامة للمشنة وترجمتها لسورنهوسيوس امستردام ١٦٦٨ ـ ١٧٠٣ وترجمها رابب إلى الألمانية سنة ١٧٦٣ وجوست سنة ١٨٣٣ وقد ترجم ١٨ جزءا منها إلى الانجليزية الربى سولا والربى رفائيل وصدرت الطبعة الثانية فى لندن سنة ١٨٤٥ . راجع جوفروير . وقد اختصرت ما فى المتن عن اربدج . راجع كتاب ديفدسون عن التلمود وكذلك دائرة معارف كيتو الانجيلية .

التذييل السادس

صحيفة ١٤١ و ٢٧٩

وصف التقليد لمنظر المسيح

أول وصف لمنظر المسيح وصلنا فى تاريخ متأخر وإن ظهر أنه يرتكن على شىء من التقليد تسلم من أيام ايرانيوس وبلبياس ويوحنا البشير . وقد اقتبس نيسفوروس عن وصف كتبه يوحنا الدمشقى من القرن الثامن (١) قال « انه يشبه العذراء مريم ، وانه كان جميلا طويل القامة جدا ، وخصائل شعره مستديرة قليلا ، ولم تمر عليها يد سوى يد أمه ، أسود الحاجبين ، بيضاوى الوجه ، لونه زيتونى باهت ، لامع العينين ، وقفته فيها انحناء خفيف ، ونظرته تدل بوضوح على الصبر والنبل والحكمة » .

والخطاب الثمين الشهير الذى رفعه لنتيولوس رئيس الأمة فى أوروشليم (٢) إلى مجمع السناتو الرومانى ، ولو أنه ليس أقدم من القرن الثانى عشر ، غير أنه هام وممتع كتاريخ الفن المسيحى ومشتق من تقاليد سائدة قديمة العهد جدا ولذا سأنقله هنا بجملته :

كان فى أيامنا رجل متناهى الفضيلة يسمى المسيح يسوع ، رجل طويل القامة جميل المنظر نبيل الوجه حتى أن كل من يراه يحبه ويخشاه . له شعر متماوج قصير بعض الشىء له لون النبيذ ، براق ، وهو ينسدل على كتفيه ، مفروق فى وسط الرأس كعادة الناصريين (٣) . جبهته ناصعة متناسقة ، ووجهه خال من التجاعيد والبقع تعلوه

---

١ ـ راجع وينر . نشر هذا الوصف مع خطاب لينتيولوس كازوف سنة ١٧٧٧ ولكن أوفى بحث فى هذا الموضوع ورد فى كتاب الدكتور لويس جلوكسباج المطبوع فى براج سنة ١٨٦٣ أما الصور الأولى عن المسيح فى مغاور رومية فكانت كلها رمزية (حمل سمكة اورفيوس الخ) .

٢ ـ ما كانت هناك مثل هذه الوظيفة ولا رجل بهذا الاسم شغل وظيفة مماثلة .

٣ ـ يعنى أهل الناصرة ـ لا النصارى ـ .

حمرة رقيقة . أما أنفه وفمه فجمالهما لا يعتوره نقص ، وشعر لحيته غزير وبلون شعر رأسه ، ليس طويلا ولكنه مفروق . وعيناه زرقاوتان شديدتا التألق (١) . وهو صارم فى توبيخه ، هـــادىء ، ومحب فى تأنيبه ، متحفظ ذو مهابة . لم يشاهد قط وهو يقهقه ولكن كثيرا ما رؤى يبكى . وهو منتصب القامة ويداه ورجلاه يستحب النظر إليها لجمالها . وهو رزين فى حديثه ، وهو وديـــع ومتواضع وجميـــل بين أبنـــاء البشر (٢) .

---

١ ـ بعض هذا الوصف يذكرنا بمنظر الشاب داود (١ صم ١٦ : ١٢) (وكان أشقر مع حلاوة العينين وحسن المنظر) قارن ١ صم ١٧ : ٤٢ (كان غلاما وأشقر جميل المنظر) ونش ١٣ـ١٠:٥ (حبيبى أبيض وأحمر ... قصصه مسترسلة حالكة كالغراب عيناه كالحمام على مجاري المياه مغسولتان باللبن) .

٢ ـ ب. ه كوبر وكتب الأساطير الأبوكريفية ص ٢٢١ ، هوفان ٢٩١ ، ٢٩٤ ؛ هيس صحيفة ٨٠. صور وتماثيل المسيح يقال إنه بدد بعضها على الجواهر وما شابه (رسمها الاوغنسطيون كالباسيليدين والكاربوكراتين الخ) . ولكن الصور الرمزية كانت شائعة فى مغاور رومية ـ ايرين وهابر وهيبول الخ . ويقال إن تمثالا للمسيح قد وجد فى قصر الامبراطور اسكندر ساويرس ، ولكن أشهر تمثال هو الذى وجد فى قيصرية فيلبس (بانياس) وعثله وهو يشفى المرأة النازفة الدم كما جاء فى قصة فيرونيكا الأبوكريفية (كوبر ٢٣٣ ، هوفان ٢٩٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٧) . وقد رآه يوسابيوس ولم يعجب به . ويقال إن جوليان قد حطمه (سوزمان ، فيلوستورج) وألمح فقط للتقاليد عن الانطباع المعجزي لصورة المسيح على منديل فيرونيكا أو الكفن الذى لفه به نيقوديموس الخ الخ .

التذييل السابع

صحيفة ٣٠٣

الاعتقــاد اليهودى عن

الملائكة والشياطين

من مميزات الشرقيين وبخاصة ذوى التفكير السامى أنهم يرون فى كل حادث ـ مهما كان تافها. تدخلا مباشرا خارقا للطبيعة يقوم به الأعوان العديدون غير المنظورين، الصالحون منهم والطالحون، خدام ارادة الله. وهذا الاعتقاد ـ باعتراف اليهود أنفسهم ـ إنما اتخذوه عن البابليين (١).

وحتى الظواهر الطبيعية والقوى العادية والنزوات العقلية كانوا يزعمون أنها ملائكة. ولهذا ورد فى كتابهم «التارجوم»، تفسيرا لتث ٩ : ١٩، أنه لكي يعاقب الله الاسرائيليين لعبادتهم العجل الذهبي أرسل عليهم خمسة ملائكة: «الغضب والغيظ والسخط والخنق والابادة» وكانوا يعتقدون بحرفية تأويل الآية [الصانع ملائكته رياحا وخدامه نارا ملتهبة] مز ١٠٤ : ٤ .

وكانوا يعتقدون أن عدد الملائكة «تسيكا هاشمائم» كبير جدا. ويقول الربى اليعازر انه قد نزل فى برية سينا ستمائة الف من الملائكة مثل تعداد الستمائة الف من بنى اسرائيل. ونجد في فصل «البراكوث» القصة الآتية: قال الربى ريش لاكيش فى تفسير اش ٤٩ : ١٤ أن صهيون «كنيسة اسرائيل» قد اشتكت قائلة «يا إله الكون عندما يتخذ رجل زوجة ثانية فانه يذكر الأولى. ولكنك قد نسيتنى» فأجابها

١ ـ روش هاشفاه (جفرور . جار . وهايلز) المعلومات فى هذا التذييل مأخوذة عن جفرور وفرانكل فى كتابه "اليهود فى الشرق". ما أورده جوته فى رواية فاوست عن الشياطين مشتق من التلمود ومستعار من أيزنمنجر .

الرب « يا أبتى إن لى اثنى عشر مازودت » (علامات البروج) ولكل « ماسأل » ثلاثون شيل (رئيس) . ولكل ثلاثين شيل « لجيشون » (قائد) . ولكل لجيشون ثلاثون « راباتون » (ضابط) . ولكل راباتون ثلاثون كاراتون (صف ضابط) . ولكل كاراتون ثلاثون كسيترا (معسكر) . ولكل كسيترا قد خصصت ٠٠٠ر٠٠٠ر٦٥٠ر٣ نجما ، وكل هذه قد خلقتها لأجلك ، وبعد ذلك تقولين إن (الرب قد نسينى) !

كل هذا يكون جند السماء تسيباوث (صباؤوت) ١٢ × ٣٠ × ٣٠ × ٣٠ × ٣٠ × ٣٠ × ٠٠٠ر٠٠٠ر٦٥٠ر٣ أى (٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٣٤٠ر٠٦٤ر١) أى حسب القاعدة الانجليزية القديمة ترتليون و ٦٤ بليون و ٣٤٠ الف مليون ، أو حسب القاعدة الانجليزية الحديثة والقاعدة الفرنسية (التى يقول المسيو ليتريه أن لوك يفضلهـــا) كينتليون . الخ .

وظاهر أن أساس هذه العوامل خليط من عدد الأيام والشهور الخ . وتكررت هذه العوامل مرارا ليتفادوا حدوث أى نقص فى العدد . والأسماء الحربية مثل كسترا الخ تمت بصلة ممتعة لما جاء فى مر ٥ : ٩ لأنهم كانوا يعتقدون أن الشياطين لها ذات هذا الترتيب . ويقول فير إن عدد الشياطين على حسابهم ٩٢٦ر٤٠٥ر٧ .

وكانت الملائكة مقسمة إلى رتب وصفوف : العروش . الرؤساء . الأرباب . السلاطين . القوات . التى يبدو أن لها إلماحا فى افسس ١ : ٢١ .

أما الأرواح الشريرة ـ حسب تقاليد حاخامية مختلفة ـ فهى سلالة آدم وليلث أو سمائيل وحواء ، أو أبناء الله وبنات الناس وكانوا يعتقدون أن عددهم عظيم جدا . ولهذه الأرواح كانوا يعزون أشياء عديدة من الأمور التى نعزوها نحن بلا ريب لأسباب طبيعية بحتة سيما داء الصرع كما هو مبين فى كتاب أخنوخ ٢٥ : ٨ .

أما مسكنهم فكانوا يظنون أنه فى منطقة الهواء الوسطى (يو ١٢ : ٣١ و ١٤ : ٣٠ و ٢ كو ٤ : ٤ اف ٢ : ٢ و ٦ : ١٢) . وكانوا يعتبرونهم رؤساء الأشياء الحاضرة . وتمشيا

مع هذا المعتقد تطورت الأفكار مما أدى إلى عديد من الهرطقات الأبيونية . وحتى فى كتاب « المزدهار » دعى الشيطان « الأله الثانى » « الأله الآخر » . قارن ٢ كو ٤ : ٤ .

ويقول الربى يشوع بن لاوى ان للشيطان سبعة أسماء : الشهوة ، النجاسة ، الكراهية ، الخ وإنسان نصف الليل . (بوئيل ٢ : ٢٠) .

وجاء فى كتاب البراكوث (فصل ٦ ـ ٢) انه لو أمكننا رؤية الشياطين فلن يتمالك أحد نفسه من الصدمة . إن لكل انسان عن يمينه ١٠٫٠٠٠ وعن يساره ١٫٠٠٠ وكلهم أقوياء جدا سيما فى الليل ولذلك لا ينبغي أن يحيي انسان شخصا آخر فى الليل لئلا توجه تحيته للشيطان (سنهدرين ٤٤ ـ ١) . وتعيش الشياطين غالبا فى الخرائب والصحارى والمقابر وتحت الأشجار سيما شجرة الخدمة وفي الأماكن القذرة .

وكانوا يظنون أن الصداع ينشأ من شيطان اسمه (كارديايكوس) ويختفى جميع الشياطين مساء السبت عدا واحد يدعى « عقبيان » الذى يسبب ولادة الأطفال المصابين بالصرع .

والاعتقاد فى هذه « الشيديم » أى الأرواح الشريرة أنها ظلت تعربد إلى هذا اليوم . وتوجد منازل فى أوروشليم لا يمكن أن يقطنها الذكور والاناث معا لأن الشيديم لا تسمح بذلك ولهذا لا يسكنها غير النساء فقط .

ويقول الشهير يهوذا يفاس من كورفو إن الشياطين لا سلطان لها فى الغرب . ويبدو أن « الشلبي » أى الزى القديم التقليدى للباس الرأس عند المرأة اليهودية قد ابتدع خصيصا لأبعاد الشيديم الذى يجلس على رأس كل امرأة لا تغطي شعرها . (١ كو ١١ ـ ١٠) وشناعة منظر هذا الزى تماثل صعوبة وصفه . وهو شبه هيئة « طرحة » منسوجة من الكتان تغطى كامل الشعر (١) .

---

١ ـ فرانكل فى كتاب اليهود فى الشرق جزء ١ صحيفة ٢٢٧ وجزء ٢ ص ١٦٠ الخ .

التذييل الثامن

صحيفة ٣٢٨

العيد غير المسمى

الوارد فى يوحنا ٥ : ١

ومـدة الكـرازة

يقول يوحنا البشير [وبعد هذا (أى بعد شفاء ابن خادم الملك) كان عيد لليهـود فصعد يسوع إلى أوروشليم] .

أي عيد هذا ؟ سؤال لن تكون له فى الغالب إجابة حاسمة مهما كان فى تحقيقها من متعة تاريخية وأهمية خاصة فى تقرير مدة كرازة السيد . ولقـد كتبت مجلدات برمتهـا ، والدخول فى كل المناقشات المتشعبة شاق ، لا نهاية له ، مضيعة للوقت ، وبلا جـدوى ، إذ لن ينتهى إلى الوصول إلى شىء مقنع . ورغما عن البصر والحـكمة والدرس الدقيـق الذى خصص لهذا الموضوع فان ما عندنا من المعلومات لا يكفى أبدا لتحقيـق مـدة كرازة المسيح العلنية ، ولن نصل أبدا إلى جواب مؤكد لهذا السؤال الهام. فالملاحظات القليلة التى سأدلى بها ستكون قصيرة وواضحة ما أمكن .

أولا — إن يوحنا البشير يؤرخ أغلب الحوادث التى كتبها بالأعياد اليهودية (١) وقد ذكـر :

١ - [فصح اليهود] ٢ : ١٣ .
٢ - [عيد لليهود] أو [عيد اليهود] (٢) ٥ : ١ .

---

١ - براونى فى كتابة أوردو سيكلورم .

٢ - قراءتها مختلفة فالنسخة الاسكندرية والفاتيكانية ونسخة بيزة خالية من "ال" التعريف . بينما

٣ - [الفصح عيد اليهود] ٦ : ٤

٤ - [عيد اليهود عيد المظال] ٧ : ٢

٥ - [عيد التجديد] ١٠ : ٢٢

٦ - [فصح اليهود] ١١ : ٥٥

ثانيا - تقع أعياد اليهود بالترتيب الآتى : وإذا أخذنا سنة معينة لأمكننا (ولو أنه يكون التحقيق غير مؤكد وغير بعيد عن مواطن الطعن) أن نذكر ونحدد اليوم من الأسبوع والشهر الذى حدثت فيه الأعياد . فاذا اتخذنا سنة ٢٨ م مثلا فانا نجد :

١ نيسان	الثلاثاء	الموافق ١٦ مارس	عيد رأس السنة اليهودية
١٤ نيسان	الاثنين	« ٢٩ «	الفصح - أيام الفطير وعددها سبعة
٦ سيفان	الأربعاء	« ١٩ مايو	البنتكوستى
١٠ تشرين	السبت	« ١٨ سبتمبر	يوم الكفارة
١٥ - ٢١ «		« ٢٣ - ٢٩ «	المظال
٢٥ كيسليف	الأربعاء	« ١ ديسمبر	التجديد
١٤ آدار	السبت	« ١٩ مارس	البيوريم

ولنلاحظ أن العيد الأخير يسبق بنحو شهر عيد الفصح التالى أى الذى لسنة ٢٩ والذى وقع فى ١٧ أبريل .

ثالثا - والآن من غير المحتمل أن يكون هذا العيد هو الفصح أو عيد المظال، لأن كل مرة يكونان هما المقصودين ، يذكرهما يوحنا البشير بالاسم والنص كما رأينا . ثم إن لهذين العيدين اسمين يونانيين وهما معروفان لدى المطالعين اليونان . ولا يوجد أى داع لحذف اسم أيهما هنا . ومن المستحيل أن نظن أن عدم ذكر اسم هذا العيد كان

تثبتها النسختان الافرائية والسينية . والغالب أن يزاد الحرف عن أن يحذف ولو كانت القراءات الأولى أكيدة لتأكدنا بالمثل أن هذا العيد ليس عيد الفصح أو عيد المظال .

عرضا أو غير مقصود ، فضلا عن أنه توجد براهين لها قيمتها ضد الفرض أن هذا العيد كان أحدهما .

١ - إن كان هذا هو عيد الفصح فان هذا يقتضى أن يوحنا البشير قد حذف سنة كاملة من كرازة السيد (٦ : ٤) دون أن يذكر كلمة واحدة عنها .

٢ - ولا يمكن أن يكون هذا هو عيد المظال التالى مباشرة لعيد الفصح الذى ذكره يوحنا فان هذه الفترة التى لا تتجاوز ستة شهور قصيرة عن أن تحدث خلالها كل الحوادث التى صارت منذ بدء رحلته إلى السامرة يو ٢ : ١٣ .

٣ - ولا يمكن أن يكون عيد المظال للسنة التى بعدها إذ معنى ذلك انقضاء سنة ونصف دون أن يزور أوروشليم ولو مرة واحدة .

وبالاختصار إذا تخيلنا أن السيد قضى زمنا فى البرية بعد الفصح الأول ، وذلك غالبا قبل الحصاد بأربعة شهور (يو ٤ : ٣٥) ، ومر بالسامرة فى رحلته إلى الجليل ، وإذا تخيلنا أيضا - كما يحق لنا - أن نعد الفصح المذكور فى يو ٦ : ٤ هو العيد الثانى الذى يحضره ، فيجب أن نبحث عن هذا العيد غير المسمى والذى يقع بين انقضاء الشتاء وحلول الحصاد أى بين كيسلو (ديسمبر) و ١٦ نيسان الذى تقدم فيه أول حزم القمح ويبدأ الحصاد رسميا .

وإن كانت هذه الأسباب غير حاسمة فانها على الأقل قوية جدا . وإذا سلمنا بها فانها تبعد فى الحال أن هذا العيد كان أحد العيدين العظيمين .

رابعا - فاذا بحثنا فى الأعياد الصغيرة نجد منها واحدا فقط له دواع لحذف اسمه وهو عيد البوريم . وليس كونه عيدا صغيرا فحسب سببا كافيا لحذف اسمه ، فانا نجد يوحنا البشير يذكر بالاسم عيد التجديد وهو عيد قليل الأهمية ومن وضع الناس . ولكن عيد التجديد كان معروفا لدى اليونان بعيد « الانسينيا » وترجمة الكلمة تفسر معنى العيد ، بينما عيد البوريم عيد يهودي بحت ، وذكر اسمه دون ملحق يوضحه يجعله

غير مفهوم . وكلمة بوريم معناها « يا نصيب » ولو أن يوحنا ترجم الاسم إلى اليونانية لادى إلى معان غير مرغوبة ولا يكون مفهوما أبدا عند الأمم (١) فضلا عن أنه كان أقل الأعياد أهمية وأقلها اتصالا بالدين كما كان أقلها حفظا لدى اليهود وهذا يضيف سببا لعدم ذكر اسمه .

أما المستر براون فى كتابه الدقيق البارع ، ولكن غير المقنع ، فيورد عددا من البراهين القوية على أن كرازة السيد كانت سنة واحدة وبضعة أسابيع مرتكنا على ظواهر فلكية لا ترتكز إلا على حقائق مشكوك فيها وعلى تقاليد متضاربة وإن بدت سهلة الاثبات .

وذهب أوريجانوس فى البرهنة على ألوهية المسيح أن سنة الكرازة الوحيدة هذه كانت على قصرها كافية لتجديد العالم (٢) لأن شفتيه كانتا مملوءتين من النعمة . وعلى ما يظهر كان هذا هو الرأى القديم جدا . ولكن كما أظهر المستر براون صراحة أن مليتو وايرانيوس وآخرين لهم رأى مخالف تماما حتى أن إيرانيوس يذكر كحقيقة واقعة مستقاة بالتسليم الشفوي عن يوحنا أن المسيح كان يبلغ وقت صلبه بين الأربعين والخمسين .

والتقليد أن مدة كرازة السيد لم تكن إلا سنة واحدة يرتكن على ما فى لو ٤ : ١٩ وقد اقتبسها كليمنضس الاسكندرى للبرهنة على هذا الرأى . كما يرتكن التقليد عن عمر السيد على ملاحظة اليهود فى يو ٨ : ٥٧ (٣) .

---

١ ـ بيوريم كلمة محورة عن الفارسية " باهريه " أى " يا ناصيب " التى حرفها يوسيفوس وبعض التراجم إلى " فروفراى وفروفرايوى " وقد لاحظ إيوالد أنه عيد يسبق الفصح .

٢ ـ وحتى أوريجانوس يناقض نفسه راجع جيسلير .

٣ ـ القراءة التى ارتضاها يوحنا فم الذهب ويوثيميوس الخ فى الغالب لا أصل لها فى النسخ الجديدة والواضح أن اليهود انما استعملوا كلمة " خمسين " لأنه عدد من أرقام العقود للدلالة على اكتمال الرجولة .

وقد رأينا فيما سلف أنه لا هذه ولا تلك تدعم هذين التقليدين .

وتحقق هذا قديما حتى ان هيبولس تلميذ ايرانيوس يقول إن السيد قد مات فى الثالثة والثلاثين من العمر ووافقه على ذلك يوسابيوس وثيودورث وابيفيموس وغيرهم .

ورغما عن كل هذا فان المستر براون يفترض أن كرازة السيد كانت سنة واحدة ويتغاضى عن [وكان الفصح عيد اليهود قريبا يو ٦ : ٤] ويعطى جدولا للأعياد الواردة فى يوحنا بالترتيب الآتى :

١ ـ الفصح	٢ : ١٣	مارس
٢ ـ البندكوست	٥ : ١	مايو
٣ ـ المظال	٦ : ٤ و ٧ : ٢	سبتمبر
٤ ـ التجديد	١٠ : ٢٢	ديسمبر
٥ ـ الفصح		مارس

ولكن، كما رأينا، يدحض هذا الرأى أن يوحنا ذكر بوضوح لا يقبل الشك أبدا ثلاثة أعياد فصح (يو ٦ : ٤) . وبما أنه في الغالب يوجد فصح لم يصعد فيه السيد إلى أورشليم فى مدة كرازته فيصح أن زمن الكرازة كما يقر الآن كل الباحثين ثلاث سنوات وبضعة أسابيع أو شهور .

وهذا قد يفسر ما جاء من التحديد الزمنى فى مثل شجرة التين وتركها ثلاث سنوات أخرى لانتظار الثمر لو ١٣ : ٧ و ٨ .

هذه العملة البرونزية تظهر على وجه منها كلمة واحدة "لقيصر" وهى الاجابة التى نطق بها الفريسيون ردا على سؤال السيد لهم "لمن هذه العملة" . وفى الوسط سنبلة قمح ناضجة . وعلى الوجه الآخر . بدلا من الوجه البغيض للامبراطور الحاكم . تظهر نخلة مثمرة تخلد الكروم الذائعة التى اشتهر بها هيرودس الكبير حتى فى روما كما نتحقق ذلك من الجزء ٢ صحيفة ١٨٤ الرسالة الثانية لهيرودس والحرفان إلى جانبي النخلة يؤرخان سنة ٣٣ بعد منح اكتافيوس لقب أوغسطس ، أى سنة ٦ م . وسنة عزل أرخيلاوس .

عملة قيصر

التذييل التاسع

صحيفة ٣٩٦

رياء الفريسيين

كان الفريسيون يعتقدون أن الغرض الأسمى من وجودهم هو إقامة « السياجات » من التقاليد الشفوية حول الناموس حتى أن ايفانوس (١) أطلق عليهم كلمة شديدة تصف خلقهم هذا وقال أنهم اشتقوا اسمهم وخدمتهم من «التطوعية المتطرفة التظاهرية» ومع هذا فقد كانوا على استعداد تام لاختراع الحيل للتخلص من الناموس عندما يتعارض مع مصالحهم أو مآربهم (٢). وربما كان أبرز مثال لهذا الوسيلة التي استطاعوا أن يحلوا أنفسهم من الغرض الذي وضعوه ألا تتجاوز أية رحلة في يوم السبت عن ألفي ياردة (٣).

كانت عادة الفريسيين أن يشتركوا في السيستيا أي الولائم اليومية العامة التي أحاطوها باشتراطات صارمة والتي جعلوها تماثل تماما موائد الكهنة. وإذ كانت منازلهم كثيرا ما تبعد أكثر من ألفي ياردة عن المكان الذي سوف يجتمعون فيه، وإذ كان من المحرم بتاتا حمل أي ثقل يوم السبت (نح ٨ : ١٥ و ١٧ : ٢١ و خر ١٦ : ١٩)، فمن الجلي أنه سيمتنع عليهم الأكل جماعة في اليوم الذي تشتد رغبتهم فيه بالأكثر أن يأكلوا سويا، ولكن تحايلا بسيطا ينقذهم من مأزقهم.

---

١ - هاريس. ٢ - جاء في كتاب ديرنبورج " أهم أعمال الفريسي أن يضع سياجا للناموس " وهذه كانت إحدى تعاليم سمعان العادل (بيرك ابهوث) وراجع أيضا التذييل الرابع عشر. ٣ - رتبوا هذا على ما ورد في سفر الخروج ٢١ : ١٣ و ١٦ : ٢٩. وقد أضافوا بعد الآية الأخيرة في الترجوم كلمة بعد ألفي ياردة، راجع الملاحظات القيمة للدكتور جنسبرج عن " رحلة يوم السبت " ودائرة معارف كيتو عن " الفريسيين ".

ففى العشية قبل السبت كانوا يضعون بعض الأطعمة على بعد ألفي ياردة من منازلهم وبذلك يخلقون مسكنا مفتعلا يستطيعون أن يسيروا بعده ألفى ياردة أخـرى . وبذلك يسمحون لأنفسهم بمضاعفة المسافة المفروضة ! وهذه الحيلة الربائية التي تشف عما تحتها كانوا يعتبرونها بتبجيل وفطنة أنها داخلة فى باب « اتحاد المسافات » أو « اتصال الأمكنة » وكانت تسمى « أربوث » (١) أى « امتزاج » وهو اسم ما زال موجودا إلى يومنا هذا. وللتخلص من صعوبة منع حمل أى ثقل احتالوا بخدعة مسكينـة أيضا . كانوا يضعون قوائم وعوارض أبواب أو نوافذ فى مختلف الشوارع فكل المسافة المحصورة بينها تعتبر كأنها منزل واحد كبير (٢) !

هل تعتبر أية كلمات توبيخ أنها شديدة لفضح هذا التلاعب بين « المحلل والمحرم » فى الأوامر الألهية التى كانوا هم أنفسهم يعتقدون فى كمال قدسيتها والتى كانوا ينتقمـون ممن يتعداها بتوقيـع حكم الموت . لا ريب أنهم كانوا يظنون أن إلههم وضميرهم من السهل أن يخاتلا ويغشا (٣) .

أما الصدوقيون فقد تغلبوا على هذا المأزق أيضا بجرأة أشد ولكن بخسة أقل . إذ أفتوا بـكل هدوء وبساطة أن هذه الولائم كانت متابعة لخدمة الهيكل . وعليه فلها أن تمارس الانتفاع بقاعدة « لا سبت فى الهيـكل » .

وهذه الأمثلة ممـكن إيراد الـكثير منها : إن أشرف ثور على الموت فلليهودى أن يذبحه فى يوم مقدس على شرط أن يأكل قطعة من لحمه بقدر حجم الزيتونة ليبرر أنه إنما

١ ـ لا زالت مثل هذه الحيل المحتقرة شائعة بين يهود فلسطين ولا سيما فى صافد .

٢ ـ هذه " الاربوهيم " أى " الاتحادات " أو ندب الأمكنة والمسافات وأثرهـا فى حفـظ السبت تملأ عشرة فصول من " سيدير موئيد " ويعـزون ابتداعها لصلب جان (شابات ٤ : ٢) وريلاند الخ .

٣ ـ وعلى هذا المثال ما هو شائع فى الهندستان حيث تراعى فـوارق الطبقات بكل حرص ودقة حتى فى أتفه الأمور ما لم تتعارض مع المنافع المشتركة مثل السفـر بالسـكة الحديد الخ .

ذبحه لأكلة ضرورية . إن أراد يهودى أن يشترى ما يباع بالوزن أو الكيل فله أن يفعل ذلك على شرط أن يدفع الثمن في اليوم التالى وعلى أن لا ينطق باسم ما يشترى أو وزنه أو كيله . إن أراد يهودى أن يشترى فى يوم مقدس ماشية أو طيورا أو ما شابه فله أن يفعل على شرط ألا ينطق بثمن أو عدد المطلوب . وإن أراد أن يشترى فى يوم مقدس لحما من القصاب فله أن يفعل على شرط ألا يقول له بعنى لحما بكذا ولكن يقول له « اعطنى جزءا أو نصف جزء » وأن يدفع له فى اليوم الثاني .

هل ممكن للمحبة مهما اتسعت دائرتها ومهما تسامحت رأفتها أن تتفادى تسمية هذا بالمراوغة القانونية المؤسسة لغش الله بالحرف لا بالروح ؟ وهل كلمة « يا مراؤون » شديدة للذين أبدلوا بهذا التحايل الأوامر المقدسة ؟

مثال آخر لمثل هذا الرياء ، الطريق الذى اتخذوه تجاه السنة السبتية . كانوا قد أبطلوا قبل زمن المسيح شريعة ترك الديون معتبرين ذلك اختلاسا من ناحية المدين أن يحمى نفسه بناموس موسى . فيجب أن يدفع ديونه رغم السنة السبتية . ولكن لكيلا يخالفوا الناموس مخالفة فاضحة فقد تحايل هؤلاء الأساتذة وأمروا أن يقول الدائن المدين « لقد تركت الدين حسب ناموس السنة السابقة » فيجيب المدين قائلا « ولكنى أريد أن أدفعه » فيقبل الدائن (١) النقود . وهى رواية تمثيلية هزلية بلا شك ! ولكنها مقبولة لدى أولئك الذين يظهرون الحماس الشديد والاخلاص الذى لا حد له لكل جملة بل وكل كلمة وأقول أيضا بل لكل حرف من حروف ناموس موسى !

ربما يقال إن هذه أكاذيب قانونية ألجأتهم إليها ظروفهم المعوجة . كلا إنها برهان مخجل على الرياء المنظم المسىء ينطق أيضا على نصيحة الربى أدللا لمن يقعون فى التجارب

---

١ - راجع جنسبرج وكيتو عن " السنة السبتية " . وراجع لأحسن التفاسير والآراء عن هذه الأكاذيب الشرعية كتاب الحاخام استروك " دروس فى الأسفار الخمسة " وكتاب يهوذا بن حلفى " الهوساري " .

الشهوانية . وهذه النصيحة موجودة في التلمود في موضعين . ولا أريد أن أثبت النص الأصلي ولكن في مجموعه هو « ان خطية الزنا مباحة ما دامت تجترم في الخفاء التام ».

ومثلها قاعدة حاخامية أخرى ظاهرة الشناعة فضلا عن أنها قناع لا يستر ما خفي وهي « لا يجب أن يتزوج رجل امرأة وله نية طلاقها ، ولكن ان أخبرها قبل الزواج أنه إنما يتزوجها لفترة محدودة فعمله شرعي قانوني ! » (١) .

ومع تظاهرهم باحترام الناموس إلى وجه لا حد له فان طرق تفسيراتهم مثل « الفماتريا » و « ونوثاريكون » الخ كانت للخروج على حقائق ومعان لا يستحبونها . وأمثلة متعددة لهذا توجد في « التارجوم » في تفاسير التوراة . فمثلا لكرههم أن موسى تزوج امرأة اثيوبية (عدد ١٢ : ١) فان يوناثان أبدل كلمة « كوسيث » أي كوشيه إلى كلمة « كوشيث » أي جميلة الوجه متذرعا أن أحرف كلمة كوسيث = ٧٣٦ وكذلك أحرف كلمتي جافث ماريه = ٧٣٦ ! وهذا مثل لتفسير الكتب المقدسة على الطريقة العددية !

إن شماي مناظر هلليل الذي كان ضيق العقل حتى انه كاد أن يميت ابنه الصغير جوعا في يوم الكفارة ، وحتى انه عمل فراشا من البوص لكنته كي يحفظ حفيده المولود للتو والساعة عيد المظال ، بينما نعلم انه كان رجلا أنانيا مسرفا مترفا متنعما . انه من السهل أن تعشر التنعم من أن تعيش بطهارة .

فالذين يجرأون أن يقولوا إن يسوع تكلم بحرارة وقسوة ضد الفريسيين فليذكروا القول المعزو لاسكندر يانوس وهو « ان الفريسي الحقيقي هو من يريد أن يعمل أعمال كوزبي ويأخذ مكافأة فينحاس .

---

١ ـ باب " كودوشيم " و " الشجباه " وراجم ملاحظات جفرور القيمة .

« جوهرة من القرون المسيحية الأولى »

هذه صورة (ضعف الحجم الأصلي) لسفينة محفورة على درة من اليشب

التذييل العاشر

صحيفة ٦٧٧

هل كان العشاء الاخير فصحا حقيقيا

من المؤكد والمسلم به عامة أن السيد قد صلب يوم الجمعة (١) لأن كل البشيرين ذكروا ذلك بوضوح ، وقام يوم الأحد ، وبقى مدة السبت اليهودى فى مقبرة يوسف الرامى . واذن فمن المؤكد أيضا أنه أكل العشـــاء الأخير وأسس سر الأفخارستيا فى مساء الخميس .

ولكن هل كان هذا العشاء الأخير الفصح المعتاد أو شبيها له ، عمله قبل موعده ؟ وهل أكل في اليوم الثالث عشر نيسان أو اليوم الرابع عشر ؟ هل فى سنة الصلب وقع أول يوم فى الفصح مساء الخميس أو مساء الجمعة ؟

كان ممكننا الفصل فى هذا الموضوع (١) لو علمنا تاريخ صلب السيد بالتأكيد (٢) لو أمكننا الاعتماد على التقاويم اليهودية واقتنعنا فى أى يوم من أيام الأسبوع من تلك السنة كان الفصح . وبما أنه لا يمكننا البت فى هذين الأمرين فلحل هذا الاشكال

الاسود وهى احدى الأمثلة النادرة والتى لا شك فيها للتحف المسيحية. وقد وضع صلب لاتينى مكان الشراع والصارى . ورسم الربان على شكل بسيط فى المؤخرة وظهرت ثلاث عوارض تطل من السارية لتدل على سهولة الرمى بالمنجنيق .

وتاريخ هذه الحفرية يرجع إلى أوائل القرن الرابع على التحقيق .

١ ـ مت ٢٧ : ٦٢ و مر ١٥ : ٤٢ و لو ٢٣ : ٥٤ و يو ١٩ : ٣١ . وراجع مقدمة وستكوت صحيفة ٣٢٣ .

نعول فقط على ما ذكره البشيرون . ولنلاحظ مبدئيا أنه وإن كان البشيرون كلهم متعقبين فى ترتيب الحوادث فان السؤال هل كان العشاء الأخير فصحا أو لم يكن - ولو أنه عظيم الأهمية لنا - فليس أمرا يمس مباشرة الغرض الذي من أجله كتب البشيرون حياة المسيح .

ويجب أن نسلم أن البشيرين الثلاثة الأول قد اتحدوا فى استعمال تعبيرات يبدو منها أن الفصح ابتدأ فعلا مساء الخميس واذن يكون هذا الخميس ١٤ نيسان وأن هذا العشاء الأخير كان حقيقة عيد الفصح المعتاد .

وهذا يتضح من الآيات التالية مت ٢٦ : ٢ [تعلمون انه بعد يومين يكون الفصح] و ١٧ [فى أول أيام الفطر تقدم التلاميذ إلى يسوع قائلين أين تريد أن نعد لك لتأكل الفصح] و ١٨ [عندك أصنع الفصح مع تلاميذى] و ١٩ [وأعدوا الفصح] قارن مر ١٤ : ١٤ - ١٦ و لو ٢٢ : ١١ - ١٣ .

وكان لوقا بين الوضوح إذ يقول فى ٢٢ : ٧ [وجاء يوم الفطير الذى كان ينبغى أن يذبح فيه الفصح] وأيضا ١٥ [شهوة اشتهيت أن آكل هذا الفصح (١) معكم قبل أن أتألم] .

ثم ان كل اشارة زمنية فى هذا اليوم كتبت بدقة ووضوح فى البشائر . وعلى هذا

---

١ - الكلمة اليونانية لا تحتمل نبواتها معنى " هذه الوليمة كنوع من الفصح " مع أن هذا المعنى كان محتملا فى الكلمات الآرامية التى قالها يسوع . ويقول البروفسور وستكوت إن اللغة إن أخذت وحدها فانها تعنى " اكلة الفصح " ولكن هذا المعنى لم يقصده البشيرون لأن تسجيلهم الصريح لوقوع الصلب يوم ١٤ نيسان ينفى هذا المعنى . ويجب أن نعترف للتو بأن معرفتنا الناقصة عن العوائد الطقسية والتقليدية - وهى المعروفة جليا عند اليهود - قد تكون السبب فى أغلب الصعوبات الناجمة . ومع ذلك فمن المستحيل أن يكتب البشيرون الثلاثة الأول هكذا وهم يعلمون أن الطعام الذى أكل لم يكن فصحا بينما كانت أية اشارة أو كلمة تفسير أو استعمال كلمة مختلفة ولو قليلا كانت تبعد احتمال الوقوع فى أي التباس .

نفترض أن بطرس ويوحنا أتيا من الهيكل بحمل الفصح بين الساعة الثالثة والخامسة بعد الظهر لأن هذا هو التفسير اليهودي ـ لا السامري ـ فكلمة [بين العشاءين] وهو الوقت الذى حدده الناموس لذبح الحمل .

ولكن إن رجعنا إلى بشارة يوحنا نرى أن العشاء الأخير لم يكن وليمة الفصح ، وأن الفصح بدأ يقينا مساء الجمعة فيكون الخميس ليس الرابع عشر بل الثالث عشر من نيسان :

فان تركنا وقتيا قول يوحنا فى ١٢ : ١ [قبل عيد الفصح] وهو القول المتنازع فى تفسيره فأننا نرى أن بعض التلاميذ ظنوا أن يسوع قد أرسل يهوذا ليشترى ما هو لازم للفصح [١] ، وأن الكهنة والفريسيين لم يدخلوا دار المحاكمة ـ دار الولاية ـ لئلا يتنجسوا [٢] وحتى يتمكنوا من أكل الفصح . ويقول يوحنا البشير أيضا ان جمعة الصلب كانت استعداد الفصح [٣] وأن السبت الذى تلاها كان سبتا عظيما [٤] لأنه كان سبتا وكان أول يوم فى عيد الفصح .

كيف يمكن إذن التوفيق بين ما يبدو أنه من المتناقضات ؟ ولكنى أظن أنه يجب أن أعترف صراحة أن كثيرا من الحلول المقدمة غير مجدية لأنها مؤسسة على

---

١ ـ لو أن الفصح كان أكل فى هذا الوقت لكان هذا الكلام لا محل له فضلا عن أنه فى أثناء العيد كانت توقف كل المعاملات العادية .

٢ ـ قد ذهب يوسف الرامى إلى بيلاطس فى هذا اليوم قبل المساء (مرقس ١٤ : ٤٣) ولكن لا يؤخذ من هذا أنه أكل الفصح وقد يجوز أنه لم يدخل فعلا دار بيلاطس أو ربما تكون أفكاره عن النجاسة الناموسية أقل تدقيقا من أفكار الفريسيين كما أنه من الواضح أن بعض اليهود دخلوا دار الولاية بدون أن يتنبهوا للنجاسة .

٣ ـ لا يمكن أن يعنى بقوله هذا « يوم الجمعة فى أسبوع الفصح » إن كان يوم الجمعة كان حقا أول أيام الفطير .

٤ ـ يوحنا ١٩ : ٣١ = « يوم الطوبها » أي أول أو آخر يوم فى عيد عدده ثمانية أيام، والأيام الباقية كانت تدعى اللويد كاتون .

افتراضات من عادات اليهود وعن طرقهم المختلفة فى التعبير ولأنه لا يوجد ما يدعمها بل هى تخالف ما نعلمه يقينيا . وإن تقصيناها وغربلناها كلها لاحتجنا إلى مجلد خاص . ولهذا سأشير فقط إلى بعض الحلول الهامة وبعدها سأدلى بالحل الذى يظهر لى بعد درس عميق وبحث دقيق أنه هو الحل المناسب الوحيد .

١ ـ إن يوم حفظ الفصح كان يقرر بعد اعتبارات فلكية (كترقب ظهور الهلال عند العرب) فكان عرضة للاختلاف مما يؤدى إلى حفظ أيام مختلفة .

٢ ـ ان « بين العشاءين » تفسر على العشاءين ١٣ و ١٤ نيسان أو بين ١٤ و ١٥ نيسان فيصرح بأكل الفصح فى أيهما .

٣ ـ إن يسوع أكل الفصح فى موعده القانونى ولكن اليهود فى كرههم له وتحمسهم ضده أجلوا فصحهم لليلة التالية (١) .

٤ ـ إن عبارة « أكل الفصح » لا تقتصر على أكل حمل الفصح ولكن أيضا على أكل « الشجيجا » (٢) وعلى حفظ العيد عموما وهذا يفسر عبارات يوحنا البشير .

٥ ـ إن العشاء الذى وصفه يوحنا البشير غير العشاء الذى ذكره باقى البشيرين .

٦ ـ إنه إن صادف وكان يوم ١٤ نيسان يوم جمعة لا يذبح حمل الفصح إلا فى يوم ١٥ وذلك ليتجنبوا مراعاة سبتين فى يوم واحد (٣) .

٧ ـ ان العشاء الأخير كان أكلة فصح قانونى ولكنها أكلت مقدما اليوم قبل التاريخ المحدد . نظريات (٤) لا نهاية لعددها أمثال هذه ممكن ايرادها وقد أخذ ببعضها

---

١ ـ من الغريب أن نجد أن الأسقف وردسورث يأخذ بهذا الرأى مستندا إلى يوسابيوس .

٢ ـ كانت « الشجيجا » تؤكل فى أعياد أخرى (تث١٦:١٦) ولم يكن فيها شىء يمت إلى الفصح .

٣ ـ هذا الحل يرتضيه كلفن مع مفسرين عديدين ولكنى لا أرى الأخذ به لأن هذه العادة دخلت بعد بضعة أجيال .

٤ ـ نظريات أخر لا أساس لها توجد فى كتاب "حياة المسيح" لأندروز ، مثل نظرية راوش التى تقول ان الفصح كان يذبح قانونيا إما يوم ١٥ نيسان أو يوم ١٤ نيسان أو نظرية شيكنوحر

عدد من العلماء ولكن ولا واحدة منها تحوز قبولا عاما، إما لقصورها عن الاتيان بحل موفق لكل ظروف الحال وإما لأنه لا تدعمها معلومات كافية .

وحتى لو تمكنا من تفسير وجود هذه الاختلافات الظاهرية فانه ليس من أمانة النقد أن ننكر أنه إن لخصنا لغة البشيرين على بساطتها ومدلولاتها المباشرة وبدون الارتكان على نظريات نتخيلها أو الحاجة إلى توفيق مختلف الروايات فانا نصل إلى أن البشيرين الثلاثة الأول يذكرون أن العشاء الأخير كان فصحا اعتياديا بينما يذكر يوحنا البشير أنه لم يكن .

لنتخيل إلى لحظة أن قرارنا يجب أن يبنى فقط على هذه الشهادات المختلفة فهل نجد الدقة إلى جانب يوحنا البشير أم إلى جانب زملائه ؟ - أتكلم انسانيا -

نجيب بما يقرب من التحقيق التام أن لغة يوحنا البشير هى الواضحة بلا مراء وأن العشاء الأخير لم يكن طعام الفصح القانوني الحقيقي المعتاد الذى كنا نتخيل أنه هو لو اقتصرنا على البشائر الثلاث الأولى . أما أسباب اعتقادنا فهى :

أولا - انه من أبعد الاحتمالات أن يوحنا البشير الذى كانت كتاباته عن حوادث العشاء الأخير أكثر اسهابا عن باقى البشيرين والذى كان أكثر قربا والتصاقا بكل دقائق المناظر الأخيرة الأليمة عن باقي الرسل ، يحيد عن طريقه ويكون غامضا بمناسبة نقطة هامة كهذه .

توجد أسباب عديدة تجعل العشاء الأخير ينظر إليه فى خلال سنين قليلة كعشاء

إن المسيح صلب يوم الاربعاء وبقى أربعة أيام فى القبر . ومن الغريب أن البروفسور وستكوت - وهو ثقة يعتد به - يجيز صحة هذه النظرية ولكن لو ٢٣ : ٥٤ - ٥٦ كاف وحده لدحض هذه النظرية . مت ١٢ : ١٤ نجم عن العادة اليهودية فى اعتبار أى جزء مهما قصر من اليوم يعد نهارا كاملا مثل تعداد سنى الحكم عندهم إذ يحسبون أن أي جزء من السنة سنة كاملة . ومن هذا القبيل ما يوجد فى القانون الانجليزي حيث يعد المولود فى ٢٠ فبراير أنه أصبح كامل السنة فى منتصف ليل ١٨ فبراير .

الفصح ولكن لا يوجد سبب واحد - الا تقرير حقيقة الواقع - يجعل البشير يوحنا يؤكد بحرص أنه ليس هو ويفرده عنه .

وربما يختلط الأمر بين يوم الخميس الذى كان يبعد فيه كل خبز خمير من البيوت مع يوم الجمعة أول أيام الفصح سيما فى أزمنة ما كان يعتنى فيها أبدا بالتوقيت الزمنى . لكن من المستحيل القول إن يوحنا البشير قد « ابتدع » ما ذكره أو خرج بذلك على التقاليد السارية .

ثانيا - من المؤكد أن يوم الجمعة مر بدون أى تحسب بل في حوادث ومشاغل واهتمامات لا تتناسب بتاتا مع أول يوم لعيد عظيم مقدس كهذا(١) . فلو أن عشاء الليلة السابقة كان فصحا لوجب أن يكون يوم الجمعة سبت فصح . ومع أن سبت الفصح لم يكن يحفظ بنفس الدقة والتحفظ مثل السبت الأسبوعى إلا أنه كان يلزم فيه التحفظ والرهبة كما شهد بذلك حتى بعض الكتاب المتأخرين مثل ميمونيدس .

ثالثا - عدم وجود أية اشارة واحدة أو أى ظرف فريد يستنتج من أيهما أنه كان هناك أى حفظ ليوم الجمعة كيوم عيد رهيب مع ان اليهود كانوا شديدى الحفظ والمراعاة لهذه الأعياد السبتية حتى ان هلايل حتم انه إذا باضت فرخة فى يوم عيد سبت لا تؤكل (٢) .

---

١ - اشترى يوسف الكتان (مر ١٥ : ٤٦) استحضرت النساء الأطياب والادهان (لو ٢٣ : ٥٦) وكان سمعان القيروانى قافلا إلى بيته بعد عمل يوم فى الحقل (مر ١٥ : ٢١ و٢٢ : ٢٦) .

عن أعياد السبوت وطريقة حفظها راجع (لا ٢٣ : ٧ و ٨) (لا تعمل عملا) وتكررت مرتين للأهمية . ونعلم أن فى الجليل على أية حالة كان يحفظ اليوم الاول من العيد حفظا تاما حتى لو سمحت العوائد اليهودية بالبيع والشراء والعمل الخ فى أورشليم فاننا لا نتوقع أن يفعل هذا الرسل الجليليون (يو ١٣ : ٢٩) .

٢ - جاء فى النيرة والمشنة والطربها أن محاكمة المجرمين لا يسمح بها فى أيام الأعياد راجع فيلو صحيفة ٩٧٦ .

فيسأل نيندر كيف يمكن أنهم قضوا يوم الجمعة هذا لو كان اليوم الأول من عيد عظيم كأنه يوم جمعة عادى ؟

كل هـذه الصعوبات تتلاشى إذا كان يوم جمعة عادى وان اليوم التالى كان يوم سبت وفى الوقت ذاته كان أول يوم فى عيد الفصح (١) .

رابعا ـ انه قبل ملاحظة هذا الاختلاف الظاهرى فى البشائر كان التقليد المسيحى القـديم يؤكد أن العشاء الأخير كان غير الفصح .

خامسا ـ الواقعة الرمزية من أن المسيح يذبح فى اليوم والساعة المقررة لتقـديم ذبيحـة حمـل الفصح (٢) .

سادسا ـ التقليد اليهودى الذى لا مصلحة له فى تضليلنا فى هذا الصدد بالذات يحدد موت المسيح يوم ١٤ نيسان (٣) (يوم قربه يساخ) أى المساء الذى قبل الفصح.

---

١ ـ ابوليناريوس وكليمنضس الاسكندرى وجوليانوس الافريقى وهيبوليتى وترتليان . راجع صروت ووستكوت . فكرة أن العشاء الأخير كان فصحا لم تنبت إلا فى عهد فم الذهب والذين يرفضون الاقرار بوجود أى خلاف حقيقى يجنحون إلى تفسيرات اعتمدها يوحنا فم الذهب مثل أن يوحنا البشير عنى بقول " الفصح " كل أيام العيد أو أن يسوع أكل الفصح قبل موعده (كيم ٤٦٤) . المعرب : جاء فى كتاب الأسرار السبعة للاستاذ حبيب جرجس صحيفة ١٢٧ " أن القديس يوحنا ذهبي الفم فى شرحه مت ٢٦ ظن أن فى مساء الخميس بدء الجمعة حينما صنع المسيح عشاء كان قد دخل الفصح اليهودى ولكنه عند شرح انجيل يوحنا غير رأيه بعد أن تحقق . وقال فى شرحه يو ١٨ ما نصه أن المسيح صنع الفصح قبل يوم حافظا ذبيحته فى الجمعة عندما صار الفصح القديم أيضا " .

٢ ـ الساعة التاسعة فى (مت ٢٧ : ٤٦ الخ) أى حوالى الساعة الثالثة التى لا يمكن أن يذبح حمل الفصح فيها وهى حسب الترتيب اليهودى الساعة التى " بين العشاءين " .

٣ ـ راجع سنهدرين . وراجع أيضا " قربة يوم كبير " التى تعنى المساء الذى قبل يوم الكفارة. ويقول سلفادور ومؤلف كتاب " يسوع ها نصرى " ان الرومان هم الذين أتموا الصلب أكثر من اليهود لأن اليهود لا يعملون فى أول يوم عيد فصح . راجع سيب . ولكن التقليد اليهودى نفسه عارض هذا الخاطر الخاطىء .

سابعا ـ لغة بولس الرسول التى ان فسرت على أصلها تدل بوضوح على أن العشاء الأخير لم يكن فصحا ولكن كان ترتيبا خاصا قدر له أن يخلفه (١ كو ٥ : ٧ و ١١ : ٢٣) .

ثامنا ـ لو أن يسوع تناول الفصح فى ذات الليلة التى قبل موته لكان اليهود المتنصرون قد طلبوا إلى المسيحيين حفظ الفصح أيضا وكل التقاليد الموسوية ولوجب أن تحفظه الكنيسة المسيحية لا أقل من الشيعة اليهودية .

فاذ استنتجنا أن الرأى المستق من بشارة يوحنا هو الواقع حرفيا فلنبحث إن كان ممكنا أن نصل إليه من ملاحظات عرضية فى باقي البشائر . وسنجد دلائل عرضية من هذا النوع لا يمكن تجاهلها ولو أن قيمتها تضعف إزاء الاقتباسات اليهودية المتناقضة عما يجب أولا عمله فى أيام الأعياد المقدسة ، فنجد :

١ ـ أن التلاميذ (يو ١٣ : ٢٩) ظنوا أن يهوذا ترك العلية ليشترى الأشياء اللازمة للفصح .

٢ ـ لم يخرج يهوذا فقط ولكن بعده خرج السيد وتلاميذه أيضا وهو أمر يجوز أن تكون قد أباحته العادات الجارية ولكنه بالتأكيد لم يكن متمشيا مع أمر الناموس الدقيق (خر ١٢ : ٢٢) .

٣ ـ استصحب يهوذا طائفة كبيرة فيها كان جزءا منها بعض الضباط اللاويين (لو ٢٢ : ٥٢) وأتى ليلا للقبض على يسوع وهو أمر لا يتفق مع ليل له رهبته وأهميته الخاصة .

٤ ـ لقد انتهى السنهدرين إلى قرار أنه من الخطر ومن عدم السياسة قتل يسوع يوم العيد (مر ١٤ : ٢) فلو أن العشاء الأخير كان فصحا لناقضوا أنفسهم بفعل ما لا يرغبون . أما ان كان العشاء الأخير غير فصح فانا نرى السبب الذى جعلهم يعجلون بالقبض عليه ويسرعون في قتله [1] .

١ ـ من المعقول أن أعضاء السنهدرين الكارهين يمكنهم أن يكسروا قداسة اليوم ويحمون

٥ ـ حقيقة إن هيرودس انتيباس التي القبض على بطرس في «أيام الختير» ولكنه توقى صراحة الحكم عليه بالموت حتى ينتهي الفصح فأجل قصاصه إلى ما بعد العيد (اع ١٢: ٤).

٦ ـ بينما تحدث البشيرون الثلاثة الأول عن الخبز والخمر لم يذكروا أقل اشارة تدل على أن الحمل كان أهم جزء من وليمة العيد (١).

٧ ـ ان حوادث هذا العشاء كما دونها البشيرون الأول تختلف اختلافا كليا عن التقاليد المتبعة في أكل الفصح (٢) مثل خلوها من الاسراع وهو ما يتنافى مع معنى

ذواتهم بعلة ضرورة حماية الدين (قارن رأي الربي عقيبة . السنهدرين ١٠ : ٤) ولكن اللصين لم يجترما خطيئة لاهوتية .

١ ـ ولو أن الحمل كان موجودا في هذا العشاء فان بطرس ، ان لم يكن يسوع نفسه ، كان مضطرا لذبح الحمل في أروقة الهيكل بيديه حسب العوائد اليهودية وينفذ فيه عودا من خشب الرمان ويحمله على كتفه ليشوى بجمانه صحيحا لأن الحملان كانت تذبح على طريقة خاصة قدسية طقسية . فكانوا يسمحون للناس بالدخول إلى الهيكل في جماعات تلو جماعات . وكان الكهنة يقفون صفين طويلين من مدخل الهيكل إلى المذبح وبأيديهم كؤوس من الذهب والفضة يتناولون بها الدم من يد إلى يد حتى تهرق في فتحتين جوار المذبح وفي الوقت ذاته كانوا يرنمون التهاليل وهم يضربون دفعة بالأبواق ودفعة أخرى يدقون الطبول . ومن المستحيل أن يتساهل الكهنة مع أحد في هذا سيما مع هذه البعثة الصغيرة من الجليليين أو يسامحوا الخروج على القاعدة المرعية من الجميع .

٢ ـ مثلا لم تذكر كلمة واحدة عن الحمل ، أو "المازوث" أي الخبز الفطير ، أو "الميروزيم" أي الأعشاب المرة ، أو "الشاروزيث" أو "الهاجادة" أو الأسئلة الخاصة بالفصح ، أو الأربع أو الخمس كؤوس الخمر .

ولقد اعتبر أن كلمة (ورنموا) تعني ترتيل التهاليل كما أن (كأس البركة) ١ كو ١٠ : ١٦ هي "كؤوس هار شاه" غير أن الأمر الأول غير مؤكد والثاني تشبيهي . ولقد دخلت تحويرات وتغييرات كثيرة على الترتيبات القديمة الأصلية وبعد أجيال أجازتها العادات اليهودية . وقد نجمت هذه التغيرات عن الضرورة لأنه بعد خراب أورشليم استحال حفظ الفصح على حسب الترتيبات الموسوية فأصبحت مسألة ثانوية لأهمية التدقيق في مدى الحدود التي لدائرة الأوامر الطقسية ضيقا واتساعا .

ومبنى ولِيمة الفصح .

٨ - وردت تعبيرات عرضية عديدة حفظت لنا بأمانة تدل على أن هذا العشاء قد أكل لأن الفصح القانونى لن يستطاع أكله مثل [ان وقتى قريب] مت ٢٦ : ١٨ كما لو أن هذا كان سببا لتقديم موعد الفصح القانونى . ويبدو شىء من هذا فى التعبير أن المسيح اشتهى أن يأكل الفصح مع تلاميذه قبل أن يتألم سيما اذا اعتبرنا صحة الجملة التى ذكرها هيبوليتى وهى « لن آكل الفصح بعد ذلك » التى إذا اقترنت بما وردت فى لو ٢٢ : ١٦ تكون مثل نبوة أنهم سوف يقتلونه قبل عيد الفصح القانونى . وإذن نستخلص مما سلف جميعه أن العشاء الأخير لم يكن وليمة الفصح . فهذه الوليمة لم يكن لها لزوم بالنسبة للمسيح لأنه كان مزمعا أن يقدم ذاته حمل فصح حقيقى ، ولا بالنسبة للرسل الذين سوف يعتبرون المسيح منذ ذلك الحين أنه فعلا حمل الفصح الحقيقى .

من السهل أن نتصور أنه حتى قبل كتابة البشائر الثلاث الأولى كانت الأذهان قد ربطت العشاء الأخير (الذى أطلق عليه الاسم التشبيهى وهو الفصح) (١) بعشاء الفصح اليهودى خصوصا إن تخيلنا أنه من المحتمل أن يسوع قال كلمات يفهم منها أن السر الذى أسسه سيصبح عيدا جديدا يحل محل الفصح القديم ، وأيضا إن كان اقتراب الفصح القانونى قد سبب رعايتهم لحفظ عادة أو اثنتين وبذلك اصطبغ هذا العشاء الأخير بما يشابه الفصح القانونى . ولقد اعتبر هذا العشاء التذكارى مستقلا عن ضحية الفصح إلى ما بعد خراب أوروشليم . غير أن ما افترضه جروتيوس وهو « أن العشاء الأخير الذى أكله يسوع كان له بعض العلاقة بالفصح القانونى » ليس ببعيد الاحتمال.

---

١ - يقول هيبوليتى " انه لم يأكل الفصح القانونى " ويذكر صراحة أن الكنائس الشرقية تستعمل الفطير لا الخمير فى سر الشركة أى الأفخارستيا كما كانت تفعل الكنائس الغربية حتى القرن التاسع .

وخلاصة القول أنه يبدو لى بعد بحث دقيق متواصل لكثير مما كتبه فى هذا الموضوع عديد من أعظم الشراح وأكثرهم تعمقا أن يسوع قد تناول عشاءه الأخير مع تلاميذه فى عشية يوم الخميس - ١٣ نيسان - الذى حسب التوقيت اليهودى يكون بدء يوم ١٤ نيسان ، وأن هذا العشاء لم يكن ولم يقصد به أن يكون وليمة الفصح القانونى الذى ما كان ولا يجوز أكله حسب الشريعة إلا فى مساء اليوم التالى .

ولكن بتوافق طبيعى عادى فإن هذا العشاء الأخير الذى كان شبه فصح صار فصحا جديدا مسيحيا ، فصحا شابه مثيله الفصح اليهودى فى وجود تذكارات فرح وحزن جعله مفهوما من لغة البشيرين الثلاثة أن العشاء كان كأنه الفصح اليهودى وساد هذا الرأى إلى أن كتب يوحنا البشير بسكون ودقة وتوسع وذكر تفصيلات وافية تدل صراحة على أن هذا العشاء الأخير لم يكن هو وليمة فصح عيد اليهود (١) .

---

١ - لم أذكر شيئا عن تاريخ " مشكلات الفصح " إذ هو غامض ضئيل كما لم أذكر أشياء عن الجدل القائم بين الكنائس الشرقية والغربية عن " موعد عيد الفصح " إذ أنه من المتفق عليه الآن أن ليس له دخل فى المسألة التى نحن بصددها (راجع سنداى وستكوت وكيم) .

المعرب : جاء فى كتاب اللآلىء النفسية الجزء ١ صحيفة ٣٦٢ - ٣٧٠ " فكنيستنا وسائر الكنائس الشرقية الأرثوذكسية تعلم بوجوب استعمال الخبز المختمر وأما الكنيسة البابوية فتقول باستعمال الخبز الفطير . وقد طال الجدال وكثرت المناقشة بين الكنيسة الشرقية والغربية فى هذه المسألة حتى ان علماء كنيستنا والكنائس الشرقية الأخرى لهم مؤلفات خاصة بها لم تبحث فى شىء آخر غيرها ولولا أن كتابنا هذا ليس جدليا لأتينا بالبراهين الكثيرة التى تثبت بها وجوب استعمال الخبز المختمر لا الفطير " وبالتالى أن العشاء الأخير لم يكن الفصح القانونى (وهو رأى مؤلف هذا الكتاب أيضا) .

راجع الفصلين القيمين الواردين فى كتاب الأسرار السبعة للأستاذ حبيب جرجس صحيفة ١٢٦ - ١٤٠ وقوله " وبناء على ذلك تعلم كنيستنا أن المسيح له المجد صنع العشاء الربانى قبل أن يأتى عيد الفصح بيوم كامل " أى مساء الخميس ١٣ نيسان الذى هو بدء الجمعة ١٤ منه لأن اليوم يبتدىء من مساء اليوم الذى قبله ... وعليه يكون السيد له المجد قد تمم سر الأفخارستيا بخبز خمير وقبل أن يبدأ باستعمال الفطير . (ثم أورد البينات القاطعة لاثبات صحة تعليم الكنيسة

التذييل الحادى عشر

صحيفة ٦٩٣

اقتباسات العهد القـديم

موضوع اقتباسات كتاب العهد الجديد من العهد القديم متسع للغاية بحيث لا يمكن إيفاءه حقه فى الحدود الضيقة التى لمثل هذا التذييل . وكل ما أقصده أن أضع تحت نظر القارىء بعض الحقائق التى تدعم التعاليم التى ألمحت إليها أكثر من مرة فى متن الكتاب والتى تبدو لى أنها وحدها كافية لأزالة الصعوبات التى تكتنف هذا الموضوع . والخطوط الرئيسية لهذه الاقتباسات قد درسها وبوبها بعناية فائقة المستر طورني في كتابه « العهد القديم في العهد الجديد » وقد قرر النتائج الهامة التالية :

أنه يوجد فى العهد الجديد خمس وسبعون ومائتا فقرة يمكن أن نعتبرها - كلها عدا نزرا يسيرا منها - اقتباسات من العهد القـديم بلا أدنى نزاع . ومن بينها ثلاث وخمسون فقرة تتفق فيها العبرانية والسبعينية والعهد الجديد أى التى قد نقلت فيها العبرانية حرفيا إلى السبعينية ومن هذه قد اقتبس البشيرون والرسل . وتوجد عشر فقرات إذ كانت مغايرة فى السبعينية عن العبرانية فقد اقتبس العهد الجديد مباشرة من الأصل العبرانى . وتوجد ست وسبعون فقرة اقتبست من السبعينية بتحوير جعلها أقل مطابقة للأصل ، وسبع وثلاثون فقرة اقتبست من السبعينية مع عدم مطابقة

القبطية الأثوذكسية) . ولكن كنيسة رومية ابتدعت منذ الجيل الحادى عشر بدعة جديدة . وقد شرح كثيرون من اللاهوتيين أن الفصح الذى صنعه مخلصنا ليس هو الفصح اليهودى القديم . وجاءت بهذين الفصلين أقوال ثمينة تحل مشكلة الاختلاف الذى يبدو أنه موجود بين أقوال الأربعة بشائر فى هذا الصدد .

السبعينية فيها للأصل العبرانى ، ولا أقل من تسع وتسعين فقرة اختلفت فى العهد الجديد عن الترجمة السبعينية وعن الأصل العبرانى . وهذه التسمية يمكن كتابتها على هيئة جدول كالآتى :

٥٣ قبلت فيها الترجمة السبعينية .

١٠ صححت فيها الترجمة السبعينية .

٣٧ قبلت على علاتها المغايرة من السبعينية .

٧٦ حورت عن السبعينية مع ورودها صحيحة فيها .

٩٩ تختلف فيها العبرانية والسبعينية والعهد الجديد .

ويجب أن نفهم حتى مع التبويب السابق :

١ ـ أن كثيرا جدا من الاختلافات طفيفة للغاية .

٢ ـ كلمة « صحيحة » أو « محورة » تعنى فقط المطابقة الحرفية التامة مع الأصل العبرانى أو الاختلاف عنها . وتوجد عدا ما تقدم ثلاث فقرات (يو ٧ : ٣٨ و يو ٧ : ٤٢ و افسس ٥ : ١٤) يختلف الباحثون فى هل يعتبرونها اقتباسات أم لا .

وأثر هذه النتائج على النظرية العابدة للحرف والتى تقول « بإملاء الوحي » تظهر جليا فى الحال . فما لا يحتاج إلى تبيان انها بينما تترك بدون أى مساس التعليم القائل بنعمة الوحى الألهية واشرافه فانها تبيد من الأساس النظرية الخرافية البعيدة عن روح الكتاب والتى تتمسك بأن كل كلمة وكل حرف فى الكتاب المقدس قد أوحيت بقوة خارقة للطبيعة .

وانى أتريث عند هذه النقطة ـ التي سبق أن أشرت إليها مرارا وتكرارا ـ لأنى أشعر باقتناع عميق أن التمسك بنظرية الوحى الحرفى أولا تتنافى مع الحقائق التى يمكن استنتاجها مع أقوال الرسل والأنبياء . وثانيا أنها تعرض للوقوع فى خطية اقامة حجر عثرة جسيم وخطر فى طريق التقوى الحقيقية والديانة السديدة .

ولقد ذكرت بكامل الوضوح وفائق الاخلاص ما ظهر لى أنه الرأى الوحيد

الحقيق والأرثوذكسي القويم والذي يتمشى مع الكتاب حول موضوع الوحي في نبذات متعددة طبعت في الجزء الأول من كتاب « المعلم الانجيلي » . وإني أحيل أي ناقد لاهوتي تلتبس عليه وجهة نظري إلى هذه الكتابات ، إذ يستحيل على أن أعيد هنا الحجج الكاملة التي أوردتها هنالك والتي تحذر قارىء غير حائز على قسط وافر من العلم الروحي من المهاجمات الجافية لآرائي في هذا الصدد . وليعلموا أن الآراء التي ناصرتها هي أيضاً آراء كثير من اللاهوتيين الأحياء منهم والأموات الذين تلمع أسماؤهم والذين يحترم بحق سلطانهم في الكنيسة الانجليزية . ومن يطالع تفسير المزمور العشرين وتفسير المزمور الثامن والتسعين والمزمور ١١٨ قد يعجب للحرية التي كتبت بها هذه التفاسير وما جاء بها من الآراء المخلصة التي تخزى الذين يتمسكون بنظرية الوحي الحرفي الميكانيكي وللأفكار التي كان يعارضها أمثال أوبجانوس وايرنيموس واغسطينوس وغريغوروس والتي ناصرها القادة المبرزين العلماء أو المصلحين العظماء .

التذييل الثاني عشر

صحيفة ٧٣٢

ملاحظات عن التلمود

لا يمكن تصور أي كتاب غير تاريخي بالمرة مثل التلمود . ولا توجد كتابات بشرية قد خلطت بين الأسماء والتواريخ والحوادث مثل التلمود . كانت مهارة اليهود عكس ما نسميه الآن بالدقة والتحقيق التاريخي . فبتغيير حرف واحد من كلمة واحدة وجد الرومان أنفسهم قد نسخوا إلى الأدوميين . وخلط فاسبسيان مع تيطس وتيطس

مع تراجان ، وتراجان مع هدريان ، وهيرودس مع يانوس . فاذا أتينا لأسماء الحاخاميين نجد جدولا لا يحتمل من الخلط ونفر عديد غير محقق عن أسماء حنان ويشوع وسمعون. أما عن الحوادث ففي لغة أحد المجندين المعجبين « فقد غيرت للبناء وحتى لمجرد زيادة مسرة المستمعين » والتواريخ زركشت وزودت باختراعات وبدع مخيلة شاعرية وغالبا إلى درجة المبالغة لأن الحق والصدق غير جذابين ، فكل شيء مزاد فيه بتوسع . (١)

ويقول حاخام من الذين اسمهم صموئيل « تحتوى أوروشليم على ٢٤ مدينة وكل مدينة لها ٢٤ قسما وكل قسم يحتوى على ٢٤ شارعا وكل شارع الخ ... وأحد أقسام المدينة وهو بيت حبر كان مخصصا للغناء والرقص بينما من أحد الأقسام كانت الدماء تسيل كنهر أربعة وأربعين ميلا حتى تصل إلى البحر » .

أضف إلى هذا معينا كبيرا من الشك وعدم التحقق من القراءات ، وأسلوبا خاصا في غرابته واختصاره، وغموضا في الاشارات العرضية، وابهاما عن قصد أومصطنع في كثير من الأقوال الشفوية للحاخاميين ، فلذا يجب أن يطالع التلمود باحتراس . إنها حقيقة معروفة وليس احتمالا فقط ان كثيرا من القصص الشاذة والتى تبدو غير مألوفة وسخيفة ما هى إلا الستار لحقائق تخفى جبنا أيام الاضطهاد . كان الكتاب اليهود مضطرين للتحرير بابهام وعن طريق الاحاكى كل الأفكار والتعاليم التى لا يجرؤون أن يصرحوا بها ويعلنوها . ومن أمثال هذه الأحجيات قصة عين ابشالوم وقصة عظام جليات الخ .

وقد تساءل كثيرون ومنهم الدكتور دويتش ان كان من العدل أن نحكم على

---

١ ـ جستن وتاريخ دبرنبورج . لكن من العدل أن نقرر أن هذه الأقاويل ومثيلاتها لا يجب أن تؤخذ على علاتها لأنها كعادة الشرقيين السائدة بل يجب أن تفهم على أنها تمثيلية . راجع ريلاند ويقول مايمونيدس " ان لم تجد اللب فدع القشور وتعلم أن تقول لا أستطيع فهم هذا " واليهود أنفسهم يحتقرون كثيرا من الهجادوت أي الأساطير التي يذخر بها التلمود .

التلمود من جمل صغيرة تقتبس بذاتها بعيدة عن المتن . فأجيب أولا ان أى شخص يمكنه الآن أن يفحص مجلدات برمتها من التلمود - المشنة والغمارة - فى ترجمات لا يطعن فى صحتها . وثانيا فان آرائى الخاصة عن التلمود قد كونت بعد درسى أيضا كثيرا من كتاب اليهود مثل مايمونيدس وجراتز وجيجر وجوست ومانك ودرينبورج وشواب وكوهين وفرانكل ورافال وديومش وسلفادور وآخرين ، وكذلك من كتب لاتيفوت وشوتجن وأوتو وسوربنهس وبكستروف وريلاند ووشتين وجفرور واتربدج ويريتز وآخرين . قد بحثت كتب جميع هؤلاء والآراء التى وصلت إليها من هؤلاء الموالين المعجبين بالتعاليم الخامية تضاد رأيهم تماما وهو ما استقيته أيضا من كتابات أيزنمنجر وواجنسيل .

حقيقة يمكن استخلاص بعض الأمثال العالية - (وحتى بعض الأقوال المشابهة لكلمات المسيح) - من التلمود ولكنها مدفونة مثل اللآلىء فى بحر من الغموض والوحل ! وانى أعتقد أنه قد أصبح من غير المجادل فيه - وهو أمر يستطيع تحقيقه أى واحد لنفسه - ان هذه هذه الأمثال والأقوال قليلة للغاية ونادرة جدا سيما إذا قيست بالمجلدات الضخمة التى لهذه الأدبيات القومية المستقاة منها . ثم على أى حال من يستطيع أن يثبت لنا أن هذه الأقوال القليلة قد نطق بها فعلا الحاخاميون الذين تعزى إليهم ؟ من يستطيع أن يقدم لنا أى ظل لبرهان ما على أن هذه الأقوال عندما لا تكون مؤسسة على العهد القديم ما قيلت بغير تأثر مباشر أو غير مباشر من المسيحيين أو الثقافة المسيحية ؟ ثم كم منها لا ارتباط لها بالعهد القديم ! وحتى المستر ديوتش وهو من أشد المعجبين بالتلمود يقول «هذه الأقوال غالبا رقيقة، شعرية، سامية، ولكنها ليست بالجديدة، ولا واحدة منها إلا ولها أصل فى الأسفار القانونية أو غير القانونية التى للعهد القديم » (١) .

---

١ - أحيل المطالع على كتابين من تأليفى وهما " الباحثون عن الله " و " شهادة التاريخ للمسيح " لزيادة الايضاح .

أورد أمثلة من هذه الأقوال التى لها نظائر فى الكتاب المقدس :

مت ٥ : ٩ « أحبوا السلام بأى ثمن » قالها هليل (برك ابهوث ١ : ١٢) قارن مز ١٣٣ .

مت ٥ : ١٠ « تذكر أنه خير أن تضطهد من أن تضطهد » (درش ارتو راب ٢)

« ٥ : ٢٢ « لا تكن غضوبا » (ابهوت ٢ وبسخائيم ٦٧) .

« ٥ : ٢٨ له نظير يطابقه في (ماسيشيث كالاه) .

« ٥ : ٣٩ «إن قال لك رفيقك يا حمار فضع سرجا على ظهرك» (بابها كاه ٨) قارن ٢٨ و ام ٢٠ : ٢٢ و ام ٢٤ : ٢٩ .

مت ٥ : ٤١ و ٦ : ١ - ٤ . « من يعطى احسانا فى الخفاءهوأعظم من موسى نفسه» (شاجيجا !) قارن حكمة ١٩ : ١٥و١٦ و ام ١٩ : ١٧ .

مت ٦ : ٧ « خير أن تنطق صلاة قصيرة باخلاص عن صلاة طويلة بغير حرارة » (شاباث ومناشوث) .

مت ٦ : ٣١ « من عنده كسرة خبز فى سلته ويقول ماذا آكل غدا قليل الايمان» (سوتا ٤٨) وقارن مز ٣٤ : ١٠ و ١٤٧ : ٩ .

هذه الأمثلة يمكن مضاعفتها من مصادر مختلفة ولكنى اخترت أغلبها من كتاب كوهين . فهذا الكاتب اليهودى قدمها كبراهين تنقص من قيمة أولية تعاليم المسيح ولكنها تدل فقط على احتياجه لسعة الاطلاع والثقافة والفطنة لأن « أولية » ابن الله إذا جاز لنا استعمال هذا التعبير تتركز فى أنه خلص وجدد دنيا مائتة فاسدة . تكاتف كل علماء اليهود من سوفريم وتنايم وأمورايم وسيورايم وجونيوم ، من أولهم لآخرهم - بكل تعاليمهم وأوليتهم المزعومة - فلم يستطيعوا أن يتركوا أى تأثير يذكر أو تغيير ملموس .

ولكن من العدل أن نضع نصب عيوننا (١) طبيعة التلمود المتغيرة المختلفة

(٢) وأن أغلبه كان « سجل أحكام » .

أولا : فيما يتعلق بالقطعة الأولى لا أجد خيرا من أن أقتبس ملاحظات المستر ديوتش الذى كان موته المبكر قبل أن يتم عمل حياته وهو كتاب « تاريخ التلمود » مما يؤسف له غاية الأسف . «يقول إن كل الاجتماعات المتعددة التى تطورت مع حياةهذه الأمة العقلية والسياسية والاجتماعية والدينية قد ذكرت هنا . فالبرلمانات ، ومجالس الشورى ، والمحاكم ، والأكاديميات ، والجامعات ، والهيكل ، والمجمع ، وحتى اللوبى والرواق قد تركت فيه أثرا واقعا . ومؤلفو هذا الكتاب ، ويعدون بالمئات، كانوا دائما من أعاظم القوم على مدى الأجيال المتوالية . ولذلك فبدون قصد أظهر ملء حياة هؤلاء الناس وتقدمهم فى كل خطوة » .

ويتكلم عنه فى مكان آخر ويقول « هذه الأكوام من الأعمال القضائية ، والأحلام النهارية المبالغ فيها ، والتاريخ المقنع ، والأباحية التى لم تحسن التخفى ، والبقية ، هى كل ما يتألف منه التلمود والمدارش » (١) .

ثانيا : يجب أن ينظر إلى التلمود على أنه فى الغالب « سجل أحكام » وأقرب كتاب يشابه التلمود عن نحو ما هو كتاب « هانسارد » . فهو مثل هانسارد بمجموعة مشاحنات برلمانية مختلفة وقوائم وأعمال ونسخ قوانين مع هذا الفارق أنه فى كتاب هانسارديبدأ بذكرهذه الموضوعات وينتهى بتقرير الحكم ، أما فى التلمود فيبدأ بتقرير الحكم . وفضلا عن ذلك فان التلمود يشمل إلى جانب الأحكام السياسية والجنائية والدولية والناموس البشرى والألهى تفسيرات كثيرة للنصوص والأحكام غيرمفهومة تماما ، ثم مناظرات واستنتاجات قانونية تسلمت باحترام دينى ـ قليل أو كثير ـ ثم أيضا تقريرات عن التعليم والفنون والعلوم والتاريخ وديانة هذا الشعب لأكثر من ألف سنة .

---

١ ـ ديوتش .

هذا الرأى فى أن التلمود ما هو إلا نوع من الكتب التشريعية يخالف كثيرا رأينا فى قيمته وأهميته . والملاحظات الآتية القيمة، الأولية، التى حبانى بها صديق لى، تضع كل المشاحنات عن التلمود فى ضوء جديد حتى اننى استأذنته فى نشرها هنا.

ان التلمود سجل أحكام لم يفصل فيه بين القانون وبين الأخلاق والدين . وليس هناك شىء غير عادى فى عدم التخصص هذا . وربما نحن غير العاديين لأننا نعيش فى عصر بات فيه اعتبار عدم التخصيص شيئا عاديا .

والغريب انتاج هذا السفر اليهودى الضخم الشبيه بالعلمى فى حقبة ما مع ما يقترن به من تأخر عتيق فى عدم التخصيص الأمر الذى يدهشنا إذا قارناه بسجلات وتطورات الهندوسية .

١ — إذا تذكرنا أن التلمود سجل قضائى فان هذا يفسر لنا فى الحال ندورة وجود الأقوال الأدبية أو الحقائق القيمة . بل من العجب أن نجد فيه شيئا من هذا القبيل ، فكتاب ستاتيوت أكبر حجما من التلمود وأضخم فى قراراته على الأقل ومع ذلك لا يحتوى على أشياء جميلة أو نبيلة إلا فى الأجزاء المهملة المهجورة . ونحن لا نبحث عن مثل هذا هناك ولو أن الثقافة الانجليزية تطورت بمثل اليهودية لكنا نجد الأفكار السامية التى لهوكر وباكون ولا أقول سبنسر وشيكسبير مدفونة فى نحو على نحو وتنسيقها يكون غير مستساغ ، لا على أساس خلوها من الأفكار البارعة، ولكن على أساس عدم ترتيبها .

٢ — هذه النقطة الأولى واضحة . ولكنى لا أستطيع أن أبت برأى فى موضوع خزعبلات الحاخاميين قبل أن أدرس مثيلات التلمود من كتب القوانين . يقول السير ﻫ . ماين إن الأحكام القانونية هى أقدم وأخشن وسيلة لاصلاح القوانين ولو أنها وسيلة عادية .

ليس هناك مثال محكم أو أكثر سخافة من التحايلات التي استخدمها القانون

في هذه المحاكمة فى كل مرة أراد انسان فيها أن يبطل وقفا من زمن ادوارد الرابع إلى سنة ١٨٣٣ فقد قامت قواعد قضائية خيالية قوية جدا حتى لتمنع ما كانت توجب ضرورات الحياة عمله بطريق ما . ولقد صمدت القواعد القانونية اليهودية بشدة أكثر لأنها كانت أيضا قوانين أخلاقية دينية . ولكن المهم هو التأثير السىء على الأخلاق والدين ذاتهما إذ بلا شك قد اصطبغا بالنفاق والرياء . وسبب هذا عدم التفريق بين القانون المدنى وبين القانون الأخلاقي والدينى . واهمال هذه النواحى من البحث يجعل الكتب الحديثة مريبة من بعض الوجوه . كانوا ينظرون إلى الذى حتمته التقاليد القديمة التى فرضتها الرجعية مع القانون وجعلته أن يعتبرها الشىء المهم وفى الوقت ذاته ينظرون إلى الضروريات الاجتماعية التي يوجبها الحكم كأنها شيء سطحى ثانوى وكجزء من الحكم وليس العكس بالعكس ، ويبدو أنهم كانوا يعتقدون أن ما تسجله بنود الحكم هو القانون النافذ الفعلى . وهذان الأمران قلما يتمشيان معا سيما فى قانون كان الغرض منه أن يكون مثاليا تعضده أوروشليم ويدعمه الهيكل .

وحتى عدم تاريخية التلمود نجد لها مثيلا فى بلادنا ، فكتب القانون الانجليزية ومراجع الحقوق تحتوى على عدد من الكتابات التاريخية نقلها كاتب عن آخر يراها مريبة القارىء المدقق . ويقول رودلف فايست صدقا « انه يوجد تاريخ كاذب له أهمية مباشرة عظيمة لطالب الحقوق الانجليزى إذ هو جزء غير قليل من تاريخ القوانين ذاتها » .

٣ ـ فرض الحوادث ـ من الوجهة الأخلاقية ـ شنيع جدا أو على الأقل له أشنع النتائج في مثل هذا الكتاب الذى ينظر إليه كأنه داخل فى دائرة كتب الطب الشرعي . ولكن هذا أقل المستغربات اليهودية .

ليس من الضرر البالغ ـ بل هو أحيانا ضرر لا يمكن اجتنابه ـ أن كان القانون الأخلاقى جزءا من القانون العام ما دامت الظروف فى أوائل التطور إذ فى هذا الدور يكون

القانون مرنا . ولكن عندما يتطور القانون ويرق ويصبح دقيقا فى حذافيره فلا يمكن حشر الأخلاق فيه دون أن تصبح مهددة اطاعة للمنطق إذ تصير فاسدة وقاسية جدا . ولكى تتناسب مع حقائق الحياة يجب أن تكون مرنة جدا . وضرورة هذه المرونة تظهر بجلاء ان أخذنا حكما حاخاميا من الأحكام التى تتقزز منها ونسأل ماذا يعمل مقنن الأخلاق لو سلم هذا للقاضى والجندى لينفذه . راجع حيثيات الحكم في قضية بسكال ضد اسكوبار وآخرين . ان مركز بسكال لا يفهم إلا إذا عرفنا أن المسائل الأخلاقية لا تسير حسب القوانين أبدا . وهنا خطر يقع فيه مفسرو الانجيل وقليلون هم الذين يتوقونه إذ يظهرون المسيح فى مركز المصلح السلبى فقط مثل بسكال بينما عمل المسيح لم يكن سلبيا أو انقلابيا كما يتضح من نتائجه . وكم هو مؤثر قوله أنه لا مكان إلا لمن يزيد برهم عن الكتبة المتحمسين أول كل شىء لاحكام الناموس .

٤ ـ أخطر شىء فى اليهودية من الوجهة العقلية على ما أعتقد ليس هو نتيجة عدم فصل القانون المدنى عن القانون الأخلاقي والدينى . أريد أن أقول إن شبه العلم الذى احتواه التلمود ليس مؤسسا على ضرورات أمور واقعية أو حتى على أمور نحيلة ولكن أيضا على تفسيرات كتابية للقانون المكتوب تجعلهم بمعزل عن كافة ثقافاتهم العقلية (أو كما يقول الحامون تجعلهم خارج أركانها الأربعة) .

وهذا يجعل اليهودية فريدة عن الهندوسية وغيرها فى أوجها وحتى عن الرومان . انما دراسة العصور الوسطى تماثل اليهودية فى عقمها . واحدى باطل أباطيلها كانت الموازنة العددية للحروف .

وفى نظرى أن القارىء لا يلمس شذوذ التلمود إلا إذا وضع نصب عينه أمثال الاعتبارات السالفة . لقد أدلى إيوالد برأيه في التلمود ولكن على غير هذه الطريقة ـ طريقة المقارنة ـ وقال عندما يعطى قانون علوى للحياة وبدون أن يتعب البشر ذواتهم في تفهم أساساته فان البشر تواقون أن يزيدوا فيه إلى فروع دقيقة ولو استطاعوا

أن يظهروه فى الحياة العملية بزيادة أحكام جديدة متعددة لا حصر لها ... ونحن نعلم أن الظروف المماثلة تؤدى دائما إلى نتائج مماثلة . والجهود الدراسية فى العصور الوسطى تماثل تماما دراسات المحاكم البابوية (١) .

يقول رينان (٢) إن خير الرجال هم الاسرائيليون وأحط الرجال هم الاسرائيليون أيضا . هم فصيلة غريبة حقا أنتجت فرعين من أصل واحد : الكنيسة الجديدة والتعصب المفترس الذى لأمثال يوحنا الجسكله . فعندما فصل الأنجيل عن التلمود أثارت هذه العملية السرية هذيانا من الحمى لم يحدث مثله قط . وهذا القول قابل للنقد .

التذييل الثالث عشر

صحيفة ٧٣٦

السنهدرين

يعزو اليهود المتمسكين أصل السنهدرين إلى موسى (خر ١٨ : ٢٤-٢٦) ، ويقولون ان أعضاء السنهدرين يماثلون « شيوخ اسرائيل » الوارد ذكرهم فى (حز ٨ : ١١ و ١٢) « وشيوخ اليهود » فى أيام داريوس الملك (عزرا ٦ : ٨) (٣) ، بل إن

---

١ - ابوالد صحيفة ١٩٦ لقد سبق أن توصلت إلى هذا الرأى فى كتاب "جند المسيح" بدون علمى أن سبقنى إليه آخر .

٢ - وقال فى مكان آخر يمكن أن يقال ان هذه الطائفة أخير الخير وأشر الشر فالاسرائيلى الحقيق عظيم والاسرائيلى الشرير كأنه محتقر مكروه . ان المقطعات التى ذكرها يوسيفوس هى حقائق عن ذات الأرض وذات الرجال وذات الوقت الذى فيه بزغت أنوار وأغراض الانجيل .

٣ - راجع تاريخ اليهود لرافار .

بعضهم يرى أصلا للسنهدرين فى المحاكم التي أسسها يهوشافاط (٢ أى١٩ : ٨ - ١١) (١).

كان السنهدرين خلف « المجمع الأعظم » الذى اندثر بموت آخر أعضائه سمعان العادل . وجاء فى سفر المكابيين الأول ١٤ : ٢٨ أن المجمع الذى منح السلطة العليا لسمعون أبو يوحنا هيركانوس دعى « المحفل العظيم للكهنة والشعب وحكام الأمة وشيوخ البلاد التى هى بالعبرية كنيسة دروشي وابهوت وزكاين ها آرتز » .

ويظهر من المسكوكات أن عضو السنهدرين كان (وقد ذكر عن أعضائه كثير فى مر ١٥ : ١) يدعى « شبهر » أو « نائب اليهود » . وكان يشمل الفريسيين والصدوقيين . وقد صار يوحنا هلالينيا وصدوقيا وكان أول من سك على العملة حروفا يونانية وبعد نهاية عام خلفه اسكندر يانوس الذى تشاجر بعنف مع الفريسيين ولكنه وهو على فراش الموت أوصى زوجته سالومة اسكندره أن تثق بالفريسي الحق وتتجنب الفريسي المزيف المطلى . ولقد منحتهم سالوى فى مدة حكمها امتيازات عدة لمدة تسع سنوات حتى أنهم تجاسروا أن يستدعوا ابنها هيركانوس الثانى أمام مجلسهم ليحاكموه وفى هذه المناسبة سمعت لأول مرة كلمة السنهدرين . ومع أن التلمود يتحدث عن سنهدرين فى أيام موسى (بكستروف) فلا شك أن السنهدرين لم يكن إلا بعد حكم الأزمونيين بل فى الحقيقة حتى أيام ياسون الهلليني ما كان ممكنا أن تتخذ هذه الكلمة اليونانية بدل الكلمة الأصلية « بيت الدين » أى (دار الحكمة) أو (كنيسيت هاجودولا) أي (المجمع العظيم) .

وجاء فى المشنة ذكر نوعين من السنهدرين أولهما الاقليمى وأعضاؤه خمسة أو سبعة ، وثانيهما السنهدرين الأعظم وأعضاؤه واحد وسبعون ، وناصحهم وأبو بيت الدين وهذان العضوان الممتازان يعتبران كأنهما ممثلان (الزوجوث القديمة) أى (الزوجان)

---

١ - كتاب فلسطين لوتك . وراجع أيضا ريلاند .

اللذان بدورهما يمثلان (اشكولوث) أى عنقود العنب . والناصح الأول فى حكم هيركانوس الثانى يقال أنه كان يشوع بن براخيا . وأول بيت الدين هو نثاى الذى من أرابلا .

يقال انه كان يجلس فى الهيكل ثلاثة سنهدرينات أو ربما يجب أن أسمي اثنين منهما (لجنتين) من السنهدرين ، كل منهما له ثلاثة وعشرون عضوا . أما السنهدرين الأعظم فكان يجتمع أعضاؤه الواحد والسبعون فى لشيكاث هجازيت . وكانت تجتمع إحدى لجانه فى حجرة (شيل) أى في المكان الواقع ما بين رواقي الأمم والنساء . وتجتمع لجنة أخرى عند بوابة (هارهآبيث) أو جبل الهيكل . وظن ديرنبورج ، وربما ظنه محتمل ، أن السنهدرين الأعظم هو اجتماع اللجان الثلاث الصغري (٢٣ × ٣ + ٢) والعضوان الممتازان ، وأن هذه اللجان الثلاث تتألف من (١) الكهنة (٢) اللاويين (٣) النبلاء أى السوفريم والتنايم الخ [١] . فان كان هذا الظن في محله فان السيد حوكم المحاكمات الثلاث أمام كل قسم من السنهدرين . أو ان كانت المحاكمة أمام حنان غير قانونية ولا قضائية فتكون المحاكمة أمام قيافا هى القسم الثالث الذى يجتمع فى ايوان جبل الهيكل . وربما يدعم هذا الرأى ما ورد فى مت ٢٦ : ٥٧ « الكتبة والشيوخ » « أى النبلاء أو السوفريم والزكانيم » وهو يختلف عن « رؤساء الكهنة والشيوخ » أى السنهدرين الأعظم . مت ٢٧ : ١ .

ولكن لا يجب أن يغيب عن البال أن السنهدرين الذى قضى على السيد كان نوعا من المجتمع الخليط . عندما رفض السنهدرين مجتمعا ما ادعاه هيرودس ارتكانا على ما في تث ١٧ : ١٥ فالتلمود (بابها باترا ٥٣) يقول إنه اباده جميعا عدا بابها بن بوطا الذي

---

١ - لقد لخصت هذه عن الحقائق الواردة فى تاريخ بال . راجع إيوالد الذى يقول " ان كثيرا مما نخبر عنه فى التلمود أو الكتب المتأخرة عنه بخصوص السنهدرين زاخر بنقص روح التاريخ الأمر الذى يميز كل الكتابات اليهودية فى العصور الوسطى .

قلع عينيه ، وأن اعادة بناء الهيكل قد تم بناء على نصيحة من بقى حيا كى يكفر عن فظاعته (١) .

ومهما كانت الظروف فان هيرودس بعد قتل انتيجونوس قد فرض على السنهدرين انتقاما ذريعا أحوجهم إلى وقت طويل للرجوع إلى الحالة الأصلية . وانه بعد ذلك بقليل كان يفرض عليهم رئاسة الكهنوت من صنائعه من أصل مصرى أو بابلى مثل سمعون وبوآزار البوطيين من الاسكندرية وحنانيل بابليا مجهولا (يوسيفوس). الذى ربما يكون هو حنان المذكور فى الانجيل . ويبدو أنه لوقت ما قد تعطل السنهدرين وحولت اختصاصاته إلى مجلس خاص عينه هيرودس من مريديه (يوسيفوس) ربما منحت كرامة الطوائف الرسمية شيئا من الكرامة لهذا المجلس ، ولكن لنا من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن الفريسيين - وهنا نقصد من هذا اللقب الرؤساء القادة - لم يكن لهم نصيب لا فى تأليفه ولا فى إجراءاته بل تركوه للمجهولين أمثال مبنى بيت هيرا (٢) وللبوطيين والحنانيين والكانيثراس والكامهيتس والقانبس وأتباعهم .

أما دورات انعقاد السنهدرين التي ذكرها يوسيفوس فى ذلك الحين فهى مختصرة ناقصة كاجتماعات خاصة لأن الهيروديين والرومان قد اتفقا على أن يبطلا المجلس القديم المستقل (٣) .

حقيقة إن هلليل بعد أن تغلب على الادعاءات الكهنوتية لبنى بيت هيرا مستعينا باقتباسات من شماى وابتاليون قد أقيم ناصحا . ولكن ديرنبورج يميل إلى الشك فى هذه الرواية ويفرق بين رئاسة المدارس ورئاسة المجالس (٤) . على أى حال لو كان هلليل

---

١ - يذكر يوسيفوس مذبحة الفريسيين .

٢ - مسألة التشاجر مع هليل المعروفة هو مثل آخر من كره الرؤساء للكهنة .

٣ - جوستان .

٤ - الناصح هو اللقب الذى يمنح عادة لكل رئيس قبيلة (عدد ٣ : ٢٤ و ١٦ : ١ و ٢) ودعى فى عدد ٣ : ٣٢ ناصح العظماء أو (رئيس الرؤساء) .

قد عين ناصحا للسنهدرين فان عمله السياسي لا بد أن يكون مدهشا فى ندورته حتى انه من غير المحقق إن كان يوسيفوس قد ذكر عنه شيئا أو لم يذكر .

ومن المؤكد أنه فى وقت محاكمة السيد كان هلليل وشماى (١) قد ماتا ولم يتركا خلفا لهما له شيء من عظمتهما . حقيقة نسمع عن سمعون ولد هلليل ولكن الأثر الباقي المحفوظ عنه هو هذا القول فقط « لا شيء أبلغ من الصمت » .

التذييل الرابع عشر

صحيفة ٧٣٦

الصدوقيون والفريسيون

أصل هذين الاسمين ما زال خافيا . كل ما هو معروف أن الفريسيين هم الخلف السياسى من الشازيديم (١ مكا ٢ : ٤٢ و ٧ : ١٣) . وكانوا الشيعة الوطنية الجريئة . بينما كان الصدوقيون الشيعة الكهنوتية الأرستقراطية . وكانوا دائما يحالفون السلطة الحاكمة حتى فى الأوقات التى كانت هذه السلطة مضادة للوطنية فى أغراضها .

ويظن ديربورج وهو الذى درس هذين اللقبين دراسة وافية أنه فى المدة التى أعقبت حكومة السيليوسيد . وانتشر جنون اليونانية بين اليهود ولا سيما تحت تأثير « الشريرين غير الألهيين منيلادس والكيموس » . فالشيعة التى شعرت أنه من الضرورى حماية حفظ الناموس حفظا دقيقا بسياج محكم وابتدأوا يحتمون للوصول إلى هذا منع كل زيجة مع الوثنيين ولذلك دعوا بالعبرانية « بيرشوث » وهو اسم لا

١ - قد أبدل جوسيبون اسمى هلليل وشماى إلى اسمى بوليو وساماياس .

يدل على لونهم السياسي أو تفردهم الدنيوى (يوسيفوس) ٢ مكا ١٤ : ٣ .

ولم يتبع الأزمونيون ولا شيعتهم التعاليم، أى الدكاترة ،فى هذه الآراء التى اعتبروها متطرفة مبالغا فيها . ولكنهم أرضوا ذواتهم واكتفوا بالطاعة الاعتيادية للناموس المكتوب فقط والذى ما كان يتعارض مع الاتجاهات الهلينية . ولذلك دعوا « بسيداكاه» أو ذوى البر (قارن ام ١٦ : ٣١) وهو اسم سهل انتشاره لأن اسماً آخر أزمونيا عظيما وصالحا وهو سمعون كان هاتستاك أى العادل .

ولكن الألقاب التى تدل على الميول أو الدوافع سريعا ما تتطور . وهكذا تبدلت كلمة « الباوركيم » أى الفريسيين والتسيداكيم أي الصدوقيين لتصف على التوالى شيعة الحاخاميين الذين كانت ميولهم وطنية شعبية ، وشيعة الكهنة التى كانت أرستقراطية محافظة [١] اع ٥ : ١٧ . ولم ترتض إحدى الشيعتين أسماء صار لها رويدا رويدا سمة الاهانة والقذف .

وفى زمن السيد أصبح تدريجيا لهذين الاسمين دلالة على الاختلافات الدينية والسياسية . ويمكن أن نقول باختصار ان الصدوقيين شعبيون أما الفريسيين فطائفيون . ومع أن هذه الأسماء غير محددة تماما إلا أنها تعطى على العموم فكرة صحيحة عن مركز الشيعتين .

ولكن جيجر وهو أول من وضع كلا من هاتين الشيعتين فى مكانها له رأى مخالف عن أصلها . يقول إن كلمة الصدوقيين مشتقة من زادوك سليل فنحاس الذى مارس الكهنوت حتى انتهى نسل أولاد هارون وجاء مكانهم أولا ماتاثياس الذى هو من نسل عائلة كهنوتية غير شهيرة وهى أسرة جوآريب (٢) . ولكن

---

١ - يوسيفوس "ان الانتساب للكهنوت كان العلامة الوحيدة للنبل اليهودى .

٢ - يقول جيجر إن قصة أصلهم من صادوق تلميذ انتيمجونس الذى غالى فى تعاليم سيده ان الناس يجب أن يخدموا الله دون نظر إلى المكافأة ليست موجودة فى المشنة ولا فى التلمود

الصدوقيين استمروا يناصرون السلطة الجديدة بينما الفريسيون الذين ورثوا آراء المعتزلين (نبيد اليم) الذين يفرزون أنفسهم عن قذارة الأمم الوثنية (عز ٦ : ٢١) قاوموا هذه الادعاءات واغتصبوا سلطان الطبقة الممتازة. وصعوبة الأخذ بهذا الرأى تنحصر فى أن يوسيفوس لم يذكر عنه شيئا كما أن سفر المكابيين لم يذكر عنه شيئا أيضا.

ومع وجود اسم الفريسيين مرارا عديدة فى البشائر ولكن يظهر أن أولئك القوم دعوا أنفسهم بأسماء أخرى يفضلونها مثل « السوفريم » أى الكتبة و « تلميدى شكاييم » أى تلاميذ الحكماء و « الشابهيريم » أى الأحرار. وفى أجزاء مختلفة من التلمود أطلق عليهم « طاعون الفريسيين ». وفى احدى هذه المواضع ضموا مع مع المكروهين أى مع « الجهلة الممعنين فى الجهل » و « الخطاة الماكرين » والنساء الفاجرات. ولكن بالتأكيد كان هناك فريسيون صالحون كما كان هناك فريسيون طالحون. وبينما يعترف الكتاب اليهود أنفسهم « أن التهم التى وجهها إليهم مؤسس المسيحية يقرها ما جاء فى التلمود فان هؤلاء كانوا المرائين الذين أسماهم اسكندر يانوس بالفريسيين الكاذبين المائتين المطليين ». ولكنا نأمل أن نيقوديموس وغمالائيل لم يكونا المثلين الوحيدين من طبقة الفريسيين النبلاء.

أما الصدوقيون فقلما ذكروا فى البشائر لأنه مع فقدانهم السلطة الزمنية فانهم فقدوا وجودهم كطائفة مع أن كثيرا من آرائهم المخلدة قد أحياها حنان مجهول وما زالت حية عند القرائين.

إن غنى ومركز وعلاقات ووظائف الصدوقيين أعطتهم سيطرة وتأثيرا مدنيا

ولكن ذكرت لأول مرة فى كتاب الحاخام ناثان. ويظن انتيفانوس أن الاسم مشتق من "العديلة" ولكن يثبت السؤال لماذا اشتق تسدوكيم وليس من "تسديكيم". ويقول كوستر دون باقى الباحثين ان الترجمة لكلمة "ستوبكس". وهذا رأى لا يستحق حتى الدحض.

عظيما ولكن في الأمور التقليدية والدينية ، فان الشعب كان دائما فى صف الدكاترة أو الفريسيين حتى أن الصدوقيين كانوا يضطرون أحيانا رغم أنفهم وضد مبادئهم أن يوافقوهم . وهذا ما يقره يوسيفوس صراحة ويدعمه التلمود . قال أحد البوثيوسيان لأبيه الكاهن « إنك طيلة حياتك تعلم ولا تعمل » وكانت اجابته اعترافا محـــزنا « اننا لا نستطيع أن نمارس تعاليمنا بل اننا نضطر أن نمالىء الفريسيين » . والمظنون أن الكاهن وابنه فى هذه القصة هما حنان (أو اناس المذكور فى البشائر) وابنه حنان الصغير الذى رسمه يوسيفوس بألوان لا يحسد عليها كقاتل يعقوب أخا الرب .

وهنا قصة حاخامية مدهشة تظهر نقص تأثيرهم الأخلاق على الشعب فى يوم الكفارة العظيم . كان رئيس الكهنة خارجا من الهيكل تتبعه الجموع وفجأة شاهد الناس شماى وابتاليون « عظيمى هذه الأيام » سائرين وسط الجمهور دون أن تعرفهما . ففى الحال تركوا رئيس الكهنة وساروا فى ركاب الفريسيين وحياهما رئيس الكهنـة وفى نفسه مرارة قائلا « السلام لرجال الشعب الذين يعملون أعمال هرون ولا سلام لأولاد هرون الذين لا يعملون أعمال هرون » .

ومع أن ما كتبه يوسيفوس عن هاتين الشيعتين لا يعتمد عليه وغالبا قد استعاره من نيقولاوس الدمشق ذاته بالتأكيد مصيب فى قوله « انه رغما عن مركز الصدوقيين لم يكن لهم أى احترام حقيقى عند الشعب » . ويقول أيضا « قد يجوز أن يكون لهم تأثير عند الأغنياء ولكن ليس لهم من يتبعهم من الجمـــاهير بينما الفريسيون يحالفهم الشعب » .

لقد وصفت الصدوقيين مرارا عديدة بأنهم « ماديون » وأنهم « دنيويون » ويبرر وصفى لهم ما كانوا يبدون من العظمة التي كانوا يظهرونها بأكلهم فى صحاف من الذهب والفضة وبطلبهم بائنة مضاعفة لكل بنت تتزوج كاهنا (١) وبالطمع الذى كان يحدو

١ - فى هذه الجملة ما يدل على تسرب نظرية الأبيقوريين .

بهم أن يثروا على حساب الشعب . وبهذه المناسبة الأخيرة تحكى قصتان .

أولاهما عن مشاحنة حدثت بينهم وبين الفريسيين عن توريد الضحايا اللازمة للذبيحة اليومية إذ كان الفريسيون يقولون ـ ومعهم حق ـ انه يجب أن تشترى من صندوق مال الهيكل . ولكن إذ كان الصدوقيون يعتبرون مال الهيكل لهم كانوا يريدون أن تشترى الذبائح باكتتابات بعيدة عن الصندوق . كذلك أفتى الصدوقيون للكهنة أى لأنفسهم أخذ ذبيحة التقدمات التى كان الفريسيون يوجبون حرقها على المذبح . وقد ربح الفريسيون المعركة وقرروا عيدين تخليدا لهذا النصر المزدوج . وعليه كان الفريسيون والصدوقيون على طرفى نقيض نتيجة أخطائهم المتضاربة .

والحكاية الثانية أنهم إذ كانو يبيعون الحمام فى « الشانوجوث » فقد ضاعفوا المناسبات التى يجب أن يقدم فيها الحمام ذبيحة حتى وصل سعر الحمامة الواحدة إلى قطعة ذهبية . وحينئذ قال الربى سمعان بن غمالائيل « أقسم بالهيكل انى لن أنام حتى أخفض سعر الحمامة إلى دينار » فأشار بانقاص المناسبات التى يضحى فيها الحمام حتى وصل سعر الحمامة إلى ربع دينار (١) . وكانت هذه الحوانيت تدعى « حوانيت أولاد حنان » وقد ألمح التلمود إلى التلاعب وعدم الأمانة فى ادارتها (٢) .

أما القاعدة المثلى فى حياة الصدوقيين السياسية فكانت « الهدوء » حتى على حساب مصالح الوطن والوطنية . فلا عجب إن كرهت شيعة الكهنة ونظر إليها بارتياب . لأنه من أيام هيركانوس وأرسطوبولوس كانت هناك أسباب تشكك الشعب منهم ورميهم بأنهم يريدون قلب حكومة أمتهم كى يستعبدوهم .

وقد وصف يوسيفوس المشاحنة التى حدثت بين يوحنا هيركانوس وبين الفريسيين وقال إن الفارق الكبير بين هاتين الشيعتين تتركز فى أن الفريسيين يقبلون الناموس

---

١ ـ مجلة طانيت . وأمروا أيضا أن ضريبة الهيكل تقبل فى محفل وبأبهة عظيمة .

٢ ـ التلمود ..

الشفوى وتعاليم الشيوخ بينما يرفض ذلك الصدوقيون ومع أن هذا القول كاسح إلا أنه مؤسس على حقيقة ثابتة .

وقد بحث إيوالد فى كتابه « تاريخ شعب اسرائل » مسألة الصدوقيين والفريسيين. ويلاحظ كيف أن الفريسيين اضطروا أن يشجعوا ويحموا الرياء ويمتهنون كل تقوى حقيقية ، أولا لأن هذا من خلق ونظم اللاويين ، وثانيا لأنهم كانوا مدفوعين بعوامل الطمع ، وثالثا لمعاداتهم العنيفة ومضادتهم للصدوقيين . وإذ كانوا يريدون أن يجنوا الامتيازات التى وصلت إليهم عن طريق الاصلاح والتجديد الأزمونى للتقوى الشعبية ، فتحت تأثير الطمع ومساقين أيضا عن قصد بمنافعهم الخاصة أبدلوا التقوي إلى نوع من الحرف أو التجارة ليبقوا على سلطانهم .

وبعد أن لاحظ أيضا أن كل ما نعلمه عن الصدوقيين قد جاءنا عن طريق ألد أعدائهم يقول « كانت مدرسة حرية الحياة والفكر والعمل ولكنها حرية نبتت من العصر اليونانى بكل مفاسده الثقيلة والتى كانت تمت إليها وتحسب مقبولة منها » . ولكن كان للصدوقيين منفعة واحدة كبيرة على الأقل وهى تعويض جمود وضيق فكر شيعة الفريسيين . ولكنهم فى محاربتهم لهذا التمسك الضار من شيعة الفريسيين قد قصروا عن أن يتفهموا العلة الأساسية التى كانت فى ذلك الزمن تنخر فى دنيا اليهود والأمم على السواء .

ويلاحظ إيوالد أيضا منتقدا الكتابات التى ذكرها يوسيفوس عن هاتين الشيعتين ويقول انها مختصرة عادية وخالية من المعرفة الحقة . ويقول أيضا بقسوة عن جوست وجراتز وجيجر « إن آراءهم لا أساس لها لأنهم فى داخليتهم فريسيون ولا يريدون أن يكونوا شيئا غير ذلك » .

التزييل الخامس عشر

صحيفة ٦٩٣

الاقوال التى يعزوها التقايد للمسيح

الأقوال الأبوكريفية التى للمسيح ، أى الأقوال التى عزاها الكتاب الأولون وغير المدونة فى العهد الجديد (١) ، قد جمعها ورتبها البروفسور وستكوت فى كتابه «مقدمة الانجيل» بكل ما يشهد له به من مقدرة وتدقيق . ولكن لا أقتبس هنا إلا المشهور منها أو التى لا تخالف أقواله المدونة محيلا من يلذ له الموضوع على كتابى وستكوت وهوفان :

(١) الحكاية الشهيرة التى تضاف بعد لوقا ٦ : ٥ .

(٢) القول المضاف بعد مت ٢٠ : ٢٨ « ولكنكم تطلبون من القليل أن يزداد . ومن الكثير أن يقل » (نسخة د) .

(٣) « اجعلوا من أنفسكم صيارف مدربين » (عن ابيفانوس) .

(٤) « من يصمت يسود ومن يسود يرتاح فانظر بصمت لما هو أمامك » (عن كليمنضس الاسكندرى) .

(٥) « من هو قريب منى قريب من النار ومن هو بعيد عنى بعيد عن الملكوت (عن أوريجانوس) .

(٦) « احفظ جسدك طاهرا وختمك بلا دنس » (عن كليمنضس الرومانى) .

(٧) « كنت للمريض مريضا . وجعت من أجل الجياع . وعطشت من أجل

---

١ - مثل ما جاء فى اع ٢٠ : ٣٥ .

العطشى » (عن أوريجانوس) .

(٨) « فى الحالة التى أجدك فيها أدنيك » (عن جوستان مارتر) .

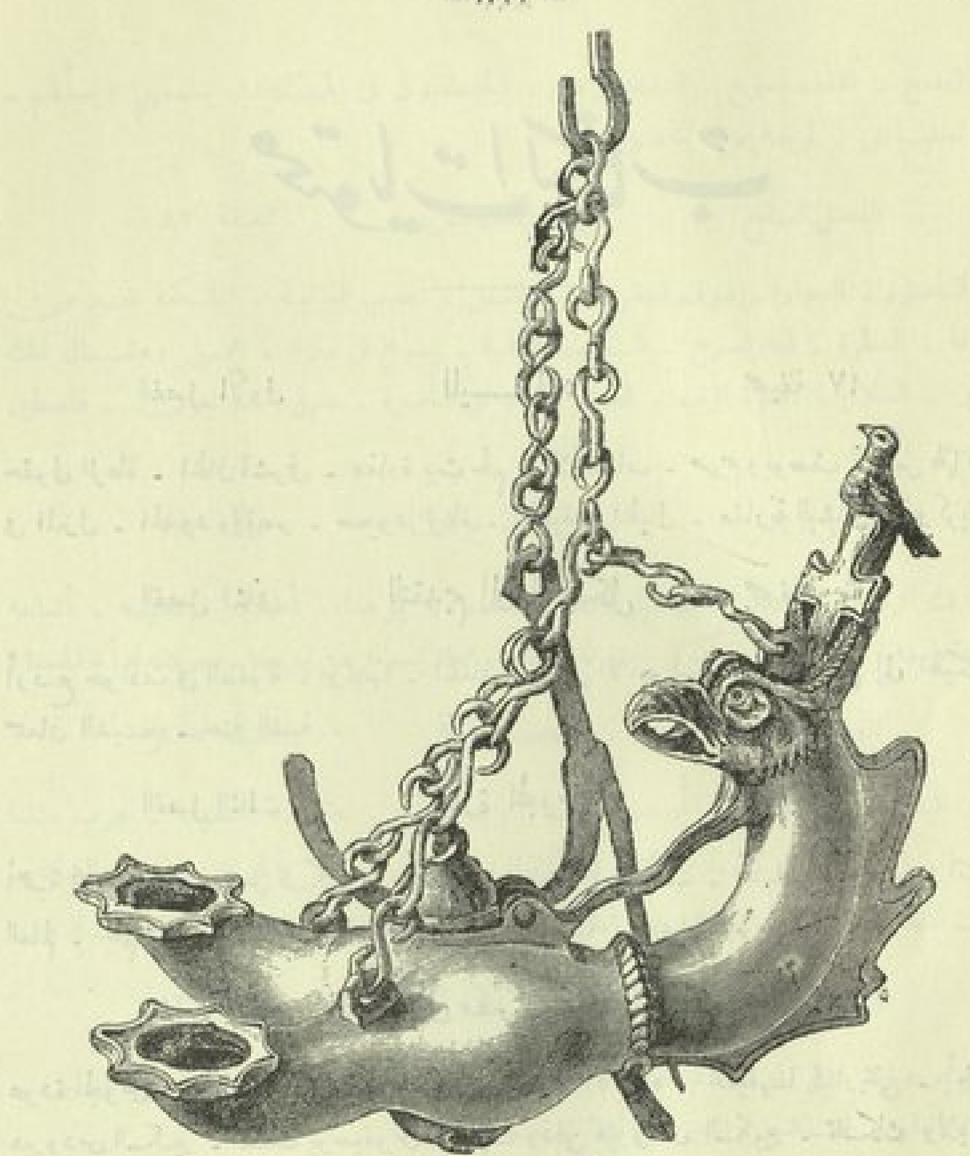
(٩) « لا تسر ما لم تنظر إلى أخيك بمحبة » (عن تفسير جير لأفسس ٥ : ٣) .

هذه هى أهم تلك الأقوال عدا واحد أو اثنين قد أشير إليهما فى متن الكتاب . أما الأقوال الباقية فبعضها لا تتفق أبدا مع ما نطق به السيد . وقد نبتت من رغبة فى الالتجاء لسلطانه لتدعيم مبادىء كاذبة أو مبالغ فيها .

وبعض ما ذكر فى الكتب الشرقية عن المسيح يسترعى اهتماما ، فمثلا كتب عنه أن يسوع بن مريم قال (الذى يتطلب الغنى مثل رجل يشرب من الماء الملح كلما شرب منه كلما ازداد عطشا ولا ينقطع عن الشرب حتى يهلك) . وكتب عنه أيضا أنه قال (الدنيا مثل امرأة غاشة عندما سئلت كم عدد أزواجها أجابت كثيرون جدا حتى لأعجز عن عدهم) . فقال لها يسوع : (وهل نفضوا أيديهم منك عندما ماتوا ؟) فأجابت (على العكس لقد قتلتهم وتخلصت منهم) . وحينئذ قال يسوع : (عجبا كيف لم يكن لمتأخريهم شيء من الحكمة عندما رأوا كيف عاملت متقدميهم بل تحرقوا بشوق إليك ولم يتحذروا لأنفسهم بعد أن أبصروا ما حاق بسالفيهم)

راجع قصصا أخرى فى هوفمان . ويمكن كتابة فصل ممتع عن المسيح مما ورد فى الكتب الاسلامية . وفى القرآن ذاته ذكر اسمه مرات عديدة مع أسماء باقي الأنبياء . ولكن الالماحات الخاصة به ليست بالكثيرة .





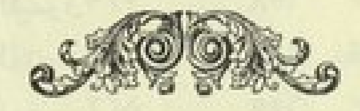
مشكاة رونزية أثرية

هذه الحلية الخشبية صورة طبق الأصل من مشكاة برونزية وجدت فى سراقوصة سنة ١٨٧٠ وتحوي كنوزا عجيبة من الرموز ، فجسم المشكاة عبارة عن مثال "للحية القديمة" رمز الجهل والخطيئة . ويد المشكاة اتخذت من رأس الحية التى طعنت بسيف على شكل الصليب تعلوه حمامة ومكان الطعنة يخرج منه منفذ للخزان المتوسط به المادة اللازمة لأنارة مصباحين فى طرف المشكاة. ورمز المشكاة من الرأس إلى الذنب "للناموس الأقدس" وموت الحية برمز لوسيلة "نور العالم". ويقال إن الفاتيكان يملك نسخة أخرى من هذه التحفة الغريبة للفن المسيحى والتى يرجع تاريخها إلى ما قبل الجيل السادس تقريبا .

محتويات الكتاب

جدول الصور

صور أماكن الأراضي المقدسة وعادات أهلها أخذها المستر ف. ماسون جود الذي سافر إلى فلسطين خصيصا لهذا الغرض . وصور النقود والجواهر والأوبات رسمت تحت اشراف القس س. س. لويس (الحائز لشهادتى الزمالة فى الفنون وعضوية الكلية الملوكية للعمار وزميل كلية الأخوة المسيحية بكمبردج والعضو المراسل لجمعيات الفنون بباريس وبرلين) .



جدول المراجع

مع عدم استطاعتى أن يشمل هذا الجدول كل المراجع اختصر على ذكر أسماء الكتب والمطبوعات التى كثر الاقتباس منها فى اعداد هذا الكتاب .

اكرمان: استكشاف العهد الجديد مطبوع سنة ١٨٤٦

الفورد : العهد الجديد باليونانية سنة ١٨٥٤

اندروز: حياة السيد من الكتاب « ١٨٦٧

بنجل : جنوسون الطبعة الثانية « ١٧٥٩

بحث : معلم الكتاب المقدس « ١٨٧٤

بلومفيلد: الكتاب المقدس فى اليونانية سنة ١٨٥٠

بونافنتيورا : حياة المسيح

براون : أوردو سيلوروم لندن سنة ١٨٤٤

براونج : موت فى الصحراء

بروس : اعداد الاثنى عشر

بوديوس : الفلسفة العبرية سنة ١٧٢٠

بوتسفورد : تعاليم التلمود

بوتسفورد : المجمع اليهودى مطبوع سنة ١٦٦١

كابيسلازوا : حياة يسوع المسيح « ١٨٦٨

كاسبارى : جغرافية وحوادث حياة يسوع « ١٨٧٢

كوهين : الأحكام لندن سنة ١٨٧٢

كوبر : الأناجيل الأبوكريفية

دافيدسون : مقدمة للعهد الجديد سنة ١٨٦٨

ديلتش : يسوع وهليل ارلانجن « ١٨٦٧

ديبرزنيس : يسوع المسيح

ديرنبورج : تاريخ فلسطين والتلمود سنة ١٨٦٧

دسولسى : تاريخ هيرودس باريس « ١٨٧٢

ديوتش : الآثار الأدبية فى التلمود « ١٨٧٤

ديكسون : الأراضى المقدسة جزءان « ١٨٧٤

دولنجر : اليهودى والأممى جزءان

« : الجيل الأول للكنيسة لندن سنة ١٨٦٧

دوبانلوب : تاريخ مخلصنا يسوع المسيح « ١٨٧٠

ابرارد : تاريخ الأنجيل فى أدنبره « ١٨٦٩

إككوهومو : سنة ١٨٦٧

اليكوت: (الاسقف اليكوت) المحاضرات التاريخية فى حياة سيدنا يسوع المسيح لندن سنة ١٨٦٩

ايتربدج : مبحث فى الادب العبرى « ١٨٥٨

ايوالد : حياة المسيح واسرائيل « ١٨٦٧

فرانكل : يهود الشرق لندن « ١٨٥٩

جوسين : ثيوبيوزا و لندن « ١٨٦٦

جرفردور : جاهر ومدى « ١٨٣٨

جلاس : الحجة المقدسة امستردام « ١٦٩٤

جراتز : تاريخ اليهود

جرودر : الملك هيرودس الكبير

جوزوت : تأملات فى روح المسيحية

هانا : (الدكتور هانا) حياة يسوع سنة ١٨٦٩

هانسن : (السير هانسون) يسوع فى التاريخ ١٨٦٩

هيس : تاريخ يسوع ليبزج سنة ١٨٦٧

هارفى: (اسقف باث) جدول أنساب السيد « ١٨٥٣

هيرزفيلد : تاريخ شعب اسرائيل

هرزوج : انسكلوبيديا بومبرجير سنة ١٨٦٠

هيلجنفيلد : المسيا ليبزج « ١٨٦٩

هوفان : حياة يسوع فى الابوكريفا « ١٨٥١

جان : الدولة العبرية لندن سنة ١٨٢٨
« : الفن المعماري في لانجيل اكسفورد « ١٨٣٦
بوصيفوس : الآثار اليهودية والتواريخ اليهودية
الخ طبعة ريشتر سنة ١٨٢٦ وترجمة ويتسون
جوست : تاريخ اليهودية
" من كلامه يحكم عليه "
كيم : تاريخ يسوع الناصري سنة ١٨٦٧
كتيو : معلمة الانجيل في أدنبره « ١٨٦٤
لانج : تاريخ يسوع ستة أجزاء « ١٨٦٤
لاتيفوت : تاريخ العبرانيين في كانتاب سنة ١٦٥٨
« : بحث العهد الجديد
لينش : استكشاف الأردن والبحر الميت « ١٨٤٩
مادن : تاريخ العملة اليهودية في لندن « ١٨٦٤
موريس : وحدانية العهد الجديد « « ١٨٥٤
ماكول : الطرق القديمة
ماكرجور : على ضفاف الأردن
المسيا في لندن سنة ١٨٦٤
ميل : تفسير الأناجيل من الميثولوجي سنة ١٨٦١
معلمان : تاريخ المسيحية
مونود : (أدولف مونود) طفولة المسيح
مونك : فلسطين اخوان ديدوت باريس
نيندر : حياة يسوع المسيح سنة ١٨٦٩
اثو : تعاليم حاخامية
بيرسون : في العقيدة لندن سنة ١٨٣٩
بيررون . (جوان بيررون) ألوهية يسوع
المسيح تورن سنة ١٨٧٠
بلمتر . المسيح والمسيحيون لندن سنة ١٨٦٦
بورتر (ج . ل بورتر) مختصر لسوريا وفلسطين ١٨٦٨
راغال . تاريخ اليهود

ويلاند . تاريخ العبرانيين جزء ثالث سنة ١٧١٧
« . تاريخ الحاخاميين
رينان . حياة المسيح باريس « ١٨٦٧
« . ضد المسيح باريس « ١٨٧٣
روبنصون . المباحث الأثرية الخاصه بالانجيل
بوسطن سنه ١٨٥٦
سالفادور . يسوع وتعاليمه جزءان سنه ١٨٦١
سانداي . قانونيه الانجيل الرابع وطابعه
التاريخي لندن سنه ١٨٧٢
شينكل . شخصية يسوع لندن سنة ١٨٦٩
شيلوزنر . العهد الجديد ليتبرج « ١٨٠٨
شوتجن . الشعب العبراني درسدن « ١٧٣٣
سكوت . حياة يسوع
سكريفنر . بحث في نقد العهد الجديد « ١٨٦١
سيب . حياة يسوع ١٨٥٢ _ ١٨٦٢
سميث . قاموس الانجيل لندن سنة ١٨٦٠
ستانلي . سينا وفلسطين « ١٨٦٦
ستير . حياة يسوع أدنبره « ١٨٥٥
ستروس . حياة يسوع والجديد في حياة يسوع
لندن سنة ١٨٦٥
سورينهيوس . المشنة امستردام سنة ١٧٠٠
طومسون . أرض الكتاب نيويورك « ١٨٥٩
تيشندروف . مختصر البشائر ليتبرج « ١٨٧١
ترنشي . حول المعجزات طبعة تاسعه « ١٨٧٠
« . حول الأمثال « عاشرة « ١٨٦٦
« . عظة الجبل
« . مباحث في البشائر
طورين . العهد القديم في الجديد لندن
١٨٦٨ _ ١٨٧٢

أولمان . تاريخ يسوع طبعة سابعة سنة ١٨٦٣
« . « المسيح « ثانية « ١٨٦٦
واهنر . الآثار العبرية جزءان « ١٧٤٢
واجنزيل . تيلاجنيا جزءان التدورف « ١٨٦١
واللون . تاريخ مخلصنا يسوع المسيح « ١٨٦٥
وستكوت . مقدمه فى دراسة البشائر « ١٨٦٧
« . مميزات معجزات الأنجيل « ١٨٥٩
« . بشرى القيامة لندن « ١٨٦٦
وزل . ملخص البشائر الأربعة سنة ١٨٦٤
ويليمز . الميلاد لندن « ١٨٤٤
وينر . ويلور تربوش لينبرج « ١٨٤٧
« . قواعد اللغه فى العهد الجديد الطبعة السادسة سنة ١٨٦٦
وردسورت (الأسقف وردسورت) البشائر الأربعة الطبعه السابعه لندن سنه ١٨٧٠
يونج . مسيح التاريخ



جدول تصحيح الخطأ

صحيفة	سطر	الخطأ	الصواب
٣٧	٦	الأدمى	الادومى
٥٦	٣	كل يخالفه	كل من يخالفه
٦٩	٥	السبوت	فى السبوت
٧٠	١٢	نيقوديموس	لنيقوديموس
٧٧	١٤	كان	الذي كان
٨١	٤	نبوته	بنوته
٨٧	٨	تشامخهم	بتشامخهم
٩٠	٧	يسعر	يشعر
٩١	١٣	الا	لا
١٠٦	٥	بمجد	يمجد
١٠٦	١١	عن	عنه
١١٣	١١	بعلامة جيلة التطهير	كعلامة جيلة للتطهير
١٢٣	٧	أعدائه	اعداءه
١٥٠	٢١	الطريق	فى الطريق
١٦٣	٢١	المجد	الجو
١٦٩	٤	الا هيكله	الى هيكله
١٨٥	٢٠	التصميم	التعميم
١٨٧	٣	الناجحة	الناجمة
١٨٧	٢١	عين نون	عينون
٢٣٧	٣	ثانيا	ثانتا
٢٤١	٧	الأمر	الأوامر
٢٥١	١٧	لضبطوه	ليضبطوه
٣٠١	١٨	التخفيض	التخصيص
٣٠٤	١٠	قلب	قالب

صحيفة	سطر	الخطأ	الصواب
٣٢٥	٢	وينذرونهم	ويتدرونهم
٣٣٦	١٩	موطنوهم	مواطنوهم
٣٤٩	٢٣	ابناه	ابناء
٣٦٩	١	بعض	لبعض
٣٩٤	١	الناس	الناموس
٣٩٤	٧	حادثا	حادث
٣٩٤	٢٠	اغسطينون	اغسطينوس
٣٩٨	٧	تلاميذه	تلاميذك
٣٩٨	٢٠	الكوع	المرفق
٤٢٧	٦	رمز	رمزا
٥١٣	١٨	الفريدو	الفريدة
٥٣٣	١٩	رصيها	رصها
٥٣٧	٥	تجوا	تنحوا
٥٤٣	١٥	قواعت	قواعد
٥٤٨	١	كانوا	كان
٦٠١	١٦	ان	أن ابن
٦٠٣	١٧	كم	كما
٦٠٨	١٤	النظر	المنظر
٦١٤	١٩	طبيه	طبيعية
٦٢٩	٢٣	نقض	نقص
٦٤٥	٥	الناموس	الناموسى
٦٤٦	١٢	للناموس	للناموسى
٦٥٥	٩	اصل	أمل
٦٥٦	٩	فتحه	فتحته

صحيفة	سطر	الخطأ	الصواب
٦٧٣	١٠	السامية	الثمروة
٦٧٨	١٥	ثلاث	الثلاث
٦٨٦	١٩	نجس	نحس
٧٠٤	٢٢	اتفاق	اتفاق
٧٠٥	٦	والارتباح	والارتياع
٧٠٩	٤	بوم	بود
٧١٠	١٧	تماما	منطبقاً تماماً
٧١٢	٣	المضطرب	غير المضطرب
٧١٤	١	السلامة	السلامة لفعل
٧١٥	٢	نائما	نائم
٧١٨	١٠	ابنة	ابنته
٧٢٣	١٩	كانوا	ما كانوا
٧٣٩	٦	القانونية	قانونية
٧٤٨	١٥	المحامى	المحلى
٧٥٠	٤	طيبروبيون	طيبريون
٧٧٥	١٣	نأ يكون	ان يكون
٧٨٥	٨	تشنج	تشنج
٧٨٦	١٧	نخة	قحة
٧٨٧	٨	صروف	صرف
٧٨٩	١٩	الطوبارى	الطوناوى
٨٠٦	٣	ذكوه	ذكره
٨٠٦	١٧	يضلل	يفعل
٨٠٧	٢	يحب	يجب
٨٠٨	٢٢	هذه	هناك
٨٣٣	٨	ليس	اليس
٨٥٤	٩	الغرض	الفرض
٨٥٦	١٤	السابقة	السابعة
٨٥٦	١٦	السديد	الشديد
٨٥٦	١٩	ينطق	يطبق
٨٥٧	١٣	ان شماى	يقول شماى
٨٥٩	٢	متعقبين	متفقين
٨٦٠	٢	فكلمة	لكلمة
٨٦٥	٩	أولا	أو لا يجب
٨٦٧	٢١	الفطير لا الخمير	الخمير لا الفطير
٨٦٨	٣	عشية	مساء
٨٧٠	٢٠	مع	من
٨٧٥	٢	القطعة	النقطة
٨٧٥	١٤	عن	على
٨٧٧	١	المحاكمة	المملكة
٨٧٩	٦	الجكله	الجكالى
٨٧٩	١١	المتمسكين	المتمسكون
٨٨٨	٤	يتهمون	يتهمنوا
٨٩١	٦	الناموس	للثالوث
٩٠٠	١٢	توتية	توبته

